BOBST LIBRARY
3 1142 02749 9352



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

FD 77.3
a13
al-Khāzīn al-Baghdādī, 'Alī ...
Tafsīr al-Qurān
1004
FRONT
al-musama libāb al-ta'wīl fī ma'ānī al-tanzīl
V.3

(الجزء الثالث)

من تفسير القرآن الجليل

المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل

تأليف الشيخ الامام الحجة المقدم العلامة قدوة الامة

وعلم الائمة ناصر الشريعة ومحيي السنة

علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم

البغدادي الصوفي المعروف

بالخازن تغمده الله

برحمته

آمين

م

وقد حلى هامش هذا الكتاب بالتفسير المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل

تأليف الشيخ الامام الجليل القدوة السند العلامة ابي البركات عبدالله بن أحمد

ابن محمود النسفي عليه سحائب الرحمة والرضوان



Near East
BP
130
.4
.K36
V.3
C.1

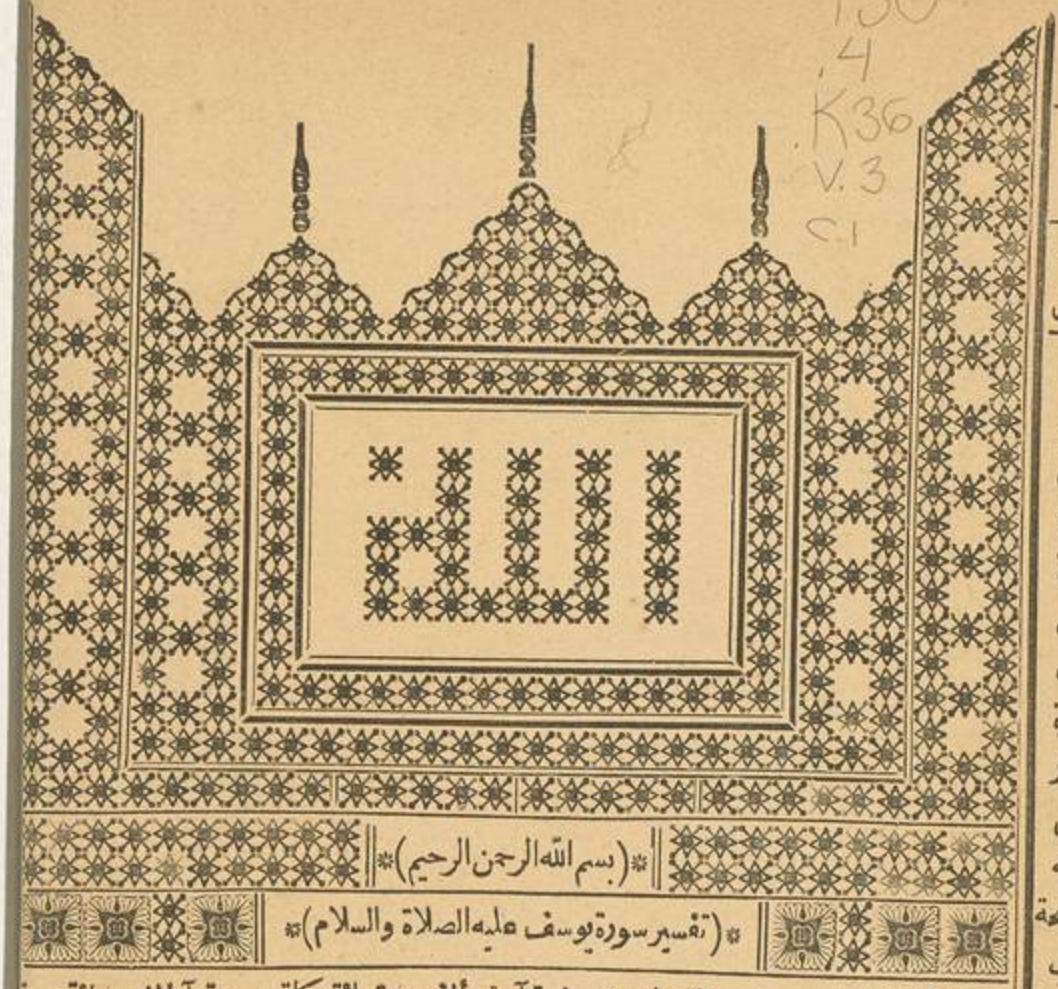

(سورة يوسف عليه السلام)

وهى مائة واحدى عشرة آية شامى واثنتا عشرة مكى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر تلك آيات الكتاب المبين) تلك اشارة الى آيات هذه السورة والكتاب المبين السورة اى تلك الآيات التى أنزلت اليك فى هذه السورة آيات السورة الظاهر امرها فى اعجاز العرب او التى تبين لمن تدبرها انها من عند الله لا من عند البشر او الواضحة التى لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم او قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف عليه السلام فقد روى ان علماء اليهود قالوا للمشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام (انا أنزلناه قرآنا عربيا) اى انزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف عليه السلام فى حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا لانه اسم جنس يقع على كله وبعضه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تفسير سورة يوسف عليه الصلاة والسلام)

وهى مكية باجماعهم وهى مائة واحدى عشرة آية وألف وستمائة كلمة وسبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفا قال ابن الجوزى رحمه الله تعالى وفى سبب نزولها قولان أحدهما روى عن سعد ابن ابى وقاص رضى الله عنه قال لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاه عليهم زمانا فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فانزل الله عز وجل الله نزل أحسن الحديث فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فانزل الله تعالى الر تلك آيات الكتاب المبين الى قوله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص القول الثانى رواه الضحاك عن ابن عباس قال سألت اليهود النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فانزل الله عز وجل الر تلك آيات الكتاب المبين الآيات الكريمة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

*قوله عز وجل (الر) تقدم تفسيره فى اول سورة يونس عليه الصلاة والسلام (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة اى تلك الآيات التى أنزلت اليك فى هذه السورة المسماة بالر هذه (آيات الكتاب المبين) وهو القرآن اى البين حلاله وحرامه وحدوده واحكامه وقال قتادة مبين بينه الله بركته وهداه ورشده فهذا من بان اى ظهر وقال الزجاج مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر وقيل انه يبين فيه قصص الاولين وشرح احوال المتقدمين (انا أنزلناه) يعنى هذا الكتاب (قرآنا عربيا) اى انزلناه بلغتكم لكى تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه وقيل لما قالت اليهود لمشركى مكة سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم عن امر يعقوب وقصة يوسف وكانت عند اليهود بالعبرانية

فانزل

THE PAGES IN THIS VOLUME HAVE
BEEN INTERLEAVED WITH AN ACID
FREE PAPER TO PERMIT BINDING
AND TO REDUCE FURTHER DETERI-
ORATION.

(لعلكم تعقلون) لكى تفهموا معانيه ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا ولا فصلت آياته (نحن نقص عليك احسن القصص) نبين لك احسن البيان والقاص الذى يأتى بالقصة على حقيقتها عن الزجاج وقيل القصص يكون مصدرا بمعنى الاقتصاص تقول قص الحديث يقصه قصصا فيكون فعلا بمعنى مفعول كالنقض والحسب فعلى الاول معناه نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص (بما أوحينا اليك هذا القرآن) اى بايحائنا اليك هذه السورة على ان يكون أحسن منصوبا بنصب المصدر لاضافته اليه والمقصوص محذوف لان بما أوحينا اليك هذا القرآن مغن عنه والمراد باحسن الاقتصاص انه اقتص على ابدع طريقة ٣ واعجب اسلوب فانك لا ترى اقتصاصه

فانزل الله هذه السورة وذكر فيها قصة يوسف بالعربية لتفهمها العرب ويعرفوا معانيها والتقدير انا انزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه عربيا فعلى هذا القول يجوز اطلاق اسم القرآن على بعضه لانه اسم جنس يقع على الكل والبعض واختلف العلماء هل يمكن أن يقال فى القرآن شئ بغير العربية فقال ابو عبيدة من زعم ان فى القرآن لسانا غير العربية فقد قال بغير الحق واعظم على الله القول واحتج بهذه الآية انا انزلناه قرآنا عربيا وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العربية مثل سجيل والمشكاة واليم واستبرق ونحو ذلك وهذا هو الصحيح المختار لان هؤلاء أعلم من ابى عبيدة بلسان العرب وكلا القولين صواب ان شاء الله تعالى ووجه الجمع بينهما ان هذه الالفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية صحيحة وان كانت غير عربية فى الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم وصارت لهم لغة فظهر بهذا البيان صحة القولين وأمكن الجمع بينهما (لعلكم تعقلون) يعنى تفهمون ايها العرب لانه نازل بلغتكم قوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) الاصل فى معنى القصص اتباع الخبر بعضه بعضا والقاص هو الذى يأتى بالخبر على وجهه وأصله فى اللغة من قص الاثر اذا تتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيأ فشيأ والمعنى نحن نبين لك يا محمد أخبار الامم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان وقيل المراد منه قصة يوسف عليه الصلاة والسلام خاصة وانما سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التى تصلح للدين والدنيا ومافيها من سير الملوك والممالك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الاعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك من الفوائد المذكورة فى هذه السورة الشريفة قال خالد بن معدان سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما اهل الجنة فى الجنة وقال عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها وقوله تعالى (بما أوحينا اليك) يعنى بايحائنا اليك يا محمد (هذا القرآن وان كنت) اى وقد كنت (من قبله) يعنى من قبل وحينا اليك (لمن الغافلين) يعنى عن هذه القصة ومافيها من العجائب قال سعد بن ابى وقاص أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فانزل الله عز وجل الله نزل احسن الحديث فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فانزل الله تعالى نحن نقص عليك احسن القصص فقالوا يا رسول الله لو ذكرتنا فانزل الله عز وجل ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله * قوله عز وجل (اذ قال يوسف لأبيه) اى اذكر يا محمد لقومك قول يوسف لابيه يعقوب بن اسحق بن ابراهيم صلى الله وسلم عليه وعليهم اجمعين (خ) عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ويوسف اسم عبرى ولذلك لا يجرى فيه الصرف وقيل هو عربى سئل ابو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف أشد الحزن والاسيف العبد واجتمعا فى يوسف فسمى به (يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر

فى كتب الاولين مقاربا لاقتصاصه فى القرآن وان اريد بالقصص المقصوص فمعناه نحن نقص عليك احسن ما يقص من الاحاديث وانما كان أحسن لما يتضمن من العبر والحكم والعجائب التى ليست فى غيره والظاهر انه احسن ما يقتص فى بابه كما يقال فلان اعلم الناس اى فى فنه واشتقاق القصص من قص اثره اذا تبعه لان الذى يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيأ فشيأ (وان كنت من قبله) الضمير يرجع الى ما أوحينا (لمن الغافلين) عنه ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية يعنى وان الشأن والحديث كنت من قبل ايحائنا اليك من الجاهلين به (اذ قال) بدل اشتمال من أحسن القصص لان الوقت مشتمل على القصص او التقدير اذكر اذ قال (يوسف) اسم عبرانى

لاعربى اذ لو كان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف (لأبيه) يعقوب (يا أبت) ابت شامى وهى تاء تأنيث عوضت عن ياء الاضافة لتناسبهما لان كل واحدة منهما زائدة فى آخر الاسم ولهذا قلبت هاء فى الوقف وجاز الحاق تاء التأنيث بالمذكر كما فى رجل ربعة وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ومن فتح التاء فقد حذف الالف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الياء فى يا غلام (انى رأيت) من الرؤيا لا من الرؤية (أحد عشر كوكبا) اسماؤها بيان النبى عليه السلام جريان والذيال والطارق وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكنفين (والشمس والقمر) هما أبواه او ابوه وخالته والكواكب اخوته

قيل الواو بمعنى مع اى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر واجريت مجرى العقلاء فى (رأيتهم لى ساجدين) لانه وصفها بما هو المختص بالعقلاء وهو السجود وكررت الرؤيا لان الاولى تتعلق بالذات والثانية بالحال او الثانية كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابا له كان أباه قال له كيف رأيتها فقال رأيتهم لى ساجدين اى متواضعين وهو حال وكان ابن ثنتى عشرة سنة يومئذ وكان بين رؤيا يوسف ومسير اخوته اليه اربعون سنة او ثمانون (قال يابنى) بالفتح حيث كان حفص (لا تقصص رؤياك) هى بمعنى الرؤية الا انها مختصة بما كان منها فى المنام دون اليقظة وفرق بينهما بحرف التأنيث كما فى القربة والقربى (على اخواتك فيكيدوا لك) جواب النهى اى ان قصصتها عليهم كادوك عرف يعقوب عليه السلام ان الله يصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه حسد الاخوة وانما لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدونى لانه ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع افادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وابلغ فى التخويف وذلك نحو فيحتالوا لك الا ترى الى تأكيده بالمصدر وهو (كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين) ظاهر العداوة فيحملهم على الحسد والكيد على

رأيتهم لى ساجدين) معناه قال اهل التفسير رأى يوسف فى منامه كأن أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجد وا له وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر وكان النجوم فى التأويل اخوته وكانوا أحد عشر رجلا يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس ابوه والقمر أمه فى قول قتادة وقال السدى القمر خالته لان أمه راحيل كانت قد ماتت وقال قتادة وابن جريج القمر أبوه والشمس أمه لان الشمس مؤنثة والقمر مذكر وكان يوسف عليه الصلاة والسلام ابن اثنتى عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وقيل سبع سنين واراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت امره وقيل اراد به حقيقة السجود لانه كان فى ذلك الزمان التحية فيما بينهم السجود فان قلت ان الكواكب جماد لا تعقل فكيف عبر عنها بكناية من يعقل فى قوله رأيتهم ولم يقل رأيتها وقوله ساجدين ولم يقل ساجدات قلت لما اخبر عنها بفعل من يعقل وهو السجود كنى عنها بكناية من يعقل فهو كقوله يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم وقيل ان الفلاسفة والمنجمين يزعمون ان الكواكب احياء نواطق حساسة فيجوز أن يعبر عنها بكناية من يعقل وهذا القول ليس بشئ والاول أصح فان قلت قد قال انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر ثم اعاد لفظ الرؤيا ثانيا فقال رأيتهم لى ساجدين فما فائدة هذا التكرار قلت معنى الرؤيا الاولى انه رأى اجرام الكواكب والشمس والقمر ومعنى الرؤيا الثانية انه اخبر بسجودها له وقال بعضهم معناه انه لما قال انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر فكأنه قيل له وكيف رأيت قال رأيتهم لى ساجدين وانما افرد الشمس والقمر بالذكر وان كانا من جملة الكواكب للدلالة على فضلهما وشرفهما على سائر الكواكب قال اهل التفسير ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان شديد الحب ليوسف عليه الصلاة والسلام فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما راى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها ان اخوته وابويه يخضعون له فلهذا (قال) يعقوب (يابنى لا تقصص رؤياك على اخوتك) يعنى لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها (فيكيدوا لك كيدا) اى فيحتالوا فى اهلاكك فامره بكتمان رؤياه عن اخوته لان رؤيا الانبياء وحى وحق واللام فى فيكيدوا لك كيدا تأكيد للصلة كقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك (ان الشيطان للانسان عدو مبين) يعنى انه بين العداوة لان عداوته قديمة فهم ان اقدموا على الكيد كان ذلك مضافا الى تزيين الشيطان ووسوسته (ق) عن ابى قتادة قال كنت ارى الرؤيا تمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان فاذا رأى احدكم ما يحب فلا يحدث بها الا من يحب واذا رأى احدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فانها لن تضره (خ) عن ابى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى احدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هى من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرها ولا يذكرها لاحد فانها لن تضره (م) عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى احدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثا وليتحول عن جنبه الذى كان عليه عن ابى رزين العقيلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا المؤمن جزء من اربعين وفى رواية جزء من ستة واربعين جزأ من النبوة وهى على رجل طائر ما لم يحدث بها فاذا حدث بها سقطت قال واحسبه قال ولا يحدث بها الا لبيبا او حبيبا اخرجه الترمذى ولابى داود نحوه قال الشيخ محيى الدين النووى قال المازرى مذهب اهل السنة فى حقيقة الرؤيا ان الله تعالى يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فاذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علما على أمور أخر يجعلها فى ثانى الحال والجميع خلق الله تعالى ولكن يخلق الرؤيا والاعتقادات التى يجعلها علما

(وكذلك) ومثل ذلك الاجتباء الذى دلت عليه رؤياك (يجتبيك ربك) يصطفيك والاجتباء والاصطفاء افتعال من جبيت الشئ اذا حصلته لنفسك وجبيت الماء فى الحوض جمعته (ويعلمك) كلام مبتدا غير داخل ○ فى حكم التشبيه كانه قيل وهو يعلمك

على ما يسر بغير حضرة الشيطان فاذا خلق ما هو علم على ما يضر يكون بحضرة الشيطان فينسب الى الشيطان مجازا وان كان لا فعل له فى الحقيقة فهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم الرؤيا من الله والحلم من الشيطان لا على ان الشيطان يفعل شيأ والرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه وقال غيره اضافة الرؤيا المحبوبة الى الله تعالى اضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وان كانتا جميعا من خلق الله وتدبيره وارادته ولا فعل للشيطان فيها ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب اذا رأى الرجل فى منامه ما يحب ان يحدث به من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها وليتفل ثلاثا وليتحول الى جنبه الآخر فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب سببا للسلامة من المكروه كما جعل الصدقة سببا لوقاية المال وغيره من البلاء والله أعلم قوله تعالى (وكذلك يجتبيك ربك) يعنى يقول يعقوب ليوسف عليه الصلاة والسلام اى وكما رفع منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يجتبيك ربك يعنى يصطفيك ربك واجتباء الله تعالى العبد تخصيصه اياه بفيض الهى تحصل له منه أنواع الكرامات بلا سعى من العبد وذلك مختص بالانبياء او ببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين (ويعلمك من تأويل الاحاديث) يعنى به تعبير الرؤيا سمى تأويلا لانه يؤل أمره الى ما رأى فى منامه يعنى يعلمك تأويل احاديث الناس فيما يرونه فى منامهم وكان يوسف عليه الصلاة والسلام اعلم الناس بتعبير الرؤيا وقال الزجاج تأويل احاديث الانبياء والامم السالفة والكتب المنزلة وقال ابن زيد يعلمك العلم والحكمة (ويتم نعمته عليك) يعنى بالنبوة قاله ابن عباس لان منصب النبوة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبياء فهذا من اتمام النعمة عليهم لان جميع الخلق دونهم فى المراتب والمناصب (وعلى آل يعقوب) المراد بآل يعقوب اولاده فانهم كانوا انبياء وهو المراد من اتمام النعمة عليهم (كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق) بان جعلهما نبيين وهو المراد من اتمام النعمة عليهما وقيل المراد من اتمام النعمة على ابراهيم صلى الله عليه وسلم بان خلصه الله من النار واتخذه خليلا والمراد من اتمام النعمة على اسحق بان خلصه الله من الذبح وهذا على قول من يقول ان اسحق هو الذبيح وليس بشئ والقول الاول هو الاصح بان اتمام النعمة عليهما بالنبوة لانه لا اعظم من منصب النبوة فهو من اعظم النعم على العبد (ان ربك عليم) يعنى بمصالح خلقه (حكيم) يعنى انه تعالى لا يفعل شيأ الا بحكمة وقيل انه تعالى حكم بوضع النبوة فى بيت ابراهيم صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس رضى الله عنهما كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصر واجتماعه بابويه واخوته اربعون سنة وهذا قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصرى كان بينهما ثمانون سنة فلما بلغت هذه الرؤيا اخوة يوسف حسدوه وقالوا ما رضى ان يسجد له اخوته حتى يسجد له أبواه قوله عز وجل (لقد كان فى يوسف واخوته) يعنى فى خبره وخبر اخوته وأسماؤهم روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوى ويهوذا وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهى ابنة خال يعقوب وولد ليعقوب من سريتين اسم احداهما زلفة والاخرى بلهة اربعة اولاد واسماؤهم دان ونفتالى وجاد وآشر ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو يعقوب وهم الاسباط وعددهم اثنا عشر نفرا (آيات للسائلين) وذلك ان اليهود لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان الى أرض مصر ذكر قصة يوسف مع اخوته فوجدوها موافقة لما فى التوراة فعجبوا منه فعلى هذا تكون هذه القصة دالة على

(من تأويل الاحاديث) اى تأويل الرؤيا وتأويلها عبارتها وتفسيرها وكان يوسف اعبر الناس للرؤيا او تأويل احاديث الانبياء وكتب الله وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع احدوثة (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) بان وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة اى جعلهم انبياء فى الدنيا وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلا فى الجنة وآل يعقوب اهله وهم نسله وغيرهم وأصل آل اهل بدليل تصغيره على اهيل الا انه لا يستعمل الا فيمن له خطر يقال آل النبى وآل الملك ولا يقال آل الحجام ولكن اهله وانما علم يعقوب ان يوسف يكون نبيا واخوته انبياء استدلالا بضوء الكواكب فلذا قال وعلى آل يعقوب (كما أتمها على أبويك من قبل) اراد الجد وأبا الجد (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك (ان ربك عليم) يعلم من يحق له الاجتباء (حكيم) يضع الاشياء مواضعها (لقد كان) اى فى يوسف واخوته

فى قصتهم وحديثهم (آيات) علامات ودلالات على قدرة الله وحكمته فى كل شئ آية مكى (للسائلين) لمن سأل عن قصتهم وعرفها او آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها فاخبرهم من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب واسماؤهم يهوذا وروبين وشمعون ولاوى وزبولون ويشجر وامهم ليا بنت ليان ودان ونفتالى وجاد وآشر من سريتين زلفة وبلهة فلما توفيت ليا تزوج أختها

راحيل فولدت له بنيامين ويوسف (اذقالوا ليوسف واخوه احب الى أبينا منا) اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة
ارادوا ان زيادة محبته لهما امر ثابت ٦ لاشبهة فيه وانما قالوا واخوه وهم اخوته أيضا لان امهما كانت واحدة وانما قيل أحب فى

نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء والاحبار ولم يأخذ عن احد منهم شيأ فدل ذلك على ان ما أتى به وحى سماوى وعلم قدسى اوحاه الله اليه وشرفه به ومعنى آيات للسائلين اى عبرة للمعتبرين فان هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم ومنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد اخوته له وما آل اليه أمرهم من الحسد ومنها صبر يوسف على اخوته وبلواه مثل القائه فى الجب وبيعه عبدا وسجنه بعد ذلك وما آل اليه أمره من الملك ومنها ما تشتمل عليه من حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التى اذا فكر فيها الانسان اعتبر واتعظ (اذقالوا) يعنى اخوة يوسف (ليوسف) اللام فيه لام القسم تقديره والله ليوسف (واخوه) يعنى بنيامين وهما من أم واحدة (أحب الى أبينا منا ونحن عصبة) انما قالوا هذه المقالة حسدا منهم ليوسف وأخيه لما رأوا من ميل يعقوب اليه وكثرة شفقته عليه والعصبة الجماعة وكانوا عشرة قال الفراء العصبة هى العشرة فما زاد وقيل هى ما بين الواحد الى العشرة وقيل ما بين الثلاثة الى العشرة وقال مجاهد هى ما بين العشرة الى خمسة عشر وقيل الى الاربعين وقيل الاصل فيه ان كل جماعة يتعصب بعضهم ببعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها كالرهط والنفر (ان أبانا لفى ضلال مبين) يعنى لفى خطا بين فى ايثاره حب يوسف علينا مع صغره لا نفع فيه ونحن عصبة ننفعه ونقوم بمصالحه من أمر دنياه واصلاح أمر معاشه وليس المراد من ذكر هذا الضلال الضلال عن الدين اذ لو أرادوا ذلك لكفروا به ولكن أرادوا به الخطأ فى أمر الدنيا وما يصلحها يقولون نحن أنفع له من يوسف فهو مخطئ فى صرف محبته اليه لانا أكبر منه سنا وأشد قوة وأكثر منفعة وغاب عنهم المقصود الاعظم وهو ان يعقوب عليه الصلاة والسلام ما فضل يوسف وأخاه على سائر الاخوة الا فى المحبة المحضة ومحبة القلب ليس فى وسع البشر دفعها ويحتمل ان يعقوب انما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لان أمه ماتت وهو صغير اولانه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة ما لم يره فى سائر اخوته فان قلت الذى فعله اخوة يوسف بيوسف هو محض الحسد والحسد من امهات الكبائر وكذلك نسبة أبيهم الى الضلال هو محض العقوق وهو من الكبائر أيضا وكل ذلك قادح فى عصمة الانبياء فما الجواب عنه قلت هذه الافعال انما صدرت من اخوة يوسف قبل ثبوت النبوة لهم والمعتبر فى عصمة الانبياء هو وقت حصول النبوة لا قبلها وقبل كانوا وقت هذه الافعال مراهقين غير بالغين ولا تكليف عليهم قبل البلوغ فعلى هذا لم تكن هذه الافعال قادحة فى عصمة الانبياء قوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف (اقتلوا يوسف او اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) لما قوى الحسد وبلغ النهاية قال اخوة يوسف فيما بينهم لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل الا باحد طريقين اما القتل مرة واحدة او التغريب الى أرض يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه بان تفترسه الاسد والسباع او يموت فى تلك الارض البعيدة ثم ذكروا العلة فى ذلك وهى قوله يخل لكم وجه أبيكم والمعنى انه قد شغله حب يوسف عنكم فاذا فعلتم ذلك بيوسف أقبل يعقوب بوجهه عليكم وصرف محبته اليكم (وتكونوا من بعده) يعنى من بعد قتل يوسف او ابعاده عن أبيه (قوما صالحين) يعنى تائبين فتوبوا الى الله يعف عنكم فتكونوا قوما صالحين وذلك انهم لما علموا ان الذى عزموا عليه من الذنوب الكبائر قالوا نتوب الى الله من هذا الفعل ونكون من الصالحين فى المستقبل وقال مقاتل معناه يصلح لكم أمركم فيما بينكم وبين أبيكم فان قلت كيف يليق ان تصدر هذه الافعال منهم وهم أنبياء قلت الجواب ما تقدم انهم لم يكونوا أنبياء فى ذلك

الاثنين لان أفعل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث ولا بد من الفرق مع لام التعريف واذا أضيف ساغ الامران والواو فى (ونحن عصبة) للحال اى انه يفضلهما فى المحبة علينا وهما صغيران لا كفاية فيهما ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقه فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما (ان أبانا لفى ضلال مبين) غلط فى تدبير أمر الدنيا ولو وصفوه بالضلالة فى الدين لكفروا والعصبة العشرة فصاعدا (اقتلوا يوسف) من جملة ما حكى بعد قوله اذ قالوا كانهم اطبقوا على ذلك الا من قال لا تقتلوا يوسف وقيل الآمر بالقتل شمعون والباقون كانوا راضين فعلوا آمرين (او اطرحوه أرضا) منكورة مجهولة بعيدة عن العمران وهو معنى تنكيرها واخلائها عن الوصف ولهذا الابهام نصبت نصب الظروف المبهمة (يخل لكم وجه أبيكم) يقبل عليكم اقبالة واحدة لا يلتفت عنكم الى غيركم والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم لان الرجل اذا اقبل الوقت على الشئ أقبل بوجهه وجاز ان يراد بالوجه الذات كما قال ويبقى وجه ربك (وتكونوا) مجزوم عطفا على يخل لكم (من بعده) من بعد يوسف اى من بعد كفايته بالقتل او التغريب او من بعد قتله او طرحه فيرجع الضمير الى مصدر اقتلوا أو اطرحوا (قوما صالحين)

الوقت حتى تكون هذه الافعال قادحة فى عصمة الانبياء وانما أقدموا على هذه الافعال قبل النبوة وقيل ان الذى أشار بقتل يوسف كان أجنبيا شاوروه فى ذلك فأشار عليهم بقتله (قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف) يعنى قال قائل من اخوة يوسف وهو يهوذا وقال قتادة هو روبيل وهو ابن خالته وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا فيه فنهاهم عن قتله وقال القتل كبيرة عظيمة والاصح ان قائل هذه المقالة هو يهوذا لانه كان أقربهم اليه سنا (وألقوه فى غيابت الجب) يعنى ألقوه فى أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيأ وغيبه عن النظر والجب البئر الكبيرة غير مطوية سمى بذلك لانه جب اى قطع ولم يطو وأفاد ذكر الغيابة مع ذكر الجب ان المشير أشار بطرحه فى موضع من الجب مظلم لا يراه أحد واختلفوا فى مكان ذلك الجب فقال قتادة هو بئر بيت المقدس وقال وهب هو فى ارض الاردن وقال مقاتل هو فى أرض الاردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وانما عينوا ذلك الجب للعلة التى ذكروها وهى قولهم (يلتقطه بعض السيارة) وذلك ان هذا الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين والالتقاط أخذ الشئ من الطريق اومن حيث لا يحتسب ومنه اللقطة بعض السيارة يعنى يأخذه بعض المسافرين فيذهب به الى ناحية أخرى فتستريحون منه (ان كنتم فاعلين) فيه اشارة الى ترك الفعل فكانه قال لاتفعلوا شيأ من ذلك وان عزمتم على هذا الفعل فافعلوا هذا القدر ان كنتم فاعلين ذلك قال البغوى كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء الا بعده وقيل لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل انهم قالوا وتكونوا من بعده قوما صالحين وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين والصغير لا ذنب له قال محمد بن اسحق اشتمل فعلهم هذا على جرائم كثيرة من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذى لا ذنب له والغدر بالامانة وترك العهد والكذب مع أبيهم وعفا الله عن ذلك كله حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى وقال بعض أهل العلم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعا وكل ذلك كان قبل ان نباهم الله فلما اجمعوا على التفريق بين يوسف وبين والده بضرب من الحيل (قالوا) يعنى قال اخوة يوسف ليعقوب (يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف) بدؤا بالانكار عليه فى ترك ارسال يوسف معهم كأنهم قالوا أتخافنا عليه اذا أرسلته معنا (وانا له لناصحون) المراد بالنصح هنا القيام بالمصلحة وقيل البر والعطف والمعنى وانا لعاطفون عليه قائمون بمصلحته و بحفظه وقال مقاتل فى الكلام تقديم وتأخير وذلك انهم قالوا لابيهم أرسله معنا فقال يعقوب انى ليحزننى أن تذهبوا به فحينئذ قالوا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون ثم قالوا (أرسله معنا غدا) يعنى الى الصحراء (نرتع) الرتع هو الاتساع فى الملاذ يقال رتع فلان فى ماله اذا أنفقه فى شهواته والاصل فى الرتع أكل البهائم فى الخصب زمن الربيع ويستعار للانسان اذا أريد به الاكل الكثير (ونلعب) اللعب معروف قال الراغب يقال لعب فلان اذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا سئل أبو عمرو بن العلاء كيف قالوا نلعب وهم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ انبياء ويحتمل أن يكون المراد باللعب هنا الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لجابر رضى الله عنه هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وأيضا فان لعبهم كان الاستباق وهو غرض صحيح مباح لما فيه من المحاربة والاقدام على الاقران فى الحرب بدليل قوله نستبق وانما سموه لعبا لانه فى صورة اللعب وقيل معنى نرتع ونلعب نتنعم ونأكل ونلهو وننشط (وانا له لحافظون) يعنى نجتهد فى حفظه غاية الاجتهاد حتى نرده اليك سالما (قال) يعنى قال لهم يعقوب عليه الصلاة والسلام (انى ليحزننى أن تذهبوا به) اى ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ومعنى الآية انه لما طلبوا منه أن يرسل معهم يوسف عليه الصلاة والسلام اعتذر يعقوب عليه الصلاة والسلام بعذرين أحدهما ان ذهابهم به ومفارقته اياه يحزنه لانه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة والثانى قوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) يعنى اذا غفلوا عنه برعيهم

فان القتل عظيم (وألقوه فى غيابت الجب) فى قعر البئر وما غاب منه عن عين الناظر غيابات وكذا ما بعده مدنى (يلتقطه بعض السيارة) بعض الاقوام الذين يسيرون فى الطريق (ان كنتم فاعلين) به شيأ (قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون) اى لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته فى حفظه منهم وفيه دليل على انه احس منهم بما اوجب ان لا يأمنهم عليه (ارسله معنا غدا نرتع) تتسع فى أكل الفواكه وغيرها والرتعة السعة (ونلعب) نتفرج بما يباح كالصيد والرمى والركض بالياء فيهما مدنى وكوفى وبالنون فيهما مكى وشامى وابو عمرو وبكسر العين حجازى من ارتعى يرتعى افتعال من الرعى (وانا له لحافظون) من أن يناله مكروه (قال انى ليحزننى أن تذهبوا به) اى يحزننى ذهابكم به واللام لام الابتداء (واخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) اعتذر اليهم

بان ذهابهم به مما يحزنه لانه كان لا يصبر عنه ساعة وانه يخاف عليه من عدوة الذئب اذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم

(قالوا لئن اكله الذئب) اللام موطئة للقسم والقسم محذوف تقديره والله لئن اكله الذئب والواو في (ونحن عصبة) اى فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع للحال (انا اذا لخاسرون) جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط اى ان لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا اذا وخسرناها واجابوا عن عذره الثانى دون الاول لان ذلك كان يغيظهم (فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه فى غيابت الجب) اى عزموا على القائه فى البئر وهى بئر على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام وجواب لما محذوف تقديره فعلوا به ما فعلوا من الاذى فقد روى انهم لما برزوا به الى البرية اظهروا له العداوة وضربوه وكادوا يقتلونه فمنعهم يهوذا فلما ارادوا القاءه فى الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم فيحتالوا به على ابيهم ودلوه فى البئر وكان فيها ماء فسقط فيه ثم اوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكى وكان يهوذا يأتيه بالطعام ويروى ان ابراهيم عليه السلام حين القى فى النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة علقها فى عنق يوسف فاخرجه جبريل والبسه اياه ويا قربا

ولعبهم وذلك أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان رأى فى المنام أن ذئبا شد على يوسف عليه الصلاة والسلام فكان يعقوب يخاف عليه من ذلك وقيل كانت الذئاب فى أرضهم كثيرة (قالوا) يعنى قال اخوة يوسف مجيبين ليعقوب (لئن أكله الذئب ونحن عصبة) اى جماعة عشرة رجال (انا اذا لخاسرون) يعنى عجزة ضعفاء وقيل انهم خافوا أن يدعوا عليهم يعقوب بالخسار والبوار وقيل معناه انا اذا لم نقدر على حفظ أخينا فكيف نقدر على حفظ مواشينا فنحن اذا خاسرون قوله عز وجل (فلما ذهبوا به) فيه اضمار واختصار تقديره فارسله معهم فلما ذهبوا به (وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب) يعنى وعزموا على أن يلقوه فى غيابة الجب

(ذكر قصة ذهابهم بيوسف عليه الصلاة والسلام)

قال وهب وغيره من أهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له أما تشتاق أن تخرج معنا الى مواشينا فنصيد ونستبق قال بلى قالوا له أنسأل أباك أن يرسلك معنا قال يوسف افعلوا فدخلوا بجماعتهم على يعقوب فقالوا يا أبانا ان يوسف قد أحب أن يخرج معنا الى مواشينا فقال يعقوب ما تقول يا بنى قال نعم يا أبت انى أرى من اخوتى اللين واللطف فاحب أن تأذن لى وكان يعقوب يكره مفارقته و يحب مرضاته فاذن له وأرسله معهم فلما خرج جوابه من عند يعقوب جعلوا يحملونه على رقابهم و يعقوب ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى الصحراء ألقوه على الارض وأظهروا له ما فى أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء الى واحد منهم واستغاث به ضربه فلما فطن لما عزموا عليه من قتله جعل ينادى يا أبتاه يا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من اخوته لاحزنك ذلك وابكاك يا أبتاه ما اسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك وجعل يبكى بكاء شديدا فاخذه رو بيل و جلد به الارض ثم جثم على صدره وارادقتله فقال له يوسف مهلا يا اخى لا تقتلنى فقال له يا ابن راحيل انت صاحب الاحلام قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله فى وحل بينى و بين من يريد قتلى فادركته رحمة الاخوة ورق له فقال يهوذا يا اخوة ما على هذا عاهدتمونى ألا أدلكم على ما هو اهون لكم وأرفق به فقالوا وما هو قال تلقونه فى هذا الجب اما أن يموت او يلتقطه بعض السيارة فانطلقوا به الى بئر هناك على غير الطريق واسع الاسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه فى البئر فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا اخوتاه ردوا على قميصى لاستتر به فى الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال انى لم أر شيأ فألقوه فيها ثم قال لهم يا اخوتاه أتدعونى فيها فريدا وحيدا وقيل جعلوه فى دلو ثم ارسلوه فيها فلما بلغ نصفها القوه ارادة ان يموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم اوى الى صخرة كانت فى البئر فقام عليها وقيل نزل عليه ملك فحل يديه واخرج له صخرة من البئر فاجلسه عليها وقيل انهم لما ألقوه فى الجب جعل يبكى فنادوه فظن انها رحمة أدركته فأجابهم فأرادوا ان يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وقيل ان يعقوب لما بعثه مع اخوته اخرج له قميص ابراهيم الذى كساه الله اياه من الجنة حين القى فى النار فجعله يعقوب فى قصبة فضة وجعلها فى عنق يوسف فالبسه الملك اياه حين ألقى فى الجب فأضاء له الجب وقال الحسن لما ألقى يوسف فى الجب عذب ماؤه فكان يكفيه عن الطعام والشراب ودخل عليه جبريل فانس به فلما أمسى نهض جبريل ليذهب فقال له انك اذا خرجت استوحشت فقال له اذا رهبت شيأ فقل يا صريخ المستصرخين و يا غوث المستغيثين و يا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكانى وتعلم حالى ولا يخفى عليك شئ من أمرى فلما قالها يوسف حفته الملائكة واستأنس فى الجب وقال محمد بن مسلم الطائفى لما ألقى يوسف فى الجب قال يا شاهدا غير غائب

(واوحينا اليه) قيل اوحى اليه فى الصغر كما اوحى الى يحيى وعيسى عليهما السلام وقيل كان اذذاك مدركا (لتنبئنهم بامرهم هذا) اى تحدثن اخوتك بما فعلوا بك (وهم لا يشعرون) انك يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وذلك انهم حين دخلوا عليه ممتارين عرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام انه كان لكم اخ من ابيكم يقال له يوسف انكم القيتموه فى غيابة الجب وقلتم لابيه اكله الذئب وبعتموه بثمن بخس اوبتعلق ٩ وهم لا يشعرون باوحينا اى آنسناه بالوحى وازلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون ذلك (وجاؤا اباهم عشاء) للاستتار والتجسر على الاعتذار (يبكون) حال عن الاضمر لاتصدق باكية بعد اخوة يوسف فلما سمع صوتهم فزع وقال مالكم يا بنى هل اصابكم فى غنمكم شئ قالوا لا قال فما بالكم وابن يوسف (قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق) اى نتسابق فى العدو اوفى الرمى والافتعال والتفاعل يشتركان كالارتماء والترامى وغير ذلك (وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب وما انت بمؤمن لنا) بمصدق لنا (ولو كنا صادقين) ولو كنا عندك من اهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وانت سيئ الظن بنا غير واثق بقولنا (وجاؤا على قميصه بدم كذب) ذى كذب ووصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته روى انهم ذبحوا

ويا قربيا غير بعيد ويا غالبا غير مغلوب اجعل لى فرجا مما انا فيه فغابات فيه واختلفوا فى قدر عمر يوسف يوم القى فى الجب فقال الضحاك ست سنين وقال الحسن اثنتا عشرة سنة وقال ابن السائب سبع عشرة سنة وقيل ثمان عشرة سنة وقيل مكث فى الجب ثلاثة ايام وكان اخوته يرعون حوله وكان يهوذا يأتيه بالطعام فذلك قوله تعالى (واوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا) يعنى لتخبرن اخوتك قال اكثر المفسرين ان الله اوحى اليه وحيا حقيقة فبعث اليه جبريل يؤنسه ويبشره بالخروج ويخبره انه سينبئهم بما فعلوا ويجازيهم عليه هذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا هل كان بالغا فى ذلك الوقت او كان صبيا صغيرا فقال بعضهم انه كان بالغا وكان عمره خمس عشرة سنة وقال آخرون بل كان صغيرا الا ان الله عز وجل اكمل عقله ورشده وجعله صالحا لقبول الوحى والنبوة كما قال فى حق عيسى عليه الصلاة والسلام فان قلت كيف جعله نبيا فى ذلك الوقت ولم يكن احد يبلغه رسالة ربه لان فائدة النبوة والرسالة تبليغها الى من ارسل اليه قلت لا يمتنع ان الله يشرفه بالوحى ويكرمه بالنبوة والرسالة فى ذلك الوقت وفائدة ذلك تطييب قلبه وازالة الهم والغم والوحشة عنه ثم بعد ذلك يأمره بتبليغ الرسالة فى وقتها وقيل ان المراد من قوله واوحينا اليه وحى الهام كما فى قوله تعالى واوحى ربك الى النحل واوحينا الى أم موسى والقول الاول اولى وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يعنى يا يحائنا اليك وانت فى البئر بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا والفائدة فى اخفاء ذلك الوحى عنهم انهم اذا عرفوه فربما ازداد حسدهم له وقيل ان الله تعالى اوحى الى يوسف لتخبرن اخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون بانك انت يوسف والمقصود من ذلك تقوية قلب يوسف عليه الصلاة والسلام وانه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت امره وقهره قوله تعالى (وجاؤا اباهم عشاء يبكون) قال المفسرون لما طرحوا يوسف فى الجب رجعوا الى ابيهم وقت العشاء ليكونوا فى الظلمة اجترءوا على الاعتذار بالكذب فلما قربوا من منزل يعقوب جعلوا يبكون ويصرخون فسمع اصواتهم ففزع من ذلك وخرج اليهم فلما رآهم قال بالله سالتكم يا بنى هل اصابكم شئ فى غنمكم قالوا لا قال فما اصابكم واين يوسف (قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق) قال ابن عباس يعنى ننتضل وقال الزجاج يسابق بعضنا بعضا فى الرمى والاصل فى السبق الرمى بالسهم وهو التناضل ايضا وسمى المترامیان بذلك يقال تسابقا واستبقا اذا فعلا ذلك ليتبين ايهما ابعد سهما وقال السدى يعنى نشتد ونعدو والمعنى نستبق على الاقدام ليتبين أينا اسرع عدوا واخف حركة وقال مقاتل نتصيد والمعنى نسبق الى الصيد (وتركنا يوسف عند متاعنا) يعنى عند ثيابنا (فاكله الذئب) يعنى فى حال استباقنا وغفلتنا عنه (وما انت بمؤمن لنا) يعنى وما انت بمصدق لنا (ولو كنا صادقين) يعنى فى قولنا والمعنى انا وان كنا صادقين لكنك لا تصدق لنا قولا لشدة محبتك ليوسف فانك تتهمنا فى قولنا هذا وقيل معناه انا وان كنا صادقين فانك لم تصدقنا لانه لم تظهر عندك امارة تدل على صدقنا (وجاؤا على قميصه) يعنى قميص يوسف (بدم كذب) اى مكذوب فيه قال ابن عباس انهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ثم جاؤا اباهم وفى القصة انهم لطخوا القميص بالدم ولم

سخلة ولطخوا القميص بدمها وزل عنهم ان يمزقوه وروى ان يعقوب عليه السلام لما سمع بخبر يوسف صاح باعلى صوته وقال أين القميص فاخذه والقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا احلم من هذا اكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان فى قميص يوسف ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم والقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف حين قد من دبر ومحل على قميصه النصب على الظرف كانه قيل وجاؤا فوق قميصه بدم

أو مبتدأ لكونه موصوفا اى فامرى صبر جميل او فصبر جميل اجمل وهو مالا شكوى فيه الى المخلوق (والله المستعان) اى أستعينه (على) احتمال (ما تصفون) من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه (وجاءت سيارة) رفقة تسير من قبل مدين الى مصر وذلك بعد ثلاثة ايام من القاء يوسف فى الجب فاخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وكان الجب فى قفرة بعيدة من العمران وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف (فارسلوا واردهم) هو الذى يرد الماء ليستقى للقوم اسمه مالك بن ذعر الخزاعى (فادلى دلوه) ارسل الدلو ليملأها فتشبث يوسف بالدلو فنزعوه (قال يا بشرى) كوفى نادى البشرى كانه يقول تعالى فهذا أوانك غيرهم بشراى على اضافتها الى نفسه او هو اسم غلامه فناداه مضافا الى نفسه (هذا غلام) قيل ذهب به فلما دنا من اصحابه صاح بذلك يبشرهم به (وأسروه) الضمير للوارد واصحابه اخفوه من الرفقة او لاخوة يوسف فانهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا وسكت يوسف مخافة ان يقتلوه (بضاعة) حال اى اخفوه متاعا للتجارة والبضاعة ما بضع من المال للتجارة اى قطع (والله عليم بما يعملون) بما يعمل اخوة يوسف بابيهم واخيهم من سوء الصنيع

يشقوه فقال يعقوب لهم كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه فاتهمهم بذلك وقيل انهم أتوه بذئب وقالوا هذا أكله فقال يعقوب ايها الذئب انت أكلت ولدى وثمرة فؤادى فانطقه الله عز وجل وقال والله ما أكلته ولا رايت ولدك قط ولا يحل لنا أن نأكل لحوم الانبياء فقال يعقوب فكيف وقعت بارض كنعان فقال جئت لصلة الرحم وهى قرابة لى فاخذونى وأتوا بى اليك فاطلقه يعقوب ولما ذكر اخوة يوسف ليعقوب هذا الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم (قال) يعقوب (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) يعنى بل زينت لكم انفسكم امرا وأصل التسويل تقدير معنى فى النفس مع الطمع فى اتمامه وقال صاحب الكشاف سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء اى سهلت لكم انفسكم امرا عظيما ركبتموه من يوسف وهونتموه فى انفسكم واعينكم فعلى هذا يكون معنى قوله بل ردا لقولهم فاكل الذئب كأنه قال ليس الامر كما تقولون اكله الذئب بل سولت لكم انفسكم امرا آخر غير ما تصفون (فصبر جميل) اى فشأنى صبر جميل وقيل معناه فصبرى صبر جميل والصبر الجميل الذى لا شكوى فيه ولا جزع وقيل من الصبر أن لا تحدث بمصيبتك ولا تزكين نفسك (والله المستعان على ما تصفون) يعنى من القول الكذب وقيل معناه والله المستعان على حمل ما تصفون * قوله عز وجل (وجاءت سيارة) وهم القوم المسافرون سموا سيارة لسيرهم فى الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فاخطؤا الطريق فنزلوا قريبا من الجب الذى كان فيه يوسف وكان فى قفرة بعيدة من العمارة ترده الرعاة والمارة وكان ماؤه ملحا فلما ألقى يوسف فيه عذب فلما نزلوا أرسلوا رجلا من اهل مدين يقال له مالك بن ذعر الخزاعى ليطلب لهم الماء فذلك قوله عز وجل (فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه) قال والوارد هو الذى يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء يقال أدليت الدلو اذا ارسلتها فى البئر ودلوتها اذا اخرجتها قال فتعلق يوسف عليه الصلاة والسلام بالحبال وكان يوسف عليه السلام احسن ما يكون من الغلمان وذكر البغوى بسنده متصل ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أعطى يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن قال محمد بن اسحق ذهب يوسف وأمه بثلثى الحسن وحكى الثعلبى عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق ابيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا تبسم رأيت النور من ضواحكه واذا تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه ولا يستطيع احد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه الصلاة والسلام يوم خلقه الله وصورته قبل أن يصيب الخطيئة قالوا فلما خرج يوسف ورآه مالك بن ذعر كاحسن ما يكون من الغلمان (قال) يعنى الوارد وهو مالك بن ذعر (يا بشراى) يعنى يقول الوارد لاصحابه ابشروا (هذا غلام) وقرئ يا بشرى بغير اضافة ومعناه ان الوارد نادى رجلا من اصحابه اسمه بشرى كما تقول يا زيد ويقال ان جدران البئر بكت على يوسف حين خرج منها (وأسروه بضاعة) قال مجاهد أسره مالك بن ذعر واصحابه من التجار الذين كان معهم وقالوا بضاعة استبضعناه لبعض اهل المال الى مصر وانما قالوا ذلك خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه وقيل ان اخوة يوسف أسروا شأن يوسف يعنى انهم أخفوا امر يوسف وكونه أخاهم بل قالوا هو عبد لنا ابق وصدقهم يوسف على ذلك لانهم توعدوه بالقتل سرا من مالك بن ذعر وأصحابه والقول الاول اصح لان مالك بن ذعر هو الذى أسره بضاعة واصحابه (والله عليم بما يعملون) يعنى من ارادة اهلاك يوسف فجعل ذلك سببا لنجاته وتحقيقا لرؤياه أن يصير ملك مصر بعد أن كان عبدا قال اصحاب الاخبار ان يهوذا كان يأتى يوسف بالطعام فاتاه فلم يجده فى الجب فاخبر اخوته بذلك فطلبوه فاذا هم بمالك بن ذعر واصحابه

(وشروه) وباعوه (بثمن بخس) مبخوس ناقص عن القيمة نقصانا ظاهرا اوزيف (دراهم) بدل من ثمن (معدودة) قليلة تعد عدا ولا توزن لانهم كانوا يعدون مادون الاربعين ويزنون الاربعين وما فوقها وكانت عشرين ١١ درهما (وكانوا فيه من الزاهدين)

نزولا قريبا من البئر فتوهم فاذا يوسف عندهم فقالوا لهم هذا عبدنا ابق منا ويقال انهم هددوا يوسف حتى يكتم حاله ولا يعرفها وقال لهم مثل قولهم ثم انهم باعوه منهم فذلك قوله تعالى (وشروه) اى باعوه وقد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشئ بمعنى بعته وانما وجب حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير فى وشروه وفى وكانوا فيه من الزاهدين يرجع الى شئ واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير فى وشروه يعود على مالك بن ذعر واصحابه فعلى هذا القول يكون لفظ الشراء على بابه (بثمن بخس) قال الحسن والضحاك ومقاتل والسدى بخس اى حرام لان ثمن الحر حرام ويسمى الحرام بخسا لانه مبخوس البركة يعنى منقوصها وقال ابن مسعود وابن عباس بخس اى زيوف ناقصة العيار وقال قتادة بخس اى ظلم والظلم نقصان الحق يقال ظلمه اذا نقصه حقه وقال عكرمة والشعبى بخس اى قليل وعلى الاقوال كلها فالبخس فى اللغة هو نقص الشئ على سبيل الظلم والبخس والباخس الشئ الطفيف (دراهم معدودة) فيه اشارة الى قلة تلك الدراهم لانهم فى ذلك الزمان ما كانوا يزنون أقل من اربعين درهما انما كانوا يأخذون مادونها عددا فاذا بلغت اربعين درهما وهى أوقية وزنوها واختلفوا فى عدد تلك الدارهم فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين فعلى هذا القول لم يأخذ اخوه من أمه وابيه شيأ منها وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما فعلى هذا اخذ أخوه منها درهمين لانهم كانوا احد عشر أخا وقال عكرمة كانت اربعين درهما (وكانوا فيه من الزاهدين) يعنى وكان اخوة يوسف فى يوسف من الزاهدين وأصل الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان فى كذا اذا لم يكن له فيه رغبة والضمير فى قوله وكانوا فيه من الزاهدين ان قلنا انه يرجع الى اخوة يوسف كان وجه زهدهم فيه انهم حسدوه واردوا ابعاده عنهم ولم يكن قصدهم تحصيل الثمن وان قلنا ان قوله وشروه وكانوا فيه من الزاهدين يرجع الى معنى واحد وهو ان الذين شروه كانوا فيه من الزاهدين كان وجه زهدهم فيه اظهار قلة الرغبة فيه ليشتروه بثمن بخس قليل ويحتمل ان يقال ان اخوته لما قالوا انه عبدنا وقد أبق اظهر المشترى قلة الرغبة فيه لهذا السبب قال اصحاب الاخبار ثم ان مالك بن ذعر واصحابه لما اشتروا يوسف انطلقوا به الى مصر وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لا يأبق منكم فذهبوا به حتى قدموا مصر فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس وكان قطفير صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز وكان الملك بمصر ونواحيها اسمه الريان بن الوليد بن نزوان وكان من العمالق وقيل ان هذا الملك لم يمت حتى آمن بيوسف واتبعه على دينه ثم مات ويوسف عليه الصلاة والسلام حى قال ابن عباس لما دخلوا مصر لقى قطفير مالك بن ذعر فاشترى يوسف منه بعشرين دينارا وزوج نعل ونوبين أبيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر ودخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه اربعمائة رطل وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة او سبع عشرة سنة فابتاعه قطفير بهذا الثمن فذلك قوله تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر) يعنى قطفير من اهل مصر (لامرأته) وكان اسمها راعيل وقيل زليخا (أكرمى مثواه) يعنى اكرمى منزله ومقامه عندك والمثوى موضع الاقامة وقيل اكرميه فى المطعم والملبس والمقام (عسى أن ينفعنا) يعنى ان اردنا بيعه بعناه بربح او يكفينا بعض امورنا ومصالحنا اذا قوى وبلغ (او نتخذه ولدا) يعنى نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود افرس الناس ثلاثة العزيز فى يوسف

ممن يرغب عما فى يده فيبيعه بالثمن الطفيف اومعنى وشروه واشتروه يعنى الرفقة من اخوته وكانوا فيه من الزاهدين اى غير راغبين لانهم اعتقدوا انه آبق ويروى ان اخوته اتبعوهم وقالوا استوثقوا منه لا يأبق وفيه ليس من صلة الزاهدين اى غير راغبين لان الصلة لا تتقدم على الموصول وانما هو بيان كأنه قيل فى اى شئ زهدوا فقال زهدوا فيه (وقال الذى اشتراه من مصر) هو قطفير وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد وقد آمن بيوسف ومات فى حياته واشتراه العزيز بزنته ورقا وحريرا ومسكا وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل اوزليخا واللام متعلقة بقال لا

باشتراه (أكرمى مثواه) اجعلى منزلته ومقامه عندنا كريما اى حسنا مرضيا بدليل قوله انه ربى أحسن مثواى وعن الضحاك بطيب معاشه ولين لباسه ووطئ فراشه (عسى ان ينفعنا) لعله اذا تدرب وراض الامور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض مانحن بسبيله (او نتخذه ولدا) او نتبناه ونقيمه مقام الولد وكان قطفير عقيما وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك

(وكذلك) اشارة الى ما تقدم من انجائه وعطف قلب العزيز عليه والكاف منصوب بتقديره ومثل ذلك الانجاء والعطف (مكنا ليوسف
اى كما انجيناه وعطفنا عليه العزيز كذلك مكناله (فى الارض) اى ارض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بامره ونهيه (ولنعلمه من تأويل
الاحاديث) كان ذلك الانجاء والتمكين (والله غالب على أمره) لايمنع عما شاء او على امر يوسف بتبليغه ما أراد له دون ما أراد اخوته
(ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك ١٢ (ولما بلغ اشده) منتهى استعداد قوته وهو ثمان عشرة سنة او احدى وعشرون

(آتيناه حكما وعلما) حكمة وهو العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه او حكما بين الناس وفقها (وكذلك نجزى المحسنين) تنبيه على انه كان محسنا فى عمله متقيا فى عنفوان امره (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) اى طلبت يوسف ان يواقعها والمراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب كان المعنى خادعته عن نفسه اى فعلت فعل الخادع اصاحبه عن الشئ الذى لايريدان يخرجه من يده يحتال ان يغلبه عليه ويأخذه منه وهى عبارة عن التمحل لمواقعته اياها (وغلقت الابواب) وكانت سبعة (وقالت هيت لك) هو اسم لتعال وأقبل وهو مبنى على الفتح هيت مكى بناه على الضم هئت مدنى وشامى واللام للبيان كانه قيل لك أقول هذا كما تقول هلم لك (قال معاذالله) أعوذ بالله معاذا (انه) اى ان الشأن والحديث (ربى) سيدى ومالكى يريد قطفير (أحسن مثواى) الكريمة

حيث قال لامرأته اكرمى مثواه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا وابنة شعيب فى موسى حيث قالت لابيها
استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين وابو بكر فى عمر حيث استخلفه بعده (وكذلك مكنا ليوسف فى
الارض) يعنى كما منا على يوسف بأن انقذناه من القتل واخرجناه من الجب كذلك مكناه فى الارض يعنى
ارض مصر فجعلناه على خزائنها (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) اى مكناه فى الارض لكى نعلمه من تأويل
الاحاديث يعنى عبارة الرؤيا وتفسيرها (والله غالب على أمره) قيل الكناية فى امره راجعة الى الله تعالى
ومعناه والله غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لادافع لامره ولا راد لقضائه ولا يغلبه شئ وقيل
هى راجعة الى يوسف ومعناه ان الله مستول على امر يوسف بالتدبير والاحاطة لا يكله الى احد سواه حتى
يبلغ منتهى ما علمه فيه (ولكن أكثر الناس لايعلمون) يعنى ما هو صانع بيوسف وما يريد منه (ولما بلغ
أشده) يعنى منتهى شبابه وشدته وقوته قال مجاهد ثلاثة وثلاثون سنة وقال الضحاك عشرون سنة
وقال السدى ثلاثون سنة وقال الكلبى الاشد ما بين ثمان عشرة سنة الى ثلاثين سنة وسئل مالك عن
الاشد فقال هو الحلم (آتيناه حكما وعلما) يعنى آتينا يوسف بعد بلوغ الاشد نبوة وفقها فى الدين وقيل
حكما يعنى اصابة فى القول وعلما بتأويل الرؤيا وقيل الفرق بين الحكيم والعالم ان العالم هو الذى يعلم
الاشياء بحقائقها والحكيم هو الذى يعمل بما يوجبه العلم وقيل الحكمة حبس النفس عن هواها وصونها
عما لا ينبغى والعلم هو العلم النظرى (وكذلك) يعنى وكما أنعمنا على يوسف بهذه النعم كلها كذلك (نجزى
المحسنين) قال ابن عباس يعنى المؤمنين وعنه ايضا المهتدين وقال الضحاك يعنى الصابرين على النوائب كما
صبر يوسف (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) يعنى ان امرأة العزيز طلبت من يوسف الفعل القبيح
ودعته الى نفسها لتواقعها (وغلقت الابواب) اى اطبقتها وكانت سبعة لان مثل هذا الفعل لا يكون الا فى
ستر وخفية او انها أغلقتها الشدة خوفها (وقالت هيت لك) اى هلم واقبل قال أبو عبيدة كان الكسائى يقول
هى لغة لاهل حوران رفعت الى الحجاز معناها تعال وقال عكرمة أيضا بالحورانية هلم وقال مجاهد وغيره
هى لغة عربية وهى كلمة حث واقبال على الشئ وقيل هى بالعبرانية وأصلها هيتا لج اى تعال فعربت فقيل
هيت لك فمن قال انها بغير لغة العرب يقول ان العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق
لغاتها غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم فى القسطاس ولغة العرب الفرس فى التنور ولغة العرب الترك فى
الغساق ولغة العرب الحبشة فى ناشئة الليل وبالجملة فان العرب اذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وقرئ
هئت لك بكسر الهاء مع الهمزة ومعناها تهيأت لك (قال) يعنى يوسف (معاذالله) اى أعوذ بالله واعتصم
به والجأ اليه فيما دعوتنى اليه (انه ربى) يعنى ان العزيز قطفير سيدى (أحسن مثواى) اى أكرم منزلتى
فلا أخونه وقيل ان الهاء فى انه ربى راجعة الى الله تعالى والمعنى يقول ان الله ربى أحسن مثواى يعنى انه
آوانى ومن بلاء الجب نجانى (انه لايفلح الظالمون) يعنى ان فعلت هذا الفعل فانا ظالم ولا يفلح الظالمون وقيل
معناه انه لا يسعد الزناة * قوله عز وجل (ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه) الآية هذه الآية

حين قال لك أكرمى مثواه فجازؤه ان أخونه فى أهله (انه لايفلح الظالمون) الخائنون او الزناة او أراد بقوله انه ربى الله تعالى لانه مسبب
الاسباب (ولقد همت به) هم عزم (وهم بها) هم الطباع مع الامتناع قاله الحسن وقال الشيخ أبو منصور رحمه الله وهم بها هم خطرة
ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بانه من عباده المخلصين وقيل وهم بها
وشارف أن يهم بها يقال هم بالامر اذا قصده وعزم عليه وجواب (لولا ان رأى برهان ربه) محذوف اى لكان ما كان وقيل وهم بها

الكريمة مما يجب الاعتناء بها والبحث عنها والكلام عليها فى مقامين الاول فى ذكر أقوال المفسرين فى هذه الآية قال المفسرون الهم هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه وقيل الهم مصدر همت بالشئ اذا اردته وحدثتك نفسك به وقاربته من غير دخول فيه فعنى قوله ولقد همت به اى أردته وقصدته فكان همها به عزمها على المعصية والزنا وقال الزمخشرى هم بالامر اذا قصده وعزم عليه قال الشاعر وهو عمرو بن ضابئ البرجمى

همممت ولم أفعل وكدت وليتنى ✻ تركت على عثمان تبكى حلائله

وقوله ولقد همت به معناه ولقد همت بمخالطته وهم بها اى وهم بمخالطتها لولا ان رأى برهان ربه جوابه محذوف تقديره لولا ان رأى برهان ربه لخالطها قال البغوى وأما همه بها فروى عن ابن عباس انه قال حل الهميان و جلس منها مجلس الخائن وقال مجاهد حل سراويله وجعل يعالج ثيابه وهذا قول أكثر المفسرين منهم سعيد بن جبير والحسن وقال الضحاك جرى الشيطان بينهما فضرب بيده الى جيد يوسف و بيده الاخرى الى جيد المرأة حتى جمع بينهما قال أبو عبيدة القاسم بن سلام وقد أنكر قوم هذا القول قال البغوى والقول ما قاله قدماء هذه الامة وهم كانوا أعلم بالله ان يقولوا فى الانبياء من غير علم قال السدى وابن اسحق لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكره محاسن نفسه وتشوقه الى نفسها فقالت يا يوسف ما أحسن شعرك قال هو أول ما ينتثر عن جسدى قالت ما أحسن عينيك قال هى اول ما يسيل على خدى فى قبرى قالت ما أحسن وجهك قال هو للتراب يأكله وقيل انها قالت له ان فراش الحرير مبسوط قم فاقض حاجتى قال اذا يذهب نصيبى من الجنة فلم تزل تطمعه وتدعوه الى اللذة وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل وهى امرأة حسناء جميلة حتى لان لما ما يرى من كلفها به فهم بها ثم ان الله تدارك عبده يوسف بالبرهان الذى ذكره وسيأتى الكلام على تفسير البرهان الذى رآه يوسف عليه الصلاة والسلام فهذا ما قاله المفسرون فى هذه الآية ✻ أما المقام الثانى فى تنزيه يوسف عليه الصلاة والسلام عن هذه الرذيلة و بيان عصمته من هذه الخطيئة التى ينسب اليها قال بعض المحققين الهم هما ن فهم ثابت وهو ما كان معه عزم وقصد وعقيدة رضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة فى القلب وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم او يعمل به و يدل على صحة هذا ما روى عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى اذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فان عملها فاكتبوها عليه سيئة واحدة واذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها له عشرة لفظ مسلم وللبخارى بمعناه (ق) عن ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يروى عن ربه عز وجل قال ان الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فان هم بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله له عنده حسنة وان هو هم بها فعملها كتبها الله عليه سيئة واحدة زاد فى رواية او محاها وان يهلك على الله الا هالك قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء فعلى مذهب كثير من الفقهاء والمحدثين ان هم النفس لا يؤاخذ به وليس سيئة وذكر الحديث المتقدم فلا معصية فى هم يوسف اذا وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فان الهم اذا وطنت عليه النفس كان سيئة وأما ما لم توطن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو المعفو عنه هذا هو الحق فيكون ان شاء الله هم يوسف من هذا و يكون قوله وما أبرئ نفسى الآية اى ما أبرئها من هذا الهم او يكون ذلك على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكى قبل و برئ فكيف وقد حكى أبو حاتم عن ابى عبيدة ان يوسف عليه الصلاة والسلام لم يهم وان الكلام فيه تقديم وتأخير اى ولقد همت به ولولا ان رأى برهان ربه لهم بها

والبرهان الحجة ويجوز ان يكون وهم بها داخلا فى حكم القسم فى قوله ولقد همت به ويجوز ان يكون خارجا من حق القارئ اذا قدر خروجه من حكم القسم وجعله كلاما برأسه ان يقف على به ويبتدئ بقوله وهم بها وفيه أيضا اشعار بالفرق بين الهمين وفسرهم يوسف بانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الاربع وهى مستلقية على قفاها وفسر البرهان بانه سمع صوتا اياك واياها مرتين فسمع ثالثا اعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على انملته وهو باطل و يدل على بطلانه قوله هى راودتنى عن نفسى ولو كان ذلك منه أيضا لما برأ نفسه من ذلك وقوله كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفا عنه وقوله ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب ولو كان كذلك لخانه بالغيب وقوله ما علمنا عليه من سوء الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ولانه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره كما كان لآدم ونوح وذى النون وداود عليهم السلام وقد سماه الله

وقال تعالى حاكيا عن المرأة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وقال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء وقال تعالى وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله الآية وقيل في قوله وهم بها اى بزجرها ووعظها وقيل هم بها اى همها امتناعه وقيل هم بها اى نظر اليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله كان قبل نبوته وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن الى يوسف ميل شهوة زليخا حتى نباه الله فالقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله وأما الامام فخر الدين فذكر في هذا المقام كلاما طويلا مبسوطا وأنا اذكر بعضه ملخصا فاقول قال الامام فخر الدين الرازي ان يوسف عليه الصلاة والسلام كان بريئا من العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب فان الدلائل قد دلت على عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يلتفت الى ما نقله بعض المفسرين عن الائمة المتقدمين فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام متى صدرت منهم زلة او هفوة استعظموها واتبعوها باظهار الندامة والتوبة والاستغفار كما ذكر عن آدم عليه السلام في قوله ربنا ظلمنا انفسنا الآية وقال في حق داود عليه الصلاة والسلام فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فلم يحك عنه شيأ من ذلك في هذه الواقعة لانه لو صدر منه شئ لاتبعه بالتوبة والاستغفار ولو اتى بالتوبة لحكى الله ذلك عنه في كتابه كما ذكر عن غيره من الانبياء وحيث لم يحك عنه شيأ علمنا براءته مما قيل فيه ولم يصدر عنه شئ كما نقله أصحاب الاخبار ويدل على ذلك أيضا ان كل من كان له تعلق بهذه الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام مما نسب اليه واعلم ان الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف والمرأة وزوجها والنسوة اللاتي قطعن ايديهن والمولود الذي شهد على القميص شهدوا ببراءته والله تعالى شهد ببراءته من الذنب أيضا أما بيان ان يوسف ادعى براءته مما نسب اليه فقوله هي راودتني عن نفسي وقوله رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه وأما بيان ان المرأة اعترفت على نفسها واعترفت ببراءة يوسف ونزاهته فقولها انا راودته عن نفسه فاستعصم وقولها الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وأما بيان ان زوج المرأة اعترف أيضا ببراءة يوسف فقوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين واما شهادة المولود ببراءته فقوله وشهد شاهد من أهلها الآية وأما شهادة الله له بذلك فقوله تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ومن كان كذلك فليس للشيطان عليه سلطان بدليل قوله لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين وبطل بهذا قول من قال ان الشيطان جرى بينهما حتى أخذ بجيده وجيد المرأة حتى جمع بينهما فانه قول منكر لا يجوز لاحد ان يقول ذلك وأما ما روى عن ابن عباس انه جلس منها مجلس الخائن فحاشى ابن عباس ان يقول مثل هذا عن يوسف عليه الصلاة والسلام ولعل بعض أصحاب القصص وأصحاب الاخبار وضعوه على ابن عباس وكذلك ما روى عن مجاهد وغيره أيضا فانه لا يكاد يصح بسند صحيح وبطل ذلك كله وثبت ما بيناه من براءة يوسف عليه الصلاة والسلام من هذه الرذيلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وما صدر من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام فان قلت فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله عز وجل لولا ان رأى برهان ربه فائدة قلت فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين أحدهما انه تعالى أعلم يوسف انه لو هم بدفعها لقتلته فاعلمه بالبرهان ان الامتناع من ضربها اولى صونا للنفس عن الهلاك الوجه الثاني انه عليه الصلاة والسلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه لتعلقت به فكاد في ذلك ان يتمزق ثوبه من قدام وكان في علم الله ان الشاهد يشهد بان ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن واذا تمزق من خلف كانت هي الخائنة فاعلمه الله بالبرهان هذا المعنى فلم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربا فاثبت بذلك الشاهد حجة له لا عليه وأما تفسير البرهان على ما ذكره المفسرون في قوله تعالى

(كذلك) نصب اى مثل ذلك التثبيت تثبتناه ورفع اى الامر مثل ذلك (لنصرف عنه السوء) خيانة السيد (والفحشاء) الزنا (انه من عبادنا المخلصين) بفتح اللام حيث كان مدنى وكوفى اى الذين اخلصهم الله لطاعته وبكسرها غيرهم ١٥ اى الذين اخلصوا دينهم لله ومعنى من عبادنا بعض عبادنا اى هو مخلص من جملة المخلصين (واستبقا الباب) وتسابقا الى الباب هى للطلب وهو للهرب على حذف الجار وايصال الفعل كقوله واختار موسى قومه او على تضمين استبقا معنى ابتدرا ففر منها يوسف فاسرع يريد الباب ليخرج واسرعت وراءه لتمنعه الخروج ووجد الباب وان كان جمعه فى قوله وغلقت الابواب لانه اراد الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار ولما هرب يوسف جعل فراش القفل يثنا ثر ويسقط حتى خرج (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من خلفه فانقد اى انشق حين هرب منها الى الباب وتبعته تمنعه (والفيا سيدها لدى الباب) وصادفا بعلها قطفير مقبلا يريدان يدخل فلما رأته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة ولتخويف يوسف طمعا فى ان يواطئها خيفة منها ومن مكرها حيث (قالت ماجزاء من أراد باهلك سوأ الا أن يسجن او عذاب أليم) مانافيه اى ليس جزاؤه الا السجن

لولا ان رأى برهان ربه فقال قتادة واكثر المفسرين ان يوسف رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو يقول له يا يوسف اتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الانبياء وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضا على اصبعه وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل له يعقوب فضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته من انامله وقال السدى نودى يا يوسف اتواقعها انما مثلك مثل الطير فى جو السماء لا يطاق عليه وان مثلك ان واقعتها كمثله اذا وقع على الارض لا يستطيع ان يدفع عن نفسه شيأ ومثلك مثل الثور الصعب الذى لا يطاق ومثلك ان واقعتها كمثله اذا مات ودخل النمل فى قرنه لا يستطيع ان يدفع عن نفسه وقيل انه رأى معصما بلا عضد عليه مكتوب وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون فولى هاربا ثم رجع فعاد المعصم وعليه مكتوب ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فولى هاربا ثم عاد فرأى ذلك الكف وعليه مكتوب واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله الآية ثم عاد فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدى يوسف قبل ان يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضا على اصبعه يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وانت مكتوب عند الله من الانبياء وقيل انه مسه بجناحه فخرجت شهوته من انامله قال محمد بن كعب القرظى رفع يوسف رأسه الى سقف البيت فرأى كتابا فى حائط فيه ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا وفى رواية عن ابن عباس انه رأى مثال ذلك الملك وعن على بن الحسن قال كان فى البيت صنم فقامت المرأة اليه وسترته بثوب فقال لها يوسف عليه السلام لم فعلت هذا فقالت استحييت منه ان يرانى على معصية فقال لها يوسف أتستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه شيأ فانا أحق ان أستحى من ربى فهرب فذلك قوله لولا ان رأى برهان ربه أما المحققون فقد فسروا البرهان بوجوه الاول قال جعفر بن محمد الصادق البرهان هو النبوة التى جعلها الله تعالى فى قلبه حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل الثانى البرهان حجة الله عز وجل على العبد فى تحريم الزنا والعلم بما على الزانى من العقاب الثالث ان الله عز وجل طهر نفوس الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الاخلاق الذميمة والافعال الرذيلة وجبلهم على الاخلاق الشريفة الطاهرة المقدسة فتلك الاخلاق الطاهرة الشريفة تحجزهم عن فعل ما لا يليق فعله (كذلك) يعنى كما أرينا ه البرهان كذلك (لنصرف عنه السوء) يعنى الاثم (والفحشاء) يعنى الزنا وقيل السوء مقدمات الفحشاء وقيل السوء الثناء القبيح فصرف الله عنه ذلك كله وجعله من عباده المخلصين وهو قوله (انه) يعنى يوسف (من عبادنا المخلصين) قرئ بفتح اللام ومعناه انه من عبادنا الذين اصطفيناهم بالنبوة واخترناهم على غيرهم وقرئ بكسر اللام ومعناه انه من عبادنا الذين أخلصوا الطاعة لله عز وجل قوله تعالى (واستبقا الباب) وذلك ان يوسف عليه الصلاة والسلام لما رأى البرهان قام هاربا مبادرا الى الباب وتبعته المرأة لتمسك عليه الباب حتى لا يخرج والمسابقة طلب السبق فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه وجذبته اليها حتى لا يخرج فذلك قوله عز وجل (وقدت قميصه من دبر) يعنى شقته من خلف فغلبها يوسف فخرج وخرجت خلفه (والفيا سيدها لدى الباب) يعنى فلما خرجا وجدا زوج المرأة قطفير وهو العزيز عند الباب جالسا مع ابن عم المرأة فلما رأته المرأة هابته وخافت التهمة فسبقت يوسف بالقول (قالت) يعنى لزوجها (ما جزاء من اراد باهلك سوأ) يعنى الفاحشة ثم خافت عليه ان يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت (الا ان يسجن) اى يحبس فى السجن ويمنع التصرف (او عذاب اليم) يعنى الضرب بالسياط وانما بدأت بذكر السجن دون

او عذاب أليم وهو الضرب بالسياط ولم تصرح بذكر يوسف وانه اراد بها سوأ لانها قصدت العموم اى كل من اراد باهلك سوأ فحقه ان يسجن او يعذب لان ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف ولما مرضته للسجن والعذاب ووجب عليه الدفع عن نفسه

(قال هى راودتنى عن نفسى) ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها (وشهد شاهد من اهلها) هو ابن عم لها وانما القى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون اوجب للحجة عليها واوثق لبراءة يوسف وقيل كان ابن خال لها وكان صبيا فى المهد وسمى قوله شهادة لانه ادى مؤدى الشهادة فى ان ثبت ١٦ به قول يوسف وبطل قولها (ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) والتقدير وشهد شاهد فقال ان كان قميصه وانما دل قد قميصه من قبل على انها صادقة لانه يسرع خلفها ليلحقها فيعثر فى مقادم قميصه فيشقه ولانه يقبل عليها وهى تدفعه عن نفسها فيتخرق القميص من قبل وأما تنكير قبل ودبر فمعناه من جهة يقال لها قبل ومن جهة يقال لها دبر وانما جمع بين ان التى للاستقبال وبين كان لان المعنى أن يعلم انه كان قميصه قد (فلما رأى) قطفير (قميصه قد من دبر) وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها (قال انه) ان قولك ماجزاء من اراد باهلك سوأ اوان هذا الامر وهو الاحتيال لنيل الرجال (من كيدكن) الخطاب لها ولامتها (ان كيدكن عظيم) لانهن الطف كيدا واعظم حيلة وبذلك يغلبن الرجال والقصريات منهن معهن ماليس مع غيرهن من البوائق وعن بعض العلماء انى اخاف من النساء اكثر مما اخاف من الشيطان لان الله تعالى قال ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال يعنى لهن ان كيدكن عظيم (يوسف) حذف منه حرف النداء لانه منادى قريب مقاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله (أعرض عن هذا) الامر واكتمه ولا تحدث به ثم قال لراعيل (واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين) من جملة القوم المتعمدين للذنب

العذاب لان المحب لا يشتهى ايلام المحبوب وانما اراد ان يسجن عندها يوما او يومين ولم ترد السجن الطويل وهذه لطيفة فافهمها فلما سمع يوسف مقالتها اراد ان يبرهن عن نفسه (قال) يعنى يوسف (هى راودتنى عن نفسى) يعنى طلبت منى الفحشاء فابيت وفررت وذلك ان يوسف عليه الصلاة والسلام ما كان يريد ان يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هى ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه فقال هى راودتنى عن نفسى (وشهد شاهد من اهلها) يعنى وحكم حاكم من أهل المرأة واختلفوا فى ذلك الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا فى المهد فانطقه الله عز وجل وهو رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة ابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم ذكره البغوى بغير سند والذى جاء فى الصحيحين ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وابن المرأة وقصتهم مخرجة فى الصحيح قيل كان هذا الصبى شاهد يوسف بن خال المرأة وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد لم يكن صبيا ولكنه كان رجلا حكيما ذا رأى وقال السدى هو ابن عم المرأة فحكم فقال (ان كان قميصه قد من قبل) اى من قدام (فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر) اى من خلف (فكذبت وهو من الصادقين) وانما كان هذا الشاهد من أهل المرأة ليكون اقوى فى نفى التهمة عن يوسف عليه الصلاة والسلام مع ما وجد من كثرة العلامات الدالة على صدق يوسف عليه الصلاة والسلام ونفى التهمة عنه من وجوه * منها انه كان فى الظاهر مملوك هذه المرأة والمملوك لا يبسط يديه الى سيدته * ومنها انهم شاهدوا يوسف يعدو هاربا منها والطالب لا يهرب * ومنها انهم رأوا المرأة قد تزينت باكمل الوجوه فكان الحاق التهمة بها اولى * ومنها انهم عرفوا يوسف فى المدة الطويلة فلم يروا عليه حال تناسب اقدامه على مثل هذه الحالة فكان مجموع هذه العلامات دلالة على صدقه مع شهادة الشاهد له بصدقه أيضا (فلما رأى قميصه قد من دبر) يعنى فلما رأى قطفير زوج المرأة قميص يوسف عليه الصلاة والسلام قد من خلفه عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام (قال) يعنى قال لها زوجها قطفير (انه) يعنى هذا الصنيع (من كيدكن) يعنى من حيلكن ومكركن (ان كيدكن عظيم) فان قلت كيف وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وهلا كان مكر الرجال أعظم من مكر النساء قلت اما كون الانسان خلق ضعيفا فهو بالنسبة الى خلق ما هو أعظم منه كخلق الملائكة والسموات والارض والجبال ونحو ذلك واما عظم كيد النساء ومكرهن فى هذا الباب فهو اعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد فى اتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال فى هذا الباب وقيل ان قوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم من قول الشاهد وذلك أنه لما ثبت عنده خيانة المرأة وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام قال هذه المقالة (يوسف) يعنى يا يوسف (اعرض عن هذا) يعنى اترك هذا الحديث فلا تذكره لاحد حتى لا يفشو ويشيع وينتشر بين الناس وقيل معناه يا يوسف لا تكترث بهذا الامر ولا تهتم به فقد بان عذرك وبراءتك ثم التفت الى المرأة فقال لها (واستغفرى لذنبك) يعنى توبى الى الله مما رميت يوسف به من الخطيئة وهو برىء منها وقيل ان هذا من قول الشاهد يقول للمرأة سلى زوجك ان يصفح عنك ولا يعاقبك بسبب ذنبك (انك كنت من الخاطئين)

يقال خطئ اذا أذنب متعمدا وانما قال بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما قليل الغيرة حيث اقتصر على هذا القول (وقال نسوة) جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثها غير حقيقي ولذا لم يقل قالت وفيه لغتان كسر النون وضمها (في المدينة) في مصر (امرأة العزيز) يردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب (تراود فتاها) غلامها يقال فتاي وفتاتي اي غلامي وجاريتي (عن نفسه) لتنال شهوتها منه (قد شغفها حبا) تمييز أي قد شغف حبه شغاف قلبها حتى

وصل الى الفؤاد والشغاف حجاب القلب او جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب (انا لنراها في ضلال مبين) في خطاء وبعد عن طريق الصواب (فلما سمعت) زليخا (بمكرهن) باغتيابهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها وسمي الاغتياب مكرا لانه في خفية وحال غيبة كما يخفى المكر مكره وقيل كانت استكتمتهن سرها فافشينه عليها (ارسلت اليهن) دعتهن قيل دعت اربعين امرأة منهن الخمس المذكورات (واعتدت) وهيأت افتعلت من العتاد (لهن متكأ) ما يتكئ عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهن متكئات والسكاكين في ايديهن ان يدهشن عند رؤيته ويشغلن عن نفوسهن فتقع ايديهن على ايديهن فيقطعنها الان المتكئ اذا بهت لشئ وقعت يده على يده

يعني من المذنبين حين خنت زوجك ورميت يوسف بالتهمة وهو بريء وانما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات تغليبا لجنس الرجال على النساء وقيل انه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد الخبر عن كل من يفعل هذا الفعل تقديره انك كنت من القوم الخاطئين فهو كقوله وكانت من القانتين قوله عز وجل (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) يعني وقال جماعة من النساء وكن خمسا وقيل كن اربعا وذلك لما شاع خبر يوسف والمرأة في مدينة مصر وقيل هي مدينة عين الشمس وتحدثت النساء فيما بينهن بذلك وهن امرأة حاجب الملك وامرأة صاحب دوابه وامرأة خبازه وامرأة ساقيه وامرأة صاحب سجنه وقيل نسوة من اشراف مصر امرأة العزيز يعني زليخا تراود فتاها عن نفسه يعني تراود عبدها الكنعاني عن نفسه لانها تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها والفتى الشاب الحديث السن (قد شغفها حبا) يعني قد علقها حبا والشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب والمعنى ان حبه دخل الجلدة حتى اصاب القلب وقيل ان حبه قد احاط بقلبها كاحاطة الشغاف بالقلب قال الكلبي حجب حبه قلبها حتى لا تعقل شيأ سواه (انا لنراها في ضلال مبين) يعني في خطا بين ظاهر حيث تركت ما يجب على امثالها من العفاف والستر واحبت فتاها (فلما سمعت بمكرهن) يعني فلما سمعت زليخا بقولهن وما تحدثن به وانما سمي قولهن ذلك مكرا لانهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن ان يريناه وقيل ان امرأة العزيز افشت اليهن سرها واستكتمتهن فافشين ذلك عليها فذلك سماه مكرا (ارسلت اليهن) يعني انها لما سمعت بانهن يلمنها على محبتها ليوسف ارادت ان تقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مائدة يعني صنعت لهن وليمة وضيافة ودعت اربعين امرأة من اشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتي عيرنها (واعتدت لهن متكأ) يعني ووضعت لهن نمارق ومساند يتكئن عليها وقال ابن عباس وابن جبير والحسن وقتادة ومجاهد متكأ يعني طعاما وانما سمي الطعام متكأ لان كل من دعوته ليطعم عندك فقد اعددت له وسائد يجلس ويتكئ عليها فسمي الطعام متكأ على الاستعارة ويقال اتكأنا عند فلان اي طعمنا عنده والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث ولذلك جاء النهي عنه في الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا وقيل المتكأ الاترج وقيل هو كل شئ يقطع بالسكين او يحز بها يقال ان المرأة زينت البيت بالوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتي عيرنها بحب يوسف (وآتت كل واحدة منهن سكينا) يعني واعطت كل واحدة من النساء سكينا لتأكل بها وكان من عادتهن ان يأكلن اللحم والفواكه بالسكين (وقالت اخرج عليهن) يعني وقالت زليخا ليوسف اخرج على النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واختبأته في مكان آخر (فلما رأينه) يعني النسوة (أكبرنه) يعني اعظمنه ودهشن عند رؤيته وكان يوسف قد أعطي شطر الحسن وقال عكرمة

(وآتت كل واحدة منهن سكينا) وكانوا لا يأكلون في ذلك الزمان الا بسكاكين كفعل الاعاجم (وقالت اخرج عليهن) بكسر التاء بصري وعاصم وحمزة وبضمها غيرهم (فلما رأينه أكبرنه) أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائق والجمال الفائق وكان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء وكان اذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران وكان يشبه آدم يوم خلقه ربه وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل أكبرن بمعنى حضن والهاء للسكت اذ لا يقال النساء قد حضنه لانه لا يتعدى الى مفعول يقال اكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت في الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر وكان

ابا الطيب اخذ من هذا التفسير قوله خف الله واسترذا الجمال ببرقع * فان محت حاضت فى الخدور العواتق (وقطعن ايديهن) وجرحنها كما تقول كنت اقطع اللحم فقطعت يدى تريد جرحتها اى أردن ان يقطعن الطعام الذى فى ايديهن فدهشن لما رأينه فجعلن يقطعن ايديهن (وقلن حاش لله) حاشا ١٨ كلمة تفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء تقول أساء القوم حاشا زيد وهى حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة فمعنى حاشا الله براءة الله وتنزيه الله وقراءة ابى عمرو حاشا لله نحو قولك سقيا لك كانه قال براءة ثم قال لله لبيان من يبرئ و ينزه وغيره حاش لله بحذف الالف الاخيرة والمعنى تنزيه الله من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله (ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم) نفين عنه البشرية لغرابة جماله وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم لما ركز فى الطباع أن لا احسن من الملك كما ركز فيها أن لا اقبح من الشيطان (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) تقول هو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى انفسكن ثم لمتننى فيه تعنى انكن لم تصورنه حق صورته والا عذرتننى فى الافتتان به (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كانه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها وهذا بيان جلى على ان يوسف عليه السلام برى مما فسر به أولئك الفريق الهم والبرهان ثم قلن له أطع مولاتك فقالت راعيل (ولئن لم يفعل ما آمره) الضمير راجع الى ما وهى موصولة والمعنى ما آمره به فحذف الجار كما فى قوله امرتك الخير أو مامصدرية والضمير يرجع الى يوسف اى ولئن لم يفعل امرى اياه اى موجب امرى ومقتضاه (ليسجنن) ليحبسن والالف فى

كان فضل يوسف على الناس فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم وروى ابو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رايت ليلة أسرى بى الى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر ذكره البغوى بغير سند وقال اسحق بن ابى فروة كان يوسف اذا سار فى أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران و يقال انه ورث حسن آدم يوم خلقه الله عز وجل قبل أن يخرج من الجنة وقال ابو العالية هالهن امره و بهتن اليه وفى رواية عن ابن عباس قال اكبرنه اى حضن ونحوه عن مجاهد والضحاك قال حضن من الفرح وأنكر أكثر أهل اللغة هذا القول قال الزجاج هذه اللفظة ليست معروفة فى اللغة والهاء فى اكبرنه تمنع من هذا لانه لا يجوز أن يقال النساء قد حضنه لان حضن لا يتعدى الى مفعول قال الازهرى ان صحت هذه اللفظة فى اللغة فلها مخرج وذلك ان المرأة اذا حاضت اول ما تحيض فقد خرجت من حد الصغار الى حد الكبار فيقال لها أكبرت اى حاضت على هذا المعنى فان صحت الرواية عن ابن عباس سلمناه وجعلنا الهاء فى قوله اكبرنه هاء الوقف لا هاء الكناية وقيل ان المرأة اذا خافت اوفزعت فربما اسقطت ولدها وتحيض فان كان ثم حيض فربما كان من فزعهن وما هالهن من امر يوسف حين رأينه قال الامام فخر الدين الرازى وعندى انه يحتمل وجها آخر وهو انهن انما اكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه مهابة وهيبة ملكية وهى عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان ذلك الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلاجرم اكبرنه وأعظمنه ووقع الرعب والمهابة فى قلوبهن قال وحمل الآية على هذا الوجه اولى (وقطعن أيديهن) يعنى وجعلن يقطعن ايديهن بالسكاكين التى معهن وهن يحسبن انهن يقطعن الاترج ولم يجدن الالم لدهشتهن وشغل قلوبهن بيوسف قال مجاهد فما أحسن الا بالدم وقال قتادة أبن ايديهن حتى ألقينها والاصح انه كان قطعا من غير ابانة وقال وهب مات جماعة منهن (وقلن) يعنى النسوة (حاش لله ما هذا بشرا) اى معاذ الله أن يكون هذا بشرا (ان هذا الا ملك كريم) يعنى على الله والمقصود من هذا اثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف لانه قد ركز فى النفوس أن لا شئ احسن من الملك فلذلك وصفه بكونه ملكا وقيل لما كان الملك مطهرا من بواعث الشهوة وجميع الآفات والحوادث التى تحصل للبشر وصفن يوسف بذلك قوله تعالى (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) يعنى قالت امرأة العزيز للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته فذلكن الذى لمتننى فى محبته وانما قالت ذلك لاقامة عذرها عندهن حين قلن ان امرأة العزيز قد شغفها فتاها الكنعانى حبا وانما قالت فذلكن الخ بعد ما قام من المجلس وذهب وقال صاحب الكشاف قالت فذلكن ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمنزلته فى الحسن واستحقاق أن يحب و يفتتن به ويجوز أن يكون اشارة الى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعانى تقول هو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى انفسكن ثم لمتننى فيه ثم ان امرأة العزيز صرحت بما فعلت فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) يعنى فامتنع من ذلك الفعل الذى طلبته منه وانما صرحت بذلك لانها علمت انه لا ملامة عليها منهن وانهن قد أصابهن ما اصابها عند رؤيته ثم ان امرأة العزيز قالت (ولئن لم يفعل ما آمره) يعنى وان لم يطاوعنى فيما دعوته اليه (ليسجنن

(وليكونا) بدل من نون التأكيد الخفيفة (من الصاغرين) مع السراق والسفاك والاباق كما سرق قلبي وأبق مني وسفك دمي بالفراق فلا يهنأ ليوسف الطعام والشراب والنوم هنالك كما منعني هنا كل ذلك ومن لم يرض بمثلي في الحرير على السرير أميرا حصل في الحصير على الحصير حسيرا فلما سمع يوسف تهديدها (قال رب السجن احب الي مما يدعونني اليه) اسند الدعوة اليهن لانهن قلن له ما عليك لو اجبت مولاتك او افتتنت كل واحدة به فدعته الى نفسها سرا فالتجأ الى ربه قال رب السجن احب الي من ركوب المعصية (والا تصرف عني كيدهن) فزع منه الى الله في طلب العصمة (أصب اليهن) أمل اليهن والصبوة الميل ١٩ الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس تصبو اليها الطيب نسيمها وروحها (وأكن من الجاهلين) من الذين لا يعملون بما يعلمون لان من لا جدوى لعلمه فهو ومن لم يعلم سواء اومن السفهاء فلما كان في قوله والا تصرف عني كيدهن معنى طلب الصرف والدعاء قال (فاستجاب له ربه) اى اجاب الله دعاءه (فصرف عنه كيدهن انه هو السميع) لدعوات الملتجئين اليه (العليم) بحاله وحال من (ثم بدا لهم) فاعله مضمر لدلالة ما يفسره عليه وهو ليسجننه والمعنى بدا لهم بداء اى ظهر لهم رأى والضمير في لهم للعزيز وأهله (من بعد ما رأوا الآيات) وهي الشواهد على براءته كقد القميص وقطع الايدي وشهادة الصبي وغير ذلك (ليسجننه) لابداء عذر الحال وارخاء الستر على القيل والقال وما كان ذلك الا باستنزال المرأة لزوجها وكان مطواعا لها وجيلا ذلولا لزمامه في يدها وقد طمعت ان يذله السجن ويسخره لها وخافت عليه العيون وظنت فيه الظنون فالجأها الخجل من الناس والوجل من الباس الى ان رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب لتشتفي بخبره اذا منعت من نظره (حتى حين) الى زمان كانها اقترحت ان يسجن زمانا حتى تبصر ما يكون منه (ودخل معه السجن فتيان) عبدان للملك خبازه وشرابيه بتهمة السم فادخلا السجن ساعة ادخل يوسف لان مع يدل على معنى الصحبة تقول خرجت مع الامير تريد مصاحبته فيجب ان يكون دخولهما السجن مصاحبين له

اى ليعاقبن بالسجن والحبس (وليكونا من الصاغرين) يعني من الاذلاء المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف السجن على المعصية حين توعدته المرأة بذلك (قال رب) اى يا رب (السجن أحب الي مما يدعونني اليه) قيل ان الدعاء كان منها خاصة وانما اضافه اليهن جميعا خروجا من التصريح الى التعريض وقيل انهن جميعا دعونه الى انفسهن وقيل انهن لما قلن له أطع مولاتك صحت اضافة الدعاء اليهن جميعا اولانه كان بحضرتهن قال بعضهم لو لم يقل السجن احب الي لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد أن يسأل الله العافية (والا تصرف عني كيدهن) يعني ما اردن مني (أصب اليهن) اى أمل اليهن يقال صبا فلان الى كذا اذا مال اليه واشتاقه (وأكن من الجاهلين) يعني من المذنبين وقيل معناه أكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل وفيه دليل على ان من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة (فاستجاب له ربه) يعني فاجاب الله تعالى دعاء يوسف (فصرف عنه كيدهن انه هو السميع) يعني لدعاء يوسف وغيره (العليم) يعني بحاله وفي الآية دليل على ان يوسف عليه الصلاة والسلام لما أظلته البلية بكيد النساء ومطالبتهن اياه بما لا يليق بحاله لجأ الى الله وفزع الى الدعاء رغبة الى الله لكشف عنه ما نزل به من ذلك الامر مع الاعتراف بانه ان لم يعصمه من المعصية وقع فيها فدل ذلك على انه لا يقدر أحد على الانصراف عن المعصية الا بعصمة الله ولطفه به * قوله عز وجل (ثم بدا لهم) يعني للعزيز واصحابه في الرأي وذلك انهم ارادوا أن يقتصروا من امر يوسف على الاعراض وكتم الحال وذلك ان المرأة قالت لزوجها ان ذلك العبد العبراني قد فضحني عند الناس بخبرهم بانى قد راودته عن نفسه فاما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر الى الناس واما أن تحبسه فرأى حبسه (من بعد ما رأوا الآيات) يعني الدالة على صدق يوسف وبراءته من قد القميص وكلام الطفل وقطع النساء ايديهن وذهاب عقولهن عند رؤيته (ليسجننه) اى ليحبسن يوسف في السجن (حتى حين) يعني الى مدة يرون رأيهم فيها وقال عطاء الى ان تنقطع مقالة الناس وقال عكرمة الى سبع سنين وقال الكلبي خمس سنين فحبسه قال السدي جعل الله ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه بالمرأة (ودخل معه السجن فتيان) وهما غلامان كانا للوليد بن نزوان العمليق ملك مصر الاكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه وكان قد غضب عليهما الملك فحبسهما وكان السبب في ذلك ان جماعة من اشراف مصر ارادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على ان يسما الملك في طعامه وشرابه فاجابا الى ذلك ثم ان الساقي ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي لا تأكل أيها الملك فان الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب فان الشراب مسموم فقال للساقي اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فابى فاطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فامر الملك بحبسهما فحبسا مع يوسف وكان يوسف لما دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول اني أعبر الاحلام فقال احد الغلامين لصاحبه هلم فلنجرب هذا الغلام

(قال أحدهما) اى شرابيه (انى أرانى) اى فى المنام وهى حكاية حال ماضية (أعصر خمرا) اى عنبا تسمية للعنب بما يؤل اليه او الخمر بلغة عمان اسم للعنب (وقال الآخر) اى خبازه (انى أرانى احمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله) بتأويل

العبرانى فتراءياله رؤيا فسألاه من غير ان يكونا قد رأيا شيأ قال ابن مسعود ما رأيا شيأ انما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهموم فسألهما عن شأنهما فذكرا انهما غلامان للملك وقد حبسهما وقد رأيا رؤيا قد غمتهما فقال يوسف قصا على ما رأيتما فقصا عليه ما رأيا فذلك قوله تعالى (قال احدهما) وهو صاحب شراب الملك (انى أرانى أعصر خمرا) يعنى عنبا سمى العنب خمرا باسم ما يؤل اليه يقال فلان يطبخ الآجر أى يطبخ اللبن حتى يصير آجرا وقيل الخمر العنب بلغة عمان وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كانى فى بستان واذا فيه اصل حبلة وعليها ثلاثة عناقيد عنب فجنيتها وكان كاس الملك فى يدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه (وقال الآخر) وهو صاحب طعام الملك (انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كان فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز والوان الاطعمة وسباع الطير تنهش منها (نبئنا بتأويله) اى اخبرنا بتفسير ما رأينا وما يؤل اليه امر هذه الرؤيا (انا نراك من المحسنين) يعنى من العالمين بعبارة الرؤيا والاحسان هنا بمعنى العلم وسئل الضحاك ما كان احسانه فقال كان اذا مرض انسان فى الحبس عاده وقام عليه واذا ضاق على احد وسع عليه واذا احتاج احد جمع له شيأ وكان مع هذا يجتهد فى العبادة يصوم النهار ويقوم الليل كله للصلاة وقيل انه لما دخل السجن وجد فيه قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسليهم ويقول اصبروا وأبشروا فقالوا بارك الله فيك يا فتى ما احسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أين انت قال انا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له صاحب السجن يا فتى والله لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأرفق بك وأحسن جوارك واختر اى بيوت السجن شئت وقيل ان الفتيين لما رأيا يوسف قالا انا قد احببناك منذ رأيناك فقال لهما يوسف انشدكما بالله ان لا تحبانى فوالله ما احبنى احد قط الا دخل على من حبه بلاء لقد احبتنى عمتى فدخل على من ذلك بلاء واحبنى ابى فالقيت فى الجب واحبتنى امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه رؤياهما كره يوسف ان يعبرها لهما حين سألاه لما علم ما فى ذلك من المكروه لاحدهما واعرض عن سؤالهما واخذ فى غيره من اظهار المعجزة والنبوة والدعاء الى التوحيد وقيل انه عليه السلام اراد ان يبين لهما ان درجته فى العلم أعلى واعظم مما اعتقداه وذلك انهما طلبا منه علم التعبير ولا شك ان هذا العلم مبنى على الظن والتخمين فاراد ان يعلمهما انه يمكنه الاخبار عن المغيبات على سبيل القطع واليقين وذلك مما يعجز الخلق عنه واذا قدر على الاخبار عن الغيوب كان اقدر على تعبير الرؤيا بطريق الاولى وقيل انما عدل عن تعبير رؤياهما الى اظهار المعجزة لانه علم ان احدهما سيصلب فاراد ان يدخله فى الاسلام ويخلصه من الكفر ودخول النار فاظهر له المعجزة لهذا السبب (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله) قيل اراد به فى النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه فى نومكما الا أخبرتكما خبره فى اليقظة وقيل اراد به فى اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه يعنى تطعمانه وتأكلانه الا نبأتكما بتأويله يعنى أخبركما بقدره ولونه والوقت الذى يصل اليكما فيه (قبل أن يأتيكما) يعنى قبل ان يصل اليكما اى طعام اكلتم وكما اكلتم ومتى أكلتم وهذا مثل معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم فقال ليوسف عليه الصلاة والسلام هذا من علم العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم فقال ما انا بكاهن ولا عراف وانما ذلك اشارة الى المعجزة والعلم الذى اخبرهما به (ذلكما مما علمنى ربى) يعنى ان هذا الذى اخبرتكما به

ما رأيناه (انا نراك من المحسنين) من الذين يحسنون عبارة الرؤيا او من المحسنين الى اهل السجن فانك تداوى المريض وتعزى الحزين وتوسع على الفقير فاحسن لنا بتأويل ما رأينا وقيل انهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابى انى رأيت كانى فى بستان فاذا باصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها فى كاس الملك وسقيته وقال الخباز انى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها انواع الاطعمة فاذا سباع الطير تنهش منها (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله) اى ببيان ماهيته وكيفيته لان ذلك يشبه تفسير المشكل (قبل ان يأتيكما) ولما استعبراه ووصفاه بالاحسان افترص ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الاخبار بالغيب وانه ينبئهما بما يحمل اليهما من الطعام فى السجن قبل ان يأتيهما ويصفه لهما ويقول اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت

فيكون كذلك وجعل ذلك تخلصا الى ان يذكرهما التوحيد ويعرض عليهما الايمان ويزينه وحى

لهما ويقبح اليهم الشرك وفيه ان العالم اذا جهلت منزلته فى العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه ان يقتبس منه لم يكن من باب التزكية (ذلكما) اشارة لهما الى التأويل اى ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات (مما علمنى ربى) وأوحى به الى ولم أقله عن تكهن وتنجم

(انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) يجوز ان يكون كلاما مبتدا وان يكون تعليلا لما قبله اى علمنى ذلك واوحى به الى لانى رفضت ملة اولئك وهم أهل مصر ومن كان القبطيان على دينهم (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) وهى الملة الحنيفية وتكريرهم للتوكيد وذكر الآباء ليريهما انه من بيت النبوة بعد ان عرفهما انه نبى يوحى اليه بما ذكر من اخباره بالغيوب ليقوى رغبتهما فى اتباع قوله والمراد به ترك الابتداء لانه كان فيه ثم تركه (ما كان لنا) ماصح لنا معشر الانبياء (ان نشرك بالله من شئ) اى شئ كان صنما او غيره ثم قال (ذلك) التوحيد (من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) فضل الله فيشركون به ولا ينتهون (يا صاحبى السجن) ياساكنى السجن كقوله اصحاب النار واصحاب الجنة (أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار) يريد التفرق فى العدد والتكاثر اى ان تكون أرباب شتى يستعبد كما هذا او يستعبد كما هذا خير لكما ام يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك فى الربوبية وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الاصنام (ما تعبدون) خطاب لهما ولمن كان على دينهما من أهل مصر (من دونه) من دون الله (الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) اى سميتم ما لا يستحق الالهية آلهة ثم طفقتم تعبدونها فكأنكم لا تعبدون الا اسماء

وحى من الله اوحاه الى وعلم علمنيه (انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) فان قلت ظاهر قوله انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله انه عليه الصلاة والسلام كان داخلا فى هذه الملة ثم تركها وليس الامر كذلك لان الانبياء عليهم الصلاة والسلام من حين ولدوا وظهروا الى الوجود هم على التوحيد فما معنى هذا الترك فى قوله تركت قلت الجواب من وجهين الاول ان الترك عبارة عن عدم التعرض للشئ والالتفات اليه بالمرة وليس من شرطه ان يكون قد كان داخلا فيه ثم تركه ورجع عنه الوجه الثانى وهو الاقرب ان يوسف عليه الصلاة والسلام لما كان عند العزيز وهو كافر وجميع من عنده كذلك وقد كان بينهم وكان يوسف على التوحيد والايمان الصحيح صح قوله انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله (وهم بالآخرة هم كافرون) فترك ملتهم واعرض عنهم ولم يوافقهم على ما كانوا عليه وتكرير لفظة هم فى قوله وهم بالآخرة هم كافرون للتوكيد لشدة انكارهم للمعاد وقوله (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) لما ادعى يوسف عليه السلام النبوة واظهر المعجزة أظهر انه من أهل بيت النبوة وان آباءه كلهم كانوا انبياء وقيل لما كان ابراهيم واسحق ويعقوب مشهورين بالنبوة والرسالة ولهم الدرجة العليا فى الدنيا عند الخلق والمنزلة الرفيعة فى الآخرة أظهر يوسف عليه الصلاة والسلام انه من أولادهم وانه من أهل بيت النبوة ليسمعوا قوله ويطيعوا أمره فيما يدعوهم اليه من التوحيد (ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ) معناه ان الله سبحانه وتعالى لما اختارنا للنبوته واصطفانا لرسالته وعصمنا من الشرك فما كان ينبغى لنا ان نشرك به مع جميع هذه الاختصاصات التى اختصنا بها قال الواحدى لفظة من فى قوله من شئ زائدة مؤكدة كقولك ما جاءنى من أحد وقال صاحب الكشاف ما كان لنا ماصح لنا معشر الانبياء ان نشرك بالله من شئ اى شئ كان من ملك او جنى او انسى فضلا ان نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر (ذلك من فضل الله) يعنى ذلك التوحيد وعدم الاشراك والعلم الذى رزقنا من فضل الله (علينا وعلى الناس) يعنى بما نصب لهم من الادلة الدالة على وحدانيته وبين لهم طريق الهداية اليه فكل ذلك من فضل الله على عباده (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) يعنى ان أكثرهم لا يشكرون الله على هذه النعم التى أنعم بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهما الى الاسلام فقال (يا صاحبى السجن) يريد يا صاحبى فى السجن فاضافهما الى السجن كما تقول يا سارق الليلة لان الليلة مسروق فيها غير مسروقة ويجوز ان يريد يا ساكنى السجن كقوله اصحاب النار واصحاب الجنة (أأرباب متفرقون) يعنى آلهة شتى من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وغير ذلك وصغير وكبير ومتوسط متباينون فى الصفة وهى مع ذلك لا تضر ولا تنفع (خير أم الله الواحد القهار) يعنى ان هذه الاصنام أعظم صفة فى المدح واستحقاق اسم الالهية والعبادة أم الله الواحد القهار قال الخطابى الواحد هو الفرد الذى لم يزل وحده وقيل هو المنقطع عن القرين والمعدوم الشريك والنظير وليس هو كسائر الآحاد من الاجسام المؤلفة لان ذلك قد يكثر بانضمام بعضها الى بعض والواحد ليس كذلك فهو الله الواحد الذى لا مثل له ولا يشبهه شئ من خلقه القهار قال الخطابى القهار هو الذى قهر الجبابرة من خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كلهم بالموت وقال غيره القهار هو الذى قهر كل شئ وذلله فاستسلم وانقاد وذل له والمعنى ان هذه الاصنام التى تعبدونها اذلة مقهورة اذا أراد الانسان كسرها واهانتها قدر عليه والله هو الواحد فى ملكه القهار لعباده الذى لا يغلبه شئ وهو الغالب لكل شئ سبحانه وتعالى ثم بين عجز الاصنام وانها لا شئ البتة فقال (ما تعبدون من دونه) يعنى من دون الله وانما قال تعبدون بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية فى المخاطبة لانه أراد جميع من فى السجن من المشركين (الا أسماء سميتموها) يعنى سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة جمادات خالية عن المعنى لا حقيقة لها (أنتم وآباؤكم)

لا مسميات لها ومعنى سميتموها سميتم بها يقال سميته زيدا وسميته بزيد (ما أنزل الله بها) بتسميتها (من سلطان) حجة (ان الحكم) فى أمر
العبادة والدين (الا لله) ثم بين ٢٢ ما حكم به فقال (أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم) الثابت الذى دلت عليه البراهين (ولكن
أكثر الناس لا يعلمون)
وهذا يدل على ان العقوبة
تلزم العبد وان جهل اذا
أمكن له العلم بطريقه ثم
عبر الرؤيا فقال (ياصاحبى
السجن اما أحدكما) يريد
الشرابى (فيسقى ربه)
سيده (خمرا) اى يعود
الى عمله (واما الآخر) اى
الخباز (فيصلب فتأكل
الطير من رأسه) روى انه
قال للاول ما رأيت من
الكرمة وحسنها وهو الملك
وحسن حالك عنده وأما
القضبان الثلاثة فانها
ثلاثة أيام تمضى فى السجن
ثم تخرج وتعود الى
ما كنت عليه وقال للثانى
ما رأيت من السلال ثلاثة
أيام ثم تخرج فتقتل ولما
سمع الخباز صلبه قال
ما رأيت شيأ فقال يوسف
(قضى الأمر الذى فيه
تستفتيان) اى قطع وتم
ما تستفتيان فيه من أمركما
وشأنكما اى ما يجر اليه
من العاقبة وهى هلاك
أحدهما ونجاة الآخر
(وقال للذى ظن انه ناج
منهما) الظان هو يوسف
عليه السلام ان كان تأويله
بطريق الاجتهاد وان كان
بطريق الوحى فالظان
هو الشرابى او يكون الظن بمعنى اليقين (اذكرنى عند ربك) صفنى عند الملك بصفتى وقص عليه قصتى لعله

يعنى من قبلكم سموها آلهة (ما أنزل الله بها من سلطان) يعنى ان تسمية الاصنام آلهة لا حجة لكم بها ولا
برهان ولا أمر الله بها وذلك أنهم كانوا يقولون ان الله أمرنا بهذه التسمية فرد الله عليهم بقوله ما أنزل الله بها
من سلطان (ان الحكم الا لله) يعنى ان الحكم والقضاء والامر والنهى الا لله تعالى لا شريك له فى ذلك (أمر
ألا تعبدوا الا اياه) لانه هو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام التى سميتموها آلهة (ذلك الدين القيم) يعنى
عبادة الله هى الدين المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك ولما فرغ يوسف عليه الصلاة والسلام
من الدعاء الى الله وعبادته رجع الى تعبير رؤياهما فقال (ياصاحبى السجن اما أحدكما فيسقى ربه خمرا)
يعنى ان صاحب شراب الملك يرجع الى منزلته ويسقى الملك خمرا كما كان يسقيه اولا والعناقيد الثلاثة
هى ثلاثة أيام يبقى فى السجن ثم يدعو به الملك ويرده الى منزلته التى كان عليها (واما الآخر فيصلب
يعنى صاحب طعام الملك والسلال الثلاث ثلاثة ايام ثم يدعو به الملك فيصلبه (فتأكل الطير من رأسه)
قال ابن مسعود رضى الله عنه فلما سمعا قول يوسف عليه الصلاة والسلام قالا ما رأينا شيأ انما كنا نلعب
قال يوسف (قضى الامر الذى فيه تستفتيان) يعنى فرغ من الامر الذى سألتما عنه ووجب حكم الله عليكما
بالذى أخبرتكما به رأيتما شيأ أم لم تريا (وقال) يعنى يوسف (للذى ظن) يعنى علم وتحقق فالظن بمعنى العلم
(انه ناج منهما) يعنى ساقى الملك (اذكرنى عند ربك) يعنى سيدك وهو الملك الاكبر فقل له ان فى السجن
غلاما محبوسا مظلوما طال حبسه (فانساه الشيطان ذكر ربه) فى هاء الكناية فى فأنساه الى من تعود قولان
احدهما انها ترجع الى الساقى وهو قول عامة المفسرين والمعنى فانسى الشيطان الساقى ان يذكر يوسف
عند الملك قالوا الان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل الساقى حتى أنساه ذكر يوسف اولى من صرفها
الى يوسف والقول الثانى وهو قول أكثر المفسرين ان هاء الكناية ترجع الى يوسف والمعنى ان الشيطان
أنسى يوسف ذكر ربه عز وجل حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله فى دفع الضر وتلك
غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق فى دفع الضر جائزة الا انه لما كان مقام يوسف
أعلى المقامات ورتبته أشرف المراتب وهى منصب النبوة والرسالة لا جرم صار يوسف مؤاخذ بهذا القدر فان
حسنات الابرار سيئات المقربين فان قلت كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه قلت
بشغل الخاطر والقاء الوسوسة فانه قد صح فى الحديث ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فاما
النسيان الذى هو عبارة عن ترك الذكر وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه وقوله سبحانه وتعالى
(فلبث فى السجن بضع سنين) اختلفوا فى قدر البضع فقال مجاهد هو ما بين الثلاث الى السبع وقال قتادة
هو ما بين الثلاث الى التسع وقال ابن عباس هو ما دون العشرة وأكثر المفسرين على ان البضع فى هذه
الآية سبع سنين وكان يوسف قد لبث قبلها فى السجن خمس سنين فجملة ذلك اثنتا عشرة سنة وقال
وهب أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف فى السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال
يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لاطيلن حبسك فبكى يوسف
وقال يارب أنسى قلبى ذكرك كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله
يوسف لولا كلمته التى قالها ما لبث فى السجن ما لبث يعنى قوله اذكرنى عند ربك ثم بكى الحسن وقال
نحن اذا نزل بنا أمر فزعنا الى الناس ذكره الثعلبى مرسلا وبغير سند وقيل ان جبريل دخل على يوسف
فى السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يوسف يا أخا المنذرين مالى أراك بين الخاطئين فقال له جبريل

يا
يرحمنى ويخلصنى من هذه الورطة (فانساه الشيطان) فانسى الشرابى (ذكر ربه) ان يذكره لربه او عند ربه او فانسى يوسف ذكر الله حين
وكل أمره الى غيره وفى الحديث رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا (فلبث فى السجن بضع سنين)

اى سبعا عند الجمهور والبضع ما بين الثلاث الى التسع (وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) لما دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا أخر يابسات قد استحصدت وأدركتا فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فاستعبرها فلم يجد فى قومه من يحسن عبارتها وقيل كان ابتداء بلاء يوسف فى الرؤيا ثم كان سبب نجاته ايضا الرؤيا سمان جمع سمين وسمينة والعجاف المهازيل والعجف الهزال الذى ليس بعده سمانة والسبب فى وقوع عجاف جمعا للعجفاء وافعل وفعلاء لا يجمعان على فعال حمله على نقيضه وهو سمان ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض وفى الآية دلالة على ان السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر لان الكلام مبنى على ٢٣ انصبابه الى هذا العدد فى البقرات

ياطاهر ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك اما استحييت منى ان استغثت بالآدميين فوعزتى وجلالى لأطيلن لبثك فى السجن بضع سنين قال يوسف وهو فى ذلك عنى راض قال نعم قال اذا لا أبالى وقال كعب قال جبريل ليوسف يقول الله عز وجل لك من خلقك قال الله قال فمن رزقك قال الله قال فمن حبك الى ابيك قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استغثت بآدمى مثلك قالوا فلما انقضت سبع سنين قال الكلبى وهذه السبع سوى الخمس سنين التى كانت قبل ذلك ودنا فرج يوسف وأراد الله عز وجل اخراجه من السجن رأى ملك مصر الاكبر رؤيا عجيبة هالته وذلك انه رأى فى منامه سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلع العجاف السمان ودخلن فى بطونهن ولم يرمنهن شئ ولم يتبين على العجاف منها شئ ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتها شئ فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقص عليهم رؤياه التى رآها فذلك قوله تعالى (وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ افتونى فى رؤياى) يعنى يا أيها الاشراف اخبرونى بتأويل رؤياى (ان كنتم للرؤيا تعبرون) يعنى ان كنتم تحسنون علم العبارة وتفسيرها وعلم التعبير مختص بتفسير الرؤيا وسمى هذا العلم تعبيرا لان المفسر للرؤيا عابر من ظاهرها الى باطنها ليستخرج معناها وهذا أخص من التأويل لان التأويل يقال فيه وفى غيره (قالوا) يعنى قال جماعة الملا وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك (أضغاث أحلام) يعنى اخلاط مشتبهة واحدها ضغث وأصله الحزمة المختلطة من أنواع الحشيش والاحلام جمع حلم وهو الرؤيا التى يراها الانسان فى منامه (وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) لما جعل الله هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن وذلك ان الملك لما رآها قلق واضطرب وذلك لانه قد شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوى الكامل حتى قهره وغلبه فاراد ان يعرف تأويل ذلك فجمع سحرته وكهنته ومعبريه وأخبرهم بما رأى فى منامه وسألهم عن تأويلها فاعجز الله بقدرته جماعة الكهنة والمعبرين عن تأويل هذه الرؤيا ومنعهم عن الجواب ليكون ذلك سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن فذلك قوله تعالى (وقال الذى نجا منهما) يعنى وقال الساقى الذى نجا من السجن والقتل بعد هلاك صاحبه الخباز

السمان والعجاف والسنابل الخضر فوجب ان يتناول معنى الاخر السبع ويكون قوله واخر يابسات بمعنى وسبعا اخر (يا ايها الملأ) كانه أراد الاعيان من العلماء والحكماء (أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون) اللام فى للرؤيا للبيان كقوله وكانوا فيه من الزاهدين اولان المفعول به اذا تقدم على الفعل لم يكن فى قوته على العمل فيه مثله اذا تأخر عنه فعضد بها تقول عبرت الرؤيا وللرؤيا عبرت او يكون للرؤيا خبر كان كقولك كان فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر او حال وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول عبرت النهر اذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره ونحوه أولت الرؤيا اذا ذكرت ما آلت اليه وهو مرجعها وعبرت الرؤيا بالتخفيف هو الذى اعتمده الاثبات ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر (قالوا أضغاث أحلام) اى اضغاث احلام اى تخاليطها واباطيلها ومايكون منها من حديث نفس اووسوسة شيطان واصل الاضغاث ماجمع من اخلاط النبات وحزم من انواع الحشيش الواحد ضغث فاستعيرت لذلك والاضافة بمعنى من اى اضغاث من احلام وانما جمع وهو حلم واحد تزايد فى وصف الحلم بالبطلان وجاز ان يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها (وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) أرادوا بالاحلام المنامات الباطلة فقالوا ليس لها عندنا تأويل انما التأويل للمنامات الصحيحة او اعترفوا بقصور علمهم وانهم ليسوا فى تأويل الاحلام بخابرين (وقال الذى نجا) من القتل (منهما) من صاحبى السجن

(وادكر) بالدال هو الفصيح واصله اذتكر فابدلت الذال دالا والتاء دالا وادغمت الاولى فى الثانية لتقارب الحرفين وعن الحسن واذكر ووجه انه قلب التاء ذالا وادغم اى تذكر يوسف وماشاهد منه (بعد امة) بعد مدة طويلة وذلك انه حين استفتى الملك فى رؤياه واعضل على الملك تأويلها تذكر الناجى يوسف وتأويله رؤياه ورؤياصاحبه وطلبه اليه ان يذكره عند الملك (أنا أنبئكم بتأويله) انا أخبركم به عن عنده علمه (فارسلون) وبالياء يعقوب اى فابعثونى اليه لاسأله فأرسلوه الى يوسف فاتاه فقال (يوسف أيها الصديق) ايها البليغ فى الصدق وانما قال له ذلك لانه ذاق ٢٤ وتعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤياصاحبه حيث جاء كما أول (أفتنا فى سبع بقرات سمان

(وادكر بعد أمة) يعنى انه تذكر قول يوسف اذكرنى عند ربك بعد أمة يعنى بعد حين وهو سبع سنين وسمى الحين من الزمان أمة لانه جماعة الايام والامة الجماعة (أنا أنبئكم) يعنى أخبركم (بتأويله) وقوله انا أنبئكم بلفظ الجمع اما انه أراد به الملك مع جماعة السحرة والكهنة والمعبرين او أراد به الملك وحده وخاطبه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وذلك ان الفتى الساقى جثا بين يدى الملك وقال ان فى السجن رجلا عالما يعبر الرؤيا (فارسلون) فيه اختصار تقديره فارسلنى أيها الملك فأرسله فاتى السجن قال ابن عباس ولم يكن فى المدينة (يوسف) اى يا يوسف (أيها الصديق) انما سماه صديقا لانه لم يجرب عليه كذبا قط والصديق الكثير الصدق والذى لم يكذب قط وقيل سماه صديقا لانه صدق فى تعبير رؤياه التى رآها فى السجن (أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) فان الملك رأى هذه الرؤيا (لعلى أرجع الى الناس) يعنى ارجع بتأويل هذه الرؤيا الى الملك وجماعته (لعلهم يعلمون) يعنى بتأويل هذه الرؤيا وقيل لعلهم يعلمون منزلتك فى العلم (قال) يعنى قال يوسف معبرا لتلك الرؤيا أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله تعالى (تزرعون) وهذا خبر بمعنى الامر اى ازرعوا (سبع سنين دأبا) يعنى عادتكم فى الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد (فما حصدتم فذروه فى سنبله) انما أمرهم بترك ما حصدوه من الحنطة فى سنبله لئلا يفسد ويقع فيه السوس وذلك أبقى له على طول الزمان (الا قليلا مما تأكلون) يعنى ادرسوا قليلا من الحنطة للاكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الاكثر لوقت الحاجة أيضا وهو وقت السنين المجدبة وهو قوله (ثم يأتى من بعد ذلك) يعنى من بعد السنين المخصبة (سبع شداد) يعنى سبع سنين مجدبة محلة شديدة على الناس (يأكلن) يعنى يقنين (ما قدمتم لهن) يعنى يؤكل فيهن كل ما أعددتم وادخرتم لهن من الطعام وانما أضاف الاكل الى السنين على طريق التوسع فى الكلام (الا قليلا مما تحصنون) يعنى تحرزون وتدخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشئ فى الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع (ثم يأتى من بعد ذلك) يعنى من بعد هذه السنين المجدبة (عام فيه يغاث الناس) اى يمطرون من الغيث الذى هو المطر وقيل هو من قولهم استغثت بفلان فاغاثنى من الغوث (وفيه يعصرون) يعنى يعصرون العنب خمرا والزيتون زيتا والسمسم دهنا أراد به كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب فى الزرع والثمار وقيل يعصرون معناه ينجون من الكرب والشدة والجدب قوله عز وجل (وقال الملك ائتونى به) وذلك ان الساقى لما رجع الى الملك وأخبره بفتيا يوسف وما عبر به رؤياه استحسنه الملك وعرف ان الذى قاله كائن لا محالة فقال ائتونى به حتى أبصر هذا الرجل الذى قد عبر رؤياى بهذه العبارة فرجع الساقى الى يوسف وقال له اجب الملك فذلك قوله تعالى (فلما جاءه الرسول) فابى ان يخرج معه حتى تظهر براءته للملك

يا كلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس) الى الملك وأتباعه (لعلهم يعلمون) فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محنتك (قال تزرعون سبع سنين) هو خبر فى معنى الامر كقوله تؤمنون بالله واليوم الآخر وتجاهدون دليله قوله فذروه فى سنبله وانما يخرج الامر فى صورة الخبر للمبالغة فى وجود المأمور به فيجعل كأنه موجود فهو يخبر عنه (دأبا) بسكون الهمزة وحفص يحركه وهما مصدر أدأب فى العمل وهو حال من المأمورين اى دائبين (فما حصدتم فذروه فى سنبله) كى لا يأكله السوس (الا قليلا مما تأكلون) فى تلك السنين (ثم يأتى من بعد ذلك) هو سبع شداد يأكلن) هو من أسناد المجاز جعل

أكلهن مسندا اليهن (ما قدمتم لهن) اى فى السنين المخصبة (الا قليلا مما تحصنون) تحرزون ولا
وتخبؤن (ثم يأتى من بعد ذلك عام) اى من بعد اربع عشرة سنة عام (فيه يغاث الناس) من الغوث اى يجاب مستغيثهم او من الغيث اى يمطرون يقال غيثت البلاد اذا مطرت (وفيه يعصرون) العنب والزيتون والسمسم فيتخذون الاشربة والادهان يعصرون حزة قاولى البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بان العام الثامن يجئ مباركا كثير الخير غزير النعم وذلك من جهة الوحى (وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول) ليخرجه من السجن

(قال ارجع الى ربك) اى الملك (فاسئله مابال النسوة) اى حال النسوة (اللاتى قطعن ايديهن) انما تثبت يوسف وتأنى فى اجابة الملك وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما رمى به وسجن فيه لئلا يتسلق به الحاسدون الى تقبيح امره عنده ويجعلوه سلما الى حط منزلته لديه ولئلا يقولوا ماخلد فى السجن سبع سنين الا امر عظيم وجرم كبير وفيه دليل على ان الاجتهاد فى نفى التهم واجب ووجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها وقال عليه السلام لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما اخبرتهم حتى اشترط ان يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ٢٥ فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه

ولا راه بعين النقص (قال) يعنى قال يوسف للرسول (ارجع الى ربك) يعنى الى سيدك وهو الملك (فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدبا واحتراما لها (ق) عن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لبثت فى السجن طول لبث يوسف لاجبت الداعى اخرجه الترمذى وزاد فيه ثم قرأ فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن ايديهن هذا الحديث فيه بيان فضل يوسف عليه الصلاة والسلام وبيان قوة صبره وثباته والمراد بالداعى رسول الملك الذى جاءه من عنده فلم يخرج معه مبادرا الى الراحة ومفارقة ما هو فيه من الضيق والسجن الطويل فلبث فى السجن وراسل الملك فى كشف امره الذى سجن بسببه لتظهر براءته عند الملك وغيره فاثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على يوسف عليه الصلاة والسلام وبين فضيلته وحسن صبره على المحنة والبلاء وقوله (ان ربى بكيدهن عليم) يعنى ان الله تعالى عالم بصنيعهن وما احتلن فى هذه الواقعة من الحيل العظيمة فرجع الرسول من عند يوسف الى الملك بهذه الرسالة فجمع الملك النسوة وامراة العزيز معهن و (قال) لهن (ماخطبكن) اى ماشأنكن وأمركن (اذ راودتن يوسف عن نفسه) انما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امراة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل ان امراة العزيز راودته عن نفسه وحدها وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب (قلن) يعنى النسوة جميعا مجيبات للملك (حاش لله) يعنى معاذ الله (ما علمنا عليه من سوء) يعنى من خيانة فى شئ من الاشياء (قالت امرات العزيز الآن حصحص الحق) يعنى ظهر وتبين وقيل ان النسوة اقبلن على امراة العزيز فعززنها وقيل خافت ان يشهدن عليها فاقرت فقالت (أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) يعنى فى قوله هى راودتنى عن نفسى واختلفوا فى قوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) على قولين احدهما انه من قول المراة ووجه هذا القول ان هذا كلام متصل بما قبله وهو قول المراة الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ثم قالت ذلك ليعلم أنى لم اخنه بالغيب والمعنى ذلك ليعلم يوسف انى لم اخنه فى حال غيبته وهو فى السجن ولم اكذب عليه بل قلت أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين وان كنت قد قلت فيه ماقلت فى حضرته ثم بالغت فى تأكيد هذا القول فقالت (وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) يعنى انى لما اقدمت على هذا الكيد والمكر لاجرم انى افتضحت لان الله لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين والقول الثانى انه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وهذا قول الاكثرين من المفسرين والعلماء ووجه هذا القول انه لا يبعد وصل كلام انسان بكلام انسان آخر اذا دلت القرينة عليه فعلى هذا يكون معنى الآية انه لما بلغ يوسف قول المراة أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين قال يوسف ذلك اى الذى فعلت من ردى رسول الملك اليه ليعلم يعنى العزيز انى لم أخنه فى زوجته بالغيب يعنى

ولبثت فى السجن مالبث لاسرعت الاجابة وبادرت الباب ولما ابتغيت العذران كان لحليما ذا أناة ومن كرمه وحسن أدبه انه لم يذكر سيدته مع ماصنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن (ان ربى بكيدهن عليم) اى ان كيدهن عظيم لا يعلمه الا الله وهو مجازيهن عليه فرجع الرسول الى الملك من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة المقطعات أيديهن ودعا امرأة العزيز ثم (قال) لهن (ماخطبكن) ماشأنكن (اذ راودتن يوسف عن نفسه) هل وجدتن منه ميلا اليكن (قلن حاش لله) تعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله (ما علمنا عليه من سوء) من ذنب (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) ظهر واستقر

(أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) فى قوله هى راودتنى عن نفسى ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة واعترافهن على انفسهن بانه لم يتعلق بشئ مما قذف به ثم رجع الرسول الى يوسف واخبره بكلام النسوة واقرار امراة العزيز وشهادتها على نفسها فقال يوسف (ذلك) اى امتناعى من الخروج والتثبت لظهور البراءة (ليعلم العزيز (أنى لم اخنه بالغيب) بظهر الغيب فى حرمته وبالغيب حال من الفاعل او المفعول على معنى وانا غائب عنه او وهو غائب عنى او ليعلم الملك انى لم أخن العزيز (وان الله) اى وليعلم ان الله (لا يهدى كيد الخائنين) لا يسدده وكانه تعريض بامراته فى خيانتها امانة زوجها ثم اراد ان يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون له مازكيا ليبين ان ما فيه من الامانة بتوفيق الله وعصمته فقال

(وما أبرئ نفسي) من الزلل وما اشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها في عموم الاحوال او في هذه الحادثة لما ذكرنا من الهم الذي هو الخطرة البشرية لا عن طريق القصد والعزم (ان النفس لامارة بالسوء) اراد الجنس اي ان هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه لما فيه من الشهوات (الا ما رحم ربي) الا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة ويجوز ان يكون ما رحم في معنى الزمان اي الا وقت رحمة ربي يعني انها امارة بالسوء في كل وقت الا وقت العصمة او هو استثناء منقطع اي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الاساءة وقيل هو من كلام امرأة العزيز اي ذلك الذي قلت ليعلم يوسف اني لم أخنه ولم اكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصدق فيما سئلت عنه وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة فاني قد خنته حين قذفته وقلت ما جزاء من اراد بأهلك سوأ الا ان يسجن واودعته السجن تريد الاعتذار مما كان منها ان كل نفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي الا نفس رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف (ان ربي غفور رحيم) استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت وانما جعل من كلام يوسف ولا دليل عليه ظاهر لان المعنى يعود اليه وقيل هذا من تقديم القرآن وتأخيره اي قوله ذلك ليعلم متصل بقوله فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن (وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي) اجعله خالصا لنفسي

في حال غيبته فيكون هذا من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه من غير تمييز بين الكلامين لمعرفة السامعين لذلك مع غموض فيه لانه ذكر كلام انسان ثم أتبعه بكلام انسان آخر من غير فصل بين الكلامين ونظير هذا قوله تعالى يريد أن يخرجكم من ارضكم هذا من قول الملا فماذا تأمرون من قول فرعون ومثله قوله تعالى وجعلوا أعزة اهلها أذلة هذا من قول بلقيس وكذلك يفعلون من قوله عز وجل تصديقا لها وعلى هذا القول اختلفوا أين كان يوسف حين قال هذه المقالة على قولين احدهما انه كان في السجن وذلك انه لما رجع اليه رسول الملك وهو في السجن واخبره بجواب امرأة العزيز للملك قال حينئذ ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب وهذه رواية ابي صالح عن ابن عباس وبه قال ابن جريج والقول الثاني انه قال هذه المقالة عند حضوره عند الملك وهذه رواية عطاء عن ابن عباس فان قلت فعلى هذا القول كيف خاطبهم بلفظة ذلك وهي اشارة للغائب مع حضوره عندهم قلت قال ابن الانباري قال اللغويون هذا وذلك يصلحان في هذا الموضع لقرب الخبر من اصحابه فصار كالمشاهد الذي يشار اليه بهذا وقيل ذلك اشارة الى ما فعله يقول ذلك الذي فعلته من رد الرسول ليعلم اني لم أخنه بالغيب اي لم أخن العزيز في حال غيبته ثم ختم هذا الكلام بقوله وان الله لا يهدي كيد الخائنين يعني اني لو كنت خائنا لما خلصني الله من هذه الورطة التي وقعت فيها الان الله لا يهدي اي لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين واختلفوا في قوله (وما أبرئ نفسي) من قول من على قولين ايضا احدهما انه من قول المرأة وهذا التفسير على قول من قال ان قوله ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب من قول المرأة فعلى هذا يكون المعنى وما أبرئ نفسي من مراودتي يوسف عن نفسه وكذبي عليه والقول الثاني وهو الاصح وعليه اكثر المفسرين انه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وذلك انه لما قال ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت بها فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسي وهذه رواية عن ابن عباس ايضا وهو قول الاكثرين وقال الحسن ان يوسف لما قال ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب خاف أن يكون قد زكى نفسه فقال وما أبرئ نفسي لان الله تعالى قال فلا تزكوا انفسكم ففي قوله وما أبرئ نفسي هضم للنفس وانكسار وتواضع لله عز وجل فان رؤية النفس في مقام العصمة والتزكية ذنب عظيم فاراد ازالة ذلك عن نفسه فان حسنات الابرار سيئات المقربين (ان النفس لامارة بالسوء) والسوء لفظ جامع لكل ما يهم الانسان من الامور الدنيوية والاخروية والسيئة الفعلة القبيحة واختلفوا في النفس الامارة بالسوء ما هي فالذي عليه اكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم ان النفس الانسانية واحدة ولها صفات منها الامارة بالسوء ومنها اللوامة ومنها المطمئنة فهذه الثلاث المراتب هي صفات لنفس واحدة فاذا دعت النفس الى شهواتها ومالت اليها فهي النفس الامارة بالسوء فاذا فعلتها أتت النفس اللوامة فلامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات ويحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة وقيل ان النفس امارة بالسوء بطبعها فاذا تزكت وصفت من اخلاقها الذميمة صارت مطمئنة وقوله (الا ما رحم ربي) قال ابن عباس معناه الا من عصم ربي فتكون ما بمعنى من فهو كقوله ما طاب لكم من النساء يعني من طاب لكم وقيل هذا استثناء منقطع معناه لكن من رحم ربي فعصمه من متابعة النفس الامارة بالسوء (ان ربي غفور) يعني غفور لذنوب عباده (رحيم) بهم قوله تعالى (وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي) وذلك انه لما تبين للملك عذر يوسف وعرف امانته وعلمه طلب حضوره اليه فقال ائتوني به يعني بيوسف أستخلصه لنفسي اي أجعله خالصا لنفسي والاستخلاص طلب خلوص الشيء من جميع شوائب الاشتراك وانما طلب الملك ان يستخلص يوسف لنفسه لان عادة الملوك ان ينفردوا بالاشياء النفيسة العزيزة ولا يشاركهم فيها

فيها احد من الناس وانما قال الملك ذلك لما عظم اعتقاده فى يوسف لما علم من غزارة علم يوسف وحسن صبره واحسانه الى اهل السجن وحسن ادبه وثباته على المحن كلها فلهذا حسن اعتقاد الملك فيه واذا اراد الله تعالى امرا هيأ اسبابه فالهم الملك ذلك فقال ائتونى به أستخلصه لنفسى (فلما كلمه) فيه اختصار تقديره فلما جاء الرسول الى يوسف فقال له أجب الملك الآن بلا معاودة فاجابه روى ان يوسف لما قام ليخرج من السجن دعا لاهله فقال اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عليهم الاخبار فهم اعلم الناس بالاخبار فى كل بلد فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا بيت البلواء وقبر الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا حسنة ثم قصد باب الملك قال وهب فلما وقف بباب الملك قال حسبى ربى من دنياى وحسبى ربى من خلقه عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك ثم دخل الدار فلما أبصر الملك قال اللهم انى اسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره فلما نظر اليه الملك سلم يوسف عليه بالعربية فقال له الملك ماهذا اللسان قال لسان عمى اسمعيل ثم دعاله بالعبرانية فقال له وما هذا اللسان ايضا قال يوسف هذا لسان آبائى قال وهب وكان الملك يتكلم بسبعين لغة فلم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان اجابه يوسف وزاد عليه بالعربية والعبرانية فلما راى الملك منه ذلك اعجبه ما راى مع حداثة سن يوسف عليه السلام وكان له من العمر يومئذ ثلاثون سنة فاجلسه الى جنبه فذلك قوله تعالى فلما كلمه يعنى فلما كلم الملك يوسف لان مجالس الملوك لا يحسن لاحد أن يبدأ بالكلام فيها وانما يبدأ الملك فيها بالكلام وقيل معناه فلما كلم يوسف الملك قال الساقى ايها الملك هذا الذى علم تأويل رؤياك مع عجز السحرة والكهنة عنها فاقبل عليه الملك و (قال انك اليوم لدينا مكين أمين) يقال اتخذ فلان عند فلان مكانة اى منزلة وهى الحالة التى يتمكن بها صاحبها مما يريد وقيل المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفت امانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت اليه وقوله مكين امين كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب فى امر الدين والدنيا روى ان الملك قال ليوسف عليه الصلاة والسلام أحب ان اسمع تأويل رؤياى منك شفاها فقال نعم ايها الملك رايت سبع بقرات سمان شهب غر حسان غير عجاف كشف لك عنهن النيل فطلعن من شاطئه تشخب اخلافهن لبنا فبينما انت تنظر اليهن وقد أعجبك حسنهن اذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا يبسه فخرج من حمأته سبع بقرات عجاف شعث غبر ملصقات البطون ليس لهن ضروع ولا اخلاف ولهن انياب واضراس واكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع فاختلطن بالسمان فافترسن السمان كافتراس السبع فما كان لحومهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ومششن مخهن فبينما انت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ثم لم يظهر منهن سمن ولا زيادة بعد اكلهن اذ سبع سنبلات خضر طريات ناعمات ممتلئات حبا وماء والى جانبهن سبع اخر سود يابسات فى منبت واحد عروقهن فى الثرى والماء فبينا انت تقول فى نفسك أى شئ هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن فى الثرى والماء اذهبت ريح فذرت او راق اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فاحرقتهن فصرن سودا فهذا ما رأيت ايها الملك ثم انتبهت مذعورا فقال الملك والله ما اخطأت منها شيأ فما شأن هذه الرؤيا وان كان عجبا فما هو بأعجب مما سمعت منك وما ترى فى تأويل رؤياى ايها الصديق قال يوسف عليه الصلاة والسلام أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة وتجعل ما يحصل من ذلك الطعام فى الخزائن بقصبه وسنبله فانه ابقى له فيكون ذلك القصب والسنبل علفا للدواب وتأمر الناس فليرفعوا الخمس من زروعهم ايضا فيكفيك ذلك الطعام الذى جمعته لاهل مصر ومن حولها وتأتيك الخلق من سائر النواحى للميرة ويجتمع عندك من الكنوز والاموال ما لا يجتمع لاحد قبلك فقال

كل شئ روى ان الرسول جاءه ومعه سبعون حاجبا وسبعون مركبا وبعث اليه لباس الملوك فقال اجب الملك فخرج من السجن ودعا لاهله اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عليهم الاخبار فهم أعلم الناس بالاخبار فى الواقعات وكتب على باب السجن هذه منازل البلواء وقبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال لسان آبائى وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا فكلمه بها فاجابه بجميعها فتعجب منه وقال أيها الصديق انى احب ان أسمع رؤياى منك قال رأيت بقرات فوصف لونهن واحوالهن ومكان خروجهن ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التى رآها الملك وقال له من حقك ان تجمع الطعام فى الاهرام فيأتيك الخلق من النواحى ويمتارون

منك ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لاحد قبلك قال الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه

عالم بوجوه التصرف وصف نفسه بالامانة والكفاية وهما طلبة الملوك ممن يولونه وانما قال ذلك ليتوصل الى امضاء احكام الله واقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لاجله بعث الانبياء الى العباد ولعلمه ان احدا غيره لا يقوم مقامه في ذلك فطلبه ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا وفي الحديث رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الارض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة قالوا وفيه دليل على انه يجوز ان يتولى الانسان عملا له من يد سلطان جائر وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة واذا علم النبي او العالم انه لا سبيل الى الحكم بامر الله ودفع الظلم الا بتمكين الملك الكافر او الفاسق فله ان يستظهر به وقيل كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى وكان في حكم التابع له (وكذلك) ومثل ذلك التمكين الظاهر (مكنا ليوسف في الارض) ارض مصر وكانت اربعين فرسخا في اربعين والتمكين الاقدار واعطاء المكنة (يتبوأ منها حيث يشاء) اي كل مكان اراد ان يتخذه منزلا لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخولها تحت سلطانه نشاء مكي

الملك ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبسطه لي ويكفيني العمل فيه فعند ذلك (قال) يعني يوسف (اجعلني على خزائن الارض) يعني على خزائن الطعام والاموال واراد بالارض ارض مصر اي اجعلني على خزائن ارضك التي تحت يدك وقال الربيع بن أنس اجعلني على خزائن خراج مصر ودخلها (اني حفيظ عليم) اي حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها وقيل معناه اني حاسب كاتب وقيل حفيظ لما استودعتني عليم بما وليتني وقيل حفيظ للحساب عليم اعلم لغة من يأتيني وقال الكلبي حفيظ بتقديره في السنين المخصبة للسنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع فقال الملك عند ذلك ومن احق بذلك منك وولاه ذلك وروى البغوي باسناده الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الارض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة فان قلت كيف طلب يوسف عليه الصلاة والسلام الامارة والولاية مع ما ورد من النهي عنهما مع كراهية طلبها لما صح من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان اوتيتها عن مسئلة وكلت اليها وان اوتيتها عن غير مسئلة اعنت عليها أخرجاه في الصحيحين قلت انما يكره طلب الامارة اذا لم يتعين عليه طلبها فاذا تعين عليه طلبها وجب ذلك عليه ولا كراهية فيه فاما يوسف عليه الصلاة والسلام فكان عليه طلب الامارة لانه مرسل من الله تعالى والرسول اعلم بمصالح الامة من غيره واذا كان مكلفا برعاية المصالح ولا يمكنه ذلك الا بطلب الامارة وجب عليه طلبها وقيل انه لما علم انه سيحصل قحط وشدة اما بطريق الوحي من الله او بغيره وربما افضى ذلك الى هلاك معظم الخلق وكان في طلب الامارة ايصال الخير والراحة الى المستحقين وجب عليه طلب الامارة لهذا السبب فان قلت كيف مدح يوسف نفسه بقوله اني حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا انفسكم قلت انما يكره تزكية النفس اذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوصل به الى غير ما يحل فهذا القدر المذموم في تزكية النفس اما اذا قصد بتزكية النفس ومدحها ايصال الخير والنفع الى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم بل يجب عليه ذلك مثاله ان يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به فانه يجب عليه ان يقول انا عالم ولما كان الملك قد علم من يوسف انه عالم بمصالح الدين ولم يعلم انه عالم بمصالح الدنيا نبهه يوسف بقوله اني حفيظ عليم على انه عالم بما يحتاج اليه في مصالح الدنيا ايضا مع كمال علمه بمصالح الدين * قوله عز وجل (وكذلك مكنا ليوسف في الارض) وكذلك اشارة الى ما تقدم يعني وكما انعمنا على يوسف بان انجيناه من الجب وخلصناه من السجن وزيناه في عين الملك حتى قربه وادنى منزلته كذلك مكناه في الارض يعني ارض مصر ومعنى التمكين هو ان لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره واليه الاشارة بقوله (يتبوأ منها حيث يشاء) لانه تفسير للتمكين قال ابن عباس وغيره لما انقضت السنة من يوم سأل يوسف الامارة دعاه الملك فتوجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة اذرع ووضع له عليه ثلاثون فراشا وستون مرفقا وضرب له عليه كلة من استبرق وامره ان يخرج فخرج متوجا لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت ليوسف الملوك وفوض الملك الاكبر اليه ملكه وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قال ابن اسحق قال ابن زيد وكان الملك مصر خزائن كثيرة فسلمها الى يوسف وسلم له سلطانه كله وجعل امره وقضاءه نافذا في مملكته قالوا ثم هلك قطفير عزيز مصر في تلك الليالي فزوج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه فلما دخل يوسف عليها قال لها أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت له أيها الصديق لا تلمني فاني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي وعصمك الله قالوا فوجدها يوسف عذراء فاصابها فولدت له ولدين

(نصيب برحمتنا) بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم (من نشاء) من اقتضت الحكمة ان نشاء له ذلك (ولا نضيع اجر المحسنين) في الدنيا (ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا) يريد يوسف وغيره من المؤمنين الى يوم القيامة (وكانوا يتقون) الشرك والفواحش قال سفيان بن عيينة المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة والفاجر يعجل له الخير في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق وتلا الآية روى ان الملك توج يوسف وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا ٢٩ من ذهب مكللا بالدر والياقوت

ذكر بن افرائيم وميشا وهما ابنا يوسف منها واستوثق ليوسف ملك مصر وأقام فيه العدل واحبه الرجال والنساء فلما اطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام احسن التدبير فبنى الحصون والبيوت الكثيرة وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة وأنفق المال بالمعروف حتى خلت السنون المخصبة ودخلت السنون المجدبة بهول وشدة لم ير الناس مثله وقيل انه دبر في طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار فلما دخلت سنو القحط كان اول من أصابه الجوع الملك فجاع نصف النهار فنادى يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا اول اوان القحط فهلك في السنة الاولى من اول سني القحط كل ما اعدوه في السنين المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف فباعهم في السنة الاولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولا دينار الا أخذه منهم وباعهم في السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق بمصر في أيدي الناس منها شئ وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي والانعام حتى لم تبق دابة ولا ماشية الا احتوى عليها كلها وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والجواري حتى لم يبق بايدي الناس عبد ولا أمة وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها وباعهم في السنة السادسة باولادهم حتى استرقهم وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا ملكه فصاروا جميعهم عبيد ليوسف عليه الصلاة والسلام فقال أهل مصر ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم من يوسف فقال يوسف للملك كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني فما ترى في هؤلاء قال الملك الرأي رأيك ونحن لك تبع قال فاني أشهد الله وأشهدك اني قد اعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم وقيل ان يوسف كان لا يشبع من الطعام في تلك الايام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض فقال أخاف ان شبعت أنسى الجائع وأمر يوسف طباخي الملك ان يجعلوا غداءه نصف النهار وأراد بذلك ان يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال مجاهد ولم ينزل يوسف يدعو الملك الى الاسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله سبحانه وتعالى وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء (نصيب برحمتنا من نشاء) يعني نختص بنعمتنا وهي النبوة من نشاء يعني من عبادنا (ولا نضيع أجر المحسنين) قال ابن عباس يعني الصابرين (ولأجر الآخرة) يعني ولثواب الآخرة (خير) يعني أفضل من أجر الدنيا (للذين آمنوا وكانوا يتقون) يعني يتقون ما نهى الله عنه وفيه دليل على ان الذي أعد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام في الآخرة من الأجر والثواب الجزيل أفضل مما أعطاه الله في الدنيا من الملك قوله تعالى (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) قال العلماء لما اشتد القحط وعظم البلاء وعم ذلك جميع البلاد حتى وصل الى بلاد الشام قصد الناس مصر من كل مكان للميرة وكان يوسف لا يعطي أحدا أكثر من حمل بعير وان كان عظيما تقسيطا ومساواة بين الناس ونزل بأهل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لامه وابيه وأرسل عشرة فذلك قوله تعالى وجاء اخوة يوسف وكانوا عشرة وكان مسكنهم بالعربات من أرض

فقال اما السرير فاشد به ملكك واما الخاتم فادبر به امرك واما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض الملك اليه امره وعزل قطفير ثم مات بعده فزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال اليس هذا خيرا مما طلبت فوجدها عذراء فولدت له ولدين افرائيم وميشا واقام العدل بمصر واحبته الرجال والنساء واسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من اهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الاولى حتى لم يبق معهم شئ منها ثم بالحلي والجواهر في الثانية ثم بالدواب في الثالثة ثم بالعبيد والاماء في الرابعة ثم بالدور والعقار في الخامسة ثم باولادهم في السادسة ثم برقابهم في السابعة حتى استرقهم جميعا ثم اعتق اهل مصر عن آخرهم وردد عليهم

املاكهم وكان لا يبيع لاحد من الممتارين اكثر من حمل بعير واصاب ارض كنعان نحو ما اصاب مصر فارسل يعقوب بنيه ليمتاروا وذلك قوله (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم) بلا تعريف (وهم له منكرون) لتبدل الزي ولانه كان من وراء الحجاب ولطول المدة وهو ابن اربعين سنة روى انه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم اخبروني من انتم وما شأنكم قالوا نحن قوم من اهل الشام رعاة اصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادي فقالوا معاذ الله نحن بنو نبي حزين لفقد ابن كان احبنا اليه وقد امسك اخاله من امه يستأنس به فقال ائتوني به ان صدقتم

فلسطين والعربات ثغور الشام وكانوا اهل بادية وابل وشياه فدعاهم يعقوب عليه الصلاة والسلام وقال
بلغني ان بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا له واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون اليه من الطعام
فخرجوا حتى قدموا مصر فدخلوا على يوسف فعرفهم قال ابن عباس ومجاهد باول نظرة نظر اليهم عرفهم
وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه وهم له منكرون يعني لم يعرفوه قال ابن عباس رضي الله عنهما
كان بين ان قذفوه في الجب وبين دخولهم عليه مدة اربعين سنة فلذلك انكروه وقال عطاء انما لم يعرفوه
لانه كان على سرير الملك وكان على رأسه تاج الملك وقيل لانه كان قد لبس زي ملوك مصر عليه ثياب
حرير وفي عنقه طوق من ذهب وكل واحد من هذه الاسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد
اجتمعت فيه وقيل ان العرفان انما يقع في القلب بخلق الله تعالى له فيه وان الله سبحانه وتعالى لم يخلق ذلك
العرفان في تلك الساعة في قلوبهم تحقيقا لما أخبر انه سينبئهم بامرهم هذا وهم لا يشعرون فكان ذلك
معجزة ليوسف عليه الصلاة والسلام فلما نظر اليهم يوسف وكلموه بالعبرانية كلمهم بلسانهم فقال لهم اخبروني
من أنتم وما أمركم فاني قد أنكرت حالكم قالوا نحن قوم من أرض الشام رعاة قد أصابنا من الجهد ما أصاب
الناس فجئنا نمتار قال يوسف لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي قالوا لا والله ما نحن بجواسيس انما نحن
اخوة بنو اب واحد وهو شيخ كبير صديق يقال له يعقوب نبي من أنبياء الله تعالى قال وكم أنتم قالوا كنا
اثني عشر فذهب أخ لنا معنا الى البرية فهلك فيها وكان احبنا الى أبينا قال فكم أنتم الآن قالوا عشرة قال
وأين الآخر قالوا هو عند أبينا لانه أخو الذي هلك لامه فابونا يتسلى به قال فمن يعلم ان الذي تقولون حق
قالوا أيها الملك انا بلاد غربة لا يعرف فينا احد قال فائتوني باخيكم الذي من أبيكم ان كنتم صادقين فيما
راض بذلك منكم قالوا ان أبانا يحزن لفراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني به
فاقترعوا فيما بينهم فاصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا في يوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى
(ولما جهزهم بجهازهم) يقال جهزت القوم تجهيزا اذا تكلفت لهم جهاز سفرهم وهو ما يحتاجون اليه في
وجوههم والجهاز بفتح الجيم هي اللغة الفصيحة الجيدة وعليها الاكثرون من أهل اللغة وكسر الجيم لغة
ليست بجيدة قال ابن عباس حمل لكل واحد منهم بعيرا من الطعام واكرمهم في النزول وأحسن ضيافتهم
وأعطاهم ما يحتاجون اليه في سفرهم (قال ائتوني باخ لكم من أبيكم) يعني الذي خلفتموه عنده وهو
بنيامين (ألا ترون اني اوفي الكيل) يعني اني اتمه ولا انخس منه شيأ وازيدكم حمل بعير آخر لاجل اخيكم
اكرمكم بذلك (وانا خير المنزلين) يعني خير المضيفين لانه كان قد احسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال
الامام فخر الدين الرازي هذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى انهم
جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به ان يقول لهم الا ترون اني اوفي الكيل وانا خير المنزلين
وايضا يبعد من يوسف عليه الصلاة والسلام مع كونه صديقا ان يقول لهم انتم جواسيس وعيون مع انه
يعرف براءتهم من هذه التهمة لان البهتان لا يليق بالصديق ثم قال يوسف (فان لم تأتوني به) يعني باخيكم
الذي من أبيكم (فلا كيل لكم عندي) يعني لست اكيل لكم طعاما (ولا تقربون) يعني ولا ترجعوا
تقربوا بلادي وهذا هو نهاية التخويف والترهيب لانهم كانوا محتاجين الى تحصيل الطعام ولا يمكنهم
تحصيله الا من عنده فاذا منعهم من العود كان قد ضيق عليهم فعند ذلك (قالوا) يعني اخوة يوسف (سنراود
عنه اباه) يعني سنجتهد ونحتال حتى نتزعه من عنده (وانا لفاعلون) يعني ما امرتنا به * قوله عز وجل (وقال
لفتيانه) يعني وقال يوسف لفتيانه وهم غلمانه واتباعه (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم) اراد بالبضاعة
الطعام الذي اعطوه ليوسف وكانت دراهم وحكى الضحاك عن ابن عباس انها كانت النعال والادم
والرحال جمع رحل وهي الاوعية التي يحمل فيها الطعام وغيره (لعلهم يعرفونها) يعني يعرفون بضاعتهم

(اذا

(ولما جهزهم بجهازهم) اعطى كل واحد منهم حمل بعير وقرئ بكسر الجيم شاذا (قال ائتوني باخ لكم من ابيكم الا ترون اني اوفي الكيل) اتمه (وانا خير المنزلين) كان قد احسن انزالهم وضيافتهم رغبهم بهذا الكلام على الرجوع اليه (فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي) فلا ابيعكم طعاما (ولا تقربون) اي فان لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا فهو داخل في حكم الجزاء مجزوم معطوف على محل قوله فلا كيل لكم او هو بمعنى النهي (قالوا سنراود عنه اباه) سنخادعه عنه ونحتال حتى نتزعه من يده (وانا لفاعلون) ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى قال فدعوا بعضكم رهنا فتركوا عنده شمعون وكان احسنهم رأيا في يوسف (وقال لفتيانه) كوفي غير ابي بكر لفتيته غيرهم وهما جمع فتى كاخوة واخوان في اخ وفعلة للقلة وفعلان للكثرة اي لغلمانه الكيالين (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم) اوعيتهم وكانت نعالا واودما او ورقا وهو اليق بالدس في الرحال (لعلهم يعرفونها) يعرفون حق ردها وحق التكرم باعطاء البدلين

(اذا انقلبوا الى اهلهم) وفرغوا ظروفهم (لعلهم يرجعون) لعل معرفتهم بذلك تدعوهم الى الرجوع الينا او ربما لا يجدون بضاعة بها يرجعون او ما فيهم من الديانة يعيدهم لرد الامانة اولم يرمن الكرم ان يأخذ من ابيه واخوته ثمنا (فلما رجعوا الى أبيهم) بالطعام واخبروه بما فعل (قالوا يا أبانا منع منا الكيل) يريدون قول يوسف فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي لانهم اذا أنذر وا بمنع

(اذا انقلبوا الى اهلهم) يعني اذا رجعوا الى اهلهم (لعلهم يرجعون) الينا واختلفوا في السبب الذي من اجله رد يوسف عليه الصلاة والسلام عليهم بضاعتهم فقيل انهم اذا فتحوا امتاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت اليهم علموا ان ذلك من كرم يوسف وسخائه فيبعثهم ذلك على الرجوع اليه سريعا وقيل انه خاف ان لا يكون عندا بيه شئ آخر من المال لان الزمان كان زمان قحط وشدة وقيل انه راى ان اخذ ثمن الطعام من ابيه واخوته لؤم لشدة حاجتهم اليه وقيل اراد ان يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه لوم ولا عيب وقيل اراد ان يريهم بره وكرمه واحسانه اليهم في رد بضاعتهم ليكون ذلك ادعى الى العود اليه وقيل انما فعل ذلك لانه علم ان ديانتهم وامانتهم تحملهم على رد البضاعة اليه اذا وجدوها في رحالهم لانهم انبياء واولاد انبياء وقيل اراد برد البضاعة اليهم ان يكون ذلك عونا لابيه ولاخوته على شدة الزمان (فلما رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا) انا قد منا على خير رجل انزلنا واكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من أولاد يعقوب ما اكرمنا كرامته فقال لهم يعقوب اذا رجعتم الى ملك مصر فاقرؤا عليه مني السلام وقولوا له ان أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر عنده واخبروه بالقصة ثم قالوا يا أبانا (منع منا الكيل) وفيه قولان أحدهما انهم لما أخبروا يوسف باخيهم من أبيهم طلبوا منه الطعام لابيهم واخيهم المتخلف عند أبيهم فمنعهم من ذلك حتى يحضر فقولهم منع منا الكيل اشارة اليه وأرادبالكيل الطعام لانه يكال والقول الثاني انه سيمنع منا الكيل في المستقبل وهو اشارة الى قول يوسف فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون وقال الحسن يمنع منا الكيل ان لم نحمل معنا أخانا وهو قوله تعالى اخبارا عنهم (فارسل معنا أخانا) يعني بنيامين (نكتل) قرئ بالياء يعني يكتل لنفسه وقرئ بالنون يعني نكتل نحن جميعا واياه معنا (واناله لحافظون) يعني نرده اليك فلما قالوا ليعقوب هذه المقالة (قال) يعني يعقوب (هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل) يعني كيف آمنكم على ولدي بنيامين وقد فعلتم باخيه يوسف ما فعلتم وانكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه في يوسف وضمنتم لي حفظه وقلتم واناله لحافظون فما فعلتم فلما لم يحصل الامان والحفظ هناك فكيف يحصل ههنا ثم قال (فالله خير حافظا) يعني ان حفظ الله خير من حفظكم له ففيه التفويض الى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع الامور (وهو أرحم الراحمين) وظاهر هذا الكلام يدل على انه أرسله معهم وانما أرسله معهم وقد شاهد ما فعلوا بيوسف لانه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف او ان يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح لما كبروا فارسله معهم او ان شدة القحط وضيق الوقت احوجه الى ذلك قوله تعالى (ولما فتحوا متاعهم) يعني الذي حملوه من مصر فيحتمل أن يكون المراد به الطعام او أوعية الطعام (وجدوا بضاعتهم ردت اليهم) يعني انهم وجدوا في متاعهم ثمن الطعام الذي كانوا قد أعطوه ليوسف قد رد عليهم ودس في متاعهم (قالوا يا أبانا ما نبغي) يعني ماذا نبغي واي شئ نطلب وذلك انهم كانوا قد ذكروا ليعقوب احسان ملك مصر اليهم وحثوا يعقوب على ارسال بنيامين معهم فلما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت اليهم قالوا اي شئ نطلب من الكلام بعد هذا العيان من الاحسان والاكرام أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن وارادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم (هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا) يقال مار أهله يميرهم ميرا اذا حمل لهم

الكيل فقد منع الكيل (فارسل معنا أخانا نكتل) نرفع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج اليه يكتل حزة وعلي اي يكتال اخونا فينضم اكتياله الى اكتيالنا (واناله لحافظون) عن ان يناله مكروه (قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على اخيه من قبل) يعني انكم قلتم في يوسف أرسله معنا غدا يرتع ويلعب واناله لحافظون كما تقولونه في اخيه ثم خنتم بضمانكم فما يأمنني من مثل ذلك ثم قال (فالله خير حافظا) كوفي غير ابي بكر فتوكل على الله فيه ودفعه اليهم وهو حال او تمييز ومن قرأ حفظا فهو تمييز لا غير (وهو ارحم الراحمين) فارجو ان ينعم علي بحفظه ولا يجمع علي مصيبتين قال كعب لما قال فالله خير حفظا قال الله تعالى وعزتي وجلالي لاردن عليك كليهما (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا أبانا ما نبغي) ما للنفي اي ما نبغي في القول ولا نتجاوز الحق او ما نبغي شيأ وراء ما فعل بنا من الاحسان او ما نريد منك بضاعة اخرى او للاستفهام اي اي شئ نطلب وراء هذا (هذه بضاعتنا ردت الينا) جملة مستأنفة موضحة لقوله ما نبغي والجمل بعدها معطوفة عليها اي ان بضاعتنا ردت الينا فنستظهر بها (ونمير اهلنا) في رجوعنا الى الملك اي نجلب لهم ميرة وهي طعام يحمل من غير بلد

(ونحفظ اخانا) فى ذهابنا ومجيئنا فما يصيبه شئ مما نخافه (ونزداد كيل بعير) نزداد وسق بعير باستصحاب اخينا (ذلك كيل يسير) سهل عليه متيسر لا يتعاظمه (قال لن أرسله معكم حتى تؤتونى) و بالياء مكى (موثقا) عهدا (من الله) والمعنى حتى تعطونى ما اتوثق به من عند الله اى ارادان يحلفوا له ٣٢ بالله وانما جعل الحالف بالله موثقا منه لان الحلف به مما يؤكد به العهود وقد اذن الله فى ذلك

فهو اذن منه (لتأتننى به) جواب اليمين لان المعنى حتى تحلفوا لتأتننى به (الا ان يحاط بكم) الا أن تغلبوا فلم تطيقوا الاتيان به فهو مفعول له والكلام المثبت وهو قوله لتأتننى به فى تأويل النفى اى لا تمتنعوا من الاتيان به الا للاحاطة بكم يعنى لا تمتنعوا منه لعلة من العلل الا لعلة واحدة وهى ان يحاط بكم فهو استثناء من اعم العام فى المفعول له والاستثناء من اعم العام لا يكون الا فى النفى فلا بد من تأويله بالنفى (فلما آتوه موثقهم) قيل حلفوا بالله رب محمد عليه السلام (قال) قال بعضهم يسكت عليه لان المعنى قال يعقوب (الله على ما نقول) من طلب الموثق واعطائه (وكيل) رقيب مطلع غير أن السكتة تفصل بين القول والمقول وذا لا يجوز فالاولى ان يفرق بينهما بالصوت فيقصد بقوة النغمة اسم الله (وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة) الجمهور على انه خاف عليهم العين لجمالهم وجلالة امرهم ولم يأمرهم بالتفرق فى

الطعام وجلبه من بلد آخر اليهم والمعنى انا نشترى لاهلنا الطعام ونحمله اليهم (ونحفظ اخانا) يعنى بذيامين مما نخاف عليه حتى نرده اليك (ونزداد كيل بعير) يعنى ونزداد لاجل أخينا على أحمالنا حمل بعير من الطعام (ذلك كيل يسير) يعنى ان ذلك الحمل الذى نزداده من الطعام هين على الملك لانه قد أحسن الينا واكرمنا بأكثر من ذلك وقيل معناه ان الذى حملناه معنا كيل يسير قليل لا يكفينا وأهلنا (قال) يعنى قال لهم يعقوب (لن أرسله معكم حتى تؤتونى موثقا من الله) يعنى لن أرسل معكم بنيامين حتى تؤتونى عهدا لله وميثاقا والموثق العهد المؤكد باليمين وقيل هو المؤكد باشهاد الله عليه (لتأتننى به) دخلت اللام هنا لاجل اليمين وتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتننى به (الا أن يحاط بكم) قال مجاهد الا أن تهلكوا جميعا فيكون عذرا لكم عندى لان العرب تقول احيط بفلان اذا هلك أو قارب هلاكه وقال قتادة الا أن تغلبوا جميعا فلا تقدروا على الرجوع (فلما آتوه موثقهم) يعنى فلما أعطوه عهدهم وحلفوا له (قال الله على ما نقول وكيل) يعنى قال يعقوب الله شاهد على ما نقول كأن الشاهد وكيل بمعنى انه موكول اليه هذا العهد وقيل وكيل بمعنى حافظ قال كعب الاحبار لما قال يعقوب فالله خير حافظا قال الله تعالى وعزتى وجلالى لاردن عليك كليهما بعد ما توكلت على وفوضت أمرك الى وذلك انه لما اشتد بهم الامر وضاق عليهم الوقت وجهدوا أشد الجهد لم يجد يعقوب بدا من ارسال بنيامين معهم فأرسله معهم متوكلا على الله ومفوضا أمره اليه قوله عز وجل اخبارا عن يعقوب (وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) وذلك انهم لما خرجوا من عند يعقوب قاصدين مصر قال لهم يابنى لا تدخلوا يعنى مدينة مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان لمدينة مصر يومئذ اربعة ابواب وقال السدى اراد الطرق لا الابواب يعنى من طرق متفرقة وانما امرهم بذلك لانه خاف عليهم العين لانهم كانوا قد أعطوا جمالا وقوة وامتدادا قامة وكانوا أولاد رجل واحد فامرهم ان يتفرقوا فى دخولهم المدينة لئلا يصابوا بالعين فان العين حق وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين (ق) عن ابى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العين حق زاد البخارى ونهى عن الوشم (م) عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العين حق ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين واذا استغسلتم فاغتسلوا عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين اخرجه ابو داود قال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله تعالى قال المازرى أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقالوا العين حق وانكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد عقولهم ان كل معنى يكون مخالفا فى نفسه ولا يؤدى الى قلب حقيقة ولا افساد دليل فانه من مجوزات العقول واذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وانكاره وقيل لا بد من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة قال وقد زعم بعض الطبائعيين المثبتين للعين تأثيرا ان العائن تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد قالوا ولا يمتنع هذا كما لا يمتنع انبعاث قوة سمية من الافعى والعقرب تتصل بالمدوغ فيهلك وان كان غير محسوس لنا فكذا العين قال المازرى وهذا غير مسلم لانا بينا فى كتب علم الكلام انه لا فاعل الا الله تعالى

وبينا

الكرة الاولى لانهم كانوا مجهولين فى الكرة الاولى فالعين حق عندنا وجوده بان يحدث الله تعالى عند النظر الى الشئ والاعجاب به نقصانا فيه وخللا وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين رضى الله عنهما فيقول اعيذكما بكلمات الله التامة من كل هامة ومن كل عين لامة وانكر الجبائى العين وهو مردود بما ذكرنا وقيل انى احب ان لا يقطن بهم اعداؤهم فيحتالوا لاهلاكهم

وبينا فساد القول بالطبائع وبينا ان المحدث لا يفعل فى غيره شيأ فاذا تقرر هذا بطل ما قالوه ثم تقول هذا المنبعث من العين اما جوهر واما عرض فباطل ان يكون عرضا لانه لا يقبل الانتقال وباطل أن يكون جوهرا لان الجواهر متجانسة فليس بعضها بان يكون مفسدا لبعض باولى من عكسه فبطل ما قالوه وأقرب طريقة قالها من ينتحل الاسلام منهم ان قالوا لا يبعد ان تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من عين العائن لتتصل بالمعين فتتخال مسام جسمه فيخلق الله عزوجل الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السموم عادة اجراها الله عزوجل وليست ضرورة ولا طبيعية ألجأ الفعل اليها قال ومذهب اهل السنة ان المعين انما يفسد ويهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى اجرى الله تعالى العادة بان يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص شخصا آخر وهل ثم جواهر أم لا فهذا من مجوزات العقول لا يقطع فيه بواحد من الامرين وانما يقطع بنفى الفعل عنها واضافته الى الله تعالى فمن قطع من اطباء الاسلام بانبعاث الجواهر فقد اخطأ فى قطعه وانما هو من الجائزات هذا ما يتعلق بعلم الاصول وأما ما يتعلق بعلم الفقه فان الشرع قد ورد بالوضوء لهذا الامر فى حديث سهل بن حنيف لما اصيب بالعين عند اغتساله رواه مالك فى الموطأ واما صفة وضوء العائن فذكور فى كتب شروح الحديث ومعروف عند العلماء فيطلب من هناك فليس هذا موضعه والله اعلم وقال وهب بن منبه فى قوله لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة انه خاف ان يغتالوا لما ظهر لهم فى ارض مصر من التهمة حكاه ابن الجوزى عنه وقيل ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان قد علم ان ملك مصر هو ولده يوسف عليه الصلاة والسلام الا ان الله تعالى لم يؤذن له فى اظهاره ذلك فلما بعث أبناءه اليه قال لهم لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة وكان غرضه ان يصل بنيامين الى اخيه يوسف فى وقت الخلوة قبل اخوته والقول الاول اصح انه خاف عليهم من العين ثم رجع الى علمه وفوض امره الى الله تعالى بقوله (وما أغنى عنكم من الله من شئ) يعنى ان كان الله قد قضى عليكم بقضاء فهو يصيبكم مجتمعين كنتم او متفرقين فان المقدور كائن ولا ينفع حذر من قدر (ان الحكم الا لله) يعنى وما الحكم الا لله وحده لا شريك له فيه وهذا تفويض من يعقوب فى أموره كلها الى الله تعالى (عليه توكلت) يعنى عليه اعتمدت فى أمورى كلها لا على غيره (وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) يعنى من الابواب المتفرقة وكان لمدينة مصر وقيل مدينة الفرما اربعة ابواب فدخلوا من ابوابها كلها (ما كان يغنى عنهم من الله من شئ) وهذا تصديق من الله سبحانه وتعالى ليعقوب فيما قال وما أغنى عنكم من الله من شئ (الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) هذا استثناء منقطع ليس من الاول فى شئ ومعناه لكن حاجة فى نفس يعقوب قضاها وهو انه اشفق عليهم اشفاق الآباء على الابناء وذلك انه خاف عليهم من العين اوخاف عليهم حسد أهل مصر أوخاف عليهم ان لا يردوا عليه فاشفق من هذا كله او بعضه (وانه) يعنى يعقوب (لذو علم) يعنى صاحب علم (لما علمناه) يعنى لتعليمنا اياه ذلك العلم وقيل معناه وانه لذو علم للشئ الذى علمناه والمعنى انا لما علمناه هذه الاشياء حصل له العلم بتلك الاشياء وقيل وانه لذو حفظ لما علمناه وقيل انه كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل وقيل انه لعامل بما علمناه قال سفيان من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالما (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعنى لا يعلمون ما كان يعلم يعقوب لانهم لم يسلكوا طريق اصابة العلم وقال ابن عباس لا يعلم المشركون ما ألهم الله اولياءه قوله تعالى (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه) قال المفسرون لما دخل اخوة يوسف على يوسف قالوا أيها الملك هذا اخونا الذى امرتنا أن نأتيك به فقد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندى ثم انزلهم وأكرم نزلهم ثم انه اضافهم وأجلس كل اثنين على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان اخى يوسف حيا لاجلسنى

وحيدا فاجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله وقال له اتحب أن اكون أخاك بدل اخيك الهالك

عليكم من التفرق وهو مصيبكم لا محالة (ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) التوكل تفويض الامر الى الله تعالى والاعتماد عليه (ولما دخلوا من حيث أمرهم ابوهم) اى متفرقين (ما كان يغنى عنهم) دخولهم من ابواب متفرقة (من الله من شئ) اى شيأ قط حيث اصابهم ما ساءهم مع تفرقهم من اضافة السرقة اليهم وافتضاحهم بذلك وأخذ أخيهم بوجدان الصواع فى رحله وتضاعف المصيبة على ابيهم (الا حاجة) استثناء منقطع اى ولكن حاجة (فى نفس يعقوب قضاها) وهى شفقته عليهم (وانه لذو علم) يعنى قوله وما أغنى عنكم وعلمه بان القدر لا يغنى عنه الحذر (لما علمناه) لتعليمنا اياه (ولكن اكثر الناس لا يعلمون) ذلك (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه اخاه) ضم اليه بنيامين وروى انهم قالوا له هذا اخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم فانزلهم واكرمهم ثم اضافهم واجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان اخى يوسف حيا لاجلسنى معه فقال يوسف بقى اخوكم

قال ومن يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وعانقه ثم (قال) له (انى أنا اخوك) يوسف

(فلا تبتئس) فلا تحزن (بما كانوا يعملون) بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما اعلمتك وروى انه قال له فانا لا أفارقك قال لقد علمت اغتمام والدى بى فان حبستك ازداد غمه ولا سبيل الى ذلك الا أن انسبك الى ما لا يحمد قال لا أبالى فافعل ما بدا لك قال فانى أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بانك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم فقال افعل (فلما جهزهم بجهازهم) هيأ اسبابهم واوفى الكيل لهم (جعل السقاية فى رحل اخيه) السقاية هى مشربة يسقى بها وهى الصواع قيل كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به لعزة الطعام وكان يشبه الطاس من فضة او ذهب (ثم أذن مؤذن) ثم نادى مناد آذنه اى اعلمه واذن اكثر الاعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه روى انهم ارتحلوا وامهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا ثم قيل لهم (أيتها العير) هى الابل التى عليها الاحمال لانها تعير اى تذهب وتجىء والمراد اصحاب العير (انكم لسارقون) كناية عن سرقتهم اياه من ابيه

معه فقال لهم يوسف لقد بقى هذا وحده فقالوا كان له أخ فهلك قال لهم فانا اجلسه معى فاخذه فاجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك وقال كل اثنين منكم ينامان على فراش واحد فبقى بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام عندى على فراشى فنام بنيامين مع يوسف على فراشه فجعل يوسف يضمه اليه ويشم ريحه حتى اصبح فلما اصبح قال لهم انى ارى هذا الرجل وحده ليس معه ثان وسأضمه الى فيكون معى فى منزلى ثم انه انزلهم وأجرى عليهم الطعام فقال روبيل ما رأينا مثل هذا قط قوله آوى اليه اخاه يعنى ضمه وأنزله معه فى منزله فلما خلا به قال له يوسف ما اسمك قال بنيامين قال وما بنيامين قال ابن المثكل وذلك انه لما ولدته أمه هلكت قال وما اسم أمك قال راحيل قال فهل لك من ولد قال عشر بنين قال فهل لك من أخ لامك قال كان لى أخ فهلك قال يوسف أتحب أن أكون اخاك بدل اخيك الهالك قال بنيامين ومن يجد أخا مثلك ايها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه الصلاة والسلام وقام اليه وعانقه و (قال) له (انى أنا أخوك) يعنى يوسف (فلا تبتئس) يعنى لا تحزن وقال اهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس (بما كانوا يعملون) يعنى فلا تحزن بشئ فعلوه بنا فيما مضى فان الله قد أحسن الينا ونجانا من الهلاك وجمع بيننا وقيل ان يوسف صفح عن اخوته وصفا لهم فاراد أن يجعل قلب اخيه بنيامين مثل قلبه صافيا عليهم ثم قال يوسف لاخيه بنيامين لا تعلم اخوتك بشئ مما اعلمتك به ثم انه أوفى لاخوته الكيل وزاد لكل واحد حمل بعير ولبنيامين حمل بعير باسمه ثم أمر بسقاية الملك فجعلت فى رحل اخيه بنيامين قال السدى وهو لا يشعر وقال كعب لما قال له يوسف انى أنا اخوك قال بنيامين أنا لا أفارقك فقال يوسف قد علمت اغتمام والدى على فاذا حبستك عندى ازداد غمه ولا يمكننى هذا الا بعد أن أشهرك بامر فظيع وأنسبك الى ما لا يحمد قال لا أبالى فافعل ما بدا لك فانى لا أفارقك قال فانى أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليكم بالسرقة ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك قال فافعل ما شئت فذلك قوله عز وجل (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه) وهى المشربة التى كان الملك يشرب فيها قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن اسحق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجوهر جعلها يوسف مكيالا لانه يكال بغيرها وكان يشرب فيها والسقاية والصواع اسم لاناء واحد وجعلت فى وعاء طعام أخيه بنيامين ثم ارتحلوا راجعين الى بلادهم فامهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم ارسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم (ثم أذن مؤذن) يعنى نادى مناد وأعلم معلم والاذان فى اللغة الاعلام (أيتها العير) وهى القافلة التى فيها الاحمال وقال مجاهد العير الحمير والبغال وقال ابو الهيثم كل ما حمل عليه من الابل والحمير والبغال فهى عير وقول من قال انها الابل خاصة باطل وقيل العير الابل التى تحمل عليها الاحمال سميت بذلك لانها تعير اى تذهب وتجىء وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر ذلك فى الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير وقوله أيتها العير اراد اصحاب العير (انكم لسارقون) فقفوا والسرقة اخذ مال الغير له اخذه فى خفاء فان قلت هل كان هذا النداء بامر يوسف أم لا فان كان بامره فكيف يليق بيوسف علو منصبه وشريف رتبته من النبوة والرسالة ان يتهم أقواما وينسبهم الى السرقة كذبا مع علمه ببراءتهم من ذلك وان كان ذلك النداء بغير امره فهلا اظهر براءتهم عن تلك التهمة التى نسبوا اليها قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال اجوبة احدها ان يوسف لما اظهر لاخيه انه اخوه قال لست أفارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بتدبير حيلة أنسبك فيها الى ما لا يليق قال رضيت بذلك فعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام بل قد رضى به فلا يكون ذنبا الثانى ان يكون المعنى انكم لسارقون ليوسف من ابيه الا انهم ما اظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفى المعاريض مندوحة عن الكذب الثالث يحتمل ان يكون المنادى

ربما

ربما قال ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير لا يكون كذبا الرابع ليس في القرآن ما يدل على انهم قالوا ذلك بأمر يوسف وهو الاقرب الى ظاهر الحال لانهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك احد غيرهم وغلب على ظنهم انهم هم الذين اخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) قال اصحاب الاخبار لما وصل الرسل الى اخوة يوسف قالوا لهم ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ونوف اليكم الكيل ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وماذاك قالوا فقدنا سقاية الملك ولا اتهم عليها غيركم وذلك قوله تعالى قالوا وأقبلوا عليهم اى عطفوا على المؤذن واصحابه ماذا اى ما الذى تفقدون والفقدان ضد الوجود (قالوا) يعنى المؤذن واصحابه (نفقد صواع الملك) الصاع الاناء الذى يكال به وجمعه اصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان (ولمن جاء به) يعنى بالصواع (حمل بعير) يعنى من الطعام (وأنا به زعيم) اى كفيل قال الكلبي الزعيم هو الكفيل بلسان اهل اليمن وهذه الآية تدل على ان الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم وقد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بها فى قوله الجميل غارم والجميل الكفيل فان قلت كيف تصح هذه الكفالة مع ان السارق لا يستحق شيأ قلت لم يكونوا سراقا فى الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون جعالة او لعل مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم فى ذلك الزمان فيحمل عليه (قالوا) يعنى اخوة يوسف (تالله) التاء بدل من الواو ولا تدخل الا على اسم الله فى اليمين خاصة تقديره والله (لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض وما كنا سارقين) قال المفسرون ان اخوة يوسف حلفوا على امرين أحدهما انهم ما جاؤا لاجل الفساد فى الارض والثانى انهم ما جاؤا سارقين وانما قالوا هذه المقالة لانه كان قد ظهر من احوالهم ما يدل على صدقهم وهو انهم كانوا مواظبين على انواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من امرهم انهم شدوا افواه دوابهم لئلا تؤذى زرع الناس ومن كانت هذه صفته فالفساد فى حقه ممتنع واما الثانى وهو انهم ما كانوا سارقين فلانهم قد كانوا ردوا البضاعة التى وجدوها فى رحالهم ولم يستحلوا أخذها ومن كانت هذه صفته فليس بسارق فلاجل ذلك قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض وما كنا سارقين فلما تبينت براءتهم من هذه التهمة (قالوا) يعنى اصحاب يوسف وهو المنادى واصحابه (فما جزاؤه ان كنتم كاذبين) يعنى فما جزاء السارق ان كنتم كاذبين فى قولكم ما جئنا لنفسد فى الارض وما كنا سارقين (قالوا) يعنى اخوة يوسف (جزاؤه من وجد فى رحله) يعنى جزاء السارق الذى وجد فى رحله ان يسلم برقبته الى المسروق منه فيسترقه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب فى حكم السارق وكان فى حكم ملك مصر ان يضرب السارق ويغرم ضعفى قيمة المسروق وكان هذا فى شرعهم فى ذلك الزمان يجرى مجرى القطع فى شرعنا فاراد يوسف أن يأخذ بحكم ابيه فى السارق فلذلك رد الحكم اليهم والمعنى ان جزاء السارق ان يستعبد سنة جزاء له على جرمه وسرقته (فهو جزاؤه) يعنى هذا الجزاء جزاؤه (كذلك نجزى الظالمين) يعنى مثل هذا الجزاء وهو ان يسترق السارق سنة نجزى الظالمين ثم قيل هذا الكلام من بقية كلام اخوة يوسف وقيل هو من كلام اصحاب يوسف فعلى هذا ان اخوة يوسف لما قالوا جزاء السارق ان يسترق سنة قال اصحاب يوسف كذلك نجزى الظالمين يعنى السارقين * قوله عز وجل (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه) قال اهل التفسير ان اخوة يوسف لما اقروا ان جزاء السارق ان يسترق سنة قال اصحاب يوسف لا بد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف فامر بتفتيشها بين يديه فبدأ بتفتيش اوعيتهم قبل وعاء اخيه لازالة التهمة فجعل يفتش اوعيتهم واحدا واحدا قال قتادة ذكر لنا انه كان لا يفتح متاعا ولا ينظر وعاء الا استغفر الله تأثما مما قذفهم به حتى لم يبق الا رحل بنيامين قال ما أظن هذا اخذ شيأ قال اخوته والله لا تترك كلك حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وانفسنا فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى (ثم استخرجها

وانا بحمل البعير كفيل أؤديه الى من جاء به واراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله (قالوا تالله) قسم فيه معنى التعجب مما أضيف اليهم (لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض) استشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم حيث دخلوا وافواه رواحلهم مشدودة لئلا تتناول زرعا اوطعاما لاحد من اهل السوق ولانهم ردوا بضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم (وما كنا سارقين) وما كنا نوصف قط بالسرقة (قالوا فما جزاؤه) الضمير للصواع اى فما جزاء سرقته (ان كنتم كاذبين) فى جحودكم وادعائكم البراءة منه (قالوا جزاؤه من وجد فى رحله) اى جزاء سرقته اخذ من وجد فى رحله وكان حكم السارق فى آل يعقوب ان يسترق سنة فلذلك استفتوا فى جزائه وقولهم (فهو جزاؤه) تقرير للحكم اى فاخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير جزاؤه مبتدا والجملة الشرطية كما هى خبره (كذلك نجزى الظالمين) اى السراق بالاسترقاق

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه) فبدأ بتفتيش اوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال ما أظن هذا اخذ شيأ فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله فانه اطيب لنفسك وانفسنا (ثم استخرجها) اى الصواع

(من وعاء اخيه) ذكر ضمير الصواع مرات ثم انثه لان التأنيث يرجع الى السقاية اولان الصواع يذكر ويؤنث الكاف فى (كذلك) فى محل النصب اى مثل ذلك ٣٦ الكيد العظيم (كدنا ليوسف) يعنى علمناه اياه (ما كان ليأخذ اخاه فى دين الملك) تفسير للكيد

من وعاء اخيه) انما انث الكناية لانه ردها الى السقاية وقيل ان الصواع يذكر ويؤنث فلما اخرج الصواع من رحل بنيامين نكس اخوة يوسف رؤسهم من الحياء واقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ماصنعت بنا افضحتنا وسودت وجوهنا يا بنى راحيل مازال لنا منكم بلاء متى اخذت هذا الصواع فقال بنيامين بل بنو راحيل مازال لهم منكم بلاء ذهبتم باخى فاهلكتموه فى البرية ان الذى وضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم قالوا فاخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادى واصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين فاخذوه برقبته وردوه الى يوسف (كذلك كدنا ليوسف) يعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وهو اشارة الى الحكم الذى ذكره اخوة يوسف باسترقاق السارق اى مثل ذلك الحكم الذى ذكره اخوة يوسف حكمنا به ليوسف ولفظ الكيد مستعار للحيلة والخديعة وهذا فى حق الله عز وجل محال فيجب تأويل هذه اللفظة بما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى فنقول الكيد هنا جزاء الكيد يعنى كما فعلوا بيوسف فى الابتداء فعلنا بهم فالكيد من الخلق الحيلة ومن الله التدبير بالحق والمعنى كما الهمنا اخوة يوسف بان حكموا ان جزاء السارق ان يسترق كذلك الهمنا يوسف حتى دس الصواع فى رحل اخيه ليضمه اليه على ما حكم به اخوته وقال ابن الاعرابى الكيد التدبير بالباطل وبحق فعلى هذا يكون المعنى كذلك دبرنا ليوسف وقيل صنعنا ليوسف وقال ابن الانبارى كدنا وقع خبرا من الله عز وجل على خلاف معناه فى اوصاف المخلوقين فانه اذا اخبر به عن مخلوق كان تحته احتيال وهو فى موضع فعل الله معرى من المعانى المذمومة ويخلص بانه وقع بمن يكيده تدبيرا مريدا به من حيث لا يشعر ولا يقدر على دفعه فهو من الله مشيئته بالذى يكون من اجل ان المخلوق اذا كاد المخلوق ستر عنه ما ينويه ويضمره له من الذى يقع به من الكيد فهو من الله تعالى استدراج وما ختم الله به عاقبته والذى وقع باخوة يوسف من كيد الله هو ما انتهى اليه شأن يوسف من ارتفاع المنزلة وتمام النعمة وحيث جرى الامر على غير ما قدر وامن اهلاكه وخلوص ابيهم له بعده وكل ذلك جرى بتدبير الله تعالى وخفى لطفه سماه كيدا لانه اشبه كيد المخلوقين فعلى هذا يكون كيد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام عائدا الى جميع ما أعطاه الله وانعم به عليه على خلاف تدبير اخوته من غير ان يشعروا بذلك وقوله تعالى (ما كان ليأخذ اخاه فى دين الملك) يعنى فى حكم الملك وقضائه لانه كان فى حكم الملك ان السارق يضرب ويغرم ضعفى قيمة المسروق يعنى فى حكم الملك وقضائه فلم يتمكن يوسف من حبس اخيه عنده فى حكم الملك فالله تعالى الهم يوسف مادبره حتى وجد السبيل الى ذلك (الا ان يشاء الله) يعنى ان ذلك الامر كان بمشيئة الله وتدبيره لان ذلك كله كان الهاما من الله ليوسف واخوته حتى جرى الامر على وفق المراد (نرفع درجات من نشاء) يعنى بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على اخوته وفى هذه الآية دلالة على ان العلم الشريف أشرف المقامات واعلى الدرجات لان الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على اخوته بالعلم وبما ألهمه على وجه الهداية والصواب فى الامور كلها (وفوق كل ذى علم عليم) قال ابن عباس فوق كل عالم عالم الى ان ينتهى العلم الى الله تعالى فالله تعالى فوق كل عالم لانه هو الغنى بعلمه عن التعليم وفى الآية دليل على ان اخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم قال ابن الانبارى يجب ان يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه تعالى ولا يطمع نفسه فى الغلبة لانه لا يخلو عالم من عالم فوقه قوله تعالى (قالوا) يعنى اخوة يوسف (ان يسرق) يعنى بنيامين الصواع (فقد سرق أخ له من قبل) يعنى يوسف ظاهر الآية يقتضى ان

و بيان له لان الحكم فى دين الملك اى فى سيرته للسارق ان يغرم مثلى ما اخذ لا ان يستعبد (الا ان يشاء الله) اى ما كان ليأخذه الا بمشيئة الله وارادته فيه (نرفع درجات) بالتنوين كوفى (من نشاء) اى فى العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه (وفوق كل ذى علم عليم) فوقه ارفع درجة منه فى علمه اوفوق العلماء كلهم عليم هم دونه فى العلم وهو الله عز وجل (قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل) ارادوا يوسف قيل دخل كنيسة فاخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه وقيل كان فى المنزل دجاجة فاعطاها لسائل وقيل كانت منطقة لابراهيم عليه السلام يتوارثها اكابر ولده فورثها اسحق ثم وقعت الى ابنته وكانت اكبر اولاده فحضنت يوسف وهى عمته بعد وفاة امه وكانت لا تصبر عنه فلما شب اراد يعقوب ان ينزعه منها فعمدت الى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت فقدت منطقة اسحق فانظروا

من اخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم افعل به ما شئت منه فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت اخوة

وروى انهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس اخوته رؤسهم حياء واقبلوا عليه وقالوا له فضحتنا وسودت وجوهنا يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم بلاء متى اخذت هذا الصاع قال بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم بلاء ذهبتم يا اخى فاهلكتموه ووضع هذا

اخوة يوسف قالوا للملك ان هذا الامر ليس بغريب منه فان أخاه الذى هلك كان سارقا أيضا وكان غرضهم من هذا الكلام انا لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا واخوه كانا على هذه الطريقة وهذه السيرة لانهما من ام أخرى غير أمنا واختلفوا فى السرقة التى نسبوها الى يوسف عليه الصلاة والسلام فقال سعيد ابن جبير وقتادة كان لجده أبى أمه صنم وكان يعبده فاخذه يوسف سرا وكسره والقاه فى الطريق لئلا يعبده وقال مجاهد ان يوسف جاءه سائل يوما فاخذ بيضة من البيت فناولها له وقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير الذى كان فى بيت يعقوب فاعطاها سائلا وقال وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء وذكر محمد بن اسحق ان يوسف كان عند عمته ابنة اسحق بعد موت أمه راحيل فحضنته عمته واحبته حبا شديدا فلما ترعرع وكبر وقعت محبة يعقوب عليه فاحبه فقال لاخته يا أختاه سلمى الى يوسف فوالله ما أقدر على ان يغيب عنى ساعة واحدة فقالت لا اعطيكه فقال لها والله ما أنا بتاركه عندك فقالت دعه عندى أياما انظر اليه لعل ذلك يسلينى عنه ففعل ذلك فعمدت الى منطقة كانت لاسحق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت أكبر اولاد اسحق فكانت عندها فشدت المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت لقد فقدت منطقة اسحق ففتشوا أهل البيت فوجدوها مع يوسف فقالت انه اسلم لى يعنى يوسف فقال يعقوب ان كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فامسكته عندها حتى ماتت فلذلك قال اخوة يوسف ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل يعنون هذه السرقة قال ابن الانبارى وليس فى هذه الافعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبه السرقة فعيروه بها عند الغضب (فاسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم) فى هاء الكناية ثلاثة أقوال احدها ان الضمير يرجع الى الكلمة التى بعدها وهى قوله تعالى (قال) يعنى يوسف (أنتم شر مكانا) روى هذا المعنى العوفى عن ابن عباس والثانى ان الضمير يرجع الى الكلمة التى قالوها فى حقه وهى قولهم فقد سرق أخ له من قبل وهذا معنى قول ابى صالح عن ابن عباس فعلى هذا القول يكون المعنى فاسر يوسف جواب الكلمة التى قالوها فى حقه ولم يجبهم عليها والثالث ان الضمير يرجع الى الحجة فيكون المعنى على هذا القول فاسر يوسف الاحتجاج عليهم فى ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا يعنى منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة لانه لم يكن من يوسف سرقة فى الحقيقة وخيانتكم حقيقة (والله أعلم بما تصفون) يعنى بحقيقة ما تقولون * قوله عز وجل (قالوا) يعنى اخوة يوسف (يا أيها العزيز) يخاطبون بذلك الملك (ان له أبا شيخا كبيرا) قال أصحاب الاخبار والسير ان يوسف عليه الصلاة والسلام لما استخرج الصواع من رحل أخيه بنيامين نقره وأدناه الى اذنه ثم قال ان صواعى هذا يخبرنى انكم اثنا عشر رجلا لاب واحد وانكم انطلقتم باخ لكم من أبيكم فبعتموه قال بنيامين أيها الملك سل صواعك هذا من جعله فى رحلى فنقره ثم قال ان صواعى غضبان وهو يقول كيف تسألنى عن صاحبى وقد رؤيت مع من كنت قالوا فغضب روبيل لذلك وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل اذا غضب لم يقم لغضبه شئ وكان اذا صاح ألقت كل حامل حملها اذا سمعت صوته وكان مع هذا اذا مسه أحد من ولد يعقوب يسكن غضبه وكان أقوى الاخوة وأشدهم وقيل كانت هذه صفة شمعون بن يعقوب وقيل انه قال لاخوته كم عدد الاسواق بمصر قالوا عشرة قال اكفونى أنتم الاسواق وأنا أكفيكم الملك اوا كفونى أنتم الملك وانا أكفيكم الاسواق فدخلوا على يوسف فقال روبيل أيها الملك لتردن علينا أخانا ولا صيحن صيحة لا يبقى بمصر امرأة حامل الا وضعت ولدها وقامت كل شعرة فى جسد روبيل حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم الى جنب هذا فمسه اوخذ بيده فاتنى له فلما مسه سكن غضبه فقال لاخوته من مسنى منكم قالوا لم يصبك منا احد فقال روبيل ان هذا بذر من بذر يعقوب وقيل انه غضب ثانيا فقام اليه يوسف فوكزه برجله واخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال انتم يا معشر العبرانيين

الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم (فاسرها) اى مقالتهم انه سرق كانه لم يسمعها (يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال انتم شر مكانا) تمييز اى انتم شر منزلة فى السرق لانكم سرقتم اخاكم يوسف من ابيه (والله اعلم بما تصفون) تقولون اوتكذبون (قالوا يا ايها العزيز ان له ابا شيخا كبيرا) فى السن اوفى القدر

(فخذ احدنا مكانه) بدله على وجه الاسترهان او الاستعباد فان اباه يتسلى به عن اخيه المفقود (انا نراك من المحسنين) الينا فاتمم احسانك اومن عادتك الاحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها (قال معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) اى نعوذ بالله معاذا من ان نأخذ فاضيف المصدر الى المفعول به وحذف من (انا اذا لظالمون) اذا جواب لهم وجزاء لان المعنى ان اخذنا بدله ظلمنا وهذا لانه وجب على قضية فتواكم اخذ من وجد الصاع ٣٨ فى رحله واستعباده فلو اخذنا غيره كان ذلك ظلما فى مذهبكم فلم تطلبون ما عرفتم انه ظلم (فلما

تزعمون ان لا أحد أشد منكم فلما رأوا ما نزل بهم ورأوا ان لا سبيل الى تخليصه خضعوا وذلوا وقالوا يا أيها العزيز ان له اباشيخا كبيرا يعنى فى السن ويحتمل ان يكون كبيرا فى القدر لانه نبى من أولاد الانبياء (فخذ أحدنا مكانه) يعنى بدلا عنه لانه يحبه ويتسلى به عن أخيه الهالك (انا نراك من المحسنين) يعنى فى أفعالك كلها وقيل من المحسنين الينا فى توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة الينا وقيل ان رددت بنيامين الينا وأخذت أحدنا مكانه كنت من المحسنين (قال معاذ الله) يعنى قال يوسف أعوذ بالله معاذا (ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) لم يقل من سرق تحرزا عن الكذب لانه يعلم ان أخاه ليس بسارق (انا اذا لظالمون) يعنى ان أخذنا بريئا بذنب غيره فان قلت كيف استجاز يوسف ان يعمل مثل هذه الاعمال بابيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضا عنده مع علمه بشدة وجد أبيه عليه ففيه ما فيه من العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة وكيف يجوز ليوسف مع علو منصبه من النبوة والرسالة ان يزور على اخوته ويروج عليهم مثل هذا مع ما فيه من الايذاء لهم فكيف يليق به هذا كله قلت قد ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة كثيرة وأحسنها وأصحها انه انما فعل ذلك بأمر الله تعالى له لا عن أمره وانما أمره الله بذلك ليزيد بلاء يعقوب فيضاعف له الاجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه الماضين ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه فهو المتصرف فى خلقه بما يشاء وهو الذى أخفى خبر يوسف عن يعقوب فى طول هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد ان يدبره فيهم والله أعلم باحوال عباده * قوله عز وجل (فلما استيأسوا منه) يعنى أيسوا من يوسف ان يجيبهم لما سألوه وقيل أيسوا من أخيهم ان يرد عليهم وقال أبو عبيدة استيأسوا اى استيقنوا ان الاخ لا يرد اليهم (خلصوا نجيا) يعنى خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون ليس فيهم غيرهم (قال كبيرهم) يعنى فى العقل والعلم لا فى السن قال ابن عباس الكبير هو يهوذا وكان أعقلهم وقال مجاهد هو شمعون وكانت له الرآسة على اخوته وقال قتادة والسدى والضحاك هو روبيل وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا فى يوسف لانه نهاهم عن قتله (ألم تعلموا ان أباكم) يعنى يعقوب (قد أخذ عليكم موثقا) يعنى عهدا (من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف) يعنى قصرتم فى أمر يوسف حتى ضيعتموه (فلن أبرح الارض) يعنى الارض التى انا فيها وهى أرض مصر والمعنى فلن أخرج من أرض مصر ولا افارقها على هذه الصورة (حتى يأذن لى أبى) يعنى فى الخروج من أرض مصر فيدعونى اليه (او يحكم الله لى) برد أخى على او بخروجى معكم وترك أخى او يحكم الله لى بالسيف فاقاتلهم حتى استرد أخى (وهو خير الحاكمين) لانه يحكم بالحق والعدل والانصاف والمراد من هذا الكلام الالتجاء الى الله تعالى فى اقامة عذره عند والده يعقوب عليه الصلاة والسلام (ارجعوا الى أبيكم) يعنى يقول الاخ الكبير الذى عزم على الاقامة بمصر لاخوته الباقين ارجعوا الى أبيكم يعقوب (فقولوا) له (يا أبانا ان ابنك سرق) انما قالوا هذه المقالة ونسبوه الى السرقة لانهم شاهدوا الصواع وقد أخرج من متاع بنيامين فغلب على ظنهم انه سرق فلذلك نسبوه الى السرقة فى ظاهر الامر لا فى حقيقة الحال ويدل على انهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم (وما شهدنا الا بما علمنا) يعنى ولم نقل ذلك الا بعد ان رأينا اخراج الصواع وقد أخرج من متاعه وقيل معناه ما كانت منا

استيأسوا) يئسوا وزيادة السين والتاء للمبالغة كما مر فى استعصم (منه) من يوسف واجابته اياهم (خلصوا) انفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم (نجيا) ذوى نجوى او فوجا نجيا اى مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا او تمحضوا تناجيا لاستجماعهم لذلك وافاضتهم فيه يجدوا هتمام كانهم فى انفسهم صورة التناجى وحقيقته فالنجى يكون بمعنى المناجى كالسمير بمعنى المسامر وبمعنى المصدر الذى هو التناجى وكان تناجيهم فى تدبير امرهم على اى صفة يذهبون وماذا يقولون لابيهم فى شأن اخيهم (قال كبيرهم) فى السن وهو روبيل او فى العقل والرأى وهو يهوذا او رئيسهم وهو شمعون (الم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف) ما صلة اى ومن قبل هذا قصرتم فى شأن يوسف ولم تحفظوا عهد ابيكم او مصدرية ومحل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من

شهادة

قبل ومعناه وقع من قبل تفريطكم فى يوسف (فلن ابرح الارض) فلن افارق ارض مصر (حتى يأذن لى ابى) فى الانصراف اليه (او يحكم الله لى) بالخروج منها او بالموت او بقتالهم (وهو خير الحاكمين) لانه لا يحكم الا بالعدل (ارجعوا الى ابيكم فقولوا يا ابانا ان ابنك سرق) وقرئ سرق اى نسب الى السرقة (وما شهدنا) عليه بالسرقة (الا بما علمنا) من سرقته وتيقنا اذ الصواع استخرج من وعائه

شهادة فى عمرنا على شئ الا بما علمناه وهذه ليست بشهادة انما هو خبر عن صنيع ابنك انه سرق بزعمهم فيكون المعنى ان ابنك سرق فى زعم الملك وأصحابه لا انا نشهد عليه بالسرقة وقرأ ابن عباس والضحاك سرق بضم السين وكسر الراء وتشديدها اى نسب الى السرقة واتهم بها وهذه القراءة لا تحتاج الى تأويل ومعناها ان القوم نسبوه الى السرقة الا ان هذه القراءة ليست مشهورة فلا تقوم بها حجة والقراءة الصحيحة المشهورة هى الاولى وقوله وما شهدنا الا بما علمنا يعنى وما قلنا هذا الا بما علمنا فانا رأينا اخراج الصواع من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة فى عمرنا على شئ الا بما علمناه وليست هذه شهادة وانما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم وقيل قال لهم يعقوب هب انه سرق فما يدرى هذا الرجل ان السارق يؤخذ بسرقته الا بقولكم قالوا ما شهدنا عنده ان السارق يسترق الا بما علمنا من الحكم وكان الحكم كذلك عند الانبياء قبله ويعقوب وبنيه واورد على هذا القول كيف جاز ليعقوب اخفاء هذا الحكم حتى ينكر على بنيه ذلك واجيب عنه بانه يحتمل ان يكون ذلك الحكم كان مخصوصا بما اذا كان المسروق منه مسلما فلهذا انكر عليهم اعلام الملك بهذا الحكم لظنه انه كافر (وما كنا للغيب حافظين) قال مجاهد وقتادة يعنى ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ويصير امرنا الى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ اخانا عما لنا الى حفظه منه سبيل وقال ابن عباس ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين وقيل معناه ان حقيقة الحال غير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله فلعل الصواع دس فى رحله ونحن لا نعلم بذلك (واسئل القرية التى كنا فيها) يعنى واسأل اهل القرية الا انه حذف المضاف للايجاز ومثل هذا النوع من المجاز مشهور فى كلام العرب والمراد بالقرية مصر وقال ابن عباس هى قرية من قرى مصر كان قد جرى فيها حديث السرقة والتفتيش (والعير التى اقبلنا فيها) يعنى واسأل القافلة التى كنا فيها وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب (وانا لصادقون) يعنى فيما قلناه وانما امرهم اخوهم الذى اقام بمصر بهذه المقالة مبالغة فى ازالة التهمة عن انفسهم عند ابيهم لانهم كانوا متهمين عنده بسبب واقعة يوسف (قال بل سولت لكم انفسكم امرا) فيه اختصار تقديره فرجعوا الى ابيهم فاخبروه بما جرى لهم فى سفرهم ذلك وبما قال لهم كبيرهم وامرهم ان يقولوه لابيهم فعند ذلك قال لهم يعقوب بل سولت يعنى بل زينت لكم انفسكم امرا وهو حمل اخيكم معكم الى مصر لطلب نفع عاجل فآل امركم الى ما آل وقيل معناه بل خيلت لكم أنفسكم انه سرق وما سرق (فصبر جميل) تقدم تفسيره فى اول السورة وقوله (عسى الله ان يأتينى بهم جميعا) يعنى بيوسف وبنيامين والاخ الثالث الذى اقام بمصر وانما قال يعقوب هذه المقالة لانه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم ان الله سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله عز وجل لانه اذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع الى الفرج وقيل ان يعقوب علم بما يجرى عليه وعلى بنيه من اول الامر وهو رؤيا يوسف وقوله يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا فلما تناهى الامر قال عسى الله أن يأتينى بهم جميعا (انه هو العليم) يعنى بحزنى ووجدى عليهم (الحكيم) فيما يدبره ويقضيه قوله تعالى (وتولى عنهم) يعنى واعرض يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين فحينئذ تناهى حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فعند ذلك أعرض عنهم (وقال يا أسفا على يوسف) الاسف أشد الحزن وانما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لان الحزن القديم اذا صادفه حزن آخر كان ذلك اوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبرا جديدا جدد حزنه على أخيه مالك

يقول أتبكى كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له ان الاسى يبعث الاسى * فدعنى فهذا كله قبر مالك

ارسل الى اهلها فاسألهم عن كنه القصة (والعير التى اقبلنا فيها) واصحاب العير وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام (وانا لصادقون) فى قولنا فرجعوا الى ابيهم وقالوا له ما قال لهم اخوهم (قال بل سولت لكم أنفسكم امرا) اردتموه والامر ادرى ذلك الرجل ان السارق يسترق لو افتوا كم وتعليمكم (فصبر جميل عسى الله ان يأتينى بهم جميعا) بيوسف واخيه وكبيرهم (انه هو العليم) بحالى فى الحزن والاسف (الحكيم) الذى لم يبتلنى بذلك الا لحكمة (وتولى عنهم) واعرض عنهم كراهة لما جاؤا به (وقال يا أسفا على يوسف) اضاف الاسف وهو اشد الحزن والحسرة الى نفسه والالف بدل من ياء الاضافة والتجانس بين الاسف ويوسف غير متكلف ونحوه اثاقلتم الى الارض ارضيتم وهم ينهون عنه وينأون عنه ويحسبون انهم يحسنون صنعا من سبأ بنبأ وانما تأسف على يوسف دون اخيه وكبيرهم لتمادى اسقه على يوسف دون الآخرين

وفيه دليل على ان الزرع فيه مع تقادم عهده كان غضا عنده طريا

(وابيضت عيناه) اذا كثر وقيل كان قد يدرك ادراكا ضعيفا (من الحزن) لان الحزن سبب البكاء الذى حدث منه البياض فكأنه حدث من الحزن قيل ماجفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف الى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الارض أكرم على الله من يعقوب ويجوز للنبي عليه السلام ان يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لان الانسان مجبول على ان لا يملك نفسه عند الحزن فلذلك حمد صبره ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا عليك يا ابراهيم لمحزونون وانما المذموم الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب (فهو كظيم) مملوء من الغيظ على اولاده ولا يظهر ما يسوءهم فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله اذ نادى وهو مكظوم من كظم السقاء اذا شده على ملئه (قالوا تالله تفتؤا) اى لا تفتأ فحذف حرف النفى لانه لا يلتبس اذ لو كان اثباتا لم يكن بد من اللام والنون ومعنى لا تفتأ لا تزال (تذكر يوسف حتى تكون حرضا) مشفيا على الهلاك مرضا (او تكون من الهالكين

فاجاب بان الحزن يجدد الحزن وقيل ان يوسف وبنيامين لما كان من أم واحدة كان يعقوب يتسلى عن يوسف ببنيامين فلما حصل فراق بنيامين زاد حزنه عليه ووجده وجدد حزنه على يوسف لان يوسف كان اصل المصيبة وقد اعترض بعض الجهال على يعقوب عليه السلام فى قوله يا أسفا على يوسف فقال هذه شكاية واظهار جزع فلا يليق بعلو منصبه ذلك وليس الامر كما قال هذا الجاهل المعترض لان يعقوب عليه الصلاة والسلام شكا الى الله لا منه فقوله يا أسفا على يوسف معناه يا رب ارحم أسفى على يوسف وقد ذكر ابن الانبارى عن بعض اللغويين انه قال نداء يعقوب بالاسف فى اللفظ من المجاز يعنى به غير المظهر فى اللفظ ولخصه يا الهى ارحم اسفى أو أنت رائى أسفى او هذا أسفى فنادى الاسف فى اللفظ والمنادى سواه فى المعنى ولا مأثم اذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم لانه لم يشك الا الى ربه عز وجل فلما كان قوله يا أسفا على يوسف شكوى الى ربه كان غير ملوم فى شكواه وقيل ان يعقوب لما عظمت مصيبته واشتد بلاؤه وقويت محنته قال يا أسفا على يوسف اى أشكو الى الله شدة أسفى على يوسف ولم يشكه الى احد من الخلق بدليل قوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله (وابيضت عيناه من الحزن) اى عمى من شدة الحزن على يوسف قال مقاتل لم يبصر شيأ ست سنين وقيل انه ضعف بصره من كثرة البكاء وذلك ان الدمع يكثر عند غلبة البكاء فتصير العين كانها بيضاء من ذلك الماء الخارج من العين (فهو كظيم) اى مكظوم وهو الممتلئ من الحزن الممسك عليه لا يبثه قال قتادة وهو الذى يردد حزنه فى جوفه ولم يقل الا خيرا وقال الحسن كان بين خروج يوسف من حجر ابيه الى يوم التقيا ثمانون سنة لم تجف عينا يعقوب وما على وجه الارض يومئذ أكرم على الله منه وقال ثابت البنانى ووهب بن منبه والسدى ان جبريل عليه الصلاة والسلام دخل على يوسف وهو فى السجن فقال هل تعرفنى أيها الصديق قال يوسف أرى صورة طاهرة قال انى رسول رب العالمين وانا الروح الامين فقال يوسف فما ادخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين وأمين رب العالمين قال الم تعلم يا يوسف أن الله يطهر الارض بطهر النبيين وان الارض التى يدخلونها هى اطهر الارضين وان الله قد طهر بك الارض والسجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين قال يوسف كيف لى باسم الصديقين وتعدنى من الصالحين المخلصين الطاهرين وقد دخلت مدخل المذنبين قال انه لم يفتن قلبك ولم تطع سيدتك فى معصية ربك فلذلك سماك الله من الصديقين وعدك من المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين قال يوسف فهل لك علم من يعقوب أيها الروح الامين قال نعم قد ذهب بصره وابتلاه الله بالحزن عليك فهو كظيم ووهب له الصبر الجميل قال فما قدر حزنه قال حزن سبعين ثكلاء قال فما له من الاجر يا جبريل قال اجر مائة شهيد قال افترانى لاقيه قال نعم فطابت نفس يوسف وقال ما أبالى مما لقيت ان رأيته قوله عز وجل (قالوا) يعنى اخوة يوسف عليه الصلاة والسلام لابيهم (تالله تفتؤا تذكر يوسف) يعنى لا تزال تذكر يوسف ولا تفتر عن حبه يقول ما فتئ يفعل كذا اى ما زال ولا محذوفة فى جواب القسم لان موضعها معلوم فحذفت للتخفيف كقول امرئ القيس

فقلت يمين الله ابرح قاعدا ✻ ولو قطعوا رأسى لديك واوصالى

اى لا أبرح قاعدا وقوله (حتى تكون حرضا) قال ابن عباس يعنى دنفا وقال مجاهد الحرض ما دون الموت يعنى قريبا من الموت وقال ابن اسحق يعنى فاسد الاعقل له والحرض الذى فسد جسمه وعقله وقيل ذا ثبا من الهم وأصل الحرض الفساد فى الجسم والعقل من الحزن او الهم ومعنى الآية حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل يعنى لا تنتفع بنفسك من شدة الحزن والهم والاسف (او تكون من الهالكين) يعنى من الاموات فان قلت كيف حلفوا على شئ لم يعلموا حقيقته قطعا قلت انهم بنوا الامر على الاغلب

الظاهر اى نقوله ظنا منا ان الامر يصير الى ذلك (قال) يعنى يعقوب عند ما رأى قولهم له وغلظتهم عليه (انما أشكو بثى وحزنى الى الله) اصل البث اثارة الشئ وتفريقه وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والشر قال ابن قتيبة البث أشد الحزن وذلك لان الانسان اذا ستر الحزن وكتمه كان هما فاذا ذكره لغيره كان بثا فالبث أشد الحزن والحزن الهم فعلى هذا يكون المعنى انما أشكو حزنى العظيم وحزنى القليل الى الله لا اليكم قال ابن الجوزى روى الحاكم ابو عبد الله فى صحيحه من حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له ذات يوم يا يعقوب ما الذى اذهب بصرك وما الذى قوس ظهرك قال اما الذى أذهب بصرى فالبكاء على يوسف واما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين فأتاه جبريل فقال يا يعقوب ان الله يقرئك السلام ويقول لك اما تستحى ان تشكو الى غيرى فقال انما أشكو بثى وحزنى الى الله فقال جبريل الله اعلم بما تشكو وقيل انه دخل على يعقوب جار له فقال له يا يعقوب مالى أراك قد تهشمت بالضعف وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ ابوك فقال هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من هم يوسف فاوحى الله اليه يا يعقوب اتشكونى الى خلقى فقال يا رب خطيئة اخطأتها فاغفرها لى قال قد غفرتها لك فكان بعد ذلك اذا سئل يقول انما اشكو بثى وحزنى الى الله وقيل ان الله اوحى اليه وعزتى وجلالى لا أكشف ما بك حتى تدعونى فعند ذلك قال انما اشكو بثى وحزنى الى الله ثم قال اى رب اما ترحم الشيخ الكبير اذهبت بصرى وقوست ظهرى فاردد على ريحانتى اشمهما شمة قبل ان أموت ثم اصنع ما شئت فاتاه جبريل فقال يا يعقوب ان الله يقرئك السلام ويقول لك أبشر فوعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما لك اتدرى لم وجدت عليك لانكم ذبحتم شاة فقام على بابكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيأ وان احب عبادى الى الانبياء ثم المساكين اصنع طعاما واوع اليه المساكين فاصنع طعاما ثم قال من كان صائما فليفطر الليلة عند آل يعقوب وكان بعد ذلك اذا تغدى امر منا ديا ينادى من اراد أن يتغدى فليأت آل يعقوب واذا أفطر امر أن ينادى من اراد ان يفطر فليأت آل يعقوب فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين وقال وهب بن منبه اوحى الله تعالى الى يعقوب اتدرى لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة قال لا يا رب قال لانك شويت عناقا وقمت على جارك وأكلت ولم تطعمه وقيل ان سبب ابتلاء يعقوب انه ذبح عجلا بين يدى امه وهى تخور فلم يرحمها فان قلت هل فى هذه الروايات ما يقدح فى عصمة الانبياء قلت لا وانما عوقب يعقوب بهذا لان حسنات الابرار سيئات المقربين وانما يطلب من الانبياء من الاعمال على قدر منصبهم وشريف رتبتهم ويعقوب عليه الصلاة والسلام من اهل بيت النبوة والرسالة ومع ذلك فقد ابتلى الله كل واحد من انبيائه بمحنة فصبر وفوض امره الى الله فابراهيم عليه الصلاة والسلام ألقى فى النار فصبر ولم يشك الى احد واسمعيل ابتلى بالذبح فصبر وفوض امره الى الله واسحق ابتلى بالعمى فصبر ولم يشك الى احد ويعقوب ابتلى بفقد ولده يوسف وبعده بنيامين ثم عمى بعد ذلك او ضعف بصره من كثرة البكاء على فقدهما وهو مع ذلك صابر لم يشك الى احد شيأ مما نزل به وانما كانت شكايته الى الله عز وجل بدليل قوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله فاستوجب بذلك المدح العظيم والثناء الجميل فى الدنيا والدرجات العلى فى الآخرة مع من سلف من ابويه ابراهيم واسحق عليهما الصلاة والسلام وأما دمع العين وحزن القلب فلا يستوجب به ذما ولا عقوبة لان ذلك ليس الى اختيار الانسان فلا يدخل تحت التكليف بدليل ان النبى صلى الله عليه وسلم بكى على ولده ابراهيم عند موته وقال ان العين لتدمع وان القلب ليحزن وما نقول الا ما يرضى ربنا فهذا القدر لا يقدر الانسان على دفعه عن نفسه فصار مباحا لا حرج فيه على احد من الناس وقوله (واعلم من الله ما لا تعلمون) يعنى انه تعالى من رحمته واحسانه يأتى بالفرج من حيث لا احتسب وفيه اشارة الى انه كان يعلم حياة

قال انما أشكو بثى وحزنى الى الله) البث اصعب الهم الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس اى ينشره اى لا اشكو الى احد منكم ومن غيركم انما اشكو الى ربى داعيا له وملتجئا اليه فخلونى وشكايتى وروى انه اوحى الى يعقوب انما وجدت عليكم لانكم ذبحتم شاة فوقف ببابكم مسكين فلم تطعموه وان أحب خلقى الى الانبياء ثم المساكين فاصنع طعاما وادع عليه المساكين وقيل اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت (واعلم من الله ما لا تعلمون) واعلم من رحمته انه يأتينى بالفرج من حيث لا احتسب وروى انه رأى ملك الموت فى منامه فسأله هل قبضت روح يوسف فقال لا والله هو حى فاطلبه وعليك هذا الدعاء ياذا المعروف الدائم الذى لا ينقطع معروفه ابدا ولا يحصيه غيرك فرج عنى

يوسف و يتوقع رجوعه اليه وروى ان ملك الموت زار يعقوب فقال له يعقوب ايها الملك الطيب ريح
الحسن صورته الكريم على ربه هل قبضت روح ابنى يوسف فى الارواح فقال لا فطابت نفس يعقوب
وطمع فى رؤيته فلذلك قال وأعلم من الله مالا تعلمون وقيل معناه وأعلم ان رؤيا يوسف حق وصدق
وانى وانتم سنسجد له وقال السدى لما اخبره بنوه بسيرة ملك مصر وكمال حاله فى جميع اقواله وافعاله
أحست نفس يعقوب وطمع أن يكون هو يوسف فعند ذلك قال يعنى يعقوب (يا بنى اذهبوا فتحسسوا
من يوسف وأخيه) التحسس طلب الخير بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل ان التحسس
بالحاء يكون فى الخير وبالجيم يكون فى الشر ومنه الجاسوس وهو الذى يطلب الكشف عن عورات
الناس قال ابن عباس التمسوا قال ابن الانبارى يقال تحسست عن فلان ولا يقال من فلان وقال هنا
من يوسف واخيه لانه أقيم من مقام عن قال ويجوز ان يقال من للتبعيض و يكون المعنى تحسسوا خبرا
من اخبار يوسف واخيه روى عن عبد الله بن يزيد عن ابى فروة ان يعقوب كتب كتابا الى يوسف
عليهما الصلاة والسلام حين حبس عنده بنيامين من يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم
خليل الله الى ملك مصر أما بعد فانا اهل بيت وكل بنا البلاء أما جدى ابراهيم فشدت يداه ورجلاه والقى
فى النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وأما ابى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله وأما
أنا فكان لى ابن وكان أحب اولادى الى فذهب به اخوته الى البرية ثم اتونى بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد
اكله الذئب فذهبت عيناى ثم كان لى ابن آخر وكان اخاه من أمه وكنت أتسلى به وانك حبسته وزعمت
انه سرق وانا اهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته الى والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من
ولدك فلما قرأ يوسف كتاب ابيه اشتد بكاؤه وعيل صبره وأظهر نفسه لاخوته على ما سنذكره ان شاء الله
تعالى فذلك قوله تعالى يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه (ولا تيأسوا) اى ولا تقنطوا (من روح
الله) يعنى من رحمة الله وقيل من فضل الله وقيل من فرج الله (انه لا ييأس من روح الله الا القوم
الكافرون) يعنى ان المؤمن على خير يرجوه من الله فيصبر عند البلاء فينال به خيرا و يحمد عند الرخاء
فينال به خيرا والكافر بضد ذلك قوله تعالى (فلما دخلوا عليه) فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من
عند أبيهم قاصدين مصر فلما دخلوا عليه يعنى على يوسف (قالوا يا أيها العزيز) يعنون يا أيها الملك والعزيز
القادر الممتنع وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ (مسنا وأهلنا الضر) اى الشدة والفقر والجوع
وارادوا باهلهم من خلفهم ومن ورائهم من العيال (وجئنا ببضاعة مزجاة) اى ببضاعة رديئة كاسدة
لا تنفق فى ثمن الطعام الا بتجوز من البائع واصل الازجاء فى اللغة الدفع قليلا قليلا والتزجية دفع الشئ
لينساق كتزجية الريح السحاب ومنه قول الشاعر * وحاجة غير مزجاة من الحاج * يعنى هى قليلة
يسيرة يمكن دفعها وسوقها القلة الاعتناء بها وانما وصفوا تلك البضاعة بانها مزجاة اما لنقصانها او لردائتها
او لمجموعهما فلذلك اختلفت عبارات المفسرين فى معنى هذه البضاعة المزجاة فقال ابن عباس كانت
دراهم رديئة زيوفا وقيل كانت خلق الغرائر والحبال وقيل كانت من متاع الاعراب من الصوف
والاقط وقال الكلبى ومقاتل كانت حبة الخضراء وقيل كانت سويق المقل وقيل كانت الادم
والنعال وقال الزجاج سميت هذه البضاعة القليلة الرديئة مزجاة من قولهم فلان يزجى العيش اى يدفع
الزمان بالقليل من العيش والمعنى جئنا ببضاعة مزجاة لندافع بها الزمان وليست مما يتسع بها وقيل لم
قيل للدراهم الرديئة مزجاة لانها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن يدفعها (فأوف لنا الكيل) يعنى اعط
ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافى والمعنى انا نريد ان تقيم لنا الزائد مقام الناقص والجيد مقام
الردىء (وتصدق علينا) يعنى وتفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والردىء ولا تنقصنا هذا قول اكثر

(يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما وهو تفعل من الاحساس وهو المعرفة (ولا تيأسوا من روح الله) ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه (انه) ان الامر والشان (لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) لان من آمن يعلم انه متقلب فى رحمة الله ونعمته وأما الكافر فلا يعرف رحمة الله ولا تقلبه فى نعمته فييأس من رحمته فخرجوا من عند أبيهم راجعين الى مصر (فلما دخلوا عليه) على يوسف (قالوا يا أيها العزيز مسنا واهلنا الضر) الهزال من الشدة والجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من ازجيته اذا دفعته وطردته قيل كانت دراهم زيوفا لا تؤخذ الا بوضيعة وقيل كانت صوفا وسمنا (فاوف لنا الكيل) الذى هو حقنا (وتصدق علينا) وتفضل علينا بالمسامحة والاغماض عن رداءة البضاعة اوزدنا على حقنا اوهب لنا أخانا

المفسرين قال ابن الانبارى وكان الذى يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة وليس به واختلف العلماء هل كانت الصدقة حلالا للانبياء قبل نبينا أم لا فقال سفيان بن عيينة ان الصدقة كانت حلالا للانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم واستدل بهذه الآية وأنكر جهور العلماء ذلك وقالوا ان حال الانبياء كلهم واحد فى تحريم الصدقة عليهم لانهم ممنوعون من الخضوع للمخلوقين والاخذ منهم والصدقة اوساخ الناس فلا تحل لهم لانهم مستغنون بالله عمن سواه وأجيب عن قوله وتصدق علينا انهم طلبوا منه ان يجريهم على عادتهم من المسامحة وايفاء الكيل ونحو ذلك مما كان يفعل بهم من الكرامة وحسن الضيافة لانفس الصدقة وكره الحسن ومجاهد أن يقول الرجل فى دعائه اللهم تصدق علينا الان الصدقة لا تكون الا ممن يبتغى الثواب وروى ان الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق على فقال ان الله لا يتصدق انما يتصدق من يبتغى الثواب قل اللهم اعطنى وتفضل على وقال ابن جريج والضحاك وتصدق علينا يعنى برد اخينا علينا (ان الله يجزى المتصدقين) يعنى بالثواب الجزيل وقال الضحاك لم يقولوا ان الله يجزيك لانهم لم يعلموا انه مؤمن (قال) يعنى قال يوسف لاخوته (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) وقد اختلفوا فى السبب الذى من اجله حمل يوسف وهيجه على هذا القول فقال ابن اسحق ذكر لى انهم لما كلموه بهذا الكلام ادركته رقة على اخوته فباح بالذى كان يكتم وقيل انه اخرج لهم نسخة الكتاب الذى كتبوه ببيعه من مالك وفى آخره وكتبه يهوذا فلما قرؤا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا يا أيها الملك انه كان لنا عبد فبعناه منه فغاظ ذلك يوسف وقال انكم تستحقون العقوبة وامر بقتلهم فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا كان يعقوب يبكى ويحزن لفقد واحد منا فكيف اذا اتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا ان كنت فاعلا ذلك فابعث بامتعتنا الى ابينا فانه يمكن كذا وكذا فذلك حين ادركته الرقة عليهم والرحمة فبكى وقال هذا القول وقيل ان يوسف لما قرأ كتاب أبيه اليه لم يتمالك ان بكى وقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه وهذا استفهام يفيد تعظيم امر هذه الواقعة ومعناه ما اعظم ما ارتكبتم من امر يوسف وما اقبح ما أقدمتم عليه من قطيعة الرحم وتفريقه من ابيه وهذا كما يقال للمذنب هل تدرى من عصيت وهل تعرف من خالفت ولم يرد بهذا نفس الاستفهام ولكنه اراد تفظيع الامر وتعظيمه ويجوز ان يكون المعنى هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف واخيه من تسليم الله اياهما من المكروه * واعلم ان هذه الآية تصديق لقوله تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا وهم لا يشعرون فان قلت الذى فعلوه بيوسف معلوم ظاهر فما الذى فعلوه بأخيه من المكروه حتى يقول لهم هذه المقالة فانهم لم يسعوا فى حبسه ولا ارادوا ذلك قلت انهم لما فرقوا بينه وبين أخيه يوسف نغصوا عليه عيشه وكانوا يؤذونه كلما ذكر يوسف وقيل انهم قالوا له لما اتهم باخذ الصواع ما رأينا منكم يا بنى راحيل خيرا (اذ أنتم جاهلون) هذا يجرى مجرى العذر لهم يعنى انكم انما اقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر حال كونكم جاهلين وهو وقت الصبا وحالة الجهل وقيل جاهلون بما يؤل اليه أمر يوسف * قوله عز وجل (قالوا أئنك لأنت يوسف) قرئ على سبيل الاستفهام وحجة هذه القراءة قال ابن عباس لما قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه تبسم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ تشبه ثنايا يوسف فشبهوه بيوسف فقالوا استفهاما أئنك لأنت يوسف وقرئ على الخبر وحجته ما قال ابن عباس ايضا فى رواية أخرى عنه ان اخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان له فى قرنه علامة تشبه الشامة وكان ليعقوب مثلها ولاسحق مثلها ولسارة مثلها فعرفوه بها وقالوا انت يوسف وقيل قالوه على سبيل التوهم ولم يعرفوه حتى (قال أنا يوسف) قال بعض العلماء انما اظهر الاسم فى قوله أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيما لما نزل به من ظلم اخوته له وما عوضه الله من النصر والظفر والملك فكأنه قال أنا يوسف المظلوم الذى ظلمتمونى وقصدتم قتلى بان القيتمونى فى الجب ثم بعتمونى بابخس الاثمان ثم صرت الى

(ان الله يجزى المتصدقين) ولما قالوا مسنا وأهلنا الضر وتضرعوا اليه وطلبوا منه ان يتصدق عليهم ارفضت عيناه ولم يتمالك ان عرفهم نفسه حيث قال (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف) اى هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف (وأخيه اذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه او اذ أنتم فى حد السفه والطيش وفعلهم باخيه تعريضهم اياه للغم بافراده عن اخيه لابيه وأمه وايذاؤهم له بانواع الاذى (قالوا أئنك) بهمزتين كوفى وشامى (لانت يوسف) اللام لام الابتداء وانت مبتدا ويوسف خبره والجملة خبران (قال انا يوسف

وهذا أخي) وانما ذكر اخاه وهم قد سألوه عن نفسه لانه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه (قد من الله علينا) بالالفة بعد الفرقة وذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة ولم يبد أبالملامة (انه من يتق) الفحشاء (ويصبر) عن المعاصي وعلى الطاعة (فان الله لا يضيع اجر المحسنين) اي أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين وقيل من يتق مولاه ويصبر على بلواه لا يضيع أجره في دنياه وعقباه (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) اختارك وفضلك علينا بالعلم والحلم والتقوى والصبر والحسن (وان كنا لخاطئين) وان شأننا وحالنا انا كنا خاطئين ٤٤ متعمدين للاثم لم نتق ولم نصبر لاجرم ان الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك (قال

ماترون فكان تحت ظهور الاسم هذه المعاني كلها ولهذا قال (وهذا أخي) وهم يعرفونه لانه قصد به ايضا وهذا أخي المظلوم كما ظلمتموني ثم صرت أنا وهو الى ماترون وهو قوله (قد من الله علينا) بان جمع بيننا وقيل من علينا بكل عز وخير في الدنيا والآخرة وقيل من علينا بالسلامة في ديننا ودنيانا (انه من يتق ويصبر) يعني يتقي الزنا ويصبر على العزوبة قاله ابن عباس وقال مجاهد يتقي المعصية ويصبر على السجن وقيل يتقي الله باداء فرائضه ويصبر عما حرم الله (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) يعني اجر من كان هذا حاله (قالوا) يعني قال اخوة يوسف معتذرين اليه مما صدر منهم في حقه (تالله لقد آثرك الله علينا) اي اختارك وفضلك علينا يقال آثرك الله ايثارا اي اختارك ويستعار الاثر للفضل والايثار للتفضيل والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والعقل وقال الضحاك عن ابن عباس بالملك وقال ابو صالح عنه بالصبر وقيل بالحلم والصفح علينا وقيل بالحسن وسائر الفضائل التي أعطاها الله عز وجل له دون اخوته وقيل فضله عليهم بالنبوة وأورد على هذا القول بان اخوته كانوا انبياء ايضا فليس له عليهم فضل في ذلك وأجيب عنه بان يوسف فضل عليهم بالرسالة مع النبوة فكان أفضل منهم بهذا الاعتبار لان من جمعت له النبوة والرسالة كان افضل ممن خص بالنبوة فقط (وان كنا لخاطئين) يعني وما كنا في صنعنا بك الا خاطئين ولهذا اختير لفظ الخاطئ على المخطئ والفرق بينهما ان يقال خطئ خطأ اذا تعمد وأخطأ اذا كان غير متعمد وقيل يجوز أن يكون آثر لفظ خاطئين على مخطئين لموافقة رؤس الآي لان خاطئين أشبه بما قبلها (قال) يعني يوسف (لا تثريب عليكم) يعني لا تعيير ولا توبيخ عليكم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يوبخها ولا يثرب اي لا يعيرها بالزنا بعد اقامة الحد عليها وفي محل قوله (اليوم) قولان أحدهما انه يرجع الى ما قبله فيكون التقدير لا تثريب عليكم اليوم والمعنى ان هذا اليوم هو يوم التثريب والتقريع والتوبيخ وانا لا أقرعكم اليوم ولا اوبخكم ولا اثرب عليكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم اليوم ويبتدأ بقوله (يغفر الله لكم) والقول الثاني ان اليوم متعلق بقوله يغفر الله لكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم ويبتدأ باليوم يغفر الله لكم كانه لما نفى عنهم التوبيخ والتقريع بقوله لا تثريب عليكم بشرهم بقوله اليوم يغفر الله لكم (وهو أرحم الراحمين) ولما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن حال أبيه فقال ما حال ابي بعدي قالوا ذهب بصره من كثرة البكاء عليك فاعطاهم قميصه وقال (اذهبوا بقميصي هذا) قال الضحاك كان هذا القميص من نسج الجنة وقال مجاهد أمر جبريل ان يرسل اليه قميصه وكان ذلك القميص قميص ابراهيم وذلك انه لما جرد من ثيابه والقي في النار عريانا اتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه فكان ذلك القميص عند ابراهيم فلما مات ورثه اسحق فلما مات ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة من فضة وسد رأسها وجعلها في عنق يوسف كالتعاويذ لما كان يخاف عليه من العين وكانت لا تفارقه فلما ألقي يوسف في

لا تثريب عليكم) لا تعيير عليكم (اليوم) متعلق بالتثريب او بيغفر والمعنى لا اثرب بكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره من الايام ثم ابتدأ فقال (يغفر الله لكم) فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم يقال غفر الله لك ويغفر لك على لفظ الماضي والمضارع واليوم يغفر الله لكم بشارة بعاجل غفران الله وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش ماترونني فاعلا بكم قالوا نظن خيرا اخ كريم وابن اخ كريم وقد قدرت فقال اقول ما قال اخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم وروى ان اباسفيان لما جاء ليسلم قال له العباس اذا أتيت رسول الله فاتل عليه قال لا تثريب عليكم اليوم ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك ولمن علمك

وبروى ان اخوته لما عرفوه ارسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا البئر

ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك فقال يوسف ان اهل مصر وان ملكت فيهم فانهم ينظرون الي بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا يبيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس اني من حفدة ابراهيم (وهو أرحم الراحمين) اي اذا رحمتكم وأنا الفقير القتور فما ظنكم بالغني الغفور ثم سألهم عن حال أبيه فقالوا انه عمي من كثرة البكاء قال (اذهبوا بقميصي هذا) قيل هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة أمره جبريل ان يرسله اليه فان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا سقيم الا عوفي

(فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) يصر بصيرا تقول جاء البناء محكما اى صار او يأت الى وهو بصير قال يهوذا انا احمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الخفاء وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا (وأتوني باهلكم أجمعين) لينعموا بالنظر الي كما اغتموا باخباري اهلكي (ولما فصلت العير) خرجت من عريش مصر ٤٥ يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه (قال أبوهم) لولد ولده ومن حوله من قومه (انى لاجد ريح يوسف) او جد الله ريح القميص حين اقبل من مسيرة ثمانية ايام (لولا أن تفندون) التفنيد النسبة الى الفند وهو الخرف وانكار العقل من هرم يقال شيخ مفند والمعنى لولا تفندكم اياى لصدقتمونى (قالوا) اى اسباطه (تالله انك لفى ضلالك القديم) لفى ذهابك عن الصواب قديما فى افراط محبتك ليوسف اوفى خطئك القديم من حب يوسف وكان عندهم انه قدمات (فلما أن جاء البشير) اى يهوذا (القاه على وجهه) طرح البشير القميص على وجه يعقوب اوالقاه يعقوب (فارتد) فرجع (بصيرا) يقال رده فارتد وارتده اذا ارتجعه (قال ألم أقل لكم) يعنى قوله انى لاجد ريح يوسف اوقوله ولا تيأسوا من روح الله وقوله (انى أعلم من الله مالا تعلمون) كلام مبتدأ لم يقع عليه القول

البشر عريانا أتاه جبريل وأخرج له ذلك القميص وألبسه اياه فلما كان هذا الوقت جاءه جبريل فامره ان يرسل هذا القميص الى ابيه لان فيه ريح الجنة فلا يقع على مبتلى ولا سقيم الا عوفى فى الوقت فدفع ذلك القميص يوسف الى اخوته وقال اذهبوا بقميصى هذا (فالقوه على وجه أبي يأت بصيرا) قال المحققون ان علم يوسف ان القاء ذلك القميص على وجه يعقوب يوجب رد البصر كان بوحى الله اليه ذلك ويمكن ان يقال ان يوسف لما علم ان أباه قد عمى من كثرة البكاء عليه وضيق الصدر بعث اليه قميصه ليجد ريحه فيزول بكاءه وينشرح صدره ويفرح قلبه فعند ذلك يزول الضعف ويقوى البصر فهذا القدر يمكن معرفته من جهة العقل وقوله (وأتوني باهلكم أجمعين) قال الكلبى كانوا نحوا من سبعين انسانا وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين ما بين رجل وامرأة (ولما فصلت العير) يعنى خرجت من مصر وقيل من عريش مصر متوجهين الى أرض كنعان (قال أبوهم) يعنى قال يعقوب لولد ولده (انى لاجد ريح يوسف) قيل ان ريح الصبا استأذنت ربها فى ان تأتى يعقوب بريح يوسف قبل ان يأتيه البشير وقال مجاهد اصابت يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام وقال ابن عباس من مسيرة ثمان ليال وقال الحسن كان بينهما ثمانون فرسخا وقيل هبت ريح فاحتملت ريح القميص الى يعقوب فوجد يعقوب ريح الجنة فعلم انه ليس فى الارض من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص فعلم بذلك انه من ريح يوسف فلذلك قال انى لاجد ريح يوسف (لولا ان تفندون) أصل التفنيد من الفند وهو ضعف الرأى وقال ابن الانبارى أفند الرجل اذا خرف وفند اذا جهل ونسب ذلك اليه وقال الاصمعى اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو التفنيد والفند فيكون المعنى لولا ان تفندونى اى تنسبونى الى الخرف وقيل تسفهونى وقيل تلومونى وقيل تجهلونى وهو قول ابن عباس وقال الضحاك تهرمونى فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله (قالوا) يعنى اولاد اولاد يعقوب وأهله الذين عنده لان اولاده لصلبه كانوا غائبين عنه (تالله انك لفى ضلالك القديم) يعنى من ذكر يوسف ولا تنساه لانه كان عندهم ان يوسف كان قد مات وهلك ويرون ان يعقوب قد لهج بذكره فلذلك قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم يعنى من ذكره والضلال الذهاب عن طريق الصواب (فلما ان جاء البشير) وهو المبشر بخبر يوسف قال ابن مسعود جاء البشير بين يدى العير قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه هو يهوذا قال السدى قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم الى يعقوب وأخبرته ان يوسف أكله الذئب فانا اذهب اليوم بالقميص وأخبره انه حى فأفرحه كما أحزنته قال ابن عباس حمله يهوذا وخرج به حافيا حاسرا يعدو ومعه سبعة ارغفة فلم يستوف أكلها حتى اتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخا (القاه على وجهه) يعنى فالقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب (فارتد بصيرا) يعنى فرجع بصيرا بعدما كان قد عمى وعادت اليه قوته بعد الضعف وسروره بعد الحزن (قال الم أقل لكم انى أعلم من الله مالا تعلمون) يعنى من حياة يوسف وان الله يجمع بيننا وروى ان يعقوب قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال يعقوب ما أصنع بالملك على اى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة قوله تعالى (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا) يعنى قال اولاد يعقوب حين وصلوا اليه وأخذوا يعتذرون اليه مما صنعوا به وبيوسف استغفر لنا اى اطلب لنا غفر ذنوبنا من الله (انا كنا خاطئين) يعنى فى صنيعنا (قال سوف استغفر لكم ربى) قال أكثر المفسرين ان يعقوب أخر

ووقع عليه والمراد قوله انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون وروى انه سأل البشير كيف يوسف قال هو ملك مصر فقال ما اصنع بالملك على اى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) اى سل الله مغفرة ما ارتكبنا فى حقك وحق ابنك انا تبنا واعترفنا بخطايانا (قال سوف استغفر لكم ربى

انه هو الغفور الرحيم) أخر الاستغفار الى وقت السحر او الى ليلة الجمعة او ليتعرف حالهم فى صدق التوبة او الى ان يسأل يوسف هل عفا عنهم ثم ان يوسف وجه الى أبيه جهازا وماشتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه فلما بلغ قريبا من مصر خرج يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم ٤٦ فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهوذا (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه) ضم اليه

(أبويه) واعتنقهما قيل كانت أمه باقية وقيل ماتت وتزوج أبوه خالته والخالة أم كما ان العم أب ومنه قوله والله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق ومعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر انه حين استقبلهم انزلهم فى مضرب خيمة او قصر كان له ثمة فدخلوا عليه وضم اليه أبويه (وقال) لهم بعد ذلك (ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) من ملوكها وكانوا لا يدخلونها الا بجوار او من القحط وروى انه لما لقيه قال يعقوب عليه السلام عليك يا مذهب الاحزان وقال له يوسف يا ابت بكيت على حتى ذهب بصرك الم تعلم ان القيامة تجمعنا فقال بلى ولكن خشيت ان يسلب دينك فيحال بينى وبينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجال ونساء وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة الف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف الف وماتى الف (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) قيل لما دخلوا مصر وجلس يومئذ فى مجلسه مستويا على سريره واجتمعوا اليه اكرم ابويه فرفعهما على السرير وخر واله يعنى الاخوة الاحد عشر والابوين سجدا وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد وقال الزجاج سنة التعظيم فى ذلك الوقت ان يسجد للمعظم

الدعاء والاستغفار لهم الى وقت السحر لانه أشرف الاوقات وهو الوقت الذى يقول الله فيه هل من داع فاستجيب له فلما انتهى يعقوب الى وقت السحر قام الى الصلاة متوجها الى الله تعالى فلما فرغ رفع يديه الى الله تعالى وقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لاولادى ما أتوا الى أخيهم يوسف فاوحى الله اليه انى قد غفرت لك ولهم أجمعين قال عكرمة عن ابن عباس انه أخر الاستغفار لهم الى ليلة الجمعة لانها أشرف الاوقات قال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة نيفا وعشرين سنة وقال طاوس أخر الاستغفار الى وقت السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وقال الشعبى سوف استغفر لكم ربى قال حتى أسأل يوسف فان كان عد عفا عنكم استغفرت لكم ربى (انه هو الغفور) يعنى لذنوب عباده (الرحيم) بجميع خلقه قال عطاء الخراسانى طلب الحوائج الى الشباب اسهل منه الى الشيوخ ألا ترى الى قول يوسف لاخوته لا تثريب عليكم الآية وقول يعقوب سوف استغفر لكم ربى قال أصحاب الاخبار ان يوسف عليه الصلاة والسلام بعث مع اخوته الى أبيه ماتى راحلة وجهازا كثيرا فأتوه بيعقوب وجميع اهله الى مصر فلما أتوه تجهز يعقوب للخروج الى مصر فجمع أهله وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الاكبر يعنى ملك مصر وعرفه بمجىء أبيه وأهله فخرج يوسف ومعه الملك فى اربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب عليه الصلاة والسلام وكان يعقوب يمشى وهو يتوكأ على يد ابنه يهوذا فلما نظر الى الخيل والناس قال يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا بل هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد من صاحبه أراد يوسف ان يبدأ يعقوب بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان وقيل انهما نزلا وتعانقا وفعلا كما يفعل الوالد بولده والولد بوالده وبكيا وقيل ان يوسف قال لابيه يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك الم تعلم ان القيامة تجمعنا قال بلى ولكن خشيت ان يسلب دينك فيحال بينى وبينك فذلك قوله تعالى (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه) يعنى ضم اليه (أبويه) قال أكثر المفسرين هو أبوه يعقوب وخالته ليا وكانت امه قد ماتت فى نفاس بنيامين وقال الحسن هما أبوه وأمه وكانت حية بعد وقيل ان الله أحياها ونشرها من قبرها حتى تسجد ليوسف تحقيقا لرؤياه والاول أصح (وقال ادخلوا مصر) قيل المراد بالدخول الاول فى قوله فلما دخلوا على يوسف ارض مصر وذلك حين استقبلهم ثم قال ادخلوا مصر يعنى البلد وقيل انه أراد بالدخول الاول دخولهم مصر وأراد بالدخول الثانى الاستيطان بها اى ادخلوا مصر مستوطنين فيها (ان شاء الله آمنين) قيل ان هذا الاستثناء عائد الى الامن لا الى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين ان شاء الله وقيل انه عائد الى الدخول فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل ان يدخلوا مصر وقيل ان هذا الاستثناء يرجع الى الاستغفار فعلى هذا يكون فى الكلام تقديم وتأخير تقديره سوف استغفر لكم ربى ان شاء الله وقيل ان الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها أحدا لا بجوارهم فقال لهم يوسف ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأهليكم ان شاء الله فعلى هذا يكون قوله ان شاء الله للتبرك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع علمه انه لاحق بهم (ورفع أبويه على العرش) يعنى على السرير الذى كان يجلس عليه يوسف والرفع النقل الى العلو (وخروا له سجدا) يعنى يعقوب وخالته ليا واخوته وكانت تحية الناس

يومئذ السجود وهو الانحناء والتواضع ولم يرد به حقيقة السجود من وضع الجبهة على الارض على سبيل العبادة فان قلت كيف استجاز يوسف عليه السلام ان يسجد له ابوه وهو أكبر منه وأعلى منصبا في النبوة والشيخوخة قلت يحتمل ان الله تعالى امره بذلك لتحقيق رؤياه ثم في معنى هذا السجود قولان أحدهما انه كان انحناء على سبيل التحية كما تقدم فلا اشكال فيه والقول الثاني انه كان حقيقة السجود وهو وضع الجبهة على الارض وهو مشكل لان السجود على هذه الصورة لا ينبغي ان يكون الا لله تعالى واجيب عن هذا الاشكال بان السجود كان في الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر له وانما كان يوسف كالقبلة كما سجد الملائكة لآدم ويدل على صحة هذا التأويل قوله ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وظاهر هذا يدل على انهم لما صعدوا على السرير خروا سجدا لله تعالى ولو كان ليوسف لكان قبل الصعود لان ذلك ابلغ في التواضع فان قلت يدفع صحة هذا التأويل قوله رأيتهم لي ساجدين وقوله خروا له سجدا فان الضمير يرجع الى اقرب المذكورات وهو يوسف عليه الصلاة والسلام قلت يحتمل ان يكون المعنى وخروا لله سجدا لاجل يوسف واجتماعهم به وقيل يحتمل ان الله امر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية وهي ان اخوة يوسف ربما احتملتهم الانفة والتكبر عن السجود ليوسف فلما رأوا ان اباهم قد سجد له سجدوا له ايضا فتكون هذه السجدة على سبيل التحية والتواضع لا على سبيل العبادة وكان ذلك جائزا في ذلك الزمان فلما جاء الاسلام نسخت هذه الفعلة والله أعلم بمراده واسراره كتابه (وقال) يعني وقال يوسف عند ما رأى ذلك (يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل) يعني هذا تصديق الرؤيا التي رأيت في حال الصغر (قد جعلها ربي حقا) يعني في اليقظة واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها فقال سلمان الفارسي وعبد الله بن شداد اربعون سنة وقال ابو صالح عن ابن عباس اثنتان وعشرون سنة وقال سعيد بن جبير وعكرمة والسدي ست وثلاثون سنة وقال قتادة خمس وثلاثون سنة وقال عبد الله بن سودون سبعون سنة وقال الفضيل بن عياض ثمانون سنة حكى هذه الاقوال كلها ابن الجوزي وزاد غيره عن الحسن ان يوسف كان عمره حين ألقي في الجب سبع عشرة سنة واقام في العبودية والسجن والملك مدة ثمانين سنة واقام مع ابيه واخوته واقام به مدة ثلاث وعشرين سنة وتوفاه الله وهو ابن مائة وعشرين سنة وقوله (وقد أحسن بي) يعني انعم علي يقال احسن بي والى بمعنى واحد (اذ اخرجني من السجن) انما ذكر انعام الله عليه في اخراجه من السجن وان كان الجب اصعب منه استعمالا للادب والكرم لئلا يخجل اخوته بعد ان قال لهم لا تثريب عليكم اليوم ولان نعمة الله عليه في اخراجه من السجن كانت اعظم من اخراجه من الجب وسبب ذلك ان خروجه من الجب كان سببا لحصوله في العبودية والرق وخروجه من السجن كان سببا لوصوله الى الملك وقيل ان دخوله الجب كان لحسد اخوته ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من اعظم نعمه عليه (وجاء بكم من البدو) يعني من البادية واصل البدو هو البسيط من الارض يبدو الشخص فيه من بعد يعني يظهر والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي) يعني أفسد ما بيننا بسبب الحسد واصل النزغ دخول في أمر لافساده واستدل بهذه الآية من يرى بطلان الجبر من المبتدعة فقالوا ان يوسف أضاف الاحسان الى الله وأضاف النزغ الى الشيطان ولو كان من فعل الله لوجب أن ينسب اليه كما في الاحسان والنعم والجواب عن هذا الاستدلال ان اسناد الفعل الى الشيطان واضافته اليه على سبيل المجاز وان كان ظاهر اللفظ يقتضي اضافة الفعل الى الشيطان لا على الحقيقة لان الفاعل المطلق المختار هو الله تعالى في الحقيقة قل لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فثبت بذلك ان الكل من عند الله وبقضائه وقدره ليس للشيطان فيه مدخل الا بالقاء الوسوسة والتحريش

وقيل ما كانت الانحناء دون تعفير الجباه وخرورهم سجدا يأباه وقيل وخروا لاجل يوسف سجدا لله شكرا وفيه نبوة ايضا واختلف في استنبائهم (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها) اي الرؤيا (ربي حقا) اي صادقة وكان بين الرؤيا وبين التأويل اربعون سنة او ثمانون او ست وثلاثون او ثنتان وعشرون (وقد احسن بي) يقال احسن اليه وبه وكذلك اساء اليه وبه (اذ أخرجني من السجن) ولم يذكر الجب لقوله لا تثريب عليكم اليوم (وجاء بكم من البدو) من البادية لانهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي) اي أفسد بيننا واغرى

(ان ربى لطيف لما يشاء) اى لطيف التدبير (انه هو العليم الحكيم) بتأخير الآمال الى الآجال او حكم بالائتلاف بعد الاختلاف
(رب قد آتيتنى من الملك) ملك مصر (وعلمتنى من تأويل الاحاديث) تفسير كتب الله أو تعبير الرؤيا ومن فيهما للتبعيض اذ لم يؤت الا
بعض ملك الدنيا وبعض التأويل (فاطر السموات والارض) انتصابه على النداء (انت ولى فى الدنيا والآخرة) انت الذى تتولانى
بالنعمة فى الدارين وتوصل الملك ٤٨ الفانى بالملك الباقى (توفنى مسلما) طلب الوفاة على حال الاسلام كقول يعقوب لولده ولا تموتن

الا وأنتم مسلمون وعن الضحاك مخلصا وعن الدستوى مسلما اليك امرى وفى عصمة الانبياء انما دعا به يوسف ليقتدى به قومه ومن بعده ممن ليس بمأمون العاقبة لان ظواهر الانبياء لنظر الامم اليهم (والحقنى بالصالحين) من آبائى او على العموم روى ان يوسف اخذ بيد يعقوب فطاف به فى خزائنه فادخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الثياب وخزائن السلاح حتى ادخله خزانة القراطيس قال يا بنى ما اعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمانية مراحل فقال أمرنى جبريل قال او ما تسأله قال انت ابسط اليه منى فسأله فقال جبريل الله امرنى بذلك لقولك وأخاف ان يأكله الذئب فهلا خفتنى وروى ان يعقوب أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى ان يدفنه بالشام الى جنب أبيه اسحق

لا فساد ذات البين وذلك باقدار الله اياه على ذلك (ان ربى لطيف لما يشاء) يعنى انه تعالى ذو لطف عالم بدقائق الامور وخفياتها قال صاحب المفردات وقد يعبر باللطف عما تدركه الحاسة ويصح ان يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه وان يكون لمعرفته بدقائق الامور وأن يكون لرفقه بالعباد فى هداياتهم وقوله ان ربى لطيف لما يشاء اى حسن الاستخراج تنبيها على ما أوصل الى يوسف حيث ألقاه اخوته فى الجب وقيل ان اجتماع يوسف بابيه واخوته بعد طول الفرقة وحسد اخوته له وازالة ذلك مع طيب الانفس وشدة المحبة كان من لطف الله بهم حيث جعل ذلك كله لان الله تعالى اذا أراد أمرا هيأ أسبابه (انه هو العليم) يعنى بمصالح عباده (الحكيم) فى جميع افعاله قال اصحاب الاخبار والتواريخ ان يعقوب عليه الصلاة والسلام اقام عند يوسف بمصر أربعا وعشرين سنة فى اهنا عيش وأتم بال وأحسن حال فلما حضرته الوفاة اوصى الى ابنه يوسف ان يحمل جسده حتى يدفنه عند قبر أبيه اسحق فى الارض المقدسة بالشام فلما مات يعقوب عليه الصلاة والسلام بمصر فعل يوسف ما أمره به أبوه فحمل جسده فى تابوت من ساج حتى قدم به الشام فوافق ذلك موت العيص أخى يعقوب وكانا قد ولدا فى بطن واحد فدفنا فى قبر واحد وكان عمرهما مائة وسبعا وأربعين سنة فلما دفن يوسف أباه وعمه رجع الى مصر قالوا لما جمع الله شمل يوسف عليه الصلاة والسلام بابيه واخوته علم ان نعيم الدنيا زائل سريع الفناء لا يدوم فسأل الله حسن العاقبة والخاتمة الصالحة فقال (رب) اى يا رب (قد آتيتنى من الملك) يعنى من ملك مصر ومن هنا للتبعيض لانه لم يؤت ملك مصر كله بل كان فوقه ملك آخر والملك عبارة عن الاتساع فى المقدور لمن له السياسة والتدبير (وعلمتنى من تأويل الاحاديث) يعنى تعبير الرؤيا (فاطر السموات والارض) يعنى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق واصل الفطر الشق يقال فطر ناب البعير اذا شق وظهر وفطر الله الخلق اوجده وأبدعه (أنت ولى) يعنى معينى ومتولى أمرى (فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما) اى اقبضنى اليك مسلما واختلفوا هل هو طلب للوفاة فى الحال أم لا على قولين أحدهما انه سأل الله الوفاة فى الحال قال قتادة لم يسأل نبى من الانبياء الموت الا يوسف قال أصحاب هذا القول وانه لم يأت عليه أسبوع حتى توفى والقول الثانى انه سأل الوفاة على الاسلام ولم يتمن الموت فى الحال قال الحسن انه عاش بعد هذا سنين كثيرة فعلى هذا القول يكون معنى الآية توفنى اذا توفيتنى على الاسلام فهو طلب لان يجعل الله وفاته على الاسلام وليس فى اللفظ ما يدل على انه طلب الوفاة فى الحال قال بعض العلماء وكلا القولين محتمل لان اللفظ صالح للامرين ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل ان يتمنى الموت لعلمه ان الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب وان نعيم الآخرة باق دائم لا نفاد له ولا زوال ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وسلم لا يتمن أحدكم الموت لضر نزل به فان تمنى الموت عند وجود الضر ونزول البلاء مكروه والصبر عليه أولى وقوله (والحقنى بالصالحين) أراد به بدرجة آبائه وهم ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام قال علماء التاريخ عاش يوسف مائة وعشرين سنة وفى التوراة مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة

فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد الى مصر وعاش بعد ابيه ثلاثة وعشرين سنة فلما تم امره العزيز
طلبت نفسه الملك الدائم فتمنى الموت وقيل ما تمناه نبى قبله ولا بعده فتوفاه الله طيبا طاهرا فتخاصم اهل مصر وتشاحوا فى دفنه كل يحب ان يدفن فى محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا ان يعملوا له صندوقا من مرمر وجعلوه فيه ودفنوه فى النيل بمكان يمر عليه الماء ثم يصل الى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعا حتى نقل موسى عليه السلام بعد اربعمائة سنة تابوته الى بيت المقدس وولد له افرائيم وميشا وولد لافرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى ولقد توارثت القراعنة من العمالقة بعده مصر ولم تزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه

(ذلك) اشارة الى ماسبق من نبأ يوسف والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ (من انباء الغيب نوحيه اليك) خبران (وما كنت لديهم) لدى بنى يعقوب (اذ اجمعوا امرهم) عزموا على ماهموا به من القاء يوسف فى البئر (وهم يمكرون) بيوسف ويبغون له الغوائل والمعنى ان هذا النبا غيب لم يحصل لك الا من جهة الوحى لانك ٤٩ لم تحضر بنى يعقوب حين اتفقوا على القاء اخيهم فى البئر (وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) اراد العموم اواهل مكة اى وماهم بمؤمنين ولو اجتهدت كل الاجتهاد على ايمانهم (وما تسئلهم عليه) على التبليغ او على القرآن (من اجر) جعل (ان هو الا ذكر) ماهو الا عظة (للعالمين) وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله (وكاين من آية) من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده (فى السموات والارض يمرون عليها) على الآيات او على الارض ويشاهدونها (وهم عنها) عن الآيات (معرضون) لايعتبرون بها والمراد مايرون من آثار الامم الهالكة وغير ذلك من العبر (وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون) اى وما يؤمن اكثرهم فى اقراره بالله وبانه خالقه وخالق السموات والارض الا وهو مشرك بعبادة الوثن الجمهور على انها نزلت فى المشركين لانهم مقرون بان الله

العزيز ثلاثة اولاد افرائيم وميشا ورحمة امراة ايوب وقيل عاش بعد ابيه ستين سنة وقيل اكثر واما مات يوسف عليه الصلاة والسلام دفنوه فى النيل فى صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر وذلك انه لما مات يوسف تشاح الناس فيه فطلب كل أهل محلة ان يدفن فى محلتهم رجاء بركته حتى هموا ان يقتتلوا ثم رأوا أن يدفنوه فى النيل بحيث يجرى الماء عليه و يتفرق عنه و تصل بركته الى جميعهم وقال عكرمة انه دفن فى الجانب الايمن من النيل فاخصب ذلك الجانب واجدب الجانب الآخر فنقل الى الجانب الايسر فاخصب وأجدب الجانب الايمن فدفنوه فى وسط النيل وقدروه بسلسلة فاخصب الجانبان فبقى الى ان اخرجه موسى عليه الصلاة والسلام وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام فى الارض المقدسة قوله عزوجل (ذلك) يعنى الذى ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف وما جرى له مع اخوته ثم انه صار الى الملك بعد الرق (من انباء الغيب) يعنى أخبار الغيب (نوحيه اليك) يعنى الذى أخبرناك به من اخبار يوسف وحى اوحيناه اليك يا محمد وفى هذه الآية دليل قاطع على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان رجلا أميا لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر الى بلد آخر غير بلده الذى نشأ فيه صلى الله عليه وسلم وانه نشأ بين امة امية مثله ثم انه صلى الله عليه وسلم اتى بهذه القصة الطويلة على احسن ترتيب وأبين معان وأفصح عبارة فعلم بذلك ان الذى أتى به هو وحى الهى ونور قدسى سماوى فهو معجزة له قائمة الى آخر الدهر وقوله تعالى (وما كنت لديهم) يعنى وما كنت يا محمد عندا ولاد يعقوب (اذ أجمعوا أمرهم) يعنى حين عزموا على القاء يوسف عليه الصلاة والسلام فى الجب (وهم يمكرون) يعنى بيوسف (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى وما أكثر الناس يا محمد ولو حرصت على ايمانهم بمؤمنين وذلك أن اليهود وقريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فلما اخبرهم بها على وفق ماعندهم فى التوراة لم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فقيل له انهم لا يؤمنون ولو حرصت على ايمانهم ففيه تسلية له (وما تسئلهم عليه من أجر) يعنى على تبليغ الرسالة والدعاء الى الله من أجر يعنى أجرا وجعلا على ذلك (ان هو) اى ماهو يعنى القرآن (الا ذكر) يعنى عظة وتذكيرا (للعالمين وكاين من آية) يعنى وكم من آية دالة على التوحيد (فى السموات والارض يمرون عليها) يعنى لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها (وهم عنها معرضون) اى لا يلتفتون اليها والمعنى ليس اعراضهم عن هذه الآيات الظاهرة الدالة على وحدانية الله تعالى باعجب من اعراضهم عنك يا محمد (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) يعنى ان من ايمانهم انهم اذا سئلوا من خلق السموات والارض قالوا الله واذا قيل لهم من ينزل المطر قالوا الله وهم مع ذلك يعبدون الاصنام وفى رواية عن ابن عباس انهم يقرون ان الله خالقهم فذلك ايمانهم وهم يعبدون غيره فذلك شركهم وفى رواية أخرى عنه ايضا انها نزلت فى تلبية مشركى العرب وذلك انهم كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لبيك لاشريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك وقال عطاء هذا فى الدعاء وذلك ان الكفار اذا ركبوا فى الرخاء فاذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) يعنى عقوبة تعمهم وقال مجاهد عذاب يغشاهم وقال قتادة وقيعة وقال الضحاك يعنى الصواعق والقوارع (او تأتيهم الساعة بغتة) يعنى فجأة (وهم لا يشعرون) يعنى بقيامها قال ابن عباس تهيج الصيحة بالناس وهم فى اسواقهم (قل)

خالقهم ورازقهم واذا خز بهم امر شديد دعوا الله ومع ذلك يشركون به غيره ومن جملة الشرك مايقوله القدرية من اثبات قدرة التخليق للعبد والتوحيد المحض مايقوله اهل السنة وهو انه لا خالق الا الله (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية) عقوبة تغشاهم وتشملهم (من عذاب الله أو تأتيهم الساعة) القيامة (بغتة) حال اى فجأة (وهم لا يشعرون) بإتيانها (قل)

بقوله (أدعو الى الله على بصيرة) اى أدعو الى دينه مع حجة واضحة غير عمياء (أنا) تأكيد للمستتر في أدعو (ومن اتبعني) عطف عليه اى أدعو الى سبيل الله أنا ويدعو اليه من اتبعني او أنا مبتدأ وعلى بصيرة خبر مقدم ومن اتبعني عطف على أنا بخبر ابتداء بانه ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى (وسبحان الله) وأنزهه عن الشركاء (وما أنا من المشركين) مع الله غيره (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا) لا ملائكة لانهم كانوا يقولون لو شاء ربنا لانزل ملائكة أو ليست فيهم امرأة (نوحي) بالنون حفص (اليهم من أهل القرى) لانهم اعلم وأحلم واهل البوادي فيهم الجهل والجفاء (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة) اى ولدار الساعة الآخرة (خير للذين اتقوا) الشرك وامنوا به (أفلا تعقلون) وبالياء مكي وابو عمرو وحمزة وعلي (حتى اذا استيأس الرسل) يئسوا من ايمان القوم (وظنوا أنهم قد كذبوا) وأيقن الرسل ان قومهم كذبوهم وبالتخفيف كوفي اى وظن المرسل اليهم ان الرسل قد كذبوا اى أخلفوا او وظن المرسل اليهم انهم كذبوا من جهة الرسل اى كذبتهم الرسل

يا محمد لهؤلاء المشركين (هذه سبيلي) يعني طريقتي التي (أدعو) اليها وهي توحيد الله عز وجل ودين الاسلام وسمى الدين سبيلا لانه الطريق المؤدي الى الله عز وجل والى الثواب والجنة (الى الله) يعني الى توحيد الله والايمان به (على بصيرة) يعني على يقين ومعرفة والبصيرة هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل (أنا ومن اتبعني) يعني من آمن بي وصدق بما جئت به ايضا يدعو الى الله وهذا قول الكلبي وابن زيد قال حق على من اتبعه وآمن به ان يدعو الى ما دعا اليه ويذكر بالقرآن وقيل تم الكلام عند قوله ادعو الى الله ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعني يعني أنا على بصيرة ومن اتبعني ايضا على بصيرة قال ابن عباس ان محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه كانوا على أحسن طريقة وافضل هداية وهم معدن العلم وكنز الايمان وجند الرحمن وقال ابن مسعود ومن كان مستنا فليستن بمن قد مات أولئك اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خير هذه الامة وابرها قلوبا واعمقها علما واقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ونقل دينه فتشبهوا باخلاقهم وطريقتهم فهؤلاء كانوا على الصراط المستقيم وقوله (وسبحان الله) اى وقل سبحان الله يعني تنزيها له عما لا يليق بجلاله من جميع العيوب والنقائص والشركاء والاضداد والانداد (وما أنا من المشركين) يعني وقل يا محمد وما أنا من المشركين الذين أشركوا بالله غيره * قوله عز وجل (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا) يعني وما ارسلنا قبلك يا محمد الا رجالا مثلك ولم يكونوا ملائكة (نوحي اليهم) هذا جواب لاهل مكة حيث قالوا هلا بعث الله ملكا والمعنى كيف تعجبوا من ارسالنا اياك يا محمد وسائر الرسل الذين كانوا من قبلك بشرا مثلك حالهم كحالك (من اهل القرى) يعني انهم من اهل الامصار والمدن لان اهل البوادي لا اهل الامصار أفضل واعلم وأكمل عقلا من اهل البوادي قال الحسن لم يبعث نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء وقيل انما لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم (أفلم يسيروا في الأرض) يعني هؤلاء المشركين المكذبين (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) يعني كانت عاقبتهم الهلاك لما كذبوا رسلنا فليعتبر هؤلاء بهم وما حل بهم من عذابنا (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) يعني فعلنا هذا باولياءنا واهل طاعتنا اذا أنجيناهم عند نزول العذاب بالامم المكذبة وما في الدار الآخرة خير لهم يعني الجنة لانها خير من الدنيا وانما اضاف الدار الى الآخرة وان كانت هي الآخرة لان العرب تضيف الشيء الى نفسه كقولهم حق اليقين والحق هو اليقين نفسه (أفلا يعقلون) يعني يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنون * قوله عز وجل (حتى اذا استيأس الرسل) قال صاحب الكشاف حتى متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام كأنه قيل وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فتراخى نصرهم حتى اذا استيأس الرسل عن النصر وقال الواحدي حتى هنا حرف من حروف الابتداء يستأنف بعدها والمعنى حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم (وظنوا أنهم قد كذبوا) قرأ اهل الكوفة وهم عاصم وحمزة والكسائي كذبوا بالتخفيف ووجه هذه القراءة على ما قاله الواحدي ان معناه ظن الامم ان الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله اياهم واهلاك اعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقال اهل المعاني كذبوا من قولهم كذبتك الحديث اى أصدقك ومنه قوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله قال ابو علي والضمير في قوله وظنوا على هذه القراءة للمرسل اليهم والتقدير وظن المرسل اليهم ان الرسل قد كذبوهم فيما اخبروهم به من نصر الله اياهم واهلاك اعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس انهم لم يؤمنوا بهم حتى نزل بهم العذاب وانما ظنوا ذلك لما شاهدوا من امهال الله اياهم ولا يمتنع حمل الضمير في وظنوا على المرسل اليهم وان لم يتقدم لهم ذكر لان ذكر الرسل يدل على ذكر المرسل اليهم وان شئت قلت ان ذكرهم جرى في قوله أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم اى مكذبي الرسل والظن هنا على معنى التهم والحسبان وهذا معنى

ما روى عن ابن عباس انه قال حتى اذا استيأس الرسل من قومهم الاجابة وظن قومهم ان الرسل قد كذبوا فيما وعدوا من نصرهم واهلاك من كذبهم وقيل معناه وتيقن الرسل انهم قد كذبوا فى وعد قومهم اياهم الايمان اى وعدوا ان يؤمنوا ثم لم يؤمنوا وقال صاحب الكشاف وظنوا انهم قد كذبوا اى كذبتهم انفسهم حتى حدثتهم بانهم لا ينصرون اور جاؤهم كقولهم رجاء صادق ورجاء كاذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة وانتظار النصر من الله تعالى وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا ان لا نصر لهم فى الدنيا فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب وعن ابن عباس وظنوا حين ضعفوا وغلبوا انهم قد اخلفوا ما وعدهم الله به من النصر قال وكانوا بشرا وتلا قوله وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله قال صاحب الكشاف فان صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس فى القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه الطبيعة البشرية واما الظن الذى هو ترجيح احد الجانبين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله الذين هم اعرف الناس بربهم وانه متعال عن خلف الميعاد وحكى الواحدى عن ابن الانبارى انه قال هذا غير معول عليه من جهتين احداهما ان التفسير ليس عن ابن عباس لكنه من متأول تأوله عليه والاخرى ان قوله جاءهم نصرنا دال على ان اهل الكفر ظنوا ما لا يجوز مثله واستضعفوا رسل الله ونصر الله للرسل ولو كان الظن للرسل كان ذلك منهم خطأ عظيما ولا يستحقون ظفرا ولا نصرا وتبرئة الانبياء وتطهيرهم واجب علينا اذا وجدنا الى ذلك سبيلا وقرأ الباقون وهم نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر وظنوا انهم قد كذبوا بالتشديد ووجهه ظاهر وهو ان معناه حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم وظنوا يعنى وأيقنوا يعنى الرسل ان الامم قد كذبوهم تكذيبا لا يرجى بعده ايمانهم فالظن بمعنى اليقين وهذا معنى قول قتادة وقال بعضهم معناه حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ان يصدقوهم وظنوا ان من قد آمن بهم من قومهم قد فارقوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء واستبطؤا النصر أتاهم النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى الحسبان والتكذيب مظنون من جهة من آمن بهم يعنى وظنوا بالرسل ظن حسبان ان ربهم قد كذبهم فى وعد الظفر والنصر لابطائه وتأخره عنهم ولطول البلاء بهم لا انهم كذبوهم فى كونهم رسلا وقيل ان هذا التكذيب لم يحصل من اتباعهم المؤمنين لانه لو حصل لكان نوع كفر ولكن الرسل ظنت بهم ذلك لبطء النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى اليقين والتكذيب المتيقن هو من جهة الكفار وعلى القولين جميعا فالكناية فى وظنوا للرسل (خ) عن عروة بن الزبير انه سأل عائشة عن قوله تعالى حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا او كذبوا قالت بل كذبهم قومهم فقلت والله لقد استيقنوا ان قومهم كذبوهم وما هو بالظن فقالت يا عروة أجل لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها قد كذبوا فقالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت فما هذه الآية قالت هم اتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا ان اتباعهم كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك وفى رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة قال قال ابن عباس حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا خفيفة قال ذهب لها هنالك وتلا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب قال فلقيت عروة بن الزبير وذكرت ذلك له فقال قالت عائشة معاذ الله والله ما وعد الله رسوله من شئ قط الا علم انه كائن قبل أن يموت ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون معهم من قومهم من يكذبوهم فكانت تقرؤها وظنوا أنهم قد كذبوا مثقلة وقوله تعالى (جاءهم نصرنا) يعنى جاء نصر الله النبيين (فنجى من نشاء) من عبادنا يعنى عند نزول العذاب بالكافرين فننجى المؤمنين المطيعين (ولا يرد بأسنا) يعنى عذابنا (عن القوم المجرمين) يعنى المشركين قوله تعالى (لقد كان فى قصصهم) يعنى فى خبر

فى انهم ينصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه (جاءهم نصرنا) للانبياء والمؤمنين بهم فجأة من غير احتساب (فنجى) بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء شامى وعاصم على لفظ الماضى المبنى للمفعول والقائم مقام الفاعل من الباقون فننجى (من نشاء) اى النبى ومن آمن به (ولا يرد بأسنا) عذابنا (عن القوم المجرمين) الكافرين (لقد كان فى قصصهم) اى فى قصص الانبياء وأممهم او فى قصة يوسف واخوته

(عبرة لأولى الالباب) حيث نقل من غيابة الجب الى غاية المحب ومن الحصير الى السرير فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة ونهاية المكر وخامة وندامة (ما كان ٥٢ حديثا يفترى) ما كان القرآن حديثا مفترى كما زعم الكفار (ولكن تصديق الذى بين يديه)

يوسف واخوته (عبرة) اى موعظة (لأولى الالباب) يعنى يتعظ بها أولوا الالباب والعقول الصحيحة ومعنى الاعتبار والعبرة الحالة التى يتوصل بها الانسان من معرفة المشاهد الى ما ليس بمشاهد والمراد منه التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بهذه القصة ان الذى قدر على اخراج يوسف من الجب بعد القائه فيه واخراجه من السجن وتمليكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بابيه واخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع لقادر على اعزاز محمد صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته واظهار دينه وان الاخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الاخبار عن الغيوب فكانت معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل ان الله تعالى قال فى أول هذه السورة نحن نقص عليك احسن القصص وقال فى آخرها لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب فدل على ان هذه القصة من احسن القصص وان فيها عبرة لمن اعتبرها (ما كان حديثا يفترى) يعنى ما كان هذا القرآن حديثا يفترى ويختلق لان الذى جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفتريه او يختلقه لانه لم يقرأ الكتب ولم يخالط العلماء ثم انه جاء بهذا القرآن المعجز فدل ذلك على صدقه وانه ليس بمفتر (ولكن تصديق الذى بين يديه) يعنى ولكن كان تصديق الذى بين يديه من الكتب الالهية المنزلة من السماء من التوراة والانجيل وفيه اشارة الى ان هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة من ذكر قصة يوسف (وتفصيل كل شئ) يعنى ان فى هذا القرآن المنزل عليك يا محمد تفصيل كل شئ تحتاج اليه من الحلال والحرام والحدود والاحكام والقصص والمواعظ والامثال وغير ذلك مما يحتاج اليه العباد فى امر دينهم ودنياهم (وهدى) يعنى الى كل خير (ورحمة) يعنى انزلناه رحمة (لقوم يؤمنون) لانهم هم الذين ينتفعون به والله اعلم بمراده واسرار كتابه

(تفسير سورة الرعد)

قال ابن الجوزى اختلفوا فى نزولها على قولين أحدهما انها مكية رواه ابو طلحة عن ابن عباس وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة وروى أبو صالح عن ابن عباس انها مكية الا آيتين احداهما قوله ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة والاخرى قوله ويقول الذين كفروا لست مرسلا والقول الثانى انها مدنية رواه عطاء الخراسانى عن ابن عباس وبه قال جابر بن زيد وروى عن ابن عباس انها مدنية الا آيتين نزلتا بمكة وهما قوله ولو ان قرآنا سيرت به الجبال الى آخر الآيتين وقال بعضهم المدنى منها قوله هو الذى يريكم البرق الى قوله دعوة الحق وهى ثلاث وقيل خمس وأربعون آية وثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

*قوله عز وجل (المر) قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه انا الله أعلم وأرى وروى عطاء عنه انه قال ان معناه انا الله الملك الرحمن (تلك آيات الكتاب) الاشارة بتلك الى آيات السورة المسماة بالمر والمراد بالكتاب السورة اى آيات السورة الكاملة العجيبة فى بابها ثم قال تعالى (والذى أنزل اليك من ربك الحق) يعنى من القرآن كله هو الحق الذى لا مزيد عليه وقيل المراد بالاشارة فى قوله تلك الاخبار والقصص اى الاخبار والقصص التى قصصتها عليك يا محمد هى آيات التوراة والانجيل والكتب الالهية القديمة المنزلة والذى أنزل اليك يعنى وهذا القرآن الذى أنزل اليك يا محمد من ربك الحق اى هو الحق فاعتصم به وقال

الا فيه سورة يوسف عليه السلام تامة كما هى فى القرآن العظيم والله اعلم

(سورة الرعد) مكية وهى ثلاث واربعون آية كوفى وخمس واربعون آية شامى ابن

(بسم الله الرحمن الرحيم) (المر) انا الله اعلم وارى عن ابن عباس رضى الله عنهما (تلك) اشارة الى آيات السورة (آيات الكتاب) اريد بالكتاب السورة اى تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة فى بابها (والذى أنزل اليك من ربك) اى القرآن كله (الحق) خبر والذى

ابن عباس وقتادة أراد بآيات الكتاب القرآن والمعنى هذه آيات الكتاب الذى هو القرآن ثم قال والذى أنزل اليك من ربك الحق يعنى وهذا القرآن الذى أنزل اليك من ربك هو الحق الذى لا شك فيه ولا تناقض (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) يعنى مشركى مكة نزلت هذه الآية فى الرد عليهم حين قالوا ان محمدا يقوله من تلقاء نفسه ثم ذكر من دلائل ربوبيته وعجائب قدرته ما يدل على وحدانيته فقال تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد) جمع عمود وهى الاساطين والدعائم التى تكون تحت السقف وفى قوله (ترونها) قولان أحدهما ان الرؤية ترجع الى السماء يعنى وانتم ترون السموات مرفوعة بغير عمد من تحتها يعنى ليس من دونها دعامة تدعمها ولا من فوقها علاقة تمسكها والمراد نفى العمد بالكلية قال اياس ابن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة وهذا قول الحسن وقتادة وجمهور المفسرين واحدى الروايتين عن ابن عباس والقول الثانى ان الرؤية ترجع الى العمد والمعنى ان لها عمدا ولكن لا ترونها أنتم ومن قال بهذا القول يقول ان عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة والرواية الاخرى عن ابن عباس والقول الاول أصح وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) تقدم تفسيره والكلام عليه فى سورة الاعراف بما فيه كفاية (وسخر الشمس والقمر) يعنى ذللهما لمنافع خلقه فهما مقهوران يجريان على ما يريد (كل يجرى لاجل مسمى) يعنى الى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها وقال ابن عباس أراد بالاجل المسمى درجاتهما ومنازلهما يعنى انهما يجريان فى منازلهما ودرجاتهما الى غاية ينتهيان اليها ولا يجاوزانها وتحقيقه ان الله تعالى جعل لكل واحد من الشمس والقمر سيرا خاصا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء فى الحركة (يدبر الامر) يعنى انه تعالى يدبر امر العالم العلوى والسفلى ويصرفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الاحوال لا يشغله شأن عن شأن وقيل يدبر الامر بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة لان جميع العالم محتاجون الى تدبيره ورحمته داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته (يفصل الآيات) يعنى انه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وقيل ان الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان الاول الموجودات المشاهدة وهى خلق السموات والارض وما فيهما من العجائب وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم وهذا قد تقدم ذكره والقسم الثانى الموجودات الحادثة فى العالم وهى الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والضعف بعد القوة الى غير ذلك من أحوال هذا العالم وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع وكمال قدرته (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) يعنى انه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته لكى توقنوا وتصدقوا بلقائه والمصير اليه بعد الموت لان من قدر على ايجاد الانسان بعد عدمه قادر على ايجاده واحيائه بعد موته واليقين صفة من صفات العلم وهو فوق المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك يقال منه استيقن وأيقن بمعنى علم قوله تعالى (وهو الذى مد الارض) لما ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وهى رفع السموات بغير عمد وذكر أحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الارضية فقال وهو الذى مد الارض اى بسطها على وجه الماء وقيل كانت الارض مجتمعة فدحاها من تحت البيت الحرام وهذا القول انما يصح اذا قيل ان الارض منسطحة كالكف وعند أصحاب الهيئة الارض كرة ويمكن ان يقال ان الكرة اذا كانت كبيرة عظيمة فكل قطعة منها تشاهد ممدودة كالسطح الكبير العظيم فحصل الجمع ومع ذلك فالله تعالى قد أخبر انه مد الارض وانه دحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلا وأبين دليلا من أصحاب الهيئة (وجعل فيها) يعنى فى الارض (رواسى) يعنى جبالا ثابتة يقال رسا الشئ يرسو اذا ثبت وأرساه غيره أثبته قال ابن عباس كان أبو قبيس اول جبل وضع على الارض (وانهارا) يعنى وجعل فى الارض أنهارا جارية لمنافع

(ولكن اكثر الناس لا يؤمنون) فيقولون تقوله محمد ثم ذكر ما يوجب الايمان فقال (الله الذى رفع السموات) اى خلقها مرفوعة لان تكون موضوعة فرفعها والله مبتدأ والخبر الذى رفع السموات (بغير عمد) حال وهو جمع عماد او عمود (ترونها) الضمير يعود الى السموات اى ترونها كذلك فلا حاجة الى البيان او الى عمد فيكون فى موضع جر على انه صفة لعمد اى بغير عمد مرئية (ثم استوى على العرش) استولى بالاقتدار ونفوذ السلطان (وسخر الشمس والقمر) لمنافع عباده ومصالح بلاده (كل يجرى لاجل مسمى) وهو انقضاء الدنيا (يدبر الامر) امر ملكوته وربوبيته (يفصل الآيات) يبين آياته فى كتبه المنزلة (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) لعلكم توقنون بان هذا المدبر والمفصل لابد لكم من الرجوع اليه (وهو الذى مد الارض) بسطها (وجعل فيها رواسى) جبالا ثوابت (وانهارا) جارية

(ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) اى الاسود والابيض والحلو والحامض والصغير والكبير وما اشبه ذلك (يغشى الليل النهار)
يلبسه مكانه فيصير اسود مظلما ٥٤ بعدما كان ابيض منيرا يغشى حمزة وعلى وابو بكر (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

الخلق (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) يعنى صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلوا وحامضا (يغشى
الليل النهار) يعنى يلبس النهار ظلمة الليل ويلبس الليل ضوء النهار (ان فى ذلك) يعنى الذى تقدم ذكره
من عجائب صنعته وغرائب قدرته الدالة على وحدانيته (لآيات) اى دلالات (لقوم يتفكرون) يعنى
فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والفكر هو تصرف القلب فى طلب الاشياء وقال
صاحب المفردات الفكر قوة مطرقة للعلم الى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك
للانسان دون الحيوان ولا يقال الا فيما يمكن ان يحصل له صورة فى القلب ولهذا روى تفكروا فى آلاء
الله ولا تفكروا فى الله اذ كان الله منزها ان يوصف بصورة وقال بعض الادباء الفكر مقلوب عن الفرك لانه
يستعمل فى طلب المعانى وهو فرك الامور وبحثها طلبا للوصول الى حقيقتها * قوله عز وجل (وفى
الارض قطع متجاورات) يعنى متقاربات بعضها من بعض وهى مختلفة فى الطبائع فهذه طيبة تنبت وهذه
سبخة لا تنبت وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع (وجنات) يعنى بساتين والجنة كل بستان ذى شجر
من نخيل وأعناب وغير ذلك سمى جنة لانه يستر باشجاره الارض واليه الاشارة بقوله (من أعناب وزرع
ونخيل صنوان) جمع صنو وهى النخلات يجتمعن من أصل واحد ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عم
العباس عم الرجل صنو أبيه يعنى انهما من أصل واحد (وغير صنوان) هى النخلة المنفردة باصلها
فالصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق (يسقى بماء واحد) يعنى أشجار الجنات وزروعها والماء جسم
رقيق مائع به حياة كل نام وقيل فى حده جوهر سيال به قوام الارواح (ونفضل بعضها على بعض فى
الاكل) يعنى فى الطعم ما بين الحلو والحامض والعفص وغير ذلك من الطعام عن ابى هريرة رضى الله عنه
عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ونفضل بعضها على بعض فى الاكل قال الدقل والنرسيان
والحلو والحامض أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب قال مجاهد هذا كمثل بنى آدم صالحهم
وخبيثهم وأبوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله لقلوب بنى آدم كانت الارض طينة واحدة فى يد
الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات وأنزل على وجهها ماء السماء فتخرج هذه زهرتها وثمرتها
وشجرها وتخرج هذه نباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد فلو كان الماء قليلا
قيل انما هذا من قبل الماء كذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم
فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس القرآن أحد الا قام من عنده
بزيادة او نقصان قال الله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا
وقوله تعالى (ان فى ذلك) يعنى الذى ذكر (لآيات لقوم يعقلون) يعنى فيتدبرون ويتفكرون فى الآيات
الدالة على وحدانيته قوله تعالى (وان تعجب فعجب قولهم) العجب تبعيد النفس رؤية المستبعد فى العادة
وقيل العجب حالة تعرض للانسان عند الجهل بسبب ولهذا قال بعض الحكماء العجب ما لا يعرف سببه
ولهذا قيل العجب فى حق الله محال لانه تعالى علام الغيوب لا تخفى عليه خافية والخطاب فى الآية للنبى
صلى الله عليه وسلم ومعناه وانك يا محمد ان تعجب من تكذيبهم اياك بعد ان كنت عندهم تعرف بالصادق
الامين فعجب أمرهم وقيل معناه وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها
مع اقرارهم بان الله تعالى خالق السموات والارض وهو يضر وينفع وقد رأوا من قدرة الله وما ضرب به
به الامثال ما رأوا فعجب قولهم وقيل وانك ان تعجب من انكارهم النشأة الآخرة والبعث بعد الموت مع
اقرارهم بان ابتداء الخلق من الله فعجب قولهم وذلك ان المشركين كانوا ينكرون البعث بعد الموت مع

فيعلمون ان لها صانعا
عليما حكيما قادرا (وفى
الارض قطع متجاورات)
بقاع مختلفة مع كونها
متجاورة متلاصقة طيبة
الى سبخة وكريمة الى
زهيدة وصلبة الى رخوة
وذلك دليل على قادر مدبر
مريد موقع لافعاله على
وجه دون وجه (وجنات)
معطوفة على قطع (من
أعناب وزرع ونخيل
صنوان وغير صنوان)
بالرفع مكى وبصرى وحفص
عطف على قطع غيرهم
بالجر بالعطف على اعناب
والصنوان جمع صنو
وهى النخلة لها رأسان
واصلها واحد وعن حفص
بضم الصاد وهما لغتان
(تسقى بماء واحد) وبالياء
عاصم وشامى (ونفضل
بعضها على بعض) وبالياء
حمزة وعلى (فى الاكل)
فى الثمر وبسكون الكاف
نافع ومكى (ان فى ذلك
لآيات لقوم يعقلون)
عن الحسن مثل اختلاف
القلوب فى آثارها وانوارها
واسرارها باختلاف
القطع فى انهارها وازهارها
وثمارها (وان تعجب)
يا محمد من قولهم فى انكار
البعث (فعجب قولهم)
خبر ومبتدأ اى فقولهم حقيق بان يتعجب منه لان من قدر على انشاء ما عدد عليك
كانت الاعادة اهون شئ عليه وايسره فكان انكارهم اعجوبة من الاعاجيب

اقرارهم

(أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد) في محل الرفع بدل من قولهم قرأ عاصم وحمزة كل واحد بهمزتين (أولئك الذين كفروا بربهم) اولئك الكافرون المتمادون في كفرهم (وأولئك الاغلال في أعناقهم) وصف لهم بالاصرار ومن جملة الوعيد (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) دل تكرارا ولئك على تعظيم الامر (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) بالنقمة قبل العافية وذلك انهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بانذاره (وقد خلت من قبلهم المثلات) اى عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزؤا والمثلة العقوبة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ٥٥ وجزاء سيئة سيئة مثلها (وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) اى مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ومحله الحال اى ظالمين لانفسهم قال السدى يعنى المؤمنين وهى أرجى آية فى كتاب الله حيث ذكر المغفرة مع الظلم وهو بدون التوبة فان التوبة تزيلها وترفعها (وان ربك لشديد العقاب) على الكافرين اوهما جميعا فى المؤمنين لكنه معلق بالمشيئة فيهما اى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عنادا فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى من انقلاب العصا حية واحياء الموتى فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (انما أنت منذر) انما انت رجل أرسلت منذرا مخوفا لهم من سوء العاقبة وناصحا كغيرك من الرسل وما عليك الا الاتيان بما يصح به انك رسول منذر وصحة ذلك حاصلة بأى آية كانت والآيات كلها سواء فى حصول صحة الدعوى بها (ولكل قوم هاد) من الانبياء يهديهم الى الدين ويدعوهم الى الله بآية خص بها الا بما يريدون ويحكمون (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد) ما فى هذه المواضع الثلاثة موصولة اى يعلم ما تحمله من الولد على اى حال هو من ذكورة وانوثة وتمام وخداج وحسن وقبح وطول وقصر وغير ذلك وما تغيضه الارحام اى ويعلم ما تنقصه يقال غاض الماء وغضته انا وما تزداده والمراد عدد الولد فانها تشتمل على واحد واثنين وثلاثة وأربعة او جسد الولد فانه يكون تاما ومخدجا ومدة الولادة فانها تكون اقل من تسعة أشهر وأزيد عليها الى سنتين عندنا والى أربع عند الشافعى والى خمس عند مالك او مصدرية اى يعلم حمل كل انثى ويعلم غيض الارحام وازديادها

اقرارهم بان ابتداء الخلق من الله وقد تقرر فى النفوس ان الاعادة أهون من الابتداء فهذا موضع التعجب وهو قولهم (أئذا كنا ترابا) يعنى بعد الموت (أئنا لفى خلق جديد) يعنى نعاد خلقا جديدا بعد الموت كما كنا قبله ثم ان الله تعالى قال فى حقهم (اولئك الذين كفروا بربهم) وفيه دليل على ان كل من أنكر البعث بعد الموت فهو كافر بالله تعالى لان من أنكر البعث بعد الموت فقد أنكر القدرة وان الله على كل شئ قدير ومن أنكر ذلك فهو كافر (واولئك الاغلال فى أعناقهم) يعنى يوم القيامة والاغلال جمع غل وهو طوق من حديد يجعل فى العنق وقيل أراد بالاغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الاسير ذليلا بالغل (واولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعنى انهم مقيمون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) الاستعجال طلب تعجيل الامر قبل مجىء وقته والمراد بالسيئة هنا هى العقوبة وبالحسنة العافية وذلك ان مشركى مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلا من العافية استهزاء منهم وهو قولهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم (وقد خلت من قبلهم المثلات) يعنى وقد مضت فى الامم المكذبة العقوبات بسبب تكذيبهم رسلهم والمثلة بفتح الميم وضم الثاء المثلثة نقمة تنزل بالانسان فيجعل مثلا ليرتدع غيره به وذلك كالنكال وجمعه مثلات بفتح الميم وضمها مع ضم الثاء فيهما لغتان (وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) قال ابن عباس معناه انه لذو تجاوز عن المشركين اذا آمنوا (وان ربك لشديد العقاب) يعنى للمصرين على الشرك الذى ماتوا عليه وقال مجاهد انه لذو تجاوز عن شركهم فى تأخير العذاب عنهم وانه لشديد العقاب اذا عاقب قوله تعالى (ويقول الذين كفروا) يعنى من اهل مكة (لولا) اى هلا (أنزل عليه) يعنى على محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) يعنى مثل عصا موسى وناقة صالح وذلك لانهم لم يقتنعوا بما رأوا من الآيات التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم (انما أنت منذر) اى ليس عليك يا محمد غير الانذار والتخويف وليس لك من الآيات شئ (ولكل قوم هاد) قال ابن عباس الهادى هو الله وهذا قول سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك والنخعى والمعنى انما عليك الانذار يا محمد والهادى هو الله يهدى من يشاء وقال عكرمة فى رواية أخرى عنه وأبو الضحى الهادى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى انما أنت منذر وأنت هاد وقال الحسن وقتادة وابن زيد يعنى ولكل قوم نبى يهديهم وقال أبو العالية الهادى هو العمل الصالح وقال ابو صالح الهادى هو القائد الى الخير لا الى الشر قوله عز وجل (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله عز وجل عن عظيم قدرته وكمال علمه وانه عالم بما تحمل كل أنثى يعنى من ذكر أو أنثى سوى الخلق أو ناقص الخلق واحدا أو اثنين او أكثر (وما تغيض) يعنى وما تنقص (الارحام وما تزداد) قال اهل التفسير غيض الارحام الحيض على الحمل فاذا حاضت الحامل كان ذلك نقصانا فى الولد لان دم الحيض

هو غذاء الولد فى الرحم فاذا خرج الدم نقص الغذاء فينقص الولد واذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم وقيل اذا حاضت المرأة فى وقت حملها ينقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرة فان رأت خمسة أيام دما وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان فى الغذاء زيادة فى مدة الحمل وقيل النقصان السقط والزيادة تمام الخلق وقال الحسن غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة تزيادتها على تسعة أشهر فأقل مدة الحمل ستة أشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش واختلفوا فى أكثره فقال قوم أكثر مدة الحمل سنتان وهو قول عائشة وبه قال ابو حنيفة وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وقال جماعة أكثرها أربع سنين واليه ذهب الشافعى وقال حماد ابن أبى سلمة انما سمى هرم بن حبان هرما لانه بقى فى بطن امه أربع سنين وعند مالك أن أكثر مدة الحمل خمس سنين (وكل شئ عنده بمقدار) يعنى بتقدير وحد لا يجاوزه ولا ينقص منه وقيل انه تعالى يعلم كمية كل شئ وكيفيته على أكمل الوجوه وقيل معناه وانه تعالى خصص كل حادثة من الحوادث بوقت معين وحالة معينة وذلك بمشيئته الازلية وارادته وتقديره الذى لا يقدر عليه غيره (عالم الغيب والشهادة) يعنى انه تعالى يعلم ما غاب عن خلقه وما يشاهدونه وقيل الغيب هو المعدوم والشاهد هو الموجود وقيل الغيب ما غاب عن الحس والشاهد ما حضر فى الحس (الكبير) اى العظيم الذى يصغر كل كبير بالاضافة الى عظمته وكبريائه فهو يعود الى معنى كبر قدرته وانه تعالى المستحق لصفات الكمال (المتعال) يعنى المنزه عن صفات النقص المتعالى عن الخلق وفيه دليل على انه تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وتنزيهه عن جميع النقائص قوله تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) اى مستو منكم من اخفى القول وكتمه ومن أظهره واعلنه والمعنى انه قد استوى فى علم الله تعالى المسر بالقول والجاهر به (ومن هو مستخف بالليل) اى مستتر بظلمته (وسارب بالنهار) اى ذاهب بالنهار فى سربه ظاهرا والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق وقال القتيبى السارب المتصرف فى حوائجه قال ابن عباس فى هذه الآية هو صاحب ريبة مستخف بالليل واذا خرج بالنهار ارى الناس انه برئ من الاثم وقيل مستخف بالليل ظاهر من قولهم خفيت الشئ اذا أظهرته وأخفيته اذا كتمته وسارب بالنهار اى متوار دخل فى السرب مستخفيا ومعنى الآية سواء ما اضمرت به القلوب او نطقت به الالسن وسواء من اقدم على القبائح مستترا فى ظلمات الليل اواتى بها ظاهرا فى النهار فان علمه تعالى محيط بالكل (له معقبات) يعنى لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار فاذا صعدت ملائكة الليل عقبتها ملائكة النهار والتعقيب العود بعد البدء وانما ذكر معقبات بلفظ التأنيث وان كان الملائكة ذكورا لان واحدها معقب وجمعها معقبة ثم جمع المعقبة معقبات كما قيل ابناوات سعيد ورجالات بكر (ق) عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو اعلم بكم كيف تركتم عبادى فيقولون تركناهم وهم يصلون واتيناهم وهم يصلون وقيل ان مع كل واحد من بنى آدم ملكين ملك عن يمينه وهو صاحب الحسنات وملك عن شماله وهو كاتب السيئات وكاتب الحسنات امين على كاتب السيئات فاذا عمل العبد حسنة كتبها له بعشر امثالها واذا عمل سيئة قال صاحب الشمال لصاحب اليمين أكتبها عليه فيقول انظره لعله يتوب او يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فان هو تاب منها والا قال اكتبها عليه سيئة واحدة وملك موكل بناصية العبد فاذا تواضع العبد لله عز وجل رفعه بها وان تجبر على الله عز وجل وضعه بها وملك موكل بعينيه يحفظهما من الاذى وملك موكل بفيه لا يدعه يدخل فى فيه شئ من الهوام يؤذيه فهؤلاء خمسة املاك موكلون بالعبد فى ليله وخمسة غيرهم فى نهاره فانظر الى عظمة الله

(وكل شئ عنده بمقدار) بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه لقوله انا كل شئ خلقناه بقدر (عالم الغيب) ما غاب عن الخلق (والشهادة) ما شاهدوه (الكبير) العظيم الشان الذى كل شئ دونه (المتعال) المستعلى على كل شئ بقدرته او الذى كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها وبالياء فى الحالين مكى (سواء منكم من اسر القول ومن جهر به) اى فى علمه (ومن هو مستخف بالليل) متوار (وسارب بالنهار) ذاهب فى سربه اى فى طريقه ووجهه يقال سرب فى الارض سروبا وسارب عطف على من هو مستخف لا على مستخف او على مستخف غير ان من فى معنى الاثنين والضمير فى (له) مردود على من كأنه قيل لمن اسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب (معقبات) جماعات من الملائكة تعتقب فى حفظه والاصل معتقبات فادغمت التاء فى القاف او هو مفعلات من عقبه اذا جاء على عقبه لان بعضهم يعقب بعضا او لانهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه

تعالى وقدرته وكمال شفقته عليك ايها العبد المسكين وهو قوله تعالى (من بين يديه ومن خلفه يحفظونه
من امر الله) يعني يحفظون العبد من بين يديه ومن وراء ظهره ومعنى من أمر الله بأمر الله واذنه مالم يجئ
القدر فاذا جاء خلوا عنه وقيل معناه انهم يحفظونه بما امر الله به من الحفظ له قال مجاهد ما من عبد الا وملك
موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والانس والهوام فما من شئ يأتيه يؤذيه الا قال له الملك وراءك
الا شئ يأذن الله فيه فيصيبه وقال كعب الاحبار لولا ان الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم
ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج معنى يحفظونه اى يحفظون عليه الحسنات والسيئات
وهذا على قول من يقول ان الآية في الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات
وقال عكرمة الآية في الامراء وحرسهم يحفظونهم من بين ايديهم ومن خلفهم والضمير في قوله له راجع الى
النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس في معنى هذه الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم حراس من الرجن من
بين يديه ومن خلفه يحفظونه من شر الجن وطوارق الليل والنهار وقال عبد الرحمن بن زيد نزلت هذه
الآية في عامر بن الطفيل واربد بن ربيعة وهما من بني عامر بن زيد وكانت قصتهما على ما رواه الكلبي
عن ابي صالح عن ابن عباس قال اقبل عامر بن الطفيل واربد بن ربيعة وهما من بني عامر بن زيد على رسول
الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد في نفر من اصحابه فدخل المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر
وكان من اجمل الناس وكان اعور فقال رجل يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد اقبل نحوك فقال دعه
فان يرد الله به خيرا يهده فاقبل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا محمد مالي ان اسلمت قال لك
ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين قال تجعل الامر لي بعدك قال ليس ذلك لي انما ذلك الى الله تعالى يجعله
حيث يشاء قال فتجعلني على الوبر وأنت على المدر قال لا قال فما تجعل لي قال أجعل لك اعنة الخيل تغزو
عليها قال أوليس ذلك لي اليوم قم معي أكلمك فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عامر قد اوصى
الى اربد بن ربيعة اذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف فجعل عامر يخاصم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ويراجعه ودار اربد من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فاخترط شبرا من سيفه ثم حبسه
الله تعالى عليه فلم يقدر على سله وجعل عامر يومئ اليه فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى اربد
وما صنع بسيفه فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فارسل الله على اربد صاعقة في يوم صحو قائظ فاحرقته فولى
عامر هاربا وقال يا محمد دعوت ربك فقتل اربد والله لاملأنها عليك خيلا جردا وشبابا مردا فقال النبي صلى
الله عليه وسلم يمنعني الله من ذلك وابناء قيلة يريد الاوس والخزرج فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما اصبح
ضم اليه سلاحه فخرج له خراج في اصل أذنه اخذه منه مثل النار فاشتد عليه فقال غدة كغدة البعير وموت
في بيت سلولية ثم ركب فرسه وجعل يركض في الصحراء ويقول ادن يا ملك الموت وجعل يقول الشعر
ويقول لئن ابصرت محمدا وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذنهما برمحي فارسل الله اليه ملكا فلطمه فاراه
في التراب ثم عاد فركب جواده حتى مات على ظهره وأجاب الله عز وجل دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم
في عامر بن الطفيل فمات بالطعن واربد بن ربيعة مات بالصاعقة وانزل الله عز وجل في شأن هذه القصة
سواء منكم من أسر القول ومن جهر به الى قوله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يعني لرسول الله صلى
الله عليه وسلم معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من امر الله اى بامر الله وقيل ان تلك المعقبات من
امر الله وفيه تقديم وتأخير تقديره له معقبات من امر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه وقوله (ان الله
لا يغير ما بقوم) خطاب لهذين عامر بن الطفيل واربد بن ربيعة يعني لا يغير ما بقوم من العافية والنعمة التي
انعم بها عليهم (حتى يغيروا ما بأنفسهم) يعني من الحالة الجميلة فيعصون ربهم ويجحدون نعمه عليهم فعند
ذلك تحل نقمته بهم وهو قوله تعالى (واذا أراد الله بقوم سوأ) يعني هلاكا وعذابا (فلا مرد له) يعني لا يقدر

(من بين يديه ومن خلفه) اى قدامه ووراءه (يحفظونه من أمر الله) هما صفتان جميعا وليس من امر الله بصلة للحفظ كأنه قيل له معقبات من امر الله او يحفظونه من اجل امر الله اى من اجل ان الله تعالى امرهم بحفظه او يحفظونه من بأس الله ونقمته اذا أذنب بدعائهم له (ان الله لا يغير ما بقوم) من العافية والنعمة (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الحال الجميلة بكثرة المعاصي (واذا اراد الله بقوم سوا) عذابا (فلا مرد له) فلا يدفعه شئ

احد أن يرد ما انزل الله بهم من قضائه وقدره (ومالهم من دونه من وال) يعني وليس لهم من دون الله من وال يلي امرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم * قوله عز وجل (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) لما خوف الله عز وجل عباده بقوله واذا أراد الله بقوم سوأ ذكر في هذه الآية من عظيم قدرته ما يشبه النفع من وجه ويشبه العذاب من وجه فقال تعالى هو الذي يعني هو الله الذي يريكم البرق والبرق معروف وهو لمعان يظهر من خلال السحاب وفي كونه خوفا وطمعا وجوه الاول ان عند لمعان البرق يخاف من الصواعق ويطمع في نزول المطر الثاني انه يخاف من البرق من يتضرر بالمطر كالمسافر ومن في جرينه يعني بيدره التمر والزبيب والقمح ونحو ذلك ويطمع فيه من له في نزول المطر نفع كالزراع ونحوه الثالث ان المطر يخاف منه اذا كان في غير مكانه وزمانه ويطمع فيه اذا كان في مكانه وزمانه فان من البلاد ما اذا امطرت قحطت واذا لم تمطر اخصبت (وينشئ السحاب الثقال) يعني بالمطر يقال أنشأ الله السحابة فنشأت اي ابداها فبدت والسحاب جمع سحابة والسحاب غربال الماء قاله علي بن ابي طالب رضي الله عنه وقيل السحاب الغيم فيه ماء اولم يكن فيه ماء ولهذا قيل سحاب جهام وهو الخالي من الماء وأصل السحب الجر وسمي السحاب سحابا اما لجر الريح له او لجره الماء اولانجراره في سيره (ويسبح الرعد بحمده) أكثر المفسرين على ان الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه وأورد على هذا القول ما عطف عليه وهو قوله (والملائكة من خيفته) واذا كان المعطوف مغايرا للمعطوف عليه وجب ان يكون غيره وأجيب عنه انه لا يبعد ان يكون الرعد اسما للملك من الملائكة وانما أفرده بالذكر تشريفا له على غيره من الملائكة فهو كقوله وملائكته وجبريل وميكال قال ابن عباس أقبلت يهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوقه بها حيث يشاء الله قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع قال زجره السحاب حتى تنتهي حيث أمرت قالوا صدقت أخرجه الترمذي مع زيادة فيه المخاريق جمع مخراق وهو في الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وأراد به هنا آلة تزجر بها الملائكة السحاب وقد جاء تفسيره في حديث آخر وهو صوت من نور تزجر الملائكة به السحاب قال ابن عباس من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شئ قدير فان اصابه صاعقة فعلى دينه وكان عبد الله بن الزبير اذا سمع الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وكان يقول ان الوعيد لاهل الارض شديد وفي بعض الاخبار ان الله تعالى يقول لو أن عبادي اطاعوني لسقيتهم المطر بالليل واطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس انه قال الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه الى حيث يؤمر وان بحور الماء نقرة ابهامه وانه يسبح الله فاذا سبح لا يبقى ملك في السماء الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وقيل ان الرعد اسم لصوت الملك الموكل بالسحاب ومع ذلك فان صوت الرعد يسبح الله عز وجل لان التسبيح والتقديس عبارة عن تنزيه الله عز وجل عن جميع النقائص ووجود هذا الصوت المسموع من الرعد وحدوثه دليل على وجود موجود خالق قادر متعال عن جميع النقائص وان لم يكن ذلك في الحقيقة تسبيحا ومنه قوله وان من شئ الا يسبح بحمده وقيل المراد من تسبيح الرعد ان من سمعه سبح الله فهو على المعنى أضيف التسبيح اليه وقوله والملائكة من خيفته يعني و يسبح الملائكة من خيفة الله عز وجل وهيبته وخشيته وقيل المراد بهذه الملائكة اعوان السحاب جعل الله عز وجل مع الملك الموكل بالسحاب اعوانا من الملائكة وهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة وحمله على المعنى أولى (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهي العذاب النازل من البرق فيحترق من تصيبه وقيل هي

(ومالهم من دونه من وال) من دون الله ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) انتصبا على الحال من البرق كانه في نفسه خوف وطمع او على ذا خوف وذا طمع او من المخاطبين اى خائفين وطامعين والمعنى يخاف من وقوع الصواعق عند لمع البرق ويطمع في الغيث قال ابو الطيب

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى
يرجى الحيا منه وتخشى الصواعق

او يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر ومن له بيت يكف ومن البلاد ما لا ينتفع اهله بالمطر كاهل مصر ويطمع فيه من له نفع فيه (وينشئ السحاب) هو اسم جنس والواحدة سحابة (الثقال) بالماء وهو جمع ثقيلة تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال (ويسبح الرعد بحمده) قيل يسبح سامعو الرعد من العباد الراجين للمطر اى يصيحون بسبحان الله والحمد لله وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الرعد ملك موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب والصوت الذي يسمع زجره السحاب حتى ينتهي الى حيث أمر (والملائكة من خيفته) و يسبح الملائكة من هيبته واجلاله (ويرسل الصواعق الصوت

فيصيب بها من يشاء) الصاعقة نار تسقط من السماء لما ذكر علمه النافذ في كل شئ واستواء الظاهر والخفي عنده ومادل على قدرته الباهرة ووحدانيته قال (وهم يجادلون في الله) يعني الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلون في الله حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث واعادة الخلائق بقولهم من يحيي العظام وهي رميم ويردون الوحدانية باتخاذ الشركاء ويجعلونه بعض الاجسام بقولهم الملائكة بنات الله والواو للحال اى فيصيب بها من يشاء في حال جدالهم وذلك ٥٩ ان اربد أخا لبيد بن ربيعة العامري

الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار او عذاب او موت وهي في ذاتها شئ واحد وهذه الاشياء الثلاثة تنشأ منها (فيصيب بها) يعني بالصواعق (من يشاء) يعني فيهلك بها كما اصاب اربد بن ربيعة قال محمد الباقر الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر (وهم يجادلون في الله) يعني يخاصمون في الله وقيل المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة واصله من جدلت الحبل اذا احكمت فتله نزلت في شأن اربد بن ربيعة حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم ممم ربك أمن درأم من ياقوت أم من ذهب فنزلت صاعقة من السماء فاحرقته وسئل الحسن عن قوله ويرسل الصواعق الآية فقال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبي صلى الله عليه وسلم نفرا من أصحابه يدعونه الى الله والى رسوله فقال لهم اخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعوني اليه هل هو من ذهب او فضة او حديد او نحاس فاستعظم القوم كلامه فانصرفوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلا اكفر قلبا ولا اعتى على الله منه فقال ارجعوا اليه فرجعوا اليه فلم يزدهم على مقالته الاولى شيأ بل قال أأجيب محمدا الى رب لا أراه ولا اعرفه فانصرفوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله مازادنا على مقالته الاولى شيأ بل قال اخبث فقال ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبينما هم عنده يدعونه وينازعونه وهو لا يزيدهم على مقالته شيأ اذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحرقت الكافر وهم جلوس عنده فرجعوا فاخبروا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رجعوا استقبلهم نفر من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا لهم احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم ذلك قالوا قد أوحى الى النبي صلى الله عليه وسلم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله واختلفوا في هذه الواو فقيل واو الحال فيكون المعنى فيصيب بها من يشاء في حال جداله في الله وذلك ان أربد لما جادل في الله اهلكه الله بالصاعقة وقيل انها واو الاستئناف فيكون المعنى انه تعالى لما تمم ذكر الدلائل قال بعد ذلك وهم يجادلون في الله (وهو شديد المحال) اى شديد الاخذ بالعقوبة من قولهم يحل به محلا اذا اراد به سوأ وقيل هو من قولهم يحل به اذا سعى به الى السلطان وعرضه للهلاك ويحل اذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه فيكون المعنى انه سبحانه وتعالى شديد المحال باعدائه حتى يهلكهم بطريق لا يعرفونه ولا يتوقعونه وقيل المحل من المحول وهو الحيلة والميم زائدة ثم اختلفت عبارات المفسرين في معنى قوله شديد المحال فقال الحسن معناه شديد النقمة وقال مجاهد وقتادة شديد القوة وقال ابن عباس شديد الحول وقيل شديد العقوبة وقيل معناه شديد الجدال وذلك انه لما أخبر عنهم انهم يجادلون في الله اخبر انه أشد جدالا منهم قوله تعالى (له دعوة الحق) يعني لله دعوة الصدق قال علي دعوة الحق التوحيد وقال ابن عباس شهادة أن لا اله الا الله قال صاحب الكشاف دعوة الحق فيها وجهان أحدهما ان تضاف الدعوة الى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف الكلمة اليه في قولك كلمة الحق للدلالة على ان الدعوة ملابسة للحق مختصة به وانها بمعزل من الباطل والمعنى ان الله تعالى يدعى فيستجيب الدعوة ويعطي الداعي سؤله ان كان مصلحة له فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقا بان يوجه اليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا نفع فيه ولا

قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى الله عامرا بغدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية وارسل على أربد صاعقة فقتله اخبرني عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد (وهو شديد المحال) اى المماحلة وهي شدة المماكرة والمكايدة ومنه تمحل لكذا اذا تكلف لاستعمال الحيلة واجتهد فيه ومحل بفلان اذا كاده وسعى به الى السلطان والمعنى انه شديد المكر والكيد لاعدائه يأتيهم بالمهلكة من حيث لا يحتسبون (له دعوة الحق) اضيفت الى الحق الذي هو ضد الباطل للدلالة على ان الدعوة ملابسة للحق وانها بمعزل من الباطل والمعنى ان الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ويعطي الداعي سؤله فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقا بانه يوجه اليه

الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه واتصال شديد المحال وله دعوة الحق بما قبله على قصة اربد ظاهر لان اصابته بالصاعقة محال من الله ومكر به من حيث لا يشعر وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله اللهم احسفهما بما شئت فاجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق وعلى الاول وعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجلول محاله بهم واجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ان دعا عليهم

(الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه) الاستثناء من المصدر أى من الاستجابة التى دل عليها لا يستجيبون لان الفعل بحروفه يدل على المصدر وبصيغته على الزمان وبالضرورة على المكان والحال فجاز استثناء كل منها من الفعل فصار التقدير لا يستجيبون استجابة الا استجابة كاستجابة باسط كفيه الى الماء اى كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه يطلب منه ان يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته اليه ولا يقدر ان يجيب دعاءه ويبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جمادا لا يحس بدعائهم ولا يستطيع اجابتهم ولا يقدر على نفعهم واللام فى ليبلغ متعلق بباسط كفيه (وما هو ببالغه) وما الماء ببالغ فاه (ومادعاء الكافرين الا فى ضلال) فى ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الاصنام لم تستطع اجابتهم (ولله يسجد من فى السموات والارض) سجود تعبد وانقياد (طوعا) حال يعنى الملائكة والمؤمنين (وكرها) يعنى المنافقين والكافرين فى حال الشدة والضيق

جدوى فيرد دعاءه الثانى ان تضاف الى الحق الذى هو الله على معنى دعوة المدعو الحق الذى يسمع فيجيب وعن الحسن الله هو الحق وكل دعاء اليه دعوة الحق فان قلت ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبلهما قلت اما على قصة أربد فظاهر لان اصابته بالصاعقة كانت بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه دعا عليه وعلى صاحبه عامر بن الطفيل فاجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق واما على قوله وهم يجادلون فى الله فوعيد للكفار على مجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجابة دعائه ان دعا عليهم وقيل فى معنى الآية الدعاء بالاخلاص والدعاء الخالص لا يكون الا لله تعالى (والذين يدعون من دونه) يعنى والذين يدعونهم آلهة من دون الله وهى الاصنام التى يعبدونها (لا يستجيبون لهم بشئ) يعنى لا يجيبونهم بشئ يريدونه من نفع او دفع ضر ان دعوهم (الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) يعنى الا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه يطلب منه ان يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه ولا يقدر ان يجيب دعاءه او يبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جمادا لا يحس بدعائهم ولا يستطيع اجابتهم ولا يقدر على نفعهم وقيل شبههم فى قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن اراد ان يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناشرا اصابعه فلم تلق كفاه منه شيأ ولم يبلغ طلبته من شربه وقيل ان القابض على الماء ناشر اصابعه لا يكون فى يده منه شئ ولا يبلغ الى فيه منه شئ كذلك الذى يدعو الاصنام لانها لا تضر ولا تنفع ولا يفيده منها شئ وقيل شبه بالرجل العطشان الذى يرى الماء من بعيد بعيد فهو يشير بكفيه الى الماء ويدعوه بلسانه فلا يأتيه أبدا هذا معنى قول مجاهد وعن عطاء كالعطشان الجالس على شفير البئر وهو يريد بيديه الى البئر فلا هو يبلغ الى قعر البئر ليخرج الماء ولا الماء يرتفع اليه فلا ينفعه بسطه الكف الى الماء ودعاؤه له ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الاصنام لا ينفعهم ذلك وقال ابن عباس كالعطشان اذا بسط كفيه فى الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما من الماء ولا يبلغ الماء فاه مدام باسط كفيه وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ودعائهم الاصنام حين لا ينفعهم البتة ثم ختم هذا بقوله (ومادعاء الكافرين) يعنى أصنامهم (الا فى ضلال) يعنى يضل عنهم اذا احتاجوا اليه قال ابن عباس فى هذه الآية أصواتهم محجوبة عن الله تعالى * قوله عز وجل (ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها) فى معنى هذا السجود قولان أحدهما ان المراد منه السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الارض ثم على هذا القول فى معنى الآية وجهان أحدهما ان اللفظ وان كان عاما الا ان المراد منه الخصوص فقوله ولله يسجد من فى السموات يعنى الملائكة ومن فى الارض من الانس يعنى المؤمنين طوعا وكرها يعنى من المؤمنين من يسجد لله طوعا وهم المؤمنون المخلصون لله العبادة وكرها يعنى المنافقين الداخلين فى المؤمنين وليسوا منهم فان سجودهم لله على كره منهم لانهم لا يرجون على سجودهم ثوابا ولا يخافون على تركه عقابا بل سجودهم وعبادتهم خوف من المؤمنين الوجه الثانى هو حمل اللفظ على العموم وعلى هذا ففى اللفظ اشكال وهو ان جميع الملائكة والمؤمنين من الجن والانس يسجدون لله طوعا فمنهم من يسجد له كرها كما تقدم ولم يكن الكفار من الجن والانس فلا يسجدون لله البتة فهذا وجه الاشكال والجواب عنه ان المعنى انه يحمل على كل من فى السموات ومن فى الارض ان يسجد لله ٣ فعبر بالوجوب عن الوقوع والحصول وجوابا آخر وهو ان يكون المراد من هذا السجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية وكل من فى السموات من الملائكة ومن فى الارض من انس وجن فانهم يقرون لله بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله والقول الثانى فى معنى هذا السجود هو الانقياد والخضوع وترك الامتناع فكل من فى السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى وهذا الاعتبار لان قدرته ومشيئته ماضية

٣ قوله فعبر بالوجوب عن الوقوع الخ كذا بالاصل وصوابه فعبر عن الوجوب بالوقوع كما هو ظاهر اه

(وظلالهم) معطوف على من جمع ظل (بالغدو) جمع غداة كقنى وقناة (والآصال) جمع اصل جمع أصيل قيل ظل كل شئ يسجد لله بالغدو والآصال وظل الكافر يسجد كرها وهو كاره وظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع (قل من رب السموات والارض قل الله) حكاية لاعترافهم لانه اذا قال لهم من رب السموات والارض لم يكن لهم بد من ان يقولوا الله ٦١ دليله قراءة ابن مسعود وابى قالوا الله او هو تلقين اى فان لم يجيبوا فلقنهم فانه لا جواب الا هذا (قل أفاتخذتم من دونه اولياء) ابعد ان علمتموه رب السموات والارض اتخذتم من دونه آلهة (لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا) لا يستطيعون لانفسهم ان ينفعوها او يدفعوا ضررا عنها فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب فما ابين ضلالتكم (قل هل يستوى الاعمى والبصير) اى الكافر والمؤمن او من لا يبصر شيأ ومن لا يخفى عليه شئ (أم هل تستوى الظلمات والنور) ملل الكفر والايمان يستوى كوفى غير حفص (أم جعلوا لله شركاء) بل أجعلوا ومعنى الهمزة الانكار (خلقوا كخلقه) خلقوا مثل خلقه وهو صفة لشركاء اى انهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله (فتشابه الخلق عليهم) فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا قد رهؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلا ان يقدروا على ما يقدر عليه الخالق (قل الله خالق كل شئ) اى خالق الاجسام والاعراض لا خالق غير الله ولا يستقيم ان يكون له شريك فى الخلق فلا يكون له شريك فى العبادة ومن قال ان الله لم يخلق افعال الخلق وهم خلقوها فقد شابه الخلق على قولهم

الكل فهم خاضعون منقادون له وقوله تعالى (وظلالهم بالغدو والآصال) الغدوة والغداة اول النهار وقيل الى نصف النهار والغدو بالضم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس والآصال جمع أصل وهو العشية والآصال العشايا جمع عشية وهى ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس قال المفسرون ان ظل كل شخص يسجد لله سواء ظل المؤمن والكافر وقال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله طوعا وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرها وهو كاره وقال الزجاج جاء فى التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانبارى لا يبعد ان يخلق الله تعالى للظلال عقولا وافهاما تسجد بها وتخشع كما جعل للجبال افهاما حتى سبحت لله مع داود وقيل المراد بسجود الظلال ميلانها من جانب الى جانب آخر وطولها وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ونزولها وانما خص الغدو والآصال بالذكر لان الظلال تعظم وتكثر فى هذين الوقتين وقيل لانهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما

(فصل) وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة فيسن للقارئ والمستمع ان يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة والله أعلم قوله تعالى (قل من رب السموات والارض) اى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله من رب السموات والارض يعنى من مالك السموات والارض ومن مدبرهما وخالقهما فسيقولون الله لانهم مقرون بان الله خالق السموات ومافيها والارض ومافيها فاذا أجابوك بذلك فقل أنت يا محمد الله رب السموات والارض وقيل لما قال هذه المقالة للمشركين عطفوا عليه وقالوا أجب أنت فأمره الله ان يجيبهم بقوله (قل الله) اى قل يا محمد الله وقيل انما جاء السؤال والجواب من جهة واحدة لان المشركين لا ينكرون ان الله خالق كل شئ فلما لم ينكر وا ذلك أجاب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله الله فكأنهم قالوا ذلك أيضا ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الاصنام بقوله (قل) اى قل يا محمد للمشركين (افاتخذتم من دونه) يعنى من دون الله (اولياء) يعنى الاصنام والولى الناصر والمعنى توليتم غير رب السموات والارض واتخذتموهم أنصارا يعنى الاصنام (لا يملكون) يعنى وهم لا يملكون (لأنفسهم نفعا ولا ضرا) فكيف لغيرهم ثم ضرب الله مثلا للمشركين الذين يعبدون الاصنام وللمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى (قل هل يستوى الاعمى والبصير) قال ابن عباس يعنى المشرك والمؤمن (أم هل تستوى الظلمات والنور) يعنى الشرك والايمان والمعنى كما لا يستوى الاعمى والبصير كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن وكما لا تستوى الظلمات والنور كذلك لا يستوى الكفر والايمان وانما شبه الكافر بالاعمى لان الاعمى لا يهتدى سبيلا كذلك الكافر لا يهتدى سبيلا (أم جعلوا لله شركاء) هذا استفهام انكار يعنى جعلوا لله شركاء (خلقوا كخلقه) يعنى خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنانا وانسا (فتشابه الخلق عليهم) من هذا الوجه والمعنى هل رأوا غير الله خلق شيأ فاشتبه عليهم خلق الله بخلق غيره وقيل انه تعالى وبخهم بقوله ام جعلوا لله شركاء خلقوا خلقا مثل خلقه فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم وهذا الاستفهام انكارى اى ليس الامر كذلك حتى يشتبه عليهم الامر بل اذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الاشياء والشركاء مخلوقون له أيضا لا يخلقون شيأ حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء واذا كان الامر كذلك فقد لزمتهم الحجة وهو قوله تعالى (قل الله خالق كل شئ) اى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الله خالق كل شئ مما يصح ان يكون مخلوقا وقوله الله خالق كل شئ من العموم

الذى يراد به الخصوص لان الله تعالى خلق كل شئ وهو غير مخلوق (وهو الواحد) يعنى والله تعالى هو الواحد المنفرد بخلق الاشياء كلها (القهار) لعباده حتى يدخلهم تحت قضائه وقدره وارادته وقوله عز وجل (أنزل من السماء ماء) لما شبه الله عز وجل الكافر بالاعمى والمؤمن بالبصير وشبه الكفر بالظلمات والايمان بالنور ضرب لذلك مثلا فقال تعالى أنزل من السماء ماء يعنى المطر (فسالت اودية بقدرها) اودية جمع واد وهو المفرج بين الجبلين يسيل فيه الماء وقوله فسالت اودية فيه اتساع وحذف تقديره فسال فى الوادى فهو كما يقال جرى النهر والمراد جرى الماء فى النهر فحذف فى لدلالة الكلام عليه بقدرها قال مجاهد بملئها وقال ابن جريج الصغير بقدره والكبير بقدره وقيل بمقدار مائها وانما نكر اودية لان المطر اذا نزل لا يعم جميع الارض ولا يسيل فى كل الاودية بل ينزل فى أرض دون أرض ويسيل فى واد دون واد فلهذا السبب جاء هذا بالتنكير وقال ابن عباس أنزل من السماء ماء يعنى قرآنا وهذا مثل ضربه الله تعالى فسالت اودية بقدرها يريد بالاودية القلوب شبه نزول القرآن الجامع للهدى والنور والبيان بنزول المطر لان المطر اذا نزل عم نفعه وكذلك نزول القرآن وشبه القلوب بالاودية لان الاودية يستكن فيها الماء وكذلك القلوب يستكن فيها الايمان والعرفان ببركة نزول القرآن فيها وهذا خاص بالمؤمنين لانهم الذين انتفعوا بنزول القرآن (ق) عن ابى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء نفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فتعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به قال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله وغيره فى معنى هذا الحديث وشرحه أما الكلأ فبالهمز يقع على الرطب واليابس من الحشيش وأما قوله وكان منها أجادب فبالجيم والدال المهملة والباء الموحدة كذا فى الصحيحين وهى الارض التى لا تنبت الكلأ جمع جدب على غير قياس وقياسه أجدب والجدب ضد الخصب وقال الخطابى هى التى تمسك الماء ولم يسرع فيه النضوب وفى رواية الهروى أخاذات بالخاء المعجمة والذال المعجمة جمع اخاذة وهى الغدير الذى يمسك الماء وقوله ورعوا كذا هو فى صحيح مسلم من الرعى ووقع فى صحيح البخارى وزرعوا بزيادة زاى من الزرع والقيعان بكسر القاف جمع قاع وهو المستوى من الارض وقوله فذلك مثل من فقه فى دين الله يروى بضم القاف وهو المشهور ويروى بكسرها ومعناه فهم الاحكام وأما معنى الحديث ومقصوده فهو ان النبى صلى الله عليه وسلم ضرب مثلا لما جاء به من الهدى والعلم بالارض التى أصابها المطر قال العلماء والارض ثلاثة أنواع وكذلك الناس لانهم منها خلقوا فالنوع الاول من أنواع الارض الطيبة التى تنتفع بالمطر فتنبت به العشب فينتفع الناس به والدواب بالشرب والرعى وغير ذلك وكذلك النوع الاول من الناس من يبلغه الهدى وغير ذلك من العلم فيحيا به قلبه ويحفظه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع به وينفع غيره قال مسروق صحبت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالاخاذات لان قلوبهم كانت واعية فصارت اوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم النوع الثانى من أنواع الارض أرض لا تقبل الانتفاع فى نفسها لكن فيها فائدة لغيرها وهى امساك الماء لغيرها لينتفع به الناس والدواب وكذا النوع الثانى من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليس لهم افهام ثاقبة فيبقى ما عندهم من العلم حتى يجىء المحتاج اليه المتعطش لما عندهم من العلم فيأخذه منهم فينتفع به هو وغيره النوع الثالث من أنواع الارض أرض سبخة لا تنبت مرعى ولا تمسك ماء كذلك النوع الثالث من الناس ليس لهم قلوب حافظة ولا افهام ثاقبة فاذا بلغهم شئ من

(وهو الواحد) المتوحد بالربوبية (القهار) لا يغالب وما عداه مربوب ومقهور (أنزل) اى الواحد القهار وهو الله سبحانه (من السماء) من السحاب (ماء) مطرا (فسالت أودية) جمع واد وهو المرضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة وانما نكر لان المطر لا يأتى الاعلى طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض اودية الارض دون بعض (بقدرها) بمقدارها الذى علم الله انه نافع للمطور عليهم غير ضار

(فاحتمل السيل) اى رفع (زبدا) هو ما علا على وجه الماء من الرغوة والمعنى علاه زبد (رابيا) منتفخا مرتفعا على وجه السيل (ومما توقدون عليه) وبالياء كوفى غير ابى بكر ومن لابتداء الغاية اى ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء او للتبعيض اى وبعضه زبد (فى النار) حال من الضمير فى عليه اى ومما توقدون عليه ثابتا فى النار (ابتغاء حلية) مبتغين حلية فهو مصدر فى موضع الحال من الضمير فى توقدون (أو متاع) من الحديد والنحاس والرصاص يتخذ منها الاوانى وما يتمتع به فى الحضر والسفر وهو معطوف على حلية اى زينة من الذهب والفضة (زبد) خبث وهو مبتدأ (مثله) نعت له ومما توقدون خبره اى لهذه الفلزات اذا أغليت زبد مثل زبد الماء (كذلك يضرب الله الحق والباطل) اى مثل الحق والباطل (فاما الزبد فيذهب جفاء) حال اى متلاشيا وهو ما تقذفه

العلم لا ينتفعون به فى أنفسهم ولا ينفعون غيرهم والله أعلم وقوله تعالى (فاحتمل السيل زبدا) الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة كالحباب وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها والمعنى فاحتمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبدا (رابيا) يعنى عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا عليه وههنا تم المثل ثم ابتدأ بمثل آخر فقال تعالى (ومما توقدون عليه فى النار) الايقاد جعل الحطب فى النار لتتقد تلك النار تحت الشئ ليذوب (ابتغاء حلية) يعنى لطلب زينة والضمير فى قوله عليه يعود على الذهب والفضة وان لم يكونا مذكورين لان الحلية لا تطلب الا منهما (او متاع) يعنى او لطلب متاع آخر مما ينتفع به كالحديد والنحاس والرصاص ونحوه مما يذاب وتتخذ منه الاوانى وغيرها مما ينتفع به والمتاع كل ما يتمتع به ويقال لكل ما ينتفع به فى البيت كالطبق والقدر ونحو ذلك من الاوانى متاع (زبد مثله) يعنى ان ذلك الذى يوقد عليه فى النار اذا أذيب فله أيضا زبد مثل زبد الماء فالصافى من الماء ومن هذه الجواهر هو الذى ينتفع به وهو مثل الحق والزبد من الماء ومن هذه الجواهر هو الذى لا ينتفع به وهو مثل الباطل وهو قوله تعالى (كذلك يضرب الله الحق والباطل) فالحق هو الجوهر الصافى الثابت والباطل هو الزبد الطافى الذى لا ينتفع به وهو قوله (فاما الزبد فيذهب جفاء) يعنى ضائعا باطلا والجفاء ما رمى به الوادى من الزبد الى جوانبه وقيل الجفاء المتفرق يقال جفأت الريح الغيم اذا فرقته والمعنى ان الباطل وان علا فى وقت فانه يضمحل ويذهب (واما ما ينفع الناس) يعنى الماء الصافى والجوهر الجيد من هذه الاجسام التى تذاب (فيمكث فى الارض) يعنى يثبت ويبقى ولا يذهب (كذلك يضرب الله الامثال) قال أهل التفسير والمعانى هذا مثل ضربه الله للحق والباطل فالباطل وان علا على الحق فى بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافى الذى ينتفع به وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذى هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل فالباطل وان علا فى وقت فانه يذهب هو وأهله والحق يظهر هو وأهله وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافى الذى ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كالزبد الذى لا ينتفع به البتة وقيل هذا مثل ضربه الله للنور الذى يحصل فى قلوب العباد على ما قسم لها فى الازل لان الوادى اذا سال كنس كل شئ من النجاسات والمستقذرات كذلك اذا سال وادى قلب العبد بالنور الذى قسم له على قدر ايمانه ومعرفته كنس كل ظلمة وغفلة فيه فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض يعنى يذهب البواطل وهى الاخلاق

القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان والجفاء الرمى وجفوت الرجل صرعته (واما ما ينفع الناس) من الماء والحلى والاوانى (فيمكث فى الارض) فينبت الماء فى العيون والآبار والحبوب والثمار وكذلك الجواهر تبقى فى الارض مدة طويلة (كذلك يضرب الله الامثال) ليظهر الحق من الباطل وقيل هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه فمثل الحق وأهله بالماء الذى ينزل من السماء فتسيل به اودية الناس فيحيون به وينفعهم بانواع المنافع وبالفلز الذى ينتفعون به فى صوغ الحلى منه واتخاذ الاوانى والآلات المختلفات وذلك ماكث فى الارض باق بقاء ظاهرا يشبه الماء

فى منافعه وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة وشبه الباطل فى سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذى يرمى به وبزبد الفلز الذى يطفو فوقه اذا أذيب قال المحققون وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب والحق والباطل فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للابدان والاودية القلوب ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه والزبد هو اجس النفس ووساوس الشيطان والماء الصافى المنتفع به مثل الحق فكما يذهب الزبد باطلا ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان ويبقى الحق كما هو واما حلية الذهب والفضة فمثل للاحوال السنية والاخلاق الزكية واما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للاعمال المعدة بالاخلاص المعدة للخلاص فان الاعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب كما ان تلك الجواهر بعضها اداة النفع للكسب وبعضها آلة الدفع فى الحرب واما الزبد فالرياء والخال والمال والكسل واللام فى

(للذين استجابوا) اى اجابوا متعلقة بيضرب اى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين الذين استجابوا (لربهم الحسنى) وهى صفة لمصدر استجابوا اى استجابوا الاستجابة الحسنى (والذين لم يستجيبوا له) اى وللكافرين الذين لم يستجيبوا اى هما مثلا الفريقين وقوله (لو ان لهم ما فى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) كلام مبتدأ فى ذكر ما اعد لغير المستجيبين اى لو ملكوا اموال الدنيا وملكوا معها مثلها لبذلوه ليدفعوا عن انفسهم عذاب الله والوجه ان الكلام قد تم على الامثال وما بعده كلام مستأنف والحسنى مبتدأ خبره للذين استجابوا والمعنى لهم المثوبة الحسنى ٦٤ وهى الجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره لو مع ما فى حيزه (أولئك لهم سوء الحساب)

المذمومة وتبقى الحقائق وهى الاخلاق الحميدة كذلك يضرب الله الامثال وقوله تعالى (للذين استجابوا لربهم الحسنى) قيل اللام فى للذين متعلقة بيضرب والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين الذين استجابوا لربهم يعنى اجابوه الى ما دعاهم اليه من توحيده والايمان به وبرسوله وللكافرين الذين لم يستجيبوا فعلى هذا يكون قوله كذلك يضرب الله الامثال للفريقين من المؤمنين والكافرين وقيل تم الكلام عند قوله كذلك يضرب الله الامثال ثم استأنف بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى قال ابن عباس وجمهور المفسرين يعنى الجنة وقيل الحسنى هى المنفعة العظمى فى الحسن وهى المنفعة الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع (والذين لم يستجيبوا له) يعنى الكفار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه (لو أن لهم ما فى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) يعنى لبذلوا ذلك كله فداء لانفسهم من عذاب النار يوم القيامة (اولئك) يعنى الذين لم يستجيبوا لربهم (لهم سوء الحساب) قال ابراهيم النخعى سوء الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شئ (ومأواهم) يعنى فى الآخرة (جهنم وبئس المهاد) يعنى وبئس ما مهدلهم فى الآخرة وقيل المهاد الفراش يعنى وبئس الفراش يفرش لهم فى جهنم قوله تعالى (أفمن يعلم ان ما انزل اليك من ربك الحق) يعنى فيؤمن به ويعمل بما فيه (كمن هو أعمى) يعنى اعمى البصيرة لا أعمى البصر وهو الكافر فلا يؤمن بالقرآن ولا يعمل بما فيه قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم وابى جهل بن هشام وقيل نزلت فى عمار بن ياسر وابى جهل فالاول هو حمزة او عمار والثانى هو ابو جهل وحمل الآية على العموم اولى وان كان السبب مخصوصا والمعنى لا يستوى من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما شبه الكافر والجاهل بالاعمى لان الاعمى لا يهتدى لرشد ولا يبصر ما وقع فى مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد وهما واقعان فى المهلكة (انما يتذكر اولو الالباب) يعنى انما يتعظ ذوو العقول السليمة الصحيحة وهم الذين ينتفعون بالمواعظ والاذكار قوله عزوجل (الذين يوفون بعهد الله) يعنى الذين عاهدهم عليه وهو القيام بما امرهم به وفرضه عليهم واصل العهد حفظ الشئ ومراعاته حالا بعد حال وقيل اراد بالعهد ما أخذه على اولاد آدم حين اخرجهم من صلبه واخذ عليهم العهد والميثاق (ولا ينقضون الميثاق) بل يوفون به فهو تو كيد لقوله الذين يوفون بعهد الله (والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل) قال ابن عباس يريد الايمان بجميع الكتب والرسل يعنى يصل بينهم بالايمان ولا يفرق بين احد منهم والاكثرون على ان المراد به صلة الرحم عن عبد الرحمن بن عوف قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى انا الله وانا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته اوقال بتته اخرجه ابو داود والترمذى (ق) عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم معلقة

المناقشة فيه فى الحديث من نوقش الحساب عذب (ومأواهم جهنم) ومرجعهم بعد المحاسبة النار (وبئس المهاد) المكان الممهد والمذموم محذوف اى جهنم دخلت همزة الانكار على الفاء فى (افمن يعلم) لانكار ان يقع شبهة مما بعدها مضارب من المثل فى ان حال من علم (ان ما انزل اليك من ربك الحق) فاستجاب بمعزل من حال الجاهل الذى لم يستبصر فيستجيب وهو المراد بقوله (كمن هو أعمى) كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والابريز (انما يتذكر اولو الالباب) اى الذين عملوا على قضايا عقولهم فنظروا واستبصروا (الذين يوفون بعهد الله) مبتدأ والخبر اولئك لهم عقبى الدار كقوله والذين ينقضون عهد الله اولئك لهم اللعنة وقيل هو صفة لاولى الالباب والاول اوجه وعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته واشهدهم على انفسهم الست بربكم بالعرش قالوا بلى (ولا ينقضون الميثاق) ما اوثقوه على أنفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد تعميم بعد تخصيص (والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل) من الارحام والقرابات ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الايمان انما المؤمنون اخوة بالاحسان اليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وافشاء السلام عليهم وعيادة مرضاهم ومنه مراعاة حق الاصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر

بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله (خ) عن ابى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يبسط له فى رزقه وان ينسأ له فى اثره فليصل رحمه صلة الرحم مبرة الاهل والاقارب والاحسان اليهم وضده القطع (قوله وأن ينسأ له فى اثره) الاثر هنا الاجل وسمى الاجل أثرا لانه تابع للحياة وسابقها ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الاجل وهو على وجهين احدهما ان يبارك الله له فى عمره فكأنما قد زاد فيه والثانى ان يزيده فى عمره زيادة حقيقية والله يفعل ما يشاء (ق) عن جبير ابن مطعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة قاطع زاد فى رواية قال سفيان يعنى قاطع رحم (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافئ الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعلموا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم فان صلة الرحم محبة فى الاهل ومثراة فى المال ومنسأة فى الاثر اخرجه الترمذى وقوله تعالى (ويخشون ربهم) يعنى انهم مع وفائهم بعهد الله وميثاقه والقيام بما امر الله به من صلة الرحم يخشون ربهم والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه (ويخافون سوء الحساب) تقدم معناه (والذين صبروا) يعنى على طاعة الله وقال ابن عباس على امر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصى وقيل حمله على العموم أولى فيدخل فيه الصبر على جميع النوائب والمأمورات من سائر العبادات والطاعات وجميع اعمال البر وترك جميع المنهيات فيدخل فيه ترك جميع المعاصى من الحسد والحقد والغيبة وغير ذلك من المنهيات ويدخل فيه الصبر عن المباحات مثل جميع الشهوات والصبر على ما نزل به من الامراض والمصائب وأصل الصبر حبس النفس عما يقتضيه العقل او الشرع او عما يقتضيان حبسها عنه فالصبر لفظ عام يدخل تحته جميع ما ذكر وانما قيد الصبر بقوله (ابتغاء وجه ربهم) لان الصبر ينقسم الى نوعين الاول الصبر المذموم وهو ان الانسان قد يصبر لئلا يقال ما أكمل صبره وأشد قوته على ما تحمل من النوازل وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع وقد يصبر لئلا تشمت به الاعداء وكل هذه الامور وان كان ظاهرها الصبر فليس ذلك داخلا تحت قوله ابتغاء وجه ربهم لانها لغير الله تعالى النوع الثانى الصبر المحمود وهو أن يكون الانسان صابرا لله تعالى راضيا بما نزل به من الله طالبا فى ذلك الصبر ثواب الله محتسبا اجره على الله فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله ابتغاء وجه ربهم يعنى صبروا على ما نزل بهم تعظيما لله وطلب رضوانه (وأقاموا الصلوة) يعنى الصلاة المفروضة وقيل حمله على العموم أولى فيدخل صلاة الفرض والنفل والمراد بإقامتها اتمام اركانها وهيآتها (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) قال الحسن المراد به الزكاة المفروضة فان لم يتهم بترك أداء الزكاة فالاولى أن يؤديها سرا وان كان متهما بترك اداء الزكاة فالاولى أن يؤديها علانية وقيل ان المراد بالسر ما يخرج من الزكاة بنفسه والمراد بالعلانية ما يؤديه الى الامام وقيل المراد بالسر صدقة التطوع والمراد بالعلانية الزكاة الواجبة وحمله على العموم أولى (ويدرؤن بالحسنة السيئة) قال ابن عباس يدفعون بالعمل الصالح العمل السيئ وهو معنى قوله ان الحسنات يذهبن السيئات ويدل على صحة هذا التأويل ما جاء فى الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم قال واذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية وروى البغوى بسنده عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل أخرى فانفكت أخرى حتى خرج الى الارض وقال ابن كيسان يدفعون الذنب بالتوبة وقيل لا يكافؤن الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير وقال القتيبى معناه اذا سفه عليهم حلموا والسفه السيئة والحلم الحسنة وقال قتادة ردوا عليهم ردا معروفا وقال

(ويخشون ربهم) اى وعيده كله (ويخافون سوء الحساب) خصوصا فيحاسبون انفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا) مطلق فيما يصبر عليه من المصائب فى النفوس والاموال ومشاق التكاليف (ابتغاء وجه ربهم) لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل ولا ليعاب فى الجزع (وأقاموا الصلوة) داوموا على اقامتها (وأنفقوا مما رزقناهم) اى من الحلال وان كان الحرام رزقا عندنا (سرا وعلانية) يتناول النوافل لانها فى السر أفضل والفرائض لان المجاهرة بها أفضل نفيا للتهمة (ويدرؤن بالحسنة السيئة) ويدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم اواذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا واذا أذنبوا تابوا واذا هربوا أنابوا واذا رأوا منكرا أمروا بتغييره فهذه ثمانية اعمال تشير الى ثمانية أبواب الجنة

الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا قال عبد الله بن المبارك هذه ثمان خلال مشيرة الى ابواب الجنة الثمانية قلت انما هى تسع خلال فيحتمل انه عد خلتين بواحدة ولما ذكر الله عز وجل هذه الخلال من اعمال البر ذكر بعدها ما أعد للعاملين بها من الثواب فقال تعالى (أولئك) يعنى من اتى بهذه الاعمال (لهم عقبى الدار) يعنى الجنة والمعنى ان عاقبتهم دار الثواب (جنات عدن) بدل من عقبى الدار يعنى بساتين اقامة يقال عدن بالمكان اذا أقام به (يدخلونها) يعنى الدار التى تقدم وصفها (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) يعنى ومن صدق من آبائهم بما صدقوا به وان لم يعمل باعمالهم قاله ابن عباس وقال الزجاج ان الانسان لا ينتفع بغير أعماله الصالحة فعلى قول ابن عباس معنى صلح صدق وآمن ووحد وعلى قول الزجاج معناه اصلح فى عمله قال الواحدى والصحيح ما قاله ابن عباس لان الله تعالى جعل ثواب المطيع سروره بما يراه فى اهله حيث بشره بدخوله الجنة مع هؤلاء فدل على انهم يدخلونها كرامة للمطيع العامل الاتى بالاعمال الصالحة ولو كان دخولهم الجنة باعمالهم الصالحة لم يكن فى ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة فى الوعد به اذ كل من كان صالحا فى عمله فهو يدخل الجنة قال الامام فخر الدين الرازى قوله تعالى وأزواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها اوماتت عنه وروى انه لما كبرت سودة أراد النبى صلى الله عليه وسلم طلاقها فسألته أن لا يفعل ووهبت يومها لعائشة فامسكها رجاء أن تحشر فى جملة ازواجه فهو كالدليل على ما ذكرناه وقوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) يعنى من ابواب الجنة وقيل من ابواب القصور قال ابن عباس يريد به التحية من الله والتحف والهدايا (سلام عليكم) يعنى يقولون سلام عليكم فاضمر القول ههنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم) يعنى يقولون لهم سلمكم الله من الآفات التى كنتم تخافونها فى الدنيا وأدخلكم بما صبرتم فى دار الدنيا على الطاعات وترك المحرمات الجنة وقيل ان السلام قول والصبر فعل ولا يكون القول ثوابا للفعل فعلى هذا يكون قوله سلام عليكم دعاء من الملائكة لهم يعنى سلمكم الله بما صبرتم قال مقاتل ان الملائكة يدخلون عليهم فى مقدار كل يوم من ايام الدنيا ثلاث مرات معها الهدايا والتحف من الله تعالى يقولون سلام عليكم بما صبرتم وروى البغوى بسنده عن ابى امامة موقوفا عليه قال ان المؤمن ليكون متكئا على أريكته اذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم الى الباب فاذا بالملك يستأذن فيقول للذى يليه ملك يستأذن ويقول الآخر كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم الى المؤمن ائذنوا له ويقول الذى يليه ائذنوا له وكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف (فنعم عقبى الدار) يعنى فنعم العقبى عقبى الدار وقيل معناه فنعم عقبى الدار ما انتم فيه (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) لما ذكر الله احوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات والخيرات ذكر بعده احوال الاشقياء وما لهم من العقوبات فقال تعالى والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ونقض العهد ضد الوفاء به وهذا من صفة الكفار لانهم هم الذين نقضوا عهد الله يعنى خالفوا أمره ومعنى من بعد ميثاقه من بعد ما أوثقوه على انفسهم بالاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) يعنى ما بينهم وبين المؤمنين من الرحم والقرابة (ويفسدون فى الارض) يعنى بالكفر والمعاصى (أولئك) يعنى من هذه صفته (لهم اللعنة) يعنى الطرد عن رحمة الله يوم القيامة (ولهم سوء الدار) يعنى النار لان منقلب الناس فى العرف الى دورهم ومنازلهم فالمؤمنون لهم عقبى الدار وهى الجنة والكفار لهم سوء الدار وهى النار قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى يوسع على من يشاء

(أولئك لهم عقبى الدار) عاقبة الدنيا وهى الجنة لانها التى اراد ها الله ان تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها (جنات عدن) بدل من عقبى الدار (يدخلونها ومن صلح) اى آمن (من آبائهم وازواجهم وذرياتهم) وقرئ صلح والفتح افصح ومن فى محل الرفع بالعطف على الضمير فى يدخلونها وساغ ذلك وان لم يؤكد لان ضمير المفعول صار فاصلا وأجاز الزجاج ان يكون مفعولا معه و وصفهم بالصلاح ليعلم ان الانساب لا تنفع بنفسها والمراد ابو كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) فى قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات بالهدايا و بشارات الرضا (سلام عليكم) فى موضع الحال اذ المعنى قائلين سلام عليكم اومسلمين (بما صبرتم) متعلق بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم اى هذا الثواب بسبب صبركم عن الشهوات او على أمر الله او بسلام اى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم والاول أوجه (فنعم عقبى الدار) الجنات (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول (و يقطعون ما أمر الله به ان يوصل و يفسدون فى الارض) بالكفر والظلم (اولئك لهم اللعنة) الابعاد من الرحمة (ولهم سوء الدار) يحتمل ان يراد سوء عاقبة الدنيا لانه فى مقابلة عقبى الدار وان يراد بالدار جهنم و بسوئها اعذابها (الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر) اى و يضيق لمن يشاء عباده

عباده فيغنيه من فضله و يضيق على من يشاء من عباده فيفقره و يقتر عليه وهذا أمر اقتضته حكمة الله (وفرحوا بالحيوة الدنيا) يعنى مشركى مكة لما بسط الله عليهم الرزق أشروا و بطروا والفرح لذة تحصل فى القلب بنيل المشتهى وفيه دليل على ان الفرح بالدنيا والركون اليها حرام (وما الحيوة الدنيا فى الآخرة) يعنى بالنسبة الى الآخرة (الا متاع) اى قليل ذاهب قال الكلبى المتاع مثل السكرجة والقصعة والقدر ينتفع بها فى الدنيا ثم تذهب كذلك الحياة الدنيا لانها ذاهبة لا بقاء لها (و يقول الذين كفروا) يعنى من اهل مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) يعنى هلا أنزل على محمد آية ومعجزة مثل معجزة موسى وعيسى (قل) اى قل لهم يا محمد (ان الله يضل من يشاء) فلا ينفعه نزول الآيات و كثرة المعجزات ان لم يهده الله عز وجل وهو قوله (و يهدى اليه من أناب) يعنى و يرشد الى دينه والايمان به من اناب بقلبه ورجع اليه بكليته (الذين آمنوا) بدل من قوله من أناب (وتطمئن قلوبهم) يعنى وتسكن قلوبهم (بذكر الله) قال مقاتل بالقرآن لانه طمأنينة لقلوب المؤمنين والطمأنينة والسكون انما تكون بقوة اليقين والاضطراب انما يكون بالشك (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) يعنى بذكره تسكن قلوب المؤمنين و يستقر اليقين فيها وقال ابن عباس هذا فى الحلف وذلك ان المسلم اذا حلف بالله على شئ سكنت قلوب المؤمنين اليه فان قلت أليس قد قال الله تبارك وتعالى فى اول سورة الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل استشعار الخوف وحصول الاضطراب وهو ضد الطمأنينة فكيف وصفهم بالوجل والطمأنينة وهل يمكن الجمع بينهما فى حال واحد قلت انما يكون الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة انما تكون عند الوعد والثواب فالقلوب توجل اذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه وعقابه وتطمئن اذا ذكرت فضل الله ورحمته وكرمه واحسانه (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم) اختلف العلماء فى تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح لهم وقرة أعين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وفى رواية أخرى عنه ان هذه الكلمة عربية يقول الرجل للرجل طوبى لك اى اصبت خيرا وقال ابراهيم النخعى خير لهم وكرامة وقال الزجاج طوبى من الطيب وقيل تأويلها الحال المستطابة لهم وهو كل ما استطابه هؤلاء فى الجنة من بقاء بلا فناء وعز بلا ذل وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم قال الازهرى تقول طوبى لك وطوبا لك لحن لا تقوله العرب وهو قول أكثر النحويين وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية و روى عن ابى امامة وابى هريرة وابى الدرداء ان طوبى اسم شجرة فى الجنة تظل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هى شجرة فى جنة عدن أصلها فى دار النبى صلى الله عليه وسلم وفى كل دار وغرفة فى الجنة منها غصن لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منه الا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من أصلها عينان السكافور والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله بانواع التسبيح و روى عن ابى سعيد الخدرى ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طوبى فقال هى شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ثياب اهل الجنة تخرج من أكمامها وعن معاوية بن قرة عن ابيه يرفعه قال طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلى والحلل وان أغصانها لترى من سور الجنة هكذا ذكر البغوى هذين الحديثين بغير سند و روى بسنده موقوفا عن ابى هريرة قال ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة اقرؤا ان شئتم وظل ممدود فبلغ ذلك كعب الاحبار فقال صدق والذى أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد لو ان رجلا ركب فرسا اوحقة أو جذعة ثم دار بارض تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرما ان الله غرسها بيده ونفخ فيها من روحه وان أغصانها لمن وراء سور الجنة وما فى الجنة نهر الا وهو يخرج من اصل تلك الشجرة قال البغوى و بهذا الاسناد عن عبد الله ابن المبارك عن الاشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن ابى هريرة قال ان فى الجنة شجرة يقال لها

لافرح سرور بفضل الله وانعامه عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يؤجروا بنعيم الآخرة (وما الحيوة الدنيا فى الآخرة الا متاع) وخفى عليهم ان نعيم الدنيا فى جنب نعيم الآخرة ليس الا شيأ نزرا يتمتع به كمجالة الراكب وهو ما يتجهله من تميرات اوشربة سويق (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) اى الآية المقترحة (قل ان الله يضل من يشاء) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات (ويهدى اليه من أناب) و يرشد الى دينه من رجع اليه بقلبه (الذين آمنوا) هم الذين او محله النصب بدل من من (وتطمئن قلوبهم) تسكن (بذكر الله) على الدوام او بالقرآن او بوعده (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدا (طوبى لهم) خبره وهو مصدر من طاب كبشرى ومعنى طوبى لك أصبت خيرا وطيبا ومحلها النصب او الرفع كقولك طيبا لك وطيب لك وسلاما لك وسلام لك واللام فى لهم للبيان مثلها فى سقيا لك والواو فى طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن والقراءة فى

طوبى يقول الله لها تفتقى لعبدى عما يشاء فتفتق له عن فرس مسروجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتفتق له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وعن الثياب (ق) عن سهل بن سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها (ق) وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام ما يقطعها (ق) وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة زاد البخارى فى روايته واقرؤا ان شئتم وظل ممدود وقوله تعالى (وحسن مآب) يعنى ولهم حسن منقلب ومرجع ينقلبون ويرجعون اليه فى الآخرة وهى الجنة * قوله عز وجل (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم) يعنى كما ارسلناك يا محمد الى هذه الامة كذلك ارسلنا أنبياء قبلك الى أمم قد خلت ومضت (لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك) يعنى لتقرأ على أمتك الذى اوحينا اليك من القرآن وشرائع الدين (وهم يكفرون بالرحمن) قال قتادة ومقاتل وابن جريج هذه الآية مدنية نزلت فى صلح الحديبية وذلك ان سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن ابى طالب اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا لا نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب كما نكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن يعنى انهم ينكرونه ويجحدونه والمعروف ان الآية مكية وسبب نزولها ان أبا جهل سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الحجر يدعو ويقول فى دعائه يا الله يا رحمن فرجع أبو جهل الى المشركين وقال ان محمدا يدعو الهين يدعو الله ويدعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس انها نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فقال الله تعالى (قل) اى قل يا محمد ان الرحمن الذى أنكرتم معرفته (هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت) يعنى عليه اعتمدت فى أمورى كلها (واليه متاب) يعنى واليه توبتى ورجوعى قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) الآية نزلت فى نفر من مشركى قريش منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية جلسوا خلف الكعبة وارسلوا خلف النبى صلى الله عليه وسلم فاتاهم وقيل انه مر بهم وهم جلوس فدعاهم الى الله عز وجل فقال له عبد الله بن أبى أمية ان سرك ان نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فادفعها عنا حتى تتفتح فانها ارض ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها انهارا وعيونا لنغرس الاشجار ونزرع ونتخذ البساتين فلست كما زعمت باهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسير معه او سخر لنا الريح لنركبها الى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع فى يومنا كما سخرت لسليمان كما زعمت فلست باهون على ربك من سليمان او أحى لنا جدك قصيا او من شئت من موتانا لنسأله عن أمرك أحق او باطل فان عيسى كان يحيى الموتى ولست باهون على الله من عيسى فانزل الله هذه الآية ولو ان قرآنا سيرت به الجبال فاذهبت عن وجه الارض (أو قطعت به الارض) يعنى شققت فجعلت أنهارا وعيونا (أو كلم به الموتى) فاحياها واختلفوا فى جواب لو فقال قوم جواب لو محذوف وانما حذف اكتفاء بمعرفة السامع مراده وتقديره ولو ان قرآنا فعل به كذا وكذا لكان هذا القرآن فهو كقول الشاعر

فاقسم لو شئ أتانا رسوله * سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أراد لو شئ أتانا رسوله سواك لرددناه وهذا معنى قول قتادة فانه قال معناه لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقال آخرون جواب لو تقدم تقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا به لما سبق فى علمنا فيهم كما قال ولو

(وحسن مآب) مرجع بالرفع والنصب تدلك على محليها (كذلك أرسلناك) مثل ذلك الارسال ارسلناك ارسالا له شأن وفضل على سائر الارسالات ثم فسر كيف أرسله فقال (فى أمة قد خلت من قبلها أمم) اى ارسلناك فى أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهى آخر الامم وأنت خاتم الانبياء (لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك) لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذى أوحينا اليك (وهم يكفرون) وحال هؤلاء انهم يكفرون (بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شئ (قل هو ربى) ورب كل شئ (لا اله الا هو) اى هو ربى الواحد المتعالى عن الشركاء (عليه توكلت) فى نصرتى عليكم (واليه متاب) مرجعى فيثيبنى على مصابرتكم متابى وعقابى ومآبى فى الحالين يعقوب (ولو ان قرآنا سيرت به الجبال) عن مقارها (أو قطعت به الارض) حتى تتصدع وتتزايل قطعا (أو كلم به الموتى) فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن لكونه غاية فى التذكير ونهاية فى الانذار والتخويف فجواب لو محذوف او معناه ولو أن قرآنا وقع به تسيير الجبال وتقطيع الارض وتكليم الموتى وتنبيئهم لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة الآية

(بل لله الامر جميعا) بل لله القدرة على كل شئ وهو قادر على الآيات التى اقترحوها (أفلم ييأس الذين آمنوا) أفلم يعلم وهى لغة قوم من النخع وقيل انما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه لان اليائس عن الشئ عالم بانه لا يكون كما استعمل النسيان فى معنى الترك لتضمن ذلك دليله قراءة على رضى الله عنه أفلم يتبين وقيل انما كتبه الكاتب وهو ناعس ٦٩ مستوى السنات وهذه والله قرينة

أنا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا ثم قال تعالى (بل لله الامر جميعا) يعنى فى هذه الاشياء وفى غيرها ان شاء فعل وان شاء لم يفعل (أفلم ييأس الذين آمنوا) قال أكثر المفسرين معناه أفلم يعلم قال الكلبى هذه لغة النخع وقيل هى لغة هوازن واختلف أهل اللغة فى هذه اللفظة فقال الليث وأبو عبيد ألم ييأس الم يعلم واستدلوا لهذه اللغة بقول الشاعر

أقول لهم بالشعب اذ ييأسرونني * ألم ييأسوا انى ابن فارس زهدم

يعنى ألم يعلموا واستدلوا عليه أيضا بقول شاعر آخر

ألم ييأس الاقوام انى انا ابنه * وان كنت عن ارض العشيرة نائيا

يعنى ألم يعلم الاقوام قال قطرب يئس بمعنى علم لغة للعرب قالوا ووجه هذه اللغة انه انما وقع اليأس فى مكان العلم لان علمك بالشئ ويقينك به يئسك من غيره وقيل لم يرد ان اليأس فى موضع كلام العرب للعلم وانما قصد ان يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضى ان يحصل العلم بانتفائه فاذا معنى يأسهم يقتضى حصول العلم وقال الكسائى ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت قال وهذا الحرف فى القرآن من اليأس المعروف لا من العلم وذلك ان المشركين لما طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات اشراب المسلمون لذلك وأرادوا ان يظهر لهم آية ليجتمعوا على الايمان فقال الله تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء ويعلموا علما يقينا (ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) يعنى من غير ظهور آية وقال الزجاج القول عندى ان معناه أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء لان الله لو شاء لهدى الناس جميعا وحاصله ان فى معنى الآية قولين أحدهما ان يئس بمعنى علم والقول الثانى انه من اليأس المعروف وتقدير القولين ما تقدم وتمسك أهل السنة بقوله ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على ان الله لم يشأ هداية جميع الخلائق (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) يعنى من الكفر والاعمال الخبيثة (قارعة) اى نازلة وداهية تقرعهم بانواع البلايا أحيانا مرة بالجدب ومرة بالسلب ومرة بالقتل والاسر وقال ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم (او تحل) يعنى السرايا او البلية (قريبا من دارهم) وقيل معناه او تحل انت يا محمد قريبا من دارهم (حتى يأتى وعد الله) يعنى النصر والفتح وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لان الله يجمعهم فيه فيجازيهم باعمالهم (ان الله لا يخلف الميعاد) والغرض منه تشجيع قلب النبى صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن عنه لعلمه بان الله لا يخلف الميعاد * قوله عز وجل (ولقد استهزئ برسل من قبلك) وذلك ان كفار مكة انما سألوا هذه الاشياء على سبيل الاستهزاء فانزل الله هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى انهم انما طلبوا منك هذه الآيات على سبيل الاستهزاء وكذلك قد استهزئ برسل من قبلك (فاملیت للذين كفروا) يعنى فامهلتهم واطلت لهم المدة (ثم أخذتهم) يعنى بالعذاب بعد الامهال فعذبتهم فى الدنيا بالقحط والقتل والاسر وفى الآخرة بالنار (فكيف كان عقاب) يعنى فكيف كان عقابى لهم (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) يعنى افمن هو حافظها ورازقها وعالم بها وبما عملت من خير او شر ويجازيها بما كسبت فيثيبها ان احسنت ويعاقبها ان أساءت وجوابه محذوف وتقديره كمن ليس بقائم بل هو عاجز عن نفسه ومن كان عاجزا عن نفسه فهو عن غيره اعجز وهى الاصنام التى لا تضر ولا تنفع (وجعلوا لله شركاء) يعنى

ما فيها مرية (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) من كفرهم وسوء اعمالهم (قارعة) داهية تقرعهم بما يحل الله بهم فى كل وقت من صنوف البلايا والمصائب فى نفوسهم وأولادهم وأموالهم (او تحل قريبا من دارهم) او تحل القارعة قريبا منهم فيفزعون ويتطاير عليهم شررها ويتعدى اليهم شرورها (حتى يأتى وعد الله) اى موتهم او القيامة او ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله من العداوة والتكذيب قارعة لان جيش رسول الله يغير حول مكة ويختطف منهم او تحل انت يا محمد قريبا من دارهم بجيشك يوم الحديبية حتى يأتى وعد الله اى فتح مكة (ان الله لا يخلف الميعاد) اى لا خلف فى موعده (ولقد استهزئ برسل من قبلك فاملیت للذين كفروا) الاملاء الامهال وان يترك ملاوة من الزمان

فى خفض وأمن (ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله استهزاء به وتسلية له (أفمن هو قائم) احتجاج عليهم فى اشراكهم بالله يعنى افالله الذى هو رقيب (على كل نفس) صالحة او طالحة (بما كسبت) يعلم خيره وشره ويعد لكل جزاءه كمن ليس كذلك ثم استأنف فقال (وجعلوا لله شركاء) اى الاصنام

(قل سموهم) اى سموهم له من هم وبينوه باسمائهم ثم قال (أم تنبئونه بما لا يعلم فى الارض) على ام المنقطعة اى بل أتنبئونه بشركاء لا يعلمهم فى الارض وهو العالم بما فى السموات والارض فاذا لم يعلمهم علم انهم ليسوا بشئ والمراد نفى أن يكون له شركاء (أم بظاهر من القول) بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول ٧٠ من غير أن يكون لذلك حقيقة كقوله ذلك قولهم بافواههم ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها (بل زين للذين كفروا مكرهم) كيدهم للاسلام بشركهم (وصدوا عن السبيل) عن سبيل الله بضم الصاد كوفى وبفتحها غيرهم ومعناه وصدوا المسلمين عن سبيل الله (ومن يضلل الله فما له من هاد) من أحد يقدر على هدايته (لهم عذاب فى الحيوة الدنيا) بالقتل والاسر وأنواع المحن (ولعذاب الآخرة أشق) أشد لدوامه (وما لهم من الله من واق) من حافظ من عذابه (مثل الجنة التى وعد المتقون) صفتها التى هى فى غرابة المثل وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف اى فيما يتلى عليكم مثل الجنة أو الخبر (تجرى من تحتها الانهار) كما تقول صفة زيد أسمر (أكلها دائم) ثمرها دائم الوجود لا ينقطع (وظلها) دائم لا ينسخ كما ينسخ فى الدنيا بالشمس (تلك عقبى الذين اتقوا) اى الجنة الموصوفة عقبى تقواهم يعنى منتهى أمرهم (وعقبى الكافرين النار والذين آتيناهم الكتاب) يريد من أسلم من اليهود كابن سلام ونحوه ومن النصارى بارض الحبشة (يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب) اى ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة كـكعب بن الاشرف وأصحابه والسيد والعاقب واشياعهما (من ينكر بعضه) لانهم كانوا لا ينكرون الاقاصيص وبعض الاحكام والمعانى مما هو ثابت فى كتبهم وكانوا ينكرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام

وهو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام التى جعلوها لله شركاء (قل سموهم) يعنى له وقيل صفوهم بما يستحقون ثم انظروا هل هى أهل لان تعبد (أم تنبئونه) يعنى ام تخبرون الله (بما لا يعلم فى الارض) يعنى انه لا يعلم ان لنفسه شريكا من خلقه وكيف يكون المخلوق شريكا للخالق وهو العالم بما فى السموات والارض ولو كان لعلمه والمراد من ذلك نفى العلم بان يكون له شريك (أم بظاهر من القول) يعنى انهم يتعلقون بظاهر من القول مسموع وهو فى الحقيقة باطل لا أصل له وقيل معناه بل بظن من القول لا يعلمون حقيقته (بل زين للذين كفروا مكرهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان الكفر وانما فسر المكر بالكفر لان مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كفر منهم والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى لانه هو الفاعل المختار على الاطلاق لا يقدر أحد ان يتصرف فى الوجود الا باذنه فتزيين الشيطان القاء الوسوسة فقط ولا يقدر على اضلال احد وهدايته الا الله تعالى ويدل على هذا سياق الآية وهو قوله ومن يضلل الله فما له من هاد وقوله (وصدوا عن السبيل) قرئ بضم الصاد ومعناه صرفوا عن سبيل الدين والرشد والهداية ومنعوا من ذلك والصاد المانع لهم هو الله تعالى وقرئ وصدوا بفتح الصاد ومعناه انهم صدوا عن سبيل الله غيرهم اى عن الايمان (ومن يضلل الله فما له من هاد) الوقف عليه بسكون الدال وحذف الياء فى قراءة أكثر القراء (لهم عذاب فى الحياة الدنيا) يعنى بالقتل والاسر ونحو ذلك مما فيه غيظهم (ولعذاب الآخرة أشق) يعنى أشد وأغلظ لان المشقة غلظ الامر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذى هو الصدع (وما لهم من الله) يعنى من عذاب الله (من واق) يعنى من مانع يمنعهم من عذابه قوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون) اى صفة الجنة التى وعد المتقون (تجرى من تحتها الانهار أكلها دائم) لا ينقطع أبدا (وظلها) يعنى انه دائم أبدا لا ينقطع وليس فى الجنة شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول وفى الآية رد على جهم وأصحابه فانهم يقولون ان نعيم الجنة يفنى وينقطع وفى الآية دليل على ان حركات أهل الجنة لا تنتهى الى سكون دائم كما يقوله أبو الهذيل واستدل القاضى عبد الجبار المعتزلى بهذه الآية على ان الجنة لم تخلق بعد قال ووجه الدليل انها لو كانت مخلوقة لوجب ان تفنى وينقطع أكلها لقوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه فوجب ان لا تكون الجنة مخلوقة لقوله أكلها دائم يعنى لا ينقطع قال ولا ينكر ان تكون فى السموات جنات كثيرة تتمتع بها الملائكة ومن يعد حيا من الانبياء والشهداء وغيرهم على ما روى الا ان الذى نذهب اليه ان جنة الخلد لم تخلق بعد والجواب عن هذا ان حاصل دليلهم مركب من آيتين احداهما قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه والاخرى قوله أكلها دائم وظلها فاذا دخلنا التخصيص على هذين العمومين سقط دليلهم فنخص هذين الدليلين بالدلائل الدالة على ان الجنة مخلوقة منها قوله تعالى وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين وقوله تعالى (تلك عقبى الذين اتقوا) يعنى ان عاقبة اهل التقوى هى الجنة (وعقبى الكافرين النار) يعنى فى الآخرة قوله عز وجل (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك) فى المراد بالكتاب هنا قولان احدهما انه القرآن والذى اوتوه المسلمون وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انهم يفرحون بما يتجدد من الاحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت بتجدد نزول القرآن (ومن الاحزاب) يعنى الجماعات الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار واليهود والنصارى (من ينكر بعضه) وهذا قول الحسن وقتادة فان

وغير ذلك مما حرفوه وبدلوه من الشرائع (قل انما امرت ان اعبد الله ولا أشرك به) هو جواب للمنكرين اى قل انما امرت فيما انزل الى بان اعبد الله ولا أشرك به فانكاركم له انكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به (اليه ادعو) خصوصا لا أدعو الى غيره (واليه) لا الى غيره (مآب) مرجعى وأنتم تقولون مثل ذلك فلا معنى لانكاركم (وكذلك انزلناه) ومثل ذلك الانزال انزلناه مأمورا فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة اليه والى دينه والانذار بدار الجزاء (حكما عربيا) حكمة عربية مترجمة بلسان العرب وانتصابه على الحال كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أمور يشاركهم فيها فقيل (ولئن اتبعت اهواءهم بعد ما جاءك من العلم) اى بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة (مالك من الله من ولى ولا واق) اى لا ينصرك ناصر ولا يقيك منه واق وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات فى الدين وان لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة والافكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة الثبات بمكان

فان قلت ان الاحزاب من المشركين وغيرهم من اهل الكتاب ينكرون القرآن كله فكيف قال ومن الاحزاب من ينكر بعضه قلت ان الاحزاب لا ينكرون القرآن بجملته لانه قد ورد فيه آيات دالات على توحيد الله واثبات قدرته وعلمه وحكمته وهم لا ينكرون ذلك ابدا والقول الثانى ان المراد بالكتاب التوراة والانجيل والمراد باهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ومن اسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا اربعون من نجران وثلاثون من الحبشة وعشرة ممن سواهم فرحوا بالقرآن لكونهم آمنوا به وصدقوه ومن الاحزاب يعنى بقية اهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين من ينكر بعضه وقيل كان ذكر الرحمن قليلا فى القرآن فى الابتداء فلما اسلم عبد الله بن سلام ومن معه من اهل الكتاب من اليهود والنصارى ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة فلما كرر الله تعالى ذكر لفظة الرحمن فى القرآن فرحوا بذلك فانزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب يعنى مشركى مكة من ينكر بعضه وذلك لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فانزل الله وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى وانما قال ومن الاحزاب من ينكر بعضه لانهم كانوا لا ينكرون الله وينكرون الرحمن (قل) اى قل يا محمد (انما أمرت ان اعبد الله) يعنى وحده (ولا أشرك به) شيأ (اليه ادعو) اى الى الله والى الايمان به ادعو الناس (واليه مآب) يعنى مرجعى يوم القيامة (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) اى كما انزلنا الكتب على الانبياء بلغاتهم ولسانهم أنزلنا اليك يا محمد هذا الكتاب وهو القرآن عربيا بلسانك ولسان قومك وانما سمى القرآن حكما لان فيه جميع التكاليف والاحكام والحلال والحرام والنقض والابرام فلما كان القرآن سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة وقيل ان الله لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن والعمل بمقتضاه سماه حكما لذلك المعنى (ولئن اتبعت اهواءهم) قال جهور المفسرين ان المشركين دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملة آبائهم فتوعده الله على اتباع أهوائهم فى ذلك وقال ابن السائب المراد به متابعة آبائهم فى الصلاة لبيت المقدس (بعد ما جاءك من العلم) يعنى بانك على الحق وان قبلتك الكعبة هى الحق وقيل ظاهر الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره وقيل هو حث للنبى صلى الله عليه وسلم على تبليغ الرسالة والقيام بما امر به ويتضمن ذلك تحذير غيره من المكلفين لان من هو ارفع منزلة واعظم قدرا وأعلى مرتبة اذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الاولى (مالك من الله من ولى ولا واق) يعنى من ناصر ولا حافظ قوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) روى ان اليهود وقيل المشركين قالوا ان هذا الرجل يعنون النبى صلى الله عليه وسلم ليس له همة الا فى النساء فعابوا عليه ذلك وقالوا لو كان كما يزعم انه رسول الله لكان مشتغلا بالزهد وترك الدنيا فأجاب الله عز وجل عن هذه الشبهة وعما عابوه به بقوله عز وجل ولقد ارسلنا رسلا من قبلك يا محمد (وجعلنا لهم أزواجا وذرية) فانه قد كان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلثمائة امرأة حرة وسبعمائة امرأة سرية فلم يقدح ذلك فى نبوته وكان لابيه داود عليه الصلاة والسلام مائة امرأة فلم يقدح ذلك أيضا فى نبوته فكيف يعيبون عليك ذلك ويجعلونه قادحا فى نبوتك والمعنى ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يأكلون ويشربون وينكحون وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون (وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله) هذا جواب لعبد الله بن أبى امية وغيره من المشركين الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات واقترحوا عليه ان يريهم المعجزات وتقرير هذا الجواب ان المعجزة الواحدة كافية فى اثبات النبوة وقد أتاهم رسول الله صلى

وكانوا يعيبونه بالزواج والولاد ويقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ فنزل (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) نساء وأولادا (وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله) اى ليس فى وسعه اتيان الآيات على ما يقترحه قومه وانما ذلك الى الله

الله عليه وسلم بمعجزات كثيرة يعجز عن مثلها البشر فسألهم أن يقترحوا عليه شيأ واتيان الرسول بالمعجزات ليس اليه بل هو مفوض الى مشيئة الله عز وجل فان شاء أظهرها وان شاء لم يظهرها (لكل اجل كتاب) وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم فلما استبطؤا ذلك وقد كانوا يستعجلون نزوله أخبر الله عز وجل ان لكل قضاء قضاه كتابا قد كتبه فيه ووقتا يقع فيه لا يتقدم ولا يتأخر والمعنى ان لكل اجل أجله الله كتابا قد أثبته فيه وقيل فى الآية تقديم وتأخير تقديره لكل كتاب اجل ومدة والمعنى ان الكتب المنزلة لكل كتاب منها وقت ينزل فيه (يمحو الله ما يشاء ويثبت) وذلك انهم لما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ان محمدا يامر اصحابه بامر اليوم ثم ينهاهم بخلافه غدا وما سبب ذلك الا انه يقوله من تلقاء نفسه أجاب الله عن هذا الاعتراض بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت قال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن حذيفة بن أسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يارب أذكر ام انثى فيقضى ربك ما يشاء فيكتب الملك ثم يقول يارب أجله فيقول ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك يارب رزقه فيقول ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك الصحيفة فلا يزيد على امر ولا ينقص اخرجه مسلم (ق) عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق احدكم يجمع فى بطن امه نطفة اربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا باربع كلمات يكتب رزقه واجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذى لا اله غيره ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها فان قلت هذا الحديث والذى قبله صريح بان الآجال والارزاق مقدرة وكذا السعادة والشقاوة لا تتغير عما قدره الله وعلمه فى الازل فيستحيل زيادتها ونقصانها وكذلك يستحيل أن ينقلب السعيد شقيا او الشقى سعيدا وقد صح فى فضل صلة الرحم ان صلة الرحم تزيد فى العمر فكيف الجمع بين هذه الاحاديث وبين قوله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت قلت قد تقرر بالدلائل القطعية ان الله عالم بالآجال والارزاق وغيرها وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه فاذا علم الله ان زيدا يموت فى وقت معين استحال أن يموت قبله او بعده وهو قوله تعالى فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فدل ذلك على ان الآجال لا تزيد ولا تنقص وأجاب العلماء عما ورد فى الحديث فى فضل صلة الرحم من انها تزيد فى العمر باجوبة الصحيح منها ان هذه الزيادة تكون بالبركة فى عمره بالتوفيق للطاعات وعمارة اوقاته بما ينفعه فى الآخرة وصيانتها عن الضياع وغير ذلك والجواب الثانى منها انها بالنسبة الى ما يظهر للملائكة فى اللوح المحفوظ ان عمر زيد مثلا ستون سنة الا أن يصل رحمه فان وصلها زيد له اربعون سنة وقد علم الله فى الازل ما سيقع من ذلك وهو معنى قوله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت اى بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصور الزيادة وأما انقلاب الشقى سعيدا والسعيد شقيا فيتصور فى الظاهر أيضا لان الكافر قد يسلم فينقلب من الشقاوة الى السعادة وكذا العاصى ونحوه وقد يتوب فينقلب من الشقاوة الى السعادة وقد يرتد المسلم والعياذ بالله تعالى فيموت على ردته فينقلب من السعادة الى الشقاوة والاصل فى هذا الاعتبار بالخاتمة عند الموت وما يختم الله به له وهو المراد من علم الله الازلى الذى لا يتغير ولا يتبدل والله أعلم واصل المحو ذهاب اثر

(لكل اجل كتاب) لكل وقت حكم يكتب على العباد اى يفرض عليهم على ما تقتضيه حكمته (يمحو الله ما يشاء) ينسخ ما يشاء نسخه (ويثبت) بدله ما يشاء او يتركه غير منسوخ او يمحو من ديوان الحفظة ما يشاء ويثبت غيره او يمحو كفر التائبين ويثبت ايمانهم او يميت من حان اجله ويحييه ويثبت مدنى وشامى وحمزة وعلى

الكتابة وضده الاثبات فمن العلماء من حمل الآية على ظاهرها فجعلها عامة فى كل شئ يقتضيه ظاهر اللفظ فيزيد الله ما يشاء فى الرزق والاجل وكذا القول فى السعادة والشقاوة والايمان بالله والكفر ونقل نحو هذا عن عمر وابن مسعود فانهما قالا يمحو السعادة والشقاوة ويمحو الرزق والاجل ويثبت ما يشاء وروى عن عمر انه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول اللهم ان كنت كتبتنى فى اهل السعادة فاثبتنى فيها وان كنت كتبتنى من اهل الشقاوة فامحنى منها واثبتنى فى اهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب وروى مثله عن ابن مسعود وقد ورد فى بعض الآثار ان الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة ايام فيصل رحمه فيمد الى ثلاثين سنة هكذا ذكره البغوى بغير سند وروى بسنده عن ابى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل الله تبارك وتعالى فى ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر فى الساعة الاولى منهن فى الكتاب الذى لا ينظر فيه احد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ومن العلماء من حمل معنى الآية على الخصوص فى بعض الاشياء دون بعض فقال المراد بالمحو والاثبات نسخ الحكم المتقدم واثبات حكم آخر عوضا عن الحكم المتقدم وقيل ان الحفظة يكتبون جميع اعمال بنى آدم واقوالهم فيمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة مما ليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قول القائل أكلت شربت دخلت خرجت ونحو ذلك من الكلام وهو صادق فيه ويثبت ما فيه ثواب وعقاب وهذا قول الضحاك وقال الكلبى يكتب القول كله حتى اذا كان يوم الخميس طرح منه شئ ليس فيه ثواب ولا عقاب وقال ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو الذى يمحو والذى يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت وقال الحسن يمحو الله ما يشاء يعنى من جاء اجله فيذهبه ويثبت من لم يجئ اجله وقال سعيد بن جبير يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت من يشاء منها فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات وقال السدى يمحو الله ما يشاء يعنى القمر ويثبت الشمس وقال الربيع هذا فى الارواح يقبضها الله عند النوم فمن اراد موته محاه وامسكه ومن اراد بقاءه أثبته ورده الى صاحبه وقيل ان الله يثبت فى أول كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل هو فى المحن والمصائب فهى مثبتة فى الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة وقيل ان الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء لا اعتراض لاحد عليه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فان قلت مذهب اهل السنة ان المقادير سابقة وقد جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة فكيف يستقيم مع هذا المحو والاثبات قلت المحو والاثبات مما جف به القلم وسبق به القدر فلا يمحو شيأ ولا يثبت شيأ الا ما سبق به علمه فى الازل وعليه يترتب القضاء والقدر * (مسئلة) * استدلت الرافضة على مذهبهم فى البداء بهذه الآية قالوا ان البداء جائز على الله وهو ان يعتقد شيأ ثم يظهر له خلاف ما اعتقده وتمسكوا بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت والجواب عن هذه المسئلة ان هذا مذهب باطل ظاهر الفساد لان علم الله قديم أزلى وهو من لوازم ذاته المخصوصة وما كان كذلك كان دخول التغيير والتبديل فيه محالا كذا ذكره الامام فخر الدين الرازى فى تفسير هذه الآية وقوله تعالى (وعنده أم الكتاب) يعنى اصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذى لا يغير ولا يبدل وسمى اللوح المحفوظ أم الكتاب لان جميع الاشياء مثبتة فيه ومنه تنسخ الكتب المنزلة وقيل ان العلوم كلها تنسب اليه وتتولد منه قال ابن عباس هما كتابان كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت ما يشاء وأم الكتاب الذى لا يغير شئ منها وروى عطية عن ابن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيره خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة تله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ما هو خالق وما

(وعنده أم الكتاب) اى اصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ لان كل كائن مكتوب فيه

خلقه وماهم عاملون (وامانرينك) يعنى يامحمد (بعض الذى نعدهم) يعنى من العذاب (أونتوفينك) يعنى قبل ان نريك ذلك (فانما عليك البلاغ) يعنى ليس عليك الا تبليغ الرسالة اليهم والبلاغ اسم اقيم مقام التبليغ (وعلينا الحساب) يعنى وعلينا ان نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم باعمالهم * قوله عزوجل (أولم يروا أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها) يعنى اولم ير كفار مكة الذين سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم الآيات أنا نأتى الارض يعنى ارض الشرك ننقصها من اطرافها قال أكثر المفسرين المراد منه فتح دار الشرك فان مازاد فى دار الاسلام فقد نقص فى دار الشرك والمعنى اولم يروا أنا نأتى الارض فنفتحها لمحمد صلى الله عليه وسلم ارضا بعد ارض حوالى اراضيهم أفلا يعتبرون فيتعظون وهذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين وذلك ان المسلمين اذا استولوا على بلاد الكفار قهرا وتخريبا كان ذلك نقصانا فى ديارهم وزيادة فى دار المسلمين وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على ان الله تعالى ينصر عبده ويعز جنده ويظهر دينه وينجز له ماوعده وقيل هو خراب الارض والمعنى اولم يروا أنا نأتى الارض فنخربها ونهلك اهلها أفلا يخافون ان نفعل بهم مثل ذلك وقال مجاهد هو خراب الارض وقبض اهلها وعن عكرمة والشعبى نحوه وهذا القول قريب من الاول وقال عطاء وجماعة من المفسرين نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس وفى رواية من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا قال الحسن قال عبد الله بن مسعود موت العالم ثلمة فى الاسلام لا يسدها شئ ما اختلف الليل والنهار وقال عبد الله أيضا عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب اهله وقال سليمان لا يزال الناس بخير ما بقى الاول حتى يتعلم الآخر فاذا هلك الاول ولم يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد بن جبير ما علامة هلاك الناس قال هلاك العلماء فعلى هذا القول فالمراد بالاطراف العلماء والاشراف من الناس حكى الجوهرى عن ثعلب قال الاطراف الاشراف واستدل الواحدى لهذه اللغة بقول الفرزدق

واسأل بنا و بكم اذا وردت منى * اطراف كل قبيلة من يثبع

قال يريد أشراف كل قبيلة قال الواحدى والتفسير على القول الاول أولى لان هذا وان صح فلا يليق بهذا الموضع قال الامام فخر الدين الرازى ويمكن أن يقال ايضا ان هذا الوجه لا يليق بهذا الموضع وتقديره أن يقال أولم يروا أن كل ما يحدث فى الدنيا من الاختلاف خراب بعد عمارة وموت بعد حياة وذل بعد عز ونقص بعد كمال واذا كانت هذه التغييرات مشاهدة محسوسة فما الذى يؤمنهم أن يقلب الله الامر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعدما كانوا عزيزين ومقهورين بعد أن كانوا قاهرين وعلى هذا الوجه ايضا يجوز ايصال الكلام بما قبله وقوله تعالى (والله يحكم لا معقب لحكمه) يعنى لا راد لحكمه ولا ناقض لقضائه والمعقب هو الذى يعقب غيره بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاءنى زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة احد غيره بتغيير ولا نقض (وهو سريع الحساب) قال ابن عباس يريد سريع الانتقام ممن حاسبه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب اليهم وقد تقدم بيان الكلام فى معنى سريع الحساب قبل هذا (وقد مكر الذين من قبلهم) يعنى من قبل مشركى مكة من الامم الماضية الذين مكروا بانبيائهم والمكر ايصال المكروه الى الانسان من حيث لا يشعر مثل ما مكر نمرود بابراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى (فلله المكر جميعا) يعنى عند الله جزاء مكرهم وقال الواحدى يعنى

العذاب عليهم اوتوفينك قبل ذلك (فانما عليك البلاغ) فما يجب عليك الا تبليغ الرسالة فحسب (وعلينا الحساب) وعلينا حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك فلا يهمنك اعراضهم ولا تستعجل بعذابهم (اولم يروا أنا نأتى الارض) ارض الكفرة (ننقصها من أطرافها) بما نفتح على المسلمين من بلادهم فننقص دار الحرب ونزيد فى دار الاسلام وذلك من آيات النصرة والغلبة والمعنى عليك البلاغ الذى حملته ولا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ماوعدناك من النصرة والظفر (والله يحكم لا معقب لحكمه) لا راد لحكمه والمعقب الذى يكر على الشئ فيبطله وحقيقته الذى يعقبه اى يقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى انه حكم للاسلام بالغلبة والاقبال وعلى الكفر بالادبار والانتكاس ومحل لا معقب لحكمه النصب على الحال كانه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاءنى زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة

له تريد حاسرا (وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا (وقد مكر الذين من قبلهم) اى كفار الامم الخالية بانبيائهم والمكر ارادة المكروه فى خفية ثم جعل مكرهم كلا مكر بالاضافة الى مكره فقال (فلله المكر جميعا) ثم فسر ذلك بقوله جميع

جميع مكر الماكرين له ومنه اى هو من خلقه وارادته فالمكر جميعا مخلوق له بيده الخير والشر واليه النفع والضر والمعنى ان المكر لا يضر الا باذنه وارادته وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم كانه قيل قد فعل من كان قبلهم من الكفار مثل فعلهم وصنعوا مثل صنيعهم فلم يضروا الا من اراد الله ضره واذا كان الامر كذلك وجب ان لا يكون الخوف الا من الله لا من احد من المخلوقين (يعلم ما تكسب كل نفس) يعنى ان جميع اكتساب العباد وتأثيراتها معلومة لله وهو خالقها وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فكل ما علم وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله ولا يحصل ضرر الا باذنه وارادته وفيه وعيد للكفار الماكرين (وسيعلم الكافر) على التوحيد وقرئ وسيعلم الكفار على الجمع قال ابن عباس يعنى أبا جهل وقيل اراد المستهزئين وهم خمسة نفر من كفار مكة (لمن عقبى الدار) والمعنى انهم وان كانوا جاهلا بالعواقب فسيعلمون ان العاقبة الحميدة للمؤمنين ولهم العاقبة المذمومة فى الآخرة حين يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) لما أنكر الكفار كون محمد رسولا من عند الله أمره الله بقوله (قل) اى قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين انكروا نبوتك (كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) المراد بشهادة الله على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما أظهر على يديه من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات الدالة على صدقه وكونه نبيا مرسلا من عند الله (ومن عنده علم الكتاب) يعنى ومن عنده علم الكتاب ايضا يشهد على نبوتك يا محمد وصحتها واختلفوا فى الذى عنده علم الكتاب من هو فروى العوفى عن ابن عباس انهم علماء اليهود والنصارى والمعنى ان كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالانجيل علم ان محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيهما شهد بذلك من شهد به وانكره من أنكره منهم وقيل انهم مؤمنو أهل الكتاب يشهدون أيضا على نبوته قال قتادة هو عبد الله بن سلام وأنكر الشعبى هذا وقال هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة المنورة وقال يونس لسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب أهو عبد الله بن سلام فقال كيف يكون عبد الله ابن سلام وهذه السورة مكية وقال الحسن ومجاهد ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى وعلى هذا القول يكون المعنى كفى بالذى يستحق العبادة وبالذى لا يعلم علم ما فى اللوح المحفوظ الا هو شهيدا بينى وبينكم قال الزجاج الاشبه ان الله لا يشهد على صحة حكمه لغيره وهذا قول مشكل لان عطف الصفة على الموصوف وان كان جائزا الا انه خلاف الاصل فلا يقال شهد بهذا زيد والفقيه بل يقال شهد بهذا زيد الفقيه لكن يشهد لصحة هذا القول قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب بكسر الميم والدال وهى قراءة ابن عباس وغيره على البناء للمفعول والمعنى ومن عند الله علم الكتاب ودليل هذه القراءة قوله وعلمناه من لدنا علما وقيل معناه ان من علم ان القرآن الذى جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن الامم الماضية فمن علم بهذه الصفة كان شهيدا بينى وبينكم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

* (تفسير سورة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام) *

وهى مكية سوى آيتين وهما قوله سبحانه وتعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا الى آخر الآيتين وهى احدى وقيل اثنتان وخمسون آية وثمانمائة واحدى وستون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا

فهو المكر كله لانه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم فى غفلة عما يراد بهم الكافر على ارادة الجنس مجازى وابو عمرو (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) المراد بهم كعب بن الاشرف ورؤساء اليهود قالوا لست مرسلا ولهذا قال عطاء هى مكية الا هذه الآية (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) بما اظهر من الادلة على رسالتى والباء دخلت على الفاعل وشهيدا تمييز (ومن عنده علم الكتاب) قيل هو الله عز وجل والكتاب اللوح المحفوظ دليله قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب اى ومن لدنه علم الكتاب لان علم من علمه من فضله ولطفه وقيل ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لانهم يشهدون بنعته فى كتبهم وقال ابن سلام فى نزلت هذه الآية وقيل هو جبريل عليه السلام ومن فى موضع الجر بالعطف على لفظ الله او فى موضع الرفع بالعطف على محل الجار والمجرور اذا التقدير كفى الله وعلم الكتاب يرتفع بالمقدر فى الظرف فيكون فاعلا لان الظرف صلة لمن ومن هنا

بمعنى الذى والتقدير من ثبت عنده علم الكتاب وهذا لان الظرف اذا وقع صلة يعمل عمل الفعل نحو مررت بالذى فى الدار أخوه فاخوه فاعل كما تقول بالذى استقر فى الدار أخوه وفى القراءة بكسر ميم من يرتفع العلم بالابتداء * (سورة ابراهيم عليه السلام) * مكية اثنتان وخمسون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الر كتاب) هو خبر مبتدا محذوف اى هذا كتاب يعنى السورة والجملة التى هى (أنزلناه اليك) فى موضع الرفع صفة للنكرة (لتخرج الناس) بدعائك اياهم (من الظلمات الى النور) من الضلالة الى الهدى (باذن ربهم) بتيسيره وتسهيله مستعار من الاذن الذى هو تسهيل الحجاب وذلك ما يمنعهم من التوفيق (الى صراط) بدل من النور بتكرير العامل (العزيز) الغالب بالانتقام (الحميد) المحمود على الانعام (الله) ٧٦ بالرفع مدنى وشامى على هو الله وبالجر غيرهما على انه عطف بيان للعزيز الحميد (الذى له مافى السموات ومافى الارض) خلقا وملكا ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر الى نور الايمان توعد الكافرين بالويل وهو نقيض الوال وهو النجاة وهو اسم معنى كالهلاك فقال (وويل للكافرين من عذاب شديد) وهو مبتدا وخبر وصفة (الذين يستحبون) يختارون ويؤثرون (الحيوة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله) عن دينه (ويبغونها عوجا) يطلبون لسبيل الله زيغا واعوجاجا والاصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل الذين مبتدأ خبره (أولئك فى ضلال بعيد) من الحق ووصف الضلال بالبعد من الاسناد المجازى والبعد فى الحقيقة للضال لانه هو الذى يتباعد عن طريق الحق فوصف به فعله كما تقول جد جده او مجرور صفة للكافرين او منصوب على الذم او مرفوع على أعنى الذين او هم الذين (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه)

كتابه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

* قوله عز وجل (الر كتاب أنزلناه اليك) يعنى هذا كتاب أنزلناه اليك يا محمد والكتاب هو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (لتخرج الناس من الظلمات الى النور) يعنى بهذا القرآن والمراد من الظلمات ظلمات الكفر والضلالة والجهل والمراد بالنور الايمان قال الامام فخر الدين الرازى رحمه الله وفيه دليل على ان طريق الكفر والبدع كثيرة وطريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات الى النور فعبر عن الجهل والكفر والضلال بالظلمات وهى صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على ان طرق الكفر والجهل كثيرة وأما طريق العلم والايمان فليس الا واحدا (باذن ربهم) يعنى بأمر ربهم وقيل بعلم ربهم (الى صراط العزيز الحميد) يعنى الى دين الاسلام وهو دينه الذى أمر به عباده والعزيز هو الغالب الذى لا يغلب والحميد المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد (الله) قرئ بالرفع على الاستئناف وخبره ما بعده وقرئ بالجر نعتا للعزيز الحميد وقال ابو عمرو وقراءة الخفض على التقديم والتأخير تقديره الى صراط الله العزيز الحميد (الذى له مافى السموات ومافى الارض) يعنى ملكا ومافيهما عبيده (وويل للكافرين) يعنى الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذى له مافى السموات ومافى الارض وعبدوا من لا يملك شيأ البتة بل هو مملوك لله لانه من جملة خلق الله تعالى ومن جملة مافى السموات ومافى الارض (من عذاب شديد) يعنى معدلهم فى الآخرة ثم وصفهم فقال تعالى (الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة) يعنى يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة (ويصدون عن سبيل الله) اى ويمنعون الناس عن قبول دين الله (ويبغونها عوجا) يعنى ويطلبون لها زيغا وميلا فحذف الجار وأوصل الفعل وقيل معناه يطلبون سبيل الله حائدين عن القصد وقيل الهاء فى ويبغونها راجعة الى الدنيا ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق والميل الى الحرام (اولئك) يعنى من هذه صفته (فى ضلال بعيد) يعنى عن الحق وقيل يجوز ان يراد فى ضلال بعيد ذى بعد او فيه بعد لان الضال يبعد عن الطريق قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) يعنى بلغة قومه ليفهموا عنه ما يدعوهم اليه وهو قوله تعالى (ليبين لهم) يعنى ما يأتون وما يذرون فان قلت لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العرب وحدهم وانما بعث الى الناس جميعا بدليل قوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل هو مبعوث الى الثقلين الجن والانس وهم على ألسنة مختلفة ولغات شتى وقوله بلسان قومه وليس قومه سوى العرب يقتضى بظاهره انه مبعوث الى العرب خاصة فكيف يمكن الجمع قلت بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب وبلسانهم والناس تبع للعرب فكان مبعوثا الى جميع الخلق لانهم تبع للعرب ثم انه يبعث الرسل الى الاطراف فيترجمون لهم بالسنتهم ويدعونهم الى الله تعالى بلغاتهم وقيل يحتمل انه أراد بقومه أهل بلده وفيهم العرب وغير العرب فيدخل معهم من غير جنسهم فى عموم الدعوى وقيل ان الرسول اذا أرسل بلسان قومه وكانت دعوته خاصة وكان الامة كلها بلغتهم (ليبين لهم) ما هو مبعوث به وله فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولون له لم نفهم ما خوطبنا به فان قلت ان رسولنا صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس جميعا بقوله قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة فان لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة قلت لا يخلو اما ان ينزل بجميع الالسنة او بواحد منها فلا حاجة الى نزوله بجميع الالسنة لان الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل فتعين ان ينزل بلسان واحد وكان لسان قومه أولى بالتعيين لانهم أقرب اليه ولانه أبعد من التحريف والتبديل

(فيضل الله من يشاء) من آثر سبب الضلالة (ويهدى من يشاء) من آثر سبب الاهتداء (وهو العزيز) فلا يغالب على مشيئته (الحكيم) فلا يخذل الا أهل الخذلان (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) التسع (ان أخرج قومك) بان أخرج او اى أخرج لان الارسال فيه معنى القول كانه قيل أرسلناه وقلنا له أخرج قومك (من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله) وأنذرهم بوقائعه التى وقعت على الامم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها او بايام الانعام حيث ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وفلق لهم البحر (ان فى ذلك لآيات لكل صبار) على البلايا (شكور) على العطايا كانه قال لكل مؤمن اذا الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) اذ ظرف للنعمة بمعنى الانعام اى انعامه عليكم ذلك الوقت او بدل اشتمال من نعمة الله اى اذكروا وقت انجائكم (ويذبحون أبناءكم) ذكر فى البقرة يذبحون وفى الاعراف يقتلون بلا واو وهنا مع الواو والحاصل ان التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرا للعذاب وبيانا له وحيث أثبت الواو جعل التذبيح من حيث انه زاد على جنس العذاب كانه جنس آخر (ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) الاشارة الى العذاب والبلاء المحنة او الى الانجاء والبلاء النعمة ونبلوكم بالشر والخير فتنة (واذ تأذن ربكم) اى آذن ونظير تأذن وآذن توعدوا وعد ولا بد فى تفعل من زيادة معنى ليس فى افعل كانه قيل واذ آذن ربكم ايذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك والشبه وهو من جملة ما قال موسى لقومه

كتابه بلسان قومه كان أقرب لفهمهم عنه وقيام الحجة عليهم فى ذلك فاذا فهموه ونقل عنهم انتشر عنهم علمه وقامت التراجم ببيانه وتفهيمه لمن يحتاج الى ذلك ممن هو من غير أهله واذا كان الكتاب واحدا بلغة واحدة مع اختلاف الامم وتباين اللغات كان ذلك ابلغ فى اجتهاد المجتهدين فى تعليم معانيه وتفهيم فوائده وغوامضه وأسراره وعلومه وجميع حدوده وأحكامه وقوله (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) يعنى ان الرسول ليس عليه الا التبليغ والتبيين والله هو الهادى المضل يفعل ما يشاء (وهو العزيز) يعنى الذى يغلب ولا يغلب (الحكيم) فى جميع أفعاله * قوله عز وجل (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) المراد بالآيات المعجزات التى جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام مثل العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات العظيمة الباهرة (أن أخرج قومك من الظلمات الى النور) اى ان أخرج قومك بالدعوة من ظلمات الكفر الى نور الايمان (وذكرهم بايام الله) قال ابن عباس وأبى بن كعب ومجاهد وقتادة يعنى بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله فى الامم السالفة يقال فلان عالم بايام العرب اى بوقائعهم وانما أراد بما كان فى أيام الله من النعمة والنقمة فاخبر بذكر الايام عن ذلك لان ذلك كان معلوما عندهم وعلى هذا يكون المعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعدان يذكرهم بما انعم الله عليهم به من النعمة وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فيما مضى من الايام والترهيب والوعيد ان يذكرهم بأس الله وشدة انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله وقيل بايام الله فى حق موسى ان يذكر قومه بايام المحنة والشدة والبلاء حين كانوا تحت ايدى القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد ان كانوا مملوكين (ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) الصبار الكثير الصبر والشكور الكثير الشكر وانما خص الشكور والصبور بالاعتبار بالآيات وان كان فيها عبرة للكافة لانهم هم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات فكانها ليست لغيرهم فهو كقوله وهدى للمتقين ولان الانتفاع بالآيات لا يمكن حصوله الا لمن يكون صابرا شاكرا أما من لم يكن كذلك فلا ينتفع بها البتة (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) لما أمر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام ان يذكر قومه بايام الله امتثل ذلك الامر وذكرهم بايام الله فقال اذكروا نعمة الله عليكم (اذ أنجاكم من آل فرعون) اى اذكروا انعام الله عليكم فى ذلك الوقت الذى أنجاكم فيه من آل فرعون (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم) فان قلت قال فى سورة البقرة يذبحون بغير واو وقال هنا ويذبحون بزيادة واو فما الفرق قلت انما حذفت الواو فى سورة البقرة لان قوله يذبحون تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو كما تقول جاءنى القوم زيد وعمرو واذا اردت تفسير القوم وأما دخول الواو هنا فى هذه السورة فلان آل فرعون كانوا يعذبونهم بانواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح أيضا فقوله ويذبحون نوع آخر من العذاب لانه تفسير للعذاب (ويستحيون نساءكم) يعنى يتركونهن احياء (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) فان قلت كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم قلت تمكينهم وامهالهم حتى فعلوا ما فعلوا بلاء من الله ووجه آخر وهو ان ذلكم اشارة الى الانجاء وهو بلاء عظيم لان البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله ونبلوكم بالشر والخير فتنة وهذا الوجه اولى لانه موافق لاول الآية وهو قوله اذكروا نعمة الله عليكم فان قلت هب ان تذبيح الابناء فيه بلاء فكيف يكون استحياء النساء فيه بلاء قلت كانوا يستحيونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالاماء فكان ذلك بلاء (واذ تأذن ربكم)

وانتصابه للعطف على نعمة الله عليكم كانه قيل واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم والمعنى واذ تأذن ربكم
فقال (لئن شكرتم) يا بنى اسرائيل ٧٨ ماخولتكم من نعمة الانجاء وغيرها (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة فالشكر قيد الموجود
وصيد المفقود وقيل اذا
سمعت النعمة نعمة الشكر
تأهبت للمزيد وقال ابن
عباس رضى الله عنهما
لئن شكرتم بالجد فى الطاعة
لازيدنكم بالجد فى المثوبة
(ولئن كفرتم) ما أنعمت
به عليكم (ان عذابى
لشديد) لمن كفر نعمتى
اما فى الدنيا فسلب النعمة
واما فى العقبى فتوالى النقم
(وقال موسى ان تكفروا
أنتم) يا بنى اسرائيل
(ومن فى الارض جميعا)
والناس كلهم (فان الله
لغنى) عن شكركم (حميد)
وان لم يحمده الحامدون
وأنتم ضررتم أنفسكم حيث
حرمتموها الخير الذى لابد
لكم منه (ألم يأتكم نبأ
الذين من قبلكم قوم
نوح وعاد وثمود) من كلام
موسى لقومه اوابتداء
خطاب لاهل عصر محمد
عليه السلام (والذين من
بعدهم لا يعلمهم الا الله)
جملة من مبتدا وخبر
وقعت اعتراضا اوعطف
الذين من بعدهم على
قوم نوح ولا يعلمهم الا الله
اعتراض والمعنى انهم
من الكثرة بحيث لا يعلم
عددهم الا الله وعن ابن
عباس رضى الله عنهما بين عدنان واسمعيل ثلاثون ابا لا يعرفون وروى انه عليه السلام قال عند نزول

هذا من جملة ما قال موسى لقومه كانه قيل اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ومعنى تأذن
آذن اى أعلم ولابد فى تفعل من زيادة معنى ليس فى أفعل كانه قيل وآذن ربكم ايذانا بليغا تنتفى عنده
الشكوك وتنزاح الشبه والمعنى واذ تأذن ربكم فقال (لئن شكرتم) يعنى يا بنى اسرائيل ماخولتكم من
نعمة الانجاء وغيرها من النعم بالايمان الخالص والعمل الصالح (لأزيدنكم) يعنى نعمة الى نعمة
ولا ضاعفن لكم ما آتيتكم قيل شكر الموجود صيد المفقود وقيل لئن شكرتم بالطاعة لازيدنكم فى
الثواب وأصل الشكر تصور النعمة واظهارها وحقيقته الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس
على هذه الطريقة وههنا دقيقة وهى ان العبد اذا اشتغل بمطالعة أقسام نعم الله عز وجل عليه وأنواع
فضله وكرمه واحسانه اليه اشتغل بشكر تلك النعمة وذلك يوجب المزيد وبذلك تتأكد محبة العبد لله
عز وجل وهو مقام شريف ومقام أعلى منه وهو ان يشغله حب المنعم عن الالتفات الى النعم وهذا مقام
الصديقين نسأل الله القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه وانعامه وقوله
(ولئن كفرتم) المراد بالكفر ههنا كفران النعمة وهو جحودها لانه مذكور فى مقابلة الشكر (ان عذابى
لشديد) يعنى لمن كفر نعمتى ولا يشكرها (وقال موسى ان تكفروا) يعنى يا بنى اسرائيل (أنتم ومن فى
الارض جميعا) يعنى والناس كلهم جميعا فانما ضرر ذلك يعود على انفسكم بحرمانها الخير كله (فان الله
لغنى) يعنى عن جميع خلقه (حميد) اى محمود فى جميع أفعاله لانه متفضل وعادل (ألم يأتكم نبأ)
(الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود) قال بعض المفسرين يحتمل ان يكون هذا خطابا من موسى لقومه
والمقصود منه انه عليه الصلاة والسلام كان يخوفهم بهلاك من تقدم من الامم ويحتمل ان يكون خطابا
من الله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام لقومه والمقصود منه انه عليه الصلاة والسلام يذكرهم
بذلك امر القرون الماضية والامم الخالية والمقصود منه حصول العبرة باحوال من تقدم وهلاكهم (والذين
من بعدهم) يعنى من بعد هؤلاء الامم الثلاثة (لا يعلمهم الا الله) يعنى لا يعلم كنه مقادرهم وعددهم الا الله
لان علمه محيط بكل شئ لا يعلم من خلق وقيل المراد بقوله والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله أقوام وأمم
ما بلغنا خبرهم أصلا ومنه قوله وقرونا بين ذلك كثيرا وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية يقول كذب
النسابون يعنى انهم يدعون علم النسب الى آدم وقد نفى الله علم ذلك عن العباد وعن عبد الله بن عباس انه
قال بين ابراهيم وعدنان ثلاثون قرنا لا يعلمهم الا الله وكان مالك بن أنس يكره ان ينسب الانسان نفسه الا
أبا الى آدم لانه لا يعلم اولئك الآباء الا الله وقوله تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات) يعنى بالدلالات الواضحات
والمعجزات الباهرات (فردوا أيديهم فى أفواههم) وفى معنى الايدى والافواه قولان أحدهما ان المراد بهما
هاتان الجارحتان المعلومتان ثم فى معنى ذلك وجوه قال ابن مسعود عضوا أيديهم غيظا وقال ابن عباس
لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بايديهم الى أفواههم وقال مجاهد وقتادة كذبوا الرسل وردوا ما جاؤا به
يقال رددت قول فلان فى فيه اى كذبته وقال الكلبى يعنى ان الامم ردوا أيديهم الى أفواه أنفسهم يعنى انهم
وضعوا الايدى على الافواه اشارة منهم الى الرسل ان اسكتوا وقال مقاتل ردوا أيديهم على أفواه الرسل
يسكتونهم بذلك وقيل ان الامم لما سمعوا كلام الرسل عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك
ردوا ايديهم فى افواههم كما يفعل الذى غلبه الضحك القول الثانى ان المراد بالايدى والافواه غير الجارحتين
فقيل المراد بالايدى النعم ومعناه ردوا ما لو قبلوه لكان نعمة عليهم يقال لفلان عندى يد اى نعمة والمراد
بالافواه
هذه الآية كذب النسابون (جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات (فردوا أيديهم فى أفواههم) الضميران يعودان الى الكفرة اى أخذوا
انامل بأسنانهم تعجبا اوعضوا عليها تغيظا او الثانى يعود الى الانبياء اى رد القوم أيديهم فى افواه الرسل كيلا يتكلموا بما أرسلوا به

(وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه) من الايمان بالله والتوحيد (مريب) موقع في الريبة (قالت رسلهم افي الله شك) ادخلت همزة الانكار على الظرف لان الكلام ليس في الشك انما هو في المشكوك فيه وانه لا يحتمل الشك لظهور الادلة وهو جواب قولهم وانا لفي شك (فاطر السموات والارض يدعوكم) الى الايمان (ليغفر لكم من ذنوبكم) اذا آمنتم ولم تجئ مع من الا في خطاب الكافرين كقوله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال في خطاب المؤمنين هل أدلكم على تجارة الى ان قال يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما يعرف بالاستقراء وكأن ٧٩ ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا

بالافواه تكذيبهم الرسل والمعنى كذبوهم بافواههم وردوا قولهم وقيل انهم كفوا عن قبول ما أمروا بقبوله من الحق ولم يؤمنوا به يقال فلان رد يده الى فيه اذا أمسك عن الجواب فلم يجب وهذا القول فيه بعد لانهم قد أجابوا بالتكذيب وهو ان الامم ردوا على رسلهم (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) يعني انا كفرنا بما زعمتم ان الله أرسلكم به لانهم لم يقروا بانهم ارسلوا اليهم لانهم لو أقروا بان الرسل أرسلوا اليهم لكانوا مؤمنين (وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب) يعني يوجب الريبة او يوقع في الريبة والتهمة والريبة قلق النفس وان لا تطمئن الى الامر الذي يشك فيه فان قلت انهم قالوا أولا انا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانيا وانا لفي شك والشك دون الكفر او داخل فيه قلت انهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل فكأنهم حصل لهم شبهة توجب لهم الشك فقالوا ان لم ندع الجزم في كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في ذلك (قالت رسلهم) يعني مجيبين لامهم (أفي الله شك) يعني هل تشكون في الله وهو استفهام انكار ونفي لما اعتقدوه (فاطر السموات والارض) يعني وهل تشكون في كونه خالق السموات والارض وخالق جميع ما فيهما (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) يعني ليغفر لكم ذنوبكم اذا آمنتم وصدقتم وحرف من صلة وقيل انها أصل ليست بصلة وعلى هذا انه يغفر لهم ما بينهم وبينه من الكفر والمعاصي دون مظالم العباد (ويؤخركم الى أجل مسمى) يعني الى حين انقضاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب (قالوا) يعني الامم مجيبين للرسل (ان أنتم) يعني ما أنتم (الا بشر مثلنا) يعني في الصورة الظاهرة لستم ملائكة (تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) يعني ما تريدون بقولكم هذا الا صدنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها (فأتونا بسلطان مبين) يعني حجة بينة واضحة على صحة دعواكم (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم) يعني ان الكفار لما قالوا لرسلهم ان أنتم الا بشر مثلنا قالت لهم رسلهم مجيبين لهم هب ان الامر كما قلتم ووصفتم فنحن بشر مثلكم لا ننكر ذلك (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) يعني بالنبوة والرسالة فيصطفي من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) يعني وليس لنا مع ما خصنا الله به من النبوة وشرفنا به من الرسالة ان نأتيكم بآية وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا الا باذن الله لنا في ذلك (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعني في دفع شرور اعدائهم عنهم (ومالنا أن لا نتوكل على الله) يعني ان الانبياء قالوا أيضا قد عرفنا انه لا يصيبنا شيء الا بقضاء الله وقدره فنحن نثق به ونتوكل عليه في دفع شروركم عنا (وقد هدانا سبلنا) يعني وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد (ولنصبرن) اللام لام القسم تقديره والله لنصبرن (على ما آذيتمونا) يعني به من قول او فعل (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) فان قلت كيف كرر الامر بالتوكل وهل من فرق بين التوكلين قلت نعم التوكل الاول فيه اشارة الى استحداث التوكل والتوكل الثاني فيه اشارة الى السعي في التثبيت على

يسوى بين الفريقين في الميعاد (ويؤخركم الى أجل مسمى) الى وقت قد سماه وبين مقداره (قالوا) اى القوم (ان أنتم) ما أنتم (الا بشر مثلنا) لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا (تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) يعني الاصنام (فأتونا بسلطان مبين) بحجة بينة وقد جاءتهم رسلهم بالبينات وانما ارادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتا ولجاجا (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم) تسليم لقولهم انهم بشر مثلهم (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) بالايمان والنبوة كما من علينا (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) جواب لقولهم فأتونا بسلطان مبين والمعنى ان الاتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس

الينا ولا في استطاعتنا وانما هو امر يتعلق بمشيئة الله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا اوليا كانهم قالوا ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وايذائكم الا ترى الى قوله (ومالنا أن لا نتوكل على الله) معناه واى عذر لنا في أن لا نتوكل عليه (وقد هدانا سبلنا) وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل مناسبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين قال أبو تراب التوكل طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والشكر عند العطاء والصبر عند البلاء (ولنصبرن على ما آذيتمونا) جواب قسم مضمر اى حلفوا على الصبر على اذاهم وان لا يسكتوا عن دعائهم (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) اى فليثبت المتوكلون على توكلهم حتى لا يكون تكرارا

(وقال الذين كفروا لرسلهم) سبلنا لرسلهم ابو عمرو (لنخرجنكم من أرضنا) من ديارنا (اولتعودن فى ملتنا) اى ليكونن أحد الامرين اخراجكم اوعودكم وحلفوا على ذلك والعود بمعنى الصيرورة وهو كثير فى كلام العرب اوخاطبوا به كل رسول ومن آمن معه فغلبوا فى الخطاب الجماعة على الواحد ٨٠ (فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين) القول مضمر أواجرى الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه (ولنسكننكم الارض من بعدهم) اى أرض الظالمين وديارهم فى الحديث من آذى جاره ورثه الله داره (ذلك) الاهلاك والاسكان اى ذلك الامر حق (لمن خاف مقامى) موقفى وهو موقف الحساب اوالمقام مقحم أوخاف قيامى عليه بالعلم كقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت والمعنى ان ذلك حق للمتقين (وخاف وعيد) عذابى وبالياء يعقوب (واستفتحوا) واستنصروا الله على اعدائهم وهو معطوف على اوحى اليهم (وخاب كل جبار) وخسر كل متكبر بطر (عنيد) مجانب للحق معناه فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم وقيل الضمير للكفار ومعناه واستفتح الكفار على الرسل ظنا منهم بانهم على الحق والرسل على الباطل وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه (من ورائه) من بين يديه (جهنم) وهذا وصف حاله وهو فى الدنيا لانه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه وهو على شفيرها ووصف حاله فى الآخرة حيث يبعث ويوقف (ويسقى) معطوف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها مايلقى ويسقى (من ماء صديد) ما يسيل من جلود اهل النار وصديد عطف بيان لماء لانه مبهم فبين بقوله صديد (يتجرعه) يشربه جرعة جرعة (ولا يكاد يسيغه) ولا يقارب ان يسيغه فكيف تكون الاساغة كقوله لم يكد يراها اى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها

ما استحقوا ثوابا من تولاهم وابقائه وادامته فحصل الفرق بين التوكلين قوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا اولتعودن فى ملتنا) يعنى ليكونن احد الامرين اما اخراجكم أيها الرسل من بلادنا وأرضنا واما عودكم فى ملتنا فان قلت هذا يوهم بظاهره انهم كانوا على ملتهم فى اول الامر حتى يعودوا فيها قلت معاذ الله ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير فى كلام العرب وفيه وجه آخر وهو ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم فلما أرسلوا اليهم أظهروا مخالفتهم ودعوهم الى الله فقالوا لهم لتعودن فى ملتنا ظنا منهم انهم كانوا على ملتهم ثم خالفوهم واجماع الامة على ان الرسل من أول الامر انما نشؤا على التوحيد لا يعرفون غيره (فأوحى اليهم ربهم) يعنى ان الله تعالى أوحى الى رسله وأنبيائه بعد هذه المخاطبات والمحاورات (لنهلكن الظالمين) يعنى ان عاقبة أمرهم الى الهلاك فلا تخافوهم (ولنسكننكم الارض من بعدهم) يعنى من بعد هلاكهم (ذلك) يعنى ذلك الاسكان (لمن خاف مقامى) يعنى خاف مقامه بين يدى يوم القيامة فاضاف قيام العبد الى نفسه لان العرب قد تضيف أفعالها الى أنفسها كقولهم ندمت على ضربى اياك وندمت على ضربك مثله (وخاف وعيد) اى وخاف عذابى قوله عز وجل (واستفتحوا) يعنى واستنصروا قال ابن عباس يعنى الامم وذلك انهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا وقال مجاهد وقتادة واستفتح الرسل على أممهم وذلك انهم لما أيسوا من ايمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب (وخاب) يعنى وخسر وقيل هلك (كل جبار عنيد) والجبار فى صفة الانسان يقال لمن تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم فى حق الانسان وقيل الجبار الذى لا يرى فوقه أحدا وقيل الجبار المتعظم فى نفسه المتكبر على أقرانه والعنيد المعاند للحق ومجانبه قاله مجاهد وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذى يأبى أن يقول لا اله الا الله وقيل العنيد هو المجبر بما عنده وقيل العنيد الذى يعاند ويخالف (من ورائه جهنم) يعنى هى امامه وهو صائر اليها قال ابو عبيدة هو من الاضداد يعنى انه يقال وراء بمعنى خلف وبمعنى أمام وقال الاخفش هو كما يقال هذا الامر من ورائك يعنى انه سيأتيك (ويسقى) يعنى فى جهنم (من ماء صديد) وهو ما سال من الجلد واللحم من القيح جعل ذلك شراب اهل النار وقال محمد بن كعب القرظى هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر وهو قوله (يتجرعه) اى يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة بعد جرعة لمرارته وحرارته وكراهته ونتنه (ولا يكاد يسيغه) اى لا يقدر على ابتلاعه يقال ساغ الشراب فى الحلق اذا سهل انحداره فيه قال بعض المفسرين ان يكاد صلة والمعنى يتجرعه ولا يسيغه وقال صاحب الكشاف دخلت يكاد للمبالغة يعنى ولا يقارب ان يسيغه فكيف تكون الاساغة وقال بعضهم ولا يكاد يسيغه اى يسيغه بعد ابطاء لان العرب تقول ما كدت أقوم اى قمت بعد ابطاء فعلى هذا كاد على اصلها وليست بصلة وقال ابن عباس معناه لا يجيزه وقيل معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلى فى جوفه عن ابى أمامة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه قال يقرب الى فيه فيكرهه فاذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع امعاءه حتى تخرج من دبره قال وسقوا ماء

(ويأتيه الموت من كل مكان) اى اسباب الموت من كل جهة اومن كل مكان من جسده وهذا تفظيع لما يصيبه من الآلام اى لو كان ثمة موت لكان كل واحد منها مهلكا (وماهو بميت) لانه لو مات لاستراح (ومن ورائه) ٨١ ومن بين يديه (عذاب غليظ) اى فى كل

جميعا فقطع أمعاءهم وقال وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا أخرجه الترمذى وقال حديث غريب (قوله وقعت فروة رأسه) اى جلدة رأسه وانما شبهها بالفروة للشعر الذى عليها وقوله تعالى (ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت) يعنى ان الكافر يجد ألم الموت وشدته من كل مكان من اعضائه وقال ابراهيم التيمى حتى من تحت كل شعرة من جسده وقيل يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وماهو بميت فيستريح وقال ابن جريج تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة (ومن ورائه) يعنى أمامه (عذاب غليظ) اى شديد قيل هو الخلود فى النار قوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) هذا كلام مستأنف منقطع عما قبله وهو مبتدا محذوف الخبر عند سيبويه تقديره فيما نقص اوفيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا والمثل مستعار للقصة التى فيها غرابة وقوله أعمالهم كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقال اعمالهم كرماد وقال المفسرون والقراء مثل اعمال الذين كفروا بربهم فحذف المضاف اعتمادا على ماذكره بعد المضاف اليه وقيل يحتمل ان يكون المعنى صفة الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد كقولك فى صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول والرماد معروف وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد احراقه بالنار اشتدت به الريح يعنى فسفته وطيرته ولم تبق منه شيأ فى يوم عاصف وصف اليوم بالعصوف والعصوف من صفة الريح لان الريح تكون فيه كقولك يوم بارد وحار وليلة ماطرة لان البرد والحر والمطر توجد فيهما وقيل معناه فى يوم عاصف الريح فحذف الريح لانه قد تقدم ذكرها وهذا مثل ضربه الله تعالى لاعمال الكفار التى لم ينتفعوا بها ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الاعمال هو ان الريح العاصف تطير الرماد وتذهب به وتفرق اجزاءه بحيث لا يبقى منها شئ وكذلك اعمال الكفار تبطل وتذهب بسبب كفرهم وشركهم حتى لا يبقى منها شئ ثم اختلفوا فى هذه الاعمال ماهى فقيل هى ما عملوه من اعمال الخير فى حال الكفر كالصدقة وصلة الارحام وفك الاسير وقرى الضيف وبر الوالدين ونحو ذلك من اعمال البر والصلاح فهذه الاعمال وان كانت اعمال بر لكنها لا تنفع صاحبها يوم القيامة بسبب كفره لان كفره أحبطها وأبطلها كلها وقيل المراد بالاعمال عبادتهم الاصنام التى ظنوا انها تنفعهم فبطلت وحبطت ولم تنفعهم البتة ووجه خسرانهم انهم أتعبوا ابدانهم فى الدهر الطويل لكى ينتفعوا بها فصارت وبالا عليهم وقيل اراد بالاعمال الاعمال التى عملوها فى الدنيا وأشركوا فيها غير الله فانها لا تنفعهم لانها صارت كالرماد الذى ذرته الرياح وصار هباء لا ينتفع به وهو قوله تعالى (لا يقدرون مما كسبوا) يعنى فى الدنيا (على شئ) يعنى من تلك الاعمال والمعنى انهم لا يجدون ثواب اعمالهم فى الآخرة (ذلك هو الضلال البعيد) يعنى ذلك الخسران الكبير لان اعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها والبعيد هنا الذى لا يرجى عوده (ألم تر أن الله خلق السموات والارض بالحق) يعنى لم يخلقهما باطلا ولا عبثا وانما خلقهما لامر عظيم وغرض صحيح (ان يشأ يذهبكم) يعنى ايها الناس (ويأت بخلق جديد) يعنى سواكم أطوع لله منكم والمعنى ان الذى قدر على خلق السموات والارض قادر على افناء قوم واماتتهم وايجاد خلق آخر سواهم لان القادر لا يصعب عليه شئ قيل هذا خطاب لكفار مكة يريد يتكم يا معشر الكفار ويخلق قوما غيركم خيرا منكم وأطوع (وماذلك على الله بعزيز) يعنى بممتنع لان الاشياء كلها سهلة على

(١١ (خازن) ث) الحق اوعن الثواب (ألم تر) الم تعلم الخطاب لكل احد (أن الله خلق السموات والارض) خالق مضافا حمزة وعلى (بالحق) بالحكمة والامر العظيم ولم يخلقها عبثا (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) اى هو قادر على ان يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقا آخر على شكلهم اوعلى خلاف شكلهم اعلاما بانه قادر على اعدام الموجود وايجاد المعدوم (وماذلك على الله بعزيز) بمتعذر

(و برزوا لله جميعا) و يبرزون يوم القيامة وانما جى به بلفظ الماضى لان ما أخبر به عزوجل لصدقه كأنه قد كان ووجد ونحوه ونادى اصحاب الجنة ونادى اصحاب النار وغير ذلك ومعنى بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شئ حتى يبرز له انهم كانوا يستترون من العبيد عند ارتكاب الفواحش و يظنون ان ذلك خاف على الله فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند انفسهم وعلموا ان الله لا تخفى عليه خافية خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه (فقال الضعفاء) فى الرأى وهم السفلة والاتباع وكتب الضعفاء بواو قبل الهمزة على لغة من يفخم الالف قبل الهمزة فيميلها الى الواو (للذين استكبروا) وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم وصدوهم عن الاستماع الى الانبياء واتباعهم (انا كنا لكم تبعا) تابعين جمع تابع على تبع كخادم وخدم وغائب وغيب او ذوى تبع والتبع الاتباع يقال تبعه تبعا (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ) فهل تقدرون على دفع شئ مما نحن فيه ومن الاولى للتبيين والثانية للتبعيض

كأنه قيل فهل أنتم مغنون عنا بعض الشئ الذى هو عذاب الله او هما للتبعيض اى فهل انتم مغنون عنا بعض شئ هو بعض عذاب الله ولما كان قول الضعفاء توبيخا لهم وعتابا على استغوائهم لانهم علموا انهم لا يقدرون على الاغناء عنهم (قالوا) لهم مجيبين معتذرين (لو هدانا الله لهديناكم) اى لو هدانا الله الى الايمان فى الدنيا لهديناكم اليه اى لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم اى لاغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهالكة (سواء علينا أجزعنا ام صبرنا) مستويان علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية روى انهم يقولون فى النار تعالوا

الله وان جلت وعظمت * قوله عزوجل (و برزوا لله جميعا) يعنى وخرجوا من قبورهم الى الله ليحاسبهم و يجازيهم على قدر أعمالهم والبراز الفضاء و برز حصل فى البراز وذلك ان يظهر بذاته كلها والمعنى وخرجوا من قبورهم وظهروا الى الفضاء وأورد بلفظ الماضى وان كان معناه الاستقبال لان كل ما أخبر الله عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود (فقال الضعفاء) يعنى الاتباع (للذين استكبروا) وهم القادة والرؤساء (انا كنا لكم تبعا) يعنى فى الدين والاعتقاد (فهل أنتم) يعنى فى هذا اليوم (مغنون عنا) يعنى دافعون عنا (من عذاب الله من شئ) من هنا للتبعيض والمعنى هل تقدرون على أن تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذى حل بنا (قالوا) يعنى الرؤساء والقادة والمتبوعون للتابعين (لو هدانا الله لهديناكم) يعنى لو أرشدنا الله لأرشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكن لما أضللنا دعوناكم الى الضلالة (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) يعنى مستويان علينا الجزع والصبر والجزع أبلغ من الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده و يقطعه عنه (ما لنا من محيص) يعنى من مهرب ولا منجاة مما نحن فيه من العذاب قال مقاتل يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص وقال محمد بن كعب القرظى بلغنى ان اهل النار يستغيثون بالخزنة كما قال الله وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم وقالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة وقالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما واليوم كالف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ماكثون فلما يئسوا مما عنده قال بعضهم لبعض تعالوا فلنصبر كما صبر أهل الطاعة لعل ذلك ينفعنا فصبروا وطال صبرهم فلم ينفعهم وجزعوا فلم ينفعهم فعند ذلك قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص قوله تعالى (وقال الشيطان) يعنى ابليس (لما قضى الامر) يعنى لما فرغ منه وأدخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار يأخذ أهل النار فى لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر فى النار فيجتمع عليه اهل النار يلومونه فيقول لهم ما اخبر الله عنه بقوله (ان الله وعدكم وعد الحق) فيه اضمار تقديره فصدق فى وعده (ووعدتكم فأخلفتكم) يعنى الوعد وقيل يقول لهم انى قلت لكم لا بعث ولا جنة ولا نار (وما كان لى عليكم من سلطان

يجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم يعنى الصبر ثم يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا وانصاله بما قبله من حيث ان عتابهم لهم كان جزعا مما هم فيه فقالوا لهم سواء علينا الجزع والصبر يريدون انفسهم وايا هم لاجتماعهم فى عقاب الضلالة التى كانوا مجتمعين فيها يقولون ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة فى الجزع كما لا فائدة فى الصبر (ما لنا من محيص) منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا و يجوز ان يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعا (وقال الشيطان لما قضى الامر) حكم بالجنة والنار لاهليهما وفرغ من الحساب ودخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار ورؤى ان الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا على منبر من نار فيقول لاهل النار (ان الله وعدكم وعد الحق) وهو البعث والجزاء على الاعمال فوفى لكم بما وعدكم (ووعدتكم) بان لا بعث ولا حساب ولا جزاء (فاخلفتكم) كذبتكم (وما كان لى عليكم من سلطان) من تسلط واقتدار

(الا ان دعوتكم) لكنى دعوتكم الى الضلالة بوسوستى وتزيينى والاستثناء منقطع لان الدعاء ليس من جنس السلطان (فاستجبتم لى) فاسرعتم اجابتى (فلا تلوموني) لان من تجرد للعداوة لا يلام اذا دعا الى أمر قبيح مع ان الرحمن قد قال لكم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة (ولوموا انفسكم) حيث اتبعتموني بلا حجة ولا برهان وقول المعتزلة هذا دليل على ان الانسان هو الذى يختار الشقاوة او السعادة ويحصلها لنفسه وليس من الله الا التمكين ولا من الشيطان الا التزيين باطل لقوله لو هدانا الله اى الى الايمان لهديناكم كما مر (ما انا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى) لا ينجى بعضنا بعضا من عذاب الله ولا يغيثه والاصراخ ٨٣ الاغاثة بمصرخى حمزة اتباعا للخاء غيره بفتح الياء لئلا تجتمع الكسرة واليا آن بعد كسرتين وهو جمع مصرخ فالياء الاولى ياء الجمع والثانية ضمير المتكلم (انى كفرت بما اشركتمون) وبالياء بصرى ومامصدرية (من قبل) متعلق باشركتمونى اى كفرت اليوم باشراككم اياى مع الله من قبل هذا اليوم اى فى الدنيا كقوله ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره باشراكهم اياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله انا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم او من قبل متعلق بكفرت وما موصولة اى كفرت من قبل حين ابيت السجود لآدم بالذى اشركتمونيه وهو الله عزوجل تقول اشركنى فلان اى جعلنى له شريكا ومعنى اشراكهم الشيطان بالله طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الاوثان وهذا آخر قول الشيطان وقوله (ان الظالمين لهم عذاب اليم) قول الله عزوجل وقيل هو من تمام كلام ابليس وانما حكى الله عزوجل ما سيقوله فى ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) عطف على برزوا (باذن ربهم) متعلق بادخل اى ادخلتهم الملائكة الجنة باذن الله وامره (تحيتهم فيها سلام) هو تسليم بعضهم على بعض فى الجنة او تسليم الملائكة عليهم (الم تر كيف ضرب الله مثلا) اى وصفه وبينه (كلمة طيبة) نصب بضمر اى جعل كلمة طيبة (كشجرة طيبة) وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا نحو شرف الامير زيدا كساه حلة وحمله على فرس او انتصب مثلا وكلمة بضرب اى ضرب كلمة طيبة مثلا يعنى جعلها مثلا ثم قال كشجرة طيبة على انها خبر مبتدا محذوف اى هى كشجرة طيبة

يعنى من ولاية وقهر وقيل لم آتكم بحجة فيما وعدتكم به (الا ان دعوتكم) هذا استثناء منقطع معناه لكن دعوتكم (فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) يعنى ما كان منى الا الدعاء والقاء الوسوسة وقد سمعتم دلائل الله وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم ان لا تلتفتوا الى ولا تسمعوا قولى فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى باجابتى ومتابعتى من غير حجة ولا دليل (ما أنا بمصرخكم) يعنى بمغيثكم ولا منقذكم (وما أنتم بمصرخى) يعنى بمغيثى ولا منقذى مما أنا فيه (انى كفرت بما أشركتمون من قبل) يعنى كفرت بجعلكم اياى شريكا له فى عبادته وتبرأت من ذلك والمعنى ان ابليس يجحد ما يعتقده الكفار فيه من كونه شريكا لله وتبرأ من ذلك (ان الظالمين لهم عذاب أليم) روى البغوى بسنده عن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة وذكر الحديث الى قوله فيأتونى فيأذن الله لى أن اقوم فيثور من مجلسى أطيب ريح شمها احد حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى الى ظهر قدمى ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير ابليس هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم انت فاشفع لنا فانك انت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها احد ثم تعظم جهنم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الآية وقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) لما شرح الله عزوجل حال الكفار الاشقياء بما تقدم من الآيات الكثيرة شرح احوال المؤمنين السعداء وما أعد لهم فى الآخرة من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك ان الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم والمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار وكونها دائمة أشير اليه بقوله (خالدين فيها) والتعظيم حصل من وجهين احدهما قوله (باذن ربهم) لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله بانعامه الثانى قوله (تحيتهم فيها سلام) فيحتمل ان بعضهم يحيى بعضا بهذه الكلمة او الملائكة تحييهم بها او الرب سبحانه وتعالى يحييهم بها ويحتمل أن يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع الآفات لان السلام مشتق من السلامة * قوله عزوجل (الم تر كيف ضرب الله مثلا) لما شرح الله عزوجل احوال الاشقياء واحوال السعداء ضرب مثلا فيه حكم هذين القسمين فقال تعالى ألم تر أى بعين قلبك فتعلم علم يقين يا عالمى اياك فعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره فيه ويحتمل أن يكون الخطاب فيه لكل فرد من الناس فيكون المعنى ألم تر أيها الانسان كيف ضرب الله مثلا يعنى بين شبها والمثل عبارة عن قول فى شئ يشبه قولا فى شئ آخر بينهما مماثلة ليتبين احدهما من الآخر ويتصور وقيل هو قول سائر لتشبيه شئ بشئ آخر (كلمة طيبة) هى قول لا اله الا الله فى قول ابن عباس وجمهور المفسرين (كشجرة طيبة) يعنى كشجرة

(أصلها ثابت) اى فى الارض ضارب بعروقه فيها (وفرعها) واعلاها ورأسها (فى السماء) والكلمة الطيبة كلمة التوحيد أصلها تصديق بالجنان وفرعها اقرار باللسان ٨٤ وأكلها عمل الاركان وكما أن الشجرة شجرة وان لم تكن حاملا فالمؤمن مؤمن وان لم يكن عاملا ولكن الاشجار لا ترادا للثمار فما أقوات النار الا من الاشجار اذا اعتادت الاحفار فى عهد الاثمار والشجرة كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين ونحو ذلك والجمهور على انها النخلة فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فاخبرونى ماهى فوقع الناس فى شجر البوادى وكنت صبيا فوقع فى قلبى انها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أقولها وأنا اصغر القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا انها النخلة فقال عمر يا بنى لو كنت قلتها لكانت أحب الى من حمر النعم (تؤتى أكلها كل حين) تعطى ثمرها كل وقت وقته الله لاثمارها (باذن ربها) بتيسير خالقها وتكوينه (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) لان فى ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعانى (ومثل كلمة خبيثة) هى كلمة الكفر (كشجرة خبيثة) هى كل شجرة لا يطيب ثمرها وفى الحديث انها شجرة الحنظل (اجتثت من فوق الارض) استؤصلت جثتها وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها وهو فى مقابلة أصلها ثابت (مالها من قرار) اى استقرار يقال قر الشئ قرارا كقولك ثبت ثباتا

طيبة الثمر قال ابن عباس هى النخلة وبه قال ابن مسعود وأنس ومجاهد وعكرمة والضحاك (ق) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اخبرونى عن شجرة تشبه الرجل او قال كالرجل المسلم لا يتحات ورقها تؤتى أكلها كل حين قال ابن عمر فوقع فى نفسى انها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت ان أتكلم فلما لم يقولوا شيأ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى النخلة قال فلما قمنا قلت لعمر يا أبتاه والله لقد كان وقع فى نفسى انها النخلة فقال ما منعك ان تتكلم فقلت لم أركم تتكلمون فكرهت ان أتكلم او أقول شيأ فقال عمر لان تكون قلتها أحب الى من كذا وكذا وفى رواية ان من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وانها مثل المسلم حدثونى ماهى فوقع الناس فى شجر البوادى قال عبد الله بن عمر ووقع فى نفسى انها النخلة فاستحييت ان أتكلم ثم قالوا حدثنا ماهى يا رسول الله قال هى النخلة وفى رواية عن ابن عباس انها شجرة فى الجنة وفى رواية أخرى عنه انها المؤمن وقوله (أصلها ثابت) يعنى فى الارض (وفرعها) يعنى اعلاها (فى السماء) يعنى ذاهبة فى السماء (تؤتى أكلها) يعنى ثمرها (كل حين باذن ربها) يعنى بامر ربها والحين فى اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا فى مقداره ههنا فقال مجاهد وعكرمة الحين ههنا سنة كاملة لان النخلة تثمر فى كل سنة مرة واحدة وقال سعيد ابن جبير وقتادة والحسن ستة أشهر يعنى من وقت طلعها الى حين صرامها وروى ذلك عن ابن عباس أيضا وقال على بن ابى طالب ثمانية أشهر يعنى ان مدة حملها باطنا وظاهرا ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر من حين ظهور حملها الى ادراكها وقال سعيد بن المسيب شهران يعنى من وقت ان يؤكل منها الى صرامها وقال الربيع بن أنس كل حين يعنى غدوة وعشية لان ثمر النخل يؤكل أبدا الى الليل ونهارا وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس الى حين الطرى الرطب فاكلها دائم فى كل وقت قال العلماء ووجه الحكمة فى تمثيل هذه الكلمة التى هى كلمة الاخلاص واصل الايمان بالنخلة حاصل من اوجه أحدها ان كلمة الاخلاص شديدة الثبوت فى قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة فى الارض الوجه الثانى ان هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن الى السماء كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وكذلك فرع النخلة الذى هو عال فى السماء الوجه الثالث ان ثمر النخلة يأتى فى كل حين ووقت وكذلك ما يكسبه المؤمن من الاعمال الصالحة فى كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة فالمؤمن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها الوجه الرابع ان النخلة شبيهة بالانسان فى غالب الامر لانها خلقت من فضلة طينة آدم وانها اذا قطع رأسها تموت كالآدمى بخلاف سائر الشجر فانه اذا قطع نبت وانها لا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر الوجه الخامس فى وجه الحكمة فى تمثيل الايمان بالشجر على الاطلاق لان الشجرة لا تسمى شجرة الا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع قائم وكذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالابدان وقوله سبحانه وتعالى (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) يعنى ان فى ضرب الامثال زيادة فى الافهام وتصوير للمعانى وتذكيرا ومواعظ لمن تذكر واتعظ قوله تعالى (ومثل كلمة خبيثة) وهو الشرك (كشجرة خبيثة) يعنى الحنظل قاله أنس بن مالك ومجاهد وفى رواية عن ابن عباس انها الكشوث وعنه أيضا انها الثوم وعنه أيضا انها الكافر لانه لا يقبل عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد الى السماء (اجتثت) يعنى استؤصلت وقطعت (من فوق الارض مالها من قرار) يعنى ما لهذه الشجرة من ثبات فى الارض لانها ليس لها أصل ثابت

في الارض ولا فرع صاعد الى السماء كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ولا اعتقاده أصل ثابت فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه الشجرة الخبيثة عن أنس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع عليه رطب فقال مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها قال هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار قال هي الحنظلة أخرجه الترمذي مرفوعا وموقوفا وقال الموقوف أصح قوله سبحانه وتعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) لما وصف الله الكلمة الطيبة في الآية المتقدمة أخبر في هذه الآية انه يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت والقول الثابت هي الكلمة الطيبة وهي شهادة ان لا اله الا الله في قول جمهور المفسرين ولما وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة بكلمة الشرك قال في هذه الآية ويضل الله الظالمين يعني بالكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك في قول جميع المفسرين وقوله (في الحيوة الدنيا) يعني في القبر عند السؤال (وفي الآخرة) يعني يوم القيامة عند البعث والحساب وهذا القول واضح ويدل عليه ماروى عن البراء بن عازب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان المسلم اذا سئل في القبر يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال نزلت في عذاب القبر زاد في رواية يقال له من ربك فيقول ربي الله ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه البخاري ومسلم (ق) عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وانه ليسمع قرع نعالهم اذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد فاما المؤمن فيقول اشهد انه عبد الله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار ابدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة وذكر لنا انه يفسح له في قبره ثم رجع الى حديث أنس وأما المنافق وفي رواية وأما الكافر فيقول لا أدري كنت اقول ما يقول الناس فيه فيقال لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه الا الثقلين لفظ البخاري ولمسلم بمعناه زاد في رواية انه يفسح له في قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا الى يوم يبعثون واخرجه أبو داود عن أنس قال وهذا لفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا وضع في قبره أتاه ملك فيقول ما كنت تعبد فان هداه الله قال كنت أعبد الله فيقول له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول هو عبد الله ورسوله فلا يسئل عن شئ بعدها فينطلق به الى بيت كان له في النار فيقال له هذا كان مقعدك ولكن عصمك الله فابدلك به بيتا في الجنة فيراه فيقول دعوني حتى أذهب فابشر أهلي فيقال له اسكن وان الكافر والمنافق اذا وضع في قبره أتاه ملك فينهضه فيقول ما كنت تعبد فيقول لا أدري فيقال له لا دريت ولا تليت فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول كنت أقول ما يقول الناس فيه فيضرب بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين وأخرجه النسائي أيضا عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قبر الميت او قال اذا قبر أحدكم أتاه ملكان اسودان ازرقان يقال لاحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول كنت أقول هو عبد الله ورسوله أشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم انك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ثم ينور له فيه ثم يقال له نم فيقول أرجع الى أهلي فاخبرهم فيقولان نم كنومة العروس الذي لا يوقظه الا أحب أهله اليه حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك وان كان منافقا فيقول سمعت الناس يقولون قولا فقلت مثلهم لا أدري فيقولان قد كنا نعلم انك كنت تقول ذلك فيقال للارض التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف اضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك أخرجه الترمذي عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في

شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت (يثبت الله الذين آمنوا) اي يديمهم عليه (بالقول الثابت) هو قول لا اله الا الله محمد رسول الله (في الحيوة الدنيا) حتى اذا افتتنوا في دينهم لم يزالوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الاخدود وغير ذلك (وفي الآخرة) الجمهور على ان المراد به في القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب فعن البراء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله ودين الاسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم فينادي منادمن السماء ان صدق عبدي فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ثم يقول الملكان عشت سعيدا ومت حميدا نم نومة العروس

جنازة رجل من الانصار فانتهت الى القبر ولما يلحد بعد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كانما على رؤسنا الطير وبيده عود ينكت به فى الارض فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم فقال تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين او ثلاثا زاد فى رواية وقال ان الميت ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حين يقال له ياهذا من ربك ومادينك ومن نبيك وفى رواية يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول الله ربى فيقولان له ومادينك فيقول دينى الاسلام فيقولان له ماهذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان ومايدريك فيقول قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت زاد فى رواية فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم لقناه قال فينادى منادمن السماء ان صدق عبدى فافرشوا له من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره وان كان الكافر فذكر موته قال فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان مادينك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان ماهذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى منادمن السماء ان قد كذب عبدى فافرشوا له من النار والبسوه من النار وافتحوا له بابا الى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه اضلاعه زاد فى رواية ثم يقيض له أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبلا لصار ترابا فيضربه بها ضربة يسمعها من بين المشرق والمغرب الا الثقلين فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح أخرجه ابو داود عن عثمان بن عفان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لاخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسئل أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن ثمامة المهرى قال حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت فبكى بكاء طويلا وحول وجهه الى الجدار وجعل ابنه يقول ما يبكيك يا أبتاه أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا فاقبل بوجهه وقال ان أفضل ما نعد شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وذكر الحديث بطوله وفيه فاذا أنا مت فلا تصحبنى نائحة ولا نار فاذا دفنتمونى فشنوا على التراب شنا ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى استأنس بكم وانظر ماذا أراجع به رسل ربى أخرجه مسلم بزيادة طويلة فيه قيل المراد من التثبيت بالقول الثابت هو ان الله تعالى انما يثبتهم فى القبر بسبب كثرة مواظبتهم على شهادة الحق فى الحياة الدنيا وجبهم لها فمن كانت مواظبته على شهادة الاخلاص أكثر كان رسوخها فى قلبه أعظم فينبغى للعبد المسلم ان يكثر من قول لا اله الا الله محمد رسول الله فى جميع حالاته من قيامه وقعوده ونومه ويقظته وجميع حركاته وسكناته فلعل الله عز وجل ان يرزقه ببركة مواظبته على شهادة الاخلاص التثبيت فى القبر ويسهل عليه جواب الملكين بما فيه خلاصه من عذاب الآخرة نسأل الله التثبيت فى القبر وحسن الجواب وتسهيله بفضله ومنه وكرمه واحسانه انه على كل شئ قدير وقوله تعالى (ويضل الله الظالمين) يعنى ان الله تعالى لا يهدى المشركين الى الجواب بالصواب فى القبر (ويفعل الله ما يشاء) يعنى من التوفيق والخذلان والهداية والاضلال والتثبيت وتركه لا اعتراض عليه فى جميع أفعاله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون قوله عز وجل (ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا) (خ) عن ابن عباس فى قوله ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا قال هم كفار مكة وفى رواية قال هم والله كفار قريش قال عمر هم قريش ونعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم (وأحلوا قومهم دار البوار) قال النار يوم بدر وعن على رضى الله عنه قال هم كفار قريش فجار ويوم بدر وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الافجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية اما بنو المغيرة فقد كفيتموهم يوم بدر واما بنو أمية فقد متعوا الى حين فقوله بدلوا نعمة الله كفرا معناه ان الله تعالى لما أنعم على قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم فارسله اليهم وانزل عليه كتابه ليخرجهم من ظلمات

(ويضل الله الظالمين) فلا يثبتهم على القول الثابت فى مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شئ وهم فى الآخرة أضل وأزل (ويفعل الله ما يشاء) فلا اعتراض عليه فى تثبيت المؤمنين واضلال الظالمين (ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله) اى شكر نعمة الله (كفرا) لان شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا فكانهم غيروا الشكر الى الكفر وبدلوه تبديلا وهم أهل مكة أكرمهم بمحمد عليه السلام فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر (وأحلوا قومهم) الذين تابعوهم على الكفر (دار البوار) دار الهلاك

(جهنم) عطف بيان (يصلونها) يدخلونها (وبئس القرار) وبئس المقر جهنم (وجعلوا لله أندادا) أمثالا في العبادة أو في التسمية
(ليضلوا عن سبيله) وبفتح الياء مكي وابو عمرو (قل تمتعوا) في الدنيا والمراد به الخذلان ٨٧ والتخلية وقال ذو النون التمتع ان يقضي

الكفر الى نور الايمان اختاروا الكفر على الايمان وغيروا نعمة الله عليهم وقيل يجوز ان يكون بدلوا شكر نعمة الله عليهم كفرا لانهم لما وجب عليهم الشكر بسبب هذه النعمة أتوا بالكفر فكأنهم غيروا الشكر وبدلوه بالكفر وأحلوا قومهم يعني من تبعهم على دينهم وكفرهم دار البوار يعني دار الهلاك ثم فسرها بقوله تعالى (جهنم يصلونها وبئس القرار) يعني المستقر (وجعلوا لله أندادا) يعني أمثالا واشباها من الاصنام وليس لله تعالى ند ولا شبيه ولا مثيل تعالى الله عن الند والشبيه والمثيل علوا كبيرا (ليضلوا عن سبيله) يعني ليضلوا الناس عن طريق الهدى ودين الحق (قل تمتعوا) اى قل يا محمد لهؤلاء الكفار تمتعوا في الدنيا أياما قلائل (فان مصيركم الى النار) يعني في الآخرة قوله تعالى (قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلوة) يعني أقيموا أو ليقيموا الصلاة الواجبة واقامتها اتمام أركانها (وينفقوا مما رزقناهم) قيل أراد بهذا الانفاق اخراج الزكاة الواجبة وقيل أراد به جميع الانفاق في جميع وجوه الخير والبر وحمله على العموم اولى ليدخل فيه اخراج الزكاة والانفاق في جميع وجوه البر (سرا وعلانية) يعني ينفقون أموالهم في حال السر وحال العلانية وقيل أراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة (من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه) قال أبو عبيدة البيع هنا الفداء يعني لا فداء في ذلك اليوم (ولا خلال) يعني ولا خلة وهي المودة والصداقة التي تكون مخالة بين اثنين وقال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة انما هي الاعمال اما أن يثاب بها او يعاقب عليها فان قلت كيف نفى الخلة في هذه الآية وفي الآية التي في سورة البقرة واثبتها في قوله الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين قلت الآية الدالة على نفي الخلة محمولة على نفي الخلة الحاصلة بسبب ميل الطبيعة ورعونة النفس والآية الدالة على حصول الخلة وثبوتها محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله الاتراه أثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم وقيل ان ليوم القيامة أحوالا مختلفة ففي بعضها يشتغل كل خليل عن خليله وفي بعضها يتعاطف الاخلاء بعضهم على بعض اذا كانت تلك الخالة لله في محبته قوله عز وجل (الله الذي خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) اعلم انه تقدم تفسير هذه الآية في مواضع كثيرة ونذكر ههنا بعض فوائد هذه الآية الدالة على وجود الصانع المختار القادر الذي لا يعجزه شئ ارادة فقوله تعالى الله الذي خلق السموات والارض انما بدأ بذكر خلق السموات والارض لانهما أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار وأنزل من السماء ماء يعني من السحاب سمي السحاب سماء لارتفاعه مشتق من السمو وهو الارتفاع وقيل ان المطر ينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض فأخرج به اى بذلك الماء من الثمرات رزقا لكم والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر وقد يقع على الزرع أيضا بدليل قوله كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده وقوله من الثمرات بيان للرزق اى اخرج به رزقا هو الثمرات (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره) لما ذكر الله سبحانه وتعالى انعامه بانزال المطر واخراج الثمر لاجل الرزق والانتفاع به ذكر نعمته على عباده بتسخير السفن الجارية على الماء لاجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات وغيرها من بلد الى بلد آخر فهي من تمام نعمة الله على عباده (وسخر لكم الانهار) يعني ذللها لكم تجرونها حيث شئتم ولما كان ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزرع والثمرات ولا في الشراب أيضا ذكر نعمته على عباده في تسخير الانهار وتفجير العيون لاجل هذه الحاجة فهو من أعظم نعم الله على عباده (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين)

الكفر (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال) اى لا انتفاع فيه ببيعة ولا مخالة والخلال المخالة وانما ينتفع فيه بالانفاق لوجه الله بفتحهما

مكي وبصري والباقون بالرفع والتنوين (الله) مبتدأ (الذي خلق السموات والارض) خبره (وأنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) من الثمرات بيان للرزق اى أخرج به رزقا هو ثمرات او من الثمرات مفعول اخرج ورزقا حال من المفعول (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) دائمين وهو حال من الشمس والقمر اى

يدأبان فى سيرهما وانارتهما ودثورهما الظلمات واصلاحهما ما يصلحان من الارض والابدان والنبات (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم (وآتاكم من كل ما سألتموه) من للتبعيض اى آتاكم بعض جميع ما سألتموه او وآتاكم من كل شئ سألتموه ومالم تسألوه فما موصولة والجملة صفة لها وحذفت الجملة الثانية لان الباقى يدل على المحذوف كقوله سرابيل تقيكم الحر من كل عن أبى عمرو وما سألتموه نفى ومحله النصب على الحال اى آتاكم من جميع ذلك غير سائليه او ما موصولة اى وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه فكأنكم سألتموه او طلبتموه بلسان الحال (وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها) لا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا اذا ارادوا أن يعدوها على الاجمال واما التفصيل فلا يعلمه الا الله (ان الانسان لظلوم) يظلم النعمة باغفال شكرها (كفار) شديد الكفران لها او ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع والانسان للجنس فيتناول الاخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه (واذ قال ابراهيم) واذكر اذ قال ابراهيم (رب اجعل هذا البلد) اى البلد الحرام (آمنا) ذا أمن والفرق بين هذه وبين ما فى البقرة أنه قد سأل فيها ان يجعله من جملة البلدان التى يأمن

الدأب العادة المستمرة دائما على حالة واحدة ودأب فى السير داوم عليه والمعنى ان الله سخر الشمس والقمر يجريان دائما فيما يعود الى مصالح العباد لا يفتران الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها قال ابن عباس دؤبهما فى طاعة الله عز وجل وقال بعضهم معناه يدأبان فى طاعة الله اى فى مسيرهما وتأسيرهما فى ازالة الظلمة واصلاح النبات والحيوان لان الشمس سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل وانعامه على عباده وتسخيره لهم (وسخر لكم الليل والنهار) يعنى يتعاقبان فى الضياء والظلمة والنقصان والزيادة وذلك من انعام الله على عباده وتسخيره لهم (وآتاكم من كل ما سألتموه) لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العظام التى أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم بين بعد ذلك انه تعالى لم يقتصر على تلك النعم بل اعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتى على بعضها العد والحصر والمعنى وآتاكم من كل ما سألتموه شيأ فحذف شيأ كتفاء بدلالة الكلام على التبعيض وقيل هو على التكثير يعنى وآتاكم من كل شئ سألتموه ومالم تسألوه لان نعمه علينا أكثر من أن تحصى (وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها) يعنى ان نعم الله كثيرة على عباده فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها (ان الانسان) قال ابن عباس يريد اباجهل وقال الزجاج هو اسم جنس ولكن يقصد به الكافر (لظلوم كفار) يعنى ظلوم لنفسه كفار بنعمة ربه وقيل الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر فى غير موضعه كفار جحود لنعم الله عليه وقيل يظلم النعمة باغفال شكرها كفار شديد الكفران لها وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع قوله سبحانه وتعالى (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) يعنى ذا أمن يؤمن فيه وأراد بالبلد مكة فان قلت اى فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا قلت الفرق بينهما انه سأل فى الاول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها فيها ولا يخافون وسأل فى الثانى أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام) يعنى أبعدنى وبنى أن نعبد الاصنام فان قلت قد توجه على هذه الآية اشكالات وهى من وجوه الاول ان ابراهيم دعا ربه ان يجعل مكة آمنة ثم ان جماعة من الجبابرة وغيرهم قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها الوجه الثانى ان الانبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون من عبادة الاصنام واذا كان كذلك فما الفائدة فى قوله اجنبنى عن عبادتها الوجه الثالث ان ابراهيم عليه السلام سأل ربه أيضا ان يجنب بنيه عن عبادة الاصنام وقد وجد كثير من بنيه عبدة الاصنام مثل كفار قريش وغيرهم ممن ينسب الى ابراهيم عليه السلام قلت الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه فالجواب عن الوجه الاول من وجهين أحدهما ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على خراب مكة وأورد على هذا ما ورد فى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة أخرجاه فى الصحيحين وأجيب عنه بان قوله اجعل هذا البلد آمنا يعنى الى قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل هو عام مخصوص بقصة ذى السويقتين فلا تعارض بين النصين الوجه الثانى أن يكون المراد اجعل أهل هذا البلد آمنين وهذا الوجه عليه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم وعلى هذا فقد اختص اهل مكة بزيادة الامن فى بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله ويتخطف الناس من حولهم وأهل مكة آمنون من ذلك

حتى

أهلها وفى الثانى ان يخرجه من صفة الخوف الى الامن كانه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (واجنبنى) وبعدنى اى ثبتنى وادمنى على اجتناب عبادتها كما قال واجعلنا مسلمين لك اى ثبتنا على الاسلام (وبنى) اراد بنيه من صلبه (ان نعبد الاصنام) من ان نعبد الاصنام

حتى ان من التجأ الى مكة أمن على نفسه وماله من ذلك وحتى ان الوحوش اذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فاذا دخلت الحرم أمنت واستأنست لعلمها انه لا يهيجها أحد فى الحرم وهذا القدر من الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها وأما الجواب عن الوجه الثانى فمن وجوه أيضا الوجه الاول ان دعاء ابراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة والتثبيت فهو كقوله واجعلنا مسلمين لك الوجه الثانى ان ابراهيم عليه السلام وان كان يعلم ان الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الاصنام الا انه دعا بهذا الدعاء هضما للنفس واظهارا للعجز والحاجة والفاقة الى فضل الله تعالى ورحمته وان أحدا لا يقدر على نفع نفسه بشئ لم ينفعه الله به فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء واما دعاؤه لبنيه وهو الوجه الثالث من الاشكالات فالجواب عنه من وجوه الاول ان ابراهيم دعا لبنيه من صلبه ولم يعبد أحد منهم صنما قط الوجه الثانى انه أراد اولاده وأولاد اولاده الموجودين حالة الدعاء ولا شك ان ابراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم الوجه الثالث قال الواحدى دعا لمن اذن الله ان يدعو له فكانه قال وبنى الذين أذنت لى فى الدعاء لهم لان دعاء الانبياء مستجاب وقد كان من بنيه من عبد الصنم فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص الوجه الرابع ان هذا مختص بالمؤمنين من اولاده والدليل عليه انه قال فى آخر الآية فمن تبعنى فانه منى وذلك يفيد ان من لم يتبعه على دينه فليس منه والله أعلم بمراده واسرار كتابه وقوله تعالى (رب انهن) يعنى الاصنام (أضللن كثيرا من الناس) وهذا مجاز لان الاصنام جمادات وحجارة لا تعقل شيأ حتى تضل من عبدها الا انه لما حصل الاضلال بعبادتها أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم وانما فتنوا بها واغتروا بسببها (فمن تبعنى فانه منى) يعنى فمن تبعنى على دينى واعتقادى فانه منى يعنى المتدينين بدينى المتمسكين بحبلى كما قال الشاعر

اذا حاولت فى أسد فجورا * فانى لست منك ولست منى

اراد ولست من المتمسكين بحبلى وقيل معناه فانه منى حكمه حكمى جار مجراى فى القرب والاختصاص (ومن عصانى) يعنى فى غير الدين (فانك غفور رحيم) قال السدى ومن عصانى ثم تاب فانك غفور رحيم وقال مقاتل ومن عصانى فيما دون الشرك فانك غفور رحيم وشرح ابو بكر بن الانبارى هذا فقال ومن عصانى فخالفنى فى بعض الشرائع وعقائد التوحيد فانك غفور رحيم ان شئت أن تغفر له غفرت اذا كان مسلما وذكر وجهين آخرين احدهما ان هذا كان قبل أن يعلمه الله انه لا يغفر الشرك كما استغفر لابويه وهو يقول ان ذلك غير محظور فلما عرف انهما غير مغفور لهما تبرأ منهما والوجه الآخر ومن عصانى باقامته على الكفر فانك غفور رحيم يعنى انك قادر على أن تغفر له وترحمه بان تنقله من الكفر الى الايمان والاسلام وتهديه الى الصواب * قوله عز وجل اخبارا عن ابراهيم (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) (خ) عن ابن عباس قال أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسمعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسمعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل فقالت يا ابراهيم الى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه انيس ولا شئ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم فدعا بهذه الدعوات فرفع يديه فقال رب انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضع اسمعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى او قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الارض يليها فقامت

(رب انهن أضللن كثيرا من الناس) جعلن مضلات على طريق التسبيب لان الناس ضلوا بسببهن فكأنهن أضللنهم (فمن تبعنى) على ملتى وكان حنيفا مسلما مثلى (فانه منى) اى هو بعضى لفرط اختصاصه بى (ومن عصانى) فيما دون الشرك (فانك غفور رحيم) او ومن عصانى عصيان شرك فانك غفور رحيم ان تاب وآمن (ربنا انى أسكنت من ذريتى) بعض اولادى وهم اسمعيل ومن ولد منه (بواد) هو وادى مكة (غير ذى زرع) لا يكون فيه شئ من زرع قط (عند بيتك المحرم) هو بيت الله سمى به لان الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه اولانه لم يزل ممنعا يهابه كل جبار اولانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه اولانه حرم على الطوفان اى منع منه كما سمى عتيقا لانه اعتق منه

عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى احدا فلم تر أحدا فهبطت منه حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى احدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما اشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت صوتا ايضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه او قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف وفى رواية قدر ما تغرف قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم او قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافى الضيعة فان ههنا بيت الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع اهله وكان البيت مرتفعا من الارض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم او أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى اسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فارسلوا جريا او جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فاخبروهم فاقبلوا وأم اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم فى الماء قالوا نعم قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فالفى ذلك أم اسمعيل وهى تحب الانس فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها اهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شب فلما ادرك زوجوه بامرأة منهم وماتت أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسمعيل يطالع تركته فلم يجد اسمعيل فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغى لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر نحن فى ضيق وشدة فشكت اليه فقال فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه فلما جاء اسمعيل كأنه آنس شيئا فقال هل جاءكم من أحد قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنى عنك فأخبرته وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى ضيق وشدة قال فهل أوصاك بشئ قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تغير عتبة بابك قال ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك الحقى بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغى لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله فقال ما طعامكم قالت اللحم قال فما شرابكم قالت الماء قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء قال النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة الا لم يوافقاه قال فان جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء اسمعيل قال هل جاءكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال فأوصاك بشئ قالت نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال ذاك أبى وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وأسمعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام اليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال يا اسمعيل ان الله أمرنى بأمر قال فاصنع ما أمرك ربك قال وتعيننى قال وأعينك قال فان الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتا وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها من الاماكن قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسمعيل يأتى بالحجارة وابراهيم يبنى حتى اذا ارتفع البناء جاء اسمعيل بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى ويناوله الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم حتى دارا حول البيت وهما يقولان ذلك وفى رواية ان ابراهيم كان يبنى وكان اسمعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم قال فلما بلغ البناء موضع الركن الاسود قال يا اسمعيل ائتنى بحجر حسن يكون للناس فقال له ان الحجر الذى تريد ليس عندى فانطلق فاطلب ثم جاء بالحجر فلم يجده فقال يا أبت جاءنى به الذى لم يكل بنائى غير جبريل عليه السلام جاء به من السماء فقال ابراهيم يا اسمعيل ان الله أمرنى بأمر قال فاصنع ما أمرك ربك قال وتعيننى قال وأعينك قال فان الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتا وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها من الاماكن قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسمعيل يأتى بالحجارة وابراهيم يبنى حتى اذا ارتفع البناء جاء اسمعيل بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وي

(وارزقهم من الثمرات) مع سكناهم واديا ما فيه شئ منها بان تجلب اليهم من البلاد الشاسعة (لعلهم يشكرون) النعمة فى أن يرزقوا انواع الثمرات فى واد ليس فيه شجر ولا ماء (ربنا) النداء المكرر دليل التضرع واللجأ الى الله (انك تعلم ٩١ ما نخفى وما نعلن) تعلم السر كما تعلم العلن (وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء) من كلام الله عز وجل تصديقا لابراهيم عليه السلام او من كلام ابراهيم ومن للاستغراق كانه قيل وما يخفى على الله شئ ما (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر) على بمعنى مع وهو فى موضع الحال اى وهب لى وانا كبير (اسمعيل واسحق) روى ان اسمعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة وثنتى عشرة سنة وروى انه ولد له اسمعيل لاربع وستين واسحق لتسعين وانما ذكر حال الكبر لان المنة بهبة الولد فيها أعظم لانها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من اجل النعم ولان الولادة فى تلك السن العالية كانت آية لابراهيم (ان ربى لسميع الدعاء) مجيب الدعاء من قولك سمع الملك كلام فلان اذا تلقاه بالاجابة والقبول ومنه سمع الله لمن حمده وكان قد دعا ربه وسأله الولد فقال وهب لى من الصالحين

ترديدهم كما تقول رأيت فلانا يهوى نحوك معناه يريدك وقال ايضا تهوى تسرع اليهم وقال ابن الانبارى معناه تحط اليهم وتنحدر وتنزل هذا قول اهل اللغة فى هذا الحرف واما اقوال المفسرين فقال ابن عباس يريد تحن اليهم لزيارة بيتك وقال قتادة تسرع اليهم وفى هذا بيان ان حنين الناس اليهم انما هو لطلب حج البيت لا لاعيانهم وفيه دعاء للمؤمنين بان يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بانهم ينتفعون بمن يأتى اليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع ابراهيم عليه السلام فى هذا الدعاء من امر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركاته (وارزقهم من الثمرات) يعنى كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزروع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار وقيل يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات الى مكة بطريق النقل والتجارة فهو كقوله تعالى يجبى اليه ثمرات كل شئ وقوله تعالى (لعلهم يشكرون) يعنى لعلهم يشكرون هذه النعم التى انعمت بها عليهم وقيل معناه لعلهم يوحدونك ويعظمونك وفيه دليل على ان تحصيل منافع الدنيا انما هو ليستعان بها على أداء العبادات واقامة الطاعات (ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن) يعنى انك تعلم السر كما تعلم العلن علما لا تفاوت فيه والمعنى انك تعلم احوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا وانت أرحم بنا منا فلا حاجة بنا الى الدعاء والطلب انما ندعوك اظهارا للعبودية لك وتخشعا لعظمتك وتذللا لعزتك وافتقارا الى ما عندك وقيل معناه تعلم ما نخفى من الوجد بفرقة اسمعيل وأمه حيث اسكنتهما بوادغير ذى زرع وما نعلن يعنى من البكاء وقيل ما نخفى يعنى من الحزن المتمكن فى القلب وما نعلن يعنى ما جرى بينه وبين هاجر عند الوداع حين قالت لابراهيم عليه السلام الى من تكلنا قال الى الله قالت اذا لا يضيعنا (وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء) قيل هذا من تمة قول ابراهيم يعنى وما يخفى على الله الذى هو عالم الغيب من شئ فى كل مكان وقال الاكثرون انه من قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال فهو كقوله وكذلك يفعلون (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق) قال ابن عباس ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة وقال سعيد بن جبير بشر ابراهيم باسحق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة ومعنى قوله على الكبر مع الكبر لان هبة الولد فى هذا السن من اعظم المنن لانه سن اليأس من الولد فلهذا شكر الله على هذه المنة فقال الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق فان قلت كيف جمع بين اسمعيل واسحق فى الدعاء فى وقت واحد وانما بشر باسحق بعد اسمعيل بزمان طويل قلت يحتمل ان ابراهيم عليه السلام انما اتى بهذا الدعاء عند ما بشر باسحق وذلك انه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ولا يرد على هذا ما ورد فى الحديث انه دعا بما تقدم عند مفارقة اسمعيل وأمه لان الذى صح فى الحديث انه دعا بقوله ربنا انى أسكنت من ذريتى الى قوله لعلهم يشكرون اذا ثبت هذا فيكون قوله الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق فى وقت آخر والله اعلم بحقيقة الحال (ان ربى لسميع الدعاء) كان ابراهيم عليه السلام قد دعا ربه وسأله الولد بقوله رب هب لى من الصالحين فلما استجاب الله دعاءه ووهبه ما سأل شكر الله على ما أكرمه به من اجابة دعائه فعند ذلك قال الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء وهو من قولك سمع الملك كلام فلان فلان اذا اعتد به وقبله (رب اجعلنى مقيم الصلوة) يعنى ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها فى أوقاتها (ومن ذريتى) اى واجعل من ذريتى من

فشكر لله ما أكرمه به من اجابته واضافة السميع الى الدعاء من اضافة الصفة الى مفعولها وأصله لسميع الدعاء وقد ذكر سيبويه فعيلا فى جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك هذا رحيم اباه (رب اجعلنى مقيم الصلوة ومن ذريتى) وبعض ذريتى عطفا على المنصوب فى اجعلنى وانما بعض لانه علم باعلام الله انه يكون فى ذريته كفار عن ابن عباس رضى الله عنهما لا ينال من ولد ابراهيم ناس على الفطرة الى

دعائى او عبادتى واعتزلكم وما تدعون من دون الله (ربنا اغفر لى ولوالدى) اى آدم وحواء او قاله قبل النهى واليأس عن ايمان أبويه (وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) اى يثبت او أسند الى الحساب قيام اهله اسناد امجازيا مثل واسئل القرية (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) تسلية للمظلوم وتهديد للظالم والخطاب لغير الرسول عليه السلام وان كان للرسول فالمراد تثبيته عليه السلام على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر وكما جاء فى الامر يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله وقيل المراد به الايذان بانه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شئ وانه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله والله بما تعملون عليم (انما يؤخرهم) اى عقوبتهم (ليوم تشخص فيه الابصار) اى أبصارهم لا تقر فى اماكنها من هول ما ترى (مهطعين) مسرعين الى الداعى (مقنعى رؤسهم) رافعيها (لا يرتد اليهم طرفهم) لا يرجع اليهم نظرهم فينظروا الى أنفسهم (وافئدتهم هواء) صفر من الخير لا تعى شيأ من الخوف والهواء الخلاء الذى لم تشغله الاجرام فوصف به فقيل قلب فلان هواء اذا كان جبانا لا قوة فى قلبه ولا جراءة وقيل جوف لا عقول لهم

يقيم الصلاة وانما ادخل لفظة من التى هى للتبعيض فى قوله ومن ذريتى لانه علم باعلام الله اياه انه قد يوجد من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة فلهذا قال ومن ذريتى وأراد بهم المؤمنين من ذريته (ربنا وتقبل دعاء) سأل ابراهيم عليه السلام ربه أن يتقبل دعاءه فاستجاب الله لابراهيم وقبل دعاءه بفضله ومنه وكرمه (ربنا اغفر لى) فان قلت طلب المغفرة من الله انما يكون لسابق ذنب قد سلف حتى يطلب المغفرة من ذلك الذنب وقد ثبتت عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب فما وجه طلب المغفرة له قلت المقصود منه الالتجاء الى الله سبحانه وتعالى وقطع الطمع من كل شئ الا من فضله وكرمه والاعتراف بالعبودية لله تعالى والاتكال على رحمته (ولوالدى) فان قلت كيف استغفر ابراهيم لابويه وكانا كافرين قلت اراد انهما ان أسلما وتابا وقيل انما قال ذلك قبل ان يتبين له انهما من اصحاب الجحيم وقيل ان أمه أسلمت فدعا لها وقيل أراد بوالديه آدم وحواء (وللمؤمنين) يعنى واغفر للمؤمنين كلهم (يوم يقوم الحساب) يعنى يوم يبدو ويظهر الحساب وقيل أراد يوم يقوم الناس للحساب فاكتفى بذلك اى بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة قوله سبحانه وتعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) الغفلة معنى يمنع الانسان من الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعترى الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا فى حق الله محال فلا بد من تأويل الآية فالمقصود منها انه سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم للمظلوم ففيه وعيد وتهديد للظالم واعلام له بان لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا قال سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فان قلت تعالى الله عن السهو والغفلة فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم غافلا وهو أعلم الناس به أنه لم يكن غافلا حتى قيل له ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قلت اذا كان المخاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه وجهان أحدهما التثبيت على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا فهو كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر وكقوله سبحانه وتعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا اى اثبتوا على ما أنتم عليه من الايمان الوجه الثانى أن المراد بالنهى عن حسبانه غافلا الاعلام بانه سبحانه وتعالى عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه شئ وانه ينتقم منهم فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم والمعنى ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم ولكن يعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم المحاسب لهم على الصغير والكبير وان كان المخاطب غير النبى صلى الله عليه وسلم فلا اشكال فيه ولا سؤال لان أكثر الناس غير عارفين بصفات الله فمن جوز ان يحسبه غافلا فلجهله بصفاته (انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار) يقال شخص بصر الرجل اذا بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة من هول ما ترى فى ذلك اليوم (مهطعين) قال قتادة مسرعين وهذا قول ابى عبيدة فعلى هذا المعنى ان الغالب من حال من بقى بصره شاخصا من شدة الخوف أن يبقى واقفا باهتا فبين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية ان أحوال اهل الموقف يوم القيامة بخلاف الحال المعتادة فاخبر سبحانه وتعالى انهم مع شخوص الابصار يكونون مهطعين يعنى مسرعين نحو الداعى وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكت (مقنعى رؤسهم) الاقناع رفع الرأس الى فوق فاهل الموقف من صفتهم انهم رافعو رؤسهم الى السماء وهذا بخلاف المعتاد لان من يتوقع البلاء فانه يطرق ببصره الى الارض قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة الى السماء لا ينظر أحد الى أحد وهو قوله تعالى (لا يرتد اليهم طرفهم) اى لا ترجع اليهم أبصارهم من شدة الخوف فهى شاخصة لا ترتد اليهم قد شغلهم ما بين أيديهم (وأفئدتهم هواء) اى خالية قال قتادة

(وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب) اى يوم القيامة ويوم مفعول ثان لانذر لاظرف اذ الانذار لا يكون فى ذلك اليوم (فيقول الذين ظلموا) اى الكفار (ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) اى ردنا الى الدنيا وأمهلنا الى امد وحد من الزمان قريب نتدارك ما فرغنا فيه من اجابة دعوتك واتباع رسلك فيقال لهم (اولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) اى حلفتم فى الدنيا أنكم اذا متم لا تزالون عن تلك الحالة ولا تنتقلون الى دار أخرى يعنى كفرتم بالبعث كقوله واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت ومالكم جواب القسم وانما جاء بلفظ الخطاب كقوله أقسمتم ولو حكى لفظ المقسمين لقيل مالنا من زوال او أريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل او يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بالبشرى فانهم يسألون يومئذ ان يؤخرهم ربهم الى أجل قريب يقال سكن الدار وسكن فيها ومنه (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر ٩٣ لان السكنى من السكون وهو اللبث والاصل تعديته بفى نحو قر فى الدار واقام فيها ولكنه لما نقل الى سكون خاص تصرف فيه فقيل سكن الدار كما قيل تبوأها ويجوز ان يكون سكنوا من السكون اى قروا فيها واطمأنوا طيبى النفوس سائرين سيرة من قبلهم فى الظلم والفساد لا يحدثونها بما لقى الأولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا (وتبين لكم) بالاخبار او المشاهدة وفاعل تبين مضمر دل عليه الكلام اى تبين لكم حالهم و (كيف) ليس بفاعل لان الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وانما نصب كيف بقوله (فعلنا بهم) اى أهلكناهم وانتقمنا منهم (وضربنا لكم الامثال) اى صفات ما فعلوا وما فعل بهم وهى فى الغرابة كالامثال المضروبة لكل ظالم (وقد مكروا مكرهم) اى مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم وهو ما فعلوه من تأييد الكفر وابطال الاسلام (وعند الله مكرهم) وهو مضاف الى الفاعل كالاول والمعنى ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه او الى المفعول اى وعند الله مكرهم الذى يمكرهم به وهو عذابهم الذى يأتيهم من حيث لا يشعرون (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) بكسر اللام الاولى ونصب الثانية والتقدير وان وقع مكرهم لزوال أمر النبى صلى الله عليه وسلم فعبر عن أمر النبى عليه السلام بالجبال لعظم شأنه وكان تامة او ان نافية واللام مؤكدة لها كقوله وما كان الله ليعذبهم والمعنى ومحال ان تزول الجبال بمكرهم على ان الجبال مثل لآيات الله وشرائعه لانها بمنزلة الجبال الراسية ثباتا وتمكنا دليله قراءة ابن مسعود وما كان مكرهم وبفتح اللام الاولى ورفع الثانية على اى وان كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقطع عن أماكنها فان مخففة من ان واللام مؤكدة

خرجت قلوبهم من صدورهم فصارت فى حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود الى أماكنها ومعنى الآية ان أفئدتهم خالية فارغة لا تعى شيأ ولا تعقل من شدة الخوف وقال سعيد بن جبير وأفئدتهم هواء اى متر ددة تهوى فى أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ومعنى الآية ان القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها والابصار شاخصة والرؤس مرفوعة الى السماء من هول ذلك اليوم وشدته (وانذر الناس) يعنى وخوف الناس يا محمد بيوم القيامة وهو قوله سبحانه وتعالى (يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا) يعنى ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى (ربنا أخرنا الى أجل قريب) يعنى أمهلنا مدة يسيرة قال بعضهم طلبوا الرجوع الى الدنيا حتى يؤمنوا فينفعهم ذلك وهو قوله تعالى (نجب دعوتك ونتبع الرسل) فاجيبوا بقوله (أولم تكونوا أقسمتم من قبل) يعنى فى دار الدنيا (مالكم من زوال) يعنى مالكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) يعنى بالكفر والمعاصى ممن كان قبلكم من كفار الامم الخالية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) يعنى وقد عرفتم كيف كانت عقوبتنا اياهم (وضربنا لكم الامثال) يعنى الامثال التى ضربها الله عز وجل فى القرآن ليتدبروها ويعتبروا بها فيجب على كل من شاهد أحوال الماضين من الامم الخالية والقرون الماضية وعلم ما جرى لهم وكيف أهلكوا أن يعتبر بهم ويعمل فى خلاص نفسه من العقاب والهلاك قوله سبحانه وتعالى (وقد مكروا مكرهم) اختلفوا فى الضمير الى من يعود فى قوله وقد مكروا فقيل يعود الى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول صحيح لان الضمير يجب عوده الى أقرب مذكور وقيل ان المراد بقوله وقد مكروا كفار قريش الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ومكرهم ما ذكره الله تعالى بقوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا الآية والمعنى وانذر الناس يا محمد يوم يأتيهم العذاب يعنى بسبب مكرهم بك وقوله تعالى (وعند الله مكرهم) يعنى جزاء مكرهم وقيل ان مكرهم مثبت عند الله ليجازيهم به يوم القيامة (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) يعنى وان كان مكرهم لأضعف من ان تزول منه الجبال وقيل معناه ان مكرهم لا يزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكى عن على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه فى الآية قولا آخر وهو انها نزلت فى نمرود الجبار الذى حاج ابراهيم فى ربه فقال نمرود ان كان ما يقوله ابراهيم حقا فلا انتهى حتى أصعد الى السماء فاعلم ما فيها فعمد الى أربعة

(فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) يعنى قوله انا لننصر رسلنا كتب الله لاغلبن انا ورسلى مخلف مفعول ثان لتحسبن وأضاف مخلف الى

وعده وهو المفعول الثانى له والاول رسله والتقدير مخلف رسله وعده وانما قدم المفعول الثانى على الاول ليعلم انه لا يخلف الوعد

افراخ من النسور فرباهن حتى كبرت وشبت واتخذ تابوتا من خشب وجعل له بابا من أعلى وبابا من أسفل ثم جوع النسور ونصب خشبات أربعا فى أطراف التابوت وجعل على رؤس تلك الخشبات لحما أحمر وقعد هو فى التابوت وأقعد معه رجلا آخر وأمر بالنسور فربطت فى أطراف التابوت من أسفل فجعلت النسور كلما رأت اللحم رغبت فيه وطارت اليه فطارت النسور يوما أجمع حتى بعدت فى الهواء فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاعلى وانظر الى السماء هل قربنا منها ففتح ونظر فقال له ان السماء كهيئتها فقال له افتح الباب الاسفل فانظر الى الارض كيف تراها ففعل فقال ارى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاعلى ففعل فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سوداء مظلمة فنودى أيها الطاغى أين تريد قال عكرمة وكان معه فى التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب وأخذ معه الترس ورمى بسهم فعاد اليه السهم ملطخا بالدم سمكة قذفت بنفسها فى بحر فى الهواء وقيل ان طائرا أصابه السهم فلما رجع اليه السهم ملطخا بالدم قال كفيت اله السماء ثم أمر نمرود صاحبه ان يصوب الخشبات الى أسفل وينكس اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت وظنت انه قد حدث حدث من السماء وان الساعة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال واستبعد بعض العلماء هذه الحكاية وقال ان الخطر فيه عظيم ولا يكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الامر العظيم وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه ولا مناسبة لهذه الحكاية بتأويل الآية البتة (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) يعنى فلا تحسبن الله يا محمد مخلف ما وعد به رسله من النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين فانه ناصر رسله وأولياءه ومهلك أعداءه وفيه تقديم وتأخير تقديره ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده (ان الله عزيز) اى غالب (ذو انتقام) يعنى من أعدائه * قوله عز وجل (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) ذكر المفسرون فى معنى هذا التبديل قولين احدهما انه تبدل صفة الارض والسماء لا ذاتهما فاما تبديل الارض فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها وهو أن تدك جبالها وتسوى وهادها واوديتها وتذهب اشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها الا بقى على وجهها شئ الا ذهب وتمد مد الاديم وأما تبديل السماء فهو ان تنتثر كواكبها وتطمس شمسها وقمرها ويكوران وكونها تارة كالدهان وتارة كالمهل وبهذا القول قال جماعة من العلماء ويدل على صحة هذا القول ما روى عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ارض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس بها علم لاحد اخرجاه فى الصحيحين العفراء بالعين المهملة وهى البيضاء الى حمرة ولهذا شبهها بقرصة النقى وهو الخبز الجيد البياض الفائق المائل الى حمرة كأن النار مثلت بياض وجهها الى الحمرة وقوله ليس بها علم لاحد يعنى ليس فيها علامة لاحد بتبديل هيئتها وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به والقول الثانى هو تبديل ذوات الارض والسماء وهذا قول جماعة من العلماء ثم اختلفوا فى معنى هذا التبديل فقال ابن مسعود فى معنى هذه الآية قال تبدل الارض بارض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك بها دم ولم يعمل عليها خطيئة وقال على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه الارض من فضة والسماء من ذهب وقال أبى بن كعب فى معنى التبديل بان تصير الارض نيرانا والسماء جنانا وقال ابو هريرة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظى تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون

أصلا كقوله ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليؤذن انه اذا لم يخلف وعده أحدا فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته (ان الله عزيز) غالب لاياكر (ذو انتقام) لاوليائه من اعدائه وانتصاب (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) على الظرف للانتقام او على اضمار اذكر والمعنى يوم تبدل هذه الارض التى تعرفونها أرضا أخرى غير هذه المعروفة وتبدل السموات غير السموات وانما حذف لدلالة ما قبله عليه والتبديل التغيير وقد يكون فى الذوات كقولك بدلت الدراهم دنانير وفى الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا اذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل واختلف فى تبديل الارض والسموات فقيل تبدل اوصافها وتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الارض وانما تغير وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها ابوابا وقيل تخلق بدلها أرض وسموات أخر وعن ابن مسعود رضى الله عنه يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة وعن على رضى الله عنه تبدل ارضا من فضة وسموات من ذهب

(و برزوا) وخرجوا من قبورهم (لله الواحد القهار) هو كقوله لمن الملك اليوم لله الواحد القهار لان الملك اذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لاحد الى غيره كان الامر فى غاية الشدة (وترى المجرمين) الكافرين (يومئذ) يوم القيامة (مقرنين) قرن بعضهم مع بعض اومع الشياطين اوقرنت ايديهم الى ارجلهم مغللين (فى الاصفاد) متعلق بمقرنين اى يقرنون فى الاصفاد اوغير متعلق به والمعنى مقرنين مصفدين والاصفاد القيود اوالاغلال (سرابيلهم) قصصهم (من قطران) هو مايتحلب من ٩٥ شجر يسمى الابهل فيطبخ فيهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بحدته وحره ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار وهو اسود اللون منتن الريح فيطلى به جلود اهل النار حتى يعود طلاؤهم كالسرابيل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته واسراع النار فى جلودهم واللون الوحش ونتن الريح على ان التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين وكل ماوعده الله اوأوعده به فى الآخرة فبينه وبين مانشاهده من جنسه مالا يقادر قدره وكأنه ماعندنا منه الا الاسامى والمسميات ثم نعوذ بالله من سخطه وعذابه من قطر آن زيد عن يعقوب نحاس مذاب بلغ حره أناه (وتغشى وجوههم النار) تعلوها باشتعالها وخص الوجه لانه أعز موضع فى ظاهر البدن كالقلب فى باطنه ولذا قال تطلع على الافئدة (ليجزى الله كل نفس ما كسبت) اى يفعل بالمجرمين مايفعل ليجزى كل نفس مجرمة ما كسبت اوكل نفس مجرمة اومطيعة لانه اذا عاقب المجرمين لاجرامهم علم انه يثيب المؤمنين بطاعتهم (ان الله سريع الحساب) يحاسب جميع العباد فى أسرع من لمح البصر (هذا) اى ماوصفه فى قوله ولاتحسبن الى قوله سريع الحساب (بلاغ للناس) كفاية فى التذكير والموعظة (ولينذروا به) بهذا البلاغ وهو معطوف على محذوف اى لينصحوا ولينذروا (وليعلموا انما هو اله واحد) لانهم اذا خافوا ما أنذروا به دعتهم المخافة الى النظر حتى يتوصلوا الى التوحيد لان الخشية ام الخير كله (وليذكر أولو الالباب) ذوو العقول

الارض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته فى السفر نزلا لاهل الجنة اخرجاه فى الصحيحين بزيادة فيه قال الشيخ محيى الدين النووى فى شرح هذا الحديث أما النزل فبضم النون والزاى ويجوز اسكان الزاى وهو مايعد للضيف عند نزوله وأما الخبزة فبضم الخاء وقال أهل اللغة هى الطلمة التى توضع فى الملة يتكفؤها بالهمز بيده اى يميلها من يد الى يد حتى تجتمع وتسوى لانها ليست منبسطة كالرقاقة وقد حققنا الكلام فى اليد فى حق الله سبحانه وتعالى وتأويلها مع القطع باستحالة الجارحة عليه ليس كمثله شئ ومعنى الحديث ان الله سبحانه وتعالى يجعل الارض كالطلمة اى الرغيف العظيم وتكون طعاما نزلا لاهل الجنة والله على كل شئ قدير فان قلت اذا فسرت التبديل بما ذكرت فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى يومئذ تحدث أخبارها وهو ان تحدث بكل ماعمل عليها قلت وجه الجمع بين الآيتين ان الارض تبدل اولا صفتها مع بقاء ذاتها كما تقدم فيومئذ تحدث أخبارها ثم بعد ذلك تبدل تبديلا ثانيا وهو أن تبدل ذاتها بغيرها كما تقدم ايضا ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات فاين يكون الناس يومئذ يارسول الله فقال على الصراط اخرجه مسلم وروى ثوبان ان حبرا من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم اين يكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض قال هم فى الظلمة دون الجسر ذكره البغوى بغير سند ففى هذين الحديثين دليل على ان تبديل الارض ثانى مرة يكون بعد الحساب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وقوله تعالى (و برزوا) يعنى وخرجوا من قبورهم (لله) يعنى لحكم الله والوقوف بين يديه للحساب (الواحد القهار) صفتان لله تعالى فالواحد الذى لا ثانى له ولا شريك معه المنزه عن الشبه والضد والند والقهار الغالب الذى يقهر عباده على مايريد ويفعل مايشاء ويحكم مايريد قوله تعالى (وترى المجرمين يومئذ مقرنين) يعنى مشدودين بعضهم الى بعض يقال قرنت الشئ بالشئ اذا شددته معه فى رباط واحد (فى الاصفاد) يعنى فى القيود والاغلال قال ابن عباس يقرن كل كافر مع شيطانه فى سلسلة وقال أبو زيد تقرن أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالاصفاد وهى القيود وقال ابن قتيبة يقرن بعضهم الى بعض (سرابيلهم) يعنى قصصهم واحدها سربال وقيل السربال كل مالبس (من قطران) القطران دهن يتحلب من شجر الابهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الابل اذا جربت وهو الهناء يقال هنأت البعير أهنؤه بالهناء وهو القطران قال الزجاج وانما جعل لهم القطران سرابيل لانه يبالغ فى اشتعال النار فى الجلود ولو أراد الله المبالغة فى احراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم بما يعرفون وقرأ عكرمة ويعقوب من قطر آن على كلمتين منونتين فالقطر النحاس المذاب والآن الذى انتهى حره (وتغشى وجوههم النار) يعنى تعلوها وتجللها (ليجزى الله كل نفس ما كسبت) يعنى من خير أوشر (ان الله سريع الحساب) يعنى اذا حاسب عباده يوم القيامة (هذا بلاغ للناس) يعنى هذا القرآن فيه تبليغ وموعظة للناس (ولينذروا به) يعنى وليخوفوا بالقرآن ومواعظه وزواجره (وليعلموا أنما هو اله واحد) يعنى وليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى (وليذكر أولو الالباب) يعنى وليتعظ بهذا القرآن ومافيه من

المواعظ أولو العقول والافهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة الحجر)

مكية باجماعهم وهي تسع وتسعون آية وستمائة وأربع وخمسون كلمة وألفان وسبعمائة وستون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله سبحانه وتعالى (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) تلك اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب وبالقرآن المبين الكتاب الذي وعد الله به محمدا صلى الله عليه وسلم وتنكير القرآن للتفخيم والتعظيم والمعنى تلك آيات ذلك الكتاب الكامل في كونه كتابا وفي كونه قرآنا واي قرآن كأنه قيل الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان وقيل أراد بالكتاب التوراة والانجيل لانه عطف القرآن على الكتاب والمعطوف غير المعطوف عليه وهذا القول ليس بالقوي لانه لم يجر للتوراة والانجيل ذكر حتى يشار اليهما وقيل المراد بالكتاب القرآن وانما جمعهما بوصفين وان كان الموصوف واحدا لما في ذلك من الفائدة وهي التفخيم والتعظيم والمبين الذي يبين الحلال من الحرام والحق من الباطل (ربما) قرئ بالتخفيف والتشديد وهما لغتان ورب للتقليل وكم للتكثير وانما زيدت ما مع رب ليليها الفعل تقول رب رجل جاءني وربما جاءني زيد وان شئت جعلت ما بمنزلة شئ كأنك قلت رب شئ فيكون المعنى رب شئ (يود الذين كفروا) وقيل ما في ربما بمعنى حين اي رب حين يود يعني يتمنى الذين كفروا الان التمني هو تشهي حصول ما يوده واختلف المفسرون في الوقت الذي يتمنى الذين كفروا (لو كانوا مسلمين) على قولين أحدهما ان ذلك يكون عند معاينة العذاب وقت الموت فحينئذ يعلم الكافر انه كان على الضلال فيتمنى لو كان مسلما وذلك حين لا ينفعه ذلك التمني قال الضحاك هو عند حالة المعاينة والقول الثاني ان هذا التمني يكون في الآخرة وذلك حين يعاينون اهوال يوم القيامة وشدائده وما يصيرون اليه من العذاب فحينئذ يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقال الزجاج ان الكافر كلما رأى حالا من احوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ود لو كان مسلما وقيل اذا رأى الكافر ان الله تعالى يرحم المسلمين ويشفع بعضهم في بعض حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين والقول المشهور ان ذلك التمني حين يخرج الله المؤمنين من النار عن أبي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا اجتمع اهل النار في النار ومعهم من شاء الله من اهل القبلة قال الكفار لهم في النار من اهل القبلة ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم اسلامكم وأنتم معنا في النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفرها الله لهم بفضل رحمته فيأمر الله بكل من كان من اهل القبلة في النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذكره البغوي بغير سند وكذا ذكره ابن الجوزي وقال واليه ذهب ابن عباس في رواية عنه وأنس بن مالك ومجاهد وعطاء وأبو العالية وابراهيم يعني النخعي فان قلت رب انما وضعت للتقليل وتمني الذين كفروا لو كانوا مسلمين يكثر يوم القيامة فكيف قال ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين قلت قال صاحب الكشاف هو وارد على مذهب العرب في قولهم لعلك ستندم على فعلك وربما ندم الانسان على فعله ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون تقليله ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكا فيه او كان قليلا لحق عليك ان لا تفعل هذا الفعل لان العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما يتحرزون من الكثير وقال

اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب والقرآن المبين السورة وتنكير القرآن للتفخيم والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتابا واي قرآن مبين كانه قيل الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان (ربما) بالتخفيف مدني وعاصم وبالتشديد غيرهما وما هي الكافة لانها حرف يجر ما بعده ويختص بالاسم النكرة فاذا كفت وقع بعدها الفعل الماضي والاسم وانما جاز (يود الذين كفروا) لان المترقب في اخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكانه قيل ربما ود وودادتهم تكون عند النزع او يوم القيامة اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين او اذا رأوا المسلمين يخرجون من النار فيتمنى الكافر لو كان مسلما كذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما (لو كانوا مسلمين) حكاية ودادتهم وانما جيء بها على لفظ الغيبة لانهم مخبر عنهم كقولك حلف بالله ليفعلن ولو قيل حلف بالله لافعلن ولو كنا مسلمين لكان حسنا وانما قلل برب لان اهوال القيامة تشغلهم عن التمني فاذا أفاقوا من سكرات العذاب ودوا لو كانوا مسلمين وقول من قال ان رب يعني بها الكثرة سهو لانه ضد ما يعرفه اهل اللغة لانها وضعت للتقليل

غيره

(ذرهم) امر اهانة اى اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم (ويلههم الامل) ويشغلهم املهم وأمانيهم عن الايمان (فسوف يعلمون) سوء صنيعهم وفيه تنبيه على ان ايثار التلذذ والتنعم ومايؤدى اليه طول الامل ليس من اخلاق المؤمنين (وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم) ولما كتاب جملة واقعة صفة لقرية والقياس ان لا يتوسط الواو بينهما كما فى وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون وانما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف اذ الصفة ملتصقة بالموصوف بلا واو وفى مبالواو تأكيد ذلك والوجه ان تكون هذه الجملة حالا ٩٧ القرية لكونها فى حكم الموصوفة كأنه قيل وما اهلكنا قرية من القرى لا وصفا وقوله كتاب معلوم اى مكتوب معلوم وهو اجلها الذى كتب فى اللوح المحفوظ وبين الاترى الى قوله (ما تسبق من امة اجلها) فى موضع كتابها (وما يستأخرون) اى عنه وحذف لانه معلوم وأنث الامة أولا ثم ذكرها آخرا حملا على اللفظ والمعنى (وقالوا) اى الكفار (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) اى القرآن (انك لمجنون) يعنون محمدا عليه السلام وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه الى الجنون والتعكيس فى كلامهم للاستهزاء والتهكم سائغ ومنه فبشرهم بعذاب اليم انك لأنت الحليم الرشيد

غيره ان هذا التقليل ابلغ فى التهديد ومعناه يكفيك قليل الندم فى كونه زاجرا لك عن هذا الفعل فكيف بكثيره وقيل ان شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة انما يخطر ذلك ببالهم فان قلت رب لا تدخل الا على الماضى فكيف قال ربما يودو هو فى المستقبل قلت لان المترقب فى اخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه كأنه قال ربما ود وقوله سبحانه وتعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) يعنى دع يا محمد هؤلاء الكفار يأكلوا فى دنياهم ويتمتعوا بلذاتها (ويلههم الامل) يعنى ويشغلهم طول الامل عن الايمان والاخذ بطاعة الله تعالى (فسوف يعلمون) يعنى اذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا وهذا فيه تهديد ووعيد لمن أخذ بحظه من الدنيا ولذاتها ولم يأخذ بحظه من طاعة الله عز وجل قال بعض اهل العلم ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديد آخر فتى يهنأ العيش بين تهديدين وهذه الآية منسوخة بآية القتال وفى الآية دليل على ان ايثار التلذذ والتنعم فى الدنيا يؤدى الى طول الامل وليس ذلك من اخلاق المؤمنين قال على بن أبى طالب انما أخشى عليكم اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق (وما أهلكنا من قرية) يعنى من اهل قرية وأراد اهلاك الاستئصال (الا ولها كتاب معلوم) اى اجل مضروب ووقت معين لا يتقدم العذاب عليه ولا يتأخر عنه ولا يأتيهم الا فى الوقت الذى حد لهم فى اللوح المحفوظ (ما تسبق من أمة أجلها) من زائدة فى قوله من أمة كقولك ما جاءنى من أحد يعنى أحد وقيل هى على أصلها لانها تفيد التبعيض الى هذا الحكم فيكون ذلك فى افادة عموم النفى آكد ومعنى الآية ان الاجل المضروب لهم وهو وقت الموت او نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وهو قوله سبحانه وتعالى (وما يستأخرون) وانما ادخل الهاء فى أجلها لارادة الامة وأخرجها من قوله وما يستأخرون لارادة الرجال * قوله عز وجل (وقالوا) يعنى مشركى مكة (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) يعنى القرآن وارادوا به محمدا صلى الله عليه وسلم (انك لمجنون) انما نسبوه الى الجنون لانه صلى الله عليه وسلم كان يظهر عند نزول الوحى عليه ما يشبه الغشى فظنوا ان ذلك جنون فلهذا السبب نسبوه الى الجنون وقيل ان الرجل اذا سمع كلاما مستغربا من غيره فربما نسبه الى الجنون ولما كانوا يستبعدون كونه رسولا من عند الله وأتى بهذا القرآن العظيم أنكروه ونسبوه الى الجنون وانما قالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر على طريق الاستهزاء وقيل معناه يا أيها الذى نزل عليه الذكر فى زعمه واعتقاده واعتقاد اصحابه واتباعه انك لمجنون فى ادعائك الرسالة (لو ما) قال الزجاج والفراء لو ما ولو لا لغتان ومعناهما هلا يعنى هلا (تأتينا بالملائكة) يعنى يشهدون لك بانك رسول من عند الله حقا (ان كنت من الصادقين) يعنى فى قولك وادعائك الرسالة (ما ننزل الملائكة الا بالحق) يعنى بالعذاب او وقت الموت وهو قوله تعالى (وما كانوا اذا منظرين) يعنى لو نزلت الملائكة اليهم لم يمهلوا ولم يؤخروا ساعة واحدة وذلك ان كفار مكة كانوا يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم انزال الملائكة

والمعنى انك لتقول قول المجانين حيث تدعى ان الله نزل عليك الذكر (لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين) لو ركبت مع لا ومالامتناع الشئ لوجود غيره او للتحضيض وهل ركبت مع لا للتحضيض فحسب والمعنى هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك او هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك ان كنت صادقا (ما ننزل الملائكة) كوفى غير ابى بكر تنزل الملائكة ابو بكر تنزل الملائكة اى تتنزل غيرهم (الا بالحق) الا تنزيلا ملتبسا بالحكمة (وما كانوا اذا منظرين) اذا جواب لهم وجزاء الشرط مقدر تقديره ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين اذا وما أخر عذابهم

عيانا فاجابهم الله عز وجل بهذا والمعنى لو نزلوا عيانا لزال عن الكفار الامهال وعذبوا فى الحال ان لم يؤمنوا ويصدقوا (انا نحن نزلنا الذكر) يعنى القرآن أنزلناه عليك يا محمد وانما قال سبحانه وتعالى انا نحن نزلنا الذكر جوابا لقولهم يا أيها الذى نزل عليه الذكر فاخبر الله عز وجل انه هو الذى نزل الذكر على محمد صلى الله عليه وسلم (وانا له لحافظون) الضمير فى له يرجع الى الذكر يعنى وانا للذكر الذى أنزلناه على محمد لحافظون يعنى من الزيادة فيه والنقص منه والتغيير والتبديل والتحريف فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والانس أن يزيد فيه او ينقص منه حرفا واحدا او كلمة واحدة وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان ولما تولى الله عز وجل حفظ هذا الكتاب بقى مصونا على الابد محروسا من الزيادة والنقصان وقال ابن السائب ومقاتل الكناية فى له راجعة الى محمد صلى الله عليه وسلم يعنى وانا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس ووجه هذا القول ان الله سبحانه وتعالى لما ذكر الانزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم فحسن صرف الكناية اليه لكونه أمرا معلوما الا ان القول الاول أصح واشهر وهو قول الاكثرين لانه اشبه بظاهر التنزيل ورد الكناية الى أقرب مذكور أولى وهو الذكر واذا قلنا ان الكناية عائدة الى القرآن وهو الاصح فاختلفوا فى كيفية حفظ الله عز وجل للقرآن فقال بعضهم حفظه بان جعله معجزا باقيا مباينا لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان منه لانهم لو أرادوا الزيادة فيه والنقصان منه لتغير نظمه وظهر ذلك لكل عالم عاقل وعلموا ضرورة ان ذلك ليس بقرآن وقال آخرون ان الله حفظه وصانه من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارضه وقال آخرون بل أعجز الله الخلق عن ابطاله وافساده بوجه من الوجوه فقيض الله له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه الى آخر الدهر لان دواعى جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على ابطاله وافساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله تعالى قوله سبحانه وتعالى (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الاولين) لما تجرأ كفار مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطبوه بالسفاهة وهو قولهم انك لمجنون وأساؤا الادب عليه أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان عادة الكفار فى قديم الزمان مع انبيائهم كذلك فلك يا محمد أسوة فى الصبر على اذى قومك بجميع الانبياء ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وفى الآية محذوف تقديره ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يا محمد فحذف ذكر الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله تعالى فى شيع الاولين الشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم وقال الفراء الشيعة هم الاتباع وشيعة الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان وقوله فى شيع الاولين من باب اضافة الصفة الى الموصوف (وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين) السلوك النفاذ فى الطريق والدخول فيه والسلك ادخال الشئ فى الشئ كادخال الخيط فى الخرز ومعنى الآية كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء فى قلوب شيع الاولين كذلك نسلكه اى ندخله فى قلوب المجرمين يعنى مشركى مكة وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهى ابين آية فى ثبوت القدر لان اذعن للحق ولم يعاند قال الواحدى قال اصحابنا أضاف الله سبحانه وتعالى الى نفسه ادخال الكفر فى قلوب الكفار وحسن ذلك منه فمن آمن بالقرآن فليستحسنه وقال الامام فخر الدين الرازى احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يخلق الباطل والضلال فى قلوب الكفار فقالوا قوله كذلك نسلكه اى كذلك نسلك الباطل والضلال فى قلوب المجرمين وقالت المعتزلة لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ فلا يمكن ان يكون الضمير عائدا اليه وأجيب عنه بانه سبحانه وتعالى قال وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن

انا نحن فاكد عليهم انه هو المنزل على القطع وانه هو الذى نزله محفوظا من الشياطين وهو حافظه فى كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل بخلاف الكتب المتقدمة فانه لم يتول حفظها وانما استحفظها الربانيين والاحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا فوقع التحريف ولم يكل القرآن الى غير حفظه وقد جعل قوله وانا له لحافظون دليلا على انه منزل من عنده آية اذ لو كان من قول البشر او غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه او الضمير فى له لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله والله يعصمك (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الاولين) اى ولقد ارسلنا من قبلك رسلا فى الفرق الاولين والشيعة الفرقة اذا اتفقوا على مذهب وطريقة (وما يأتيهم) حكاية حال ماضية لان ما لا تدخل على مضارع الا وهو فى معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال (من رسول الا كانوا به يستهزؤن) يعزى نبيه عليه السلام (كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين) اى كما سلكنا الكفر او الاستهزاء فى شيع الاولين نسلكه اى الكفر او الاستهزاء فى قلوب المجرمين من أمتك من اختار ذلك يقال سلكت الخيط فى الابرة واسلكته اذا أدخلته فيها وهو حجة على المعتزلة فى الاصلح وخلق الافعال

فالضمير

فالضمير فى قوله كذلك نسلكه عائد اليه والاستهزاء بالانبياء كفر وضلال فثبت صحة قولنا ان المراد من قوله كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين انه الكفر والضلال وقوله تعالى (لا يؤمنون به) يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن (وقد خلت سنت الاولين) فيه وعيد وتهديد لكفار مكة يخوفهم ان ينزل بهم مثل ما نزل بالامم الماضية المكذبة للرسل والمعنى وقد مضت سنة الله باهلاك من كذب الرسل من الامم الماضية فاحذروا يا أهل مكة ان يصيبكم مثل ما اصابهم من العذاب (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون) يعنى ولو فتحنا على هؤلاء الذين قالوا لو ما تأتينا بالملائكة بابا من السماء فظلوا يقال ظل فلان يفعل كذا اذا فعله بالنهار كما يقال بات يفعل كذا اذا فعله بالليل فيه يعنى فى ذلك الباب يعرجون يعنى يصعدون والمعارج المصاعد وفى المشار اليه بقوله فظلوا فيه يعرجون قولان أحدهما انهم الملائكة وهو قول ابن عباس والضحاك والمعنى لو كشف عن ابصار هؤلاء الكفار فرأوا بابا من السماء مفتوحا والملائكة تصعد فيه لما آمنوا والقول الثانى انهم المشركون وهو قول الحسن وقتادة والمعنى فظل المشركون يصعدون فى ذلك الباب فينظرون فى ملكوت السموات وما فيها من الملائكة لما آمنوا لعنادهم وكفرهم ولقالوا انما سحرنا وهو قوله تعالى (لقالوا انما سكرت ابصارنا) قال ابن عباس سدت أبصارنا مأخوذ من سكر النهر اذا حبس ومنع من الجرى وقيل هو من سكر الشراب والمعنى ان ابصارهم حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع للرجل السكران من تغير العقل وفساد النظر وقيل سكرت يعنى غشيت ابصارنا وسكنت عن النظر وأصله من السكون يقال سكرت عينه اذا تحيرت وسكنت عن النظر (بل نحن قوم مسحورون) يعنى سحرنا محمد وعمل فينا سحره وحاصل الآية ان الكفار لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينزل عليهم الملائكة فيرونهم عيانا ويشهدوا بصدقه اخبر الله سبحانه وتعالى انه لو حصل لهم هذا وشاهدوه عيانا لما آمنوا ولقالوا سحرنا لما سبق لهم فى الازل من الشقاوة قوله سبحانه وتعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) البروج التى تنزلها الشمس فى مسيرها واحدها برج وهى بروج الفلك الاثنا عشر برجا وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلا لكل برج منزلان وثلث منزل وقد تقدم ذكر منازل القمر فى تفسير سورة يونس وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس فى كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر فى ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس فى هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر يعنى منازلهما وقال ابن عطية هى قصور فى السماء عليها الحرس وقال الحسن ومجاهد وقتادة هى النجوم العظام قال ابو اسحق يريدون نجوم هذه البروج وهى نجوم على ما صورت به وسميت وأصل هذا كله من الظهور (وزيناها) يعنى السماء بالشمس والقمر والنجوم (للناظرين) يعنى المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها وصانعها وهو الله الذى اوجد كل شئ وخلقه وصوره (وحفظناها) يعنى السماء (من كل شيطان رجيم) اى مرجوم فعيل بمعنى مفعول وقيل ملعون مطرود من رحمة الله قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويأتون باخبارها الى الكهنة فيلقونها اليهم فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات أجمع فما منهم من أحد يريد ان يسترق السمع الا رمى بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث فى الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا هذا والله حدث (الا من استرق السمع) هذا استثناء منقطع معناه لكن من استرق السمع (فأتبعه) اى لحقه (شهاب مبين) والشهاب شعلة من نار ساطع سمى الكوكب شهابا لاجل ما فيه من البريق شبه بشهاب

وهو وعيد لاهل مكة على تكذيبهم (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) ولو اظهرنا لهم اوضح آية وهو فتح باب من السماء (فظلوا فيه يعرجون) يصعدون (لقالوا انما سكرت أبصارنا) حيرت او حبست من الابصار من السكر او من السكر سكرت مكى اى حبست كما يحبس النهر من الجرى والمعنى ان هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم فى العناد ان لو فتح لهم باب من ابواب السماء ويسر لهم معراج يصعدون فيه اليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا هو شئ نتخايله لا حقيقة له ولقالوا (بل نحن قوم مسحورون) قد سحرنا محمد بذلك او الضمير للملائكة اى لو أريناهم الملائكة يصعدون فى السماء عيانا لقالوا ذلك وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون وقال انما لبدل على انهم يبتون القول بان ذلك ليس الا تسكيرا للابصار (ولقد جعلنا فى السماء) خلقنا فيها (بروجا) نجوما او قصورا فيها الحرس او منازل للنجوم (وزيناها) اى السماء (للناظرين وحفظناها) اى السماء (من كل شيطان رجيم) ملعون او مرمى بالنجوم (الا من استرق السمع) اى المسموع ومن فى محل النصب على الاستثناء (فأتبعه شهاب) نجم ينقض فيعود (مبين)

النار قال ابن عباس في قوله الا من استرق السمع يريد الخطفة اليسيرة وذلك ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا تخطئ أبدا فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه او جنبه او يده او حيث يشاء الله ومنهم من تخبله فيصير غولا يضل الناس في البوادي (خ) عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر في السماء ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله كانه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض و وصف سفيان بكفه فحرفها و بدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر او الكاهن فربما ادركه الشهاب قبل ان يلقيها و ربما ألقاها قبل ان يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال له اليس قد قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء

* (فصل) * اختلف العلماء هل كانت الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا على قولين احدهما انها لم تكن ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما ظهر ذلك في بدء امره فكان ذلك أساسا لنبوته صلى الله عليه وسلم و يدل على صحة هذا القول ما روى عن ابن عباس قال انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من اصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين و بين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب اخرجاه في الصحيحين فظاهر هذا الحديث يدل على ان هذا الرمى بالشهب لم يكن قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم فلما بعث حدث هذا الرمى و يعضده ما روى ان يعقوب بن المغيرة بن الاخنس بن شريق قال اول من فزع للرمى بالنجوم هذا الحى من ثقيف وانهم جاؤا الى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية احد بني علاج وكان اهدى العرب فقالوا له الم تر ما حدث في السماء من القذف بالنجوم فقال بلى ولكن انظروا فان كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر و يعرف بها الانواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهو والله طي الدنيا وهلاك الخلق الذين فيها وان كانت نجوما غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا الامر أراده الله من الخلق قال الزجاج و يدل على انها كانت بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم ان شعراء العرب الذين ذكروا البرق والاشياء السريعة لم يوجد في شعرهم ذكر الكواكب المنقضة فلما حدثت بعد مولده صلى الله عليه وسلم استعملت الشعراء ذكرها قال ذو الرمة

كانه كوكب في اثر عفرية * مسوم في سواد الليل منقضب

والقول الثاني ان ذلك كان موجودا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لما بعث شددوا غلظ عليهم قال معمر قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم قلت أفرأيت قوله وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فقال غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم و يدل على صحة هذا القول ما روى عن ابن عباس قال أخبرني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الانصار انهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ رمى بنجم واستنار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تقولون في الجاهلية اذا رمى بمثل هذا قالوا كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم او مات رجل عظيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك اسمه اذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح الى أهل هذه السماء ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم بما قال فيستخبر بعض أهل السماء بعضا حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفونه الى اوليائهم و يرمون فما جاؤا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه و يزيدون أخرجه مسلم وقال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه

ظاهر للبصرين قيل كانوا لا يحجبون عن السموات كلها فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها

ولكن لم يكن فى شدة الحراسة مثل بعد مبعثه قال وعلى هذا وجدنا الشعر القديم قال بشر بن ابى خازم وهو جاهلى

فالعير يرهقها الغبار وجحشها * ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر وهو جاهلى

فانقض كالدرى يتبعه * نقع يثور تخاله طنبا

والجمع بين هذين القولين ان الرمى بالنجوم كان موجودا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فلما بعث شدد ذلك وزيد فى حفظ السماء وحراستها صونا لاخبار الغيوب والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (والارض مددناها) يعنى بسطناها على وجه الماء كما يقال انها دحيت من تحت الكعبة ثم بسطت هذا قول أهل التفسير وزعم أرباب الهيئة انها كرة عظيمة بعضها فى الماء وبعضها خارج عن الماء وهو الجزء المعمور منها واعتذروا عن قوله تعالى والارض مددناها بان الكرة اذا كانت عظيمة كان كل جزء منها كالسطح العظيم فثبت بهذا الامران الارض ممدودة مبسوطة وانها كرة وردهذا أصحاب التفسير بان الله أخبر فى كتابه بانها ممدودة وانها مبسوطة ولو كانت كرة لاخبر بذلك والله أعلم بمراده وكيف مد الارض (وألقينا فيها رواسى) يعنى جبالا ثوابت وذلك ان الله سبحانه وتعالى لما خلق الارض على الماء مادت ورجفت فاثبتها بالجبال (وانبتنا فيها) اى فى الارض لان أنواع النبات المنتفع به تكون فى الارض وقيل الضمير يرجع الى الجبال لانها أقرب مذكور ولقوله تعالى (من كل شئ موزون) وانما يوزن ما تولد فى الجبال من المعادن وقال ابن عباس وسعيد بن جبير موزون اى معلوم وقال مجاهد وعكرمة اى مقدور فعلى هذا يكون المعنى معلوم القدر عند الله تعالى لان الله سبحانه وتعالى يعلم القدر الذى يحتاج اليه الناس فى معايشهم وأرزاقهم فيكون اطلاق الوزن عليه مجازا لان الناس لا يعرفون مقادير الاشياء الا بالوزن وقال الحسن وعكرمة وابن زيد انه عنى به الشئ الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد والكحل ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن لان هذه الاشياء كلها توزن وقيل معنى موزون متناسب فى الحسن والهيئة والشكل تقول العرب فلان موزون الحركات اذا كانت حركاته متناسبة حسنة وكلام موزون اذا كان متناسبا حسنا بعيدا من الخطا والسخف وقيل ان جميع ما ينبت فى الارض والجبال نوعان احدهما ما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثانى النبات وبعضه موزون ايضا وبعضه مكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد مقدران بالوزن (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة وهو ما يعيش به الانسان مدة حياته فى الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس ونحو ذلك (ومن لستم له برازقين) يعنى الدواب والوحش والطير أنتم منتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله ومنه قوله تعالى وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها وتكون من فى قوله تعالى ومن لستم بمعنى ما لان من لمن يعقل وما لمن لا يعقل وقيل يجوز اطلاق لفظة من على من لا يعقل كقوله تعالى فمنهم من يمشى على بطنه وقيل أراد بهم العبيد والخدم فتكون من على أصلها ويدخل معهم ما لا يعقل من الدواب والوحش (وان من شئ الا عندنا خزائنه) الخزائن جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشئ للحفظ يقال خزن الشئ اذا أحرزه فقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل أراد بالخزائن المطر لانه سبب الارزاق والمعايش لبنى آدم والدواب والوحش والطير ومعنى عندنا انه فى حكمه وتصرفه وأمره وتدبيره قوله تعالى (وما ننزله الا بقدر معلوم) يعنى بقدر الكفاية وقيل ان لكل أرض حدا ومقدارا من المطر يقال لا تنزل من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها الى حيث يشاء الله تعالى وقيل ان المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لا يزيد ولا ينقص ولكن الله يمطر قوما ويحرم آخرين وقيل اذا أراد الله بقوم خيرا أنزل

الارض جبالا ثوابت (وأنبتنا فيها من كل شئ موزون) وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان اوله وزن وقدر فى أبواب المنفعة والنعمة او ما يوزن كالزعفران والذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها وخص ما يوزن لانتهاء الكيل الى الوزن (وجعلنا لكم فيها) فى الارض (معايش) ما يعاش به من المطاعم جمع معيشة وهى بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فان تصريح الياء فيها خطأ (ومن لستم له برازقين) من فى محل النصب بالعطف على معايش او على محل لكم كانه قيل وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم من لستم له برازقين او جعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يظنون أنهم يرزقونهم ويخطؤن فان الله هو الرزاق يرزقهم واياهم ويدخل فيه الأنعام والدواب ونحو ذلك ولا يجوز ان يكون محل من جرا بالعطف على الضمير المجرور فى لكم لانه لا يعطف على الضمير المجرور الا باعادة الجار (وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) ذكر الخزائن تمثيل والمعنى وما من شئ ينتفع به العباد الا ونحن قادرون على ايجاده وتكوينه والانعام به وما نعطيه الا بمقدار معلوم فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور

(وأرسلنا الرياح لواقح) جمع لاقحة اى وأرسلنا الرياح حوامل بالسحاب لانها تحمل السحاب فى جوفها كانها الاقحة بها من لقحت الناقة حملت وضدها العقيم الريح حرة (فأنزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه) فجعلناه لكم سقيا (وما أنتم له بخازنين) نفى عنهم ما اثبته لنفسه فى قوله وان من شئ الا عندنا خزائنه كانه قال نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه فى السماء وانزاله منها وما أنتم عليه بقادرين دلالة عظيمة على قدرته وعجزهم (وانا لنحن نحيى ونميت) اى نحيى بالايجاد ونميت بالافناء او نميت عند انقضاء الآجال ونحيى بجزاء الاعمال على التقديم والتأخير اذ الواو للجمع المطلق (ونحن الوارثون) الباقون بعد هلاك الخلق كلهم وقيل للباقى وارث استعارة من وارث الميت لانه يبقى بعد فنائه (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) من تقدم ولادة وموتا ومن تأخر اومن خرج من اصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد اومن تقدم فى الاسلام اوفى الطاعة اوفى صف الجماعة اوصف الحرب ومن تأخر

عليهم المطر والرحمة واذا أراد بقوم شرا صرف المطر عنهم الى حيث لا ينتفع به كالبرارى والقفار والرمال والبحار ونحو ذلك وحكى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده انه قال فى العرش تمثال جميع ما خلق الله فى البر والبحر وهو تأويل قوله وان من شئ الا عندنا خزائنه (وأرسلنا الرياح لواقح) قال ابن عباس يعنى للشجر وهو قول الحسن وقتادة وأصل هذا من قولهم لقحت الناقة وألقحها الفحل اذا ألقى اليها الماء فحملته فكذلك الرياح كالفحل للسحاب وقال ابن مسعود فى تفسير هذه الآية يرسل الله الريح لتلقح السحاب فتحمل الماء فتمجه فى السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة وقال عبيد بن عمير يرسل الله الريح المبشرة فتقم الارض قما ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب ثم يرسل المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يرسل اللواقح فتلقح الشجر والاظهر فى هذه الآية القاحها السحاب لقوله بعده فانزلنا من السماء ماء قال أبو بكر بن عياش لا تقطر قطرة من السماء الا بعد ان تعمل الرياح الاربع فيها فالصبا تهيج السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه وقال ابو عبيد لواقح هنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة حذفت الميم وردت الى الاصل وقال الزجاج يجوز ان يقال لها لواقح وان ألقحت غيرها الا ان معناه النسبة كما يقال درهم وازن اى ذو وزن واعترض الواحدى على هذا فقال هذا ليس بمعنى لانه كان يجب ان يصح اللاقح بمعنى ذات لقح حتى يوافق قول المفسرين وأجاب الرازى عنه بأن قال هذا ليس بشئ لان اللاقح هو المنسوب الى اللقحة ومن أفاد غير اللقحة فله نسبة الى اللقحة وقال صاحب المفردات لواقح اى ذات لقاح وقيل ان الريح فى نفسها لاقح لانها حاملة للسحاب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى حتى اذا أقلت سحابا ثقالا اى حملت فعلى هذا تكون الريح لاقحة بمعنى حاملة تحمل السحاب وقال الزجاج ويجوز ان يقال للريح لقحت اذا أتت بالخير كما قيل لها عقيم اذا لم تأت بخير وورد فى بعض الاخبار ان الملقح الرياح الجنوب وفى بعض الآثار ما هبت رياح الجنوب الا وأنبعت عينا غدقة (ق) عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم انى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وروى البغوى بسنده الى الشافعى الى ابن عباس قال ما هبت ريح قط الا جثا النبى صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا قال ابن عباس فى كتاب الله عز وجل انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فارسلنا عليهم الريح العقيم وقال وأرسلنا الرياح لواقح وقال يرسل الرياح مبشرات وقوله سبحانه وتعالى (فانزلنا من السماء ماء) يعنى المطر (فاسقيناكموه) يعنى جعلناكم المطر سقيا يقال أسقى فلان فلانا اذا جعل له سقيا وسقاه اذا أعطاه ما يشرب وتقول العرب سقيت الرجل ماء ولبنا اذا كان لسقيه فاذا جعلوا له ماء للشرب أرضه او ماشيته يقال أسقيناه (وما أنتم له) يعنى للمطر (بخازنين) يعنى ان المطر فى خزائننا لا فى خزائنكم وقيل وما أنتم له بمانعين (وانا لنحن نحيى ونميت) يعنى بيدنا احياء الخلق واماتتهم لا يقدر على ذلك أحد الا الله سبحانه وتعالى لان قوله تعالى وانا لنحن يفيد الحصر يعنى لا يقدر على ذلك سوانا (ونحن الوارثون) وذلك بان نميت جميع الخلق فلا يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك ويبقى جميع ملك المالكين لها والوارث هو الباقى بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقى بعد فناء خلقه الذين أمتعهم بما آتاهم فى الحياة الدنيا لان وجود الخلق وما آتاهم كان ابتداؤه منه تعالى فاذا فنى جميع الخلائق رجع الذى كانوا يملكونه فى الدنيا على المجاز الى مالكه على الحقيقة وهو الله تعالى وقيل مصير الخلق اليه * قوله عز وجل (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) عن ابن عباس قال كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس فكان بعض الناس يتقدم حتى يكون فى الصف الاول لئلا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر فاذا ركع نظر من تحت ابطيه فانزل الله

عز وجل ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين أخرجه النسائى وأخرجه الترمذى وقال فيه وقد روى عن ابن الجوزى نحوه ولم يذكر فيه عن ابن عباس وهذا أشبه ان يكون أصح قال البغوى وذلك ان النساء كن يخرجن الى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان من الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر الى آخر صف الرجال ومن النساء من فى قلبها ريبة فتتقدم الى اول صف النساء لتقرب من الرجال فنزلت هذه الآية فعند ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال اولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها اولها أخرجه مسلم عن ابى هريرة وقال ابن عباس أراد بالمستقدمين من خلق الله وبالمستأخرين من لم يخلق الله تعالى بعد وقال مجاهد المستقدمون القرون الاولى والمستأخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الحسن المستقدمون يعنى فى الطاعة والخير والمستأخرون يعنى فيهما وقال الاوزاعى أراد بالمستقدمين المصلين فى أول الوقت وبالمستأخرين المؤخرين لها الى آخره وقال مقاتل أراد بالمستقدمين والمستأخرين فى صف القتال وقال ابن عيينة أراد من يسلم اولا ومن يسلم آخرا وقال ابن عباس فى رواية أخرى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الاول فازدحموا عليه وقال قوم كانت بيوتهم قاصية عن المسجد لبعد دورنا ونشترى دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت هذه الآية ومعناها انما نجزون على النيات فاطمأنوا وسكنوا فيكون معنى الآية على القول الاول المستقدم للتقوى والمستأخر للتقوى وعلى القول الاخير المستقدم لطلب الفضيلة والمستأخر للعذر ومعنى الآية ان علمه سبحانه وتعالى محيط بجميع خلقه متقدمهم ومتأخرهم طائعهم وعاصيهم لا يخفى عليه شئ من أحوال خلقه (وان ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم) يعنى على ما علم منهم وقيل ان الله سبحانه وتعالى يميت الكل ثم يحشرهم الاولين والآخرين على ما ماتوا عليه (م) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث كل عبد على ما مات عليه قوله سبحانه وتعالى (ولقد خلقنا الانسان) يعنى آدم عليه السلام فى قول جميع المفسرين سمى انسانا لظهوره وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه فنسى (من صلصال) يعنى من الطين اليابس الذى اذا نقرته سمعت له صلصلة يعنى صوتا وقال ابن عباس هو الطين الحر الطيب الذى اذا نضب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائى وقال هو من صل اللحم اذا أنتن (من حما) يعنى من الطين الاسود (مسنون) اى متغير قال مجاهد وقتادة هو المنتن المتغير وقال ابو عبيدة هو المصبوب تقول العرب سننت الماء اذا صببته قال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن جعل صلصالا كالفخار والجمع بين هذه الاقاويل على ما ذكره بعضهم ان الله سبحانه وتعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الارض فبلها بالماء حتى اسودت وأنتن ريحها وتغيرت واليه الاشارة بقوله ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بله بالماء وخمره حتى اسود وأنتن ريحه وتغير واليه الاشارة بقوله من حما مسنون ثم ذلك الطين الاسود المتغير صوره صورة انسان أجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فتسمع له صلصلة يعنى صوتا واليه الاشارة بقوله من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس اذا تفخر فى الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا قوله تعالى (والجان خلقناه من قبل) يعنى من قبل آدم عليه السلام قال ابن عباس الجان أبو الجن كما ان آدم أبو البشر وقال قتادة هو ابليس وقيل الجان أبو الجن وابليس أبو الشياطين وفى الجن مسلمون وكافرون يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبنى آدم وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس وقال وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين والاصح أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم فى الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الاعين من قولهم جن الليل اذا ستر والشيطان هو العاتى المتمرد الكافر والجن

(وان ربك هو يحشرهم) اى هو وحده يقدر على حشرهم ويحيط بحصرهم (انه حكيم عليم) باهر الحكمة واسع العلم (ولقد خلقنا الانسان) اى آدم (من صلصال) طين يابس غير مطبوخ (من حما) صفة لصلصال اى خلقه من صلصال كائن من حما اى طين اسود متغير (مسنون) مصور وفى الاول كان ترابا فجن بالماء فصار طينا فحمئ فصار حمأ فخلص فصار سلالة فصور ويبس فصار صلصالا فلا تناقض (والجان) ابا الجن كآدم للناس او هو ابليس وهو منصوب بفعل مضمر يفسره (خلقناه من قبل) من قبل آدم

(من نار السموم) من نار الحر الشديد النافذ فى المسام قيل هذه السموم جزء من سبعين جزأ من سموم النار التى خلق الله منها الجان (واذ قال ربك) واذكر وقت قوله (للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمامسنون فاذا سويته) أتممت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها (ونفخت فيه من روحى) وجعلت فيه الروح واحييته وليس ثمة نفخ وانما هو تمثيل والاضافة للتخصيص (فقعوا له ساجدين) هو امر من وقع يقع اى اسقطوا على الارض ١٠٤ يعنى اسجدوا له ودخل الفاء لانه جواب اذا وهو دليل على انه يجوز تقدم الامر عن وقت الفعل (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) فالملائكة جمع عام محتمل للتخصيص فقطع باب التخصيص بقوله كلهم وذكر الكل احتمل تأويل التفرق فقطعه بقوله اجمعون (الا ابليس) ظاهر الاستثناء يدل على انه كان من الملائكة لان المستثنى يكون من جنس المستثنى منه وعن الحسن ان الاستثناء منقطع ولم يكن هو من الملائكة قلنا غير المأمور لا يصير بالترك ملعونا وقال فى الكشاف كان بينهم مأمورا معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة ثم استثنى بعد التغليب كقولك رأيتهم الا هندا (ابى أن يكون مع الساجدين) امتنع ان يكون معهم وابى استئناف على تقدير قول قائل يقول هلا سجد فقيل ابى ذلك واستكبر عنه وقيل معناه ولكن ابليس أبى (قال يا ابليس مالك ان لا تكون مع الساجدين) حرف الجر مع أن محذوف تقديره مالك فى ان لا تكون مع الساجدين اى اى غرض لك فى اباءك السجود (قال لم أكن لاسجد) اللام لتأكيد النفى اى لا يصح منى ان اسجد (لبشر خلقته من صلصال من حمامسنون قال فاخرج منها) من السماء اومن الجنة اومن جملة الملائكة (فانك رجيم) مطرود من رحمة الله ومعناه ملعون لان اللعنة هو الطرد من الرحمة والابعاد منها (وان عليك اللعنة الى يوم الدين) ضرب يوم الدين حد اللعنة لانه أبعد غاية يضربها الناس فى كلامهم والمراد به انك مذموم مدعو عليك باللعنة فى السموات والارض الى يوم الدين من غير ان تعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه

منهم المؤمن ومنهم الكافر (من نار السموم) يعنى من ريح حارة تدخل مسام الانسان من لطفها وقوة حرارتها فتقتله ويقال للريح الحارة التى تكون بالنهار السموم وللريح الحارة التى تكون بالليل الحرور وقال ابو صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهى نار بين السماء والحجاب فاذا حدث أمر خرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به فالهدة التى تسمعون من خرق ذلك الحجاب وهذا على قول أصحاب الهيئة ان الكرة الرابعة تسمى كرة النار وقيل من نار السموم يعنى من نار جهنم وقال ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التى خلق منها الجان وتلا هذه الآية وقال ابن عباس كان ابليس من حى من الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور قوله عز وجل (واذ قال ربك للملائكة) اى واذكر يا محمد اذ قال ربك للملائكة (انى خالق بشرا) سمى الآدمى بشرا لانه جسم كثيف ظاهره وبشرة ظاهر الجلد (من صلصال من حمإ مسنون) تقدم تفسيره (فاذا سويته) يعنى عدلت صورته وأتممت خلقه (ونفخت فيه من روحى) النفخ عبارة عن اجراء الريح فى تجاويف جسم آخر ومنه نفخ الروح فى النشأة الاولى وهو المراد من قوله ونفخت فيه من روحى وأضاف الله عز وجل روح آدم الى نفسه على سبيل التشريف والتكريم لها كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وسيأتى الكلام على الروح فى تفسير سورة الاسراء عند قوله ويسألونك عن الروح ان شاء الله تعالى (فقعوا له ساجدين) الخطاب للملائكة الذين قال الله لهم انى خالق بشرا أمرهم بالسجود لآدم بقوله فقعوا له ساجدين وكان هذا السجود سجود تحية لا سجود عبادة (فسجد الملائكة كلهم) يعنى الذين أمروا بالسجود لآدم (أجمعون) قال سيبويه هذا تو كيد بعد تو كيد وسئل المبرد عن هذه الآية فقال لو قال فسجد الملائكة لاحتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم لزم ازالة ذلك الاحتمال فظهر بهذا انهم سجدوا باسرهم ثم عند هذا بقى احتمال آخر وهو انهم سجدوا فى اوقات متفرقة او فى دفعة واحدة فلما قال اجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال وقول الخليل وسيبويه أجود لان أجمعين معرفة فلا تكون حالا روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الله سبحانه وتعالى أمر جماعة من الملائكة بالسجود لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم نارا فاحرقتهم ثم قال لجماعة أخرى اسجدوا لآدم فسجدوا (الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين) يعنى مع الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم فسجدوا (قال) يعنى قال الله (يا ابليس مالك ان لا تكون مع الساجدين قال) يعنى ابليس (لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون) أراد ابليس انه أفضل من آدم لان آدم طينى الاصل وابليس نارى الاصل والنار أفضل من الطين فيكون ابليس فى قياسه أفضل من آدم ولم يدر الخبيث أن الفضل فيما فضله الله تعالى (قال فاخرج منها) يعنى من الجنة وقيل من السماء (فانك رجيم) أى طريد (وان عليك اللعنة الى يوم الدين) قيل ان أهل السموات يلعنون ابليس كما يلعنه اهل الارض فهو ملعون فى السماء والارض فان قلت ان

(قال رب فانظرنى) فاخرنى (الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) يوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم فى معنى واحد ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة وقيل انما سأل ١٠٥ الانظار الى اليوم الذى فيه يبعثون

حرف الى لانتهاء الغاية فهل ينقطع اللعن عنه يوم الدين الذى هو يوم القيامة قلت لا بل يزداد عذابا الى اللعنة اتى عليه كأنه قال تعالى وان عليك اللعنة فقط الى يوم الدين ثم تزداد معها بعد ذلك عذابا دائما مستمرا لانقطاع له (قال رب فانظرنى) يعنى أخرنى (الى يوم يبعثون) يعنى يوم القيامة وأراد بهذا السؤال انه لا يموت أبدا لانه اذا أمهل الى يوم القيامة ويوم القيامة لا يموت فيه أحد لزم من ذلك انه لا يموت أبدا فلهذا السبب سأل الانظار الى يوم يبعثون فاجابه الله سبحانه وتعالى بقوله (قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) يعنى الوقت الذى يموت فيه جميع الخلائق وهو النفخة الاولى فيقال ان مدة موت ابليس أربعون سنة وهو ما بين النفختين ولم تكن اجابة الله تعالى اياه فى الامهال اكراما له بل كان ذلك الامهال زيادة له فى بلائه وشقائه وعذابه وانما سمى يوم القيامة بيوم الوقت المعلوم لان ذلك اليوم لا يعلمه احد الا الله تعالى فهو معلوم عنده وقيل لان جميع الخلائق يموتون فيه فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل لما سأل ابليس الانظار الى يوم يبعثون اجابه الله بقوله فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم يعنى اليوم الذى عينت وسألت الانظار اليه (قال رب بما أغويتنى) الباء للقسم فى قوله بما وما مصدرية وجواب القسم (لازينن) والمعنى فبإغوائك اياى لازينن لهم فى الارض وقيل هى باء السبب يعنى بسبب كونى غاويا لازينن (لهم فى الارض) يعنى لازينن لهم حب الدنيا ومعاصيك (ولاغوينهم أجمعين) يعنى بالقاء الوسوسة فى قلوبهم وذلك ان ابليس لما علم انه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على اضلال الخلق بالكفر واغوائهم ثم استثنى فقال (الا عبادك منهم المخلصين) يعنى المؤمنين الذين أخلصوا لك التوحيد والطاعة والعبادة ومن فتح اللام من المخلصين يكون المعنى الا من أخلصته واصطفيته لتوحيدك وعبادتك وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده ووسوسته لا تعمل فيهم ولا يقبلون منه وحقيقة الاخلاص فعل الشئ خالصا لله عن شائبة الغير فكل من أتى بعمل من اعمال الطاعات فلا يخلو اما ان يكون مراده بتلك الطاعة وجه الله فقط او غير الله او مجموع الامرين أما ما كان لله تعالى فهو الخالص المقبول واما ما كان لغير الله فهو الباطل المردود واما من كان مراده مجموع الامرين فان ترجح جانب الله تعالى كان من المخلصين الناجين وان ترجح الجانب الآخر كان من الهالكين لان المثل يقابله المثل فيبقى القدر الزائد والى اى الجانبين رجح أخذ به (قال) يعنى قال الله تبارك وتعالى (هذا صراط على مستقيم) قال الحسن معناه هذا صراط الى مستقيم وقال مجاهد الحق يرجع الى الله وعليه طريقه لا يعرج الى شئ وقال الاخفش معناه على الدلالة على الصراط المستقيم وقال الكسائى هذا على طريق التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه طريقك على أى لا تتفلت منى وقيل معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية وقيل هذا عائد الى الاخلاص والمعنى ان الاخلاص طريق على والى يؤدى الى كرامتى ورضوانى (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) اى قوة وقدرة وذلك ان ابليس لما قال لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين أوهم بهذا الكلام ان له سلطانا على غير المخلصين فبين الله سبحانه وتعالى انه ليس له سلطان على أحد من عبيده سواء كان من المخلصين أو لم يكن من المخلصين قال اهل المعانى ليس لك سلطان على قلوبهم وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان أن تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى وهؤلاء خاصتى اى الذين هداهم واجتباهم من عباده (الا من اتبعك من الغاوين) يعنى الا من اتبع ابليس من الغاوين فان له عليهم سلطانا بسبب كونهم

لئلا يموت لانه لا يموت يوم البعث احد فلم يجب الى ذلك وانظر الى آخر أيام التكليف (قال رب بما أغويتنى) الباء للقسم ومامصدرية وجواب القسم لازينن لهم والمعنى اقسم باغوائك اياى (لازينن لهم) المعاصى ونحو قوله بما اغويتنى لازينن لهم فبعزتك لاغوينهم فى انه اقسام الا ان احدهما اقسام بصفة الذات والثانى بصفة الفعل وقد فرق الفقهاء بينهما فقال العراقيون الحالف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة يمين والحالف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين والاصح ان الايمان مبنية على العرف فما تعارف الناس الحالف به يكون يمينا وما لا فلا والآية حجة على المعتزلة فى خلق الافعال وحملهم على التسبيب عدول عن الظاهر (فى الارض) فى الدنيا التى هى دار الغرور وأراد انى اقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الاكل من الشجرة وهو فى السماء فانا على التزين لاولاده فى الارض اقدر (ولاغوينهم

اجمعين الا عبادك منهم المخلصين) وبكسر اللام بصرى ومكى وشامى استثنى المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلونه منه (قال هذا صراط على مستقيم ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) اى هذا طريق حق على ان أراعيه وهو ان لا يكون لك سلطان على عبادى الا من اختار اتباعك منهم لغوايته وقيل معنى على الى على يعقوبه

والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين (ان المتقين فى جنات وعيون) وبضم العين مدنى وبصرى وحفص المتقى على الاطلاق من يتقى ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه وقال فى الشرح ان دخل اهل الكبائر فى قوله لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم فالمراد بالمتقين الذين اتقوا الكبائر والا فالمراد به الذين اتقوا الشرك (ادخلوها) اى يقال لهم ادخلوها (بسلام) حال اى سالمين او مسلما عليكم تسلم عليكم الملائكة (آمنين) من الخروج منها والآفات فيها وهو حال أخرى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) وهو الحقد الكامن فى القلب اى ان كان لاحدهم غل فى الدنيا على آخر نزع الله ذلك فى الجنة من قلوبهم وطيب نفوسهم وعن على رضى الله عنه ارجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم وقيل معناه طهر الله قلوبهم من ان يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ونزع منها كل غل والقى فيها التوادد والتحابب (اخوانا) حال (على سرر متقابلين) كذلك قيل تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكون فى جميع احوالهم متقابلين يرى بعضهم بعضا (لا يمسهم فيها نصب) فى الجنة تعب (وما هم منها بمخرجين) فتمام النعمة بالخلود ولما أتم ذكر الوعد والوعيد اتبعه (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم)

منقادين له فيما يأمرهم به (وان جهنم لموعدهم أجمعين) يعنى موعد ابليس واشياعه وأتباعه (لها) يعنى لجهنم (سبعة ابواب) يعنى سبع طبقات قال على بن ابى طالب تدرون كيف ابواب جهنم هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى اى سبعة ابواب بعضها فوق بعض قال ابن جريج النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لكل باب منهم جزء مقسوم) يعنى لكل دركة قوم يسكنونها والجزء بعض الشئ وجزأته جعلته اجزاء والمعنى ان الله سبحانه وتعالى يجزئ أتباع ابليس سبعة اجزاء فيدخل كل قسم منهم دركة من النار والسبب فيه ان مراتب الكفر مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم فى النار قال الضحاك فى الدركة الاولى اهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون فيها بقدر ذنوبهم ثم يخرجون منها وفى الثانية النصارى وفى الثالثة اليهود وفى الرابعة الصابئون وفى الخامسة المجوس وفى السادسة اهل الشرك وفى السابعة المنافقون فذلك قوله سبحانه وتعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجهنم سبعة ابواب باب منها لمن سل السيف على أمتى أو قال على أمة محمد صلى الله عليه وسلم اخرجه الترمذى وقال حديث غريب

* قوله سبحانه وتعالى (ان المتقين فى جنات وعيون) المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك فى قول جمهور المفسرين وقيل هم الذين اتقوا الشرك والمعاصى والجنات البساتين والعيون الانهار الجارية فى الجنات وقيل يحتمل أن تكون هذه العيون غير الانهار الكبار التى فى الجنة وعلى هذا فهل يختص كل واحد من اهل الجنة بعيون او تجرى هذه العيون من بعضهم الى بعض وكلا الامرين محتمل فيحتمل ان كل واحد من اهل الجنة يختص بعيون تجرى فى جناته وقصوره ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه ويحتمل انها تجرى من جنات بعضهم الى جنات بعض لانهم قد طهروا من الحسد والحقد (ادخلوها) اى يقال لهم ادخلوها والقائل هو الله تعالى او بعض ملائكته (بسلام آمنين) يعنى ادخلوا الجنة مع السلامة والامن من الموت ومن جميع الآفات (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) الغل الحقد الكامن فى القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد وكل هذه الخصال المذمومة داخلة فى الغل لانها كامنة فى القلب يروى ان المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص لبعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد (اخوانا) يعنى فى المحبة والمودة والمخالطة وليس المراد منه أخوة النسب (على سرر) جمع سرير قال بعض اهل المعانى السرير مجلس رفيع عال مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لانه مجلس سرور وقال ابن عباس على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل صنعاء الى الجابية (متقابلين) يعنى يقابل بعضهم بعضا لا ينظر أحدهم فى قفا صاحبه وفى بعض الاخبار ان المؤمن فى الجنة اذا اراد أن يلقى اخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما الى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان (لا يمسهم فيها) يعنى فى الجنة (نصب) اى تعب ولا اعياء (وما هم منها) يعنى من الجنة (بمخرجين) هذا نص من الله فى كتابه على خلود أهل الجنة فى الجنة والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان قوله سبحانه وتعالى (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) قال ابن عباس يعنى لمن تاب منهم وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم خرج على اصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وبين أيديكم النار فنزل جبريل بهذه الآية وقال يقول لك ربك يا محمد مم تقنط عبادى ذكره البغوى بغير سند (وأن عذابى هو العذاب الاليم) قال قتادة بلغنا ان النبى

تقرير الماذكر وتمكينا له فى النفوس قال عليه السلام لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه فى العبادة ولما اقدم على ذنب وعطف (ونبئهم) واخبر امتك على نبئ عبادى ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها اسخط الله وانتقامه من المجرمين ويتحققوا عنده ان عذابه هو العذاب الاليم (عن ضيف ابراهيم) ١٠٧ اى اضيافه وهو جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكا والضيف يجيء واحدا وجمعا لانه مصدر ضافه (اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) اى نسلم عليك سلاما او سلمنا سلاما (قال) اى ابراهيم (انا منكم وجلون) خائفون لامتناعهم من الاكل او لدخولهم بغير اذن وبغير وقت (قالوا لا توجل) لا تخف (انا نبشرك) استئناف فى معنى التعليل للنهى عن الوجل اى انك مبشر آمن فلا توجل وبالتخفيف وفتح النون حمزة (بغلام عليم) هو اسحق لقوله فى سورة هود فبشرناها باسحق (قال أبشرتمونى على ان مسنى الكبر) اى ابشرتمونى مع مس الكبر بان يولد لى اى ان الولادة امر مستنكر عادة مع الكبر (فبم تبشرون) هى ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب كانه قيل فبأى امر عجيب تبشرون وبكسر النون والتشديد مكى والاصل تبشرونني فادغم نون الجمع فى نون العماد ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلا عليها تبشرون بالتخفيف نافع والاصل تبشرونني فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة وحذف نون الجمع لاجتماع النونين الباقون بفتح النون وحذف المفعول والنون نون الجمع (قالوا بشرناك بالحق) باليقين الذى لا لبس فيه (فلا تكن من القانطين) من الآيسين من ذلك (قال) ابراهيم (ومن يقنط) وبكسر النون بصرى وعلى (من رحمة ربه الا الضالون) الا المخطئون طريق الصواب او الا الكافرون كقوله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون اى لم استنكر ذلك قنوطا من رحمته ولكن استبعاد له فى العادة التى أجراها (قال فما خطبكم) فما شأنكم (ايها المرسلون

صلى الله عليه وسلم قال لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم العبد قدر عذابه لبخع نفسه يعنى لقتل نفسه (خ) عن ابى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله سبحانه وتعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأدخل فى خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار وفى الآية لطائف منها انه سبحانه وتعالى أضاف العباد الى نفسه بقوله نبئ عبادى وهذا تشريف وتعظيم لهم ألا ترى انه لما اراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله سبحان الذى أسرى بعبده ليلا فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل فى هذا التشريف العظيم ومنها انه سبحانه وتعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بالفاظ ثلاثة أولها قوله أنى وثانيها أنا وثالثها ادخال الالف واللام فى الغفور الرحيم وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ولما ذكر العذاب لم يقل أنى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وأن عذابى هو العذاب الاليم على سبيل الاخبار ومنها انه سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ عباده هذا المعنى فكانه أشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة قوله سبحانه وتعالى (ونبئهم عن ضيف ابراهيم) هذا معطوف على ما قبله اى واخبر يا محمد عبادى عن ضيف ابراهيم وأصل الضيف الميل يقال ضفت الى كذا اذا ملت اليه والضيف من مال اليك نزولا بك وصارت الضيافة متعارفة فى القرى وأصل الضيف مصدر ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى عامة كلامهم وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان وضيف ابراهيم هم الملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى ليبشروا ابراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط (اذ دخلوا عليه) يعنى اذ دخل الاضياف على ابراهيم عليه السلام (فقالوا سلاما) اى نسلم سلاما (قال) يعنى ابراهيم (انا منكم وجلون) اى خائفون وانما خاف ابراهيم منهم لانهم لم يأكلوا طعامه (قالوا لا توجل) يعنى لا تخف (انا نبشرك بغلام عليم) يعنى انهم بشروه بولد ذكر غلام فى صغره عليم فى كبره وقيل عليم بالاحكام والشرائع والمراد به اسحق عليه السلام فلما بشروه بالولد عجب ابراهيم من كبره وكبر امرأته (قال أبشرتمونى) يعنى بالولد (على أن مسنى الكبر) يعنى على حالة الكبر قاله على طريق التعجب (فبم تبشرون) يعنى فبأى شئ تبشرون وهو استفهام بمعنى التعجب كأنه عجب من حصول الولد على الكبر (قالوا بشرناك بالحق) يعنى بالصدق الذى قضاه الله بان يخرج منك ولدا ذا كرا تكثر ذريته وهو اسحق (فلا تكن من القانطين) يعنى فلا تكن من الآيسين من الخير والقنوط هو الاياس من الخير (قال) يعنى ابراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) يعنى من ييأس من رحمة ربه الا المكذبون وفيه دليل على ان ابراهيم عليه السلام لم يكن من القانطين ولكنه استبعد حصول الولد على الكبر فظنت الملائكة انه قنوط فنفى ذلك عن نفسه وأخبر ان القانط من رحمة الله تعالى من الضالين لان القنوط من رحمة الله كبيرة كالامن من مكر الله ولا يحصل الا عند من يجهل كون الله تعالى قادرا على ما يريد ومن يجهل كونه سبحانه وتعالى عالما بجميع المعلومات فكل هذه الامور سبب للضلالة (قال) يعنى ابراهيم (فما خطبكم) يعنى فما شأنكم وما الامر الذى جئتم فيه (أيها المرسلون) والمعنى ما الامر الذى جئتم به سوى ما بشرتمونى به

قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) اى قوم لوط (الا آل لوط) يريد اهله المؤمنين والاستثناء منقطع لان القوم موصوفون بالاجرام والمستثنى ليس كذلك اومتصل فيكون استثناء من الضمير فى مجرمين كانه قيل الى قوم قد أجرموا كلهم الا آل لوط وحدهم والمعنى يختلف باختلاف الاستثناءين لان آل لوط مخرجون فى المنقطع من حكم الارسال يعنى انهم أرسلوا الى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا الى آل لوط أصلا ومعنى ارسالهم الى القوم المجرمين كارسال السهم الى المرمى فى انه فى معنى التعذيب والاهلاك كانه قيل انا أهلكنا قوما مجرمين ولكن آل لوط أنجيناهم واما فى المتصل فهم داخلون فى حكم الارسال يعنى ان الملائكة أرسلوا اليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء واذا انقطع الاستثناء جرى (انا لمنجوهم أجمعين) مجرى خبر لكن فى الاتصال بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجون واذا اتصل كان كلاما مستأنفا كان ابراهيم عليه السلام قال لهم فما حال آل لوط فقالوا انا لمنجوهم (الا امرأته) مستثنى من الضمير المجرور فى لمنجوهم وليس باستثناء من الاستثناء لان الاستثناء من الاستثناء انما يكون فيما اتحد الحكم فيه بان يقول اهلكناهم الا آل لوط

الا امرأته وهنا قد اختلف الحكمان لان الا آل لوط متعلق بارسلنا او بمجرمين والا امرأته متعلق بمنجوهم فكيف يكون استثناء من استثناء لمنجوهم بالتخفيف حمزة وعلى (قدرنا) وبالتخفيف ابو بكر (انها لمن الغابرين) الباقين فى العذاب قيل لولم تكن اللام فى خبرها لوجب فتح ان لانه مع اسمه وخبره مفعول قدرنا ولكنه كقوله ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون وانما اسند الملائكة فعل التقدير الى انفسهم ولم يقولوا قدر الله لقربهم كما يقول خاصة الملك أمرنا بكذا والآمر هو الملك

من الولد (قالوا) يعنى الملائكة (انا أرسلنا الى قوم مجرمين) يعنى لهلاك قوم مجرمين (الا آل لوط) يعنى اشياعه واتباعه من اهل دينه (انا لمنجوهم أجمعين الا امرأته) يعنى امرأة لوط (قدرنا) يعنى قضينا وانما أسند الملائكة القدر الى انفسهم وان كان ذلك لله عز وجل لاختصاصهم بالله وقربهم منه كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا ونحن فعلنا وان كان قد فعلوه بامر الملك (انها لمن الغابرين) يعنى لمن الباقين فى العذاب والاستثناء من النفى اثبات ومن الاثبات نفى فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين (فلما جاء آل لوط المرسلون) وذلك ان الملائكة عليهم السلام لما بشروا ابراهيم بالولد وعرفوه بما أرسلوا به ساروا الى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط (قال انكم قوم منكرون) وانما قال هذه المقالة لوط لانهم دخلوا عليه وهم فى زى شبان مردان حسان الوجوه فخاف أن يهجم عليهم قومه فلهذا السبب قال هذه المقالة وقيل ان النكرة ضد المعرفة فقوله انكم قوم منكرون يعنى لا اعرفكم ولا اعرف من أى الاقوام أنتم ولا لاى غرض دخلتم على فعند ذلك (قالوا) يعنى الملائكة (بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) يعنى جئناك بالعذاب الذى كانوا يشكون فيه (وأتيناك بالحق) يعنى باليقين الذى لا شك فيه (وانا لصادقون) يعنى فيما أخبرناك به من اهلاكهم (فأسر باهلك بقطع من الليل) يعنى آخر الليل والقطع القطعة من الشئ وبعضه (واتبع أدبارهم) يعنى واتبع آثار اهلك وسر خلفهم (ولا يلتفت منكم أحد) يعنى حتى لا يرى ما نزل بقومه من العذاب فيرتاع بذلك وقيل المراد الاسراع فى السير وترك الالتفات الى ورائه والاهتمام بما خلفه كما تقول امض لشأنك ولا تعرج على شئ وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط ولئلا يتخلف أحد منهم فيناله العذاب (وامضوا حيث تؤمرون) قال ابن عباس يعنى الى الشام وقيل الاردن وقيل الى حيث يأمركم جبريل وذلك ان جبريل أمرهم ان يسيروا الى قرية معينة ما عمل أهلها عمل قوم لوط (وقضينا اليه ذلك الامر) يعنى واوحينا الى لوط ذلك الامر الذى حكمنا به على قومه وفرغنا منه ثم انه سبحانه وتعالى فسر ذلك الامر الذى قضاه بقوله (ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) يعنى ان هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح وانما أبهم الامر الذى قضاه عليهم أولا

(فلما جاء آل لوط المرسلون قال انكم قوم منكرون) اى لا اعرفكم وفسره اى ليس عليكم زى السفر ولا أنتم من اهل الحضر فاخاف ان تطرقونى بشر (قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) اى ما جئناك بما تنكرنا لاجله بل جئناك بما فيه سرورك وتشفيك من أعدائك وهو العذاب الذى كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه اى يشكون ويكذبونك (وأتيناك بالحق) باليقين من عذابهم (وانا لصادقون) فى الاخبار بنزوله بهم (فاسر باهلك بقطع من الليل) فى آخر الليل او بعد ما يمضى شئ صالح من الليل (واتبع أدبارهم) وسر خلفهم لتكون مطلعا عليهم وعلى احوالهم (ولا يلتفت منكم أحد) لئلا يرى ولما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم او جعل النهى عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التوانى والتوقف لان من يلتفت لا بد له فى ذلك من ادنى وقفة (وامضوا حيث تؤمرون) حيث أمركم الله بالمضى اليه وهو الشام او مصر (وقضينا اليه ذلك الامر) عدى قضينا بالى لانه ضمن معنى اوحينا كانه قيل واوحينا اليه مقضيا مبتوتا وفسر ذلك الامر بقوله (ان دابر هؤلاء مقطوع) وفى ابهامه وتفسيره تفخيم للامر ودابرهم آخرهم اى يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد (مصبحين) وقت دخولهم فى الصبح وهو حال من هؤلاء

(وجاء أهل المدينة) سدوم التى ضرب بقاضيها المثل فى الجور (يستبشرون) بالملائكة طمعا منهم فى ركوب الفاحشة (قال) لوط (ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون) بفضيحة ضيفى لان من أساء الى ضيفى فقد اساء الى (واتقوا الله ولا تخزون) اى ولا تذلون باذلال ضيفى من الخزى وهو الهوان وبالياء فيهما يعقوب (قالوا أولم ننهك عن العالمين) عن ان تجير منهم أحدا وتدفع عنهم فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان عليه السلام يقوم بالنهى عن المنكر والحجز بينهم وبين المتعرض له فأوعدوه وقالوا لئن لم تنته يا لوط

وفسره ثانيا تفخيما له وتعظيما لشأنه (وجاء أهل المدينة) يعنى مدينة سدوم وهى مدينة قوم لوط (يستبشرون) يعنى يبشر بعضهم بعضا باضياف لوط والاستبشار اظهار الفرح والسرور وذلك ان الملائكة لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم فى المدينة وقيل ان امرأته أخبرتهم بذلك وكانوا شبانا مردا فى غاية الحسن ونهاية الجمال فجاء قوم لوط الى داره طمعا منهم فى ركوب الفاحشة (قال) يعنى قال لوط لقومه (ان هؤلاء ضيفى) وحق على الرجل اكرام ضيفه (فلا تفضحون) يعنى فيهم يقال فضحه يفضحه اذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه (واتقوا الله) يعنى خافوا الله فى أمرهم (ولا تخزون) يعنى ولا تخجلون (قالوا) يعنى قوم لوط الذين جاؤا اليه (اولم ننهك عن العالمين) يعنى اولم ننهك عن ان تضيف أحدا من العالمين وقيل معناه اولم ننهك ان تدخل الغرباء الى بيتك فانا نريد ان نركب منهم الفاحشة وقيل معناه ألسنا قد نهيناك ان تتكلم فى أحد من العالمين اذا قصدناه بالفاحشة (قال) يعنى قال لوط لقومه الذين قصدوا اضيافه (هؤلاء بناتى) أزوجكم اياهن ان أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام وقيل أراد بالبنات نساء قومه لان النبى كالوالد لامته (ان كنتم فاعلين) يعنى ما آمركم به (لعمرك) الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس معناه وحياتك يا محمد وقال ما خلق الله نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما أقسم بحياة أحد الا بحياته والعمر والعمر واحد وهو اسم لمدة عمارة بدن الانسان بالحياة والروح وبقائه مدة حياته قال النحويون ارتفع لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمى فحذف الخبر لان فى الكلام دلالة عليه (انهم لفى سكرتهم) يعنى فى حيرتهم وضلالتهم وقيل فى غفلتهم (يعمهون) يعنى يترددون متحيرين وقال قتادة يلعبون (فأخذتهم الصيحة مشرقين) يعنى حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب الذى نزل بهم وقت الصبح وتمامه وانتهاؤه حين أشرقت الشمس (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) تقدم تفسيره فى سورة هود (ان فى ذلك) يعنى الذى نزل بهم من العذاب (لآيات للمتوسمين) قال ابن عباس للناظرين وقال قتادة للمعتبرين وقال مقاتل للمتفكرين وقال مجاهد للمتفرسين ويعضد هذا التأويل ما روى عن ابى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ ان فى ذلك لآيات للمتوسمين أخرجه الترمذى وقال حديث غريب الفراسة بالكسر اسم من قولك تفرست فى فلان الخير وهى على نوعين أحدهما ما دل عليه ظاهر الحديث وهو ما يوقعه الله فى قلوب اوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات واصابة الحدس والنظر والظن والتثبت والنوع الثانى ما يحصل بدلائل التجارب والخلق والاخلاق تعرف بذلك أحوال الناس ايضا وللناس فى علم الفراسة تصانيف قديمة وحديثة قال الزجاج حقيقة المتوسمين فى اللغة المتثبتين فى نظرهم حتى يعرفوا سمة الشئ وصفته وعلامته فالمتوسم الناظر فى سمة الدلائل تقول توسمت فى فلان كذا اى عرفت وسم ذلك وسمته (وانها) يعنى قرى قوم لوط (لبسبيل مقيم) يعنى بطريق واضح قال مجاهد بطريق معلم ليس بخفى ولا زائل والمعنى ان آثارما أنزل الله بهذه القرى من عذابه وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يدثر ولم يخف والذين يمرون عليها من الحجاز الى الشام يشاهدون ذلك

لتكونن من المخرجين او عن ضيافة الغرباء (قال هؤلاء بناتى) فانكحوهن وكان نكاح المؤمنات من الكفار جائزا ولا تتعرضوا لهم (ان كنتم فاعلين) ان كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما احل الله دون ما حرم فقالت الملائكة للوط عليه السلام (لعمرك انهم لفى سكرتهم) اى فى غوايتهم التى اذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذى هم عليه و بين الصواب الذى تشير به عليهم من ترك البنين الى البنات (يعمهون) يتحيرون فكيف يقبلون قولك و يصغون الى نصيحتك او الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قسم بحياته وما أقسم بحياة احد قط تعظيما له والعمر والعمر واحد وهو البقاء الا انهم خصوا القسم بالمفتوح ايثارا للاخف لكثرة دور الحلف على ألسنتهم ولذا حذفوا الخبر وتقديره لعمرك قسمى

(فأخذتهم الصيحة) صيحة جبريل عليه السلام (مشرقين) داخلين فى الشروق وهو بزوغ الشمس (فجعلنا عاليها سافلها) رفعها جبريل عليه السلام الى السماء ثم قلبها والضمير لقرى قوم لوط (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ان فى ذلك لآيات للمتوسمين) للمتفرسين المتأملين كانهم يعرفون باطن الشئ بسمة ظاهرة (وانها) وان هذه القرى يعنى آثارها (لبسبيل مقيم) ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعدهم يبصرون تلك الآثار وهو تنبيه لقريش كقوله وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل

(ان فى ذلك لآية للمؤمنين) لانهم المنتفعون بذلك (وان كان أصحاب الايكة) وان الامر والشأن كان أصحاب الايكة اى الغيضة (لظالمين) لكافرين وهم قوم شعيب عليه السلام (فانتقمنا منهم) فاهلكناهم لما كذبوا شعيبا (وانهما) يعنى قرى قوم لوط والايكة (لبامام مبين) لطريق واضح والامام اسم ما يؤتم به فسمى به الطريق ومطمر البناء لانهما مما يؤتم به (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) هم ثمود والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام المرسلين يعنى بتكذيبهم صالحا لان

كل رسول كان يدعو الى الايمان بالرسل جميعا فمن كذب واحدا منهم فكانما كذبهم جميعا او اراد صالحا ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون فى ابن الزبير واصحابه (وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) اى أعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا) اى ينقبون فى الجبال بيوتا او يبنون من الحجارة (آمنين) لوثاقة البيوت واستحكامها من ان تهدم ومن نقب اللصوص والاعداء او آمنين من عذاب الله يحسبون ان الجبال تحميهم منه (فاخذتهم الصيحة) العذاب (مصبحين) فى اليوم الرابع وقت الصبح (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت الوثيقة واقتناء الاموال النفيسة (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) الا خلقا ملتبسا بالحق لا باطلا وعبثا او بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء على

قوله

ويرون أثره (ان فى ذلك) يعنى الذى ذكر من عذاب قوم لوط وما أنزل بهم (لآية للمؤمنين) يعنى المصدقين بما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم (وان كان أصحاب الايكة لظالمين) يعنى كان أصحاب الايكة وهى الغيضة واللام فى قوله لظالمين للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف وكان عامة شجرهم المقل وكانوا قوما كافرين فبعث الله عز وجل اليهم شعيبا رسولا فكذبوه فاهلكهم الله فهو كقوله تعالى (فانتقمنا منهم) يعنى بالعذاب وذلك ان الله سبحانه وتعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى أخذ بانفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة كالظلة فلجؤا اليها واجتمعوا تحتها يلتمسون الروح فبعث الله عليهم نارا فاحرقتهم جميعا (وانهما) يعنى مدينة قوم لوط ومدينة اصحاب الايكة (لبامام مبين) يعنى بطريق واضح مستبين لمن مر بهما وقيل الضمير راجع الى الايكة ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما وانما سمى الطريق اماما لانه يؤم ويتبع ولان المسافر يأتم به حتى يصير الى الموضع الذى يريده * قوله عز وجل (ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين) قال المفسرون الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وهو معروف بين المدينة النبوية والشام وآثاره موجودة باقية يمر عليها ركب الشام الى الحجاز وأهل الحجاز الى الشام وأراد بالمرسلين صالحا وحده وانما ذكره بلفظ الجمع للتعظيم اولانهم كذبوه وكذبوا من قبله من الرسل (وآتيناهم آياتنا) يعنى الناقة وولدها والآية التى كانت فى الناقة خروجها من الصخرة وعظم جثتها وقرب ولادها وغزارة لبنها وانما أضاف الآيات اليهم وان كانت لصالح لانه مرسل اليهم بهذه الآيات (فكانوا عنها) يعنى عن الآيات (معرضين) يعنى تاركين لها غير ملتفتين اليها (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) يعنى خوفا من الخراب او ان يقع عليهم الجبل أو السقف (فاخذتهم الصيحة) يعنى العذاب (مصبحين) يعنى وقت الصبح (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) يعنى من الشرك والاعمال الخبيثة (ق) عن ابى هريرة رضى الله عنه قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم ان يصيبكم ما أصابهم الا ان تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادى قوله سبحانه وتعالى (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) يعنى لاظهار الحق والعذاب وهو ان يثاب المؤمن والمصدق ويعاقب الجاحد الكافر الكاذب (وان الساعة لآتية) يعنى وان القيامة لتأتى ليجازى المحسن باحسانه والمسىء باساءته (فاصفح الصفح الجميل) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم اى فأعرض عنهم يا محمد واعف عنهم عفوا حسنا واحتمل ما تلقى من أذى قومك وهذا الصفح والاعراض منسوخ بآية القتال وقيل فيه بعد لان الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يظهر الخلق الحسن وان يعاملهم بالعفو والصفح الخالى من الجزع والخوف (ان ربك هو الخلاق العليم) يعنى انه سبحانه وتعالى خلق خلقه وعلم ما هم فاعلوه وما يصلحهم

الاعمال (وان الساعة) اى القيامة لتوقعها كل ساعة (لآتية) وان الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك واياهم على حسناتك وسيآتهم فانه ما خلق السموات والارض وما بينهما الا لذلك (فاصفح الصفح الجميل) فأعرض عنهم اعراضا جميلا بحلم واغضاء قيل هو منسوخ بآية السيف وان أريد به المخالفة فلا يكون منسوخا (ان ربك هو الخلاق) الذى خلقك وخلقهم (العليم) بحالك وحالهم فلا يخفى عليه ما يجرى بينكم وهو يحكم بينكم

* قوله عز وجل (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) قال ابن الجوزي سبب نزولها ان سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البز والطيب والجواهر فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فانزل الله هذه الآية وقال قد اعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل و يدل على صحة هذا قوله لا تمدن عينيك الآية قال الحسن بن الفضل قلت وهذا القول ضعيف اولا يصح لان هذه السورة مكية باجماع أهل التفسير وليس فيها من المدني شيء و يهود قريظة والنضير كانوا بالمدينة وكيف يصح ان يقال ان سبع قوافل جاءت في يوم واحد فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فانزل الله هذه الآية واخبرهم ان هذه السبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل والله أعلم وفي المراد بالسبع المثاني أقوال أحدها انها فاتحة الكتاب وهذا قول عمر وعلي وابن مسعود في رواية عنه وابن عباس في رواية الاكثرين عنه وأبي هريرة والحسن وسعيد بن جبير في رواية عنه ومجاهد وعطاء وقتادة في آخرين و يدل على صحة هذا التأويل ماروى عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني أخرجه أبو داود والترمذي (ق) عن ابي سعيد بن المعلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته أخرجه البخاري وفيه زيادة أما السبب في تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثاني فلانها سبع آيات باجماع أهل العلم واختلفوا في سبب تسميتها بالمثاني فقال ابن عباس والحسن وقتادة لانها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة وقيل لانها مقسومة بين العبد وبين الله نصفين فنصفها الاول ثناء على الله ونصفها الثاني دعاء و يدل على صحة هذا التأويل ماروى عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين الحديث مذكور في فضل الفاتحة وقيل سميت مثاني لان كلماتها مثناة مثل قوله الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين فكل هذه ألفاظ مثناة وقال الحسن بن الفضل لانها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة معها سبعون ألف ملك وقال مجاهد لان الله سبحانه وتعالى استثناها وادخرها لهذه الامة فلم يعطها لغيرهم وقال ابو زيد البلخي لانها تثني أهل الشر عن الشر من قول العرب ثنيت عناني وقال ابن الزجاج سميت فاتحة الكتاب مثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه واذا ثبت كون الفاتحة هي السبع المثاني دل ذلك على فضلها وشرفها وانها من افضل سور القرآن لان افرادها بالذكر في قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم مع انها جزء من أجزاء القرآن واحدى سوره لابد وان يكون لاختصاصها بالشرف والفضيلة القول الثاني في تفسير قوله سبعا من المثاني انها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر وابن مسعود في رواية عنه وابن عباس في رواية عنه وسعيد بن جبير في رواية عنه السبع الطوال هي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف واختلفوا في السابعة فقيل الانفال مع براءة لانهما كالسورة الواحدة ولهذا لم يكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم وقيل السابعة هي سورة يونس و يدل على صحة هذا القول ماروى عن ثوبان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله سبحانه وتعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الانجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني وفضلني ربي بالمفصل أخرجه البغوي باسناد الثعلبي قال ابن عباس انما سميت السبع الطوال مثاني لان الفرائض والحدود والامثال والخبر والعبر ثنيت فيها وأورد على هذا القول ان هذه السور الطوال غالبها مدنيات فكيف يمكن تفسير هذه الآية بها وهي مكية وأجيب عن هذا الايراد بان الله سبحانه وتعالى حكم في سابق علمه بانزال هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم واذا كان الامر كذلك صح ان تفسر هذه الآية بهذه السور القول الثالث ان السبع المثاني

(ولقد آتيناك سبعا) اي سبع آيات وهي الفاتحة او سبع سور وهي الطوال واختلف في السابعة فقيل الانفال وبراءة لانهما في حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما وقيل سورة يونس او اسباع القرآن (من المثاني) هي من التثنية وهي التكرير لان الفاتحة مما يتكرر في الصلاة او من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على الله الواحدة مثناة او مثنية صفة لآية وأما السور الاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد ولما فيها من الثناء كانها تثني على الله واذا جعلت السبع مثاني فمن للتبيين واذا جعلت القرآن مثاني فمن للتبعيض (والقرآن العظيم) هذا ليس بعطف الشيء على نفسه لانه اذا أريد بالسبع الفاتحة او الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن لانه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل دليله قوله بما اوحينا اليك هذا القرآن يعني سورة يوسف واذا أريد به الاسباع فالمعنى ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم اي الجامع لهذين النعتين وهو التثنية او الثناء والعظم ثم قال لرسوله

هى السور التى هى دون الطوال وفوق المفصل وهى المئين وحجة هذا القول الحديث المتقدم وأعطانى مكان الزبور المثانى والقول الرابع ان السبع المثانى هى القرآن كله وهذا قول طاوس وحجة هذا القول ان الله سبحانه وتعالى قال الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى وسمى القرآن كله مثانى لان الاخبار والقصص والامثال ثنيت فيه فان قلت كيف يصح عطف القرآن فى قوله والقرآن العظيم على قوله سبعا من المثانى وهل هو الا عطف الشئ على نفسه قلت اذا عنى بالسبع المثانى فاتحة الكتاب او السبع الطوال فما وراءهن ينطلق عليه القرآن لان القرآن اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى الى قوله بما أوحينا اليك هذا القرآن يعنى سورة يوسف عليه السلام واذا عنى بالسبع المثانى القرآن كله كان المعنى ولقد آتيناك سبعا من المثانى وهى القرآن العظيم وانما سمى القرآن عظيما لانه كلام الله ووحيه أنزله على خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم قوله (لا تمدن عينيك) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم اى لا تمدن عينيك يا محمد (الى ما متعنا به أزواجا) يعنى أصنافا (منهم) يعنى من الكفار ممتثلا لما نهى الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم عن الرغبة فى الدنيا ومزاحمة أهلها عليها والمعنى انك قد أوتيت القرآن العظيم الذى فيه غنى عن كل شئ فلا تشغل قلبك وسرك بالالتفات الى الدنيا والرغبة فيها وروى ان سفيان بن عيينة تأول قول النبى صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن يعنى لم يستغن بالقرآن فتأول هذه الآية قيل انما يكون ما داعينيه الى الشئ اذا أدام النظر اليه مستحسنا له فيحصل له من ذلك تمنى ذلك الشئ المستحسن فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى شئ من متاع الدنيا ولا يلتفت اليه ولا يستحسنه (ولا تحزن عليهم) يعنى ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم فى الدنيا وقيل ولا تحزن على ايمانهم اذا لم يؤمنوا ففيه النهى عن الالتفات الى أموال الكفار والالتفات اليهم أيضا وروى البغوى بسنده عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تغبطن فاجرا بنعمته فانك لا تدرى ما هو لاق بعد موته ان له عند الله قاتلا لا يموت قيل لابن أبى مريم ما قاتلا لا يموت قال النار (ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر الى أسفل منه لفظ البخارى ولمسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم قال عوف بن عبد الله بن عتبة كنت أصحب الاغنياء فما كان أحد أكثر هما منى كنت أرى دابة خيرا من دابتى وثوبا خيرا من ثوبى فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت وقوله سبحانه وتعالى (واخفض جناحك) يعنى ابن جانبك (للمؤمنين) وارفق بهم لما نهاه الله سبحانه وتعالى عن الالتفات الى الاغنياء من الكفار أمره بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم من المؤمنين (وقل) اى وقل لهم يا محمد (انى أنا النذير المبين) لما أمر الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزهد فى الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به اليهم والنذارة تبليغ مع تخويف والمعنى انى أنا النذير بالعقاب لمن عصانى المبين البين النذارة (كما أنزلنا على المقتسمين) يعنى أنذركم عذابا كعذاب أنزلناه بالمقتسمين قال ابن عباس أراد بالمقتسمين اليهود والنصارى وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة سموا بذلك لانهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد منهم هذه السورة لى وقال آخر هذه السورة لى وانما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفر وا ببعضها وكفر آخرون منهم بما آمن به غيرهم وقال قتادة وابن السائب أراد بالمقتسمين كفار قريش سموا بذلك لان أقوالهم تقسمت فى القرآن فقال بعضهم انه سحر وزعم بعضهم انه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الاولين وقال ابن السائب سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا

(لا تمدن عينيك) اى لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه ممتن له (الى ما متعنا به أزواجا منهم) أصنافا من الكفار كاليهود والنصارى والمجوس يعنى قد أوتيت النعمة العظمى التى كل نعمة وان عظمت فهى اليها حقيرة وهى القرآن العظيم فعليك ان تستغنى به ولا تمدن عينيك الى متاع الدنيا وفى الحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن وحديث ابى بكر من اوتى القرآن فرأى ان احدا اوتى من الدنيا افضل مما اوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا (ولا تحزن عليهم) اى لا تتمن اموالهم ولا تحزن عليهم انهم لم يؤمنوا فتقوى بمكانهم الاسلام والمسلمون (واخفض جناحك للمؤمنين) وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وطيب نفسا عن ايمان الاغنياء (وقل) لهم (انى انا النذير المبين) انذركم ببيان وبرهان ان عذاب الله نازل بكم (كما أنزلنا) متعلق بقوله ولقد آتيناك اى انزلنا عليك مثل ما أنزلنا (على المقتسمين) وهم اهل الكتاب

(الذين جعلوا القرآن عضين) اجزاء جمع عضة واصلها عضوة فعلة من عضى الشاة اذا جعلها اعضاء حيث قالوا بعنادهم بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه الى حق وباطل وعضوه وقيل كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم سورة البقرة لي ويقول الآخر سورة آل عمران لي اوأريد بالقرآن مايقرؤنه من كتبهم وقد اقتسموه فاليهود اقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض والنصارى اقرت ببعض الانجيل وكذبت ببعض ويجوز ان يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوبا بالنذير اى انذر المعضين الذين يجزؤن القرآن الى سحر وشعر واساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر

الذين اقتسموا مداخل مكة ايام الموسم فقعدوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لاتغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر كذاب والآخر شاعر فأهلكهم الله ولاتمدن عينيك على الوجه الاول اعتراض بينهما لانه لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات الى دنياهم والتأسف على كفرهم ومن الامر بان يقبل بكليته على المؤمنين (فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون) اقسم بذاته وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحدا واحدا من هؤلاء المقتسمين عما قالوه في رسول الله صلى الله عليه وسلم اوفي القرآن اوفي كتب الله (فاصدع بما تؤمر) فاجهر به

عقاب مكة وطرقها وذلك ان الوليد بن المغيرة بعث رهطا من اهل مكة قيل ستة عشر وقيل أربعين فقال لهم انطلقوا فتفرقوا على عقاب مكة وطرقها حيث يمر بكم أهل الموسم فاذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم انه شاعر وليقل بعضكم انه ساحر فاذا جاؤا الى صدقتكم فذهبوا وقعدوا على عقاب مكة وطرقها يقولون لمن مر بهم من حجاج العرب لاتغتروا وابهذا الخارج الذي يدعي النبوة منا فانه مجنون كاهن وشاعر وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام فاذا جاؤا وسألوه عما قال أولئك المقتسمون قال صدقوا وقوله سبحانه وتعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) (خ) عن ابن عباس في قوله تعالى الذين جعلوا القرآن عضين قال هم اليهود والنصارى جزؤه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض قيل هو جمع عضة من قولهم عضيت الشئ اذا فرقته وجعلته أجزاء وذلك لانهم جعلوا القرآن اجزاء مفرقة فقال بعضهم هو سحر وقال بعضهم هو كهانة وقال بعضهم هو أساطير الاولين وقيل هو جمع عضة وهو الكذب والبهتان وقيل المراد به العضة وهو السحر يعني انهم جعلوا القرآن سحرا (فوربك لنسئلنهم أجمعين) أقسم الله بنفسه انه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين (عما كانوا يعملون) يعني عما كانوا يقولونه في القرآن وقيل عما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي وقيل يرجع الضمير في لنسألنهم الى جميع الخلق المؤمن والكافر لان اللفظ عام فحمله على العموم أولى قال جماعة من اهل العلم عن لا اله الا الله عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال عن قول لا اله الا الله أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وقال أبو العالية يسأل العباد عن خلتين عما كانوا يعبدون وماذا أجابوا المرسلين فان قلت كيف الجمع بين قوله لنسألنهم أجمعين وبين قوله فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان قلت قال ابن عباس لا يسألهم هل عملتم لانه أعلم به منهم ولكن يقول لم عملتم كذا واعتمده قطرب فقال السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ فقوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان يعني سؤال استعلام وقوله لنسألنهم أجمعين سؤال توبيخ وتقريع وجواب آخر وهو مروي عن ابن عباس أيضا انه قال في الآيتين ان يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف فيسئلون في بعض المواقف ولا يسئلون في بعضها نظيره قوله سبحانه وتعالى هذا يوم لا ينطقون وقال تعالى في آية أخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قوله سبحانه وتعالى (فاصدع بما تؤمر) قال ابن عباس أظهر ويروى عنه أمضه وقال الضحاك اعلم وأصل الصدع الشق والفرق اى افرق بالقرآن بين الحق والباطل أمر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية باظهار الدعوة وتبليغ الرسالة الى من أرسل اليهم قال عبد الله بن عبيدة ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه (واعرض عن المشركين) اى اكفف عنهم ولا تلتفت الى لومهم على اظهار دينك وتبليغ رسالة ربك وقيل أعرض عن الاهتمام باستهزائهم وهو قوله سبحانه وتعالى (انا كفيناك المستهزئين)

وأظهره يقال صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا من الصديع وهو الفجر او فاصدع فافرق بين الحق والباطل من الصدع في الزجاجة وهو الابانة بما تؤمر والمعنى بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله امرتك الخير فافعل ما امرت به * (واعرض عن المشركين) هو امر استهانة بهم (انا كفيناك المستهزئين) الجمهور على انها نزلت في خمسة نفر كانوا يبالغون في ايذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فأهلكهم الله وهم الوليد بن المغيرة مر بنبال فتعلق بثوبه سهم فأصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات والعاص بن وائل دخل في اخمصه شوكة فانتفخت رجله فمات والاسود بن عبد المطلب عمي والاسود

اكثر المفسرين على ان هذا الاعراض منسوخ بآية القتال وقال بعضهم ما للنسخ وجه لان معنى الاعراض ترك المبالاة بهم والالتفات اليهم فلا يكون منسوخا وقوله تعالى انا كفيناك المستهزئين يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاصدع بما أمرتك به ولا تخف احدا غيري فاني أنا كافيك وحافظك ممن عاداك فانا كفيناك المستهزئين وكانوا خمسة نفر من رؤساء كفار قريش كانوا يستهزؤن بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وهم الوليد بن المغيرة المخزومي وكان رأسهم والعاص بن وائل السهمي والاسود بن المطلب بن الحرث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا عليه فقال اللهم أعم بصره وأثكله بولده والاسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة والحرث بن قيس بن طلاطلة كذا ذكره البغوي وقال ابن الجوزي الحرث بن قيس بن عيطلة وقال الزهري عيطلة أمه وقيس أبوه فهو منسوب الى أبيه وأمه قال المفسرون أتى جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمستهزؤن يطوفون بالبيت فقام جبريل وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة فقال جبريل يا محمد كيف تجد هذا قال بئس عبد الله فقال قد كفيته وأومأ الى ساق الوليد فمر الوليد برجل من خزاعة نبال يريش نبلا له وعليه برد يمان وهو يجر ازاره فتعلقت شظية من النبل بازار الوليد فنعه الكبر أن يطأطئ رأسه فيزعها وجعلت تضربه في ساقه فخدشته فمرض منها فمات ومر بهما العاص بن وائل السهمي فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبد الله فاشار جبريل الى أخمص قدمه وقال قد كفيته فخرج العاص على راحلة يتنزه ومعه ابناه فنزل شعبا من تلك الشعاب فوطئ شبرقة فدخل منها شوكة في أخمص رجله فقال لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئا وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير فمات مكانه ومر بهما الاسود بن المطلب فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فاشار جبريل بيده الى عينيه وقال قد كفيته فعمي قال ابن عباس رضي الله عنهما جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عيناه فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك وفي رواية الكلبي قال أتاه جبريل وهو قاعد في اصل شجرة ومعه غلام له وفي رواية فجعل ينطح رأسه في الشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه فقال له غلامه ما أرى احدا يصنع بك شيأ غيرك فمات وهو يقول قتلني محمد ومر بهما الاسود بن عبد يغوث فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبد الله على انه خالي فقال جبريل قد كفيته وأشار الى بطنه فاستسقى بطنه فمات وفي رواية الكلبي انه خرج من اهله فاصابه سموم فاسود وجهه حتى صار حبشيا فاتى اهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب فمات وهو يقول قتلني رب محمد ومر بهما الحرث بن قيس فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فاومأ جبريل الى رأسه وقال قد كفيته فامتخط قيحا فقتله وقال ابن عباس انه أكل حوتا مالحا فاصابه العطش فلم يزل يشرب الماء حتى انقد بطنه فمات فذلك قوله تعالى انا كفيناك المستهزئين يعني بك وبالقرآن (الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون) يعني اذا نزل بهم العذاب ففيه وعيد وتهديد قوله سبحانه وتعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) يعني بسبب ما يقولون وهو ما كانوا يسمعونه من الاستهزاء به والقول الفاحش والجبلة البشرية تأبى ذلك فيحصل عند سماع ذلك ضيق الصدر فعند ذلك أمره بالتسبيح والعبادة وهو قوله (فسبح بحمد ربك) قال ابن عباس فصل بامر ربك (وكن من الساجدين) يعني من المتواضعين لله وقال الضحاك فسبح بحمد ربك قل سبحان الله وبحمده وكن من الساجدين يعني من المصلين روى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة قال بعض العارفين من المحققين ان السبب في زوال الحزن عن القلب اذا أتى العبد بهذه العبادات انه ينور باطنه ويشرق قلبه وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت اليها ولا

ابن عبد يغوث جعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات والحرث بن قيس امتخط قيحا ومات (الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون) عاقبة امرهم يوم القيامة (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون) فيك أو في القرآن أو في الله (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) فافزع فيما نابك الى الله والفزع الى الله هو الذكر الدائم وكثرة السجود يكفك ويكشف عنك الغم

يتأسف على فواتها فيزول الهم والغم والحزن عن قلبه وقال بعض العلماء اذا نزل بالعبد مكروه ففزع الى الصلاة فكأنه يقول يارب انما يجب على عبادتك سواء أعطيتني ما أحب او كفيتني ما أكره فانا عبدك وبين يديك فافعل بي ماتشاء قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) يعني الموت الموقن به الذي لاشك فيه احد والمعنى واعبد ربك في جميع اوقاتك ومدة حياتك حتى يأتيك الموت وأنت في عبادة ربك وهذا مثل قوله تعالى في سورة مريم وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا روى البغوي بسنده عن جبير بن نفير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله الى أن اجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى الي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وعن عمر قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو قال شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله وحب رسوله الى ماترون ذكره البغوي بغير سند والله أعلم بمراده واسرار كتابه

(واعبد ربك) ودم على عبادة ربك (حتى يأتيك اليقين) اى الموت يعني مادمت حيا فاشتغل بالعبادة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة

(تفسير سورة النحل)

مكية الا قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به الى آخر السورة فانها نزلت بالمدينة في قتل حمزة قاله ابن عباس وفي رواية أخرى عنه انها مكية غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي قوله ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا الى قوله يعملون وقال قتادة هي مكية الا خمس آيات وهي قوله والذين هاجروا في الله من بعد ماظلموا وقوله ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا وقوله تعالى وان عاقبتم الى آخر السورة زاد مقاتل وقوله من كفر بالله من بعد ايمانه الآية وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة الآية وقيل كان يقال لسورة النحل سورة النعم لكثرة تعداد النعم فيها وهي مائة وثمان وعشرون آية وألفان وثمانمائة واربعون كلمة وسبعة آلاف وسبعمائة وسبعة احرف

مكية وهي مائة وثمان وعشرون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله سبحانه وتعالى (أتى أمر الله) يعني جاء ودنا وقرب أمر الله تقول العرب أتاك الامر وهو متوقع المجيء بعد ما اتى ومعنى الآية أتى امر الله وعدا (فلا تستعجلوه) يعني وقوعا والمراد به مجيء القيامة قال ابن عباس لما نزل قوله سبحانه وتعالى اقتربت الساعة وانشق القمر قال الكفار بعضهم لبعض ان هذا الرجل يزعم ان القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ماهو كائن فلما رأوا انه لا ينزل شيء قالوا ما نرى شيأ فنزل قوله تعالى اقترب للناس حسابهم فأشفقوا فلما امتدت الايام قالوا يامحمد ما نرى شيأ مما تخوفنا به فنزل أتى امر الله فوثب النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا انها قد أتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمأنوا والاستعجال طلب مجيء الشيء قبل وقته ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير باصبعيه يمدهما اخرجاه في الصحيحين من حديث سهل بن سعد (ق) عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين كفضل احداهما على الاخرى وضم السبابة الى الوسطى وفي رواية بعثت في نفس الساعة فسبقتها كفضل هذه على الاخرى قال ابن عباس كان مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة ولما مر جبريل باهل السموات مبعوثا الى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر قامت الساعة وقال قوم المراد بالامر هنا عقوبة المكذبين وهو العذاب بالقتل بالسيف وذلك ان النضر بن الحرث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم فاستعجل العذاب فنزلت هذه

(بسم الله الرحمن الرحيم) كانوا يستعجلون ماوعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبا بالوعد فقيل لهم (أتى امر الله) اى هو بمنزلة الآتي الواقع وان كان منتظر القرب وقوعه (فلا تستعجلوه)

سبحانه وتعالى عما يشركون) تبرأ جل وعز عن ان يكون له شريك وعن اشراكهم فما موصولة او مصدرية واتصال هذا باستجهالهم من حيث ان استجهالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك (ينزل الملائكة) و بالتخفيف مكي وابو عمرو (بالروح) بالوحي او بالقرآن لان كلا منهما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد او يحيي القلوب الميتة بالجهل (من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا) ان مفسرة لان تنزيل الملائكة بالوحي ١١٦ فيه معنى القول ومعنى انذروا (انه لا اله الا أنا فاتقون) اعلموا بان الامر ذلك من نذرت بكذا اذا علمته والمعنى اعلموا الناس قولي لا اله الا أنا فاتقون فخافون و بالياء يعقوب ثم دل على وحدانيته وانه لا اله الا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والارض وهو قوله (خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون) و بالتاء في الموضعين حمزة وعلي وخلق الانسان وما يكون منه وهو قوله (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) اى فاذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح لخصومه مبين لحجته بعدما كان نطفة لا حس به ولا حركة او فاذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل من يحيي العظام وهي رميم وهو وصف للانسان بالوقاحة والتمادي في كفران النعمة وخلق ما لا بد له منه من خلق البهائم لاكله وركوبه وجعل أثقاله وسائر حاجاته وهو قوله (والانعام خلقها لكم) هي الازواج الثمانية وأكثر ما يقع (ولكم)

الآية وقتل النضر يوم بدر صبرا (سبحانه وتعالى عما يشركون) يعني تنزه الله وتعاظم بالاوصاف الحميدة عما يصفه به المشركون قوله سبحانه وتعالى (ينزل الملائكة بالروح) يعني بالوحي (من أمره) وانما سمي الامر روحا لانه به تحيا القلوب من موت الجهالات وقال عطاء بالنبوة وقال قتادة بالرحمة وقيل الروح هو جبريل والباء بمعنى مع يعني ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل (على من يشاء من عباده) يعني على من يصطفيه من عباده للنبوة والرسالة وتبليغ الوحي الى الخلق (أن أنذروا) يعني بان أعلموا (أنه لا اله الا أنا فاتقون) اى فخافون وقيل معناه مروا بقول لا اله الا الله منذرين يعني مخوفين بالقرآن (خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون) تقدم تفسيره (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) يعني انه جدل بالباطل بين الخصومة نزلت في أبي بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث فجاء بعظم رميم الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تزعم ان الله يحيي هذا العظم بعد ما رم فنزلت فيه هذه الآية ونزل فيه ايضا قوله تعالى قال من يحيي العظام وهي رميم والصحيح ان الآية عامة في كل ما يقع من الخصومة في الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم اولى وفيها بيان القدرة وان الله خلق الانسان من نطفة قذرة فصار جبارا كثير الخصومة وفيها كشف قبيح ما فعله الكفار من جحدهم نعم الله تعالى مع ظهورها عليهم * قوله عز وجل (والانعام خلقها) لما ذكر الله سبحانه وتعالى انه خلق السموات والارض ثم أتبعه بذكر خلق الانسان ذكر بعده ما ينتفع به في سائر ضروراته ولما كان اعظم ضرورات الانسان الى الاكل واللباس اللذين يقوم بهما بدن الانسان بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك وهو الانعام فقال تعالى والانعام خلقها وهي الابل والبقر والغنم قال الواحدي تم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدأ فقال تعالى (لكم فيها دفء) قال ويجوز أيضا ان يكون تمام الكلام عند قوله لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء قال صاحب النظم أحسن الوجهين ان يكون الوقف عند قوله خلقها ثم يبتدأ بقوله لكم فيها دفء والدليل عليه انه عطف عليه قوله ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال ولما كانت منافع هذه الانعام منها ضرورية ومنها غير ضرورية بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر المنافع الضرورية فقال تعالى لكم فيها دفء وهو ما يستدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة من الاصواف والاوبار والاشعار الحاصلة من النعم (ومنافع) يعني النسل والدر والركوب والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الانعام (ومنها تأكلون) يعني من لحومها فان قلت قوله تعالى ومنها تأكلون يفيد الحصر لان تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها قلت الاكل من هذه الانعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم واما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر فغير معتد به في الاغلب وأكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الاغلب في الاكل من هذه الانعام فان قلت منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم أخر منفعة الاكل وقدم منفعة اللباس قلت منفعة اللباس اكثر وأعظم من منفعة الاكل فلهذا قدم على الاكل وقوله سبحانه وتعالى

(والانعام خلقها لكم) هي الازواج الثمانية وأكثر ما يقع (ولكم)
على الابل وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله والقمر قدرناه منازل او بالعطف على الانسان اى خلق الانسان والانعام ثم قال خلقها لكم اى ما خلقها الا لكم يا جنس الانسان (فيها دفء) هو اسم ما يدفأ به من لباس معمول من صوف او وبر أو شعر (ومنافع) وهي نسلها ودرها (ومنها تأكلون) قدم الظرف وهو يؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها لان الاكل منها هو الاصل الذي يعتمده الناس في معايشهم واما الاكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجاري مجرى التفكه

(ولكم فيها جمال حين تريحون) ترددونها من مراعيها الى مراحها بالعشى (وحين تسرحون) ترسلونها بالغداة الى مسارحها من الله تعالى بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها لانه من اغراض أصحاب المواشى لان الرعيان اذا روحوها ١١٧ بالعشى وسرحوها بالغداة تزينت

(ولكم فيها) اى فى الانعام (جمال) اى زينة (حين تريحون وحين تسرحون) الاراحة رد الابل بالعشى الى مراحها حيث تأوى اليه بالليل و يقال سرح القوم ابلهم تسريحا اذا أخرجوها بالغداة الى المرعى قال أهل اللغة واكثر ما تكون هذه الراحة أيام الربيع اذا سقط الغيث ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة وأحسن ما تكون النعم فى ذلك الوقت فمن الله سبحانه وتعالى بالتجمل بها فيه كما من بالانتفاع بها لانه من أغراض أصحاب المواشى بل هو من معظمها لان الرعاة اذا سرحوا النعم بالغداة الى المرعى وروحوها بالعشى الى الافنية والبيوت يسمع للابل رغاء وللشاء ثغاء يجاوب بعضها بعضا فعند ذلك يفرح أربابها بها وتتجمل بها الافنية والبيوت و يعظم وقعها عند الناس فان قلت لم قدمت الاراحة على التسريح قلت لان الجمال فى الاراحة وهو رجوعها الى البيوت أكثر منها وقت التسريح لان النعم تقبل من المرعى ملأى البطون حافلة الضروع فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع من اللبن ثم تأخذ فى التفرق والانتشار للرعى فى البرية فثبت بهذا البيان ان التجمل فى الاراحة أكثر منه فى التسريح فوجب تقديمه وقوله سبحانه وتعالى (وتحمل أثقالكم) الاثقال جمع ثقل وهو متاع السفر وما يحتاج اليه من آلات السفر (الى بلد) يعنى غير بلدكم قال ابن عباس يريد من مكة الى اليمن والى الشام وانما قال ابن عباس هذا القول لانه خطاب لاهل مكة واكثر تجاراتهم وأسفارهم الى الشام واليمن وحمله على العموم اولى لانه خطاب عام فدخول الكافة فيه اولى من تخصيصه ببعض المخاطبين (لم تكونوا بالغيه) يعنى بالغى ذلك البلد الذى تقصدونه (الا بشق الانفس) يعنى بالمشقة والجهد والعناء والتعب والشق نصف الشئ والمعنى على هذا لم تكونوا بالغيه الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها (ان ربكم لرؤف رحيم) يعنى بخلقه حيث خلق لهم هذه المنافع قوله سبحانه وتعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) هذه الآية عطف على ما قبلها والمعنى وخلق هذه الحيوانات لاجل ان تركبوها والخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط والنساء (وزينة) يعنى وجعلها زينة مع المنافع التى فيها

(فصل) احتج بهذه الآية من يرى تحريم لحوم الخيل وهو قول ابن عباس وتلا هذه الآية وقال هذه للركوب والزينة ذهب الحكم ومالك وأبو حنيفة رحمهم الله واستدلوا أيضا بان منفعة الاكل أعظم من منفعة الركوب فلما لم يذكره الله تعالى علمنا تحريم أكله فلو كان أكل لحوم الخيل جائزا لكان هذا المعنى اولى بالذكر لان الله سبحانه وتعالى خص الانعام بالاكل حيث قال ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا انها مخلوقة للركوب لا للاكل وذهب جماعة من أهل العلم الى اباحة لحوم الخيل وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير واليه ذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه وأحمد واسحق واحتجوا على اباحة لحوم الخيل بما روى عن أسماء بنت ابى بكر الصديق انها قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا فاكلناه وفى رواية قالت ذبحنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة فاكلناه أخرجه البخارى ومسلم (ق) عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن فى الخيل وفى رواية قال أكلنا زمن خيبر لحوم الخيل وحمر الوحش ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلى هذه رواية البخارى ومسلم وفى رواية أبى داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابتنا مخمصة فهنانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وأجاب من أباح لحوم الخيل عن هذه الآية بان ذكر الركوب والزينة

بأراحتها وتسريحها الافنية وفرحت أربابها واكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس وانما قدمت الاراحة على التسريح لان الجمال فى الاراحة أظهر اذا اقبلت ملأى البطون حافلة الضروع (وتحمل أثقالكم) أحمالكم (الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس) وبفتح الشين أبو جعفر وهما لغتان فى معنى المشقة وقيل المفتوح مصدر شق الامر عليه شقا وحقيقته راجعة الى الشق الذى هو الصدع وأما الشق فالنصف كانه يذهب نصف قوته لما ينال من الجهد والمعنى وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه لولم تخلق الابل الا بجهد ومشقة فضلا ان تحملوا أثقالكم على ظهورها ومعناه لم تكونوا بالغيه بها الا بشق الانفس وقيل أثقالكم ابدانكم ومنه الثقلان للجن والانس ومنه وأخرجت الارض اثقالها اى بنى آدم (ان ربكم لرؤف رحيم) حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح (والخيل والبغال والحمير

تركبوها وزينة) عطف على الانعام اى وخلق هذه للركوب والزينة وقد احتج ابو حنيفة رحمه الله على حرمة أكل لحم الخيل لانه علل خلقها للركوب والزينة ولم يذكر الاكل بعد ما ذكره فى الانعام ومنفعة الاكل أقوى والآية سيقت لبيان النعمة ولا يليق بالحكيم ان يذكر فى مواضع المنة ادنى النعمتين ويترك أعلاهما وانتصاب زينة على المفعول له عطفا على محل لتركبوها وخلق ما لا تعلمون

لا يدل على ان منفعتها مختصة بذلك وانما خصها تان المنفعتان بالذكر لانهما معظم المقصود قالوا ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله في الانعام وتحمل أثقالكم ولم يلزم من هذا التحريم حمل الاثقال على الخيل وقال البغوى ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته والدليل الصحيح المعتمد عليه في اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضي ان الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الاكل مسكوتا عنه دار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير فاخذنا بها جمعا بين النصين والله أعلم وقوله تعالى (ويخلق مالا تعلمون) لما ذكر الله سبحانه وتعالى الحيوانات التي ينتفع بها الانسان في جميع حالاته وضروراته على سبيل التفصيل ذكر بعدها ما لا ينتفع به الانسان في الغالب على سبيل الاجمال لان مخلوقات الله عز وجل في البر والبحر والسموات أكثر من أن تحصى او يحيط بها عقل أحد او فهمه فلهذا ذكرها على الاجمال وقال بعضهم ويخلق مالا تعلمون يعني مما أعد الله لاهل الجنة في الجنة ولاهل النار في النار مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال قتادة في قوله ويخلق مالا تعلمون يعني السوس في النبات والدود في الفواكه قوله سبحانه وتعالى (وعلى الله قصد السبيل) القصد استقامة الطريق يقال طريق قصد وقاصد اذا أداك الى مطلوبك وفي الآية حذف تقديره وعلى الله بيان قصد السبيل وهو بيان طريق الهدى من الضلالة وقيل معناه وعلى الله بيان طريق الحق بالآيات والبراهين (ومنها جائر) يعني ومن السبيل سبيل جائر عن الاستقامة بل هو معوج فالقصد من السبيل هو دين الاسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر وقال جابر بن عبد الله قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله قصد السبيل السنة ومنها جائر الاهواء والبدع (ولو شاء لهداكم أجمعين) فيه دليل على ان الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فقوله ولو شاء لهداكم أجمعين معناه ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين وذلك يفيد انه تعالى ما شاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم * قوله عز وجل (هو الذي أنزل من السماء ماء) لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمته على عباده بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر من السماء وهو من أعظم النعم على العباد فقال هو الذي أنزل من السماء يعني والله الذي خلق جميع الاشياء هو الذي أنزل من السماء ماء يعني المطر (لكم منه) يعني من ذلك الماء (شراب) يعني تشربونه (ومنه) يعني ومن ذلك الماء (شجر) الشجر في اللغة ما له ساق من نبات الارض ونقل الواحدي عن أهل اللغة انهم قالوا الشجر أصناف ما جل وعظم وهو الذي يبقى على الشتاء ومادق وهو صنفان أحدهما تبقى له أدوحة في الشتاء وينبت في الربيع ومنها ما لا يبقى له ساق في الشتاء كالبقول وقال أبو اسحق كل ما ينبت على وجه الارض فهو شجر وأنشد * نطعمها اللحم اذا عز الشجر * أرادانهم يسقون الخيل اللبن اذا أجدبت الارض وقال ابن قتيبة في هذه الآية يعني الكلأ ومعنى الآية انه ينبت بالماء الذي أنزل من السماء ما ترعى الراعية من ورق الشجر لان الابل ترعى كل الشجر (فيه) يعني في الشجر (تسيمون) يعني ترعون مواشيكم يقال أسمت السائمة اذا خليتها ترعى وسامت هي اذا رعت حيث شاءت (ينبت لكم) اي ينبت الله لكم وقرئ تنبت على التعظيم لكم (به) اي بذلك الماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) لما ذكر الله في الحيوان تفصيلا واجمالا ذكر في الثمار تفصيلا واجمالا فبدا بذكر الزرع وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير وما أشبههما لان به قوام بدن الانسان وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن والبركة وثلث بذكر النخيل لان ثمرتها غذاء وفاكهة وخص

المراد به الجنس ولذا قال (ومنها جائر) والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد يقال سبيل قصد وقاصد اى مستقيم كانه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه ومعناه ان هداية الطريق الموصل الى الحق عليه كقوله ان علينا للهدى وليس ذلك للوجوب اذ لا يجب على الله شيء ولكن يفعل ذلك تفضلا وقيل معناه والى الله وقال الزجاج معناه وعلى الله تبيين الطريق الواضح المستقيم والدعاء اليه بالحجج ومنها جائر اى من السبيل مائل عن الاستقامة (ولو شاء لهداكم اجمعين) أراد هداية اللطف بالتوفيق والانعام بعد الهدى العام (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب) لكم متعلق بانزل او خبر لشراب وهو ما يشرب (ومنه شجر) يعني الشجر الذي ترعاه المواشي (فيه تسيمون) من سامت الماشية اذا رعت فهي سائمة واسامها صاحبها وهو من السومة وهي العلامة لانها تؤثر بالمرعى علامات في الارض (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) ولم يقل كل الثمرات لان كلها لا يكون الا في الجنة وانما أنبت في الارض بعض من كلها للتذكرة

(ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته والآية الدلالة الواضحة (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره) بنصب الكل على وجعل النجوم مسخرات والنجوم

مسخرات فقط حفص والشمس والقمر والنجوم مسخرات شامى على الابتداء والخبر (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) جمع الآية وذكر العقل لان الآثار العلوية اظهر دلالة على القدرة الباهرة وابين شهادة للكبرياء والعظمة (وما ذرأ لكم فى الارض) معطوف على الليل والنهار اى ماخلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك (مختلفا) حال (الوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) يتعظون (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) هو السمك ووصفه بالطراوة لان الفساد يسرع اليه فيؤكل سريعا طريا خيفة الفساد وانما لا يحنث باكله اذا حلف لا يأكل لحما لان مبنى الايمان على العرف ومن قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بالسمك كان حقيقا بالانكار (وتستخرجوا منه حلية) هى اللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) المراد بلبسهم لبس نسائهم ولكنهن انما يتزين بها من اجلهم فكانها زينتهم ولباسهم (وترى الفلك مواخر)

بذكر الاعناب لانها شبيه النخلة فى المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر سائر الثمرات اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده ثم قال تعالى (ان فى ذلك) يعنى الذى ذكر من أنواع الثمار (لآية) يعنى علامة دالة على قدرتنا ووحدانيتنا (لقوم يتفكرون) يعنى فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم) تقدم تفسيره فى سورة الاعراف (مسخرات) يعنى مذللات مقهورات تحت قهره وارادته وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لانهم يعتقدون ان هذه النجوم هى الفعالة المتصرفة فى العالم السفلى فاخبر الله تعالى ان هذه النجوم مسخرات فى نفسها مذللات (بامره) يعنى بامره بها مقهورات تحت قهره يصرفها كيف يشاء ويختار وانها ليس لها تصرف فى نفسها فضلا عن غيرها وانما ذكر الله سبحانه وتعالى انه خلق هذه النجوم وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم هذه الآية بقوله (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) يعنى ان كل من كان له عقل صحيح سليم علم ان الله سبحانه وتعالى هو الفعال المختار وان جميع الخلق تحت قدرته وقهره وتسخيره لما أراده منهم (وما ذرأ لكم فى الارض) يعنى وما خلق لكم فى الارض وسخر لأجلكم من الدواب والانعام والاشجار والثمار (مختلفا الوانه) يعنى فى الخلقة والهيئة والكيفية واختلاف ألوان المخلوقات مع كثرتها حتى لا يشبه بعضها بعضا من كل الوجوه فيه دليل قاطع على كمال قدرة الله ولذلك ختم هذه الآية بقوله تعالى (ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) يعنى فيعتبرون بذلك قوله سبحانه وتعالى (وهو الذى سخر) لكم (البحر) لما ذكر الله سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته من خلق السموات والارض وخلق الانسان من نطفة وخلق سائر الحيوان والنبات وتسخير الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من آثار قدرته وعجائب صنعته وذكر انعامه فى ذلك على عباده ذكر بعد ذلك انعامه على عباده بتسخير البحر لهم نعمة من الله عليهم ومعنى تسخير الله البحر لعباده جعله بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به اما بالركوب عليه او بالغوص فيه او الصيد منه فذكر هذه الثلاثة الاقسام من أنواع الانتفاع به فقال تعالى وهو الذى سخر البحر (لتأكلوا منه لحما طريا) فبدأ بذكر الاكل لانه أعظم المقصود لان به قوام البدن وفى ذكر الطرى مزيد فائدة دالة على كمال قدرة الله تعالى وذلك ان السمك لو كان كله ملحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطرى لانه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الطرى الذى لحمه فى غاية العذوبة علم انه انما حدث بقدرة الله وخلقه لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله قادر على اخراج الضد من الضد المنفعة الثانية قوله تعالى (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) يعنى اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والمراد بلبسهم لبس نسائهم لان زينة النساء بالحلى وانما هو لاجل الرجال فكان ذلك زينة لهم المنفعة الثالثة قوله تعالى (وترى الفلك) يعنى السفن (مواخر فيه) يعنى جوارى فيه قال قتادة مقبلة ومدبرة وذلك انك ترى سفينتين احداهما تقبل والاخرى تدبر تجريان بريح واحدة وأصل المخر فى اللغة الشق يقال مخرت السفينة مخرا اذا شقت الماء بجؤجؤها وقال مجاهد تمخر الرياح السفن يعنى انها اذا جرت يسمع لها صوت قال أبو عبيدة يعنى صوائح وانخر صوت هبوب الريح عند شدتها وقال الحسن مواخر يعنى مواقر اى مملوءة متاعا (ولتبتغوا من فضله) يعنى الارباح بالتجارة فى البحر (ولعلكم تشكرون) يعنى انعام الله عليكم اذا رأيتم نعم الله فيما سخر لكم (وألقى فى الارض رواسى) يعنى جبالا ثقالا (أن تميد بكم) يعنى لئلا تميل وتضطرب بكم والميد هو اضطراب الشئ العظيم كالارض وقال وهب لما خلق

جوارى تجرى جريا وتشق الماء شقا والمخر شق الماء بحيزومها (فيه) فى البحر (ولتبتغوا من فضله) هو عطف على محذوف اى لتعتبروا ولتبتغوا وابتغاء الفضل التجارة (ولعلكم تشكرون) الله على ما أنعم عليكم به (وألقى فى الارض رواسى) جبالا ثوابت (ان تميد بكم) كراهية ان تميل بكم وتضطرب او لئلا تميد بكم لكن حذف المضاف أكثر قيل خلق الله الارض فجعلت تميد فقالت الملائكة ما هى بمقر أحد على

ظهرها فاصبحت وقد ارسيت بالجبال لم تدر الملائكة ثم خلقت (وانهارا) وجعل فيها أنهارا الان التي فيه معنى جعل (وسبلا) طرقا
(لعلكم تهتدون) الى مقاصدكم ١٢٠ او الى توحيد ربكم (وعلامات) هي معالم الطرق وكل ما يستدل به السابلة من جبل وغيره ذلك
(وبالنجم هم يهتدون)
المراد بالنجم الجنس او هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي فان قلت وبالنجم هم يهتدون مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه النجم مقحم فيه هم كانه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فمن المراد بهم قلت كانه اراد قريشا فلهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم ولهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم فكان الشكر اوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصوا (أفمن يخلق) اى الله تعالى (كمن لا يخلق) اى الاصنام وجيء بمن الذي هو لاولى العلم لزعمهم حيث سموها آلهة وعبدوها فاجروها مجرى أولى العلم أولان المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من اولى العلم فكيف بما لا علم عنده وانما لم يقل أفمن لا يخلق كمن يخلق مع اقتضاء المقام بظاهره اياه لكونه الزاما للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله لانهم حيث جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيها بها فانكر عليهم ذلك بقوله أفمن يخلق كمن لا يخلق

الله سبحانه وتعالى الارض جعلت تمور وتتحرك فقالت الملائكة ان هذه غير مقرة أحدا على ظهرها فاصبحوا وقد أرسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال (وأنهارا) يعني وجعل فيها انهارا الان في ألقى معنى الجعل فقوله سبحانه وتعالى وأنهارا معطوف على وألقى ولما ذكر الله الجبال ذكر بعدها الانهار لان معظم عيون الانهار وأصولها تكون من الجبال (وسبلا) يعني وجعل فيها طرقا مختلفة تسلكونها في أسفاركم والتردد في حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان (لعلكم تهتدون) يعني بتلك السبل الى ما تريدون فلا تضلون (وعلامات) يعني وجعل فيها علامات تهتدون بها في أسفاركم قال بعضهم تم الكلام عند قوله وعلامات ثم ابتدأ (وبالنجم هم يهتدون) وقال محمد بن كعب والكلبي أراد بالعلامات الجبال والنجوم فالجبال علامات النهار والنجوم علامات الليل وقال مجاهد أراد بالكل النجوم فمنها ما يكون علامات ومنها ما يهتدى به وقال السدي أراد بالنجم الثريا وبنات نعش والفرقدين والجدي فهذه يهتدى بها الى الطريق والقبلة وقال قتادة انما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء لتكون زينة السماء ومعالم الطريق ورجوما للشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف مالا علم له به قوله سبحانه وتعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) لما ذكر الله عز وجل من عجائب قدرته وغرائب صنعته وبديع خلقه ماذكر على الوجه الاحسن والترتيب الاكمل وكانت هذه الاشياء المخلوقة المذكورة في الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وأنه تعالى هو المنفرد بخلقها جميعا قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الاصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شيء أفمن يخلق يعني هذه الاشياء الموجودة المرئية بالعيان وهو الله تعالى الخالق لها كمن لا يخلق يعني هذه الاصنام العاجزة التي لا تخلق شيأ البتة لانها جمادات لا تقدر على شيء فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها ويترك عبادة من يستحق العبادة وهو الله خالق هذه الاشياء كلها ولهذا المعنى ختم هذه الآية بقوله (أفلا تذكرون) يعني ان هذا القدر ظاهر غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه الى دقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكر * بقي في الآية سؤالان الاول قوله كمن لا يخلق المراد به الاصنام وهي جمادات لا تعقل فكيف يعبر عنها بلفظة من وهي لمن يعقل والجواب عنه ان الكفار لما سموا هذه الاصنام آلهة وعبدوها أجريت مجرى من يعقل في زعمهم ألا ترى الى قوله بعد هذا والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيأ فخاطبهم على قدر زعمهم وعقولهم * السؤال الثاني قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق المقصود منه الزام الحجة على من عبد الاصنام حيث جعل غير الخالق مثل الخالق فكيف قال على سبيل الاستفهام أفمن يخلق كمن لا يخلق والجواب عنه انه ليس المراد منه الاستفهام بل المراد منه ان من خلق الاشياء العظيمة وأعطى هذه النعم الجزيلة كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة في التسمية والعبادة وكيف يليق بالعاقل ان يترك عبادة من يستحق العبادة لانه خالق هذه الاشياء الظاهرة كلها ويشتغل بعبادة جمادات لا تخلق شيأ البتة والله أعلم وقوله تعالى (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يعني ان نعم الله على العبد فيما خلق فيه من صحة البدن وعافية الجسم واعطاء النظر الصحيح والعقل السليم والسمع الذي يفهم به الاشياء وبسط اليدين وسعي الرجلين الى غير ذلك مما أنعم به عليه في نفسه وفيما أنعم به عليه مما خلق له من جميع ما يحتاج اليه من امر الدين والدنيا لا تحصى حتى لو رام أحد معرفة ادنى نعمة من هذه النعم لعجز عن معرفتها وحصرها فكيف بنعمه العظام التي لا يمكن الوصول الى حصرها

وهو حجة على المعتزلة في خلق الافعال (أفلا تذكرون) فتعرفون فسادما أنتم عليه (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلا ان تطيقوا القيام بحقها من اداء الشكر وانما اتبع ذلك ما عدد من نعمه تنبيها على ان ما وراءها لا ينحصر ولا يعد

(ان الله لغفور رحيم) يتجاوز عن تقصيركم فى اداء شكر النعمة ولا يقطعها عنكم لتقريطكم (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) من اقوالكم وافعالكم وهو وعيد (والذين يدعون) والآلهة الذين يدعوهم الكفار (من دون الله) وبالتاء غير عاصم (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون) اى هم اموات (غير احياء وما يشعرون أيان يبعثون) نفى عنهم خصائص

الالهية بنفى كونهم خالقين واحياء

لجميع الخلق فذلك قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها يعنى ولو اجتهدتم فى ذلك واتعبتم نفوسكم لا تقدرون عليه (ان الله لغفور) يعنى لتقصيركم فى القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم (رحيم) يعنى بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصى (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) يعنى ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبى صلى الله عليه وسلم وما يعلنون يعنى وما يظهرون من ايذائه فاخبر الله عز وجل انه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لا تخفى عليه خافية وان دقت وخفيت وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما ذاكر الاصنام وذكر عجزها فى الآية المتقدمة ذكر فى هذه الآية ان الاله الذى يستحق العبادة يجب ان يكون عالما بكل المعلومات سرها وعلانيتها وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة ثم وصف الله هذه الاصنام بصفات فقال تعالى (والذين تدعون من دون الله) يعنى الاصنام التى تدعونها آلهة من دون الله (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون) فان قلت قوله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لا يخلق يدل على ان هذه الاصنام لا تخلق شيأ فقوله سبحانه وتعالى لا يخلقون شيأ وهم يخلقون هذا هو نفس المعنى المذكور فى تلك الآية فما فائدة التكرار قلت فائدته ان المعنى المذكور فى الآية المتقدمة انهم لا يخلقون شيأ فقط والمذكور فى هذه الآية انهم لا يخلقون شيأ وانهم مخلوقون لغيرهم فكان هذا زيادة فى المعنى وهو فائدة التكرار (أموات) اى جمادات ميتة لا حياة فيها (غير احياء) يعنى كغيرها والمعنى لو كانت هذه الاصنام آلهة كما تزعمون لكانت احياء غير جائز عليها الموت لان الاله الذى يستحق أن يعبد هو الحى الذى لا يموت وهذه اموات غير احياء فلا تستحق العبادة فمن عبدها فقد وضع العبادة فى غير موضعها وقوله (وما يشعرون) يعنى هذه الاصنام (ايان يبعثون) يعنى متى يبعثون وفيه دليل على ان الاصنام تجعل فيها الحياة وتبعث يوم القيامة حتى تتبرأ من عابديها وقيل معناه ما يدرى الكفار الذين عبدوا الاصنام متى يبعثون قوله سبحانه وتعالى (الهكم اله واحد) يعنى ان الذى يستحق العبادة هو اله واحد وهذه أصنام متعددة فكيف تستحق العبادة (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) يعنى جاحدة لهذا المعنى (وهم مستكبرون) يعنى عن اتباع الحق لان الحق اذا تبين كان تركه تكبرا (لا جرم) يعنى حقا (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين) يعنى عن اتباع الحق (م) عن ابن مسعود ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس (قوله بطر الحق) هو ان يجعل ما جعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا وهذا على قول من جعل اصل البطر من الباطل ومن جعله من الحيرة فمعناه يتحير عند سماع الحق فلا يقبله ولا يجعله حقا وقيل البطر التكبر يعنى انه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله وقوله وغمط الناس يقال غمطت حق فلان اذا احتقرته ولم تره شيأ وكذا معنى غمصته اى انتقصت به وازدريته قوله عز وجل (واذا قيل لهم) يعنى هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم كفار مكة الذين اقتسموا عقابها وطرقها اذا سألهم الحاج الذين يفدون عليهم (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين) يعنى أحاديثهم وأباطيلهم (ليحملوا أوزارهم

لهم) لهؤلاء الكفار (ماذا أنزل ربكم قالوا اساطير الاولين) ماذا منصوب بانزل اى اى شئ انزل ربكم ورفوع على الابتداء اى اى شئ انزله ربكم وأساطير خبر مبتدا محذوف قيل هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما انزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا اساطير الاولين اى احاديث الاولين واباطيلهم واحدتها اسطورة واذارأوا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونهم بصدقه وانه نبى فهم الذين قالوا اخيرا (ليحملوا اوزارهم

كاملة يوم القيامة) اللام فى ليحملوا لام العاقبة وذلك انهم لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الاولين كانت عاقبتهم بذلك ان يحملوا اوزارهم يعنى ذنوب انفسهم وانما قال سبحانه وتعالى كاملة لان البلايا التى اصابتهم فى الدنيا واعمال البر التى عملوها فى الدنيا لا تكفر عنهم شيأ يوم القيامة بل يعاقبون بكل اوزارهم قال الامام فخر الدين الرازى وهذا يدل على انه سبحانه وتعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة وقوله سبحانه وتعالى (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) يعنى و يحصل للرؤساء الذين اضلوا غيرهم وصدوهم عن الايمان مثل اوزار الاتباع والسبب فيه ما روى عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيأ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ اخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث ان الرئيس اوالكبير اذا سن سنة حسنة اوسنة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فان الله سبحانه وتعالى يعظم ثوابه اوعقابه حتى يكون ذلك الثواب اوالعقاب مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بسنته الحسنة اوالقبيحة وليس المراد ان الله تعالى يوصل جميع الثواب او العقاب الذى يستحقه الاتباع الى الرؤساء لان ذلك ليس بعدل و يدل عليه قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى قال الواحدى ولفظة من فى قوله ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم ليست للتبعيض لانها لو كانت للتبعيض لنقص عن الاتباع بعض الاوزار وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام لا ينقص ذلك من آثامهم شيأ ولكنها للجنس اى ليحملوا من جنس أوزار الاتباع وقوله بغير علم يعنى ان الرؤساء انما يقدمون على اضلال غيرهم بغير علم بما يستحقونه من العقاب على ذلك الاضلال بل يقدمون على ذلك جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد (ألا ساء ما يزرون) يعنى ألا بئس ما يحملون ففيه وعيد وتهديد لهم قوله سبحانه وتعالى (قد مكر الذين من قبلهم) يعنى من قبل كفار قريش وهو نمرود بن كنعان الجبار وكان أكبر ملوك الارض فى زمن ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكان من مكره انه بنى صرحا ببابل ليصعد الى السماء و يقاتل اهلها فى زعمه قال ابن عباس وكان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب ومقاتل كان طوله فرسخين فهبت ريح فقصفته وألقت رأسه فى البحر وخر عليهم الباقى فأهلكهم وهم تحته وما سقط تبلبلت ألسنة الناس من الفزع فتكلموا يومئذ بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية قلت هكذا ذكره البغوى وفى هذا نظر لان صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان اهل اليمن عربا منهم جرهم الذى نشأ اسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكانت قبائل من العرب قديمة قبل ابراهيم عليه السلام مثل طسم وجديس وكل هؤلاء عرب تكلموا فى قديم الزمان بالعربية و يدل على صحة هذا قوله ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى والله أعلم وقيل حمل قوله قد مكر الذين من قبلهم على العموم اولى فتكون الآية عامة فى جميع الماكرين المبطلين الذين يحاولون الحاق الضرر والمكر بالغير وقوله سبحانه وتعالى (فأتى الله بنيانهم من القواعد) يعنى قصد تخريب بنيانهم من أصوله وذلك بان أتاهم بريح قصفت بنيانهم من اعلاه وأتاهم بزلازل قلعت بنيانهم من قواعده وأساسه هذا اذا حملنا تفسير الآية على القول الاول وهو ظاهر اللفظ وان حملنا تفسير الآية على القول الثانى وهو حملها على العموم كان المعنى انهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبياء الله واهل الحق من عباده اهلكهم الله تعالى وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنيانا وثيقا شديدا واودعوه بالاساطين فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على ألسنة الناس من حفر

كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم) اى قالوا ذلك اضلالا للناس فحملوا أوزارا ضلالهم كاملة و بعض أوزار من ضل بضلالهم وهو وزر الاضلال لان المضل والضال شريكان واللام للتعليل (بغير علم) حال من المفعول اى يضلون من لا يعلم انهم ضلال (ألا ساء ما يزرون) محل ما رفع (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد) اى من جهة القواعد وهى الاساطين وهذا تمثيل يعنى انهم سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله فجعل الله هلاكهم فى تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى البنيان من الاساطين بان ضعضعت فسقط عليهم السقف وماتوا وهلكوا والجمهور على ان المراد به نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا فأتى الله اى امره بالاستئصال

(فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون (ثم يوم القيامة يخزيهم) يذلهم بعذاب الخزي سوى ما عذبوا به في الدنيا (ويقول أين شركائي) على الاضافة الى نفسه حكاية لاضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم تشاقون نافع اى تشاقونني فيهم لان مشاقة المؤمنين كانها مشاقة الله (قال الذين أوتوا العلم) اى الانبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم الى الايمان ويعظونهم فلا يلتفتون اليهم ويشاقونهم يقولون ذلك شماتة بهم اوهم الملائكة (ان الخزي اليوم) الفضيحة (والسوء) العذاب (على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة) بالياء حمزة وكذا ما بعده (ظالمي أنفسهم) بالكفر بالله (فالقوا السلم) اى الصلح والاستسلام اى أخبتوا وجاؤا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق وقالوا (ما كنا نعمل من سوء) وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعداوة فرد عليهم أولو العلم وقالوا (بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون) فهو يجازيكم عليه وهذا ايضا من الشماتة وكذلك (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) جهنم (وقيل للذين اتقوا) الشرك (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) وانما نصب هذا ورفع اساطير لان التقدير هنا أنزل خيرا فطبقوا الجواب على السؤال وتقدير هو أساطير الاولين فعدلوا بالجواب عن السؤال (للذين أحسنوا في هذه الدنيا) اى آمنوا وعملوا الصالحات أو قالوا لا اله الا الله (حسنة) بالرفع اى ثواب وأمن وغنيمة وهو بدل من خيرا حكاية لقول الذين اتقوا اى قالوا هذا القول

بئر الاخيه أوقعه الله فيه وقوله تعالى (خر عليهم السقف من فوقهم) يعنى سقط عليهم السقف فاهلكهم وقوله من فوقهم للتأكيد لان السقف لا يخر الا من فوقهم وقيل يحتمل انهم لم يكونوا تحت السقف عند سقوطه فلما قال من فوقهم علم انهم كانوا تحته وانه لما خر عليهم أهلكوا وماتوا تحته (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) يعنى في مأمنهم وذلك انهم لما اعتمدوا على قوة بنيانهم وشدته كان ذلك البنيان سبب هلاكهم (ثم يوم القيامة يخزيهم) يعنى يهينهم بالعذاب وفيه اشعار بان العذاب يحصل لهم في الدنيا والآخرة لان الخزي هو العذاب مع الهوان (ويقول) يعنى ويقول الله لهم يوم القيامة (أين شركائي) يعنى في زعمكم واعتقادكم (الذين كنتم تشاقون فيهم) يعنى كنتم تعادون وتخالفون المؤمنين وتخاصمونهم في شأنهم لان المشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين في شق غير شق صاحبه والمعنى مالهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من العذاب والهوان (قال الذين أوتوا العلم) يعنى المؤمنين وقيل الملائكة (ان الخزي) يعنى الهوان (اليوم) يعنى في هذا اليوم وهو يوم القيامة (والسوء) يعنى العذاب (على الكافرين) وانما يقول المؤمنون هذا يوم القيامة لان الكفار كانوا يستهزؤن بالمؤمنين في الدنيا وينكرون عليهم احوالهم فاذا كان يوم القيامة ظهر أهل الحق وأكرموا بانواع الكرامات وأهين اهل الباطل وعذبوا بانواع العذاب فعند ذلك يقول المؤمنون ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين وفائدة هذا القول اظهار الشماتة بهم فيكون أعظم في الهوان والخزي قوله تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) تقبض ارواحهم الملائكة وهم ملك الموت واعوانه (ظالمي أنفسهم) يعنى بالكفر (فألقوا السلم) يعنى انهم استسلموا وانقادوا لامر الله الذي نزل بهم وقالوا (ما كنا نعمل من سوء) يعنى شركا وانما قالوا ذلك من شدة الخوف (بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون) يعنى فلا فائدة لكم في انكاركم قال عكرمة عنى بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر (فادخلوا) اى فيقال لهم ادخلوا (أبواب جهنم خالدين فيها) يعنى مقيمين فيها لا يخرجون منها وانما قال ذلك لهم ليكون أعظم في الغم والحزن وفيه دليل على ان الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض (فلبئس مثوى المتكبرين) يعنى عن الايمان * قوله عز وجل (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) وذلك ان احياء العرب كانوا يبعثون الى مكة ايام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فاذا جاء الوافد سأل الذين كانوا يقعدون على طرقات مكة من الكفار فيقولون هو ساحر كاهن شاعر كذاب مجنون واذا لم تلقه خير لك فيقول الوافد أنا شر وافد ان رجعت الى قومي من دون أن ادخل مكة فالقاه فيدخل مكة فيرى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألهم عنه فيخبرونه بصدقه وأمانته وانه نبي مبعوث من الله عز وجل فذلك قوله سبحانه وتعالى وقيل للذين اتقوا يعني اتقوا الشرك وقول الزور والكذب ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا يعني أنزل خيرا فان قلت لم رفع الاول وهو قوله أساطير الاولين ونصب الثاني وهو قوله قالوا خيرا قلت ليحصل الفرق بين الجوابين جواب المنكر الجاحد وجواب المقر المؤمن وذلك انهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الاولين وليس هو من الانزال في شئ لانهم لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بناء على كونه معقولا للانزال فقالوا خيرا اى أنزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) يعنى للذين أتوا بالاعمال الصالحة الحسنة ثوابها

حسنة مضاعفة من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة وقال الضحاك هى النصر والفتح وقال مجاهد هى الرزق الحسن فعلى هذا يكون معنى الآية للذين أحسنوا ثواب احسانهم فى هذه الدنيا حسنة وهى النصر والفتح والرزق الحسن وغير ذلك مما أنعم الله به على عباده فى الدنيا ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى (ولدار الآخرة خير) يعنى مالهم فى الآخرة مما أعد الله لهم فى الجنة خير مما يحصل لهم فى الدنيا (ولنعم دار المتقين) يعنى الجنة وقال الحسن هى الدنيا لان المتقى يتزود منها الى الآخرة والقول الاول أولى وهو قول جمهور المفسرين لان الله فسر هذه الدار بقوله (جنات عدن) يعنى بساتين اقامة من قولهم عدن بالمكان اى أقام به (يدخلونها) يعنى تلك الجنات لا يرحلون عنها ولا يخرجون منها (تجرى من تحتها الانهار) يعنى تجرى الانهار فى هذه الجنان من تحت دورها وقصورهم ومساكنهم (لهم فيها) يعنى فى الجنات (ما يشاؤن) يعنى ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين مع زيادات غير ذلك وهذه الحالة لا تحصل لاحد الا فى الجنة لان قوله لهم فيها ما يشاؤن لا يفيد الحصر وذلك يدل على ان الانسان لا يجد كل ما يريد فى الدنيا (كذلك يجزى الله المتقين) اى هكذا يكون جزاء المتقين ثم عاد الى وصف المتقين فقال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) يعنى مؤمنين طاهرين من الشرك قال مجاهد زاكية اقوالهم وافعالهم وقيل ان قوله طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن فيدخل فيه انهم أتوا بكل ما أمروا به من فعل الخيرات والطاعات واجتنبوا كل ما نهوا عنه من المكروهات والمحرمات مع الاخلاق الحسنة والخصال الحميدة والمباعدة من الاخلاق المذمومة والخصال المكروهة القبيحة وقيل معناه ان اوقاتهم تكون طيبة سهلة لانهم يبشرون عند قبض ارواحهم بالرضوان والجنة والكرامة فيحصل لهم عند ذلك الفرح والسرور والابتهاج فيسهل عليهم قبض ارواحهم ويطيب لهم الموت على هذه الحالة (يقولون) يعنى الملائكة لهم (سلام عليكم) يعنى تسلم عليهم الملائكة او تبلغهم السلام من الله (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) يعنى فى الدنيا من الاعمال الصالحة فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وبين قوله صلى الله عليه وسلم لن يدخل احد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا ان يتغمدنى الله بفضله ورحمته أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابى هريرة قلت قال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله فى شرح مسلم اعلم ان مذهب اهل السنة انه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا ايجاب ولا تحريم ولا غير ذلك من أنواع التكليف ولا تثبت هذه الاشياء كلها ولا غيرها الا بالشرع ومذهب اهل السنة ايضا ان الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شئ بل العالم كله ملكه والدنيا والآخرة فى سلطانه يفعل فيهما ما يشاء فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين وادخلهم النار كان ذلك عدلا منه واذا أكرمهم ورحمهم وادخلهم الجنة فهو فضل منه ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان ذلك له ومنه فضلا ولكنه سبحانه وتعالى أخبر وخبره صادق انه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب الكافرين ويدخلهم النار عدلا منه وأما المعتزلة فيثبتون الاحكام بالعقل ويوجبون ثواب الاعمال ويوجبون الاصلح فى خبط طويل لهم تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة المنابذة لنصوص الشرع وفى ظاهر هذا الحديث دلالة لاهل الحق انه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته واما قوله سبحانه وتعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ونحوهما من الآيات التى تدل على ان الاعمال الصالحة يدخل بها الجنة فلا تعارض بينها وبين هذا الحديث بل معنى الآيات ان دخول الجنة بسبب الاعمال والتوفيق للاخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح انه لم يدخل الجنة بمجرد العمل وهو مراد الحديث ويصح انه دخل بالاعمال اى بسببها وهى من الرحمة والفضل والمنة والله أعلم بمراده قوله تعالى (هل ينظرون) يعنى هؤلاء الذين

فقدم عليه تميمة خيرا ثم حكاه او هو كلام مستأنف عدة للقائلين وجعل قولهم من جملة احسانهم (ولدار الآخرة خير) اى لهم فى الآخرة ما هو خير منها كقوله فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة (ولنعم دار المتقين) دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره (جنات عدن) خبر لمبتدا محذوف او هو مخصوص بالمدح (يدخلونها) حال (تجرى من تحتها الانهار لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزى الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) طاهرين من ظلم انفسهم بالكفر لانه فى مقابلة ظالمى انفسهم (يقولون سلام عليكم) قيل اذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولى الله يقرأ عليك السلام ويبشره بالجنة ويقال لهم فى الآخرة (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) بعملكم (هل ينظرون) ما ينتظر هؤلاء الكفار

(الا ان تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم وبالياء على وحمزة (او يأتى أمر ربك) اى العذاب المستأصل او القيامة (كذلك) مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب (فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله) بتدميرهم (ولكن

كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا ما استحقوا به التدمير (فاصابهم سيئات ما عملوا) جزاء سيئات أعمالهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) واحاط بهم جزاء استهزائهم (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا) هذا كلام صدر منهم استهزاء ولو قالوه اعتقادا لكان صوابا (ولا حرمنا من دونه من شئ) يعنى البحيرة والسائبة ونحوهما (كذلك فعل الذين من قبلهم) اى كذبوا الرسل وحرموا الحلال وقالوا مثل قولهم استهزاء (فهل على الرسل الا البلاغ المبين) الا ان يبلغوا الحق ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله) بان وحدوه (واجتنبوا الطاغوت) الشيطان يعنى طاعته (فمنهم من هدى الله) لاختيارهم الهدى (ومنهم من حقت عليه الضلالة) اى لزمته لاختياره اياها (فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) حيث أهلكهم الله وأخلى ديارهم عنهم ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله

أشركوا بالله وجحدوا نبوتك يا محمد (الا ان تأتيهم الملائكة) يعنى لقبض أرواحهم (او يأتى أمر ربك) يعنى بالعذاب فى الدنيا وهو عذاب الاستئصال وقيل المراد به يوم القيامة (كذلك فعل الذين من قبلهم) يعنى من الكفر والتكذيب (وما ظلمهم الله) يعنى بتعذيبه اياهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى باكتسابهم المعاصى والكفر والاعمال القبيحة الخبيثة (فاصابهم سيئات ما عملوا) يعنى فاصابهم عقوبات ما اكتسبوا من الاعمال الخبيثة (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) والمعنى ونزل بهم جزاء استهزائهم (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا) يعنى ان مشركى مكة قالوا هذا على طريق الاستهزاء والحاصل انهم تمسكوا بهذا القول فى انكار النبوة فقالوا لو شاء الله منا الايمان لحصل جئت اولم تجئ ولو شاء الله منا الكفر لحصل جئت اولم تجئ واذا كان كذلك فالكل من الله فلا فائدة فى بعثة الرسل الى الامم والجواب عن هذا انهم لما قالوا ان الكل من الله فكانت بعثة الرسل عبثا كان هذا اعتراضا على الله تعالى وهو جار مجرى طلب العلة فى أحكام الله وفى أفعاله وهو باطل لان الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فلا اعتراض لاحد عليه فى أحكامه وأفعاله ولا يجوز لاحد ان يقول له لم فعلت هذا ولم لم تفعل هذا وكان فى حكم الله وسنته فى عباده ارسال الرسل اليهم ليأمروهم بعبادة الله تعالى وينهوهم عن عبادة غيره وان الهداية والاضلال اليه فمن هداه فهو المهتدى ومن أضله فهو الضال وهذه سنة الله فى عباده انه يأمر الكل بالايمان به وينهاهم عن الكفر ثم انه سبحانه وتعالى يهدى من يشاء الى الايمان ويضل من يشاء فلا اعتراض لاحد عليه ولما كانت سنة الله قديمة ببعثة الرسل الى الامم الكافرة المكذبة كان قول هؤلاء لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا جهلا منهم لانهم اعتقدوا ان كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهذا الاعتقاد باطل فلا جرم استحقوا عليه الذم والوعيد واما قوله تعالى (ولا حرمنا من دونه من شئ) يعنى الوصيلة والسائبة والحام والمعنى فلولا ان الله رضيها لنا لغير ذلك ولهدانا الى غيره (كذلك فعل الذين من قبلهم) يعنى ان من تقدم هؤلاء من كفار مكة ومن الامم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما فى الامم الخالية (فهل على الرسل الا البلاغ المبين) يعنى ليس اليهم هداية أحد انما عليهم تبليغ ما أرسلوا به الى من أرسلوا اليه (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) يعنى كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) يعنى ان الرسل كانوا يأمرونهم بان يعبدوا الله وان يجتنبوا عبادة الطاغوت وهو اسم كل معبود من دون الله (فمنهم) يعنى فمن الامم الذين جاءتهم الرسل (من هدى الله) يعنى هداه الله الى الايمان به وتصديق رسله (ومنهم من حقت عليه الضلالة) يعنى ومن الامم من وجبت عليه الضلالة بالقضاء السابق فى الازل حتى مات على الكفر والضلال وفى هذه الآية أبين دليل على ان الهادى والمضل هو الله تعالى لانه المتصرف فى عباده فيهدى من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض لاحد عليه بما حكم به فى سابق علمه (فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) يعنى فسيروا فى الارض معتبرين متفكرين لتعرفوا ما آل من كذب الرسل وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك ولتعرفوا ان العذاب نازل بكم ان أصررتم على الكفر والتكذيب كما نزل بهم قوله سبحانه وتعالى (ان تحرص على هداهم) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى ان تحرص يا محمد على هدى هؤلاء وايمانهم وتجتهد كل الاجتهاد (فان الله لا يهدى من يضل) قرئ بفتح الياء وكسر الدال يعنى لا يهدى الله من أضله وقيل معناه لا يهتدى من أضله الله وقرئ بضم الياء وفتح الدال ومعناه من أضله الله فلا هادى له (وما لهم من ناصرين)

صلى الله عليه وسلم على ايمانهم واعلمه انهم من قسم من حقت عليه الضلالة فقال (ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل) بفتح الياء وكسر الدال كوفى الباقون بضم الياء وفتح الدال والوجه فيه ان من يضل مبتدا ولا يهدى خبره (وما لهم من ناصرين)

يمنعونهم من جريان حكم الله عليهم ويدفعون عنهم عذابه الذى أعدلهم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) معطوف على وقال الذين أشركوا
(لا يبعث الله من يموت بلى) هو اثبات ١٢٦ لما بعد النفى اى بلى يبعثهم (وعدا عليه حقا) وهو مصدر مؤكد لما دل عليه بلى

اى مانعين يمنعونهم من العذاب (وأقسموا بالله جهد ايمانهم) قال ابن الجوزى سبب نزولها ان رجلا من المسلمين كان له على رجل من المشركين دين فاتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به المسلم والذى ارجوه بعد الموت فقال المشرك انك لتزعم انك تبعث بعد الموت واقسم بالله ان لا يبعث الله من يموت فنزلت هذه الآية قاله ابو العالية وتقرير الشبهة التى حصلت للمشركين فى انكار البعث بعد الموت ان الانسان ليس هو الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت اجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه لان الشئ اذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فهذا هو أصل شبهتهم ومعتقدهم فى انكار البعث بعد الموت فذلك قوله تعالى واقسموا بالله جهد أيمانهم (لا يبعث الله من يموت) فرد الله عليهم ذلك وكذبهم فى قولهم فقال تعالى (بلى) يعنى بلى يبعثهم بعد الموت لان لفظة بلى اثبات لما بعد النفى والجواب عن شبهتهم ان الله سبحانه وتعالى خلق الانسان واوجده من العدم ولم يك شيأ فالذى اوجده بقدرته ثم أعدمه قادر على ايجاده بعد اعدامه لان النشأة الثانية أهون من الاولى (وعدا عليه حقا) يعنى ان الذى وعد به من البعث بعد الموت وعد حق لا خلف فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعنى لا يفهمون كيف يكون ذلك العود والله سبحانه وتعالى قادر على كل شئ (ليبين لهم الذى يختلفون فيه) يعنى من أمر البعث ويظهر لهم الحق الذى لا خلف فيه (وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين) يعنى فى قولهم لا بعث بعد الموت (انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون) يعنى ان الله سبحانه وتعالى قادر اذا أراد ان يحيى الموتى ويبعثهم للحساب والجزاء فلا تعب عليه فى احيائهم وبعثهم انما يقول لشئ أراده كن فيكون على ما أراد لانه القادر الذى لا يعجزه شئ أراده (خ) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له ان يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له ان يكذبنى اما شتمه اياى فيقول ان لى ولدا واما تكذيبه اياى فقوله ليس يعيدنى كما بدأنى وفى رواية كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك أما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس اول الخلق باهون على من اعادته واما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وانا الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وقوله تعالى (والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا) يعنى أوذوا وعذبوا نزلت فى بلال وصهيب وخباب وعابس وجبير وابى جندل بن سهل أخذهم المشركون بمكة فجعلوا يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر وهم المستضعفون فاما بلال فكان أصحابه يخرجونه الى بطحاء مكة فى شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول احد أحد فاشتراه منهم أبو بكر الصديق واعتقه واشترى معه ستة نفر آخرين وأما صهيب فقال لهم انى رجل كبير ان كنت معكم فلن أنفعكم وان كنت عليكم فلا أضركم فاشترى نفسه بماله فباعوه منه فمر به أبو بكر الصديق فقال يا صهيب ربح البيع وأما باقيهم فاعطوهم بعض ما يريدون فخلوا عنهم وقال قتادة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظلمهم أهل مكة فاخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة بالحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة فهاجروا اليها وجعل لهم أنصارا من المؤمنين فآووهم ونصروهم وواسوهم وهذه الآية تدل على فضل المهاجرين وفضل الهجرة وفيه دليل على ان الهجرة اذا لم تكن لله خالصة لم يكن لها موقع وكانت بمنزلة الانتقال من بلد الى آخر ومنه حديث الاعمال بالنيات وفيه فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه الحديث أخرجاه فى الصحيحين من رواية

لان بعث موعد من الله وبين ان الوفاء بهذا الوعد حق (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان وعده حق او انهم يبعثون (ليبين لهم) متعلق بما دل عليه بلى اى يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو يشمل المؤمنين والكافرين (الذى يختلفون فيه) هو الحق (وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين) فى قولهم لا يبعث الله من يموت (انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون) اى فهو يكون وبالنصب شامى وعلى على جواب كن قولنا مبتدا وان نقول خبره وكن فيكون من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود اى اذا أردنا وجود شئ فليس الا ان نقول له احدث فهو يحدث بلا توقف وهذه عبارة عن سرعة الايجاد يبين ان مراد الا يمتنع عليه وان وجوده عند ارادته غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع اذا ورد على المأمور المطيع الممتثل ولا قول ثم والمعنى ان ايجاد كل مقدور على الله بهذه السهولة فكيف يمتنع عليه البعث الذى هو من بعض المقدورات

عمر

(والذين هاجروا فى الله) فى حقه ولوجهه (من بعد ما ظلموا) هم رسول الله وأصحابه ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم الى الله منهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع بين الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة

(لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) صفة للصدر اى تبوئة حسنة اولنبوئنهم مباءة حسنة وهى المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم (ولأجر الآخرة أكبر) الوقف لازم عليه لان جواب (لو كانوا يعلمون) محذوف والضمير للكفار اى لو علموا ذلك لرغبوا فى الدين

عمر بن الخطاب وقوله تعالى (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) يعنى لنبوئنهم تبوئة حسنة وهو انه تعالى أنزلهم المدينة وجعلها لهم دار هجرة والمعنى لنبوئنهم فى الدنيا دارا حسنة او بلدة حسنة وهى المدينة روى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان اذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له خذ هذا بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم يقول هذه الآية وقيل معناه لنحسنن اليهم فى الدنيا بان يفتح لهم مكة ويمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها ثم ينصرهم على العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب وقيل المراد بالحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية فى الدين (ولأجر الآخرة أكبر) يعنى أعظم وأفضل وأشرف مما أعطاهم فى الدنيا (لو كانوا يعلمون) قيل الضمير يرجع الى الكفار لان المؤمنين يعلمون مالهم فى الآخرة والمعنى لو كان هؤلاء الكفار يعلمون ان اجر الآخرة أكبر مما هم فيه من نعيم الدنيا لرغبوا فيه وقيل انه راجع الى المهاجرين والمعنى لو كانوا يعلمون ما أعد الله لهم فى الآخرة لزادوا فى الجد والاجتهاد والصبر على ما أصابهم من أذى المشركين (الذين صبروا) يعنى فى الله على ما نالهم من الاذى والمكروه فهو صفة مدح يعنى صبروا على العذاب ومفارقتهم الوطن وعلى الجهاد وبذل الانفس والاموال فى سبيل الله (وعلى ربهم يتوكلون) يعنى فى أمورهم كلها قال بعضهم ذكر الله الصبر والتوكل فى هذه الآية وهما مبدأ السلوك الى الله تعالى ومنتهاه أما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الاذى من الخلق والصبر عن الشهوات المباحات والمحرمات والصبر على المصائب وأما التوكل فالانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق تعالى بالكلية فالاول هو مبدأ السلوك الى الله تعالى والثانى هو آخر الطريق ومنتهاه (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم) نزلت هذه الآية جوابا للمشركى مكة حيث انكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم وأجل من ان يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا فاجابهم الله عز وجل بقوله وما أرسلنا من قبلك يا محمد الا رجالا يعنى مثلك نوحى اليهم والمعنى ان عادة الله عز وجل جارية من أول مبدا الخلق انه لم يبعث الا رسولا من البشر فهذه عادة مستمرة وسنة جارية قديمة (فاسئلوا أهل الذكر) يعنى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما أمرهم الله بسؤال أهل الكتاب لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان أهل الكتاب أهل علم وقد أرسل الله اليهم رسلا منهم مثل موسى وعيسى وغيرهم من الرسل وكانوا بشرا مثلهم فاذا سألوهم فلا بد وان يخبروهم بان الرسل الذين أرسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم (ان كنتم لا تعلمون) الخطاب لاهل مكة يعنى ان كنتم يا هؤلاء لا تعلمون ذلك (بالبينات والزبر) اختلفوا فى المعنى الجالب لهذه الباء فقيل المعنى وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر الا رجالا يوحى اليهم أرسلناهم بالبينات والزبر وقيل الذكر بمعنى العلم فى قوله فاسألوا أهل الذكر يعنى اهل العلم والمعنى فاسألوا أهل الذكر الذى هو العلم بالبينات والزبر ان كنتم لا تعلمون أنتم ذلك والبينات والزبر اسم جامع لكل ما يتكامل به أمر الرسالة لان مدار أمر الرسول على المعجزات الدالة على صدقه وهى بالبينات وعلى بيان الشرائع والتكاليف وهى المراد بالزبر يعنى الكتب المنزلة على الرسل من الله عز وجل (وانزلنا اليك الذكر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى وأنزلنا عليك يا محمد الذكر الذى هو القرآن وانما سماه ذكرا لان فيه مواعظ وتنبيها للغافلين (لتبين للناس ما نزل اليهم) يعنى ما أجمل اليك من أحكام القرآن وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا قال بعضهم متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لان القرآن مجمل والحديث مبين

اولى المهاجرين اى لو كانوا يعلمون لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم (الذين صبروا) اى هم الذين صبروا او اعنى الذين صبروا وكلاهما مدح اى صبروا على مفارقة الوطن الذى هو حرم الله المحبوب فى كل قلب فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤسهم وعلى المجاهدة وبذل الارواح فى سبيل الله (وعلى ربهم يتوكلون) اى يفوضون الامر الى ربهم ويرضون بما أصابهم فى دين الله ولما قالت قريش الله أعظم من ان يكون رسوله بشرا نزل (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم) على السنة الملائكة نوحى حفص (فاسئلوا أهل الذكر) أهل الكتاب ليعلموكم ان الله لم يبعث الى الامم السالفة الا بشرا وقيل للكتاب الذكر لانه موعظة وتنبيه للغافلين (ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر) اى بالمعجزات والكتب والباء يتعلق برجالا صفة له اى رجالا ملتبسين بالبينات او بارسلنا مضمرا كانه قيل بم ارسل الرسل فقيل بالبينات او بيوحى

اى يوحى اليهم بالبينات او بلا تعلمون وقوله فاسئلوا اهل الذكر اعتراض على الوجوه المتقدمة وقوله (وانزلنا اليك الذكر) القرآن (لتبين للناس ما نزل اليهم) فى الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا به وأوعدوا

بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل وقال بعضهم القرآن منه محكم ومنه متشابه فالمحكم يجب أن يكون مبينا والمتشابه هو المجمل و يطلب بيانه من السنة فقوله تعالى لتبين للناس ما نزل اليهم محمول على ما أجمل فيه دون المحكم المبين المفسر (ولعلهم يتفكرون) يعني فيما أنزل اليهم فيعملوا به (أفأمن الذين مكروا السيئات) فيه حذف تقديره المكرات السيئات وهم كفار قريش مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم و باصحابه و بالغوا في أذيتهم والمكر عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الاخفاء وقيل المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله فيكون مكرهم على أنفسهم والصحيح ان المراد بهذا المكر السعي في أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل المراد بالذين مكروا السيئات نمرود ومن هو مثله والصحيح ان المراد بهم كفار مكة (ان يخسف الله بهم الارض) يعني كما خسف بقارون من قبلهم (او يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) يعني ان العذاب يأتيهم بغتة فيهلكهم فجأة كما أهلك قوم لوط وغيرهم (او يأخذهم في تقلبهم) يعني في تصرفهم في الاسفار فانه سبحانه وتعالى قادر على اهلاكهم في السفر كما هو قادر على اهلاكهم في الحضر وقال ابن عباس يأخذهم في اختلافهم وقال ابن جريج في اقبالهم وادبارهم يعني انه تعالى قادر على أن يأخذهم في ليلهم ونهارهم وفي جميع أحوالهم (فما هم بمعجزين) يعني بسابقين الله او يفوتونه بل هو قادر عليهم (او يأخذهم على تخوف) قال ابن عباس ومجاهد يعني على تنقص قال ابن قتيبة التخوف التنقص ومثله التخون يقال تخوفه الدهر وتخونه اذا انتقصه وأخذ ماله وجسمه و يقال هذه لغة هذيل فعلى هذا القول يكون المراد به انه ينقص من اطرافهم ونواحيهم الشئ بعد الشئ حتى يهلك جميعهم وقيل هو على أصله من الخوف فيحتمل انه سبحانه وتعالى لا يأخذهم بالعذاب اولا يل يخوفهم ثم يعذبهم بعد ذلك وقال الضحاك والكلبي هو من الخوف يعني يهلك طائفة فيتخوف الآخرون ان يصيبهم مثل ما أصابهم والحاصل انه سبحانه وتعالى خوفهم بخسف يحصل في الارض او بعذاب ينزل من السماء او بآفات تحدث دفعة او بآفات تحدث قليلا قليلا الى ان يأتي الهلاك على آخرهم ثم انه سبحانه وتعالى ختم الآية بقوله (فان ربكم لرؤف رحيم) يعني انه سبحانه وتعالى لا يعجل بالعقوبة والعذاب قوله سبحانه وتعالى (أولم يروا) قرئ بالتاء على خطاب الحاضرين وبالياء على الغيبة (الى ما خلق الله من شئ) يعني من جسم قائم له ظل وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بالى لان المراد منها الاعتبار والاعتبار لا يكون الا بنفس الرؤية التي يكون معها نظر الى الشئ ليتأمل أحواله و يتفكر فيه فيعتبر به (تتفيؤ ظلاله) يعني تميل وتدور من جانب الى جانب فهي من اول النهار على حال ثم تقلص ثم تعود في آخر النهار الى حالة أخرى و يقال للظل بالعشي فيء لانه من فاء يفيء اذا رجع من المغرب الى المشرق والفيء الرجوع قال الازهري تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون الا بالعشي وما انصرفت عنه الشمس والظل يكون بالغداة وهو ما لم تنله الشمس وقوله ظلاله جمع ظل وانما اضاف الظلال وهو جمع الى مفرد وهو قوله من شئ لانه يراد به الكثرة ومعناه الاضافة الى ذوي الظلال (عن اليمين والشمائل) قال العلماء اذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه الى القبلة كان ظلك عن يمينك فاذا ارتفعت الشمس واستوت في وسط السماء كان ظلك خلفك فاذا مالت الشمس الى الغروب كان ظلك عن يسارك وقال الضحاك اما اليمين فاول النهار واما الشمال فآخر النهار وانما وحد اليمين وان كان المراد به الجمع للايجاز والاختصار في اللفظ وقيل اليمين راجع الى لفظ الشئ وهو واحد والشمائل راجع الى المعنى لان لفظ الشئ يراد به الجمع (سجدا لله) في معنى هذا السجود قولان أحدهما ان المراد به الاستسلام والانقياد والخضوع يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل والمعنى ان جميع الاشياء التي لها ظلال فهي

(ولعلهم يتفكرون) في تنبيهاته فينتبهوا (أفأمن الذين مكروا السيآت) اي المكرات السيآت وهم اهل مكة وما مكروا به رسول الله عليه السلام (ان يخسف الله بهم الارض) كما فعل بمن تقدمهم (او يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) اي بغتة (او يأخذهم في تقلبهم) متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم (فما هم بمعجزين او يأخذهم على تخوف) متخوفين وهو ان يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون متوقعون وهو خلاف قوله من حيث لا يشعرون (فان ربكم لرؤف رحيم) حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم مع استحقاقكم والمعنى انه اذا لم يأخذكم مع ما فيكم فانما رأفته تقيكم ورحمته تحميكم (اولم يروا) و بالتاء حمزة وعلي وابو بكر (الى ما خلق الله) ما موصولة بخلق الله وهو مبهم بيانه (من شئ يتفيؤ ظلاله) اي يرجع من موضع الى موضع و بالتاء بصري (عن اليمين) اي الايمان (والشمائل) جمع شمال (سجدا لله) حال من الظلال عن مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شئ

منقادة لله تعالى مستسلمة لامره غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ وغيره وقال مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شئ لله والقول الثانى فى معنى هذا السجود ان الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها كالساجد على الارض فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ وقيل ظل كل شئ ساجد لله سواء كان ذلك الشئ يسجد لله اولا ويقال ان ظل الكافر ساجد لله وهو غير ساجد لله (وهم داخرون) اى صاغرون اذلاء والداخر الصاغر الذى يفعل ما تأمره به شاء ام أبى وذلك ان جميع الاشياء منقادة لامر الله تعالى فان قلت الظلال ليست من العقلاء فكيف عبر عنها بلفظ من يعقل وجمعها بالواو والنون قلت لما وصفها الله سبحانه وتعالى بالطاعة والانقياد لامره وذلك صفة من يعقل عبر عنها بلفظ من يعقل وجاز جمعها بالواو والنون وهو جمع العقلاء قوله عز وجل (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة) قال العلماء السجود على نوعين سجود طاعة وعبادة كسجود المسلم لله عز وجل وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال فقوله ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة يحتمل النوعين لان سجود كل شئ بحسبه فسجود المسلمين والملائكة لله سجود عبادة وطاعة وسجود غيرهم سجود انقياد وخضوع وأتى بلفظ ما فى قوله ما فى السموات وما فى الارض للتغليب لان ما لا يعقل أكثر ممن يعقل فى العدد والحكم للاغلب كتغليب المذكر على المؤنث ولانه لو أتى بمن التى هى للعقلاء لم يكن فيها دلالة على التغليب بل كانت متناولة للعقلاء خاصة فاتى بلفظة ما ليشمل الكل ولفظة الدابة مشتقة من الدبيب وهو عبارة عن الحركة الجسمانية فالدابة اسم يقع على كل حيوان جسمانى يتحرك ويدب فيدخل فيه الانسان لانه مما يدب على الارض ولهذا أفرد الملائكة فى قوله (والملائكة) لانهم أولو أجنحة يطيرون بها أو أفردهم بالذكر وان كانوا من جملة من فى السموات لشرفهم وقيل أراد بقوله يسجد ما فى السموات من الملائكة وما فى الارض من دابة فسجود الملائكة والمسلمين للطاعة وسجود غيرهم تذليلها وتسخيرها لما خلقت له وسجود ما لا يعقل وسجود الجمادات يدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى فيدعو الغافلين الى السجود لله عند التأمل والتدبر (وهم لا يستكبرون) يعنى الملائكة (يخافون ربهم من فوقهم) هو كقوله وهو القاهر فوق عباده وقد تقدم تفسيره (ويفعلون ما يؤمرون) عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون اطت السماء وحق لها ان تئط ما فيها موضع أربع اصابع الا وملك واضع جبهته ساجدا والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى قال أبو ذر لوددت انى كنت شجرة تعضد اخرجه الترمذى وقال عن ابى ذر موقوفا

(فصل) * وهذه السجدة من مزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها وسماعها قوله سبحانه وتعالى (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين) لما اخبر الله عز وجل فى الآية المتقدمة ان كل ما فى السموات والارض خاضعون لله منقادون لامره عابدون له وانهم فى ملكه وتحت قدرته وقبضته نهى فى هذه الآية عن الشرك وعن اتخاذ الهين اثنين فقال وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين قال الزجاج ذكر الاثنين توكيد لقوله الهين وقال صاحب النظم فيه تقديم وتأخير تقديره لا تتخذوا اثنين الهين يعنى ان الاثنين لا يكون كل واحد منهما الها ولكن اتخذوا الها واحدا وهو قوله تبارك وتعالى (انما هو اله واحد) لان الالهين لا يكونان الا متساويين فى الوجود والقدم وصفات الكمال والقدرة

متفيئة عن ايمانها وشمائلها اى ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله تعالى غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ والاجرام فى انفسها داخرة ايضا صاغرة منقادة لافعال الله فيها غير ممتنعة (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة) من بيان لما فى السموات وما فى الارض جميعا على ان فى السموات خلقا يدبون فيها كما تدب الاناسى فى الارض او بيان لما فى الارض وحده والمراد بما فى السموات ملائكتهن وبقوله (والملائكة) ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم قيل المراد بسجود المكافين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقيادهم لارادة الله ومعنى الانقياد يجمعهما فلم يختلفا فلذا جاز ان يعبر عنهما بلفظ واحد وجىء بما اذ هو صالح للعقلاء وغيرهم ولو جىء بمن لتناول العقلاء خاصة (وهم لا يستكبرون يخافون ربهم) هو حال من الضمير فى لا يستكبرون اى لا يستكبرون خائفين

(١٧ (خازن) ث) (من فوقهم) ان علقته بيخافون فمعناه يخافونه ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم وان علقته بربهم فالامر منه فمعناه يخافون ربهم غالبا لهم قاهرا كقوله وهو القاهر فوق عباده (ويفعلون ما يؤمرون) وفيه دليل على ان الملائكة مكافون مأمورون على الامر والنهى وانهم بين الخوف والرجاء (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد) فان قلت انما جمعوا بين العدد

والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندى رجال ثلاثة لان المعدود عارعن الدلالة على العدد الخاص فامارجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلاحاجة الى ان يقال رجل واحد ورجلان اثنان قلت الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريدت الدلالة على ان المعنى به منهما هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه والعناية به ألاترى انك لوقلت انما هو اله ١٣٠ ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل انك تثبت الالهية لا الوحدانية (فاياى فارهبون) نقل للكلام

عن الغيبة الى التكلم وهو من طريقة الالتفات وهو أبلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوا فارهبونى يعقوب (وله مافى السموات والارض وله الدين) اى الطاعة (واصبا) واجبا ثابتا لان كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه وهو حال عمل فيه الظرف او وله الجزاء دائما يعنى الثواب والعقاب (أفغير الله تتقون ومابكم من نعمة) واى شئ اتصل بكم من نعمة عافية وغنى وخصب (فمن الله) فهو من الله (ثم اذا مسكم الضر) المرض والفقر والجدب (فاليه تجأرون) فما تتضرعون الا اليه والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة (ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون) الخطاب فى ومابكم من نعمة ان كان عاما فالمراد بالفريق الكفرة وان كان الخطاب للمشركين فقوله

والارادة فصارت الاثنينية منافية للالهية وذلك قوله تعالى انما هو اله واحد يعنى لايجوز أن يكون فى الوجود الهان اثنان انما هو اله واحد (فاياى فارهبون) يعنى فخافون والرهب مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى الحضور وهو من طريق الالتفات لانه أبلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوا فهو من بديع الكلام وبليغه وقوله فاياى فارهبون يفيد الحصر وهو أن لارهب الخلق الامنه ولا يرغبون الا اليه والى كرمه وفضله واحسانه (وله مافى السموات والارض) لما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان اله العالم لاشريك له فى الالهية وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيدا له وفى ملكه وتصرفه وتحت قدرته فذلك قوله تعالى وله مافى السموات والارض يعنى عبيدا وملكا (وله الدين واصبا) يعنى وله العبادة والطاعة واخلاص العمل دائما ثابتا والواصب الدائم قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك السبب فى حال الحياة او بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فان طاعته واجبة أبدا ولانه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائمة أبدا (أفغير الله تتقون) يعنى انكم عرفتم ان الله واحد لاشريك له فى ملكه وعرفتم ان كل ماسواه محتاج اليه فبعد هذه المعرفة كيف تخافون غيره وتتقون سواه فهو استفهام بمعنى التعجب وقيل هو استفهام على طريق الانكار * قوله عزوجل (ومابكم من نعمة فمن الله) يعنى من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة الارزاق وكل ما أعطاكم من مال اوولد فكل ذلك من الله تعالى انما هو المتفضل به على عباده فيجب عليكم شكره على جميع انعامه ولما بين فى الآية المتقدمة انه يجب على جميع العباد ان لايخافوا الا الله تعالى بين فى هذه الآية ان جميع النعم منه فلا يشكر عليها الا اياه لانه هو المتفضل بها على عباده فيجب عليهم شكره عليها (ثم اذا مسكم الضر) اى الشدة والامراض والاسقام (فاليه تجأرون) يعنى اليه تستغيثون وتصيحون وتضجون بالدعاء ليكشف عنكم مانزل بكم من الضر والشدة واصل الجؤار هو رفع الصوت الشديد ومنه جؤار البقر والمعنى ان النعم لما كانت كلها ابتداء منه فان حصل شدة وضر فى بعض الاوقات فلا يلجأ الا اليه ولا يدعى الا اياه ليكشفها فانه هو القادر على كشفها وهو قوله تعالى (ثم اذا كشف الضر عنكم) يعنى ثم اذا ازال الشدة والبلاء عنكم (اذا فريق منكم) يعنى طائفة وجماعة منكم (بربهم يشركون) يعنى انهم يضيفون كشف الضر الى العوائد والاسباب ولا يضيفونه الى الله عزوجل فهذا من جملة شركهم الذى كانوا عليه وانما قسمهم فريقين لان فريق المؤمنين لايرون كشف الضر الا من الله تعالى ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) قيل ان هذه اللام لام كى ويكون المعنى على هذا انهم انما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم فى كشف الضر عنهم وقيل انها لام العاقبة والمعنى عاقبة امرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء (فتمتعوا) لفظه أمر والمراد منه التهديد والوعيد يعنى فعيشوا فى اللذة التى أنتم فيها الى المدة التى ضربها الله لكم (فسوف تعلمون) يعنى عاقبة أمركم الى ماذا تصير وهو نزول العذاب بكم قوله سبحانه وتعالى (ويجعلون لما لايعلمون نصيبا) قيل الضمير فى قوله لما

لا

منكم للبيان لا للتبعيض كانه قال فاذا فريق كافر وهم أنتم ويجوز ان يكون فيهم من اعتبر كقوله فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة الكشف عنهم كانهم جعلوا اعراضهم فى الشرك كفران النعمة ثم اوعدهم فقال (فتمتعوا فسوف تعلمون) هو عدول الى الخطاب على التهديد (ويجعلون لما لايعلمون نصيبا مما رزقناهم) اى لآلهتهم ومعنى لايعلمون انهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها انها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك لانها جماد لاتضر ولا تنفع او الضمير فى لايعلمون للآلهة اى لاشيأ غير موصوفة بالعلم ولا تشعر أجعلوا لها نصيبا فى أنعامهم وزروعهم أم لا وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربا اليهم

لا يعلمون عائد الى المشركين يعنى ان المشركين لا يعلمون وقيل انه عائد الى الاصنام يعنى ان الاصنام لا تعلم شيأ البتة لانها جماد والجماد لا علم له ومنهم من رجح القول الاول لان نفى العلم عن الحى حقيقة وعن الجماد مجاز فكان عود الضمير الى المشركين أولى ولانه قال لما لا يعلمون فجمعهم بالواو والنون وهو جمع لمن يعقل ومنهم من رجح القول الثانى قال لانا اذا قلنا انه عائد الى المشركين احتجنا فيه الى اضمار فيكون المعنى و يجعلون يعنى المشركين لما لا يعلمون انه اله ولا له حق نصيبا واذا قلنا انه عائد الى الاصنام لم نحتج الى هذا الاضمار لانها لا علم لها ولا فهم وقوله (مما رزقناهم) يعنى ان المشركين جعلوا للاصنام نصيبا من حروثهم وأنعامهم واموالهم التى رزقهم الله وتقدم تفسيره فى سورة الانعام (تالله) اقسم بنفسه على نفسه انه يسألهم يوم القيامة وهو قوله تعالى (لتسئلن عما كنتم تفترون) يعنى عما كنتم تكذبون فى الدنيا فى قولكم ان هذه الاصنام آلهة وان لها نصيبا من أموالكم وهذا التفات من الغيبة الى الحضور وهو من بديع الكلام و بليغه (ويجعلون لله البنات) هم خزاعة وكنانة قالوا الملائكة بنات الله وانما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون كالنساء اولدخول لفظ التأنيث فى تسميتهم (سبحانه) نزه الله نفسه عن الولد والبنات (ولهم ما يشتهون) يعنى و يجعلون لانفسهم ما يشتهون يعنى البنين (واذا بشر أحدهم بالانثى) البشارة عبارة عن الخبر السار الذى يظهر على بشرة الوجه أثر الفرح به ولما كان ذلك الفرح والسرور يوجبان تغير بشرة الوجه كان كذلك الحزن والغم يظهر أثره على الوجه وهو السكمودة التى تعلو الوجه عند حصول الحزن والغم فثبت بهذا ان البشارة لفظ مشترك بين الخبر السار والخبر المحزن فصح قوله واذا بشر أحدهم بالانثى (ظل وجهه مسودا) يعنى متغيرا من الغم والحزن والغيظ والكراهة التى حصلت له عند هذه البشارة والمعنى ان هؤلاء المشركين لا يرضى أحدهم بالبنت الانثى ان تنسب اليه فكيف يرضى ان ينسبها الى الله تعالى ففيه تبكيت لهم وتوبيخ وقوله سبحانه وتعالى (وهو كظيم) يعنى انه ظل ممتلئا غما وحزنا (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) يعنى انه يختفى من ذلك القول الذى بشر به وذلك ان العرب كانوا فى الجاهلية اذا قربت ولادة زوجة احدهم توارى من القوم الى ان يعلم ما ولد له فان كان ولدا ابتهج وسر بذلك وظهر وان كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما حتى يفكر ما يصنع بها وهو قوله تعالى (أيمسكه على هون) يعنى على هوان وانما ذكر الضمير فى أيمسكه لانه عائد الى ما بشر به فى قوله واذا بشر احدهم (أم يدسه فى التراب) يعنى أم يخفى ذلك الذى بشر به فى التراب والدس اخفاء الشئ فى الشئ قال اهل التفسير ان مضر وخزاعة وبعما كانوا يدفنون البنات احياء والسبب فى ذلك اما خوف الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة او الحمية فيخافون عليهن من الاسر ونحوه او طمع غير الاكفاء فيهن فكان الرجل من العرب فى الجاهلية اذا ولدت له بنت وأراد ان يستحييها تركها حتى اذا كبرت ألبسها جبة من صوف او شعر وجعلها ترعى الابل والغنم فى البادية واذا اراد أن يقتلها تركها حتى اذا صارت سداسية قال لامها زينيها حتى أذهب بها الى احمائها و يكون قد حفر لها حفرة فى الصحراء فاذا بلغ بها تلك الحفرة قال لها انظرى الى هذه البئر فاذا نظرت اليها دفعها من خلفها فى تلك البئر ثم يهيل التراب على رأسها وكان صعصعة عم (١) الفرزدق اذا أحس بشئ من ذلك وجه بابل الى والد البنت حتى يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر بذلك

وعمى الذى منع الوائدات * فاحيا الوئيد فلم يوأد

عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الوائدة والموؤدة فى النار أخرجه ابوداود وقوله تعالى (الا ساء ما يحكمون) يعنى بئس ما يصنعون و يقضون حيث يجعلون لله الذى خلقهم البنات وهم يستنكفون منهن و يجعلون لانفسهم البنين نظيره قوله سبحانه وتعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا

خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله (سبحانه) تنزيه لذاته من نسبة الولد اليه او تعجب من قولهم (ولهم ما يشتهون) يعنى البنين و يجوز فى ما الرفع على الابتداء ولهم الخبر والنصب على العطف على البنات وسبحانه اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه اى وجعلوا لانفسهم ما يشتهون من الذكور (واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا) اى صار فظل وامسى وأصبح وبات تستعمل بمعنى الصيرورة لان اكثر الوضع يتفق بالليل فيظل نهاره مغتما مسود الوجه من الكآبة والحياء من الناس (وهو كظيم) مملوء حنقا على المرأة (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) يستخفى منهم من أجل سوء المبشر به ومن اجل تعييرهم ويحدث نفسه وينظر (أيمسكه على هون) ايمسك ما بشر به على هون وذل (أم يدسه فى التراب) ام يئده (الا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون الولد الذى هذا محله عندهم لله ويجعلون لانفسهم من هو على عكس هذا الوصف

(١) قوله صعصعة عم كذا بالنسخ بايدينا والصواب جده وكذا قوله وعمى الذى الصواب و جدى الذى كما هو مقرر فى كتب الادب اه

(للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) صفة السوء وهى الحاجة الى الاولاد الذكور وكراهة الاناث ووأدهن خشية الاملاق (ولله المثل الاعلى) وهو الغنى عن العالمين والتنزاهة عن صفات المخلوقين (وهو العزيز) الغالب فى تنفيذ ما أراد (الحكيم) فى امهال العباد

ظلم الظالمين عن ابى هريرة رضى الله عنه ان الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم وعن ابن عباس رضى الله عنهما من دابة من مشرك يدب (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) اى اجل كل احد او وقت تقتضيه الحكمة او القيامة (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ويجعلون لله ما يكرهون) ما يكرهونه لانفسهم من البنات ومن شركاء فى رياستهم ومن الاستخفاف برسلهم ويجعلون له ارذل أموالهم ولا صنامهم اكرمها (وتصف ألسنتهم الكذب) مع ذلك اى ويقولون الكذب (أن لهم الحسنى) عند الله وهى الجنة ان كان البعث حقا كقوله ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وان لهم الحسنى بدل من الكذب (لا جرم أن لهم النار وانهم مفرطون) مفرطون نافع مفرطون ابو جعفر فالمفتوح بمعنى

قسمة ضيزى وقيل معناه الاساء ما يحكمون فى وأد البنات (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) يعنى صفة السوء من احتياجهم الى الولد الذكور وكراهتهم الاناث وقتلهن خوف الفقر (ولله المثل الاعلى) اى الصفة العليا المقدسة وهى ان له التوحيد وانه المنزه عن الولد وانه لا اله الا هو وان له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدى وغير ذلك من الصفات التى وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة أن لا اله الا الله (وهو العزيز) اى الممتنع فى كبريائه وجلاله (الحكيم) يعنى فى جميع افعاله قوله (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) يعنى بسبب ظلمهم فيعاجلهم بالعقوبة على ظلمهم وكفرهم وعصيانهم فان قلت الناس اسم جنس يشمل الكل وقد قال تعالى فى آية أخرى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فقسمهم فى تلك الآية ثلاثة اقسام فجعل الظالمين قسما واحدا من ثلاثة قلت قوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم عام مخصوص بتلك الآية الاخرى لان فى جنس الناس الانبياء والصالحون ومن لا يطلق عليه اسم الظلم وقيل اراد بالناس الكفار فقط بدليل قوله ان الشرك لظلم عظيم وقوله (ما ترك عليها) يعنى على الارض كناية عن غير مذكور لان الدابة لا تدب الا على الارض (من دابة) يعنى ان الله سبحانه وتعالى لو يؤاخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض قال قتادة وقد فعل الله ذلك فى زمن نوح عليه السلام فاهلك من كان على وجه الارض الا من كان فى السفينة مع نوح عليه السلام وروى ان ابا هريرة سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئس ما قلت ان الحبارى تموت هزالا بظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل تعذب فى جحرها بذنب ابن آدم وقيل اراد بالدابة الكافر بدليل قوله ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقيل فى معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد الابناء فلم يبق فى الارض احد (ولكن يؤخرهم) يعنى يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه (الى أجل مسمى) يعنى الى انتهاء آجالهم وانقضاء اعمالهم (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعنى لا يؤخرون ساعة عن الاجل الذى جعله الله لهم ولا ينقصون عنه وقيل اراد بالاجل المسمى يوم القيامة والمعنى ولكن يؤخرهم الى يوم القيامة فيعذبهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون (ويجعلون لله ما يكرهون) يعنى لانفسهم وهى البنات (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) يعنى ويقولون ان لهم البنين وذلك انهم قالوا لله البنات ولنا البنون وهذا القول كذب منهم وافتراء على الله وقيل اراد بالحسنى الجنة والمعنى انهم مع كفرهم وقولهم الكذب يزعمون انهم على الحق وان لهم الجنة وذلك انهم قالوا ان كان محمد صادقا فى البعث بعد الموت فان لنا الجنة لانا على الحق فاكذبهم الله تعالى فقال (لا جرم أن لهم النار) يعنى فى الآخرة لا الجنة (وأنهم مفرطون) قرئ بكسر الراء مع التخفيف يعنى مسرفون وقرئ بكسر الراء مع التشديد يعنى مضيعون لامر الله وقراءة الجمهور بفتح الراء مع تخفيفها اى منسيون فى النار قاله ابن عباس وقال سعيد بن جبير ومقاتل متروكون وقال قتادة معجلون الى النار وقال الفراء مقدمون الى النار والفرط المتقدم الى الماء قبل القوم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أنا فرطكم على الحوض اى متقدمكم (قالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) يعنى كما أرسلناك الى هذه الامة لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فكان شأنهم مع رسلهم التكذيب ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (فزين لهم الشيطان أعمالهم) يعنى أعمالهم الخبيثة

من

مقدمون الى النار معجلون اليها من افرطت فلانا وفرطته فى طلب الماء اذا قدمته او منسيون متروكون من افرطت فلانا اذا خلفته ونسيته والمكسور المخفف من الافراط فى المعاصى والمشدد من التفريط فى الطاعات اى التقصير فيها (قالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) اى أرسلنا رسلا الى من تقدمك من الامم (فزين لهم الشيطان أعمالهم) من الكفر والتكذيب بالرسل

(فهو وليهم اليوم) اى قرينهم فى الدنيا تولى اضلالهم بالغرور او الضمير لمشركى قريش اى زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولى هؤلاء لانهم منهم او هو على حذف المضاف اى فهو ولى أمثالهم اليوم (ولهم عذاب أليم) فى القيامة (وما أنزلنا عليك الكتاب) القرآن (الا لتبين لهم) للناس (الذى اختلفوا فيه) هو البعث لانه كان فيهم من يؤمن به (وهدى ورحمة) معطوفان على محل لتبين الا انهما انتصبا على انهما مفعول لهما لانهما فعلا الذى أنزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لانه فعل المخاطب ١٣٣ لا فعل المنزل (لقوم يؤمنون

من الكفر والتكذيب والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وانما جعل الشيطان آلة بالقاء الوسوسة فى قلوبهم وليس له قدرة ان يضل أحدا او يهدى أحدا وانما له الوسوسة فقط فمن اراد الله شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته (فهو وليهم) اى ناصرهم (اليوم) ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور وانما سماه وليا لهم لطاعتهم اياه (ولهم عذاب اليم) يعنى فى الآخرة (وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) يعنى فى أمر الدين والاحكام فتبين لهم الهدى من الضلال والحق من الباطل والحلال من الحرام (وهدى ورحمة) يعنى وما أنزلنا عليك الكتاب الا بيانا وهدى ورحمة (لقوم يؤمنون) لانهم هم المنتفعون به قوله سبحانه وتعالى (والله أنزل من السماء ماء) يعنى المطر (فاحيا به) يعنى بالماء (الارض) يعنى بالنبات والزروع (بعد موتها) يعنى يبسها وجدوبتها (ان فى ذلك لآية) يعنى دلالة واضحة على كمال قدرتنا (لقوم يسمعون) يعنى سماع انصاف وتدبر وتفكر لان سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات الله اى القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه لم ينتفع بالآيات (وان لكم فى الانعام لعبرة) يعنى اذا تفكرتم فيها عرفتم كمال قدرتنا على ذلك (نسقيكم مما فى بطونه) الضمير عائد الى الانعام وكان حقه ان يقال مما فى بطونها واختلف النحويون فى الجواب فقيل ان لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع فهو بحسب اللفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد وهو مذكر وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع وهو مؤنث فلهذا المعنى قال هنا مما فى بطونه وقال فى سورة المؤمنين مما فى بطونها وهذا قول أبى عبيدة والاخفش وقال الكسائى انه رده الى ماذكر يعنى مما فى بطون ماذكرنا وقال غيره الكناية مردودة الى البعض وفيه اضمار كانه قال نسقيكم مما فى بطونه اللبن فاضمر اللبن اذ ليس لكلها لبن (من بين فرث) وهو ما فى الكرش من الثفل فاذا خرج منها لا يسمى فرثا (ودم لبنا خالصا) يعنى من الدم والفرث ليس عليه لون الدم ولا رائحة الفرث قال ابن عباس اذا أكلت الدابة العلف واستقر فى كرشها وطبخته كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما فالكبد مسلطة عليه تقسمه بتقدير الله سبحانه وتعالى فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ويبقى الثفل كما هو (سائغا للشاربين) يعنى هنيأ سهلا يجرى فى الحلق بسهولة قيل انه لم يغص أحد باللبن قط هذا قول المفسرين فى معنى هذه الآية وحكى الامام فخر الدين الرازى قول الحكماء فى ذلك فقال ولقائل ان يقول الدم واللبن لا يتولدان فى الكرش البتة والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحا متواليا وما رأى أحد فى كرشها دما ولا لبنا بل الحق ان الحيوان اذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف الى معدته ان كان انسانا والى كرشه ان كان من الانعام وغيرها فاذا طبخ وحصل الهضم الاول فيه فما كان منه صافيا انجذب الى الكبد وما كان كثيفا نزل الى الامعاء ثم ذلك الذى حصل فى الكبد ينطبخ فيها ويصير دما وهو الهضم الثانى ويكون ذلك مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية فاما الصفراء فتذهب الى المرارة وأما السوداء فتذهب الى الطحال وأما المائية فتذهب الى الكلية ومنها الى المثانة وأما الدم فيذهب فى الاوردة وهى العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث وبين الكبد وبين

والله أنزل من السماء ماء فاحيا به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون) سماع انصاف وتدبر لان من لم يسمع بقلبه فكانه لا يسمع (وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه) وبفتح النون نافع وشامى وابو بكر قال الزجاج سقيته وأسقيته بمعنى واحد ذكر سيبويه الانعام فى الاسماء المفردة الواردة على أفعال ولذا رجع الضمير اليه مفردا واما فى بطونها فى سورة المؤمنين فلان معناه الجمع وهو استئناف كانه قيل كيف العبرة فقال نسقيكم مما فى بطونه (من بين فرث ودم لبنا خالصا) اى يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ لا يبغى أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله قيل اذا أكلت البهيمة العلف فاستقر فى كرشها طبخته

فكان أسفله فرثا واوسطه لبنا وأعلاه دما والكبد مسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها فتجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ويبقى الفرث فى الكرش ثم يخدر وفى ذلك عبرة لمن اعتبر وسئل شقيق عن الاخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم (سائغا للشاربين) سهل المرور فى الحلق ويقال لم يغص أحد باللبن قط ومن الاولى للتبعيض لان اللبن بعض ما فى بطونها والثانية لابتداء الغاية ويتعلق

(ومن ثمرات النخيل والاعناب) بحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب اى من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه وقوله (تتخذون منه سكرا) بيان وكشف عن كنه الاسقاء او تتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد والضمير فى منه يرجع الى المضاف المحذوف الذى هو العصير والسكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا ثم فيه وجهان أحدهما ان الآية سابقة على تحريم الخمر فتكون منسوخة وثانيهما ان يجمع بين العتاب والمنة وقيل السكر النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر اذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد وهو حلال عند ابى حنيفة وابى يوسف رحمهما الله الى حد السكر ويحتجان بهذه الآية وبقوله عليه السلام الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب وباخبار جمة (ورزقا حسنا) هو الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك (ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون واوحى ربك الى النحل) والهم

الضرع عروق كثيرة فينصب الدم من تلك العروق الى الضرع والضرع لحم غددى رخو أبيض فيقلب الله عز وجل ذلك الدم عند انصبابه الى ذلك اللحم الغددى الرخو الابيض فيصير الدم لبنا فهذا صورة تكون اللبن فى الضرع فاللبن انما يتولد من بعض أجزاء الدم والدم انما يتولد من بعض الاجزاء اللطيفة من الاشياء المأكولة الحاصلة فى الكرش فاللبن تولد أولا من الفرث ثم من الدم ثانيا ثم صفاه الله سبحانه وتعالى بقدرته فجعله لبنا خالصا من بين فرث ودم وعند تولد اللبن فى الضرع يخلق الله عز وجل بلطيف حكمته فى حلمة الثدى ثقبا صغارا ومسام ضيقة فيجعلها كالمصفاة للبن فكل ما كان لطيفا من اللبن خرج بالمص او الحلب وما كان كثيفا احتبس فى البدن وهو المراد بقوله خالصا يعنى من شوائب كدورة الدم والفرث سائغا للشاربين يعنى جاريا فى حلوقهم سهلا لاذيذا هنيئا مريئا * قوله عز وجل (ومن ثمرات النخيل والاعناب) يعنى ولكم أيضا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والاعناب (تتخذون منه) الضمير فى منه يرجع الى ما تقديره ولكم من ثمرات النخيل والاعناب ما تتخذون منه (سكرا ورزقا حسنا) قال ابن مسعود وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وابراهيم وابن ابى ليلى والزجاج وابن قتيبة السكر الخمر سميت بالمصدر من قولهم سكر سكرا وسكرا والرزق الحسن سائر ما يتخذ من ثمرات النخيل والاعناب مثل الدبس والتمر والزبيب والخل وغير ذلك فان قلت الخمر محرمة فكيف ذكرها الله عز وجل فى معرض الانعام والامتنان قلت قال العلماء فى الجواب عن هذا ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر انما نزل فى سورة المائدة وهى مدنية فكان نزول هذه الآية فى الوقت الذى كانت الخمرة فيه غير محرمة وقيل ان الله عز وجل نبه فى هذه الآية على تحريم الخمر أيضا لانه ميز بينها وبين الرزق الحسن فى الذكر فوجب ان يقال الرجوع عن كونه حسنا يدل على التحريم وروى العوفى عن ابن عباس ان السكر هو الخل بلغة الحبشة وقال بعضهم السكر هو النبيذ وهو نقيع التمر والزبيب اذا اشتد والمطبوخ من العصير وهو قول الضحاك والنخعى ومن يبيح شرب النبيذ ومن يحرمه يقول المراد من الآية الاخبار لا الاحلال واولى الاقاويل ان قوله تتخذون منه سكرا منسوخ سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال السكر ما حرم من ثمراتها والرزق الحسن ما حل قلت القول بالنسخ فيه نظر لان قوله ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا خبر والاخبار لا يدخلها النسخ ومن زعم انها منسوخة رأى ان هذه الآية نزلت بمكة فى وقت اباحة الخمر ثم ان الله تبارك وتعالى حرمها بالمدينة فحكم على هذه الآية بانها منسوخة وقال ابو عبيدة فى معنى الآية ان السكر الطعم يقال هذا سكر لك اى طعم لك وقال غيره السكر ما سد الجوع من قولهم سكرت النهر اى سددته والتمر والزبيب مما يسد الجوع وهذا شرح قول ابى عبيدة ان السكر الطعم (ان فى ذلك) يعنى الذى ذكر من انعامه على عباده (لآية) يعنى دلالة وحجة واضحة (لقوم يعقلون) يعنى ان من كان عاقلا استدل بهذه الآية على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وعلم بالضرورة ان لهذه الاشياء خالقا ومدبرا قادرا على ما يريد قوله سبحانه وتعالى (واوحى ربك الى النحل) لما ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل قدرته وعجائب صنعته الدالة على وحدانيته من اخراج اللبن من بين فرث ودم واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب ذكر فى هذه الآية اخراج العسل الذى جعله شفاء للناس من دابة ضعيفة وهى النحلة فقال سبحانه وتعالى وأوحى ربك الى النحل الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وانه الخالق لجميع الاشياء المدبر لها بلطيف حكمته وقدرته وأصل الوحى الاشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض وقد يكون بصوت مجرد ويقال للكلمة الالهية التى يلقيها الله الى أنبيائه وحى والى أوليائه الهام وتسخير الطير لما خلق له ومنه قوله تعالى وأوحى ربك الى

النحل يعنى انه سخرها لما خلقها له وألهمها رشدها وقدر فى أنفسها هذه الاعمال العجيبة التى يعجز عنها العقلاء من البشر وذلك ان النحل تبنى بيوتا على شكل مسدس من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة او مثلثة او مربعة او غير ذلك من الاشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فالهمها الله سبحانه وتعالى ان تبنيها على هذا الشكل المسدس الذى لا يحصل فيه خلل وفرجة خالية ضائعة وألهمها الله تعالى أيضا ان تجعل عليها أميرا كبيرا نافذ الحكم فيها وهى تطيعه وتمتثل أمره و يكون هذا الاميرا كبرها جثة وأعظمها خلقة ويسمى يعسوب النحل يعنى ملكها كذا حكاه الجوهرى وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضا ان جعلت على باب كل خلية بوابا لا يمكن غير أهلها من الدخول اليها وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضا انها تخرج من بيوتها فتدور وترعى ثم ترجع الى بيوتها ولا تضل عنها ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الالهام الالهى فكان ذلك شبيها بالوحى فلذلك قال تبارك وتعالى واوحى ربك الى النحل والنحل زنبور العسل ويسمى الدبر أيضا قال الزجاج يجوز أن يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله سبحانه وتعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها يعنى أعطاهم وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز وكذا أنثها الله تعالى فقال (أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) يعنى يبنون و يسقفون وذلك ان النحل منه وحشى وهو الذى يسكن الجبال والشجر و يأوى الى الكهوف ومنه اهلى وهو الذى يأوى الى البيوت و يربيه الناس عندهم وقد جرت العادة ان الناس يبنون للنحل الاماكن حتى تأوى اليها وقال ابن زيد أراد بالذى يعرشون الكروم (ثم كلى من كل الثمرات) يعنى من بعض الثمرات لانها لا تأكل من جميع الثمار فلفظة كل ههنا ليست للعموم (فاسلكى سبل ربك) يعنى الطرق التى الهمك الله ان تسلكيها وتدخلى فيها لاجل طلب الثمرات (ذللا) قيل انها نعت للسبل يعنى انها مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها قال مجاهد لا يتوعر عليها مكان تسلكه وقيل الذال نعت للنحل يعنى انها مذللة مسخرة لاربابها مطيعة منقادة لهم حتى انهم ينقلونها من مكانها الى مكان آخر حيث شاؤا وأرادوا لا تستعصى عليهم (يخرج من بطونها شراب) يعنى العسل (مختلف ألوانه) يعنى ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والازهار و يستحيل فى بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب وزعم الامام فخر الدين الرازى انه رأى فى بعض كتب الطب أن العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الازهار وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه وتدخر بعضه فى بيوتها لأنفسها لتتغذى به فاذا اجتمع فى بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب الى العقل لان طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وأيضا فانا نشاهد ان النحل تتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها بان كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج من بطونها يعنى من أفواهها وقول أهل الظاهر أولى وأصح لانا نشاهد انه يوجد فى طعم العسل طعم تلك الازهار التى تأكلها النحل وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضا و يعضد هذا قول بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم له أكلت مغافير قال لا قالت فاهذه الريح التى أجد منك قال سقتنى حفصة شربة عسل قالت جرست نحله العرفط العرفط شجر الطلح وله صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحله العرفط أكلت ورعت من العرفط الذى له الرائحة الكريهة فثبت بهذا الدليل صحة قول اهل الظاهر من المفسرين وانه يوجد فى طعم العسل ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الاطباء من انه طل لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وطبيعة واحدة وقوله ان

(أن اتخذى من الجبال بيوتا) هى أن المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول قال الزجاج واحد النحل نحلة كنخل ونخلة والتأنيث باعتبار هذا ومن فى من الجبال (ومن الشجر ومما يعرشون) يرفعون من سقوف البيت أو ما يبنون للنحل فى الجبال والشجر والبيوت من الاماكن التى تعسل فيها للتبعيض لانها لا تبنى بيوتها فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش والضمير فى يعرشون للناس وبضم الراء شامى وابو بكر (ثم كلى من كل الثمرات) اى ابنى البيوت ثم كلى كل ثمرة تشتهيها فاذا أكلتها (فاسلكى سبل ربك) فادخلى الطرق التى ألهمك وألفهمك فى عمل العسل اواذا أكلت الثمار فى المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكى الى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها (ذللا) جمع ذلول وهى حال من السبل لان الله تعالى ذللها وسهلها اومن الضمير فى فاسلكى اى وأنت ذال منقادة لما امرت به غير ممتنعة (يخرج من بطونها شراب) يريد العسل لانه مما يشرب تلقمه من فيها (مختلف ألوانه) منه أبيض وأصفر وأحمر من الشباب والكهول والشيب اوعلى ألوان أغذيتها

طبيعة العسل تقرب من طبيعة الترنجبين فيه نظر لان مزاج الترنجبين معتدل الى الحرارة وهو الطف من السكر ومزاج العسل حار يابس فى الدرجة الثانية فبينهما فرق كبير وقوله كل تجويف فى داخل البدن يسمى بطنا فيه نظر لان لفظ البطن اذا أطلق لم يرد به الا العضو المعروف مثل بطن الانسان وغيره والله أعلم وقوله تعالى (فيه) يعنى فى الشراب الذى يخرج من بطون النحل (شفاء للناس) وهذا قول ابن عباس وابن مسعود اذ الضمير فى قوله فيه شفاء للناس يرجع الى العسل وقد اختلفوا فى هذا الشفاء هل هو على العموم لكل مرض أو على الخصوص لمرض دون مرض على قولين أحدهما ان العسل فيه شفاء من كل داء وكل مرض قال ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور وفى رواية أخرى عنه عليكم بالشفاءين القرآن والعسل وروى نافع ان ابن عمر ما كانت تخرج به قرحة ولا شئ الا لطخ الموضع بالعسل ويقر أ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان أخى استطلق بطنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقه عسلا فسقاه ثم جاءه فقال انى سقيته عسلا فلم يزده الا استطلاقا فقال له ثلاث مرات ثم جاء الرابعة فقال اسقه عسلا فقال لقد سقيته فلم يزده الا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرأ وقد اعترض بعض الملحدين ومن فى قلبه مرض على هذا الحديث فقال ان الاطباء مجمعون على ان العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الاسهال فنقول فى الرد على هذا المعترض الملحد الجاهل بعلم الطب ان الاسهال يحصل من أنواع كثيرة منها التخم والمبضات وقد أجمع الاطباء فى مثل هذا على أن علاجه بان تترك الطبيعة وفعلها فان احتاجت الى معين على الاسهال أعينت مادامت القوة باقية فاما حبسها فحضر عندهم واستجلال مرض فيحتمل ان يكون اسهال الشخص المذكور فى الحديث أصابه من امتلاء أو هيضة فدواؤه بترك اسهاله على ما هو عليه او تقويته فامره رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرب العسل فزاده اسهالا فزاده عسلا الى ان فنيت المادة فوقف الاسهال ويكون الخلط الذى كان به يوافقه شرب العسل فثبت بما ذكرناه ان امره صلى الله عليه وسلم لهذا الرجل بشرب العسل جار على صناعة الطب وان المعترض عليه جاهل لها ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الاطباء بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك وانما ذكرنا هذا الجواب الجارى على صناعة الطب دفعا لهذا المعترض بانه لا يحسن صناعة الطب التى اعترض بها والله أعلم وقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك يحتمل انه صلى الله عليه وسلم علم بالوحى الالهى أن العسل الذى أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه فى الحال عندهم قال صدق الله يعنى فيما وعد به من ان فيه شفاء وكذب بطن أخيك يعنى باستجعالك للشفاء فى اول مرة والله اعلم بمراده وأسرار رسوله صلى الله عليه وسلم فان قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر باصحاب الصفراء ويهيج الحرارة ويضر بالشباب المحرورين ويعطش قلنا فى الجواب عن هذا الاعتراض أيضا ان قوله فيه شفاء للناس مع انه يضر باصحاب الصفراء ويهيج الحرارة انه خرج مخرج الاغلب وانه فى الاغلب فيه شفاء ولم يقل انه شفاء لكل الناس لكل داء ولكنه فى الجملة دواء وان نفعه أكثر من مضرته وقل معجون من المعاجين الا ويدخل فيه والاشربة المتخذة من العسل نافعة لاصحاب البلغم والشيوخ المبرودين ومنافعه كثيرة جدا والقول الثانى انه شفاء للاوجاع التى شفاؤها فيه وهذا قول السدى وقال مجاهد فى قوله فيه شفاء للناس يعنى القرآن لانه شفاء من امراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس والقول الاول أصح لان الضمير يجب ان يعود الى أقرب المذكورات وأقربها قوله تعالى يخرج من بطونها شراب وهو العسل فهو اولى ان يرجع الضمير اليه لانه أقرب مذكور وقوله سبحانه وتعالى (ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون)

(فيه شفاء للناس) لانه من جملة الادوية النافعة وقل معجون من المعاجين لم يذكر الاطباء فيه العسل وليس الغرض انه شفاء لكل مريض كما ان كل دواء كذلك وتنكيره لتعظيم الشفاء الذى فيه اولان فيه بعض الشفاء لان النكرة فى الاثبات تخص وشكا رجل استطلاق بطن أخيه فقال عليه السلام اسقه عسلا فجاءه وقال زاده شرا فقال عليه السلام صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا فسقاه فصح وعن ابن مسعود رضى الله عنه العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل ومن بدع الروافض ان المراد بالنحل على وقومه وعن بعضهم ان رجلا قال عند المهدى انما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم فقال له رجل جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدى وحدث به المنصور فاتخذوه اضحوكة من اضاحيكهم (ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) فى عجيب أمرها فيعلمون ان الله اودعها علما بذلك وفطنها كما أعطى اولى العقول عقولهم

يعنى

يعني فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا * قوله عز وجل (والله خلقكم) يعني اوجدكم من العدم وأخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيأ (ثم يتوفاكم) يعني عند انقضاء آجالكم اما صبيانا واما شبانا واما كهولا (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) يعني أردأه وأضعفه وهو الهرم قال بعض العلماء عمر الانسان له أربع مراتب اولها سن النشور والنماء وهو من اول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين سنة الى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل ثم المرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة يشرع الانسان فى النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر وفيها يتبين النقص ويكون الهرم والخرف وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة (ق) عن أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وفى رواية أخرى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهذه الدعوات اللهم انى أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات وقوله تعالى (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) يعنى ان الانسان يرجع الى حالة الطفولية بنسيان ما كان علم بسبب الكبر وقال ابن عباس لكى يصير كالصبى الذى لا عقل له وقال ابن قتيبة معناه حتى لا يعلم بعد علمه بالامور شيأ لشدة هرمه وقال الزجاج المعنى وان منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفا فيصير بعد أن كان عالما جاهلا ليريكم الله من قدرته انه كما قدر على اماتته واحيائه انه قادر على نقله من العلم الى الجهل هكذا وجدته منقولا عنه ولو قال ليريكم من قدرته انه كما قدر على نقله من العلم الى الجهل انه قادر على احيائه بعد اماتته ليكون ذلك دليلا على صحة البعث بعد الموت لكان اجود قال ابن عباس ليس هذا فى المسلمين لان المسلم لا يزداد فى طول العمر والبقاء الا كرامة عند الله وعقلا ومعرفة وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيأ وقال فى قوله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرؤا القرآن وقال ابن عباس فى قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافر ثم استثنى المؤمنين فقال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقوله تعالى (ان الله عليم) يعنى بما صنع باوليائه وأعدائه (قدير) يعنى على ما يريد قوله تعالى (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) يعنى ان الله سبحانه وتعالى بسط على واحد وضيق وقتر على واحد وكثر لواحد وقلل على آخر وكما فضل بعضكم على بعض فى الرزق كذلك فضل بعضكم على بعض فى الخلق والخلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل وغير ذلك فهم متفاوتون ومتباينون فى ذلك كله وهذا مما اقتضته الحكمة الالهية والقدرة الربانية (فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم) يعنى من العبيد حتى يستووا فيه هم وعبيدهم يقول الله سبحانه وتعالى هم لا يرضون ان يكونوا هم وعمالهم فيما رزقتهم سواء وقد جعلوا عبيدى شركائى فى ملكى وسلطانى يلزم بهذه الحجة المشركين حيث جعلوا الاصنام شركاء لله قال قتادة هذا مثل ضربه الله عز وجل يقول هل منكم أحد يرضى أن يشركه مملوكه فى جميع ماله فكيف تعدلون بالله خلقه وعباده وقيل فى معنى الآية ان الموالى والمماليك الله رازقهم جميعا (فهم فيه) يعنى فى رزقه (سواء) فلا تحسبن ان الموالى يردون رزقهم على مماليكهم من عند أنفسهم بل ذلك رزق الله اجراه على ايدى الموالى للمماليك والمقصود منه بيان ان الرازق هو الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه وان الموالى والمماليك فى الرزق سواء وان المالك لا يرزق المملوك بل الرازق للمماليك والمالك هو الله سبحانه وتعالى وقوله (أفبنعمت الله يجحدون) فيه

سنة أو ثمانون او تسعون (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) لينسى ما يعلم اولئلا يعلم زيادة علم على علمه (ان الله عليم) بحكم التحويل الى الارذل من الاكمل او الى الافناء من الاحياء (قدير) على تبديل ما يشاء كما يشاء من الاشياء (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) اى جعلكم متفاوتين فى الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم (فما الذين فضلوا) فى الرزق يعنى الملاك (برادى) يعطى (رزقهم على ما ملكت أيمانهم) فكان ينبغى ان يردوا فضل ما رزقوه عليهم حتى تتساووا فى الملبس والمطعم (فهم فيه سواء) جملة اسمية وقعت فى موضع جملة فعلية فى موضع النصب لانه جواب النفى بالفاء وتقدير فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فيستووا مع عبيدهم فى الرزق وهو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما انعمت به عليكم ولا تجعلونهم فيه شركاء ولا ترضون ذلك لانفسكم فكيف رضيتم

ان تجعلوا عبيدى لى شركاء (أفبنعمت الله يجحدون) وبالتاء ابو بكر فجعل ذلك من جملة جحود النعمة

(والله جعل لكم من أنفسكم ازواجا) اى من جنسكم (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) جمع حافد وهو الذى يحفد اى يسرع فى الطاعة والخدمة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد واختلف فيه فقيل هم الاختان على البنات وقيل أولاد الاولاد والمعنى وجعل لكم حفدة اى خدما يحفدون فى

مصالحكم ويعينونكم (ورزقكم من الطيبات) اى بعضها الان كل الطيبات فى الجنة وطيبات الدنيا انموذج منها (أفبالباطل يؤمنون) هو ما يعتقدونه من منفعة الاصنام وشفاعتها (وبنعمت الله) اى الاسلام (هم يكفرون) او الباطل الشيطان والنعمة محمد صلى الله عليه وسلم او الباطل ما يسوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ) اى الصنم وهو جماد لا يملك أن يرزق شيأ فالرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق فان اردت المصدر نصبت به شيأ اى لا يملك ان يرزق شيأ وان اردت المرزوق كان شيأ بدلا منه اى قليلا ومن السموات والارض صلة للرزق ان كان مصدرا اى لا يرزق من السموات مطرا ولا من الارض نباتا وصفة ان كان اسما لما يرزق والضمير فى (ولا يستطيعون) لما لانه فى معنى الآلهة بعد ما قال لا يملك على اللفظ والمعنى لا يملكون الرزق ولا يمكنهم ان يملكوه ولا يتأتى ذلك منهم (فلا تضربوا لله الامثال) فلا تجعلوا لله مثلا فانه لا مثل له اى فلا تجعلوا له شركاء (ان الله يعلم) انه لا مثل له من الخلق (وأنتم لا تعلمون) ذلك او ان الله يعلم كيف يضرب الامثال وأنتم لا تعلمون ذلك والوجه الاول ثم ضرب المثل فقال (ضرب الله مثلا عبدا) هو بدل من مثلا (مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا

انكارا على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره * قوله عز وجل (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) يعنى النساء فخلق من آدم حواء زوجته وقيل جعل لكم من جنسكم ازواجا لانه خطاب عام يعم الكل فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) الحفدة جمع حافد وهو المسرع فى الخدمة المسارع الى الطاعة ومنه قوله فى الدعاء واليك نسعى ونحفد اى نسرع الى طاعتك فهذا اصله فى اللغة ثم اختلفت اقوال المفسرين فيهم فقال ابن مسعود والنخعى الحفدة اختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود أيضا انهم اصهاره فهو بمعنى الاول فعلى هذا القول يكون معنى الآية وجعل لكم من ازواجكم بنين وبنات تزوجونهم فيجعل لكم بسببهم الاختان والاصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من أعانك فقد حفدك وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقيل هم اهل المهنة الذين يمتهنون ويخدمون من الاولاد وقال مقاتل والكلبى البنين هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذين يعينون الرجل على عمله وقال ابن عباس هم ولد الولد وفى رواية أخرى عنه انهم بنو امرأة الرجل الذين ليسوا منه وكل هذه الاقوال متقاربة لان اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك وبالجملة فان الحفدة هم غير البنين لان الله سبحانه وتعالى قال بنين وحفدة فجعل بينهم مغايرة (ورزقكم من الطيبات) يعنى النعم التى أنعم بها عليكم من انواع الثمار والحبوب والحيوان والاشربة المستطابة الحلال من ذلك كله (أفبالباطل يؤمنون) يعنى بالاصنام وقيل بالشيطان يؤمنون وقيل معناه يصدقون أن لى شريكا وصاحبة وولدا وهذا استفهام انكار اى ليس لهم ذلك (وبنعمت الله هم يكفرون) يعنى انهم يضيفون ما أنعم الله به عليهم الى غيره وقيل معناه انهم يجحدون ما أحل الله لهم (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض) يعنى الاصنام التى لا تقدر على انزال المطر الذى فى السموات خزائنه ولا يقدرون على اخراج النبات الذى فى الارض معدنه (شيأ) يعنى لا يملك من الرزق شيأ قليلا ولا كثيرا وقيل معناه يعبدون ما لا يرزق شيأ (ولا يستطيعون) يعنى ولا يقدرون على شئ يذكر عجز الاصنام عن ايصال نفع او دفع ضر (فلا تضربوا لله الامثال) يعنى لا تشبهوا الله بخلقه فانه لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفى ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق او الرازق بالمرزوق او القادر بالعاجز (ان الله يعلم) يعنى ما أنتم عليه من ضرب الامثال له (وأنتم لا تعلمون) خطأ ما تضربون له من الامثال قوله تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا) لما نهاهم الله سبحانه وتعالى عن ضرب الامثال لقلة علمهم ضرب هو سبحانه وتعالى لنفسه مثلا فقال تعالى مثلكم فى اشراككم بالله الاوثان كمثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك قادر قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء فصريح العقل يشهد بانه لا تجوز التسوية بينهما فى التعظيم والاجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما فى الخلقة والصورة البشرية فكيف يجوز للعاقل ان يسوى بين الله عز وجل الخالق القادر على الرزق والافضال وبين الاصنام التى لا تملك ولا تقدر على شئ البتة وقيل هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر والمراد بالعبد المملوك الذى لا يقدر على شئ هو الكافر لانه لما كان محروما من عبادة الله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذى لا يقدر على شئ وقيل ان الكافر لما رزقه الله مالا فلم يقدم

فهو ينفق منه سرا وجهرا) مصدران فى موضع الحال اى مثلكم فى اشراككم بالله الاوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه ماشاء وقيد بالمملوك ليميزه من الحر لان اسم العبد يقع عليهما جميعا اذ هما من عباد الله وبالا يقدر على شئ ليمتاز من المكاتب والمأذون فهما يقدران على التصرف ومن موصوفة اى وحرا رزقناه ليطابق عبدا او موصولة (هل يستوون) جمع الضمير لارادة الجمع اى لا يستوى القبيلان (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) بان الحمد والعبادة لله ثم زاد فى البيان فقال (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ) الابكم الذى ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم (وهو كل على مولاه) اى ثقل وعيال على من يلى امره ويعوله (أينما يوجهه لا يأت بخير) حيثما يرسله ويصرفه فى طلب حاجة او كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجح (هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل) اى ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد وديانة فهو يأمر الناس بالعدل والخير (وهو) فى نفسه (على صراط مستقيم) على سيرة صالحة ودين قويم

يقدم فيه خيرا صار كالعبد الذى لا يملك شيأ والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا المؤمن لانه لما اشتغل بطاعة الله وعبوديته والانفاق فى وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذى ينفق سرا وجهرا فى طاعة الله وابتغاء مرضاته وهو قوله سبحانه وتعالى (فهو ينفق منه سرا وجهرا) فأثابه الله الجنة على ذلك فان قلت لم قال عبدا مملوكا لا يقدر على شئ وكل عبد هو مملوك وهو غير قادر على التصرف قلت انما ذكر المملوك ليتميز من الحر لان اسم العبد يقع عليهما جميعا لانهما من عباد الله وقوله لا يقدر على شئ احترز به عن المملوك المكاتب والمأذون له فى التصرف لانهما يقدران على التصرف واحتج الفقهاء بهذه الآية على ان العبد لا يملك شيأ (هل يستوون) ولم يقل هل يستويان يعنى هل يستوى الاحرار والعبيد والمغنى كما لا يستوى هذا الفقير البخيل والغنى السخى كذلك لا يستوى الكافر العاصى والمؤمن الطائع وقال عطاء فى قوله عبدا مملوكا هو أبو جهل بن هشام ومن رزقناه منا رزقا حسنا هو أبو بكر الصديق ثم قال تعالى (الحمد لله) حمد الله نفسه لانه المستحق لجميع المحامد لانه المنعم المتفضل على عباده وهو الخالق الرازق لا هذه الاصنام التى عبدها هؤلاء فانها لا تستحق الحمد لانها جماد عاجزة لا يد لها على احد ولا معروف فتحمد عليه انما الحمد الكامل لله لا لغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لانه اهل الحمد والثناء الحسن (بل أكثرهم) يعنى الكفار (لا يعلمون) يعنى ان الحمد لله لا لهذه الاصنام (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم) هو الذى ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل اخرس أبكم والابكم الذى لا يفهم ولا يفهم (لا يقدر على شئ) هو اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل (وهو كل على مولاه) اى ثقيل على من يلى أمره ويعوله وقيل اصله من الغلظ وهو نقيض الحدة يقال كل السكين اذا غلظت شفرته وكل اللسان اذا غلظ فلم يقدر على النطق وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه فقوله وهو كل على مولاه اى غليظ ثقيل على مولاه (أينما يوجهه) اى حيثما يرسله ويصرفه فى طلب حاجة او كفاية مهم (لا يأت بخير) يعنى لا يأت بنجح لانه أخرس عاجز لا يحسن ولا يفهم (هل يستوى) يعنى من هذه صفته (هو) يعنى صاحب هذه الصفات المذمومة (ومن يأمر بالعدل) يعنى ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات ذو رشد وديانة يأمر الناس بالعدل والخير (وهو) فى نفسه (على صراط مستقيم) يعنى على سيرة صالحة ودين قويم فيجب أن يكون الآمر بالعدل عالما قادرا مستقيما فى نفسه حتى يتمكن من الامر بالعدل وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده من انعامه ويشملهم به من آثار رحمته وألطافه وللاصنام التى هى اموات جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل وهى كل على عابديها لانها تحتاج الى كلفة الحمل والنقل والخدمة وقيل كلا المثلين للمؤمن والكافر والمؤمن هو الذى يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم والكافر هو الابكم الثقيل الذى لا يأمر بخير فعلى هذا القول تكون الآية على العموم فى كل مؤمن وكافر وقيل هى على الخصوص فالذى يأمر بالعدل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صراط مستقيم والذى يأمر بالظلم وهو أبكم ابو جهل وقيل الذى يأمر بالعدل عثمان بن عفان وكان له مولى يأمره بالاسلام وذلك المولى يأمر عثمان بالامساك عن الانفاق فى سبيل الله تعالى فهو الذى لا يأتى بخير وقيل المراد بالابكم الذى لا يأتى بخير أبى بن خلف وبالذى يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون (ولله غيب السموات والارض) اخبر الله عز وجل فى الآية عن كمال علمه وانه عالم بجميع الغيوب فلا تخفى عليه خافية ولا يخفى عليه شئ منها وقيل الغيب هنا هو علم قيام الساعة وهو قوله (وما أمر الساعة)

وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من آثار رحمته ونعمته وللاصنام التى هى أموات لا تضر ولا تنفع (ولله غيب السموات والارض) اى يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه او أراد بغيب السموات والارض يوم القيامة على ان علمه غائب عن اهل السموات والارض لم يطلع عليه احد منهم (وما أمر الساعة) فى قرب كونها وسرعة قيامها

(الا كلمح البصر) كرجع طرف وانما ضرب به المثل لانه لا يعرف زمان اقل منه (او هو) اى الامر (أقرب) وليس هذا الشك الخاطب ولكن المعنى كونها فى كونها على ١٤٠ هذا الاعتبار وقيل بل هو أقرب (ان الله على كل شئ قدير) فهو يقدر على ان يقيم الساعة

يعنى فى قيامها والساعة هى الوقت الذى يقوم الناس فيه لموقف الحساب (الا كلمح البصر) يعنى فى السرعة ولمح البصر هو انطباق جفن العين وفتحه وهو طرف العين ايضا (أو هو أقرب) يعنى ان لمح البصر يحتاج الى زمان وحركة والله سبحانه وتعالى اذا اراد شيأ قال له كن فيكون فى أسرع من لمح البصر وهو قوله (ان الله على كل شئ قدير) فيه دليل على كمال قدرة الله تعالى وانه سبحانه وتعالى مهما اراد شيأ كان أسرع ما يكون قال الزجاج ليس المراد ان الساعة تأتى فى أقرب من لمح البصر ولكنه سبحانه وتعالى وصف سرعة القدرة على الاتيان بها متى شاء لا يعجزه شئ * قوله عز وجل (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ) تم الكلام هنا لان الانسان خلق فى اول الفطرة ومبدئها خاليا عن العلم والمعرفة لا يهتدى سبيلا ثم ابتدأ فقال تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) يعنى ان الله سبحانه وتعالى انما أعطاكم هذه الحواس لتنتقلوا بها من الجهل الى العلم فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب والسنة وهى الدلائل السمعية لتستدلوا بها على ما يصلحكم فى أمر دينكم وجعل لكم الابصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته وغرائب مخلوقاته فتستدلوا بها على وحدانيته وجعل لكم الافئدة لتعقلوا بها وتفهموا معانى الاشياء التى جعلها دلائل وحدانيته وقال ابن عباس فى هذه الآية يريد لتسمعوا مواعظ الله وتبصروا ما أنعم الله به عليكم من اخراجكم من بطون أمهاتكم الى ان صرتم رجالا وتعقلوا عظمة الله وقيل فى معنى الآية والله خلقكم فى بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم ثم اخرجكم من الضيق الى السعة وجعل لكم الحواس آلات لازالة الجهل الذى ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والترقى الى ما يسعدكم به فى الآخرة فان قلت ظاهر الآية يدل على ان جعل الحواس الثلاث بعد الاخراج من البطون وانما خلقت هذه الحواس للانسان من جملة خلقه وهو فى بطن أمه قلت ذكر العلماء ان تقديم الاخراج وتأخير ذكر هذه الحواس لا يدل على ان خلقها كان بعد الاخراج لان الواو لا توجب الترتيب ولان العرب تقدم وتؤخر فى بعض كلامها وأقول لما كان الانتفاع بهذه الحواس بعد الخروج من البطن فكأنما خلقت فى ذلك الوقت الذى ينتفع بها فيه وان كانت قد خلقت قبل ذلك وقوله تعالى (لعلكم تشكرون) يعنى انما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها فى شكر من انعم بها عليكم (ألم يروا الى الطير مسخرات) يعنى مذللات (فى جو السماء) الجو الفضاء الواسع بين السماء والارض وهو الهواء قال كعب الاحبار ان الطير ترتفع فى الجو اثنى عشر ميلا ولا ترتفع فوق ذلك (ما يمسكهن الا الله) يعنى فى حال قبض أجنحتها وبسطها واصطفافها فى الهواء وفى هذا حث على الاستدلال بها على ان لها مسخرا سخرها ومذللا ذللها وممسكا أمسكها فى حال طيرانها ووقوفها فى الهواء وهو الله تعالى (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) انما خص المؤمنين بالذكر لانهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم * قوله سبحانه وتعالى (والله جعل لكم من بيوتكم) يعنى التى هى من الحجر والمدر (سكنا) يعنى مسكنا تسكنونه والسكن ما سكنت اليه وفيه من الف او بيت (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) يعنى الخيام والقباب والاخبية والفساطيط المتخذة من الادم والانطاع واعلم ان المساكن على قسمين أحدهما ما لا يمكن نقله من مكان الى مكان آخر وهى البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما والقسم الثانى ما يمكن نقله من مكان الى مكان آخر وهى الخيام والفساطيط المتخذة من جلود الانعام واليها الاشارة بقوله تعالى (تستخفونها) يعنى يخف عليكم حملها

(ما يمسكهن) فى قبضهن وبسطهن ووقوفهن (الا الله) بقدرته وفيه نفى لما يصوره الوهم من خاصية القوى (يوم
الطبيعية (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) بان الخلق لا غنى به عن الخالق (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) هو فعل بمعنى مفعول اى ما يسكن اليه وينقطع اليه من بيت او الف (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) هى قباب الادم (تستخفونها) ترونها خفيفة الحمل

(يوم ظعنكم) يعنى فى يوم سيركم ورحيلكم فى أسفاركم وظعن البادية هو اطلب ماء أو مرعى ونحو ذلك (ويوم اقامتكم) يعنى وتخف عليكم أيضا فى اقامتكم وحضركم والمعنى لاتثقل عليكم فى الحالتين (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) الكناية عائدة الى الانعام يعنى ومن أصواف الضأن وأوبار الابل وأشعار المعز (أثاثا) يعنى تتخذون أثاثا الاثاث متاع البيت الكبير وأصله من أث اذا كثر وتكاثف وقيل للمال أثاث اذا كثر قال ابن عباس أثاثا يعنى مالا وقال مجاهد متاعا وقال القتيبى الاثاث المال اجمع من الابل والغنم والعبيد والمتاع وقال غيره الاثاث هو متاع البيت من الفرش والاكسية ونحو ذلك (ومتاعا) يعنى وبلاغا وهو ما يتمتعون به (الى حين) يعنى الى حين يبلى ذلك الاثاث وقيل الى حين الموت فان قلت اى فرق بين الاثاث والمتاع حتى ذكر بواو العطف والعطف يوجب المغايرة فهل من فرق قلت الاثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه وغير ذلك فيدخل فيه جميع أصناف المال والمتاع ما ينتفع به فى البيت خاصة فظهر الفرق بين اللفظتين والله أعلم (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) يعنى جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد وهى ظلال الابنية والجدران والاشجار (وجعل لكم من الجبال أكنانا) جمع كن وهو ما يستكن فيه من شدة الحر والبرد كالاسراب والغيران ونحوها وذلك لان الانسان اما أن يكون غنيا اوفقيرا فاذا سافر احتاج فى سفره ما يقيه من شدة الحر والبرد فاما الغنى فيستصحب معه الخيام فى سفره ليستكن فيها واليه الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا واما الفقير فيستكن فى ظلال الاشجار والحيطان والكهوف ونحوها واليه الاشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا ولان بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم الى الظلال ومايدفع شدته وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعانى فى معرض الامتنان عليهم بها لان النعمة عليهم فيها ظاهرة (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر) يعنى وجعل لكم قمصا وثيابا من القطن والكتان والصوف وغير ذلك تمنعكم من شدة الحر قال أهل المعانى والبرد فاكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه (وسرابيل تقيكم بأسكم) يعنى الدروع والجواشن وسائر ما يلبس فى الحرب من السلاح والبأس الحرب يعنى تقيكم فى بأسكم السلاح أن يصيبكم قال عطاء الخراسانى انما نزل القرآن على قدر معرفتهم فقال تعالى وجعل لكم من الجبال أكنانا وما جعل لهم من السهول أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وما جعل لهم من القطن والكتان اكثر ولكن كانوا أصحاب صوف ووبر وشعر وكما قال تعالى وينزل من السماء من جبال فيها من برد وما أنزل من الثلج اكثر ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج وقال تقيكم الحر وما جعل لهم مما يقى من البرد اكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر وقوله سبحانه وتعالى (كذلك) يعنى كما انعم عليكم بهذه النعم (يتم نعمته عليكم) يعنى نعم الدنيا والدين (لعلكم تسلمون) يعنى لعلكم يا اهل مكة تخلصون لله الوحدانية والربوبية والعبادة والطاعة وتعلمون انه لا يقدر على هذه الانعامات الا الله تعالى (فان تولوا) يعنى فان أعرضوا عن الايمان بك وتصديقك يا محمد وآثروا اماهم فيه من الكفر واللذات الدنيوية فانما وبال ذلك عليهم لا عليك (فانما عليك البلاغ المبين) يعنى ليس عليك فى ذلك عتب ولا سمة تقصير انما عليك البلاغ وقد فعلت ذلك ثم ذمهم الله تعالى بقوله (يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها) قال السدى نعمة الله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هى الاسلام لانه من أعظم النعم التى أنعم الله بها على عباده ثم ان كفار مكة أنكروه وجحدوه وقال مجاهد وقتادة نعمة الله ما عدد عليهم فى هذه السورة من النعم يقرون بانها من الله ثم اذا قيل لهم صدقوا وامتثلوا أمر الله فيها ينكرونها ويقولون ورثناها عن آبائنا وقال الكلبى انه لما ذكر هذه النعم قالوا هذه

غيرهم والظعن بفتح العين وسكونها الارتحال (ويوم اقامتكم) قراركم فى منازلكم والمعنى انها خفيفة عليكم فى اوقات السفر والحضر على ان اليوم بمعنى الوقت (ومن اصوافها) اى اصواف الضان (واوبارها) واوبار الابل (واشعارها) واشعار المعز (أثاثا) متاع البيت (ومتاعا) وشيأ ينتفع به (الى حين) مدة من الزمان (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) كالاشجار والسقوف (وجعل لكم من الجبال اكنانا) جمع كن وهو ماستر من كهف اوغار (وجعل لكم سرابيل) هى القمصان والثياب من الصوف والكتان والقطن (تقيكم الحر) وهى تقى البرد ايضا الا انها اكتفى باحد الضدين ولان الوقاية من الحر اهم عندهم لكون البرد يسيرا محتملا (وسرابيل تقيكم بأسكم) ودروعا من الحديد ترد عنكم سلاح عدوكم فى قتالكم والباس شدة الحرب والسربال عام يقع على ما كان من حديد اوغيره (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) اى تنظرون فى نعمته الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له

(فان تولوا) اعرضوا عن الاسلام (فانما عليك البلاغ المبين) اى فلا تبعة عليك فى ذلك لان الذى عليك هو التبليغ الظاهر وقد فعلت (يعرفون نعمت الله) التى عددناها باقوالهم فانهم يقولون انها من الله (ثم ينكرونها) بافعالهم حيث عبدوا غير المنعم اوفى الشدة ثم فى الرخاء

(وأكثرهم الكافرون) اى الجاحدون غير المعترفين او نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عنادا وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم وثم يدل على ان انكارهم امر مستبعد بعد حصول المعرفة لان حق من عرف النعمة ان يعترف لا ان ينكر (ويوم) انتصابه ١٤٢ باذكر (نبعث) نحشر (من كل أمة شهيدا) نبيا يشهد لهم وعليهم بالتصديق والتكذيب

نعم كلها من الله تعالى لكنها بشفاعة آلهتنا وقيل هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا ولولا فلان لما كان كذا وقيل انهم يعترفون بان الله أنعم بهذه النعم ولكنهم لا يستعملونها فى طلب رضوانه ولا يشكرونه عليها (وأكثرهم الكافرون) انما قال سبحانه وتعالى وأكثرهم الكافرون مع انهم كانوا كلهم كافرين لانه كان فيهم من لم يبلغ بعد حد التكليف فعبر بالاكثر عن البالغين وقيل أراد بالاكثر الكافرين الحاضرين المعاندين وقد كان فيهم من ليس بمعاند وان كان كافرا وقيل انه عبر بالاكثر عن الكل لانه قد يذكر الاكثر ويراد به الجميع قوله سبحانه وتعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على الكافرين وانكارهم لها وذكر ان أكثرهم كافرون اتبعه بذكر الوعيد لهم فى الآخرة فقال تعالى ويوم نبعث من كل أمة شهيدا يعنى رسولا وذلك اليوم هو يوم القيامة والمراد بالشهداء الانبياء يشهدون على امهم بانكار نعم الله عليهم وبالكفر (ثم لا يؤذن للذين كفروا) يعنى فى الاعتذار وقيل لا يؤذن لهم فى الكلام أصلا وقيل لا يؤذن لهم بالرجوع الى دار الدنيا فيعتذروا ويتوبوا وقيل لا يؤذن لهم فى معارضة الشهود بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك (ولا هم يستعتبون) الاستعتاب طلب العتاب والمعتبة هى الغلظة والموجدة التى يجدها الانسان فى نفسه على غيره والرجل انما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما فى نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع الى الرضا عنه واذا لم يطلب العتاب منه دل ذلك على انه ثابت على غضبه عليه ومعنى الآية انهم لا يكلفون ان يرضوا ربهم فى ذلك اليوم لان الآخرة ليست دار تكليف ولا يرجعون الى الدنيا فيتوبوا ويرجعوا ويرضوا ربهم فالاستعتاب التعرض لطلب الرضا وهذا باب منسد على الكفار فى الآخرة (واذا رأى الذين ظلموا) يعنى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى (العذاب) يعنى عذاب جهنم (فلا يخفف عنهم) يعنى العذاب (ولا هم ينظرون) يعنى لا يؤخرون ولا يمهلون (واذا رأى الذين أشركوا) يعنى يوم القيامة (شركاءهم) يعنى أصنامهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) يعنى اربابا وكنا نعبدهم ونتخذهم آلهة (فألقوا) يعنى الاصنام (اليهم) يعنى الى عابديها (القول انكم لكاذبون) يعنى ان الاصنام قالت للكفار انكم لكاذبون يعنى فى تسميتنا آلهة وما دعوناكم الى عبادتنا فان قلت الاصنام جماد لا تتكلم فكيف يصح منها الكلام قلت لا يبعد ان الله سبحانه وتعالى لما بعثها واعادها فى الآخرة خلق فيها الحياة والنطق والعقل حتى قالت ذلك والمقصود من اعادتها وبعثها ان تكذب الكفار ويراها الكفار وهى فى غاية الذلة والحقارة فيزدادون بذلك غما وحسرة (وألقوا) يعنى المشركين (الى الله يومئذ السلم) يعنى انهم استسلموا له وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيأ (وضل عنهم) يعنى وزال عن المشركين (ما كانوا يفترون) يعنى ما كانوا يكذبون فى الدنيا فى قولهم ان الاصنام تشفع لهم (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) يعنى ضموا مع كفرهم انهم منعوا الناس عن الدخول فى الايمان بالله ورسوله (زدناهم عذابا فوق العذاب) يعنى زدناهم هذه الزيادة بسبب صدهم عن سبيل الله مع ما يستحقونه من العذاب على كفرهم الاصلى واختلفوا فى هذه الزيادة ما هى فقال عبد الله بن مسعود عقارب لها انياب كامثال النخل الطوال وقال سعيد بن جبير حيات كالبخت وعقارب أمثال البغال تلسع

ثم لا يؤذن للذين كفروا) فى الاعتذار والمعنى لا حجة لهم فدل بترك الاذن على ان لا حجة لهم ولا عذر (ولا هم يستعتبون) ولا هم يسترضون اى لا يقال لهم ارضوا ربكم لان الآخرة ليست بدار عمل ومعنى ثم انهم يمنون اى يبتلون بعد شهادة الانبياء عليهم السلام بما هو اطم واغلب منها وهو انهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم فى القاء معذرة ولا ادلاء بحجة (واذا رأى الذين ظلموا) كفروا (العذاب فلا يخفف عنهم) اى العذاب بعد الدخول (ولا هم ينظرون) يمهلون قبله (واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) اوثانهم التى عبدوها (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا) اى آلهتنا التى جعلناها شركاء (الذين كنا ندعو من دونك) اى نعبد (فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون) اى أجابوهم بالتكذيب لانها كانت جمادا لا تعرف من عبدها ويحتمل انهم كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله عن الشرك (وألقوا) يعنى الذين ظلموا (الى الله يومئذ السلم) القاء السلم الاستسلام لامر الله وحكمه بعد الاباء والاستكبار فى الدنيا (وضل عنهم) وبطل عنهم (ما كانوا يفترون) من ان لله شركاء وانهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم (الذين كفروا) فى أنفسهم (وصدوا عن سبيل الله) وجملوا غيرهم على الكفر (زدناهم عذابا فوق العذاب) اى عذابا بكفرهم وعذابا بصدهم عن سبيل الله

احداهن

(بما كانوا يفسدون) بكونهم مفسدين الناس بالصد (ويوم نبعث في كل امة شهيدا عليهم من انفسهم) يعني نبيهم لانه كان يبعث انبياء
الامم فيهم منهم (وجئنا بك) يا محمد (شهيدا على هؤلاء) على امتك (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا) بليغا (لكل شئ) من

احداهن التسعة فيجد صاحبها ألمها اربعين خريفا وقال ابن عباس ومقاتل يعني خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار تسيل يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار وقيل انهم يخرجون من حر النار الى برد الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير الى النار مستغيثين بها وقيل يضاعف لهم العذاب ضعفا بسبب كفرهم وضعفا بسبب صدهم الناس عن سبيل الله (بما كانوا يفسدون) يعني ان الزيادة انما حصلت لهم بسبب صدهم عن سبيل الله وبسبب ما كانوا يفسدون مع ما يستحقونه من العذاب على الكفر (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم) قال ابن عباس يريد الانبياء قال المفسرون كل نبي شاهد على أمته وهو اعدل شاهد عليها (من انفسهم) يعني منهم لان كل نبي انما بعث من قومه الذين بعث اليهم ليشهدوا عليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان (وجئنا بك) يعني يا محمد (شهيدا على هؤلاء) يعني على قومك وامتك وتم الكلام هنا ثم قال تبارك وتعالى (ونزلنا عليك الكتاب) يعني القرآن (تبيانا لكل شئ) تبيانا اسم من البيان قال مجاهد يعني لما أمر به ومانهى عنه وقال أهل المعاني تبيانا لكل شئ يعني من امور الدين اما بالنص عليه او بالاحالة على ما يوجب العلم به من بيان النبي صلى الله عليه وسلم لان النبي صلى الله عليه وسلم بين ما في القرآن من الاحكام والحدود والحلال والحرام وجميع المأمورات والمنهيات واجماع الامة فهو أيضا أصل ومفتاح لعلوم الدين (وهدى) يعني من الضلالة (ورحمة) يعني لمن آمن به وصدقه (وبشرى للمسلمين) يعني وفيه بشرى للمسلمين من الله عز وجل قوله سبحانه وتعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) قال ابن عباس العدل شهادة ان لا اله الا الله والاحسان أداء الفرائض وفي رواية عنه قال العدل خلع الانداد والاحسان ان تعبد الله كأنك تراه وان تحب للناس ما تحب لنفسك ان كان مؤمنا تحب ان يزداد ايمانا وان كان كافرا تحب ان يكون أخاك في الاسلام وقال في رواية أخرى عنه العدل التوحيد والاحسان الاخلاص وأصل العدل في اللغة المساواة في كل شئ من غير زيادة في شئ ولا غلو ولا نقصان فيه ولا تقصير فالعدل هو المساواة في المكافأة ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان ان تقابل الخير بأكثر منه والشر بان تعفو عنه وقيل العدل الانصاف ولا انصاف أعظم من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من أساء اليك وقيل يأمر بالعدل في الافعال وبالاحسان في الاقوال فلا يفعل الا ما هو عدل ولا يقول الا ما هو حسن (وايتاء ذي القربى) يعني ويأمر بصلة الرحم وهم القرابة الادنون والابعدون منك فيستحب ان تصلهم من فضل ما رزقك الله فان لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد (وينهى عن الفحشاء) قال ابن عباس يعني الزنا وقال غيره الفحشاء ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة (والمنكر) قال ابن عباس يعني الشرك والكفر وقال غيره المنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة (والبغي) يعني الكبر والظلم وقيل البغي هو التطاول على الغير على سبيل الظلم والعدوان قال بعضهم ان أعجل المعاصي البغي ولو ان جبلين بغى أحدهما على الآخر لدك الباغي وقال ابن عيينة في هذه الآية العدل استواء السر والعلانية والاحسان ان تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر والبغي ان تكون علانيته أحسن من سريرته وقال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ومن المنهيات ثلاثة أشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة في الاقوال والافعال وذكر في مقابلته الفحشاء وهي ما قبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو ان تعفو عمن ظلمك وتحسن الى من أساء اليك وذكر في مقابلته المنكر وهو ان تنكر احسان من أحسن اليك وذكر ايتاء ذي القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر في مقابلته البغي وهو ان يتكبر

امور الدين اما في الاحكام المنصوصة فظاهر وكذا فيما ثبت بالسنة او بالاجماع او بقول الصحابة او بالقياس لان مرجع الكل الى الكتاب حيث امرنا فيه باتباع رسوله عليه السلام وطاعته بقوله اطيعوا الله واطيعوا الرسول وحثنا على الاجماع فيه بقوله ويتبع غير سبيل المؤمنين وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته باتباع أصحابه بقوله أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق الاجتهاد والقياس مع انه امرنا به بقوله فاعتبروا يا اولي الابصار فكانت السنة والاجماع وقول الصحابي والقياس مستندة الى تبيان الكتاب فتبين انه كان تبيانا لكل شئ (وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) ودلالة الى الحق ورحمة لهم وبشارة لهم بالجنة (ان الله يأمر بالعدل) بالتسوية في الحقوق فيما بينكم وترك الظلم وايصال كل ذي حق الى حقه (والاحسان) الى من اساء اليكم او هما القرض

والندب لان القرض لا بد من ان يقع فيه تفريط فيجبره الندب (وايتاء ذي القربى) واعطاء ذي القرابة وهو صلة الرحم (وينهى عن الفحشاء) عن الذنوب المفرطة في القبح (والمنكر) ما تنكره العقول (والبغي) طلب التطاول بالظلم والكبر

(يعظكم) حال اومستأنف (لعلكم تذكرون) تتعظون بمواعظ الله وهذه الآية سبب اسلام عثمان بن مظعون فانه قال ما كنت أسلمت الا حياء منه عليه السلام لكثرة ما كان يعرض على الاسلام ولم يستقر الايمان فى قلبى حتى نزلت هذه الآية وانا عنده فاستقر الايمان فى قلبى فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وماهو بقول البشر وقال ابوجهل ان الهه ليأمر ١٤٤ بمكارم الاخلاق وهى اجمع آية فى القرآن للخير والشر ولهذا يقرأها كل خطيب على المنبر فى آخر كل خطبة لتكون عظة جامعة لكل مأمور ومنهى (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) هى البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله (ولا تنقضوا الايمان) ايمان البيعة (بعد توكيدها) بعد توثيقها باسم الله واكد ووكد لغتان فصيحتان والاصل الواو والهمزة بدل منها (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شاهدا ورقيبا لان الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه (ان الله يعلم ما تفعلون) من البر والخبث فيجازيكم به (ولا تكونوا) فى نقض الايمان (كالتى نقضت غزلها من بعد قوة) كالمرأة التى انحت على غزلها بعد ان أحكمته وأبرمته فعمدت (انكاثا) جمع نكث وهو ما ينكث فتله قيل هى ريطة وكانت حمقاء تغزل هى وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن (تتخذون ايمانكم) حال كانكاثا (دخلا) احد مفعولى تتخذ اى مفسدة وخيانة (بينكم) بسبب (ان تكون امة) يعنى جماعة قريش (هى اربى من امة) هى أزيد عددا واوفر مالا من أمة من جماعة المؤمنين هى اربى مبتدأ وخبر فى موضع الرفع صفة لامة وامة فاعل تكون وهى تامة وهى ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين

عليهم او يظلمهم حقوقهم ثم قال تعالى (يعظكم لعلكم تذكرون) يعنى انما أمركم بما أمركم به ونهاكم عما نهاكم عنه لكى تتعظوا وتتذكروا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى قال ابن مسعود ان اجمع آية فى القرآن لخير وشر هذه الآية وقال اهل المعانى لما قال الله تعالى فى الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ بين فى هذه الآية المأمور به والمنهى عنه على سبيل الاجمال فما من شئ يحتاج اليه الناس فى أمر دينهم مما يجب ان يؤتى او يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية وروى عكرمة ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ان الله يأمر بالعدل الى آخر الآية فقال له يا ابن أخى أعد على فاعادها عليه فقال له الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وماهو بقول البشر * قوله عزوجل (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة المأمورات والمنهيات على سبيل الاجمال ذكر فى هذه الآية بعض ذلك الاجمال على التفصيل فبدأ بالامر بالوفاء بالعهد لانه آكد الحقوق فقال تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ثم نزلت فى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام فامرهم بالوفاء بهذه البيعة وقيل المراد منه كل ما يلتزمه الانسان باختياره ويدخل فيه الوعد ايضا لان الوعد من العهد وقيل العهد ههنا اليمين قال القتيبى العهد يمين وكفارته كفارة يمين فعلى هذا يجب الوفاء به اذا كان فيه صلاح اما اذا لم يكن فيه صلاح فلا يجب الوفاء به لقوله صلى الله عليه وسلم من حلف يمينا ثم رأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه فيكون قوله وأوفوا بعهد الله من العام الذى خصصته السنة وقال مجاهد وقتادة نزلت فى حلف أهل الجاهلية ويشهد لهذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم كل حلف كان فى الجاهلية لم يزده الاسلام الا شدة (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) يعنى تشديدها فتحنثوا فيها وفيه دليل على ان المراد بالعهد غير اليمين لانه اعم منها (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) يعنى شهيدا بالوفاء بالعهد (ان الله يعلم ما تفعلون) يعنى من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا لنقض العهد فقال تعالى (ولا تكونوا) يعنى فى نقض العهد (كالتى نقضت غزلها من بعد قوة) يعنى من بعد ابرامه واحكامه قال الكلبى ومقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسة وكانت قد اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل الاصبع وفلكة عظيمة على قدرها وكانت تغزل الغزل من الصوف او الشعر او الوبر وتأمر جواريها بالغزل فكن يغزلن من الغداة الى نصف النهار فاذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن فكان هذا دأبها والمعنى ان هذه المرأة لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض فكذلك من نقض العهد لا تركه ولا حين عاهد وفى به (أنكاثا) جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل او الحبل بعد الفتل (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) يعنى دغلا وخيانة وخديعة والدخل ما يدخل فى الشئ على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل ان يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه (ان تكون) يعنى لان تكون (امة هى أربى من امة) يعنى أكثروا على من أمة قال مجاهد وذلك انهم كانوا يحالفون الحلفاء فاذا وجدوا قوما أكثر من أولئك واعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الاكثر والمعنى

(انما يبلوكم الله به) الضمير للصدر اى انما يختبركم بكونه اربى لينظر اتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وماوكدتم من ايمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ام تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقلة المؤمنين وفقرهم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) اذ اجازاكم على اعمالكم بالثواب والعقاب وفيه تحذير عن مخالفة ملة الاسلام (ولوشاء الله لجعلكم امة واحدة) حنيفة مسلمة (ولكن يضل من يشاء) من علم منه اختيار الضلالة (ويهدى من يشاء) من علم منه اختيار الهداية (ولتسئلن ١٤٥ عما كنتم تعملون) يوم القيامة فتجزون به (ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم) كرر النهى عن اتخاذ الايمان دخلا بينهم تأكيدا عليهم واظهارا لعظمه (فتزل قدم بعد ثبوتها) فتزل اقدامكم عن محجة الاسلام بعد ثبوتها عليها وانما وحدت القدم ونكرت لاستعظام ان تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد ان ثبتت عليه فكيف باقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) فى الدنيا (بما صددتم) بصدودكم (عن سبيل الله) وخروجكم عن الدين او بصدكم غيركم لانهم لو نقضوا ايمان البيعة وارتدوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها (ولكم عذاب عظيم) فى الآخرة (ولا تشتروا) ولا تستبدلوا (بعهد الله) وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) عرضا من الدنيا يسيرا كان قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان بجزعهم مما رأوا من غلبة قريش

انكم طلبتم العز بنقض العهد لان كانت امة اى جماعة أكثر من جماعة فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالوفاء بالعهد لمن عاهدوا وحالفوا (انما يبلوكم الله به) يعنى يختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهد وهو أعلم بكم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) يعنى فى الدنيا فيثيب الطائع المحق ويعاقب المسىء المخالف قوله سبحانه وتعالى (ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة) يعنى على ملة واحدة ودين واحد وهو دين الاسلام (ولكن يضل من يشاء) يعنى بخذلانه اياه عدلا منه (ويهدى من يشاء) بتوفيقه اياه فضلا منه وذلك مما اقتضته الحكمة الالهية لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وهو قوله تعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) يعنى فى الدنيا فيجازى المحسن باحسانه ويعاقب المسىء باساءته او يغفر له قوله عزوجل (ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم) يعنى خديعة وفسادا بينكم فتغتروا بها الناس فيسكنوا الى أيمانكم ويأمنوا اليكم ثم تنقضونها وانما كرر هذا المعنى تأكيدا عليهم واظهارا لعظم امر نقض العهد قال المفسرون وهذا فى نهى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام نهاهم عن نقض عهده لان الوعيد الذى بعده وهو قوله سبحانه وتعالى فتزل قدم بعد ثبوتها لا يليق بنقض عهد غيره انما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وبشريعته وقوله (فتزل قدم بعد ثبوتها) مثل يذكر لكل من وقع فى بلاء ومحنة بعد عافية ونعمة أو سقط فى ورطة بعد سلامة تقول العرب لكل واقع فى بلاء بعد عافية زلت قدمه والمعنى فتزل أقدامكم عن محجة الاسلام بعد ثبوتها عليها (وتذوقوا السوء) يعنى العذاب (بما صددتم عن سبيل الله) يعنى بسبب صدكم غيركم عن دين الله وذلك لان من نقض العهد فقد علم غيره نقض العهد فيكون هو أقدمه على ذلك (ولكم عذاب عظيم) يعنى بنقضكم العهد (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) يعنى ولا تنقضوا عهودكم وتطلبوا بنقضها عوضا من الدنيا قليلا ولكن أوفوا بها (ان ماعند الله) يعنى فان ماعند الله من الثواب لكم على الوفاء بالعهد (هو خير لكم) يعنى من عاجل الدنيا (ان كنتم تعلمون) يعنى فضل ما بين العوضين ثم بين ذلك فقال تبارك وتعالى (ماعندكم ينفد) يعنى من متاع الدنيا ولذاتها يفنى ويذهب (وماعند الله باق) يعنى من ثواب الآخرة ونعيم الجنة (ولنجزين الذين صبروا) يعنى على الوفاء بالعهد على السراء والضراء (أجرهم) يعنى ثواب صبرهم (باحسن ما كانوا يعملون) عن ابى موسى الاشعرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقوله سبحانه وتعالى (من عمل صالحا من ذكر او أنثى وهو مؤمن) فان قلت من عمل صالحا يفيد العموم فما فائدة الذكر والانثى قلت هو مبهم صالح على الاطلاق للنوعين الا انه اذا ذكر واطلق كان الظاهر تناوله للذكر دون الانثى فقيل من ذكر أو أنثى على التبيين ليعلم الوعد للنوعين جميعا وجواب آخر وهو ان هذه الآية واردة بالوعد بالثواب والمبالغة فى تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة اثباتا للتأكيد وازالة لوهم التخصيص وقوله وهو مؤمن جعل الايمان شرطا فى كون العمل الصالح موجبا للثواب

واستضعافهم المسلمين ولما كانوا يعدونهم ان رجعوا من المواعيد ان ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبتهم الله (ان ماعند الله) من ثواب الآخرة (هو خير لكم ان كنتم تعلمون ماعندكم) من اعراض الدنيا (ينفد وماعند الله) من خزائن رحمته (باق) لا ينفد (ولنجزين) وبالنون مكى وعاصم (الذين صبروا) على أذى المشركين ومشاق الاسلام (أجرهم باحسن ما كانوا يعملون من عمل صالحا من ذكر أو انثى) من مبهم يتناول النوعين الا ان ظاهره للذكور فبين بقوله من ذكر أو انثى ليعم الموعد النوعين جميعا (وهو مؤمن) شرط الايمان لان اعمال الكفار غير معتد بها وهو يدل على ان العمل ليس من الايمان

(فلنحيينه حياة طيبة) اى فى الدنيا لقوله (ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون) وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وذلك ان المؤمن مع العمل الصالح موسرا كان اومعسرا يعيش عيشا طيبا ان كان موسرا فظاهر وان كان معسرا فعيشه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى واما الفاجر فامره بالعكس ان كان معسرا فظاهر وان كان موسرا فالحرص لا يدعه ان يتهنأ بعيشه وقيل الحياة الطيبة القناعة او حلاوة الطاعة او المعرفة بالله وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله والاعراض عما سوى الله (فاذا قرأت القرآن) فاذا اردت قراءة القرآن (فاستعذ بالله) فعبر عن ارادة الفعل بلفظ الفعل لانها سبب له والفاء للتعقيب اذ القراءة المصدرة بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور (من الشيطان) يعنى ابليس (الرجيم) المطرود أو الملعون قال ابن مسعود رضى الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقال لى قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا اقرأنيه جبريل عليه السلام (انه ليس له) لابليس (سلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فالمؤمن المتوكل لا يقبل منه وساوسه

(فلنحيينه حياة طيبة) قال سعيد بن جبير وعطاء هى الرزق الحلال وقال مقاتل هى العيش فى الطاعة وقيل هى حلاوة الطاعة وقال الحسن هى القناعة وقيل رزق يوم بيوم واعلم ان عيش المؤمن فى الدنيا وان كان فقيرا أطيب من عيش الكافر وان كان غنيا لان المؤمن لما علم ان رزقه من عند الله وذلك بتقديره وتدبيره وعرف ان الله محسن كريم متفضل لا يفعل الا الصواب فكان المؤمن راضيا عن الله وراضيا بما قدره الله له ورزقه اياه وعرف ان له مصلحة فى ذلك القدر الذى رزقه اياه فاستراحت نفسه من الكد والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر والجاهل بهذه الاصول الحريص على طلب الرزق فيكون أبدا فى حزن وتعب وعناء وحرص وكد ولا ينال من الرزق الا ما قدر له فظهر بهذا ان عيش المؤمن القنوع أطيب من عيشه وقال السدى الحياة الطيبة انما تحصل فى القبر لان المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة فى قوله فلنحيينه حياة طيبة هى الجنة وروى عوف عن الحسن قال لا تطيب لاحد الحياة الا فى الجنة لانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاوة فثبت بهذا ان الحياة الطيبة لا تكون الا فى الجنة ولقوله فى سياق الآية (ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون) لان ذلك الجزاء انما يكون فى الجنة ولقوله عز وجل (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لان النبى صلى الله عليه وسلم لما كان غير محتاج الى الاستعاذة وقد أمر بها فغيره اولى بذلك ولما كان الشيطان ساعيا فى القاء الوسوسة فى قلوب بنى آدم وكانت الاستعاذة بالله مانعة من ذلك فلهذا السبب أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالاستعاذة عند القراءة حتى تكون مصونة من وساوس الشيطان عن جبير بن مطعم انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال عمرو لا ادرى أى صلاة هى قال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخته ونفثته وهمزته قال نفخته الكبر ونفثته السحر وهمزته الموتة اخرجه ابو داود والموتة الجنون والفاء فى قوله فاستعذ بالله للتعقيب فظاهر لفظ الآية يدل على ان الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول ابى هريرة واليه ذهب مالك وجماعة وداود الظاهرى قالوا الان قارئ القرآن يستحق ثوابا عظيما وربما حصلت الوساوس فى قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أم لا فاذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقى الثواب مخلصا فاما مذهب الاكثرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار فقد اتفقوا على ان الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الآية اذا اردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله ومثله قوله سبحانه وتعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الخ ومثله من الكلام اذا اردت أن تأكل فقل بسم الله واذا اردت أن تسافر فتأهب وأيضا فان الوسوسة انما تحصل فى أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة اليها ومذهب عطاء انه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت فى الصلاة او فى غيرها واتفق سائر الفقهاء على ان الاستعاذة سنة فى الصلاة وغيرها وقد تقدمت هذه المسئلة والخلاف فيها فى أول سورة الفاتحة والاستعاذة الاعتصام بالله والالتجاء اليه من شر الشيطان ووسوسته والمراد من الشيطان ابليس وقيل هو اسم جنس يطلق على جميع المردة من الشياطين لان لهم قدرة على القاء الوسوسة فى قلوب بنى آدم باقدار الله اياهم على ذلك (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان فكان ذلك أوهم ان له قدرة على التصرف فى ابدان بنى آدم فازال الله سبحانه وتعالى هذا الوهم بقوله انه ليس له سلطان يعنى ليس له قدرة ولا ولاية على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون قال سفيان ليس له سلطان على أن يحملهم على

(انما سلطانه على الذين يتولونه) يتخذونه وليا ويتبعون وساوسه (والذين هم به مشركون) الضمير يعود الى ربهم او الى الشيطان اى بسببه (واذا بدلنا آية مكان آية) تبديل الآية مكان الآية هو النسخ والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة رآها وهو معنى قوله (والله أعلم بما ينزل) و بالتخفيف مكى وأبو عمرو (قالوا انما أنت مفتر) هو جواب اذا وقوله والله أعلم بما ينزل اعتراض كانوا يقولون ان محمدا يسخر باصحابه يأمرهم اليوم بامر وينهاهم عنه غدا فيأتيهم بما هو أهون واقد افتروا فقد كان ينسخ الاشق بالاهون والاهون بالاشق (بل أكثرهم لا يعلمون) الحكمة فى ذلك (قل نزله روح القدس) اى جبريل عليه السلام أضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد والمقدس المطهر من المآثم (من ربك) من عنده وأمره (بالحق) حال اى نزله ملتبسا بالحكمة (ليثبت الذين آمنوا) ليبلوهم بالنسخ حتى اذا قالوا فيه هو الحق من ربنا وانا الحكمة لانه حكيم لا يفعل الا ما هو حكمة وصواب حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب (وهدى وبشرى) مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت والتقدير تثبيتا لهم وارشادا و بشارة (للمسلمين) وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الخصال لغيرهم (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر) أرادوا به غلاما كان لحويطب قد أسلم وحسن اسلامه اسمه عائش او يعيش وكان صاحب كتب اوهو جبر غلام رومى لعامر بن الحضرمى او عبدان جبر ويسار كانا يقرآن التوراة والانجيل فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ما يقرآن او سلمان الفارسى

ذنب لا يغفر (١) و يظهر من هذا ان الاستعاذة انما تفيد اذا حضر بقلب الانسان كونه ضعيفا وانه لا يمكنه التحفظ من وسوسة الشيطان الا بعصمة الله ولهذا قال المحققون لا حول عن معصية الله الا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ثم قال تعالى (انما سلطانه على الذين يتولونه) يعنى يطيعونه ويدخلون فى ولايته يقال توليته اذا أطعته وتوليت عنه اذا أعرضت عنه (والذين هم به مشركون) يعنى بالله وقيل الضمير فى به راجع الى الشيطان والمعنى هم من اجله مشركون بالله قوله سبحانه وتعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل) وذلك ان المشركين من اهل مكة قالوا ان محمدا يسخر باصحابه يأمرهم اليوم بامر وينهاهم عنه غدا ما هو الا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه فانزل الله هذه الآية والمعنى واذا نسخنا حكم آية فابدلنا مكانه حكما آخر والله أعلم بما ينزل اعتراض دخل فى الكلام والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ و بما هو أصلح لخلقه و بما يغير و يبدل من احكامه اى هو العالم بجميع ذلك مما هو من مصالح عباده وهذا نوع توبيخ وتقريع للكفار على قولهم للنبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى (قالوا انما أنت مفتر) اى تختلقه من عندك والمعنى اذا كان الله تعالى أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدا الى الافتراء والكذب لاجل التبديل والنسخ وانما فائدة ذلك ترجع الى مصالح العباد كما يقال ان الطبيب يأمر المريض بشرب دواء ثم بعد ذلك ينهاه عنه و يأمره بغيره لما يرى فيه من المصلحة (بل أكثرهم لا يعلمون) يعنى لا يعلمون فائدة الناسخ وتبديل المنسوخ (قل) اى قل لهم يا محمد (نزله) يعنى القرآن (روح القدس) يعنى جبريل صلى الله عليه وسلم أضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير والمعنى الروح المقدس المطهر (من ربك) يعنى ان جبريل نزل بالقرآن من ربك يا محمد (بالحق ليثبت الذين آمنوا) يعنى ليثبت بالقرآن قلوب المؤمنين فيزدادوا ايمانا و يقينا (وهدى و بشرى) يعنى وهو هدى و بشرى (للمسلمين) * قوله عز وجل (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر) وذلك ان كفار مكة قالوا انما يتعلم هذه القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو آدمى مثله وليس هو من عند الله كما يزعم فاجابهم الله بقوله ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر واختلفوا فى ذلك البشر من هو فقال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قينا بمكة اسمه بلعام وكان نصرانيا أعجمى اللسان فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه و يخرج من عنده فكانوا يقولون انما يعلمه بلعام وقال عكرمة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئ غلاما لبنى المغيرة يقال له يعيش فكان يقرأ الكتب فقالت قريش انما يعلمه يعيش وقال محمد بن اسحق كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى كثيرا ما يجلس عند المروة الى غلام رومى نصرانى عبد لبعض بنى الحضرمى يقال له جبر وكان يقرأ الكتب وقال عبد الله بن مسلمة كان لنا عبدان من اهل عين التمر يقال لاحدهما يسار و يكنى ابا فكيهة و يقال للآخر جبر وكانا يصنعان السيوف بمكة وكانا يقرآن التوراة والانجيل بمكة فربما مر بهما النبى صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن فيقف و يستمع قال الضحاك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا آذاه الكفار يقعد اليهما فيترقح بكلامهما فقال المشركون انما يتعلم محمد منهما وقال الفراء قال المشركون انما يتعلم محمد

---

(١) قوله و يظهر من هذا ان اسم الاشارة راجع لما ذكره قبل قول سفيان كما يعلم من التحرفانه لم يذكر فى هذا المحل قول سفيان وذكر ما قبله وما بعده وعبارته صحيحة بخلاف ما هنا فانه يوهم رجوع اسم الاشارة لقول سفيان وهو غير ظاهر اه

(لسان الذى يلحدون اليه) و بفتح الياء والحاء حمزة وعلى (أعجمى وهذا لسان عربى مبين) اى لسان الرجل الذى يميلون

من عائش مملوك كان لحويطب بن عبد العزى كان نصرانيا وقد أسلم وحسن اسلامه وكان اعجميا وقيل هو عداس غلام عتبة بن ربيعة والحاصل ان الكفار اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا انما يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم انه يضيفها لنفسه و يزعم انه وحى من الله عز و جل وهو كاذب فى ذلك فاجاب الله عنه وانزل هذه الآية تكذيبا لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب فقال تعالى (لسان الذى يلحدون اليه) يعنى يميلون و يشيرون اليه (أعجمى) يعنى هو اعجمى والاعجمى هو الذى لا يفصح فى كلامه وان كان يسكن البادية ومنه سمى زياد الاعجمى لانه كان فى لسانه عجمة مع انه كان من العرب والعجمى منسوب الى العجم وان كان فصيحا بالعربية والاعرابى الذى يسكن البادية والعربى الذى يسكن الامصار من بلاد العرب وهو منسوب الى العرب (وهذا لسان عربى مبين) يعنى بين الفصاحة والبلاغة ووجه الجواب هو ان الذى يشيرون اليه رجل اعجمى فى لسانه عجمة تمنعه من الاتيان بفصيح الكلام ومحمد صلى الله عليه وسلم جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذى عجزتم انتم عنه وأنتم اهل الفصاحة والبلاغة فكيف يقدر من هو اعجمى على مثله وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذى يشيرون اليه فثبت بهذا البرهان ان الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحى اوحاه الله اليه وليس هو من تعليم الذى يشيرون اليه ولا هو أتى به من تلقاء نفسه بل هو وحى من الله عز و جل اليه وروى ان الرجل الذى كانوا يشيرون اليه أسلم وحسن اسلامه (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) يعنى لا يصدقون انها من عند الله (لا يهديهم الله) يعنى لا يرشدهم ولا يوفقهم للايمان (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة ثم اخبر الله سبحانه وتعالى ان الكفار هم المفترون فقال تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) يعنى انما يقدم على فرية الكذب من لا يؤمن بآيات الله فهو رد لقول كفار قريش انما أنت مفتر (وأولئك هم الكاذبون) يعنى فى قولهم انما يعلمه بشر لا محمد صلى الله عليه وسلم فان قلت قد قال تبارك وتعالى انما يفترى الكذب فما معنى قوله تعالى وأولئك هم الكاذبون والثانى هو الاول قلت قوله سبحانه وتعالى انما يفترى الكذب اخبار عن حال قولهم وقوله وأولئك هم الكاذبون نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره كذبت وأنت كاذب اى كذبت فى هذا القول ومن عادتك الكذب وفى الآية دليل على ان الكذب من أفحش الذنوب الكبار لان الكاذب المفترى هو الذى لا يؤمن بآيات الله روى البغوى باسناد الثعلبى عن عبد الله بن جراد قال قلت يا رسول الله المؤمن يزنى قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يسرق قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يكذب قال لا قال الله تعالى انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله قوله تعالى (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) نزلت فى عمار ابن ياسر وذلك ان المشركين أخذوه وأباه ياسرا وأمه سمية وصهيبا و بلالا وخبابا وسالما فعذبوهم ليرجعوا عن الاسلام فاما سمية أم عمار فانها ربطت بين بعيرين ووجئ قلبها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر فهما أول قتيلين قتلا فى الاسلام وأما عمار فانه اعطاهم بعض ما ارادوا بلسانه مكرها قال قتادة اخذ بنو المغيرة عمارا وغطوه فى بئر ميمون وقالوا له اكفر بمحمد فبايعهم على ذلك وقلبه كاره واخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فاتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وراءك قال شر يا رسول الله نلت منك وذكرت فقال كيف وجدت قلبك قال مطمئنا بالايمان فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال ان عادوا لك فعد لهم بما قلت فنزلت هذه الآية وقال مجاهد نزلت فى اناس من اهل مكة آمنوا فكتب اليهم بعض اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن هاجروا

قولهم عن الاستقامة اليه لسان أعجمى غير بين وهذا القرآن لسان عربى مبين ذو بيان وفصاحة رد لقولهم وابطال لطعنهم وهذه الجملة أعنى لسان الذى يلحدون اليه أعجمى لا محل لها لانها مستأنفة جواب لقولهم واللسان اللغة و يقال ألحد القبر ولحده وهو ملحد ولحود اذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر فى شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا ألحد فلان فى قوله والحد فى دينه ومنه الملحد لانه أمال مذهبه عن الاديان كلها (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) اى القرآن (لا يهديهم الله) ما داموا مختارين الكفر (ولهم عذاب أليم) فى الآخرة على كفرهم (انما يفترى الكذب) على الله (الذين لا يؤمنون بآيات الله) اى انما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن لانه لا يترقب عقابا عليه وهو رد لقولهم انما أنت مفتر (وأولئك) اشارة الى الذين لا يؤمنون اى وأولئك (هم الكاذبون) على الحقيقة الكاملون فى الكذب لان تكذيب آيات الله أعظم الكذب

اوو أولئك هم الكاذبون فى قولهم انما أنت مفتر جوزوا ان يكون (من كفر بالله من بعد ايمانه) شرطا مبتدا وحذف جوابه لان جواب من شرح دال عليه كأنه قيل من كفر بالله فعليهم غضب (الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) لكن به

البنا

(ولكن من شرح بالكفر صدرا) اى طاب به نفسا واعتقده (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) وان يكون بدلا من الذين لا يؤمنون بآيات الله على ان يجعل واولئك هم الكاذبون اعتراضا بين البدل والمبدل منه والمعنى انما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد ايمانه واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء ثم قال ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله وان يكون بدلا من المبتدا الذى هو اولئك اى ومن كفر بالله من بعد ايمانه هم الكاذبون او من الخبر الذى هو الكاذبون اى واولئك هم من كفر بالله من بعد ايمانه وان ينتصب على الذم روى ان ناسا من أهل مكة فتنوا فارتدوا وكان فيهم من اكره فاجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للايمان منهم عمار وأما أبواه ياسر وسمية فقد قتلا وهما اول قتيلين فى الاسلام فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فاتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت وما فعل ابو عمار افضل لان فى الصبر على القتل اعزازا للاسلام (ذلك) اشارة الى الوعيد وهو لحوق الغضب والعذاب العظيم (بانهم استحبوا) آثروا (الحيوة الدنيا على الآخرة) اى بسبب ايثارهم الدنيا على الآخرة (وان الله لا يهدى القوم الكافرين) مادامو اختارين للكفر (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فلا يتدبرون ولا يصغون الى المواعظ ولا يبصرون طريق الرشاد (وأولئك هم الغافلون) اى الكاملون فى الغفلة لان الغفلة عن تدبر العواقب هى غاية الغفلة ومنتهاها (لا جرم أنهم فى الآخرة

الينا فانا لا نراكم مناحتى تهاجر والخرجوا بريدون المدينة فادركتهم قريش فى الطريق ففتنوهم عن دينهم فكفروا كارهين وهذا القول ضعيف لان الآية مكية وكان هذا فى أول الاسلام قبل ان يؤمروا بالهجرة وقال مقاتل نزلت فى جبر مولى عامر بن الحضرمى أكرهه سيده على الكفر فكفر مكرها وقلبه مطمئن بالايمان ثم اسلم عامر بن الحضرمى مولى جبر وحسن اسلامه وهاجر الى المدينة والاولى أن يقال ان الآية عامة فى كل من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان وان كان السبب خاصا فان قلت المكره على الكفر ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر فما معنى هذا الاستثناء فى الامن أكره قلت المكره لما ظهر منه بعد الايمان ما شابه ما يظهر من الكافر طوعا صح هذا الاستثناء لهذه المشابهة والمشاكلة والله اعلم

* (فصل فى حكم الآية) * قال العلماء يجب أن يكون الاكراه الذى يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر أن يعذب بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل والضرب الشديد والايلامات القوية مثل التحريق بالنار ونحوه قال العلماء أول من أظهر الاسلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة ابو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وأبوه ياسر وأمه سمية فاما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله من اذى المشركين بعمه ابى طالب وأما ابو بكر فمنعه قومه وعشيرته واخذ الآخرون وألبسوا ادراع الحديد وأجلسوا فى حر الشمس بمكة فاما بلال فكانوا يعذبونه وهو يقول احد احد حتى اشتراه ابو بكر وأعتقه وقتل ياسر وسمية كما تقدم وقال خباب لقد اوقدوا لى نارا ما اطفاها الا ودك ظهرى واجمعوا على ان من أكره على الكفر لا يجوز له ان يتلفظ بكلمة الكفر تصريحا بل يأتى بالمعاريض وبما يوهم انه كفر فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الايمان غير معتقد ما يقوله من كلمة الكفر ولو صبر حتى قتل كان أفضل لان ياسرا وسمية قتلا ولم يتلفظا بكلمة الكفر ولان بلالا صبر على العذاب ولم يلم على ذلك قال العلماء من الافعال ما يتصور الاكراه عليها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والميتة ونحوها فمن أكره بالسيف او القتل على ان يشرب الخمر او يأكل الميتة او لحم الخنزير او نحوها جاز له ذلك لقوله تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة وقيل لا يجوز له ذلك ولو صبر كان أفضل ومن الافعال ما لا يتصور الاكراه عليه كالزنا لان الاكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع انتشار الآلة فلا يتصور فيه الاكراه واختلف العلماء فى طلاق المكره فقال الشافعى رضى الله تعالى عنه وأكثر العلماء لا يقع طلاق المكره وقال أبو حنيفة يقع حجة الشافعى ومن وافقه قوله سبحانه وتعالى لا اكراه فى الدين ولا يمكن ان يكون المراد نفى ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفى آثاره والمعنى انه لا أثر له ولا عبرة به وقوله تعالى وقلبه مطمئن بالايمان فيه دليل على ان محل الايمان هو القلب (ولكن من شرح بالكفر صدرا) يعنى فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضى به (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) يعنى فى الآخرة (ذلك بانهم استحبوا الحيوة الدنيا على الآخرة) يعنى يكون ذلك الاقدام على الارتداد الى الكفر لاجل انهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة (وان الله لا يهدى القوم الكافرين) يعنى لا يرشدهم الى الايمان ولا يوفقهم للعمل به (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) تقدم تفسيره (وأولئك هم الغافلون) يعنى عما يراد بهم من العذاب فى الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى (لا جرم انهم فى الآخرة

هم الخاسرون) يعنى ان الانسان انما يعمل فى الدنيا ليربح فى الآخرة فاذا دخل النار بان خسرانه وظهر غبنه لانه ضيع رأس ماله وهو الايمان ومن ضيع رأس ماله فهو خاسر * قوله عز وجل (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا) يعنى عذبوا ومنعوا من الدخول فى الاسلام فتنهم المشركون (ثم جاهدوا وصبروا) على الايمان والهجرة والجهاد (ان ربك من بعدها) يعنى من بعد الفتنة التى فتنوها (لغفور رحيم) نزلت هذه الآية فى عياش بن أبى ربيعة وكان أخا ابى جهل من الرضاعة وقيل كان أخاه لامه وفى ابى جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن الوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبد الله بن اسد الثقفى فتنهم المشركون وعذبوهم فاعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ثم انهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا وقال الحسن وعكرمة نزلت هذه الآية فى عبد الله بن ابى سرح كان قد اسلم وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فاستزله الشيطان فارتد ولحق بدار الحرب فلما كان يوم فتح مكة أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجاره عثمان وكان أخاه لامه فاجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسلم وحسن اسلامه وهذا القول انما يصح اذا قلنا ان هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة فتكون من الآيات المدنيات فى السور المكيات والله أعلم بحقيقة ذلك قوله سبحانه وتعالى (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) يعنى تخاصم وتحتج عن نفسها اى بما اسلفت من خير وشر اشتغلت بالمجادلة لا تتفرغ الى غيرها فان قلت النفس هى نفس واحدة وليس لها نفس أخرى فما معنى قوله كل نفس تجادل عن نفسها قلت ان النفس قد يراد بها بين الانسان وقد يراد بها مجموع ذاته وحقيقته فالنفس الاولى هى مجموع ذات الانسان وحقيقته والنفس الثانية هى بدنه فهى عينها وذاتها ايضا والمعنى يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته ولا يهمه غيره ومعنى هذه المجادلة الاعتذار بما لا يقبل منه كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك من الاعتذارات (وتوفى كل نفس ما عملت) يعنى جزاء ما عملت فى الدنيا من خير او شر (وهم لا يظلمون) يعنى لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيأ بل يوفون ذلك كاملا من غير زيادة ولا نقصان روى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب الاحبار خوفنا فقال يا أمير المؤمنين والذى نفسى بيده لو وافيت القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لاتت عليك ساعات وأنت لا يهمك الا نفسك وان جهنم لتزفر زفرة ما يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الا جثا على ركبتيه حتى ابراهيم خليل الرحمن يقول يا رب لا أسألك الا نفسى وان تصديق ذلك فيما أنزل الله تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وروى عكرمة عن ابن عباس فى هذه الآية قال ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد فتقول الروح يا رب لم تكن لى يد أبطش بها ولا رجل أمشى بها ولا عين أبصر بها وتقول الجسد يا رب أنت خلقتنى كالخشبة ليست لى يد أبطش بها ولا رجل أمشى بها ولا عين أبصر بها فجاء هذا الروح كشعاع النور فبه نطق لسانى وبه أبصرت عيناى وبه مشت رجلاى فضرب الله لهما مثلا أعمى ومقعد دخلا حائطا يعنى بستانا فيه ثمار فالاعمى لا يبصر الثمر والمقعد لا يناله فحمل الاعمى المقعد فاصابا من الثمر فعليهما العذاب * قوله عز وجل (وضرب الله مثلا قرية) المثل عبارة عن قول فى شئ يشبه قولا فى شئ آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره وقيل هو عبارة عن المشابهة لغيره فى معنى من المعانى اى معنى كان وهو أعم الالفاظ الموضوعة للمشابهة قال الامام فخر الدين الرازى المثل قد يضرب بشئ موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشئ موجودا أو لم يكن وقد يضرب بشئ موجود معين فهذه القرية التى ضرب الله بها هذا المثل يحتمل ان تكون شيأ مفروضا ويحتمل ان تكون قرية معينة وعلى التقدير الثانى فتلك القرية يحتمل ان تكون مكة او غيرها والاكثر

كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محميا منقوعا غير مضرور (من بعد ما فتنوا) بالعذاب والاكراه على الكفر فتنوا شامى اى بعد ما عذبوا المؤمنين ثم أسلموا (ثم جاهدوا) المشركين بعد الهجرة (وصبروا) على الجهاد (ان ربك من بعدها) من بعد هذه الافعال وهى الهجرة والجهاد والصبر (لغفور) لهم لما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقية (رحيم) لا يعذبهم على ما قالوا فى حالة الاكراه (يوم تأتى) منصوب برحيم او باذكر (كل نفس تجادل عن نفسها) وانما اضيفت النفس الى النفس لانه يقال لعين الشئ وذاته نفسه وفى نقيضه غيره والنفس الجملة كما هى فالنفس الاولى هى الجملة والثانية عينها وذاتها فكانه قيل يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول نفسى نفسى ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم هؤلاء اضلونا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا الآية والله ربنا ما كنا مشركين (وتوفى كل نفس ما عملت) تعطى جزاء عملها وافيا (وهم لا يظلمون) فى ذلك (وضرب الله مثلا قرية) اى جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم انعم الله عليهم فابطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فانزل الله بهم نقمته من فيجوز ان يراد قرية مقدرة على هذه الصفة وان تكون فى قرى الاولين قرية كانت هذه حالها فضرب بها الله مثلا لمكة انذارا لمن مثل عاقبتها

من المفسرين على انها مكة والاقرب انها غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة وقال الزمخشري في كتابه الكشاف وضرب الله مثلا قرية اي جعل القرية التي هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فابطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فانزل الله بهم نقمته فيجوز ان ترادقرية مقدرة على هذه الصفة وان تكون في قرى الاولين قرية كانت هذه حالها فضرب بها الله مثلا لمكة انذارا من مثل عاقبتها وقال الواحدي ضرب المثل ببيان المشبه والمشبه به وههنا ذكر المشبه به ولم يذكر المشبه لوضوحه عند المخاطبين والآية عند عامة المفسرين نازلة في أهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الامن والنعمة بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم فتقدير الآية ضرب الله مثلا القريتكم اي بين الله لها شبها ثم قال قرية فيجوز ان تكون القرية بدلا من مثلا لانها هي المثل بها ويجوز ان يكون المعنى ضرب الله مثلا امثل قرية فحذف المضاف هذا قول الزجاج والمفسرون كلهم قالوا اراد بالقرية مكة يعنون انه اراد مكة في تمثيلها بقرية صفتها ماذكر وقال ابن الجوزي في هذه القرية قولان أحدهما انها مكة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وهو الصحيح والثاني انها قرية اوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع قاله الحسن واقول هذه الآية نزلت بالمدينة في قول مقاتل وبعض المفسرين وهو الصحيح لان الله سبحانه وتعالى وصف هذه القرية بصفات ستة كانت هذه الصفات موجودة في أهل مكة فضرب بها الله مثلا لاهل المدينة يحذرهم ان يصنعوا مثل صنيعهم فيصيبهم ما أصابهم من الجوع والخوف ويشهد لصحة ماقلت ان الخوف المذكور في هذه الآية في قوله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف هو البعوث والسرايا التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعثها في قول جميع المفسرين لان النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالقتال وهو بمكة وانما أمر بالقتال لما هاجر الى المدينة فكان يبعث البعوث والسرايا الى حول مكة يخوفهم بذلك وهو بالمدينة والله أعلم بمراده وأما تفسير قوله تعالى وضرب الله مثلا قرية يعني مكة (كانت آمنة) يعني ذات أمن لايهاج أهلها ولا يغار عليهم (مطمئنة) يعني قارة باهلها لايحتاجون الى الانتقال عنها للانتجاع كما كان يحتاج اليه سائر العرب (يأتيها رزقها رغدا) يعني واسعا (من كل مكان) يعني يحمل اليها الرزق والميرة من البر والبحر نظيره قوله سبحانه وتعالى يجبى اليه ثمرات كل شئ وذلك بدعوة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وهو قوله وارزق أهله من الثمرات (فكفرت) يعني هذه القرية والمراد أهلها (بانعم الله) جمع نعمة والمراد بها سائر النعم التي أنعم الله بها على أهل مكة فلما قابلوا نعم الله التي أنعم بها عليهم بالجحود والكفر لاجرم ان الله تعالى انتقم منهم فقال تعالى (فاذاقها الله لباس الجوع والخوف) وذلك ان الله سبحانه وتعالى ابتلاهم بالجوع سبع سنين فقطع عنهم المطر وقطعت عنهم العرب الميرة بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا فاكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب والميتة والعهن وهو الوبر يعالج بالدم ويخلط به حتى يؤكل حتى كان أحدهم ينظر الى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ثم ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقالوا ماهذا هلك عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس في حمل الطعام اليهم وهم بعد مشركون والخوف يعني خوف بعوث النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه التي كان يبعثها للاغارة فكانت تطيف بهم وتغير على من حولهم من العرب فكان أهل مكة يخافونهم فان قلت الاذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما والاذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة ايقاعها عليه وهو ان اللباس لايذاق بل يلبس فيقال كساهم الله لباس الجوع او يقال فاذاقهم الله طعم الجوع قلت قال صاحب الكشاف اما الاذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد ومايمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر واذاقه العذاب

(كانت آمنة) من القتل والسبي (مطمئنة) لايزعجها خوف لان الطمأنينة مع الامن والانزعاج والقلق مع الخوف (يأتيها رزقها رغدا) واسعا (من كل مكان) من كل بلد (فكفرت) أهلها (بانعم الله) جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وادرع او جمع نعم كبؤس وأبؤس (فاذاقها الله لباس الجوع والخوف

بما كانوا يصنعون) الاذاقة واللباس استعارتان والاذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ووجه صحة ذلك ان الاذاقة جارية عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد ومايمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر واذاقه العذاب شبه مايدرك من أثر الضرر والالم بما يدرك من طعم المر والبشع واما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ماغشي الانسان والتبس به من بعض الحوادث واما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف فلانه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل فاذاقهم ماغشيهم من الجوع والخوف (ولقد جاءهم رسول منهم) اى محمد صلى الله عليه وسلم (فكذبوه فاخذهم العذاب وهم ظالمون) اى في حال التباسهم بالظلم قالوا انه القتل بالسيف يوم بدر روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه الى أهل مكة في سنى القحط بطعام ففرق فيهم فقال الله لهم بعد ان اذاقهم الجوع (فكلوا مما رزقكم الله) على يدى محمد صلى الله عليه وسلم (حلالا طيبا) بدلا عما كنتم تأكلونه حراما خبيثا من الاموال المأخوذة بالغارات والغصوب وخبائث المكسوب (واشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون) تطيعون اوان صح زعمكم انكم تعبدون الله بعبادة الآلهة لانها شفعاؤكم عنده ثم عدد عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم باهوائهم فقال (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما

شبه مايدرك من أثر الضرر والالم بما يدرك من طعم المر والبشع واما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ماغشي الانسان والتبس به من بعض الحوادث واما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف فلانه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل فاذاقهم ماغشيهم من الجوع والخوف ثم ذكر بعده من علم المعاني والبيان مايشهد لصحة ماقال وقال الامام فخر الدين الرازي جوابه من وجوه الاول ان الاحوال التي حصلت لهم عند الجوع نوعان أحدهما ان المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كانهم يذوقون الجوع والثاني ان ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كانه أحاط بهم من كل الجهات فاشبه اللباس والحاصل انه حصل لهم في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فاذاقها الله لباس الجوع والخوف الوجه الثاني ان التقدير ان الله عرفها أثر لباس الجوع والخوف الا انه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الاذاقة وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار تقول ناظر فلانا وذق ماعنده قال الشاعر

ومن يذق الدنيا فاني طعمتها * وسيق الينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف ماظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونكهة البدن وتغير الحال وكسوف البال كما تقول تعرفت سوء أثر الجوع والخوف على فلان كذلك يجوز ان تقول ذقت لباس الجوع والخوف على فلان الوجه الثالث ان يحمل لفظ الذوق واللبس على المماسة فصار التقدير فاذاقها الله مماس الجوع والخوف ثم قال تعالى (بما كانوا يصنعون) ولم يقل بما صنعت لانه أراد اهل القرية والمعنى فعلنا بهم مافعلنا بسبب ما كانوا يصنعون وهذا مثل اهل مكة لانهم كانوا في الامن والطمأنينة والخصب ثم أنعم الله عز وجل عليهم بالنعمة العظيمة وهي ارسال محمد صلى الله عليه وسلم اليهم وهو منهم فكفروا به وكذبوه وبالغوا في ايذائه وأرادوا قتله فاخرجه الله من بينهم وأمره بالهجرة الى المدينة وسلط على أهل مكة البلاء والشدائد والجوع والخوف كل ذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه من بين أظهرهم قوله سبحانه وتعالى (ولقد جاءهم) يعني اهل مكة (رسول منهم) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم يعرفون نسبه ويعرفونه قبل النبوة وبعدها (فكذبوه فأخذهم العذاب) يعني الجوع والخوف وقيل القتل يوم بدر والقول الاول اولى لما تقدم في الآية (وهم ظالمون) يعني كافرون (فكلوا مما رزقكم الله) في المخاطبين بهذا قولان أحدهما انهم المسلمون وهو قول جمهور المفسرين والثاني انهم هم المشركون من أهل مكة قال الكلبي لما اشتد الجوع باهل مكة كلم رؤساؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا انك انما عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس ان يحملوا الطعام اليهم حكاه الواحدي وغيره والقول الاول هو الصحيح قال ابن عباس فكلوا يامعشر المؤمنين مما رزقكم الله يريد الغنائم (حلالا طيبا) يعني ان الله سبحانه وتعالى أحل الغنائم لهذه الامة وطيبها لهم ولم تحل لاحد قبلهم (واشكروا نعمة الله) يعني التي أنعم بها عليكم (ان كنتم اياه تعبدون انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) تقدم تفسير هذه الآية واحكامها في سورة البقرة فلم نعده هنا وقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) يعني ولا تقولوا لاجل وصف ألسنتكم الكذب

أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) انما للحصر اى المحرم هذا دون البحيرة وأخواتها وباقي الآية قد مر تفسيره (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) هو منصوب بلا تقولوا اى ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة

في قولكم ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير استناد ذلك الوصف الى الوحي او الى القياس المستنبط منه واللام مثلها في قولك لا تقولوا لما أحل الله هو حرام وقوله (هذا حلال وهذا حرام) بدل من الكذب ولك ان تنصب الكذب بتصف وتجعل ما مصدرية وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا اى ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام وهذا الوصف ألسنتكم الكذب اى ولا تحرموا ولا تحللوا لاجل قول تنطق به السنتكم ويجول في افواهكم لا لاجل حجة وبينة ١٥٣ ولكن قول ساذج ودعوى بلا برهان

(هذا حلال وهذا حرام) يعني أنكم تحلون وتحرمون لاجل الكذب لا لغيره فليس لتحليلكم وتحريمكم معنى وسبب الا الكذب فقط فلا تفعلوا ذلك قال مجاهد يعني البحيرة والسائبة وقال ابن عباس يعني قولهم ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وذلك ان العرب في الجاهلية كانوا يحللون أشياء ويحرمون أشياء من عند أنفسهم و ينسبون ذلك الى الله تعالى وهو قوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) يعني لا تقولوا ان الله أمرنا بذلك فتكذبوا على الله لان وصفهم الكذب هو افتراء على الله ثم توعد المفترين للكذب فقال سبحانه وتعالى (ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) يعني لا ينجون من العذاب وقيل لا يفوزون بخير لان الفلاح هو الفوز بالخير والنجاح ثم بين ان ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب فقال تعالى (متاع قليل) يعني متاعهم في الدنيا متاع قليل فانه لا بقاء له (ولهم عذاب أليم) يعني في الآخرة (وعلى الذين هادوا) يعني اليهود (حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) يعني ما سبق ذكره و بيانه في سورة الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر الآية (وما ظلمناهم) يعني بتحريم ذلك عليهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعني انما حرمنا عليهم ما حرمنا بسبب بغيهم وظلمهم أنفسهم ونظيره قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وقوله تعالى (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) المقصود من هذه الآية بيان فضل الله وكرمه وسعة مغفرته ورحمته لان السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصي وكل ما لا ينبغي وكل من عمل السوء فانما يفعله بالجهالة لان العاقل لا يرضى بفعل القبيح فمن صدر عنه فعل قبيح من كفر او معصية فانما يصدر عنه بسبب جهله اما بالجهله بقدر ما يترتب عليه من العقاب او بجهله بقدر من يعصيه فثبت بهذا ان فعل السوء انما يفعل بجهالة ثم ان الله تعالى وعد من عمل سوءا بجهالة ثم تاب وأصلح العمل في المستقبل أن يتوب عليه و يرحمه وهو قوله تعالى (ثم تابوا من بعد ذلك) يعني من بعد عمل ذلك السوء (وأصلحوا) يعني اصلحوا العمل في المستقبل وقيل معنى الاصلاح الاستقامة على التوبة (ان ربك من بعدها) يعني من بعد عمل السوء بالجهالة والتوبة منه (لغفور) يعني لمن تاب وآمن (رحيم) يعني بجميع المؤمنين والتائبين قوله سبحانه وتعالى (ان ابراهيم كان أمة) حكى ابن الجوزي عن ابن الانباري انه قال هذا مثل قول العرب فلان رحمة وفلان علامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث قصد المبالغة في المعنى الذي يصفونه به والعرب توقع الاسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد كقوله تبارك وتعالى فنادته الملائكة وانما ناداه جبريل وحده وانما سمي ابراهيم صلى الله عليه وسلم أمة لانه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير والاخلاق الحميدة ما اجتمع في أمة ومنه قول الشاعر

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

ثم المفسرين في معنى هذه اللفظة أقوال احدها قول ابن مسعود الامة معلم الخير يعني انه كان معلما للخير يأتم به أهل الدنيا الثاني قال مجاهد انه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار فلهذا المعنى كان امة وحده

وقوله تصف ألسنتكم الكذب من فصيح الكلام جعل قولهم كأنه عين الكذب فاذا نطقت به السنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولك وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر واللام في (لتفتروا على الله الكذب) من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض (ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب اليم) هو خبر مبتدا محذوف اى منفعتهم فيما هم عليه من افعال الجاهلية منفعة قليلة وعذابها عظيم (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) في سورة الانعام يعني وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر الآية (وما ظلمناهم) بالتحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فحرمنا عليهم عقوبة على معاصيهم (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) في موضع الحال اى عملوا السوء

جاهلين غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ومرادهم لذة الهوى لا عصيان المولى (ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور) بتكفير ما كثروا قبل من الجرائم (رحيم) بتوثيق ما وثقوا عليه من العزائم (ان ابراهيم كان أمة) انه كان وحده أمة من الامم لكماله في جميع صفات الخير كقوله ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد وعن مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفارا وكان امة يعني مأموما يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير

(قانتا لله) هو القائم بما أمره الله وقال ابن مسعود رضى الله عنه ان معاذا كان أمة قانتا لله فقيل له انما هو ابراهيم عليه السلام فقال الامة
الذى يعلم الخير والقانت المطيع لله ١٥٤ ورسوله وكان معاذ كذلك وقال عمر رضى الله عنه لو كان معاذ حيا لاستخلفته فانى سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ابو عبيدة امين هذه الامة ومعاذ أمة قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة الا المرسلون (حنيفا) مائلا عن الاديان الى ملة الاسلام (ولم يك من المشركين) نفى عنه الشرك تكذيبا لكفار قريش لزعمهم انهم على ملة أبيهم ابراهيم وحذف النون للتشبيه بحروف اللين (شاكرا لانعمه) روى انه كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فاخر غداءه فاذا هو بفوج من الملائكة فى صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخملوا له ان بهم جذاما فقال الآن وجبت مؤاكلتكم شكرا لله على انه عافانى وابتلاكم (اجتباه) اختصه واصطفاه للنبوة (وهداه الى صراط مستقيم) الى ملة الاسلام (وآتيناه فى الدنيا حسنة) نبوة وأموالا وأولادا او تنويه الله بذكره فكل أهل دين يتولونه او قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) لمن أهل الجنة (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) فى ثم تعظيم منزلة نبينا عليه السلام واجلال محله والايذان بان أشرف ما أوتى خليل الله من الكرامة اتباع رسولنا ملته (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) اى فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله أمة وحده وانما قال فيه هذه المقالة لانه كان قد فارق الجاهلية وما كانوا عليه من عبادة الاصنام الثالث قال قتادة ليس من أهل دين الا وهم يتولونه ويرضونه وقيل الامة فعلة بمعنى مفعولة وهو الذى يؤتم به وكان ابراهيم عليه السلام اماما يقتدى به دليله قوله سبحانه وتعالى انى جاعلك للناس اماما وقيل انه عليه السلام هو السبب الذى لاجله جعلت أمته ومن تبعه ممتازين عمن سواهم بالتوحيد لله والدين الحق وهو من باب اطلاق المسبب على السبب وقيل انما سمى ابراهيم عليه السلام امة لانه قام مقام أمة فى عبادة الله (قانتا لله) يعنى مطيعا لله وقيل هو القائم بأوامر الله (حنيفا) مسلما يعنى مقيما على دين الاسلام لا يميل عنه ولا يزول وهو أول من اختتن وضحى واقام مناسك الحج (ولم يك من المشركين) يعنى انه عليه السلام كان من الموحدين المخلصين من صغره الى كبره (شاكرا لأنعمه) يعنى انه كان شاكرا لله على أنعمه التى انعم بها عليه (اجتباه) اى اختاره لنبوته واصطفاه لخلته (وهداه الى صراط مستقيم) يعنى هداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم (وآتيناه فى الدنيا حسنة) يعنى الرسالة والخلة وقيل هى لسان الصدق والثناء الحسن والقبول العام فى جميع الامم فان الله حببه الى جميع خلقه فكل اهل الاديان يتولونه المسلمون واليهود والنصارى ومشركو العرب وغيرهم وقيل هو قول المصلى فى التشهد اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل انه آتاه اولادا أبرارا على الكبر (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) يعنى فى اعلى مقامات الصالحين فى الجنة وقيل معناه وانه فى الآخرة مع الصالحين يعنى الانبياء فى الجنة فتكون من بمعنى مع ولما وصف الله عز وجل ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات الشريفة العالية أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال تعالى (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم) يعنى دينه وما كان عليه من الشريعة والتوحيد قال أهل الاصول كان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة ابراهيم الا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعا له وقال ابو جعفر الطبرى أمره باتباعه فى التبرى من الاوثان والتدين بدين الاسلام وهو قوله (حنيفا) مسلما (وما كان من المشركين) تقدم تفسيره وقوله تعالى (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) يعنى انما فرض تعظيم السبت على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود روى الكلبى عن ابى صالح عن ابن عباس قال امرهم موسى بتعظيم يوم الجمعة فقال تفرغوا لله فى كل سبعة أيام يوما فاعبدوه وفى يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيأ من صنعتكم وستة أيام اصنعتكم فابوا عليه وقالوا لا نريد الا اليوم الذى فرغ الله فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام ايضا بيوم الجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا يعنون اليهود فاتخذوا الاحد فاعطى الله عز وجل الجمعة لهذه الامة فقبلوها فبورك لهم فيها (ق) عن ابى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا فاختلفوا فيه وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع فغد لليهود وبعد غد للنصارى وفى رواية لمسلم نحن الآخرون الاولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة وفى رواية أخرى له قال أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الاحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والاحد وكذلك هم لنا تبع يوم القيامة نحن الآخرون فى الدنيا الاولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق قال الشيخ محيى الدين النووى فى شرح مسلم قال العلماء فى معنى

الحديث نحن الآخرون فى الزمان والوجود السابقون فى الفضل ودخول الجنة فتدخل هذه الامة الجنة قبل سائر الامم وقوله بيد انهم يعنى غير انهم اوالا انهم وقوله فهذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له قال القاضى عياض الظاهر انه فرض عليهم تعظيم يوم الجمعة بغير تعيين ووكل الى اجتهادهم لاقامة شرائعهم فيه فاختلف احبارهم فى تعيينه ولم يهدهم الله له وفرضه على هذه الامة مبينا ولم يكلهم الى اجتهادهم فغاز وا بفضيلته قال يعنى القاضى عياضا وقد جاء ان موسى عليه السلام امرهم بيوم الجمعة واعلمهم بفضله فناظروه ان السبت أفضل فقيل له دعهم قال القاضى ولو كان منصوصا عليه لم يصح اختلافهم فيه بل كان يقول خالفوا فيه قال الشيخ محيى الدين النووى ويمكن أن يكونوا أمروا به صريحا ونص على عينه فاختلفوا فيه هل يلزم تعيينه ام لم يبدا له فابدلوه وغلطوا فى ابداله قال الامام فخر الدين الرازى فى قوله تعالى على الذين اختلفوا فيه يعنى على نبيهم موسى حيث امرهم بالجمعة فاختاروا السبت فاختلافهم فى السبت كان اختلافا على نبيهم فى ذلك اليوم اى لاجله وليس معنى قوله اختلفوا فيه ان اليهود اختلفوا فمنهم من قال بالسبت ومنهم من لم يقل به لان اليهود اتفقوا على ذلك وزادا الواحدى على هذا فقال وهذا مما أشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم معنى الاختلاف فى السبت ان بعضهم قال هو أعظم الايام حرمة لان الله فرغ فيه من خلق الاشياء وقال الآخرون بل الاحد أفضل لان الله سبحانه وتعالى ابتدأ فيه بخلق الاشياء وهذا غلط لان اليهود لم يكونوا فريقين فى السبت وانما اختار الاحد النصارى بعدهم بزمان طويل فان قلت ان اليهود انما اختاروا السبت لان أهل الملل اتفقوا على ان الله خلق الخلق فى ستة أيام وبدأ بالخلق والتكوين فى يوم الاحد وتم الخلق يوم الجمعة وكان يوم السبت يوم فراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا فى ترك العمل فى هذا اليوم فاختاروا السبت لهذا المعنى وقالت النصارى انما بدأ بخلق الاشياء فى يوم الاحد فنحن نجعل هذا اليوم عيدا لنا وهذان الوجهان معقولان فما وجه فضل يوم الجمعة حتى جعله أهل الاسلام عيدا قلت يوم الجمعة أفضل الايام لان كمال الخلق وتمامه كان فيه وحصول التمام والكمال يوجب الفرح والسرور فجعل يوم الجمعة عيدا بهذا الوجه وهو أولى ووجه آخر وهو ان الله عز وجل خلق فيه أشرف خلقه وهو آدم عليه السلام وهو أبو البشر وفيه تاب عليه فكان يوم الجمعة أشرف الايام لهذا السبب ولان الله سبحانه وتعالى اختار يوم الجمعة لهذه الامة وادخره لهم ولم يختر والانفسهم شيأ وكان ما اختاره الله لهم أفضل مما اختاره غيرهم لانفسهم وقال بعض العلماء بعث الله موسى بتعظيم يوم السبت ثم نسخ بيوم الاحد فى شريعة عيسى عليه السلام ثم نسخ يوم السبت ويوم الاحد بيوم الجمعة فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فكان أفضل الايام يوم الجمعة كما ان محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء وفى معنى الآية قول آخر قال قتادة الذين اختلفوا فيه اليهود استحله بعضهم وحرمه بعضهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله انما جعل السبت اى وبال السبت ولعنته على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود فاحله بعضهم فاصطادوا فيه فلعنوا ومسخوا قردة وخنازير فى زمن داود عليه السلام وقد تقدمت القصة فى تفسير سورة الاعراف وبعضهم ثبت على تحريمه فلم يصطد فيه شيأ وهم الناهون والقول الاول أقرب الى الصحة وقوله تعالى (وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يعنى فى أمر السبت فيحكم الله بينهم يوم القيامة فيجازى المحقين بالثواب والمبطلين بالعقاب * قوله عز وجل (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) يعنى ادع الى دين ربك يا محمد وهو دين الاسلام بالحكمة يعنى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهى الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة والموعظة الحسنة يعنى وادعهم الى الله بالترغيب والترهيب وهو انه لا يخفى عليهم انك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم (وجادلهم بالتى هى أحسن) يعنى بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من

للعبادة وان يكون يوم الجمعة فابوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الاشرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم فى السبت لان بعضهم اختاروه وبعضهم اختاروا عليه الجمعة فاذن الله لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون واعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازى كل واحد من الفريقين بما هو اهله (ادع الى سبيل ربك) الى الاسلام (بالحكمة) بالمقالة الصحيحة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة (والموعظة الحسنة) وهى التى لا يخفى عليهم انك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها وبالقرآن اى ادعهم بالكتاب الذى هو حكمة وموعظة حسنة والحكمة المعرفة بمراتب الافعال والموعظة الحسنة ان يخلط الرغبة بالرهبة والانذار بالبشارة (وجادلهم بالتى هى أحسن) بالطريقة التى هى أحسن طرق

غير فظاظة ولا تعنيف وقيل ان الناس اختلفوا وجعلوا ثلاثة أقسام القسم الاول هم العلماء الكاملون اصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها فهؤلاء هم المشار اليهم بقوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة يعنى ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشياء بحقائقها حتى ينتفعوا وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثانى هم اصحاب الفطرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان فهم اوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله والموعظة الحسنة اى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة والقسم الثالث هم اصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار اليهم بقوله وجادلهم بالتى هى أحسن حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه وقيل المراد بالحكمة القرآن يعنى ادعهم بالقرآن الذى هو حكمة وموعظة حسنة وقيل المراد بالحكمة النبوة اى ادعهم بالنبوة والرسالة والمراد بالموعظة الحسنة الرفق واللين فى الدعوة وجادلهم بالتى هى أحسن اى اعرض عن اذاهم ولا تقصر فى تبليغ الرسالة والدعاء الى الحق فعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ بآية السيف (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) يعنى انما عليك يا محمد تبليغ ما أرسلت به اليهم ودعاؤهم بهذه الطرق الثلاثة وهو أعلم بالفريقين الضال والمهتدى فيجازى كل عامل بعمله قوله سبحانه وتعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) نزلت هذه الآية بالمدينة فى سبب شهداء أحد وذلك ان المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلى المسلمين يوم احد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين الا مثل به غير حنظلة ابن ابى عامر الراهب وذلك ان أباه ابا عامر الراهب كان مع ابى سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن أظهرنا الله عليهم لنربين على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها احد من العرب باحد ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وآذانه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه واخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تستطع فلفظتها فلما بلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال اما انها لو أكلتها لم تدخل النار أبدا حمزة اكرم على الله من ان يدخل شيأ من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عمه حمزة نظر الى شئ لم ينظر الى شئ قط كان أوجع لقلبه منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانك ما علمنا ما كنت الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى ان ادعك حتى تحشر من افواج شتى اما والله لئن اظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين منهم مكانك فانزل الله عز وجل وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نصبر وامسك عما اراد وكفر عن يمينه عن ابى ابن كعب قال لما كان يوم احد أصيب من الانصار اربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الانصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم قال فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله عز وجل وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين فقال رجل لا قريش بعد اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا عن القوم الا أربعة اخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب واما تفسير الآية فقوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به سمى الفعل الاول باسم الثانى للمزاوجة فى الكلام والمعنى ان صنع بكم سوء من قتل او مثلة ونحوها فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها أمر الله برعاية العدل والانصاف فى هذه الآية فى باب استيفاء الحقوق يعنى ان رغبتم فى استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه فى عدل الله وشرعه ورحمته وفى الآية دليل على ان الاولى ترك استيفاء القصاص وذلك بطريق الاشارة والرمز والتعريض بان الترك أولى فان كان لابد من استيفاء القصاص فيكون من غير زيادة عليه بل

(ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) اى هو أعلم بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) سمى الفعل الاول عقوبة والعقوبة هى الثانية لازدواج الكلام كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فالثانية ليست بسيئة والمعنى ان صنع بكم صنيع سوء من قتل او نحوه فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه روى ان المشركين مثلوا بالمسلمين يوم احد بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم فرأى النبى عليه السلام حمزة مبقور البطن فقال اما والذى أحلف به لامثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده ولا خلاف فى تحريم المثلة لورود الاخبار بالنهى عنها حتى بالكلب العقور

يجب مراعاة المماثلة ثم انتقل من طريق الاشارة الى طريق التصريح فقال تعالى (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) يعنى ولئن عفوتم وتركتم استيفاء القصاص وصبرتم كان ذلك العفو والصبر خيرا من استيفاء القصاص وفيه أجر للصابرين العافين

*(فصل) * اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة ام لا على قولين أحدهما انها نزلت قبل براءة فأمر النبى صلى الله عليه وسلم ان يقاتل من قاتله ولا يبدأ بالقتال ثم نسخ ذلك وأمر بالجهاد وهذا قول ابن عباس والضحاك فعلى هذا يكون معنى قوله ولئن صبرتم عن القتال فلما أعز الله الاسلام وكثر أهله امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالجهاد ونسخ هذا بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم الآية والقول الثانى انها محكمة وانها نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له ان ينال من ظالمه أكثر مما نال منه الظالم وهذا قول مجاهد والشعبى والنخعى وابن سيرين والثورى قال بعضهم الاصح انها محكمة لان الآية واردة فى تعليم حسن الادب فى كيفية استيفاء الحقوق فى القصاص وترك التعدى وهو طلب الزيادة وهذه الاشياء لا تكون منسوخة فلا تعلق لها بالنسخ والله أعلم *قوله عز وجل (واصبر وما صبرك الا بالله) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر واعلمه ان صبره بتوفيقه ومعونته (ولا تحزن عليهم) يعنى على الكافرين واعراضهم عنك وقيل معنى الآية ولا تحزن على قتلى أحد وما فعل بهم فانهم أفضوا الى رحمة الله ورضوانه (ولا تك فى ضيق مما يمكرون) يعنى ولا يضيقن صدرك يا محمد بسبب مكرهم فان الله كافيك وناصرك عليهم قرئ فى ضيق بفتح الضاد وكسرها فقيل هما لغتان وقال أبو عمرو الضيق بالفتح الغم و بالكسر الشدة وقال أبو عبيد الضيق بالكسر فى قلة المعاش وفى المسكن واما ما كان فى القلب والصدر فانه بالفتح وقال القتيبى الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين فعلى هذا يكون صفة كانه قال سبحانه وتعالى ولا تك فى أمر ضيق من مكرهم قال الامام فخر الدين الرازى هذا الكلام من المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة فى الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا فى الصفة فمكان المعنى فلا يكن الضيق حاصلا فيك الا ان الفائدة فى قوله ولا تك فى ضيق هى ان الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل جانب كالقميص المحيط به فكانت الفائدة فى ذكر هذا اللفظ بهذا المعنى (ان الله مع الذين اتقوا) اى اتقوا المثلة والزيادة فى القصاص وسائر المناهى (والذين هم محسنون) يعنى بالعفو عن الجانى وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة يعنى ان أردت أيها الانسان ان أكون معك بالعون والفضل والرحمة فكن من المتقين المحسنين وفى هذا اشارة الى التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله قال بعض المشايخ كمال الطريق صدق مع الحق وخلق مع الخلق وكمال الانسان ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل ان يعمل به وقيل لهرم بن حيان عند الموت أوص فقال انما الوصية فى المال ولا مال لى ولكنى اوصيك بخواتيم سورة النحل والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة الاسراء)

*(فصل فى نزولها) * قال ابن الجوزى هى مكية فى قول الجماعة الا ان بعضهم يقول فيها مدنى فروى عن ابن عباس انه قال هى مكية الا ثمان آيات من قوله سبحانه وتعالى وان كادوا ليفتنونك الى قوله نصيرا وهذا قول قتادة وقال مقاتل فيها من المدنى وقل رب أدخلنى مدخل صدق الآية وقوله تعالى ان الذين اوتوا العلم من قبله وقوله ان ربك أحاط بالناس وقوله تعالى وان كادوا ليفتنونك وقوله تعالى ولولا ان ثبتناك والتى تليها وهى مائة وعشر آيات وقيل واحدى عشرة آية وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وثلاثة آلاف واربعمائة وستون حرفا

(ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) الضمير فى لهو يرجع الى مصدر صبرتم والمراد بالصابرين المخاطبون اى ولئن صبرتم لصبركم خير لكم فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم لانهم صابرون على الشدائد ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (واصبر) انت فعزم عليه بالصبر (وما صبرك الا بالله) اى بتوفيقه وتثبيته (ولا تحزن عليهم) على الكفار ان لم يؤمنوا وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكفار فانهم وصلوا الى مطلوبهم (ولا تك فى ضيق مما يمكرون) ضيق مكى والضيق تخفيف الضيق اى فى أمر ضيق ويجوز أن يكونا مصدرين كالقيل والقول والمعنى ولا يضيقن صدرك من مكرهم فانه لا ينفذ عليك (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) اى هو ولى الذين اجتنبوا السيآت وولى العاملين بالطاعات قيل من اتقى فى أفعاله وأحسن فى أعماله كان الله معه فى أحواله ومعيته نصرته فى المأمور وعصمته فى المحظور

(سورة بنى اسرائيل)

مكية وهى مائة وعشر آيات بصرى واحدى عشرة آية كوفى وشامى

(بسم الله الرحمن الرحيم) (سبحان) تنزيه الله من السوء وهو علم للتسبيح كعثمان للرجل وانتصابه بفعل مضمر متروك اظهاره تقديره اسبح الله سبحان ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسده ودل على التنزيه البليغ (الذى أسرى بعبده) محمد صلى الله عليه وسلم وسرى واسرى لغتان (ليلا) ١٥٨ نصب على الظرف وقيده بالليل والاسراء لا يكون الا بالليل للتأكيد او ليدل بلفظ التنكير على تقليل مدة الاسراء وانه أسرى به فى بعض الليل من مكة الى الشام مسيرة اربعين ليلة (من المسجد الحرام) قيل أسرى به من دار أم هانئ بنت ابى طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحرم كله مسجد وقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فقد قال عليه السلام بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ اتانى جبريل بالبراق وقد عرج بى الى السماء فى تلك الليلة وكان العروج به من بيت المقدس وقد اخبر قريشا عن عيرهم وعدد جمالها واحوالها واخبرهم ايضا بما رأى فى السماء من العجائب وانه لقى الانبياء عليهم السلام وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى وكان الاسراء قبل الهجرة بسنة وكان فى اليقظة وعن عائشة رضى الله عنها انها قالت والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية مثله وعلى الاول الجمهور اذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم (الى المسجد الاقصى) هو بيت المقدس لانه لم يكن حينئذ وراءه مسجد (الذى باركنا حوله) يريد بركات الدين والدنيا لانه متعبد الانبياء عليهم السلام ومهبط الوحى وهو محفوف بالانهار الجارية والاشجار المثمرة (لنريه) اى محمدا عليه السلام (من آياتنا) الدالة على وحدانية الله وصدق نبوته برؤيته السموات وما فيها من الآيات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

*قوله عز وجل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) روى ابن الجوزى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه سئل عن تفسير سبحان الله فقال تنزيه الله عن كل شئ هكذا ذكره بغير سند وقال النحويون سبحان اسم علم على التسبيح يقال سبحت الله تسبيحا فالتسبيح هو المصدر وسبحان الله علم للتسبيح وتفسير سبحان الله تنزيه الله عن كل سوء ونقيصة وأصله فى اللغة التباعد فمعنى سبحان الله بعده ونزاهته عن كل ما لا ينبغى الذى أسرى يقال سرى به وأسرى به لغتان بعبده اجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون ان المراد به محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلف أحد من الامة فى ذلك وقوله بعبده اضافة تشريف وتعظيم وتبجيل وتفخيم وتكريم ومنه قول بعضهم

لا تدعنى الا بيا عبدها * فانه أشرف أسمائى

قيل لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الدرجات العالية والرتب الرفيعة ليلة المعراج أوحى الله عز وجل اليه يا محمد بم شرفتك قال رب حيث نسبتنى الى نفسك بالعبودية فأنزل الله سبحانه وتعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا فان قلت الاسراء لا يكون الا بالليل فما معنى ذكر الليل قلت أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير تقليل مدة الاسراء وانه أسرى به فى بعض ليلة من مكة الى الشام مسيرة شهر او اكثر فدل تنكير الليل على البعضية (من المسجد الحرام) قيل كان الاسراء من نفس مسجد مكة وفى حديث مالك بن صعصعة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر وذكر حديث المعراج وسيأتى بكماله فيما بعد وقيل عرج به من دار ام هانئ بنت أبى طالب وهى بنت عمه اخت على رضى الله تعالى عنه فعلى هذا أراد بالمسجد الحرام الحرم (الى المسجد الاقصى) يعنى الى بيت المقدس سمى أقصى لبعده عن المسجد الحرام او لانه لم يكن حينئذ وراءه مسجد (الذى باركنا حوله) يعنى بالانهار والاشجار والثمار وقيل سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحى وقبلة الانبياء قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم واليه تحشر الخلائق يوم القيامة فان قلت ظاهر الآية يدل على ان الاسراء كان الى بيت المقدس والاحاديث الصحيحة تدل على انه عرج به الى السماء فكيف الجمع بين الدليلين وما فائدة ذكر المسجد الاقصى فقط قلت قد كان الاسراء على ظهر البراق الى المسجد الاقصى ومنه كان عروجه الى السماء على المعراج وفائدة ذكر المسجد الاقصى فقط انه صلى الله عليه وسلم لو أخبر بصعوده الى السماء اولا لاشتد انكارهم لذلك فلما أخبر انه أسرى به الى بيت المقدس وبان لهم صدقه فيما أخبر به من العلامات التى فيه وصدقوه عليها أخبر بعد ذلك بعروجه الى السماء فجعل الاسراء الى المسجد الاقصى كالتوطئة لمعراجه الى السماء وقوله تعالى (لنريه من آياتنا) يعنى من عجائب قدرتنا فقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة الانبياء وصلى بهم ورأى الآيات العظام فان قلت لفظة من فى قوله من آياتنا تقتضى التبعيض وقال فى حق ابراهيم عليه السلام وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وظاهر هذا يدل على فضيلة ابراهيم عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم ولا قائل به فما وجه قلت ملكوت السموات والارض من بعض آيات الله أيضا ولآيات الله أفضل من ذلك واكثر والذى أراه محمدا

صلى الله عليه وسلم من آياته وعجائبه تلك الليلة كان أفضل من ملكوت السموات والارض فظهر بهذا البيان فضل محمد صلى الله عليه وسلم على ابراهيم صلى الله عليه وسلم (انه هو السميع) لاقواله ودعائه (البصير) لافعاله الحافظ له فى ظلمة الليل وقت اسرائه وقيل انه هو السميع لما قالت له قريش حين اخبرهم بمسراه الى بيت المقدس البصير بما ردوا عليه من التكذيب وقيل انه هو السميع لاقوال جميع خلقه البصير بافعالهم فيجازى كل عامل بعمله وحمله على العموم اولى

(فصل) فى ذكر حديث المعراج وما يتعلق به من الاحكام وما قال العلماء فيه (ق) حدثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ان نبى الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال بينما انا فى الحطيم وربما قال فى الحجر مضطجعا ومنهم من قال بين النائم واليقظان اذ اتانى آت فقد قال وسمعته يقول فشق ما بين هذه الى هذه فقلت للجارود وهو الى جنبى ما يعنى به قال من ثغرة نحره الى شعرته وسمعته يقول من قصته الى شعرته فاستخرج قلبى ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة ايمانا فغسل قلبى ثم حشى ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض فقال له الجارود أهو البراق يا أبا حمزة قال أنس نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بى جبريل عليه السلام حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجى جاء ففتح فلما خلصت فاذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجى جاء ففتح فلما خلصت فاذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قالا مرحبا بالاخ الصالح والنبى الصالح ثم صعد بى الى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجى جاء ففتح فلما خلصت اذا يوسف قال هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبى الصالح ثم صعد بى حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجى جاء ففتح فلما خلصت فاذا ادريس قال هذا ادريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبى الصالح ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجى جاء فلما خلصت فاذا هرون قال هذا هرون فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبى الصالح ثم صعد بى حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجى جاء فلما خلصت فاذا موسى قال هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبى الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له ما يبكيك قال أبكى لان غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى ثم صعد بى الى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجى جاء فلما خلصت فاذا ابراهيم قال هذا أبوك ابراهيم فسلم عليه قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح ثم رفعت الى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل آذان الفيلة قال هذه سدرة المنتهى فاذا أربعة انهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ما هذان يا جبريل قال أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع الى البيت المعمور ثم أتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل فأخذت اللبن فقال هى الفطرة أنت عليها وأمتك ثم فرضت على الصلوات خمسين صلاة كل يوم فرجعت

(انه هو السميع) للاقوال (البصير) بالافعال واقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل أسرى ثم بارك انا ثم انه هو وهى طريقة الالتفات التى هى من طرق البلاغة

فمررت على موسى فقال بم أمرت قلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم قال ان أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم واني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فامرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت الى موسى فقال بم أمرت قلت أمرت بخمس صلوات كل يوم قال ان أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم واني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك قال سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم قال فلما جاوزت نادى مناد امضيت فريضتي وخففت عن عبادي زاد في رواية اخرى وأجزي بالحسنة عشرا وفي رواية أخرى بينا انا عند البيت بين النائم واليقظان وفيه ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ ايمانا وحكمة وفيه فرفع الى البيت المعمور فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك اذا خرجوا لم يعودوا مرة أخرى (ق) عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي الى السماء فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا افتح قال من هذا قال هذا جبريل قيل هل معك أحد قال نعم معي محمد صلى الله عليه وسلم قال فارسل اليه قال نعم فافتح ففتح قال فلما علونا السماء الدنيا فاذا رجل عن يمينه اسودة وعن يساره اسودة قال فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الاسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فاهل اليمين اهل الجنة والاسودة التي عن شماله أهل النار فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى قال ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح قال أنس بن مالك فذكر انه وجد في السموات آدم وادريس وعيسى وموسى وابراهيم ولم يثبت كيف منازلهم غير انه ذكر أنه قد وجد آدم في السماء الدنيا وابراهيم في السماء السادسة قال فلما مر جبريل ورسول الله بادريس قال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال ثم مر فقلت من هذا قال هذا ادريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا موسى قال ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قلت من هذا قال هذا عيسى بن مريم قال ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت من هذا قال هذا ابراهيم قال ابن شهاب وأخبرني ابن حزم ان ابن عباس وابا حبة الانصاري كانا يقولان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الاقلام قال ابن حزم وأنس ابن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرض الله على أمتي خمسين صلاة قال فرجعت بذلك حتى مررت بموسى فقال موسى ماذا فرض ربك على أمتك قال قلت فرض عليهم خمسين صلاة قال لي موسى فراجع ربك فان أمتك لا تطيق ذلك قال فراجعت ربي فوضع شطرها قال فرجعت الى موسى فاخبرته قال راجع ربك فان أمتك لا تطيق ذلك قال فراجعت ربي فقال هي خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي قال فرجعت الى موسى فقال راجع ربك فقلت قد استحييت من ربي قال ثم انطلق بي جبريل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي قال ثم ادخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك (ق) عن شريك بن أبي نمر انه سمع أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم

من مسجد الكعبة انه جاءه ثلاثة نفر قبل ان يوحى اليه وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الانبياء تنام اعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره الى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى انقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوا ايمانا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده يعنى عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به الى السماء الدنيا فضرب بابا من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا فقال جبريل قالوا ومن معك قال معى محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا يستبشر به اهل السماء لا يعلم اهل السماء ما يريد الله به فى الارض حتى يعلمهم فوجد فى السماء الدنيا آدم عليه السلام فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه ورد عليه السلام وقال مرحبا وأهلا بابنى نعم الابن أنت فاذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال ما هذان النهران ياجبريل قال هذان النيل والفرات عنصرهما ثم مضى به فى السماء فاذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فاذا هو مسك أذفر قال ما هذا ياجبريل قال هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك ثم عرج به الى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الاولى من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا ثم عرج به الى السماء الثالثة وقالوا له مثل ما قالت الاولى والثانية ثم عرج به الى الرابعة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السادسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فأوعيت منهم ادريس فى الثانية وهرون فى الرابعة وآخر فى الخامسة ولم أحفظ اسمه وابراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة بتفضيل كلام الله فقال موسى رب لم أظن ان يرفع على احد ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه الا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه قاب قوسين او أدنى فاوحى الله فيما أوحى اليه خمسين صلاة على امتك كل يوم وليلة ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال يا محمد ماذا عهد اليك ربك قال عهد الى خمسين صلاة كل يوم وليلة قال ان أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك فأشار اليه جبريل ان نعم ان شئت فعلا به الى الجبار تعالى فقال وهو مكانه يارب خفف عنا فان أمتى لا تستطيع هذا فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع الى موسى فاحتبسه فلم يزل يرددده موسى الى ربه حتى صارت خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال يا محمد والله لقد راودت بنى اسرائيل قومى على ادنى من هذا فضعفوا فتركوه فامتك اضعف أجسادا وقلوبا وأبدانا وأبصارا واسماعا فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل عليه السلام ليشير عليه فلا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال يارب ان امتى ضعفاء اجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار يا محمد قال لبيك وسعديك قال انه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك فى أم الكتاب قال فكل حسنة بعشر امثالها فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك فرجع الى موسى فقال كيف فعلت فقال خفف عنا اعطانا بكل حسنة عشر امثالها قال موسى قد والله راودت بنى اسرائيل على ادنى من ذلك فتركوا ارجع الى ربك فليخفف عنك ايضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا موسى قد والله استحييت من ربى مما اختلفت اليه قال فاهبط بسم الله فاستيقظ وهو فى المسجد الحرام هذا لفظ حديث البخارى وادرج مسلم حديث شريك عن انس الموقوف عليه فى حديث ثابت البنانى المسند فذكر من اول

حديث شريك طرفا ثم قال وساق الحديث نحو حديث ثابت قال مسلم وقدم وأخر وزاد ونقص وليس
فى حديث ثابت من هذه الالفاظ الا ما نورده على نصه اخرجه مسلم وحده وهو حدثنا حماد بن سلمة عن
ثابت البنانى عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت بالبراق وهو دابة ابيض طويل فوق
الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته حتى اتيت بيت المقدس قال فربطته
بالحلقة التى يربط بها الانبياء قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من
خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل عليه السلام اخترت الفطرة قال ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح
جبريل فقيل من انت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا
انا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل
قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابنى الخالة عيسى بن مريم
ويحيى بن زكريا فرحبا بى ودعوا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من انت قال
جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف عليه السلام
فاذا هو قد اعطى شطر الحسن قال فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل
فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا
بادريس فرحب ودعا لى بخير قال الله تعالى ورفعناه مكانا عليا ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح
جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا
أنا بهرون فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل
قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير
ثم عرج بنا الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد
بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بابراهيم عليه السلام مسندا ظهره الى البيت المعمور واذا هو يدخله
كل يوم سبعون الف ملك لا يعودون اليه ثم ذهب بى الى سدرة المنتهى واذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها
كالقلال قال فلما غشيها من امر الله ما غشى تغيرت فما احد من خلق الله يستطيع ان ينعتها من حسنها
فاوحى الى ما اوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة فنزلت الى موسى فقال ما فرض ربك على
امتك قلت خمسين صلاة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان امتك لا يطيقون ذلك فانى قد بلوت
بنى اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى ربى فقلت يا رب خفف على امتى فحط عنى خمسا فرجعت الى
موسى فقلت قد حط عنى خمسا قال ان امتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف قال فلم أزل
ارجع بين ربى تبارك وتعالى وبين موسى حتى قال يا محمد انهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل
صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن
هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيأ فان عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت الى موسى
فاخبرته قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت قد رجعت الى
ربى حتى استحييت منه هذه رواية مسلم واخرجه الترمذى مختصرا وفيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
اتى بالبراق ليلة اسرى به ملجما مسرجا فاستصعب عليه فقال له جبريل أبمحمد تفعل هكذا ما ركبك
احد اكرم على الله منه فارفض عرقا واخرجه النسائى مختصرا والمعنى واحد وفى آخره قال فرجعت الى
ربى فسألته التخفيف فقال انى يوم خلقت السموات والارض فرضت عليك وعلى امتك خمسين
صلاة فخمس بخمسين فقم بها انت وامتك فعرفت انها امر الله جرى بقول حتم فلم ارجع

(فصل) قال البغوى قال بعض اهل الحديث ما وجدنا للبخارى ومسلم فى كتابيهما شيأ لا يحتمل

مخرجا الاحديث شريك بن أبي نمر عن انس وأحال الامر فيه على شريك وذلك انه ذكر فيه ان ذلك كان قبل الوحي واتفق اهل العلم على ان المعراج كان بعد الوحي بنحو من اثنتي عشرة سنة وفيه ان الجبار تبارك وتعالى دنا فتدلى وذكرت عائشة ان الذي تدلى هو جبريل عليه السلام قال البغوي وهذا الاعتراض عندي لا يصح لان هذا كان رؤيا في النوم أراه الله ذلك قبل ان يوحى اليه بدليل آخر الحديث فاستيقظ وهو في المسجد الحرام ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي وقبل الهجرة بسنة تحقيقا لرؤياه التي رآها من قبل كما انه رأى فتح مكة في المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقها سنة ثمان ونزل قوله سبحانه وتعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى في كتابه شرح مسلم قد جاء من رواية شريك في هذا الحديث اوهام انكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله قدم وأخر وزاد ونقص منها قوله وذلك قبل ان يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه فان الاسراء أقل ما قيل فيه انه كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا وقال الحربي كانت ليلة الاسراء ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهري كان ذلك بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين وقال ابن اسحق اسري به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل قال الشيخ محيي الدين واشبه الاقوال قول الزهري وابن اسحق واما قوله في رواية شريك وهو نائم وفي الرواية الاخرى بينا انا عند البيت بين النائم واليقظان فقد يحتج به من يجعلها رؤيا نوم ولا حجة فيه اذ قد يكون ذلك حالة اول وصول الملك اليه وليس في الحديث ما يدل على كونه نائما في القصة كلها هذا كلام القاضي عياض وهذا الذي قاله في رواية شريك وان أهل العلم قد انكروها قد قاله غيره وقد ذكر البخاري في رواية شريك هذه عن أنس في كتاب التوحيد من صحيحه وأتى بالحديث مطولا قال الحافظ عبد الحق في كتابه الجمع بين الصحيحين بعد ذكر هذه الرواية هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك ابن أبي نمر عن انس قد زاد فيه زيادة مجهولة واتى فيه بالفاظ غير معروفة وقد روى حديث الاسراء جماعة من الحفاظ المتقنين والائمة المشهورين كابن شهاب وثابت البناني وقتادة يعني عن أنس فلم يأت أحد منهم بما اتى به شريك وشريك ليس بالحافظ عند اهل الحديث قال والاحاديث التي تقدمت قبل هذا هي المعول عليها

(فصل في شرح بعض ألفاظ حديث المعراج وما يتعلق به) كانت ليلة الاسراء قبل الهجرة بسنة يقال كانت في رجب ويقال في رمضان وقد تقدم زيادة على هذا القدر في الفصل الذي قبل هذا واختلف الناس في الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل انما كان ذلك في المنام والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة الخلف من المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين انه أسري بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى سبحان الذي اسرى بعبده ليلا ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد والاحاديث الصحيحة التي تقدمت تدل على صحة هذا القول لمن طالعها وبحث عنها وحكى محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن حذيفة انه قال كل ذلك كان رؤيا وانه ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما أسري بروحه وحكى هذا القول عن عائشة ايضا وعن معاوية نحوه والصحيح ما عليه جمهور العلماء من السلف والخلف والله اعلم (قوله صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق) هو اسم للدابة التي ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به واشتقاقه من البرق لسرعته اولشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألئه ونوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الاخذ بالاحتياط في الامور وتعاطي الاسباب وان ذلك لا يقدح في التوكل اذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءني جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار

والتقدير وقال لي اختر فاخترت اللبن وقول جبريل اخترت الفطرة يعني فطرة الاسلام وجعل اللبن علامة للفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين وانه سليم العاقبة بخلاف الخمر فانها ام الخبائث وجالبة لانواع الشر (قوله ثم عرج بي حتى اتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل) فيه بيان الادب لمن استأذن وان يقول أنا فلان ولا يقول أنا فانه مكروه وفيه ان للسماء ابوابا وبوابين وان عليها حرسا وقول بواب السماء وقد أرسل اليه وفي الرواية الاخرى وقد بعث اليه معناه للاسراء وصعوده السماء وليس مراده الاستفهام عن اصل البعثة والرسالة فان ذلك لا يخفى عليه الى هذه المدة هذا هو الصحيح في معناه وقيل غيره وقوله فاذا أنا بآدم وذكر جماعة من الانبياء فيه استحباب لقاء اهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام اللين الحسن وان كان الزائر أفضل من المزور وفيه جواز مدح الانسان في وجهه اذا أمن عليه من الاعجاب وغيره من اسباب الفتنة وقوله فاذا أنا بابراهيم مسندا ظهره الى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد الى القبلة وتحويل ظهره اليها وقوله ثم ذهب بي الى السدرة هكذا وقع في هذه الرواية السدرة بالالف واللام وفي باقي الروايات الى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين سميت بذلك لان علم الملائكة ينتهي اليها ولم يجاوزها احد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت بذلك لكونها ينتهي اليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من امر الله عز وجل وقوله واذا ثمرها كالقلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهي الجرة الكبيرة التي تسع قربتين او أكثر (قوله فرجعت الى ربي) قال الشيخ محيي الدين النووي معناه رجعت الى الموضع الذي ناجيته فيه أولا فناجيته فيه ثانيا وقوله فلم أزل أرجع بين موسى وبين ربي معناه وبين موضع مناجاة ربي عز وجل قلت وأما الكلام على معنى الرؤية وما يتعلق بها فانه سيأتي ان شاء الله تعالى في تفسير سورة والنجم عند قوله تعالى ثم دنا فتدلى (قوله ففرض الله سبحانه وتعالى على أمتي خمسين صلاة الى قوله فوضع شطرها وفي الرواية الاخرى فوضع عني عشرا وفي الاخرى خمسا) ليس بين هذه الروايات منافاة لان المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف وأما رواية العشر فهي رواية شريك ورواية الخمس رواية ثابت البناني وقتادة وهما أثبت من شريك فالمراد حط عني خمسا الى آخره ثم قال هي خمس وهن خمسون يعني خمسين في الاجر والثواب لان الحسنة بعشر أمثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشيء قبل فعله وفي أول الحديث انه شق صدره صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وقد شق ايضا في صغره وهو عند حليمة التي كانت ترضعه فالمراد بالشق الثاني زيادة التطهير لما يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله أتيت بطست من ذهب قد يتوهم متوهم انه يجوز استعمال اناء الذهب لنا وليس الامر كذلك لان هذا الفعل من فعل الملائكة وهو مباح لهم استعمال الذهب أو يكون هذا قد كان قبل تحريمه وقوله ممتلئ ايمانا وحكمة فأفرغها في صدري فان قلت الحكمة والايمان معان والافراغ صفة الاجسام فما معنى ذلك قلت يحتمل انه جعل في الطست شيء يحصل به كمال الايمان والحكمة وزيادتهما فسمى ايمانا وحكمة لكونه سببا لهما وهذا من احسن المجاز وقوله في صفة آدم عليه السلام فاذا رجل عن يمينه اسودة وعن يساره اسودة هو جمع سواد وقد فسره في الحديث بانه نسم بنيه يعني أرواح بنيه وقد اعترض على هذا بان ارواح المؤمنين في السماء وأرواح الكفار تحت الارض السفلى فكيف تكون في السماء والجواب عنه انه يحتمل ان أرواح الكفار تعرض على آدم عليه السلام وهو في السماء فوافق وقت عرضها على آدم مرور النبي صلى الله عليه وسلم فأخبر بما رأى وقوله فاذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر عن شماله بكى فيه شفقة الوالد على اولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على سوء حال الكفار منهم وقوله في ادريس مرحبا بالنبي الصالح

والاخ

والاخ الصالح قد اتفق المؤرخون على ان ادريس هو أخنوخ وهو جد نوح عليهما السلام فيكون جد النبي صلى الله عليه وسلم كما ان ابراهيم جده فكان ينبغي ان يقول بالنبي الصالح والابن الصالح كما قال آدم وابراهيم عليهما الصلاة والسلام فالجواب عن هذا انه قيل ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من ذرية ابراهيم فليس هو جد نوح هذا جواب القاضي عياض قال الشيخ محيي الدين ليس في الحديث ما يمنع كون ادريس أبا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وان قوله الاخ الصالح يحتمل ان يكون قاله تلطفا وتأدبا وهو أخ وان كان أبا لان الانبياء اخوة والمؤمنين اخوة والله أعلم

(فصل) في ذكر الآيات التي ظهرت بعد المعراج الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وسياق احاديث تتعلق بالاسراء قال البغوي روى انه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به وكان بذي طوى قال يا جبريل ان قومي لا يصدقوني قال يصدقك ابو بكر وهو الصديق قال ابن عباس وعائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما كانت ليلة أسري بي الى السماء اصبحت بمكة فضقت بامري وعرفت ان الناس يكذبوني فروى انه صلى الله عليه وسلم قعد معتزلا حزينا فمر به ابو جهل فجلس اليه فقال كالمستهزئ هل استفدت من شئ قال نعم أسري بي الليلة قال الى أين قال الى بيت المقدس قال ابو جهل ثم أصبحت بين اظهرنا قال نعم فلم ير أبو جهل ان ينكر ذلك مخافة ان يجحده الحديث ولكن قال أتحدث قومك بما حدثتني به قال نعم قال ابو جهل يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا فانفضت المجالس وجاؤا حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتني قال نعم أسري بي الليلة قالوا الى أين قال الى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت بين اظهرنا قال نعم قال فبقي الناس بين مصفق وبين واضع يده على رأسه متعجبا وارتد أناس ممن كان قد آمن به وصدقه وسعى رجل من المشركين الى ابي بكر فقال له هل لك في صاحبك يزعم انه أسري به الليلة الى بيت المقدس قال أوقد قال ذلك قال نعم قال لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه انه ذهب الى بيت المقدس وجاء في ليلة قبل ان يصبح قال نعم اني أصدقه بما هو ابعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة او روحة فلذلك سمي ابو بكر الصديق قال وكان في القوم من أتى المسجد الاقصى قالوا هل تستطيع ان تنعت لنا المسجد قال نعم قال فذهبت انعت حتى التبس علي قال فجيء بالمسجد وأنا انظر اليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا انظر اليه فقال القوم أما النعت فوالله لقد اصاب فيه ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهي أهم الينا هل لقيت منها شيأ قال نعم مررت بعير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيرا وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته فشربته ثم وضعته كما كان فسلوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا قالوا هذه آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان راكبان قعودا لهما بذي مر فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك قالوا وهذه آية أخرى قالوا فاخبرنا عن عيرنا قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها واحمالها وهيئتها فقال كنت في شغل عن ذلك ثم مثلت له بعدتها واحمالها وهيئتها ومن فيها وكانوا بالحزورة قال نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيأ وبينه حتى أتوا كداء فجلسوا عليه ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ قال قائل منهم هذه الشمس قد طلعت وقال آخر وهذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال فلم يؤمنوا وقالوا هذا سحر مبين (م) عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن اشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط قال فرفعه الله لي أنظر اليه ما يسألوني عن شئ الا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الانبياء فاذا موسى قائم يصلي فاذا رجل ضرب

(وآتينا موسى الكتاب وجعلناه) اى الكتاب وهو التوراة (هدى لبنى اسرائيل أن لا تتخذوا) اى لا تتخذوا او بالياء ابو عمر واى لئلا يتخذوا (من دونى وكيلا) ربا تكلون اليه أموركم (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص او على النداء فمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهى اى قلنا لهم لا تتخذوا من دونى وكيلا يا ذرية من حملنا مع نوح (انه) ان نوحا عليه السلام (كان عبدا شكورا)

جعد كأنه من رجال شنوءة واذا عيسى بن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفى واذا ابراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم يعنى به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لى قائل يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه فالتفت اليه فبدأنى بالسلام (ق) عن جابر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبنى قريش قمت الى الحجر فجلى الله الى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا انظر اليه زاد البخارى فى رواية له لما كذبنى قريش حين أسرى بى الى بيت المقدس وذكر الحديث (م) عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت على موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الاحمر فاذا هو قائم يصلى فى قبره عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهينا الى بيت المقدس قال جبريل كذا بأصبعه فخرق به الحجر وشده البراق اخرجه الترمذى فان قلت كيف رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلى فى قبره وكيف يصلى بالانبياء فى بيت المقدس ثم وجدهم على مراتبهم فى السموات وسلموا عليه وترحبوا به وكيف تصح الصلاة من الانبياء بعد الموت وهم فى الدار الآخرة قلت أما صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء فى بيت المقدس يحتمل ان الله سبحانه وتعالى جمعهم له ليصلى بهم ويعرفوا بفضله وتقدمه عليهم ثم ان الله سبحانه وتعالى أراه اياهم فى السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وفضلهم وأما مروره بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الاحمر فيحتمل انه كان بعد رجوعه من المعراج وأما صلاة الانبياء وهم فى الدار الآخرة فهم فى حكم الشهداء بل أفضل منهم وقد قال الله سبحانه وتعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل احياء فالانبياء احياء بعد الموت وأما حكم صلاتهم فيحتمل انها الذكر والدعاء وذلك من اعمال الآخرة فان الله تعالى قال دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد فى الحديث انهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل ان الله سبحانه وتعالى خصهم بخصائص فى الآخرة كما خصهم فى الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم منها انه صلى الله عليه وسلم أخبر انه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله اعلم بالحقائق قوله سبحانه وتعالى (وآتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (وجعلناه) يعنى الكتاب (هدى لبنى اسرائيل أن لا تتخذوا) يعنى وقلنا لهم لا تتخذوا (من دونى وكيلا) يعنى ربا كفيلا (ذرية) يعنى يا ذرية (من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا) يعنى ان نوحا كان كثير الشكر وذلك انه كان اذا أكل طعاما او شرب شرابا او لبس ثوبا قال الحمد لله فسماه الله عبدا شكورا لذلك * قوله عز وجل (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب) يعنى اعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب انهم سيفسدون وهو قوله تعالى (لتفسدن فى الارض مرتين) وقال ابن عباس وقضينا عليهم فى الكتاب فالى بمعنى على والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ واللام فى لتفسدن لام القسم تقديره والله لتفسدن فى الارض يعنى بالمعاصى والمراد بالارض أرض الشام وبيت المقدس (ولتعلن) يعنى ولتستكبرن ولتظلمن الناس (علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما) يعنى أولى المرتين قيل افسادهم فى المرة الاولى هو ما خالفوا من أحكام التوراة وركبوا من المحارم وقيل افسادهم فى المرة الاولى قتلهم شعياء فى الشجرة وارتكابهم المعاصى (بعثنا عليكم عبادا لنا) يعنى جالوت وجنوده وهو الذى قتله داود وقيل هو سنجاريب وهو من أهل نينوى وقيل هو بختنصر البابلى وهو الاصح (أولى بأس شديد) يعنى ذوى بطش وقوة فى الحرب (فجاسوا خلال الديار)

فى السراء والضراء والشكر مقابلة النعمة بالثناء على المنعم وروى انه كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس الا قال الحمد لله وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم اسوتهم وآية رشد الابناء صحة الاقتداء بسنة الآباء وقد عرفتم حال الآباء هنالك فكونوا أيها الابناء كذلك (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض) وأوحينا اليهم وحيا مقضيا اى مقطوعا مبتوتا بانهم يفسدون فى الارض لا محالة والكتاب التوراة ولتفسدن جواب قسم محذوف او جرى القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابا له كأنه قال واقسمنا لتفسدن فى الارض (مرتين) أولاهما قتل زكريا عليه السلام وحبس ارميا عليه السلام حين انذرهم سخط الله والاخرى قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام وقصد قتل عيسى عليه السلام (ولتعلن علوا كبيرا) ولتستكبرن عن طاعة الله من قوله ان فرعون علا فى الارض والمراد به البغى والظلم وغلبة المفسدين على المصلحين (فاذا جاء وعد أولاهما) اى وعد عقاب أولاهما (بعثنا عليكم) سلطنا عليكم (عبادا لنا أولى بأس شديد) اشداء فى القتال يعنى سنجاريب وجنوده او بختنصر او جالوت قتلوا علماءهم واحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا (فجاسوا خلال الديار) تردد وا للغارة فيها يعنى

يعنى طافوا بين الديار و وسطها يطلبونكم ليقتلوكم (وكان وعدا مفعولا) يعنى قضاء كائنا لا زما لا خلف فيه (ثم رددنا لكم الكرة عليهم) يعنى رددنا لكم الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو قيل هى قتل بختنصر واستنقاذ بنى اسرائيل اسراهم وأموالهم ورجوع الملك اليهم وقيل اعدنا لكم الدولة بملك طالوت وقتل داود جالوت (وأمددناكم بأموال و بنين وجعلناكم اكثر نفيرا) مما كنتم وهو تمييز جمع نفر وهو من ينفر مع الرجل من قومه (ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها) قيل اللام بمعنى على كقوله وعليها ما اكتسبت والصحيح انها على بابها الان اللام للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله حسنة كانت او سيئة يعنى ان الاحسان والاساءة تختص بأنفسكم لا يتعدى النفع والضر الى غيركم وعن على رضى الله عنه ما احسنت الى احد ولا اسأت اليه وتلاها (فاذا جاء وعد الآخرة) وعد المرة الآخرة بعثناهم (ليسوؤا) اى هؤلاء (وجوهكم) وحذف لدلالة ذكره اولا عليه اى ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها كقوله سيئت وجوه الذين كفروا ليسوء شامى وحمزة وابو بكر والضمير لله عز وجل اولوعد داو للبعث لنسوء على (وليدخلوا المسجد) بيت المقدس (كما دخلوه اول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) ما علوا مفعول ليتبروا اى ليهلكوا كل شئ غلبوه واستولوا عليه او بمعنى مدة علوهم

قال الزجاج الجوس طلب الشئ بالاستقصاء (وكان وعدا مفعولا) وكان وعد العقاب وعد الابد أن يفعل (ثم رددنا لكم الكرة) اى الدولة والغلبة (عليهم) على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو قيل هى قتل بختنصر واستنقاذ بنى اسرائيل

(ذكر القصة فى هذه الآيات)

قال محمد بن اسحق كانت بنو اسرائيل فيهم الاحداث والذنوب وكان الله فى ذلك متجاوزا عنهم ومحسنا اليهم وكان اول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم ان ملكا منهم كان يدعى صديقة وكان الله اذا ملك عليهم الملك بعث معه نبيا يسدده ويرشده ولا ينزل عليهم كتابا انما يؤمرون باتباع التوراة والاحكام التى فيها فلما ملك صديقة بعث الله معه شعياء وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وشعياء هو الذى بشر بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم فقال أبشرى او رشليم الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير فملك ذلك الملك يعنى صديقة بنى اسرائيل و بيت المقدس زمانا فلما انقضى ملكه عظمت الاحداث فيهم وكان معه شعياء نبعث الله سنجاريب ملك بابل ومعه ستمائة ألف راية فلم يزل سائرا حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض من قرحة كانت فى ساقه فجاء شعياء النبى اليه وقال يا ملك بنى اسرائيل ان سنجاريب ملك بابل قد نزل بك هو وجنوده بستمائة ألف راية وقد هابهم الناس وفرقوا منهم فكبر ذلك على الملك وقال يا نبى الله هل أتاك من الله وحى فيما حدث فتخبرنا به وكيف يفعل الله بنا و بسنجاريب وجنوده فقال شعياء لم يأتنى وحى فى ذلك فبينما هم على ذلك أوحى الله الى شعياء النبى ان ائت ملك بنى اسرائيل فره ان يوصى وصيته و يستخلف على ملكه من يشاء من أهل بيته فأتى شعياء ملك بنى اسرائيل وقال ان ربك قد أوحى الى ان آمرك ان توصى وصيتك و تستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فانك ميت فلما قال ذلك شعياء لصديقة الملك اقبل على القبلة فصلى ودعا فقال وهو يبكى و يتضرع الى الله تعالى بقلب مخلص اللهم رب الارباب واله الآلهة ياقدوس يا متقدس يا رحمن يا رحيم يا رؤف يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرنى بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى اسرائيل وذلك كله كان منك وأنت أعلم به من سرى وعلانيتى لك فاستجاب الله له وكان عبدا صالحا فأوحى الله الى شعياء ان يخبر صديقة ان ربه قد استجاب له ورحمه وأخر أجله خمس عشرة سنة وانجاه من عدوه سنجاريب فأتاه شعياء فاخبره فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن وخر ساجدا لله وقال الهى واله آبائى لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الاول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين أنت الذى أجبت دعوتى ورحمت تضرعى فلما رفع رأسه اوحى الله الى شعياء ان قل للملك صديقة فيأمر عبدا من عبيده فيأتيه

بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى فيصبح وقد برأ ففعل ذلك فشفى فقال الملك لشعياء سل ربك ان يجعل لنا علما بما هو صانع بعدونا هذا قال الله لشعياء قل له انى قد كفيتك عدوك وأنجيتك منهم وانهم سيصبحون موتى كلهم الا سنجاريب وخمسة نفر من كتابه أحدهم يختنصر فلما أصبحوا جاء صارخ يصرخ على باب المدينة يا ملك بنى اسرائيل ان الله قد كفاك عدوك فاخرج فان سنجاريب ومن معه هلكوا فخرج الملك والتمس سنجاريب فلم يوجد فى الموتى فبعث الملك فى طلبه فادركه الطلب فى مفازة ومعه خمسة نفر من كتابه أحدهم يختنصر فجعلوهم فى الجوامع ثم أتوا بهم الملك فلما رآهم خر ساجدا لله تعالى من حين طلعت الشمس الى العصر ثم قال لسنجاريب كيف رأيت فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون فقال سنجاريب قد أتانى خبر ربكم ونصره اياكم ورحمته التى يرحمكم بها قبل ان أخرج من بلادى فلم اطع مرشدا ولم يلقنى فى الشقوة الا قلة عقلى ولو سمعت او عقلت ما غزوتكم فقال الملك صدقت الحمد لله رب العالمين الذى كفانا كم بما شاء وان ربنا لم يمتعك ومن معك لكرامتك عليه ولكنه انما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقوة فى الدنيا وعذابا فى الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم فتنذروا من بعدكم ولولا ذلك لقتلك ومن معك ولدمك ودم من معك أهون على الله من دم قراد لو قتلت ثم ان ملك بنى اسرائيل أمر أمير حرسه ان يقذف فى رقابهم الجوامع ففعل وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وايلياء وكان يرزقهم فى كل يوم خبزين من شعير لكل رجل منهم فقال سنجاريب للملك صديقة القتل خير مما نحن فيه وما يفعل بنا فامر بهم الى السجن فاوحى الله الى شعياء النبى ان قل لملك بنى اسرائيل يرسل سنجاريب ومن معه لينذروا من وراءهم ولينكروهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم فبلغ ذلك شعياء للملك ففعل وخرج سنجاريب ومن معه حتى قدموا بابل فلما قدم جمع الناس فاخبرهم كيف فعل الله بجنوده فقال له كهانه وسحرته يا ملك بابل قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحى الله الى نبيهم فلم تطعنا وهى أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم وكان أمر سنجاريب تخويفا لبنى اسرائيل ثم كفاهم الله تعالى ذلك تذكرة وعبرة ثم ان سنجاريب لبث بعد ذلك سبع سنين ثم مات واستخلف على ملكه يختنصر ابن ابنه فعمل بعمله وقضى بقضائه فلبث سبع عشرة سنة ثم قبض الله ملك بنى اسرائيل صديقة فخرج أمر بنى اسرائيل وتنافسوا الملك حتى قتل بعضهم بعضا وشعياء نبيهم معهم لا يقبلون منه فلما فعلوا ذلك قال الله لشعياء قم فى قومك حتى اوحى على لسانك فلما قام أطلق الله لسانه بالوحى فقال يا سماء اسمعى ويا أرض أنصتى فان الله يريد ان يقص شأن بنى اسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده وهم كالغنم الضائعة التى لا راعى لها فآوى شاردتها وجمع ضالتها وجبر كسيرها وداوى مريضها وأسمن مهزولها وحفظ سمينها فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضها بعضا حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر اليه آخر فويل لهذه الامة الخاطئة الذين لا يدرون أنى جاهم الحين ان البعير مما يذكر وطنه فينتابه وان الحمار مما يذكر الآرى الذى يشبع عليه فيراجعه وان الثور مما يذكر المرج الذى سمن فيه فينتابه وان هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الخير وهم أولو الالباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير وانى ضارب لهم مثلا فليسمعوه قل كيف ترون فى ارض كانت خرابا زمانا لا عمران فيها وكان لها رب حكيم قوى فاقبل عليها بالعمارة وكره ان تخرب أرضه وهو قوى او يقال ضيع وهو حكيم فاحاط عليها جدارا وشيد فيها قصرا وأنبط فيها نهرا وصف فيها غراسا من الزيتون والرمان والنخيل والاعناب وألوان الثمار كلها وولى ذلك واستحفظه قيما ذا رأى وهمة حفيظا قويا أمينا فلما أطلعت جاءت طلعها خروبا فقالوا بئست الارض هذه فترى ان يهدم جدارها وقصرها ويدفن نهرها ويقبض قيمها ويحرق غراسها حتى تصير كما كانت اول مرة خرابا مواتا لا عمران فيها قال الله تعالى قل

لهم الجدار ديني والقصر شريعتي وان النهر كتابي وان القيم نبيي وان الغراس هم وان الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة وانى قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم وانه مثل ضربته لهم يتقربون الى بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللحم ولا آكله ويدعون ان يتقربوا الى بالتقوى والكف عن ذبح الانفس التي حرمتها وأيديهم مخضوبة منها وثيابهم متزملات بدمائها يشيدون لي البيوت مساجد ويطهرون اجوافها وينجسون قلوبهم واجسادهم ويدنسونها ويزوقون لي المساجد ويزينونها ويخربون عقولهم واخلاقهم ويفسدونها فاى حاجة الى تشييد البيوت ولست أسكنها واى حاجة الى تزويق المساجد ولست ادخلها انما أمرت برفعها لاذكر وأسبح فيها يقولون صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور صلاتنا وتصدقنا فلم تزك صدقتنا ودعونا بمثل حنين الحمام وبكينا بمثل عواء الذئاب في كل ذلك لا يستجاب لنا قال الله فاسألهم ما الذي يمنعني ان استجيب لهم ألست اسمع السامعين وأبصر الناظرين واقرب المجيبين وارحم الراحمين فكيف ارفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية الى من يحاربني ويحادني وينتهك محارمي ام كيف تزكو عندي صدقاتهم وهم يتصدقون باموال غيرهم انما آجر عليها اهلها المغصوبين ام كيف استجيب لهم دعاءهم وانما هو قولهم بالسنتهم والفعل من ذلك بعيد وانما أستجيب للداعي الذي وانما أستمع قول المستضعف المستكين وان من علامة رضائي رضا المساكين يقولون لما سمعوا كلامي وبلغتهم رسالتي انها أقاويل منقولة وأحاديث متواترة وتأليف مما تؤلف السحرة والكهنة وزعموا انهم لو شاؤا ان يأتوا بحديث مثله فعلوا ولو شاؤا ان يطلعوا على علم الغيب بما توحى اليهم الشياطين اطلعوا وانى قد قضيت يوم خلقت السموات والارض قضاء اثبته وحتمته على نفسي وجعلت دونه اجلا مؤجلا لابد انه واقع فان صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى انفذه وفي اى زمان يكون وان كانوا يقدرون على ان يأتوا بما يشاؤن فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها امضيت فاني مظهره على الدين كله ولو كره المشركون وان كانوا يقدرون على ان يؤلفوا ما يشاؤن فيؤلفوا مثل هذه الحكمة التي ادبر بها ذلك القضاء ان كانوا صادقين وانى قد قضيت يوم خلقت السماء والارض ان اجعل النبوة في الاجراء وان اجعل الملك في الرعاء والعز في الاذلاء والقوة في الضعفاء والغنى في الفقراء والعلم في الجهلة والحكمة في الاميين فسلهم مني هذا ومن القائم بهذا ومن أعوان هذا الامر وانصاره ان كانوا يعلمون وانى باعث لذلك نبيا أميا ليس اعمى من عميان ولا ضالا من ضالين وليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا متزين بالفحش ولا قوال للغنا أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم اجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى امامه والاسلام ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغني به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء مشتتة وأمم متفرقة واجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر توحيدا لي وايمانا بي واخلاصا لي يصلون قياما وقعودا وركعا وسجودا ويقاتلون في سبيلي صفوفا وزحوفا ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي ألهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح والتحميد والتهليل والمدحة والتمجيد لي في مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ويقعدون على رؤس الاشراف يطهرون لي الوجوه والاطراف ويعقدون لي الثياب على الانصاف قربانهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم فلما فرغ شعياء من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانفلقت له

فدخل فيها فادركه الشيطان فاخذ به دبة من ثو به فاراهم اياها فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه فى وسطها واستخلف الله على بنى اسرائيل بعد ذلك رجلا منهم يقال له ناشة بن اموص و بعث لهم ارمياء بن حلقيا نبيا وكان من سبط هرون بن عمران وذكر ابن اسحق انه الخضر واسمه ارمياء سمى الخضر لانه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهى تهتز خضراء فبعث الله ارمياء الى ذلك الملك ليسدده و يرشده ثم عظمت الاحداث فى بنى اسرائيل و ركبوا المعاصى واستحلوا المحارم فاوحى الله الى ارمياء ان ائت قومك من بنى اسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمى وعرفهم باحداثهم فقال ارمياء يارب انى ضعيف ان لم تقوينى عاجزان لم تبلغنى مخذول ان لم تنصرنى قال الله تعالى اولم تعلم ان الامور كلها تصدر عن مشيتى وان القلوب والالسنة بيدى أقلبها كيف شئت انى معك وان يصل اليك شئ معى فقام ارمياء فيهم ولم يدر ما يقول فالهمه الله عز وجل فى الوقت خطبة بليغة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال فى آخرها عن الله عز وجل وانى حلفت بعزتى لاقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولاسلطن عليهم جبارا قاسيا البسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم اوحى الله الى ارمياء انى مهلك بنى اسرائيل بيافث و يافث من اهل بابل فسلط الله عليهم بختنصر فخرج فى سبعمائة الف راية ودخل بيت المقدس بجنوده ووطئ الشام وقتل بنى اسرائيل حتى افناهم وخرب بيت المقدس وأمر جنوده ان يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ثم يقذفه فى بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملؤه ثم أمرهم ان يجمعوا من فى بلدان بيت المقدس كلهم فاجتمع عنده كل صغير و كبير من بنى اسرائيل فاختار منهم سبعين الف صبى فلما خرجت غنائم جنده وأراد ان يقسمها فيهم قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بنى اسرائيل فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فاصاب كل رجل منهم أربعة غلمان وفرق من بقى من بنى اسرائيل ثلاث فرق ثلثا أقرهم بالشام وثلثا سباهم وثلثا قتلهم وذهب بانات بيت المقدس و بالصبيان السبعين الفا حتى أقدمهم بابل فكانت هذه الوقعة الاولى التى أنزل الله عز وجل ببنى اسرائيل بظلمهم فذلك قوله سبحانه وتعالى فاذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا اولى باس شديد يعنى بختنصر وأصحابه ثم ان بختنصر أقام فى سلطانه ما شاء الله ثم رأى رؤيا عجيبة اذا رأى شيأ أصابه فانساه الذى رأى فدعا دانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل وكانوا من ذرارى الانبياء وسألهم عنها فقالوا أخبرنا بها نخبرك بتأويلها فقال ما أذكرها ولئن لم تخبرونى بها و بتأويلها لانزعن أكتافكم فخرجوا من عنده فدعوا الله وتضرعوا اليه فاعلمهم الله بالذى سألهم عنه فجاؤه فقالوا رأيت تمثالا قدماه وساقاه من فخار وركبتاه وفخذاه من نحاس و بطنه من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنقه من حديد قال صدقتم قالوا فبينما أنت تنظر اليه وقد اعجبك أرسل الله صخرة من السماء فدقته فهى التى انستكها قال صدقتم فما تأويلها قالوا تأويلها انك رأيت الملوك بعضهم كان ألين ملكا وبعضهم كان أحسن ملكا و بعضهم كان أشد ملكا والفخار أضعفه ثم فوقه النحاس أشد منه ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وافضل والذهب أحسن من الفضة وأفضل ثم الحديد ملكك فهو اشد واعز مما قبله والصخرة التى رأيت أرسل الله من السماء فدقته فنبى يبعثه الله من السماء فيدق ذلك أجمع ويصير الامر اليه ثم ان أهل بابل قالوا لبختنصر أرأيت هؤلاء الغلمان من بنى اسرائيل الذين سألناك ان تعطيناهم ففعلت فانا قد انكرنا نساءنا منذ كانوا معنا لقد رأينا نساءنا انصرفت وجوههن عنا اليهم فأخرجهم من بين أظهرنا واقتلهم فقال شأنكم بهم فمن أحب منكم ان يقتل من كان فى بيده فليفعل فلما قربوهم للقتل بكوا وتضرعوا الى الله عز وجل وقالوا يارب انا اصابنا البلاء بذنوب غيرنا فوعدهم الله ان يحييهم فقتلوا الا من كان منهم مع بختنصر منهم دانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل ثم لما اراد الله تعالى

هلاك بختنصر انبعث فقال لمن فى يده من بنى اسرائيل ارايتم هذا البيت الذى خربت والناس الذين قتلت منكم وماهذا البيت قالوا هو بيت الله وهؤلاء اهله كانوا من ذرارى الانبياء فظلموا وتعدوا فسلطت عليهم بذنوبهم وكان ربهم رب السموات والارض ورب الخلائق كلهم يكرمهم ويعزهم فلما فعلوا ما فعلوا سلطك عليهم وسلط عليهم غيرهم فاستكبر وتجبر وظن انه بجبروته فعل ذلك ببنى اسرائيل قال فاخبرونى كيف لى ان اطلع الى السماء العليا فاقتل من فيها واتخذها الى ملكا فانى قد فرغت من اهل الارض قالوا ما يقدر عليها احد من الخلائق قال لتفعلن اولاقتلنكم عن آخركم فبكوا وتضرعوا الى الله تعالى فبعث الله عز وجل عليه بقدرته بعوضة فدخلت منخره حتى عضت أم دماغه فما كان يقر ولا يسكن حتى يوجأ له رأسه على أم دماغه فلما مات شقوا رأسه فوجدا البعوضة عاضة على أم دماغه ليرى الله العباد قدرته ونجى الله من بقى من بنى اسرائيل فى يده وردهم الى الشام فبنوا فيه وكثروا حتى كانوا على احسن ما كانوا عليه ويزعمون ان الله سبحانه وتعالى أحيا أولئك الذين قتلوا فلحقوا بهم ثم انهم لما دخلوا الشام دخلوها وليس معهم من الله عهد كانت التوراة قد احترقت وكان عزير من السبايا الذين كانوا ببابل فلما رجع الى الشام جعل يبكى ليله ونهاره وخرج عن الناس فبينما هو كذلك اذ جاءه رجل فقال له يا عزير ما يبكيك قال أبكى على كتاب الله وعهده الذى كان بين أظهرنا الذى لا يصلح ديننا وآخرتنا غيره قال أفتحب أن يرد اليك قال نعم قال ارجع فصم وتطهر وطهر ثيابك ثم موعدك هذا المكان غدا فرجع عزير فصام وتطهر وطهر ثيابه ثم عمد الى المكان الذى وعده فجلس فيه فاتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء وكان ملكا بعثه الله اليه فسقاه من ذلك الاناء فمثلت التوراة فى صدره فرجع الى بنى اسرائيل فوضع لهم التوراة فاجبوه حبا لم يجبوا حبه شيأ قط ثم قبضه الله تعالى وجعلت بنو اسرائيل بعد ذلك يحدثون الاحداث ويعود الله عليهم و يبعث فيهم الرسل ففريقا يكذبون وفريقا يقتلون حتى كان آخر من بعث اليهم من انبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وكانوا من بيت آل داود فزكريا مات وقيل قتل وقصدوا عيسى ليقتلوه فرفعه الله من بين اظهرهم وقتلوا يحيى فلما فعلوا ذلك بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له خردوش فسار اليهم باهل بابل حتى دخل عليهم الشام فلما ظهر عليهم امر رأسا من رؤساء جنوده يقال له بيورزاذان صاحب القتل فقال له انى قد كنت حلفت بالهى لئن أنا ظفرت على اهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى يسيل الدم فى وسط عسكرى الا أن لا اجد أحدا أقتله فامره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ثم ان بيورزاذان دخل بيت المقدس فقام فى البقعة التى كانوا يقربون فيها قربانهم فوجد فيها دما يغلى فسألهم عنه فقال يا بنى اسرائيل ما شأن هذا الدم يغلى أخبرونى خبره فقالوا هذا دم قربان لنا قربناه فلم يقبل منا فلذلك يغلى ولقد قربنا القربان من ثمانمائة سنة فتقبل منا الا هذا فقال ما صدقتمونى فقالوا لو كان كاول زماننا لتقبل منا ولكن قد انقطع منا الملك والنبوة والوحى فلذلك لم يقبل منا فذبح بيورزاذان منهم على ذلك الدم سبعمائة وسبعين روحا من رؤسهم فلم يهدأ الدم فامر بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فامر بسبعة آلاف من شيبهم وازواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فلما رأى بيورزاذان ان الدم لا يهدأ قال لهم يا بنى اسرائيل ويلكم أصدقونى واصبروا على امر ربكم فقد طالما ملكتم فى الارض تفعلون ما شئتم قبل ان لا اترك منكم نافخ نار من ذكر ولا أنثى الا قتلته فلما رأوا الجهد وشدة القتل صدقوه الخبر فقالوا ان هذا دم نبى كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله تعالى فلو كنا أطعناه كنا أرشدنا وكان يخبرنا عن امركم فلم نصدقه فقتلناه فهذا دمه فقال لهم بيورزاذان ما كان اسمه قالوا يحيى بن زكريا قال الآن صدقتمونى لمثل هذا ينتقم ربكم منكم فلما علم بيورزاذان انهم صدقوه خر ساجدا وقال لمن حوله أغلقوا ابواب المدينة وأخرجوا من كان ههنا من جيش خردوش وخلا فى بنى اسرائيل

القيامة (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) محبسا يقال للسجن محصر وحصير (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) للحالة التى هى اقوم الحالات وأسدها وهى توحيد الله والايمان برسله والعمل بطاعته او للملة او للطريقة (و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) و يبشر حمزة وعلى (ان لهم) بأن لهم (أجرا كبيرا) اى الجنة (وان الذين) وبان الذين (لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا) اى اعددنا قلبت تاء (لهم عذابا أليما) يعنى النار والآية ترد القول بالمنزلة بين المنزلتين حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم والكافرين وجزاءهم ولم يذكر الفسقة (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير) اى ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله وولده كما يدعو لهم بالخير أو يطلب النفع العاجل وان قل بالضرر الآجل وان جل (وكان الانسان عجولا) يسرع الى طلب كل ما يقع فى قلبه ويخطر بباله لا يتأنى فيه تأنى المتبصر او أريد بالانسان الكافر وانه يدعوه بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير اذا مسته الشدة وكان الانسان عجولا يعنى ان العذاب آتيه ولا لا محالة فما هذا الاستعجال وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو النضر بن الحرث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية فأجب

ثم قال يا يحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما اصاب قومك من اجلك ومن قتل منهم فاهدأ باذن ربك قبل ان لا ابقى من قومك احدا الا قتلته فهدأ الدم باذن الله تعالى ورفع بيورزاذان عنهم القتل وقال آمنت بما آمنت به بنو اسرائيل وايقنت انه لا رب غيره وقال لبنى اسرائيل ان خردوش امرنى أن اقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره وانى لا استطيع أن اعصيه قالوا له افعل ما أمرت به فامرهم فحفروا خندقا وامرهم باموالهم من الخيل والبغال والحمير والابل والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم فى العسكر وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من المواشى فلم يظن خردوش الا ان ما فى الخندق من دماء بنى اسرائيل فلما بلغ الدم عسكره ارسل الى بيورزاذان أن ارفع عنهم القتل ثم انصرف الى بابل وقد افنى بنى اسرائيل او كاد ان يفنيهم وهى الوقعة الاخيرة التى انزل الله ببنى اسرائيل فى قوله لتفسدن فى الارض مرتين فكانت الوقعة الاولى بختنصر وجنوده والاخرى خردوش وجنوده وكانت اعظم الوقعتين فلم تقم لهم بعد ذلك راية وانتقل الملك بالشام ونواحيها الى الروم واليونانيين الا ان بقايا بنى اسرائيل كثروا وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك وكانوا فى نعمة الى ان بدلوا واحدثوا الاحداث فسلط الله عليهم ططوس بن اسبيانوس الرومى فخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرياسة وضربت عليهم الذلة والمسكنة فما لبثوا فى أمة الا وعليهم الصغار والجزية وبقى بيت المقدس خرابا الى خلافة عمر بن الخطاب فعمره المسلمون بامره وقيل فى سبب قتل يحيى عليه السلام ان ملك بنى اسرائيل كان يكرمه ويدنى مجلسه وان الملك هوى بنت امرأته وقال ابن عباس ابنة اخيه فسأل يحيى تزويجها فنهاه عن نكاحها فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى وعمدت حين جلس الملك على شرابه فالبستها ثيابا رقاقا حمرا وطيبتها والبستها الحلى وارسلتها الى الملك وامرتها ان تسقيه فان هو راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته فاذا اعطاها ما سألت سألت رأس يحيى بن زكريا وأن يؤتى به فى طست ففعلت فلما راودها قالت لا افعل حتى تعطينى ما اسألك قال فما تسألينى قالت رأس يحيى بن زكريا فى هذا الطست فقال ويحك سلينى غيره هذا قالت ما أريد غيره هذا فلما ابت عليه بعث فاتى برأسه حتى وضع بين يديه والرأس يتكلم يقول لا يحل لك فلما اصبح اذا دمه يغلى فامر بتراب فألقى عليه فرقى الدم يغلى فلا زال يغلى ويلقى عليه التراب وهو يغلى حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يرقى ويغلى وسلط الله عليهم ملك بابل فخرب بيت المقدس وقتل سبعين الفا حتى سكن دمه * قوله عز وجل (عسى ربكم ان يرحمكم) يعنى يا بنى اسرائيل بعد انتقامه منكم فيرد الدولة اليكم (وان عدتم) اى الى المعصية (عدنا) اى الى العقوبة قال قتادة فعادوا فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم عليهم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) اى سجنا ومحبسا من الحصر الذى هو مجلس الحبس وقيل فراشا من الحصير الذى يبسط ويفترش قوله تعالى (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) اى الى الطريقة التى هى اصوب وقيل الى الكلمة التى هى أعدل وهى شهادة ان لا اله الا الله (و يبشر) يعنى القرآن (المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا) يعنى الجنة (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما) يعنى النار فى الآخرة (و يدع الانسان) اى على نفسه وولده وماله (بالشر) يعنى قوله عند الغضب اللهم اهلكه اللهم العنه ونحو ذلك (دعاءه بالخير) اى كدعائه ربه ان يهب له النعمة والعافية ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك ولكن الله لا يستجيب بفضله وكرمه (وكان الانسان عجولا) اى بالدعاء على ما يكره ان يستجاب له فيه وقال ابن عباس معناه ضجر الاصبر له على سراء

فضربت عنقه صبرا وسقوط الواو من يدع فى الخط على موافقة اللفظ (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) اى الليل والنهار آيتان فى انفسهما فتكون الاضافة فى آية الليل وآية النهار للتبيين كاضافة العدد الى المعدود اى فمحونا الآية المبصرة (وجعلنا الآية التى هى الليل وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة او وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل التى هى القمر حيث لم يخلق له شعاعا كشعاع الشمس فترى الاشياء به رؤية بينة وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شئ (لتبتغوا فضلا من ربكم) لتتوصلوا ببياض النهار الى التصرف فى معايشكم (ولتعلموا) باختلاف الجديدين (عدد السنين والحساب) يعنى حساب الآجال ومواسم الاعمال ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص المكتسبين والتجار (وكل شئ) مما تفتقرون اليه فى دينكم ودنياكم (فصلناه تفصيلا) بيناه بيانا غير ملتبس فازحنا عللكم وماتركنا لكم حجة علينا (وكل انسان ألزمناه طائره) عمله (فى عنقه) يعنى ان عمله لازم له لزوم القلادة او الغل للعنق لا يفك عنه (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه) هو صفة لكتابا يلقاه شامى (منشورا) حال من يلقاه يعنى غير مطوى ليمكنه قراءته او هما صفتان للكتاب ونقول له

ولاضراء قوله سبحانه وتعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) اى علامتين دالتين على وحدانيتنا وقدرتنا وفى معنى الآية قولان احدهما ان يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار وهو انه جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدنيا والدين اما فى الدين فلان كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير مع كونهما متعاقبين على الدوام ففيه اقوى دليل على ان لهما مدبرا يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة واما فى الدنيا فلان مصالح العباد لا تتم الا بهما ففى الليل يحصل السكون والراحة وفى النهار يحصل التصرف فى المعاش والكسب والقول الثانى ان يكون المراد وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر (فمحونا آية الليل) اى جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسا مظلما لا يستبان فيه شئ (وجعلنا آية النهار مبصرة) اى نبصر فيه الاشياء رؤية بينة قال ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين جزأ ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزأ فجعلها مع نور الشمس وحكى ان الله امر جبريل فامر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور وسأل ابن الكواء عليا عن السواد الذى فى القمر فقال هو اثر المحو (لتبتغوا فضلا من ربكم) اى لتتوصلوا ببياض النهار الى استبانة اعمالكم والتصرف فى معايشكم (ولتعلموا) اى باختلاف الليل والنهار (عدد السنين والحساب) اى ما تحتاجون اليه منه ولولا ذلك لما علم احد حساب الاوقات ولتعطلت الامور ولو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يعرف وقت الحج ولا وقت حلول الديون المؤجلة * واعلم ان الحساب مبنى على اربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنين فالعدد للسنين والحساب لما دونها من الشهور والايام والساعات وليس بعد هذه المراتب الاربعة الا التكرار (وكل شئ فصلناه تفصيلا) يعنى وكل شئ تفتقرون اليه من أمر دينكم ودنياكم قد بيناه بيانا شافيا واضحا غير ملتبس قيل انه سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال آيتى الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان من الله تعالى على اهل الدنيا وكل ذلك تفضل منه فلا جرم قال وكل شئ فصلناه تفصيلا * قوله عزوجل (وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه) قال ابن عباس عمله وما قدر عليه فهو ملازمه ايما كان وقيل خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به وقيل ما من مولود الا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى او سعيد وقيل اراد بالطائر ما قضى عليه انه عامله وهو صائر اليه من سعادة او شقاوة وقيل هو من قولك طار لسهم اذا خرج يعنى ألزمناه ما طار له من عمله لزوم القلادة او الغل لا ينفك عنه والعنق فى قوله فى عنقه كناية عن اللزوم كما يقال جعلت هذا فى عنقك اى قلدتك هذا العمل والزمتك الاحتفاظ به وانما خص العنق من بين سائر الاعضاء لانه موضع القلائد والاطواق والغل مما يزين او يشين فان كان عمله خيرا كان له كالقلادة او الحلى فى العنق وهو مما يزينه وان كان عمله شرا كان له كالغل فى عنقه وهو مما يشينه (ونخرج له يقول تبارك وتعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) قيل بسطت للانسان صحيفتان ووكل به ملكان يحفظان عليه حسناته وسيآته فاذا مات طويت الصحيفتان وجعلتا معه فى عنقه فلا ينشران الى يوم القيامة (اقرأ كتابك) اى يقال له اقرأ كتابك قيل يقرأ يوم القيامة من لم يكن قارئا (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) اى محاسبا قال الحسن لقد عدل عليك (١) من جعلك

(اقرأ كتابك) اى كتاب اعمالك وكل يبعث قارئا (كفى بنفسك اليوم عليك) الباء زائدة اى كفى نفسك (حسيبا) تمييز وهو بمعنى حاسب وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا او بمعنى الكافى وضع موضع الشهيد فعدى بعلى لان الشاهد يكفى المدعى ما اهمه

(١) قوله عدل عليك هكذا فى الاصل الطبع وفى بعض النسخ البك بدل عليك وفى الخطيب عدل والله فى حقك من الخ وفى الكشاف بابن آدم انصفك والله من الخ اه

وانما ذكر حسيبا لانه بمنزلة الشهيد والقاضي والامير اذ الغالب ان يتولى هذه الامور الرجال فكانه قيل كفى نفسك رجلا حسيبا وتوزر النفس بالشخص (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) اى فلها ثواب الاهتداء وعليها وبال الضلال (ولا تزر وازرة وزر اخرى) اى كل نفس حاملة وزرا فانما تحمل وزرها لا وزر نفس اخرى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وما صح منا ان نعذب قوما عذاب استئصال ١٧٤ فى الدنيا الا بعد ان نرسل اليهم رسولا يلزمهم الحجة (واذا أردنا ان نهلك قرية) اى اهل قرية

حسيب نفسك وقيل يقول الكافر انك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا قوله سبحانه وتعالى (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) يعنى ان ثواب العمل الصالح مختص بفاعله وعقاب الذنب مختص بفاعله ايضا ولا يتعدى منه الى غيره وهو قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر اخرى) اى لا تحمل حاملة ثقل أخرى من الآثام ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد بل كل أحد مختص بذنبه (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لاقامة الحجة وقطعا للعذر وفيه دليل على ان ما وجب انما وجب بالسمع لا بالعقل قوله سبحانه وتعالى (واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها) فى معنى الآية قولان أحدهما ان المراد منه الامر بالفعل ثم ان لفظ الآية لا يدل على انه تعالى بماذا أمرهم فقال أكثر المفسرين معناه انه تعالى امرهم بالاعمال الصالحة وهى الايمان والطاعة وفعل الخير والقوم خالفوا ذلك الامر وفسقوا والقول الثانى أمرنا مترفيها اى كثرنا فساقها يقال امر القوم اذا كثروا وأمرهم الله اذا كثرهم ومنه الحديث خير المال مهرة مأمورة اى كثيرة النتاج والنسل فعلى هذا قوله تعالى أمرنا ليس من الامر بالفعل والمترف هو الذى أبطرته النعمة وسعة العيش (ففسقوا فيها) اى خرجوا عما أمرهم الله به من الطاعة (فحق عليها القول) اى وجب عليها العقاب (فدمرناها تدميرا) اى اهلكناها اهلاك استئصال والدمار الهلاك والخراب (ف) عن ام المؤمنين زينب بنت جحش أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق باصبعيه الابهام والتى تليها قالت زينب قلت يا رسول الله انهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث (قوله ويل للعرب) ويل كلمة تقال لمن وقع فى هلكة او أشرف ان يقع فيها وقوله اذا كثر الخبث اى الشر قوله تعالى (وكم أهلكنا من القرون) اى المكذبة (من بعد نوح) وهم عاد وثمود وغيرهم من الامم الخالية يخوف الله بذلك كفار قريش قال عبد الله ابن ابى اوفى القرن عشرون ومائة سنة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول قرن وبزيد بن معاوية فى آخره وقيل القرن مائة سنة وروى عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازنى أن النبى صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم مازلنا نعده حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقيل القرن ثمانون سنة وقيل أربعون (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) يعنى انه عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات لا يخفى عليه شئ من احوال الخلق قوله عز وجل (من كان يريد العاجلة) اى الدار العاجلة يعنى الدنيا (عجلنا له فيها ما نشاء) اى من البسط او التقتير (لمن نريد) ان نفعل به ذلك او اهلاكه وقيل فى معنى الآية عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد اى القدر الذى نشاء نجعله له فى الدنيا لا الذى يشاء هو ولمن نريد ان نجعل له شيأ قدرناه له وهذا لمن أراد بعمله ظاهر الدنيا ومنفعتها وبيان ان من أرادها لا يدرك منها الا ما قدر له (ثم جعلنا له) اى فى الآخرة (جهنم يصلاها) اى يدخلها (مذموما مدحورا) اى مطرودا مباعدا قوله سبحانه وتعالى

(أمرنا مترفيها) متنعميها وجبابرتها بالطاعة عن أبى عمرو والزجاج (ففسقوا فيها) اى خرجوا عن الامر كقولك امرته فعصى او أمرنا كثرنا دليله قراءة يعقوب امرنا ومنه الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة اى كثيرة النسل (فحق عليها القول) فوجب عليها الوعيد (فدمرناها تدميرا) فاهلكناها اهلاكا (وكم) مفعول (اهلكنا من القرون) بيان لكم (من بعد نوح) يعنى عادا وثمود وغيرهما (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا) وان اخفوها فى الصدور (بصيرا) وان أرخوا عليها الستور (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء) لا ما يشاء (لمن نريد) بدل من له باعادة الجار وهو بدل البعض من الكل اذ الضمير يرجع الى من اى من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة تفضلنا عليه من منافعها (ومن بما نشاء لمن نريد فقيد المعجل بمشيئته والمعجل له بارادته وهكذا الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون الا بعضا منه وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة وأما المؤمن التقى فقد اختار غنى الآخرة فان أوتى حظا من الدنيا فبها والا فربما كان الفقر خيرا له (ثم جعلنا له جهنم) فى الآخرة (يصلاها) يدخلها (مذموما) ممقوتا (مدحورا) مطرودا من رحمة الله

(ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) هو مفعول به اوحقها من السعى وكفاها من الاعمال الصالحة (وهو مؤمن) مصدق لله فى وعده ووعيده (فأولئك كان سعيهم مشكورا) مقبولا عند الله مثابا عليه عن بعض السلف من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا الآية فانه شرط فيها ثلاث شرائط فى كون السعى مشكورا ارادة الآخرة والسعى فيما كلف والايمان الثابت (كلا) كل واحد من الفريقين والتنوين عوض عن المضاف اليه وهو منصوب بقوله (نمد هؤلاء) بدل من كلا اى نمد هؤلاء (وهؤلاء) اى من أراد العاجلة ومن أراد الآخرة (من عطاء ربك) رزقه ومن تتعلق بنمد والعطاء اسم للعطى اى نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مددا للسالف لا نقطعه فنرزق المطيع والعاصى جميعا على ١٧٠ وجه التفضل (وما كان عطاء ربك محظورا) ممنوعا عن عباده وان عصوا (انظر) بعين الاعتبار (كيف فضلنا بعضهم على بعض) فى المال والجاه والسعة والكمال (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) روى ان قوما من الاشراف من دونهم اجتمعوا بباب عمر رضى الله عنه فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على ابى سفيان فقال سهيل بن عمر وانما أتينا من قبلنا انهم دعوا ودعينا يعنى الى الاسلام فاسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت فى الآخرة ولئن حسدتموهم على باب عمر لما اعد الله لهم فى الجنة أكثر (لا تجعل مع الله الها آخر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به امته (فتقعد مذموما مخذولا) فتصير جامعا على نفسك الذم والخذلان وقيل مشتوما بالاهانة محروما عن الاعانة اذ الخذلان ضد النصر والعون دليله قوله تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده حيث ذكر الخذلان بمقابلة النصر (وقضى ربك) وأمر امرا مقطوعا به (الا تعبدوا الا اياه) ان مفسرة ولا تعبدوا نهى او بان لا تعبدوا (وبالوالدين احسانا) وأحسنوا بالوالدين احسانا او بان تحسنوا بالوالدين احسانا (اما يبلغن عندك الكبر) اما هى ان الشرطية زيدت عليها ما تأكيدا لها ولذا دخلت النون المؤكدة فى الفعل ولو افردت ان لم يصح دخولها لا تقول ان تكرمن زيدا يكرمك ولكن اما تكرمنه (احدهما) فاعل يبلغن وهو فى قراءة حمزة وعلى يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع الى الوالدين (او كلاهما) عطف على احدهما فاعلا و بدلا (فلا تقل لهما اف) مدنى وحفص اف مكى وشامى اف غيرهم وهو صوت بدل على تضجر فالكسر على اصل التقاء الساكنين والفتح للتخفيف والتنوين لارادة التنكير اى اتضجر تضجرا وتركه لقصد

(ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) اى عمل لها عملها (وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) اى مقبولا قيل فى الآية ثلاث شرائط فى كون السعى مشكورا ارادة الآخرة بعمله بان يعقد بها همه و يتجافى عن دار الغرور والسعى فيما كلف من الفعل والترك والايمان الصحيح الثابت وعن بعض السلف الصالح من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية * قوله عز وجل (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء) اى نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة (من عطاء ربك) يعنى برزقهما جميعا ثم يختلف الحال بهما فى المآل (وما كان عطاء ربك محظورا) اى ممنوعا عن عباده والمراد بالعطاء العطاء فى الدنيا اذ لا حظ للكافر فى الآخرة (انظر) يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) فى الرزق والعمل يعنى طالب العاجلة وطالب الآخرة (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) يعنى ان تفاضل الخلق فى درجات منافع الدنيا محسوس فتفاضلهم فى درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم فان نسبة التفاضل فى درجات الآخرة الى التفاضل فى درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فاذا كان الانسان تشتد رغبته فى طلب الدنيا فلأن تقوى وتشتد رغبته فى طلب الآخرة اولى لانها دار المقامة قوله تعالى (لا تجعل مع الله الها آخر) الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقيل معناه لا تجعل أيها الانسان مع الله الها آخر وهذا أولى (فتقعد مذموما) اى من غير حمد (مخذولا) اى غير ناصر قوله سبحانه تعالى (وقضى ربك) اى وأمر ربك قاله ابن عباس وقيل معناه وأوجب ربك وقيل معناه الحكم والجزم وقيل ووصى ربك وحكى عن الضحاك انه قراها ووصى ربك وقال انهم صحفوا الواو بالصاد فصارقافا وهى قراءة على وابن مسعود قال الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير هذا القول بعيد جدا لانه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق الى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الامان على القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك انه طعن عظيم فى الدين (ألا تعبدوا الا اياه) فيه وجوب عبادة الله والمنع من عبادة غيره وهذا هو الحق لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا يليق الا بمن له الانعام والافضال على عباده ولا منعم الا الله فكان هو المستحق للعبادة لا غيره (وبالوالدين احسانا) اى وأمر بالوالدين احسانا اى برا بهما وعطفا عليهما واحسانا اليهما (اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما) معناه انهما يبلغان الى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أول العمر واعلم ان الله سبحانه وتعالى لما ذكر هذه الجملة كلف الانسان فى حق الوالدين خمسة أشياء الاول قوله تعالى (فلا تقل لهما أف)

التعريف اى أتضجر التضجر المعلوم (ولا تنهرهما) ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك والنهى والنهر أخوان (وقل لهما) بدل التأفيف والنهر (قولا كريما) جميلا لينا كما يقتضيه حسن الادب او هو ان يقول يا أبتاء يا أماه ولا يدعوهما باسمائهما فانه من الجفاء ولا بأس به فى غير وجهه كما قالت عائشة رضى الله عنها نحلنى ابو بكر كذا وفائدته عندك انهما اذا صارا كلا على ولدهما ولا كافل لهما غيره فهما عنده فى بيته وكنفه وذلك اشق عليه فهو مأمور بان يستعمل معهما اليين الخلق حتى لا يقول لهما اذا أضجره ما يستقذر منهما الى فضلا عما يزيد عليه ولقد بالغ ١٧٦ سبحانه فى التوصية بهما حيث افتتحها بان شفع الاحسان اليهما بتوحيده ثم ضيق الامر

فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى ادنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع احوال لا يكاد يصبر الانسان معها (واخفض لهما جناح الذل) اى اخفض لهما جناحك كما قال واخفض جناحك للمؤمنين فاضافه الى الذل كما اضيف حاتم الى الجود والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل (من الرحمة) من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم الى من كان افقر خلق الله اليهما بالامس وقال الزجاج والق جانبك متذللا لهما من مبالغتك فى الرحمة لهما (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) ولا تكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لهما وادع الله بان يرحمهما رحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتهما لك والمراد بالخطاب غيره عليه السلام والدعاء مختص بالابوين المسلمين وقيل اذا كانا كافرين له ان يسترحم عقوقهما

وهى كلمة تضجر وكراهية وقيل ان اصل هذه الكلمة انه اذا سقط عليك تراب أو رماد ونفخت فيه تزيله تقول أف ثم انهم توسعوا بذكر هذه الكلمة الى كل مكروه يصل اليهم والثانى قوله (ولا تنهرهما) اى تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره بمعنى فان قلت المنع من التأفيف ابلغ من المنع من الانتهار فما وجه الجمع قلت المراد من قوله ولا تقل لهما اف المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من قوله ولا تنهرهما المنع من اظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليهما الثالث قوله (وقل لهما قولا كريما) اى حسنا جميلا لينا كما يقتضيه حسن الادب معهما وقيل هو يا أماه يا أبتاه وقيل لا يكنيهما وقيل هو ان يقول لهما كقول العبد الذليل المذنب للسيد الفظ الغليظ الرابع قوله عز وجل (واخفض لهما جناح الذل) اى ألن لهما جناحك واخفضه لهما حتى لا تمتنع عن شئ احباه (من الرحمة) اى من الشفقة عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم اليك كما كنت فى حال الصغر والضعف مفتقرا اليهما الخامس قوله سبحانه وتعالى (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) اى وادع الله لهما ان يرحمهما برحمته الباقية وأراد به اذا كانا مسلمين فاما اذا كانا كافرين فان الدعاء منسوخ فى حقهما بقوله سبحانه وتعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى وقيل يجوز الدعاء لهما بان يهديهما الله الى الاسلام فاذا هداهما فقد رحمهما وقيل فى معنى هذه الآية ان الله سبحانه وتعالى بالغ فى الوصية بهما حيث افتتحها بالامر بتوحيده وعبادته ثم شفعه بالاحسان اليهما ثم ضيق الامر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تسوؤهما وأن يذل ويخضع لهما ثم ختمها بالامر بالدعاء لهما والترحم عليهما

(فصل) فى ذكر الاحاديث التى وردت فى بر الوالدين (ق) عن ابى هريرة قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى قال أمك ثم أمك ثم أبالك ثم أدناك فادناك (م) عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه قيل من يا رسول الله قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة (م) عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزى ولدا والده الا ان يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه فى الجهاد فقال احى والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد وعنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رضا الرب فى رضا الوالدين وسخط الرب فى سخط الوالدين أخرجه الترمذى مرفوعا وموقوفا قال وهو أصح عن ابى الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد أوسط أبواب الجنة فان شئت فضيع ذلك الباب أو احفظه أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح (م) عن عبد الله بن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم اى الاعمال أحب الى الله تعالى قال الصلاة لوقتها قلت ثم اى قال بر الوالدين قلت ثم اى قال الجهاد فى سبيل الله تعالى قوله سبحانه وتعالى (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) اى من بر الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير وعدم

لهما بشرط الايمان وان يدعو الله لهما بالهداية وعن النبى صلى الله عليه وسلم رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما وروى يفعل البار ما شاء ان يفعل فان يدخل النار ويفعل العاق ما شاء ان يفعل فلن يدخل الجنة وعنه عليه السلام اياكم وعقوق الوالدين فان الجنة يوجد ريحها من مسيرة الف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار ازاره خيلاء ان الكبرياء لله رب العالمين (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) بما فى ضمائركم من قصد البر الى الوالدين ومن النشاط والكراهة فى خدمتهما

(ان تكونوا صالحين) قاصدين الصلاح والبر ثم فرطت منكم فى حال الغضب وعند حرج الصدر هنة تؤدى الى اذاهما ثم أبتم الى الله واستغفرتم منها (فانه كان للاوّابين غفورا) الاوّاب الذى اذا أذنب بادر الى التوبة فجائز ان يكون هذا عاما لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ويندرج تحته الجانى على ابويه التائب من جنايته لوروده على اثره (وآت ذا القربى) منكّ (حقه) اى النفقة اذا

عقوقهما (ان تكونوا صالحين) اى ابرارا مطيعين قاصدين الصلاح والبر بعد تقصير كان منكم فى القيام بما لزمكم من حق الوالدين اوغيرهما اوقيل فرط منكم فى حال الغضب وعند حرج الصدر وما لايخلو منه البشر مما يؤدى الى أذاهما ثم أنبتم الى الله واستغفرتم مما فرط منكم (فانه كان للاوّابين) للتوّابين (غفورا) قال سعيد بن جبير فى هذه الآية هو الرجل تكون منه البادرة الى ابويه لا يريد بذلك الا الخير فانه لا يؤاخذ بها وقال سعيد بن المسيب الاوّاب الذى يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وعنه انه الراجع الى الخير وقال ابن عباس الاوّاب الراجع الى الله فيما يحزنه و ينوبه وعنه انهم المسبحون وقيل هم المصلون وقيل هم الذين يصلون صلاة الضحى يدل عليه ماروى عن زيد بن ارقم قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على اهل قباء وهم يصلون الضحى فقال صلاة الاوابين اذا رمضت الفصال اخرجه مسلم (قوله اذا رمضت الفصال) يريد ارتفاع الضحى وان تحمى الرمضاء وهو الرمل بحر الشمس فتبرك الفصال من الحر وشدة احراقه اخفافها والفصال جمع فصيل وهى أولاد الابل الصغار وقيل الاوّاب الذى يصلى بين المغرب والعشاء يدل عليه ماروى عن ابن عباس قال ان الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهى صلاة الاوابين قوله سبحانه وتعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) قيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أمره الله سبحانه وتعالى ان يؤتى أقاربه حقوقهم وقيل انه خطاب للكل وهو انه سبحانه وتعالى وصى بعد بر الوالدين بالقرابة ان يؤتوا حقهم من صلة الرحم والمودة والزيادة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك وقيل ان كانوا محاويج وهو موسر لزمه الانفاق عليهم وهو مذهب أبى حنيفة وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه لا تلزم النفقة الا الوالد على ولده اوولد على والديه فحسب وقيل أراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم الكلام على المسكين وابن السبيل (ولا تبذر تبذيرا) اى لا تنفق مالك فى المعصية وقيل لو أنفق الانسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق درهما ومدّا فى باطل كان مبذرا وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال فى غير حقه وقيل هو انفاق المال فى العمارة على وجه السرف وقيل ان بعضهم أنفق نفقة فى خير فاكثر فقال له صاحبه لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) يعنى أولياءهم وأصدقاءهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف وقيل أمثالهم فى الشر وهذا غاية المذمة لانه لا شر من الشياطين والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو أخوهم (وكان الشيطان لربه كفورا) اى جحودا للنعمة فما ينبغى ان يطاع لانه يدعو الى مثل عمله * قوله عز وجل (واما تعرضن عنهم) نزلت فى مهجع و بلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم فى الاحايين ما يحتاجون اليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم و يمسك عن القول فنزلت هذه الآية والمعنى وان تعرض عن هؤلاء الذين أمرت ان تؤتيهم (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) اى انتظار رزق من الله ترجوه ان يأتيك (فقل لهم قولا ميسورا) اى لينا جميلا اى عدهم وعدا طيبا تطيب به قلوبهم وقيل هو ان يقول رزقنا الله وايا كم من فضله قوله سبحانه وتعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) قال جابر أتى صبى فقال يا رسول الله ان أمى تستكسيك درعا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه

كانوا محارم فقراء (والمسكين وابن السبيل) اى وآت هؤلاء حقهم من الزكاة (ولا تبذر تبذيرا) ولا تسرف اسرافا قيل التبذير تفريق المال فى غير الحق والمحل فعن مجاهد لو أنفق مدا فى باطل كان تبذيرا وقد أنفق بعضهم نفقة فى خير فاكثر فقال له صاحبه لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) امثالهم فى الشرارة وهى غاية المذمة لانه لا شر من الشيطان اوهم اخوانهم واصدقاؤهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف (وكان الشيطان لربه كفورا) فما ينبغى ان يطاع فانه لا يدعو الا الى مثل فعله (واما تعرضن عنهم) وان اعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) اى وان اعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو ان يفتح لك فسمى

الرزق رحمة فردهم ردا جميلا فوضع الابتغاء موضع الفقد لان فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب يقال يسر الامر وعسر مثل سعد الرجل ونحس فهو مفعول وقيل معناه فقل لهم رزقنا الله وايا كم من فضله على أنه دعا لهم بيسر عليهم فقرهم كان معناه قولا ذا ميسور وهو اليسر اى دعاء فيه يسر وابتغاء مفعول له اومصدر فى موضع الحال وترجوها حال (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك

ولا تبسطها كل البسط) كل نصب على المصدر لاضافته اليه وهذا تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف أمر بالاقتصاد الذى هو بين الاسراف والتقتير (فتقعد ملوما) فتصير ملوما عند الله لان المسرف غير مرضى عنده وعند الناس يقول الفقير اعطى فلانا وحرمنى ويقول الغنى مايحسن تدبير أمر المعيشة وعند نفسك اذا احتجت فندمت على مافعلت (محسورا) منقطعا بك لاشئ عندك من حسره السفر اذا أثر فيه أثرا بليغا ١٧٨ اوعاريا من حسر رأسه وقد خاطرت مسلمة ضرتها اليهودية فى انه يعنى محمدا عليه السلام أجود

من موسى عليه السلام فبعثت ابنتها تسأله قميصه الذى عليه فدفعه وقعد عريانا فاذن بلال بالصلاة وانتظره فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فانزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك اى لا تمسك يدك عن النفقة فى الحق والخير كالمغلولة يده لا يقدر على مدها (ولا تبسطها) اى بالعطاء (كل البسط) اى فتعطى جميع ماعندك وقيل هذا تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف أمر بالاقتصاد الذى هو بين الاسراف والتقتير (فتقعد ملوما) اى عند الله لان السرف غير مرضى عنده وقيل ملوما عند نفسك وأصحابك أيضا يلومونك على تضييع المال بالكلية وقيل يلومك سائلوك على الامساك اذا لم تعطهم (محسورا) اى منقطعا لاشئ عندك تنفقه وقيل محسورا اى نادما على مافرط منك ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يرهقه من الاضاقة بان ذلك ليس لهوان بك عليه ولا لبخل منه عليك فقال تعالى (ان ربك يبسط) اى يوسع (الرزق لمن يشاء ويقدر) اى يقتر ويضيق وذلك لمصلحة العباد (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعنى انه سبحانه وتعالى عالم باحوال جميع عباده ومايصلحهم فالتفاوت فى أرزاق العباد ليس لاجل البخل بل لاجل رعاية مصالح العباد * قوله عز وجل (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق) اى فاقة وفقر (نحن نرزقهم واياكم) وذلك ان أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة او يخافون عليهم من النهب والغارات اوان يشركوهن لغير الكفاءة لشدة الحاجة وذلك عار شديد عندهم فنهاهم الله عن قتلهن وقال نحن نرزقهم واياكم يعنى ان الارزاق بيد الله فكما انه فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتحه على النساء (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) اى اثما كبيرا (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة) اى قبيحة زائدة على حد القبح (وساء سبيلا) اى بئس طريقا طريقه وهو ان تغصب امرأة غيرك او أخته او بنته من غير سبب والسبب ممكن وهو الصهر الذى شرعه الله تعالى قيل ان الزنا يشتمل على أنواع من المفاسد منها المعصية وايجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الانساب فلا يعرف الرجل ولد من هو ولا يقوم أحد بتربيته وذلك يوجب ضياع الاولاد وانقطاع النسل وذلك يوجب خراب العالم * قوله عز وجل (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) الاصل فى القتل هو الحرمة المغلظة وحل القتل انما ثبت بسبب عارض فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الاصل ثم استثنى الحالة التى يحصل فيها حل القتل وهى الاسباب العرضية فقال الا بالحق اى الا باحدى ثلاث كما روى عن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ان لا اله الا الله وأنى رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة أخرجاه فى الصحيحين (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) اى قوة وولاية على القاتل بالقتل وقيل سلطانه هو انه يتخير فان شاء استقاد منه وان شاء أخذ الدية وان شاء عفا (فلا يسرف فى القتل) اى الولى قال ابن عباس لا يقتل غير القاتل وذلك انهم كانوا فى الجاهلية اذا قتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه وقيل معناه اذا كان القتيل واحدا فلا يقتل به جماعة بل

فقال للصبى من ساعة الى ساعة يظهر كذا فعد اليها وقتا آخر فعاد الى أمه فقالت قل له ان أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا فاذن بلال بالصلاة وانتظره فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فانزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك اى لا تمسك يدك عن النفقة فى الحق والخير كالمغلولة يده لا يقدر على مدها (ولا تبسطها) اى بالعطاء (كل البسط) اى فتعطى جميع ماعندك وقيل هذا تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف أمر بالاقتصاد الذى هو بين الاسراف والتقتير (فتقعد ملوما) اى عند الله لان السرف غير مرضى عنده وقيل ملوما عند نفسك وأصحابك أيضا يلومونك على تضييع المال بالكلية وقيل يلومك سائلوك على الامساك اذا لم تعطهم (محسورا) اى منقطعا لاشئ عندك تنفقه وقيل محسورا اى نادما على مافرط منك ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يرهقه من الاضاقة بان ذلك ليس لهوان بك عليه ولا لبخل منه عليك فقال تعالى (ان ربك يبسط) اى يوسع (الرزق لمن يشاء ويقدر) اى يقتر ويضيق وذلك لمصلحة العباد (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعنى انه سبحانه وتعالى عالم باحوال جميع عباده ومايصلحهم فالتفاوت فى أرزاق العباد ليس لاجل البخل بل لاجل رعاية مصالح العباد * قوله عز وجل (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق) اى فاقة وفقر (نحن نرزقهم واياكم) وذلك ان أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة او يخافون عليهم من النهب والغارات اوان يشركوهن لغير الكفاءة لشدة الحاجة وذلك عار شديد عندهم فنهاهم الله عن قتلهن وقال نحن نرزقهم واياكم يعنى ان الارزاق بيد الله فكما انه فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتحه على النساء (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) اى اثما كبيرا (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة) اى قبيحة زائدة على حد القبح (وساء سبيلا) اى بئس طريقا طريقه وهو ان تغصب امرأة غيرك او أخته او بنته من غير سبب والسبب ممكن وهو الصهر الذى شرعه الله تعالى قيل ان الزنا يشتمل على أنواع من المفاسد منها المعصية وايجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الانساب فلا يعرف الرجل ولد من هو ولا يقوم أحد بتربيته وذلك يوجب ضياع الاولاد وانقطاع النسل وذلك يوجب خراب العالم * قوله عز وجل (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) الاصل فى القتل هو الحرمة المغلظة وحل القتل انما ثبت بسبب عارض فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الاصل ثم استثنى الحالة التى يحصل فيها حل القتل وهى الاسباب العرضية فقال الا بالحق اى الا باحدى ثلاث كما روى عن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ان لا اله الا الله وأنى رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة أخرجاه فى الصحيحين (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) اى قوة وولاية على القاتل بالقتل وقيل سلطانه هو انه يتخير فان شاء استقاد منه وان شاء أخذ الدية وان شاء عفا (فلا يسرف فى القتل) اى الولى قال ابن عباس لا يقتل غير القاتل وذلك انهم كانوا فى الجاهلية اذا قتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه وقيل معناه اذا كان القتيل واحدا فلا يقتل به جماعة بل

واحد

القصر فيه أكثر والمدلغة وقد قرئ به وهو نهى عن دواعى الزنا كاللمس والقبلة ونحوهما ولو أريد النهى عن نفس الزنا لقال ولا تزنوا (انه كان فاحشة) معصية مجاوزة حد الشرع والعقل (وساء سبيلا) وبئس طريقا طريقه (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) اى بارتكاب مايبيح الدم (ومن قتل مظلوما) غير مرتكب مايبيح الدم (فقد جعلنا لوليه سلطانا) تسلطا على القاتل فى الاقتصاص منه (فلا يسرف فى القتل) الضمير للولى اى فلا يقتل غير القاتل ولا اثنين والقاتل واحد كعادة

أهل الجاهلية او الاسراف المثلة والضمير للقاتل الاول فلا تسرف حمزة وعلى قلى خطاب الولى اوقاتل المظلوم (انه كان منصورا) الضمير للولى اى حسبه ان الله قد نصره بان اوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك اوللمظلوم اى الله ناصره حيث اوجب القصاص بقتله وينصره فى الآخرة بالثواب اوللذى يقتله الولى بغير حق ويسرف فى قتله فانه كان منصورا بايجاب القصاص على المسرف وظاهر الآية يدل على ان القصاص يجرى بين الحر والعبد وبين المسلم والذمى لان انفس أهل الذمة والعبيد داخلة فى الآية لكونها محرمة (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن) بالخصلة او الطريقة التى هى أحسن وهى حفظه وتثميره (حتى يبلغ أشده) اى ثمانى عشرة سنة (واوفوا بالعهد) باوامر الله تعالى ونواهيه (ان العهد كان مسؤلا) مطلوبا يطلب من المعاهد ان لا يضيعه ويفى به اوان صاحب العهد كان مسؤلا (واوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس) بكسر القاف حمزة وعلى وحفص وهو كل ميزان صغير او كبير من موازين الدراهم وغيرها وقيل هو القرسطون اى القبان (المستقيم) المعتدل (ذلك خير) فى الدنيا (وأحسن تأويلا) عاقبة وهو تفعيل من آل اذا رجع وهو ما يؤل اليه (ولا تقف مالیس لك به علم) ولا تتبع مالم تعلم اى لا تقل رأيت ومارأيت وسمعت وما سمعت وعن ابن الحنفية لا تشهد بالزور وعن ابن عباس لا ترم احدا بما لا تعلم ولا يصح التشبث به لمبطل الاجتهاد لان ذلك نوع من العلم

واحد بواحد وكان أهل الجاهلية اذا كان المقتول شريفا فلا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه وقيل معناه انه لا يمثل بالقاتل (انه كان منصورا) قيل الضمير راجع للمقتول ظلما يعنى انه منصور فى الدنيا بايجاب القود على قاتله وفى الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقيل الضمير راجع الى ولى المقتول معناه انه كان منصورا على القاتل باستيفاء القصاص منه او الدية وقيل فى قوله فلا يسرف فى القتل أراد به القاتل المتعدى بالقتل بغير الحق فانه ان فعل ذلك فولى القتيل منصور من قبلى عليه باستيفاء القصاص منه قوله سبحانه وتعالى (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن) اى بالطريقة التى هى أحسن وهى تنميته وحفظه عليه (حتى يبلغ أشده) وهو بلوغ النكاح والمراد ببلوغ الأشد كمال عقله ورشده بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله والا لم ينفك عنه الحجر (وأوفوا بالعهد) اى الاتيان بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه وقيل أراد بالعهد ما يلتزمه الانسان على نفسه (ان العهد كان مسؤلا) اى عنه وقيل مطلوبا وقيل العهد يسئل فيقال فيم نقضت كالموؤدة تسئل فيم قتلت * قوله عز وجل (واوفوا الكيل اذا كلتم) المراد منه اتمام الكيل (وزنوا بالقسطاس المستقيم) قيل هو الميزان صغيرا كان او كبيرا من ميزان الدراهم الى ما هو أكبر منه وقيل هو القبان قيل هو رومى وقيل سريانى والاصح انه عربى مأخوذ من القسط وهو العدل اى وزنوا بالعدل المستقيم واعلم ان التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب على العاقل الاحتراز عنه وانما عظم الوعيد فيه لان جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء فالشارع بالغ فى المنع من التطفيف والنقصان سعيا فى ابقاء الاموال على أربابها (ذلك خير واحسن تأويلا) اى احسن عاقبة من آل اذا رجع وهو ما يؤل اليه أمره قوله سبحانه وتعالى (ولا تقف) اى ولا تتبع (مالیس لك به علم) اى لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم وقيل معناه لا ترم أحدا بما ليس لك به علم وقيل لا تتبعه بالحدس والظن وقيل هو مأخوذ من القفا كانه يقفو الامور ويتتبعها ويتعرفها والمراد انه لا يتكلم فى أحد بالظن (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) معناه يسئل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده وقيل يسئل السمع والبصر والفؤاد عما فعله المرء فعلى هذا ترجع الاشارة فى اولئك الى الاعضاء وعلى القول الاول ترجع الى أربابها عن شكل بن حميد قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يانبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به قال فاخذ بيدى ثم قال قل اعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر فؤادى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى قال فحفظتها اخرجه ابو داود والنسائى والترمذى وقال حديث حسن غريب (قوله وشر منيى) يعنى ماءه وذكره قوله عز وجل (ولا تمش فى الارض مرحا) اى بطرا وكبرا وخيلاء

فان علمتموهن مؤمنات وأقام الشارع غالب الظن مقام العلم وأمر بالعمل به كما فى الشهادات ولنا فى العمل بخبر الواحد لما ذكرنا (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) اولئك اشارة الى السمع والبصر والفؤاد لان اولئك كما يكون اشارة الى العقلاء يكون اشارة الى غيرهم كقول جرير ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد اولئك الايام وعنه فى موضع الرفع بالفاعلية اى كل واحد منها كان مسؤلا عنه فسؤل مسند الى الجار والمجرور كالمغضوب فى غير المغضوب عليهم يقال للانسان لم سمعت مالم يحل لك سماعه ولم نظرت الى مالم يحل لك النظر اليه ولم عزمت على مالم يحل لك العزم عليه كذا فى الكشاف وفيه نظر لبعضهم لان الجار والمجرور انما يقومان مقام الفاعل اذا تأخرا عن الفعل فاما اذا تقدما فلا (ولا تمش فى الارض مرحا) هو حال اى ذا مرح

(انك لن تخرق الارض) لن تجعل فيها خرقا بدوسك لها وشدة وطأتك (ولن تبلغ الجبال طولا) بتطاولك وهوتهكم بالمختال اوان تحاذيها قوة وهو حال من الفاعل او المفعول (كل ذلك كان سيئه) كوفى وشامى على اضافة سيئ الى ضمير كل سيئة غيرهم (عند ربك مكروها) ذكر مكروها لان السيئة فى حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه الا ترى تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فان قلت الخصال المذكورة بعضها سيئ و بعضها حسن ولذلك قرأ من قرأ سيئه بالاضافة اى ما كان من المذكور سيئا كان عند الله مكروها فما وجه قراءة من قرأ سيئة قلت كل ذلك احاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة (ذلك) اشارة الى ما تقدم من قوله لا تجعل مع الله الها آخر الى هذه الغاية (مما أوحى اليك ربك من الحكمة) مما يحكم العقل بصحته وتصلح النفس باتيته (ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) مطرودا من الرحمة عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه الثمانى عشرة آية كانت فى ألواح موسى عليه السلام أولها لا تجعل مع الله الها آخر وآخرها مدحورا ولقد جعلت فاتحتها وخاتمتها النهى عن الشرك لان التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكمة وان بذ فيها الحكماء وحلق بيافوخه السماء وما أغنت عن الفلاسفة اسفار الحكم وهم عن دين الله اضل من النعم ثم خاطب الذين قالوا الملائكة بنات الله بقوله (أفأصفاكم ربكم بالبنين) الهمزة للانكار يعنى أخصكم ربكم يخاطب على وجه الخلوص والصفاء بافضل الاولاد وهم البنون (واتخذ من الملائكة اناثا) واتخذ أدونهم وهى البنات وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم فالعبيد لا يؤثرون باجود الاشياء واصفاها ويكون أردؤها وادونها للسادات (انكم لتقولون قولا عظيما) حيث اضفتم اليه الاولاد وهى من خواص الاجسام ثم فضلتم عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون

(انك لن تخرق الارض) اى لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها (ولن تبلغ الجبال طولا) اى لا تقدر ان تطاول الجبال وتساويها بكبرك والمعنى ان الانسان لا ينال بكبره و بطره شيأ كمن يريد خرق الارض ومطاولة الجبال لا يحصل على شئ وقيل ان الذى يمشى مختالا يمشى مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه فقيل له انك ان تنقب الارض ان مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولا ان مشيت على صدور قدميك عن على قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفؤا كانما ينحط من صبب اخرجه الترمذى فى الشمائل (قوله تكفؤا) التكفؤ التمايل فى المشى الى قدام وقوله كانما ينحط من صبب هو قريب من التكفؤ أى كانه ينحدر من موضع عال عن ابى هريرة قال ما رأيت شيأ احسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت احدا اسرع فى مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الارض تطوى له انا لنجهد أنفسنا وانه لغير مكترث اخرجه الترمذى (قوله لغير مكترث) اى شاق والاكتراث الامر الذى يشق على الانسان (كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها) اى ما ذكر من الامور التى نهى الله عنها فيما تقدم فان قلت كيف قيل سيئة مع قوله مكروها قلت قيل فيه تقديم وتأخير تقديره كل ذلك كان مكروها سيئة عند ربك وقوله مكروها على التكرير لا على الصفة اى كل ذلك كان سيئة وكان مكروها وقيل انه يرجع الى المعنى دون اللفظ لان السيئة الذنب وهو مذكر قوله سبحانه وتعالى (ذلك) اشارة الى ما تقدم من الاوامر والنواهى فى هذه الآيات (مما أوحى اليك ربك من الحكمة) اى ان الاحكام المذكورة فى هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية فى جميع الاديان والملل لا تقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة بهذا الاعتبار وقيل ان حاصل هذه الآيات يرجع الى الامر بالتوحيد وأنواع البر والطاعات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة وذلك من الحكمة قيل ان هذه الآيات كانت فى الواح موسى عليه السلام أولها ولا تجعل مع الله الها آخر قال الله سبحانه وتعالى وكتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة واعلم ان الله سبحانه وتعالى افتتح هذه الآيات بالامر بالتوحيد والنهى عن الشرك وختمها به والمقصود منه التنبيه على ان كل قول وعمل يجب أن يكون رفيعا التوحيد لانه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه شئ ثم انه سبحانه وتعالى ذكر فى الآية الاولى ان الشرك يجب أن يكون صاحبه مذموما مخذولا وقال فى هذه الآية (ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) والفرق بين المذموم والملوم اما كونه مذموما فمعناه أن يذكر له ان الفعل الذى اقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما ثم يقال له لم فعلت هذا الفعل القبيح وما الذى حملك عليه وهذا هو اللوم والفرق بين المخذول والمدحور ان المخذول هو الضعيف الذى لا ناصر له والمدحور هو المبعد المطرود عن كل خير قوله سبحانه وتعالى (أفأصفاكم ربكم) يعنى أخصكم واختاركم فجعل لكم الصفوة ولنفسه ما ليس بصفوة (بالبنين) يعنى اختصكم بافضل الاولاد وهم البنون (واتخذ من الملائكة اناثا) لانهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله مع علمهم بان الله سبحانه وتعالى هو الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له وهذا يدل على نهاية جهل القائلين بهذا القول (انكم لتقولون قولا عظيما)

(ولقد صرفنا فى هذا القرآن) اى التنزيل والمراد ولقد صرفناه اى هذا المعنى فى مواضع من التنزيل فترك الضمير لانه معلوم (ليذكروا) وبالتخفيف حمزة وعلى اى كررناه ليتعظوا (ومايزيدهم الانفورا) عن الحق وكان الثورى اذا قرأها يقول زادنى لك خضوعا

يخاطب مشركى مكة يعنى باضافتهم اليه الاولاد وهى خاصة بالاجسام ثم انهم يفضلون عليه انفسهم حيث يجعلون له مايكرهون لانفسهم يعنى البنات قوله سبحانه وتعالى (ولقد صرفنا فى هذا القرآن) يعنى العبر والحكم والامثال والاحكام والحجج والاعلام والتشديد فى صرفنا للتكثير والتكرير (ليذكروا) اى ليتعظوا ويعتبروا (ومايزيدهم) اى تصريفنا وتذكيرنا (الانفورا) اى تباعدا عن الحق (قل) اى قل يا محمد لهؤلاء المشركين (لوكان معه آلهة كما تقولون اذا لابتغوا) اى لطلبوا يعنى هؤلاء الآلهة (الى ذى العرش سبيلا) اى بالمغالبة والقهر ليزيلوا ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض وقيل معناه لتقربوا اليه وقيل معناه لتعرفوا اليه فضله فاتبعوا ما يقربهم اليه والاول أصح ثم نزه نفسه فقال عز وجل (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) معنى وصفه بذلك المبالغة فى البراءة والبعد عما يصفونه به قوله عز وجل (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن) يعنى الملائكة والانس والجن (وان من شئ الا يسبح بحمده) قال ابن عباس وان من شئ حى الا يسبح بحمده وقيل جميع الحيوانات والنباتات قيل ان الشجرة تسبح والاصطوانة لا تسبح وقيل ان التراب يسبح مالم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح وان الخرزة تسبح مالم ترفع من موضعها فاذا رفعت تركت التسبيح وان الورقة تسبح مادامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح وان الماء يسبح مادام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح وان الثوب يسبح مادام جديدا فاذا اتسخ ترك التسبيح وان الوحش والطير تسبح اذا صاحت فاذا سكتت تركت التسبيح وقيل وان من شئ جمادا وحى الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقيل كل الاشياء تسبح الله حيوانا كان او جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده ويدل على ذلك ماروى عن ابن مسعود قال كنا نعد الآيات بركة وانتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فقل الماء فقال اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا باناء فيه ماء قليل فادخل يده صلى الله عليه وسلم فى الاناء ثم قال حى على الطهور المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين اصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل أخرجه البخارى (م) عن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بمكة حجرا كان يسلم على ليالى بعثت وانى لاعرفه الآن (خ) عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول اليه فحن الجذع فاتاه فمسح يده عليه وفى رواية فنزل فاحتضنه وساره بشئ ففى هذه الاحاديث دليل على ان الجماد يتكلم وانه يسبح وقال بعض اهل المعانى تسبيح السموات والارض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال بحيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكانها تنطق بذلك وتصير لها بمنزلة التسبيح والقول الاول اصح لما دلت عليه الاحاديث وانه منقول عن السلف واعلم ان لله تعالى علما فى الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغى ان نكل علمه اليه وقوله تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) اى لا تعلمون ولا تفهمون تسبيحهم ماعدا من يسبح بلغتكم ولسانكم (انه كان حليما غفورا) اى حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وجهلكم بالتسبيح * قوله عز وجل (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) اى يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به وقيل معناه مستورا عن اعين الناس فلا يرونه كما روى عن سعيد بن جبير انه قال لما نزلت تبت يدا أبى لهب جاءت امرأة ابى لهب ومعها حجر والنبى صلى الله عليه وسلم مع ابى بكر فلم تره فقالت لابى بكر أين صاحبك لقد بلغنى انه هجانى فقال لها ابو بكر والله ماينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهى تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لارضخ رأسه فقال ابو بكر ما رأتك يا رسول الله قال لم يزل ملك بينى

ماتزاد اعداءك نفورا (قل لو كان معه) مع الله (آلهة كما تقولون) وبالياء مكى وحفص (اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا) يعنى لطلبوا الى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض او لتقربوا اليه كقوله أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة واذا دالة على ان مابعدها وهو لابتغوا جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو (سبحانه وتعالى عما يقولون) وبالتاء حمزة وعلى (علوا) اى تعاليا والمراد البراءة من ذلك والتنزاهة (كبيرا) وصف العلو بالكبر مبالغة فى معنى البراءة والبعد مما وصفوه به (يسبح) وبالتاء عراقى غير ابى بكر (له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده) اى يقول سبحان الله وبحمده عن السدى قال عليه السلام ما اصطيد حوت فى البحر ولا طائر يطير الا بما يضيع من تسبيح الله تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) لاختلاف اللغات او لتعسر

الادراك او سبب لتسبيح الناظر اليه والدال على الخير كفاعله والوجه الاول (انه كان حليما) عن جهل العباد (غفورا) لذنوب المؤمنين (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) ذا ستر أو حجابا لا يرى فهو مستور

(وجعلنا على قلوبهم أكنة) جمع كنان وهو الذي يستر الشيء (أن يفقهوه) كراهة ان يفقهوه (وفي آذانهم وقرا) ثقلا يمنع عن الاستماع (واذا ذكرت ربك في القرآن وحده) يقال وحد يحد وحدا واحدة نحو وعد يعد وعدا وعدة فهو مصدر سد مسد الحال اصله يحد وحده بمعنى واحدا (ولوا على أدبارهم) رجعوا على أعقابهم (نفورا) مصدر بمعنى التولية او جمع نافر كقاعد وقعود اى يجبون ان تذكر معه آلهتهم لانهم مشركون فاذا سمعوا بالتوحيد نفروا (نحن أعلم بما يستمعون به) اى نحن أعلم بالحال او الطريقة التي يستمعون القرآن به فالقرآن هو المستمع وهو محذوف وبه حال وبيان لما اى يستمعون القرآن هازئين لاجادين والواجب عليهم ان يستمعوه جادين (اذ يستمعون اليك) نصب بأعلم اى اعلم وقت استماعهم ١٨٢ بما به يستمعون (واذ هم نجوى) وبما يتناجون به اذ هم ذو نجوى (اذ يقول الظالمون)

بدل من اذ هم (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) سحر فجن (انظر كيف ضربوا لك الامثال) مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون (فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) اى فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقا يسلكه فلا يقدر عليه فهو متحير في امره لا يدري ما يصنع (وقالوا) اى منكرو البعث (أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) اى مجددا وخلقا حال اى مخلوقين (قل كونوا حجارة او حديدا او خلقا مما يكبر في صدوركم) اى السموات والارض فانها تكبر عندكم عن قبول الحياة (فسيقولون من يعيدنا قل) يعيدكم (الذي فطركم أول مرة) والمعنى انكم تستبعدون ان يجدد الله خلقكم ويرده الى حال الحياة بعد ما كنتم عظاما

و بينها (و جعلنا على قلوبهم أكنة) اى اغطية (أن يفقهوه) اى لئلا يفهموه (وفي آذانهم وقرا) اى ثقلا لئلا يسمعوه (واذا ذكرت ربك في القرآن وحده) يعني اذا قلت لا اله الا الله وأنت تتلو القرآن (ولوا على أدبارهم نفورا) جمع نافر (نحن أعلم بما يستمعون به) اى من الهزء بك و بالقرآن وقيل معناه نحن أعلم بالوجه الذي يستمعون به وهو التكذيب (اذ يستمعون اليك) اى وأنت تقرأ القرآن (واذ هم نجوى) اى و بما يتناجون به في أمرك وقيل معناه ذو و نجوى بعضهم يقول هو مجنون و بعضهم يقول هو كاهن و بعضهم يقول ساحر أو شاعر (اذ يقول الظالمون) يعني الوليد بن المغيرة واصحابه (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) اى مطبوبا وقيل مخدوعا وقيل معناه انه سحر فجن وقيل هو من السحر وهو الرئة ومعناه انه بشر مثلكم يأكل و يشرب قال الشاعر

أرانا موضعين لامر غيب ٭ ونسحر بالطعام و بالشراب

اى نغذى بهما (انظر كيف ضربوا لك الامثال) اى الاشباه فقالوا ساحر شاعر كاهن مجنون (فضلوا) اى في جميع ذلك وحاروا (فلا يستطيعون سبيلا) اى الى طريق الحق (وقالوا أئذا كنا عظاما) اى بعد الموت (ورفاتا) اى ترابا وقيل الرفات الاجزاء المتفتتة من كل شيء تكسر (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) فيه انهم استبعدوا الاعادة بعد الموت والبلى فقال الله سبحانه وتعالى رادا عليهم (قل) اى قل لهم يا محمد (كونوا حجارة) اى في الشدة (أو حديدا) اى في القوة وليس هذا بامر الزام بل هو أمر تعجيز اى استشعروا في قلوبكم انكم حجارة او حديد في القوة (أو خلقا مما يكبر في صدوركم) قيل يعني السماء والارض والجبال لانها اعظم المخلوقات وقيل يعني به الموت لانه لا شيء في نفس ابن آدم اكبر من الموت ومعناه لو كنتم الموت بعينه لاميتنكم ولابعثنكم (فسيقولون من يعيدنا) اى من يبعثنا بعد الموت (قل الذي فطركم) اى خلقكم (أول مرة) فمن قدر على الانشاء قدر على الاعادة (فسينغضون اليك رؤسهم) اى يحركونها اذا قلت لهم ذلك مستهزئين بما تقول (و يقولون متى هو) يعني البعث والقيامة (قل عسى أن يكون قريبا) اى هو قريب (يوم يدعوكم) اى من قبوركم الى موقف القيامة (فتستجيبون بحمده) قال ابن عباس بامره وقيل بطاعته وقيل مقرين بانه خالقهم و باعثهم و يحمدونه حين لا ينفعهم الحمد وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فانهم يبعثون حامدين (وتظنون ان لبثتم) اى في الدنيا وقيل في القبور (الا قليلا) وذلك لان الانسان لو مكث في الدنيا وفي القبر ألوفا من السنين عد ذلك قليلا بنسبة مدة القيامة والخلود في الآخرة وقيل انهم يستحقرون مدة الدنيا في جنب القيامة ٭ قوله سبحانه وتعالى (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن) وذلك ان المشركين كانوا يؤذون المسلمين فشكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل

يابسة مع ان العظام بعض اجزاء الحي بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائره فليس ببدع ان يردها الله بقدرته الى الحالة الاولى ولكن لو كنتم ابعد شيء من الحياة وهو ان تكونوا حجارة او حديدا لكان قادرا على ان يردكم الى حال الحياة (فسينغضون اليك رؤسهم) فسيحركونها نحوك تعجبا واستهزاء (و يقولون متى هو) اى البعث استبعادا له ونفيا (قل عسى ان يكون قريبا) اى هو قريب وعسى للوجوب (يوم يدعوكم) الى المحاسبة وهو يوم القيامة (فتستجيبون بحمده) اى تجيبون حامدين والباء للحال عن سعيد بن جبير ينفضون التراب عن رؤسهم و يقولون سبحانك اللهم وبحمدك (وتظنون ان لبثتم الا قليلا) اى لبثا قليلا او زمانا قليلا في الدنيا او في القبر (وقل لعبادي) وقل للمؤمنين (يقولوا) للمشركين الكلمة (التي هي أحسن) والين ولا يخاشنوهم وهي ان يقولوا يهديكم الله

(ان الشيطان ينزغ بينهم) يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليوقع بينهم المشاقة والنزغ ايقاع الشر وافساد ذات البين وقرأ طلحة ينزغ بالكسر وهما لغتان (ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) ظاهر العداوة اوفسر التي هي أحسن بقوله (ربكم اعلم بكم ان يشأ يرحكم) بالهداية والتوفيق (اوان يشأ يعذبكم) بالخذلان اى يقولوا لهم هذه الكلمة ١٨٣ ونحوها ولا يقولوا لهم انكم من اهل النار وانكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر وقوله ان الشيطان ينزغ بينهم اعتراض (وما ارسلناك عليهم وكيلا) حافظا لاعمالهم وموكولا اليك أمرهم وانما ارسلناك بشيرا ونذيرا فادارهم ومر اصحابك بالمداراة (وربك اعلم بمن في السموات والارض) وباحوالهم وبكل ما يستأهل كل واحد منهم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) فيه اشارة الى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله (وآتينا داود زبورا) دلالة على وجه تفضيله وانه خاتم الانبياء وان امته خير الامم لان ذلك مكتوب في زبور داود قال الله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون وهم محمد وامته ولم يعرف الزبور هنا وعرفه في قوله ولقد كتبنا في الزبور لانه كالعباس وعباس والفضل وفضل (قل ادعوا الذين زعمتم) انها آلهتكم (من دونه) من دون الله وهم الملائكة او عيسى وعزير او نفر من الجن عبدهم ناس من العرب ثم اسلم الجن ولم يشعروا (فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) اى لعوهم فهم لا يستطيعون ان يكشفوا عنكم الضر من مرض او فقر او عذاب ولا ان يحولوه من واحد الى آخر (اولئك) مبتدأ (الذين يدعون) منقاي يدعونهم آلهة او يعبدونهم والخبر (يبتغون الى ربهم الوسيلة) يعني ان آلهتهم اولئك يبتغون الوسيلة وهي القربة الى الله عزوجل

الله عز وجل وقل لعبادي يقولوا يعني للكفار التي هي أحسن اى لا يكافئوهم على سفههم بل يقولون لهم يهديكم الله وكان هذا قبل الاذن في القتال والجهاد وقيل نزلت في عمر بن الخطاب وذلك انه شتمه بعض الكفار فأمره الله بالعفو وقيل أمر الله المؤمنين ان يقولوا او يفعلوا الخلة التي هي أحسن وقيل الاحسن كلمة الاخلاص لا اله الا الله (ان الشيطان ينزغ بينهم) اى يفسد ويلقي العداوة بينهم (ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) اى ظاهر العداوة قوله عز وجل (ربكم اعلم بكم ان يشأ يرحكم) اى يوفقكم للايمان فتؤمنوا (اوان يشأ يعذبكم) اى يمتكم على الشرك فتعذبوا وقيل معناه ان يشأ يرحكم فينجكم من أهل مكة اوان يشأ يعذبكم اى يسلطهم عليكم (وما ارسلناك عليهم وكيلا) اى حفيظا وكفيلا قيل نسختها آية القتال (وربك أعلم بمن في السموات والارض) يعني ان علمه غير مقصور عليكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الارضين والسموات يعلم حال كل أحد ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد وقيل معناه انه عالم باحوالهم واختلاف صورهم وأخلاقهم ومللهم وأديانهم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وذلك انه اتخذ ابراهيم خليلا وكلم موسى تكليما وقال لعيسى كن فكان وآتى سليمان ملكا لا ينبغي لاحد من بعده وآتى داود زبورا وذلك قوله تعالى (وآتينا داود زبورا) وهو كتاب أنزله الله على داود يشتمل على مائة وخمسين سورة كلها دعاء وثناء على الله تعالى وتحميد وتمجيد ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا أحكام فان قلت لم خص داود في هذه الآية بالذكر دون غيره من الانبياء قلت فيه وجوه احدها ان الله تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال تعالى وآتينا داود زبورا وذلك ان داود أعطي مع النبوة الملك فلم يذكره بالملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيها على ان الفضل المذكور في هذه الآية المراد به العلم لا الملك والمال الوجه الثاني ان الله سبحانه وتعالى كتب له في الزبور ان محمدا خاتم الانبياء وان أمته خير الامم فلهذا خصه بالذكر الوجه الثالث ان اليهود زعمت أن لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله وآتينا داود زبورا ومعنى الآية انكم ان تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم واعطائه القرآن وان الله آتى موسى التوراة وداود الزبور وعيسى الانجيل فلم يبعد ان يفضل محمدا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الانبياء عليهم الصلاة والسلام * قوله عز وجل (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) وذلك ان الكفار أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فقال الله عز وجل قل ادعوا الذين زعمتم انهم آلهة من دونه (فلا يملكون كشف الضر عنكم) اى الجوع والقحط (ولا تحويلا) اى الى غيركم او تحويل الحال من العسر الى اليسر ومقصود الآية الرد على المشركين حيث قالوا ليس لنا أهلية ان نشتغل بعبادة الله فنحن نعبد المقربين اليه وهم الملائكة ثم انهم اتخذوا ذلك الملك الذي عبدوه تمثالا وصورة وقد اشتغلوا بعبادته فاحتج على بطلان قولهم بهذه الآية وبين عجز آلهتهم ثم قال تعالى (أولئك الذين يدعون) اى الذين يدعون المشركون آلهة (يبتغون الى ربهم الوسيلة) اى القربة والدرجة العليا قال ابن عباس هم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقال عبد الله بن مسعود نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا

(أيهم) بدل من واو يبتغون واى موصولة اى يبتغى من هو (اقرب) منهم الوسيلة الى الله فكيف بغير الاقرب او ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون فكانه قيل يحرصون ايهم يكون اقرب الى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون انهم آلهة (ان عذاب ربك كان محذورا) حقيقا بان يحذره كل احد من ملك مقرب ونبى مرسل فضلا عن غيرهم (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة او معذبوها عذابا شديدا) قبل الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة (كان ذلك فى الكتاب) فى اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوبا وعن مقاتل وجدت فى كتب الضحاك فى تفسيرها امامكة فيخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف وأما خراسان فعذابها ضروب وأما بلخ فتصيبهم هدة فيهلك اهلها واما بدخشان فيخربها اقوام وأما ترمذ فاهلها يموتون بالطاعون وأما صغانيان الى واشجرد فيقتلون بقتل ذريع واما سمرقند فيغلب عليها بنو قنطوراء فيقتلون اهلها قتلا ذريعا وكذا فرغانة والشاش واسبيجاب وخوارزم واما بخارى فهى ارض الجبابرة فيموتون قحطا وجوعا واما مرو ١٨٤ فيغلب عليها الرمل ويهلك بها العلماء والعباد واما هراة فيمطرون بالحياة فتأكلهم أكلا واما نيسابور فيصيب اهلها رعدو برق وظلمة فيهلك اكثرهم واما الرى فيغلب عليها الطبرية والديلم فيقتلونهم واما ارمينية واذربيجان فيهلكها سنابك الخيول والجيوش والصواعق والرواجف وأما هذان فالديلم يدخلها ويخربها واما حلوان فتمر بها ريح سا كنة وهم نيام فيصبح أهلها قردة وخنازير ثم يخرج رجل من جهينة فيدخل مصر فويل لاهلها ولاهل دمشق وويل لاهل افريقية وويل لاهل الرملة ولا يدخل بيت المقدس واما سجستان فيصيبهم ريح عاصف أياما ثم هدة تأتيهم ويموت فيها العلماء واما كرمان واصبهان وفارس فيأتيهم عدو وصاحوا صيحة تخلع القلوب وتموت الابدان (ومامنعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون) استعير المنع لترك ارسال الآيات وان الاولى مع صلتها فى موضع النصب لانها مفعول ثان لمنعنا وان الثانية مع صلتها فى موضع الرفع لانها فاعل منعنا والتقدير ومامنعنا ارسال الآيات الا تكذيب الاولين والمراد الآيات التى اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ومن احياء الموتى وغير ذلك وسنة الله فى الامم ان من اقترح منهم آية فأجيب اليها ثم لم يؤمن ان يعاجل بعذاب الاستئصال والمعنى ومامنعنا عن ارسال ما يقترحونه من الآيات الا أن كذب بها الذين هم امثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود وانها لو ارسلت لكذبوا بها تكذيب اولئك وعذبوا العذاب المستأصل وقد حكمنا ان نؤخر امر من بعثت اليهم الى يوم القيامة ثم ذكر من تلك الآيات التى اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما ارسلت فاهلكوا واحدة وهى ناقة صالح عليه السلام لان آثارها لكهم قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال (وآتينا ثمود الناقة) باقتراحهم (مبصرة) آية بينة

من الجن فاسلم اولئك الجن ولم يعلم الانس بذلك فتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله وأنزل هذه الآية وقوله تعالى (أيهم أقرب) معناه ينظرون أيهم أقرب الى الله فيتوسلون به وقيل أيهم أقرب يبتغى الوسيلة الى الله ويتقرب اليه بالعمل الصالح وازدياد الخير والطاعة (ويرجون رحمته) اى جنته (ويخافون عذابه) وقيل معناه يرجون ويخافون كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون انهم آلهة (ان عذاب ربك كان محذورا) اى حقيقا بان يحذره كل احد من ملك مقرب ونبى مرسل فضلا عن غيرهم من الخلائق قوله سبحانه وتعالى (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) اى بالموت والخراب (او معذبوها عذابا شديدا) اى بالقتل وأنواع العذاب اذ كفروا وعصوا وقيل الاهلاك فى حق المؤمنين الاماتة وفى حق الكفار العذاب قال عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا فى قرية أذن الله فى هلاكها (كان ذلك فى الكتاب) اى فى اللوح المحفوظ (مسطورا) اى مكتوبا مثبتا عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال ما أكتب قال اكتب القدر وما هو كائن الى يوم القيامة الى الابد أخرجه الترمذى قوله سبحانه وتعالى (ومامنعنا ان نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون) قال ابن عباس سأل اهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وفضة وأن ينحى الجبال عنهم ليزرعوا فأوحى الله الى رسوله صلى الله عليه وسلم ان شئت ان استأنى بهم فعلت وان شئت ان أوتيهم ما سألوا فعلت فان لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا بل تستأنى بهم فأنزل الله عز وجل ومامنعنا ان نرسل بالآيات اى التى سألها كفار قومك الا ان كذب بها الاولون اى فاهلكناهم فان لم يؤمن قومك بعد ارسال الآيات اهلكناهم لان من سنتنا فى الامم اذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد اتيانها ان نهلكهم ولا نمهلهم وقد حكمنا بامهال هذه الامة الى يوم القيامة ثم ذكر من تلك الآيات التى اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فاهلكوا فقال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) اى بينة وذلك لان آثارها لكم

(فظلموا بها) فكفروا بها (وما نرسل بالآيات) ان أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها (الا تخويفا) من نزول العذاب العاجل كالطبيعة والمقدمة له فان لم يخافوا وقع عليهم وان أراد غيرها فالمعنى وما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها الا تخويفا وانذارا بعذاب الآخرة وهو مفعول له (واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس) واذكر اذ أوحينا اليك ان ربك أحاط بقريش علما وقدرة فكلهم في قبضته فلا تبال بهم ١٨٥ وامض لأمرك وبلغ ما أرسلت به

في بلاد العرب قرية من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم (فظلموا بها) اى جحدوا انها من عند الله وقيل فظلموا انفسهم بتكذيبها فعاجلناهم بالعقوبة (وما نرسل بالآيات) المقترحة (الا تخويفا) اى وما نرسل بالآيات الا تخويفا من نزول العذاب فان لم يخافوا وقع عليهم وقيل معناه وما نرسل بالآيات يعني العبر والدلالات الا تخويفا اى انذارا بعذاب الآخرة ان لم يؤمنوا فان الله سبحانه وتعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يرجعون * قوله عز وجل (واذ قلنا لك) اى واذكر يا محمد اذ قلنا لك (ان ربك أحاط بالناس) اى ان قدرته محيطة بهم فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته واذا كان الامر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الامور الا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم فلا تبالهم وامض لما أمرك من التبليغ للرسالة فهو ينصرك ويقويك على ذلك (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس) الاكثرون من المفسرين على ان المراد منها ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من العجائب والآيات قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وهي ليلة اسري به الى بيت المقدس أخرجه البخاري وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم والعرب تقول رأيت بعيني رؤية ورؤيا فلما ذكر هارسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أنكر بعضهم ذلك وكذبوا فكانت فتنة للناس وازداد المخلصون ايمانا وقال قوم اسري بروحه دون جسده وهو ضعيف وقال قوم كان له معراجان معراج رؤية عين في اليقظة ومعراج رؤيا بالمنام وقيل أراد بهذه الرؤيا ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية انه دخل مكة هو واصحابه فعجل المسير الى مكة قبل الاجل فصده المشركون فرجع الى المدينة فكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر انه يدخلها فتنة لبعضها ثم دخل مكة في العام المقبل وأنزل الله عز وجل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقيل ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام ان ولد الحكم بن أمية يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة فساءه ذلك فان اعترض معترض على هذا التفسير وقال السورة مكية وهاتان الواقعتان كانتا بالمدينة أجيب بانه لا اشكال فيه فانه لا يبعد ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى ذلك بمكة ثم كان ذلك حقيقة بالمدينة (والشجرة الملعونة في القرآن) يعني شجرة الزقوم التي وصفها الله تعالى في سورة الصافات والعرب تقول لكل طعام كريه طعام ملعون والفتنة فيها ان أبا جهل قال ان ابن أبي كبشة يعني النبي صلى الله عليه وسلم توعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم انه تنبت فيها شجرة وتعلمون ان النار تحرق الشجر وقيل ان عبد الله بن الزبعرى قال ان محمدا يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم الا الزبد والتمر فقال أبو جهل يا جارية زقمينا فاتت بزبد وتمر فقال يا قوم تزقموا فان هذا ما يخوفكم به محمد فنزل الله سبحانه وتعالى حين عجبوا ان يكون في النار شجر انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات فان قلت أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن قلت لعنت حيث لعن الكفار الذين يأكلونها لان الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن وانما وصفت بلعن أصحابها على المجاز وقيل وصفها الله تعالى باللعن لان اللعن الابعاد من

او بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم وذلك قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد فجعله كأن قد كان ووجد فقال أحاط بالناس على سنته في اخباره ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه فقد كان يقول حين ورد ماء بدر والله لكأني انظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض ويقول هذا مصرع فلان فما سامت قريش بما أوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر بدر وما أرى في منامه من مصارعهم فكانوا يضحكون ويسخرون ويستعجلون به استهزاء (والشجرة الملعونة في القرآن) اى وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن الا فتنة للناس فانهم حين سمعوا بقوله ان شجرة الزقوم طعام الاثيم جعلوها سخرية وقالوا ان محمدا

يزعم ان الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول تنبت فيها الشجرة وما قدروا الله حق قدره تقولوا ذلك فانه لا يمتنع أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار وهو البرسم ندل وهو دويبة بلاد الترك يتخذ منه مناديل اذا وسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها وخلق في كل شجرة الا النار لا تحرقها فجاز ان يخلق في النار شجرة لا تحرقها والمعنى ان الآيات انما نرسل تخويفا للعباد وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو قتلى يوم بدر وخوفوا بعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم فما أثر فيهم ثم قال

(ونخوفهم) اى بمخاوف الدنيا والآخرة (فما يزيدهم) التخويف (الا طغيانا كبيرا) فكيف يخاف قوم هذه حالهم بارسال ما يقترحون من الآيات وقيل الرؤيا هى الاسراء والفتنة ارتداد من استعظم ذلك وبه تعلق من يقول كان الاسراء فى المنام ومن قال كان فى اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية وانما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له لعلها رؤيا رأيتها استبعادا منهم كما سمى أشياء باساميها عند الكفرة كقوله فراغ الى آلهتهم اى شركائى اوهى رؤياه انه سيدخل مكة والفتنة الصد بالحديبية فان قلت ليس فى القرآن ذكر لعن شجرة الزقوم قلت معناه والشجرة الملعون آكلها وهم الكفرة لانه قال ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فوصفت بلعن أهلها على المجاز ولان العرب تقول لكل طعام مكروه ضار ملعون ولان اللعن هو الابعاد من الرحمة وهى فى أصل الجحيم فى أبعد مكان من الرحمة (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) هو تمييز او حال من الموصول والعامل فيه أأسجد على أأسجد له وهو طين اى اصله طين (قال أرأيتك هذا الذى) الكاف لا موضع لها لانها ذكرت للخطاب تأكيدا هذا مفعول به والمعنى اخبرنى عن هذا الذى (كرمت على) اى فضلته لم كرمته على واناخير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فحذف ذلك اختصارا لدلالة ما تقدم عليه ثم ابتدأ فقال (لئن أخرتنى) و بلايا ء كوفى وشامى واللام موطئة للقسم المحذوف (الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته) لأستأصلنهم باغوائهم (الا قليلا) وهم المخلصون قيل من كل الف واحد وانما علم الملعون ذلك بالاعلام اولانه رأى أنه خلق شهوانى (قال اذهب) ليس من الذهاب الذى هو ضد المجىء وانما معناه امض لشأنك الذى اخترته خذلانا وتخلية ثم عقبه بذكر ما جره سوء اختياره فقال (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) والتقدير فان جهنم جزاؤهم وجزاؤك ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم وانتصب (جزاء موفورا) اى موفرا باضمار تجازون (واستفزز) استزل اواستخف استفزه اى استخفه والفز الخفيف (من استطعت منهم بصوتك) بالوسوسة او بالغناء او بالمزمار (وأجلب عليهم) أجمع وصح بهم من الجلبة وهو الصياح (بخيلك ورجلك) بكل راكب وماش من أهل العيث فالخيل الخيالة والرجل اسم جمع للراجل ونظيره الركب والصحب ورجلك حفص على ان فعلا بمعنى فاعل كتعب وتاعب ومعناه وجعك الرجل وهذا الان أقصى ما يستطاع فى طلب الامور الخيل والرجل وقيل يجوز ان يكون لابليس خيل ورجال (وشاركهم فى الاموال والاولاد) قال الزجاج كل معصية فى مال وولد فابليس شريكهم فيها كالربا والمكاسب المحرمة والبحيرة والسائبة والانفاق فى الفسوق والاسراف ومنع الزكاة والتوصل الى الاولاد بالسبب الحرام والتسمية بعبد العزى وعبد شمس

الرحمة وهى فى أصل جهنم فى ابعد مكان من الرحمة وقال ابن عباس فى رواية عنه ان الشجرة الملعونة هى الكشوث الذى يلتوى على الشجر والشوك فيجففه (ونخوفهم فما يزيدهم) اى التخويف (الا طغيانا كبيرا) اى تمردا وعتوا عظيما قوله سبحانه وتعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) اى من طين وذلك ان آدم خلق من تراب الارض من عذبها وملحها فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقى (قال) يعنى ابليس (أرأيتك) الكاف للمخاطب والمعنى أخبرنى (هذا الذى كرمت على) اى فضلته على (لئن أخرتنى) اى أمهلتنى (الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته) اى لاستأصلنهم بالاضلال وقيل معناه لاقودنهم كيف شئت وقيل لاستولين عليهم بالاغواء (الا قليلا) يعنى المعصومين الذين استثناهم الله تعالى فى قوله ان عبادى ليس لك عليهم سلطان (قال) الله تعالى (اذهب) اى امض لشأنك وليس هو من الذهاب الذى هو ضد المجىء (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) اى جزاؤك وجزاء أتباعك (جزاء موفورا) اى مكملا قوله سبحانه وتعالى (واستفزز) اى استخف واستزل واستجهل وأزعج (من استطعت منهم) اى من ذرية آدم (بصوتك) قال ابن عباس معناه بدعائك الى معصية الله وكل داع الى معصية الله فهو من جند ابليس وقيل أراد بصوتك الغناء والمزامير واللهو واللعب (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) اى اجمع عليهم مكايدك وحبائلك واحتهم على الاغواء وقيل معناه استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم يقال ان له خيلا ورجلا من الجن والانس فكل من قاتل او مشى فى معصية الله فهو من جند ابليس وقيل المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد فى الامر جئتنا بخيلك ورجلك (وشاركهم فى الاموال والاولاد) اما المشاركة فى الاموال فكل مال اصيب من حرام او انفق فى حرام وقبيل هو الربا وقيل هو ما كانوا يحرمونه لآلهتهم ويحرمونه كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام واما المشاركة فى الاولاد فروى عن ابن عباس انها الموؤدة وقيل اولاد الزنا وعن ابن عباس أيضا هى تسميتهم اولادهم بعبد العزى وعبد الحرث وعبد شمس ونحوه وقيل هو ان يرغبوا اولادهم فى الاديان الباطلة الكاذبة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ونحوها وقيل ان الشيطان

يقعد على ذكر الرجل وقت الجماع فاذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وانزل فى فرجها كما ينزل الرجل وروى فى بعض الاخبار ان فيكم مغربين قيل وما المغربون قال الذين شاركهم فيهم الجن وعن ابن عباس انه سأله رجل فقال ان امرأتى استيقظت وفى فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجن (وعدهم) اى منهم الجميل فى طاعتك وقيل قل لهم لا جنة ولا نار ولا بعث وذلك ان الشيطان اذا دعا الى المعصية فلا بد ان يقرر اولا انه لا مضرة فى فعلها البتة وذلك لا يمكن الا اذا قال له لا معاد ولا جنة ولا نار ولا حياة بعد هذه الحياة فيقرر عند المدعو انه لا مضرة البتة فى هذه المعاصى واذا فرغ من هذا النوع قرر عنده ان هذا الفعل يفيد أنواعا من اللذة والسرور ولا حياة للانسان فى الدنيا الا به فهذا طريق الدعوة الى المعصية ثم يقرره عن فعل الطاعات وهو انه يقرر عنده ان لا جنة ولا نار ولا عقاب فلا فائدة فيها وقيل معنى عدهم اى شفاعة الاصنام عند الله وايثار العاجل على الآجل فان قلت كيف ذكر الله هذه الاشياء بصيغة الامر والله سبحانه وتعالى يقول ان الله لا يأمر بالفحشاء قلت هذا على طريق التهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم وكقول القائل اجتهد جهدك فسترى ما ينزل بك وقوله سبحانه وتعالى (ومايعدهم الشيطان الا غرورا) اى يزين الباطل بما يظن انه حق واعلم ان الله سبحانه وتعالى لما قال وعدهم اردفه بما هو زاجر عن قبول وعده بقوله ومايعدهم الشيطان الا غرورا والسبب فيه انه انما يدعو الى قضاء الشهوة وطلب الرياسة ونحو ذلك ولا يدعو الى معرفة الله تعالى ولا الى عبادته وتلك الاشياء التى يدعو اليها خيالية لا حقيقة لها ولا تحصل الا بعد متاعب ومشاق عظيمة واذا حصلت كانت سريعة الذهاب والانقضاء وينغصها الموت والهرم وغير ذلك واذا كانت هذه الاشياء بهذه الصفة كانت الرغبة فيها غرورا (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) يعنى بعباده الانبياء وأهل الفضل والصلاح لانه لا يقدر على اغوائهم (وكفى بربك وكيلا) اى حافظا والمعنى انه سبحانه وتعالى لما أمكن ابليس ان يأتى بما يقدر عليه من الوسوسة كان ذلك سببا لحصول الخوف فى قلب الانسان فقال تعالى وكفى بربك وكيلا اى فالله سبحانه وتعالى أقدر منه وارحم بعباده فهو يدفع عنهم كيد الشيطان ووساوسه ويعصمهم من اغوائه واضلاله وفى بعض الآثار ان ابليس لما خرج الى الارض قال يارب اخرجتنى من الجنة لاجل آدم فسلطنى عليه وعلى ذريته قال انت مسلط قال لا استطيعه الا بك فزدنى قال استفزز من استطعت منهم الآية فقال آدم يارب سلطت ابليس على وعلى ذريتى وانى لا استطيعه الا بك قال لا يولد لك ولد الا وكلت به من يحفظه قال رب زدنى قال الحسنة بعشر امثالها والسيئة بمثلها قال رب زدنى قال التوبة معروضة مادام الروح فى الجسد قال رب زدنى فقال يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية وفى الخبر ان ابليس قال يارب بعثت انبياء وانزلت كتبا فما قراءتى قال فما كتابتى قال الوشم قال ومن رسلى قال الكهنة قال اى شئ مطعمى قال مالم يذكر عليه اسمى قال فما شرابى قال كل مسكر قال واين مسكنى قال الحمامات قال واين مجلسى قال فى الاسواق قال وما حبائلى قال النساء قال وما اذانى قال المزمار قوله سبحانه وتعالى (ربكم الذى يزجى) اى يسوق ويجرى (لكم الفلك) اى السفن (فى البحر لتبتغوا من فضله) اى لتطلبوا من رزقه بالارباح فى التجارة وغيرها (انه كان بكم رحيما) اى حيث يسر لكم هذه المنافع والمصالح وسهلها عليكم (واذا مسكم الضر فى البحر) اى الشدة وخوف الغرق فى البحر (ضل من تدعون) اى ذهب عن اوهامكم وخواطركم كل من تدعون فى حوادثكم من الاصنام وغيرها (الا اياه) اى الا الله وحده فانكم لا تذكرون سواه ولا يخطر ببالكم غيره لانه القادر على اعانتكم ونجاتكم (فلما نجاكم) اى اجاب دعاءكم وانجاكم من هول البحر وشدته واخرجكم (الى البر اعرضتم) اى عن الايمان والاخلاص والطاعة وكفرتم النعمة وهو قوله تعالى (وكان الانسان كفورا) اى جحودا (أفأمنتم) اى بعد انجائكم (أن يخسف بكم جانب البر)

(ومايعدهم الشيطان الا غرورا) هو تزيين الخطايا لهم انه صواب (ان عبادى) الصالحين (ليس لك عليهم سلطان) يد بتبديل الايمان ولكن بتسويل العصيان (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون به فى الاستعاذة منك او حافظا لهم عنك والكل امر تهديد فيعاقب به او اهانة اى لا يخل ذلك بملكى (ربكم الذى يزجى) يجرى ويسير (لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله) يعنى الربح فى التجارة (انه كان بكم رحيما واذا مسكم الضر فى البحر) اى خوف الغرق (ضل من تدعون الا اياه) ذهب عن اوهامكم كل من تدعونه فى حوادثكم الا اياه وحده فانكم لا تذكرون سواه او ضل من تدعون من الآلهة عن اغاثتكم ولكن الله وحده الذى ترجونه على الاستثناء المنقطع (فلما نجاكم الى البر اعرضتم) عن الاخلاص بعد الخلاص (وكان الانسان) اى الكافر (كفورا) للنعم (أفأمنتم) الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره انجوتم فأمنتم فعلكم ذلك على الاعراض (ان يخسف بكم جانب البر) انتصب جانب بيخسف مفعولا به كالارض فى قوله فخسفنا به وبداره الارض وبكم حال

والمعنى ان يخسف جانب البر اى يقلبه وأنتم عليه والحاصل ان الجوانب كلها فى قدرته سواء وله فى كل جانب برا كان او بحرا سبب من اسباب الهلاك ليس جانب البحر وحده مختصا به بل ان كان الغرق فى جانب البحر ففى جانب البر الخسف وهو تغييب تحت التراب والغرق تغييب تحت الماء فعلى العاقل ان يستوى خوفه من الله فى جميع الجوانب وحيث كان (او يرسل عليكم حاصبا) هى الريح التى تحصب اى ترمى بالحصباء يعنى اوان لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف اصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) يصرف ذلك عنكم ١٨٨ (أم امنتم ان يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم) اى ام امنتم ان يقوى دواعيكم ويوفر حوائجكم الى ان ترجعوا فتركبوا البحر الذى نجاكم منه فأعرضتم فينتقم منكم بان يرسل عليكم (قاصفا من الريح) وهى الريح التى لها قصيف وهو الصوت الشديد اوهو الكاسر للفلك (فيغرقكم بما كفرتم) بكفرانكم النعمة وهو اعراضكم حين نجاكم (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) مطالبا من قوله فاتباع بالمعروف اى مطالبة والمعنى انا نفعل ما نفعل بهم ثم لا يجدوا احدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثار من جهتنا وقيل معناه من يتبعنا بالانكار علينا * قوله سبحانه وتعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) قال ابن عباس هو انهم يأكلون بالايدى وغيرهم يأكل بفيه من الارض وقال ايضا بالعقل وقيل بالنطق والتمييز والخط والفهم وقيل باعتدال القامة وامتدادها وقيل بحسن الصورة وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بتسليطهم على جميع ما فى الارض وتسخيره لهم وقيل بحسن تدبيرهم امر المعاش والمعاد وقيل بان منهم خير أمة أخرجت للناس (وحملناهم فى البر) اى على الابل والخيل والبغال والحمير (والبحر) اى وحملناهم فى البحر على السفن وهذا من مؤكدات التكريم لان الله سبحانه وتعالى سخر لهم هذه الاشياء ليمتنفعوا بها ويستعينوا بها على مصالحهم (ورزقناهم من الطيبات) يعنى لذيذ المطاعم والمشارب وقيل الزبد والتمر والحلوا وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى وقيل ان جميع الاغذية امانباتية واما حيوانية فولا يتغذى الانسان الاباطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا الغير الانسان (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) واعلم ان الله تعالى قال فى أول الآية ولقد كرمنا بنى آدم وفى آخرها وفضلناهم ولا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل والا لزم التكرار والاقرب أن يقال ان الله تعالى كرم الانسان على سائر الحيوان بامور خلقية ذاتية طبيعية مثل العقل والنطق والخط وحسن الصورة ثم انه سبحانه وتعالى عرفه بواسطة ذلك العقل والفهم اكتساب العقائد الصحيحة والاخلاق الفاضلة فالاول هو التكريم والثانى هو التفضيل ثم قال سبحانه وتعالى على كثير ممن خلقنا تفضيلا ظاهر الآية يدل على انه فضل بنى آدم على كثير ممن خلق لا على الكل فقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهذا مذهب المعتزلة وقال الكلبى فضلوا على الخلائق كلهم الا على طائفة من الملائكة مثل جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل واشباههم وقيل فضلوا على جميع الخلائق وعلى الملائكة كلهم فان قلت كيف تصنع بكثير قلت يوضع الا كثر موضع الكل كقوله تعالى يلقون السمع وأكثرهم كاذبون اراد كلهم وفى الحديث عن جابر يرفعه قال لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم

اى نغوره والمعنى ان الجهات كلها له وفى قدرته برا كان او بحرا بل ان كان الغرق فى البحر ففى جانب البر ما هو مثله وهو الخسف لانه يغيب تحت الثرى كما ان الغرق يغيب تحت الماء (أو نرسل عليكم حاصبا) اى نمطر عليكم حجارة من السماء كما امطرناها على قوم لوط (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) اى مانعا وناصرا (أم أمنتم أن نعيدكم فيه) اى فى البحر (تارة) اى مرة (أخرى فنرسل عليكم قاصفا من الريح) قال ابن عباس اى عاصفا وهى الريح الشديدة وقيل هى الريح التى تقصف كل شئ من شجر وغيره (فنغرقكم بما كفرتم) اى بكفرانكم النعمة واعراضكم حين انجيناكم (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) التبيع المطالب والمعنى انا نفعل ما نفعل بكم ثم لا تجدون لكم احدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا لكم ودركا للثار من جهتنا وقيل معناه من يتبعنا بالانكار علينا * قوله سبحانه وتعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) قال ابن عباس هو انهم يأكلون بالايدى وغيرهم يأكل بفيه من الارض وقال ايضا بالعقل وقيل بالنطق والتمييز والخط والفهم وقيل باعتدال القامة وامتدادها وقيل بحسن الصورة وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بتسليطهم على جميع ما فى الارض وتسخيره لهم وقيل بحسن تدبيرهم امر المعاش والمعاد وقيل بان منهم خير أمة أخرجت للناس (وحملناهم فى البر) اى على الابل والخيل والبغال والحمير (والبحر) اى وحملناهم فى البحر على السفن وهذا من مؤكدات التكريم لان الله سبحانه وتعالى سخر لهم هذه الاشياء ليمتنفعوا بها ويستعينوا بها على مصالحهم (ورزقناهم من الطيبات) يعنى لذيذ المطاعم والمشارب وقيل الزبد والتمر والحلوا وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى وقيل ان جميع الاغذية امانباتية واما حيوانية فولا يتغذى الانسان الاباطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا الغير الانسان (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) واعلم ان الله تعالى قال فى أول الآية ولقد كرمنا بنى آدم وفى آخرها وفضلناهم ولا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل والا لزم التكرار والاقرب أن يقال ان الله تعالى كرم الانسان على سائر الحيوان بامور خلقية ذاتية طبيعية مثل العقل والنطق والخط وحسن الصورة ثم انه سبحانه وتعالى عرفه بواسطة ذلك العقل والفهم اكتساب العقائد الصحيحة والاخلاق الفاضلة فالاول هو التكريم والثانى هو التفضيل ثم قال سبحانه وتعالى على كثير ممن خلقنا تفضيلا ظاهر الآية يدل على انه فضل بنى آدم على كثير ممن خلق لا على الكل فقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهذا مذهب المعتزلة وقال الكلبى فضلوا على الخلائق كلهم الا على طائفة من الملائكة مثل جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل واشباههم وقيل فضلوا على جميع الخلائق وعلى الملائكة كلهم فان قلت كيف تصنع بكثير قلت يوضع الا كثر موضع الكل كقوله تعالى يلقون السمع وأكثرهم كاذبون اراد كلهم وفى الحديث عن جابر يرفعه قال لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم

وعن الرشيد انه احضر طعاما فدعا بالملاعق وعنده ابو يوسف رحمه الله فقال له جاء فى تفسير جدك ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم جعلنا لهم اصابع يأكلون بها فاحضرت الملاعق فرددها وأكل بأصابعه (وحملناهم فى البر) على الدواب (والبحر) على السفن (ورزقناهم من الطيبات) باللذيذات او بما كسبت ايديهم (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) اى على الكل كقوله وأكثرهم كاذبون قال الحسن اى كلهم وقوله وما يتبع اكثرهم الا ظنا ذكر فى الكشاف ان المراد بالاكثر الجميع وعنه عليه السلام المؤمن اكرم على الله من الملائكة وهذا لانهم مجبولون على الطاعة ففيهم عقل بلا شهوة وفى البهائم شهوة بلا عقل وفى الآدمى كلاهما فمن غلب عقله شهوته فهو أكرم من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم ولانه خلق الكل لهم وخلقهم لنفسه

يأكلون

(يوم ندعوا) منصوب باذكر (كل أناس بامامهم) الباء للحال والتقدير مختلطين بامامهم اى بمن ائتموا به من نبى اومقدم فى الدين اوكتاب اودين فيقال يا اتباع فلان يا اهل دين كذا اوكتاب كذا وقيل بكتاب اعمالهم فيقال يا اصحاب كتاب الخير ويا اصحاب كتاب الشر (فمن أوتى) من هؤلاء المدعوين (كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم) وانما قيل أولئك لان من فى معنى الجمع ١٨٩ (ولا يظلمون فتيلا) ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شئ ولم يذكر الكفار وايتاء كتبهم بشمالهم اكتفاء بقوله (ومن كان فى هذه) الدنيا (اعمى فهو فى الآخرة أعمى) كذلك (وأضل سبيلا) من الاعمى اى اضل طريقا والاعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته لمن لا يهتدى الى طريق النجاة أما فى الدنيا فلفقد النظر واما فى الآخرة فلانه لا ينفعه الاهتداء اليه وقد جوزوا ان يكون الثانى بمعنى التفضيل بدليل عطف واضل ومن ثم قرأ ابو عمرو الاول مما لا والثانى مفخما لان افعل التفضيل تمامه بمن فكانت ألفه فى حكم الواقعة فى وسط الكلمة فلا يقبل الامالة واما الاول فلم يتعلق به شئ فكانت ألفه واقعة فى الطرف فقبلت الامالة وأمالهما حمزة وعلى وفخمهما الباقون ولما قالت قريش اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك نزل (وان كادوا ليفتنونك) ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية والمعنى ان الشأن قاربوا ان يفتنوك اى يخدعوك فاتنين (عن الذى أوحينا اليك) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفترى علينا غيره) لتتقول علينا ما لم نقل يعنى ما اقترحوه من تبديل الوعد وعيدا والوعيد وعدا (واذا لاتخذوك خليلا) اى ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك خليلا ولكنت لهم وليا وخرجت من ولايتى (ولولا أن ثبتناك) ولولا تثبيتنا وعصمتنا (لقد كدت

يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا اجعل من خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان وقيل بالتفصيل وهو الاولى والراجح ان خواص بنى آدم وهم الانبياء أفضل من خواص الملائكة وعوام الملائكة افضل من عوام البشر من بنى آدم وهذا التفضيل انما هو بين الملائكة والمؤمنين من بنى آدم لان الكفار لا حرمة لهم قال الله سبحانه وتعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية وعن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه قال المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة الذين عنده * قوله عز وجل (يوم ندعوا كل أناس بامامهم) اى بنبيهم وقيل بكتابهم الذى أنزل عليهم وقيل بكتاب اعمالهم وعن ابن عباس بامام زمانهم الذى دعاهم فى الدنيا اما الى هدى واما الى ضلال وذلك ان كل قوم يجتمعون الى رئيسهم فى الخير والشر وقيل بمعبودهم وقيل بامامهم جمع أم يعنى بامهاتهم والحكمة فيه رعاية حق عيسى عليه السلام واظهار شرف الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وأن لا يفتضح اولاد الزنا (فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم) فان قلت لم خص اصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع ان اصحاب الشمال يقرؤنه أيضا قلت الفرق ان اصحاب الشمال اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على مشكلات عظيمة فيستولى عليهم الخجل والدهشة فلا يقدرون على اقامة حروفه فتكون قراءتهم كلا قراءة واصحاب اليمين اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على الحسنات والطاعات فيقرؤنه احسن قراءة وأبينها (ولا يظلمون فتيلا) اى ولا ينقصون من ثواب اعمالهم أدنى شئ (ومن كان فى هذه أعمى) المراد عمى القلب والبصيرة لا عمى البصر والمعنى ومن كان فى هذه الدنيا اعمى اى عن هذه النعم التى قد عدها فى هذه الآيات المتقدمة (فهو فى الآخرة) اى التى لم تعاين ولم تر (أعمى وأضل سبيلا) قاله ابن عباس وقيل معناه ومن كان فى هذه الدنيا اعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق فهو فى الآخرة أعمى اى اشد عمى وأضل سبيلا اى اخطأ طريقا وقيل معناه ومن كان فى الدنيا كافرا ضالا فهو فى الآخرة أعمى لانه فى الدنيا تقبل توبته وفى الآخرة لا تقبل توبته قوله سبحانه وتعالى (وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك) قيل فى سبب نزولها ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر الاسود فمنعته قريش وقالوا لا ندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدث نفسه ما على ان افعل ذلك والله يعلم انى لها كاره بعد ان يدعونى استلم الحجر وقيل طلبوا منه ان يذكر آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه فحدث نفسه فانزل الله هذه الآية وقال ابن عباس قدم وفد ثقيف على النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا نبايعك على ان تعطينا ثلاث خصال قال وما هن قالوا لا نجبى فى الصلاة اى لا نحنى ولا نكسر أصنامنا بأيدينا وان تمتعنا باللات سنة من غير ان تعبدها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا خير فى دين لا ركوع فيه ولا سجود واما ان لا تكسروا اصنامكم بأيديكم فذلك لكم وأما الطاغية يعنى اللات والعزى فانى غير ممتعكم بها قالوا يا رسول الله انا نحب ان تسمع العرب انك اعطيتنا ما لم تعط غيرنا فان خشيت ان تقول العرب اعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله أمرنى بذلك فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فطمع القوم فى سكوته ان يعطيهم ذلك فانزل الله تعالى وان كادوا اى هموا ليفتنونك اى ليصرفونك عن الذى أوحينا اليك (لتفترى) اى لتختلق وتبتدع (علينا غيره) اى ما لم نقله (واذا) اى لو فعلت ما دعوك اليه (لاتخذوك خليلا) اى والوك ووافوك وصافوك (ولولا أن ثبتناك) اى على الحق بعصمتنا اياك (لقد كدت

تركن اليهم) لقاربت ان تميل الى مكرهم (شيأ قليلا) ركونا قليلا وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت (اذا) لو قاربت تركن اليهم ادنى ركنة (لأذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات) لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين لعظيم ذنبك بشرف منزلتك ونبوتك كما قال يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة الآية واصل الكلام لاذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات لان العذاب عذابان عذاب في الممات وهو عذاب القبر وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار والعذاب يوصف بالضعف كقوله فآتهم عذابا ضعفا من النار اى مضاعفا فكان أصل الكلام لاذقناك عذابا ضعفا في الحياة وعذابا ضعفا في الممات ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف ثم أضيفت الصفة اضافة ١٩٠ الموصوف فقيل ضعف الحياة وضعف الممات ويجوز ان يراد بضعف الحياة عذاب الحياة الدنيا وبضعف الممات ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار وفي ذكر الكيدودة وتقليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل على ان القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله ولما نزلت كان عليه السلام يقول اللهم لاتكلني الى نفسي طرفة عين (ثم لاتجد لك علينا نصيرا) معينا لك يمنع عذابنا عنك (وان كادوا) اى اهل مكة (ليستفزونك) ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم (من الارض) من أرض مكة (ليخرجوك منها واذا لا يلبثون) لايقون (خلفك) بعدك اى بعد اخراجك خلافك كوفي غير ابي بكر وشامي بمعناه (الا قليلا) زمانا قليلا فان الله مهلكهم وكان كما قال فقد أهلكوا ببدر بعد اخراجه بقليل اومعناه ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة ابيهم ولم يخرجوه بل هاجر بأمر ربه وقيل من ارض العرب اومن ارض المدينة (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) يعني ان كل قوم اخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله ان يهلكهم ونصبت نصب المصدر المؤكد اى سن الله ذلك سنة (ولا تجد لسنتنا تحويلا) تبديلا (أقم الصلوة لدلوك الشمس) لزوالها وعلى هذا الآية جامعة للصلوات الخمس اولغروبها وعلى هذا يخرج الظهر والعصر (الى غسق الليل) هو الظلمة ووقت صلاة العشاء (وقرآن الفجر) صلاة الفجر سميت قرآنا وهو القراءة لكونها ركنا كما سميت ركوعا وسجودا وهو حجة على الاصم حيث زعم ان القراءة ليست بركن او سميت قرآنا لطول قراءتها وهو عطف على الصلاة (ان قرآن الفجر كان مشهودا) يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء

تركن) اى تميل (اليهم شيأ قليلا) اى قربت من الفعل فان قلت كان النبي صلى الله عليه وسلم معصوما فكيف يجوز ان يقرب مما طلبوه قلت كان ذلك خاطر قلب ولم يكن عزما وقد عفا الله تعالى عن حديث النفس وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول بعد ذلك اللهم لاتكلني الى نفسي طرفة عين والجواب الصحيح هو ان الله سبحانه وتعالى قال ولولا أن ثبتناك وقد ثبته الله فلم يركن اليهم (اذا لأذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات) اى لو فعلت ذلك لاذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يعني ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة (ثم لاتجد لك علينا نصيرا) اى ناصرا يمنعك من عذابنا قوله سبحانه وتعالى (وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها) قيل هذه الآية مدنية وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة وذلك حسدا فاتوه فقالوا يا ابا القاسم لقد علمت ماهذه بارض الانبياء وان ارض الانبياء الشام وهي الارض المقدسة وكان بها ابراهيم والانبياء عليهم السلام فان كنت نبيا مثلهم فأت الشام وانما يمنعك من الخروج اليها مخافة الروم وان الله سيمنعك من الروم ان كنت رسوله فعسكر النبي صلى الله عليه وسلم على ثلاثة اميال من المدينة وفي رواية الى ذي الحليفة حتى يجتمع اليه اصحابه فيخرج فانزل الله هذه الآية فالارض هنا ارض المدينة وقيل الارض ارض مكة والآية مكية والمعنى هم المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنه حتى امره بالخروج للهجرة فخرج بنفسه وهذا أليق بالآية لان ماقبلها خبر عن اهل مكة والسورة مكية وقيل هم المشركون كلهم وارادوا أن يستفزوه من ارض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه فمنع الله رسوله ولم ينالوا منه ما أملوه والاستفزاز الازعاج (واذا لا يلبثون خلفك الا قليلا) اى لا يبقون بعد اخراجك الا زمانا قليلا حتى يهلكوا * قوله سبحانه وتعالى (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) يعني ان كل قوم اخرجوا رسولهم من بين اظهرهم فسنة الله أن يهلكهم وأن لا يعذبهم مادام نبيهم بينهم فاذا خرج من بين اظهرهم عذبهم (ولا تجد لسنتنا تحويلا) اى تبديلا * قوله سبحانه وتعالى (أقم الصلوة لدلوك الشمس) روى عن ابن مسعود انه قال الدلوك الغروب وهو قول النخعي ومقاتل والضحاك والسدي وقال ابن عباس وابن عمر وجابر هو زوال الشمس وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر التابعين ومعنى اللفظ يجمعهما لان اصل الدلوك الميل والشمس تميل اذا زالت واذا غربت والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به واذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر (الى غسق الليل) اى ظهور ظلمته وقال ابن عباس بدو الليل وهذا يتناول المغرب والعشاء (وقرآن الفجر) يعني صلاة الفجر سمي الصلاة قرآنا لانها لاتجوز الا بقرآن (ان قرآن الفجر كان مشهودا) اى

يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار (خ) عن ابى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجمع صلاة احدكم وحده بخمس وعشرين جزأ وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر ثم يقول ابو هريرة اقرؤا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا قال الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره هذا دليل قاطع قوى على ان التغليس افضل من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من اول الصبح ففى ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار اما اذا ابتدأ بهذه الصلاة فى وقت الاسفار فهناك لم يبق احد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور فى الآية فثبت ان قوله تعالى ان قرآن الفجر كان مشهودا دليل على ان الصلاة فى اول وقتها افضل قوله سبحانه وتعالى (ومن الليل فتهجد به) اى قم بعد نومك والتهجد لا يكون الا بعد القيام من النوم والمراد من الآية قيام الليل للصلاة وكانت صلاة الليل فريضة على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى الامة فى الابتداء لقوله تعالى يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخا فى حق الامة بالصلوات الخمس وبقى قيام الليل على الاستحباب بدليل قوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه وبقى الوجوب ثابتا فى حق النبى صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى (نافلة لك) اى زيادة لك بريد فريضة زائدة على سائر الفرائض التى فرضها الله عليك روى عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن على فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل وقيل ان الوجوب صار منسوخا فى حقه كما فى حق الامة فصار قيام الليل نافلة لان الله سبحانه وتعالى قال نافلة لك ولم يقل عليك فان قلت ما معنى التخصيص اذا كان زيادة فى حق المسلمين كما فى حقه صلى الله عليه وسلم قلت فائدة التخصيص ان النوافل كفارات لذنوب العباد والنبى صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت له نافلة وزيادة فى رفع الدرجات

(فصل) فى الاحاديث الواردة فى قيام الليل (ق) عن المغيرة بن شعبة قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له اتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال افلا اكون عبدا شكورا (م) عن زيد بن خالد الجهنى قال لأرمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته او وساطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم اوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة لفظ ابى داود (ق) عن ابى سلمة ابن عبد الرحمن انه سأل عائشة كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان قالت ما كان يزيد فى رمضان ولا فى غيره على احدى عشرة ركعة يصلى اربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى اربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى ثلاثا فقالت عائشة فقلت يا رسول الله اتنام قبل ان توتر فقال يا عائشة ان عينى تنامان ولا ينام قلبى (ق) عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيما بين ان يفرغ من صلاة العشاء الى الفجر احدى عشرة ركعة يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة ويسجد سجدتين قدر ما يسجد احدكم خمسين آية قبل ان يرفع رأسه فاذا سكت المؤذن من صلاة الفجر وتبين له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الايمن حتى يأتيه المؤذن للاقامة (خ) عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين * عن عوف بن مالك الاشجعى قال قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة الا وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب الا وقف وتعوذ ثم ركع بقدر قيامه

و يصعد هؤلاء فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة (ومن الليل) وعليك بعض الليل (فتهجد) والتهجد ترك الهجود للصلاة ويقال فى النوم أيضا تهجد (به) بالقرآن (نافلة لك) عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس وضع نافلة موضع تهجدا لان التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد والمعنى ان التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة غنيمة لك او فريضة عليك خاصة دون غيرك لانه تطوع لهم

يقول فى ركوعه سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ثم سجد بقدر قيامه ثم قال فى سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة النساء أخرجه أبو داود والنسائى * عن عائشة قالت قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن ليلة أخرجه الترمذى (ق) عن الاسود قال سألت عائشة كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل قالت كان ينام اوله ويقوم آخره فيصلى ثم يرجع الى فراشه فاذا أذن المؤذن وثب فان كانت به حاجة اغتسل والا توضأ وخرج عن أنس قال ما كنا نشاء ان نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الليل مصليا الا رأيناه ولا نشاء أن نراه نائما الا رأيناه أخرجه النسائى زاد فى رواية غيره قال وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيأ ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيأ * وقوله عز وجل (عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا) اجمع المفسرون على ان عسى من الله واجب وذلك لان لفظة عسى تفيد الاطماع ومن أطمع انسانا فى شئ ثم أحرمه كان ذلك عارا عليه والله أكرم من ان يطمع أحدا ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه والمقام المحمود هو مقام الشفاعة لانه يحمده فيه الاولون والآخرون (ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل نبى دعوة مستجابة وانى اختبأت دعوتى شفاعة لامتى فهى نائلة منكم ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيأ (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فمن صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله وأرجو ان أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة (م) عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة (ق) عن أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك وفى رواية فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحيى ربه منها ولكن ائتوا نوحا اول رسول بعثه الله الى اهل الارض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحيى ربه منها ولكن ائتوا ابراهيم الذى اتخذه الله خليلا فيأتون ابراهيم فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحيى ربه منها ولكن ائتوا موسى الذى كلمه الله وأعطاه التوراة قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التى اصاب فيستحيى ربه منها ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتونى فاستأذن على ربى تعالى فيؤذن لى فاذا أنا رأيته وقعت ساجدا فيدعنى ماشاء الله فيقال يا محمد ارفع رأسك قل تسمع سل تعطه اشفع تشفع فارفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ثم أشفع فيحد لى حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجدا فيدعنى ماشاء الله ان يدعنى ثم يقال لى ارفع يا محمد رأسك قل تسمع سل تعطه اشفع تشفع فارفع رأسى فاحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ثم اشفع فيحد لى حدا فاخرجهم من النار وأدخلهم الجنة قال فلا أدرى فى الثالثة او فى الرابعة قال فأقول يا رب ما بقى فى النار الا من حبسه القرآن اى من وجب عليه الخلود وفى رواية للبخارى ثم تلا هذه الآية عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا قال وهذا المقام المحمود الذى وعده نبيكم صلى الله عليه وسلم زاد فى رواية فقال النبى صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة ثم يخرج من النار من

(عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا) نصب على الظرف اى عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاما محمودا أو ضمن يبعثك معنى يقيمك وهو مقام الشفاعة عند الجمهور ويدل عليه الاخبار او هو مقام يعطى فيه لواء الحمد

قال لا اله الا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة قال يزيد بن زريع فى حديث شعبة ذرة وفى رواية من ايمان مكان خير وفى حديث معبد بن هلال العنزى عن أنس فى حديث الشفاعة وذكر نحوه وفيه فأقول يارب امتى امتى فيقال انطلق فمن كان فى قلبه ادنى ادنى ادنى من مثقال حبة من خردل من ايمان فاخرجه من النار فانطلق فأفعل قال فلما خرجنا من عند انس مررنا بالحسن فسلمنا عليه فحدثناه بالحديث الى هذا الموضع فقال هيه فقلنا لم يزدنا على هذا فقال لقد حدثنى وهو يومئذ جميع منذ عشرين سنة كما حدثكم ثم قال ثم أعود فى الرابعة فاحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال لى يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول يارب ائذن لى فيمن قال لا اله الا الله قال ليس ذاك لك او قال ليس ذاك اليك ولكن وعزتى وكبريائى وعظمتى وجبريائى لأخرجن منها من قال لا اله الا الله (قوله وهو يومئذ جميع) اى مجتمع الذهن والرأى عن ابى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمد ولا فخر وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه الا تحت لوائى وانا اول من تنشق عنه الارض ولا فخر قال فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون انت أبونا اشفع لنا الى ربك فيقول انى اذنبت ذنبا عظيما فاهبطت به الى الارض ولكن ائتوا نوحا فيأتون نوحا فيقول انى دعوت على أهل الارض دعوة فاهلكوا ولكن اذهبوا الى ابراهيم فيأتون ابراهيم فيقول انى كذبت ثلاث كذبات ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منها كذبة الا ما حل بها عن دين الله ولكن ائتوا موسى فيأتون موسى فيقول قد قتلت نفسا ولكن ائتوا عيسى فيأتون عيسى فيقول انى عبدت من دون الله ولكن ائتوا محمدا فيأتونى فانطلق معهم قال ابن جدعان قال أنس فكأنى أنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فآخذ بحلقة باب الجنة فاقعقعها فيقال من هذا فيقال محمد فيفتحون لى ويقولون مرحبا فأخر ساجدا فيلهمنى الله من الثناء والحمد فيقال لى ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع وقل يسمع لقولك وهو المقام المحمود الذى قال الله سبحانه وتعالى عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا قال سفيان ليس عن أنس غير هذه الكلمة فآخذ بحلقة باب الجنة فاقعقعها فيقال من هذا فيقال محمد فيفتحون لى ويرحبون بى فيقولون مرحبا فأخر ساجدا فيلهمنى الله من الثناء والحمد أخرجه الترمذى (قوله ماحل) المماحلة المخاصمة والمجادلة والمعنى انه عليه الصلاة والسلام خاصم وجادل عن دين الله بتلك الالفاظ التى صدرت منه وقوله فاقعقعها اى أحركها حركة شديدة والقعقعة حكاية أصوات الترس وغيره مما له صوت عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا وانا خطيبهم اذا وفدوا وأنا مبشرهم اذا أيسوا ولواء الحمد يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر أخرجه الترمذى زاد فى رواية غير الترمذى وانا مستشفعهم اذا حبسوا الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدى يطوف على خدم كأنهن بيض مكنون او لؤلؤ منثور (م) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا سيد ولد آدم يوم القيامة واول من تنشق عنه الارض وأول شافع وأول مشفع زاد الترمذى قال انا اول من تنشق عنه الارض فاكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش فليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال ان الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الاذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام فيشفع ليقضى بين الخلائق فيمشى حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده فيه أهل الجمع كلهم (م) عن يزيد بن صهيب قال كنت قد شغفنى رأى من رأى الخوارج فخرجنا فى عصابة ذوى عدد نريد ان نحج ثم نخرج على الناس قال فمررنا على المدينة فاذا جابر بن عبد الله جالس الى سارية يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا هو قد ذكر الجهنميين فقلت يا صاحب رسول الله ما هذا الذى تحدثون والله يقول انك من تدخل النار فقد أخزيته وكلما أرادوا ان يخرجوا منها

أعيدوا فيها فهاهذا الذى تقولون قال أتقرأ القرآن قلت نعم قال فاقرأ ما قبله انه فى الكفار ثم قال فهل سمعت بمقام محمد الذى يبعثه الله فيه قلت نعم قال فان مقام محمد صلى الله عليه وسلم المحمود الذى يخرج الله به من يخرج من النار قال ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه قال وأخاف ان لا أكون أحفظ ذلك قال غيره انه قد زعم ان قوما يخرجون من النار بعد ان يكونوا فيها قال يعنى فيخرجون كانهم عيدان السماسم قال فيدخلون نهرا من انهار الجنة فيغتسلون فيه فيخرجون منه كانهم القراطيس فرجعنا فقلنا ويحكم أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعنا فلا والله ما خرج غير رجل واحد او كما قال والاحاديث فى الشفاعة كثيرة وأول من أنكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق اهل السنة وروى ابو وائل عن ابن مسعود انه قال ان الله اتخذ ابراهيم خليلا وان صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق عليه ثم قرأ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال يقعده على العرش وعن مجاهد مثله وعن عبد الله بن سلام قال يقعد على الكرسى * قوله عز وجل (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) المراد منهما الادخال والاخراج قال ابن عباس معناه أدخلنى مدخل صدق المدينة وأخرجنى مخرج صدق من مكة نزلت حين امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقيل معناه أخرجنى من مكة آمنا من المشركين وأدخلنى مكة ظاهرا عليها بالفتح وقيل أدخلنى فى أمرك الذى أرسلتنى به من النبوة مدخل صدق وأخرجنى من الدنيا وقد قمت بما وجب على من حق النبوة مخرج صدق وقيل معناه أدخلنى فى طاعتك مدخل صدق وأخرجنى من المناهى مخرج صدق وقيل معناه أدخلنى حيثما أدخلتنى بالصدق وأخرجنى بالصدق ولا تجعلنى ممن يخرج بوجه ويدخل بوجه فان ذا الوجهين لا يكون آمنا عند الله (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) اى حجة بينة وقيل ملكا قويا تنصرنى به على من عادانى وعزا ظاهرا أقيم به دينك فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما ويجعله له وأجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس وقال ليظهره على الدين كله وقال وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض الآية قوله تعالى (وقل جاء الحق) يعنى الاسلام والقرآن (وزهق الباطل) اى الشرك والشيطان (ان الباطل كان زهوقا) اى مضمحلا غير ثابت وذلك ان الباطل وان كان له دولة وصولة فى وقت من الاوقات فهو سريع الذهاب والزوال (ق) عن عبد الله بن مسعود قال دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد قوله سبحانه وتعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء) من فى قوله تعالى من القرآن لبيان الجنس والمعنى تنزل من هذا الجنس الذى هو قرآن ما هو شفاء اى بيان من الضلالة والجهالة يتبين به المختلف فيه ويتضح به المشكل ويستشفى به من الشبهة ويهتدى به من الحيرة وهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها وقيل هو شفاء للامراض الباطنة والظاهرة وذلك[1] لانها تنقسم الى نوعين احدهما الاعتقادات الباطلة والثانى الاخلاق المذمومة أما الاعتقادات الباطلة فاشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة فى الذات والصفات والنبوات والقضاء والقدر والبعث بعد الموت فالقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه الاشياء وابطال المذاهب الفاسدة لا جرم كان القرآن شفاء لما فى القلوب من هذا النوع وأما النوع الثانى وهو الاخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على التنفير منها والارشاد الى الاخلاق المحمودة والاعمال الفاضلة فثبت ان القرآن شفاء من جميع الامراض الباطنة واما كونه شفاء من الامراض الجسمانية فلان التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الامراض يدل عليه ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فاتحة الكتاب وما يدريك انها رقية (ورحمة للمؤمنين) لما كان القرآن شفاء للامراض الباطنة والظاهرة فهو جدير بان يكون رحمة للمؤمنين

(وقل رب أدخلنى مدخل صدق) هو مصدر اى ادخلنى القبر ادخالا مرضيا على طهارة من الزلات (وأخرجنى مخرج صدق) اى أخرجنى منه عند البعث اخراجا مرضيا ملقى بالكرامة آمنا من الملامة دليله ذكره على أثر ذلك البعث وقيل نزلت حين أمر بالهجرة يريد ادخال المدينة والاخراج من مكة او هو عام فى كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) حجة تنصرنى على من خالفنى او ملكا وعزا قويا ناصرا للاسلام على الكفر مظهرا له عليه (وقل جاء الحق) الاسلام (وزهق) وذهب وهلك (الباطل) الشرك او جاء القرآن وهلك الشيطان (ان الباطل كان زهوقا) كان مضمحلا فى كل أوان (وننزل) وبالتخفيف أبو عمرو (من القرآن) من للتبيين (ما هو شفاء) من أمراض القلوب (ورحمة) وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب (للمؤمنين) وفى الحديث من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله

[1] قوله لانها تنقسم الى نوعين اى الامراض الغير الجسمانية بدليل قوله بعد واما كونه شفاء من الامراض الجسمانية والعبارة فى الفخر الرازى بغاية التهذيب فليراجع

(ولا يزيد الظالمين) الكافرين (الا خسارا) ضلالا لتكذيبهم به وكفرهم (واذا أنعمنا على الانسان) بالصحة والسعة (أعرض) عن ذكر الله او أنعمنا بالقرآن أعرض (ونأى بجانبه) تأكيد للاعراض لان الاعراض عن الشئ ان يوليه عرض وجهه والنأى بالجانب ان يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره او اراد الاستكبار لان ذلك من عادة المستكبرين نأى بالامالة حمزة وبكسرها على (واذا مسه الشر) الفقر والمرض او نازلة من النوازل (كان يؤسا) شديد اليأس من روح الله (قل كل) ١٩٠ اى كل أحد (يعمل على شاكلته)

(ولا يزيد الظالمين الا خسارا) لان الظالم لا ينتفع به والمؤمن ينتفع به فكان رحمة للمؤمنين وخسارا للظالمين وقيل لان كل آية تنزل يتجدد لهم تكذيب بها فيزداد خسارهم قال قتادة لم يجالس القرآن أحد الا قام عنه بزيادة او نقصان قضاه الله الذى قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا قوله سبحانه وتعالى (واذا أنعمنا على الانسان) اى بالصحة والسعة (أعرض) اى عن ذكرنا ودعائنا (ونأى بجانبه) اى تباعد منا بنفسه وترك التقرب الينا بالدعاء وقيل معناه تكبر وتعظم (واذا مسه الشر) اى الشدة والضر (كان يؤسا) اى آيسا قنوطا وقيل معناه انه يتضرع ويدعو عند الضر والشدة فاذا تأخرت الاجابة يئس فلا ينبغى للمؤمن ان يدع الدعاء ولو تأخرت الاجابة قوله عز وجل (قل كل) اى كل أحد (يعمل على شاكلته) قال ابن عباس على ناحيته وقيل الشاكلة الطريقة اى على طريقته التى جبل عليها وفيه وجه آخر وهو ان كل انسان يعمل على حسب جوهر نفسه فان كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه أفعال جميلة واخلاق زكية طاهرة وان كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة فاسدة رديئة (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) اى اوضح طريقا وأحسن مذهبا واتباعا للحق قوله سبحانه وتعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) (ق) عن عبد الله بن مسعود قال بينما انا أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون فقاموا اليه وفى رواية فقام اليه رجل منهم فقال يا أبا القاسم ما الروح فسكت وفى رواية فقالوا حدثنا عن الروح فقام ساعة ينتظر الوحى وعرفت انه يوحى اليه فتأخرت حتى صعد الوحى قال ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه وفى رواية وما أوتوا من العلم الا قليلا قال الاعمش هكذا فى قراءتنا العسيب جريد النخل وسعفه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا وقالوا ان محمدا نشأ فينا بالامانة والصدق وما اتهمناه بكذب قط وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فان أجاب عن كلها او لم يجب عن شئ منها فليس بنبى وان أجاب عن اثنتين ولم يجب عن واحدة فهو نبى فاسألوه عن فتية فقدوا فى الزمن الاول ما كان شأنهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الارض ومغربها ما خبره وعن الروح قال فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم فقال أخبركم بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحى قال مجاهد اثنى عشر يوما وقيل خمسة عشر يوما وقيل أربعين يوما وأهل مكة يقولون قد وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا لا يخبرنا بشئ حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكث الوحى وشق عليه ما يقوله اهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله ونزل فى الفتية أم حسبت ان أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب قوله ويسئلونك عن ذى القرنين ونزل فى الروح ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى واختلفوا فى الذى وقع السؤال عنه فروى عن ابن عباس انه جبريل وعن

عليه السلام نزل به الروح الامين على قلبك وعن الحسن القرآن دليله وكذلك اوحينا اليك روحا من أمرنا ولان به حياة القلوب ومن امر ربى اى من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر وروى ان اليهود بعثت الى قريش ان سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عن الكل او سكت عن الكل فليس بنبى وان اجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وابهم امر الروح وهو مبهم فى التوراة فندموا على سؤالهم وقيل كان السؤال عن خلق الروح يعنى اهو مخلوق ام لا وقوله من امر ربى دليل خلق الروح فكان هذا جوابا

على مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أسد مذهبا وطريقة (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) اى من أمر يعلمه ربى الجمهور على انه الروح الذى فى الحيوان سألوه عن حقيقته فاخبرانه من امر الله اى مما استأثر بعلمه وعن ابى هريرة لقد مضى النبى صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقد عجزت الاوائل عن ادراك ماهيته بعد انفاق الاعمار الطويلة على الخوض فيه والحكمة فى ذلك تجهيز العقل عن ادراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على انه عن ادراك خالقه أعجز ولذا ردما قيل فى حده انه جسم دقيق هوائى فى كل جزء من الحيوان وقيل هو خلق عظيم روحانى أعظم من الملك وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو جبريل

(وما أوتيتم من العلم الا قليلا) الخطاب عام فقد روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت ومعنا فيه فقال بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم الا قليلا وقيل هو خطاب لليهود خاصة لانهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم قد اوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا فقيل لهم ان علم التوراة قليل في جنب علم الله فالقلة والكثرة من الامور الاضافية فالحكمة التي اوتيها العبد خير كثير في نفسها الا انها اذا أضيفت الى علم الله تعالى فهي قليلة ثم نبه على نعمة الوحي وعزاه بالصبر على اذى الجدال في السؤال بقوله (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك) لنذهبن جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط واللام الداخلة على ان موطئة للقسم والمعنى ان شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثرا (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) اى ثم لا تجد لك بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده واعادته محفوظا مسطورا (الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيرا) اى الا ان يرحمك ربك فيرده عليك كان رحمته تتوكل عليه بالرد او يكون على الاستثناء المنقطع اى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظا بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه ونزل جوابا لقولهم النضر لو نشاء لقلنا مثل هذا (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) معينا ولا يأتون جواب قسم محذوف ولولا اللام الموطئة لجاز ان يكون جوابا للشرط كقوله

على انه ملك له سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بني آدم لهم أيد وأرجل ورؤس ليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش لو شاء ان يبتلع السموات والارض ومن فيهما بلقمة واحدة لفعل ذلك صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو أقرب الخلق الى الله تعالى اليوم عند الحجب السبعين وأقرب الخلق الى الله يوم القيامة وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا ان بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق أهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن لان الله سماه روحا ولان به حياة القلوب وقيل هو الروح المركب في الخلق الذي به يحيا الانسان وهو اصح الاقوال وتكلم قوم في ماهية الروح فقال بعضهم هو الدم الا ترى ان الانسان اذا مات لا يفوت منه شئ الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل انه يموت باحتباس النفس وقال قوم هو عرض وقال قوم هو جسم لطيف يحيا به الانسان وقيل الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء الا ترى انه اذا كان موجودا يكون الانسان موصوفا بجميع هذه الصفات واذا خرج منه ذهب الكل واقاويل الحكماء الصوفية في ماهية الروح كثيرة وليس هذا موضع استقصائها واولى الاقاويل ان يوكل علمه الى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة ان الله لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله قل الروح من أمر ربي اى من علم ربي الذي استأثر به (وما أوتيتم من العلم) اى من علم ربي (الا قليلا) اى في جنب علم الله عز وجل الخطاب عام وقيل هو خطاب لليهود فانهم كانوا يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير فقيل لهم ان علم التوراة قليل في جنب علم الله وقيل ان القلة والكثرة تدوران مع الاضافة فوصف الشئ بالقلة مضافا الى ما فوقه وبالكثرة مضافا الى ما تحته وقيل ان النبي صلى الله عليه وسلم علم معنى الروح ولكن لم يخبر به لان ترك الاخبار به كان علما لنبوته والقول الاصح هو ان الله عز وجل استأثر بعلم الروح قوله عز وجل (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك) معناه انا كما منعنا علم الروح عنك وعن غيرك ان شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له اثرا وبقيت كما كنت ما تدري ما الكتاب (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) معناه لا تجد بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده علينا واعادته محفوظا مسطورا (الا رحمة من ربك) معناه الا ان يرحمك ربك فيرده عليك وقيل هو على الاستثناء المنقطع معناه لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظا فان قلت كيف يذهب بالقرآن وهو كلام الله عز وجل قلت المراد منه محوما في المصاحف واذهاب ما في الصدور قال عبد الله بن مسعود اقرؤا القرآن قبل أن يرفع فانه لا تقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الناس قال يسرى عليه ليلا فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيأ ولا يجدون مما في المصاحف شيأ ثم تفيضون في الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل له دوى حول العرش كدوى النحل فيقول الرب مالك فيقول يا رب أتلى ولا يعمل بي (ان فضله كان عليك كبيرا) اى بسبب بقاء العلم والقرآن عليك وجعلك سيد ولد آدم وختم النبيين بك واعطائك المقام المحمود قوله سبحانه وتعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) اى لا يقدرون على ذلك (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) اى عونا نزلت حين قال المشركون لو نشاء لقلنا

* يقول لا غائب مالى ولا حرم *
لان الشرط وقع ماضيا اى لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى بلاغته وحسن نظمه وتأليفه لعجزوا عن الاتيان بمثله (ولقد صرفنا) رددنا وكررنا (للناس فى هذا القرآن من كل مثل) من كل معنى هو كالمثل فى غرابته وحسنه (فأبى أكثر الناس الا كفورا) جحودا وانما جاز فأبى أكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت الا زيدا لان ابى متأول بالنفى كانه قيل فلم يرضوا الا كفورا ولما تبين اعجاز القرآن وانضمت اليه المعجزات الاخر ولزمتهم الحجة وغلبوا اقترحوا الآيات فعل المبهوت المحجوج المتحير (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا) و بالتخفيف كوفى (من الارض) اى مكة (ينبوعا) عينا غزيرة من شأنها ان تنبع بالماء لا تقطع يفعول من نبع الماء

لعلنا مثل هذا فكذبهم الله عز وجل فالقرآن معجز فى النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام فى اعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخالق لانه كلام الخالق وهو غير مخلوق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله * قوله عز وجل (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) اى رددنا وكررنا من كل معنى هو كالمثل فى غرابته وحسنه وقيل معناه من كل وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها (فأبى أكثر الناس الا كفورا) اى جحودا قوله سبحانه وتعالى (وقالوا لن نؤمن لك) اى لن نصدقك (حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا) لما تبين اعجاز القرآن وانضمت اليه معجزات أخر و بينات ولزمتهم الحجة وغلبوا اخذوا يتغالون باقتراح الآيات فقالوا لن نؤمن لك روى عكرمة عن ابن عباس ان عتبة وشيبة ابنى ربيعة وابا سفيان بن حرب والنضر بن الحرث وابا البختري بن هشام والاسود بن عبد المطلب و زمعة بن الاسود والوليد بن المغيرة وابا جهل بن هشام وعبد الله بن ابى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابنى الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن انه بدا لهم فى أمره بداء وكان حريصا يحب رشدهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله لا نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة وما بقى من قبيح الا وقد جئته فيما بيننا و بينك فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جعلنا لك من اموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد الشرف سودناك علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذى بك رئيا تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه ونعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابى ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب اموالكم ولا للشرف عليكم ولا للملك عليكم ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وأنزل على كتابا وامرنى ان أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى فهو حظكم من الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى و بينكم فقالوا يا محمد ان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت انه ليس احد أضيق بلادا ولا اشد عيشا منا فسل لنا ربك الذى بعثك فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا و يبسط لنا بلادنا و يفجر لنا فيها الانهار كانهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصى بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول احق هو أم باطل فان صدقوك صدقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به فان تقبلوه فهو حظكم وان تردوه اصبر لامر الله تعالى قالوا فان لم تفعل هذا فسل لنا ربك ان يبعث ملكا يصدقك واسأله ان يجعل لك جنات وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها على ما تريد فانك تقوم بالاسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال ما بعثت بهذا ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا قالوا فأسقط السماء كما زعمت ان ربك ان شاء فعل فقال ذلك الى الله ان شاء فعل ذلك بكم وقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن ابى امية وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لانفسهم أمورا يعرفون بها منزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك ان تعجل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله ما أومن لك ابدا حتى تتخذ الى السماء مرقى ترقى فيه وأنا انظر حتى تأتيها فتأتى بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت ان لا أصدقك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فانزل الله تعالى وقالوا لن

(او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر) والتشديد هنا مجمع عليه (الانهار خلالها) وسطها (تفجيرا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) بفتح السين مدنى وعاصم اى قطعا يقال اعطنى كسفة من هذا الثوب و بسكون السين غيرهما جمع كسفة كسدرة وسدر يعنون قوله ان نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفا من السماء (او تأتى بالله والملائكة قبيلا) كفيلا بما تقول شاهدا بصحة والمعنى او تأتى بالله قبيلا و بالملائكة قبيلا كقوله كنت منه ووالدى بريا ومقابلا كالعشير بمعنى المعاشر ونحوه لولا أنزل علينا الملائكة اونرى ربنا او جماعة حالا من الملائكة (او يكون لك بيت من زخرف) ذهب (او ترقى فى السماء) تصعد اليها (ولن نؤمن لرقيك) لاجل رقيك (حتى تنزل علينا) و بالتخفيف ابو عمرو و (كتابا) اى من السماء فيه تصديقك (نقرؤه) صفة كتاب (قل) قال مكى وشامى اى قال الرسول (سبحان ربى) تعجب من اقتراحاتهم عليه (هل كنت الا بشرا رسولا) اى أنا رسول كسائر الرسل

بشر مثلهم وكان الرسل لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله عليهم من الآيات فليس امر الآيات الى انما هو الى الله فما بالكم تخيرونها على (وما منع الناس) يعنى اهل مكة ومحل (أن يؤمنوا) نصب بانه مفعول ثان لمنع (اذ جاءهم الهدى) النبى والقرآن (الا ان قالوا) فاعل منع والتقدير ومامنعهم الايمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الا قولهم (أبعث الله بشرا رسولا) اى الاشبهة تمكنت فى صدورهم وهى انكارهم ان يرسل الله البشر والهمزة فى أبعث الله للانكار وما انكروه (٣) ففى قضية حكمته منكر ثم رد الله عليهم بقوله (قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون) على اقدامهم كما يمشى الانس ولا يطيرون باجنحتهم الى السماء فيسمعوا من أهلها يصيروا ويعلموا ما يجب عليهم (مطمئنين) حال اى ساكنين فى الارض قارين (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) يعلمهم الخير ويهديهم المراشد فاما الانس فانما يرسل الملك الى مختار منهم للنبوة فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وارشادهم و بشرا وملكا حالان من رسولا (قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم) على انى بلغت ما أرسلت به اليكم وانكم كذبتم وعاندتم شهيدا تمييزا وحال (انه كان بعباده) المنذرين والمنذرين (خبيرا) عالما باحوالهم (بصيرا) باقعالهم فهو مجازيهم وهذه تسلية لرسول الله عليه السلام ووعيد للكفرة (ومن يهد الله فهو المهتد) وبالياء يعقوب وسهل وافقهما ابو عمر وومدنى فى الوصل اى من وفقه الله لقبول ما كان من الهدى فهو المهتدى عند الله (ومن يضلل) اى ومن يخذله ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان (فلن تجد لهم أولياء من دونه) اى انصارا

(٣) قوله ففى قضية حكمته منكر عبارة الكشاف وما انكروه فخلافه هو المنكر عند الله لان قضية حكمته ان لا يرسل ملك الوحى الا الى أمثاله او الى الانبياء وهى ظاهرة

نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض يعنى ارض مكة ينبوعا اى عيونا (او تكون لك جنة من نخيل وعنب) اى بستان فيه نخيل وعنب (فتفجر الانهار خلالها تفجيرا) اى تشقيقا (او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) اى قطعا (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) قال ابن عباس كفيلا اى يكفلون بما تقول وقيل هو جمع القبيلة اى باصناف الملائكة قبيلة قبيلة يشهدون لك بصحة ما تقول وقيل معناه نراهم مقابلة عيانا (أو يكون لك بيت من زخرف) اى من ذهب واصله الزينة (أو ترقى) اى تصعد (فى السماء ولن نؤمن لرقيك) اى لاجل رقيك (حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) امرنا فيه باتباعك وهذا قول عبد الله بن ابى امية (قل) اى قل يا محمد (سبحان ربى) امره بتنزيهه وتمجيده وفيه معنى التعجب (هل كنت الا بشرا رسولا) اى كسائر الرسل لا يمهم وكان الرسل لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله عليهم من الآيات فليس امر الآيات اليهم انما هو الى الله تعالى ولو اراد ان ينزل ما طلبوا لفعل ولكن لا ينزل الآيات على ما اقترحه البشر وما أنا الا بشر وليس ما سألتم فى طوق البشر واعلم ان الله سبحانه وتعالى قد اعطى النبى صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغنى عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين اصابعه وما اشبهها من الآيات وليست بدون ما اقترحوه بل هى اعظم مما اقترحوه والقوم عامتهم كانوا متعنتين ولم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فرد الله تعالى عليهم سؤالهم * قوله عز و جل (ومامنع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) اى الوحى والمعنى ومامنعهم الايمان بالقرآن و بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الا شبهة تلجلجت فى صدورهم وهى انكارهم ان يرسل الله البشر وهو قوله تعالى (الا ان قالوا) اى جهلا منهم (أبعث الله بشرا رسولا) وذلك ان الكفار كانوا يقولون ان نؤمن لك لانك بشر وهلا بعث الله الينا ملكا فاجابهم الله بقوله (قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين) اى مستوطنين مقيمين فيها (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) اى من جنسهم لان الجنس الى الجنس اميل (قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم) اى على انى رسوله اليكم وانى قد بلغت ما أرسلت به اليكم وانكم كذبتم وعاندتم (انه كان بعباده) يعنى المنذرين والمنذرين (خبيرا بصيرا) اى عالما باحوالهم فهو مجازيهم وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم و وعيد للكفار (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) اى يهدونهم وفيه ايضا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وهو ان الذين حكم لهم بالايمان والهداية و جب ان

(ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) اى يسحبون عليها كقوله يوم يسحبون فى النار على وجوههم وقيل لرسول الله عليه السلام كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى أمشاهم على اقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم (عميا وبكما وصما) كما كانوا فى الدنيا لا يبصرون ولا ينطقون بالحق ويتصامون عن استماعه فهم فى الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم (مأواهم جهنم كلما خبت) طفئ لهبها (زدناهم سعيرا) توقدا ١٩٩ (ذلك جزاؤهم بانهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا)

يبصر وامؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال ان ينقلبوا عن ذلك (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) (ق) عن أنس ان رجلا قال يارسول الله قال الله الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أيحشر الكافر على وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس الذى امشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على ان يمشيه على وجهه يوم القيامة قال قتادة حين بلغه بلى وعزة ربنا وعن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم قيل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال ان الذى امشاهم على أقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم اما انهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك اخرجه الترمذى الحدب كل ما ارتفع من الارض (عميا وبكما وصما) اى لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون فان قلت كيف وصفهم بأنهم عمى وبكم وصم وقد قال الله تعالى ورأى المجرمون النار وقال دعوا هنالك ثبورا وقال سمعوا لها تغيظا وزفيرا فاثبت لهم الرؤية والكلام والسمع قلت فيه أوجه احدها قال ابن عباس معناه عميا لا يبصرون ما يسرهم بكما لا ينطقون بحجة صما لا يسمعون ما يسرهم الوجه الثانى قيل معناه يحشرون على ما وصفهم الله تعالى ثم تعاد اليهم هذه الاشياء الوجه الثالث قيل معناه هذا حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون فيصيرون باجمعهم عميا وبكما وصما لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون (مأواهم جهنم كلما خبت) اى سكن لهيبها وقيل ضعفت وهدأت من غير ان يوجد نقصان فى ايلام الكفار لان الله سبحانه وتعالى قال لا يفتر عنهم وقيل معناه ارادت ان تخبو (زدناهم سعيرا) اى وقودا وقيل معناه خبت اى نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا الى ما كانوا عليه وزيد فى سعير النار لتحرقهم (ذلك جزاؤهم بانهم كفروا بآياتنا) لما ذكر الوعيد المتقدم قال ذلك جزاؤهم بما كفروا يعنى ذلك العذاب جزاؤهم بسبب كفرهم بآياتنا (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) اجابهم الله وردعليهم بقوله (أولم يروا ان الله الذى خلق السموات والارض) اى فى عظمها وشدتها (قادر على ان يخلق مثلهم) اى فى صغرهم وضعفهم (وجعل لهم أجلا) اى وقتا لعذابهم (لا ريب فيه) اى لا شك فيه انه يأتيهم قيل الموت وقيل يوم القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) اى جحودا وعنادا (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى) اى خزائن نعمه ورزقه وقيل ان خزائن الله غير متناهية والمعنى لو انكم ملكتم من النعم خزائن لا نهاية لها (اذا لامسكتم) اى لبخلتم وحبستم (خشية الانفاق) والفقر والنفاد وهذا مبالغة عظيمة فى وصفهم بهذا الشئ (وكان الانسان قتورا) اى ممسكا بخيلا فان قلت قد يوجد فى جنس الانسان من هو جواد كريم فكيف وصفه بالبخل قلت الاصل فى الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لابد وان يحب ما يدفع به عنه ضرر الحاجة ويمسكه لنفسه الا انه قد يجود لاسباب خارجة مثل ان يحب المدحة او رجاء ثواب فثبت بهذا ان الاصل فى الانسان البخل قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) اى دلالات واضحات قال ابن عباس هى العصا واليد البيضاء والعقدة التى كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقيل عوض فلق البحر واليد السنون ونقص من الثمرات وقيل

وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) اى ذلك العذاب بسبب انهم كذبوا بالاعادة بعد الافناء فجعل الله جزاءهم ان سلط النار على اجزائهم تأكلها ثم يعيدها لا يزالون على ذلك ليزيد فى تحسرهم على تكذيبهم البعث (أولم يروا) أولم يعلموا (ان الله الذى خلق السموات والارض قادر على أن يخلق مثلهم) من الانس (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) وهو الموت او القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) جحودا مع وضوح الدليل (قل لو أنتم تملكون) تقديره لو تملكون أنتم لان لو تدخل على الافعال دون الاسماء فلابد من فعل بعدها فاضمر تملك على شريطة التفسير وأبدل من الضمير المتصل وهو الواو ضمير منفصل وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ فانتم فاعل الفعل المضمر وتملكون تفسيره وهذا هو الوجه الذى يقتضيه علم الاعراب واما يقتضيه علم البيان فهو ان أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وان الناس هم المختصون بالشح المتبالغ (خزائن رحمة ربى) رزقه وسائر نعمه على خلقه (اذا لامسكتم خشية الانفاق) اى لبخلتم خشية أن يفنيه الانفاق (وكان الانسان قتورا) بخيلا (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) عن ابن عباس رضى الله عنهما هى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذى نتقه على بنى اسرائيل وعن الحسن الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور

(فاسئل بنى اسرائيل) فقلنا له سل بنى اسرائيل اى سلهم من فرعون وقل له ارسل معى بنى اسرائيل وقوله (اذ جاءهم) متعلق بقوله المحذوف اى فقلنا له سلهم حين جاءهم (فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا) سحرت فخولط عقلك (قال) اى موسى (لقد علمت) يا فرعون (ما أنزل هؤلاء) الآيات (الا رب السموات والارض) خالقهما (بصائر) حال اى بينات مكشوفات لانك معاند ونحوه وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا علمت على اى انى لست بمسحور كما وصفتنى بل أنا عالم بصحة الامر وان هذه الآيات منزلها رب السموات والارض ثم فارع ظنه بظنه بقوله (وانى لاظنك يا فرعون مثبورا) كانه قال ان ظننتنى مسحورا فانا أظنك مثبورا وظنى أصح من ظنك لان له امارة ظاهرة ٢٠٠ وهى انكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها وأما ظنك فكذب

الطمس والحجر بدل السنين والنقص قيل كان الرجل منهم مع أهله فى الفراش وقد صارا حجرين والمرأة قائمة تخبز وقد صارت حجرا وروى ان عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب القرظى عن الآيات فذكر منها الطمس فقال عمر هذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام اخرج ذلك الجراب فأخرجه فاذا فيه بيض مكسر نصفين وجوز مكسر نصفين وتوم وحمص وعدس كلها حجارة وقيل التسع آيات هى آيات الكتاب وهى الاحكام يدل عليه ما روى عن صفوان بن غسان ان يهوديا قال لصاحبه تعال حتى نسأل هذا النبى فقال الآخر لا تقل نبى فانه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لا تشركوا بالله شيأ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا ببرىء الى سلطان ليقتله ولا تسرقوا ولا تقذفوا المحصنات ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا فى السبت فقبلا يديه وقالا نشهد انك نبى قال فما يمنعكم أن تتبعونى قالوا ان داود دعا ربه أن لا يزال فى ذريته نبى وانا نخاف ان اتبعناك ان تقتلنا اليهود (فاسئل) يا محمد (بنى اسرائيل) يجوز الخطاب معه والمراد غيره ويجوز ان يكون خاطبه وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم (اذ جاءهم) يعنى جاء موسى الى فرعون بالرسالة من عند الله عز وجل (فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا) قال ابن عباس مخدوعا وقيل مطبوبا اى سحروك وقيل معناه ساحرا معطى علم السحر فهذه العجائب التى تفعلها من سحرك (قال) موسى (لقد علمت) خطابا لفرعون قال ابن عباس علمه فرعون ولكنه عانده (ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض) يعنى الآيات التسع (بصائر) اى بينات يبصر بها (وانى لأظنك يا فرعون مثبورا) قال ابن عباس ملعونا وقيل هالكا وقيل مصروفا عن الخير (فأراد ان يستفزهم من الارض) معناه أراد فرعون ان يخرج موسى وبنى اسرائيل من أرض مصر (فأغرقناه ومن معه جميعا) اى اغرقنا فرعون وجنوده ونجينا موسى وقومه (وقلنا من بعده) اى من بعد هلاك فرعون (لبنى اسرائيل اسكنوا الارض) يعنى ارض مصر والشام (فاذا جاء وعد الآخرة) يعنى القيامة (جئنا بكم لفيفا) اى جميعا الى موقف القيامة واللفيف الجمع الكثير اذا كانوا مختلفين من كل نوع فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر وقيل أراد بوعد الآخرة نزول عيسى من السماء قوله سبحانه وتعالى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) يعنى ان ما أردنا بانزال القرآن الا تقريره للحق فلما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع وحصل وقيل معناه وما أنزلنا القرآن الا بالحق المقتضى لانزاله وما نزل الا ملتبسا بالحق لاشتماله على الهداية الى كل خير (وما أرسلناك الا مبشرا) يعنى بالجنة للطيعين (ونذيرا) اى مخوفا بالنار للعاصين * قوله عز وجل (وقرآنا فرقناه) اى

بحت لان قولك مع علمك بصحة أمرى انى لاظنك مسحورا قول كذب وقال الفراء مثبورا مصروفا عن الخير من قولهم ما ثبرك عن هذا اى ما منعك وصرفك (فاراد) فرعون (ان يستفزهم) يخرجهم اى موسى وقومه (من الارض) اى ارض مصر او ينفيهم عن ظهر الارض بالقتل والاستئصال (فاغرقناه ومن معه جميعا) فخاق به مكره بان استفزه الله باغراقه مع قبطه (وقلنا من بعده) من بعد فرعون (لبنى اسرائيل اسكنوا الارض) التى أراد فرعون ان يستفزكم منها (فاذا جاء وعد الآخرة) اى القيامة (جئنا بكم لفيفا) جميعا مختلطين ايا كم واياه ثم نحكم بينكم ونميز بين سعدائكم واشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) وما أنزلنا القرآن الا بالحكمة وما نزل الا ملتبسا بالحق والحكمة لاشتماله على فصلناه

الهداية الى كل خير وما أنزلناه من السماء الا بالحق محفوظا بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول الا محفوظا بهم من تخليط الشياطين قال الراوى اشتكى محمد بن السماك فاخذنا ماءه وذهبنا به الى طبيب نصرانى فاستقبلنا رجل حسن الوجه طيب الرائحة نقى الثوب فقال لنا الى أين فقلنا له الى فلان الطبيب نريه ماء ابن السماك فقال سبحان الله تستعينون على ولى الله بعدو الله اضربوه على الارض وارجعوا الى ابن السماك وقولوا له ضع يدك على موضع الوجع وقل وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ثم غاب عنا فلم نره فرجعنا الى ابن السماك فاخبرناه بذلك فوضع يده على موضع الوجع وقال ما قال الرجل وعوفى فى الوقت وقال كان ذلك الخضر عليه السلام (وما أرسلناك الا مبشرا) بالجنة (ونذيرا) من النار (وقرآنا) منصوب بفعل يفسره (فرقناه) اى فصلناه او فرقنا فيه الحق من الباطل

(لتقرأه على الناس على مكث) على تؤدة وتثبت (ونزلناه تنزيلا) على حسب الحوادث (قل آمنوا به أولا تؤمنوا) اى اختاروا لانفسكم النعيم المقيم او العذاب الاليم ثم علل بقوله (ان الذين أوتوا العلم من قبله) اى التوراة من قبل القرآن (اذا يتلى عليهم) القرآن (يخرون للاذقان سجدا) حال (ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) لقوله آمنوا به اولا تؤمنوا اى اعرض عنهم فانهم ان لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بالقرآن فان خيرا منهم وهم العلماء الذين قرؤا الكتاب قد آمنوا به وصدقوه فاذا تلى عليهم خروا سجدا وسبحوا الله تعظيما لامره ولانجازه ما وعد فى الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن عليه وهو المراد بالوعد المذكور ان بمعنى انه وهى تؤكد الفعل كما أن ان تؤكد الاسم وكما أكدت ان باللام فى انهم لمحضرون أكدت ان باللام فى لمفعولا (ويخرون للاذقان يبكون) ومعنى الخرور للذقن السقوط على الوجه وانما خص الذقن لان أقرب الاشياء من وجهه ٢٠١ الى الارض عند السجود الذقن

فصلناه وبيناه وقيل فرقنا به بين الحق والباطل وقيل معناه أنزلناه نجوما لم ينزل مرة واحدة بدليل قوله تعالى (لتقرأه على الناس على مكث) اى على تؤدة وترسل فى ثلاث وعشرين سنة (ونزلناه تنزيلا) اى على حسب الحوادث (قل آمنوا به أولا تؤمنوا) فيه وعيد وتهديد (ان الذين أوتوا العلم من قبله) قيل هم مؤمنو أهل الكتاب الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلموا بعد مبعثه مثل زيد بن عمرو بن نفيل وسلمان الفارسى وأبى ذر وغيرهم (اذا يتلى عليهم) يعنى القرآن (يخرون للاذقان) قال ابن عباس اراد بها الوجوه (سجدا) اى يقعون على الوجوه سجدا (ويقولون سبحان ربنا) اى تعظيما لربنا لانجازه ما وعد فى الكتب المنزلة من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (ان كان وعد ربنا لمفعولا) اى كائنا واقعا (ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) اى خضوعا لربهم وقيل يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين فالبكاء مستحب عند قراءة القرآن عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ولا اجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم أخرجه الترمذى والنسائى وزاد النسائى فى منخرى مسلم أبدا الولوج الدخول والمخر الانف عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله أخرجه الترمذى قوله عز وجل (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) قال ابن عباس سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعل يقول فى سجوده يا الله يا رحمن فقال أبو جهل ان محمدا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو الهين فانزل الله هذه الآية ومعناه انهما اسمان لله تعالى فسموه بهذا الاسم او بهذا الاسم (أيا ما تدعوا) ما صلة ومعناه اى هذين الاسمين سميتم وذكرتم او من جميع اسمائه (فله الاسماء الحسنى) يعنى اذا حسنت اسماؤه كلها فهذان الاسمان منها ومعنى كونها حسنى انها مشتملة على معانى التقديس والتعظيم والتمجيد (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) (ق) عن ابن عباس فى قوله ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة وكان اذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فاذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تجهر بصلاتك اى بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم وابتغ بين ذلك سبيلا زاد فى رواية وابتغ بين ذلك سبيلا أسمعهم ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن وقيل نزلت الآية فى الدعاء وهو قول عائشة والنخعى ومجاهد ومكحول (ق) عن

يقال خر على وجهه وعلى ذقنه وخر لوجهه ولذقنه اما معنى على فظاهر وأما معنى اللام فكانه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به اذ اللام للاختصاص وكرر يخرون للاذقان لاختلاف الحالين وهما خرورهم فى حال كونهم ساجدين وخرورهم فى حال كونهم باكين (ويزيدهم) القرآن (خشوعا) لين قلب ورطوبة عين (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) لما سمعه ابو جهل يقول يا الله يا رحمن قال انه ينهانا ان نعبد الهين وهو يدعو الها آخر فنزلت وقيل ان أهل الكتاب قالوا انك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء

واو للتخيير اى سموا بهذا الاسم أو بهذا واذكروا اما هذا واما هذا والتنوين فى (أيا ما تدعوا) عوض من المضاف اليه وما زيدت للتوكيد وايا نصب بتدعوا وهو مجزوم بأى اى اى هذين الاسمين ذكرتم وسميتم (فله الاسماء الحسنى) والضمير فى فله يرجع الى ذات الله تعالى والفاء لانه جواب الشرط اى أيا ما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله فله الاسماء الحسنى لانه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لانهما منها ومعنى كونها أحسن الاسماء انها مستقلة بمعانى التمجيد والتقديس والتعظيم (ولا تجهر بصلاتك) بقراءة صلاتك على حذف المضاف لانه لا يلبس اذ الجهر والمخافتة تعتقبان على الصوت لا غير والصلاة افعال واذكار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بقراءته فاذا سمعها المشركون لغوا وسبوا فأمر بان يخفض من صوته والمعنى ولا تجهر حتى يسمع المشركين (ولا تخافت بها) حتى لا تسمع من خلفك

(وابتغ بين ذلك) بين الجهر والمخافتة (سبيلا) وسطا ومعناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بان تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار او بصلاتك بدعائك (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) كما زعمت اليهود والنصارى

وبنو مليح (ولم يكن له شريك فى الملك) كما زعم المشركون (ولم يكن له ولى من الذل) اى لم يذل فيحتاج الى ناصر أو لم يوال أحدا من أجل مذلة به لدفعها بموالاته (وكبره تكبيرا) وعظمه وصفه بانه أكبر من أن يكون له ولد او شريك وسمى النبى عليه السلام الآية آية العز وكان اذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية

(سورة الكهف)

مائة واحدى عشرة آية بصرى وعشر آيات كوفى

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله الذى أنزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب) القرآن لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهى نعمة الاسلام وما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذى هو سبب نجاتهم (ولم يجعل له عوجا) اى شيأ من العوج والعوج فى المعانى كالعوج فى الاعيان يقال فى رأيه عوج وفى عصاه عوج والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شئ منه من الحكمة (قيما) مستقيما وانتصابه بمضمر لشرائعها

عائشة ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قالت نزل ذلك فى الدعاء وقيل كان أعراب من بنى تميم اذا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا يجهرون بذلك فأنزل الله عز وجل ولا تجهر بصلاتك اى لا ترفع صوتك بقراءتك ودعائك ولا تخافت بها المخافتة خفض الصوت والسكوت (وابتغ) أى اطلب (بين ذلك سبيلا) اى طريقا وسطا بين الجهر والاخفاء عن ابى قتادة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر مررت بك وأنت تقرأ القرآن وأنت تخفض من صوتك فقال انى أسمعت من ناجيت فقال ارفع قليلا وقال لعمر مررت بك وأنت تقرأ وأنت ترفع من صوتك فقال انى أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان فقال اخفض قليلا أخرجه الترمذى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بان يحمده على وحدانيته وقيل معناه الحمد لله الذى عرفنى انه لم يتخذ ولدا وقيل ان كل من له ولد فهو يسأل جميع النعم لولده واذا لم يكن له ولد أفاض نعمه على عبيده وقيل ان الولد يقوم مقام والده بعد انقضائه والله عز وجل يتعالى عن جميع النقائص فهو المستحق لجميع المحامد (ولم يكن له شريك فى الملك) والسبب فى اعتبار هذه الصفة انه لو كان له شريك لم يكن مستحقا للحمد والشكر وكذا قوله (ولم يكن له ولى من الذل) ومعناه انه لم يذل فيحتاج الى ناصر يتعزز به (وكبره تكبيرا) اى وعظمه عن ان يكون له ولد او شريك او ولى وقيل اذا كان منزها عن الولد والشريك والولى كان مستوجبا لجميع أنواع المحامد عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اول ما يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا اله الا الله أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الكلام الى الله أربع لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بايهن بدأت أخرجه مسلم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة الكهف)

وهى مكية وآياتها مائة واحدى عشرة آية وكلماتها ألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وحروفها ستة آلاف وثلثمائة وستون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

* قوله عز وجل (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) اثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه بانعامه على خلقه وعلم عباده كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهى الاسلام وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذى هو سبب نجاتهم وفوزهم وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لان انزال القرآن كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم (ولم يجعل له عوجا) اى لم يجعل له شيأ من العوج قط والعوج فى المعانى كالعوج فى الاعيان والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه وقيل معناه لم يجعله مخلوقا روى عن ابن عباس فى قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذى عوج قال غير مخلوق (قيما) اى مستقيما وقال ابن عباس عدلا وقيل قيما على الكتب كلها ومصدقا لها وشاهدا بصحتها

وتقديره جعله قيما لانه اذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة وفائدة الجمع بين نفى العوج واثبات الاستقامة وفى أحدهما غنى عن الآخر التأكيد فر بمستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفح او قيما على سائر الكتب مصدقا لها شاهدا بصحتها

(لينذر) أنذر متعدا الى مفعولين كقوله انا انذرناكم عذابا قريبا فاقتصر على أحدهما وأصله لينذر الذين كفروا (بأسا) عذابا (شديدا) وانما اقتصر على أحد مفعولي أنذر لان المنذر به هو المسوق اليه فاقتصر عليه (من لدنه) صادرا من عنده (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم) اى بان لهم (أجرا حسنا) اى الجنة ويبشر حمزة وعلى (ماكثين) حال من هم فى لهم (فيه) فى الاجر وهو الجنة (ابدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) ذكر المنذرين دون المنذر به بعكس الاول استغناء بتقديم ذكره (مالهم به من علم) اى بالولد او باتخاذه يعنى ان قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط فان قلت اتخاذ الله ولدا فى نفسه محال فكيف قيل مالهم به من علم قلت معناه مالهم به من علم لانه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء العلم بالشئ اما للجهل بالطريق الموصل اليه او لانه فى نفسه محال (ولا لآبائهم) المقلدين (كبرت كلمة) نصب على التمييز وفيه معنى التعجب كانه قيل ما أكبرها كلمة والضمير فى كبرت يرجع ٢٠٣ الى قولهم اتخذ الله ولدا وسميت كلمة

كما يسمون القصيدة بها (تخرج من أفواههم) صفة لكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها واخراجها من أفواههم فان كثيرا مما يوسوسه الشيطان فى قلوب الناس من المنكرات لا يتالكون ان ينفوه بها بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر (ان يقولون الا كذبا) ما يقولون ذلك الا كذبا هو صفة لمصدر محذوف اى قولا كذبا (فلعلك باخع نفسك) قاتل نفسك (على آثارهم) اى آثار الكفار شبهه وايا هم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الاسف على توليهم برجل فارقه أحبته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويخع نفسه وجدا عليهم

لشرائعها (لينذر بأسا شديدا) معناه لينذر الذين كفروا بأسا شديدا وهو قوله سبحانه وتعالى بعذاب بئيس (من لدنه) اى من عنده (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا) يعنى الجنة (ماكثين فيه) اى مقيمين فيه (أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم) اى بالولد وباتخاذه يعنى ان قولهم لم يصدر عن علم بل عن جهل مفرط فان قلت اتخاذ الله ولدا فى نفسه محال فكيف قيل مالهم به من علم قلت انتفاء العلم قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد يكون فى نفسه محالا لا يستقيم تعلق العلم به (ولا لآبائهم) اى ولا لاسلافهم من قبل (كبرت) اى عظمت (كلمة تخرج من أفواههم) اى هذا الذى يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه فى غاية الفساد والبطلان فكانه يجرى على لسانهم على سبيل التقليد (ان يقولون الا كذبا) اى ما يقولون الا كذبا قيل حقيقة الكذب انه الخبر الذى لا يطابق المخبر عنه وزاد بعضهم مع علم قائله انه غير مطابق وهذا القيل باطل لان الله سبحانه وتعالى وصف قولهم باثبات الولد بكونه كذبا مع ان الكثير منهم يقولون ذلك ولا يعلمون كونه باطلا فعلمنا ان كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب والكذب خلاف الصدق وقيل هو الانصراف عن الحق الى الباطل ورجل كذاب وكذوب اذا كان كثير الكذب * قوله عز وجل (فلعلك باخع نفسك) اى قاتل نفسك (على آثارهم) اى من بعدهم (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) يعنى القرآن (أسفا) اى حزنا وقيل غيظا (انا جعلنا ما على الارض زينة لها) اى مما يصلح ان يكون زينة لها ولاهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها وقيل يعنى النبات والشجر والانهار وقيل أراد به الرجال خاصة فهم زينة الارض وقيل أراد به العلماء والصلحاء وقيل جميع ما فى الارض هو زينة لها فان قلت اى زينة فى الحيات والعقارب والشياطين قلت زينتها كونها تدل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وقيل ان جميع ما فى الارض ثلاثة معدن ونبات وحيوان واشرف أنواع الحيوان الانسان قيل الاولى ان لا يدخل فى هذه الزينة المكلف بدليل قوله تعالى (لنبلوهم) فمن يبلى يجب ان لا يدخل فى ذلك ومعنى لنبلوهم نختبرهم (أيهم أحسن عملا) اى اصلح عملا وقيل أيهم اترك للدنيا وازهد فيها (وانا لجاعلون ما عليها) اى من الزينة (صعيدا جرزا) يعنى مثل أرض لا نبات فيها بعد ان كانت خضراء معشبة والصعيد وجه الارض وقيل هو التراب والجرز الاملس اليابس الذى لا ينبت فيه شئ قوله سبحانه وتعالى (أم حسبت) اى ظننت يا محمد (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) اى هم عجب من آياتنا وقيل معناه انهم ليسوا بأعجب آياتنا فان

وتلهفا على فراقهم (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) بالقرآن (أسفا) مفعول له اى لفرط الحزن والاسف المبالغة فى الحزن والغضب (انا جعلنا ما على الارض زينة لها) اى ما يصلح ان يكون زينة لها ولاهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها (لنبلوهم أيهم أحسن عملا) وحسن العمل الزهد فيها وترك الاغترار بها ثم زهد فى الميل اليها بقوله (وانا لجاعلون ما عليها) من هذه الزينة (صعيدا) أرضا ملساء (جرزا) يابسا لا نبات فيها بعد ان كانت خضراء معشبة والمعنى نعيدها بعد عمارتها خرابا بإماتة الحيوان وتجفيف النبات والاشجار وغير ذلك ولما ذكر من الآيات الكلية تزيين الارض بما خلق فوقها من الاجناس التى لا حصر لها وازالة ذلك كله كأن لم يكن قال (أم حسبت ان أصحاب الكهف والرقيم) يعنى ان ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وابقاء حياتهم مدة طويلة والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم اسم كلبهم او قريتهم او اسم كتاب كتب فى شأنهم او اسم الجبل الذى فيه الكهف (كانوا من آياتنا عجبا) اى كانوا آية عجبا

ماخلقنا من السموات والارض ومافيهن من العجائب أعجب منهم والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصتهم ثم وضع على باب الكهف وكان اللوح من رصاص وقيل من حجارة وعن ابن عباس ان الرقيم اسم الوادى الذى فيه أصحاب الكهف وقال كعب الاحبار هو اسم للقرية التى خرج منها أصحاب الكهف وقيل اسم للجبل الذى فيه أصحاب الكهف ثم ذكر الله عز وجل قصة أصحاب الكهف فقال عز من قائل (اذ أوى الفتية الى الكهف) اى صاروا اليه وجعلوه مأواهم والفتية جمع فتى وهو الطرى من الشباب (فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) اى رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك واحسانك وهب لنا الهداية والنصر والامن من الاعداء (وهيئ لنا) اى أصلح لنا (من أمرنا رشدا) اى حتى نكون بسببه راشدين مهديين وقيل معناه واجعل أمرنا رشدا كله

من آياتنا وصفا بالمصدر او على ذات عجب (اذ) اى اذكر اذ (أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) اى رحمة من خزائن رحمتك وهى المغفرة والرزق والامن من الاعداء (وهيئ لنا من أمرنا) اى الذى نحن عليه من مفارقة الكفار (رشدا) حتى نكون بسببه راشدين مهتدين او اجعل أمرنا رشدا كله كقولك رأيت منك أسدا او يسر لنا طريق رضاك

(ذكر قصة أصحاب الكهف وسبب خروجهم اليه)

قال محمد بن اسحق ومحمد بن يسار مرج أمر أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت الملوك حتى عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الاصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا يترك فى قرية نزلها أحدا الا فتنه عن دينه حتى يعبد الاصنام او يقتله فلما نزل مدينة أصحاب الكهف واسمها افسوس استخفى منه أهل الايمان وهربوا فى كل وجه فاتخذ شرطا من الكفار وأمرهم ان يتبعوهم فجعل اولئك الشرط يتبعون أهل الايمان فى أماكنهم ويخرجونهم الى دقيانوس فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الاصنام فمنهم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى ان يعبد غير الله فيقتل فلما رأى ذلك أهل الشدة فى الايمان جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ويجعل ماقطع من أجسادهم على اسوار المدينة وأبوابها فلما عظمت الفتنة وكثرت ورأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء وكانوا من اشراف الروم وهم ثمانية نفر وبكوا وتضرعوا الى الله عز وجل وجعلوا يقولون ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلاهم ادركهم الشرط فوجدوهم سجودا يبكون ويتضرعون الى الله عز وجل فقال لهم الشرط ماخلفكم عن أمر الملك ثم انطلقوا الى الملك فاخبروه خبر الفتية فبعث اليهم فاتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم بالتراب فقال لهم مامنعكم ان تشهدوا الذبح لآلهتنا التى تعبد فى الارض وتجعلوا أنفسكم اسوة أهل مدينتكم اختاروا اما ان تذبحوا لآلهتنا واما أن اقتلكم فقال مكسلمينا وهو أكبرهم ان لنا الها ملء السموات والارض عظمته ان ندعو من دونه الها ابدا له الحمد والتكبير من انفسنا خالصا ابدا اياه نعبد واياه نسأل النجاة والخير فاما الطواغيت فلن نعبدها ابدا اصنع بنا مابدا لك وقال اصحابه مثل ذلك فلما سمع الملك كلامهم امر بنزع ثيابهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ماوعدتكم من العقوبة ومايمنعنى أن اعجل ذلك لكم الا انى اراكم شبانا حديثة اسنانكم فلا احب أن أهلككم حتى اجعل لكم اجلا تذكرون فيه فترجعون الى عقولكم ثم امر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس الى مدينة أخرى قريبة منهم لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا وخافوا اذا قدم أن يذكرهم فائتمر وا بينهم واتفقوا على أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت ابيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقى ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة فى جبل يقال له (٣) ينجلوس فيمكثوا فيه ويعبدوا الله حتى اذا جاء دقيانوس اتوه فيصنع بهم

٣ قوله ينجلوس هكذا فى بعض النسخ وفى بعضها محلوس وفى حياة الحيوان منحلوس اه

ما يشاء فلما اتفقوا على ذلك عمد كل فتى منهم الى بيت ابيه فاخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقى
معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى اتوا ذلك الكهف فمكثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم
فطردوه فعاد فقعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون منى لا تخشوا منى أنا احب احباب الله عز وجل
فناموا حتى احرسكم وقال ابن عباس هربوا من دقيانوس وكانوا سبعة خرجوا براعى معه كلب فتبعهم على
دينهم وتبعهم الكلب فخرجوا من البلد الى الكهف قال ابن عباس فلبثوا فيه ليس لهم عمل الا
الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء لوجه الله عز وجل وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم اسمه تمليخا
فكان يبتاع لهم ارزاقهم من المدينة سرا وكان من اجملهم واجلدهم وكان اذا دخل المدينة لبس ثيابا
رثة كثياب المساكين ثم يأخذ ورقه فينطلق الى المدينة فيشترى لهم طعاما وشرابا و يتجسس لهم الخبر هل
ذكروا اصحابه بشئ ثم يرجع الى اصحابه فلبثوا بذلك ما شاء الله أن يلبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة
وامر عظماء اهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك اهل الايمان وكان تمليخا بالمدينة يشترى لاصحابه
طعامهم فرجع الى اصحابه وهو يبكى ومعه طعام قليل فاخبرهم ان الجبار قد دخل المدينة وانهم قد
ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون الله و يتضرعون اليه و يتعوذون
من الفتنة فقال لهم تمليخا يا اخوتاه ارفعوا رؤسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤسهم واعينهم
تفيض من الدمع وذلك عند غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون و يذكر بعضهم بعضا فبينما هم على
ذلك اذ ضرب الله عز وجل على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فاصابه
ما اصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم
يجدهم فقال لبعض عظماء المدينة لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد ظنوا أنى غضبا عليهم
فجهلهم ما جهلوا من امرى ما كنت لأجهل عليهم ان هم تابوا وعبدوا آلهتى فقال عظماء المدينة ما انت
بحقيق أن ترحم قوما فجرة مردة عصاة قد كنت أجلت لهم اجلا ولو شاؤا لرجعوا فى ذلك الاجل ولكنهم
لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل الى آبائهم فاتى بهم فقال اخبرونى عن ابنائكم المردة
الذين عصونى فقالوا أما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة انهم ذهبوا باموالنا وأهلكوها فى اسواق
المدينة ثم انطلقوا الى جبل يدعى يجلوس فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل ما يدرى ما يصنع بالفتية
فالقى الله سبحانه وتعالى فى نفسه أن يأمر بسد باب الكهف عليهم واراد الله عز وجل أن يكرمهم بذلك
ويجعلهم آية لامة تستخلف من بعدهم وأن يبين لهم ان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى
القبور فامر دقيانوس بالكهف فسد عليهم وقال دعوهم كما هم فى كهفهم يموتون جوعا وعطشا ويكون
كهفهم الذى اختاروه قبرا لهم وهو يظن انهم ايقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله عز وجل أرواحهم
وفاة نوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم ان
رجلين مؤمنين فى بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما اسم احدهما بيدروس واسم الآخر رونا
اهتما ان يكتبا شأن هؤلاء الفتية واسماءهم وانسابهم وأخبارهم فى لوحين من رصاص ويجعلاهما فى
تابوت من نحاس و يجعلا التابوت فى البنيان وقالا لعل الله ان يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل
يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك و بنيا عليه و بقى دقيانوس ما بقى ثم
مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك * وقال عبيد بن عمير كان اصحاب الكهف
فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زى وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم
التى كانوا يعبدونها وكان معهم كلب صيد لهم وكان احدهم وزير الملك فقذف الله سبحانه وتعالى الايمان
فى قلوبهم فآمنوا وأخفى كل واحد ايمانه وقال فى نفسه أخرج من بين اظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبنى

عقاب بحرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى الى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده ففرحا
ان يكون على مثل امره وجلس اليه من غير ان يظهره على امره ثم خرج آخر فخرجوا جميعا فاجتمعوا فقال
بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتم ايمانه من صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا
و يفش كل واحد سره الى صاحبه ففعلوا ذلك فاذا هم جميعا على الايمان واذا الكهف فى جبل عظيم
قريب منهم فقال بعضهم لبعض فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته فدخلوا الكهف ومعهم كلب
صيد فناموا ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا وفقدهم قومهم وطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم
فكتبوا اسماءهم وانسابهم فى لوح فلان وفلان ابناء ملوكنا فقدناهم فى شهر كذا فى سنة كذا فى مملكة
فلان بن فلان الملك ووضعوا اللوح فى خزانة الملك وقالوا ليكون لهؤلاء شأن ومات ذلك الملك و جاء قرن
بعد قرن قال محمد بن اسحق ثم ملك اهل تلك البلاد رجل صالح يقال له بيدروس فلما ملك بقى ملكه
ثمانيا وستين سنة فتحزب الناس فى ملكه فكانوا احزابا منهم من يؤمن بالله و يعلم ان الساعة حق ومنهم
من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح وتضرع الى الله وحزن حزنا شديدا لما رأى اهل الباطل يزيدون
و يظهرون على اهل الحق و يقولون لا حياة الا الحياة الدنيا وانما تبعث الارواح دون الاجساد وجعل
بيدروس الملك يرسل الى من يظن فيهم خيرا وانهم أئمة فى الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة
حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلق بابه
عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه فدأب ليله ونهاره يتضرع الى الله تعالى و يبكى و يقول
رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم بطلان ما هم عليه ثم ان الله سبحانه وتعالى الرحمن
الرحيم الذى يكره هلكة عباده اراد أن يظهر على الفتية اصحاب الكهف و يبين للناس شأنهم و يجعلهم آية
وحجة عليهم ليعلموا ان الساعة آتية لا ريب فيها و يستجيب لعبده الصالح بيدروس و يتم نعمته عليه
وان يجمع من كان تبدد من المؤمنين فألقى الله سبحانه وتعالى فى نفس رجل من اهل ذلك البلد الذى فيه
ذلك الكهف وكان اسمه أولياس ان يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف و يبنى به حظيرة لغنمه
فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة و يبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما كان على باب الكهف
وفتحا باب الكهف وحجبهم الله تعالى عن الناس بالرعب فلما فتح باب الكهف أذن الله سبحانه وتعالى
ذو القدرة والسلطان محيى الموتى للفتية ان يجلسوا بين ظهرانى الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم
طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون منها اذا أصبحوا من
ليلتهم ثم قاموا الى الصلاة فصلوا كما كانوا يفعلون لا يرى فى وجوههم ولا أنهم شئ ينكرونه وانهم
كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون ان دقيانوس فى طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم
أنبئنا بما قال الناس فى شأننا عشية أمس عند هذا الجبار وهم يظنون انهم قد رقدوا كبعض ما كانوا
يرقدون وقد خيل اليهم انهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم
لبثتم نياما فقالوا لبثنا يوما او بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك فى أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا قد
التمستم فى المدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت او يقتلكم فشاء الله بعد ذلك فعل
فقال لهم مكسلمينا يا اخوتاه اعلموا انكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد ايمانكم اذا دعاكم عدو الله ثم قالوا لتمليخا
انطلق الى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذى يذكر فينا عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحدا
وابتع لنا طعاما فأتنا به وزدنا على الطعام الذى جئتنا به فقد أصبحنا جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع
ثيابه وأخذ الثياب التى كان ينكر فيها وأخذ ورقا من نفقتهم التى كانت معهم التى ضربت بطابع دقيانوس
وكانت خفاف الربع فانطلق تمليخا خارجا فلما رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف

فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق تخوفا ان يراه احد من أهلها
فيعرفه ولا يشعر أن دقيانوس واهله هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره
فرأى فوق ظهر الباب علامة كانت لاهل الايمان اذ كان امر الايمان ظاهرا فيها فلما رآها عجب وجعل
ينظر اليها يمينا وشمالا ثم ترك ذلك الباب ومضى الى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل اليه ان المدينة ليست
بالتى كان يعرف ورأى اشخاصا كثيرة محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشى و يتعجب و يخيل اليه
انه حيران ثم رجع الى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب بينه و بين نفسه و يقول يا ليت شعرى ماهذا
أما عشية امس كان المسلمون يخفون هذه العلامة فى هذه المدينة و يستخفون بها واليوم ظاهرة لعلى نائم
حالم ثم يرى انه ليس بنائم فاخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشى فى أسواقها فسمع ناسا
يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده ذلك تعجبا و رأى انه حيران فقام مسندا ظهره الى جدار من جدران
المدينة وهو يقول فى نفسه والله ما ادرى ماهذا أما عشية امس فليس كان على الارض من يذكر عيسى بن
مريم الا قتل واما اليوم فاسمع كل انسان يذكر عيسى بن مريم لا يخاف ثم قال فى نفسه لعل هذه ليست بالمدينة
التى أعرف والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقى فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى
فقال اسمها افسوس فقال فى نفسه لعل بى مسا او أمرا أذهب عقلى والله يحق لى ان أسرع الخروج قبل ان
يصيبنى فيها شر فاهلك فمضى الى الذين يبتاعون الطعام فاخرج لهم الورق التى كانت معه وأعطاها رجلا
منهم وقال له يعنى بهذه الورق طعاما فاخذها الرجل ونظر الى ضرب الورق ونقشها فعجب منها فناولها
رجلا آخر من اصحابه فنظر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل و يتعجبون منها و يتشاورون
بينهم و يقول بعضهم لبعض ان هذا أصاب كنزا خبيثا فى الارض منذ زمان طويل فلما رآهم تمليخا
يتحدثون فيه فرق فرقا شديدا وخاف و جعل يرعد و يظن انهم قد فطنوا به وعرفوه وانهم انما يريدون
ان يذهبوا به الى ملكهم دقيانوس وجعل الناس يأتونه و يتعرفونه فلا يعرفونه فقال لهم وهو شديد
الخوف منهم أفضلوا على قد أخذتم ورقى فامسكوها وأما طعامكم فلا حاجة لى به فقالوا له يا فتى من أنت
وما شأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الاولين وانت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وارناه وشاركنا
فيه نخفف عليك ما وجدت وانك ان لم تفعل نحملك الى السلطان فنسلمك اليه فيقتلك فلما سمع
قولهم قال والله قد وقعت فى كل شئ كنت احذر منه فقالوا له يا فتى انك والله لا تستطيع ان تكتم
ما وجدت وجعل تمليخا ما يدرى ما يقول لهم وخاف حتى لم يجر على لسانه اليهم شئ فلما رأوه لا يتكلم
اخذوا كساءه فطرحوه فى عنقه وجعلوا يسحبونه فى سكك المدينة حتى سمع به من فيها وقيل قد أخذ
رجل معه كنزا فاجتمع عليه أهل المدينة وجعلوا ينظرون اليه و يقولون والله ما هذا الفتى من أهل هذه
المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه وجعل تمليخا لا يدرى ما يقول لهم وكان متيقنا ان أباه واخوته بالمدينة
وانه من عظماء أهلها وانهم سيأتونه اذا سمعوا به فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله
فيخلصه من أيديهم اذا اختطفوه وانطلقوا به الى رئيس المدينة ومدبريها اللذين يدبران أمرها وهما
رجلان صالحان اسم أحدهما أريوس واسم الآخر طنطيوس فلما انطلقوا به اليهما ظن تمليخا انه انما
ينطلق به الى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وهو يبكى والناس يسخرون منه كما يسخرون
من المجنون ثم رفع رأسه الى السماء وقال اللهم اله السماء واله الارض افرغ على اليوم صبرا وأو لجمعى
روحا منك تؤيدنى به عند هذا الجبار وجعل يقول فى نفسه فرقوا بينى و بين اخوتى يا ليتهم يعلمون
ما لقيت و يا ليتهم يأتونى فنقوم جميعا بين يدى هذا الجبار فانا قد كنا توائمنا على الايمان بالله وأن لا نشرك
به احدا أبدا ولا نفترق فى حياة ولا موت فلما انتهى الى الرجلين الصالحين أريوس وطنطيوس ورأى

انه لم يذهب الى دقيانوس افاق وذهب عنه البكاء وأخذ اريوس وطنطيوس الورق ونظرا اليها وعجبا منها وقالا اين الكنز الذى وجدت يا فتى فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائى ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدرى ما شأنى وما أقول لكم فقال له أحدهما من أنت فقال تمليخا أما أنا فكنت أرى انى من أهل هذه المدينة فقيل له ومن ابوك ومن يعرفك بها فأخبرهم باسم أبيه فلم يوجد من يعرفه ولا أباه فقال له أحدهما أنت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول غير انه نكس بصره الى الارض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا لكى ينفلت منكم فقال له أحدهما ونظر اليه نظرا شديدا أتظن انا نرسلك وتصدقك بان هذا مال أبيك ونقش هذه المدينة وضربها ولهذه الورق أكثر من ثلثمائة سنة وأنت غلام شاب أتظن انك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ شمط وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه المدينة بايدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار وانى لاظنني سآمرك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذى وجدته فقال لهم تمليخا اخبروني عما أسألكم عنه فان انتم فعلتم صدقتكم عما عندى فقالوا له سل لانكتمك شيأ قال فما فعل الملك دقيانوس فقالا ما نعرف على وجه الارض من اسمه دقيانوس ولم يكن الا ملك هلك فى الزمان الاول وله دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة فقال تمليخا انى اذا لحيران وما يصدقنى احد من الناس فيما أقول لقد كنا فتية على دين واحد وان الملك أكرهنا على عبادة الاصنام والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية امس فأتينا الى الكهف الذى فى جبل يخلوس فمنا فيه فلما انتبهنا خرجت لاشترى لاصحابى طعاما واتجسس الاخبار فاذا انا معكم كما ترون فانطلقوا معى الى الكهف أريكم اصحابى فلما سمع اريوس قول تمليخا قال يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله عز وجل لكم على يدى هذا الفتى فانطلقوا بنا معه حتى يرينا اصحابه فانطلق اريوس وطنطيوس ومعهما جميع اهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا اليهم فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذى كان يأتى فيه ظنوا أنه قد أخذ وذهب به الى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه اذ سمعوا الاصوات وجلبة الخيل مصعدة فظنوا انهم رسل الجبار دقيانوس بعث بهم اليهم ليؤتى بهم فقاموا الى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فانه الآن بين يدى الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة اذ هم باريوس وأصحابه وقوفا على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكى فلما رأوه يبكى بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا انهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمن الطويل وانما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا ان الساعة لا ريب فيها ثم دخل على أثر تمليخا اريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم فضة فوقف على الباب ودعا جماعة من عظماء اهل المدينة وأمر بفتح التابوت بحضرتهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس وبيرونس وديموس وبطيوس وقالوس والكلب اسمه قطمير كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس مخافة ان يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وانا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلم من بعدهم ان عثر بهم فلما قرؤه عجبوا وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذى أراهم آية تدلهم على البعث ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر اريوس وأصحابه سجودا لله وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذى اراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضا وأخبرهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس ثم ان أريوس واصحابه بعثوا بريدا الى ملكهم الصالح بيدروس ان عجل لعلك تنظر

(فضربنا على آذانهم فى الكهف) اى ضربنا عليها حجابا من النوم يعنى انمناهم انامة ثقيلة لا تنبههم فيها الاصوات فحذف المفعول الذى هو الحجاب (سنين عددا) ذوات عدد فهو صفة لسنين قال الزجاج اى تعد عددا الكثرتها الان القليل يعلم مقداره من غير عد فاذا كثر عد فأما دراهم معدودة فهى على القلة لانهم كانوا يعدون القليل ويزنون الكثير (ثم بعثناهم) أيقظناهم من النوم (لنعلم اى الحزبين) المختلفين منهم فى مدة لبثهم لانهم لما انتبهوا اختلفوا فى ذلك وذلك قوله قال قائل منهم كم لبثتم

قالوا لبثنا يوما او بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا ان لبثهم قد تطاول اواى الحزبين المختلفين من غيرهم (أحصى لما لبثوا أمدا) غاية وأحصى فعل ماض وأمدا ظرف لاحصى اومفعول له والفعل الماضى خبر المبتدا وهو اى والمبتدا مع خبره سد مسد مفعولى نعلم والمعنى أيهم ضبط أمد الأوقات لبثهم واحاط علما بامد لبثهم ومن قال أحصى أفعل من الاحصاء وهو العد فقد زل لان بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس وانما قال لنعلم مع انه تعالى لم يزل عالما بذلك لان المراد ما تعلق به العلم من ظهور الامر لهم ليزدادوا ايمانا واعتبارا وليكون لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفاره اوالمراد لنعلم اختلافهم موجودا كما علمناه قبل وجوده (نحن نقص عليك نبأهم بالحق)

الى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك للناس آية لتكون لهم نورا وضياء وتصديقا للبعث وذلك ان فتية بعثهم الله وقد كان توفاهم منذ ثلثمائة سنة وأكثر فلما أتى الملك الخبر رجع عقله اليه وذهب همه وقال احمدك اللهم رب السموات والارض وأعبدك وأسبح لك تطولت على ورحمتنى ولم تطفئ النور الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح بيدروس الملك ثم اخبر بذلك اهل مدينته فركب وركبوا معه حتى اتوا مدينة افسوس فتلقاهم اهلها وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية بيدروس فرح بهم وخر ساجدا على وجهه وقام بيدروس الملك قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسجون الله ويحمدونه ثم قال الفتية لبيدروس الملك نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك قائم اذا هم رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله انفسهم فقام الملك اليهم وجعل ثيابهم عليهم وامر ان يجعل كل رجل منهم فى تابوت من ذهب فلما امسى ونام اتوه فى منامه فقالوا له انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكنا خلقنا من تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه فأمر الملك عند ذلك التابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب ولم يقدر احد ان يدخل عليهم وامر الملك ان يتخذوا على باب الكهف مسجدا يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر ان يؤتى كل سنة وقيل ان تملیخا حمل الى الملك الصالح فقال له الملك من انت قال انا رجل من اهل هذه المدينة وذكر انه خرج امس او منذ ايام وذكر منزله واقوا ما لم يعرفهم احد وكان الملك قد سمع ان فتية قد فقدوا فى الزمان الاول وان اسماءهم مكتوبة على لوح فى خزانته فدعا باللوح ونظر فى اسمائهم فاذا الاسم مكتوب وذكر اسماء الآخرين فقال تملیخا هم اصحابى فلما سمع الملك ركب ومن معه من القوم فلما اتوا باب الكهف قال تملیخا دعونى حتى ادخل على اصحابى فأبشرهم فانهم ان رأوكم معى ارعبتموهم فدخل تملیخا فبشرهم فقبض الله روحه وارواحهم واعمى على الملك واصحابه اثرهم فلم يهتدوا اليهم فذلك قوله عز وجل اذ أوى الفتية الى الكهف اى صاروا الى الكهف واسمه خيرم فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة اى هداية فى الدين وهيئ لنا اى يسر بنا من امرنا رشدا اى ما نلتمس منه رضاك وما فيه رشدنا وقال ابن عباس اى مخرجا من الغار فى سلامة قوله سبحانه وتعالى (فضربنا على آذانهم) اى ألقينا عليهم النوم وقيل منعنا نفوذ الاصوات الى مسامعهم فان النائم اذا سمع الصوت ينتبه (فى الكهف سنين عددا) اى أنمناهم سنين كثيرة فان العدد يدل على الكثرة (ثم بعثناهم) اى من نومهم (لنعلم) اى علم مشاهدة وذلك ان الله عز وجل لم يزل عالما وانما اراد ما تعلق به العلم من ظهور الامر لهم ليزدادوا ايمانا واعتبارا (أى الحزبين) اى الطائفتين (أحصى لما لبثوا أمدا) اى احفظ لما مكثوا فى كهفهم نياما وذلك ان أهل المدينة تنازعوا فى مدة لبثهم فى الكهف قوله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) اى نقرأ عليك خبر أصحاب الكهف بالحق اى بالصدق (انهم فتية) اى شبان (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) اى ايمانا وبصيرة (وربطنا على قلوبهم) اى شددنا على

بالصدق (انهم فتية) جمع فتى والفتوة بذل الندى وكف الاذى وترك الشكوى واجتناب المحارم واستعمال المكارم وقيل الفتى من لا يدعى قبل الفعل ولا يزكى نفسه بعد الفعل (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) يقينا وكانوا من خواص دقيانوس قد قذف الله فى قلوبهم الايمان وخاف بعضهم بعضا وقالوا ليخل اثنان اثنان منافيظهر كلاهما ما يضمر لصاحبه ففعلوا فحصل اتفاقهم على الايمان (وربطنا على قلوبهم) وقويناها بالصبر على هجران الاوطان والفرار بالدين الى بعض الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالاسلام

(اذ قاموا) بين يدى الجبار وهو دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام (فقالوا ربنا رب السموات والارض) مفتخرين (لن ندعو من دونه الها) ولئن سمعناهم آلهة (لقد قلنا اذا شططا) قولا ذا شطط وهو الافراط فى الظلم والابعاد فيه من شط يشط ويشط اذا بعد (هؤلاء) مبتدا (قومنا) عطف بيان (اتخذوا من دونه آلهة) خبر وهو اخبار فى معنى الانكار (لولا يأتون عليهم) هلا يأتون على عبادتهم فحذف المضاف (بسلطان بين) بحجة ظاهرة وهو تبكيت لان الاتيان بالسلطان على عبادة الاوثان محال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك اليه (واذ اعتزلتموهم) خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم (وما يعبدون) نصب عطف على الضمير اى واذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم (الا الله) استثناء متصل لانهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه غيره كاهل مكة او منقطع اى واذ اعتزلتم الكفار والاصنام التى يعبدونها من دون الله او هو كلام معترض اخبار من الله تعالى عن الفتية انهم لم يعبدوا غير الله (فأووا) ٢١٠ الى الكهف) صيروا اليه او اجعلوا الكهف مأواكم (ينشر لكم ربكم من رحمته) من رزقه (ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) مرفقا مدنى وشامى وهو ما يرتفق به اى ينتفع وانما قالوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة فى رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم او أخبرهم به نبى فى عصرهم (وترى الشمس اذا طلعت تزاور) بتخفيف الزاى كوفى تزور شامى تزاور غيرهم وأصله تتزاور فخفف بادغام التاء فى الزاى او حذفها والكل من الزور وهو الميل ومنه زاره اذا مال اليه والزور الميل عن الصدق (عن كهفهم) اى تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم (ذات اليمين) جهة اليمين وحقيقتها الجهة المسماة باليمين (واذا غربت تقرضهم) تقطعهم اى تتركهم وتعدل عنهم (ذات الشمال وهم فى فجوة منه) اى متسع من الكهف والمعنى انهم فى ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس فى طلوعها ولا غروبها مع انهم فى مكان واسع منفتح معرض لاصابة الشمس لولا ان الله يحجبها عنهم وقيل منفتح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار (ذلك من آيات الله) اى ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آيات الله يعنى ان ما كان فى ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة وقيل باب الكهف شمالى مستقبل لبنات نعش فهم فى مقنأة أبدا ومعنى ذلك من آيات الله ان شأنهم وحديثهم من آيات الله (من يهد الله فهو المهتد) مثل سائر فى سبحان وهو ثناء عليهم بانهم جاهدوا فى الله وأسلموا له وجوههم فارشدهم الى نيل تلك الكرامة السنية (ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) اى من أضله فلا هادى له (وتحسبهم) بفتح السين شامى وحمزة وعاصم غير الاعشى وهو خطاب لكل احد (ايقاظا) جمع يقظ (وهم رقود) نيام قيل عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظا (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قيل لهم تقلبتان فى السنة

قلوبهم بالصبر والتثبيت وقويناهم بنور الايمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا عليه من خفض العيش وفروا بدينهم الى الكهف (اذ قاموا) يعنى بين يدى دقيانوس الجبار حين عابهم على ترك عبادة الاصنام (فقالوا) اى الفتية (ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها) انما قالوا ذلك لان قومهم كانوا يعبدون الاصنام (لقد قلنا اذا شططا) قال ابن عباس يعنى جورا وقيل كذبا يعنى ان دعونا غير الله (هؤلاء قومنا) يعنى أهل بلدهم (اتخذوا من دونه) اى من دون الله (آلهة) يعنى أصناما يعبدونها (لولا) اى هلا (يأتون عليهم) اى على عبادة الاصنام (بسلطان بين) اى بحجة واضحة وفيه تبكيت لان الاتيان بحجة على عبادة الاصنام محال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) اى وزعم ان له شريكا او ولدا ثم قال بعضهم لبعض (واذ اعتزلتموهم) يعنى قومكم (وما يعبدون الا الله) وذلك انهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الاصنام والمعنى واذ اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون الا الله فانكم لم تعتزلوا عبادته (فأووا الى الكهف) اى الجئوا اليه (ينشر لكم) اى يبسط لكم (ربكم من رحمته ويهيئ) اى يسهل (لكم من أمركم مرفقا) اى ما يعود اليه يسركم ورفقكم قوله سبحانه وتعالى (وترى الشمس اذا طلعت تزاور) اى تميل وتعدل (عن كهفهم ذات اليمين) اى جانب اليمين (واذا غربت تقرضهم) اى تتركهم وتعدل عنهم (ذات الشمال وهم فى فجوة منه) اى متسع من الكهف (ذلك من آيات الله) اى من عجائب صنعه ودلالات قدرته وذلك ان ما كان فى ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة وقيل ان باب الكهف شمالى مستقبل لبنات نعش فهم فى مقنأة أبدا لا تقع الشمس عليهم عند الطلوع ولا عند الغروب ولا عند الاستواء فتؤذيهم بحرها ولكن اختار الله لهم مضجعا فى متسع ينالهم فيه برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه وعلى هذا القول يكون معنى قوله ذلك من آيات الله اى ان شأنهم وحديثهم من آيات الله (من يهد الله فهو المهتد) يعنى مثل أصحاب الكهف وفيه ثناء عليهم (ومن يضلل) اى ومن يضلله الله ولم يرشده (فلن تجد له وليا) اى معينا (مرشدا) اى يرشده قوله سبحانه وتعالى (وتحسبهم) خطاب لكل أحد (أيقاظا) اى منتبهين لان أعينهم مفتحة (وهم رقود) اى نيام (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قال ابن عباس كانوا يقلبون فى السنة مرة من جانب الى جانب لئلا تأكل الارض

وقيل تقلبة واحدة فى يوم عاشوراء (وكلبهم باسط ذراعيه) حكاية حال ماضية لان اسم الفاعل لا يعمل اذا كان فى معنى الماضى (بالوصيد) بالفناء او بالعتبة (لو اطلعت عليهم) لو اشرفت عليهم فنظرت اليهم (لوليت منهم) لأعرضت عنهم وهربت منهم (فرارا) منصوب على المصدر لان معنى وليت منهم فررت منهم (ولملئت منهم) وبتشديد اللام حجازى للمبالغة (رعبا) تمييز وبضم العين شامى وعلى وهو الخوف الذى يرعب الصدر اى يملؤه وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة او لطول اظفارهم وشعورهم وعظم اجرامهم وعن معاوية انه غزا الروم فمر بالكهف فقال أريد أن أدخل فقال ابن عباس رضى الله عنهما لقد قيل لمن هو خير منك لو ليت منهم فرارا فدخلت جماعة باره فاحرقتهم ريح (وكذلك بعثناهم) وكما أنمناهم تلك النومة كذلك ايقظناهم اظهارا للقدرة على الانامة والبعث جميعا (ليتساءلوا بينهم) ليسأل بعضهم بعضا ويتعرفوا احالهم وما صنع الله بهم فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ويزدادوا يقينا ويشكروا ما أنعم الله به عليهم

لحومهم قيل كانوا يقلبون فى يوم عاشوراء وقيل كان لهم فى السنة تقليبتان (وكلبهم باسط ذراعيه) قال ابن عباس كان كلبا انمر وعنه انه كان فوق القلطى ودون الكرزى والقلطى كلب صينى وقيل كان أصفر وقيل كان شديد الصفرة يضرب الى حمرة وقال ابن عباس كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل صهبان قيل ليس فى الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم (بالوصيد) اى فناء الكهف وقيل عتبة الباب وكان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهم قيل كان ينقلب مع أصحابه فاذا انقلبوا ذات اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها واذا انقلبوا ذات الشمال كسر أذنه اليسرى ورقد عليها (لو اطلعت عليهم) يا محمد (لوليت منهم فرارا) وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل اليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله من رقدتهم (ولملئت منهم رعبا) اى خوفا من وحشة المكان وقيل لان أعينهم مفتحة كالمتيقظ الذى يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم ولتقلبهم من غير حس ولا اشعار وقيل ان الله سبحانه وتعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد قال ابن عباس غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف الله لنا عن هؤلاء لنظرنا اليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك فقيل له لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فاحرقتهم قوله سبحانه وتعالى (وكذلك بعثناهم) يعنى كما أنمناهم فى الكهف وحفظنا أجسامهم من البلاء على طول الزمان بعثناهم من النومة التى تشبه الموت (ليتساءلوا بينهم) اى ليسأل بعضهم بعضا (قال قائل منهم) وهو رئيسهم وكبيرهم مكسلمينا (كم لبثتم) اى فى نومكم وذلك انهم استنكروا طول نومهم وقيل انهم راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك (قالوا لبثنا يوما) ثم نظروا فوجدوا الشمس قد بقى منها بقية فقالوا (أو بعض يوم) فلما نظروا الى طول شعورهم وأظفارهم علموا انهم لبثوا أكثر من يوم (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وقيل ان مكسلمينا لما سمع الاختلاف بينهم قال دعوا الاختلاف ربكم أعلم بما لبثتم (فابعثوا أحدكم) يعنى تملخا (بورقكم) هى الفضة مضروبة كانت او غير مضروبة (هذه الى المدينة) قيل هى طرسوس وكان اسمها فى الزمن الاول قبل الاسلام افسوس (فلينظر أيها أزكى طعاما) اى أحل طعاما وقيل أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن ولا تكون من ذبح من يذبح لغير الله وكان فيهم مؤمنون يخفون ايمانهم وقيل أطيب طعاما واجوده وقيل أكثر طعاما وأرخصه (فليأتكم برزق منه) اى قوت وطعام

(قال قائل منهم) رئيسهم (كم لبثتم) كم مدة لبثكم (قالوا لبثنا يوما او بعض يوم) جواب مبنى على غالب الظن وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) بمدة لبثكم انكار عليهم من بعضهم كانهم قد علموا بالادلة او بالهام ان المدة متطاولة وان مقدارها لا يعلمه الا الله وروى انهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال فظنوا انهم فى يومهم فلما نظروا الى طول اظفارهم واشعارهم قالوا ذلك وقد استدل ابن عباس رضى الله عنهما على ان الصحيح ان عددهم سبعة لانه قد قال فى الآية قال قائل منهم كم لبثتم وهذا واحد وقالوا فى جوابه لبثنا يوما او بعض يوم وهو جمع واقله ثلاثة ثم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة (فابعثوا احدكم) كانهم قالوا ربكم اعلم بذلك لا طريق لكم الى علمه فخذوا فى شئ آخر مما يهمكم فابعثوا احدكم اى تملخا (بورقكم) هى الفضة مضروبة كانت او غير مضروبة وبسكون الراء ابو عمرو وحمزة وأبو بكر (هذه الى المدينة) هى طرسوس وحملهم الورق عند فرارهم دليل على ان حمل النفقة ومايصلح للمسافر هو رأى المتوكلين على الله دون المتكلين على الاتفاقات وعلى ما فى أوعية القوم من النفقات وعن بعض العلماء انه كان شديد الحنين الى بيت الله ويقول ما لهذا السفر الا شيآن شد الهميان والتوكل على الرحمن (فلينظر أيها) اى أهلها فحذف كما فى واسئل القرية واى مبتدا وخبره (ازكى) أحل وأطيب او أكثر وأرخص (طعاما) تمييز (فليأتكم برزق منه)

وليتلطف) وليتكلف اللطف فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن او في أمر التخفي حتى لا يعرف (ولا يشعرن بكم أحدا) ولا يفعلن ما يؤدي الى الشعور بنا من غير قصد منه فسمي ذلك اشعارا منه بهم لانه سبب فيه والضمير في (انهم) راجع الى الاهل المقدر في ايها (ان يظهروا عليكم) يطلعوا عليكم (يرجموكم) يقتلوكم أخبث القتلة (او يعيدوكم في ملتهم) بالاكراه والعود بمعنى الصيرورة كثير في كلامهم (ولن تفلحوا اذا أبدا) اذا يدل على الشرط اى وان تفلحوا ان دخلتم في دينهم أبدا (وكذلك أعثرنا عليهم) وكما اعمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم (ليعلموا) اى الذين أطلعناهم على حالهم (ان وعد الله) وهو البعث (حق) كائن لان حالهم في نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث (وان الساعة لا ريب فيها) فانهم يستدلون بامرهم على صحة البعث (اذ يتنازعون) متعلق باعثرنا اى أعثرناهم عليهم حين يتنازع أهل ذلك الزمان (بينهم أمرهم) أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث فكان بعضهم يقول تبعث الارواح دون الاجساد وبعضهم يقول تبعث الاجساد مع الارواح ليرتفع الخلاف وليتبين ان الاجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت (فقالوا) حين توفى الله أصحاب الكهف (ابنوا عليهم بنيانا) اى على باب كهفهم لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة (ربهم أعلم بهم) من كلام المتنازعين كانهم تذاكروا امرهم وتناقلوا الكلام في انسابهم واحوالهم ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا الى حقيقة ذلك قالوا ربهم أعلم بهم اومن كلام الله عز وجل ردا لقول الخائضين في حديثهم (قال الذين غلبوا على أمرهم) من المسلمين وملكهم وكانوا اولى بهم وبالبناء عليهم (لنتخذن عليهم) على باب الكهف (مسجدا) يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم روى ان أهل الانجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الاصنام وأكرهوا على عبادتها وممن شدد في ذلك دقيانوس فاراد فتنة من اشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل فابوا الا الثبات على الايمان والتصلب فيه عليه ثم هربوا الى الكهف ومروا بكلب فتبعهم فطردوه فانطقه الله تعالى فقال ما تريدون مني اني احب احباء الله فناموا وانا احرسكم وقيل مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ودخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم وقبل ان يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن وقد اختلف اهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين فدخل الملك بيته واغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه ان يبين لهم الحق فالقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام واخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس اتهموه بانه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فانطلق الملك واهل المدينة معه وابصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والانس ثم رجعوا الى مضاجعهم وتوفى الله انفسهم فالقى الملك عليهم ثيابه وامر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) الضمير في سيقولون لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المؤمنين واهل الكتاب سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فأخر الجواب الى ان يوحى اليه فيهم فنزلت اخبارا بما سيجرى بينهم من اختلافهم في عددهم وان المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم ويروى ان السيد والعاقب واصحابهما من اهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر اصحاب الكهف فقال السيد وكان

تأكلونه (وليتلطف) اى وليترفق في الطريق وفي المدينة وليكن في ستر وكتمان (ولا يشعرن) اى ولا يعلمن (بكم أحدا) اى من الناس (انهم ان يظهروا عليكم) اى يعلموا بمكانكم (يرجموكم) قيل معناه يشتموكم ويؤذوكم بالقول وقيل يقتلوكم وكان من عادتهم القتل بالحجارة وهو أخبث القتل وقيل يعذبوكم (أو يعيدوكم في ملتهم) اى الكفر (ولن تفلحوا اذا أبدا) اى ان عدتم اليه * قوله عز وجل (وكذلك أعثرنا عليهم) اى اطلعنا الناس عليهم (ليعلموا أن وعد الله حق) يعني قوم بيدروس الذين أنكروا البعث (وأن الساعة لا ريب فيها) اى لا شك فيها أنها آتية (اذ يتنازعون بينهم أمرهم) قال ابن عباس في البنيان فقال المسلمون نبني عليهم مسجدا يصلى فيه الناس لانهم على ديننا وقال المشركون نبني بنيانا لانهم على ملتنا وقيل كان تنازعهم في البعث فقال المسلمون تبعث الاجساد والارواح وقال قوم تبعث الارواح فاراهم الله آية وان البعث للارواح والاجساد وقيل تنازعوا في مدة لبثهم وقيل في عددهم (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم) يعني بيدروس واصحابه (لنتخذن عليهم مسجدا) قوله سبحانه وتعالى (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم) روى ان السيد والعاقب واصحابهما من نصارى نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف عندهم فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم (ويقولون) اى وقال العاقب وكان نسطوريا (خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون) وقال المسلمون (سبعة وثامنهم كلبهم) فحقق الله قول المسلمين وانما عرفوا ذلك باخبار رسول الله صلى الله

بعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم وقال العاقب وكان نسطوريا كانوا خمسة سادسهم كلبهم وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فحقق الله قول المسلمين وانما عرفوا ذلك باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما ذكرنا من قبل وعن علي رضي الله عنه هم سبعة نفر اسماؤهم يملخا ومكشلينا ومشلينا هؤلاء اصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره والسابع الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسم مدينتهم افسوس واسم كلبهم قطمير وسين الاستقبال وان دخل في الاول دون الآخرين فهما داخلان في حكم السين كقولك قد أكرم وانعم تريد معنى التوقع في الفعلين جميعا او أريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له ثلاثة خبر مبتدأ محذوف اي هم ثلاثة وكذلك خمسة وسبعة ورابعهم كلبهم جملة من مبتدا وخبر واقعة صفة لثلاثة وكذلك سادسهم كلبهم وثامنهم كلبهم رجما بالغيب رميا بالخبر الخفي واتيانا به كقوله ويقذفون بالغيب اي يأتون به او ووضع الرجم موضع الظن فكانه قيل ظنا بالغيب لانهم أكثروا ان يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين والواو الداخلة على الجملة الثالثة هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في قولك جاءني رجل ومعه آخر ومررت بزيد وفي يده سيف وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على ان اتصافه بها أمر ثابت مستقر وهذه الواو هي التي آذنت بان الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم ولم يرجموا بالظن كمارجم ٢١٣ غيرهم دليله ان الله تعالى أتبع

عليه وسلم على لسان جبريل صلى الله عليه وسلم بعد ما حكى قول النصارى اولا ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى رجما بالغيب اي ظنا وحدسا من غير يقين ولم يقل ذلك في السبعة وتخصيص الشيء بالوصف يدل على ان الحال في الباقي بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظن هو قول النصارى وأن يكون قول المسلمين مخالفا لقول النصارى في كونه رجما بالغيب وظنا ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى (قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) هذا هو الحق لان العلم بتفاصيل العوالم والكائنات فيه في الماضي والمستقبل لا يكون الا لله تعالى أو لمن اخبره الله سبحانه وتعالى بذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما أنا من أولئك القليل كانوا سبعة وهم (٢) مكسلمينا ويملخا ومرطونس وبينونس وساريونس وذونوانس وكشفيطونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير (فلا تمار فيهم) اي لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم (الا مراء ظاهرا) اي الا بظاهر ما قصصنا عليك فقف عنده ولا تزد عليه (ولا تستفت فيهم) اي في اصحاب الكهف (منهم) اي من اهل الكتاب (أحدا) اي لا ترجع الى قول احد منهم بعد أن اخبرناك قصتهم * قوله سبحانه وتعالى (ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله) يعني اذا عزمت على فعل شيء غدا فقل ان شاء الله ولا تغفل بغير استثناء وذلك ان اهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن اصحاب الكهف وعن ذي القرنين فقال أخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحي اياما ثم نزلت هذه الآية وقد تقدمت القصة في سورة بني اسرائيل (واذكر ربك اذا نسيت) قال ابن عباس معناه اذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وجوز ابن عباس الاستثناء المنقطع وان كان بعد سنة وجوزه الحسن مادام

القولين الاولين قوله رجما بالغيب واتبع القول الثالث قوله (قل ربي أعلم بعدتهم) اي قل ربي أعلم بعدتهم وقد اخبركم بها بقوله سبعة وثامنهم كلبهم (ما يعلمهم الا قليل) قال ابن عباس رضي الله عنهما أنا من ذلك القليل وقيل الاقليل من اهل الكتاب والضمير في سيقولون على هذا لاهل الكتاب خاصة اي سيقول اهل الكتاب فيهم كذا وكذا ولا علم بذلك الا في قليل

منهم وا كثرهم على ظن وتخمين (فلا تمار فيهم) فلا تجادل اهل الكتاب في شأن اصحاب الكهف (الا مراء ظاهرا) الا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه وهو ان تقص عليهم ما أوحى الله اليك فحسب ولا تزيد من غير تجهيل لهم او بمشهد من الناس ليظهر صدقك (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) ولا تسأل احدا منهم عن قصتهم سؤال متعنت له حتى يقول شيأ فترده عليه وتزيف ما عنده ولا سؤال مسترشد لان الله تعالى قد أرشدك بان اوحى اليك قصتهم (ولا تقولن لشيء) لاجل شيء تعزم عليه (اني فاعل ذلك) الشيء (غدا) اي فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة (الا أن يشاء الله) ان تقوله بأن يأذن لك فيه او ولا تقولنه الا بان يشاء الله اي الا بمشيئته وهو في موضع الحال اي الا ملتبسا بمشيئة الله قائلا ان شاء الله وقال الزجاج معناه ولا تقولن اني أفعل ذلك الا بمشيئة الله تعالى لان قول القائل أنا افعل ذلك ان شاء الله معناه لا افعله الا بمشيئة الله وهذا نهي تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن اصحاب الكهف وذي القرنين فسألوه فقال ائتوني غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه (واذكر ربك) اي مشيئة ربك وقيل ان شاء الله (اذا نسيت) اذا فرط منك نسيان لذلك والمعنى اذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر عن الحسن مادام في مجلس الذكر وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولو بعد سنة وهذا محمول على تدارك التبرك بالاستثناء فاما الاستثناء المغير حكما فلا يصح الا متصلا

(٢) قوله وهم مكسلمينا الخ وقع اختلاف كبير في اسمائهم وذكر في القاموس في ذلك ثلاثة اقوال فليراجع

وحكى انه بلغ المنصور ان ابا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس رضى الله عنهما فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له ابو حنيفة هذا يرجع عليك انك تأخذ البيعة بالايمان أفترضى ان يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن كلامه وأمر الطاعن فيه باخراجه من عنده اومعناه واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت كلمة الاستثناء تشديدا فى البعث على الاهتمام بها اوصل صلة نسيتها اذا ذكرتها او اذا نسيت شيأ ٢١٤ فاذكره ليذكرك المنسى (وقل عسى أن يهدينى ربى لاقرب من هذا رشدا) يعنى اذا نسيت شيأ فاذكر ربك عند نسيانه ان تقول عسى ربى ان يهدينى لشئ آخر بدل هذا المنسى اقرب منه رشدا اوأدنى خيرا ومنفعة أن يهدين ان ترن ان يؤتين ان تعلمن مكى فى الحالين ووافقه ابو عمرو ومدنى فى الوصل (ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين) يريد لبثهم فيه احياء مضروبا على آذانهم هذه المدة وهو بيان لما اجمل فى قوله فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا وسنين عطف بيان لثلثمائة ثلثمائة سنين بالاضافة حمزة وعلى على وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله بالاخسرين أعمالا (وازدادوا تسعا) اى تسع سنين لدلالة ماقبله عليه وتسعا مفعول به لان زاد تقتضى مفعولين فازداد يقتضى مفعولا واحدا (قل الله أعلم بما لبثوا) اى هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم والحق ما أخبرك به او هو حكاية لكلام اهل الكتاب وقل الله اعلم رد عليهم والجمهور على ان هذا اخبار من الله سبحانه وتعالى انهم لبثوا فى كهفهم كذا مدة (له غيب السموات والارض) ذكر اختصاصه بعلم ما غاب فى السموات والارض وخفى فيهما من احوال اهلها (أبصر به وأسمع) اى وأسمع به والمعنى ما أبصره بكل موجود وما اسمعه لكل مسموع (مالهم) لاهل السموات والارض (من دونه من ولى) من متولى امورهم (ولا يشرك فى حكمه) فى قضائه (احدا) منهم ولا تشرك على النهى شامى كانوا يقولون له ائت بقرآن غير هذا او بدله فقيل له

فى المجلس وجوزه بعضهم اذا قرب الزمان فان بعد لم يصح ولم يجوزه جماعة حتى يكون الكلام متصلا بالاستثناء وقيل فى معنى الآية واذكر ربك اذا غضبت قال وهب مكتوب فى التوراة والانجيل ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب وقيل الآية فى الصلاة يدل عليه ماروى عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها قال تعالى أقم الصلاة لذكرى متفق عليه زاد مسلم اونام عنها فكفارتها أن يصليها اذا ذكرها (وقل عسى أن يهدينى ربى لاقرب من هذا رشدا) اى يثبتنى على طريق هو أقرب اليه وأرشد وقيل ان الله سبحانه وتعالى امره أن يذكره اذا نسى شيأ ويسأله أن يذكره او يهديه لما هو خير له من ان يذكر مانسى وقيل ان القوم لما سألوه عن قصة اصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم ان الله سبحانه وتعالى سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ماهو أدل لهم من قصة اصحاب الكهف وقد فعل حيث آتاه من علم غيب المرسلين وقصصهم ماهو أوضح واقرب الى الرشد من خبر اصحاب الكهف وقيل هذا شئ أمره الله أن يقوله مع قوله ان شاء الله اذا ذكر الاستثناء بعد النسيان واذا نسى الانسان قوله ان شاء الله فتوبته من ذلك ان يقول مع قوله ان شاء الله عسى ان يهدينى ربى لاقرب من هذا رشدا * قوله عزوجل (ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا) قيل هذا خبر عن قول اهل الكتاب ولو كان خبرا من الله عن قدر لبثهم لم يكن لقوله قل الله اعلم بما لبثوا وجه ولكن الله رد قولهم بقوله (قل الله أعلم بما لبثوا) والاصح انه اخبار من الله تعالى عن قدر لبثهم فى الكهف ويكون معنى قوله قل الله اعلم بما لبثوا يعنى ان نازعوك فى مدة لبثهم فى الكهف فقل انت الله اعلم بما لبثوا اى هو أعلم منكم وقد أخبر بمدة لبثهم وقيل ان اهل الكتاب قالوا ان المدة من حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وتسع سنين فرد الله عليهم بذلك وقال قل الله اعلم بما لبثوا يعنى بعد قبض ارواحهم الى يومنا هذا لا يعلمه الا الله فان قلت لم قال سنين ولم يقل سنة قلت قيل لما نزل قوله سبحانه وتعالى ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة فقالوا اياما اوشهورا او سنين فنزلت سنين على وفق قولهم وقيل هو تفسير لما أجمل فى قوله فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا وازدادوا تسعا وقيل قالت نصارى نجران أما الثلثمائة فقد عرفناها وأما التسع فلا علم لنا بها فنزلت قل الله اعلم بما لبثوا وقيل ان عند اهل الكتاب لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله سبحانه وتعالى ذكر ثلثمائة سنة وتسع سنين قمرية والتفاوت بين القمرية والشمسية فى كل مائة سنة ثلاث سنين فتكون الثلثمائة الشمسية ثلثمائة وتسع سنين قمرية (له غيب السموات والارض) يعنى انه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شئ من احوال اهلها فانه العالم وحده به فكيف يخفى عليه حال اصحاب الكهف (أبصر به وأسمع) معناه ما ابصر الله بكل موجود وأسمعه بكل مسموع لا يغيب عن سمعه وبصره شئ يدرك البواطن كما يدرك الظواهر والقريب والبعيد والمحجوب وغيره لا تخفى عليه خافية (مالهم) اى مالاهل السموات والارض (من دونه) اى من دون الله (من ولى) اى ناصر (ولا يشرك فى حكمه احدا) قيل معناه لا يشرك الله فى علم غيبه احدا وقيل فى قضائه * قوله

(واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك) اى من القرآن ولا تسمع لما يهزؤن به من طلب التبديل فانه (لا مبدل لكلماته) اى لا يقدر أحد على تبديلها او تغييرها انما يقدر على ذلك هو وحده (ولن تجد من دونه ملتحدا) ملجأ تعدل اليه ان هممت بذلك ولما قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نح هؤلاء الموالى وهم صهيب وعمار وخباب وسلمان وغيرهم من فقراء المسلمين حتى نجالسك نزل (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) واحبسها معهم وثبتها (بالغداة والعشى) دائبين ٢١٥ على الدعاء فى كل وقت او بالغداة

سبحانه وتعالى (واتل) اى واقرأ يا محمد (ما أوحى اليك من كتاب ربك) يعنى القرآن واتبع ما فيه واعمل به (لا مبدل لكلماته) اى لا مغير للقرآن ولا يقدر أحد على التطرق اليه بتغيير أو تبديل فان قلت موجب هذا ان لا يتطرق النسخ اليه قلت النسخ فى الحقيقة ليس بتبديل لان المنسوخ ثابت فى وقته الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وقيل معناه لا مغير لما أوعد الله بكلماته اهل معاصيه (ولن تجد من دونه) اى من دون الله ان لم تتبع القرآن (ملتحدا) اى ملجأ وحرزا تعدل اليه * قوله عز وجل (واصبر نفسك) الآية نزلت فى عيينة بن حصن الفزارى أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل ان يسلم وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان وعليه شملة صوف قد عرق فيها وبيده خوص يشقه وينسجه فقال عيينة للنبى صلى الله عليه وسلم أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر واشرافها ان اسلمنا أسلم الناس ومايمنعنا من اتباعك الا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك او اجعل لنا مجلسا فانزل الله عز وجل واصبر نفسك اى احبس يا محمد نفسك (مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) يعنى طرفى النهار (يريدون وجهه) اى يريدون وجه الله لا يريدون عرض الدنيا وقيل نزلت فى اصحاب الصفة وكانوا سبعمائة رجل فقراء فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجعون الى تجارة ولا الى زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى فلما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت ان اصبر نفسى معهم (ولا تعد) اى لا تصرف ولا تجاوز (عيناك عنهم) الى غيرهم (تريد زينة الحيوة الدنيا) اى تطلب مجالسة الاغنياء والاشراف وصحبة اهل الدنيا (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) اى جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا يعنى عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف (واتبع هواه) اى فى طلب الشهوات (وكان أمره فرطا) ضياعا ضيع امره وعطل ايامه وقيل ندما وقيل سرفا وباطلا وقيل مخالفا للحق (وقل الحق من ربكم) اى قل يا محمد لهؤلاء الذين اغفلنا قلوبهم عن ذكرنا من ربكم الحق واليه التوفيق والخذلان وبيده الهدى والضلال ليس الى من ذلك شئ (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله اعملوا ما شئتم وقيل معنى الآية وقل الحق من ربكم اى لست بطارد المؤمنين لهواكم فان شئتم فآمنوا وان شئتم فاكفروا فان كفرتم فقد أعددنا لكم ربكم نارا وان آمنتم فلكم ما وصف الله لاهل طاعته وعن ابن عباس فى معنى الآية من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر (انا اعتدنا) اى هيأنا من العتاد وهو العدة (للظالمين) اى الكافرين (نارا أحاط بهم سرادقها) السرادق الحجرة التى تطيف بالفساطيط عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار أربعون سنة أخرجه الترمذى قال ابن عباس هو حائط من نار وقيل هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة وقيل هو دخان يحيط بالكفار (وان يستغيثوا) اى من شدة العطش (يغاثوا بماء كالمهل) قال ابن عباس هو ماء غليظ مثل دردى الزيت عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى قوله سبحانه وتعالى بماء كالمهل قال كعكر الزيت فاذا قرب اليه سقطت فروة وجهه منه أخرجه الترمذى وقال رشدين احد

لطلب التوفيق والتيسير والعشى لطلب عفو التقصير أو هما صلاة الفجر والعصر بالغدوة شامى (يريدون وجهه) رضا الله (ولا تعد عيناك عنهم) ولا تجاوز عداه اذا جاوزه وعدى بعن لتضمن عدا معنى نبا فى قولك نبت عنه عينه وفائدة التضمين اعطاء مجموع معنيين وذلك اقوى من اعطاء معنى فذ (تريد زينة الحيوة الدنيا) فى موضع الحال (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا) من جعلنا قلبه غافلا عن الذكر وهو دليل لنا على انه تعالى خالق افعال العباد (واتبع هواه وكان امره فرطا) مجاوزا عن الحق (وقل الحق من ربكم) اى الاسلام او القرآن والحق خبر مبتدا محذوف اى هو (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) اى جاء الحق وزاحت العلل فلم يبق الا اختياركم لانفسكم ما شئتم من الاخذ فى طريق النجاة او فى طريق الهلاك وجئ بلفظ الامر والتخيير لانه لما مكن من اختيار ايهما شاء فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال (انا اعتدنا) هيأنا (للظالمين) للكافرين فقيد بالسياق كما ترك حقيقة الامر والتخيير بالسياق وهو قوله انا اعتدنا للظالمين (نارا أحاط بهم سرادقها) شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق وهى الحجرة التى تكون حول الفساطاط او هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار او هو حائط من نار يطيف بهم (وان يستغيثوا) من العطش (يغاثوا بماء كالمهل) هو دردى الزيت او ما أذيب من جواهر الارض وفيه تهكم بهم

(يشوى الوجوه) اذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته (بئس الشراب) ذلك (وساءت) النار (مرتفقا) متكأ من الرفق وهذا مشاكلة قوله وحسنت مرتفقا والافلا ارتفاق لاهل النار وبين جزاء من اختار الايمان فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع اجر من أحسن عملا اولئك لهم جنات عدن) ٢١٦ كلام مستأنف بيان للاجر المبهم ولك ان تجعل انا لا نضيع وأولئك خبر بن معا والمراد من

رواة الحديث قد تكلم فيه من قبل حفظه الفروة جلدة الوجه وقيل المهل الدم والقيح وقيل هو الرصاص والصفر المذاب (يشوى الوجوه) اى ينضج الوجوه من حره (بئس الشراب) اى ذلك الذى يغاثون به (وساءت) اى النار (مرتفقا) قال ابن عباس رضى الله عنهما منزلا وقيل مجتمعا وأصل المرتفق المتكأ وانما جاء كذلك لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا والافلا ارتفاق لاهل النار ولا متكأ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا) اى لا نترك اعمالهم تذهب ضياعا بل نجازيهم باعمالهم الصالحة وقيل ان قوله انا لا نضيع أجر من احسن عملا كلام معترض وتقديره ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات (أولئك لهم جنات عدن) اى دار اقامة سميت عدنا لخلود المؤمنين فيها (تجرى من تحتهم الانهار) وذلك لان افضل المساكن ما كان يجرى فيه الماء (يحلون فيها من أساور من ذهب) قيل يحلى كل انسان منهم ثلاثة اساور سوار من ذهب لهذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى وحلوا أساور من فضة وسوار من لؤلؤ لقوله ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس) هو الديباج الرقيق (واستبرق) هو الديباج الصفيق الغليظ وقيل السندس المنسوج بالذهب (متكئين) خص الاتكاء لانه هيئة المتنعمين والملوك (فيها) اى فى الجنة (على الارائك) جمع اريكة وهى السرر فى الحجال وما وصف الله سبحانه وتعالى هذه الاشياء قال (نعم الثواب) اى نعم الجزاء (وحسنت) اى الجنات (مرتفقا) اى مقرا ومجلسا والمراد بقوله وحسنت مرتفقا مقابلة ما تقدم ذكره من قوله سبحانه وتعالى وساءت مرتفقا قوله عز وجل (واضرب لهم مثلا رجلين) قيل نزلت فى أخوين من اهل مكة من بنى مخزوم وهما ابو سلمة عبد الله بن عبد الاسد بن عبد يا ليل وكان مؤمنا وأخوه الاسود بن عبد الاسد وكان كافرا وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه وسلمان وأصحابه وشبههما برجلين من بنى اسرائيل اخوين احدهما مؤمن واسمه يهوذا فى قول ابن عباس وقيل يليخا والآخر كافر واسمه قطروس وهما اللذان وصفهما الله سبحانه وتعالى فى سورة والصافات وكانت قصتهما على ما ذكره عطاء الخراسانى قال كان رجلان شريكان لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار وانى قد اشتريت منك أرضا فى الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال اللهم ان فلانا بنى دارا بألف دينار وانى اشتريت منك دارا فى الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امرأة فانفق عليها ألف دينار فقال هذا اللهم انى أخطب اليك امرأة من نساء الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه اشترى خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا اللهم انى أشترى منك خدما ومتاعا بألف دينار فى الجنة فتصدق بها ثم اصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبى لعل ينالنى منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به فى خدمه وحشمه فقام اليه فنظر اليه صاحبه فعرفه فقال فلان قال نعم قال ما شأنك قال اصابتنى حاجة بعدك فأتيتك لتعينني بخير قال فما فعلت بمالك وقد قاسمتك مالا وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال وانك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيأ فطرده فقضى لهما فتوفيا فنزل فيهما قوله فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم انى كان لى

فى والصافات فى قوله قال قائل منهم انى كان لى قرين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار قرين

فجعلا هما شطرين فاشترى الكافر ارضا بألف دينار فقال المؤمن اللهم ان أخى اشترى ارضا بألف دينار وأنا اشترى منك ارضا فى الجنة بألف فتصدق به ثم بنى اخوه دارا بألف فقال اللهم انى أشترى منك دارا فى الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج اخوه امرأة بألف فقال اللهم انى جعلت ألفا صداقا للحور ثم اشترى اخوه خدما ومتاعا بألف دينار فقال اللهم انى اشتريت منك الولدان المخلدين بألف فتصدق به

ثم اصابته حاجة فجلس لاخيه على طريقه فمر به فى حشمه فتعرض له فطرده وو بخه على التصدق بماله (جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب) بستانين من كروم (وحففناهما بنخل) وجعلنا النخل محيطا بالجنتين وهذا مما يؤثره الدهاقين فى كرومهم ان يجعلوها مؤزرة بالاشجار المثمرة يقال حفوه اذا طافوا به وحففته بهم اى جعلتهم حافين حوله وهو متعد الى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولا ثانيا (وجعلنا بينهما زرعا) جعلناها ارضا جامعة للاقوات والفواكه ووصف العمارة بانها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها مع الشكل الحسن والترتيب الانيق (كلتا الجنتين آتت) اعطت حمل على اللفظ لان لفظ كلتا مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز (اكلها) ثمرها (ولم تظلم منه) ولم تنقص من اكلها (شيأ وفجرنا خلالهما نهرا) نعتهما بوفاء الثمار وتمام الاكل من غير نقص ثم بما هو اصل الخير ومادته من امر الشرب فجعله افضل ما يسقى به وهو النهر الجارى فيها (وكان له) لصاحب الجنتين (ثمر) انواع من المال من ثمر ماله اذا كثره اى كانت له الى الجنتين الموصوفتين الاموال الكثيرة من الذهب والفضة وغيرهما له ثمر واحيط بثمره بفتح الميم والثاء عاصم و بضم الثاء وسكون الميم ابو عمرو و بضمهما غيرهما (فقال لصاحبه وهو يحاوره) يراجعه الكلام من حار يحور اذا رجع يعنى قعاروس اخذ بيد المسلم يطوف به فى الجنتين ويريه ما فيهما ويفاخره بما ملك من المال دونه (أنا اكثر منك مالا ٢١٧ واعز نفرا) انصارا وحشما واولادا

قرين وروى انه لما اتاه اخذ بيده وجعل يطوف به ويريه امواله فنزل فيهما واضرب لهم مثلا رجلين (جعلنا لاحدهما جنتين) اى بستانين (من أعناب وحففناهما) اى أطفناهما من جوانبهما (بنخل وجعلنا بينهما زرعا) اى وجعلنا بين النخل والاعناب الزرع وقيل بينهما اى بين الجنتين يعنى لم يكن بين الجنتين خراب بغير زرع (كلتا الجنتين آتت) اى اعطت كل واحدة من الجنتين (أكلها) اى ثمرها تاما (ولم تظلم منه شيأ) اى ولم تنقص منه شيأ (وفجرنا خلالهما) شققنا وسطهما (نهرا وكان له) اى لصاحب البستان (ثمر) قرئ بالفتح جمع ثمرة وقرئ بالضم وهو الاموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما (فقال) يعنى صاحب البستان (لصاحبه) يعنى المؤمن (وهو يحاوره) اى يخاطبه (أنا اكثر منك مالا واعز نفرا) اى عشيرة ورهطا وقيل خدما وحشما (ودخل جنته) يعنى الكافر آخذا بيد أخيه المؤمن يطوف به فيها ويريه اياها (وهو ظالم لنفسه) اى بكفره (قال ما أظن ان تبيد) اى تهلك (هذه) يعنى جنته (ابدا) وذلك انه راقه حسنها وغرته زهرتها فتوهم انها لا تفنى أبدا وأنكر البعث فقال (وما أظن الساعة قائمة) اى كائنة (ولئن رددت الى ربى) فان قلت كيف قال ولئن رددت الى ربى وهو منكر للبعث قلت معناه ولئن رددت الى ربى على ما تزعم من ان الساعة آتية (لاجدن خيرا منها منقلبا) اى يعطينى هنالك خيرا منها لانه لم يعطنى الجنة فى الدنيا الا ليعطينى فى الآخرة أفضل منها (قال له صاحبه) يعنى المؤمن (وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب) اى خلق أصلك من تراب لان خلق أصلك سبب فى خلقه فكان خلقاله (ثم من نطفة ثم سواك رجلا) اى عدلك بشرا سويا وكملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال (لكنا هو الله ربى) مجازه لكن أنا هو الله ربى (ولا أشرك بربى أحدا ولولا) اى هلا (اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله) والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر الى ما رزقك الله منها ما شاء الله اعترافا بانها وكل

ذكورا لانهم ينفرون معه دون الاناث (ودخل جنته) احدى جنته او سماهما جنة لاتحاد الحائط و جنتين للنهر الجارى بينهما (وهو ظالم لنفسه) ضار لها بالكفر (قال ما أظن ان تبيد هذه أبدا) اى ان تهلك هذه الجنة شك فى بيدودة جنته لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بالمهلة وترى أكثر الاغنياء من المسلمين تنطق السنة أحوالهم بذلك (وما أظن الساعة قائمة) كائنة (ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا) اقسام

منه على انه ان رد الى ربه على سبيل الفرض كما يزعم صاحبه ليجدن فى الآخرة خيرا من جنته فى الدنيا ادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده منقلبا تمييز اى مرجعا وعاقبة (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب) اى خلق أصلك لان خلق اصله سبب فى خلقه وكان خلقه خلقاله (ثم من نطفة) اى خلقك من نطفة (ثم سواك رجلا) عدلك وكملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال جعله كافرا بالله لشكه فى البعث (لكنا) بالالف فى الوصل شامى الباقون بغير الف وبالالف فى الوقف اتفاق واصله لكن انا فحذفت الهمزة والقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان فادغمت الاولى فى الثانية بعد ان سكنت (هو الله ربى) هو ضمير الشأن والشأن الله ربى والجملة خبر انا والراجع منها اليه ياء الضمير وهو استدراك لقوله أكفرت قال لاخيه أنت كافر بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرا حاضر وفيه حذف اى أقول هو الله بدليل عطف (ولا أشرك بربى أحدا ولولا) وهلا (اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله) ما موصولة مرفوعة المحل على انها خبر مبتدا محذوف تقديره الامر ما شاء الله او شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف يعنى اى شئ شاء الله كان والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر الى ما رزقك الله منها الامر ما شاء الله اعترافا بانها وكل ما فيها انما حصل بمشيئة الله وان أمرها بيده ان شاء تركها عامرة وان شاء خربها

(لا قوة الا بالله) اقرار بان ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونته وتأييده من قرأ (ان ترني انا أقل منك مالا) بنصب أقل فقد جعل أنا فاصلا ومن رفع وهو الكسائي جعله مبتدأ وأقل خبره والجملة مفعولا ثانيا لترني وفي قوله (وولدا) نصرة لمن فسر النفر بالاولاد في قوله واعز نفرا (فعسى ربي ان يؤتيني خيرا من جنتك) في الدنيا او في العقبى (ويرسل عليها حسبانا) عذابا (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) أرضا بيضاء يزلق عليها لملاستها (او يصبح ماؤها غورا) غائرا اى ذاهبا في الارض (فلن تستطيع له طلبا) فلا يتأتى منك طلبه فضلا عن الوجود والمعنى ان ترن افقر منك فانا اتوقع من صنع الله ان يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لايماني جنة خيرا من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بساتينك (واحيط بثمره) هو عبارة عن اهلاكه وأصله من أحاط به العدو لانه اذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل في كل اهلاك (فاصبح) اى الكافر (يقلب كفيه) يضرب احداهما على الاخرى ندما وتحسرا وانما صار تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر لان النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن كما كني عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد ولانه في معنى الندم عدى تعديته بعلى كانه قيل فاصبح يندم (على ما أنفق فيها) اى في عمارتها (وهي خاوية على عروشها)

يعني ان كرومها المعرشة سقطت عروشها على الارض وسقطت فوقها الكروم (ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) تذكر موعظة أخيه فعلم انه أتى من جهة كفره وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه حين لم ينفعه التمني ويجوز ان يكون توبة من الشرك وندما على ما كان منه ودخولا في الايمان (ولم تكن له فئة ينصرونه) يقدرون على نصرته (من دون الله) اى هو وحده القادر على نصرته لا يقدر احد غيره ان ينصره الا انه لم ينصره لحكمة (وما كان منتصرا) وما كان ممتنعا بقوته عن انتقام الله (هنالك الولاية لله الحق) يكن بالياء والولاية بكسر الواو حمزة

وعلي فهي بالفتح النصرة والتولي وبالكسر السلطان والملك والمعنى هنالك اى في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها أحد سواه تقرير لقوله ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله او هنالك السلطان والملك لله لا يغلب او في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر يعني ان قوله يا ليتني لم أشرك بربي أحدا كلمة ألجئ اليها فقالها جزعا مما دهاه من شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها وهنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم يعني انه نصر قيما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله فعسى ربي ان يؤتيني خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء ويؤيده قوله (هو خير ثوابا وخير عقبا) اى لاولياء الله اوهنالك اشارة الى الآخرة اى في تلك الدار الولاية لله كقوله لمن الملك اليوم الحق بالرفع ابو عمرو وعلي صفة للولاية او خبر مبتدا محذوف اى هي الحق او هو الحق غيرهما بالجر صفة لله عقبا بسكون القاف عاصم وحمزة وبضمهما غيرهما وفي الشواذ عقبى على وزن فعلى وكلها بمعنى العاقبة (واضرب لهم)

خير فيها انما حصل بمشيئة الله تعالى وفضله وان أمرها بيده وانه ان شاء تركها عامرة وان شاء تركها خرابا (لا قوة الا بالله) اى وقلت لا قوة الا بالله اقرارا بان ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونة الله وتأييده ولا أقدر على حفظ مالي ودفع شيء عنه الا بالله روي عن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى من ماله شيئا يعجبه او دخل حائطا من حيطانه قال ماشاء الله لا قوة الا بالله الحائط البستان (ان ترن انا أقل منك مالا وولدا) اى لاجل ذلك تكبرت علي وتعظمت (فعسى ربي) اى فلعل ربي (ان يؤتيني) اى يعطيني (خيرا من جنتك) يعني في الآخرة (ويرسل عليها) اى على جنتك (حسبانا) قال ابن عباس نارا وقيل مرامي (من السماء) وهي الصواعق فتهلكها (فتصبح صعيدا زلقا) اى أرضا جرداء ملساء لا نبات فيها وقيل تزلق فيها الاقدام وقيل رملا هائلا (او يصبح ماؤها غورا) غائرا ذاهبا لا تناله الايدي ولا الدلاء (فلن تستطيع له طلبا) يعني ان طلبته لم تجده (واحيط بثمره) يعني أحاط العذاب بثمر جنته وذلك ان الله تعالى أرسل عليها من السماء نارا فاهلكتها وغار ماؤها (فاصبح) يعني صاحبها الكافر (يقلب كفيه) يصفق بكف على كف ويقلب كفيه ظهرا لبطن تأسفا وتلهفا (على ما أنفق فيها) اى في عمارتها فاصبح يندم على ما أنفق في عمارتها (وهي خاوية على عروشها) اى ساقطة سقوفها وقيل ان كرومها المعرشة سقطت عروشها على الارض (ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) يعني انه تذكر موعظة أخيه المؤمن فعلم انه أتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا (ولم تكن له فئة) اى جماعة (ينصرونه من دون الله) اى يمنعونه من عذاب الله (وما كان منتصرا) اى ممتنعا لا يقدر على الانتصار لنفسه وقيل معناه لا يقدر على رد ما ذهب منه قوله سبحانه وتعالى (هنالك الولاية) قرئ بكسر الواو يعني السلطان في القيامة (لله الحق) وقرئ بفتحها من الموالاة والنصرة يعني انهم يتولونه يومئذ ويتبرؤن مما كانوا يعبدون من دونه في الدنيا (هو خير ثوابا) اى افضل جزاء لاهل طاعته لو كان غيره يثيب (وخير عقبا) يعني عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره فهو خير اثابة وعاقبة * قوله عز وجل (واضرب لهم) اى اضرب يا محمد

مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) اى هو كماء أنزلناه (فاختلط به نبات الارض) فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا او اثر فى النبات الماء فاختلط به حتى روى (فاصبح هشيما) يابسا متكسرا الواحدة هشيمة (تذروه الرياح) تنسفه وتطيره الريح حزة وعلى (وكان الله على كل شئ) من الانشاء والافناء (مقتدرا) قادرا شبه حال الدنيا فى نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والافناء بحال النبات يكون أخضر ثم يهيج فتطيره الريح كأن لم يكن (المال والبنون زينة الحيوة الدنيا) ٢١٩ لازاد القبر وعدة العقبى (والباقيات

لقوله (مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) يعنى المطر (فاختلط به نبات الارض) اى خرج منه كل لون وزهرة (فاصبح) اى عن قريب (هشيما) قال ابن عباس يابسا (تذروه الرياح) قال ابن عباس تذريه وقيل تفرقه وتنسفه (وكان الله على كل شئ مقتدرا) اى قادرا قوله سبحانه وتعالى (المال والبنون) يعنى التى يفتخر بها عيينة وأصحابه الاغنياء (زينة الحيوة الدنيا) يعنى ليست من زاد الآخرة قال على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه المال والبنون حرث الدنيا والاعمال الصالحة حرث الآخرة وقد يجمعهما لاقوام (والباقيات الصالحات) قال ابن عباس هى قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (م) عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان أقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أحب الى مما طلعت عليه الشمس عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال استكثروا من قول الباقيات الصالحات قيل وما هن يا رسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قلت يا رسول الله وما رياض الجنة قال المساجد قلت وما الرتع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أخرجه الترمذى وقال حديث غريب عن سعيد بن المسيب ان الباقيات الصالحات هى قول العبد الله أكبر وسبحان الله ولا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله اخرجه مالك فى الموطأ موقوفا عليه وعن ابن عباس ان الباقيات الصالحات الصلوات الخمس وعنه انها الاعمال الصالحة (خير عند ربك ثوابا) اى جزاء (وخير أملا) اى ما يؤمله الانسان قوله سبحانه وتعالى (ويوم نسير الجبال) اى نذهب بها وذلك ان تجعل هباء منثورا كما يسير السحاب (وترى الارض بارزة) اى ظاهرة ليس عليها شجر ولا جبل ولا بناء وقيل هو بروز ما فى بطنها من الموتى وغيرهم فيصير باطن الارض ظاهرها (وحشرناهم) يعنى جميعا الى موقف الحساب (فلم نغادر منهم أحدا) اى لم نترك منهم أحدا (وعرضوا على ربك صفا) اى صفا صفا وفوجا فوجا لانهم صف واحد وقيل قياما وقيل كل أمة وزمرة صف ثم يقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة) يعنى أحياء وقيل حفاة عراة غرلا (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) يعنى القيامة يقول ذلك لمنكرى البعث (ق) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ألا ان اول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام ألا وانه سيجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فاقول يا رب أصحابى فيقول انك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فاقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله العزيز الحكيم قال فيقال لى انهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم زاد فى رواية فاقول سحقا سحقا (قوله غرلا) اى قلفا والغرلة القلفة التى تقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا اى بعدا قال بعض العلماء ان المراد بهؤلاء أصحاب الردة الذين ارتدوا من العرب ومنعوا الزكاة بعده (ق) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت الرجال

الصالحات) أعمال الخير التى تبقى ثمرتها للانسان او الصلوات الخمس او سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (خير عند ربك ثوابا) جزاء (وخير أملا) لانه وعد صادق وأكثر الآمال كاذبة يعنى ان صاحبها يأمل فى الدنيا ثواب الله ويصيبه فى الآخرة (ويوم) واذكر يوم (نسير الجبال) تسير الجبال مكى وشامى وابو عمرو اى تسير فى الجو او يذهب بها بان تجعل هباء منثورا منبثا (وترى الارض بارزة) ليس عليها ما يسترها مما كان عليها من الجبال والاشجار (وحشرناهم) اى الموتى (فلم نغادر منهم أحدا) اى فلم نترك غادره اى تركه ومنه الغدر ترك الوفاء والغدير ما غادره السيل (وعرضوا على ربك صفا) مصطفين ظاهرين ترى جماعتهم كما ترى كل واحد لا يحجب أحدا أحدا شبهت حالهم بحال الجند المعروضين

على السلطان (لقد جئتمونا) اى قلنا لهم لقد جئتمونا وهذا المضمر يجوز ان يكون عامل النصب فى يوم نسير (كما خلقناكم أول مرة) اى لقد بعثناكم كما انشأنا كم اول مرة او جئتمونا عراة لا شئ معكم كما خلقناكم اولا وانما قال وحشرناهم ماضيا بعد تسير وترى للدلالة على حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال كانه قيل وحشرناهم قبل ذلك (بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعدا) وقتا لانجازما وعدتم على ألسنة الانبياء من البعث والنشور او مكانا وعدا للمحاسبة

والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض قال الامر أشد من ان يهمهم ذلك زاد النسائى فى روايته لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه * قوله عز وجل (ووضع الكتاب) يعنى صحائف أعمال العباد توضع فى أيدى الناس فى أيمانهم وشمائلهم وقيل توضع بين يدى الله تعالى (فترى المجرمين مشفقين) اى خائفين (مما فيه) يعنى من الاعمال السيئة (ويقولون) يعنى اذا رأوها (ياويلتنا) اى ياهلا كنا وكل من وقع فى هلكة دعا بالويل (مال هذا الكتاب لا يغادر) اى لا يترك (صغيرة ولا كبيرة) اى من ذنوبنا (الا أحصاها) اى عدها وكتبها وأثبتها فيه وحفظها قال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم واللمس والقبلة والكبيرة الزنا عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا فى بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود حتى جاء هذا بعود فانضجوا خبزهم وان محقرات الذنوب لموبقات الحقير الشئ الصغير التافه وقوله لموبقات اى مهلكات (ووجدوا ما عملوا حاضرا) اى مكتوبا مثبتا فى كتابهم (ولا يظلم ربك أحدا) اى لا ينقص ثواب أحد عمل خيرا ولا يؤاخذ احدا بجرم لم يعمله عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فاما عرضتان فجدال ومعاذير واما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الايدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله اخرجه الترمذى وقال لا يصح هذا الحديث من قبل ان الحسن لم يسمع من ابى هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن ابى موسى قوله سبحانه وتعالى (واذ قلنا) اى واذكر يا محمد اذ قلنا (للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن) قال ابن عباس كان من حى من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وقال الحسن كان من الجن ولم يكن من الملائكة فهو أصل الجن كما ان آدم أصل الانس وكونه من الملائكة لا ينافى كونه من الجن بدليل قوله سبحانه وتعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وذلك ان قريشا قالت الملائكة بنات الله فهذا يدل على ان الملك يسمى جنا ويعضده اللغة لان الجن مأخوذ من الاجتنان وهو الستر فعلى هذا تدخل الملائكة فيه فكل الملائكة جن لاستتارهم وليس كل جن ملائكة ووجه كونه من الملائكة ان الله سبحانه وتعالى استثناه من الملائكة والاستثناء يفيد اخراج ما لولاه لدخل ويصح دخوله وذلك يوجب كونه من الملائكة ووجه من قال انه كان من الجن ولم يكن من الملائكة قوله كان من الجن والجن جنس مخالف للملائكة وقوله افتتخذونه وذريته فاثبت له ذرية والملائكة لا ذرية لهم واجيب عن الاستثناء انه استثناء منقطع وهو مشهور فى كلام العرب قال الله سبحانه وتعالى واذ قال ابراهيم لابيه وقومه انني براء مما تعبدون الا الذى فطرنى وقال تعالى لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما قيل انه كان من الملائكة فلما خالف الامر مسخ وغير وطرد ولعن وقوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) اى خرج عن طاعة ربه (أفتتخذونه) يعنى يا بنى آدم أفتتخذون ابليس (وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو) يعنى اعداء روى مجاهد عن الشعبى قال انى لقاعد يوما اذ أقبل رجل فقال اخبرنى هل لابليس زوجة قلت ان ذلك العرس ما شهدته ثم ذكرت قول الله عز وجل أفتتخذونه وذريته اولياء من دونى فعلمت انه لا تكون ذرية الا من زوجة فقلت نعم قيل يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل انه يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية ابليس لاقيس ولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو صاحب الاسواق يزين اللغو والحلف الكاذب ومدح السلع وبتر وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والاعور وهو صاحب الزنا ينفخ فى احليل الرجل وعبيرة المرأة ومطوس وهو صاحب الاخبار الكاذبة يلقيها فى افواه الناس لا يجدون لها اصلا وداسم وهو الذى اذا

(ووضع الكتاب) اى صحف الاعمال (فترى المجرمين مشفقين) خائفين (مما فيه) من الذنوب (ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة) اى لا يترك شيأ من المعاصى (الا احصاها) حصرها وضبطها (ووجدوا ما عملوا حاضرا) فى الصحف عتيدا او جزاء ما عملوا (ولا يظلم ربك احدا) فيكتب عليه ما لم يعمل او يزيد فى عقابه او يعذبه بغير جرم (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) سجود تحية او سجود انقياد (فسجدوا الا ابليس كان من الجن) هو مستأنف كأن قائلا قال ما له لم يسجد فقيل كان من الجن (ففسق عن امر ربه) خرج عما امره ربه به من السجود وهو دليل على انه كان مأمورا بالسجود مع الملائكة (أفتتخذونه وذريته) الهمزة للانكار والتعجيب كأنه قيل اعقيب ما وجد منه تتخذونه وذريته (أولياء من دونى) وتستبدلونهم بى ومن ذريته لا قيس موسوس الصلاة والاعور صاحب الزنا وبتر صاحب المصائب ومطوس صاحب الاراجيف وداسم يدخل ويأكل مع من لم يسم الله تعالى (وهم لكم عدو) اعداء

(بئس للظالمين بدلا) بئس البدل من الله ابليس لمن استبدله فاطاعه بدل طاعة الله (ما أشهدتهم) اى ابليس وذريته (خلق السموات والارض) يعنى انكم اتخذتموهم شركاء لى فى العبادة وانما يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء فى الالهية فنفى مشاركتهم فى الالهية بقوله ما أشهدتهم خلق السموات والارض لاعتضد بهم فى خلقها واشاورهم فيه اى تفردت بخلق الاشياء فافردونى فى العبادة (ولا خلق انفسهم) اى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله ولا تقتلوا أنفسكم (وما كنت متخذ المضلين) اى وما كنت متخذهم

دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع او يحسن موضعه واذا اكل ولم يسم اكل معه قال الاعمش ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم ثم أذكر فاقول داسم داسم أعوذ بالله منه روى أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء اخرجه الترمذى (م) عن عثمان بن ابى العاص قال قلت يارسول الله ان الشيطان قد حال بينى و بين صلاتى و بين قراءتى يلبسها على فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فاذهبه الله عنى (م) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فادناهم منه منزلة اعظمهم فتنة يجىء احدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيأ ثم يجىء احدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه و بين امراته قال فيدنيه منه و يقول نعم انت قال الاعمش اراه قال فيلتزمه وقوله (بئس للظالمين بدلا) يعنى بئس ما استبدلوا طاعة ابليس وذريته بعبادة ربهم وطاعته قوله سبحانه وتعالى (ما أشهدتهم) اى ما احضرتهم يعنى ابليس وذريته وقيل الكفار وقيل الملائكة (خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) والمعنى ما اشهدتهم خلقها فأستعين بهم على خلقها واشاورهم فيها (وما كنت متخذ المضلين) يعنى الشياطين الذين يضلون الناس (عضدا) يعنى انصارا واعوانا * قوله عز و جل (و يوم يقول نادوا) يعنى يقول الله تعالى يوم القيامة نادوا (شركائى) يعنى الاصنام (الذين زعمتم) يعنى انهم شركائى (فدعوهم) اى فاستغاثوا بهم (فلم يستجيبوا لهم) اى فلم يجيبوهم ولم ينصروهم (وجعلنا بينهم) يعنى بين الاصنام وعبدتها وقيل بين اهل الهدى و بين اهل الضلال (موبقا) يعنى مهلكا قال ابن عباس هو واد فى النار وقيل نهر تسيل منه نار وعلى حافتيه حيات مثل البغال الدهم وقيل كل حاجز بين شيئين فهو موبق وأصله الهلاك (و رأى المجرمون) اى المشركون (النار فظنوا) اى ايقنوا (أنهم مواقعوها) اى داخلوها وواقعون فيها (ولم يجدوا عنها مصرفا) اى معدلا لانها أحاطت بهم من كل جانب وقيل لان الملائكة تسوقهم اليها قوله سبحانه وتعالى (ولقد صرفنا) اى بينا (فى هذا القرآن للناس من كل مثل) اى ليتذكروا ويتعظوا (وكان الانسان أكثر شئ جدلا) اى خصومة فى الباطل قال ابن عباس اراد النضر بن الحرث و جداله فى القرآن وقيل اراد به أبى بن خلف وقيل اراد به جميع الكفار وقيل الآية على العموم وهو الاصح (ق) عن على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال ألا تصليان فقلت يارسول الله أنفسنا بيد الله تعالى فاذا شاء ان يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع الى شيأ ثم سمعته يقول وهو مول يضرب فخذه بيده وكان الانسان اكثر شئ جدلا * قوله عز و جل (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) يعنى القرآن واحكام الاسلام والبيان من الله تعالى وقيل انه رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويستغفروا ربهم) والمعنى انه لا مانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة والاعذار زائلة فلم يقدموا على الايمان والاستغفار (الا ان تأتيهم سنة الاولين) يعنى سنتنا فى اهلاك

(عضدا) اى اعوانا فوضع المضلين موضع الضمير ذما لهم بالاضلال فاذا لم يكونوا عضدا لى فى الخلق فحالكم تتخذونهم شركاء لى فى العبادة (و يوم يقول) الله للكفار و بالنون حمزة (نادوا) ادعوا بصوت عال (شركائى الذين زعمتم) انهم فيكم شركائى ليمنعوكم من عذابى واراد الجن واضاف الشركاء اليه على زعمهم توبيخا لهم (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا) مهلكا من وبق يبق وبوقا اذا هلك او مصدرا كالموعد اى وجعلنا بينهم واديا من أودية جهنم وهو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركا يهلكون فيه جميعا او الملائكة وعزيرا وعيسى والموبق البرزخ البعيد اى وجعلنا بينهم أمدا بعيدا لانهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان (ورأى المجرمون النار فظنوا) فايقنوا (أنهم مواقعوها) مخالطوها واقعون فيها (ولم يجدوا عنها) عن النار (مصرفا) معدلا (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل) يحتاجون اليه (وكان الانسان أكثر شئ جدلا) تمييز اى أكثر الاشياء التى يتأتى منها الجدل ان فصلتها واحدا بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل يعنى ان جدل الانسان أكثر من جدل كل شئ (وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) اى سببه وهو الكتاب والرسول (و يستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الاولين

او يأتيهم العذاب) ان الاولى نصب والثانية رفع وقبلهما مضاف محذوف تقديره وما منع الناس الايمان والاستغفار الا انتظار ان تأتيهم سنة الاولين وهى الاهلاك او انتظار أن يأتيهم العذاب اى عذاب الآخرة (قبلا) كوفى اى انواعا جمع قبيل الباقون قبلا اى عيانا (ومانرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) يوقف عليه ويستأنف بقوله (ويجادل الذين كفروا بالباطل) هو قولهم للرسل ما أنتم الا بشر مثلنا ولو شاء الله لانزل ملائكة ونحو ذلك (ليدحضوا به الحق) ليزيلوا ويبطلوا بالجدال النبوة (واتخذوا آياتى) القرآن (وما أنذروا) ما موصولة والراجع من الصلة محذوف اى وما أنذروه من العقاب او مصدرية اى وانذارهم (هزوا) موضع استهزاء بسكون الزاى والهمزة حمزة وبابدال الهمزة واوا حفص وبضم الزاى والهمزة غيرهما (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) بالقرآن ولذلك رجع الضمير اليها مذكرا فى قوله ان يفقهوه (فأعرض عنها) فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر (ونسى ما قدمت يداه) عاقبة ما قدمت يداه من الكفر والمعاصى غير ٢٢٢ متفكر فيها ولا ناظر فى ان المسىء والمحسن لابد لهما من جزاء ثم علل اعراضهم ونسيانهم بانهم

مطبوع على قلوبهم بقوله (انا جعلنا على قلوبهم أكنة) اغطية جمع كنان وهو الغطاء (ان يفقهوه وفى آذانهم وقرا) ثقلا عن استماع الحق وجمع بعد الافراد حملا على لفظ من ومعناه (وان تدعهم) يا محمد (الى الهدى) الى الايمان (فلن يهتدوا) فلا يكون منهم اهتداء البتة (اذا) جزاء وجواب فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول بمعنى انهم جعلوا ما يجب ان يكون سبب وجود الاهتداء سببا فى انتفائه وعلى انه جواب للرسول على تقدير قوله مالى لا ادعوهم حرصا على اسلامهم فقيل وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا (أبدا) مدة التكليف كلها (وربك الغفور) البليغ المغفرة

الاولين ان لم يؤمنوا وهو عذاب الاستئصال (أو يأتيهم العذاب قبلا) قال ابن عباس اى عيانا من المقابلة وقيل مقابلة قوله سبحانه وتعالى (ومانرسل المرسلين الا مبشرين) اى بالثواب على الطاعة (ومنذرين) بالعقاب لمن عصى (ويجادل الذين كفروا بالباطل) هو قولهم أبعث الله بشرا رسولا وقولهم للرسل ما أنتم الا بشر مثلنا وشبهه ذلك (ليدحضوا) اى ليبطلوا (به الحق) ويزيلوه (واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا) فيه اضمار يعنى اتخذوا ما أنذروا به وهو القرآن استهزاء * قوله عز وجل (ومن أظلم ممن ذكر) اى وعظ (بآيات ربه فأعرض عنها) اى تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها (ونسى ما قدمت يداه) اى ما عمل من المعاصى من قبل (انا جعلنا على قلوبهم أكنة) اى اغطية (أن يفقهوه) يريد لئلا يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) اى ثقلا وصمما (وان تدعهم) يا محمد (الى الهدى) اى الدين (فلن يهتدوا اذا أبدا) وهذا فى اقوام علم الله منهم انهم لا يؤمنون (وربك الغفور) اى البليغ المغفرة (ذو الرحمة) اى الموصوف بالرحمة (لو يؤاخذهم) اى يعاقب الكفار (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) اى فى الدنيا (بل لهم موعد) يعنى البعث والحساب (لن يجدوا من دونه موئلا) اى ملجأ (وتلك القرى) يعنى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم (أهلكناهم لما ظلموا) اى كفروا (وجعلنا لمهلكهم موعدا) اى اجلا لاهلاكهم قوله سبحانه وتعالى (واذ قال موسى لفتاه) الآيات أكثر العلماء على ان موسى المذكور فى هذه الآية هو موسى بن عمران من سبط لاوى بن يعقوب صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن كعب الاحبار انه موسى بن ميشا من اولاد يوسف بن يعقوب وكان قد تنبأ قبل موسى بن عمران والقول الاول اصح بدليل ان الله سبحانه وتعالى لم يذكر فى كتابه العزيز موسى الا اراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو اراد شخصا آخر لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز بينهما وتزيل الشبهة فلما لم يميزه بصفة علمنا انه موسى بن عمران صاحب التوراة واما فتاه فالاصح انه يوشع ابن نون بن افراثيم بن يوسف وهو صاحب موسى وولى عهده بعد وفاته وقيل انه اخو يوشع وقيل انه فتاه يعنى عبده بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لا يقل احدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى (ق) عن سعيد ابن جبير قال قلت لابن عباس ان نوفل البكالى يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بنى اسرائيل

فقال

(ذو الرحمة) الموصوف بالرحمة (لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) اى ومن رحمته ترك مؤاخذته اهل مكة عاجلا مع فرط عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم (بل لهم موعد) وهو يوم بدر (لن يجدوا من دونه موئلا) منجا ولا ملجأ يقال وأل اذا نجا ووأل اليه اذا لجأ اليه (وتلك) مبتدا (القرى) صفة لان أسماء الاشارة توصف باسماء الاجناس والخبر (اهلكناهم) او تلك القرى نصب باضمار اهلكنا على شريطة التفسير والمعنى وتلك اصحاب القرى اهلكناهم والمراد قوم نوح وعاد وثمود (لما ظلموا) مثل ظلم اهل مكة (وجعلنا لمهلكهم موعدا) وضربنا لاهلاكهم وقتا معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لاهل مكة يوم بدر والمهلك الاهلاك ووقته وبفتح الميم وكسر اللام حفص وبفتحهما ابو بكر اى لوقت هلاكهم او لهلاكهم والموعد وقت او مصدر (واذ) واذكر اذ (قال موسى لفتاه) هو يوشع بن نون وانما قيل فتاه لانه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه العلم

فقال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان موسى عليه السلام قام خطيبا في بني اسرائيل فسئل أي الناس اعلم فقال أنا فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه فاوحى الله سبحانه وتعالى اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لي به قال فخذ معك حوتا فاجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فاخذ حوتا فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى اذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما فاضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت وانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى اذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي امره الله به فقال له فتاه أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن اذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا فقال موسى ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا قال رجعا فقصا آثارهما حتى انتهيا الى الصخرة فاذا رجل مسجى بثوب ابيض فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بارضك السلام فقال أنا موسى قال موسى بني اسرائيل قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا يا موسى اني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه وانت على علم من علم الله علمكه الله لا اعلمه فقال موسى ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك امرا فقال له الخضر فان اتبعتني فلا تسألني عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما ركبا السفينة لم يفجأ موسى الا والخضر قد قلع لوحا من الواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيأ امرا قال ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من امري عسرا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الاولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما نقص علمي وعلمك من علم الله الا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل اذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فاخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيأ نكرا قال ألم اقل لك انك لن تستطيع معي صبرا قال وهذه أشد من الاولى قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فانطلقا حتى اذا أتيا اهل قرية استطعما اهلها فأبوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض اي مائلا فقال الخضر بيده هكذا فاقامه فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله موسى لوددت انه صبر حتى يقص علينا من اخبارهما قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان ابواه مؤمنين وفي رواية عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قام موسى عليه السلام ذكر الناس يوما حتى اذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فادركه رجل فقال أي رسول الله هل في الارض احد أعلم منك قال لا فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم الى الله تعالى فقال بلى قال اي رب وأين هو قال بمجمع البحرين قال خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح وفي رواية تزود حوتا مالحا فانه حيث يفقد الحوت زاد في رواية وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شئ الا حي فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ورجعنا الى التفسير قوله سبحانه وتعالى (لا أبرح) اي لا أزال اسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) قيل أراد بحر فارس والروم مما يلي المشرق

(لا أبرح) لا أزال وقد حذف الخبر لدلالة الحال والكلام عليه اما الاولى فلانها كانت حال سفر وأما الثاني فلان قوله (حتى ابلغ مجمع البحرين) غاية مضروبة تستدعي ماهي غاية له فلابد ان يكون المعنى لا أبرح أسير حتى ابلغ مجمع البحرين وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحر فارس والروم وسمي خضرا لانه أينما يصلى يخضر ماحوله

(او أمضى حقبا) اواسير زمانا طويلا قيل ثمانون سنة روى انه لما ظهر موسى عليه السلام على مصر مع بنى اسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط سأل ربه اى عبادك احب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأى عبادك اقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فاى عبادك اعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى يصيب كلمة تدله على هدى او ترده عن ردى فقال ان كان فى عبادك من هو اعلم منى فدلنى عليه قال اعلم منك الخضر قال اين اطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل حيث فقدته فهو هناك فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرنى فذهبا يمشيان فرقد موسى فاضطرب الحوت ووقع فى البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فاخبره ٢٢٤ فتاه بوقوعه فى البحر فأتيا الصخرة فاذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى فقال وانى بأرضنا السلام فعرفه نفسه فقال يا موسى انا على علم علمنيه الله لا تعلمه انت وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه انا (فلما بلغا مجمع بينهما) مجمع البحرين (نسيا حوتهما) اى نسى احدهما وهو يوشع لانه كان صاحب الزاد ليله فانى نسيت الحوت وهو كقولهم نسوا زادهم وانما ينساه متعهد الزاد قيل كان الحوت سمكة مملوحة فنزلا ليلة على شاطئ عين الحياة ونام موسى فلما اصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت ووقعت فى الماء (فاتخذ سبيله فى البحر) اى اتخذ طريقا له من البر الى البحر (سربا) نصب على المصدر اى سرب فيه سربا يعنى دخل فيه واستتر به (فلما جاوزا) مجمع البحرين ثم نزلا وقد سارا ماشاء الله (قال) موسى (لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) تعبا ولم يتعب ولا جاع قبل ذلك (قال ارأيت اذ اوينا الى الصخرة) هى موضع الموعد (فانى نسيت الحوت) ثم اعتذر فقال (وما انسانيه) وبضم الهاء حفص (الا الشيطان) بالقاء الخواطر فى القلب (ان أذكره) بدل من الهاء فى انسانيه اى وما أنسانى ذكره الا الشيطان (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) وهو ان اسره بقى الى حيث سار (قال ذلك ما كنا نبغ) نطلب وبالياء مكى وافقه ابو عمرو وعلى ومدنى فى الوصل وبغير ياء فيهما غيرهما اتباعا لخط المصحف وذلك اشارة الى اتخاذه سبيلا اى ذلك الذى كنا نطلب لان ذهاب الحوت كان علما على لقاء الخضر عليه السلام (فارتدا على آثارهما) فرجعا فى الطريق الذى جاءا فيه (قصصا) يقصان قصصا اى يتبعان آثارهما اتباعا قال الزجاج القصص اتباع الاثر (فوجدا عبدا من عبادنا) اى الخضر راقدا تحت ثوب اوجالسا فى البحر

وقيل طنجة وقيل افريقية (او أمضى حقبا) يعنى او اسير دهرا طويلا والحقب ثمانون سنة فحمل خبزا وسمكة مالحة فى المكتل وهو الزنبيل الذى يسع خمسة عشر صاعا ومضيا حتى انتهيا الى الصخرة التى عند مجمع البحرين وعندها عين تسمى عين الحياة لا تصيب شيأ الا حيى فلما اصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت فى المكتل وهاجت ودخلت فى البحر (فلما بلغا) يعنى موسى وفتاه (مجمع بينهما) اى بين البحرين (نسيا) اى تركا (حوتهما) وانما كان الحوت مع يوشع بن نون وهو الذى نسيه وانما أضاف النسيان اليهما لانهما تزوداه لسفرهما وقيل المراد من قوله نسيا حوتهما اى نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول للمطلوب (فاتخذ) اى الحوت (سبيله فى البحر سربا) أى مسلكا وروى ابى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم يلتئم فدخل موسى الكوة على اثر الحوت فاذا هو بالخضر قال ابن عباس جعل الحوت لا يمس شيأ من البحر الا يبس حتى صار صخرة وقد روينا انهما لما انتهيا الى الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت فخرج فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا فامسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى نسى صاحبه ان يخبره فانطلقا حتى اذا كانا من الغد وهو قوله سبحانه وتعالى (فلما جاوزا) يعنى ذلك الموضع وهو مجمع البحرين (قال) يعنى موسى (لفتاه آتنا غداءنا) اى طعامنا (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) اى تعبا وشدة وذلك انه القى على موسى الجوع بعد ما جاوز الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع فى طلبه (قال) يعنى يوشع (ارأيت اذ أوينا الى الصخرة) وهى صخرة كانت بالموضع الموعود (فانى نسيت الحوت) اى تركته وفقدته وذلك ان يوشع حين رأى من الحوت ذلك قام ليدرك موسى فيخبره فنسى ان يخبره فمكثا يومهما حتى صليا الظهر من الغد ثم قال (وما انسانيه الا الشيطان ان أذكره) اى وما انسانى ان أذكر لك امر الحوت الا الشيطان قيل المراد من النسيان شغل قلب الانسان بوساوس الشيطان التى هى من فعله دون النسيان الذى يضاد الذكر لان ذلك لا يصح الا من قبل الله تعالى (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) قيل هذا من قول يوشع بن نون يعنى وقع الحوت فى البحر فاتخذ سبيله فيه مسلكا وروى فى الخبر كان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا وقيل اى شىء أعجب من حوت يؤكل منه دهرا ثم صار حيا بعد ما أكل بعضه قوله عز وجل (قال) يعنى موسى (ذلك ما كنا نبغ) نطلب (فارتدا على آثارهما قصصا) اى رجعا يقصان الذى جاءا منه ويتبعانه (فوجدا عبدا من عبادنا) قيل كان ملكا من الملائكة والصحيح الذى ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء فى التواريخ انه الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس قيل كان من بنى

(آتيناه رحمة من عندنا) هي الوحي والنبوة او العلم او طول الحياة (وعلمناه من لدنا علما) يعني الاخبار بالغيوب وقيل العلم اللدني ما حصل للعبد بطريق الالهام (قال له موسى هل أتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا) اى علما ذا رشد أرشد به في ديني رشدا ابو عمرو وهما لغتان كالبخل والبخل وفيه دليل على انه لا ينبغي لاحد ان يترك طلب العلم وان كان قد بلغ نهايته وان يتواضع لمن هو اعلم منه (قال انك لن تستطيع معي) و بفتح الياء حفص وكذا ما بعده في هذه السورة (صبرا) اى عن الانكار والسؤال (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) تميز ففي استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد وعلل ذلك بانه يتولى أمورا

هي في ظاهرها منا كير والرجل الصالح لا يتمالك ان لا يخرج اذا راى ذلك فكيف اذا كان نبيا (قال ستجدني ان شاء الله صابرا) من الصابرين على الانكار والاعتراض (ولا اعصي لك امرا) في محل النصب عطف على صابرا اى ستجدني صابرا وغير عاص او هو عطف على ستجدني ولا محل له (قال فان اتبعتني فلا تسألني) بفتح اللام وتشديد النون مدني وشامي وبسكون اللام وتخفيف النون غيرهما والياء ثابتة فيهما جماعا (عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا) اى فمن شرط اتباعك لي انك اذا رأيت مني شيأ وقد علمت انه صحيح الا انه خفي عليك وجه صحته فانكرت في نفسك ان لا تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه حتى أكون انا الفاتح عليك وهذا من ادب المتعلم مع العالم أو المتبوع

اسرائيل وقيل كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا وترکوا الدنيا والخضر لقب له سمي به لانه جلس على فروة بيضاء فاخضرت (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما سمي خضرا لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هي تهتز تحته خضراء الفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمي خضرا لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله وروينا ان موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر وانى بأرضك السلام قال أنا موسى اتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ومعنى مسجى بثوب اى مغطى بثوب وقوله وانى بأرضك السلام معناه من أين بأرضك التي انت فيها الآن السلام وروى انه لقيه على طنفسة خضراء على جانب البحر فذلك قوله سبحانه وتعالى فوجدا عبدا من عبادنا (آتيناه رحمة) اى نعمة (من عندنا وعلمناه من لدنا علما) اى علم الباطن الهاما ولم يكن الخضر نبيا عند أكثر اهل العلم فان قلت ظاهر هذه الآيات يدل على ان الخضر كان اعلى شأنا من موسى وكان موسى يظهر التواضع له والتأدب معه قلت لا يخلو اما أن يكون الخضر من بني اسرائيل او من غيرهم فان كان من بني اسرائيل فهو من أمة موسى ولا جائز ان يكون احد الامة أفضل من نبيها او أعلى شأنا منه وان كان من غير بني اسرائيل فقد قال الله تعالى لبني اسرائيل واني فضلتكم على العالمين اى على عالمي زمانكم (قال له موسى هل أتبعك) معناه جئت لاصحبك واتبعك (على أن تعلمني مما علمت رشدا) اى صوابا وقيل علما ترشدني به وفي بعض الاخبار قال الخضر لموسى كفى بالتوراة علما وبني اسرائيل شغلا فقال له موسى ان الله أمرني بهذا فحينئذ (قال) الخضر لموسى (انك لن تستطيع معي صبرا) وانما قال ذلك لانه علم انه يرى أمورا منكرة ولا يجوز للانبياء الصبر مع المنكرات ثم بين عذره في ترك الصبر فقال (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) اى علما (قال) موسى (ستجدني ان شاء الله صابرا) انما استثنى لانه لم يثق من نفسه بالصبر (ولا اعصي لك أمرا) اى لا أخالفك فيما تأمرني به (قال فان اتبعتني) اى فان صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار اليه ثم شرط عليه شرطا فقال (فلا تسألني عن شيء) اى مما اعمله مما تنكره ولا تعترض عليه (حتى أحدث لك منه ذكرا) معناه حتى ابتدئ بذكره فأبين لك شأنه قوله سبحانه وتعالى (فانطلقا) اى يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها فوجدا سفينة فركباها فقال اهل السفينة هؤلاء لصوص واروهما بالخروج فقال صاحب السفينة ماهم بلصوص ولكن ارى وجوه الانبياء وروينا عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم مرت بهم سفينة فكلموهم ان يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول اى بغير عوض ولا عطاء فلما لجوا في البحر اخذ الخضر فاسا فخرق لوحا من ألواح السفينة فذلك قوله تعالى (حتى اذا ركبا في السفينة خرقها قال) يعني موسى له (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيأ امرا) اى أتيت شيأ عظيما منكرا روى ان الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروى ان موسى لما رأى ذلك اخذ ثوبه فحشا به الخرق (قال) العالم وهو الخضر (ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا قال) يعني

مع التابع (فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها) فانطلقا على ساحل البحر يطلبان سفينة فلما ركباها قال اهلها هما من اللصوص وقال صاحب السفينة اري وجوه الانبياء فحملوهما بغير نول فلما لجوا اخذ الخضر فاسا فخرق السفينة بان قلع لوحين من الواحها مما يلي الماء فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ثم (قال اخرقتها لتغرق اهلها) ليغرق من فيها او على من غرق (لقد جئت شيأ امرا) اتيت شيأ عظيما من امر الامر اذا عظمت (قال) اى الخضر (ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا) فلما رأى موسى ان الخرق لا يدخله الماء ولم يفر من السفينة (قال

لا تؤاخذني بما نسيت) بالذي نسيته او بشيء نسيته او بنسياني أراد انه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي اوارادبالنسيان الترك اى لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك اول مرة (ولا ترهقني من أمري عسرا) رهقه اذا غشيه وأرهقه اياه اى ولا تغشني عسرا من أمري وهو اتباعه اياه اى ولا تعسر علي متابعتك و يسرها علي بالاغضاء وترك المناقشة (فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله) قيل ضرب برأسه الحائط وقيل أضجعه ثم ذبحه بالسكين وانما

٢٢٦

قال فقتله بالفاء وقال خرقها بغير فاء لان خرقها جعل جزاء للشرط وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه والجزاء (قال اقتلت نفسا) وانما خولف بينهما لان خرق السفينة لم يتعقب الركوب وقد تعقب القتل لقاء الغلام (زكية) زاكية حجازي وابو عمرو وهي الطاهرة من الذنوب اما لانها طاهرة عنده لانه لم يرها قد أذنبت اولانها صغيرة لم تبلغ الحنث (بغير نفس) اى لم تقتل نفسا فيقتص منها وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان نجدة الحروري كتب اليه كيف جاز قتله وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب اليه ان علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك ان تقتل (لقد جئت شيأ نكرا) وبضم الكاف حيث كان مدني وابو بكر وهو المنكر وقيل المنكر أقل من الامر لان قتل نفس واحدة أهون من اغراق اهل السفينة او معناه جئت شيأ انكر من الاول لان ذاك كان خرقا يمكن تداركه بالسد وهذا سبيل الى تداركه (قال) يعني الخضر (الم اقل لك انك لن تستطيع معي صبرا) قيل زاد في هذه الآية قوله لك لانه نقض العهد مرتين وقيل ان هذه اللفظة تو كيد للتو بيخ فعند هذا (قال) موسى (ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) قيل ان يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذ كر العهد الذي أنت عليه قال موسى ان سألتك عن شيء بعد هذه المرة فلا تصاحبني اى فارقني ولا تصاحبني (قد بلغت من لدني عذرا) قال ابن عباس اى قد اعذرت فيما بيني و بينك وقيل معناه اتضح لك العذر في مفارقتي والمعنى انه مدحه بهذه الطريقة من حيث انه احتمله مرتين اولا وثانيا مع قرب المدة (ق) عن ابي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى وكان اذا ذكر أحدا من الانبياء بدأ بنفسه لولا انه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة فقال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فلو صبر لرأى العجب (قوله ذمامة) هو بذال معجمة اى حياء واشفاق من الذم واللوم يقال ذممته ذمامة يعني لمته ملامة و يشهد له قول الخضر هذا فراق بيني و بينك قوله سبحانه وتعالى (فانطلقا حتى اذا اتيا أهل قرية) قال ابن عباس يعني انطاكية وقيل الابلة وهي ابعد الارض من السماء وقيل هي بلدة بالاندلس (استطعما أهلها فابوا ان يضيفوهما) قال ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم اتيا أهل قرية لئاما

موسى (لا تؤاخذني بما نسيت) قال ابن عباس لم ينس ولكنه من معاريض الكلام فكأنه نسي شيأ آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك وقال ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم كانت الاولى من موسى نسيانا والثانية شرطا والثالثة عمدا (ولا ترهقني) اى لا تغشني (من امري عسرا) والمعنى لا تعسر علي متابعتك و يسرها بالاغضاء وترك المناقشة وقيل لا تكلفني مشقة ولا تضيق علي امري (فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله) في القصة انهما خرجا من البحر يمشيان فرا بغلمان يلعبون فأخذ الخضر غلاما ظريفا وضيء الوجه كأن وجهه يتوقد حسنا فاضجعه ثم ذبحه بالسكين وروينا انه اخذ برأسه فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر وفيه واشار بأصابعه الثلاث الابهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه وروى انه رضخ رأسه بحجر وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله قال ابن عباس كان غلاما لم يبلغ الحنث ولم يكن نبي الله موسى يقول اقتلت نفسا زاكية الا وهو صبي لم يبلغ الحنث وقيل كان رجلا وقيل كان اسمه حيسور وقيل كان فتى يقطع الطريق و يأخذ المتاع و يلجأ الى ابويه وقيل كان غلاما يعمل بالفساد و يتأذى منه ابواه (ق) عن ابي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لارهق ابويه طغيانا و كفرا لفظ مسلم (قال) يعني موسى (اقتلت نفسا زاكية) اى لم تذنب قط وقرئ زكية وهي التي اذنبت ثم تابت (بغير نفس) اى لم تقتل نفسا حتى يجب عليها القتل (لقد جئت شيأ نكرا) اى منكرا عظيما وقيل النكر أعظم من الامر لانه حقيقة الهلاك وفي خرق السفينة خوف الهلاك وقيل الامر أعظم لان فيه تغريق جمع كثير وقيل معناه لقد جئت شيأ انكر من الاول لان ذاك كان خرقا يمكن تداركه بالسد وهذا سبيل الى تداركه (قال) يعني الخضر (الم اقل لك انك لن تستطيع معي صبرا) قيل زاد في هذه الآية قوله لك لانه نقض العهد مرتين وقيل ان هذه اللفظة تو كيد للتو بيخ فعند هذا (قال) موسى (ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) قيل ان يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذ كر العهد الذي أنت عليه قال موسى ان سألتك عن شيء بعد هذه المرة فلا تصاحبني اى فارقني ولا تصاحبني (قد بلغت من لدني عذرا) قال ابن عباس اى قد اعذرت فيما بيني و بينك وقيل معناه اتضح لك العذر في مفارقتي والمعنى انه مدحه بهذه الطريقة من حيث انه احتمله مرتين اولا وثانيا مع قرب المدة (ق) عن ابي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى وكان اذا ذكر أحدا من الانبياء بدأ بنفسه لولا انه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة فقال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فلو صبر لرأى العجب (قوله ذمامة) هو بذال معجمة اى حياء واشفاق من الذم واللوم يقال ذممته ذمامة يعني لمته ملامة و يشهد له قول الخضر هذا فراق بيني و بينك قوله سبحانه وتعالى (فانطلقا حتى اذا اتيا أهل قرية) قال ابن عباس يعني انطاكية وقيل الابلة وهي ابعد الارض من السماء وقيل هي بلدة بالاندلس (استطعما أهلها فابوا ان يضيفوهما) قال ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم اتيا أهل قرية لئاما

فطافا

(فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض) اى يسقط وقيل يميل وقيل انقض انهدم وسقط (فاقامه) قال ابن عباس مسحه بيده فاستقام وقال سعيد بن جبير رفعه الى السماء فاستقام وقال مجاهد هدمه وبناه وقال السدي قعد تحته فرفعه على ظهره فاستقام (قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا) قال ابن عباس لو شئت لاخذت عليه اجرا تأكله وتطعمنا وقيل لو شئت لاتخذت عليه اجرا تعيش به (قال هذا فراق بيني و بينك) اى هذا وقت فراق بيني و بينك (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) اى سأخبرك بتفسير ما لم تطق عليه صبرا (اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) قال ابن عباس كانوا عشرة مساكين خمسة زمنى واثنين مقعدين وثلاثة مكفوفين (فاردت ان اعيبها) قال ابن عباس اردت ان اجعل فيها عيبا لكي لا يأخذها الملك (وكان وراءهم ملك) قال ابن عباس اسمه جلندى وقيل هدد وقيل الحجاج بن عبد الملك وقيل هو الضحاك (يأخذ كل سفينة غصبا) قال ابن عباس كان كل سفينة جيدة غصبا وقيل كان يأخذ كل سفينة صالحة (واما الغلام فكان ابواه مؤمنين) قال ابن عباس طبع يوم طبع كافرا (فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا) قال ابن عباس خشينا ان يحملهما حبه على ان يتابعاه على دينه وقيل خشينا ان يغشاهما طغيانا وكفرا بما يتعاطاه من الفساد (فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما) قال ابن عباس ابدلهما الله جارية فولدت سبعين نبيا وقيل اثنى عشر نبيا وقيل ولدت نبيا واحدا اسمه شعيا وقيل ارميا (واما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة) قال ابن عباس كانا من اهل قرية انطاكية (وكان تحته كنز لهما) قال ابن عباس كان تحته لوح من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح ولمن يوقن بالقدر كيف يحزن ولمن يوقن بالحساب كيف يغفل ولمن يوقن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لا اله الا الله محمد رسول الله (وكان ابوهما صالحا) قال ابن عباس كان بينهما وبين ابيهما سبعة آباء وقيل كان بينهما وبين ابيهما سبعة ابطن وقيل كان بينهما وبين ابيهما سبعة قرون وقيل كان بينهما وبين ابيهما سبعون ابا وقيل كان بينهما وبين ابيهما ثلاثة آباء وقيل كان بينهما وبين ابيهما ثلاثة قرون وقيل كان بينهما وبين ابيهما ثلاثة ابطن

(فوجدا فيها) فى القرية (جدارا) طوله مائة ذراع (يريدان ينقض) يكاد يسقط استعيرت الارادة للدانوة والمشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك (فاقامه) بيده او مسحه بيده فقام واستوى او نقضه وبناه كانت الحال حال اضطرار وافتقار الى المطعم وقد لزتهما الحاجة الى آخر كسب المرء وهو المسئلة فلم يجدا مواسيا فلما اقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة ان (قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا) اى لطلبت على عملك جعلا حتى تستدفع به الضرورة لتخذت بتخفيف التاء وكسر الخاء وادغام الدال بصرى وباظهارها مكى وبتشديد التاء وفتح الخاء واظهار الذال حفص وبتشديد التاء وفتح الخاء وادغام الذال فى التاء غيرهم والتاء فى تخذا صل كما فى تبع واتخذا فتعل منه كاتبع من تبع وليس من الاخذ فى شئ (قال هذا فراق ٢٢٧ بينى وبينك) هذا اشارة الى السؤال الثالث اى هذا الاعتراض سبب الفراق والاصل هذا فراق بينى وبينك وقد قرئ به فاضيف المصدر الى الظرف كما يضاف الى المفعول به (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر) قيل كانت لعشرة اخوة خمسة منهم زمنى وخمسة يعملون فى البحر (فاردت ان اعيبها) اجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) امامهم اوخلفهم وكان طريقهم فى رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره فاعلم الله به الخضر وهو جلندى (يأخذ كل سفينة غصبا) اى يأخذ كل سفينة صالحة لاعيب فيها غصبا وان كانت معيبة تركها وهو مصدر واقع مفعول له

فطافا فى المجالس فاستطعما أهلها فابوا ان يضيفوهما وروى انهما طافا فى القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم فلم يضيفوهما وعن ابى هريرة قال أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد ان طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعا لنسائهم ولعن رجالهم وعن قتادة قال شر القرى التى لا تضيف الضيف (فوجدا فيها جدارا يريدان ينقض) اى يسقط وهذا من مجاز الكلام لان الجدار لا ارادة له وانما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول دارى تنظر الى دار فلان اذا كانت تقابلها فاستعير لها النظر كما استعير للجدار الارادة (فاقامه) اى سواه وفى حديث ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده هكذا فاقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه (قال) يعنى موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) يعنى على اصلاح الجدار جعلا والمعنى انك قد علمت انا جياع وان أهل القرية لم يطعمونا فلو اتخذت على عملك أجرا (قال) يعنى الخضر (هذا فراق بينى وبينك) يعنى هذا وقت فراق بينى وبينك وقيل هذا الانكار على ترك أخذ الاجر هو المفرق بيننا (سأنبئك) اى سوف أخبرك (بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) وقيل ان موسى أخذ بثوب الخضر وقال أخبرنى بمعنى ما عملت قبل ان تفارقنى فقال الخضر (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر) قيل كانت لعشرة اخوة خمسة زمنى وخمسة يعملون فى البحر اى يؤجرونها ويكتسبون بها وفيه دليل على ان المسكين وان كان يملك شيأ لا يزول عنه اسم المسكنة اذ الم يقم ما يملكه بكفايته وان حال الفقير فى الضر والحاجة أشد من حال المسكين لان الله سبحانه وتعالى سماهم مساكين مع انهم كانوا يملكون تلك السفينة (فاردت ان أعيبها) اى اجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) اى امامهم وقيل خلفهم وكان رجوعهم فى طريقهم عليه والاول أصح (يأخذ كل سفينة غصبا) اى كل سفينة صالحة فخرقتها وعبتها حتى لا يأخذها الملك الغاصب وكان اسمه الجلندى الازدى وكان كافرا وقيل كان اسمه هدد بن بدد وروى ان الخضر اعتذر الى القوم وذكر لهم شأن الملك الغاصب ولم يكونوا يعلمون بخبره وقال أردت اذا هى مر به ان يدعها لعيبها فاذا جاوز وا أصلحوها وانتفعوا بها * قوله عز وجل (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا) اى خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه وقيل معناه فعلمنا (ان يرهقهما) اى يغشيهما وقيل يكلفهما (طغيانا وكفرا) قيل معناه فخشينا ان يحملهما حبه على ان يتبعاه على دينه (فاردنا ان يبدلهما ربهما) الابدال رفع الشئ ووضع آخر مكانه (خيرا منه زكوة) اى صلاحا وتقوى وقيل هو فى مقابلة قوله تعالى اقتلت نفسا زاكية فقال الخضر أردنا ان يرزقهما الله خيرا منه زكاة (وأقرب رحما) اى ويكون المبدل منه أقرب

فان قلت قوله فاردت ان اعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه ان يتأخر عن السبب قلت المراد به التأخير وانما قدم للعناية (وأما الغلام) وكان اسمه الحسين (فكان أبواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا) فخفنا ان يغشى الوالدين المؤمنين طغيانا عليهما وكفر النعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرا وبلاء ويعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وهو من كلام الخضر وانما خشى الخضر منه ذلك لانه تعالى أعلمه بحاله واطلعه على سرائره وان كان من قول الله تعالى فمعنى فخشينا فعلمنا ان عاش ان يصير سببا لكفر والديه (فاردنا ان يبدلهما ربهما) يبدلهما ربهما مدنى وابو عمرو (خيرا منه زكوة) طهارة ونقاء من الذنوب (واقرب رحما) رحمة وعطفا وزكاة ورحما تميز روى انه ولدت لهما جارية تزوجها نبى فولدت نبيا او سبعين نبيا وابدلهما ابنا مؤمنا مثلهما رحما شامى وهما الغتان

(واما الجدار فكان لغلامين) اصرم وصريم (يتيمين في المدينة) هي القرية المذكورة (وكان تحته كنز لهما) اى لوح من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله او مال مدفون من ذهب وفضة او صحف فيها علم والاول اظهر وعن قتادة احل الكنزان قبلنا وحرم علينا وحرمت الغنيمة عليهم واحلت لنا (وكان ابوهما صالحا) ممن يحبني وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما انه قال ابعض الخوارج في كلام جرى بينهما يم حفظ الله الغلامين قال بصلاح ابيهما فابى وجدى خير منه (فاراد ربك ان يبلغا اشدهما) اى الحلم (ويستخرجا كنزهما رحمة) مفعول له او مصدر منصوب باراد ربك لانه في معنى رحمهما (من ربك وما فعلته) وما فعلت ما رأيت (عن امري) عن اجتهادي وانما فعلته بامر الله والهاء يعود الى الكل اوالى الجدار (ذلك) اى الاجوبة الثلاثة (تأويل مالم تسطع عليه صبرا) حذف التاء تخفيفا وقد زل اقدام اقوام من الضلال في تفضيل الولي على النبي وهو كفر جلي حيث قالوا امر موسى بالتعلم من الخضر وهو ولي والجواب ان الخضر نبي وان لم يكن كما زعم البعض فهذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام على ان اهل الكتاب يقولون ان موسى هذا ليس موسى بن عمران انما هو موسى بن ماثان ومن المحال ان يكون الولي وليا بايمانه بالنبي ثم يكون النبي دون الولي ولا غضاضة في طلب موسى العلم لان الزيادة في العلم مطلوبة وانما ذكر اولا فاردت لانه افساد في الظاهر وهو فعله وثالثا فاراد ربك لانه انعام محض وغير مقدور البشر وثانيا فاردنا لانه افساد من حيث الفعل انعام من حيث التبديل وقال الزجاج معنى فاردنا فاراد الله عز وجل ومثله في القرآن كثير

عطفا ورحمة بابويه بان يبرهما ويشفق عليهما قيل ابدلهما جارية فتزوجها نبي من الانبياء فولدت له نبيا فهدى الله على يديه أمة من الامم وقيل ولدت سبعين نبيا وقيل أبدلهما بغلام مسلم وقيل ان الغلام الذي قتل فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي لكان فيه هلاكهما فليرض العبد بقضاء الله تعالى فان قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب قوله سبحانه وتعالى (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة) قيل كان اسمهما اصرم وصريم (وكان تحته كنز لهما) روى ابو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان الكنز ذهبا وفضة أخرجه الترمذي وقيل كان الكنز صحفا فيها علم وقال ابن عباس كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجبا لمن يوقن بالحساب كيف يغفل عجبا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر مكتوب انا الله لا اله الا انا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه والويل كل الويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه وقيل الكنز اذا أطلق يراد به المال ومع التقييد يراد به غيره يقال عند فلان كنز علم وكان هذا اللوح جامعا لهما (وكان ابوهما صالحا) قيل كان اسمه كاشح وكان من الاتقياء قال ابن عباس حفظا بصلاح أبيهما وقيل كان بينهما وبين الاب الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر ان الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم وقال سعيد بن المسيب اني لاصلي فاذكر ولدي فازيد في صلاتي (فاراد ربك ان يبلغا أشدهما) اى يدركا ويعقلا قوتهما وهو البلوغ وقيل ثمان عشرة سنة فان قلت كيف قال في الاولى فاردت وفي الثانية فاردنا وفي الثالثة فاراد ربك وما وجه كل واحدة من هذه الالفاظ قلت انه لما ذكر العيب اضافه الى نفسه على سبيل الادب مع الله تعالى فقال فاردت أن اعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على انه من العلماء العظماء في علم الباطن وعلوم الحكمة وانه لم يقدم على مثل هذا القتل الا بحكمة عالية ولما ذكر رعاية المصالح في مال اليتيمين لاجل صلاح ابيهما اضافه الى الله سبحانه وتعالى لان حفظ الابناء وصلاح احوالهم لرعاية حق الآباء ليس الا لله سبحانه وتعالى فلاجل ذلك اضافه الى الله تعالى (ويستخرجا كنزهما) يعني اذا بلغا وعقلا وقويا (رحمة من ربك) اى نعمة من ربك (وما فعلته عن أمري) اى باختياري ورأيي بل فعلته بامر الله والهامه اياي لان تنقيص اموال الناس واراقة دمائهم وتغيير احوالهم لا يكون الا بالنص وامر الله تعالى واستدل بعضهم بقوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن امري على ان الخضر كان نبيا لان هذا يدل على الوحي وذلك للانبياء والصحيح انه ولي لله وليس بنبي وأجيب عن قوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن امري انه الهام من الله سبحانه وتعالى له بذلك وهذه درجة الاولياء وقيل معناه انما فعلت هذه الافعال لغرض أن تظهر رحمة الله لانها باسرها ترجع الى معنى واحد وهو تحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الاعلى (ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) اى لم تطق ان تصبر عليه روى ان موسى عليه السلام

لما اراد أن يفارق الخضر قال أوصنى قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلب العلم لتعمل به واختلف العلماء فى ان الخضر أحى أم ميت فقيل انه حى وهو قول الاكثرين من العلماء وهو متفق عليه عند مشايخ الصوفية واهل الصلاح والمعرفة والحكايات فى رؤيته والاجتماع به ووجوده فى المواضع الشريفة ومواطن الخير اكثر من أن تحصر قال الشيخ ابو عمرو بن الصلاح فى فتاواه وهو حى عند جماهير العلماء والصالحين والعامة هذا آخر كلامه وقيل ان الخضر والياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم وكان السبب فى حياة الخضر فيما حكى انه شرب من عين الحياة وذلك ان ذا القرنين دخل الظلمة لطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فاغتسل وشرب منها وصلى شكرا لله تعالى واخطأ ذو القرنين الطريق فرجع وذهب آخرون الى انه ميت لقوله سبحانه وتعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء ليلة أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض احد ولو كان الخضر حيا لكان لا يعيش بعده وقوله عز وجل (ويسئلونك عن ذى القرنين) قيل اسمه مرزبان بن مرزبة اليونانى من ولد يونان بن يافث بن نوح وقيل اسمه الاسكندر بن فيلقوس كذا صح الرومى وكان ولد عجوز ليس لها ولد غيره ونقل الامام فخر الدين فى تفسيره عن ابى الريحان السروى المنجم فى كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية انه من حمير واسمه ابو كرب سمى بن عير بن بن افريقيس الحميرى وهو الذى افتخر به احد شعراء حمير حيث يقول

قد كان ذو القرنين جدى مسلما * ملكا علا فى الارض غير مقند
بلغ المشارق والمغارب يبتغى * اسباب ملك من كريم مرشد
فرأى مآب الشمس عند غروبها * فى عين ذى خلب وثأطة حرمد

قوله فرأى مآب الشمس اى ذهاب الشمس وقوله فى عين ذى خلب اى حمأة والثأطة الحمأة ايضا والجمع ثاط والحرمد الطين الاسود وقيل سمى ذا القرنين لانه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لانه ملك فارس والروم وقيل لانه دخل النور والظلمة وقيل لانه رأى فى المنام كأنه اخذ بقرنى الشمس وقيل لانه كان له ذؤابتان حسنتان وقيل كان له قرنان توارياهما العمامة وروى عن على انه أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه الايمن فمات فاحياه الله ثم بعثه فامرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الايسر فمات فاحياه الله واختلفوا فى نبوته فقيل كان نبيا ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى قلنا يا ذا القرنين وخطاب الله لا يكون الا مع الانبياء وقيل لم يكن نبيا قال ابو الطفيل سئل على عن ذى القرنين أكان نبيا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا احب الله فاحبه الله وناصح الله فناصحه الله وروى ان عمر سمع رجلا يقول لآخر يا ذا القرنين فقال تسميتم باسماء الانبياء فلم ترضوا حتى تسميتم باسماء الملائكة والاصح الذى عليه الاكثرون انه كان ملكا صالحا عادلا وانه بلغ اقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب وهذا هو القدر المعمور من الارض وذلك انه لما مات ابوه جمع ملك الروم بعد ان دان له طوائف ثم مضى الى ملوك العرب وقهرهم ومضى حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم رجع الى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بيت المقدس وقرب فيه القربان ثم انعطف الى ارمينية وبوب الابواب وبنى السدود انتهت له ملوك العراق والنبط والبربر واستولى على ممالك الفرس ثم مضى الى الهند والصين وغزا الامم البعيدة ثم رجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات بها وحمل الى حيث هو مدفون وقيل ان عمره كان الفا وثلاثين سنة ومثل هذا الملك البسيط الذى هو على خلاف العادات وجب ان يبقى ذكره مخلدا على وجه الارض فذلك قوله سبحانه وتعالى ويسئلونك عن ذى القرنين (قل سأتلوا عليكم منه ذكرا) اى خبرا يتضمن حاله قوله سبحانه وتعالى (انا مكنا له فى الارض) اى وطأنا له والتمكين تمهيد

قيل ملكها مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمرود وبختنصر وكان بعد نمرود وقيل كان عبدا صالحا ملكه الله الارض واعطاه العلم والحكمة وسخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من امامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل نبيا وقيل ملكا من الملائكة وعن على رضى الله عنه انه قال ليس بملك ولا نبى ولكن كان عبدا صالحا ضرب على قرنه الايمن فى طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الايسر فمات فبعثه الله فسمى ذا القرنين وفيكم مثله اراد نفسه قيل كان يدعوهم الى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله تعالى وقال عليه السلام سمى ذا القرنين لانه طاف قرنى الدنيا يعنى جانبيها شرقها وغربها وقيل كان له قرنان اى ضفيرتان اوانقرض فى وقته قرنان من الناس اولانه ملك الروم وفارس اوالترك والروم او كان لتاجه قرنان اوعلى رأسه ما يشبه القرنين او كان كريم الطرفين اباواما وكان من الروم (قل سأتلوا عليكم منه) من ذى القرنين جعلنا له فيها مكانة واعتلاء

(ذكرا انا مكنا له فى الارض)

(وآتيناه من كل شئ) اراده من اغراضه ومقاصده فى ملكه (سببا) طريقا موصلا اليه (فاتبع سببا) والسبب ما يتوصل به الى المقصود من علم او قدرة فاراد بلوغ المغرب فاتبع سببا يوصله اليه حتى بلغ وكذلك اراد المشرق فاتبع سببا واراد بلوغ السدين فاتبع سببا فاتبع ثم اتبع كوفى وشامى الباقون بوصل الالف وتشديد التاء عن الاصمعى اتبع لحق واتبع اقتفى وان لم يلحق (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) اى منتهى العمارة نحو المغرب وكذا المطلع قال صلى الله عليه وسلم بدء امره انه وجد فى الكتب ان احدا ولا دسام يشرب من عين الحياة فيخلد فجعل يسير فى طلبها والخضر وزيره وابن خالته فظفر فشرب ولم يظفر ذو القرنين (وجدها تغرب فى عين حمئة) ذات حمأة من حمئت البئر اذا صارت فيها الحمأة حامية شامى وكوفى غير حفص بمعنى حارة وعن ابى ذر كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فراى الشمس حين غابت فقال أتدرى ٢٣٠ يا اباذر اين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تغرب فى عين حمئة وكان ابن عباس رضى الله عنهما عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأها فقال كما يقرأ امير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين كذلك نجده فى التوراة فوافق قول ابن عباس رضى الله عنهما ولا تنافى فجاز ان تكون العين جامعة للوصفين جميعا (ووجد عندها) عند تلك العين (قوما) عراة من الثياب لباسهم جلود الصيد وطعامهم ما لفظ البحر وكانوا كفارا (قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا) ان كان نبيا فقد أوحى الله اليه بهذا والا فقد أوحى الى نبى فأمره النبى به او كان الهاما خير بين ان يعذبهم بالقتل ان أصروا على امرهم وبين ان يتخذ فيهم حسنا باكرامهم وتعليم الشرائع ان آمنوا او التعذيب بالقتل واتخاذ الحسن الاسر لانه بالنظر الى القتل احسان (قال) ذو القرنين (اما من ظلم فسوف نعذبه) بالقتل (ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا) فى القيامة يعنى اما من دعوته الى الاسلام فابى الا البقاء على الظلم العظيم وهو الشرك فذاك هو المعذب فى الدارين (وأما من آمن وعمل صالحا) اى عمل ما يقتضيه الايمان (فله جزاء الحسنى) فله جزاء الفعلة الحسنى التى هى كلمة الشهادة جزاء الحسنى كوفى غير ابى بكر اى فله الفعلة الحسنى جزاء (وسنقول له من أمرنا يسرا) اى ذا يسر اى لا نامره بالصعب الشاق ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك (ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم) هم الزنج (لم نجعل لهم من دونها) من دون الشمس (سترا) اى أبنية عن كعب أرضهم لا تمسك الابنية وبها السراب فاذا طلعت الشمس دخلوها فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم او الستر اللباس عن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع اهل الارض

الاسباب قال على سخر الله له السحاب فحمل عليه ومد له فى الاسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الارض وذلل له طريقها (وآتيناه من كل شئ) مما يحتاج اليه الخلق وكل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الاعداء (سببا) اى علما يتسبب به الى كل ما يريد ويسير به فى اقطار الارض وقيل بلاغا الى حيث اراد وقيل قربنا له اقطار الارض (فأتبع سببا) اى سلك طريقا (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) اى ذات حمأة وهى الطينة السوداء وقرئ حامية اى حارة وسأل معاوية كعبا كيف تجد فى التوراة تغرب الشمس وأين تغرب قال نجد فى التوراة انها تغرب فى ماء وطين وقيل يجوز أن يكون معنى فى عين حمئة اى عندها عين حمئة او فى رأى العين وذلك انه بلغ موضعا من المغرب لم يبق بعده شئ من العمران فوجد الشمس كأنها تغرب فى وهدة مظلمة كما ان راكب البحر يرى ان الشمس كانها تغيب فى البحر (ووجد عندها قوما) اى عند العين أمة قال ابن جريج مدينة لها اثنا عشر الف باب يقال انها الجاسوس واسمها بالسريانية حريسا سكنها قوم من نسل ثمود الذين آمنوا بصالح لولا ضجيج اهلها لسمع الناس وجبة الشمس حين يجب ان تغيب (قلنا ياذا القرنين) يستدل بهذا من يزعم انه كان نبيا فان الله خاطبه ومن قال انه لم يكن نبيا قال المراد منه الالهام وقيل يحتمل ان يكون الخطاب على لسان غيره (اما أن تعذب) يعنى تقتل من لم يدخل فى الاسلام (واما أن تتخذ فيهم حسنا) يعنى تعفو وتصفح وقيل تأسرهم فتعلمهم الهدى خيره الله سبحانه وتعالى بين الامرين (قال أما من ظلم) اى كفر (فسوف نعذبه) اى نقتله (ثم يرد الى ربه) اى فى الآخرة (فيعذبه عذابا نكرا) اى منكرا يعنى بالنار لانها انكر من القتل (وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى) اى جزاء اعماله الصالحة (وسنقول له من أمرنا يسرا) اى نلين له القول ونعامله باليسر من أمرنا (ثم أتبع سببا) اى سلك طريقا ومنازل (حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) قيل انهم كانوا فى مكان ليس بينهم وبين الشمس ستر من جبل ولا شجر ولا يستقر عليهم بناء فاذا طلعت الشمس دخلوا فى اسراب لهم تحت الارض فاذا زالت الشمس عنهم خرجوا الى معايشهم وحروثهم وقيل انهم كانوا اذا طلعت الشمس نزلوا فى الماء فاذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم وقيل هم قوم عراة يفترش احدهم احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى وقيل انهم قوم من نسل مؤمنى قوم هود واسم مدينتهم جابلق واسمها بالسريانية

(كذلك) اى امر ذو القرنين كذلك اى كما وصفناه تعظيما لامره (وقد أحطنا بما لديه) من الجنود والآلات وأسباب الملك (خبرا) نصب على المصدر لان فى أحطنا معنى خبرنا او بلغ مطلع الشمس مثل ذلك اى كما بلغ مغربها اوتطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم يعنى انهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم فى تعذيبه لمن بقى منهم على الكفر واحسانه الى من آمن منهم (ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين) بين الجبلين وهما جبلان سد ذو القرنين ما بينهما السدين وسدا مكى وابو عمرو وحفص السدين وسدا حمزة وعلى وبضمهما غيرهم قيل ما كان مسدودا خلقة فهو مضموم وما كان من عمل العباد فهو مفتوح وانتصب بين على انه مفعول به لبلغ كما انجر بالاضافة فى هذا فراق بينى وبينك وكما ارتفع فى لقد تقطع بينكم لانه من الظروف التى تستعمل اسما وظرفا وهذا المكان فى منقطع أرض الترك مما يلى المشرق (وجد من دونهما) من ورائهما (قوما) هم الترك (لا يكادون يفقهون قولا) اى لا يكادون يفهمونه لابجهد ومشقة من اشارة ونحوها يفقهون حمزة وعلى اى لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه لان لغتهم غريبة مجهولة (قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج) هما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وهمزهما عاصم فقط وهما من ولد يافث او يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم

بالسريانية مرقيسيا وهم مجاورون يأجوج ومأجوج قوله سبحانه وتعالى (كذلك) اى كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها وقيل معناه انه حكم فى القوم الذين هم عند مطلع الشمس كما حكم فى القوم الذين عند مغربها وهو الاصح (وقد أحطنا بما لديه خبرا) اى علما بما عنده ومن معه من الجند والعدة وآلات الحرب وقيل معناه وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية بذلك الملك والاستقلال به والقيام بامره قوله عز وجل (ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين) هما هنا جبلان فى ناحية الشمال فى منقطع ارض الترك حكى ان الواثق بعث بعض من يثق به من اتباعه اليه ليعاينوه فخرجوا من باب من الابواب حتى وصلوا اليه وشاهدوه فوصفوا انه بناء من ابن حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل (وجد من دونهما قوما) اى أمام السدين قيل هم الترك (لا يكادون يفقهون قولا) قال ابن عباس لا يفهمون كلام احد ولا يفهم الناس كلامهم (قالوا ياذا القرنين) فان قلت كيف أثبت لهم القول وهم لا يفهمون قلت تكلم عنهم مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم وقيل معناه لا يكادون يفقهون قولا الا بجهد ومشقة من اشارة ونحوها كما يفهم الخرس (ان يأجوج ومأجوج) اصلهما من أججت النار وهو ضوءها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وهم من أولاد يافث بن نوح والترك منهم قيل ان طائفة منهم خرجت تغير فضرب ذو القرنين السد فبقوا خارجه فسموا الترك لذلك لانهم تركوا خارجين قال اهل التواريخ اولاد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فسام ابو العرب والعجم والروم وحام ابو الحبشة والزنج والنوبة ويافث ابو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج قال ابن عباس هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء وروى حذيفة مرفوعا ان يأجوج أمة ومأجوج امة وكل أمة اربعة آلاف امة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون الى خراب الدنيا وقال هم ثلاثة اصناف صنف منهم أمثال الارز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع فى السماء وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومائة ذراع وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد وصنف منهم يفترش أحدهم اذنه ويلتحف بالاخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير الا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية وعن على منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط فى الطول وقال كعب هم نادرة فى ولد آدم وذلك ان آدم ٢ احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم متصلون بنا من جهة الاب دون الام وذكر وهب ابن منبه ان ذا القرنين كان رجلا من الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبدا صالحا قال الله سبحانه وتعالى له انى باعثك الى امم مختلفة ألسنتهم منهم امتان بينهما مسافة طول الارض احداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى عند مطلعها يقال لها منسك وأمتان بينهما عرض الارض احداهما فى القطر الايمن يقال لها هاويل والاخرى فى قطر الارض الايسر يقال لها تاويل وأمم فى وسط الارض منهم الجن والانس ويأجوج ومأجوج فقال ذو القرنين باى قوة أكابدهم وبأى جمع أكاثرهم وبأى لسان أناطقهم فقال الله سبحانه وتعالى انى سأقويك وأبسط لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شئ والبسك المهابة فلا يروعك شئ واسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك فالنور يهديك من امامك والظلمة تحوطك من ورائك فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعا وعددا لا يحصيهم الا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم فى مكان واحد فدعاهم الى الله تعالى وعبادته فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه

٢ قوله احتلم كذا بالنسخ بايدينا وتفسير الخطيب ويرده ما احتلم نبى قط اللهم الا ان يكون المراد انه سال منيه فى نومه لا امتلاء وعائه اه

(مفسدون فى الارض) قيل كانوا يأكلون الناس وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيأ اخضر الا أكلوه ولا يابسا الا احتملوه ولا يموت احدهم حتى ينظر الى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وقيل هم على صنفين طوال مفرطو الطول وقصار مفرطو القصر (فهل نجعل لك خرجا) خراجا جعلا على اى جعلا نخرجه من أموالنا ونظيرهما النول والنوال (على ان تجعل بيننا وبينهم سدا قال مامكنى) بالادغام وبفكه مكى ٢٣٢ (فيه ربى خير) اى ما جعلنى فيه مكينا من كثرة المال واليسار خير مما تبذلون لى من الخراج فلا حاجة لى اليه (فاعينونى بقوة) بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبالآلات (اجعل بينكم وبينهم ردما) جدارا وحاجزا حصينا موثقا والردم أكبر من السد (آتونى زبر الحديد) قطع الحديد والزبرة القطعة الكبيرة قيل حفر الاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما ثم وضع المنافيخ حتى اذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جلمدا صلدا وقيل بعد ما بين السدين مائة فرسخ (حتى اذا ساوى بين الصدفين) بفتحتين جانبى الجبلين لانهما يتصادفان اى يتقابلان الصدفين مكى وبصرى وشامى الصدفين ابو بكر (قال انفخوا) اى قال ذو القرنين للعملة انفخوا فى الحديد (حتى اذا جعله) اى المنفوخ فيه وهو الحديد (نارا) كالنار (قال آتونى) اعطونى (افرغ) اصب (عليه قطرا) نحاسا مذابا لانه يقطر وهو منصوب بافرغ وتقديره آتونى قطرا أفرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثانى عليه قال ائتونى بوصل الالف حمزة واذا ابتدأ كسر الالف اى جيئونى (فما اسطاعوا) بحذف التاء للخفة لان التاء قريبة المخرج من الظاء (ان يظهروه) ان يعلوا السد (وما استطاعوا له نقبا) اى لاحيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه ولا نقب لصلابته

فعمد الى الذين تولوا عنه فادخل عليهم الظلمة فدخلت اجوافهم وبيوتهم فدخلوا فى دعوته فجند من اهل المغرب جندا عظيما وانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى اتى هاويل فقعل فيهم كفعله فى ناسك ثم مضى حتى اتى منسك فقعل فيهم كفعله فى الامتين وجند منهم جندا عظيما ثم اخذ ناحية اليسرى فاتى تاويل ففعل بهم كفعله فيما قبلها ثم عمد الى الامم التى فى وسط الارض فلما كان فيما يلى منقطع الترك مما يلى المشرق قالت له امة صالحة من الانس ياذا القرنين ان بين هذين الجبلين خلقا أشباه البهائم يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذى روح خلق فى الارض وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا شك انهم يتملكون الارض ويظهرون عليها ويفسدون فيها فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا قال مامكنى فيه ربى خير وقال اعدوا الى الصخور والحديد والنحاس حتى اعلم علمهم فانطلق حتى توسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا لهم مخالب وأضراس كالسباع ولهم هلب شعر يوارى اجسادهم ويتقون به من الحر والبرد ولكل واحد منهم اذنان عظيمتان يفترش احداهما ويلتحف بالاخرى يصيف فى واحدة ويشتى فى واحدة يتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا فلما عاين ذو القرنين ذلك انصرف الى بين الصدفين فقاس ما بينهما وحفر له الاساس حتى بلغ الماء فذلك قوله تعالى قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج (مفسدون فى الارض) قيل فسادهم انهم كانوا يخرجون أيام الربيع الى أرضهم فلا يدعون فيها شيأ اخضر الا أكلوه ولا يابسا الا احملوه وأدخلوه ارضهم فلقوا منهم اذى شديدا وقيل فسادهم انهم كانوا يأكلون الناس وقيل معناه انهم سيفسدون عند خروجهم (فهل نجعل لك خرجا) اى جعلا وأجرا من الاموال (على ان تجعل بيننا وبينهم سدا) اى حاجزا فلا يصلون الينا (قال) لهم ذو القرنين (ما مكنى فيه ربى خير) اى ما قوانى به ربى خير من جعلكم (فاعينونى بقوة) يعنى لا أريد منكم المال بل اعينونى بأبدانكم وقوتكم (اجعل بينكم وبينهم ردما) اى سدا قالوا وما تلك القوة قال فعلة وصناع يحسنون البناء والآلة قالوا وما تلك الآلة قال آتونى اى اعطونى ٢ وقيل جيئونى (زبر الحديد) اى قطع الحديد فأتوه بها وبالحطب فجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب (حتى اذا ساوى بين الصدفين) اى بين طرفى الجبلين (قال انفخوا) يعنى فى النار (حتى اذا جعله نارا) اى صار نارا (قال آتونى افرغ عليه) اى أصب عليه (قطرا) اى نحاسا مذابا فجعلت النار تأكل الحطب وجعل النحاس يسيل مكانه حتى لزم الحديد النحاس قيل ان السد كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء وقيل ان عرضه خمسون ذراعا وارتفاعه مائة ذراع وطوله فرسخ واعلم ان هذا السد معجزة عظيمة ظاهرة لان الزبرة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر احد على القرب منها والنفخ عليها الا يمكن الا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن ابدان أولئك النافخين حتى تمكنوا من العمل فيه (فما اسطاعوا ان يظهروه) اى يعلوا عليه لعلوه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) اى من اسفله لشدته وصلابته

٢ قوله وقيل جيئونى ظاهره انه بتفسير لآتونى مقطوع الهمزة ولا يصح انما يصح اذا كان تفسير الائتونى موصولها فليتأمل اه

(قال هذا رحمة من ربي) اى هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده او هذا الاقدار والتمكين من تسويته (فاذا جاء وعد ربي) فاذا نا مجيء يوم القيامة وشارف ان يأتي (جعله) اى السد (دكا) اى مدكوكا مبسوطا مسوى بالارض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك دكاء كوفي اى أرضا مستوية (وكان وعد ربي حقا) آخر قول ذي القرنين (وتركنا) وجعلنا (بعضهم) بعض الخلق (يومئذ يموج) يختلط (في بعض) اى يضطربون ويختلطون انسهم وجنهم حيارى ويجوز

ان يكون الضمير ليأجوج ومأجوج وانهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين في البلاد وروى انهم يأتون البحيرة فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به من الناس ولا يقدرون ان يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله نغفا في أقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون (ونفخ في الصور) لقيام الساعة (فجمعناهم) اى جمع الخلائق للثواب والعقاب (جمعا) تأكيد (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) واظهرناها لهم فرأوها وشاهدوها (الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري) عن آياتي التي ينظر اليها او عن القرآن فاذكره بالتعظيم أو عن القرآن وتأمل معانيه (وكانوا لا يستطيعون سمعا) اى وكانوا صما عنه الا انه أبلغ اذ الاصم قد يستطيع السمع اذا صيح به وهؤلاء كانهم

وصلابته (قال) يعني ذو القرنين (هذا) اى السد (رحمة من ربي) اى نعمة من ربي (فاذا جاء وعد ربي) قيل يعني يوم القيامة وقيل وقت خروجهم (جعله دكاء) اى أرضا ملساء وقيل مدكوكا مستويا مع الارض (وكان وعد ربي حقا) (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده تسعين (قوله وعقد بيده تسعين) هو من موضوعات الحساب وهو ان تجعل رأس اصبعك السبابة في وسط الابهام من باطنها شبه الحلقة لكن لا يتبين لها الاخلل يسير وعنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في السد يحفرونه كل يوم حتى اذا كادوا يخرقونه قال بعضهم ارجعوا فستحفرونه غدا قال فيعيده الله كأشد ما كان حتى اذا بلغوا مدتهم واراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله تعالى واستثنى قال فيرجعون فيجدونه على هيئته حين تركوه فيحفرونه فيخرجون على الناس فيستقون المياه وتفر منهم الناس وفي رواية تحصن الناس في حصونهم منهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من في الارض وعلونا من في السماء فيزدادون قسوة وعتوا فيبعث الله عليهم نغفا في رقابهم فيهلكون فوالذي نفس محمد بيده ان دواب الارض لتسمن وتشكر الله من لحومهم شكرا اخرجه الترمذي وقوله قسوة وعتوا اى غلظة وفظاظة وتكبرا والنغف دود يكون في أنوف الابل والغنم وقوله وتشكر يقال شكرت الشاة تشكر شكرا اذا امتلأ ضرعها لبنا والمعنى انها تمتلئ اجسادها لحما وسمنا (خ) عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج * قوله عز وجل (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) قيل هذا عند فتح السد يقول تركنا يأجوج ومأجوج يموج اى يدخل بعضهم في بعض كموج الماء ويختلط بعضهم في بعض لكثرتهم وقيل هذا عند قيام الساعة يدخل الخلق بعضهم في بعض لكثرتهم ويختلط انسهم بجنهم حيارى (ونفخ في الصور) فيه دليل على ان خروج يأجوج ومأجوج من علامة قرب الساعة (فجمعناهم جمعا) اى في صعيد واحد (وعرضنا) اى ابرزنا (جهنم يومئذ للكافرين عرضا) ليشاهدوها عيانا (الذين كانت أعينهم في غطاء) اى غشاء وستر (عن ذكري) اى عن الايمان والقرآن والهدى والبيان وقيل عن رؤية الدلائل وتبصرها (وكانوا لا يستطيعون سمعا) اى سمع قبول للايمان والقرآن لغلبة الشقاء عليهم وقيل معناه لا يستطيعون ان يسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة عداوتهم له قوله تعالى (أفحسب) اى أفظن (الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) يعني اربابا يريد عيسى والملائكة بل هم لهم اعداء يتبرؤن منهم وقال ابن عباس يعني الشياطين اطاعوهم من دون الله والمعنى أفظن الذين كفروا ان يتخذوا غيري اولياء واني لا غضب لنفسي فلا أعاقبهم وقيل معناه أفظنوا انه ينفعهم ان يتخذوا عبادي من دوني اولياء (انا أعتدنا) اى هيأنا (جهنم للكافرين نزلا) اى منزلا قال ابن عباس رضي الله عنهما هي مثواهم وقيل معدة لهم عندنا كالنزل للضيف قوله تعالى (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا) يعني الذين أتعبوا انفسهم في

أصمت اسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) اى أفظن الكفار اتخاذهم عبادي يعني الملائكة وعيسى عليهم السلام أولياء نافعهم بئس ما ظنوا وقيل ان بصلتها اسد مسد مفعولي أفحسب وعبادي أولياء مفعولا أن يتخذوا وهذا أوجه يعني انهم لا يكونون لهم أولياء (انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) هو ما يقام للنزيل وهو الضيف ونحوه فبشرهم بعذاب أليم (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا) أعمالا تمييز وانما جمع والقياس ان يكون مفردا لتنوع الاهواء وهم اهل الكتاب او الرهبان

(الذين ضل سعيهم) ضاع و بطل وهو فى محل الرفع اى هم الذين (فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) فلا يكون لهم عندنا وزن ومقدار (ذلك جزاؤهم جهنم) هى عطف بيان لجزاؤهم (بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) اى جزاؤهم جهنم بكفرهم واستهزائهم بآيات الله و رسله (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها) حال (لا يبغون عنها حولا) تحولا الى غيرها رضا بما أعطوا يقال حال من مكانه حولا اى لا مزيد عليها حتى تنازعهم انفسهم الى أجمع لاغراضهم وأمانيهم وهذه غاية الوصف لان الانسان فى الدنيا فى اى نعيم كان فهو طامح ماثل الطرف الى أرفع منه والمراد نفى التحول وتأكيد الخلود (قل لو كان البحر) اى ماء البحر (مدادا لكلمات ربى) قال ابو عبيدة المداد ما يكتب به اى لو كتب كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مدادا لها والمراد بالبحر الجنس (لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله) بمثل البحر (مددا) لنفد أيضا والكلمات غير نافدة ومددا تمييز نحو لى مثله رجلا والمدد مثل المداد وهو ما يمد به ينفد همزة وعلى

عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا قال ابن عباس هم اليهود والنصارى وقيل هم الرهبان الذين حبسوا انفسهم فى الصوامع وقال على بن ابى طالب هم اهل حروراء يعنى الخوارج (الذين ضل سعيهم) اى بطل عملهم واجتهادهم (فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون) اى يظنون (أنهم يحسنون صنعا) اى عملا ثم وصفهم فقال تعالى (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) يعنى انهم جحدوا دلائل توحيده وقدرته و كفروا بالبعث والثواب والعقاب وذلك لانهم كفروا بالنبى صلى الله عليه وسلم و بالقرآن فصاروا كافرين بهذه الاشياء (فحبطت أعمالهم) اى بطلت (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) قيل لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما توضع لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين ليتميز مقدار الطاعات ومقدار السيآت قال ابو سعيد الخدرى يأتى أناس باعمال يوم القيامة هى عندهم من العظم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيأ فذلك قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وقيل معناه نزدرى بهم فليس لهم عندنا حظ ولا قدر ولا وزن (ق) عن ابى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (ذلك) اشارة الى ما ذكر من حبوط اعمالهم وخسة قدرهم ثم ابتدأ فقال تعالى (جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) يعنى سخريتهم واستهزاء قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه اوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة قال كعب ليس فى الجنان جنة اعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وافضلها وارفعها وقيل الفردوس هو البستان الذى فيه الاعناب وقيل هى الجنة الملتفة بالاشجار التى تنبت ضروبا من النبات وقيل الفردوس البستان بالرومية وقيل بلسان الحبش منقول الى العربية نزلا هو ما يهيأ للنازل على معنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلا وقيل فى معنى كانت لهم اى فى علم الله تعالى قبل أن يخلقوا (خالدين فيها لا يبغون) اى لا يطلبون (عنها حولا) اى تحولا الى غيرها قال ابن عباس لا يريدون ان يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار اذا لم توافقه الى دار أخرى قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى) قال ابن عباس قالت اليهود يا محمد تزعم اننا قد أوتينا الحكمة وفى كتابك ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ثم تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا فانزل الله تعالى هذه الآية وقيل لما نزل وما أوتيتم من العلم الا قليلا قالت اليهود أوتينا علم التوراة وفيها علم كل شئ فانزل الله تعالى قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى اى ما يستمده الكاتب ويكتب به وأصله من الزيادة قال مجاهد لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب قيل والخلائق يكتبون (لنفد البحر) اى لنفد ماؤه (قبل أن تنفد كلمات ربى) اى علمه وحكمه (ولو جئنا بمثله مددا) والمعنى ولو كان الخلائق يكتبون والبحر يمدهم لفنى ماء البحر ولم تفن كلمات ربى ولو جئنا بمثل ماء البحر فى كثرته مددا وزيادة قوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم) قال ابن عباس علم الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم التواضع لئلا يزهى على خلقه فامره ان يقر فيقول أنا آدمى مثلكم الا أنى خصصت بالوحى وأكرمنى الله به وهو قوله تعالى (يوحى الى أنما الهكم اله واحد) لا شريك له فى ملكه

(فمن

وقيل قال حيى بن أخطب فى كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ثم تقرؤن وما أوتيتم من العلم الا قليلا فنزلت يعنى ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد

من كان يرجو لقاء ربه) فمن كان يأمل حسن لقاء ربه وان يلقاه لقاء رضا وقبول او فمن كان يخاف سوء لقاء ربه والمراد باللقاء القدوم عليه وقيل رؤيته كما هو حقيقة اللفظ والرجاء على هذا مجرى على حقيقته (فليعمل عملا صالحا) خالصا لا يريد به الا وجه ربه ولا يخلط به غيره وعن يحيى بن معاذ هو ما لا يستحى منه (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) هو نهى عن الشرك او عن الرياء قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الرياء قال صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة تكون فان يخرج الدجال فى تلك الثمانية عصمه الله من فتنة الدجال ومن قرأ قل انما ٢٣٥ أنا بشر مثلكم يوحى الى آخرها

(فمن كان يرجو لقاء ربه) اى يخاف المصير اليه وقيل يؤمل رؤية ربه (فليعمل عملا صالحا) اى من حصل له رجاء لقاء الله تعالى والمصير اليه فليستعمل نفسه فى العمل الصالح (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) اى لا يرائى بعمله واما كان العمل الصالح قد يراد به وجه الله سبحانه وتعالى وقد يراد به الرياء والسمعة اعتبر فيه قيدان احدهما ان يراد به الله سبحانه وتعالى والثانى ان يكون مبرأ من جهات الشرك جميعها (ق) عن جندب بن عبد الله البجلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سمع سمع الله به ومن يرائى يرائى الله به (قوله من سمع سمع الله به) اى من عمل عملا مراآة للناس يشتهر بذلك شهره الله يوم القيامة وقيل سمع الله به اى اسمعه المكروه (م) عن ابى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تبارك وتعالى يقول أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا اشرك فيه غيرى تركته وشركه ولغير مسلم فانا منه برىء هو والذى عمله عن سعيد بن ابى فضالة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جمع الناس ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان يشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه منه فان الله أغنى الشركاء عن الشرك اخرجه الترمذى وقال حديث غريب وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال اخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الرياء (م) عن ابى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وفى رواية من آخرها والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

عند مضجعه كان له نور يتلألأ من مضجعه الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم من مضجعه وان كان مضجعه بمكة فتلاها كان له نور يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه ويستغفرون له حتى يستيقظ

(تفسير سورة مريم عليها السلام)

هى مكية وهى ثمان وتسعون آية وثمانون وسبعمائة كلمة وثلاثة آلاف وسبعمائة حرف

(سورة مريم عليها السلام)

مكية وهى ثمان او تسع وتسعون آية مدنى وشامى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (كهيعص) قال ابن عباس رضى الله عنهما هو اسم من اسماء الله تعالى وقيل اسم للقرآن وقيل للسورة وقيل هو قسم أقسم الله تعالى به وعن ابن عباس قال الكاف من كريم وكبير والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم والصاد من صادق وقيل معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق ايديهم عالم بريته صادق فى وعده (ذكر) اى هذا الذى نتلوه عليك ذكر (رحمت ربك عبده زكريا) قيل معناه ذكر ربك عبده زكريا برحمته (اذ نادى) اى دعا (ربه) فى المحراب (نداء خفيا) اى دعاء سرا من قومه فى جوف الليل وقيل راعى سنة الله فى اخفاء دعائه لان الجهر والاسرار عند الله تعالى سيان لكن الاخفاء أولى لانه ابعد عن الرياء وأدخل فى الاخلاص وقيل اخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى زمن الشيخوخة وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه يدل عليه قوله تعالى (قال رب انى وهن) اى رق وضعف (العظم منى) اى من الكبر

(زكريا) بالقصر حمزة وعلى وحفص بدل من عبده (اذ) ظرف للرحمة (نادى ربه نداء خفيا) دعاه دعاء سرا كما هو المأمور به وهو أبعد عن الرياء وأقرب الى الصفاء او أخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى أوان الكبر لانه كان ابن خمس وسبعين او ثمانين سنة (قال رب) هذا تفسير الدعاء واصله يا ربى فحذف حرف النداء والمضاف اليه اختصارا (انى وهن العظم منى) ضعف وخص العظم لانه عمود البدن وبه قوامه فاذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولانه اشد ما فيه وأصلبه فاذا وهن كان ما وراءه أوهن ووحده لان الواحد هو الدال على معنى الجنسية والمراد ان هذا الجنس الذى هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد اصابه الوهن

(واشتعل الرأس شيبا) تمييز اى فشا فى رأسى الشيب واشتعلت النار اذا تفرقت فى التهابها وصارت شعلا فشبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وانتشاره فى الشعر وأخذه منه كل مأخذ كاشتعال النار ولا ترى كلاما أفصح من هذا الا ترى ان اصل الكلام يا رب قد شخت اذا الشيخوخة تشتمل على ضعف البدن وشيب الرأس المتعرض لهما واقوى منه ضعف بدنى وشاب رأسى ففيه مزيد التقرير للتفصيل وأقوى منه وهنت عظام بدنى ففيه عدول عن التصريح الى الكناية فهى أبلغ منه وأقوى منه انى وهنت عظام بدنى واقوى منه انى وهنت عظام بدنى وأقوى منه انى وهنت العظام من بدنى ففيه سلوك طريق الاجمال والتفصيل وأقوى منه انى وهنت العظام منى ففيه ترك توسيط البدن وأقوى منه انى وهن العظم منى لشمول الوهن العظام فردا فردا باعتبار ترك جمع العظم الى الافراد لصحة حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فرد فرد ولهذا تركت الحقيقة فى شاب رأسى الى أبلغ وهى الاستعارة فحصل اشتعل شيب رأسى وأبلغ منه اشتعل رأسى شيبا لاسناد الاشتعال الى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس لافادة شمول الاشتعال الرأس اذ وزان اشتعل شيب رأسى واشتعل رأسى شيبا وزان اشتعل النار فى بيتى واشتعل بيتى نارا والفرق نير ولان فيه الاجمال والتفصيل كما عرف فى طريق التمييز وأبلغ منه واشتعل الرأس منى شيبا لما مر وأبلغ منه واشتعل الرأس شيبا ففيه اكتفاء بعلم المخاطب انه رأس زكريا بقرينة العطف على وهن العظم (ولم أكن بدعائك) ٢٣٦ مصدر مضاف الى المفعول اى بدعائى اياك (رب شقيا) اى كنت مستجاب الدعوة قبل اليوم سعيدا به غير شقى فيه يقال سعد فلان بحاجته اذا ظفر بها وشقى اذا خاب ولم ينلها وعن بعضهم ان محتاجا سأله وقال انا الذى أحسنت الى وقت كذا فقال مرحبا بمن توسل بنا الينا وقت حاجته وقضى حاجته (وانى خفت الموالى) هم عصبته اخوته وبنو عمه وكانوا شرار بنى اسرائيل فخافهم ان يغيروا الدين وان لا يحسنوا الخلافة على امته فطلب عقبا صالحا من صلبه يقتدى به فى احياء الدين (من ورائى) بعدموتى وبالقصر وفتح الياء كهدا اى مكى وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لان وجود خوفه بعد موته بذلك لا يتصور ولكن بمحذوف او بمعنى الولاية فى الموالى اى خفت فعل الموالى اى وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائى او خفت الذين يلون الامر من ورائى (وكانت امرأتى عاقرا) عقيما لا تلد (فهب لى من لدنك) اختراعا منك بلا سبب لان امرأتى لا تصلح للولادة (وليا) ابنا يلى أمرك بعدى (يرثنى ويرث) برفعهما صفة لوليا اى هب لى ولدا وارثا منى العلم ومن آل يعقوب النبوة ومعنى وراثة النبوة انه يصلح لأن يوحى اليه ولم يرد ان نفس النبوة تورث ويجزمهما ابو عمرو وعلى انه جواب للدعاء يقال ورثته وورثت منه (من آل يعقوب) يعقوب بن اسحق (واجعله رب رضيا) مرضيا ترضاه او راضيا عنك وبحكمك فاجاب الله تعالى دعاءه وقال (يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) تولى الله تسميته تشريفا له نبشرك بالتخفيف حمزة (لم نجعل له من قبل سميا) لم يسم أحد بيحيى قبله وهذا دليل على ان الاسم الغريب جدير بالاثرة وقيل مثلا وشبيها ولم يكن له مثل فى انه لم يعص ولم يهم بمعصية قط وانه ولد بين شيخ وعجوز وانه كان حصورا فلما بشرته الملائكة به (قال رب انى) كيف (يكون لى غلام) وليس هذا باستبعاد بل هو استكشاف انه بأى طريق يكون أيوهب له وهو وامرأته بتلك الحال ام يحولان شابين (وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) اى بلغت عتيا وهو اليبس والجساوة فى المفاصل والعظام كالعود اليابس من اجل الكبر والطعن فى السن العالية عتيا وصليا وجثيا وبكيا بكسر الاوائل حمزة وعلى وحفص الا فى بكيا

وقيل اشتكى سقوط الاضراس (واشتعل الرأس) اى ابيض الشعر (شيبا) اى شمطا (ولم أكن بدعائك رب شقيا) اى عودتنى الاجابة فيما مضى ولم تخيبنى وقيل معناه لما دعوتنى الى الايمان آمنت ولم أشق بترك الايمان (وانى خفت الموالى من ورائى) اى من بعد موتى والموالى هم بنو العم وقيل العصبة وقيل الكلالة وقيل جميع الورثة (وكانت امرأتى عاقرا) اى لا تلد (فهب لى من لدنك وليا) اى أعطنى من عندك ولدا مرضيا (يرثنى ويرث من آل يعقوب) اى وليا ذا رشاد وقيل أراد به يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة وقيل أراد ميراث النبوة والعلم وقيل أراد به الحبورة لان زكريا كان رأس الاحبار والاولى ان يحمل على ميراث غير المال لان الانبياء لم يورثوا المال وانما يورثون العلم وبعد من زكريا وهو نبى من الانبياء ان يشفق على ماله ان يرثه بنو عمه وانما خاف ان يضيع بنو عمه دين الله ويغيروا احكامه وذلك لما ان شاهد من بنى اسرائيل تبديل الدين وقتل الانبياء فسأل ربه ولدا صالحا يأمنه على أمته ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع وهذا قول ابن عباس (واجعله رب رضيا) اى بارا تقيا مرضيا قوله تعالى (يا زكريا) المعنى فاستجاب الله له دعاءه فقال يا زكريا (انا نبشرك بغلام) اى بولد ذكر (اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) اى لم يسم أحد قبله بيحيى وقيل معناه لم نجعل له شبها ومثلا وذلك لانه لم يعص الله ولم يهم بمعصية قط وقال ابن عباس لم تلد العواقر مثله ولذا قيل لم يرد الله تعالى بذلك اجتماع الفضائل كلها ليحيى وانما أراد بعضها لان الخليل والكليم كانا قبله وهما أفضل منه (قال رب انى يكون لى) اى من اين يكون لى (غلام وكانت امرأتى عاقرا) اى وامرأتى عاقر (وقد بلغت من الكبر عتيا) اى يأسا يريد

(قال كذلك) الكاف رفع اى الامر كذلك تصديق له ثم ابتدأ (قال ربك) او نصب يقال وذلك اشارة الى مبهم يفسره (هو على هين) اى خلق يحيى من كبيرين سهل (وقد خلقتك من قبل) اوجدتك من قبل يحيى خلقنا ك حمزة وعلى (ولم تك شيأ) لان المعدوم ليس بشئ (قال رب اجعل لى آية) علامة أعرف بها حبل امرأتى (قال آيتك ان لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) حال من ضمير تكلم اى حال كونك سوى الاعضاء واللسان يعنى علامتك ان تمنع الكلام فلا تطيقه

وأنت سليم الجوارح مابك خرس ولابكم ودل ذكر الليالى هنا والايام فى آل عمران على ان المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن اذ ذكر الايام يتناول ما بازائها من الليالى وكذا ذكر الليالى يتناول ما بازائها من الايام عرفا (فخرج على قومه من المحراب) من موضع صلاته وكانوا ينتظرونه ولم يقدروا ان يتكلم (فاوحى اليهم) أشار باصبعه (ان سبحوا) صلوا وان هى المفسرة (بكرة وعشيا) صلاة الفجر والعصر (يايحيى) اى وهبنا له يحيى وقلنا له بعد ولادته واوان الخطاب يايحيى (خذ الكتاب) التوراة (بقوة) حال اى بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد (وآتيناه الحكم) الحكمة وهو فهم التوراة والفقه فى الدين (صبيا) حال قيل دعاه الصبيان الى اللعب وهو صبى فقال ما للعب خلقنا (وحنانا) شفقة ورحمة لابويه

بذلك نحول الجسم ودقة العظم ونحول الجلد (قال كذلك قال ربك هو على هين) اى يسير (وقد خلقتك من قبل) اى من قبل يحيى (ولم تك شيأ قال رب اجعل لى آية) اى دلالة على حمل امرأتى (قال آيتك) اى علامتك (ان لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) اى صحيحا سليما من غير مابأس ولا خرس وقيل ثلاث ليال متتابعات والاول أصح قيل انه لم يقدر فيها ان يتكلم مع الناس فاذا أراد ذكر الله انطلق لسانه * قوله عز وجل (فخرج على قومه من المحراب) اى من الموضع الذى كان يصلى فيه وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه حتى يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون اذ خرج اليهم زكريا متغير اللون فانكروا ذلك عليه وقالوا له مالك (فاوحى) اى فأوما وأشار (اليهم) وقيل كتب لهم فى الارض (ان سبحوا) اى صلوا لله (بكرة وعشيا) المعنى انه كان يخرج على قومه بكرة وعشيا فيأمرهم بالصلاة فلما كان وقت حمل امرأته ومنع من الكلام خرج اليهم فامرهم بالصلاة اشارة * قوله عز وجل (يايحيى) فيه اضمار ومعناه وهبنا له يحيى وقلنا له يايحيى (خذ الكتاب) اى التوراة (بقوة) اى بجد واجتهاد (وآتيناه الحكم) قال ابن عباس يعنى النبوة (صبيا) وهو ابن ثلاث سنين وذلك ان الله تعالى أحكم عقله واوحى اليه فان قلت كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا قلت لان أصل النبوة مبنى على خرق العادات اذا ثبت هذا فلا تمنع صيرورة الصبى نبيا وقيل أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير وعن بعض السلف قال من قرأ القرآن قبل ان يبلغ فهو ممن اوتى الحكم صبيا (وحنانا من لدنا) اى رحمة من عندنا قال الحطيئة يخاطب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

تحنن على هداك المليك * فان لكل مقام مقالا

اى ترحم على (وزكوة) قال ابن عباس يعنى بالزكاة الطاعة والاخلاص وقيل هى العمل الصالح ومعنى الآية وآتيناه رحمة من عندنا وتحننا على العباد ليدعوهم الى طاعة ربهم وعملا صالحا فى اخلاصه (وكان تقيا) اى مسلما مخلصا مطيعا وكان من تقواه انه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها قط (وبرا بوالديه) اى بارا لطيفا بهما محسنا اليهما لانه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا الآية (ولم يكن جبارا) الجبار المتكبر وقيل الذى يقتل ويضرب على الغضب وقيل الجبار الذى لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من التعظيم بنفسه يرى ان لا يلزمه قضاء لاحد (عصيا) قيل هو ابلغ من العاصى والمراد وصف يحيى بالتواضع ولين الجانب وهو من صفات المؤمنين (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) معناه وأمان له من الله يوم ولد من ان يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم وأمان له يوم يموت من عذاب القبر ويوم يبعث حيا من عذاب يوم القيامة وقيل اوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن يوم يولد لانه يرى نفسه خارجا من مكان قد كان فيه ويوم يموت لانه يرى قوما ما شاهدهم قط ويوم يبعث لانه يرى مشهدا عظيما فاكرم الله تعالى يحيى فى هذه المواطن كلها فخصه بالسلامة فيها * قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب) اى فى القرآن

وغيرهما عطفا على الحكم (من لدنا) من عندنا (وزكوة) اى طهارة وصلاحا فلم يعمد بذنب (وكان تقيا) مسلما مطيعا (وبرا بوالديه) وبارا بهما لا يعصيهما (ولم يكن جبارا) متكبرا (عصيا) عاصيا لربه (وسلام عليه) امان من الله له (يوم ولد) من ان يناله الشيطان (ويوم يموت) من فتانى القبر (ويوم يبعث حيا) من الفزع الاكبر قال ابن عيينة انها اوحش المواطن (واذكر) يا محمد (فى الكتاب) القرآن

(مريم) اى اقرأ عليهم فى القرآن قصة مريم ليقفوا عليها ويعلموا ما جرى عليها (اذ) بدل من مريم بدل اشتمال اذ الاحيان مشتملة على ما فيها وفيه ان المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا الوقوع هذه القصة العجيبة فيه (انتبذت من أهلها) اى اعتزلت (مكانا) ظرف (شرقيا) اى تخلت للعبادة فى مكان مما يلى شرقى بيت المقدس او من دارها معتزلة عن الناس وقيل قعدت فى مشرقة للاغتسال من الحيض (فاتخذت من دونهم حجابا) جعلت بينها وبين اهلها حجابا يسترها للتغتسل وراءه (فارسلنا اليها روحنا) جبريل عليه السلام والاضافة للتشريف وانما سمى روحا لان الدين يحيى به ويوحيه (فتمثل لها بشرا) اى تمثل لها جبريل فى صورة آدمى شاب أمرد وضىء الوجه جعد الشعر (سويا) مستوى الخلق وانما مثل لها فى صورة الانسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ولو بدا لها فى صورة الملائكة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه (قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) اى ان كان يرجى منك ان يتقى الله فانى عائذة به منك (قال) جبريل عليه السلام (انما انا رسول ربك) امنها مما خافت واخبرانه ليس بآدمى بل هو رسول من استعاذت به (لأهب لك) باذن الله تعالى اولا كون سببا فى هبة الغلام بالنفخ فى الدرع ليهب لك اى الله ابو عمرو ونافع (غلاما زكيا) طاهرا من الذنوب اونامياعلى الخير والبركة (قالت انى) كيف (يكون لى غلام) ابن (ولم يمسسنى بشر) زوج بالنكاح (ولم اك بغيا) فاجرة تبغى الرجال اى تطلب الشهوة من اى رجل كان ولا يكون الولد عادة الا من أحد هذين والبغى فعول عند المبرد بغوى فقلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت الغين اتباعا ولذا لم تلحق تاء التأنيث كما لم تلحق فى امرأة صبور وشكور وعند غيره هى فعيل ولم تلحقها الهاء لانها بمعنى مفعولة وان كانت بمعنى فاعلة فهو قد يشبه به مثل ان رحمة الله قريب (قال) جبريل (كذلك) اى الامر كما قلت لم يمسك رجل نكاحا او سفاحا (قال ربك هو على هين) اى اعطاء الولد بلا أب على سهل (ولنجعله آية للناس) تعليل معلله محذوف اى ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك او هو معطوف على تعليل مضمر اى لنبين به قدرتنا ولنجعله آية للناس اى عبرة وبرهانا على قدرتنا (ورحمة منا) لمن آمن به (وكان) خلق عيسى (أمرا مقضيا) مقدرا مسطورا فى اللوح فلما اطمأنت الى قوله دنا منها فنفخ فى جيب درعها فوصلت النفخة الى بطنها (فحملته) اى الموهوب وكان سنها ثلاث عشرة سنة او عشرا او عشرين (فانتبذت به) اعتزلت وهو فى بطنها او الجار والمجرور فى موضع الحال عن ابن عباس رضى الله عنهما كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته وقيل ستة اشهر وقيل سبعة وقيل ثمانية ولم يعش

(مريم اذ انتبذت) اى تنحت واعتزلت (من أهلها) اى من قومها (مكانا شرقيا) اى مكانا فى الدار مما يلى المشرق وكان ذلك اليوم شاتيا شديد البرد فجلست فى مشرقة تفلى رأسها وقيل ان مريم كانت قد طهرت من الحيض فذهبت تغتسل قيل ولهذا المعنى اتخذت النصارى المشرق قبلة (فاتخذت) اى فضربت (من دونهم حجابا) قال ابن عباس اى سترا وقيل جلست وراء جدار وقيل ان مريم كانت تكون فى المسجد فاذا حاضت تحولت الى بيت خالتها حتى اذا طهرت عادت الى المسجد فبينما هى تغتسل من الحيض قد تجردت اذ عرض لها جبريل فى صورة شاب امرد وضىء الوجه سوى الخلق فذلك قوله تعالى (فارسلنا اليها روحنا) يعنى جبريل (فتمثل لها بشرا سويا) اى سوى الخلق لم ينقص من الصورة الآدمية شيأ وانما مثل لها فى صورة الانسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ولو بدا لها فى صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه وقيل المراد من الروح روح عيسى جاء فى صورة بشر فحملت به والقول الاول أصح فلما رأت مريم جبريل عليه السلام يقصد نحوها بادرته من بعيد (قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) اى مؤمنا مطيعا لله تعالى دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها فان قلت انما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت ان كنت تقيا قلت هذا كقول القائل ان كنت مؤمنا فلا تظلمنى اى ينبغى ان يكون ايمانك مانعا لك من الظلم كذلك ههنا معناه ينبغى ان تكون تقواك مانعة لك من الفجور (قال) لها جبريل عليه السلام (انما انا رسول ربك لاهب) اسند الفعل اليه وان كانت الهبة من الله تعالى لانه أرسل به (لك غلاما زكيا) قال ابن عباس ولدا صالحا طاهرا من الذنوب (قالت) مريم (انى يكون لى) اى من اين يكون لى (غلام ولم يمسسنى بشر) اى ولم يقربنى زوج (ولم اك بغيا) اى فاجرة تريدان الولد انما يكون من نكاح او سفاح ولم يكن ههنا واحد منهما (قال) جبريل (كذلك قال ربك) اى هكذا قال ربك (هو على هين) اى خلق ولدك بلا أب (ولنجعله آية للناس) اى علامة لهم ودلالة على قدرتنا (ورحمة منا) اى ونعمة لمن تبعه على دينه الى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (وكان أمرا مقضيا) اى محكوما مقروغا منه لا يرد ولا يبدل قوله عز وجل (فحملته) قيل ان جبريل رفع درعها فنفخ فى جيبه فحملت حين لبست الدرع وقيل مد جيب درعها باصبعه ثم نفخ فى الجيب وقيل نفخ فى كمها وقيل فى ذيلها وقيل فى فيها وقيل نفخ من بعيد فوصل النفخ اليها فحملت بعيسى عليه السلام فى الحال (فانتبذت به) اى فلما حملته تنحت بالحمل

مولود وضع لثمانية الاعيسى وقيل حملته فى ساعة ووضعته فى ساعة (مكانا قصيا) بعيدا من أهلها وراء الجبل وذلك لانها لما أحست بالحمل هربت من قومها مخافة اللائمة (فأجاءها) جاء بها وقيل ألجأها وهو منقول من جاء الا ان استعماله قد تغير بعد النقل الى معنى الالجاء الاترى لا تقول جئت المكان واجاءنيه زيد (المخاض) وجع الولادة (الى جذع النخلة) أصلها وكانت يابسة وكان الوقت شتاء وتعريفها مشعر بانها كانت نخلة معروفة وجاز ان يكون التعريف للجنس اى جذع ٢٣٩ هذه الشجرة كانه تعالى أرشدها الى النخلة ليطعمها منها الرطب لانه خرسة النفساء اى طعامها ثم (قالت) جزعا مما أصابها (يا ليتنى مت قبل هذا) اليوم مدنى وكوفى غير ابى بكر وغيرهم بالضم يقال مات يموت ومات يمات (وكنت نسيا منسيا) شيأ مترو كا لا يعرف ولا يذكر بفتح النون حمزة وحفص وبالكسر غيرهما ومعناهما واحد وهو الشئ الذى حقه ان يطرح وينسى لحقارته (فناداها من تحتها) اى الذى تحتها فمن فاعل وهو جبريل عليه السلام لانه كان بمكان منخفض عنها او عيسى عليه السلام لانه خاطبها من تحت زيلها من تحتها مدنى وكوفى سوى ابى بكر والفاعل مضمر وهو عيسى عليه السلام او جبريل والماء فى تحتها للنخلة ولشدة ما لقيت سليت بقوله (أن لا تحزنى) لا تهتمى بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومقالة الناس

وانفردت (مكانا قصيا) اى بعيدا من أهلها قال ابن عباس اقصى الوادى وهو بيت لحم فرارا من أهلها وقومها ان يعيروها بولادتها من غير زوج قال ابن عباس كان الحمل والولادة فى ساعة واحدة وقيل حملته فى ساعة وصور فى ساعة ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس من يومها وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر الحوامل من النساء وقيل كانت مدة حملها ثمانية أشهر وذلك آية أخرى له لانه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش وقيل ولد لستة أشهر وهى بنت عشر سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل ست عشرة سنة وقد كانت حاضت حيضتين قبل ان تحمل بعيسى وقال وهب ان مريم لما حملت بعيسى كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين الى المسجد الذى يمنة جبل صهيون وكانا يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم من أهل زمانهما احد أشد عبادة واجتهادا منهما واول من علم بحمل مريم يوسف فبقى متحيرا فى أمرها كلما أرادان يتهمها ذكر عبادتها وصلاحها وانها لم تغب عنه واذا أراد أن يبرئها رأى ما ظهر منها من الحمل فاول ما تكلم به أن قال انه وقع فى نفسى من امرك شئ وقد حرصت على كتمانه فغلبنى ذلك فرأيت ان أتكلم به اشفى صدرى فقالت قل قولا جميلا قال اخبرينى يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل ينبت شجر بغير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم ألم تعلم ان الله انبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ألم تر ان الله أنبت الشجرة بالقدرة من غير غيث او تقول ان الله تعالى لا يقدر على ان ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على انباتها قال يوسف لا اقول هذا ولكنى اقول ان الله تعالى يقدر على كل شئ يقول له كن فيكون قالت له مريم ألم تعلم ان الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى فعند ذلك زال ما عنده من التهمة وكان ينوب عنها فى خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل فلما دنت ولادتها اوحى الله اليها ان اخرجى من ارض قومك فذلك قوله تعالى فانتبذت به مكانا قصيا قوله عز وجل (فأجاءها المخاض) اى ألجأها وجاء بها والمخاض وجع الولادة (الى جذع النخلة) وكانت نخلة يابست فى الصحراء فى شدة البرد ولم يكن لها سعف وقيل التجأت اليها تستند اليها وتستمسك بها من شدة الطلق ووجع الولادة (قالت يا ليتنى مت قبل هذا) تمنت الموت استحياء من الناس وخوفا من الفضيحة (وكنت نسيا منسيا) يعنى شيأ حقيرا مترو كا لم يذكر ولم يعرف لحقارته وقيل جيفة ملقاة وقيل معناه انها تمنت انها لم تخلق (فناداها من تحتها) قيل ان مريم كانت على أكمة وجبريل وراء الاكمة تحتها وقيل ناداها من سفح الجبل وقيل هو عيسى وذلك انه لما خرج من بطن امه ناداها (أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) اى نهرا قال ابن عباس رضى الله عنهما ضرب جبريل عليه السلام وقيل عيسى عليه السلام برجله فى الارض فظهرت عين ماء عذبة وجرت وقيل كان هناك نهر يابس فجرى فيه الماء بقدرة الله سبحانه وتعالى وحنت النخلة اليابسة فاورقت واثمرت وأرطبت وقيل معنى تحتك اى تحت أمرك ان امرته ان يجرى جرى وان امرته بالامساك امسك وقيل معنى سريا اى عيسى وكان عبدا سريا رفيعا (وهزى اليك) اى حركى اليك (بجذع النخلة)

وأنبعنى اى (قد جعل ربك تحتك) بقربك او تحت امرك ان أمرته أن يجرى جرى وان أمرته ان يقف وقف (سريا) نهرا صغيرا عذبا الجمهور وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن السرى فقال هو الجدول وعن الحسن سيدا كريما يعنى عيسى عليه السلام وروى ان خالد بن صفوان قال له ان العرب تسمى الجدول سريا فقال الحسن صدقت ورجع الى قوله وقال ابن عباس رضى الله عنهما ضرب عيسى او جبريل عليهما السلام بعقبه الارض فظهرت عين ماء عذب فجرى النهر اليابس فاخضرت النخلة واثمرت وأينعت ثمرتها فقيل لها (وهزى) حركى (اليك) الى نفسك (بجذع النخلة) قال ابو على الباء زائدة اى هزى جذع النخلة

(تساقط عليك) بادغام التاء الاولى فى الثانية مكى ومدنى وشامى وابو عمرو وعلى وأبو بكر والاصل تتساقط باظهار التاءين وتساقط بفتح التاء والقاف وطرح التاء الثانية وتخفيف السين حمزة ويساقط بفتح الياء والقاف وتشديد السين يعقوب وسهل وحماد ونصير وتساقط حفص من المفاعلة وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع فهذه تسع قراآت (رطبا) تمييزا ومفعول به على حسب القراءة (جنيا) طريا وقالوا التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وقيل ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض من العسل (فكلى) من الجنى (واشربى) من السرى (وقرى عينا) بالولد الرضى وعينا تمييز اى طيبى نفسا بعيسى وارفضى عنك ما أحزنك (فاما) أصله ان ما فضمت ان الشرطية الى ما وادغمت فيها (ترين ٢٤٠ من البشر احدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما) اى فان رأيت آدميا يسألك عن حالك فقولى انى نذرت للرحمن صمتا وامساكا عن الكلام وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الاكل والشرب وقيل صياما حقيقة وكان صيامهم فيه الصمت فكان التزامه التزامه وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم الصمت فصار ذلك منسوخا فينا وانما أمرت ان تنذر السكوت لان عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها ولئلا تجادل السفهاء وفيه دليل على ان السكوت عن السفيه واجب وما قدع سفيه بمثل الاعراض ولا أطلق عنانه بمثل العراض وانما أخبرتهم بانها نذرت الصوم بالاشارة وقد تسمى الاشارة كلاما وقولا ألا ترى الى قول الشاعر فى وصف القبور

* وتكلمت عن أوجه تبلى * وقيل كان وجوب الصمت بعد هذا الكلام (قالوا

اوسوغ لها هذا القدر بالنطق (فلن أكلم اليوم انسيا) آدميا (فأتت به) بعيسى (قومها) بعد ما طهرت من نفاسها (تحمله) حال منها اى أقبلت نحوهم حاملة اياه فلما رأوه معها (قالوا يا مريم لقد جئت شيأ فريا) بديعا عجيبا والفرى القطع كانه يقطع العادة (يا أخت هرون) وكان أخاها من أبيها ومن أفضل بنى اسرائيل او هو أخو موسى عليه السلام وكانت من اعقابه وبينهما ألف سنة وهذا كما يقال يا أخا همدان اى يا واحدا منهم او رجل صالح او طالح فى زمانها شبهوها به فى الصلاح او شتموها به (ما كان أبوك) عمران (امرأ سوء) زانيا (وما كانت أمك) حنة (بغيا) زانية (فاشارت اليه) الى عيسى ان يجيبهم وذلك ان عيسى عليه السلام قال لها لا تحزنى واحيلى بالجواب على وقيل أمرها جبريل بذلك ولما اشارت اليه غضبوا وتعجبوا

تساقط عليك رطبا جنيا) قيل الجنى الذى بلغ الغاية وجاء او ان اجتنائه قال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندى خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل (فكلى واشربى) اى يا مريم كلى من الرطب واشربى من النهر (وقرى عينا) اى طيبى نفسا وقيل قرى عينا بولدك عيسى يقال أقر الله عينك اى صادف فؤادك ما يرضيك فتقر عينك عن النظر الى غيره (فاما ترين من البشر احدا) معناه يسألك عن ولدك (فقولى انى نذرت للرحمن صوما) اى صمتا قيل كان فى بنى اسرائيل من اراد ان يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسى وقيل ان الله أمرها أن تقول هذا اشارة وقيل أمرها ان تقول هذا القول نطقا ثم تمسك عن الكلام بعده وانما منعت من الكلام لامرين احدهما ان يكون عيسى عليه السلام هو المتكلم عنها ليكون اقوى لحجتها فى ازالة التهمة عنها وفيه دلالة على ان تفويض الكلام الى الافضل اولى الثانى كراهة مجادلة السفهاء وفيه ان السكوت عن السفيه واجب (فلن أكلم اليوم انسيا) يقال انها كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الانس قوله تعالى (فأتت به قومها تحمله) قيل انها لما ولدت عيسى عليه السلام حملته فى الحال الى قومها وقيل ان يوسف النجار احتمل مريم وابنها عيسى الى غار فمكثت فيه أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته الى قومها فكلمها عيسى فى الطريق فقال يا اماه أبشرى فانى عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبى بكوا وحزنوا وكانوا اهل بيت صالحين (قالوا يا مريم لقد جئت شيأ فريا) اى عظيما منكرا وقيل معناه جئت بامر عجيب بديع (يا أخت هرون) اى يا شبيهة هرون قيل كان رجلا صالحا فى بنى اسرائيل شبهت به فى عفتها وصلاحها وليس المراد الاخوة فى النسب قيل انه تبع جنازته يوم مات اربعون ألفا من بنى اسرائيل كلهم يسمى هرون سوى سائر الناس (م) عن المغيرة بن شعبة قال لما قدمت خراسان سألونى فقالوا انكم تقرؤن يا أخت هرون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال انهم كانوا يسمون باسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم وقيل كان هرون أخا مريم لابيها وقيل كان من امثل رجل فى بنى اسرائيل وقيل انما عنوا هرون أخا موسى لانها كانت من نسله كما يقال للتميمى يا أخا تميم وقيل كان هرون فى بنى اسرائيل فاسقا أعظم الفسق فشبهوها به (ما كان أبوك) يعنى عمران (امرأ سوء) قال ابن عباس زانيا (وما كانت امك) يعنى حنة (بغيا) أى زانية فمن اين لك هذا الولد (فأشارت اليه) اى أشارت مريم الى عيسى أن كلموه قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجة اشارت اليه ليكون كلامه حجة لها وقيل لما أشارت اليه غضب القوم وقالوا مع ما فعلت تسخرين بنا

و(قالوا كيف نكلم من كان) حدث ووجد (في المهد) المهود (صبيا) حال (قال اني عبد الله) ولما أسكتت بامر الله لسانها الناطق انطق الله لها اللسان الساكت حتى اعترف بالعبودية وهو ابن يوم روى انه اشار بسبابته وقال بصوت رفيع اني عبد الله وفيه رد لقول النصارى (آتاني الكتاب) الانجيل (وجعلني نبيا) روى عن الحسن انه كان في المهد نبيا وكلامه معجزته وقيل معناه ان ذلك سبق في قضائه او جعل الآتي لامحالة كانه وجد (وجعلني مباركا اينما كنت) ٢٤١ نفاعا حيث كنت او معلما للخير

(قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) قيل اراد بالمهد الحجر وهو حجرها وقيل هو المهد بعينه قيل لما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع واقبل عليهم وقيل لما أشارت اليه ترك الرضاع واتكأ على يساره وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه و (قال اني عبد الله) قال وهب أتاها زكريا عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق بحجتك ان كنت امرت بها فقال عند ذلك عيسى وهو ابن أربعين يوما وقيل بل يوم ولد اني عبد الله اقر على نفسه بالعبودية لله تعالى اول ما تكلم لئلا يتخذ الها فان قلت ان الذي اشتدت اليه الحاجة في ذلك الوقت نفي التهمة عن امه وان عيسى لم ينص على ذلك وانما نص على اثبات عبوديته لله تعالى قلت كأنه جعل ازالة التهمة عن الله تعالى اولى من ازالة التهمة عن امه فلهذا أول ما تكلم انما تكلم باعترافه على نفسه بالعبودية لتحصل ازالة التهمة عن الام لان الله تعالى لم يختص بهذه المرتبة العظيمة من ولد في زنا والتكلم بازالة التهمة عن امه لا يفيد ازالة التهمة عن الله سبحانه وتعالى فكان الاشتغال بذلك اولى (آتاني الكتاب وجعلني نبيا) قيل معناه سيجعلني نبيا ويؤتيني الكتاب وهو الانجيل وهذا اخبار عما كتب له في اللوح المحفوظ كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد وقال الاكثرون انه أوتي الانجيل وهو صغير وكان يعقل عقل الرجال الكمل وعن الحسن انه ألهم التوراة وهو في بطن أمه (وجعلني مباركا اينما كنت) معناه اني نفاع اينما توجهت وقيل معلما للخير أدعو الى الله والى توحيده وعبادته وقيل مباركا على من يتبعني (واوصاني بالصلوة والزكوة) اي امرني بهما وكلفني فعلهما فان قلت كيف يؤمر بالصلاة والزكاة في حال طفوليته وقد قال صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث الصبي حتى يبلغ الحديث قلت ان قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة لا يدل على انه تعالى اوصاه بادائهما في الحال بل المراد أوصاه بادائهما في الوقت المعين لهما وهو البلوغ وقيل ان الله تعالى صيره حين انفصل عن أمه بالغا عاقلا وهذا القول أظهر في سياق قوله (مادمت حيا) فانه يفيد ان هذا التكليف متوجه اليه في زمان جميع حياته حين كان في الارض وحين رفع الى السماء وحين ينزل الارض بعد رفعه (وبرا بوالدتي) اي وجعلني برا بوالدتي (ولم يجعلني جبارا شقيا) اي عاصيا لربي متكبرا على الخلق بل أنا خاضع متواضع وروى انه قال قلبي لين وأنا صغير في نفسي قال بعض العلماء لا تجد العاق الا جبارا شقيا وتلا هذه الآية وقيل الشقي الذي يذنب ولا يتوب (والسلام علي يوم ولدت) اي السلامة عند الولادة من طعن الشيطان (ويوم أموت) اي عند الموت من الشرك (ويوم أبعث حيا) اي من اهوال يوم القيامة فلما كلمهم عيسى بذلك علموا براءة مريم ثم سكت عيسى بعد فلم يتكلم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الاطفال (ذلك عيسى بن مريم) اي ذلك الذي قال اني عبد الله هو عيسى بن مريم (قول الحق) اي هذا الكلام هو القول الحق اضاف القول الى الحق وقيل هو نعت لعيسى يعني بذلك عيسى بن مريم كلمة الله الحق والحق هو الله (الذي فيه يمترون) اي يشكون ويختلفون فقائل يقول هو ابن الله وقائل يقول الله وقائل يقول ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ثم نزه نفسه عن اتخاذ

(واوصاني) وامرني (بالصلوة والزكوة) ان ملكت مالا وقيل صدقة الفطر أو تطهير البدن ويحتمل واوصاني بان آمركم بالصلاة والزكاة (مادمت حيا) نصب على الظرف اي مدة حياتي (وبرا بوالدتي) عطفا على مباركا اي بارا بها اكرمها وأعظمها (ولم يجعلني جبارا) متكبرا (شقيا) عاقا (والسلام علي يوم ولدت) يوم ظرف والعامل فيه الخبر وهو علي (ويوم اموت ويوم أبعث حيا) اي ذلك السلام الموجه الى يحيى في المواطن الثلاثة موجه الى ان كان حرف التعريف للعهد وان كان للجنس فالمعنى وجنس السلام علي وفيه تعريض باللعنة على اعداء مريم وابنها لانه اذا قال وجنس السلام علي فقد عرض بان ضده عليكم اذا لمقام مقام مناكرة وعناد فكان

مئنة لمثل هذا التعريض (ذلك) مبتدا (عيسى) خبره (ابن مريم) نعته اخبر بان اي ذلك الذي قال اني كذا وكذا عيسى بن مريم لا كما قالت النصارى انه اله او ابن الله (قول الحق) كلمة الله فالقول الكلمة والحق الله وقيل له كلمة الله لانه ولد بقوله كن بلا واسطة اب وارتفاعه على انه خبر بعد خبر أو خبر مبتدا محذوف او بدل من عيسى ونصبه على المدح او على المصدر اي اقول قول الحق هو ابن مريم وليس بالله كما يدعونه (الذي فيه يمترون) يشكون من المرية الشك او يختلفون من المراء فقالت اليهود ساحر كذاب وقالت النصارى ابن الله وثالث ثلاثة

(ما كان لله) ما ينبغي له (أن يتخذ من ولد) جيء بمن لتأكيد النفي (سبحانه) نزه ذاته عن اتخاذ الولد (اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون) بالنصب شامي اى كما قال لعيسى كن فكان من غير اب ومن كان متصفا بهذا كان منزها ان يشبه الحيوان الوالد (وان الله ربي وربكم فاعبدوه) بالكسر شامي وكوفي على الابتداء وهو من كلام عيسى يعني كما أنا عبده فانتم عبيده على وعليكم أن تعبدوه ومن فتح عطف على بالصلاة اى واوصاني بالصلاة وبالزكاة وبان الله ربي وربكم اوعلقه بما بعده اى ولان الله ربي وربكم فاعبدوه (هذا) الذي ذكرت (صراط مستقيم) فاعبدوه ولا تشركوا به شيأ (فاختلف الاحزاب) الحزب الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها وهم ثلاث فرق

(من بينهم) من بين اصحابه اومن بين قومه اومن بين الناس وذلك ان النصارى اختلفوا في عيسى حين رفع ثم اتفقوا على ان يرجعوا الى قول ثلاثة كانوا عندهم اعلم اهل زمانهم وهو يعقوب ونسطور وملكان فقال يعقوب هو الله هبط الى الارض ثم صعد الى السماء وقال نسطور كان ابن الله اظهره ماشاء ثم رفعه اليه وقال الثالث كذبوا كان عبدا مخلوقا نبيا فتبع كل واحد منهم قوم (فويل للذين كفروا) من الاحزاب اذا الواحد منهم على الحق (من مشهد يوم عظيم) هو يوم القيامة اومن شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة اومن شهادة ذلك اليوم عليهم وان تشهد عليهم الملائكة والانبياء وجوارحهم بالكفر أومن مكان الشهادة اووقتها اوالمراد يوم اجتماعهم للتشاور فيه وجعله عظيما لفظاعة ماشهدوا به في

الولد ونفاه عنه فقال تعالى (ما كان لله أن يتخذ من ولد) اى ما كان من صفاته اتخاذ الولد ولا ينبغي له ذلك (سبحانه اذا قضى أمرا) اى اذا اراد أن يحدث امرا (فانما يقول له كن فيكون) اى لا يتعذر عليه اتخاذه على الوجه الذي اراده (وان الله ربي وربكم فاعبدوه) هذا اخبار عن عيسى انه قال ذلك يعني ولان الله ربي وربكم لا رب للمخلوقات سواه (هذا صراط مستقيم) اى هذا الذي اخبرتكم به ان الله امرني به هو الصراط المستقيم الذي يؤدي الى الجنة (فاختلف الاحزاب من بينهم) يعني النصارى سموا احزابا لانهم تحزبوا ثلاث فرق في امر عيسى النسطورية والملكانية واليعقوبية (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) يعني يوم القيامة حين ٣ (أسمع بهم وأبصر) اى ما اسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر أخبر انهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ويبصروا في الدنيا وقيل معناه التهديد بما يسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم (يوم يأتوننا) اى يوم القيامة (لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين) قيل اراد باليوم الدنيا يعني انهم في الدنيا في خطأ بين وفي الآخرة يعرفون الحق وقيل معناه لكن الظالمون في الآخرة في ضلال عن طريق الجنة بخلاف المؤمنين قوله تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة) يعني خوف يا محمد كفار مكة يوم الحسرة سمي بذلك لان المسيء يتحسر هلا أحسن العمل والمحسن هلا زاد في الاحسان يدل عليه ما روى ابو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من احد يموت الا ندم قالوا ما ندمه يا رسول الله قال ان كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وان كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع اخرجه الترمذي (قوله أن لا يكون نزع) النزع عن الشيء الكف عنه وقال اكثر المفسرين يعني يوم الحسرة حين يذبح الموت (ق) عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد يا اهل الجنة فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادي مناد آخر يا اهل النار فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح بين الجنة والنار ثم يقول يا اهل الجنة خلود بلا موت ويا اهل النار خلود بلا موت ثم قرأ وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون وأشار بيده الى الدنيا زاد الترمذي فيه فلو أن احدا مات فرحا مات اهل الجنة ولو أن احدا مات حزنا مات اهل النار (قوله كهيئة كبش أملح) الاملح المختلط بالبياض والسواد (قوله فيشرفون) يقال أشرف الى الشيء اذا تطلع ينظر اليه ومالت نحوه نفسه (قوله فيذبح بين الجنة والنار) اعلم ان الموت عرض ليس بجسم في صورة كبش اوغيره فعلى هذا يتأول الحديث على ان الله تعالى يخلق هذا الجسم وهو حيوان فيذبح فيموت فلا يبقى يرجى له حياة ولا وجود وكذلك حال اهل الجنة والنار

عيسى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) الجمهور على ان لفظه امر ومعناه التعجب والله تعالى لا يوصف بالتعجب بعد ولكن المراد ان اسماعهم وابصارهم جدير بان يتعجب منهما بعدما كانوا صما وعميا في الدنيا قال قتادة ان عموا وصموا عن الحق في الدنيا فما اسمعهم وما ابصرهم بالهدى يوم لا ينفعهم وبهم مرفوع المحل على الفاعلية كاكرم بزيد فمعناه كرم زيد جدا (لكن الظالمون اليوم) أقيم الظاهر مقام المضمر اى لكنهم اليوم في الدنيا بظلمهم انفسهم حيث تركوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ووضعوا العبادة في غير موضعها (في ضلال) عن الحق (مبين) ظاهر وهو اعتقادهم عيسى الها معبودا مع ظهور آثار الحدوث فيه اشعارا بان لا ظلم اشد من ظلمهم (وأنذرهم) خوفهم (يوم الحسرة) يوم القيامة لانه يقع فيه الندم على ما فات وفي الحديث اذا رأوا منازلهم في الجنة أن لو آمنوا

(اذ) بدل من يوم الحسرة او ظرف للحسرة وهو مصدر (قضى الامر) فرغ من الحساب وتصادر الفريقان الى الجنة والنار (وهم
فى غفلة) هنا عن الاهتمام لذلك المقام (وهم لا يؤمنون) لا يصدقون به وهم وهم حالان اى وأنذرهم على هذه الحال غافلين غير
مؤمنين (انا نحن نرث الارض ومن عليها) اى ننفرد بالملك والبقاء عند تعميم الهلاك والفناء وذكر من لتغليب العقلاء (والينا يرجعون)
بضم الياء وفتح الجيم وفتح الياء يعقوب اى يردون فيجازون جزاء وفاقا (واذكر) لقومك (فى الكتاب) القرآن (ابراهيم) قصته مع أبيه
(انه كان صديقا نبيا) بغير همز وهمزه نافع قيل الصادق المستقيم فى الافعال والصديق المستقيم فى الاحوال فالصديق من أبنية المبالغة
ونظيره الضحيك والمراد فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله اى كان مصدقا لجميع الانبياء

وكتبهم وكان نبيا فى نفسه وهذه الجملة وقعت اعتراضا بين ابراهيم وبين ما هو بدل منه وهو (اذ قال) وجاز ان يتعلق اذ بكان او بصديقا نبيا اى كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين خاطب اباه بتلك المخاطبات والمراد بذكر الرسول اياه وقصته فى الكتاب ان يتلو ذلك على الناس ويبلغه اياهم كقوله واتل عليهم نبأ ابراهيم والا فالله عز وعلا هو ذاكره ومورده فى تنزيله (لابيه يا ابت) بكسر التاء وفتحها ابن عامر والتاء عوض من ياء الاضافة ولا يقال يا ابتى لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر) المفعول فيهما منسى غير منوى ويجوز ان يقدر اى لا يسمع شيأ ولا يبصر شيأ (ولا يغنى عنك شيأ)

بعد الاستقرار فيهما لا زوال لهما ولا انتقال (ق) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم اذا صار أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار جئ بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار فيذبح ثم
ينادى مناد يا أهل الجنة لا موت ويا اهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرحهم ويزداد أهل النار
حزنا الى حزنهم عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة احد الا أرى مقعده من
النار لو أساء ليزداد شكرا ولا يدخل النار أحد الا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة اخرجه
البخارى وقوله تعالى (اذ قضى الامر) اى فرغ من الحساب وأدخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار
وذبح الموت (وهم فى غفلة) اى عما يراد بهم فى الآخرة (وهم لا يؤمنون) اى لا يصدقون (انا نحن نرث
الارض ومن عليها) اى نميت سكان الارض جميعا ويبقى الله سبحانه وتعالى وحده فيرثهم (والينا
يرجعون) فنجزيهم باعمالهم * قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا) اى كثير
الصدق وهو مبالغة فى كونه صادقا وقيل الصديق الكثير التصديق قيل من صدق الله فى وحدانيته
وصدق أنبياءه ورسله وصدق بالبعث بعد الموت وقام بالامر فعمل بها فهو صديق ولما قربت رتبة
الصديق من رتبة النبى انتقل من ذكر كونه صديقا الى ذكر كونه نبيا والنبى العالى فى الرتبة بارسال الله
اياه وأى رتبة أعلى من رتبة من جعله الله تعالى واسطة بينه وبين عباده (اذ قال لابيه) يعنى آزر وهو
يعبد الاصنام (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع) يعنى صوتا (ولا يبصر) ولا ينظر شيأ (ولا يغنى عنك) اى يكفيك
(شيأ) وصف الاصنام بثلاثة أشياء كل واحد منها قادح فى الالهية وذلك ان العبادة هى غاية التعظيم للمعبود
فلا يستحقها الا من له ولابه الانعام وله أوصاف الكمال وهو الله تعالى فلا يستحق العبادة الا هو (يا أبت
انى قد جاءنى من العلم) يعنى بالله والمعرفة (ما لم يأتك فاتبعنى) اى على دينى (أهدك صراطا سويا) اى
مستقيما (يا أبت لا تعبد الشيطان) اى لا تطعه فيما يزين لك من الكفر والشرك (ان الشيطان كان
للرحمن عصيا) اى عاصيا (يا أبت انى أخاف) اى اعلم وقيل هو على ظاهره لانه يمكن ان يؤمن فيكون من
أهل الجنة او يصر على الكفر فيكون من اهل النار فحمل الخوف على ظاهره أولى واعلم ان ابراهيم عليه
الصلاة والسلام رتب هذا الكلام فى غاية الحسن مقرونا بالتلطف والرفق فان قوله فى مقدمة كلامه
يا ابت دليل على شدة الحب والرغبة فى صرفه عن العقاب وارشاده الى الصواب لانه نبه أولا على ما يدل على
المنع من عبادة الاصنام ثم أمره باتباعه فى الايمان ثم نبه على ان طاعة الشيطان غير جائزة فى العقول ثم ختم
الكلام بالوعيد الزاجر عن الاقدام على ما لا ينبغى بقوله انى اخاف (أن يمسك) اى يصيبك (عذاب من
الرحمن) اى ان اقمت على الكفر (فتكون للشيطان وليا) اى قرينا فى النار وقيل صديقا له فى النار

يحتمل ان يكون شيأ فى موضع المصدر اى شيأ من الاغناء وان يكون مفعولا به من قولك أغن عنى وجهك اى بعد (يا أبت انى قد جاءنى
من العلم) الوحى او معرفة الرب (ما لم يأتك) ما فى ما لا يسمع وما لم يأتك يجوز ان تكون موصولة او موصوفة (فاتبعنى أهدك) أرشدك
(صراطا سويا) مستقيما (يا أبت لا تعبد الشيطان) لا تطعه فيما سول من عبادة الصنم (ان الشيطان كان للرحمن عصيا) عاصيا (يا ابت
انى اخاف) قيل اعلم (أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) قرينا فى النار تليه ويليك فانظر فى نصيحته كيف رأى
المجاملة والرفق والخلق الحسن كما أمر فى الحديث أوحى الى ابراهيم انك خليلى حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الابرار فطلب
منه ولا العلة فى خطئه طلب منبه على تماديه موقظ لافراطه وتناهيه لان من يعبد أشرف الخلق منزلة وهم الانبياء كان محكوما عليه

بالغي المبين فكيف بمن يعبد حجرا اوشجرا لايسمع ذكر عابده ولايرى هيأت عبادته ولايرفع عنه بلاء ولايقضى له حاجة ثم ثنى بدعوته الى الحق مترفقا به متلطفا فلم يسم اباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال ان معى شيأ من العلم ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السوى فهب انى واياك فى مسير وعندى معرفة بالهداية دونك فاتبعنى انجك من ان تضل وتتيه ثم ثلث بنهيه عما كان عليه بان الشيطان الذى عصى الرحمن الذى جميع النعم منه أوقعك فى عبادة الصنم وزينها لك فأنت عابده فى الحقيقة ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة وما يجره ماهو فيه من التبعة والوبال مع مراعاة الادب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق به وان العذاب لاصق به بل قال أخاف ان يمسك عذاب بالتنكير المشعر بالتقليل كانه قال انى اخاف ان يصيبك نفيان من عذاب الرحمن وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة اشياعه واوليائه أكبر من العذاب كما ان رضوان الله أكبر من الثواب فى نفسه وصدر كل نصيحة بقوله يا ابت توسلا اليه واستعطافا واشعارا بوجوب احترام الاب وان كان كافرا فثم (قال) آزر توبيخا (أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم)

اى اترغب عن عبادتها فناداه باسمه ولم يقابل يا أبت ببا بنى وقدم الخبر على المبتدا لانه كان اهم عنده (لئن لم تنته) عن شتم الاصنام (لأرجمنك) لاقتلنك بالرجام او لاضربنك بها حتى تتباعد اولاشتمنك (واهجرنى) عطف على محذوف يدل عليه لارجمنك تقديره فاحذرنى واهجرنى (مليا) ظرف اى زمانا طويلا من الملاوة (قال سلام عليك) سلام توديع ومتاركة او تقريب وملاطفة ولذا وعده بالاستغفار بقوله (سأستغفر لك ربى) سأسأل الله أن يجعلك من أهل المغفرة بان يهديك للاسلام (انه كان بى حفيا) ملطفا بعموم النعم أو رحيما اومكرما

استخلصه

والحفاوة الرأفة والرحمة والكرامة (وأعتزلكم) اراد بالاعتزال المهاجرة من ارض بابل الى الشام (وماتدعون من دون الله) اى ماتعبدون من اصنامكم (وأدعو) واعبد (ربى) ثم قال تواضعا وهضما للنفس ومعرضا بشقاوتهم بدعاء آلهتهم (عسى أن لا اكون بدعاء ربى شقيا) اى كما شقيتم انتم بعبادة الاصنام (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) فلما اعتزل الكفار ومعبودهم (وهبنا له اسحق) ولدا (و يعقوب) نافلة ليستأنس بهما (وكلا) كل واحد منهما (جعلنا نبيا) اى لما ترك الكفار الفجار لوجهه عوضه اولادا مؤمنين انبياء (ووهبنا لهم من رحمتنا) هى المال والولد (وجعلنا لهم لسان صدق) ثناء حسنا وهو الصلاة على ابراهيم وآل ابراهيم فى الصلوات وعبر باللسان كما عبر باليد مما يطلق باليد وهى العطية (عليا) رفيعا مشهورا (واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا) كوفى غير المفضل اى أخلصه الله واصطفاه ومخلصا بالكسر غيرهم اى أخلص هو العبادة لله تعالى فهو مخلص بماله من السعادة بأصل الفطرة ومخلص فيما عليه من العبادة بصدق الهمة

وانما فعل ابراهيم عليه الصلاة والسلام هذا مع ابيه لامور احدها الشدة تعلق قلبه بصلاحية ابيه واداء حق الابوة والرفق به وثانيها ان النبى الهادى الى الحق لابد أن يكون رفيقا لطيفا حتى يقبل منه كلامه وثالثها النصح لكل أحد فالاب أولى (قال) يعنى أباه مجيبا له (أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم) اى اتاركها انت وتارك عبادتها (لئن لم تنته) اى ترجع وتسكت عن عيبك آلهتنا وشتمك اياها (لارجمنك) قال ابن عباس معناه لاضربنك وقيل لاقتلنك بالحجارة وقيل لاشتمنك وقيل لابعدنك عنى بالقول القبيح والقول الاول هو الصحيح (واهجرنى) اى اجتنبنى قال ابن عباس اعتزلنى سالما لايصيبنك منى معرة (مليا) اى دهرا طويلا (قال) يعنى ابراهيم (سلام عليك) اى سلمت منى لاصيبك بمكروه وذلك لانه لم يؤمر بقتاله على كفره وقيل هذا سلام هجران ومفارقة وقيل هو سلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه (سأستغفر لك ربى) قيل انه لما اعياه امره ووعده ان يراجع الله فيه فيسأله ان يرزقه التوحيد و يغفر له وقيل معناه سأسأل لك ربى توبة تنال بها المغفرة (انه كان بى حفيا) اى بارا لطيفا والمراد انه يستجيب لى اذا دعوته لانه عودنى الاجابة لدعائى (وأعتزلكم وماتدعون من دون الله) اى أفارقكم وأفارق ماتعبدون من دون الله وذلك انه فارقهم وهاجر الى الارض المقدسة (وأدعو ربى) اى اعبد ربى الذى خلقنى وانعم على (عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا) اى ارجو ان لا أشقى بدعاء ربى وعبادته كما تشقون أنتم بعبادة الاصنام ففيه التواضع له مع التعريض بشقاوتهم * قوله عز وجل (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) اى ذهب مهاجرا (وهبنا له) اى بعد الهجرة (اسحق و يعقوب) اى آنسناه وحشته من فراقهم باولادا كرم على الله من ابيه (وكلا جعلنا نبيا) اى انعمنا عليهما بالنبوة (ووهبنا لهم من رحمتنا) اى مع ماوهبنا لهم من النبوة وهبنا لهم المال والولد وذلك انه بسط لهم فى الدنيا من سعة الرزق وكثرة الاولاد (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) يعنى ثناء حسنا رفيعا فى أهل كل دين حتى ادعاهم أهل الاديان كلهم فهم يتولونهم ويثنون عليهم * قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا) قرئ بكسر اللام اى أخلص العبادة والطاعة لله تعالى ولم يراء وقرئ بالفتح اى مختارا اختاره الله تعالى ثم

(وكان رسولا نبيا) الرسول الذى معه كتاب من الانبياء والنبى الذى ينبئ عن الله عزوجل وان لم يكن معه كتاب كيوشع (وناديناه) دعوناه وكلمناه ليلة الجمعة (من جانب الطور) هو جبل بين مصر ومدين (الايمن) من اليمين اى من ناحية اليمين والجمهور على ان المراد أيمن موسى عليه السلام لان الجبل لا يمين له والمعنى انه حين أقبل من مدين يريد مصر نودى من الشجرة وكانت فى جانب الجبل على يمين موسى عليه السلام (وقربناه) تقريب منزلة ومكانة لا منزل ومكان (نجيا) حال اى مناجيا كنديم بمعنى منادم (ووهبنا له من رحمتنا) من أجل رحمتنا له وترؤفنا عليه (أخاه) مفعول (هرون) بدل منه (نبيا) حال اى وهبنا له نبوة أخيه والافهرون كان أكبر سنا منه (واذكر فى الكتاب اسمعيل) هو ابن ابراهيم فى الاصح (انه كان صادق الوعد) ٢٤٥ وافيه وعد رجلا ان يقيم مكانه حتى

استخلصه واصطفاه (وكان رسولا نبيا) فهذان وصفان مختلفان فكل رسول نبى ولا عكس (وناديناه من جانب الطور الايمن) اى من ناحية يمين موسى والطور جبل معروف بين مصر ومدين ويقال ان اسمه الزبير وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار فنودى يا موسى انى انا الله رب العالمين (وقربناه) قال ابن عباس قربه وكلمه ومعنى التقريب اسماعه كلامه وقيل رفعه على الحجب حتى سمع صرير الاقلام وقيل معناه رفع قدره ومنزلته اى وشرفناه بالمناجاة وهو قوله تعالى (نجيا) اى مناجيا (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) وذلك ان موسى دعا ربه فقال واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى فاجاب الله دعوته وارسل الى هرون ولذلك سماه هبة له وكان هرون أكبر من موسى * قوله عزوجل (واذكر فى الكتاب اسمعيل) هو اسمعيل بن ابراهيم وهو جد النبى صلى الله عليه وسلم (انه كان صادق الوعد) قيل انه لم يعد شيأ الا وفى به وقيل انه وعد رجلا ان يقوم مكانه حتى يرجع الرجل فوقف اسمعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع اليه الرجل وقيل انه وعد من نفسه الصبر على الذبح ففى به فوصفه الله بهذا الخلق الحسن الشريف سئل الشعبى عن الرجل يعد ميعادا الى اى وقت ينتظر فقال ان وعده نهارا فكل النهار وان وعده ليلا فكل الليل وسئل بعضهم عن مثل ذلك فقال ان وعده فى وقت صلاة ينتظر الى وقت صلاة أخرى (وكان رسولا) الى جرهم وهم قبيلة من عرب اليمن نزلوا على هاجر أم اسمعيل بوادى مكة حين خلفهم ابراهيم وجرهم هو جرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ وقحطان أبو قبائل اليمن (نبيا) اى مخبرا عن الله تعالى (وكان يأمر أهله) اى قومه وجميع أمته (بالصلوة والزكوة) قال ابن عباس يريد بالصلاة المفروضة عليهم وهى الحنيفية التى افترضت علينا وقيل كان يبدأ باهله فى الامر بالصلاة والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم (وكان عند ربه مرضيا) اى قائما لله بطاعته وقيل رضيه لنبوته ورسالته وهذا نهاية فى المدح لان المرضى عند الله هو الفائز فى كل طاعة باعلى الدرجات * قوله عزوجل (واذكر فى الكتاب ادريس) هو جد ابى نوح واسمه أخنوخ سمى ادريس لكثرة درسه الكتب وكان خياطا وهو اول من خط بالقلم واول من خاط الثياب ولبس المخيط وكانوا من قبل يلبسون الجلود وهو أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار واول من نظر فى علم الحساب (انه كان صديقا نبيا) وذلك ان الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة (ورفعناه مكانا عليا) قيل هى الرفعة بعلو المرتبة فى الدنيا وقيل انه رفع الى السماء وهو الاصح يدل عليه ما روى أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه رأى ادريس فى السماء الرابعة ليلة المعراج متفق عليه وكان سبب رفع ادريس الى السماء الرابعة على ما قاله كعب الاحبار وغيره انه سار ذات يوم فى حاجة فاصابه وهج الشمس فقال يا رب انى مشيت

يعود اليه فانتظره سنة فى مكانه حتى عاد وناهيك انه وعد من نفسه الصبر على الذبح ففى وقيل لم يعد به موعدا الا انجزه وانما خصه بصدق الوعد وان كان موجودا فى غيره من الانبياء تشريفا له وكانه المشهور من خصاله (وكان رسولا) الى جرهم (نبيا) مخبرا منذرا (وكان يأمر أهله) امته لان النبى ابو امته واهل بيته وفيه دليل على انه لم يدا هن غيره (بالصلوة والزكوة) يحتمل انه انما خصت هاتان العبادتان لانهما اما العبادات البدنية او المالية (وكان عند ربه مرضيا) قرئ مرضوا على الاصل (واذكر فى الكتاب ادريس) هو اخنوخ اول مرسل بعد آدم عليه السلام واول من خط بالقلم وخاط اللباس ونظر فى علم النجوم والحساب واتخذ الموازين

والمكاييل والاسلحة فقاتل بنى قابيل وقولهم سمى به لكثرة دراسته كتب الله لا يصح لانه لو كان افعيلا من الدرس لم يكن فيه الا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفا فامتناعه من الصرف دليل العجمة (انه كان صديقا نبيا) أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة (ورفعناه مكانا عليا) هو شرف النبوة والزلفى عند الله وقيل معناه رفعته الملائكة الى السماء الرابعة وقد رآه النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فيها وعن الحسن الى الجنة لا شئ أعلى من الجنة وذلك انه حبب لكثرة عبادته الى الملائكة فقال لملك الموت اذقنى الموت يهن على ففعل ثم باذن الله فى وقال أدخلنى النار ازدد رهبة ففعل ثم قال ادخلنى الجنة ازدد رغبة ثم قال له اخرج فقال قد ذقت الموت ووردت النار فانا بخارج من الجنة فقال الله عزوجل باذنى فعل وباذنى دخل فدعه

يوما فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يا رب خلقتنى لحر الشمس فما الذى قضيت فيه قال ان عبدى ادريس سألنى اى أخفف عنك حملها وحرها فاجبته قال يا رب فاجمع بينى و بينه واجعل بينى و بينه خلة فاذن له حتى أتى ادريس فكان ادريس يسأله فكان مما سأله ان قال انى أخبرت انك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لى اليه ليؤخر أجلى لعلى أزداد شكرا وعبادة فقال الملك لا يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها وانا مكلمه فرفعه الى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك الموت فقال له لى اليك حاجة صديق لى من بنى آدم تشفع بى اليك لتؤخر أجله فقال ملك الموت ليس لى ذلك ولكن ان احببت اعلمته أجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر فى ديوانه فقال انك كلمتنى فى انسان ما أراه يموت أبدا قال وكيف ذلك فقال لا أجده يموت الا عند مطلع الشمس قال انى اتيتك وتركته هناك قال انطلق فلا أراك تجده الا وقد مات فوالله ما بقى من عمر ادريس شئ فرجع الملك فوجده ميتا وقال وهب كان يرفع لادريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الارض فى زمانه فعجب منه الملائكة واشتاق اليه ملك الموت فاستأذن ربه فى زيارته فاذن له فاتاه فى صورة بنى آدم وكان ادريس يصوم الدهر فلما كان وقت افطاره دعاه الى الطعام فابى ان يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فانكره ادريس وقال له فى الليلة الثالثة انى أريد ان أعلم من انت قال انا ملك الموت استأذنت ربى ان أصحبك فقال لى اليك حاجة قال وما هى قال تقبض روحى فاوحى الله اليه ان اقبض روحه فقبض روحه ورده الله اليه بعد ساعة فقال له ملك الموت ما الفائدة فى سؤالك قبض الروح قال لأذوق كرب الموت وغمه فاكون اشد استعدادا له ثم قال له ادريس لى اليك حاجة أخرى قال وما هى قال ترفعنى الى السماء لانظر اليها والى الجنة والنار فاذن الله له فرفعه فلما قرب من النار قال لى اليك حاجة قال وما هى قال أريد ان اسأل مالكا ان يرفع أبوابها فاردها ففعل قال فكما اريتنى النار فارنى الجنة فذهب به الى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها فادخله الجنة ثم قال له ملك الموت أخرج لتعود الى مقرك فتعلق بشجرة وقال ما أخرج منها فبعث الله اليه ملكا حكما بينهما قال له الملك ما لك لا تخرج قال لان الله تعالى قال كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته ثم قال وان منكم الا واردها فانا وردتها وقال وما هم منها بمخرجين فلست أخرج فاوحى الله تعالى الى ملك الموت باذنى دخل الجنة وبامرى لا يخرج فهو حى هناك فذلك قوله تعالى ورفعناه مكانا عليا واختلفوا فى انه حى فى السماء ام ميت فقال قوم هو ميت واستدل بالاول وقال قوم هو حى واستدل بهذا وقال أربعة من الانبياء احياء اثنان فى الارض وهما الخضر والياس واثنان فى السماء وهما ادريس وعيسى * قوله عز وجل (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين) أولئك اشارة الى المذكورين فى هذه السورة أنعم الله عليهم بالنبوة وغيرها مما تقدم وصفه (من ذرية آدم) يعنى ادريس ونوحا (وممن حملنا مع نوح) اى ومن ذرية من حملنا مع نوح فى السفينة يريد ابراهيم لانه من ولد سام بن نوح (ومن ذرية ابراهيم) يعنى اسحق واسمعيل ويعقوب (واسرائيل) اى ومن ذرية اسرائيل وهو يعقوب وهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم فرتب الله تعالى أحوال الانبياء الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبها بذلك على انهم كما شرفوا بالنبوة شرفوا بالنسب ثم قال تعالى (وممن هدينا واجتبينا) اى هؤلاء ممن أرشدنا واصطفينا وقيل ممن هدينا الى الاسلام واجتبينا على الانام (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا) جمع ساجد (وبكيا) جمع باك أخبر الله تعالى ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا اذا سمعوا آيات الله سجدوا وبكوا خضوعا وخشوعا وخوفا وحذرا والمراد من الآيات ما خصهم به من الكتب المنزلة عليهم وقيل المراد من الآيات ذكر الجنة والنار والوعد والوعيد ففيه استحباب البكاء وخشوع القلب عند سماع القرآن

الانبياء منعم عليهم (من ذرية آدم) من للتبعيض وكان ادريس من ذرية آدم لقربه منه لانه حد أبى نوح (وممن حملنا مع نوح) ابراهيم من ذرية من حمل مع نوح لانه ولد سام بن نوح (ومن ذرية ابراهيم) اسمعيل واسحق ويعقوب (واسرائيل) اى ومن ذرية اسرائيل اى يعقوب وهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى لان مريم من ذريته (وممن) يحتمل العطف على من الاولى والثانية (هدينا) لمحاسن الاسلام (واجتبينا) من الانام او لشرح الشريعة وكشف الحقيقة (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن) اى اذا تليت عليهم كتب الله المنزلة وهو كلام مستأنف ان جعلت الذين خبر الاولئك وان جعلته صفة له كان خبرا يتلى بالياء قتيبة لوجود الفاصل مع ان التأنيث غير حقيقى (خروا سجدا) سقطوا على وجوههم ساجدين رغبة (وبكيا) باكين رهبة جمع باك كسجود وقعود فى جمع ساجد وقاعد فى الحديث اتلوا القرآن وابكوا وان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المرى قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى يا صالح هذه القراءة فاين البكاء ويقول فى سجود التلاوة سبحان ربى الاعلى ثلاثا

(فخلف من بعدهم) فجاء من بعدهؤلاء المفضلين (خلف) اولاد سوء وبفتح اللام العقب الخير عن ابن عباس هم اليهود (أضاعوا الصلوة) تركوا الصلاة المفروضة (واتبعوا الشهوات) ملاذ النفوس وعن علي رضي الله عنه من بني الشديد وركب المنظور ولبس المشهور وعن قتادة رضي الله عنه هو في هذه الامة (فسوف يلقون غيا) جزاء غي وكل شر عند العرب غي وكل خير رشاد وعن ابن عباس وابن مسعود هو واد في جهنم اعد للمصرين على الزنا وشارب الخمر وآكل الربا والعاق وشاهد الزور (الا من تاب) رجع عن كفره (وآمن) بشرطه (وعمل صالحا) بعد ايمانه (فاولئك يدخلون الجنة) بضم الياء وفتح الخاء ٢٤٧ مكي و بصري وأبو بكر (ولا يظلمون شيأ) اي لا ينقصون شيأ من جزاء اعمالهم ولا يمنعونه بل يضاعف لهم اولا يظلمون شيأ من الظلم (جنات) بدل من الجنة لان الجنة تشتمل على جنات عدن لانها جنس او نصب على المدح (عدن) معرفة لانها علم لمعنى العدن وهو الاقامة او علم لارض الجنة لكونها مقام اقامة (التي وعد الرحمن عباده) اي عباده التائبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات كما سبق ذكرهم ولانه اضافهم اليه وهو للاختصاص وهؤلاء اهل الاختصاص (بالغيب) اي وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة او هم غائبون عنها لا يشاهدونها (انه) ضمير الشان او ضمير الرحمن (كان وعده) اي موعوده وهو الجنة (مأتيا) اي هم يأتونها (لا يسمعون فيها) في الجنة (لغوا) فحشا او كذبا ولا طائل تحته من الكلام وهو المطروح منه وفيه تنبيه على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه داره التي لا تكليف فيها (الا سلاما) اي لكن يسمعون سلاما من الملائكة او من بعضهم على بعض او لا يسمعون فيها الا قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة فهو استثناء منقطع عند الجمهور وقيل معنى السلام هو الدعاء بالسلامة ولما كان أهل دار السلام أغنياء عن الدعاء بالسلامة كان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الاكرام (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) اي يؤتون بارزاقهم على مقدار طرفي النهار من الدنيا اذ لا ليل ولا نهار ثم لانهم في النور ابدا وانما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب ومقدار الليل بارخائها والرزق بالبكرة والعشي افضل العيش عند العرب فوصف الله جنته بذلك وقيل أراد دوام الرزق كما تقول انا عند فلان بكرة وعشيا تريد الدوام

(فصل) وسجدة سورة مريم من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع ان يسجد عند تلاوة هذه السجدة وقيل يستحب لمن قرأ آية سجدة فسجد ان يدعو بما يناسب تلك السجدة فان قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلني من الباكين اليك والخاشعين لك وان قرأ سجدة مريم قال اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وان سجد سجدة الم السجدة قال اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن امرك قوله تعالى (فخلف من بعدهم) اي من بعد النبيين المذكورين (خلف) اي قوم سوء أرادبهم اليهود ومن لحق بهم وتابعهم وقيل هم في هذه الامة (أضاعوا الصلوة) اي تركوا الصلاة المفروضة وقيل أخروها عن وقتها وهو ان لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى تأتي المغرب (واتبعوا الشهوات) اي آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله تعالى وقيل اتبعوا المعاصي وشرب الخمور وقيل هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الاسواق والازقة (فسوف يلقون غيا) قال ابن عباس الغي واد في جهنم وان اودية جهنم لتستعيذ من حر واعد للزاني المصر عليه ولشارب الخمر المدمن له ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ولاهل العقوق ولشاهد الزور وقيل هو واد في جهنم بعيد قعره خبيث طعمه يسيل قيحا ودما وقيل هو واد في جهنم ابعدها قعرا وأشدها حرا فيه بئر تسمى الهيم كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فتستعر بها جهنم وقيل معنى غيا خسرانا وقيل هلاكا وعذابا وليس معنى يلقون يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية قوله تعالى (الا من تاب وآمن وعمل صالحا) يعني الا من تاب من التقصير في الصلوات والمعاصي وآمن من الكفر وعمل صالحا بطاعة الله تعالى (فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيأ) اي لا ينقصون شيأ ثم وصف الجنة فقال تعالى (جنات عدن) اي بساتين اقامة وصفها بالدوام بخلاف جنات الدنيا فانها لا تدوم (التي وعد الرحمن عباده بالغيب) اي انهم لا يرونها فهي غائبة عنهم وهم غائبون عنها (انه كان وعده مأتيا) اي آتيا وقيل معنى وعده موعوده وهو الجنة مأتيا اي يأتيه أولياء الله وأهل طاعته (لا يسمعون فيها لغوا) اي باطلا وفحشا وهو فضول الكلام (الا سلاما) يعني بل يسمعون فيها سلاما والسلام اسم جامع للخير لانه يتضمن معنى السلامة وذلك ان أهل الجنة لا يسمعون فيها ما يؤلمهم انما يسمعون تسليمهم وقيل هو تسليم بعضهم على بعض وتسليم الملائكة عليهم وقيل هو تسليم الله عليهم (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال اهل التفسير ليس في الجنة ليل ولا نهار حتى يعرف بالبكرة والعشي بل هم في نور ابدا ولكنهم يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار كعادتهم في الدنيا وقيل انهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب ووقت الليل بارخاء الحجب وقيل المراد منه رفاهية العيش وسعة الرزق من غير تضييق ولا تقتير وقيل كانت العرب لا تعرف أفضل من الرزق الذي يؤتى به

(تلك الجنة التي نورث من عبادنا) اى نجعلها ميراث اعمالهم يعنى ثمرتها وعاقبتها وقيل يرثون المساكن التى كانت لاهل النار لو آمنوا لان الكفر موت حكما (من كان تقيا) عن الشرك عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبي عليه السلام قال يا جبريل ما منعك ان تزورنا اكثر مما تزورنا فنزل (وما نتنزل الا بأمر ربك) والتنزل على معنيين معنى النزول على مهل ومعنى النزول على الاطلاق والاول ألبق هنا يعنى ان نزولنا فى الاحايين وقتا غب وقت ليس الا بأمر الله (له ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) اى له ما قدامنا وما خلفنا من الاماكن ومانحن فيها فلا نتمالك ان ننتقل من مكان الى مكان الا بأمر الملك ومشيئته وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون وما يحدث من الاحوال لا تجوز عليه الغفلة والنسيان فأنا لنا ان نتقلب فى ملكوته الا اذا أذن لنا فيه (رب السموات والارض وما بينهما) بدل من ربك او خبر مبتدا محذوف اى هو رب السموات والارض ٢٤٨ ثم قال لرسوله لما عرفت انه متصف بهذه الصفات (فاعبده) فاثبت على عبادته

(واصطبر لعبادته) اى اصبر على مكافأة الجحود لعبادة المعبود واصبر على المشاق لاجل عبادة الخلاق اى لتتمكن من الاتيان بها (هل تعلم له سميا) شبيها ومثلا او هل يسمى احد باسم الله غيره لانه مخصوص بالمعبود بالحق اى اذا صح ان لا معبود توجه اليه العباد العبادة الا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها فعلت ابى بن خلف عظاما وقال أنبعث بعد ما صرنا كذا فنزل (ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف اخرج حيا) والعامل فى اذا ما دل عليه الكلام وهو أبعث اى اذا ما مت أبعث وانتصابه باخرج ممتنع لان ما بعد لام الابتداء لا يعمل فيما قبلها فلا تقول اليوم لزيد قائم ولام الابتداء الداخلة على المضارع تعطى معنى الحال وتؤكد مضمون الجملة فلما جامعت لو حرف الاستقبال خلصت للتوكيد واضمحل معنى الحال وما فى اذا ما للتوكيد ايضا فكأنه قال أحقا اناسخرج من القبور احياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك على وجه الاستنكار والاستبعاد وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الانكار من قبل ان ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ومنه جاء انكارهم (اولا يذكر الانسان) خفيف شامى ونافع وعاصم من الذكر والسائر بتشديد الذال والكاف واصله يتذكر كقراءة أبى فادغمت التاء فى الذال اى اولا يتدبر والواو عطفت لا يذكر على يقول ووسطت همزة الانكار بين المعطوف عليه وحرف العطف يعنى أيقول ذلك ولا يتذكر حال النشأة الاولى حتى لا ينكر النشأة الاخرى فان تلك ادل على قدرة الخالق حيث اخرج الجواهر والاعراض من العدم الى الوجود واما الثانية فليس فيها الا تأليف الاجزاء الموجودة وردها الى ما كانت عليه مجموعة بعد التفريق (انا خلقناه من قبل) من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه (ولم يك شيأ) هو دليل على ما بيناه وعلى ان المعدوم ليس بشئ خلافا للمعتزلة

(فوربك لنحشرنهم) اى الكفار المنكرين للبعث (والشياطين) الواو للعطف وبمعنى مع أو قع اى يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان فى سلسلة وفى أقسام الله باسمه مضافا الى رسوله تفخيم لشان رسوله (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) حال جمع جاث اى بارك على الركب ووزنه فعول لان أصله جثوو كسجود وساجد ٢٤٩ اى يقبلون من المحشر الى شاطئ

لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة فى البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه اذ لا شك ان الاعادة ثانيا أهون من الايجاد أولا ثم اقسم بنفسه فقال تعالى (فوربك) وفيه تشريف للنبى صلى الله عليه وسلم (لنحشرنهم) اى لنجمعنهم فى المعاد يعنى المشركين المنكرين للبعث (والشياطين) اى مع الشياطين وذلك انه يحشر كل كافر مع شيطان فى سلسلة (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) قال ابن عباس جماعات وقيل جاثين على الركب اضيق المكان وقيل ان البارك على ركبتيه صورته كصورة الذليل فان قلت هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل أمة جاثية قلت وصفوا بالجثو على العادة المعهودة فى مواقف المقالات والمناقلات وذلك لما فيه من القلق مما يدهمهم من شدة الامور التى لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوا (ثم لننزعن) اى لنخرجن (من كل شيعة) اى من كل أمة واهل دين من الكفار (أيهم أشد على الرحمن عتيا) قال ابن عباس يعنى جرأة وقيل فجورا وتمردا وقيل قائدهم ورئيسهم فى الشرك والمعنى انه يقدم فى ادخال النار الاعتى فالاعتى ممن هو اكبر جرما وأشد كفرا وفى بعض الاخبار انهم يحضرون جميعا حول جهنم مسلسلين مغلولين ثم يقدم الاكفر فالاكفر فمن كان أشد منهم تمردا فى كفره خص بعذاب أعظم وأشد لان عذاب الضال المضل واجب أن يكون فوق عذاب الضال التابع لغيره فى الضلال وفائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص باصل العذاب فلذلك قال فى جميعهم (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) ولا يقال اولى الامم اشتراك القوم فى العذاب وقيل معنى الآية انهم احق بدخول النار * قوله عز وجل (وان منكم الا واردها) اى وما منكم الا واردها وقيل القسم فيه مضمر أى والله ما منكم من احد الا واردها والورود هو موافاة المكان واختلفوا فى معنى الورود ههنا وفيما تنصرف اليه الكناية فى قوله واردها فقال ابن عباس والاكثرون معنى الورود ههنا الدخول والكناية راجعة الى النار فيدخلها البر والفاجر ثم ينجى الله الذين اتقوا منها يدل عليه ما روى ان نافع بن الازرق سأل ابن عباس فى الورود فقال ابن عباس هو الدخول فقال نافع ليس الورود الدخول فقرا ابن عباس انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ادخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع والله انا وانت سنردها وأنا ارجو أن يخرجنى الله منها وما ارى الله ان يخرجك منها بتكذيبك فمن قال بدخول المؤمنين النار يقول من غير خوف ولا ضرر ولا عذاب البتة بل مع الغبطة والسرور لان الله تعالى أخبر عنهم انهم لا يحزنهم الفزع الاكبر فان قلت كيف يدفع عن المؤمنين حر النار وعذابها قلت يحتمل ان الله تعالى يخمد النار فتعبرها المؤمنون ويحتمل ان الله تعالى يجعل الاجزاء الملاصقة لابدان الكفار من النار محرقة والاجزاء الملاصقة لابدان المؤمنين تكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت فى حق ابراهيم عليه السلام وكما ان الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها فان قلت اذا لم يكن على المؤمنين عذاب فما فائدة دخولهم النار قلت فيه وجوه أحدها ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منه وثانيها ان فيه مزيد غم على اهل النار حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها وثالثها انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب الذى على الكفار صار ذلك سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة وقال قوم ليس المراد من الورود الدخول وقالوا لا يدخل النار مؤمن أبدا لقوله تعالى ان

جهنم عتلا على حالهم التى كانوا عليها فى الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم (ثم لننزعن من كل شيعة) طائفة شاعت اى تبعت غاويا من الغواة (أيهم أشد على الرحمن عتيا) جرأة او فجورا اى لنخرجن من كل طائفة من طوائف الغى اعتاهم فأعتاهم فاذا اجتمعوا طرحناهم فى النار على الترتيب نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم وقيل المراد باشدهم عتيا الرؤساء لتضاعف جرمهم لكونهم ضلالا ومضلين قال سيبويه أيهم مبنى على الضم لسقوط صدر الجملة التى هى صلته وهو هو من هو أشد حتى لو جىء به لاعرب بالنصب وقيل أيهم هو أشد وهذا لان الصلة توضح الموصول وتبينه كما ان المضاف اليه يوضح المضاف ويخصصه فكما ان حذف المضاف اليه فى من قبل يوجب بناء المضاف وجب ان يكون حذف الصلة او شىء منها موجبا للبناء وموضعها

نصب بننزع وقال الخليل هى معربة وهى مبتدا وأشد خبره وهو رفع على الحكاية بتقديره لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد على الرحمن عتيا ويجوز ان يكون النزع واقعا على من كل شيعة كقوله ووهبنا لهم من رحمتنا اى لننزعن بعض كل شيعة فكان قائلا قال من هم فقيل أيهم اشد عتيا وعلى يتعلق بافعل اى عتوهم اشد على الرحمن (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها) أحق بالنار (صليا) تمييز اى دخولا والباء تتعلق بأولى (وان منكم) احد (الا واردها) داخلها والمراد النار والورود الدخول عند

على وابن عباس رضى الله عنهم وعليه جمهور اهل السنة لقوله تعالى فأوردهم النار ولقوله تعالى لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ولقوله ثم ننجى الذين اتقوا اذا النجاة انما تكون ٢٥٠ بعد الدخول ولقوله عليه السلام الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون

الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها فعلى هذا يكون المراد من الورود الحضور والرؤية لا الدخول كما قال تعالى ولما ورد ماء مدين أراد به الحضور وقال عكرمة الآية فى الكفار فانهم يدخلونها ولا يخرجون منها وروى عن ابن مسعود انه قال وان منكم الا واردها يعنى القيامة والكناية راجعة اليها والقول الاول أصح وعليه أهل السنة فانهم جميعا يدخلون النار ثم يخرج الله منها اهل الايمان بدليل قوله تعالى ثم ننجى الذين اتقوا اى الشرك وهم المؤمنون والنجاة انما تكون مما دخلت فيه يدل عليه ما روى عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت لاحد من المؤمنين ثلاثة من الولد فتمسه النار الا تحلة القسم وفى رواية فيلج النار الا تحلة القسم أخرجاه فى الصحيحين أراد بالقسم قوله تعالى وان منكم الا واردها (م) عن أم مبشر الانصارية انها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة لا يدخل النار ان شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها قالت بلى يا رسول الله فانتهرها فقالت حفصة وان منكم الا واردها فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد قال الله تعالى ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا وقال خالد بن معدان يقول اهل الجنة ألم يعدنا ربنا أن نرد النار فيقال بلى ولكنكم مررتم بها وهى خامدة وفى الحديث تقول النار للمؤمن جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى وروى عن مجاهد فى قوله تعالى وان منكم الا واردها قال من حم من المسلمين فقد وردها وفى الخبر الحمى كير من جهنم وهى حظ المؤمن من النار (ق) عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء (قوله فيح جهنم) اى وهجها وحرها وقوله تعالى (كان على ربك حتما مقضيا) اى كان ورود جهنم قضاء لازما قضاه الله تعالى عليكم وأوجبه (ثم ننجى الذين اتقوا) اى الشرك (ونذر الظالمين فيها جثيا) اى جميعا وقيل جاثين على الركب قالت المعتزلة فى الآية دليل على صحة مذهبهم فى ان صاحب الكبيرة والفاسق يخلد فى النار بدليل ان الله بين ان الكل يردونها ثم بين صفة من ينجو منها وهم المتقون والفاسق لا يكون متقيا فبقى فى النار ابدا واجيب عنه بان المتقى هو الذى يتقى الشرك بقوله لا اله الا الله و يشهد لصحة ذلك ان من آمن بالله ورسوله صح ان يقال انه متق من الشرك ومن صدق عليه انه متق من الشرك صح انه متق لان المتقى جزء من المتقى من الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد فثبت ان صاحب الكبيرة متق واذا ثبت ذلك وجب ان يخرج من النار بعموم قوله تعالى ثم ننجى الذين اتقوا فصارت الآية التى توهموها دليلا لهم من أقوى الدلائل على فساد قولهم وهذا من حيث البحث واما من حيث النص فقد وردت أحاديث تدل على اخراج المؤمن الموحد من النار (خ) عن أنس ابن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير و يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه و زن برة من خير و يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه و زن ذرة من خير وفى رواية من ايمان (ق) عن ابى هريرة رضى الله عنه ان الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا يا رسول الله قال هل تمارون فى الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال فانكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول الله من كان يعبد شيأ فليتبع فمنهم من يتبع الشمس ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت وتبقى هذه الامة فيها منافقوها فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهرانى

على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على ابراهيم وتقول النار للمؤمن جز يا مؤمن فان نورك أطفأ لهبى وقيل الورود بمعنى الدخول لكنه يختص بالكفار لقراءة ابن عباس وان منهم وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات وعن عبد الله الورود الحضور لقوله تعالى ولما ورد ماء مدين وقوله أولئك عنها مبعدون وأجيب عنه بان المراد من عذابها وعن الحسن وقتادة الورود المرور على الصراط لان الصراط ممدود عليها فيسلم اهل الجنة ويتقاذف اهل النار وعن مجاهد ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده فى الدنيا لقوله عليه السلام الحمى حظ كل مؤمن من النار وقال رجل من الصحابة لآخر أيقنت بالورود قال نعم قال وايقنت بالصدر قال لا قال ففيم الضحك وفيم التثاقل (كان على ربك حتما مقضيا) اى كان ورودهم واجبا كائنا محكوما والحتم مصدر حتم الامر اذا اوجبه فسمى به الموجب كقولهم ضرب الامير (ثم ننجى) وعلى بالتخفيف (الذين اتقوا) عن الشرك جهنم وهم المؤمنون (ونذر الظالمين فيها جثيا) فيه دليل على دخول الكل لانه قال ونذر ولم يقل وندخل والمذهب ان صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو لا محالة وقالت المرجئة الخبيثة لا يعاقب لان المعصية لا تضر مع الاسلام عندهم وقالت المعتزلة يخلد

جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ الا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم قال فانها مثل شوك السعدان غير انه لا يعلم قدر عظمها الا الله تعالى تخطف الناس باعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو حتى اذا أراد الله رحمة من أراد من اهل النار أمر الله الملائكة ان يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود وحرم الله على النار ان تأكل اعضاء السجود فيخرجون من النار وقد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ثم يفرغ من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار فيقول يا رب اصرف وجهي عن النار فقد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها فيقول هل عسيت ان أفعل ذلك بك ان تسأل غير ذلك فيقول لا وعزتك فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار فاذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها فيسكت ما شاء الله تعالى أن يسكت ثم يقول يا رب قدمني عند باب الجنة فيقول الله أليس قد اعطيت المواثيق والعهود أن لا تسأل غير الذي كنت سألت فيقول يا رب لا أكون أشقى خلقك فيقول فما عسيت ان أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره فيقول وعزتك لا أسأل غير ذلك فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه الى باب الجنة فاذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت فيقول يا رب أدخلني الجنة فيقول الله تبارك وتعالى ويحك يا ابن آدم ما أغدرك أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذي أعطيت فيقول يا رب لا تجعلني أشقى خلقك فيضحك الله عز وجل منه ثم يأذن له في دخول الجنة فيقول له تمن فيتمنى حتى اذا انقطعت أمنيته قال الله تعالى من كذا وكذا أقبل يذكره ربه حتى اذا انتهت به الأماني قال الله تعالى لك ذلك ومثله معه قال ابو سعيد الخدري لابي هريرة وعشرة امثاله قال ابو هريرة لم أحفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم الا قوله لك ذلك ومثله معه قال ابو سعيد رضي الله تعالى عنه سمعته يقول لك ذلك وعشرة امثاله وفي رواية للبخاري قال فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفونها فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا اتانا عرفناه فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفونها فيقول أنا ربكم فيقولون انت ربنا فيتبعونه * قلت اما ما يتعلق بمعاني الحديث والكلام على الرؤية فسيأتي في تفسير سورة ن والقيامة ونتكلم هنا على شرح غريب الفاظه (قوله مثل شوك السعدان) هو نبت ذو شوك معقف وهو من أجود مراعي الابل وقوله فمنهم من يوبق بعمله يقال أوبقته الذنوب اي أهلكته والمخردل المرمى المصروع وقيل هو المقطع والمعنى انه تقطعه كلاليب الصراط حتى يقع في النار (قوله وقد امتحشوا) اي احترقوا وقيل هو ان تذهب النار الجلد وتبدي العظم (قوله كما تنبت الحبة في حميل السيل) الحبة بكسر الحاء وهي البزورات جميعا والحميل السيل هو الزبد وما يلقيه الماء على شاطئه (قوله قشبني ريحها) اي آذاني والقشب السم فكأنه قال قد سمني ريحها (قوله وأحرقني ذكاؤها) اي اشتعالها ولهبها (قوله رأى زهرتها) الزهرة الحسن والنضارة والبهجة (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر اهل الجنة دخولا الجنة رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل اليه انها ملأى فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملأى فيقول الله تعالى له اذهب فادخل الجنة قال فيأتيها فيخيل اليه انها ملأى فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملأى فيقول الله تعالى اذهب فادخل الجنة فان لك مثل الدنيا وعشرة امثالها او ان لك مثل عشرة امثال الدنيا فيقول أتسخر بي وانت الملك فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقال ذلك أدنى اهل الجنة منزلة (قوله حتى بدت نواجذه) اي أضراسه وانيابه وقيل هي آخر الاسنان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(واذا تتلى عليهم آياتنا) اى القرآن (بينات) ظاهرات الاعجاز أو حجاو براهين حال مؤكدة كقوله وهو الحق مصدقا اذ آيات الله لا تكون الا واضحة وحجا (قال الذين كفروا) اى مشركو قريش وقد رجلوا شعورهم وتكلفوا فى زيهم (للذين آمنوا) للفقراء ورؤسهم شعثة وثيابهم خشنة (أى الفريقين) نحن أم أنتم (خير مقاما) بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان والمسكن وبالضم مكى وهو موضع الاقامة والمنزل (وأحسن نديا) مجلسا يجتمع القوم فيه للمشاورة ومعنى الآية ان الله تعالى يقول اذا أنزلنا آية فيها دلائل وبراهين اعرضوا عن التدبر فيها الى الافتخار بالثروة والمال وحسن المنزل والحال فقال تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) فكم مفعول أهلكنا ومن تبيين لابهامها اى كثيرا من القرون أهلكنا وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم (هم أحسن) فى محل النصب صفة لكم ألا ترى أنك لو تركت هم كان أحسن نصبا على الوصفية (أثاثا) هو متاع البيت اوما جد من الفرش (ورئيا) منظرا وهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت ورياء بغير همز مشددا نافع وابن عامر على قلب الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم الادغام اومن الرى الذى هو النعمة (قل من كان فى الضلالة) الكفر (فليمددله ٢٥٢ الرحمن مدا) جواب من لانها شرطية وهذا الامر بمعنى الخبر اى من كفر مد له الرحمن يعنى أمهله وأملى له فى العمر ليزداد طغيانا وضلالا كقوله تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما وانما أخرج على لفظ الامر ايذانا بوجوب ذلك وانه مفعول لامحالة كالمأمور به الممتثل ليقطع معاذير الضلال (حتى اذا رأوا ما يوعدون) هى متصلة بقوله خير مقاما وأحسن نديا وما بينهما اعتراض اى لا يزالون يقولون هذا القول الى أن يشاهدوا الموعود رأى عين (اما العذاب) فى الدنيا وهو تعذيب المسلمين اياهم بالقتل والاسر (واما الساعة) اى القيامة وما ينالهم من الخزى والنكال فهما بدلان مما يوعدون (فسيعلمون من هو شر مكانا) منزلا (وأضعف جندا)

يعذب ناس من اهل التوحيد فى النار حتى يكونوا حما ثم تدركهم الرحمة قال فيخرجون فيطرحون على أبواب الجنة قال فيرش عليهم اهل الجنة من الماء فينبتون كما تنبت الحبة فى حمالة السيل اخرجه الترمذى الحم الفحم والحمالة كل ما جاء به السيل فدلت الآية الاولى على ان الكل دخلوا النار ودلت الآية الثانية والاحاديث ان الله تعالى أخرج منها المتقين وجميع الموحدين وترك فيها الظالمين وهم المشركون قوله تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) اى دلائل واضحات (قال الذين كفروا) يعنى النضر ابن الحرث ومن دونه من كفار قريش (للذين آمنوا) يعنى فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت فيهم قشافة وفى عيشهم خشونة وفى ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤسهم ويلبسون أفخر ثيابهم (اى الفريقين خير مقاما) اى منزلا ومسكنا وهو موضع الاقامة (وأحسن نديا) اى مجلسا فاجابهم الله تعالى بقوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن اثاثا) اى متاعا واموالا وقيل أحسن ثيابا ولباسا (ورئيا) اى منظرا من الرؤية (قل من كان فى الضلالة فليمددله الرحمن مدا) هذا أمر بمعنى الخبر معناه يدعه فى طغيانه ويمهله فى كفره (حتى اذا رأوا ما يوعدون اما العذاب) اى الاسر والقتل فى الدنيا (واما الساعة) يعنى القيامة فيدخلون النار (فسيعلمون) اى عند ذلك (من هو شر مكانا) اى منزلا (وأضعف جندا) اى اقل ناصرا والمعنى فسيعلمون أهم خير وهم فى النار أم المؤمنون وهم فى الجنة وهذا رد عليهم فى قولهم اى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا * قوله عز وجل (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) اى ايمانا ويقينا على يقينهم (والباقيات الصالحات) اى الاذكار والاعمال الصالحة التى تبقى لصاحبها (خير عند ربك ثوابا وخير مردا) اى عاقبة ومرجعا قوله تعالى (أفرأيت الذى كفر بآياتنا) الآية (ق) عن خباب بن الارت قال كنت رجلا قينا فى الجاهلية وكان لى على العاص ابن وائل السهمى دين فاتيته اتقاضاه وفى رواية فعملت للعاص بن وائل السهمى سيفا فجئته أتقاضاه فقال لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث قال وانى لميت ثم مبعوث قلت

بلى

(فسيعلمون من هو شر مكانا) منزلا (وأضعف جندا) اعوانا وأنصارا اى فحينئذ يعلمون ان الامر على عكس ما قدروه وانهم شر مكانا وأضعف جندا لا خير مقاما وأحسن نديا وان المؤمنين على خلاف صفتهم وجاز ان تتصل بما يليها والمعنى ان الذين فى الضلالة ممدود لهم فى ضلالتهم لا ينفكون عن ضلالتهم الى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين او يشاهدوا الساعة وحتى هى التى يحكى بعدها الجمل ألا ترى ان الجملة الشرطية واقعة بعدها وهى قوله اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) معطوف على موضع فليمدد لوقوعه موضع الخبر تقديره من كان فى الضلالة مد أو يمد له الرحمن ويزيد اى يزيد فى ضلال الضال بخذلانه ويزيد المهتدين اى المؤمنين هدى ثباتا على الاهتداء او يقينا وبصيرة بتوفيقه (والباقيات الصالحات) أعمال الآخرة كلها او الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (خير عند ربك ثوابا) مما يفتخر به الكفار (وخير مردا) اى مرجعا وعاقبة تهكم بالكفار لانهم قالوا للمؤمنين اى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (أفرأيت الذى كفر بآياتنا

وقال لأوتين مالا وولدا) ثم وبضم الواو وسكون اللام فى أربعة مواضع ههنا وفى الزخرف ونوح حمزة وعلى جمع ولد كاسد فى اسد او بمعنى الولد كالعرب فى العرب ولما كانت رؤية الاشياء طريقا الى العلم بها وصحة الخبر عنها استعملوا أرأيت فى معنى اخبر والفاء افادت التعقيب كانه قال أخبرا يضا بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقيب حديث أولئك وقوله لأوتين جواب قسم مضمر (أطلع الغيب) من قولهم اطلع الجبل اذا ارتقى الى أعلاه الهمزة للاستفهام وهمزة الوصل محذوفة اى انظر فى اللوح المحفوظ فرأى منيته (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) موثقا ان يؤتيه ذلك او العهد كلمة الشهادة وعن الحسن نزلت فى الوليد بن المغيرة والمشهور انها فى العاص بن وائل فقد روى ان خباب بن الارت صاغ للعاص بن وائل حليا فاقتضاه الاجر فقال انكم تزعمون انكم تبعثون وان فى الجنة ذهبا وفضة فانا أقضيك ثم فانى أوتى مالا وولدا حينئذ (كلا) ردع وتنبيه على الخطا وهو مخطئ فيما تصوره لنفسه فليرتدع عنه (سنكتب مايقول) اى قوله والمراد سنظهره ونعلمه انا كتبنا قوله لانه كما قال كتب من غير تأخير قال الله تعالى مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وهو كقوله * اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * اى علم وتبين بالانتساب أنى لست بابن لئيمة (ونمد له من العذاب) نزيده من العذاب كما نزيد

بلى قال دعنى حتى أموت وابعث فسأوتى مالا وولدا فاقضيك فنزلت أفرأيت الذى كفر بآياتنا (وقال لأوتين مالا وولدا) الى قوله فردا القين الحداد فرد الله عليه بقوله (أطلع الغيب) قال ابن عباس معناه انظر فى اللوح المحفوظ وقيل أعلم علم الغيب حتى يعلم أهو فى الجنة ام لا (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) يعنى قال لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل يعنى عملا صالحا قدمه وقيل عهد اليه انه يدخله الجنة (كلا) ردعليه يعنى لم يفعل ذلك (سنكتب مايقول) اى سنحفظ عليه مايقول فنجازيه به فى الآخرة وقيل يأمر الملائكة حتى يكتبوا مايقول (ونمد له من العذاب مدا) اى نزيده عذابا فوق العذاب وقيل نطيل مدة عذابه (ونرثه مايقول) معناه اى ماعنده من المال والولد باهلا كنا اياه وابطال ملكه وقيل يزول عنه ماعنده من مال وولد فيعود الارث الى من خلفه واذا سلب ذلك بقى فردا فذلك قوله (ويأتينا) يعنى يوم القيامة (فردا) بلا مال ولا ولد فلا يصح ان يبعث فى الآخرة بمال وولد قوله تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة) يعنى مشركى قريش اتخذوا الاصنام آلهة يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) اى منعة يعنى يكونوا شفعاء يمنعونهم من العذاب (كلا) اى ليس الامر كما زعموا (سيكفرون بعبادتهم) يعنى تجحد الاصنام والآلهة التى كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرؤن منهم (ويكونون عليهم ضدا) اى اعوانا عليهم يكذبونهم ويلعنونهم وقيل اعداء لهم وكانوا اولياءهم فى الدنيا * قوله عز وجل (ألم ترانا أرسلنا الشياطين على الكافرين) اى سلطناهم عليهم (تؤزهم أزا) اى تزعجهم ازعاجا من الطاعة الى المعصية والمعنى تحثهم وتحرضهم على المعاصى تحريضا شديدا وفى الآية دليل على ان الله تعالى مدبر لجميع الكائنات (فلا تعجل عليهم) اى لا تعجل بطلب عقوبتهم (انما نعد لهم عدا) يعنى الليالى والايام والشهور والاعوام وقيل الانفاس التى يتنفسونها فى الدنيا الى الاجل الذى أجل لعذابهم قوله تعالى (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا) اى اذكر لهم يا محمد اليوم الذى يجتمع فيه من اتقى الله فى الدنيا بطاعته الى جنته وفدا اى جماعات قال ابن عباس ركبانا قال ابو هريرة على الابل وقال على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه

فى الافتراء والاجتراء من المدد يقال مده وأمده بمعنى (مدا) أكدبالمصدر لفرط غضبه تعالى (ونرثه مايقول) اى نروى عنه مازعم انه يناله فى الآخرة والمعنى مسمى مايقول وهو المال والولد (ويأتينا فردا) حال اى بلا مال ولا ولد كقوله ولقد جئتمونا فرادى فما يحدى عليه تمنيه وتأليه (واتخذوا من دون الله آلهة) اى اتخذ هؤلاء المشركون اصناما يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) اى ليعتزوا بآلهتهم ويكونوا لهم شفعاء وأنصارا ينقذونهم من العذاب (كلا) ردع لهم عما ظنوا (سيكفرون بعبادتهم)

الضمير للآلهة اى سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون او للمشركين اى ينكرون ان يكونوا قد عبدوها كقوله والله ربنا ما كنا مشركين (ويكونون) اى المعبودون (عليهم) على المشركين (ضدا) خصما لان الله تعالى ينطقهم فتقول يارب عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك والضد يقع على الواحد والجمع وهو فى مقابلة لهم عزا والمراد ضد العز وهو الذل والهوان اى يكونون عليهم ضد الما قصدوه اى يكونون عليهم لا لهم عزا وان رجع الضمير فى سيكفرون ويكونون الى المشركين فالمعنى ويكونون عليهم اى أعداؤهم ضدا اى كفرة بهم بعد ان كانوا يعبدونهم ثم عجب نبيه عليه السلام بقوله (ألم ترانا أرسلنا الشياطين على الكافرين) اى خليناهم واياهم من أرسلت البعير أطلقته او سلطناهم عليهم بالاغواء (تؤزهم أزا) تغريهم على المعاصى اغراء والازّ والهزّ أخوان ومعناهما التهييج وشدة الازعاج (فلا تعجل عليهم) بالعذاب (انما نعد لهم عدا) اى أعمالهم للجزاء وأنفاسهم للفناء وقرأها ابن السماك عند المأمون فقال اذا كانت الانفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا) ركبانا على نوق رحالها ذهب وعلى نجائب سروجها ياقوت

(ونسوق المجرمين) الكافرين سوق الانعام لانهم كانوا اضل من الانعام (الى جهنم وردا) عطاشا لان من يرد الماء لا يرده الا العطش وحقيقة الورود المسير الى الماء فيسمى به الواردون فالوفد جمع وافد كركب ورا كب والورد جمع وارد ونصب يوم بمضمر اى يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يوصف اى اذكر يوم نحشر ذكر المتقين بانهم يجمعون الى ربهم الذى غمرهم برحمته كما يفد الوفود على الملوك تبجيلا لهم والكافرون بانهم مساقون الى النار كانهم نعم عطاش يساقون الى الماء استخفافا بهم (لا يملكون الشفاعة) حال والواو ان جعل ضميرا فهو للعباد ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لانهم على هذه القسمة ويجوز ان يكون علامة للجمع كالتى فى أكلونى البراغيث والفاعل من اتخذ لانه فى معنى الجمع ومحل من اتخذ رفع على البدل من واو يملكون او على الفاعلية او نصب على تقدير حذف المضاف اى الا شفاعة من اتخذ والمراد لا يملكون ٢٥٤ ان يشفع لهم (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) بان آمن فى الحديث من قال لا اله الا الله كان له عند الله عهد وعن ابن مسعود رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ذات يوم أيعجز احدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انى أعهد اليك بانى اشهد أن لا اله الا أنت وحدك لا شريك لك وان محمدا عبدك ورسولك وانك ان تكلنى الى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير وانى لا أثق الا برحمتك فاجعل لى عهدا توفينيه يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كان لهم عند الله عهد فيدخلون الجنة او يكون من

ما يحشرون والله على ارجلهم ولكن على نوق رحالها من الذهب ونجائب سروجها يواقيت ان هموا بها سارت وان هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) اى الكافرين (الى جهنم وردا) اى مشاة عطاشا قد تقطعت اعناقهم من العطش والورد جماعة يردون الماء ولا يرد احد الا بعد العطش وقيل يساقون الى النار باهانة واستخفاف كانهم نعم عطاش تساق الى الماء (ق) عن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير واربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث اصبحوا وتمسى معهم حيث امسوا (قوله تقيل معهم حيث قالوا) من القيلولة وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم أما انهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك اخرجه الترمذى * قوله عز وجل (لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) يعنى لا اله الا الله وقيل لا يشفع الشافعون الا للمؤمنين وقيل لا يشفع الا لمن قال لا اله الا الله اى لا يشفع الا للمؤمن (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) يعنى اليهود والنصارى ومن زعم ان الملائكة بنات الله من العرب (لقد جئتم شيأ ادا) قال ابن عباس منكرا وقيل معناه لقد قلتم قولا عظيما (تكاد السموات يتفطرن منه) من الانفطار وهو الشق (وتنشق الارض) اى تخسف بهم (وتخر الجبال هدا) اى تسقط وتنطبق عليهم (أن دعوا) اى من اجل ان جعلوا (للرحمن ولدا) فان قلت ما معنى انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال ومن أين تؤثر هذه الكلمة فى هذه الجمادات قلت فيه وجهان أحدهما ان الله تعالى يقول كدت ان افعل هذا بالسموات والارض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها لولا حلمى وانى لا اعجل بالعقوبة الثانى ان يكون استعظاما للكلمة وتهويلا من فظاعتها وتصويرا لاثرها فى الدين وهدمها الاركانه وقواعده قال ابن عباس فزعت السموات والارض والجبال وجميع الخلائق الا الثقلين وكادت ان تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا ثم نزه الله نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه فقال تعالى (وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا) اى

عهد الامير الى فلان بكذا اذا أمره به اى لا يشفع الا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) اى النصارى واليهود ومن زعم ان الملائكة بنات الله (لقد جئتم شيأ ادا) خاطبهم بهذا الكلام بعد الغيبة وهو التفات او امر نبيه عليه السلام بانه يقول لهم ذلك والادا العجب او العظيم المنكر والادة الشدة وادنى الامر اثقلنى وعظم على ادا (تكاد السموات) تقرب وبالياء نافع وعلى (يتفطرن) وبالنون بصرى وشامى وحمزة وخلف وابو بكر الانفطار من فطره اذا شقه والتفطر من فطره اذا شققه (منه) من عظم هذا القول (وتنشق الارض) تخسف وتنفصل اجزاؤها (وتخر الجبال) تسقط (هدا) كسرا وقطعا او هدما والهدة صوت الصاعقة من السماء وهو مصدر اى تهد هدا من سماع قولهم او مفعول له اوحال اى مهدودة (أن دعوا) لان سموا ومحله جر بدل من الهاء فى منه او نصب مفعول له على الخرور بالهد والهد بدعاء الولد للرحمن اورفع فاعل هدا اى هدها دعاؤهم (للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا) اى ينبغى

مطاوع بغى اذا طلب اى ما يتأتى له اتخاذ الولد وما ينطلب لو طلب مثلا لانه محال غير داخل تحت القدرة وهذا لان اتخاذ الولد لحاجة وبجانسة وهو منزه عنهما وفى اختصاص الرحمن وتكريره كرات بيان انه الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره لان اصول النعم وفروعها منه فلينكشف عن بصرك غطاؤه فانت وجميع ما عندك عطاؤه فمن اضاف اليه ولدا فقد جعله كبعض خلقه واخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن (ان كل من) نكرة موصوفة صفتها (فى السموات والارض) وخبر كل (الا آت الرحمن) ووحد آتى وآتيه حملا على لفظ كل وهو اسم فاعل من أتى وهو مستقبل اى يأتيه (عبدا) حال اى خاضعا ذليلا منقادا ٢٥٥ والمعنى ما كل من فى السموات والارض من الملائكة والناس الا هو يأتى الله يوم القيامة مقرا بالعبودية والعبودية والبنوة تتنافيان حتى لو ملك الاب ابنه يعتق عليه ونسبة الجميع اليه نسبة العبد الى المولى فكيف يكون البعض ولدا والبعض عبدا وقرأ ابن مسعود آت الرحمن على أصله قبل الاضافة (لقد احصاهم وعدهم عدا) اى حصرهم بعلمه وأحاط بهم (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) اى كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردا بلا مال ولا ولد أو بلا معين ولا ناصر (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) مودة فى قلوب العباد قال الربيع يحبهم ويحببهم الى الناس وفى الحديث يعطى المؤمن محبة فى قلوب الابرار ومهابة فى قلوب الفجار وعن قتادة وهرم ما أقبل العبد الى الله الا أقبل الله بقلوب العباد اليه وعن كعب ما يستقر لعبد ثناء فى الارض حتى يستقر له فى السماء (فانما يسرناه) سهلنا القرآن (بلسانك) بلغتك حال (لتبشر به المتقين) المؤمنين (وتنذر به قوما لدا) شدادا فى الخصومة بالباطل اى الذين يأخذون فى كل لديد اى شق من المراء والجدال جمع الذريد به اهل مكة (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) تخويف لهم واندار (هل تحس منهم من احد) اى هل تجد أو ترى أو تعلم والاحساس الادراك بالحاسة (او تسمع لهم ركزا) صوتا خفيا ومنه الركاز لما أتاهم عذاب لم يبق شخص يرى ولا صوت يسمع يعنى هلكوا كلهم فكذا هؤلاء ان اعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك فليهن عليك امرهم والله اعلم

* (تفسير سورة طه) *

وهى مكية وهى مائة وأربعة وقيل خمس وثلاثون آية وألف وستمائة واحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفا * عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطيت

ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به لان الولد لا بد ان يكون شبيها بالوالد ولا شبيه لله تعالى ولان اتخاذ الولد انما يكون لأغراض لا تصح فى الله تعالى من سرور به واستعانة وذكر جميل بعده وكل ذلك لا يليق بالله تعالى (ان كل من فى السموات والارض الا آت الرحمن عبدا) اى آتيه يوم القيامة عبدا ذليلا خاضعا والمعنى ان الخلائق كلهم عبيده (لقد احصاهم وعدهم عدا) اى عد انفاسهم وأيامهم وآثارهم فلا يخفى عليه شئ من أمورهم وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) اى وحيدا ليس معه من أحوال الدنيا شئ * قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) اى محبة قيل يحبهم الله تعالى ويحببهم الى عباده المؤمنين (ق) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا أحب الله سبحانه وتعالى عبدا دعا جبريل عليه السلام ان الله تعالى يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادى جبريل فى أهل السماء ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه اهل السماء ثم يوضع له القبول فى الارض وفى رواية لمسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى اذا أحب عبدا دعا جبريل فقال انى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الارض واذا أبغض الله عبدا دعا جبريل عليه السلام فيقول انى ابغض فلانا فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادى فى اهل السماء ان الله يبغض فلانا فأبغضوه ثم يوضع له البغضاء فى الارض قال هرم بن حبان ما أقبل عبد بقلبه الى الله عز وجل الا أقبل الله بقلوب المؤمنين اليه حتى يرزقه مودتهم وقال كعب مكتوب فى التوراة لا محبة لاحد فى الارض حتى يكون ابتداؤها من الله عز وجل ينزلها على اهل السماء ثم على اهل الارض وتصديق ذلك فى القرآن سيجعل لهم الرحمن ودا قوله تعالى (فانما يسرناه) اى سهلنا القرآن (بلسانك) يا محمد (لتبشر به المتقين) يعنى المؤمنين (وتنذر به) اى بالقرآن (قوما لدا) اى شدادا فى الخصومة وقيل صما عن الحق وقيل الالد الظالم الذى لا يستقيم ولا يقبل الحق ويدعى الباطل (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) ختم الله تعالى هذه السورة بموعظة بليغة لانهم اذا علموا وأيقنوا انه لا بد من زوال الدنيا بالموت خافوا ذلك وخافوا سوء العاقبة فى الآخرة فكانوا الى الحذر من المعاصى أقرب ثم أكد ذلك فقال تعالى (هل تحس منهم) اى هل ترى وقيل هل تجد منهم اى من القرون (من احد او تسمع لهم ركزا) اى صوتا خفيا قال الحسن بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا أثر والله أعلم بمراده وأسراره وكتابه

* (تفسير سورة طه) *

وهى مكية وهى مائة وأربعة وقيل خمس وثلاثون آية وألف وستمائة واحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفا * عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطيت

(بسم الله الرحمن الرحيم) (طه) فخم الطاء لاستعلائها واماله الهاء ابو عمرو وامالهما حمزة وعلى وخلف وابو بكر وفخمهما على الاصل غيرهم ومارووى عن مجاهد والحسن والضحاك وعطاء وغيرهم ان معناه يا رجل فان صح فظاهر والا فالحق ماهو المذكور فى سورة البقرة (ما أنزلنا عليك القرآن) ان جعلت طه تعديد الاسماء الحروف فهو ابتداء كلام وان جعلتها اسما للسورة احتملت ان تكون خبرا عنها وهى فى موضع المبتدا والقرآن ظاهر اوقع موقع المضمر لانها قرآن وان يكون جوابا لها وهى قسم (لتشقى) لتتعب لفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على ٢٥٦ ان يؤمنوا او بقيام الليل وانه روى انه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل أبق على نفسك فان لها عليك حقا اى ما أنزلناه لتتعبك نفسك بالعبادة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة (الا تذكرة) استثناء منقطع اى لكن أنزلناه تذكرة اوحال (لمن يخشى) لمن خاف الله اولمن يؤل أمره الى الخشية (تنزيلا) بدل من تذكرة اذا جعل حالا ويجوز ان ينتصب بنزل مضمرا أو على المدح او يخشى مفعولا به اى انزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله (ممن خلق الارض والسموات) من يتعلق بتنزيلا صلة له (العلى) جمع العلياء تأنيث الاعلى ووصف السموات بالعلى دليل ظاهر على عظم قدرة خالقها (الرحمن) رفع على المدح اى هو الرحمن (على العرش) خبر مبتدا محذوف (استوى) استولى عن الزجاج ونبه بذكر العرش وهو أعظم المخلوقات على غيره وقيل لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على العرش اى ملك وان لم يقعد على السرير البتة وهذا كقولك يد فلان مبسوطة اى جواد وان لم يكن له يد رأسا والمذهب قول على رضى الله عنه الاستواء غير مجهول والتكييف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة لانه تعالى كان ولا مكان فهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان (له ما فى السموات وما فى الارض) خبر ومبتدا ومعطوف وما بينهما اى ذلك كله ملكه (وما تحت الثرى) ما تحت سبع الارضين او هو الصخرة التى تحت الارض السابعة (وان تجهر بالقول) ترفع صوتك (فانه يعلم السر) ما أسررته الى غيرك (وأخفى) منه وهو ما اخطرته ببالك او ما أسررته فى نفسك وما ستسره فيها

السورة التى فيها البقرة من الذكر الاول وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة النافلة الزيادة وفقنا الله لفهم ذلك

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (طه) قيل هو قسم اقسم الله بطوله وهدايته وقيل هو من اسماء الله فالطاء افتتاح اسمه طاهر والهاء افتتاح اسمه هادى وقيل معناه يا رجل والمراد به النبى صلى الله عليه وسلم وكذلك يا انسان وقيل هو بالسريانية وقيل بالقبطية فعلى هذا يكون قد وافقت لغة العرب هذه اللغات فى هذه الكلمة وقيل هو يا انسان بلغة عك وعك قبيلة من قبائل العرب وقيل معناه طأ الارض بقدميك يريد به فى التهجد وذلك لما نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة اجتهد فى العبادة حتى كان يراوح بين قدميه فى الصلاة لطول قيامه وكان يصلى الليل كله فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمره أن يخفف على نفسه فقال تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى وقيل لما رأى المشركون اجتهاده فى العبادة قالوا ما انزل عليك القرآن يا محمد الا لشقائك فنزلت (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) اى لتتعنى وتتعب (الا تذكرة لمن يخشى) اى لكن أنزلناه عظة لمن يخشى وانما خص من يخشى بالتذكرة لانهم هم المنتفعون بها (تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى) اى من الله الذى خلق الارض والسموات العلية الرفيعة التى لا يقدر على خلقها فى عظمها وعلوها الا الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) تقدم الكلام عليه فى سورة الاعراف مستوفى (له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما) يعنى الهواء (وما تحت الثرى) اى انه مالك لجميع ما فى الاربعة الاقسام والثرى هو التراب الندى وقيل معناه ما وراء الثرى من شئ وقال ابن عباس ان الارضين على ظهر الثور والثور على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهى الصخرة التى ذكرها الله تعالى فى قصة لقمان والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى ولا يعلم ما تحت ذلك الثرى الا الله تعالى وذلك الثور فاتح فاه فاذا جعل الله البحار بحرا واحدا سالت فى جوف ذلك الثور فاذا وقعت فى جوفه يبست قوله تعالى (وان تجهر بالقول) اى تعلن به (فانه يعلم السر وأخفى) قال ابن عباس السر ما تسر فى نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله فى قلبك من بعد ولا تعلم انك ستحدث به نفسك لانك لا تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا والله يعلم ما أسررت به اليوم وما تسر به غدا وعنه ان السر ما أسر به ابن آدم فى نفسه وأخفى ما هو فاعله قبل ان يعلمه وقيل السر ما أسره الرجل الى غيره وأخفى من ذلك ما أسره فى نفسه وقيل السر هو العمل الذى يسر من الناس وأخفى هو الوسوسة وقيل السر ان يعلم الله تعالى اسرار العباد وأخفى هو سره من عباده فلا يعلم احد سره وقيل مقصود الآية زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت او باطنة والترغيب فى الطاعات ظاهرة

(الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) اى هو واحد بذاته وان افترقت عبارات صفاته ردا لقولهم انك تدعو آلهة حين سمعوا اسماءه تعالى والحسنى تأنيث الاحسن (وهل) اى وقد (أتاك حديث موسى) خبره قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به فى تحمل اعباء النبوة بالصبر على المكاره ولينال الدرجة العليا كما نالها موسى (اذ رأى) ظرف لمضمر اى حين رأى (نارا) كان كيت وكيت او مفعول به لاذكر روى ان موسى عليه السلام استأذن شعيبا فى الخروج الى أمه وخرج باهله فولد له ابن ٢٥٧ فى الطريق فى ليلة مظلمة مثلجة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصاد زنده فرأى عند ذلك نارا فى زعمه وكان نورا (فقال لاهله امكثوا) اقيموا فى مكانكم (انى آنست) ابصرت (نارا) والايناس رؤية شئ يؤنس به (لعلى آتيكم منها) بنى الامر على الرجاء لئلا يعد ما ليس يستيقن الوفاء به (بقبس) نار تقتبس فى رأس عود اوفتيلة (او اجد على النار هدى) ذوى هدى او قوما يهدوننى الطريق ومعنى الاستعلاء فى على النار ان اهل النار يستعلون المكان القريب منها (فلما اتاها) اى النار وجد نارا بيضاء تتوقد فى شجرة خضراء من اسفلها الى اعلاها وكانت شجرة العناب او العوسج ولم يجد عندها احدا وروى انه كلما طلبها بعدت عنه فاذا تركها قربت منه فثم (نودى) موسى (يا موسى انى) بكسر الهمزة اى نودى فقيل يا موسى انى

ظاهرة كانت او باطنة فعلى هذا الوجه ينبغى ان يحمل السر والاخفاء على ما فيه ثواب او عقاب فالسر هو الذى يسره المرء فى نفسه من الامور التى عزم عليها والاخفاء هو الذى لم يبلغ حد العزيمة ثم وحد نفسه فقال تعالى (الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) تأنيث الاحسن والذى فضلت به أسماؤه فى الحسن دون سائر الاسماء دلالتها على معنى التقديس والتحميد والتعظيم والربوبية والافعال التى هى النهاية فى الحسن قوله عز وجل (وهل أتاك حديث موسى) اى وقد اتاك لما قدم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قفاه بقصة موسى عليه الصلاة والسلام ليتأسى به فى تحمل أعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود (اذ رأى نارا) وذلك ان موسى استأذن شعيبا فى الرجوع من مدين الى مصر ليزور والدته واخاه فأذن له فخرج باهله وماله وكانت أيام الشتاء فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل فى شهرها لا يدرى أليلا تضع أم نهارا فسار فى البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير الى جانب الطور الغربى الايمن وذلك فى ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد لما اراد الله من كرامته فاخذ امرأته الطلق فاخذ زنده فجعل يقدح فلا يورى فابصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور (فقال لاهله امكثوا) اى اقيموا (انى آنست نارا) اى ابصرت نارا (لعلى آتيكم منها بقبس) اى شعلة من نار فى طرف عود (أو أجد على النار هدى) اى اجد عند النار من يدلنى على الطريق (فلما اتاها) اى اتى النار رأى شجرة خضراء من اعلاها الى اسفلها اطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار قيل كانت الشجرة سمرة خضراء وقيل كانت من العوسج وقيل كانت من العليق وقيل كانت شجرة من العناب روى ذلك عن ابن عباس وقال اهل التفسير لم يكن الذى رآه موسى نارا بل كان نورا ذكر بلفظ النار لان موسى عليه الصلاة والسلام حسبه نارا قال ابن عباس هو من نور الرب سبحانه وتعالى وقيل هى النار بعينها وهى احدى حجب الرب تبارك وتعالى يدل عليه ما روى عن ابى موسى الاشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال حجابه النار لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه اخرجه مسلم قيل ان موسى أخذ شيأ من الحشيش اليابس وقصد الشجرة فكان كلما دنا نأت عنه واذا نأى دنت منه فوقف متحيرا وسمع تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة فعند ذلك (نودى يا موسى انى أنا ربك) قال وهب نودى من الشجرة فقيل يا موسى فاجاب سريعا وما يدرى من دعاه فقال انى اسمع صوتك ولا ارى مكانك فاين انت فقال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب اليك منك فعلم ان ذلك لا ينبغى الا لله تعالى فايقن به وقيل انه سمعه بكل اجزائه حتى ان كل جارحة منه كانت أذنا وقوله (فاخلع نعليك) كان السبب فيه ما روى عن ابن مسعود مرفوعا فى قوله فاخلع نعليك قال كانتا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ وانما أمر بخلعهما صيانة للوادى المقدس وقيل أمر بخلعهما ليباشر بقدميه تراب الارض المقدسة لتناله بركتها فانها قدست مرتين فخلعهما موسى فالقاهما من وراء الوادى (انك بالواد المقدس)

اولان النداء ضرب من القول فعومل معاملته وبالفتح مكى وابو عمرو اى نودى بانى (انا ربك) انا مبتدا واوتاكيدا وفصل وكرر الضمير لتحقيق المعرفة واماطة الشبهة روى انه لما نودى يا موسى قال من المتكلم فقال الله عز وجل انا ربك فعرف انه كلام الله عز وجل بانه سمعه من جميع جهاته الست وسمعه بجميع اعضائه (فاخلع نعليك) انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادى المقدس اولانهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ اولان الحفوة تواضع لله ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين والقرآن يدل على ان ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها فخلعهما والقاهما من وراء الوادى (انك بالواد المقدس) المطهر او المبارك

(طوى) حيث كان منون شامى وكوفى لانه اسم علم للوادى وهو بدل منه وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة وقرأ ابو زيد بكسر الطاء بلا تنوين (وأنا اخترتك) اصطفيتك للنبوة وانا اخترناك حجزة (فاستمع لما يوحى) اليك للذى يوحى او للوحى واللام يتعلق باستمع او باخترتك (انني انا الله لا اله الا انا فاعبدنى) وحدنى واطعنى (واقم الصلوة لذكرى) لتذكرنى فيها لاشتمال الصلاة على الاذكار اولانى ذكرتها فى الكتب وامرت بها اولان اذكرك بالمدح والثناء اولذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى اولتكون لى ذاكرا غير ناس اولوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة لقوله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها واذا يصح بتقدير حذف المضاف اى لذكر صلاتى وهذا دليل على انه لا فريضة بعد التوحيد اعظم منها (ان الساعة آتية) لا محالة (أكاد) اريد من الاخفش وقيل صلة (أخفيها) ٢٥٨ قيل هو من الاضداد اى أظهرها واسترها عن العباد فلا اقول هى آتية لارادتى اخفاءها ولولا ما فى الاخبار باتيانها مع تعمية وقتها من الحكمة وهوانهم اذا لم يعلموا متى تقوم كانوا على وجل منها فى كل وقت لما اخبرت به (لتجزى) متعلق بآتية (كل نفس بما تسعى) بسعيها من خير أو شر (فلا يصدنك عنها) فلا يصرفنك عن العمل للساعة او عن اقامة الصلاة او عن الايمان بالقيامة فالخطاب لموسى والمراد به أمته (من لا يؤمن بها) لا يصدق بها (واتبع هواه) فى مخالفة امره (فتردى) فتهلك (وما تلك بيمينك يا موسى) ما مبتدا وتلك خبره وهى بمعنى هذه و بيمينك حال عمل فيها معنى الاشارة اى قارة او مأخوذة بيمينك او تلك موصول صلته بيمينك والسؤال للتنبيه لتقع المعجزة بها بعد التثبت او للتوطين لئلا يهول انقلابها حية اولئلا يناس ورفع

اى المطهر (طوى) اسم للوادى الذى حصل فيه وقيل طوى وادمستدير عميق مثل المطوى فى استدارته (وأنا اخترتك) اصطفيتك برسالاتى وبكلامى (فاستمع لما يوحى) فيه نهاية الهيبة والجلال لانه كانه قال له لقد جاءك امر عظيم فتأهب له (انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى) ولا تعبد غيرى (واقم الصلوة لذكرى) اى لتذكرنى فيها وقيل لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى وقيل لاخلاص ذكرى وطلب وجهى ولا ترائى فيها ولا تقصد بها غرضا آخر وقيل معناه اذا تركت صلاة ثم ذكرتها فاقمها (ق) عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسى صلاة فليصل اذا ذكرها لا كفارة لها الا ذلك وتلا قتادة واقم الصلوة لذكرى وفى رواية اذا رقد أحدكم عن الصلاة او غفل عنها فليصلها اذا ذكرها فان الله عز وجل يقول واقم الصلاة لذكرى (ان الساعة آتية أكاد أخفيها) قال اكثر المفسرين معناه أكاد أخفيها من نفسى فكيف يعلمها مخلوق وكيف أظهرها لكم ذكر ذلك على عادة العرب اذا بالغوا فى الكتمان للشئ يقولون كتمت سرك فى نفسى اى أخفيته غاية الاخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شئ والمعنى فى اخفائها التهويل والتخويف لانهم اذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى فى اخفاء وقت الموت على الانسان لانه اذا عرف وقت موته وانقضاء اجله اشتغل بالمعاصى الى ان يقرب من ذلك الوقت فيتوب و يصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصى بتعريف وقت الموت وانه اذا لم يعرف وقت موته لا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصى او يتوب منها فى كل وقت مخافة معاجلة الاجل قوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) اى بما تعمل من خير وشر (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها) اى فلا يصرفنك عن الايمان بالساعة و مجيئها من لا يؤمن بها (واتبع هواه) اى مراده وخالف امر الله (فتردى) اى فتهلك * قوله عز وجل (وما تلك بيمينك يا موسى) سؤال تقرير والحكمة فيه تنبيهه وتوقيفه على انها عصا حتى اذا قلبها حية علم انها معجزة عظيمة (قال هى عصاى) قيل كان لها شعبتان وفى أسفلها سنان ولها محجن واسمها بعثة (أتوكأ عليها) اى اعتمد عليها اذا مشيت واذا عييت وعند الوثبة (وأهش بها على غنمى) اى أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط و رقها فترعاه الغنم (ولى فيها مآرب أخرى) اى حاجة ومنافع أخرى وأراد بالمآرب ما كان يستعمل فيه العصا فى السفر فكان يحمل بها الزاد و يشد بها الحبل و يستقى بها الماء من البئر و يقتل بها الحيات ويحارب بها السباع و يستظل بها اذا قعد وروى عن ابن عباس ان موسى كان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه وتحدثه وكان يضرب بها

الهيبة للمكالمة (قال هى عصاى أتوكأ عليها) اعتمد عليها اذا أعييت او وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة (وأهش بها على غنمى) اخبط ورق الشجر على غنمى لتأكل (ولى فيها) حفص (مآرب) جمع مأربة بالحركات الثلاث وهى الحاجة (أخرى) والقياس أخر وانما قال أخرى ردا الى الجماعة اولنسق الآى وكذا الكبرى وما ذكر بعضها شكر الجمل الباقى حيا من التطويل اوليسأل عنها الملك العلام فيزيد فى الأكرام والمآرب الاخر انها كانت تماشيه وتحدثه وتحارب العدو والسباع وتصير رشاء فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا وتكونان شمعتين بالليل وتحمل زاده و يركزها فتثمر ثمرة يشتهيها و يركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام والزيادة على الجواب لتعداد النعم شكر اولانها جواب سؤال آخر لانه لما قال هى عصاى قيل له ما تصنع بها فاخذ يعدد منافعها

(قال ألقها يا موسى) اى اطرح عصاك لتفزع مما تتكئ عليه فلا تسكن الا بنا وترى فيها كنه ما فيها من المآرب فتعتمد علينا فى المطالب
(فالقاها) فطرحها (فاذا هى حية تسعى) تمشى سريعا قيل انقلبت ثعبانا يبتلع الصخر والشجر فلما رآها تبتلع كل شئ خاف وانما وصف
بالحية هنا و بالثعبان وهو العظيم من الحيات و بالجان وهو الدقيق فى غيرها لان الحية اسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير
والكبير و جاز ان تنقلب حية صفراء دقيقة ثم يتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا فاريد بالجان أول حالها و بالثعبان ما آلت اليه انها كانت
فى عظم الثعبان وسرعة الجان وقيل كان بين لحييها اربعون ذراعا ولما (قال) له ربه ٢٥٩ (خذها ولا تخف) بلغ من ذهاب

بها الارض فيخرج له مايأكل يومه و يركزها فيخرج الماء فاذا رفعها ذهب الماء وكان اذا اشتهى ثمرة
ركزها فتصير غصن تلك الشجرة وتورق وتثمر واذا اراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر
وصارت شعبتاها كدلو حتى يستقى وكانت تضىء بالليل كالسراج واذا ظهر له عدو كانت تحارب
وتناضل عنه (قال) الله تعالى (ألقها يا موسى) اى انبذها واطرحها قال وهب ظن موسى انه يقول
ارفضها (فألقاها) اى فطرحها على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة (فاذا هى حية) صفراء من اعظم
ما يكون من الحيات (تسعى) اى تمشى بسرعة على بطنها وقال فى موضع آخر كانها جان وهى الحية الصغيرة
الجسم الخفيفة وقال فى موضع آخر كانها ثعبان وهو أكبر ما يكون من الحيات ووجه الجمع ان الحية
اسم جامع للكبير والصغير والذكر والانثى فالجان عبارة عن ابتداء حالها فانها كانت حية على قدر العصا
ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعبانا وهو انتهاء حالها وقيل انها كانت فى عظم الثعبان وسرعة
الجان قال محمد بن اسحق نظر موسى فاذا العصا حية من اعظم ما يكون من الحيات وصارت شعبتاها
شدقين لها والمحجن عنقا وعرفا يهتز كالنيازك وعيناها يتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من
الابل فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بانيابها و يسمع لانيابها صريفا عظيما فلما عاين ذلك موسى ولى
مدبرا وهرب ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم نودى يا موسى اقبل وارجع حيث كنت فرجع وهو
شديد الخوف (قال خذها) اى بيمينك (ولا تخف) قيل كان خوفه لما عرف ما لقى آدم من الحية وقيل لما
قال له ربه لا تخف بلغ من طمأنينة نفسه وذهاب الخوف عنه ان ادخل يده فى فمها وأخذ بلحييها (سنعيدها
سيرتها الاولى) اى الى هيئتها فتردها عصا كما كانت وقيل كان على موسى مدرعة صوف قد خللها
بعود فلما قال الله تعالى له خذها الف طرف المدرعة على يده فأمره الله تعالى ان يكشف يده فكشفها
وذكر بعضهم انه لما الف كم المدرعة على يده قال له ملك ارأيت لو امر الله بما تحاذره أكانت المدرعة
تغنى عنك شيأ قال لا ولكنى ضعيف من ضعف خلقت قال فكشف عن يده ثم وضعها فى فم الحية فاذا
هى عصا كما كانت و يده فى شعبتيها فى الموضع الذى كان يضعها اذا توكأ قال المفسرون اراد الله تعالى ان
يرى موسى ما أعطاه من الآية التى لا يقدر عليها مخلوق ولئلا يفزع منها اذا القاها عند فرعون قوله تعالى
(واضمم يدك الى جناحك) اى الى ابطك وقيل تحت عضدك (تخرج بيضاء) اى نيرة مشرقة (من غير
سوء) اى من غير عيب والسوء ههنا بمعنى البرص قال ابن عباس كان لبده نور ساطع يضىء بالليل والنهار
كضوء الشمس والقمر (آية أخرى) اى دلالة أخرى على صدقك سوى العصا (لنريك من آياتنا
الكبرى) قال ابن عباس كانت يد موسى اكبر آياته * قوله عز وجل (اذهب الى فرعون انه طغى) اى
جاوز الحد فى العصيان والتمرد وانما خص فرعون بالذكر مع ان موسى كان مبعوثا الى الكل لانه ادعى
الالهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره الاولى قال وهب قال الله تعالى لموسى اسمع كلامى واحفظ

خوفه ان ادخل يده فى فمها
وأخذ بلحييها (سنعيدها)
سيرتها (سيرتها الاولى)
تأنيث الاول والسيرة
الحالة التى يكون عليها
الانسان غريزية كانت
او مكتسبة وهى فى
الاصل فعلة من السير
كالركبة من الركوب
ثم استعملت بمعنى الحالة
والطريقة وانتصبت على
الظرف اى سنعيدها فى
طريقتها الاولى اى فى
حال ما كانت عصا والمعنى
نردها عصا كما كانت
وأرى ذلك موسى عند
المخاطبة لئلا يفزع منها
اذا انقلبت حية عند
فرعون ثم نبه على آية
أخرى فقال (واضمم يدك
الى جناحك) الى جنبك
تحت العضد و جناحا
الانسان جنباه والاصل
المستعار منه جناحا
الطائر سميا جناحين لانه
يجنحهما اى يميلهما
عند الطيران والمعنى
ادخلها تحت عضدك

(تخرج بيضاء) لها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر (من غير سوء) برص (آية أخرى) لنبوتك بيضاء وآية حالان معا ومن غير
سوء صلة بيضاء كقولك ابيضت من غير سوء وجاز ان ينتصب آية بفعل محذوف يتعلق به الامر (لنريك من آياتنا الكبرى) اى خذها
الآية أيضا بعد قلب العصا حية لنريك بها تين الآيتين بعض آياتنا الكبرى العظمى او نريك بهما الكبرى من آياتنا والمعنى فعلنا
ذلك لنريك من آياتنا الكبرى (اذهب الى فرعون انه طغى) جاوز حد العبودية الى دعوى الربوبية ولما امره بالذهاب الى فرعون
الطاغى وعرف انه كلف أمرا عظيما يحتاج الى صدر فسيح

(قال رب اشرح لى صدرى) وسعه ليحتمل الوحى والمشاق و ردى الاخلاق من فرعون و جنده (و يسر لى امرى) وسهل على ما امرتنى به من تبليغ الرسالة الى فرعون واشرح لى صدرى آكد من اشرح صدرى لانه تكرير للمعنى الواحد من طريق الاجمال والتفصيل لانه يقول اشرح لى و يسر لى علم ان همّة مشروحا وميسرا ثم رفع الابهام بذكر الصدر والامر (واحلل) افتح (عقدة من لسانى) وكان فى لسانه رتة للجمرة التى وضعها على لسانه فى صباه وذلك ان موسى اخذ لحية فرعون ولطمه لطمة شديدة فى صغره فاراد قتله فقالت آسية ايها الملك انه صغير لا يعقل فجعلت فى طشت نارا وفى طشت ياقوت ووضعتهما لدى موسى فقصد الياقوت فاماله الملك يده الى النار فرفع جمرة فوضعها على لسانه فاحترق لسانه ٢٦٠ فصار لكنة منها وروى ان يده احترقت واجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال الى

وصيتى وانطلاق برسالتى وانك بعينى وسمعى وان معك يدى و بصرى وانى ألبسك جلة من سلطانى تستكمل بها القوة فى امرى بعثتك الى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وامن مكرى حتى جحد حقى وانكر ربوبيتى وانى اقسم بعزتى لولا الحجة التى وضعت بينى و بين خلقى لبطشت به بطشة جبار ولكن هان على وسقط من عينى فبلغه رسالتى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدى ولا يتنفس الا بعلمى قال فسكت موسى فجاءه ملك وقال له اجب ربك (قال) يعنى موسى (رب اشرح لى صدرى) اى وسعه للحق قال ابن عباس يريد حتى لا اخاف غيرك وذلك ان موسى كان يخاف فرعون خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده فكان يضيق بما كلف من مقاومة فرعون وحده فسأل الله تعالى ان يوسع قلبه للحق حتى يعلم ان احدا لا يقدر على مضرته الا باذن الله تعالى واذا علم ذلك لم يخف من فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده (و يسر لى امرى) اى سهل على ما امرتنى به من تبليغ الرسالة الى فرعون (واحلل عقدة من لسانى) وذلك ان موسى كان فى حجر فرعون ذات يوم فى صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لامرأته آسية ان هذا عدوى وأراد ان يقتله فقالت له آسية انه صبى لا يعقل وقيل ان أم موسى لما فطمته ردته الى فرعون فنشأ فى حجره وحجر امرأته يربيانه واتخذاه ولدا فبينما هو يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب اذ رفعه فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير منه حتى هم بقتله فقالت آسية أيها الملك انه صبى لا يعقل جربه ان شئت فجاءت بطشتين فى احدهما جمر وفى الآخر جوهر فوضعهما بين يدى موسى فاراد ان يأخذ الجوهر فاخذ جبريل يده موسى فوضعها على الجمر فاخذ جمرة فوضعها فى فيه فاحترق لسانه وصارت فيه عقدة (يفقهوا قولى) اى احلل العقدة كى يفهموا قولى (واجعل لى وزيرا من أهلى) اى معينا وظهيرا والوزير من يوازرك و يحتمل عنك بعض ثقل عملك ثم بين من هو فقال (هرون أخى) وكان هرون أكبر من موسى وأفصح لسانا واجمل واوسم وكان أبيض اللون وكان موسى آدم أقنى جعدا (أشدد به أزرى) اى قو به ظهرى (واشركه فى أمرى) اى فى امر النبوة وتبليغ الرسالة (كى نسبحك كثيرا) اى نصلى لك كثيرا (ونذكرك كثيرا) اى نحمدك ونثنى عليك بما اوليتنا من جميل نعمك (انك كنت بنا بصيرا) اى خبيرا عليما (قال) الله تعالى (قد أوتيت سؤلك يا موسى) اى اعطيت جميع ما سألته (ولقد منا عليك مرة أخرى) اى قبل هذه المرة ثم بين تلك المنة بقوله تعالى (اذ أوحينا الى أمك ما يوحى) اى ما يلهم ثم فسر ذلك الالهام وعدد نعمه عليه فقال (ان اقذفيه فى التابوت) اى الهمناها أن اجعليه فى التابوت (فاقذفيه فى اليم) يعنى نهر النيل (فليلقه اليم بالساحل) يعنى شاطئ البحر (يأخذه عدو لى وعدو له) يعنى فرعون فاخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا

اى رب تدعونى قال الى الذى ابرأ يدى وقد عجزت عنها ومن لسانى صفة لعقدة كانه قيل عقدة من عقد لسانى وهذا يشعر بانه لم تزل العقدة بكمالها واكثرهم على ذهاب جميعها (يفقهوا قولى) عند تبليغ الرسالة (واجعل لى وزيرا) ظهيرا اعتمد عليه من الوزر الثقل لانه يتحمل عن الملك اوزاره ومؤنته اومن الوزر الملجأ لان الملك يعتصم برأيه ويلتجئ اليه فى أموره اومعينا من المؤازرة وهى المعاونة فوزيرا مفعول اول لاجعل والثانى (من أهلى) اولى وزيرا مفعولاه وقوله (هرون) عطف بيان لوزيرا وقوله (اخى) بدل اوعطف بيان آخر ووزيرا وهرون مفعولاه وقدم ثانيهما على اولهما عناية بامر الوزارة (أشدد به أزرى) قو به ظهرى وقيل الازر القوة (واشركه فى أمرى) اجعله شريكى فى النبوة والرسالة واشددوا شركه على حكاية النفس شامى على ووضعت الجواب والباقون على الدعاء والسؤال (كى نسبحك) نصلى لك ونتنزهك تسبيحا (كثيرا ونذكرك كثيرا) فى الصلوات وخارجها (انك كنت بنا بصيرا) عالما باحوالنا فاجابه الله تعالى حيث (قال قد أوتيت سؤلك يا موسى) اعطيت مسؤلك فالسؤل الطلبة فعل بمعنى مفعول تخبز بمعنى مخبوز سولك بلا همز ابو عمرو (ولقد منا) انعمنا (عليك مرة) كرة (أخرى) قبل هذه ثم فسرها فقال (اذ أوحينا الى أمك ما يوحى) الهاما او مناما حين ولدت وكان فرعون يقتل امثالك واذ ظرف لمنا ثم فسر ما يوحى بقوله (ان اقذفيه) ألقيه (فى التابوت) وان مفسرة لان الوحى بمعنى القول (فاقذفيه فى اليم) النيل (فليلقه اليم بالساحل) الجانب وسمى ساحلا لان الماء يسحله اى يقشره والصيغة أمر لينا سب ما تقدم ومعناه الاخبار اى يلقيه اليم بالساحل (يأخذه عدو لى وعدو له) يعنى فرعون والضمائر كلها راجعة الى

موسى ورجوع بعضها اليه وبعضها الى التابوت يفضى الى تناثر النظم والمقذوف فى البحر والملقى الى الساحل وان كان هو التابوت لكن موسى فى جوف التابوت روى انها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا فوضعته فيه وقيرته ثم ألقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية اذا بالتابوت فامر به فاخرج ففتح فاذا بصبى اصبح الناس وجها فاحبه فرعون حباشديدا وذلك قوله (والقيت عليك محبة منى) يتعلق منى بالقيت يعنى انى احببتك ومن احبه الله احبته القلوب فما رآه احد الا احبه قال قتادة كان فى عينى موسى ملاحة ما رآه احد الا احبه (ولتصنع) معطوف على محذوف تقديره والقيت عليك محبة لتحب ولتصنع (على عينى) اى لتربى بمرأى منى واصله من صنع الفرس اى احسن القيام عليه يعنى انا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشئ بعينه اذا اعتنى به ولتصنع بسكون اللام والجزم بزيد على انه امر منه (اذ تمشى) بدل من اذ اوحينا الان مشى اخته كان

ووضعت فيه موسى وقيرت رأسه وشقوقه ثم القته فى النيل وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون فبينما فرعون جالس على البركة مع امرأته آسية اذ هو بتابوت يجىء به الماء فامر الغلمان والجوارى باخراجه فاخرجوه وفتحوا رأسه فاذا بصبى من اصبح الناس وجها فلما رآه فرعون احبه بحيث لم يتمالك نفسه وعقله فذلك قوله تعالى (والقيت عليك محبة منى) قال ابن عباس احبه وحببه الى خلقه قيل ما رآه احد الا احبه لملاحة كانت فى عينى موسى (ولتصنع على عينى) لتربى ويحسن اليك وانا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشئ بعينه اذا اعتنى به ونظر اليه (اذ تمشى أختك) واسمها مريم متعرفة خبره (فتقول هل ادلكم على من يكفله) اى على امرأة ترضعه وتضمه اليها وذلك انه كان لا يقبل ثدى امرأة فلما قالت لهم اخته ذلك قالوا نعم فجاءت بالام فقبل ثديها فذلك قوله تعالى (فرجعناك الى امك كى تقر عينها) اى بلقائك ورؤيتك (ولا تحزن) اى وليذهب عنها الحزن (وقتلت نفسا) قال ابن عباس كان قتل قبطيا كافرا قيل كان عمره اذ ذاك اثنتى عشرة سنة (فنجيناك من الغم) اى من غم القتل وكربه (وفتناك فتونا) قال ابن عباس اختبرناك اختبارا وقيل ابتليناك ابتلاء قال ابن عباس الفتون وقوعه فى محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى منها اولها ان أمه حملته فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الاطفال ثم القاؤه فى البحر فى التابوت ثم منعه من الرضاع الا من ثدى أمه ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطى وخروجه الى مدين خائفا (فلبثت) اى مكثت (سنين فى أهل مدين) هى بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر هرب اليها موسى قال وهب لبث موسى عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة عشر سنين منها يرعى الغنم مهر زوجته صفورا ابنة شعيب وثمان عشرة سنة أقام عنده بعد ذلك حتى ولد له وخرج من مصر ابن اثنتى عشرة سنة هاربا (ثم جئت على قدر يا موسى) اى جئت على القدر الذى قدرت ان تجىء فيه قبل على رأس أربعين سنة وهو القدر الذى يوحى الى الانبياء فيه (واصطنعتك لنفسى) اى اخترتك واصطفيتك لوحيى ورسالتى لتتصرف على ارادتى ومحبتى وذلك ان قيامه باداء الرسالة تصرف على ارادة الله ومحبته وقيل معناه اخترتك لامرى وجعلتك القائم بحجتى والمخاطب بينى وبين خلقى كانى الذى ألقت عليهم الحجة وخاطبتهم (اذهب انت وأخوك بآياتى) اى بدلائلى قال ابن عباس يعنى الآيات التسع التى بعث بها موسى عليه السلام (ولا تنيا) اى لا تضعفا وقيل

منه عليه (اختك فتقول هل ادلكم على من يكفله) روى ان اخته مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثدى امراة فقالت هل ادلكم على من يضمه الى نفسه فيربيه وارادت بذلك المرضعة الام وتذكير الفعل للفظ من فقالوا نعم فجاءت بالام فقبل ثديها وذلك قوله (فرجعناك) فرددناك (الى امك) كما وعدناها بقولنا انا رادوه اليك (كى تقر عينها) بلقائك (ولا تحزن) على فراقك (وقتلت نفسا) قبطيا كافرا (فنجيناك من الغم) من القود قيل الغم القتل بلغة

قريش وقيل اغتم بسبب القتل خوفا من عقاب الله تعالى ومن اقتصاص فرعون فغفر الله له باستغفاره قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى ونجاه من فرعون بان ذهب به من مصر الى مدين (وفتناك فتونا) ابتليناك ابتلاء بايقاعك فى المحن وتخليصك منها والفتون مصدر كالقعود او جمع فتنة اى فتناك ضروبا من الفتن والفتنة المحنة وكل ما يبتلى الله به عباده فتنة ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فلبثت سنين فى أهل مدين) هى بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر قال وهب لبث عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة عشر منها مهر لصفورا واقام عنده ثمان عشرة سنة بعدها حتى ولد له اولاد (ثم جئت على قدر يا موسى) اى موعد ومقدار للرسالة وهو اربعون سنة (واصطنعتك لنفسى) اخترتك واصطفيتك لوحيى ورسالتى لتتصرف على ارادتى ومحبتى قال الزجاج اخترتك لامرى وجعلتك القائم بحجتى والمخاطب بينى وبين خلقى كأنى القيت عليهم الحجة وخاطبتهم (اذهب انت واخوك بآياتى) بمعجزاتى (ولا تنيا) تفترا من الونى وهو الفتور والتقصير

(فى ذكرى) اى اتخذا ذكرى جناحا تطيران به اوارد بالذكر تبليغ الرسالة فالذكر يقع على سائر العبادات وتبليغ الرسالة من اعظمها (اذهبا الى فرعون) كرر لان الاول مطلق والثانى مقيد (انه طغى) جاوز الحد بادعائه الربوبية (فقولا له قولا لينا) الطفاله فى القول لماله من حق تربية موسى او كنياه وهو من ذوى الكنى الثلاث ابو العباس وابو الوليد وابو مرة او عداه شبابا لا يهرم بعده وملكا لا ينزع عنه الا بالموت اوهو قوله هل لك الى ان تزكى واهديك الى ربك فتخشى فظاهره الاستفهام والمشورة (لعله يتذكر) اى يتعظ ويتأمل فيذعن للحق (او يخشى) اى يخاف ان يكون الامر كما تصفان فيجره انكاره الى الهلكة وانما قال لعله يتذكر مع علمه انه لا يتذكر لان الترجى لهما اى اذهبا على رجائكما وطمعكما

وباشرا الامر مباشرة من يطمع ان يثمر عمله وجدوى ارسالهما اليه مع العلم بانه لن يؤمن الزام الحجة وقطع المعذرة وقيل معناه لعله يتذكر متذكرا او يخشى خاش وقد كان ذلك من كثير من الناس وقيل لعل من الله تعالى واجب وقد تذكر ولكن حين لم ينفعه التذكر وقيل تذكر فرعون وخشى واراد اتباع موسى فمنعه هامان وكان لا يقطع امرا دونه وتلمت عند يحيى بن معاذ فبكى وقال هذا رفقك بمن يقول انا اله فكيف بمن قال انت الاله وهذا رفقك بمن قال انا ربكم الاعلى فكيف بمن قال سبحان ربى الاعلى (قالا ربنا انا نخاف ان يفرط علينا) يعجل علينا بالعقوبة ومنه الفارط يقال فرط عليه اى عجل (او ان يطغى) يجاوز الحد فى الاساءة الينا (قال لا تخافا انني معكما) اى حافظكما وناصركما (اسمع) اقوالكما (وارى) افعالكما قال ابن عباس رضى الله عنهما اسمع دعاءكما فاجيبه وارى ما يراد بكما فامنع لست بغافل عنكما فلا تهتما (فأتياه) اى فرعون (فقولا انا رسولا ربك) اليك (فارسل معنا بنى اسرائيل) اى اطلقهم عن الاستعباد والاسترقاق (ولا تعذبهم) بتكليف المشاق (قد جئناك بآية من ربك) بحجة على صدق ما ادعيناه وهذه الجملة جارية من الجملة الاولى وهى انا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير والتفصيل لان دعوى الرسالة لا تثبت الا ببينتها وهى المجىء بالآتى فقال فرعون وما هى فاخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس (والسلام على من اتبع الهدى) اى سلم من العذاب من أسلم وليس بتحية وقيل وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين (انا قد اوحى الينا ان العذاب) فى الدنيا والعقبى (على من كذب) بالرسل (وتولى) اعرض عن الايمان وهى ارجى آى القرآن لانه جعل جنس السلام للمؤمن وجنس العذاب على المكذب وليس وراء الجنس شئ فأتياه وأديا الرسالة وقالا له ما امرا به (قال)

لا تفترا ولا تقصرا (فى ذكرى) اى لا تقصرا فى ذكرى بالاحسان اليكما والانعام عليكما ومن ذكر النعمة شكرها (اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا) اى داريا وارفقا به قال ابن عباس لا تعنفا فى قولكما وقيل كنياه فقولا له يا ابا العباس وقيل يا ابا الوليد وقيل أراد بالقول اللين قوله هل لك الى ان تزكى الآية وقيل انما أمرهما باللطافة لماله من حق تربية موسى وقيل عداه على قبول الايمان شبابا لا يهرم وملكا لا ينزع منه الا بالموت وتبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته واذا مات دخل الجنة فلما اتاه موسى ووعده بذلك أعجبه وكان لا يقطع أمرا دون هامان وكان غائبا فلما قدم أخبره بالذى دعاه اليه موسى وقال أردت ان أقبل منه فقال له هامان كنت أرى ان لك عقلا ورأيا أنت رب تريد ان تكون مربوبا وأنت تعبد تريد ان تعبد فقال فرعون صواب ما قلت فغلبه على رأيه وكان هرون بمصر فامر الله موسى ان يأتى هرون واوحى الله الى هرون وهو بمصر ان يتلقى موسى فتلقاه الى مرحلة وأخبره بما أوحى اليه وقوله تعالى (لعله يتذكر او يخشى) اى يتعظ ويخاف فيسلم فان قلت كيف قال لعله يتذكر وقد سبق فى علمه انه لا يتذكر ولا يسلم قلت معناه اذهبا على رجاء منكما وطمع وقضاء الله وراء أمركما وقيل هو الزام الحجة وقطع المعذرة كقوله تعالى ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك وقيل هو ينصرف الى غير فرعون مجازه لعله يتذكر او يخشى خاش اذا رأى برى والطافى بمن خلقته وأنعمت عليه ثم ادعى الربوبية وقيل لعل من الله واجب ولقد تذكر فرعون وخشى حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين أدركه الغرق وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ الرازى فقولا له قولا لينا الآية فبكى يحيى وقال الهى هذا رفقك بمن يقول انا الاله فكيف رفقك بمن يقول أنت الاله (قالا) يعنى موسى وهرون (ربنا انا نخاف أن يفرط علينا) قال ابن عباس يعجل علينا بالقتل والعقوبة (أو أن يطغى) اى يجاوز الحد فى الاساءة الينا (قال) الله تعالى (لا تخافا انني معكما أسمع وأرى) قال ابن عباس اسمع دعاءكما فاجيبه وأرى ما يراد بكما فامنع لست بغافل عنكما فلا تهتما (فأتياه فقولا انا رسولا ربك) اى ارسلنا اليك ربك (فارسل معنا بنى اسرائيل) اى خل عنهم واطلقهم من اعمالك (ولا تعذبهم) اى لا تتعبهم فى العمل وكان فرعون يستعملهم فى الاعمال الشاقة كالبناء وقطع الصخور مع قتل الولدان وغير ذلك (قد جئناك بآية من ربك) قال فرعون وما هى فاخرج موسى يده لها شعاع كشعاع الشمس وقيل معناه قد جئناك بمعجزة وبرهان يدل على صدقنا على ما ادعيناه من الرسالة (والسلام على من اتبع الهدى) ليس المراد منه سلام التحية بل انما معناه سلم من العذاب من أسلم (انا قد أوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى) اى انما يعذب الله من كذب بما جئنا به وأعرض عنه (قال) يعنى فرعون

فمن ربكما يا موسى) خاطبهما ثم نادى احدهما لان موسى هو الاصل فى النبوة وهرون تابعه (قال ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه) خلقه اول مفعولى اعطى اى اعطى خليقته كل شئ يحتاجون اليه ويرتفقون به او ثانيهما اى اعطى كل شئ صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به كما اعطى العين الهيئة التى تطابق الابصار والاذن الشكل الذى يوافق الاستماع وكذا الانف والرجل واليد كل واحد منها مطابق للمنفعة المنوطة بها وقرأ نصير خلقه صفة للمضاف او للمضاف اليه اى اعطى كل شئ مخلوق عطاء (ثم هدى) عرف كيف يرتفق بما اعطى للعيشة فى الدنيا والسعادة فى العقبى (قال فما بال القرون الاولى) فما حال الامم الخالية والرمم البالية سأله عن حال من تقدم من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد (قال) موسى مجيبا (علمها عند ربى) مبتدا وخبر (فى كتاب) اى اللوح خبر ثان اى هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه الا هو وما أنا الا عبد مثلك لا أعلم منه الا ما أخبرنى به علام الغيوب وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله فى اللوح المحفوظ (لا يضل ربى) اى لا يخطئ شيأ يقال ضللت الشئ اذا أخطأته فى مكانه فلم تهتد له اى لا يخطئ فى سعادة الناس وشقاوتهم (ولا ينسى) ثوابهم وعقابهم وقيل لا ينسى ما علم فيذكره الكتاب ٢٦٣ ولكن ليعلم الملائكة ان معمول

(فمن ربكما يا موسى) اى فمن الحكيم الذى أرسلكما (قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) اى كل شئ يحتاجون اليه ويرتفقون به وقيل اعطى كل شئ صلاحه وهداه وقيل أعطى كل شئ صورته فخلق اليد للبطش والرجل للمشى واللسان للنطق والعين للنظر والاذن للسمع ثم هداه الى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح وقيل يعنى جعل زوجة الرجل المرأة والبعير الناقة والفرس الرمكة وهى الحجرة والحمار الاتان ثم هدى الهمه كيف يأتى الذكر الانثى (قال) يعنى فرعون (فما بال القرون الاولى) اى فما حال القرون الماضية والامم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فانها كانت تعبد الاوثان وتنكر البعث وانما قال فرعون ذلك لموسى حين خوفهم مصارع الامم الخالية فحينئذ قال فرعون فما بال القرون الاولى (قال) يعنى موسى (علمها عند ربى) اى أعمالهم محفوظة عند الله يجازى بها وقيل انما رد موسى علم ذلك الى الله تعالى لانه لم يعلم ذلك لان التوراة انما نزلت بعد هلاك فرعون وقومه (فى كتاب) يعنى اللوح المحفوظ (لا يضل ربى) اى لا يخطئ وقيل لا يغيب عنه شئ (ولا ينسى) اى فيتذكر وقيل لا ينسى ما كان من أعمالهم حتى يجازيهم بها (الذى جعل لكم الارض مهادا) اى فراشا وقيل مهدها لكم (وسلك لكم فيها سبلا) اى ادخل فى الارض لاجلكم طرقا وسهلها لكم لتسلكوها (وأنزل من السماء ماء) يعنى المطر تم الاخبار عن موسى ثم قال الله تعالى (فاخرجنا به) اى بذلك الماء (أزواجا) اى اصنافا (من نبات شتى) اى مختلف الالوان والطعوم والمنافع فنها ما هو للناس ومنها ما هو للدواب (كلوا وارعوا أنعامكم) اى أخرجنا أصناف النبات للانتفاع بالاكل والرعى (ان فى ذلك) اى الذى ذكر (لآيات لاولى النهى) اى لذوى العقول قيل هم الذين ينتهون عما حرم الله عليهم (منها خلقناكم) اى من الارض خلقنا آدم وقيل ان الملك ينطلق فيأخذ من التراب الذى يدفن فيه فيذره فى النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة (وفيها نعيدكم) اى عند الموت والدفن (ومنها نخرجكم تارة أخرى)

الخلق يوافق معلومه (الذى) مرفوع صفة لربى او خبر مبتدا محذوف او منصوب على المدح (جعل لكم الارض مهدا) كوفى وغيرهم مهادا وهما لغتان لما يبسط ويفرش (وسلك) اى جعل (لكم فيها سبلا) طرقا (وأنزل من السماء ماء) اى مطرا (فأخرجنا به) بالماء نقل الكلام من الغيبة الى لفظ المتكلم المطاع للافتنان وقيل تم كلام موسى ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله فأخرجنا به وقيل هذا كلام موسى اى فاخرجنا نحن بالحراثة والغرس

(أزواجا) اصنافا (من نبات) هو مصدر سمى به النابت فاستوى فيه الواحد والجمع (شتى) صفة للازواج او للنبات جمع شتيت كمريض ومرضى اى انها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها للناس وبعضها للبهائم ومن نعمته تعالى ان ارزاقنا تحصل بعمل الانعام وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتنا مما لا نقدر على أكله قائلين (كلوا وارعوا انعامكم) حال من الضمير فى فاخرجنا والمعنى اخرجنا اصناف النبات آذنين فى الانتفاع بها مبيحين ان تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها (ان فى ذلك) فى الذى ذكرت (لآيات) لدلالات (لاولى النهى) لذوى العقول واحدها نهية لانها تنهى عن المحظور او ينتهى اليها فى الامور (منها) من الارض (خلقناكم) اى اباكم آدم عليه السلام وقيل يجمع كل نطفة بشئ من تراب مدفنه فيخلق من التراب والنطفة معا اولان النطفة من الاغذية وهى من الارض (وفيها نعيدكم) اذا متم فدفنتم (ومنها نخرجكم) عند البعث (تارة اخرى) مرة اخرى والمراد اخراجهم انه يؤلف اجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ويردهم كما كانوا احياء ويخرجهم الى المحشر عد الله عليهم ما علق بالارض من مرافقهم حيث جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤا وانبت فيها اصناف النبات التى منها اقواتهم وعلوفات بهائمهم وهى اصلهم الذى منه تفرعوا وامهم التى منها ولدوا وهى كفاتهم اذا ماتوا

(ولقد اريناه) اى فرعون (آياتنا كلها) وهى تسع آيات العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل (فكذب) الآيات (وابى) قبول الحق (قال) فرعون (اجئتنا لتخرجنا من ارضنا) مصر (بسحرك يا موسى) فيه دليل على انه خاف منه خوفا شديدا وقوله بسحرك تعلل والا فأى ساحر يقدر ان يخرج ملكا من ارضه (فلنأتينك بسحر مثله) فلنعارضنك بسحر مثل سحرك (فاجعل بيننا وبينك موعدا) هو مصدر بمعنى الوعد ويقدر مضاف اى مكان موعد والضمير فى (لا نخلفه) للموعد قرئ بالجزم على جواب الامر وغيره بالرفع على الوصف للموعد (نحن ولا انت مكانا) هو بدل من المكان المحذوف ويجوز ان لا يقدر مضاف ويكون المعنى اجعل بيننا وبينك وعدا لا نخلفه وانت نصب مكانا بالمصدر او بفعل يدل عليه المصدر (سوى) بالكسر حجازى وابو عمرو وعلى وغيرهم بالضم وهو نعت لمكانا اى منصفا بيننا وبينك وهو من الاستواء لان المسافة من الوسط الى الطرفين مستوية (قال موعدكم يوم الزينة) مبتدا وخبر وهو يوم عيد كان لهم او يوم النيروز او يوم عاشوراء وانما استقام الجواب بالزمان وان كان السؤال عن المكان على التأويل الاول لان اجتماعهم يوم الزينة يكون فى مكان لا محالة فبذكر الزمان علم المكان وعلى الثانى تقديره وعدكم وعد يوم الزينة (وان يحشر الناس) اى تجمع ٢٦٤ فى موضع رفع او جر عطفا على يوم او الزينة (ضحى) اى وقت الضحوة لتكون ابعد عن الريبة

وابين لكشف الحق وليشيع فى جميع اهل الوبر والمدر (فتولى فرعون) ادبر عن موسى معرضا (فجمع كيده) مكره وسحرته وكانوا اثنين وسبعين أو اربعمائة او سبعين الفا (ثم أتى) للموعد (قال لهم موسى) اى للسحرة (ويلكم لا تفتروا على الله كذبا) لا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا (فيسحتكم) كوفى غير ابى بكر يهلككم وبفتح الياء والحاء غيرهم والسحت والاسحات بمعنى الاعدام وانتصب على جواب النهى (بعذاب) عظيم (وقد خاب من افترى) من كذب على الله (فتنازعوا) اختلفوا اى السحرة فقال بعضهم هو

اى يوم القيامة للبعث والحساب قوله تعالى (ولقد أريناه) يعنى فرعون (آياتنا كلها) يعنى الآيات التسع التى أعطاها الله موسى (فكذب وأبى) يعنى فرعون وزعم انها سحر وأبى ان يسلم (قال) يعنى فرعون (اجئتنا لتخرجنا من أرضنا) يعنى مصر (بسحرك يا موسى) تريدان تغلب على ديارنا فيكون لك الملك وتخرجنا منها (فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا) اى اضرب اجلا وميقاتا (لا نخلفه) لا نجاوزه (نحن ولا أنت مكانا سوى) اى مكانا عدلا وقال ابن عباس نصفا تستوى مسافة الفريقين اليه وقيل معناه سوى هذا المكان (قال) يعنى موسى (موعدكم يوم الزينة) قيل كان يوم عيدهم يتزينون فيه ويجتمعون فى كل سنة وقيل هو يوم النيروز وقال ابن عباس يوم عاشوراء (وأن يحشر الناس ضحى) اى وقت الضحوة نهارا جهارا ليكون أبعد من الريبة (فتولى فرعون فجمع) يعنى فرعون (كيده) يعنى مكره وسحره وحيله (ثم أتى) يوم الميعاد (قال لهم موسى) يعنى للسحرة التى جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل ساحر حبل وعصا وقيل كانوا اربعمائة وقيل كانوا اثنى عشر ألفا (ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب) اى فيهلككم ويستأصلكم (وقد خاب من افترى) اى خسر من ادعى مع الله الها آخر وقيل معناه خسر من كذب على الله تعالى قوله تعالى (فتنازعوا أمرهم بينهم) اى تناظروا وتشاوروا يعنى السحرة فى أمر موسى سرا من فرعون وقالوا ان غلبنا موسى اتبعناه وقيل معناه لما قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر (وأسروا النجوى) اى المناجاة (قالوا) قال بعضهم لبعض سرا (ان هذان لساحران) يعنى موسى وهرون (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) يعنى من مصر (بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى)

قال ساحر مثلنا وقال بعضهم ليس هذا بكلام السحرة اى لا تفتروا على الله كذبا الآية (أمرهم بينهم وأسروا النجوى) اى تشاوروا فى السر وقالوا ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله أمر والنجوى يكون مصدرا واسما ثم لفقوا هذا الكلام يعنى (قالوا ان هذان لساحران) يعنى موسى وهرون قرأ ابو عمرو ان هذين لساحران وهو ظاهر ولكنه مخالف للامام وابن كثير وحفص والخليل وهو اعرف بالنحو واللغة ان هذان لساحران بتخفيف ان مثل قولك ان زيد لمنطق واللام هى الفارقة بين ان النافية والمخففة من الثقيلة وقيل هى بمعنى ما واللام بمعنى الا اى ما هذان الا ساحران دليله قراءة أبى ان ذان الا ساحران وغيرهم ان هذان لساحران قيل هى لغة بلحرث بن كعب وخثعم ومراد وكنانة فالتثنية فى لغتهم بالالف أبدا فلم يقلبوها ياء فى الجر والنصب كعصا وسعدى قال

ان أباها وأبا أباها * قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال الزجاج ان بمعنى نعم قال الشاعر ويقلن شيب قد علا * ك وقد كبرت فقلت انه

اى نعم والهاء للوقف وهذان مبتدا وساحران خبر مبتدا محذوف واللام داخلة على المبتدا المحذوف تقديره هذان لهما ساحران فيكون دخولها فى موضعها الموضوع لها وهو الابتداء وقد يدخل اللام فى الخبر كما يدخل فى المبتدا قال * خالى لانت ومن جرير خاله * قال فعرضته على المبرد فرضيه وقد زيفه ابو على (يريدان ان يخرجاكم من أرضكم) مصر (بسحرهما ويذهبا بطريقتكم) بدينكم وشريعتكم (المثلى) الفضلى تأنيث الامثل وهو الافضل

(فاجمعوا) فاحكموا اى اجعلوه مجمعا عليه لا تختلفوا فاجمعوا أبو عمرو يعضده فجمع كيده (كيدكم) هو ما يكاد به (ثم ائتوا صفا) مصطفين حال أمروا بان يأتوا صفا لانه أهيب فى صدور الرائين (وقد أفلح اليوم من استعلى) وقد فاز من غلب وهو اعتراض (قالوا) اى السحرة (يا موسى اما ان تلقى) عصاك أولا (واما أن نكون اول من ألقى) ما معناه وموضع ان مع ما بعده فيهما نصب بفعل مضمر اورفع بانه خبر مبتدا محذوف معناه اختر احد الامرين او الامر القاؤك او القاؤنا وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه وكانه تعالى ألهمهم ذلك وقد وصلت اليهم بركته وعلم موسى اختيار القائهم أولا حتى (قال بل ألقوا) أنتم اولا ليبرزوا ما معهم من مكايد السحر ويظهر الله سلطانه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ويسلط المعجزة على السحر فتمحقه فيصير آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين فألقوا (فاذا حبالهم وعصيهم) يقال فى اذا هذه اذا المفاجأة والتحقيق انها اذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف اليها وخصت فى بعض المواضع بان يكون ناصبها فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير والتقدير ففاجأ موسى وقت تخييل سعى حبالهم وعصيهم والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة اليه السعى (يخيل) ٢٦٥ وبالتاء ابن ذكوان (اليه) الى موسى

قال ابن عباس يعنى بسراة قومكم واشرافكم وقيل معناه يصرفان وجوه الناس عنكم وقيل أراد أهل طريقتكم المثلى وهم بنو اسرائيل يعنى يريدان أن يذهبا بهم لا نفسهما وقيل معناه يذهبا بسنتكم وبدينكم الذى أنتم عليه (فاجمعوا كيدكم) اى لا تدعوا شيأ من كيدكم الا جئتم به وقيل معناه اعزموا كلكم على كيده مجتمعين له ولا تختلفوا فيختل أمركم (ثم ائتوا صفا) اى جمعا مصطفين ليكون أشد لهيبتكم وقيل معناه ثم ائتوا المكان الموعود به (وقد افلح اليوم من استعلى) اى فاز من غلب (قالوا) يعنى السحرة (يا موسى اما ان تلقى) اى عصاك (واما ان نكون اول من ألقى) اى عصينا (قال) يعنى موسى (بل ألقوا) يعنى أنتم أولا (فاذا حبالهم) فيه اضمار اى فالقوا فاذا حبالهم (وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) قيل انهم لما ألقوا الحبال والعصى اخذوا أعين الناس فرأى موسى كأن الارض امتلأت حيات وكانت قد اخذت ميلا فى ميل من كل جانب ورآها كانها تسعى (فأوجس) اى أضمر وقيل وجد (فى نفسه خيفة موسى) قيل هو طبع البشرية وذلك انه ظن انها تقصده وقيل انه خاف على القوم ان يلتبس عليهم الامر فيشكوا فى امره فلا يتبعوه (قلنا لا تخف) اى قال الله تعالى لموسى لا تخف (انك أنت الاعلى) اى الغالب عليهم ولك الغلبة عليهم والظفر (وألق ما فى يمينك) اى عصاك والمعنى لا يخيفنك كثرة حبالهم وعصيهم فان فى يمينك شيأ اعظم منها كلها (تلقف) اى تلتقم وتبتلع (ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر) اى حيلة ساحر (ولا يفلح الساحر حيث أتى) اى من الارض وقال ابن عباس لا يسعد حيث كان (فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى) قال صاحب الكشاف سبحان الله ما أعجب امرهم قد القوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم القوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما اعظم الفرق بين الالقاءين وقيل انهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار وقيل انهم لما سجدوا اراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم التى يصيرون اليها فى الجنة (قال) يعنى فرعون (آمنتم له قبل أن آذن لكم

(من سحرهم انها تسعى) رفع بدل اشتمال من الضمير فى يخيل اى يخيل الملقى روى انهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيلت ذلك (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) اضمر فى نفسه خوفا ظنا منه انها تقصده للجبلة البشرية او خاف ان يخالج الناس شك فلا يتبعوه (قلنا لا تخف انك أنت الاعلى) الغالب القاهر وفى ذكر ان وانت وحرف التعريف ولفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة مبالغة بينة (وألق ما فى يمينك تلقف) بسكون

اللام والفاء وتخفيف القاف حفص وتلقف ابن ذكوان الباقون تلقف (ما صنعوا) زوروا وافتعلوا اى اطرح عصاك تبتلع عصيهم وحبالهم ولم يقل عصاك تعظيما لها اى لا تحتفل بما صنعوا فان ما فى يمينك اعظم منها وتحقيرا اى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم والق العويد الفرد الذى فى يمينك فانه بقدرتنا يتلقفها على وحدته وكثرتها (انما صنعوا كيد ساحر) كوفى غير عاصم سحر بمعنى ذى سحر أو ذوى سحر اوهم لتوغلهم فى السحر كانهم السحر وكيد بالرفع على القراءتين وما موصولة او مصدرية وانما وحد ساحر ولم يجمع لان القصد فى هذا الكلام الى معنى الجنسية لا الى معنى العدد فلو جمع لخيل ان المقصود هو العدد ألا ترى الى قوله (ولا يفلح الساحر) اى هذا الجنس (حيث أتى) اينما كان فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا فلعظم ما رأوا من الآية وقعوا الى السجود فذلك قوله (فألقى السحرة سجدا) قال الاخفش من سرعة ما سجدوا كانهم ألقوا القاء فما اعجب امرهم قد القوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم القوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما اعظم الفرق بين الالقاءين روى انهم رأوا الجنة ومنازلهم فيها فى السجود فرفعوا رؤسهم ثم (قالوا آمنا برب هرون وموسى) وانما قدم هرون هنا واخر فى الشعراء محافظة للفاصلة ولان الواو لا توجب ترتيبا (قال آمنتم) بغير مد حفص وبهمزة ممدودة بصرى وشامى وحجازى وبهمزتين غيرهم (له قبل ان آذن لكم) اى لموسى يقال آمن له وآمن به

(انه لكبيركم الذى علمكم السحر) لعظيمكم او لمعلمكم تقول اهل مكة للمعلم امرنى كبيرى (فلأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف) القطع من خلاف ان تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لان كل واحد من العضوين يخالف الآخر بان هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال ومن لابتداء الغاية لان القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو ومحل الجار والمجرور النصب على الحال يعنى لاقطعنها مختلفات لانها اذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف شبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن المظروف فى الظرف فلهذا قال (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) وخص النخل لطول جذوعها (ولتعلمن أينا اشد عذابا) انا على ايماننكم بى او رب موسى على ترك الايمان به وقيل يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات الله وسلامه عليه بدليل قوله آمنتم له واللام مع الايمان فى كتاب الله لغير الله كقوله يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين (وابقى) ٢٦٦ ادوم (قالوا لن نؤثرك) لن نختارك (على ماجاءنا من البينات) القاطعة الدالة على

انه لكبيركم) اى لرئيسكم وعظيمكم يعنى انه أسحركم واعلاكم فى صناعة السحر ومعلمكم (الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) اى اقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) اى على جذوع النخل (ولتعلمن أينا أشد عذابا) اى على ايماننكم به انا او رب موسى على ترك الايمان به (وأبقى) اى ادوم (قالوا) يعنى السحرة (لن نؤثرك) اى لن نختارك (على ماجاءنا من البينات) يعنى الدلالات الواضحات قيل هى اليد البيضاء والعصا وقيل كان استدلالهم انهم قالوا لو كان هذا سحرا فأين حبالنا وعصينا وقيل انهم لما سجدوا رأوا الجنة والنار ورأوا منازلهم فى الجنة فعند ذلك قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات (والذى فطرنا) قيل هو قسم وقيل معناه لن نؤثرك على الله الذى فطرنا (فاقض ما أنت قاض) اى فاصنع ما انت صانع (انما تقضى هذه الحيوة الدنيا) اى انما امرك وسلطانك فى الدنيا وسيزول عن قريب (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) فان قلت كيف قالوا هذا وقد جاؤا مختارين غير مكرهين قلت كان فرعون اكرههم فى الابتداء على تعلمهم السحر لكى لا يذهب اصله وقيل كانت السحرة اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بنى اسرائيل وكان فرعون اكره الذين هم من بنى اسرائيل على تعلم السحر وقيل قال السحرة لفرعون أرنا موسى اذا هو نام فاراهم موسى نائما وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون هذا ليس بساحر ان الساحر اذا نام بطل سحره فالى عليهم فاكرههم على ان يعملوا فذلك قولهم وما اكرهتنا عليه من السحر (والله خير وأبقى) اى خير منك ثوابا وابقى عقابا وقيل خير منك ان أطيع وابقى عذابا ان عصى وهذا جواب لقوله ولتعلمن اينا اشد عذابا وابقى (انه من يأت ربه مجرما) قيل هذا ابتداء كلام من الله تعالى وقيل هو من تمام قول السحرة معناه من مات على الشرك (فان له جهنم لا يموت فيها) فيستريح (ولا يحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) اى من مات على الايمان (قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) اى الرفيعة العلية ثم فسر الدرجات بقوله (جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) اى تطهر من الذنوب وقيل اعطى زكاة نفسه وقال لا اله الا الله عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى أفق السماء وان ابا بكر وعمر منهم وانعما اخرجه الترمذى (قوله وانعما) يقال احسن فلان الى فلان وانعم اى افضل وزاد فى الاحسان والمعنى انهما منهم وزادا وتناهيا الى غايته قوله تعالى (ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى)

صدق موسى (والذى فطرنا) عطف على ماجاءنا اى لن نختارك على الذى جاءنا ولا على الذى خلقنا او قسم وجوابه لن نؤثرك مقدم على القسم (فاقض ما انت قاض) فاصنع ما انت صانع من القتل والصلب قال وعليهما مسرودتان قضاهما اى صنعهما او احكم ما انت حاكم (انما تقضى هذه الحيوة الدنيا) اى فى هذه الحياة الدنيا فانتصب على الظرف اى انما تحكم فينا مدة حياتنا (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه) ما موصولة منصوبة بالعطف على خطايانا (من السحر) حال من ما روى انهم قالوا لفرعون ارنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا اما هذا يسحر الساحر اذا نام بطل سحره فكرهوا معارضته خوف الفضيحة فاكرههم فرعون على الاتيان

اى

بالسحر وضر فرعون جهله به ونقصهم علمهم بالسحر فكيف بعلم الشرع (والله خير) ثوابا من اطاعه (وأبقى) عقابا من عصاه وهو رد لقول فرعون ولتعلمن أينا اشد عذابا وابقى (انه) هو ضمير الشأن (من يأت ربه مجرما) كافرا (فان له) للمجرم (جهنم لا يموت فيها) فيستريح بالموت (ولا يحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) مات على الايمان (قد عمل الصالحات) بعد الايمان (فأولئك لهم الدرجات العلى) جمع العلياء (جنات عدن) بدل من الدرجات (تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) دائمين (وذلك جزاء من تزكى) تطهر من الشرك بقول لا اله الا الله قيل هذه الآيات الثلاث حكاية قولهم وقيل خبر من الله تعالى لا على وجه الحكاية وهو اظهر (ولقد أوحينا الى موسى ان أسر بعبادى) لما اراد الله تعالى اهلاك فرعون وقومه امر موسى ان يخرج بهم من مصر ليلا ويأخذ بهم طريق البحر

(فاضرب لهم طريقا في البحر) اجعل لهم من قولهم ضرب له في ماله سهما (يبسا) اى يابسا وهو مصدر وصف به يقال يبس يبسا ويبسا (لا تخاف) حال من الضمير في فاضرب اى اضرب لهم طريقا غير خائف لا تخف حزة على الجواب (دركا) هو اسم من الادراك اى لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك (ولا تخشى) الغرق وعلى قراءة حزة ولا تخشى استئناف اى وانت لا تخشى او يكون الالف للاطلاق كما في وتظنون بالله الظنونا فخرج بهم موسى من أول الليل وكانوا سبعين الفا وقد استعاروا حليهم فركب فرعون في ستمائة الف من القبط فقص اثرهم فذلك قوله (فأتبعهم فرعون بجنوده) وهو حال اى خرج خلفهم ومعه جنوده (فغشيهم من اليم) اصابهم من البحر (ما غشيهم) هو من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة اى غشيهم ما لا يعلم كنهه الا الله عز وجل (وأضل فرعون قومه) عن سبيل الرشاد (وما هدى) وما ارشدهم الى الحق والسداد وهذا رد لقوله وما اهديكم الا سبيل الرشاد ثم ذكر منته على بني اسرائيل بعد ما انجاهم من البحر واهلك فرعون وقومه بقوله (يا بني اسرائيل) اى اوحينا الى موسى

أن أسر بعبادي وقلنا يا بني اسرائيل

اى اسر بهم ليلا من ارض مصر (فاضرب لهم طريقا) اى اجعل لهم طريقا (في البحر) بالضرب بالعصا (يبسا) اى يابسا ليس فيه ماء ولا طين وذلك ان الله تعالى ايبس لهم الطريق في البحر (لا تخاف دركا ولا تخشى) قيل معناه لا تخاف ان يدركك فرعون من ورائك ولا تخشى ان يغرقك البحر امامك (فأتبعهم) اى فلحقهم (فرعون بجنوده فغشيهم) اى اصابهم (من اليم ما غشيهم) وهو الغرق وقيل علاهم وسترهم من اليم ما لم يعلم كنهه الا الله تعالى فغرق فرعون وجنوده ونجا موسى وقومه (وأضل فرعون قومه وما هدى) اى وما ارشدهم وهو تكذيب لفرعون في قوله وما اهديكم الا سبيل الرشاد * قوله عز وجل (يا بني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى) ذكرهم الله النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم وفيما وعد موسى من المناجاة بجانب الطور وكتب التوراة في الالواح وانما قال وواعدناكم لانها اتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ورجعت منافعها اليهم وبها قوام دينهم وشريعتهم وفيها افاض الله عليهم من سائر نعمه وارزاقه (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه) قال ابن عباس لا تظلموا وقيل لا تكفروا النعمة فتكونوا طاغين وقيل لا تتقووا بنعمتي على المعاصي وقيل لا تدخروا (فيحل عليكم غضبي) اى يجب عليكم غضبي (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) اى هلك وسقط في النار (وانى لغفار لمن تاب) قال ابن عباس تاب عن الشرك (وآمن) اى وحد الله وصدق رسوله (وعمل صالحا) اى ادى الفرائض (ثم اهتدى) قال ابن عباس علم ان ذلك توفيق من الله تعالى وقيل لزم الاسلام حتى مات عليه وقيل علم ان لذلك ثوابا وقيل اقام على السنة * قوله عز وجل (وما أعجلك) اى وما حملك على العجلة (عن قومك يا موسى) وذلك ان موسى اختار من قومه سبعين رجلا يذهبون معه الى الطور ليأخذوا التوراة فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقا الى ربه وخلف السبعين وامرهم ان يتبعوه الى الجبل فقال الله له وما اعجلك عن قومك يا موسى فأجاب ربه فـ(قال هم أولاء على اثري) اى هم بالقرب مني يأتون على اثري من بعدي فان قلت لم يطابق السؤال الجواب فانه سأله عن سبب العجلة فعدل عن الجواب فقال هم أولاء على اثري قلت كان هم موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما انكر عليه فاعتل بانه لم يوجد منه الا التقدم يسيرا ثم اعقبه بجواب السؤال فقال (وعجلت اليك رب

(قد أنجيناكم من عدوكم) اى فرعون (وواعدناكم) بايتاء الكتاب (جانب الطور الايمن) وذلك ان الله عز وجل وعد موسى ان يأتي هذا المكان ويختار سبعين رجلا يحضرون معه لنزول التوراة وانما نسب اليهم المواعدة لانها كانت لنبيهم ونقبائهم واليهم رجعت منافعها التي قام بها شرعهم ودينهم والايمن نصب لانه صفة جانب وقرئ بالجر على الجوار (ونزلنا عليكم المن والسلوى) في التيه وقلنا لكم (كلوا من طيبات) حلالات (ما رزقناكم) انجيتكم وواعدتكم ورزقتكم كوفي غير عاصم (ولا تطغوا فيه) ولا تتعدوا حدود الله فيه بان تكفروا النعم وتنفقوها في المعاصي اولا يظلم بعضكم بعضا (فيحل عليكم غضبي) عقوبتي (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) هلك او سقط سقوطا لا نهوض بعده وأصله ان يسقط من جبل فيهلك وتحقيقه سقط من شرف شرف الايمان الى حفرة من حفر النيران قرأ على فيحل ويحلل والباقون بكسرهما والمكسور في معنى الوجوب من حل الدين يحل اذا وجب اداؤه والمضموم في معنى النزول (وانى لغفار لمن تاب) عن الشرك (وآمن) وحد الله تعالى وصدقه فيما انزل (وعمل صالحا) ادى الفرائض (ثم اهتدى) ثم استقام وثبت على الهدى المذكور وهو التوبة والايمان والعمل الصالح (وما أعجلك) اى واى شئ عجل بك (عن قومك يا موسى) اى عن السبعين الذين اختارهم وذلك انه مضى معهم الى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقا الى كلام ربه وامرهم ان يتبعوه قال الله تعالى وما اعجلك اى اى شئ أوجب عجلتك استفهام انكار وما مبتدا واعجلك الخبر (قال هم أولاء على اثري) اى هم خلفي يلحقون بي وليس بيني وبينهم الا مسافة يسيرة ثم ذكر موجب العجلة فقال (وعجلت اليك رب) اى الى الموعد الذي وعدت

(لترضى) لتزداد عنى رضاوهذا دليل على جواز الاجتهاد (قال فانا قد فتنا قومك) القيناهم فى فتنة (من بعدك) من بعد خروجك من بينهم والمراد بالقوم الذين خلفهم مع هرون (وأضلهم السامرى) بدعائه اياهم الى عبادة العجل واجابتهم له وهو منسوب الى قبيلة من بنى اسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا من كرمان فاتخذ عجلا واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا (فرجع موسى) من مناجاة ربه (الى قومه غضبان أسفا) شديد الغضب اوحزينا (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) وعدهم الله ان يعطيهم التوراة التى فيها هدى ونور وكانت الف سورة كل سورة الف آية يحمل اسفارها سبعون جملا ولا وعد أحسن من ذلك (أفطال عليكم العهد) اى مدة مفارقتى اياكم والعهد الزمان يقال طال عهدى بك اى طال زمانى بسبب مفارقتك (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) اى

اردتم ان تفعلوا فعلا يجب به عليكم الغضب من ربكم (فأخلفتم موعدى) وعدوه ان يقيموا على امره وما تركهم عليه من الآيات فاخلفوا موعده باتخاذ العجل (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) بفتح الميم مدنى وعاصم وبضمها حمزة وعلى وبكسرها غيرهم اى ما أخلفنا موعدك بان ملكنا امرنا اى لو ملكنا امرنا وخلينا ورأينا لما اخلفنا موعدك ولكنا غلبنا من جهة السامرى وكيده (ولكنا حملنا) بالضم والتشديد حجازى وشامى وحفص وبفتح الحاء والميم مع التخفيف غيرهم (أوزارا من زينة القوم) اثقالا من حلى القبط اوارادوا بالاوزار انها آثام وتبعات لانهم قد استعاروها ليلة الخروج من مصر بعلة ان لنا غدا عيدا فقال السامرى انما حبس موسى لشؤم حرمتها لانهم كانوا معهم فى حكم المستأمنين وذهب فى دار الحرب وليس للمستأمن ان يأخذ مال الحربى على ان الغنائم لم تكن تحل حينئذ فاحرقوها فخبا فى حفرة النار قالب عجل فانصاغ عجلا مجوفا فصار بدخول الريح فى مجاريه اشباه العروق وقيل نفخ فيه ترابا من موضع قوائم فرس جبريل عليه السلام يوم الغرق وهو فرس حياة فحيى فخار ومالت طباعهم الى الذهب فعبدوه (فقذفناها) فى نار السامرى التى اوقدها فى الحفرة وأمرنا ان نطرح فيها الحلى (فكذلك ألقى السامرى) مامعه من الحلى فى النار ومامعه من التراب الذى أخذه من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام (فاخرج لهم) السامرى من الحفرة (عجلا) خلقه الله تعالى من الحلى التى سبكتها النار ابتلاء (جسدا) بجسدا (له خوار) صوت وكان يخور كما تخور العجاجيل (فقالوا) اى السامرى واتباعه (هذا الهكم واله موسى) فاجابهم الا اثنى عشر الفا (فنسى) اى فنسى موسى ربه هنا

(لترضى) اى لتزداد رضا (قال فانا قد فتنا قومك) اى فانا ابتلينا الذين خلفتهم مع هرون وكانوا ستمائة الف فافتتنوا بالعجل غير اثنى عشر الفا (من بعدك) اى من بعد انطلاقك الى الجبل (وأضلهم السامرى) اى دعاهم وصرفهم الى الضلال وهو عبادة العجل وانما اضاف الضلال الى السامرى لانهم ضلوا بسببه وقيل ان جميع المنشآت تضاف الى منشئها فى الظاهر وان كان الموجد لها فى الاصل هو الله تعالى فذلك قوله هنا واضلهم السامرى قيل كان السامرى من عظماء بنى اسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة وقيل كان من القبط وكان جار الموسى وآمن به وقيل كان علجا من علوج كرمان رفع الى مصر وكان من قوم يعبدون البقر (فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا) اى حزينا جزعا (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) اى صدقا انه يعطيكم التوراة (أفطال عليكم العهد) اى مدة مفارقتى اياكم (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) اى اردتم ان تفعلوا فعلا يجب عليكم الغضب من ربكم بسببه (فأخلفتم موعدى) يعنى ما وعدوه من الاقامة على دينه الى ان يرجع (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) اى بملك امرنا وقيل باختيارنا وذلك ان المرء اذا وقع فى الفتنة لم يملك نفسه (ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم) اى حملنا مع انفسنا ما كنا قد استعرناه من قوم فرعون والاوزار الاثقال سميت اوزار الكثرتها وثقلها وقيل الاوزار الآثام اى حملنا آثاما وذلك ان بنى اسرائيل استعاروا حليا من القبط ولم يردوها وبقيت معهم الى حين خروجهم من مصر وقيل ان الله لما اغرق فرعون نبذ البحر حليهم فاخذها بنو اسرائيل فكانت غنيمة ولم تكن الغنائم تحل لهم (فقذفناها) اى ألقيناها قيل ان السامرى قال لهم احفروا حفيرة والقوها فيها حتى يرجع موسى فيرى رأيه فيها وقيل ان هرون أمرهم بذلك ففعلوا (فكذلك ألقى السامرى) اى ما كان معه من الحلى فيها قال ابن عباس اوقد هرون نارا وقال اقذفوا ما معكم فيها وقيل ان هرون مر على السامرى وهو يصوغ العجل فقال له ما هذا قال اصنع ما ينفع ولا يضر فادع لى فقال هرون اللهم اعطه ما سألك على ما فى نفسه فالقى السامرى ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل فى فم العجل وقال كن عجلا يخور فكان كذلك بدعوة هرون فذلك قوله تعالى (فاخرج لهم عجلا جسدا له خوار) اختلفوا هل كان الجسد حيا ام لا على قولين أحدهما لا لانه لا يجوز اظهار خرق العادة على يد ضال بل السامرى صور صورة على شكل العجل وجعل فيه منافذ ومخاريق بحيث اذا دخل فيها الريح صوت كصوت العجل الثانى انه صار حيا وخار كما يخور العجل (فقالوا هذا الهكم واله موسى) يعنى قال ذلك السامرى ومن تابعه ممن افتتن به وقيل عكفوا عليه وأحبوه حبا لم يحبوا شيأ قط مثله (فنسى) قيل هو اخبار عن قول السامرى اى ان موسى نسى الهه وتركه ههنا

وذهب يطلبه عند الطور او هو ابتداء كلام من الله تعالى اى نسى السامرى ربه وترك ما كان عليه من الايمان الظاهر او نسى السامرى الاستدلال على ان العجل لا يكون الها بدليل قوله (أفلا يرون ان لا يرجع) اى انه لا يرجع فان مخففة من الثقيلة (اليهم قولا) اى لا يجيبهم (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) اى هو عاجز عن الخطاب والضر والنفع فكيف تتخذونه الها وقيل انه ماخار الا مرة (ولقد قال لهم) اى عبدوا العجل (هرون من قبل) من قبل رجوع موسى اليهم (يا قوم انما فتنتم به) ابتليتم بالعجل فلا تعبدوه (وان ربكم الرحمن) لا العجل (فاتبعونى) كونوا على دينى الذى هو الحق (واطيعوا أمرى) فى ترك عبادة العجل (قالوا لن نبرح عليه عاكفين) اى لن نزال مقيمين على العجل وعبادته (حتى يرجع الينا موسى) فننظره هل يعبده كما عبدناه وهل

صدق السامرى أم لا فلما رجع موسى

وذهب يطلبه وقيل معناه ان موسى انما طلب هذا ولكنه نسيه وخالفه فى طريق آخر فاخطأ الطريق وضل وقيل هو من كلام الله تعالى وكانه أخبر عن السامرى انه نسى الاستدلال على حدوث الاجسام وان الاله لا يحل فى شئ ولا يحل فيه شئ ثم بين سبحانه وتعالى المعنى الذى يجب الاستدلال به فقال (أفلا يرون ان لا يرجع اليهم قولا) اى ان العجل لا يرد لهم جوابا اذا دعوه ولا يكلمهم (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) هذا توبيخ لهم اذ عبدوا ما لا يملك ضر من ترك عبادته ولا ينفع من عبده وكان العجل فتنة من الله تعالى ابتلى به بنى اسرائيل * قوله عز وجل (ولقد قال لهم هرون من قبل) اى من قبل رجوع موسى (يا قوم انما فتنتم به) اى ابتليتم بالعجل (وان ربكم الرحمن فاتبعونى) على دينى فى عبادة الله (وأطيعوا أمرى) اى فى ترك عبادة العجل اعلم ان هرون عليه السلام سلك فى هذا الوعظ احسن الوجوه لانه زجرهم اولا عن الباطل بقوله انما فتنتم به ثم دعا الى معرفة الله تعالى بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم الى معرفة النبوة بقوله فاتبعونى ثم دعاهم الى الشرائع بقوله وأطيعوا أمرى فهذا هو الترتيب الجيد لانه لابد من اماطة الاذى عن الطريق وهى ازالة الشبهات ثم معرفة الله فانها هى الاصل ثم النبوة ثم الشريعة وانما قال وان ربكم الرحمن فخص هذا الوضع بهذا الاسم لانه ينبههم على انهم متى تابوا قبل الله توبتهم لانه هو التواب الرحيم فقابلوا هذا القول بالاصرار والجحود (قالوا لن نبرح) اى ان نزال (عليه) اى على عبادة العجل (عاكفين) اى مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) كانهم قالوا لن نقبل حجتك ولا نقبل الا قول موسى فاعتزلهم هرون ومعه اثنا عشر الفا الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى سمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين معه هذا صوت الفتنة فلما رأى هرون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله و (قال) له (يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا) اى أشركوا (الا تتبعنى) اى تتبع أمرى ووصيتى وهلا قاتلتهم وقد علمت انى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم وقيل معناه ما منعك من اللحوق بى واخبارى بضلالتهم فتكون مفارقتك اياهم زجرا لهم عما أتوه (أفعصيت أمرى) اى خالفت أمرى (قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) اى بشعر رأسى وكان قد أخذ بذؤابتيه (انى خشيت ان تقول) اى لو أنكرت عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضا فتقول (فرقت بين بنى اسرائيل) اى خشيت ان فارقتهم واتبعتك ان يصيروا احزابا فيتقاتلون فتقول فرقت بين بنى اسرائيل (ولم ترقب قولى) اى لم تحفظ وصيتى حين قلت له اخلفنى فى قومى واصلح وارفق بهم ثم أقبل موسى على السامرى (قال فما خطبك) اى فما أمرك وشأنك وما الذى حملك على ما صنعت (يا سامرى قال) يعنى السامرى (بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة

(قال يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا) بعبادة العجل (ألا تتبعنى) بالياء فى الوصل والوقف مكى وافقه أبو عمرو ونافع فى الوصل وغيرهم بلا ياء اى ما دعاك الى ان لا تتبعنى لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشئ وبين الداعى الى تركه وقيل لا زيدة والمعنى اى شئ منعك ان تتبعنى حين لم يقبلوا قولك وتلحق بى وتخبرنى او ما منعك ان تتبعنى فى الغضب لله وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ومالك لم تباشر الامر كما كنت اباشره انا لو كنت شاهدا (أفعصيت أمرى) اى الذى أمرتك به من القيام بمصالحهم ثم أخذ بشعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبا وانكارا عليه لان الغيرة فى الله ملكته (قال يا ابن أم) وبخفض الميم

شامى وكوفى غير حفص وكان لابيه وامه عند الجمهور ولكنه ذكر الام استعطافا وترفيقا (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) ثم ذكر عذره فقال (انى خشيت ان تقول) ان قاتلت بعضهم ببعض (فرقت بين بنى اسرائيل) اوخفت ان تقول ان فارقتهم واتبعتك ولحق بى فريق وتبع السامرى فريق فرقت بين بنى اسرائيل (ولم ترقب) ولم تحفظ (قولى) اخلفنى فى قومى واصلح وفيه دليل على جواز الاجتهاد ثم اقبل موسى على السامرى منكرا عليه حيث (قال فما خطبك) ما أمرك الذى تخاطب عليه (يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به) وبالتاء همزة وعلى قال الزجاج بصر علم وابصر نظر اى علمت ما لم يعلمه بنو اسرائيل قال موسى وما ذاك قال رأيت جبريل على فرس الحياة فألقى فى نفسى ان أقبض من أثره فما ألقيته على شئ الا صار له روح ولحم ودم (فقبضت قبضة) القبضة المرة من القبض واطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الامير وقرئ فقبصت قبصة فالضاد بجميع الكف والصاد باطراف الاصابع

(من أثر الرسول) اى من أثر فرس الرسول وقرئ بها (فنبذتها) فطرحتها فى جوف العجل (وكذلك سولت) زينت (لى نفسى) ان افعل
ففعلته اتباعا لهواى وهو اعتراف بالخطا واعتذار (قال) له موسى (فاذهب) من بيننا طريدا (فان لك فى الحيوة) ماعشت (ان
تقول) لمن أراد مخالطتك جاهلا بحالك (لامساس) اى لايمسنى أحد ولا أمسه فمنع من مخالطة الناس منعا كليا وحرم عليهم ملاقاته
ومكالمته ومبايعته واذا اتفق ان يماس احدا حم الماس والممسوس وكان يهيم فى البرية يصيح لامساس ويقال ان ذلك موجود فى
أولاده الى الآن وقيل أراد موسى عليه السلام ان يقتله فمنعه الله تعالى منه لسخائه (وان لك موعدا لن تخلفه) اى لن يخلفك الله
موعده الذى وعدك على الشرك ٢٧٠ والفساد فى الارض ينجزه لك فى الآخرة بعدما عاقبك بذاك فى الدنيا لن تخلفه مكى

وأبو عمرو هذا من أخلفت الموعد اذا وجدته خلفا (وانظر الى الهك الذى ظلت عليه) وأصله ظللت فحذف اللام الاولى تخفيفا (عاكفا) مقيما (لنحرقنه) بالنار (ثم لننسفنه) لنذرينه (فى اليم نسفا) فحرقه وذراه فى البحر فشرب بعضهم من مائه حباله فظهرت على شفاههم صفرة الذهب (انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شئ علما) تمييز اى وسع علمه كل شئ ومحل الكاف فى (كذلك) نصب اى مثل ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون (نقص عليك من أنباء ماقد سبق) من اخبار الامم الماضية تكثيرا لبيناتك وزيادة فى معجزاتك (وقد آتيناك) اى اعطيناك (من لدنا) من عندنا (ذكرا) قرآنا فهو ذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة لمن اقبل عليه وهو مشتمل اى على الاقاصيص والاخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار (من اعرض عنه) عن هذا الذكر وهو القرآن ولم يؤمن به (فانه يحمل يوم القيامة وزرا) عقوبة ثقيلة سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الثقيل الذى ينقض ظهره ويلقى عليه بهره اولانها جزاء الوزر وهو الاثم (خالدين) حال من الضمير فى يحمل وانما جمع على المعنى ووحد فى فانه حملا على لفظ من (فيه) فى الوزر اى فى جزاء الوزر وهو العذاب (وساء لهم يوم القيامة حملا) ساء فى حكم بئس وفيه ضمير مبهم يفسره حملا وهو تمييز واللام فى لهم للبيان كما فى هيت لك والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه تقديره ساء الحمل حملا وزرهم

من أثر الرسول) اى من تراب حافر فرس جبريل (فنبذتها) اى فقذفتها فى فم العجل فخار فان قلت كيف عرف السامرى جبريل ورآه من بين سائر الناس قلت ذكروا فيه وجهين أحدهما ان امه ولدته فى السنة التى كان يقتل فيها البنون فوضعته فى كهف حذرا عليه من القتل فبعث الله اليه جبريل ليربيه لما قضى الله على يديه من الفتنة الوجه الثانى انه لما نزل جبريل الى موسى ليذهب به الى الطور رآه السامرى من بين سائر الناس فلما رآه قال ان لهذا لشانا فقبض القبضة من أصل تربة أثر موطئه فلما سأله موسى قال قبضت قبضة من أثر الرسول اليك يوم جاء للميعاد وقيل رآه يوم فلق البحر فاخذ القبضة وجعلها فى عمامته لما يريد الله ان يظهره من الفتنة على يديه وهو قوله (وكذلك سولت) اى زينت (لى نفسى) وقيل انه من السؤال والمعنى انه لم يدعنى الى فعله غيرى واتبعت فيه هواى (قال) يعنى موسى للسامرى (فاذهب فان لك فى الحيوة) اى مادمت حيا (ان تقول لامساس) اى لاتخالط أحدا ولا يخالطك أحد فعوقب فى الدنيا بعقوبة ولا شئ اوحش منها ولا أعظم وذلك ان موسى أمر بنى اسرائيل ان لايخالطوه ولا يقربوه وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وقال ابن عباس رضى الله عنهما لامساس لك ولولدك فصار السامرى يهيم فى البرية مع الوحش والسباع لايمس أحدا ولا يمسه أحد وقيل كان اذا مس أحدا او مسه احد حما جميعا فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح لامساس حتى ان بقاياهم اليوم يقولون ذلك (وان لك) اى ياسامرى (موعدا) اى بعذابك فى الآخرة (لن تخلفه) قرئ بكسر اللام ومعناه لن تغيب عنه ولا مذهب لك عنه بل توافيه يوم القيامة وقرئ بالفتح اى لن تكذبه ولم يخلفكه الله بل يكافئك على فعلك (وانظر الى الهك) اى الذى تزعم (الذى ظلت عليه عاكفا) اى دمت عليه مقيما تعبده (لنحرقنه) بالنار (ثم لننسفنه) اى لنذرينه (فى اليم) اى فى البحر (نسفا) روى ان موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم وحرقه فى النار ثم ذراه فى البحر وقيل معناه لنحرقنه اى لنبردنه فعلى هذا التأويل لم ينقلب لحما ودما فان ذلك لايمكن ان يبرد بالمبرد ويمكن ان يقال صار لحما ودما فذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث ان يمكن نسفها فى البحر فلما فرغ موسى من أمر العجل وابطال ماذهب اليه السامرى رجع الى بيان الدين الحق فقال مخاطبا لبنى اسرائيل (انما الهكم الله) اى المستحق للعبادة والتعظيم هو الله (الذى لا اله الا هو وسع كل شئ علما) اى وسع علمه كل شئ وقيل يعلم من يعبده * قوله عز وجل (كذلك نقص عليك من انباء) يعنى من اخبار (ماقد سبق) يعنى الامم الخالية وقيل ماسبق من الامور (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) وهو القرآن (من أعرض عنه) اى عن القرآن ولم يؤمن به ولم يعمل بما فيه (فانه يحمل يوم القيامة وزرا) اى حملا ثقيلا من الاثم (خالدين فيه) اى مقيمين فى عذاب الوزر (وساء لهم يوم القيامة حملا)

(يوم ينفخ) بدل من يوم القيامة ننفخ ابو عمرو (فى الصور) القرن او هو جمع صورة اى تنفخ الارواح فيها دليله قراءة قتادة الصور بفتح الواو جمع صورة (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) حال اى عميا كما قال ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وهذا لان حدقة من يذهب نور بصره تزرق (يتخافتون) يتسارون (بينهم) اى يقول بعضهم لبعض سر الهول ذلك اليوم (ان لبثتم) ما لبثتم فى الدنيا (الا عشرا) اى عشر ليال يستقصرون مدة لبثهم فى القبور او فى الدنيا لما يعاينون من الشدائد التى تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها او يصفونها بالقصر لان أيام السرور قصار او لانها ذهبت عنهم والذاهب وان طالت مدته قصير بالانتهاء او لاستطالتهم الآخرة لانها ابد يستقصر اليها عمر الدنيا ويتقال لبث اهلها فيها بالقياس الى لبثهم فى الآخرة وقد رجح الله قول من يكون أشدتقالا منه بقوله (نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة) أعدلهم قولا (ان لبثتم الا يوما) وهو كقوله قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فاسئل العادين (ويسئلونك عن الجبال) سألوا النبى صلى الله عليه وسلم ما يصنع بالجبال يوم القيامة وقيل لم يسئل وتقديره ان سألوك (فقل) ولذا قرن بالفاء بخلاف سائر السؤالات مثل قوله ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى ٢٧١ وقوله ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح

اى بئس ما حملوا أنفسهم من الاثم (يوم ينفخ فى الصور) قيل هو قرن ينفخ فيه يدعى به الناس للمحشر والمراد بهذه النفخة النفخة الثانية لانه أتبعه بقوله (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) اى نحشر المجرمين زرق العيون سود الوجوه وقيل عميا وقيل عطاشا (يتخافتون) اى يتسارون (بينهم) ويتكلمون خفية (ان لبثتم) اى مكثتم فى الدنيا (الا عشرا) اى عشر ليال وقيل فى القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة وذلك ان العذاب رفع عنهم بين النفختين فاستقصروا مدة لبثهم لهول ما عاينوا فقال الله تعالى (نحن أعلم بما يقولون) اى يتسارون ما بينهم (اذ يقول أمثلهم طريقة) اى اوفاهم عقلا وأعدلهم قولا (ان لبثتم الا يوما) قصر ذلك فى أعينهم فى جنب ما استقبلهم من اهوال يوم القيامة وقيل نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم قوله عز وجل (ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) قال ابن عباس سأل رجل من ثقيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كيف تكون الجبال يوم القيامة فانزل الله تعالى هذه الآية والنسف هو القلع اى يقلعها من أصولها ويجعلها هباء منثورا (فيذرها) اى يدع أماكن الجبال من الارض (قاعا صفصفا) اى أرضا ملساء مستوية لا نبات فيها (لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) اى لا انخفاضا ولا ارتفاعا اى لترى واديا ولا رابية (يومئذ يتبعون الداعى) اى صوت الداعى الذى يدعوهم الى موقف يوم القيامة وهو اسرافيل وذلك انه ينضم الصور فيه ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام البالية والجلود الممزقة واللحوم المتفرقة هلموا الى عرض الرحمن (لا عوج له) اى لا عوج لهم عن دعائه ولا يزيغون عنه يمينا ولا شمالا بل يتبعونه سراعا (وخشعت الاصوات للرحمن) اى سكنت وذلت وخضعت وضعفت والمراد به أصحاب الاصوات وقيل خضعت الاصوات من شدة الفزع (فلا تسمع الا همسا) وهو الصوت الخفى قال ابن عباس هو تحريك الشفاه من غير نطق وقيل أراد بالهمس صوت وطء الاقدام الى المحشر كصوت اخفاف الابل (يومئذ لا تنفع الشفاعة) لاحد من الناس (الا من أذن له الرحمن) اى الا من اذن له أن يشفع (ورضى له قولا) قال ابن عباس يعنى قال لا اله الا الله وفيه دليل على انه لا يشفع غير

لهم خير يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى ويسئلونك عن الروح قل الروح ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا انها سؤالات تقدمت فورد جوابها ولم يكن فيها معنى الشرط فلم يذكر الفاء (ينسفها ربى نسفا) اى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح ففرقها كما يذرى الطعام وقال الخليل يقلعها (فيذرها) فيذر مقارها او يجعل الضمير للارض للعلم بها كقوله ما ترك على ظهرها (قاعا صفصفا) مستويه ملساء (لا ترى

فيها عوجا) انخفاضا (ولا أمتا) ارتفاعا والعوج بالكسر وان كان فى المعانى كالامتى المفتوح فى الاعيان والارض عين ولكن لما استوت الارض استواء لا يمكن ان يوجد فيها اعوجاج بوجه ما وان دقت الحيلة ولطفت جرت مجرى المعانى (يومئذ) أضاف اليوم الى وقت نسف الجبال اى يوم اذ نسفت وجاز ان يكون بدلا بعد بدل من يوم القيامة (يتبعون الداعى) الى المحشر اى صوت الداعى وهو اسرافيل حين ينادى على صخرة بيت المقدس ايتها العظام البالية والجلود الممزقة واللحوم المتفرقة هلمى الى عرض الرحمن فيقبلون من كل اوب الى صوته لا يعدلون عنه (لا عوج له) اى لا يعوج له مدعو بل يستوون اليه من غير انحراف متبعين لصوته (وخشعت) سكنت (الاصوات للرحمن) هيبة واجلالا (فلا تسمع الا همسا) صوتا خفيفا تحريك الشفاه وقيل هو من همس الابل وهو صوت اخفافها اذا مشت اى لا تسمع الا خفق الاقدام ونقلها الى المحشر (يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن) محل من رفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف اى لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن اى اذن للشافع فى الشفاعة (ورضى له قولا) اى رضى قوله لاجله بان يكون المشفوع له مسلما او نصب على المدح لانه مفعول تنفع

(يعلم مابين أيديهم وماخلفهم) اى يعلم ماتقدمهم من الاحوال ومايستقبلونه (ولايحيطون به علما) اى بما أحاط به علم الله فيرجع الضمير الى ماأو يرجع الضمير الى الله لانه تعالى ليس بمحاط (وعنت) خضعت وذلت ومنه قيل للاسير عان (الوجوه) اى أصحابها (للحى) الذى لايموت وكل حياة يتعقبها الموت فهى كأن لم تكن (القيوم) الدائم القائم على كل نفس بما كسبت او القائم بتدبير الخلق (وقد خاب) يئس من رحمة الله ٢٧٢ (من حمل ظلما) من حمل الى موقف القيامة شركا لان الظلم وضع الشئ فى غير موضعه ولاظلم أشد من جعل المخلوق شريك من خلقه (ومن يعمل من الصالحات) الصالحات الطاعات (وهو مؤمن) مصدق بما جاء به محمد عليه السلام وفيه دليل انه يستحق اسم الايمان بدون الاعمال الصالحة وأن الايمان شرط قبولها (فلا يخاف) اى فهو لايخاف فلا يخف على النهى مكى (ظلما) ان يزاد فى سيآته (ولا هضما) ولاينقص من حسناته وأصل الهضم النقص والكسر (وكذلك) عطف على كذلك نقص اى ومثل ذلك الانزال (أنزلناه قرآنا عربيا) بلسان العرب (وصرفنا) كررنا (فيه من الوعيد لعلهم يتقون) يجتنبون الشرك (أو يحدث لهم) الوعيد اوالقرآن (ذكرا) عظة اوشرفا بايمانهم به وقيل اوبمعنى الواو (فتعالى الله) ارتفع عن فنون الظنون وأوهام الافهام وتنزه عن مضاهاة الانام ومشابهة الاجسام (الملك) الذى يحتاج اليه الملوك (الحق) المحق فى الالوهية ولما ذكر القرآن وانزاله قال استطرادا واذا اسند جبريل مايوحى اليك من القرآن فتأن عليك ريثما يسمعك ويفهمك (ولاتعجل بالقرآن) بقراءته (من قبل أن يقضى اليك وحيه) من قبل ان يفرغ جبريل من الابلاغ (وقل ربى زدنى علما) بالقرآن ومعانيه وقيل مأمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شئ الا فى العلم (ولقد عهدنا الى آدم) اى أوحينا اليه ان لايأكل من الشجرة يقال فى أوامر الملوك ووصاياهم تقدم الملك الى فلان وأوصى اليه وعزم عليه وعهد اليه فعطف قصة آدم على وصرفنا فيه من الوعيد والمعنى واقسم قسما لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه ان لايقرب الشجرة

المؤمن وقيل ان درجة الشافع درجة عظيمة فهى لاتحصل الا لمن يأذن الله له فيها وكان عند الله مرضيا (يعلم مابين ايديهم وماخلفهم) قيل الكناية راجعة الى الذين يتبعون الداعى اى يعلم الله ماقدموا من الاعمال وماخلفوا من الدنيا وقيل الضمير يرجع الى من أذن له الرحمن وهو الشافع والمعنى لاتنفع الشفاعة الا لمن أذن له الرحمن ان يشفع ثم قال يعلم مابين ايديهم اى أيدى الشافعين وماخلفهم (ولا يحيطون به علما) قيل الكناية ترجع الى ما أى هو يعلم مابين أيديهم وماخلفهم وهم لايعلمونه والمعنى ان العباد لايحيطون بما بين أيديهم وماخلفهم علما وقيل الكناية راجعة الى الله تعالى اى ولايحيطون بالله علما (وعنت الوجوه) اى ذلت وخضعت فى ذلك اليوم ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وذكر الوجوه وأرادبها المكلفين لان عنت من صفات المكلفين لامن صفات الوجوه وانما خص الوجوه بالذكر لان الخضوع بها يتبين وفيها يظهر وقوله تعالى (للحى القيوم) تقدم تفسيره (وقد خاب من حمل ظلما) قال ابن عباس خسر من أشرك بالله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولاهضما) قال ابن عباس معناه لايخاف ان يزاد على سيآته ولاينقص من حسناته وقيل لايؤاخذ بذنب لم يعمله ولاتبطل عنه حسنة عملها قوله تعالى (وكذلك أنزلناه) اى كما بينا فى هذه السورة أو هذه الآيات المتضمنة للوعيد أنزلنا القرآن كله كذلك وقوله (قرآنا عربيا) اى بلسان العرب ليفهموه ويقفوا على اعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام البشر (وصرفنا فيه من الوعيد) اى كررنا وفصلنا القول فيه بذكر الوعيد ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعيد بهما يتعلق فتكريره وتصريفه يقتضى بيان الاحكام فلذلك قال تعالى (لعلهم يتقون) اى يجتنبون الشرك والمحارم وترك الواجبات (أو يحدث لهم ذكرا) اى انما أنزلنا القرآن ليصيروا متقين مجتنبين مالاينبغى ويحدث لهم القرآن ذكرا يرغبهم فى الطاعات وفعل ماينبغى وقيل معناه يجدد لهم القرآن عبرة وعظة فيعتبرون ويتعظون بذكر عقاب الله الامم السالفة قوله تعالى (فتعالى الله الملك الحق) اى جل الله وعظم عن الحاد الملحدين وعما يقوله المشركون والجاحدون وقيل فيه تنبيه على مايلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده وقيل انما وصف نفسه بالملك الحق لان ملكه لايزول ولايتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولاغيره اولى به منه (ولاتعجل بالقرآن) أراد النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادره فيقرأ معه قبل ان يفرغ جبريل مما يريده من التلاوة مخافة الانفلات او النسيان فنهاه الله تعالى عن ذلك فقال تعالى ولاتعجل بالقرآن اى ولاتعجل بقراءته (من قبل أن يقضى اليك وحيه) اى من قبل ان يفرغ جبريل من الابلاغ وقيل معناه لاتقرئه أصحابك ولاتمله عليهم حتى يتبين لك معناه (وقل رب زدنى علما) فيه التواضع والشكر لله والمعنى زدنى علما الى ماعلمت فان لك فى كل شئ علما وحكمة قيل مأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة فى شئ الا فى العلم وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية يقول اللهم زدنى علما وايمانا ويقينا * قوله عز وجل (ولقد عهدنا الى آدم) يعنى أمرنا وأوحينا

(من قبل) من قبل وجودهم فخالف الى ما نهى عنه كانهم يخالفون يعنى ان أساس أمر بنى آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه (فنسى) العهد اى النهى والانبياء عليهم السلام يؤاخذون بالنسيان الذى لو تكافوا الحفظوه (ولم نجد له عزما) قصدا الى الخلاف لامره اولم يكن آدم من اولى العزم والوجود بمعنى العلم ومفعولاه له عزما او بمعنى نقيض العدم اى وعدمنا له عزما وله متعلق بنجد (واذ قلنا) منصوب باذكر (للملائكة اسجدوا لآدم) قيل هو السجود اللغوى الذى هو الخضوع والتذلل أو كان آدم كالقبلة لضرب تعظيم له فيه (فسجدوا الا ابليس) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ابليس كان ملكا من جنس المستثنى منهم وقال الحسن الملائكة لباب الخليقة من الارواح ولا يتناسلون وابليس من نار السموم وانما صح استثناؤه منهم لانه كان يحجبهم ويعبد الله

معهم (أبى) جملة مستأنفة كأنه جواب لمن قال لم يسجد والوجه ان لا يقدر له مفعول وهو السجود المدلول عليه بقوله فسجدوا وان يكون معناه أظهر الاباء وتوقف (فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك) حيث لم يسجد لك ولم ير فضلك (فلا يخرجنكما من الجنة) فلا يكونن سببا لاخراجكما (فتشقى) فتتعب فى طلب القوت ولم يقل فتشقيا مراعاة لرؤس الآى اودخلت تبعا اولان الرجل هو الكافل لنفقة المرأة وروى انه أهبط الى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه (ان لك ألا تجوع فيها) فى الجنة (ولا تعرى) عن الملابس لانها معدة ابدا فيها (وانك) بالكسر نافع وابو بكر عطفا على ان الاولى

اليه ان لا يأكل من الشجرة (من قبل) أى من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدى وتركوا الايمان بى وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله تعالى لعلهم يتقون (فنسى) أى فترك ما عهدنا اليه من الاحتراز عن أكل هذه الشجرة وأكل منها وقيل أراد النسيان الذى هو ضد الذكر (ولم نجد له عزما) أى صبرا عما نهى عنه وحفظا لما أمر به وقيل معناه لم نجد له رأيا معزوما حيث أطاع عدوه ابليس الذى حسده وأبى أن يسجد له وقيل معناه لم نجد له عزما على المقام على المعصية فيكون الى المدح اقرب * قوله عز وجل (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى) ان يسجد (فقلنا يا آدم ان هذا) اى ابليس (عدو لك ولزوجك) اى حواء وسبب العداوة ما رأى من آثار نعمة الله على آدم فحسده فصار عدوا له (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) أسند الخروج اليه وان كان الله تعالى هو المخرج لانه لما كان بوسوسته وفعل آدم ما يترتب عليه الخروج صح ذلك ومعنى تشقى تتعب وتنصب ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك وهو الحرث والزرع والحصد والطحن والخبز قيل اهبط الى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه فكان ذلك شقاءه فان قلت لم أسند الشقاء الى آدم دون حواء قلت فيه وجهان احدهما ان فى ضمن شقاء الرجل شقاء اهله كما ان فى سعادته سعادتهم لانه القيم عليهم الثانى انه أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لان الرجل هو الساعى على زوجته (ان لك ألا تجوع فيها) اى فى الجنة (ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها) اى تعطش (ولا تضحى) اى تبرز للشمس فيؤذيك حرها لانه ليس فى الجنة شمس وأهلها فى ظل ممدود والمعنى ان الشبع والرى والكسوة والكن هى الامور التى يدور عليها كفاف الانسان فذكر الله تعالى حصول هذه الاشياء فى الجنة وانه مكفى لا يحتاج الى كفاية كاف ولا الى كسب كاسب كما يحتاج اليه اهل الدنيا (فوسوس اليه الشيطان) اى انهى اليه الوسوسة كأسر اليه ثم بين تلك الوسوسة ما هى فقال (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) اى على الشجرة التى ان أكلت منها بقيت مخلدا (وملك لا يبلى) اى لا يبيد ولا يفنى رغبة فى دوام الراحة فكان الشئ الذى رغب الله فيه آدم رغبه ابليس فيه الا ان الله تعالى وقف ذلك على الاحتراز عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها وآدم مع كمال علمه بان الله تعالى هو خالقه وربه ومولاه وناصره وابليس هو عدوه أعرض عن قول الله تعالى ولم يرد المخالفة ومن تأمل هذا السر عرف انه لا دافع لقضاء الله ولا مانع له منه وقوله تعالى (فأكلا منها) يعنى اكل آدم وحواء من الشجرة (فبدت لهما سوآتهما) اى عريا من الثياب التى كانت عليهما حتى بدت فروجهما وظهرت عوراتهما (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) اى يلزقان بسوآتهما من ورق التين (وعصى آدم ربه) اى باكل الشجرة (فغوى) اى فعل ما لم

وغيرهما بالفتح عطفا على أن لا تجوع ومحله نصب بان وجاز للفصل كما تقول ان فى علمى انك جالس (لا تظمأ فيها) لا تعطش لوجود الاشربة فيها (ولا تضحى) لا يصيبك حر الشمس اذ ليس فيها شمس فاهلها فى ظل ممدود (فوسوس اليه الشيطان) اى أنهى اليه الوسوسة كاسر اليه (قال يا آدم على أدلك على شجرة الخلد) اضاف الشجرة الى الخلد وهو الخلود لان من أكل منها خلد بزعمه ولا يموت (وملك لا يبلى) لا يفنى (فأكلا) اى آدم وحواء (منها فبدت لهما سوآتهما) عوراتهما (وطفقا) طفق يفعل كالمثل جعل يفعل وهو كاد فى وقوع الخبر فهو لا مضارعا الا انه للشروع فى اول الامر وكاد للدنو منه (يخصفان عليهما من ورق الجنة) اى يلزقان الورق بسوآتهما للستر وهو ورق التين (وعصى آدم ربه فغوى) ضل عن الرأى وعن ابن عيسى خاب والحاصل ان

يكن له فعله وقيل أخطأ طريق الحق وضل حيث طلب الخلد بأكل ما نهى عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز الى الذل ومن الراحة الى التعب قال ابن قتيبة يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص لانه انما يقال لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه يقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاود ذلك مرارا ويعتاده (ق) عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم انت ابونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم انت يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أتلومنى على امر قدره الله تعالى على قبل أن يخلقنى باربعين عاما فحج آدم موسى وفى رواية لمسلم قال آدم بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى باربعين سنة قال فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال له نعم قال فهل تلومنى على ان عملت عملا كتب الله على أن اعمله قبل ان يخلقنى باربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى

(الكلام على معنى الحديث وشرحه) (قوله احتج آدم وموسى) المحاجة المجادلة والمخاصمة يقال حاججت فلانا فحججته اى جادلته فغلبته قال ابو سليمان الخطابى قد يحسب كثير من الناس ان معنى القدر والقضاء من الله تعالى على معنى الاجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ويتوهم ان قوله فحج آدم موسى من هذا الوجه وليس كذلك وانما معناه الاخبار عن تقدم علم الله بما يكون من افعال العباد واكسابهم وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها والقدر اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر والقضاء فى هذا معناه الخلق واذا كان الامر كذلك فقد بقى عليهم من وراء علم الله فيهم افعالهم واكسابهم ومباشرتهم الامور وملابستهم اياها عن قصد وتعمد وتقدم ارادة واختيار فالحجة انما تلزمهم بها واللائمة تلحقهم عليها وجماع القول فى هذا انهما امران لا ينفك أحدهما عن الآخر لان أحدهما بمنزلة الاساس والآخر بمنزلة البناء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه وانما موضع الحجة لآدم على موسى ان الله تعالى كان قد علم من آدم انه يتناول الشجرة ويأكل منها فكيف يمكنه ان يرد علم الله فيه وان يبطله بعد ذلك وانما كان تناوله الشجرة سببا لنزوله الى الارض التى خلق لها وانما أدلى آدم بالحجة على هذا المعنى ودفع لائمة موسى عن نفسه ولذلك قال أتلومنى على امر قدره الله على من قبل ان يخلقنى

(فصل فى بيان عصمة الانبياء وما قيل فى ذلك) قال الامام فخر الدين الرازى اختلف الناس فى عصمة الانبياء وضبط القول فيها يرجع الى اقسام اربعة أحدها ما يقع فى باب الاعتقاد وهو اعتقاد الكفر والضلال فان ذلك غير جائز عليهم الثانى ما يتعلق بالتبليغ فقد اجمعت الامة على كونهم معصومين عن الكذب مواظبين على التبليغ والتحريض والا لارتفع الوثوق بالاداء واتفقوا على ان ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمدا ولا سهوا ومن الناس من جوز ذلك سهوا قالوا لان الاحتراز عنه غير ممكن الثالث ما يتعلق بالفتيا فاجمعوا على انه لا يجوز خطؤهم فيها على سبيل العمد وأجازه بعضهم على سبيل السهو الرابع ما يقع فى أفعالهم فقد اختلفت الامة فيه على خمسة اقوال احدها قول من جوز عليهم الكبائر الثانى قول من منع من الكبائر وجوز الصغائر على جهة العمد وهو قول أكثر المعتزلة الثالث لا يجوز ان يأتوا بصغيرة ولا كبيرة البتة بل على جهة التأويل وهو قول الجبائى الرابع انه لا يقع منهم الذنب الا على جهة السهو والخطأ الخامس انه لا يقع منهم لا كبيرة ولا صغيرة لا على سبيل العمد ولا على سبيل السهو ولا على سبيل التأويل وهو قول الشيعة واختلف الناس فى وقت العصمة على ثلاثة اقوال أحدها قول من ذهب الى انهم معصومون من حين وقت الولادة وهو قول الشيعة الثانى قول من ذهب الى عصمتهم من وقت بلوغهم وهو قول أكثر المعتزلة الثالث قول من ذهب الى ان ذلك لا يجوز منهم بعد النبوة وهو قول أكثر أصحابنا وابى الهذيل وابى على من المعتزلة قال الامام والمختار عندنا انه لم يصدر عنهم ذنب لا صغيرة

العصيان وقوع الفعل على خلاف الامر والنهى وقد يكون عمدا فيكون ذنبا وقد لا يكون عمدا فيكون زلة وما وصف فعله بالعصيان خرج فعله من ان يكون رشدا فكان غيا لان الغى خلاف الرشد وفى التصريح بقوله وعصى آدم ربه فغوى والعدول عن قوله وزل آدم مزجرة بليغة وموعظة كافة للمكلفين كأنه قيل لهم انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبى المعصوم حبيب الله زلته بهذه الغلظة فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر فضلا عن الكبائر

ولا كبيرة من حين جاءتهم النبوة ويدل عليه وجوه أحدها الوصد الذنب عنهم لكانوا أقل درجة من احد الامة وذلك غير جائز لان درجة الانبياء غاية فى الرفعة والشرف الثانى لوصدر منه وجب ان لا يكون مقبول الشهادة فكان اقل حالا من عدول الامة وذلك غير جائز أيضا لان معنى النبوة والرسالة هو ان يشهد على الله انه شرع هذا الحكم وأيضا فانه يوم القيامة شاهد على الكل الثالث لوصدر من النبى ذنب وجب الاقتداء به فيه وذلك محال الرابع ثبت ببديهة العقل انه لا شئ أقبح ممن رفع الله درجته واتمنه على وحيه وجعله خليفته فى عباده وبلاده يسمع ربه يناديه لا تفعل كذا فيقدم عليه ويفعله ترجيحا لغرضه واجتمعت الامة على ان الانبياء كانوا يأمرون الناس بطاعة الله فلو لم يطيعوه لدخلوا تحت قوله أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وقال وما أريد أن أخالفكم الى ما انهاكم عنه الخامس قال الله تعالى انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ولفظه العموم فيتناول الكل ويدل على فعل ما ينبغى فعله وترك ما ينبغى تركه فثبت ان الانبياء كانوا فاعلين لكل خير وتاركين لكل منهى وذلك ينافى صدور الذنب عنهم السادس قال الله تعالى الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير وقال تعالى ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين وقال تعالى فى حق موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى وقال تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدى والابصار انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار وغير ذلك من الآيات التى تدل على كونهم موصوفين بالاصطفاء والخيرة وذلك ينافى صدور الذنب عنهم وذكر غير ذلك من الوجوه قال وأما المخالف فقد تمسك بآيات منها قصة آدم هذه والجواب عنها ان نقول ان كلامهم انما يتم ان لو بينوا بالدلالة ان ذلك كان حال النبوة وذلك ممنوع ولم لا يجوز ان يقال ان آدم حال ما صدرت عنه هذه الاشياء ما كان نبيا وان هذه الواقعة كانت قبل النبوة وان الله تعالى قبل توبته وشرفه بالنبوة والرسالة وقال القاضى عياض واما قصة آدم وقوله وعصى آدم ربه فغوى اى جهل وقيل أخطأ فقد اخبر الله تعالى بعذره فى قوله ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما اى نسى عداوة ابليس له وما عهدنا اليه وقيل لم يقصد المخالفة استحلالا لها ولكنه اغتر بحلف ابليس له انى لكما لمن الناصحين وتوهم ان أحدا لا يحلف بالله كاذبا وقيل نسى ولم ينو المخالفة فلذلك قال ولم نجد له عزما اى قصدا للمخالفة وقيل بل أكل من الشجرة متأولا وهو لا يعلم انها الشجرة التى نهى عنها لانه تأول نهى الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس ولهذا قيل انما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة وقيل تأول ان الله تعالى لم ينهه عنها نهى تحريم فان قلت اذا نفيت عنهم الذنوب والمعاصى فما معنى قوله وعصى آدم ربه فغوى وما تكرر فى القرآن والحديث من اعتراف الانبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم واشفاقهم وبكائهم على ما سلف منهم وهل يتوب ويستغفر من لا شئ عليه قلت ان درجة الانبياء فى الرفعة والعلو والمعرفة بالله وسننه فى عباده وعظيم سلطانه وقوة بطشه مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله والاشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم وانهم فى تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها ولم يؤمروا بها واتوها على وجه التأويل او السهو وتزيدوا من أمور الدنيا المباحة أو خذوا عليها وعوتبوا بسببها او حذروا من المؤاخذة بها فهم خائفون وجلون وهى ذنوب بالاضافة الى علو منصبهم ومعاص بالنسبة الى كمال طاعتهم لانها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاصيهم كان هذا أدنى افعالهم واسوأ ما يجرى من أحوالهم كما قيل حسنات الابرار سيآت المقربين اى يرونها بالاضافة الى علو أحوالهم كالسيآت وسنذكر فى كل موضع ما يليق به وما قيل فيه ان شاء الله تعالى * قوله عز وجل (ثم اجتباه ربه) اى اختاره واصطفاه (فتاب عليه) اى عاد عليه بالعفو والمغفرة (وهدى) اى هداه لرشده حتى رجع الى الندم

(ثم اجتباه ربه) قربه اليه واصطفاه وقرئ به وأصل الكلمة الجمع يقال جبى الى كذا فاجتبيته (فتاب عليه) قبل توبته (وهدى) وهداه الى الاعتذار والاستغفار

(قال اهبطا منها جميعا) يعنى آدم وحواء (بعضكم) يا ذرية آدم (لبعض عدو) بالتحاسد فى الدنيا والاختلاف فى الدين (فاما يأتينكم منى هدى) كتاب وشريعة (فمن اتبع هداى فلا يضل) فى الدنيا (ولا يشقى) فى العقبى قال ابن عباس رضى الله عنهما ضمن الله لمن اتبع القرآن ان لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة يعنى ان الشقاء فى الآخرة هو عقاب من ضل فى الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامتثل اوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه (ومن أعرض عن ذكرى) عن القرآن (فان له معيشة ضنكا) ضيقا وهو مصدر يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث عن ابن جبير يسلبه القناعة حتى لا يشبع فمع الدين التسليم والقناعة والتوكل فتكون حياته طيبة ومع الاعراض الحرص والشح فعيشه ضنك وحاله مظلمة كما قال بعض المتصوفة لا يعرض أحدكم عن ذكر ربه الا اظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه (ونحشره يوم القيامة أعمى) عن الحجة عن ابن عباس اعمى البصر وهو كقوله ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وهو الوجه (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) فى الدنيا (قال كذلك) اى مثل ذلك فعلت انت ثم فسر فقال (أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) اى أتتك آياتنا واضحة فلم تنظر اليها بعين المعتبر وتركتها وعميت عنها فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك (وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين المعيشة الضنك فى الدنيا وحشره أعمى فى العقبى ختم آيات الوعيد بقوله ولعذاب الآخرة اشد وابقى اى للحشر على العمى (فاصبر

والاستغفار (قال اهبطا منها جميعا) قيل الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس ومعه ذريته فصح قوله اهبطا لاشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة وقيل الخطاب لآدم وحواء لانهما اصل البشر فجعلا كانهما البشر فخوطبا بلفظ الجمع (بعضكم لبعض عدو) وقيل فى تقوية هذا الظاهر حقه ان يكون ابليس والشياطين اعداء الناس ويحتمل ان يكون بعض الفريقين لبعض عدوا (فاما يأتينكم منى هدى) اى كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) اى الكتاب والرسول (فلا يضل ولا يشقى) قال ابن عباس من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب وذلك لان الله تعالى يقول فمن اتبع هداى فلا يضل اى فى الدنيا ولا يشقى اى فى الآخرة (ومن أعرض عن ذكرى) يعنى القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه (فان له معيشة ضنكا) روى عن ابن مسعود وابى هريرة وابى سعيد الخدرى رضى الله عنهم انهم قالوا هو عذاب القبر قال ابو سعيد يضغط فى القبر حتى تختلف اضلاعه وفى بعض المسانيد مرفوعا يلتئم عليه القبر حتى تختلف اضلاعه فلا يزال يعذب حتى يبعث وقيل هو الزقوم والضريع والغسلين فى النار وقيل هو الحرام والكسب الخبيث وقال ابن عباس الشقاء وعنه قال كل ما أعطى العبد قل أم كثر فلم يتق فيه فلا خير فيه وهو الضنك فى المعيشة وان قوما أعرضوا عن الحق وكانوا أولى سعة من الدنيا مكثرين منها فكانت معيشتهم ضنكا وذلك انهم يرون ان الله ليس بمخلف لهم فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم بالله تعالى وقيل يسلب القناعة حتى لا يشبع (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال ابن عباس اعمى البصر وقيل اعمى عن الحجة (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) اى بصير العين او بصيرا بالحجة (قال كذلك) اى كما (أتتك آياتنا فنسيتها) اى فتركتها واعرضت عنها (وكذلك اليوم تنسى) اى تترك فى النار وقيل نسوا من الخير والرحمة ولم ينسوا من العذاب (وكذلك نجزى من أسرف) اى كما جزينا من اعرض عن القرآن كذلك نجزى من أسرف اى أشرك (ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد) اى مما يعذبهم الله به فى الدنيا والقبر (وأبقى) اى وأدوم قوله تعالى (أفلم يهد لهم) اى افلم يبين القرآن لكفار مكة (كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم) يعنى فى ديارهم ومنازلهم اذا سافروا وذلك ان قريشا كانوا يسافرون الى الشام فيرون ديار المهلكين من أصحاب الحجر وهم ثمود وقريات قوم لوط (ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) اى لذوى العقول (ولولا كلمة سبقت من ربك) اى ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم (لكان لزاما وأجل مسمى) تقديره ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى وهو القيامة لكان العذاب لازما لهم فى الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة

(فاصبر الذى لا يزول ابدا أشد من ضيق العيش المنقضى (أفلم يهد لهم) اى الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب بالنون (كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون) حال من الضمير المجرور فى لهم (فى مساكنهم) يريد ان قريشا يمشون فى مساكن عاد وثمود وقوم لوط ويعاينون آثار هلاكهم (ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) لذوى العقول اذا تفكروا واعلموا ان استئصالهم لكفرهم فلا يفعلون مثل ما فعلوا (ولولا كلمة سبقت من ربك) اى الحكم بتأخير العذاب عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم (لكان لزاما) لازما فاللزام مصدر لزم فوصف به (واجل مسمى) القيامة وهو معطوف على كلمة والمعنى ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم واجل مسمى وهو القيامة لكان العذاب لازما لهم فى الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة

(فاصبر على ما يقولون) فيك (وسبح) وصل (بحمد ربك) فى موضع الحال وأنت حامد لربك على ان وفقك للتسبيح واعانك عليه (قبل طلوع الشمس) يعنى صلاة الفجر (وقبل غروبها) يعنى الظهر والعصر لانهما واقعتان فى النصف الاخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها (ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار) اى وتعهد آناء الليل اى ساعاته واطراف النهار مختصا لها بصلاتك وقد تناول التسبيح فى آناء الليل صلاة العتمة وفى اطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار ارادة الاختصاص كما اختصت فى قوله والصلاة الوسطى عند البعض وانما جمع واطراف النهار وهما طرفان لأمن الالباس وهو عطف على قبل (لعلك ترضى) لعل للمخاطب اى اذكر الله فى هذه الاوقات رجاء ان تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك ٢٧٧ وترضى على وابو بكر اى يرضيك ربك (ولا تمدن عينيك) اى نظر عينيك ومد النظر تطويله وان لا يكاد يرده استحسانا للمنظور اليه واعجابا به وفيه ان النظر غير الممدود معفو عنه وذلك ان يبادر الشئ بالنظر ثم يغض الطرف ولقد شدد المتقون فى وجوب غض البصر عن ابنية الظلمة وعدد الفسقة فى ملابسهم ومراكبهم حتى قال الحسن لا تنظروا الى دقدقة هما لبج الفسقة ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب وهذا لانهم انما اتخذوا هذه الاشياء لعيون النظارة فالناظر اليها محصل لغرضهم ومقررلهم على اتخاذها (الى ما متعنا به أزواجا منهم) أصنافا من الكفرة ويجوز ان ينتصب حالا من هاء الضمير والفعل واقع على منهم كانه

(فاصبر على ما يقولون) نسختها آية السيف (وسبح بحمد ربك) اى صل بامر ربك (قبل طلوع الشمس) يعنى صلاة الفجر (وقبل غروبها) اى صلاة العصر (ومن آناء الليل) اى ومن ساعاته (فسبح) يعنى فصل المغرب والعشاء قال ابن عباس يريد اول الليل (وأطراف النهار) يعنى صلاة الظهر سمى وقت الظهر اطراف النهار لان وقته عند الزوال وهو طرف النصف الاول انتهاء وطرف النصف الآخر ابتداء (لعلك ترضى) اى ترضى ثوابه فى المعاد وقيل معناه لعلك ترضى بالشفاعة وقرئ ترضى بضم التاء اى تعطى ثوابه وقيل يرضائك ربك (ق) عن جرير بن عبد الله قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر وقال انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فان استطعتم ان لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها (قوله لا تضامون) بتخفيف الميم من الضيم وهو الظلم والمعنى انكم ترونه جميعا لا يظلم بعضكم بعضا فى رؤيته وروى بتشديد الميم من الانضمام والازدحام اى لا يزدحم ولا ينضم بعضكم الى بعض فى رؤيته والكاف فى قوله كما ترون هذا القمر كاف التشبيه للرؤية لا للمرئى وهى فعل الرائى ومعناه ترون ربكم رؤية ينزاح معها الشك كرؤيتكم هذا القمر ليلة البدر لا ترتابون فيه ولا تشكون * قوله عز وجل (ولا تمدن عينيك) قال ابو رافع نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فبعثنى الى يهودى فقال قل له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعنى كذا وكذا من الدقيق او اسلفنى الى هلال رجب فاتيته فقلت له ذلك فقال والله لا ابيعه ولا أسلفه الا برهن فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبرته فقال والله لئن باعنى او أسلفنى لقضيته وانى لامين فى السماء وامين فى الارض اذهب بدرعى الحديد اليه فنزلت هذه الآية ولا تمدن عينيك اى لا تنظر نظرا تكاد تردده استحسانا للمنظور اليه واعجابا به وتمنيا له (الى ما متعنا به) اى اعطينا (ازواجا) اى اصنافا (منهم زهرة الحيوة الدنيا) اى زينتها وبهجتها (لنفتنهم فيه) اى لنجعل ذلك فتنة لهم بان نزيدهم النعمة فيزيدوا كفرا وطغيانا (ورزق ربك) اى فى المعاد فى الجنة (خير وابقى) اى أدوم وقال ابى بن كعب من لم يعتز بعز الله تقطعت نفسه حسرات ومن اتبع بصره ما فى أيدى الناس يطل حزنه ومن ظن ان نعمة الله عليه فى مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل علمه وحضر عذابه قوله تعالى (وأمر أهلك) اى قومك وقيل من كان على دينك (بالصلوة) اى بالمحافظة عليها (واصطبر عليها) اى اصبر على الصلاة فانها تنهى عن الفحشاء والمنكر وقيل اصبر عليها فعلا فان الوعظ بلسان الفعل أبلغ منه بلسان القول (لا نسئلك رزقا) اى لا نكلفك ان ترزق أحدا من خلقنا ولا ان ترزق نفسك بل نكلفك عملا (نحن نرزقك)

قال الى الذى متعنا به وهو أصناف بعضهم وناسا منهم (زهرة الحيوة الدنيا) زينتها وبهجتها وانتصب على الذم او على ابداله من محل به او على ابداله من أزواجا على تقدير ذوى زهرة (لنفتنهم فيه) لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم او لنعذبهم فى الآخرة بسببه (ورزق ربك) ثوابه وهو الجنة او الحلال الكافى (خير وأبقى) مما رزقوا (وأمر اهلك) أمتك او اهل بيتك (بالصلوة واصطبر) أنت دائم (عليها لا نسئلك رزقا) اى لا نسألك ان ترزق نفسك ولا أهلك (نحن نرزقك) واياهم فلا تهتم لامر الرزق وفرغ بالك لامر الآخرة لان من كان فى عمل الله كان الله فى عمله وعن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ما عند السلاطين قرأ ولا تمدن عينيك الآية ثم ينادى الصلاة رحمكم الله وكان بكر بن عبد الله المزنى اذا اصاب أهله خصاصة قال قوموا فصلوا بهذا امر الله رسوله وعن مالك بن دينار مثله وفى بعض المسانيد انه عليه السلام كان اذا أصاب اهله ضر امرهم بالصلاة وتلا هذه الآية

(والعاقبة للتقوى) اى وحسن العاقبة لاهل التقوى بحذف المضافين (وقالوا) اى الكافرون (لولا يأتينا بآية من ربه) هلا يأتينا محمد بآية من ربه تدل على صحة نبوته (اولم تاتهم) اولم تاتهم مدنى وحفص وبصرى (بينة ما فى الصحف الاولى) اى الكتب المتقدمة يعنى انهم اقترحوا على عادتهم فى التعنت آية على النبوة فقيل لهم اولم تأتكم آية هى ام الآيات واعظمها فى باب الاعجاز يعنى القرآن من قبل ان القرآن برهان ما فى سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لانه معجزة وتلك ليست بمعجزات فهى مفتقرة الى شهادته على صحة ما فيها (ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله) من قبل الرسول او القرآن (لقالوا ربنا لولا) هلا (ارسلت الينا رسولا فنتبع) بالنصب على جواب الاستفهام بالفاء (آياتك من قبل ٢٧٨ ان نذل) بنزول العذاب (ونخزى) فى العقبى (قل كل) اى كل واحد منا ومنكم (متربص)

منتظر للعاقبة ولما يؤول اليه أمرنا وامركم (فتربصوا) أنتم (فستعلمون) اذا جاءت القيامة (من أصحاب) مبتدا وخبر ومحلهما نصب (الصراط السوى) المستقيم (ومن اهتدى) الى النعيم المقيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقرأ اهل الجنة الا سورة طه ويس والله أعلم بالصواب

اى بل نحن نرزقك ونرزق أهلك (والعاقبة للتقوى) اى الخصلة المحمودة لاهل التقوى قال ابن عباس الذين صدقوك واتبعوك وآمنوا بك وفى بعض المسانيد ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا أصاب اهله ضراء امرهم بالصلاة وتلا هذه الآية قوله تعالى (وقالوا) يعنى المشركين (لولا يأتينا بآية من ربه) اى بالآية المقترحة فانه كان قد اتاهم بآيات كثيرة (اولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى) اى بيان ما فيها وهو القرآن لانه أقوى دلالة واوضح آية وقيل معنى ما فى الصحف ما فى التوراة والانجيل وغيرهما من اخبار الامم انهم اقترحوا الآيات فلما اتتهم لم يؤمنوا بها فعجلنا لهم العذاب والهلاك فما يؤمنهم ان أتتهم الآية ان يكون حالهم كحال اولئك وقيل بينة ما فى الصحف الاولى هى البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ونبوته وبعثته (ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله) اى من قبل ارسال الرسل وانزال القرآن (لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا) اى لقالوا يوم القيامة لولا أرسلت الينا رسولا يدعونا (فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى) بالعذاب والهوان والافتضاح (قل كل متربص) اى منتظر دوائر الزمان وذلك ان المشركين قالوا انتربص بمحمد ريب المنون وحوادث الدهر فاذا مات تخلصنا قال الله تعالى (فتربصوا) اى فانتظروا (فستعلمون) اى اذا جاء أمر الله وقامت القيامة (من أصحاب الصراط السوى) اى المستقيم (ومن اهتدى) اى من الضلالة نحن أم أنتم والله أعلم بمراده واسرار كتابه

(سورة الانبياء)

مكية وهى مائة واثنتا عشرة آية كوفى واحدى عشرة آية مدنى وبصرى

(تفسير سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام)

وهى مكية وعدد آياتها مائة واثنتا عشرة آية وألف ومائة وثمان وستون كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة وتسعون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقترب) دنا (للناس) اللام صلة لاقترب عن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد بالناس المشركون لان ما يتلوه من صفات المشركين (حسابهم) وقت محاسبة الله اياهم ومجازاته على أعمالهم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

*قوله عز وجل (اقترب للناس حسابهم) اى وقت محاسبة الله اياهم على أعمالهم يوم القيامة نزلت فى منكرى البعث وانما ذكر الله هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكونون أقرب الى التأهب له والمراد بالناس المحاسبون وهم المكلفون دون غيرهم وقيل هم المشركون وهذا من باب اطلاق اسم الجنس على بعضه (وهم فى غفلة معرضون) اى عن التأهب له وقيل معناه انهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون فى عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم انه لا بد من جزاء المحسن والمسىء ثم اذا نبهوا من سنة الغفلة بما يتلى عليهم من الآيات والنذر اعرضوا عنه (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) يعنى

ما

يعنى يوم القيامة وانما وصفه بالاقتراب لقلة ما بقى بالاضافة الى ما مضى ولان كل آت قريب (وهم فى غفلة) عن حسابهم وعما يفعل بهم ثم (معرضون) عن التأهب لذلك اليوم فالاقتراب عام والغفلة والاعراض يتفاوتان بتفاوت المكلفين فرب غافل عن حسابه لاستغراقه فى دنياه واعراضه عن مولاه ورب غافل عن حسابه لاستهلاكه فى مولاه واعراضه عن دنياه فهو لا يفيق الا برؤية المولى والاول انما يفيق فى عسكر الموتى فالواجب عليك ان تحاسب نفسك قبل ان تحاسب وتتنبه للعرض قبل ان تتنبه وتعرض عن الغافلين وتشتغل بذكر خالق الخلق أجمعين لتفوز بلقاء رب العالمين (ما يأتيهم من ذكر) شئ من القرآن (من ربهم محدث) فى التنزيل اتيانه مبتدأة تلاوته قريب عهده باسماعهم والمراد به الحروف المنظومة ولا خلاف فى حدوثها

(الا استمعوه) من النبي عليه السلام او غيره ممن يتلوه (وهم يلعبون) يستهزؤن به (لاهية) حال من ضمير يلعبون او وهم يلعبون ولاهية حالان من الضمير في استمعوه ومن قرأ لاهية بالرفع يكون خبرا بعد خبر لقوله وهم وارتفعت (قلوبهم) بلاهية وهي من لها عنه اذا ذهل وغفل والمعنى قلوبهم غافلة عما يراد بها ومنها قال أبو بكر الوراق القلب اللاهي المشغول بزينة الدنيا وزهرتها الغافل عن الآخرة واهوالها (واسروا) وبالغوا في اخفاء (النجوى) وهي اسم من التناجي ثم ابدل (الذين ظلموا) من واو واسروا ايذانا بانهم الموسومون بالظلم فيما أسروا به او جاء على لغة من قال أكلوني البراغيث او هو مجرور المحل لكونه صفة او بدلا من الناس او هو منصوب المحل على الذم او هو مبتدا خبره اسروا النجوى فقدم عليه اى والذين ظلموا اسروا النجوى (هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) هذا الكلام كله في محل النصب بدل من النجوى اى وأسروا هذا الحديث ويجوز ان يتعلق بقالوا مضمرا والمعنى انهم اعتقدوا ان الرسول لا يكون الا ملكا وان كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة فهو ساحر ومعجزته سحر ٢٧٩ فلذلك قالوا على سبيل الانكار

ما يحدث الله من تنزيل شئ من القرآن يذكرهم ويعظهم به وقيل معناه ان الله يحدث الامر بعد الامر فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الاحكام وغيرها من الامور والوقائع وقيل الذكر المحدث ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى ما في القرآن واضافه الله لان الله تعالى قال وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى (الا استمعوه وهم يلعبون) اى لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون (لاهية قلوبهم) اى ساهية معرضة غافلة عن ذكر الله (وأسروا النجوى الذين ظلموا) اى بالغوا في اخفاء التناجي وهم الذين أشركوا ثم بين سرهم الذي تناجوا به فقال تعالى مخبرا عنهم (هل هذا الا بشر مثلكم) يعني انهم انكروا ارسال البشر وطلبوا ارسال الملائكة والاولى ارسال البشر الى البشر لان الانسان الى القبول من اشكاله اقرب (أفتأتون السحر) اى أتحضرون السحر وتقبلونه (وأنتم تبصرون) اى تعلمون انه سحر (قل) لهم يا محمد (ربي يعلم القول في السماء والارض) اى لا يخفى عليه شئ (وهو السميع) لاقوالهم (العليم) بافعالهم * قوله عز وجل (بل قالوا أضغاث احلام) يعني اباطيل واهاويل رآها في النوم (بل افتراه) اى اختلقه (بل هو شاعر) وذلك ان المشركين اقتسموا القول في النبي صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله فقال بعضهم اضغاث أحلام وقال بعضهم بل هو فرية وقال بعضهم هو شاعر وما جاءكم به شعر (فليأتنا) يعني النبي صلى الله عليه وسلم (بآية) اى بحجة ان كان صادقا (كما أرسل الاولون) اى من الرسل بالآيات قال الله تعالى مجيبا لهم (ما آمنت قبلهم) اى قبل مشركي مكة (من قرية) اى من أهل قرية أتتهم الآيات (أهلكناها) اى بالتكذيب (أفهم يؤمنون) اى ان جاءتهم آية والمعنى ان أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما جاءتهم أفيؤمن هؤلاء قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم) هذا جواب لقولهم هل هذا الا بشر مثلكم والمعنى انا لم نرسل الملائكة الى الاولين انما أرسلنا رجالا يوحى اليهم مثلك (فاسألوا أهل الذكر) يعني أهل التوراة والانجيل يريد علماء أهل الكتاب فانهم لا ينكرون ان الرسل كانوا بشرا وان أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أمر الله المشركين بسؤال أهل الكتاب لان المشركين أقرب الى تصديقهم من تصديق من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وقيل اراد بالذكر القرآن اى فاسئلوا المؤمنين العالمين من اهل القرآن

افتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون انه سحر (قال ربي) حمزة وعلي وحفص اى قال محمد وغيرهم قل ربي اى قل يا محمد للذين اسروا النجوى (يعلم القول في السماء والارض) اى يعلم قول كل قائل هو في السماء او الارض سرا كان او جهرا (وهو السميع) لاقوالهم (العليم) بما في ضمائرهم (بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر) اضربوا عن قولهم هو سحر الى انه تخاليط احلام رآها في نومه فتوهمها وحيا من الله اليه ثم الى انه كلام مفترى من عنده ثم الى انه قول شاعر وهكذا الباطل لجلج والمبطل رجاع غير ثابت على قول واحد ثم قالوا ان كان صادقا في دعواه وليس الامر كما يظن (فليأتنا بآية) بمعجزة (كما ارسل الاولون) كما ارسل من قبله باليد البيضاء والعصا وابراء الاكمه واحياء الموتى وصحة التشبيه في قوله كما ارسل الاولون من حيث انه في معنى كما اتى الاولون بالآيات لان ارسال الرسل متضمن للاتيان بالآيات الا ترى انه لا فرق بين قولك ارسل محمدا وبين قولك اتى محمدا بالمعجزة فرد الله عليهم قولهم بقوله (ما آمنت قبلهم من قرية) من اهل قرية (اهلكناها) صفة لقرية عند مجيء الآيات المقترحة لانهم طلبوها تعنتا (افهم يؤمنون) اى اولئك لم يؤمنوا بالآيات لما اتتهم افيؤمن هؤلاء المقترحون لو اتيناهم بما اقترحوا مع انهم اعتى منهم والمعنى ان اهل القرى اقترحوا على انبيائهم الآيات وعاهدوا انهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فاهلكهم الله فلو اعطيناهؤلاء ما يقترحون لنكثوا ايضا (وما ارسلنا قبلك الا رجالا) هذا جواب قولهم هل هذا الا بشر مثلكم (يوحى اليهم) نوحي حفص (فاسئلوا اهل الذكر) العلماء بالكتابين فانهم يعرفون ان الرسل الموحى اليهم كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة وكان اهل مكة يعتمدون على قولهم

(ان كنتم لا تعلمون) ذلك ثم بين انه كمن تقدمه من الانبياء بقوله (وما جعلناهم جسدا) وحد الجسد لارادة الجنس (لا يأكلون الطعام) صفة لجسدا يعني وما جعلنا الانبياء قبله ذوي جسد غير طاعمين (وما كانوا خالدين) كانهم قالوا هلا كان ملكا لا يطعم و يخلد اما معتقدين ان الملائكة لا يموتون او مسمين بقاءهم الممتد وحياتهم المتطاولة خلودا (ثم صدقناهم الوعد) بانجائهم والاصل في الوعد مثل واختار موسى قومه اى من قومه (فانجيناهم) مما حل بقومهم (ومن نشاء) هم المؤمنون (واهلكنا المسرفين) المجاوزين الحد بالكفر ودل الاخبار باهلاك المسرفين على ان من نشاء غيرهم (لقد انزلنا اليكم) يا معشر قريش (كتابا فيه ذكركم) شرفكم ان عملتم به اولانه بلسانكم او فيه موعظتكم او فيه ذكر دينكم ودنياكم والجملة اى فيه ذكركم صفة لكتابا (افلا تعقلون) ما فضلتكم به على غيركم فتؤمنوا (وكم) نصب بقوله (قصمنا) اى اهلكنا (من قرية) اى اهلها بدليل قوله (كانت ظالمة) كافرة وهى واردة عن غضب شديد وسخط عظيم لان القصم افظع الكسر وهو الكسر الذى يبين تلاؤم ٢٨٠ الاجزاء بخلاف القصم فانه كسر بلا ابانة (وانشأنا) خلقنا (بعدها قوما آخرين) فسكنوا مساكنهم (فلما احسوا) اى المهلكون (بأسنا) عذابنا اى علموا علم حس ومشاهدة (اذا هم منها) من القرية واذا للفاجاة وهم مبتدأ والخبر (يركضون) يهربون مسرعين والركض ضرب الدابة بالرجل فيجوز ان يركبوا دوابهم يركضونها هاربين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب اوشبهوا فى سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم فقيل لهم (لا تركضوا) والقائل بعض الملائكة (وارجعوا الى ما أترفتم فيه) نعمتم فيه من الدنيا ولين العيش قال الخليل المترف الموسع عليه عيشه القليل فيه همه (ومساكنكم لعلكم تسئلون) اى يقال لهم استهزاء بهم ارجعوا الى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل باموالكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة او ارجعوا واجلسوا كما كنتم فى مجالسكم حتى يسئلكم عبيدكم ومن ينفذ فيه امركم ونهيكم و يقولوا لكم بم تأمرون وكيف نأتى ونذر كعادة المنعمين المخدمين او يسألكم الناس فى أنديتكم المعاون فى نوازل الخطوب او يسألكم الوافدون عليكم والطماع و يستمطرون سحابا كفكم اوقال بعضهم لبعض لا تركضوا وارجعوا الى منازلكم وأموالكم لعلكم تسئلون مالا وخراجا فلا تقتلون فنودى من السماء يا لثارات الانبياء وأخذتهم السيوف فثم (قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين) اعترافهم بذلك حين لا ينفعهم الاعتراف (فما زالت تلك) هى اشارة الى يا ويلنا (دعواهم) دعاءهم وتلك مرفوع على انه اسم زالت ودعواهم الخبر و يجوز العكس (حتى جعلناهم حصيدا) مثل الحصيد اى الزرع المحصود ولم يجمع كما لم يجمع المقدر (خامدين) ميتين خمود النار وحصيدا خامدين مفعول ثان لجعل اى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود كقولك جعلته حلوا حامضا اى جعلته جامعا للطعمين (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين) اللعب فعل يروق اوله ولا ثبات له ولاعبين حال من فاعل خلقنا والمعنى وما سويناهذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع

(ان كنتم لا تعلمون) قوله عزوجل (وما جعلناهم) اى الرسل (جسدا لا يأكلون الطعام) هذا رد لقولهم مالهذا الرسول يأكل الطعام والمعنى لم نجعلهم ملائكة بل جعلناهم بشرا يأكلون الطعام (وما كانوا خالدين) اى فى الدنيا بل يموتون كغيرهم (ثم صدقناهم الوعد) اى الذى وعدناهم باهلاك أعدائهم (فانجيناهم ومن نشاء) اى من المؤمنين الذين صدقوهم (وأهلكنا المسرفين) اى المشركين لان المشرك مسرف على نفسه قوله عزوجل (لقد أنزلنا اليكم) اى يا معشر قريش (كتابا فيه ذكركم) اى شرفكم وفخركم وهو شرف لمن آمن به وقيل معناه فيه حديثكم وقيل فيه ذكر ما تحتاجون اليه من أمر دينكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد (افلا تعقلون) فيه بعث على التدبر لان الخوف من لوازم العقل قوله تعالى (وكم قصمنا) اى اهلكنا (من قرية كانت ظالمة) اى كافرة والمراد اهل القرية (وأنشأنا بعدها) اى احدثنا بعد هلاك أهلها (قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا) اى عذابنا بحاسة البصر (اذا هم منها يركضون) اى يسرعون هاربين من قريتهم لما رأوا مقدمة العذاب (لا تركضوا) اى قيل لهم لا تهربوا (وارجعوا الى ما أترفتم فيه) اى تنعمتم فيه من العيش (ومساكنكم لعلكم تسئلون) قال ابن عباس عن قتل نبيكم قبل نزلت هذه الآية فى اهل حضور قرية باليمن وكان اهلها عربا فبعث الله اليهم نبيا يدعوهم الى الله فكذبوه وقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر فقتلهم وسباهم فلما استمر فيهم القتل هربوا فقالت الملائكة لهم استهزاء لا تركضوا اى لا تهربوا وارجعوا الى مساكنكم وأموالكم لعلكم تسئلون شيأ من دنياكم فتعطون من شئتم وتمنعون من شئتم فانكم اهل ثروة ونعمة فاتبعهم بختنصر واخذتهم السيوف ونادى منادمن جو السماء يا لثارات الانبياء فلما رأوا ذلك اقروا بالذنوب حين لم ينفعهم (قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين) اى لانفسنا حين كذبنا الرسل وذلك انهم اعترفوا بالذنب حين عاينوا العذاب وقالوا ذلك على سبيل الندامة ولم ينفعهم الندم (فما زالت تلك دعواهم) اى تلك الكلمة وهى قولهم يا ويلنا (حتى جعلناهم حصيدا) اى بالسيوف كما يحصد الزرع (خامدين) اى ميتين * قوله عزوجل (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين) معناه ما سويناهذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع

ومابينهما من أصناف الخلق للهو واللعب وانما سويناها ليستدل بها على قدرة مدبرها ولنجازى المحسن والمسىء على ما تقتضيه حكمتنا ثم نزه ذاته عن سمات الحدوث بقوله (لو أردنا ان نتخذ لهوا) اى ولدا او امرأة كانه رد على من قال عيسى ابنه ومريم صاحبته (لاتخذناه من لدنا) من الولدان او الحور (ان كنا فاعلين) اى ان كنا ممن يفعل ذلك ولسنا ممن يفعله لاستحالته فى حقنا وقيل هو نفى كقوله وان أدرى اى ما كنا فاعلين (بل نقذف) بل اضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه منه لذاته كانه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو بل من سنتنا ان نقذف اى نرمى ونسلط (بالحق) بالقرآن (على الباطل) الشيطان او بالاسلام على الشرك او بالجد على اللعب (فيدمغه) فيكسره ويدحض الحق الباطل وهذه استعارة لطيفة لان أصل استعمال القذف والدمغ فى الاجسام ثم استعير القذف لايراد الحق على الباطل والدمغ لاذهاب الباطل فالمستعار منه حسى والمستعار له عقلى فكانه قيل بل نورد الحق الشبيه بالجسم القوى على الباطل الشبيه بالجسم الضعيف فيبطله ابطال الجسم القوى الضعيف (فاذا هو) اى الباطل (زاهق) هالك ذاهب (ولكم الويل مما تصفون) الله من الولد ونحوه (وله من فى السموات والارض) خلقا وملكا فانى يكون شئ منه ولدا له

وبينهما تناف ويوقف على الارض لان

الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو وانما سويناهما لفوائد منها التفكر فى خلقهما وما فيهما من العجائب والمنافع التى لاتعد ولاتحصى (لو أردنا ان نتخذ لهوا) قال ابن عباس اللهو المرأة وعنه انه الولد (لاتخذناه من لدنا) اى من عندنا من الحور العين لامن عندكم من أهل الارض وقيل معناه لو كان ذلك جائزا فى حقنا لم نتخذه بحيث يظهر لكم بل نستر ذلك حتى لاتطلعوا عليه وذلك ان النصارى لما قالوا فى المسيح وأمه ما قالوا رد الله عليهم بقوله لاتخذناه من لدنا لانكم تعلمون ان ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لاعند غيره (ان كنا فاعلين) اى ما كنا فاعلين وقيل ما كنا ممن يفعل ذلك لانه لايليق بالربوبية (بل) اى دع ذلك الذى قالوه فانه كذب وباطل (نقذف) اى نرمى ونسلط (بالحق) اى بالايمان (على الباطل) اى على الكفر وقيل الحق قول الله انه لاولد له والباطل قولهم اتخذ الله ولدا (فيدمغه) فيهلكه (فاذا هو زاهق) اى ذاهب والمعنى انا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يذهب ويضمحل ثم اوعدهم على كذبهم فقال تعالى (ولكم الويل) يا معشر الكفار (مما تصفون) الله بما لايليق به من الصاحبة والولد (وله من فى السموات والارض) اى عبيدا وملكا وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم (ومن عنده) يعنى الملائكة وانما خص الملائكة وان كانوا داخلين فى جملة من فى السموات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم (لايستكبرون عن عبادته) اى لايتكبرون ولايتعظمون عنها (ولايستحسرون) اى لايعيون ولايتعبون وقيل لاينقطعون عن العبادة ثم وصفهم الله تعالى بقوله (يسبحون الليل والنهار لايفترون) اى لايضعفون ولايسأمون وذلك ان تسبيحهم متصل دائم لايفتر فى جميع أوقاتهم لاتتخلله فترة بفراغ اوشغل آخر قال كعب الاحبار التسبيح لهم كالنفس لبنى آدم (أم اتخذوا آلهة من الارض) يعنى الاصنام من الحجارة والخشب وغيرهما من المعادن وهى من الارض (هم ينشرون) اى يحيون الاموات اذ لايستحق الالهية الا من يقدر على الاحياء والايجاد من العدم والانعام بالغ وجوه النعم وهو الله عز وجل (لو كان فيهما) اى فى السماء والارض (آلهة الا الله) اى غير الله (لفسدتا) اى لخربتا وهلك

(ومن عنده) منزلة ومكانة لامنزلا ومكانا يعنى الملائكة مبتدأ خبره (لايستكبرون) لايتعظمون (عن عبادته ولايستحسرون) ولايعيون (يسبحون الليل والنهار لايفترون) حال من فاعل يسبحون اى تسبيحهم متصل دائم فى جميع اوقاتهم لاتتخلله فترة بفراغ او بشغل آخر فتسبيحهم جار مجرى التنفس منا ثم أضرب عن المشركين منكرا عليهم وموبخا لهم بام التى بمعنى بل والهمزة فقال (أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون) يحيون الموتى ومن الارض

صفة لآلهة لان آلهتهم كانت متخذة من جواهر الارض كالذهب والفضة والحجر وتعبد فى الارض فنسبت اليها كقولك فلان من المدينة اى مدنى اومتعلق باتخذوا ويكون فيه بيان غاية الاتخاذ وفى قوله هم ينشرون زيادة توبيخ وان لم يدعوا ان أصنامهم تحيى الموتى وكيف يدعون ومن أعظم المنكرات ان ينشر الموتى بعض الموات لانه يلزم من دعوى الالوهية لها دعوى الانشار لان العاجز عنه لايصح ان يكون الها اذ لايستحق هذا الاسم الا القادر على كل مقدور والانشار من جملة المقدورات وقرأ الحسن ينشرون بفتح الياء وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها اى احياها (لو كان فيهما آلهة الا الله) اى غير الله وصفت آلهة بالا كما وصفت بغير لو قيل آلهة غير الله ولايجوز رفعه على البدل لان لو بمنزلة ان فى ان الكلام معه موجب والبدل لايسوغ الا فى الكلام غير الموجب كقوله تعالى ولا يلتفت منكم احد الا امرأتك ولايجوز نصبه استثناء لان الجمع اذا كان منكرا لايجوز ان يستثنى منه عند المحققين لانه لاعموم له بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء والمعنى لو كان يدبر أمر السموات والارض آلهة شتى غير الواحد الذى هو فاطرهما (لفسدتا) لخربتا لوجود التمانع وقد قررناه فى أصول الكلام ثم نزه ذاته فقال

من فيهما لوجود التمانع من الآلهة لان كل أمر صدر عن الاثنين فاكثر لم يجر على النظام وقال الامام فخر الدين الرازى قال المتكلمون القول بوجود الهين يفضى الى المحال فوجب ان يكون القول بوجود الهين محالا وانما قلنا انه يفضى الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلا بد وان يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا ان احدهما أراد تحريكه وأراد الآخر تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين اولا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال او يقع مراد أحدهما دون الثانى وذلك أيضا محال لوجهين احدهما انه لو كان كل واحد منهما قادرا على مالا نهاية له امتنع كون أحدهما اقدر من الآخر بل لا بد وان يستويا فى القدرة واذا استويا فى القدرة استحال ان يصير مراد أحدهما اولى بالوقوع من مراد الثانى والا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح وثانيهما انه اذا وقع مراد احدهما دون الآخر فالذى وقع مراده يكون قادرا والذى لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الاله محال ولو فرضنا الهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضى الى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لان اسناد الفعل الى الفاعل انما كان لامكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل اسناده الى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه اليهما معا وذلك محال وهذه حجة تامة فى مسئلة التوحيد فنقول القول بوجود الهين يفضى الى امتناع وقوع المقدور بواحد منهما واذا كان كذلك وجب ان لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا او نقول لو قدرنا الهين فاما ان يتفقا او يختلفا فان اتفقا على الشئ الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وان اختلفا فاما ان يقع المرادان اولا يقع واحد منهما او يقع احدهما دون الثانى والكل محال فثبت ان الفساد لازم على كل التقديرات * واعلم انك اذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت ان جميع ما فى العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى واما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة فى القرآن * واعلم ان كل من طعن فى دلالة التمانع ففسر الآية بان المراد لو كان فى السماء والارض آلهة يقول بالهيتها عبدة الاصنام لزم فساد العالم لانها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فلزم فساد العالم قالوا وهذا اولى لانه تعالى حكى عنهم فى قوله أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب ان يختص الدليل به وأما قوله (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) ففيه تنزيه الله سبحانه وتعالى عما يصفه به المشركون من الشريك والولد (لا يسئل عما يفعل) اى لا يسئل الله عما يفعله ويقضيه فى خلقه (وهم يسئلون) اى والناس يسئلون عن أعمالهم والمعنى انه لا يسئل عما يحكم فى عباده من اعزاز واذلال وهدى واضلال واسعاد واشقاء لانه الرب مالك الاعيان والخلق يسئلون سؤال توبيخ يقال لهم يوم القيامة لم فعلتم كذا لانهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم والله تعالى ليس فوقه أحد يقول له لشئ فعله لم فعلته * قوله عز وجل (ام اتخذوا من دونه آلهة) لما أبطل الله تعالى ان تكون آلهة سواه بقوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا أنكر عليهم اتخاذهم الآلهة فقال ام اتخذوا من دونه آلهة وهو استفهام انكار وتوبيخ (قل هاتوا برهانكم) اى حجتكم على ذلك ثم قال تعالى مستأنفا (هذا) يعنى القرآن (ذكر من معى) اى فيه خبر من معى على دينى ومن يتبعنى الى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية (وذكر) اى خبر (من قبلى) اى من الامم السالفة وما فعل بهم فى الدنيا وما يفعل بهم فى الآخرة وقال ابن عباس ذكر من معى القرآن وذكر من قبلى التوراة والانجيل

على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس وجواز الخطاء عليه وعدم الملك الحقيقى لاستقبح ذلك وعد سفيها فمن هو مالك الملوك ورب الارباب وفعله صواب كله أولى بان لا يعترض عليه (وهم يسئلون) لانهم مملوكون خطاؤن فما أخلقهم بأن يقال لهم لم فعلتم فى كل شئ فعلوه وقيل وهم يسئلون يرجع الى المسيح والملائكة اى هم مسؤلون فكيف يكونون آلهة والالوهية تنافى الجنسية والمسؤلية (أم اتخذوا من دونه آلهة) الاعادة لزيادة الافادة فالاول للانكار من حيث العقل والثانى من حيث النقل اى وصفتم الله تعالى بأن يكون له شريك فقيل لمحمد (قل هاتوا برهانكم) حجتكم على ذلك وذا عقلى وهو يأباه كما مر او نقلى وهو الوحى وهو أيضا يأباه فانكم لا تجدون كتابا من الكتب السماوية الا وفيه توحيده وتنزيهه عن الانداد (هذا) اى القرآن (ذكر من معى) يعنى أمته (وذكر من قبلى) يعنى أمم الانبياء من قبلى وهو وارد فى توحيد الله ونفى الشركاء عنه مع حرص فلما لم يمتنعوا عن كفرهم اضرب عنهم فقال

(بل أكثرهم لا يعلمون الحق) اى القرآن وهو نصب بيعلمون وقرئ الحق اى هو الحق (فهم) لاجل ذلك (معرضون) عن النظر فيما يجب عليهم (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه) الا نوحى كوفى غير ابى بكر وحماد (انه لا اله الا أنا فاعبدون) وحدونى فهذه الآية مقررة لما سبقها من آى التوحيد (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه) نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله فنزه ذاته عن ذلك ثم اخبر عنهم بانهم عباد بقوله (بل عباد مكرمون) اى بل هم عباد مكرمون مشرفون مقربون وليسوا بأولاد اذ العبودية تنافى الولادة (لا يسبقونه بالقول) اى بقولهم فأنيبت اللام مناب الاضافة والمعنى انهم يتبعون قوله فلا يسبق قولهم قوله ولا يتقدمون قوله بقولهم (وهم بأمره يعملون) اى كما ان قولهم تابع لقوله فعملهم ايضا مبنى على امره لا يعملون عملا لم يؤمروا به (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) اى ما قدموا وأخروا من أعمالهم (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) اى لمن رضى الله عنه وقال لا اله الا الله (وهم من خشيته مشفقون) خائفون (ومن يقل منهم) من الملائكة (انى اله من دونه) من دون الله انى مدنى وابو عمرو (فذلك) مبتدأ اى فذلك القائل خبره (نجزيه جهنم) وهو جواب الشرط (كذلك نجزى الظالمين) الكافرين الذين وضعوا الالهية فى غير موضعها وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لتحقق عصمتهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة والضحاك قد تحقق الوعيد فى ابليس فانه ادعى الالهية لنفسه ودعا الى طاعة نفسه وعبادته (أولم ير الذين كفروا) ألم ير مكى (ان السموات والارض كانتا) اى جماعة السموات وجماعة الارض فلذا لم يقل كن (رتقا) بمعنى

والانجيل والمعنى راجعوا القرآن والتوراة والانجيل وسائر الكتب هل تجدون فيها ان الله اتخذ ولدا او كان معه آلهة (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) * قوله عز وجل (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا انا فاعبدون) اى فوحدونى وقيل لما توجهت الحجة عليهم ذمهم على جهلهم بمواضع الحق فقال بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون اى عن التأمل والتفكر وما يجب عليهم من الايمان بانه لا اله الا هو قوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه نفسه عما قالوا (بل عباد) اى هم عباد يعنى الملائكة (مكرمون) اى أكرمهم الله واصطفاهم (لا يسبقونه) اى لا يتقدمونه (بالقول) اى لا يتكلمون الا بما يأمرهم به (وهم بأمره يعملون) المعنى انهم لا يخالفونه قولا ولا عملا (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) اى ما عملوا وما هم عاملون وقيل ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) قال ابن عباس الا لمن قال لا اله الا الله وقيل الا لمن رضى الله تعالى عنه (وهم من خشيته مشفقون) اى خائفون وجلون لا يأمنون مكره (ومن يقل منهم انى اله من دونه) قيل عنى به ابليس حيث دعا الى عبادة نفسه فان احدا من الملائكة لم يقل انى اله من دون الله (فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) اى الواضعين الالهية والعبادة فى غير موضعها * قوله عز وجل (أولم ير الذين كفروا) اى ألم يعلم الذين كفروا (ان السموات والارض كانتا رتقا) قال ابن عباس كانتا شيأ واحدا ملتزقتين (ففتقناهما) اى فصلنا بينهما بالهواء قال كعب خلق الله السموات والارض بعضها على بعض ثم خلق ريحا بوسطهما ففتحهما بها وقيل كانت السموات مرتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض وقيل كانت السماء رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات (وجعلنا من الماء كل شئ حى) اى وأحيينا بالماء الذى ينزل من السماء كل شئ من الحيوان ويدخل فيه النبات والشجر وذلك لانه سبب لحياة كل شئ وقال المفسرون معناه ان كل شئ حى فهو مخلوق من الماء وقيل يعنى النطفة فان قلت قد خلق الله بعض ما هو حى من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة والجان قلت خرج هذا اللفظ مخرج الاغلب والاكثر يعنى ان اكثر ما على وجه الارض مخلوق من الماء او بقاؤه بالماء (أفلا يؤمنون) اى افلا يصدقون (وجعلنا فى الارض رواسى) اى جبالا ثوابت (أن تميد بهم) اى لئلا

المفعول اى كانتا مرتوقتين وهو مصدر فلذا صلح ان يقع موقع مرتوقتين (ففتقناهما) فشققناهما والفتق الفصل بين الشيئين والرتق ضد الفتق فان قيل متى رأوهما رتقا حتى جاء تقريرهم بذلك قلنا انه وارد فى القرآن الذى هو معجزة فقام مقام المرئى المشاهد ولان الرؤية بمعنى العلم وتلاصق الارض والسماء وتباينهما جائزان فى العقل فالاختصاص بالتباين دون التلاصق لا بد له من مخصص وهو القديم جل جلاله ثم قيل ان السماء كانت لاصقة بالارض لا فضاء بينهما ففتقناهما اى فصلنا بينهما بالهواء وقيل كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها الله تعالى وجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع أرضين وقيل كانت السماء رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات (وجعلنا من الماء كل شئ حى) اى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله والله خلق كل دابة من ماء او كائنا ما خلقناه من الماء لفرط احتياجه اليه وجبله وقلة صبره عنه كقوله خلق الانسان من عجل (أفلا يؤمنون) يصدقون بما يشاهدون (وجعلنا فى الارض رواسى) جبالا ثوابت من رسا اذا ثبت (ان تميد بهم)

لئلا تضطرب بهم فحذف لا واللام وانما جاز حذف لا لعدم الالباس كما تزاد لذلك في لئلا يعلم اهل الكتاب (وجعلنا فيها فجاجا) اى طرقا واسعة جمع فج وهو الطريق الواسع ونصب على الحال من (سبلا) متقدمة فان قلت اى فرق بين قوله تعالى لتسلكوا منها سبلا فجاجا وبين هذه قلت الاول للاعلام بانه جعل فيها طرقا واسعة والثانى لبيان انه حين خلقها خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما ابهم ثم (لعلهم يهتدون) ليهتدوا بها الى البلاد المقصودة (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) فى موضعه عن السقوط كما قال ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه او محفوظا بالشهب عن الشياطين كما قال وحفظناها من كل شيطان رجيم (وهم) اى الكفار (عن آياتها) عن الادلة التى فيها كالشمس والقمر والنجوم ٢٨٤ (معرضون) غير متفكرين فيها فيؤمنون (وهو الذى خلق الليل) لتسكنوا فيه (والنهار) لتتصرفوا فيه (والشمس) لتكون سراج النهار (والقمر) ليكون سراج الليل (كل) التنوين فيه عوض عن المضاف اليه اى كلهم والضمير للشمس والقمر والمراد بهما جنس الطوالع وجمع جمع العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة (فى فلك) عن ابن عباس رضى الله عنهما الفلك السماء والجمهور على ان الفلك موج مكفوف تحت السماء يجرى فيه الشمس والقمر والنجوم وكل مبتدا خبره (يسبحون) يسيرون اى يدورون والجملة فى محل النصب على الحال من الشمس والقمر (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) البقاء الدائم (أفان مت) بكسر الميم مدنى وكوفى غير ابى بكر (فهم الخالدون) والفاء الاول لعطف جملة على جملة والثانى لجزاء الشرط كانوا يقدرون انه سيموت فنفى الله عنه الشماتة بهذا اى قضى الله ان لا يخلد فى الدنيا بشرا فان مت انت أيبقى هؤلاء (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم) ونختبركم سمى ابتلاء وان كان عالما بما سيكون من اعمال العاملين قبل وجودهم لانه فى صورة الاختبار (بالشر) بالفقر والضر (والخير) الغنى والنفع (فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (والينا ترجعون) فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر وعن ابن ذكوان ترجعون (واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك) ما يتخذونك (الا هزوا) مفعول ثان ليتخذونك نزلت فى أبى جهل مر به النبى صلى الله عليه وسلم فضحك وقال هذا نبى بنى عبد مناف (أهذا الذى يذكر) يعيب (آلهتكم) والذكر يكون بخير وبخلافه فان كان الذاكر صديقا فهو ثناء وان كان عدوا فذم

تمسدبهم قيل ان الارض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة فى الماء فارساها الله وأثبتها بالجبال (وجعلنا فيها) اى فى الرواسى (فجاجا) اى طرقا ومسالك والفج الطريق الواسع بين الجبلين (سبلا) هو تفسير الفجاج (لعلهم يهتدون) اى الى مقاصدهم (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) اى من ان يسقط ويقع وقيل محفوظا من الشياطين بالشهب (وهم) يعنى الكفار (عن آياتها معرضون) اى عما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وكيفية حركاتها فى أفلاكها ومطالعها ومغاربها والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة القاهرة لا يتفكرون ولا يعتبرون بها (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) اى يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح فى الماء وانما قال يسبحون ولم يقل تسبح على ما يقال لما لا يعقل لانه ذكر عنها فعل العقلاء وهو السباحة والجرى والفلك مدار النجوم الذى يضمها وهو فى كلام العرب كل شئ مستدير وجمعه افلاك وقيل الفلك طاحونة كهيئة فلك المغزل يريد ان الذى تجرى فيه النجوم مستدير كاستدارة الرحى وقيل الفلك السماء الذى فيه ذلك الكوكب فكل كوكب يجرى فى السماء الذى قدر فيه وقيل الفلك استدارة السماء وقيل الفلك موج مكفوف دون السماء تجرى فيه الشمس والقمر والنجوم وقال اصحاب الهيئة الافلاك اجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول والحق انه لا سبيل الى معرفة صفة السموات الا باخبار الصادق فسبحان الخالق المدبر لخلقه بالحكمة والقدرة الباهرة غير المتناهية * قوله عز وجل (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) يعنى الدوام والبقاء فى الدنيا (أفان مت فهم الخالدون) نزلت هذه الآية حين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون نشمت بموته فنفى الله الشماتة عنه بهذا والمعنى ان الله تعالى قضى أن لا يخلد فى الدنيا بشر الا انت ولا هم فان مت انت أفيبقى هؤلاء وفى معناه قول القائل

فقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

(كل نفس ذائقة الموت) هذا العموم مخصوص بقوله تعالى تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك فان الله تعالى حى لا يموت ولا يجوز عليه الموت والذوق ههنا عبارة عن مقدمات الموت وآلامه العظيمة قبل حلوله (ونبلوكم) اى نختبركم (بالشر والخير) اى بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر وقيل بما تحبون وما تكرهون (فتنة) اى ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون (والينا ترجعون) اى للحساب والجزاء * قوله عز وجل (واذا رآك الذين كفروا ان) اى ما (يتخذونك الا هزوا) اى سخريا قيل نزلت فى ابى جهل مر به النبى صلى الله عليه وسلم فضحك وقال هذا نبى بنى عبد مناف (أهذا الذى يذكر آلهتكم) اى يقول بعضهم لبعض هذا الذى يعيب آلهتكم والذكر يطلق على المدح والذم مع القرينة

(وهم بذكر الرحمن) اى بذكر الله ومايجب ان يذكر به من الوحدانية (هم كافرون) لا يصدقون به اصلا فهم أحق ان يتخذوا هزوا منك فانك محق وهم مبطلون وقيل بذكر الرحمن اى بما أنزل عليك من القرآن هم كافرون جاحدون والجملة فى موضع الحال اى يتخذونك هزوا وهم على حال هى أصل الهزء والسخرية وهى الكفر بالله تعالى وكررهم للتأكيد اولان الصلة حالت بينه وبين الخبر فاعيد المبتدا (خلق الانسان من عجل) فسر بالجنس وقيل نزلت حين كان النضر بن الحرث يستعجل بالعذاب والعجل والعجلة مصدران وهو تقديم الشئ على وقته والظاهر ان المراد الجنس وانه ركب فيه العجلة فكانه خلق من العجل ولانه يكثر منه والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم خلق من الكرم فقدم اولا ذم الانسان على افراط العجلة وانه مطبوع عليها ثم منعه وزجره كانه قال ليس ببدع منه ان يستعجل فانه مجبول على ذلك وهو طبعه وسجيته فقد ركب فيه وقيل العجل الطين بلغة حمير قال شاعرهم ٢٨٥ * والنخل ينبت بين الماء والعجل *

القرينة (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) وذلك انهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة وهو مسيلمة الكذاب قوله تعالى (خلق الانسان من عجل) قيل معناه ان بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع وقيل لما دخل الروح فى رأس آدم وعينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل ان تبلغ الروح الى رجليه عجلا الى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الانسان من عجل واورث بنيه العجلة وقيل معناه خلق الانسان من تعجيل فى خلق الله اياه لان خلقه كان بعد كل شئ فى آخر النهار يوم الجمعة فاسرع فى خلقه قبل مغيب الشمس فلما أحيا الروح رأسه قال يارب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس وقيل خلق بسرعة وتعجيل على غير قياس خلق بنيه لانهم خلقوا من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة أطوارا اطوارا بعد طور وقيل معنى خلق الانسان من عجل اى من طين قال الشاعر

* والنخل ينبت بين الماء والعجل * اى بين الماء والطين وقيل اراد بالانسان النوع الانسانى يدل عليه قوله (سأريكم آياتى فلا تستعجلون) وذلك ان المشركين كانوا يستعجلون العذاب وقيل نزلت فى النضر بن الحرث ومعنى سأريكم آياتى اى مواعيدى فلا تطلبوا العذاب قبل وقته فاراهم يوم بدر وقيل كانوا يستعجلون القيامة فلذلك قال تعالى (ويقولون) يعنى المشركين (متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء فبين تعالى انهم انما يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ثم بين ما لهؤلاء المستهزئين فقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون) اى لا يدفعون (عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) قيل السياط (ولا هم ينصرون) اى لا يمنعون من العذاب والمعنى لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا بالعذاب ولما قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (بل تأتيهم) يعنى الساعة (بغتة) اى فجأة (فتبهتهم) اى تحيرهم (فلا يستطيعون ردها) اى صرفها ودفعها عنهم (ولا هم ينظرون) اى لا يمهلون للتوبة والمعذرة (ولقد استهزئ برسل من قبلك) اى يا محمد كما استهزأ بك قومك (فحاق) اى نزل واحاط (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) اى عقوبة استهزائهم وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم اى فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم قوله تعالى (قل من يكلؤكم) اى يحفظكم (بالليل) اذا نمتم (والنهار) اذا انتصرفتم فى معايشكم (من الرحمن) قال ابن عباس معناه من يمنعكم من عذاب الرحمن (بل هم عن ذكر ربهم) اى عن القرآن ومواعظه (معرضون) اى لا يتأملون فى شئ

وانما منع عن الاستعجال وهو مطبوع عليه كما أمره بقمع الشهوة وقد ركبها فيه لانه أعطاه القوة التى يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة ومن عجل حال اى عجلا (سأريكم آياتى) نقماتى (فلا تستعجلون) بالاتيان بها وهو بالياء عند يعقوب وافقه سهل وعياش فى الوصل (ويقولون متى هذا الوعد) اتيان العذاب او القيامة (ان كنتم صادقين) قيل هو احد وجهى استعجالهم (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون) جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم اى لو يعلمون الوقت الذى يستعجلونه بقولهم

متى هذا الوعد وهو وقت تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرون على دفعها ومنعها من انفسهم ولا يجدون ناصرا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذى هونه عندهم (بل تأتيهم) الساعة (بغتة) فجأة (فتبهتهم) فتحيرهم اى لا يكفونها بل تفجأهم فتغلبهم (فلا يستطيعون ردها) فلا يقدرون على دفعها (ولا هم ينظرون) يمهلون (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق) فحل ونزل (بالذين سخروا منهم) جزاء (ما كانوا به يستهزؤن) سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به بان له فى الانبياء اسوة وان ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالانبياء ما فعلوا (قل من يكلؤكم) يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) اى من عذابه ان أتاكم ليلا او نهارا (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) اى بل هم معرضون عن ذكره ولا يخطرونه ببالهم فضلا ان يخافوا بأسه حتى اذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالئ وصلحوا للسؤال عنه والمعنى انه أمر رسوله بسؤالهم عن الكالئ ثم بين انهم لا يصلحون لذلك لاعراضهم عن ذكر من يكلؤهم ثم اضرب عن ذلك بقوله

(ام لهم آلهة تمنعهم من دوننا) لما فى ام من معنى بل فقال الهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا ثم استأنف بقوله (لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) فبين ان ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره ثم قال (بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) اى ما هم فيه من الحفظ والكلاءة انما هو منا لا من مانع يمنعهم من اهلاكنا وما كلأناهم وآباءهم الماضين الا تمتيعا لهم بالحياة الدنيا وامهالا كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الامد فقست قلوبهم وظنوا انهم دائمون على ذلك وهو أمل كاذب (أفلا يرون انا نأتى الارض ننقصها من اطرافها) اى ننقص ارض الكفر ونحذف اطرافها بتسليط المسلمين عليها واظهارهم على أهلها وردها دار اسلام وذكر ياتى يشير بان الله يجريه على أيدى المسلمين وان عساكرهم كانت تغزو ارض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من اطرافها (أفهم الغالبون) افكفار مكة يغلبون بعد ان نقصنا من أطراف أرضهم اى ليس كذلك بل يغلبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بنصرنا (قل انما أنذركم بالوحى) أخوفكم من العذاب بالقرآن (ولا يسمع الصم الدعاء) بفتح الياء والميم ورفع الصم ولا تسمع الصم شامى على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم (اذا ما ينذرون) يخوفون واللام فى الصم للعهد وهو اشارة الى هؤلاء المنذرين والاصل ولا يسمعون اذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم اسماعهم اذا ما أنذروا (ولئن مستهم نفحة) دفعة يسيرة (من عذاب ربك) صفة لنفحة (ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين) اى ولئن مسهم من هذا الذى ينذرون به أدنى شئ لذلوا ودعوا بالويل على أنفسهم وأقروا انهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا وقد بولغ حيث ذكر المس والنفحة لان النفح يدل على القلة يقال نفحه بعطية رضخه بها مع ان بناءها للمرة وفى المس والنفحة ثلاث مبالغات لان النفح فى معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رمح لين ونفحه بعطية رضخه والبناء للمرة (ونضع الموازين) جمع ميزان وهو ما يوزن به الشئ فتعرف كميته وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وانما جمع الموازين لتعظيم شأنها كما فى قوله يا أيها الرسل والوزن لصحائف الاعمال فى قول (القسط) وصفت الموازين بالقسط وهو العدل مبالغة كانها فى نفسها قسط أو على حذف المضاف اى ذوات القسط (ليوم القيامة) لاهل يوم

منها (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) معناه ألهم آلهة من دوننا تمنعهم ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال (لا يستطيعون نصر أنفسهم) اى لا يقدرون على نصر انفسهم فكيف ينصرون من عبدهم (ولا هم منا يصحبون) قال ابن عباس يمنعون وقيل يجارون وقيل ينصرون وقيل معناه لا يصحبون من الله بخير (بل متعنا هؤلاء) يعنى الكفار (وآباءهم) اى فى الدنيا بان انعمنا عليهم وامهلناهم (حتى طال عليهم العمر) اى امتد بهم الزمان فاغتروا (أفلا يرون) يعنى هؤلاء المشركين (انا نأتى الارض ننقصها من أطرافها) يعنى ننقص من اطراف المشركين ونزيد فى اطراف المؤمنين يريد بذلك ظهور النبى صلى الله عليه وسلم وفتحه ديار الشرك ارضا فارضا وقرية فقرية والمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا فى اتيان الارض من جوانبها باخذ الواحد بعد الواحد وفتح البلاد والقرى مما حول مكة وادخالها فى ملك محمد صلى الله عليه وسلم وموت رؤس المشركين المتنعمين بالدنيا اما كان لهم عبرة فى ذلك فيؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويعلموا انهم لا يقدرون على الامتناع منا ومن ارادتنا فيهم ثم قال (أفهم الغالبون) استفهام بمعنى التقريع معناه بل نحن الغالبون وهم المغلوبون (قل) يا محمد (انما أنذركم بالوحى) اى اخوفكم بالقرآن (ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون) اى يخوفون (ولئن مستهم) اى اصابتهم (نفحة من عذاب ربك) قال ابن عباس طرف وقيل شئ قليل (ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين) دعوا على انفسهم بالويل بعد ما أقروا على انفسهم بالظلم والشرك * قوله عز وجل (ونضع الموازين القسط) اى ذوات العدل وصفها بذلك لان الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه فبين ان تلك الموازين تجرى على حد العدل ومعنى وضعها احضارها (ليوم القيامة) اى لاهل يوم القيامة قيل المراد بالميزان العدل والقسط بينهم فى الاعمال فمن احاطت حسناته بسيآته فاز ونجا وبالعكس ذل وخسر والصحيح الذى عليه أئمة السلف ان الله سبحانه وتعالى يضع الموازين الحقيقية ويزن بها أعمال العباد وقال الحسن هو ميزان له كفتان ولسان واكثر الاقوال انه ميزان واحد وانما جمع لاعتبار تعدد الاعمال الموزونة به وروى ان داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه عز وجل ان يريه الميزان فاراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب فلما رآه غشى عليه ثم أفاق فقال الهى من الذى يقدر ان يملأ كفته حسنات قال يا داود انى اذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة فعلى هذا ففى كيفية وزن الاعمال مع انها اعراض طريقان أحدهما ان توزن صحائف الاعمال فتوضع صحائف الحسنات فى كفة وصحائف السيآت فى كفة والثانى ان يجعل فى كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفى كفة السيآت جواهر سود مظلمة فان قلت كيف تصنع بقوله ونضع الموازين القسط مع قوله ولا نقيم لهم يوم القيامة وزنا قلت هذه فى حق الكفار لانهم

ليس

القيامة اى لاجلهم (فلا تظلم نفس شيأ) من الظلم (وان كان مثقال حبة) وان كان الشئ مثقال حبة مثقال بالرفع مدنى وكذا فى لقمان على كان التامة (من خردل) صفة لحبة (أتينا بها) أحضرناها وأنث ضمير المثقال لاضافته الى الحبة كقولهم ذهبت بعض أصابعه (وكفى بنا حاسبين) عالمين حافظين عن ابن عباس رضى الله عنهما لا ان من حفظ شيأ حسبه وعلمه (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا) قيل هذه الثلاثة هى التوراة فهى فرقان بين الحق والباطل وضياء

يستضاء به ويتوصل به الى سبيل النجاة وذكر اى شرف أو وعظ وتنبيه او ذكر ما يحتاج الناس اليه فى مصالح دينهم ودخلت الواو على الصفات كما فى قوله وسيدا وحصورا ونبيا وتقول مررت بزيد الكريم والعالم والصالح ولما انتفع بذلك المتقون خصهم بقوله (للمتقين) ومحل (الذين) جر على الوصفية او نصب على المدح او رفع عليه (يخشون ربهم) يخافونه (بالغيب) حال اى يخافونه فى الخلاء (وهم من الساعة) القيامة وأهوالها (مشفقون) خائفون (وهذا) القرآن (ذكر مبارك) كثير الخير غزير النفع (أنزلناه) على محمد (أفأنتم له منكرون) استفهام توبيخ اى جاحدون انه منزل من عند الله (ولقد آتينا ابراهيم رشده) هداه (من قبل) من قبل موسى وهرون او من قبل محمد عليه السلام (وكنا به) بابراهيم أو برشده (عالمين) اى علمنا انه أهل لما

ليس لهم أعمال توزن مع الكفر وقوله تعالى (فلا تظلم نفس شيأ) اى لا تبخس مما لها وما عليها من خير وشر شيأ (وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) معناه انه لا ينقص من احسان محسن ولا يزاد فى اساءة مسيء وارادبالحبة الجزء اليسير من الخردل ومعنى أتينا بها اى أحضرناها النجازى بها عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله سيخلص رجلا من أمتى على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيأ اظلمك كتبتى الحافظون فيقول لا يا رب فيقول أفلك عذر فيقول لا يا رب فيقول الله تعالى بلى ان لك عندنا حسنة فانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فانك لا تظلم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شئ أخرجه الترمذى السجل الكتاب الكبير وأصله من التسجيل لانه يجمع أحكاما والبطاقة ورقة صغيرة تجعل فى طى الثوب يكتب فيها ثمنه والطيش الخفة قلت فى الحديث دليل على ان صحائف الاعمال هى التى توزن لان الاعمال تجسد جواهر فتوزن والله أعلم قوله تعالى (وكفى بنا حاسبين) قال ابن عباس معناه كفى بنا عالمين حافظين لان من حسب شيأ فقد علمه وحفظه والغرض منه التحذير فان المحاسب اذا كان فى العلم بحيث لا يمكن ان يشتبه عليه شئ وفى القدرة بحيث لا يعجز عن شئ فحقيق بالعاقل ان يكون باشد الخوف منه ويروى عن الشبلى انه رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال

حاسبونا فدققوا * ثم منوا فاعتقوا
هكذا سيمة الملوك * بالمماليك يرفقوا

* قوله عز وجل (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان) يعنى الكتاب المفرق بين الحق والباطل وهو التوراة وقيل الفرقان النصر على الاعداء فعلى هذا يكون (وضياء) يعنى التوراة ومن قال الفرقان هو التوراة جعل الواو زائدة فى وضياء والمعنى آتينا موسى التوراة ضياء (وذكرا للمتقين) يعنى يتذكرون بمواعظها ويعملون بما فيها (الذين يخشون ربهم بالغيب) اى يخافونه ولم يروه وقيل يخافونه فى الخلوات اذا غابوا عن اعين الناس (وهم من الساعة مشفقون) اى خائفون (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) اى كما آتينا موسى التوراة فكذلك أنزلنا القرآن ذكرا مباركا اى هو ذكر لمن آمن به مبارك يتبرك به ويطلب منه الخير (أفأنتم) يا أهل مكة (له منكرون) اى جاحدون قوله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده) اى صلاحه وهداه (من قبل) اى من قبل موسى وهرون وقيل من قبل البلوغ وهو حين خرج من السرب وهو صغير (وكنا به عالمين) اى انه من أهل الهداية والنبوة (اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل) يعنى الصور والاصنام (التى أنتم لها عاكفون) اى مقيمون على عبادتها (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) اى فاقتدينا بهم (قال) يعنى ابراهيم (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) اى فى خطا بين بعبادتكم اياها (قالوا أجئتنا بالحق)

آتيناه (اذ) اما أن تتعلق بآتينا أو برشده (قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل) اى الاصنام المصورة على صورة السباع والطيور والانسان وفيه تجاهل لهم ليحقر آلهتهم مع علمه بتعظيمهم لها (التى أنتم لها عاكفون) اى لاجل عبادتها مقيمون فلما عجزوا عن الاتيان بالدليل على ذلك (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فقلدناهم (قال) ابراهيم (لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين) أراد ان المقلدين والمقلدين منخرطون فى سلك ضلال ظاهر لا يخفى على عامل وأكد بانتم ليصح العطف لان العطف على ضمير هو فى حكم بعض الفعل ممتنع (قالوا أجئتنا بالحق) بالجد

(أم أنت من اللاعبين) اى أجاد أنت فيما تقول ام لاعب استعظاما منهم انكاره عليهم واستبعادا ان يكون ماهم عليه ضلال فنبه ضرب عنهم مخبرا بانه جاد فيما قال غير لاعب مثبتا الربوبية الملك العلام وحدوث الاصنام بقوله (قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن) اى التماثيل فانى يعبد المخلوق و يترك الخالق (وانا على ذلكم) المذكور من التوحيد شاهد (من الشاهدين وتالله) أصله والله وفى التاء معنى التعجب من تسهيل الكيد على يده مع صعوبته وتعذره لقوة سلطة نمرود (لأكيدن أصنامكم) لاكسرنها (بعد ان تولوا مدبرين) بعد ذهابكم عنها

الى عيدكم قال ذلك سرا من قومه فسمعه رجل واحد فعرض بقوله انى سقيم اى سامقم

اى بالصدف (أم أنت من اللاعبين) يعنون أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب (قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن) اى خلقهن (وانا على ذلكم من الشاهدين) اى على انه الاله الذى يستحق العبادة وقيل شاهد على انه خالق السموات والارض (وتالله لأكيدن أصنامكم) اى لامكرن بها (بعد ان تولوا مدبرين) اى منطلقين الى عيدكم قيل انما قال ابراهيم هذا القول سرا فى نفسه ولم يسمع ذلك الا رجل واحد من قومه فافشاه عليه وهو القائل انا سمعناه فتى يذكرهم وقيل كان لهم فى كل سنة مجمع وعيد فكانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم رجعوا الى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو ابراهيم يا ابراهيم لو خرجت معنا الى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه الى الارض وقال انى سقيم أشتكى رجلى فتركوه ومضوا فنادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم الى بيت الآلهة وهن فى بهو عظيم ومستقبل باب البهو صنم عظيم الى جنبه صنم أصغر منه والاصنام جنبها الى جنب بعض كل صنم الذى يليه اصغر منه وهكذا الى باب البهو واذا هم قد جعلوا طعاما بين يدى الآلهة وقالوا اذا رجعنا وقد برئت الآلهة علينا كنا منه فلما نظر ابراهيم اليهم والى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون فلما لم يجيبوه قال مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وجعل يكسرهن بفاس فى يده حتى اذا لم يبق الا الصنم العظيم علق الفاس فى عنقه وقيل فى يده ثم خرج فذلك قوله تعالى (فجعلهم جذاذا) اى كسرا وقطعا (الا كبيرا لهم) اى تركه ولم يكسره ووضع الفاس فى عنقه ثم خرج وقيل ربطه على يده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب و بعضها من فضة و بعضها من حديد و بعضها من نحاس ورصاص وحجر وخشب وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر فى عينيه ياقوتتان تتقدان وقوله (لعلهم اليه يرجعون) قيل معناه يرجعون الى ابراهيم والى دينه وما يدعوهم اليه اذا علموا ضعف الآلهة وعجزها وقيل معناه لعلهم يرجعون الى الصنم فيسألونه مالهؤلاء تكسروا وأنت صحيح والفاس فى عنقك فلما رجع القوم من عيدهم الى بيت آلهتهم رأوا اصنامهم مكسرة (قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين) اى فى تكسيرها واجترائه عليها (قالوا سمعنا فتى يذكرهم) اى يسبهم ويعيبهم (يقال له ابراهيم) اى هو الذى نظن انه صنع هذا فبلغ ذلك نمرود الجبار واشراف قومه (قالوا فأتوا به على أعين الناس) اى جيؤا به ظاهرا بمرأى من الناس وانما قاله نمرود (لعلهم يشهدون) اى عليه بانه الذى فعل ذلك كرهوا ان يأخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به فلما أتوا به (قالوا) له (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال) ابراهيم (بل فعله) عن الكسائى انه يقف عليه اى فعله من فعله وفيه حذف الفاعل وانه لا يجوز وجاز ان يكون الفاعل مسندا الى الفتى المذكور فى قوله سمعنا فتى يذكرهم او الى ابراهيم فى قوله يا ابراهيم ثم قال (كبيرهم هذا) وهو مبتدأ وخبر والاكثر انه لا وقف والفاعل كبيرهم

ليتخلف فرجع الى بيت الاصنام (فجعلهم جذاذا) قطعا من الجذ وهو القطع جمع جذاذة كزجاجة وزجاج جذاذا بالكسر على جمع جذيذ اى مجذوذ كخفيف وخفاف (الا كبيرا لهم) للاصنام او للكفار اى فكسرها كلها بفاس فى يده الا كبيرها فعلق الفاس فى عنقه (لعلهم اليه) الى الكبير (يرجعون) فيسألونه عن كاسرها فيثبتين لهم عجزه او الى ابراهيم ليحتج عليهم او الى الله لما رأوا عجز آلهتهم (قالوا) أى الكفار حين رجعوا من عيدهم ورأوا ذلك (من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين) اى ان من فعل هذا الكسر لشديد الظلم لجراءته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير والتعظيم (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) الجملتان صفتان لفتى

الآن الاول وهو يذكرهم اى يعيبهم لا بد منه للسمع لانك لا تقول سمعت زيدا وتسكت حتى تذكر شيأ مما يسمع بخلاف الثانى وارتفاع ابراهيم بانه فاعل يقال فالمراد الاسم لا المسمى اى الذى يقال له هذا الاسم (قالوا) اى نمرود واشراف قومه (فأتوا به) أحضروا ابراهيم (على أعين الناس) فى محل الحال بمعنى معاينا مشاهدا اى بمرأى منهم ومنظر (لعلهم يشهدون) عليه بما سمع منه أو بما فعله كانهم كرهوا عقابه بلا بينة او يحضرون عقوبتنا له فلما احضروه (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال) ابراهيم (بل فعله) عن الكسائى انه يقف عليه اى فعله من فعله وفيه حذف الفاعل وانه لا يجوز وجاز ان يكون الفاعل مسندا الى الفتى المذكور فى قوله سمعنا فتى يذكرهم او الى ابراهيم فى قوله يا ابراهيم ثم قال (كبيرهم هذا) وهو مبتدأ وخبر والاكثر انه لا وقف والفاعل كبيرهم

وهذا وصف أو بدل ونسب الفعل الى كبيرهم وقصده تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضي تبكيتا لهم والزاما للحجة عليهم لانهم اذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم وانه لا يصلح الها وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق أنيق أنت كتبت هذا وصاحبك أمي فقلت له بل كتبته أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك واثباته للامي لان اثباته للعاجز منكما والامر كائن بينكما استهزاء به واثبات للقادر ويمكن ان يقال غاظته تلك الاصنام حين أبصرها مصطفة وكان غيظ كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه لان الفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه ويجوز ان يكون حكاية لما يقود الى تجويزه مذهبهم كانه قال لهم ما تنكرون ان يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها ان يقدر على هذا ويحكى انه قال غضب ان تعبد هذه الصغار معه وهو أكبرها فكسرهن او هو متعلق ٢٨٩ بشرط لا يكون وهو نطق الاصنام

وأراد ابراهيم بذلك اقامة الحجة عليهم فذلك قوله (فاسئلوهم ان كانوا ينطقون) اى حتى يخبر عن فعل ذلك بهم وقيل معناه ان قدروا على النطق قدروا على الفعل فأراهم عجزهم عن النطق وفى ضمنه انا فعلت ذلك (ق) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات ثنتين منهن فى ذات الله قوله انى سقيم وقوله فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هذه اختى لفظ الترمذى قيل فى قوله انى سقيم اى سأسقم وقيل سقيم القلب مغتم بضلالتكم وأما قوله بل فعله كبيرهم هذا فانه علق خبره بشرط نطقه كأنه قال ان كان ينطق فهو فعل على طريق التبكيت لقومه وقوله لسارة هذه اختى اى فى الدين والايمان قال الله تعالى انما المؤمنون اخوة فكل هذه الالفاظ صدق فى نفسها ليس فيها كذب فان قلت قد سماها النبى صلى الله عليه وسلم كذبات بقوله لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات وقال فى حديث الشفاعة ويذكر كذباته قلت معناه انه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب وان كان حقا فى الباطن لاهذه الكلمات ولما كان مفهوم ظاهرها خلاف باطنها أشفق ابراهيم عليه الصلاة والسلام منها بمؤاخذته بها قال البغوى وهذه التأويلات لنفى الكذب عن ابراهيم والاولى هو الاول للحديث ويجوز ان يكون الله اذن له فى ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن ليوسف حين أمر مناديه فقال أيتها العير انكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا قال الامام فخر الدين الرازى وهذا القول مرغوب عنه والدليل القاطع عليه انه لو جاز ان يكذب لمصلحة ويأذن الله فيه فلم يجز هذا الاحتمال فى كل ما أخبر الانبياء عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع ويطرق التهمة الى كلها والحديث محمول على المعاريض فان فيها مندوحة عن الكذب وقوله (فرجعوا الى أنفسهم) اى تفكروا بقلوبهم ورجعوا الى عقولهم (فقالوا) ما نراه الا كما قال (انكم أنتم الظالمون) يعنى بعبادتكم ما لا يتكلم وقيل معناه أنتم الظالمون لهذا الرجل فى سؤالكم اياه وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها (ثم نكسوا على رؤسهم) قال اهل التفسير أجرى الله الحق على ألسنتهم فى القول الاول وهو اقرارهم على أنفسهم بالظلم ثم أدركتهم الشقاوة فرجعوا الى حالهم الاولى وهو قوله ثم نكسوا على رؤسهم اى ردوا الى الكفر وقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) اى فكيف نسألهم فلما التجأت الحجة لابراهيم عليهم (قال) لهم (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا) اى ان عبدتموه (ولا يضركم) اى ان تركتم عبادته (أف لكم) اى تبا لكم (ولما تعبدون من دون الله) والمعنى انه حقرهم وحقر معبودهم (أفلا تعقلون) اى أليس لكم عقل تعقلون به ان هذه الاصنام

فيكون نفيا للمخبر عنه اى بل فعله كبيرهم ان كانوا ينطقون وقوله فاسئلوهم اعتراض وقيل عرض بالكبير لنفسه وانما أضاف نفسه اليهم لاشتراكهم فى الحضور (فاسئلوهم) عن حالهم (ان كانوا ينطقون) وأنتم تعلمون عجزهم عنه (فرجعوا الى أنفسهم) فرجعوا الى عقولهم وتفكروا بقلوبهم لما أخذ بخناقهم (فقالوا انكم أنتم الظالمون) على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق لا من ظلمتموه حين قلتم من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين فان من لا يدفع عن رأسه الفأس كيف يدفع عن عابديه البأس (ثم نكسوا على رؤسهم) قال أهل التفسير أجرى الله تعالى الحق على لسانهم

فى القول الاول ثم أدركتهم الشقاوة اى ردوا الى الكفر بعد ان أقروا على أنفسهم بالظلم يقال نكسته قلبته فجعلت أسفله اعلاه اى استقاموا حين رجعوا الى انفسهم وجاؤا بالفكرة الصالحة ثم انقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا فى المجادلة بالباطل والمكابرة وقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فكيف تأمرنا بسؤالها والجملة سدت مسد مفعولى علمت والمعنى لقد علمت عجزهم عن النطق فكيف نسألهم (قال) محتجا عليهم (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا) هو فى موضع المصدر اى نفعا (ولا يضركم) ان لم تعبدوه (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) أف صوت اذا صوت به علم ان صاحبه متضجر ضجر مما رأى من نبأتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق فتأفف بهم واللام لبيان المتأفف به اى لكم ولآلهتكم هذا التأفف أف مذنوحفص أف مكى وشامى أف غيرهم (أفلا تعقلون) ان من هذا وصفه لا يجوز ان يكون الها فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب

لا تستحق العبادة فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم) يعنى انكم لا تنصرونها الا بتحريق ابراهيم لانه يعيبها ويطعن فيها (ان كنتم فاعلين) اى ناصرين آلهتكم قال ابن عمر الذى قال هذا رجل من الاكراد قيل اسمه هبرين فخسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقيل قاله نمرود بن كنعان بن سنجاريب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح

(ذكر القصة فى ذلك)

فلما اجتمع نمرود وقومه لاحراق ابراهيم حبسوه فى بيت وبنوا بنيانا كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له صلاب الحطب وأصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عوفيت لاجمعن حطبا لابراهيم وكانت المرأة تنذر فى بعض ما تطلب لئن اصابته لتحطبن فى نار ابراهيم وكانت المرأة تغزل وتشترى الحطب بغزلها احتسابا فى دينها وكان الرجل يوصى بشراء الحطب من ماله لابراهيم فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا فى كل ناحية من الحطب نارا فاشتعلت النار واشتدت حتى ان الطير لتمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها فأوقدوا عليها سبعة ايام فلما أرادوا أن يلقوا ابراهيم لم يعلموا كيف يلقونه فقيل ان ابليس جاء وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه ثم عمدوا الى ابراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه فى المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق الا الثقلين صيحة واحدة اى ربنا ابراهيم خليلك يلقى فى النار وليس فى ارضك أحد يعبدك غيره فائذن لنا فى نصرته فقال الله تعالى انه خليلى ليس لى خليل غيره وأنا الهه ليس له الهه غيرى فان استغاث بأحد منكم اودعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك وان لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بينى وبينه فلما أرادوا القاءه فى النار أتاه خازن المياه وقال ان اردت أخمدت النار وأتاه خازن الهواء وقال ان شئت طيرت النار فى الهواء فقال ابراهيم لا حاجة لى اليكم حسبى الله ونعم الوكيل وروى عن أبى بن كعب ان ابراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه فى النار لا اله الا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به فى المنجنيق الى النار فاستقبله جبريل فقال يا ابراهيم ألك حاجة فقال أما اليك فلا قال جبريل فاسأل ربك فقال ابراهيم حسبى من سؤالى علمه بحالى (خ) عن ابن عباس فى قوله تعالى وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل قال قالها ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم قال كعب الاحبار جعل كل شئ يطفئ عنه النار الا الوزغ فانه كان ينفخ فى النار (ق) عن أم شريك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الاوزاغ زاد البخارى وقال كان ينفخ على ابراهيم (قلنا) اى قال الله عز وجل (يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) قال ابن عباس لو لم يقل سلاما لمات ابراهيم من بردها وفى بعض الآثار انه لم يبق يومئذ نار فى الارض الا طفئت فلم ينتفع فى ذلك اليوم بنار فى العالم ولو لم يقل على ابراهيم بقيت ذات برد أبدا وقيل أخذت الملائكة بضبعى ابراهيم فأقعدوه على الارض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس قال كعب ما أحرقت النار من ابراهيم الا وثاقه قالوا وكان ابراهيم فى ذلك الموضع سبعة أيام قاله المنهال بن عمرو قال ابراهيم ما كنت أياما قط أنعم منى من الايام التى كنت فى النار قبل وبعث الله تعالى ملك الظل فى صورة ابراهيم فقعد الى جنب ابراهيم يؤنسه قالوا وبعث الله عز وجل جبريل بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه وقال جبريل يا ابراهيم ان ربك يقول اما علمت ان النار لا تضر أحبائى ثم نظر نمرود واشرف على ابراهيم من صرح له فرآه جالسا فى روضة والملك قاعد الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا ابراهيم كبير الهك الذى بلغت قدرته ان حال بينك وبين النار يا ابراهيم هل تستطيع ان تخرج منها قال نعم قال هل تخشى

(قالوا حرقوه) بالنار لانها اهول ما يعاقب به وأفظع (وانصروا آلهتكم) بالانتقام منه (ان كنتم فاعلين) اى ان كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مؤزرا فاختار والله أهول المعاقبات وهو الاحراق بالنار والافرطتم فى نصرتها والذى أشار باحراقه نمرود أو رجل من اكراد فارس وقيل انهم حين هموا باحراقه حبسوه ثم بنوا بيتا بكوثى وجمعوا شهرا أصناف الخشب ثم أشعلوا نارا عظيمة كادت الطير تحترق فى الجو من وهجها ثم وضعوه فى المنجنيق مقيدا مغلولا فرموا به فيها وهو يقول حسبى الله ونعم الوكيل وقال له جبريل هل لك حاجة فقال اما اليك فلا قال فسل ربك قال حسبى من سؤالى علمه بحالى وما احرقت النار الا وثاقه وعن ابن عباس انما نجا بقوله حسبى الله ونعم الوكيل (قلنا يا نار كونى بردا وسلاما) اى ذات برد وسلام فبولغ فى ذلك كان ذاتها برد وسلام (على ابراهيم) أراد ابردى فيسلم منك ابراهيم وعن ابن عباس رضى الله عنهما لولم يقل ذلك لاهلكته ببردها والمعنى ان الله تعالى نزع عنها طبعها الذى طبعها عليه من الحر والاحراق وابقاها على الاضاءة والاشراق كما كانت وهو على كل شئ قدير

ان أقمت ان تضرك قال لا قال فقم فاخرج منها فقام ابراهيم يمشي فيها حتى خرج منها فلما وصل اليه قال له يا ابراهيم من الرجل الذي رأيته معك متمثلا في صورتك قاعدا الى جنبك قال ذلك ملك الظل أرسله الى ربي ليؤنسني فيها فقال نمرود يا ابراهيم اني مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت الا عبادته وتوحيده واني ذابح له أربعة آلاف بقرة قال ابراهيم لا يقبل الله منك ما دمت على دينك حتى تفارقه وترجع الى ديني فقال لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها له فذبحها نمرود وكف عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام ومنعه الله عز وجل منه * قوله عز وجل (وأرادوا به كيدا) اى أرادوا ان يكيدوه (فجعلناهم الاخسرين) قيل معناه انهم خسروا السعي والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم وقيل ان الله تعالى أرسل على نمرود وقومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت في دماغه بعوضة فأهلكته قوله تعالى (ونجيناه ولوطا) يعني من نمرود وقومه (الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) يعني الى أرض الشام باركنا الله فيها بالخصب وكثرة الاشجار والثمار والانهار وقال أبي بن كعب بارك الله فيها وسماها مباركة لانه ما من ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس وقيل لان أكثر الانبياء منها (ق) عن ابي قتادة ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال لكعب الا تتحول الى المدينة فبها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره فقال كعب اني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين ان الشام كنز الله من أرضه وبها كنزه من عباده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة فخيار اهل الارض ألزمهم مهاجر ابراهيم أخرجه ابو داود أراد بالهجرة الثانية الهجرة الى الشام يرغب في المقام بها عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لاهل الشام فقلت وماذاك يا رسول الله قال لان الملائكة باسطة أجنحتها عليها أخرجه الترمذي عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده قال قلت يا رسول الله أين تأمرني قال ههنا ونحا بيده نحو الشام أخرجه الترمذي قال محمد بن اسحق استجاب لابراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله تعالى به من جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمرود وملئهم وآمنت به سارة بنت هاران الاكبر عم ابراهيم وتبعه لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران وهو أخو ابراهيم وكان لهما أخ ثالث اسمه ناخور فثلاثتهم أولاد تارخ وهو آزر فخرج ابراهيم من كوثى من أرض العراق مهاجرا الى ربه ومعه لوط وسارة فخرج يلتمس الفرار بدينه والامان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله ثم خرج مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج ورجع الى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله نبيا الى أهلها وما قرب منها فذلك قوله تعالى ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين قوله تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة) اى عطية من عطاء الله قال ابن عباس النافلة هو يعقوب لان الله تعالى أعطى ابراهيم اسحق بدعائه حيث قال رب هب لي من الصالحين وزاده يعقوب نافلة وهو ولد الولد (وكلا جعلنا صالحين) يعني ابراهيم واسحق ويعقوب (وجعلناهم أئمة) اى قدوة يهتدى بهم في الخير (يهدون بأمرنا) اى يدعون الناس الى ديننا بأمرنا (وأوحينا اليهم فعل الخيرات) اى العمل بالشرائع (واقام الصلوة) اى المحافظة عليها (وايتاء الزكوة) اى الواجبة وخصهما لان الصلاة أفضل العبادات البدنية وشرعت لذكر الله والزكاة أفضل العبادات المالية وجمعوهما التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله (وكانوا لنا عابدين)

(وأرادوا به كيدا) احراقا (فجعلناهم الاخسرين) فأرسل على نمرود وقومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت بعوضة في دماغ نمرود فأهلكته (ونجيناه) اى ابراهيم (ولوطا) ابن أخيه هاران من العراق (الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) اى أرض الشام وبركتها ان أكثر الانبياء منها فانتشرت في العالمين آثارهم الدينية وهي أرض خصب يطيب فيها عيش الغني والفقير وقيل ما من ماء عذب في الارض الا وينبع أصله من صخرة بيت المقدس روى انه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة وقال عليه السلام انها ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس الى مهاجر ابراهيم (ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة) قيل هو مصدر كالعافية من غير لفظ الفعل السابق اى وهبنا له هبة وقيل هي ولد الولد وقد سأل ولدا فأعطيه وأعطي يعقوب نافلة اى زيادة وفضلا من غير سؤال وهي حال من يعقوب (وكلا) اى ابراهيم واسحق ويعقوب وهو المفعول الاول لقوله (جعلنا) والثاني (صالحين) في الدين والنبوة (وجعلناهم أئمة) يقتدى بهم في الدين (يهدون) الناس (بأمرنا) بوحينا (واوحينا اليهم فعل الخيرات) وهي جميع الاعمال الصالحة وأصله ان تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات وكذلك قوله (واقام الصلوة وايتاء الزكوة) والاصل واقامة الصلاة الا ان المضاف اليه جعل بدلا من الهاء (وكانوا لنا عابدين) لا للاصنام فأنتم يا معشر العرب أولاد ابراهيم فاتبعوه في ذلك

(ولوطا) انتصب بفعل يفسره (آتيناه حكما) حكمة وهي ما يجب فعله من العمل او فصلا بين الخصوم او نبوة (وعلما) فقها (ونجيناه من القرية) من اهلها وهي سدوم (التي كانت تعمل الخبائث) اللواطة والضراط وحذف الاشارة بالحصى وغيرها (انهم كانوا قوم سوء فاسقين) خارجين عن طاعة الله (وأدخلناه في رحمتنا) في اهل رحمتنا او في الجنة (انه من الصالحين) اى جزاء له على صلاحه كما أهلك قومه عقابا على فسادهم (ونوحا) اى واذكر نوحا (اذ نادى) اى دعا على قومه بالهلاك (من قبل) من قبل هؤلاء المذكورين (فاستجبنا له) اى دعاءه (فنجيناه وأهله) اى المؤمنين من ولده وقومه (من الكرب العظيم) من الطوفان وتكذيب اهل الطغيان

(ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) منعناه منهم اى من اذاهم (انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم (وداود وسليمان) اى واذكرهما (اذ) بدل منهما (يحكمان في الحرث) في الزرع او الكرم (اذ) ظرف ليحكمان (نفشت) دخلت (فيه غنم القوم) ليلا فأكلته وأفسدته والنفش انتشار الغنم ليلا بلا راع (وكنا لحكمهم) أرادهما والمعنى كنا مطلعين عليهما (شاهدين) اى كان ذلك بعلمنا ومرأى منا (ففهمناها) اى الحكومة او الفتوى (سليمان) وفيه دليل على ان الصواب كان مع سليمان صلوات الله عليه وقصته ان الغنم رعت الحرث وافسدته بلا راع ليلا فحكما الى داود فحكم بالغنم لاهل الحرث وقد استوت قيمتاهما اى قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من

اى موحدين * قوله عز وجل (ولوطا آتيناه حكما) اى الفصل بين الخصوم بالحق وقيل اراد الحكمة والنبوة (وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث) يعني قرية سدوم واراد اهلها وأراد بالخبائث اتيان الذكور في ادبارهم وكانوا يتضارطون في مجالسهم مع اشياء اخر كانوا يعملونها من المنكرات (انهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا) قيل أراد بالرحمة النبوة وقيل أراد بها الثواب (انه من الصالحين) يعني الانبياء قوله تعالى (ونوحا اذ نادى من قبل) اى من قبل ابراهيم ولوط (فاستجبنا له) اى اجبنا دعاءه (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) قال ابن عباس من الغرق وتكذيب قومه له وقيل انه كان أطول الانبياء عمرا وأشدهم بلاء والكرب أشد الغم (ونصرناه) اى منعناه (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) من ان يصلوا اليه بسوء وقيل من بمعنى على (انهم كانوا قوم سوء فاغرقناهم أجمعين) * قوله عز وجل (وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث) قال ابن عباس وأكثر المفسرين كان الحرث كرما قد تدلت عناقيده وقيل كان زرعا وهو أشبه بالعرف (اذ نفشت فيه غنم القوم) اى رعته ليلا فافسدته وكانت بلا راع (وكنا لحكمهم شاهدين) اى كان ذلك بعلمنا ومرأى منا لا يخفى علينا علمه وفيه دليل لمن يقول بان اقل الجمع اثنان لقوله وكنا لحكمهم والمراد به داود وسليمان قال ابن عباس وفيه ان رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع ان غنم هذا دخلت زرعي ليلا فوقعت فيه فافسدته فلم تبق منه شيأ فاعطاه رقاب الغنم بالزرع فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى بينكما فاخبراه فقال سليمان لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا وروى انه قال غير هذا ارفق بالفريقين فاخبر بذلك داود فدعاه وقال كيف تقضي ويروى انه قال له بحق النبوة والابوة الا ما أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين قال ادفع الغنم الى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فاذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع الى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك فقيل كان لسليمان يوم حكم بذلك من العمر احدى عشرة سنة وحكم الاسلام في هذه المسئلة ان ما أفسدته الماشية المرسلة من مال الغير بالنهار فلا ضمان على ربها وما أفسدته بالليل ضمنه ربها لان في عرف الناس ان أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار والمواشي تسرح بالنهار وترد بالليل الى المراح ويدل على هذه المسئلة ما روى حرام بن سعد ابن محيصة ان ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل من الانصار فافسدت فيه فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان على أهل الاموال حفظها بالنهار وعلى أهل المواشي حفظها بالليل زاد في رواية وان على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل أخرجه أبو داود مرسلا وذهب أصحاب الرأي ان المالك اذا لم يكن مع ماشيته فلا ضمان عليه فيما اتلفت ليلا كان او نهارا فذلك قوله تعالى (ففهمناها سليمان) اى علمناه

الحرث فقال سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة غير هذا ارفق بالفريقين فعزم عليه ليحكمن فقال أرى ان تدفع الغنم الى اهل الحرث ينتفعون بالبانها وأولادها واصوافها والحرث الى رب الغنم حتى يصلح الحرث ويعود كهيئته يوم افسد ثم يترادان فقال القضاء ما قضيت وامضى الحكم بذلك وكان ذلك باجتهاد منهما وهذا كان في شريعتهم فاما في شريعتنا فلا ضمان عند ابي حنيفة واصحابه رضي الله عنهم بالليل او بالنهار الا ان يكون مع البهيمة سائق او قائد وعند الشافعي رحمه الله يجب الضمان بالليل وقال الجصاص انما ضمنوا لانهم ارسلوها او نسخ الضمان بقوله عليه السلام العجماء جبار وقال مجاهد كان هذا صلحا وما فعله داود كان حكما والصلح خير

علمناه والممناه حكم القضية (وكلا) يعني داود وسليمان (آتينا حكما وعلما) اي بوجوه الاجتهاد وطرق الاحكام قال الحسن لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده واختلف العلماء في ان حكم داود كان باجتهاده ام بنص وكذلك حكم سليمان فقال بعضهم حكما بالاجتهاد قال ويجوز الاجتهاد للانبياء ليدركوا ثواب المجتهدين والعلماء لهم الاجتهاد في الحوادث اذا لم يجدوا فيها نص كتاب او سنة واذا أخطؤا فلا اثم عليهم (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حكم الحاكم فاجتهد فاصاب فله اجران واذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر وقال قوم ان داود وسليمان حكما بالوحي فكان حكم سليمان ناسخا لحكم داود ومن قال بهذا يقول لا يجوز للانبياء الحكم بالاجتهاد لانهم مستغنون عنه بالوحي واحتج من ذهب الى ان كل مجتهد مصيب بظاهر هذه الآية وبالحديث حيث وعد الثواب للمجتهد على الخطأ وهو قول أصحاب الرأي وذهب جماعة الى انه ليس كل مجتهد مصيبا بل اذا اختلف اجتهاد المجتهدين في حادثة كان الحق مع واحد لا بعينه ولو كان كل واحد مصيبا لم يكن للتقسيم معنى وقوله صلى الله عليه وسلم اذا اجتهد فاخطأ فله أجر لم يرد به انه يؤجر على الخطا بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لان اجتهاده عبادة والاثم في الخطا عنه موضوع اذا لم يأل جهدا ووجه الاجتهاد في هذا الحكم ان داود قوم قدر الضرر في الحرث فكان مساويا لقيمة الغنم وكان عنده ان الواجب في ذلك الضرر في الحرث قيمة المثل فلا جرم سلم الغنم الى المجني عليه وأما سليمان فان اجتهاده أدى الى انه يجب مقابلة الاصول بالاصول والزوائد بالزوائد فاما مقابلة الاصول بالزوائد فغير جائزة واعمل منافع الغنم في تلك السنة كانت موازية لمنافع الحرث فحكم به ومن أحكام داود وسليمان عليهما السلام ماروى عن ابي هريرة رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن احداهما فقالت لصاحبتها انما ذهب بابنك وقالت الاخرى انما ذهب بابنك فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود فاخبرتاه فقال ائتوني بالسكين اشقه بينهما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى أخرجاه في الصحيحين قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) اي يسبحن مع داود اذا سبح قال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر قيل كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير وقيل معنى يسبحن يصلين معه اذا صلى وقيل كان داود اذا فتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق اليه (وكنا فاعلين) يعني ماذكر من التفهيم واياتاء الحكم والتسخير (وعلمناه صنعة لبوس لكم) اي صنعة الدروع التي تلبس في الحرب قيل أول من صنع الدروع وسردها واتخذها حلقا داود وكانت من قبل صفائح قالوا ان الله الان الحديد لداود بان يعمل منه بغير نار كأنه طين والدرع يجمع بين الخفة والحصانة وهو قوله تعالى (لتحصنكم) اي تمنعكم (من بأسكم) اي حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم وقيل ليحصنكم الله به (فهل أنتم شاكرون) اي يقول ذلك لداود واهل بيته * قوله عز وجل (ولسليمان الريح) اي وسخرنا لسليمان الريح وهو جسم متحرك لطيف ممتنع بلطفه من القبض عليه يظهر للحس بحركته ويخفى عن البصر بلطفه (عاصفة) اي شديدة الهبوب فان قلت قد وصفها الله بالرخاء وهي الريح اللينة قلت كانت الريح تحت أمره ان أراد ان تشتد اشتدت وان أراد ان تلين لانت (تجري بامره الى الارض التي باركنا فيها) يعني الشام وذلك لانها كانت تجري بسليمان وأصحابه حيث يشاء سليمان ثم يعود الى منزله بالشام (وكنا بكل شئ عالمين) اي بصحة التدبير فيه وعلمنا ان ما يعطي سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه الى الخضوع لربه قال وهب كان سليمان عليه السلام اذا خرج الى مجلسه حلقت عليه الطير وقام له الانس والجن حتى يجلس على سريره وكان امر أغزاه قلما كان يقعد عن الغزو ولا يسمع في ناحية من الارض

وهو حال بمعنى مسبحات او استئناف كأن قائلا قال كيف سخرهن فقال يسبحن (والطير) معطوف على الجبال او مفعول معه وقدمت الجبال على الطير لان تسخيرها وتسبيحها اعجب واغرب وادخل في الاعجاز لانها جماد وروى انه كان يمر بالجبال مسبحا وهي تجاوبه وقيل كانت تسير معه حيث سار (وكنا فاعلين) بالانبياء مثل ذلك وان كان عجبا عندكم (وعلمناه صنعة لبوس لكم) اي عمل اللبوس والدروع واللبوس اللباس والمراد الدرع (لتحصنكم) شامي وحفص اي الصنعة وبالنون ابو بكر وحماد اي الله عز وجل وبالياء غيرهم اي اللبوس او الله عز وجل (من بأسكم) من حرب عدوكم (فهل أنتم شاكرون) استفهام بمعنى الامر اي فاشكروا الله على ذلك (ولسليمان الريح) اي وسخرنا له الريح (عاصفة) حال اي شديدة الهبوب ووصفت في موضع آخر بالرخاء لانها تجري باختياره فكانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفة لهبوبها على حكم ارادته (تجري بامره) بامر سليمان (الى الارض التي باركنا فيها) بكثرة الانهار والاشجار والثمار والمراد الشام وكان منزله بها وتحمله الريح من نواحي الارض اليها (وكنا بكل شئ عالمين)

بملك الا اتاه حتى يذله وكان فيما يزعمون اذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فاذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى اذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهرا في روحته وشهرا في غدوته الى حيث أراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء وبالمزرعة فما تحركها ولا تثير ترابا ولا تؤذي طائرا قال وهب ذكر لي ان منزلا بناحية دجلة مكتوب فيه كتبه بعض صحابة سليمان امامن الانس اومن الجن نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه ان شاء الله فنازلون بالشام وقال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسخا في فرسخ ذهبا في ابريسم وكان يوضع له منبر من ذهب وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة تقعد الانبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير باجنحتها حتى لا تقع عليه شمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح الى الرواح وقال الحسن لما شغلت نبي الله سليمان الخيل حتى فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فابدله الله مكانها خيرا منها واسرع الريح تجري بامره كيف شاء فكان يغدو من ايلياء فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحه ببابل وروى ان سليمان سار من أرض العراق فقال بمدينة بلخ متخللا بلاد الترك ثم جاوزهم الى ارض الصين يغدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك ثم عطف يمنة عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى اتى أرض السند وجاوزها وخرج منها الى مكران وكرمان ثم جاوزها حتى أتى أرض فارس فنزلها أياما وغدا منها فقال بكسكر ثم راح الى الشام وكان مستقره بمدينة تدمر وكان أمر الشياطين قبل شخوصه الى العراق فبنوها له بالصفاح والعمد والرخام الاصفر والابيض وفي ذلك يقول النابغة

الا سليمان اذ قال المليك له * قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيش الجن اني قد اذنت لهم * يبنون تدمر بالصفاح والعمد

* قوله عز وجل (ومن الشياطين) اى وسخرنا له من الشياطين (من يغوصون له) اى يدخلون تحت الماء فيخرجون له من قعر البحر الجواهر (ويعملون عملا دون ذلك) اى دون الغوص وهو اختراع الصنائع العجيبة كما قال يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية ويتجاوزون في ذلك الى أعمال المدن والقصور والصناعات كاتخاذ النورة والقوارير والصابون وغير ذلك (وكنا لهم حافظين) اى حتى لا يخرجوا عن أمره وقيل حفظناهم من ان يفسدوا ما عملوا وذلك انهم كانوا اذا عملوا عملا في النهار وفرغ قبل الليل افسدوه وخربوه قيل ان سليمان كان اذا بعث شيطانا مع انسان ليعمل له عملا قال له اذا فرغ من عمله قبل الليل اشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه قوله تعالى (وأيوب اذ نادى ربه) اى دعا ربه

وقد أحاط علمنا بكل شئ فتجري الاشياء كلها على ما يقتضيه علمنا (ومن الشياطين) اى وسخرنا منهم (من يغوصون له) في البحار بامره لاستخراج الدر وما يكون فيها (ويعملون عملا دون ذلك) اى دون الغوص وهو بناء المحاريب والتماثيل والقصور والقدور والجفان (وكنا لهم حافظين) ان يزيغوا عن امره او يبدلوا أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه (وأيوب) اى واذكر أيوب (اذ نادى ربه

(ذكر قصة أيوب عليه السلام)

قال وهب بن منبه كان أيوب رجلا من الروم وهو أيوب بن أموص بن تارخ بن روم بن عيص بن اسحق ابن ابراهيم وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله تعالى قد اصطفاه ونباه وبسط له الدنيا وكانت له البثنية من أرض البلقاء من أعمال خوارزم مع أرض الشام كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من أصناف المال كله من الابل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدد والكثرة وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل له آلة كل فدان أتان لكل أتان من الولد اثنان او ثلاثة او أربع او خمس وفوق ذلك وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان براتقيا رحيما بالمساكين يطعمهم ويكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف ويبلغ ابن

السبيل وكان شاكرا لانعم الله مؤديا لحق الله قد امتنع من عدو الله ابليس ان يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من أمر الدنيا وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه رجل من أهل اليمن يقال له النفر وقيل نفير ورجلان من أهل بلده يقال لاحدهما تلدد والآخر صافر وكان لهؤلاء مال وكان ابليس لا يحجب عن شئ من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن السموات كلها الا من استراق السمع فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه فادرك ابليس الحسد والبغي فصعد سريعا حتى وقف من السماء حيث كان يقف وقال الهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج عن طاعتك قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله ابليس حتى وقع على الارض بجمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فقد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ما اذا شئت تحولت اعصارا من نار فاحرق كل شئ آتي عليه قال ابليس اذهب فاتت الابل ورعاتها فاتى الابل حين وضعت رؤسها ورعت فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار فاحرق الابل ورعاتها حتى أتى على آخرها ثم جاء عدو الله ابليس في صورة قيم ممن كانوا عليها على قعود الى أيوب فوجده قائما يصلي فقال يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت ابلك وأحرقتها ومن فيها غيري فقال أيوب بعد ان فرغ من الصلاة الحمد لله هو أعطانيها وهو أخذها وانها مال الله أعارنيها وهو أولى بها اذا شاء نزعها قال فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيأ وما كان الا في غرور ومنهم من يقول لو كان اله أيوب يقدر على ان يصنع شيأ لمنع وليه ومنهم من يقول بل هو الذي فعل ما فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه فقال أيوب الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود الى التراب وعريانا أحشر الى الله عز وجل ليس ينبغي لك ان تفرح حين أعارك وتجزع حين قبض عاريته الله اولى بك وبما أعطاك ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الارواح وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فاخرك فرجع ابليس الى أصحابه خاسئا ذليلا فقال ما عندكم من القوة فاني لم أكلم قلبه قال عفريت من الجن عندي من القوة ما اذا شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح الا خرجت روحه قال ابليس فأت الغنم ورعاتها فانطلق حتى توسطها ثم صاح صيحة فتجسمت أمواتا من عند آخرها ومات رعاتها فجاء ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الى أيوب فوجده يصلي فقال له مثل القول الاول فرد عليه أيوب مثل الرد الاول فرجع ابليس الى أصحابه فقال ما عندكم من القوة فاني لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت عندي من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفة تنسف كل شئ تأتي عليه قال فأت الفدادين في الحرث والزرع فانطلق يؤمهم وذلك حين شرع الفدادون في الحرث والزرع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصفة فنسفت كل شئ من ذلك حتى كأنه لم يكن ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمانهم الى أيوب وهو قائم يصلي فقال له مثل قوله الاول فرد عليه أيوب مثل رده الاول وجعل ابليس يصف ماله مالا مالا حتى مر على آخره كلما انتهى الى هلاك مال من امواله حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضي عنه بالقضاء ووطن نفسه بالصبر والبلاء حتى لم يبق له مال فلما رأى ابليس انه قد أفنى ماله ولم ينجع منه بشئ صعد سريعا حتى وقف في الموقف الذي يقف فيه وقال الهي ان أيوب يرى انك ما متعته بولده فأنت معطيه المال فهل أنت مسلطي على ولده فانها المصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال قال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض

عدو الله حتى أتى بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم القصر حتى تداعى من قواعده وجعل جدره يضرب بعضها بعضا يرميهم بالخشب والحجارة فلما مثل بهم كل مثلة رفع القصر وقلبه عليهم وصاروا منكسين وانطلق الى ايوب متمثلا بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه فاخبره وقال لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف انقلبوا منكوسين على رؤسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك عليهم فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق ايوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال باليت أمي لم تلدني فاغتنم ابليس ذلك فصعد سريعا بالذي كان من جزع أيوب مسرورا به ثم لم يلبث أيوب ان فاء وأبصر واستغفر فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته الى الله وهو أعلم فوقف ابليس خاسئا ذليلا وقال الهي انما هون على ايوب المال والولد انه يرى انك ما متعته بنفسه فانت تعيد له المال والولد فهل انت مسلطي على جسده فقال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله وكان الله اعلم به ولم يسلطه عليه الا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به في الصبر ورجاء الثواب فانقض عدو الله ابليس سريعا اليه فوجد ايوب ساجدا فعجل قبل ان يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ في منخريه نفخة اشتعل منها جسده فخرج من قرنه الى قدمه ثآليل مثل البيات الغنم ووقعت فيه حكة فحك باظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحك حتى قرح لحمه وتقطع وتغير وأنتن فاخرجه اهل القرية فجعلوه على كناسة لهم وجعلوا له عريشة ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته وهي رحمة بنت افراثيم بن يوسف بن يعقوب فكانت تختلف اليه بما يصلحه وتلزمه فلما رأى الثلاثة من اصحابه ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير ان يتركوا دينه فلما طال به البلاء انطلق اليه اصحابه فبكتوه ولاموه وقالوا تب الى الله من الذنب الذي عوقبت به قال وحضر معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم الفتى انكم تكلمتم ايها الكهول وأنتم احق بالكلام مني لاسنانكم ولكن تركتم من القول ما هو احسن من الذي قلتم ومن الرأي اصوب من الذي رأيتم ومن الامر اجمل من الذي اتيتم وقد كان لايوب عليكم من الحق والذمام افضل من الذي وصفتم فهل تدرون ايها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم الم تعلموا ان ايوب نبي الله وصفوته وخيرته من اهل الارض الى يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على انه سخط شيأ من امره منذ آتاه الله ما آتاه الى يومكم هذا ولا على انه نزع منه شيأ من الكرامة التي اكرمه الله بها ولا ان ايوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه الى يومكم هذا فان كان البلاء هو الذي ازرى به عندكم ووضعه في انفسكم فقد علمتم ان الله تعالى يبتلي المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لاولئك دليلا على سخطه عليهم ولا هوانهم عليه ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان ايوب ليس من الله بهذه المنزلة الا انه اخ احببتموه على وجه المحبة لكان لا يجمل بالحليم ان يعذل اخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكي ويستغفر له ويحزن لحزنه ويدله على مراشد امره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فاتقوا الله ايها الكهول وقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع السنتكم ويكسر قلوبكم الم تعلموا ان لله عبادا اسكتتهم الخشية من غير عي ولا بكم وانهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الالباء العالمون بالله ولكنهم اذا ذكروا عظمة الله انقطعت السنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم اعظاما لامر الله واجلالا فاذا اشتاقوا من ذلك استبقوا الى الله بالاعمال الزاكية يعدون انفسهم من الظالمين والخاطئين وانهم لأبرار برآء ومع المقصرين المفرطين وانهم لاكياس اقوياء

قال ايوب عليه السلام ان الله يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب الصغير والكبير فاذا نبتت فى القلب يظهرها الله على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن ولا طول التجربة واذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله سبحانه وتعالى عليه نور الكرامة ثم اقبل ايوب على الثلاثة وقال اتيتمونى غضابا رهبتم قبل ان تسترهبوا وبكيتم قبل ان تضربوا كيف بى لو قلت تصدقوا عنى باموالكم لعل الله ان يخلصنى او قربوا عنى قربانا لعل الله ان يقبله ويرضى عنى وانكم قد اعجبتكم انفسكم وظننتم انكم قد عوفيتم باحسانكم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا قد سترها الله تعالى بالعافية التى البسكم وقد كنتم فيما خلا تقرونى وانا مسموع كلامى معروف حقى منتصف من خصمى فأصبحت اليوم وليس لى راى ولا كلام معكم فانتم كنتم اشد على من مصيبتى ثم اعرض عنهم ايوب واقبل على ربه مستغيثا به متضرعا اليه فقال يارب لاى شئ خلقتنى ليتنى اذ كرهتنى لم تخلقنى يالينتى عرفت الذنب الذى اذنبت والعمل الذى عملت فصرفت وجهك الكريم عنى لو كنت امتى فالحقتنى بآبائى فالموت كان اجمل بى الم اكن للغريب دارا وللمسكين قرارا وللبتيم وليا وللارملة قيما الهى انا عبد ذليل ان احسنت فان لك وان اسأت فبيدك عقوبتى جعلتنى للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وقد وقع على من البلاء ما لو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفى وان قضاءك هو الذى اذلنى وأن سلطانك هو الذى اسقمنى وانحل جسمى ولو ان ربى نزع الهيبة التى فى صدرى واطلق لسانى حتى اتكلم بملء فى فأدلى بعذرى واتكلم ببراءتى واخاصم عن نفسى لرجوت ان يعافينى عند ذلك مما بى ولكنه القانى وتعالى عنى فهو يرانى ولا اراه ويسمعنى ولا اسمعه فلما قال ذلك ايوب واصحابه عنده اظله غمام حتى ظن اصحابه انه عذاب ثم نودى يا ايوب ان الله يقول ها انا قد دنوت منك ولم ازل منك قريبا قم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد ازارك وقم مقام جبار يخاصم جبارا ان استطعت فانه لا ينبغى ان يخاصمنى الا جبار مثلى لقد منتك نفسك يا ايوب امرا ما يبلغ مثله مثلك اين انت منى يوم خلقت الارض فوضعتها على اساسها هل كنت معى تدبر اطرافها هل علمت باى مقدار قدرتها ام على اى شئ وضعت اكنافها اطاعتك حمل الماء الارض ام بحكمتك كانت الارض للماء غطاء اين كنت منى يوم رفعت السماء سقفا فى الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها هل يبلغ من حكمتك ان تجرى نورها او تسير نجومها او يختلف بامرك ليلها ونهارها اين كنت منى يوم ابتعت الانهار وسكبت البحار بسلطانك حبست امواج البحار على حدودها ام بقدرتك فتحت الارحام حين بلغت مدتها اين كنت منى يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل تدرى على اى شئ أرسيتها ام باى مثقال وزنتها ام هل لك من ذراع تطيق حملها ام هل تدرى من اين الماء الذى انزلت من السماء ام هل تدرى من اى شئ انشأت السحاب ام هل تدرى اين خزانة الثلج أم اين جبال البرد أم اين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل وأين خزانة الريح وباى لغة تتكلم الاشجار ومن جعل العقول فى اجواف الرجال وشق الاسماع والابصار ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الارزاق بحكمته فى كلام كثير يدل على آثار قدرته ذكرها لايوب فقال أيوب صغر شانى وكل لسانى وعقلى ورأيى وضعفت قوتى عن هذا الامر الذى يعرض على الهى قد علمت ان كل الذى قد ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك واعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت ولا يعجزك شئ ولا تخفى عليك خافية الهى أوثقنى البلاء فتكلمت ولم أملك نفسى فكان البلاء هو الذى أنطقنى ليت الارض انشقت لى فذهبت فيها ولم أتكلم بشئ يسخطك ربى وليتنى مت بغمى فى اشد بلائى قبل ذلك انما تكلمت حين تكلمت بعذرى وسكت حين سكت لترجعنى كلمة زلت منى فلن أعود وقد وضعت يدى على فمى وعضضت على لسانى وألصقت بالتراب خدى أعوذ بك اليوم منك

وأستجير بك من جهد البلاء فأجرني وأستغيث بك من عقابك فاغثني وأستعينك على امري فأعني وأتوكل عليك فاكفني وأعتصم بك فاعصمني وأستغفرك فاغفر لي فان اعود لشئ تكرهه مني قال الله تعالى يا ايوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك ورددت عليك اهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية وتكون عبرة لاهل البلاء وعزا للصابرين فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فنه تناول وقرب عن اصحابك قربانا واستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك روى عن انس يرفعه ان ايوب لبث ببلائه ثماني عشرة سنة وقال وهب ثلاث سنين لم يزد يوما وقال كعب سبع سنين وقال الحسن مكث ايوب مطروحا على كناسة لبني اسرائيل سبع سنين وأشهرا يختلف فيه الدود لا يقربه احد غير رحمة صبرت معه بصدق وكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله معه اذا حمد وايوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على بلائه فصرخ ابليس صرخة جمع فيها جنوده من اقطار الارض فلما اجتمعوا اليه قالوا ما أحزنك قال اعياني هذا العبد الذي لم أدع له مالا ولا ولدا ولم يزدد الا صبرا ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة لا تقربه الا امرأته فاستعنت بكم لتعينوني عليه فقالوا له فاين ملكك الذي أهلكت به من مضى قال بطل ذلك كله في ايوب فاشيروا علي قالوا من أين أتيت آدم حين اخرجته من الجنة قال من قبل امرأته قالوا فشأنك بايوب من قبل امرأته فانه لا يستطيع أن يعصيها وليس يقربه أحد غيرها قال أصبتم فانطلق ابليس حتى أتى رحمة امرأة ايوب وهي تصدق فتمثل لها في صورة رجل وقال لها اين بعلك يا أمة الله قالت هو ذاك يحك قروحه ويتردد الديدان في جسده فلما سمعها طمع ان تكون كلمة جزع فوسوس اليها وذكرها ما كانت فيه من النعم والمال وذكرها جمال ايوب وشبابه وما هو فيه من الضر وان ذلك لا ينقطع عنه أبدا فصرخت فعلم انها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال ليذبح لي هذه أيوب ويبرأ فجاءت تصرخ يا ايوب حتى متى يعذبك ربك أين المال أين الولد أين الصديق أين لونك الحسن أين جسمك الحسن اذبح هذه السخلة واستراح قال ايوب أتاك عدو الله فنفخ فيك ويلك أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والصحة من اعطانيه قالت الله قال كم متعنا به قالت ثمانين سنة قال فمنذ كم ابتلانا قالت منذ سبع سنين وأشهر قال ويلك ما أنصفت ربك الا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفاني الله لاجلدنك مائة جلدة أمرتني ان أذبح لغير الله طعامك وشرابك الذي تأتيني به علي حرام ان أذوق منه شيأ اعزبي دعيني فلا أراك فطردها فذهبت فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر ساجدا لله وقال رب (اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق على جسده من دبره ودائه شئ ظاهر الا سقط وعاد شبابه وجماله أحسن ما كان ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء الا خرج فقام صحيحا وكسي حلة فجعل يلتفت فلا يرى شيأ مما كان عليه وما كان له من أهل ومال الا وقد ضعفه الله له وذكر لنا ان الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب فجعل يضمه بيده فأوحى الله اليه يا ايوب ألم اغنك قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم ان امرأته قالت أرأيت ان كان طردني الى من اكله ادعه يموت جوعا ويضيع فتأكله السباع لارجعن اليه فرجعت اليه فلا الكناسة رأت ولا تلك الحالة التي كانت تعرف واذا الامور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعيني أيوب وهابت صاحب الحلة ان تأتيه فتسأله عن ايوب فدعاها وقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت اردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذا على الكناسة لا ادري أضاع أم ما فعل به فقال ايوب ما كان منك فبكت وقالت بعلي فقال هل تعرفينه اذا رأيته قالت وهل يخفى على احد رآه ثم جعلت تنظر اليه وهي تهابه ثم قالت أما انه اشبه خلق

(اني) اي دعاه بأني (مسني الضر) الضر بالفتح الضرر في كل شئ وبالضم الضرر في النفس من مرض او هزال (وانت ارحم الراحمين) الطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فكانه قال انت اهل ان ترحم وايوب اهل ان يرحم فارحمه وا كشف عنه الضر الذي مسه عن انس رضي الله عنه اخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض الى الصلاة ولم يشتك وكيف يشكو من قيل له انا وجدناه صابرا نعم العبد وقيل انما شكا اليه تاذذا بالنجوى لا منه تضرر ا بالشكوى والشكاية اليه غاية القرب كما ان الشكاية منه غاية البعد

الله بك اذ كان صحيحا قال فانى أنا ايوب الذى أمرتنى ان أذبح سخلة لابليس وانى أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله فردّ على ما ترين وقال وهب لبث أيوب فى البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب ابليس ولم يستطع منه شيأ اعترض امرأته فى هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء فقال لها أنت صاحبة ايوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم قال هل تعرفينى قالت لا قال أنا اله الارض وانا الذى صنعت بصاحبك ما صنعت لانه عبد اله السماء وتركنى فاغضبنى ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليه كل ما كان له كما من مال وولد فانه عندى ثم أراها اياه سطن الوادى الذى لقيها فيه وفى بعض الكتب ان ابليس قال لها اسجدى لى سجدة واحدة حتى أرد على زوجك المال والولد وأعافى زوجك فرجعت الى ايوب فأخبرته بما قال لها وما اراها قال لقد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم ان عافاه الله ليضربنها مائة جلدة وقال عند ذلك مسنى الضر من طمع ابليس فى سجود حرمنى له ودعائه اياها واياى الى الكفر ثم ان الله تعالى رحم رحمة امرأة ايوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها واراد ان يبر يمين ايوب فأمره ان يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغير فيضربها به ضربة واحدة وقيل انما قال مسنى الضر حين قصد الدود الى قلبه ولسانه فخشى ان يفتر عن الذكر والفكر وقيل لم يدع الله بالكشف عنه حتى ظهرت له ثلاثة أشياء احدها ما قيل فى حقه لو كان لك عند الله منزلة ما أصابك هذا والثانى ان امرأته طلبت طعاما فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها فأتته بطعام والثالث قول ابليس انى أداويه على ان يقول انت شفيتنى وقيل مسنى الضراى من شماتة الاعداء حتى روى انه قيل له بعد ما عوفى ما كان أشد عليك فى بلائك قال شماتة الاعداء فان قلت كيف سماه الله صابرا وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله مسنى الضر وقوله مسنى الشيطان بنصب وعذاب قلت ليس هذا شكاية وانما هو دعاء بدليل قوله تعالى فاستجبنا له والشكوى انما تكون الى المخلوق لا الى الخالق بدليل قول يعقوب انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقال سفيان بن عيينة من أظهر الشكوى الى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعا كما روى ان جبريل عليه السلام دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه فقال كيف تجدك قال اجدنى مغموما وأجدنى مكروبا وقال لعائشة حين قالت وارأساه بل أنا وارأساه قوله تعالى (فاستجبنا له) اى أجبنا دعاءه (فكشفنا ما به من ضر) وذلك انه قال له اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فأمره ان يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فأمره ان يضرب برجله الارض مرة أخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد فأمره ان يشرب منها فشرب فذهب كل داء كان بباطنه فصار كما صح ما كان (وآتيناه اهله ومثلهم معهم) قال ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين رد الله اليه اهله واولاده باعيانهم احياهم الله واعطاه مثلهم معهم وهو ظاهر القرآن وعن ابن عباس رواية أخرى ان الله رد الى المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا وقيل كان له سبع بنين وسبع بنات وعن انس يرفعه انه كان له اندران اندر للقمح واندر للشعير فبعث الله سحابتين فأفرغت احداهما على اندر القمح الذهب وافرغت الاخرى على اندر الشعير الورق حتى فاضا وروى ان الله تعالى بعث اليه ملكا وقال له ان ربك يقرئك السلام يصبرك فاخرج الى اندرك فخرج اليه فأرسل الله عليه جرادا من ذهب فذهبت واحدة فاتبعها ورددها الى اندره فقال له الملك ما يكفيك ما فى اندرك فقال هذه بركة من بركات ربى ولا أشبع من بركاته (خ) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما ايوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل ايوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه يا ايوب ألم أكن اغنيتك عما ترى قال بلى يا رب ولكنى لا غنى لى عن بركتك وقيل آتى الله ايوب مثل اهله الذين هلكوا قال عكرمة قيل لايوب ان اهلك فى الآخرة فان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وان شئت كانوا لك فى الآخرة

(فاستجبنا له) اجبنا دعاءه (فكشفنا ما به من ضر) فكشفنا ضره انعاما عليه (وآتيناه اهله ومثلهم معهم) روى ان ايوب عليه السلام كان روميا من ولد اسحق بن ابراهيم عليه السلام وله سبعة بنين وسبع بنات وثلاثة آلاف بعير وسبعة آلاف شاة وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ونخيل فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده وماله وبمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة او ثلاث عشرة سنة او ثلاث سنين وقالت له امرأته يوما لو دعوت الله عز وجل فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال أنا استحى من الله ان ادعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى فلما كشف الله عنه احيا ولده بأعيانهم ورزقه مثلهم معهم

وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال بل يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا فعلى هذا يكون معنى الآية وآتيناه اهله فى الآخرة ومثلهم معهم فى الدنيا واراد بالاهل الاولاد (رحمة من عندنا) اى نعمة (وذكرى للعابدين) اى عظة وعبرة لهم * قوله عز وجل (واسمعيل) هو ابن ابراهيم صلى الله عليهما وسلم (وادريس) هو اخنوخ (وذا الكفل كل من الصابرين) لما ذكر الله امر ايوب وصبره على البلاء اتبعه بذكر هؤلاء الانبياء لانهم صبروا على المحن والشدائد والعبادة ايضا أما اسمعيل صلى الله عليه وسلم فانه صبر على الانقياد الى الذبح واما ادريس فقد تقدمت قصته واما ذو الكفل فاختلفوا فيه فقيل ان نبيا من بنى اسرائيل وكان ملكا أوحى الله اليه انى أريد قبض روحك فأعرض ملكك على بنى اسرائيل فمن تكفل انه يصلى الليل ولا يفتر ويصوم النهار ولا يفطر ويقضى بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك اليه ففعل ذلك فقام شاب فقال أنا اتكفل لك بهذا فتكفل ووفى فشكر الله له ونبأه فسمى ذا الكفل وقيل لما كبر اليسع قال انى أستخلف رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى أنظر كيف يعمل قال فجمع الناس وقال من يتقبل منى ثلاثا أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يقضى ولا يغضب فقام رجل تزدريه العين فقال أنا فرده ذلك اليوم وقال مثلها فى اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال أنا فاستخلفه فأتاه ابليس فى صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام من الليل والنهار الا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال ان بينى وبين قومى خصومة وانهم ظلمونى وغلبونى وفعلوا وفعلوا وجعل يطول عليه حتى ذهبت القائلة فقال اذا رحت فائتنى حتى آخذ حقك فانطلق وراح فكان فى مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يبتغيه فلم يجده فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلم يره فلما رجع الى القائلة وقال وأخذ مضجعه دق الباب فقال من هذا فقال الشيخ المظلوم ففتح له وقال له ألم اقل اذا قعدت فاتنى قال انهم أخبث قوم اذا عرفوا انك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك واذا قمت جحدونى قال فانطلق فاذا جلست فاتنى وفاتته القائلة فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض اهله لا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى انام فانه قد شق على النعاس فلما كان تلك الساعة نام فجاء فلم يأذن له الرجل فلما اعياه نظر فرأى كوة فى البيت فتسور منها فاذا هو فى البيت فدق الباب من داخل فاستيقظ فقال يا فلان الم آمرك قال اما من قبلى فلم تؤت فانظر من أين اتيت فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما اغلقه واذا الرجل معه فى البيت فقال اتنام والخصوم ببابك فنظر اليه فعرفه فقال اعدو الله قال نعم اعييتنى وفعلت ما فعلت لاغضبك فعصمك الله فسمى ذا الكفل لانه تكفل بأمر فوفى به واختلف فى نبوته فقيل كان نبيا وهو الياس وقيل هو زكريا وقيل انه كان عبدا صالحا ولم يكن نبيا (وأدخلناهم فى رحمتنا) يعنى ما أنعم به عليهم من النبوة وصيرهم اليه فى الجنة من الثواب (انهم من الصالحين) * قوله عز وجل (وذا النون) اى واذكر صاحب الحوت أضيف الى الحوت لابتلاعه اياه وهو يونس بن متى (اذ ذهب مغاضبا) قال ابن عباس فى رواية عنه كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى منهم سبطان ونصف فاوحى الله الى شعياء النبى ان سر الى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا فانى القى فى قلوب اولئك حتى يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الانبياء قال يونس انه قوى أمين فدعا الملك يونس وامره ان يخرج فقال يونس هل الله أمرك باخراجى قال لا قال فهل سماك لك قال لا قال فههنا غيرى أنبياء أقوياء فالحوا عليه فخرج مغاضبا للنبى وللملك وقومه واتى بحر الروم فركب وقيل ذهب عن قومه مغاضبا لربه لما كشف عنهم العذاب بعدما أوعدهم وكره ان يكون بين أظهر قوم جربوا عليه الخلف فيما اوعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذى رفع العذاب عنهم به فكان غضبه أنفة من ظهور

(رحمة من عندنا) هو مفعول له (وذكرى للعابدين) يعنى رحمة لايوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كصبره فيثابوا كثوابه (واسمعيل) بن ابراهيم (وادريس) بن شيث بن آدم (وذا الكفل) اى اذكرهم وهو الياس اوزكريا او يوشع بن نون وسمى به لانه ذو الحظ من الله والكفل الحظ (كل من الصابرين) اى هؤلاء المذكورون كلهم موصوفون بالصبر (وادخلناهم فى رحمتنا) نبوتنا او النعمة فى الآخرة (انهم من الصالحين) اى ممن لا يشوب صلاحهم كدر الفساد (وذا النون) اى اذكر صاحب الحوت والنون الحوت فاضيف اليه (اذ ذهب مغاضبا) حال اى مراغما لقومه ومعنى مغاضبته لقومه انه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها روى انه برم بقومه لطول ماذكرهم فلم يتعظوا واقاموا على كفرهم فراغمهم وظن ان ذلك يسوغ حيث لم يفعله الا غضبا لله وبغضا للكفر وأهله وكان عليه ان يصابر وينتظر الاذن من الله تعالى فى المهاجرة عنهم فابتلى ببطن الحوت

(فظن ان لن نقدر) نضيق (عليه) وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه دخل يوما على معاوية فقال لقد ضرب بنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصا الا بك قال وما هى يا معاوية فقرأ الآية فقال او يظن نبى الله ان لا يقدر عليه قال هذا

خلف وعده وانه يسمى كذابا لا كراهية لحكم الله وفى بعض الاخبار انه كان من عادة قومه انهم يقتلون من جربوا عليه الكذب فخشى ان يقتلوه فلم يأتهم العذاب للميعاد فذهب مغاضبا وقال ابن عباس أتى جبريل يونس فقال انطلق الى أهل نينوى فأنذرهم فقال ألتمس دابة قال الامر أعجل من ذلك فغضب وانطلق الى السفينة وقال وهب ان يونس كان عبدا صالحا وكان فى خلقه ضيق فلما حمل اثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربيع تحت الحمل الثقيل فقذفها من يديه وخرج هاربا منها فلذلك أخرجه الله من أولى العزم من الرسل وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل وقال ولا تكن كصاحب الحوت وقوله (فظن ان لن نقدر عليه) اى ان لن نقضى عليه العقوبة قاله ابن عباس فى رواية عنه وقيل معناه فظن ان لن نضيق عليه الحبس وقيل معناه فظن انه يعجز ربه فلا يقدر عليه قيل لما انطلق يونس مغاضبا لربه واستزله الشيطان حتى ظن ان لن يقدر عليه وكان له سلف وعبادة الى الله ان بدعه للشيطان فقذفه فى بطن الحوت فمكث فيه أربعين ما بين يوم وليلة وقيل سبعة أيام وقيل ثلاثة وقيل ان الحوت ذهب به حتى بلغ تخوم الارض السابعة فتاب الى ربه وراجع نفسه فى بطن الحوت (فنادى فى الظلمات) اى ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت (أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) اى حيث عصيتك وما صنعت من شئ فلم اعبد غيرك فأخرجه الله من بطن الحوت برحمته وروى أبو هريرة مرفوعا قال أوحى الله تعالى الى الحوت ان خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فاخذه ثم أهوى به الى مسكنه فى البحر فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ما هذا فاوحى الله اليه هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح هو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بارض غريبة وفى رواية صوتا معروفا من مكان مجهول فقال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له عند ذلك فامر الحوت فقذفه فى الساحل فذلك قوله تعالى (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) اى من تلك الظلمات (وكذلك ننجى المؤمنين) اى من الكروب اذا دعونا واستغاثونا بنا فان قلت قد تمسك بمواضع من هذه القصة من أجاز وقوع الذنب من الانبياء منها قوله اذ ذهب مغاضبا ومنها فظن ان لن نقدر عليه ومنها قوله انى كنت من الظالمين قلت أما الجواب الكلى فقد اختلفوا فى هذه الواقعة هل كانت قبل الرسالة أم لا فقال ابن عباس كانت رسالته بعد ان أخرجه الله من بطن الحوت بدليل قوله تعالى فى الصافات بعد ذكر خروجه وأرسلناه الى مائة ألف او يزيدون فثبت بهذا ان هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد أجاز بعضهم عليهم الصغائر قبل النبوة ومنعها بعد النبوة وهو الصحيح وأما الجواب التفصيلى لقوله اذ ذهب مغاضبا فحمله على انه لقومه او للملك اولى بحال الانبياء وأما قوله فظن ان لن نقدر عليه فقد تقدم معناه اى ان لن نضيق عليه وذلك ان يونس ظن انه مخير ان شاء أقام وان شاء خرج وان الله تعالى لا يضيق عليه فى اختياره وقيل هو من القدر لا من القدرة وأما قوله انى كنت من الظالمين فالظلم وضع الشئ فى غير موضعه وهذا اعتراف عند بعضهم بذنبه فاما ان يكون لخروجه عن قومه بغير اذن ربه او لضعفه عما حمله اولدعائه بالعذاب على قومه وفى هذه الاشياء ترك الافضل مع قدرته على تحصيله فكان ذلك ظلما وقيل كانت رسالته قبل هذه الواقعة بدليل قوله وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فعلى هذا يكون الجواب عن هذه الواقعة ما تقدم من التفصيل والله أعلم * قوله عز وجل (وزكريا اذ نادى ربه) اى دعا ربه فقال (رب لا تذرنى فردا) اى وحيدا لا ولد لى يساعدنى

من القدر لا من القدرة (فنادى فى الظلمات) اى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات او ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت (ان) اى بانه (لا اله الا أنت) او بمعنى اى (سبحانك انى كنت من الظالمين) لنفسى فى خروجى من قومى قبل ان تأذن لى فى الحديث ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه والله الا اقراره على نفسه بالظلم (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) غم الزلة والوحشة والوحدة (وكذلك ننجى المؤمنين) اذا دعونا واستغاثوا بنا نجى شامى وأبو بكر بادغام النون فى الجيم عند البعض لان النون لا تدغم فى الجيم وقيل تقديره ننجى النجاء المؤمنين فسكن الياء تخفيفا واسند الفعل الى المصدر ونصب المؤمنين بالنجاء لكن فيه اقامة المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول وهذا لا يجوز وفيه تسكين الياء وبابه الضرورات وقيل أصله ننجى من التنجية فحذفت النون الثانية لاجتماع النونين كما حذفت احدى التاءين فى تنزل الملائكة (وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا) سأل ربه ان يرزقه ولدا يرثه ولا يدعه وحيدا بلا وارث ثم رد أمره الى الله مستسلما فقال

(وانت خير الوارثين) اى فان لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فانك خير وارث اى باق (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى) ولدا (وأصلحنا له زوجه) جعلناها صالحة للولادة بعد العقار اى بعد عقرها او حسنة وكانت سيئة الخلق (انهم) اى الانبياء المذكورين (كانوا يسارعون فى الخيرات) اى انهم انما استحقوا الاجابة الى طلباتهم لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم فى تحصيلها (ويدعوننا رغبا ورهبا) اى طمعا وخوفا كقوله يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه وهما مصدران فى موضع الحال او المفعول له اى للرغبة فينا والرهبة منا (وكانوا لنا خاشعين) متواضعين خائفين (والتى) اى واذكر التى (أحصنت فرجها) حفظته من الحلال والحرام (فنفخنا فيها من روحنا) أجرينا فيها روح المسيح او أمرنا جبريل ففتح فى جيب درعها فاحدثنا بذلك النفخ عيسى فى بطنها واضافة الروح اليه تعالى لتشريف عيسى عليه السلام (وجعلناها وابنها آية) مفعول ثان (للعالمين) وانما لم يقل آيتين كما قال

وجعلنا الليل والنهار آيتين لان حالهما بمجموعهما آية واحدة وهى ولادتها اياه من غير فحل او التقدير وجعلناها آية وابنها كذلك فآية مفعول المعطوف عليه ويدل عليه قراءة من قرأ آيتين (ان هذه أمتكم أمة واحدة) الامة الملة وهذه اشارة الى ملة الاسلام وهى ملة جميع الانبياء وأمة واحدة حال اى متوحدة غير متفرقة والعامل ما دل عليه اسم الاشارة اى ان ملة الاسلام هى ملتكم التى يجب ان تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار اليها ملة واحدة غير مختلفة (وأنا ربكم فاعبدون) اى ربيتكم اختبارا فاعبدونى شكرا وافتخارا والخطاب للناس كافة (وتقطعوا أمرهم بينهم) أصل الكلام وتقطعتم الا ان الكلام صرف الى الغيبة على طريقة الالتفات والمعنى وجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا وصاروا فرقا وأحزابا ثم توعدهم بان هؤلاء الفرق المختلفة (كل الينا راجعون) فنجازيهم على اعمالهم (فمن يعمل من الصالحات) شيأ (وهو مؤمن) بما يجب الايمان به (فلا كفران لسعيه) اى فان سعيه مشكور مقبول والكفران مثل فى حرمان الثواب كما ان الشكر مثل فى اعطائه وقد نفى نفى الجنس ليكون ابلغ (وانا له) للسعى اى الحافظة بما (كاتبون) فى صحيفة عمله فنثيبه به (وحرام) وحرم كوفى غير حفص وخلف وهما لغتان كحل وحلال وزنا وضده معنى والمراد بالحرام الممتنع وجوده (على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون) والمعنى وممتنع على مهلك غير ممكن ان لا يرجع الى الله بالبعث او وحرام على قرية اهلكناها اى قدرنا اهلاكهم او حكمنا باهلاكهم ذلك وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور وغير المكفور انهم لا يرجعون من الكفر الى الاسلام

وارزقنى وارثا (وأنت خير الوارثين) هو ثناء على الله بانه الباقى بعد فناء الخلق وانه الوارث لهم وهذا على سبيل التمثيل والمجاز فهو كقوله وأنت خير الرازقين (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى) اى ولدا (وأصلحنا له زوجه) اى جعلناها ولودا بعد ما كانت عقيما وقيل كانت سيئة الخلق فاصلحها الله تعالى له بان رزقها حسن الخلق (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات) يعنى الانبياء المذكورين فى هذه السورة وقيل زكريا وأهل بيته والمسارعة فى الخيرات من أكبر ما يمدح به المرء لانها تدل على حرص عظيم فى طاعة الله عز وجل (ويدعوننا رغبا ورهبا) يعنى انهم ضموا الى فعل الطاعات أمرين أحدهما الفزع الى الله لامكان الرغبة فى ثوابه والرهبة من عقابه والثانى الخشوع وهو قوله تعالى (وكانوا لنا خاشعين) الخشوع هو الخوف اللازم للقلب فيكون الخاشع هو الحذر الذى لا ينبسط فى الامور خوفا من الوقوع فى الاثم قوله تعالى (والتى أحصنت فرجها) اى احصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت لم يمسسنى بشر ولم أك بغيا وهى مريم بنت عمران (فنفخنا فيها من روحنا) امرنا جبريل حتى نفخ فى جيب درعها فحملت بذلك النفخ المسيح فى بطنها وأضاف الروح اليه تشريفا لعيسى كبيت الله وناقة الله (وجعلناها وابنها آية) اى دلالة (للعالمين) على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير اب فان قلت هما آيتان فكيف قال آية قلت معنى الكلام وجعلنا شأنهما وامرهما آية واحدة اى ولادتها اياه من غير اب آية قوله تعالى (ان هذه أمتكم) اى ملتكم ودينكم (أمة واحدة) اى دينا واحدا وهو الاسلام فابطل ما سوى الاسلام من الاديان والامة الجماعة التى هى على مقصد واحد وجعلت الشريعة امة لاجتماع أهلها على مقصد واحد (وأنا ربكم فاعبدون) اى لا دين سوى دينى ولا رب لكم غيرى فاعبدونى اى وحدونى (وتقطعوا أمرهم بينهم) اى اختلفوا فى الدين فصاروا فرقا واحزابا حتى لعن بعضهم بعضا وتبرأ بعضهم من بعض (كل الينا راجعون) فنجزيهم باعمالهم (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) اى لا يجحد ولا يبطل سعيه بل يشكر ويثاب عليه (وانا له كاتبون) اى لعمله وحافظون له وقيل الشكر من الله المجازاة والكفران ترك المجازاة * قوله عز وجل (وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون) قال ابن عباس معناه وحرام على أهل قرية أهلكناهم ان يرجعوا بعد الهلاك وقيل معناه وحرام على أهل قرية حكمنا بهلاكهم ان

نقبل

تقبل أعمالهم لانهم لا يتوبون * قوله عز وجل (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج) يريد فتح السد وذلك ان الله يفتحه أخبر عن يأجوج ومأجوج وهما قبيلتان يقال انهما تسعة أعشار بنى آدم (وهم من كل حدب ينسلون) اى يسرعون النزول من الآكام والتلال وفى هذه الكناية وجهان أحدهما ان المراد بهم يأجوج ومأجوج وهو الاصح بدليل ماروى عن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظننا انه فى طائفة النخل فلما رحنا اليه عرف ذلك فينا فقال ماشأنكم قلنا يارسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظننا فى طائفة النخل فقال غير الدجال أخوفنى عليكم ان يخرج وانا فيكم فانا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم انه شاب قطط عينه طافئة كأنى اشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف انه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا ياعباد الله فاثبتوا قلنا يارسول الله ومالبثه فى الارض قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يارسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم قال لا أقدروا له قدره قلنا يارسول الله وما اسراعه فى الارض قال كالغيث استدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر لهم السماء فتمطر والارض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا واسبغه ضروعا وامده خواصر ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بايديهم شئ من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها اخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الا مات ونفسه ينتهى الى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ثم يأتى عيسى عليه السلام الى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح على وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك اذ أوحى الله الى عيسى عليه السلام انى قد أخرجت عبادا لى لا يدان لاحد ان يقاتلهم فحرز عبادى الى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لاحدهم خيرا من مائة دينار لاحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله فيهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه الى الارض فلا يجدون فى الارض موضع شبر الا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله طيرا كاعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الارض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للارض انبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك فى الرسل حتى ان اللقحة من الابل لتكفى الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس فبينما هم كذلك اذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة أخرجه مسلم

* (شرح غريب ألفاظ الحديث) *

(قوله حتى ظننا فى طائفة النخل) اى ناحية النخل وجانبه والطائفة القطعة من الشئ وقوله فخفض فيه ورفع اى خفض صوته ورفعه من شدة ما تكلم به فى أمره وقيل انه خفض من أمره تهويناله ورفع من شدة

(حتى) هى التى يحكى بعدها الكلام والكلام المحكى الجملة من الشرط والجزاء اغنى (اذا) وما فى حيزها (فتحت يأجوج ومأجوج) اى فتح سدهما فحذف المضاف كما حذف المضاف الى قرية فتحت شامى وهما قبيلتان من جنس الانس يقال الناس عشرة اجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج (وهم) راجع الى الناس المسوقين الى المحشر وقيل هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد (من كل حدب) نشز من الارض اى ارتفاع (ينسلون) يسرعون

(واقترب الوعد الحق) اى القيامة وجواب اذا (فاذاهى) وهى اذا المفاجأة وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله اذاهم يقنطون فاذاجاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل فهى شاخصة او اذاهى شاخصة كان سديدا وهى ضمير مبهم يوضحه الابصار ويفسره (شاخصة ٣٠٤ أبصار الذين كفروا) اى مرتفعة الاجفان لاتكاد تطرف من هول ماهم فيه (ياويلنا) متعلق بمحذوف تقديره يقولون ياويلنا ويقولون حال من الذين كفروا (قد كنا فى غفلة من هذا اليوم (بل كنا ظالمين) بوضعنا العبادة فى غير موضعها (انكم وما تعبدون من دون الله) يعنى الاصنام وابليس واعوانه لانهم بطاعتهم له واتباعهم خطواتهم فى حكم عبدتهم (حصب) حطب وقرئ حطب (جهنم أنتم لها واردون) فيها داخلون (لو كان هؤلاء آلهة) كما زعتم (ماوردوها) مادخلوا النار (وكل) اى العابد والمعبود (فيها) فى النار (خالدون لهم) للكفار (فيها زفير) أنين وبكاء وعويل (وهم فيها لايسمعون) شيأ مالانهم صاروا صما وفى السماع نوع أنس فلم يعطوه (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) الخصلة المفضلة فى الحسن تأنيث الاحسن وهى السعادة او البشرى بالثواب او التوفيق للطاعة نزلت جوابا لقول ابن الزبعرى عند تلاوته عليه السلام على صناديد قريش انكم وما تعبدون من دون الله الى قوله خالدون أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة على ان قوله وما تعبدون لايتناولهم لان مالما لايعقل الا انهم اهل عناد فزيد فى البيان (أولئك) يعنى عزيرا والمسيح والملائكة (عنها) عن جهنم (مبعدون) لانهم لم يرضوا بعبادتهم وقيل المراد بقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى جميع المؤمنين لما روى ان عليا رضى الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال انا منهم وابو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد

فتنته والتخويف من أمره (قوله انه شاب قطط) اى جعد الشعر وقوله طائفة اى خارجة عن حدها (قوله انه خارج خلة) اى انه يخرج قصدا وطريقا بين جهتين والتخلل الدخول فى الشئ (قوله فعاث) اى أفسد (قوله اقدروا له قدره) اى قدروا قدر يوم من أيامكم المعهودة وصلوا فيه بقدر اوقاته وقوله فتروح عليهم سارحتهم اى مواشيهم وقوله فيصبحون ممحلين اى مقحطين قد أجدبت أرضهم وغلت أسعارهم (قوله كيعاسيب النحل) جمع يعسوب وهو فحل النحل ورئيسها (قوله فيقطعه جزلتين رمية الغرض) اى قطعتين والغرض الهدف الذى يرمى بالنشاب (قوله بين مهرودتين) رويت بالدال المهملة وبالمعجمة اى شقتين وقيل حلتين وقيل المهرد الصبغ الاصفر بالورس والزعفران (قوله لايدان لاحد بقتالهم) اى لاقدرة ولاقوة لاحد بقتالهم والنغف دود يكون فى أنوف الابل والغنم فرسى جمع فريس وهو القتيل (قوله زهمهم) اى ريحهم المنتنة (قوله كالزلفة) اى كالمرآة وجمعها زلف ويروى بالقاف وأراد به استواءها ونظافتها (قوله تأكل العصابة) اى الجماعة قيل يبلغون أربعين وقحف الرمانة فى الحديث قشرها والرسل بكسر الراء اللبن واللقحة الناقة ذات اللبن والقئام الجماعة من الناس والفخذ دون القبيلة وقوله يتهارجون اى يختلفون والتهارج الاختلاف وأصله القتل * (الوجه الثانى) * فى تفسير قوله تعالى وهم من كل حدب ينسلون قيل جميع الخلائق يخرجون من قبورهم الى موقف الحساب (م) عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال أطلع النبى صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ماتذكرون قالوا نذكر الساعة قال انها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم قوله عز وجل (واقترب الوعد الحق) اى القيامة قال حذيفة لو أن رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة الفلو المهر (فاذاهى شاخصة ابصار الذين كفروا) قيل معنى الآية ان القيامة اذا قامت شخصت أبصار الذين كفروا من شدة الاهوال ولاتكاد تطرف من هول ذلك اليوم ويقولون (ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا) يعنى فى الدنيا حيث كذبنا به وقلنا انه غير كائن (بل كنا ظالمين) اى فى وضعنا العبادة فى غير موضعها قوله عز وجل (انكم) الخطاب للمشركين (وما تعبدون من دون الله) يعنى الاصنام (حصب جهنم) اى حطبها ووقودها وقيل يرمى بهم فى النار كما يرمى بالحصباء وأصل الحصب الرمى (أنتم لها واردون) اى فيها داخلون (لو كان هؤلاء) يعنى الاصنام (آلهة) اى على الحقيقة (ماوردوها) اى مادخل الاصنام النار وعابدوها (وكل فيها خالدون) يعنى العابدين والمعبودين (لهم فيها زفير) قيل الزفير هو ان يملأ الرجل صدره غما ثم يتنفس وقيل هو شدة ماينالهم من العذاب (وهم فيها لايسمعون) قال ابن مسعود فى هذه الآية اذا بقى فى النار من يخلد فيها جعلوا فى توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت فى توابيت أخر ثم تلك التوابيت فى توابيت أخر عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيأ ولا يرى احدهم ان فى النار احدا يعذب غيره قوله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال العلماء ان هنا بمعنى الا أى الا الذين سبقت لهم منا الحسنى يعنى السعادة والعدة الجميلة بالجنة (أولئك عنها) اى عن النار (مبعدون)

وعبد الرحمن بن عوف وقال الجنيد رحمه الله سبقت لهم منا العناية فى البداية فظهرت لهم الولاية فى النهاية (لا يسمعون حسيسها) صوتها الذى يحس وحركة تلهبها وهذه مبالغة فى الابعاد عنها اى لا يقربونها حتى لا يسمعوا صوتها وصوت من فيها (وهم فيما اشتهت أنفسهم) من النعيم (خالدون) مقيمون والشهوة طلب النفس اللذة (لا يحزنهم الفزع الاكبر) النفخة الاخيرة (وتتلقاهم الملائكة) اى تستقبلهم الملائكة مهنئين على أبواب الجنة يقولون (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) اى هذا وقت ثوابكم الذى وعدكم ربكم فى الدنيا العامل فى (يوم نطوى السماء) لا يحزنهم او تتلقاهم تطوى السماء يوم نطويها تكوير ٣٠٥ نجومها او محو رسومها او هو ضد النشر نجمعها ونطويها (كطى السجل) اى الصحيفة (للكتب) حمزة وعلى وحفص اى للمكتوبات اى لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة وغيرهم للكتاب اى كما يطوى الطومار للكتابة اى لما يكتب فيه لان الكتاب اصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب وقيل السجل ملك يطوى كتب بنى آدم اذا رفعت اليه وقيل كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها والطى مضاف الى الفاعل وعلى الاول الى المفعول (كما بدأنا اول خلق نعيده) انتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نعيده وما موصولة اى نعيده مثل الذى بدأناه نعيده واول خلق ظرف لبدأنا اى اول ما خلق او حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت فى المعنى

قيل الآية عامة فى كل من سبقت له من الله السعادة وقال اكثر المفسرين عنى بذلك كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليه انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآيات الثلاث ثم قام فأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن الزبعرى أما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى أنت قلت انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال نعم قال أليست اليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح يعبدون الملائكة فقال النبى صلى الله عليه وسلم بل هم يعبدون الشيطان فأنزل الله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى يعنى عزيرا والمسيح والملائكة اولئك عنها مبعدون وأنزل فى ابن الزبعرى ماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون وزعم جماعة ان المراد من الآية الاولى الاصنام لان الله تعالى قال انكم وما تعبدون من دون الله ولو أراد به الملائكة والناس لقال انكم ومن تعبدون لان من لمن يعقل ومما لا يعقل (لا يسمعون حسيسها) يعنى صوتها وحركة تلهبها اذا نزلوا منازلهم فى الجنة (وهم فيما اشتهت أنفسهم) اى من النعيم والكرامة (خالدون) اى مقيمون قوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الاكبر) قال ابن عباس يعنى النفخة الاخيرة وقيل هو حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود بلا موت وقيل هو حين يطبق على جهنم وذلك بعد ان يخرج الله منها من يريد ان يخرجه (وتتلقاهم الملائكة) اى تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) اى فى الدنيا قوله عز وجل (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب) قال ابن عباس السجل الصحيفة والمعنى كطى الصحيفة على مكتوبها والطى هو الدرج الذى هو ضد النشر وقيل السجل اسم ملك يكتب اعمال العباد اذا رفعت اليه والمعنى نطوى السماء كما يطوى السجل الطومار الذى يكتب فيه والتقدير لا يحزنهم الفزع الاكبر فى ذلك اليوم (كما بدأنا أول خلق نعيده) اى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم عراة غرلا كذلك نعيدهم يوم القيامة (ق) عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال ايها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا اول خلق نعيده (قوله غرلا) اى قلفا وقوله تعالى (وعدا علينا انا كنا فاعلين) يعنى الاعادة والبعث بعد الموت قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) قيل الزبور جميع الكتب المنزلة على الانبياء والذكر هو أم الكتاب الذى عنده ومن ذلك الكتاب تنسخ جميع الكتب ومعنى من بعد الذكر اى بعد ما كتب فى اللوح المحفوظ وقال ابن عباس الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة وقيل الزبور كتاب داود والذكر هو القرآن وبعده هنا بمعنى قبل (أن الارض

واول الخلق ايجاده اى فكما اوجده اولا يعيده ثانيا تشبيها للاعادة بالابداء فى تناول القدرة لهما على السواء والتنكير فى خلق مثله فى قولك هو اول رجل جاءنى تريد اول الرجال ولكنك وحدته ونكرته ارادة تفصيلهم رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق اول الخلق بمعنى اول الخلائق لان الخلق مصدر لا يجمع (وعدا) مصدر مؤكد لان قوله نعيده وعد للاعادة (علينا) اى وعدا كائنا لا محالة (انا كنا فاعلين) ذلك اى محققين هذا الوعد فاستعدوا له وقدموا صالح الاعمال للخلاص من هذه الاهوال (ولقد كتبنا فى الزبور) كتاب داود عليه السلام (من بعد الذكر) التوراة (ان الارض) اى الشام

(يرثها عبادى) ساكنة الباء حمزة غيره بفتح الباء (الصالحون) اى أمة محمد عليه السلام اوالزبور بمعنى المزبور اى المكتوب يعنى ما انزل على الانبياء من الكتب والذكر أم الكتاب يعنى اللوح لان الكل اخذوا منه دليله قراءة حمزة وخلف بضم الزاى على جمع الزبر بمعنى المزبور والارض ارض الجنة (ان فى هذا) اى القرآن اوفى المذكور فى هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ (لبلاغا) لكفاية واصله ما يبلغ به البغية (لقوم عابدين) موحدين وهم أمة محمد عليه السلام (وما ارسلناك الا رحمة) قال عليه السلام انما انا رحمة مهداة (للعالمين) لانه جاء بما يسعدهم ان اتبعوه ومن لم يتبع فانما اتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها وقيل هو رحمة للمؤمنين فى الدارين وللكافرين فى الدنيا بتأخير

عذاب الاستئصال والمسخ والخسف ورحمة مفعول له اوحال اى ذا رحمة

(قل انما) انما لقصر الحكم على شئ اولقصر الشئ على حكم نحو انما زيد قائم وانما يقوم زيد وفاعل (يوحى الى أنما الهكم اله واحد) والتقدير يوحى الى وحدانية الهى ويجوز ان يكون المعنى ان الذى يوحى الى فتكون ما موصولة (فهل انتم مسلمون) استفهام بمعنى الامر اى اسلموا (فان تولوا) عن الاسلام (فقل آذنتكم) اعلمتكم ما أمرت به (على سواء) حال اى مستوين فى الاعلام به ولم اخصص بعضكم وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية (وان ادرى اقريب أم بعيد ما توعدون) اى لا ادرى متى يكون يوم القيامة لان الله تعالى لم

برثها عبادى الصالحون) يعنى ارض الجنة يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى ان الله تعالى كتب فى اللوح المحفوظ فى كتب الانبياء ان الجنة يرثها من كان صالحا من عباده عاملا بطاعته وقال ابن عباس ارادان اراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى باظهار الدين واعزاز المسلمين وقيل أراد الارض المقدسة يرثها الصالحون بعد من كان فيها (ان فى هذا) اى فى القرآن (لبلاغا) اى وصولا الى البغية يعنى من اتبع القرآن وعمل بما فيه وصل الى ما يرجو من الثواب وقيل البلاغ الكفاية اى فيه كفاية لما فيه من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة فهو زاد العباد الى الجنة وهو قوله تعالى (لقوم عابدين) اى مؤمنين لا يعبدون أحدا من دون الله تعالى وقيل هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم اهل الصلوات الخمس وشهر رمضان والحج وقال ابن عباس عالمين وقيل هم العاملون العاملون به قوله عز وجل (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) قيل كان الناس اهل كفر وجاهلية وضلال واهل الكتابين كانوا فى حيرة من امر دينهم لطول مدتهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف فى كتبهم فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حين لم يكن لطالب الحق سبيل الى الفوز والثواب فدعاهم الى الحق وبين لهم سبيل الصواب وشرع لهم الاحكام وبين الحلال من الحرام قال الله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين قيل يعنى المؤمنين خاصة فهو رحمة لهم وقال ابن عباس هو عام فى حق من آمن ومن لم يؤمن فمن آمن فهو رحمة له فى الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن فهو رحمة له فى الدنيا بتأخير العذاب عنه ورفع المسخ والخسف والاستئصال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنا رحمة مهداة (قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون) اى منقادون لما يوحى الى من اخلاص الالهية والتوحيد لله والمراد بهذا الاستفهام الامر اى اسلموا (فان تولوا) اى أعرضوا ولم يسلموا (فقل آذنتكم) اى اعلمتكم بالحرب وان لا صلح بيننا (على سواء) اى انذارا بينا نستوى فى علمه لا استبد أنا به دونكم لتتأهبوا لما يراد بكم والمعنى آذنتكم على وجه نستوى نحن وأنتم فى العلم به وقيل معناه لتستووا فى الايمان به واعلمتكم بما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره (وان أدرى) اى وما اعلم (أقريب ام بعيد ما توعدون) يعنى يوم القيامة لا يعلمه الا الله (انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) اى لا يغيب عن علمه شئ منكم فى علانيتكم وسركم (وان أدرى لعله فتنة لكم) اى لعل تأخير العذاب عنكم اختبار لكم ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم بكم (ومتاع الى حين) اى تمتعون الى انقضاء آجالكم (قل رب احكم) اى افصل بينى وبين من كذبنى (بالحق) اى بالعذاب كانه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر وقيل معناه افصل بينى وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو ان تنصرنى عليهم والله يحكم بالحق طلب اولم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون)

يطلعنى عليه ولكنى اعلم بأنه كائن لا محالة اولا ادرى متى يحل بكم العذاب ان لم تؤمنوا (انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) اى انه عالم بكل شئ يعلم ما تجهر وتنبى به من الطعن فى الاسلام وما تكتمونه فى صدوركم من الاحقاد للمسلمين وهو مجازيكم عليه (وان ادرى لعله فتنة لكم) وما ادرى لعل تأخير العذاب عنكم فى الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون (ومتاع الى حين) وتمتيع لكم الى الموت ليكون ذلك حجة عليكم (قل رب احكم بالحق) اقض بيننا وبين اهل مكة بالعدل او بما يحق عليهم من العذاب ولا تحابهم وشدد عليهم كما قال واشدد وطأتك على مضر قال رب حفص على حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم رب احكم بزيد بنى احكم زيد عن يعقوب (وربنا الرحمن) العاطف على خلقه (المستعان) المطلوب منه المعونة (على ما تصفون)

ومن ابن ذكوان بالياء كانوا يصفون الحال على خلاف ماجرت عليه وكانوا يطمعون ان تكون الشوكة لهم والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخذلهم اى الكفار وهو المستعان على ما يصفون *(سورة الحج)*

مكية وهى ثمان وسبعون آية (بسم الله الرحمن الرحيم) (يا أيها الناس اتقوا ربكم) امر بنى آدم بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة بقوله (ان زلزلة الساعة شئ عظيم) لينظروا الى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم حتى يتقوا على انفسهم ويرجوها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما امرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى الذى يؤمنهم من تلك الافزاع والزلزلة شدة التحريك والازعاج واضافة الزلزلة الى الساعة اضافة المصدر الى فاعله كانها هى التى تزلزل الارض على المجاز الحكمى او الى الظرف لانها تكون فيها كقوله بل مكر الليل والنهار ووقتها يكون يوم القيامة او عند طلوع الشمس من مغربها ولا حجة فيها للمعتزلة فى تسمية المعدوم شيأ فان هذا اسم لها حال وجودها وانتصاب (يوم ترونها) اى الزلزلة او الساعة بقوله (تذهل) تغفل والذهول الغفلة (كل مرضعة عما أرضعت) عن ارضاعها او عن الذى ارضعته وهو الطفل وقيل مرضعة لبدل على ان ذلك الهول اذا حدث وقد القمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة اذ المرضعة هى التى فى حال الارضاع ملقمة ثديها الصبى والمرضع التى شأنها ان ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وصفها به (وتضع كل ذات حمل) اى حبلى (حملها) ولدها قبل تمامه عن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها الغير فطام وتضع الحامل ما فى بطنها الغير تمام فعلى هذا القول تكون الزلزلة فى الدنيا لان بعد البعث لا يكون حبل ومن قال تكون الزلزلة فى القيامة قال هذا على وجه تعظيم الامر وتهويله لا على حقيقته كما تقول اصابنا امر يشيب فيه الوليد تريد به شدته (وترى الناس سكارى) على التشبيه (وماهم بسكارى) على التحقيق ولكن مارهقهم من خوف عذاب الله هو الذى اذهب عقولهم وازال تمييزهم وقيل سكارى من الخوف وماهم بسكارى من الشراب (ولكن عذاب الله شديد) (ق) عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك زاد فى رواية والخير فى يديك فينادى بصوت ان الله تعالى يأمرك ان تخرج من ذريتك بعث النار قال رب وما بعث النار قال من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم زاد فى رواية قالوا يا رسول الله أينا ذلك الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم انتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الابيض او كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الاسود وفى رواية كالرقمة فى ذراع الحمار وانى لأرجو ان تكونوا ربع اهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث اهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر اهل الجنة فكبرنا لفظ البخارى وفى حديث عمران بن حصين وغيره ان هاتين الآيتين نزلتا فى غزوة بنى المصطلق ليلا فنادى رسول الله

اى من الشرك والكفر والكذب والاباطيل كانه سبحانه وتعالى قال قل داعيا الى رب احكم بالحق وقل متوعدا للكفار وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون والله اعلم بمراده واسرار كتابه

(تفسير سورة الحج)

وهى مكية غير ست آيات من قوله عز وجل هذان خصمان الى قوله وهدوا الى صراط الحميد وهى ثمان وسبعون آية وألف ومائتان واحدى وتسعون كلمة وخمسة آلاف وخمسة وسبعون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

*قوله عز وجل (يا أيها الناس اتقوا ربكم) اى احذروا عقابه واعملوا بطاعته (ان زلزلة الساعة شئ عظيم) الزلزلة شدة الحركة على الحال الهائلة ووصفها بالعظم ولا شئ اعظم مما عظمه الله تعالى قيل هى من اشراط الساعة قبل قيامها وقال ابن عباس زلزلة الساعة قيامها فتكون معها (يوم ترونها) اى الساعة وقيل الزلزلة (تذهل) قال ابن عباس تشغل وقيل تنسى (كل مرضعة عما ارضعت) اى كل امرأة معها ولد ترضعه (وتضع كل ذات حمل حملها) اى تسقط من هول ذلك اليوم كل حامل حملها قال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها الغير فطام وتضع الحامل ما فى بطنها الغير تمام فعلى هذا القول تكون الزلزلة فى الدنيا لان بعد البعث لا يكون حبل ومن قال تكون الزلزلة فى القيامة قال هذا على وجه تعظيم الامر وتهويله لا على حقيقته كما تقول اصابنا امر يشيب فيه الوليد تريد به شدته (وترى الناس سكارى) على التشبيه (وماهم بسكارى) على التحقيق ولكن مارهقهم من خوف عذاب الله هو الذى اذهب عقولهم وازال تمييزهم وقيل سكارى من الخوف وماهم بسكارى من الشراب (ولكن عذاب الله شديد) (ق) عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك زاد فى رواية والخير فى يديك فينادى بصوت ان الله تعالى يأمرك ان تخرج من ذريتك بعث النار قال رب وما بعث النار قال من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم زاد فى رواية قالوا يا رسول الله أينا ذلك الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم انتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الابيض او كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الاسود وفى رواية كالرقمة فى ذراع الحمار وانى لأرجو ان تكونوا ربع اهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث اهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر اهل الجنة فكبرنا لفظ البخارى وفى حديث عمران بن حصين وغيره ان هاتين الآيتين نزلتا فى غزوة بنى المصطلق ليلا فنادى رسول الله

فقراهما النبي عليه السلام فلم يرا كثر باكيا من تلك الليلة (ومن الناس من يجادل في الله) في دين الله (بغير علم) حال نزلت في النضر بن الحرث وكان جدلا يقول الملائكة بنات الله والقرآن اساطير الاولين والله غير قادر على احيائه من بلى او هي عامة في كل من يخاصم في الدين بالهوى (ويتبع) في ذلك (كل شيطان مريد) عات مستمر في الشر ولا وقف على مريد لان ما بعده صفته (كتب عليه) قضي على الشيطان (انه) ان الامر والشأن ٣٠٨ وهو فاعل كتب (من تولاه) تبعه اي تبع الشيطان (فأنه) فان الشيطان (يضله) عن

صلى الله عليه وسلم فحثوا الحصى حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة فلما اصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا والناس من بين باك وجالس حزين متفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اي يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعث النار وذكر نحو حديث ابي سعيد وزاد فيه ثم قال يدخل من امتي سبعون الفا الجنة بغير حساب فقال عمر سبعون الفا قال نعم ومع كل واحد سبعون الفا * قوله عز وجل (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) نزلت في النضر بن الحرث كان كثير الجدل وكان يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الاولين وكان ينكر البعث واحياء من صار ترابا (ويتبع) اي في جداله في الله بغير علم (كل شيطان مريد) اي المتمرد المستمر في الشر وفيه وجهان احدهما انهم شياطين الانس وهم رؤساء الكفر الذين يدعون من دونهم الى الكفر والثاني انه ابليس وجنوده (كتب عليه) اي قضي على الشيطان (انه من تولاه) اي اتبعه (فأنه) يعني الشيطان (يضله) اي يضل من تولاه عن طريق الجنة (ويهديه الى عذاب السعير) وفي الآية زجر عن اتباعه والمعنى كتب عليه انه من يقبل منه فهو في ضلال ثم الزم الحجة منكري البعث فقال (يا أيها الناس ان كنتم في ريب) اي شك (من البعث) اي بعد الموت (فانا خلقناكم من تراب) يعني أباكم آدم الذي هو أصل النسل (ثم من نطفة) يعني ذريته من المني وأصلها الماء القليل (ثم من علقة) اي من دم جامد غليظ وذلك ان النطفة تصير دما غليظا (ثم من مضغة) وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ (مخلقة وغير مخلقة) قال ابن عباس اي تامة الخلق وغير تامة الخلق وقيل مصورة وغير مصورة وهو السقط وقيل المخلقة الولد الذي تأتي به المرأة لوقته وغير المخلقة السقط فكأنه سبحانه وتعالى قسم المضغة الى قسمين أحدهما تام الصورة والحواس والتخطيط والقسم الثاني هو الناقص عن هذه الاحوال كلها وروى عن علقمة عن ابن مسعود موقوفا عليه قال ان النطفة اذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه وقال اي رب مخلقة او غير مخلقة فان قال غير مخلقة قذفها في الرحم دما ولم تكن نسمة وان قال مخلقة قال الملك اي رب أذكر ام انثى أشقي ام سعيد ما الاجل ما العمل ما الرزق باي أرض يموت فيقال له اذهب الى ام الكتاب فانك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها في أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته والذي أخرجاه في الصحيحين عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق احدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه واجله وعمله وشقي او سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذي لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها وقوله تعالى (لنبين لكم) اي كمال قدرتنا وحكمتنا في تصريف خلقكم ولتستدلوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الاعادة وقيل لنبين لكم ما تأتون وما

سواء السبيل (ويهديه الى عذاب السعير) النار قال الزجاج الفاء في فأنه للعطف وان من مكررة للتأكيد وورد عليه ابو علي وقال ان من ان كان للشرط فالفاء دخل لجزاء الشرط وان كان بمعنى الذي فالفاء دخل على خبر المبتدا والتقدير فالامر انه يضله قال والعطف والتأكيد يكون بعد تمام الاول والمعنى كتب على الشيطان اضلال من تولاه وهدايته الى النار ثم الزم الحجة على منكري البعث فقال (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث) يعني ان ارتبتم في البعث فزيل ريبكم ان تنظروا في بدء خلقكم وقد كنتم في الابتداء ترابا وماء وليس سبب انكاركم البعث الا هذا وهو صيرورة الخلق ترابا وماء (فانا خلقناكم) اي أباكم (من تراب ثم) خلقتم (من نطفة ثم من علقة) اي قطعة دم جامدة (ثم من مضغة) اي لحمة

صغيرة قدر ما يمضغ (مخلقة وغير مخلقة) المخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب كان الله عز وجل تذرون

يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم وانما نقلناكم من حال الى حال ومن خلقة الى خلقة (لنبين لكم) بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا وان من قدر على خلق البشر من تراب اولا ثم نطفة ثانيا ولا مناسبة بين التراب والماء وقدر ان يجعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما قدر على اعادة ما بدأه

(ونقر) بالرفع عند غير المفضل مستأنف بعد وقف اى نحن نثبت (فى الارحام مانشاء) ثبوته (الى أجل مسمى) اى وقت الولادة ومالم نشأ ثبوته اسقطته الارحام (ثم نخرجكم) من الرحم (طفلا) حال وأريد به الجنس فلذا لم يجمع او أريد به ثم نخرج كل واحد منكم طفلا (ثم لتبلغوا) ثم نربيكم لتبلغوا (أشدكم) كمال عقلكم وقوتكم وهو من ألفاظ الجموع التى لا يستعمل لها واحد (ومنكم من يتوفى) عند بلوغ الاشد او قبله او بعده (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أخسه يعنى الهرم والخرف (لكيلا يعلم من بعد علم شيأ) اى لكيلا يعلم شيأ من بعد ما كان يعلمه اولكيلا يستفيد علما وينسى ما كان عالما به ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال (وترى الارض هامدة) ميتة يابسة (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت) تحركت بالنبات (وربت) وانتفخت ورأت حيث كان ٣٠٩ يزيد ارتفعت (وأنبتت من كل

تدرون وما تحتاجون اليه فى العبادة وقيل لنبين لكم ان تغيير المضغة الى الخلقة هو اختيار الفاعل المختار فان القادر على هذه الاشياء كيف يكون عاجزا عن الاعادة (ونقر فى الارحام مانشاء) اى لا تسقطه ولا تمجه (الى أجل مسمى) اى وقت خروجه من الرحم تام الخلق (ثم نخرجكم) اى وقت الولادة من بطون امهاتكم (طفلا) اى صغارا وانما وحد الطفل لان الغرض الدلالة على الجنس (ثم لتبلغوا أشدكم) اى كمال القوة والعقل والتمييز (ومنكم من يتوفى) اى قبل بلوغ الكبر (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) اى الهرم والخرف (لكيلا يعلم من بعد علم شيأ) اى يبلغ من السن ما يتغير به عقله فلا يعقل شيأ فيصير كما كان فى أول طفوليته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال تعالى (وترى الارض هامدة) اى يابسة لا نبات فيها (فاذا أنزلنا عليها الماء) يعنى المطر (اهتزت) اى تحركت بالنبات (وربت) اى ارتفعت وذلك ان الارض ترتفع بالنبات (وانبتت) هو مجاز لان الله تعالى هو المنبت وأضيف الى الارض توسعا (من كل زوج بهيج) اى من كل صنف حسن نضير والبهيج هو المبهج وهو الشئ المشرق الجميل ثم ان الله تعالى لما ذكر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب فقال تعالى (ذلك) اى ذكرنا ذلك لتعلموا (بان الله هو الحق) وان هذه الاشياء دالة على وجود الصانع (وانه يحيى الموتى) اى انه اذا لم يستبعد منه ايجاد هذه الاشياء فكيف يستبعد منه اعادة الاموات (وانه على كل شئ قدير) اى من كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات (وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور) اى ما ذكر من الدلائل لتعلموا ان الساعة كائنة لا شك فيها وانها حق وان البعث بعد الموت حق قوله تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) يعنى النضر بن الحرث (ولا هدى) اى ليس معه من الله بيان ولا رشاد (ولا كتاب منير) اى ولا كتاب من الله له نور (ثانى عطفه) اى لاوى جنبه وعنقه متبخترا تكبرا معرضا عما يدعى اليه من الحق تكبرا (ليضل عن سبيل الله) اى عن دين الله (له فى الدنيا خزى) اى عذاب وهو ان وهو انه قتل يوم بدر صبرا هو وعقبة بن أبى معيط (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك) اى يقال له ذلك (بما قدمت يداك وان الله ليس بظلام للعبيد) اى فيعذبهم بغير ذنب والله تعالى على اى وجه اراد يتصرف فى عبده فحكمه عدل وهو غير ظالم * قوله عز وجل (ومن الناس من يعبد الله على حرف) الآية نزلت فى قوم من الاعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم اذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهرا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيرا واطمأن له وان أصابه مرض وولدت امرأته جارية ولم تلد فرسه

زوج) صنف (بهيج) حسن سار للناظرين اليه (ذلك) مبتدا خبره (بان الله هو الحق) اى ذلك الذى ذكرنا من خلق بنى آدم واحياء الارض مع مافى تضاعيف ذلك من أصناف الحكم حاصل بهذا وهو ان الله هو الحق اى الثابت الوجود (وانه يحيى الموتى) كما أحيا الارض (وانه على كل شئ قدير) قادر (وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور) اى انه حكيم لا يخلف الميعاد وقد وعد الساعة والبعث فلا بد ان يفى بما وعد (ومن الناس من يجادل فى الله) فى صفاته فيصفه بغير ما هو له نزلت فى أبى جهل (بغير علم) ضرورى (ولا هدى) اى استدلال لانه يهدى الى المعرفة (ولا كتاب

منير) اى وحى والعلم للانسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة (ثانى عطفه) حال اى لاويا عنقه عن طاعة الله كبرا وخيلاء وعن الحسن ثانى عطفه بفتح العين اى مانع تعطفه الى غيره (ليضل) تعليل للمجادلة ليضل مكى وأبو عمرو (عن سبيل الله) دينه (له فى الدنيا خزى) اى القتل يوم بدر (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) اى جمع له عذاب الدارين (ذلك بما قدمت يداك) اى السبب فى عذاب الدارين هو ما قدمت نفسه من الكفر والتكذيب وكنى عنها باليد لان اليد آلة الكسب (وان الله ليس بظلام للعبيد) فلا يأخذ أحدا بغير ذنب ولا بذنب غيره وهو عطف على بما اى وبان الله وذكر الظلام بلفظ المبالغة لاقترانه بلفظ الجمع وهو العبيد ولان قليل الظلم منه مع علمه بقبحه واستغنائه كالكثير منا (ومن الناس من يعبد الله على حرف) على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة وهو حال اى مضطربا

(فان أصابه خير) صحة فى جسمه وسعة فى معيشته (اطمأن) سكن واستقر (به) بالخير الذى أصابه او بالدين فعبد الله (وان أصابته فتنة) شر وبلاء فى جسده وضيق فى معيشته (انقلب على وجهه) جهته اى ارتد ورجع الى الكفر كالذى يكون على طرف من العسكر فان احس بظفر وغنيمة قر واطمأن والا فر وطار على وجهه قالوا نزلت فى أعاريب قدموا المدينة مهاجرين وكان احدهم اذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سويا وولدت امرأته غلاما سويا وكثر ماله وماشيته قال ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا الا خيرا واطمأن وان كان الامر بخلافه قال ما أصبت الا شرا ٣١٠ وانقلب عن دينه (خسر الدنيا والآخرة) حال وقد مقدرة دليله قراءة روح بن زنباع

خاسر الدنيا والآخرة والخسران فى الدنيا بالقتل فيها وفى الآخرة بالخلود فى النار (ذلك) اى خسران الدارين (هو الخسران المبين) الظاهر الذى لا يخفى على أحد (يدعو امن دون الله) يعنى الصنم فانه بعد الردة يفعل كذلك (مالا يضره) ان لم يعبده (ومالا ينفعه) ان عبده (ذلك هو الضلال البعيد) عن الصواب (يدعو المن ضره أقرب من نفعه) والاشكال انه تعالى نفى الضر والنفع على الاصنام قبل هذه الآية واثبتها لها هاهنا والجواب ان المعنى اذا فهم ذهب هذا الوهم وذلك ان الله تعالى سفه الكافر بانه يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد فيه انه ينفعه ثم قال يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالاصنام ولا يرى لها أثر الشفاعة

وقل ماله قال ما أصبت منذ دخلت فى هذا الدين الا شرا فينقلب عن دينه وذلك هو الفتنة فانزل الله تعالى ومن الناس من يعبد الله على حرف اى على شك وأصله من حرف الشئ وهو طرفه نحو حرف الجبل والحائط الذى غير مستقر فقيل للشاك فى الدين انه يعبد الله على حرف لانه لم يدخل فيه على الثبات والتمكن وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكينة وطمأنينة ولو عبدوا الله بالشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف وقيل هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه (فان أصابه خير) اى صحة فى جسمه وسعة فى معيشته (اطمأن به) اى رضى به وسكن اليه (وان أصابته فتنة) اى بلاء فى جسمه وضيق فى معيشته (انقلب على وجهه) اى ارتد ورجع على عقبه الى الوجه الذى كان عليه من الكفر (خسر الدنيا والآخرة) اى خسر فى الدنيا العز والكرامة ولا يبقى دمه وماله مصونا وقيل خسر فى الدنيا ما كان يؤمل والآخرة بذهاب الدين والخلود فى النار (ذلك هو الخسران المبين) اى الظاهر (يدعو امن دون الله مالا يضره) ان عصاه ولم يعبده (ومالا ينفعه) اى ان أطاعه وعبده (ذلك هو الضلال البعيد) اى عن الحق والرشد (يدعو المن ضره أقرب من نفعه) فان قلت قد قال الله تعالى فى الآية الاولى يدعو امن دون الله مالا يضره ومالا ينفعه وقال فى هذه الآية يدعو المن ضره أقرب من نفعه وهذا تناقض فكيف الجمع بينهما قلت اذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك ان الله تعالى قال فى الآية الاولى مالا يضره اى لا يضره ترك عبادته وقوله لمن ضره اى ضر عبادته وقيل انها لا تضر ولا تنفع بانفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفى فى اضافة الضرر اليها وقيل ان الله تعالى سفه الكافر حيث عبد جمادا لا يضر ولا ينفع وهو يعتقد بجهله وضلاله انه ينتفع به حين يستشفع وقيل الآية فى الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون اليهم لانه يصح منهم ان يضروا وينفعوا وحجة هذا القول ان الله تعالى بين فى الآية الاولى ان الاوثان لا تضر ولا تنفع وهذه الآية تقتضى كون المذكور فيها ضارا نافعا فلو كان المذكور فى هذه الاوثان لزم التناقض فثبت انهم الرؤساء بدليل قوله (لبئس المولى ولبئس العشير) اى الناصر والمصاحب المعاشر * قوله عز وجل (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد) اى باوليائه وأهل طاعته من الكرامة وباهل معصيته من الهوان قوله تعالى (من كان يظن ان لن ينصره الله) يعنى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم (فى الدنيا) اى باعلاء كلمته واظهار دينه (والآخرة) اى وفى الآخرة باعلاء درجته والانتقام ممن كذبه (فليمدد بسبب) اى بحبل (الى السماء) اى سقف البيت على قول الاكثرين والمعنى ليشد حبلا فى سقف بيته فليختنق به حتى يموت (ثم ليقطع) اى الحبل بعد الاختناق وقيل ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقا (فلينظر هل يذهبن كيده) اى صنيعه وحيلته (ما يغيظ) اى فليختنق غيظا وليس هذا على سبيل الحتم لانه لا يمكنه

لمن ضره أقرب من نفعه (لبئس المولى) اى الناصر الصاحب (ولبئس العشير) المصاحب وكرر يدعو كانه قال يدعو ويدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ثم قال لمن ضره بكونه معبودا أقرب من نفعه بكونه شفيعا (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد) هذا وعد لمن عبد الله بكل حال لا لمن عبد الله على حرف (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة) المعنى ان الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة فمن ظن من أعاديه غير ذلك (فليمدد بسبب) بحبل (الى السماء) الى سماء بيته (ثم ليقطع) ثم ليختنق به وسمى الاختناق قطعا لان المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه وبكسر اللام بصرى وشامى (فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) اى الذى يغيظه او ما مصدرية اى غيظه والمعنى فليصور فى نفسه ان

ان فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى يغيظه وسمى فعله كيدا على سبيل الاستهزاء لانه لم يكد به محسوده انما كاد به نفسه والمراد ليس فى يده الا ما ليس يذهب لما يغيظ (وكذلك أنزلناه) ومثل ذلك الانزال أنزل القرآن كله (آيات بينات) واضحات (وان الله يهدى من يريد) اى ولان الله يهدى به الذين يعلم انهم يؤمنون او يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى انزله كذلك مبينا (ان

القطع والنظر بعد الاختناق ولكنه كما يقال للحاسد مت غيظا وقيل المراد بالسماء السماء المعروفة والمعنى من كان يظن ان لن ينصر الله نبيه ويكيد فى امره ليقطعه عنه فليقطعه من أصله فان أصله فى السماء فليطلب سببا يصل به الى السماء ثم ليقطع عن النبى صلى الله عليه وسلم الوحى الذى يأتيه فلينظر هل يتهيأ له الوصول الى السماء بحيلة وهو يقدر على اذهاب غيظه بهذا الفعل فاذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة وفى الآية زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه روى ان الآية نزلت فى قوم من أسد وغطفان دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم الى الاسلام وكان بينهم وبين اليهود محالفة فقالوا لا يمكننا ان نسلم لاننا نخاف ان لا ينصر محمد ولا يظهر أمره فتنقطع المحالفة بيننا وبين اليهود فلا يميرونا ولا يؤوننا وقيل النصر معناه الرزق ومعنى الآية من كان يظن ان لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لا يجعله مرزوقا تقول العرب من ينصرنى نصره الله اى من يعطنى أعطاه الله (وكذلك أنزلناه) يعنى القرآن (آيات بينات وان الله يهدى من يريد ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا) يعنى عبدة الاوثان قيل الاديان ستة واحد لله وهو الاسلام وخمسة للشيطان وهو ما عدا الاسلام (ان الله يفصل بينهم) اى يحكم بينهم (يوم القيامة) وقيل يفصل بينهم فى الاحوال والاماكن جميعا فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ولا يجمعهم فى موطن واحد (ان الله على كل شئ شهيد) اى انه عالم بما يستحقه كل واحد منهم فلا يجرى فى ذلك الفصل ظلم ولا حيف وقد تقدم بسط الكلام على معنى هذه الآية فى تفسير سورة البقرة قوله عز وجل (ألم تر) اى ألم تعلم وقيل ألم تر بقلبك (أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) قيل سجود هذه الاشياء تحول ظلالها وقيل ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر الا يقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع الى مطلعه وقيل معنى سجودها الطاعة فانه ما من جماد الا وهو مطيع لله تعالى خاشع ومسبح له كما وصفهم بالخشية والتسبيح وهذا مذهب أهل السنة وهو ان هذه الاجسام لما كانت قابلة لجميع الاعراض التى خلقها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت بطاعتها افعال المكلف وهو السجود الذى كل خضوع دونه فان قلت هذا التأويل يبطله قوله (وكثير من الناس) فان السجود بالمعنى الذى ذكرعام فى الناس كلهم فاسناده الى كثير من الناس يكون تخصيصا من غير فائدة قلت المعنى الذى ذكرته وان كان عاما فى حق الكل الا ان بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود فى الظاهر فهذا وان كان ساجدا بذاته لكنه متمرد بظاهره وأما المؤمن فانه ساجد بذاته وبظاهره ايضا فلاجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر وقيل معنى الآية ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض و يسجد له كثير من الناس فيكون السجود الاول بمعنى الانقياد والثانى بمعنى الطاعة والعبادة فان قلت قوله من فى السموات ومن فى الارض لفظ عموم فيدخل فيه الناس فلم قال وكثير من الناس قلت لو اقتصر على ما تقدم لاوهم ان كل الناس يسجدون فبين ان كثيرا من الناس يسجدون طوعا دون بعض وهم الذين قال فيهم (وكثير حق عليه العذاب) وهم الكفار أى حق عليهم العذاب بكفرهم وترکهم السجود ومع كفرهم وامتناعهم من السجود تسجد ظلالهم لله عز وجل (ومن يهن الله فماله من مكرم) اى من يذله الله فلا يكرمه احد (ان الله يفعل ما يشاء) اى يكرم الله بالسعادة من يشاء ويهين

الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا) قيل الاديان خمسة اربعة للشيطان وواحد للرحمن والصابئون نوع من النصارى فلا تكون ستة (ان الله يفصل بينهم يوم القيامة) فى الاحوال والاماكن فلا يجازيهم جزاء واحدا ولا يجمعهم فى موطن واحد وخبران الذين آمنوا ان الله يفصل بينهم كما تقول ان زيدا ان أباه قائم (ان الله على كل شئ شهيد) عالم به حافظ له فلينظر كل امرئ معتقده وقوله وفعله وهو أبلغ وعيد (ألم تر) ألم تعلم يا محمد علما يقوم مقام العيان (ان الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) قيل ان الكل يسجد له ولكا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها قال الله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم وقيل سمى مطاوعة غير المكلف له فيما يحدث فيه من

تعالى وتسخيره له سجودا له تشبيها لمطاوعته بسجود المكلف الذى كل خضوع دونه (وكثير من الناس) اى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة او هو مرفوع على الابتداء ومن الناس صفة له والخبر محذوف وهو مثاب ويدل عليه قوله (وكثير حق عليه العذاب) اى وكثير منهم حق عليه العذاب بكفره وإبائه السجود (ومن يهن الله) بالشقاوة (فماله من مكرم) بالسعادة (ان الله يفعل ما يشاء)

ولم يفعل وهو يقول يفعل ما يشاء (هذان خصمان) اى فريقان مختصمان فالخصم صفة وصف بها الفريق وقوله (اختصموا) للمعنى وهذان للفظ والمراد المؤمنون والكافرون وقال ابن عباس رضى الله عنهما رجع الى اهل الاديان المذكورة فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم (فى ربهم) فى دينه وصفاته ثم بين جزاء كل خصم بقوله (فالذين كفروا) وهو فصل الخصومة المعنى بقوله ان الله يفصل بينهم يوم القيامة (قطعت لهم ثياب من نار) كأن الله يقدر لهم نيرانا على مقادير جثتهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة واختير لفظ الماضى لانه كائن لا محالة فهو كالثابت المتحقق (يصب من فوق رؤسهم) بكسر الهاء والميم بصرى وبضمهما حجازى وعلى وخلف وبكسر الهاء وضم الميم غيرهم (الحميم) الماء الحار عن ابن عباس رضى الله عنهما الوسقطت منه نقطة على جبال الدنيا لاذابتها (يصهر) يذاب (به) بالحميم (ما فى بطونهم والجلود) اى يذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم فيؤثر فى الظاهر والباطن

بالشقاوة من يشاء وقيل هو الذى يصح منه الاكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب

(فصل) هذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع ان يسجد عند تلاوتها او سماع تلاوتها *قوله عز وجل (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) اى جادلوا فى دينه وأمره واختلفوا فى هذين الخصمين فروى عن قيس بن عبادة قال سمعت أبا ذر يقسم قسما ان هذه الآية هذان خصمان اختصموا فى ربهم نزلت فى الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة أخرجاه فى الصحيحين (خ) عن على بن أبى طالب قال أنا اول من يجثو للخصومة بين يدى الرحمن يوم القيامة قال قيس بن عبادة فيهم نزلت هذان خصمان اختصموا فى ربهم قال هم الذين تبارزوا يوم بدر على وحمزة وعبيدة بن الحرث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وابن أخيه الوليد بن عتبة قال محمد بن اسحق خرج يوم بدر عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وابن أخيه الوليد بن عتبة ودعوا الى المبارزة فخرج اليهم فتية من الانصار ثلاثة عوف ومعوذ ابنا الحرث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا من أنتم قالوا رهط من الانصار فقالوا حين انتسبوا أكفاء كرام ثم نادى منادیهم يا محمد اخرج الينا أكفاءنا من قومنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قم يا عبيدة بن الحرث و يا حمزة بن عبد المطلب و يا على بن أبى طالب فلما دنوا منهم قالوا من أنتم فذكروا أنفسهم قالوا نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة و بارز حمزة شيبة و بارز على الوليد بن عتبة فاما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة وعلى الوليد واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما أثبت صاحبه فكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة الى أصحابه وقد قطعت رجله ومخها يسيل فلما أتوا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألست شهيدا يا رسول الله قال بلى فقال عبيدة لو كان أبو طالب حيا لعلم أنا أحق بما قال منه حيث يقول

ونسلمه حتى نصرع حوله * ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقال ابن عباس نزلت الآية فى المسلمين وأهل الكتاب قال أهل الكتاب نحن أولى بالله واقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونبيكم و بما أنزل الله من كتاب وانتم تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتم حسدا فهذه خصومتهم فى ربهم وقيل هم المؤمنون والكافرون من اى ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار (ق) عن ابى هريرة قال قال النبى صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فما لى لا يدخلنى الا ضعفاء الناس وسقطهم زاد فى رواية وغزاتهم فقال الله عز وجل للجنة أنت رحمتى ارحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار انما أنت عذابى اعذب بك من أشاء من عبادى ولكل واحدة منكما ملؤها فاما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله فتقول قط قط فهنالك تمتلئ و يزوى بعضها الى بعض ولا يظلم ربك من خلقه أحدا واما الجنة فان الله تعالى ينشئ لها خلقا وللبخارى اختصمت الجنة والنار وهذا القول ضعيف والاقوال الاولى أولى بالصحة لان حمل الكلام على ظاهره أولى وقوله هذان كالاشارة الى سبب تقدم ذكره وهو أهل الاديان الستة وأيضا فانه ذكر صنفين اهل طاعته وأهل معصيته وذكر ما آل الخصمين فقال تعالى (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) قال سعيد بن جبير ثياب من نحاس مذاب وليس من الآنية شئ اذا حمى أشد حرا منه وسمى باسم الثياب لانها تحيط بهم كاحاطة الثياب وقيل يلبس اهل النار مقطعات من نار (يصب من فوق رؤسهم الحميم) اى الماء الحار الذى انتهت حرارته (يصهر به) اى يذاب بالحميم الذى يصب من فوق رؤسهم (ما فى بطونهم) من الشحوم والاحشاء (والجلود) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الحميم ليصب على رؤسهم فينفذ حتى يخلص الى جوف احدهم فيسلت ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد

كما

(ولهم مقامع) سياط مختصة بهم (من حديد) يضربون بها (كلما ارادوا أن يخرجوا منها) من النار (من غم) بدل الاشتمال من منها باعادة الجار والاولى لابتداء الغاية والثانية بمعنى من اجل يعنى كلما ارادوا الخروج من النار من اجل غم يلحقهم فخرجوا (اعيدوا فيها) بالمقامع ومعنى الخروج عند الحسن ان النار تضربهم بلهبها فتلقيهم الى اعلاها فضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا والمراد اعادتهم الى معظم النار لانهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعودون اليها (وذوقوا) اى وقيل لهم ذوقوا (عذاب الحريق) هو الغليظ من النار المنتشر العظيم الاهلاك ثم ذكر جزاء الخصم الآخر فقال (ان الله يدخل الذين آمنوا ٣١٣ وعملوا الصالحات جنات تجرى من

كما كان اخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب صحيح (ولهم مقامع من حديد) اى سياط من حديد وهى الجمع من الحديد وفى الخبر لو وقع مقمع من حديد فى الارض ثم اجتمع عليه الثقلان ما اقلوه من الارض (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم) اى كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذى يأخذ بأنفاسهم (اعيدوا فيها) اى ردوا اليها بالمقامع قيل ان جهنم لتجيش بهم فتلقيهم الى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بمقامع الحديد فيهوون فيها سبعين خريفا (وذوقوا عذاب الحريق) اى تقول لهم الملائكة ذلك والحريق بمعنى المحرق فهذا وصف حال احد الخصمين وهم الكفار وقال تعالى فى وصف الخصم الآخر وهم المؤمنون (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) وهو الابريسم الذى حرم لبسه على الرجال فى الدنيا عن معاوية هو جد بهز بن حكيم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الانهار بعد اخرجه الترمذى وقال حديث صحيح (ق) عن ابى موسى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين ان ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن عن ابى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عليهم التيجان أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب اخرجه الترمذى وقال حديث غريب (ق) عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة قوله تعالى (وهدوا) من الهداية اى أرشدوا (الى الطيب من القول) قال ابن عباس هو شهادة ان لا اله الا الله وقيل هو لا اله الا الله والله اكبر والحمد لله وسبحان الله وقيل الى القرآن وقيل هو قول اهل الجنة الحمد لله الذى صدقنا وعده (وهدوا الى صراط الحميد) اى الى دين الله وهو الاسلام والحميد هو الله المحمود فى افعاله * قوله عز وجل (ان الذين كفروا) اى بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم (ويصدون عن سبيل الله) اى بالمنع من الهجرة والجهاد والاسلام (والمسجد الحرام) اى ويصدون عن المسجد الحرام (الذى جعلناه للناس) اى قبلة لصلاتهم ومنسكا ومتعبدا (سواء العاكف) اى المقيم (فيه) قال بعضهم ويدخل فيه الغريب اذا جاور وأقام به ولزم التعبد فيه (والبادى) اى الطارئ المنتاب اليه من غيره واختلفوا فى معنى الآية فقيل سواء العاكف فيه والبادى فى تعظيم حرمته وقضاء النسك به والى هذا ذهب مجاهد والحسن وجماعة قالوا والمراد منه نفس المسجد الحرام ومعنى التسوية هو التسوية فى تعظيم الكعبة وفى فضل الصلاة فيه والطواف به وعن جبير بن مطعم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يا بنى عبد مناف لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل او نهار اخرجه الترمذى وابو داود والنسائى وقيل المراد منه جميع الحرم ومعنى التسوية ان المقيم والبادى سواء فى النزول به ليس أحدهما احق بالمنزل من الآخر غير انه لا يزعج احد أحدا اذا كان قد سبق الى منزل

تحتها الانهار يحلون فيها من أساور) جمع اسورة جمع سوار (من ذهب ولؤلؤا) بالنصب مدنى وعاصم على ويؤتون لؤلؤا وبالجر غيرهم عطفا على من ذهب وبترك الهمزة الاولى فى كل القرآن ابو بكر وحماد (ولباسهم فيها حرير) ابريسم (وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد) اى ارشدوا هؤلاء فى الدنيا الى كلمة التوحيد والى صراط الحميد اى الاسلام او هداهم الله فى الآخرة والهمهم ان يقولوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وهداهم الى طريق الجنة والحميد الله المحمود بكل لسان (ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) اى يمنعون عن الدخول فى الاسلام ويصدون حال من فاعل كفروا اى وهم يصدون اى الصدود منهم مستمر دائم كما يقال

فلان يحسن الى الفقراء فانه يراد به استمرار وجود الاحسان منه فى الحال والاستقبال (والمسجد الحرام) اى ويصدون عن المسجد الحرام والدخول فيه (الذى جعلناه للناس) مطلقا من غير فرق بين حاضر وبادفان أريد بالمسجد الحرام مكة ففيه دليل على انه لا تباع دور مكة وان أريد به البيت فالمعنى انه قبلة لجميع الناس (سواء) بالنصب حفص مفعول ثان لجعلناه اى جعلناه مستويا (العاكف فيه والباد) وغير المقيم بالياء مكى وافقه ابو عمر وفى الوصل وغيره بالرفع على انه خبر والمبتدا مؤخر اى العاكف فيه والباد سواء والجملة مفعول ثان وللناس حال

(ومن يرد فيه) فى المسجد الحرام (بالحاد بظلم) حالان مترادفان ومفعول يرد متروك لتناول كل متناول كانه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما فالالحاد العدول عن القصد (نذقه من عذاب أليم) فى الآخرة وخبر ان محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب اليم وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت) واذكر يا محمد حين جعلنا لابراهيم مكان البيت مباءة اى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة وقد رفع البيت الى السماء ايام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله ابراهيم مكانه بريح ارسلها فكنست مكان البيت فبناه على اسه القديم (ان) هى المفسرة للقول المقدراى قائلين له (لا تشرك بى شيأ وطهر بيتى) من الاصنام والاقذار وبفتح الياء مدنى وحفص (للطائفين) لمن يطوف به (والقائمين) والمقيمين بمكة (والركع السجود) المصلين جمع راكع وساجد (وأذن فى الناس بالحج) نادفيهم والحج هو القصد البليغ الى مقصد منيع وروى انه صعد اباقبيس فقال يا أيها الناس حجوا بيت ربكم فأجاب من قدر له ان يحج من الاصلاب والارحام بلبيك اللهم لبيك وعن الحسن انه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم امر ان يفعل ذلك فى حجة الوداع والاول أظهر و جواب الامر (يأتوك رجالا) مشاة جمع راجل كقائم وقيام (وعلى كل ضامر) حال معطوفة على

وقول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد قالوا هما سواء فى البيوت والمنازل قال عبد الرحمن بن سابط كان الحجاج اذا قدموا مكة لم يكن أحد من اهل مكة باحق بمنزله منهم وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس ان يغلقوا ابوابهم فى الموسم فعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة واجارتها قالوا ان ارض مكة لا تملك لانها املكت لم يستوالعا كف فيها والبادى فلما استويا ثبت ان سبيلها سبيل المساجد والى ذهب ابو حنيفة قالوا والمراد بالمسجد الحرام جميع الحرم وعلى القول الاول الاقرب الى الصواب انه يجوز بيع دور مكة واجارتها وهو قول طاوس وعمرو بن دينار واليه ذهب الشافعى احتج الشافعى فى ذلك بقوله تعالى الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق اضاف الديار الى مالكيها وقال النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة من اغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن فنسب الديار اليهم نسبة ملك واشترى عمر بن الخطاب دار السجن بأربعة آلاف درهم فدلت هذه النصوص على جواز بيعها وقوله تعالى (ومن يرد فيه) اى فى المسجد الحرام (بالحاد بظلم) اى بميل الى الظلم قيل الالحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله وقيل هو كل شئ كان منهيا عنه من قول او فعل حتى شتم الخادم وقيل هو دخول الحرم بغير احرام او ارتكاب شئ من محظورات الحرم من قتل صيد وقطع شجر وقال ابن عباس هو ان تقتل فيه من لا يقتلك او تظلم فيه من لا يظلمك وقال مجاهد تضاعف السيآت بمكة كما تضاعف الحسنات وقيل احتكار الطعام بمكة بدليل ما روى يعلى بن أمية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان احتكار الطعام فى الحرم الحاد فيه أخرجه ابو داود وقال عبد الله بن مسعود فى قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم (نذقه من عذاب أليم) قال لو ان رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه ما لم يعملها ولو ان رجلا هم بقتل رجل بمكة وهو بعدن ابين او ببلد آخر أذاقه الله من عذاب اليم قال السدى الا ان يتوب وروى عن عبد الله ابن عمر وانه كان له فسطاطان احدهما فى الحل والآخر فى الحرم فاذا اراد أن يعاتب اهله عاتبهم فى الحل فسئل عن ذلك فقال كنا نحدث ان من الالحاد فيه ان يقول الرجل كلا والله وبلى والله قوله تعالى (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت) قال ابن عباس جعلنا وقيل وطأنا وقيل بينا واذكر مكان البيت لان الكعبة رفعت الى السماء زمن الطوفان فلما امر الله تعالى ابراهيم عليه السلام ببناء البيت لم يدر اى جهة يبنى فبعث الله تعالى ريحا خجوجا فكنست له ما حول البيت عن الاساس وقيل بعث الله سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا ابراهيم ابن على قدرى فبنى عليه (أن لا تشرك بى شيأ) اى عهدنا الى ابراهيم وقلنا له لا تشرك بى شيأ (وطهر بيتى) اى من الشرك والاوثان والاقذار (للطائفين) اى الذين يطوفون بالبيت (والقائمين) اى المقيمين فيه (والركع السجود) اى المصلين * قوله عز وجل (وأذن) اى اعلم ونادوا الاذان فى اللغة الاعلام (فى الناس) قال ابن عباس أراد بالناس اهل القبلة (بالحج) فقال ابراهيم عليه السلام وما يبلغ صوتى فقال الله عليك الاذان وعلينا الابلاغ فقام ابراهيم على المقام حتى صار كاطول الجبال وأدخل اصبعيه فى أذنيه واقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وقال يا ايها الناس ان ربكم قد بنى بيتا وكتب عليكم الحج الى البيت فأجيبوا ربكم فأجابه كل من يحج من اصلاب الآباء وارحام الامهات لبيك اللهم لبيك قال ابن عباس فأول من أجابه اهل اليمن فهم اكثر الناس حجا وروى ان ابراهيم صعد أبا قبيس ونادى وزعم الحسن ان المأمور بالتأذين هو محمد صلى الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك فى حجة الوداع (م) عن ابى هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا (يأتوك رجالا) اى مشاة على أرجلهم جمع راجل (وعلى كل ضامر) اى راكبا

على رجال كانه قال رجالا وركبانا والضامر البعير المهزول وقدم الرجال على الركبان اظهارا لفضيلة المشاة كما ورد في الحديث (يأتين) صفة لكل ضامر لانه في معنى الجمع وقرأ عبد الله يأتون صفة للرجال والركبان (من كل فج) طريق (عميق) بعيد قال محمد بن ياسين قال لي شيخ في الطواف من أين انت فقلت من خراسان قال كم بينكم وبين البيت قلت مسيرة شهرين او ثلاثة قال فأنتم جيران البيت فقلت انت من أين جئت قال من مسيرة خمس سنوات وخرجت وانا شاب فما كنهلت قلت والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة فقال

زر من هويت وان شطت بك الدار * وحال من دونه حجب واستار
لا يمنعنك بعد عن زيارته * ان المحب لمن يهواه زوار

واللام في (ليشهدوا) ليحضروا متعلق باذن او بيأتوك (منافع لهم) نكرها لانه اراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادة وهذا لان العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم او بالمال كالزكاة وقد اشتمل الحج عليهما مع ما فيه من تحمل الاثقال وركوب الاهوال وخلع الاسباب وقطيعة الاصحاب وهجر البلاد والاوطان وفرقة الاولاد والخلان والتنبيه على ما يستمر عليه اذا انتقل من دار الفناء الى دار البقاء فالحاج اذا دخل البادية لا يتكل فيها الا على عتاده ولا يأكل الا من زاده فكذا المرء اذا خرج من شاطئ الحياة وركب بحر الوفاة لا ينفع وحدته الا ما سعى في معاشه لمعاده ولا يؤنس وحشته الا ما كان يأنس به من اوراده وغسل من يحرم وتأهبه ولبسه غير المخيط وتطيبه مرآة لما سيأتي عليه من وضعه على سريره لغسله وتجهيزه مطيبا بالحنوط ملفقا في كفن غير مخيط ثم المحرم يكون اشعث حيران فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان ووقوف الحجيج بعرفات آملين راغبا ورهبا سائلين خوفا وطمعا وهم من بين مقبول ومخذول كموقف العرصات لا تسكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي

على الابل المهزولة من كثرة السير وبدأ بذكر المشاة تشريفا لهم (يأتين) اى جماعة الابل (من كل فج عميق) اى من كل طريق بعيد فمن أتى مكة حاجا فكأنه قد أتى ابراهيم لانه مجيب نداءه قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) قيل العفو والمغفرة وقيل التجارة وقال ابن عباس الاسواق وقيل ما يرضى به الله من امر الدنيا والآخرة (ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) يعنى عشر ذى الحجة في قول اكثر المفسرين قيل لها معلومات للحرص عليها من اجل وقت الحج في آخرها وعن ابن عباس انها أيام عرفة والنحر وأيام التشريق وقيل انها يوم النحر وثلاثة أيام بعده (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) يعنى الهدايا والضحايا تكون من النعم وهى الابل والبقر والغنم وفيه دليل على ان الايام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق لان التسمية على بهيمة الانعام عند نحرها ونحر الهدايا يكون في هذه الايام (فكلوا منها) امر اباحة ليس بواجب وذلك ان اهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيأ فأمر الله بمخالفتهم واتفق العلماء على ان الهدى اذا كان تطوعا يجوز للمهدى ان يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله في قصة حجة الوداع قال وقدم علي ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة ونحر علي ما غبر وأشركه في بدنه ثم امر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر وطبخت فاكل من لحمها وشرب من مرقها أخرجه مسلم (قوله ما غبر) اى ما بقى (قوله ببضعة) اى بقطعة واختلف العلماء في الهدى الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بافساد الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدى ان يأكل منه شيأ قال الشافعي لا يأكل منه شيأ وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال احمد واسحق وقال مالك يأكل من هدى التمتع ومن كل هدى وجب عليه الا من فدية الاذى وجزاء الصيد والمنذور وعند اصحاب الرأى انه يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما وقوله تعالى (وأطعموا البائس الفقير) يعنى الزمن الذى لا شئ له قوله تعالى (ثم ليقضوا تفثهم) وسعيد والافاضة الى المزدلفة بالمساء هو السوق لفصل القضاء ومنى هو موقف المنى للمذنبين الى شفاعة الشافعين وحلق الرأس والتنظيف كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف والبيت الحرام الذى من دخله كان آمنا من الايذاء والقتال انموذج لدار السلام التى هى من نزلها بقى سالما من الفناء والزوال غير ان الجنة حفت بمكاره النفس العادية كما ان الكعبة حفت بمتالف البادية فرحبا بمن جاو زمهالك البوادى شوقا الى اللقاء يوم التنادى (ويذكر وا اسم الله) عند الذبح (في أيام معلومات) هى عشر ذى الحجة عند ابى حنيفة رحمه الله وآخرها يوم النحر وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما واكثر المفسرين رحمهم الله وعند صاحبيه هى ايام النحر وهو قول ابن عمر رضى الله عنهما (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) اى على ذبحه وهو يؤيد قولهما والبهيمة مبهمة في كل ذات اربع في البر والبحر فبينت بالانعام وهى الابل والبقر والضأن والمعز (فكلوا منها) من لحومها والامر للاباحة ويجوز الاكل من هدى التطوع والمتعة والقران لانه دم نسك فأشبه الاضحية ولا يجوز الاكل من بقية الهدايا (وأطعموا البائس) الذى اصابه بؤس اى شدة (الفقير) الذى اضعفه الاعسار (ثم ليقضوا تفثهم) ثم ليزيلوا عنهم ادرانهم كذا قاله نفطويه قيل قضاء التفث قص الشارب

والاظفار ونتف الابط والاستحداد والتفث الوسخ والمراد قضاء ازالة التفث وقال ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما قضاء التفث مناسك الحج كلها (وليوفوا نذورهم) مواجب حجهم والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه وفى بنذره وان لم ينذر اوما ينذرونه من اعمال البر فى حجهم وليوفوا بسكون اللام والتشديد ابو بكر (وليطوفوا) طواف الزيارة الذى هو ركن الحج ويقع به تمام التحلل اللامات الثلاث سواكنة عند غير ابن عياش وابى عمرو (بالبيت العتيق) القديم لانه اول بيت وضع للناس بناه آدم ثم جدده ابراهيم او الكريم ومنه عتاق الخيل لكرائمها ٣١٦ وعتاق الرقيق لخروجه من ذل العبودية الى كرم الحرية اولانه اعتق من الغرق

اى ليزيلوا ادرانهم واوساخهم والمراد منه الخروج عن الاحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الابط وقلم الاظفار والاستحداد ولبس الثياب والحاج اشعث اغبر اذا لم يزل هذه الاوساخ وقال ابن عمر وابن عباس قضاء التفث مناسك الحج كلها (وليوفوا نذورهم) ارادنذر الحج والهدى وما ينذر الانسان من شئ يكون فى الحج اى ليتموها بقضائها وقيل المراد منه الوفاء بما نذر وهو على ظاهره وقيل أراد به الخروج عما وجب عليه نذره أولم ينذره (وليطوفوا بالبيت العتيق) أراد به طواف الواجب وهو طواف الافاضة ووقته يوم النحر بعد الرمى والحلق والطواف ثلاثة طواف القدوم وهو ان من قدم مكة يطوف بالبيت سبعا يرمل ثلاثا من الحجر الاسود الى ان ينتهى اليه ويمشى أربعا وهذا الطواف سنة لاشئ على من تركه (ق) عن عائشة ان اول شئ بدأ به حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم انه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج ابو بكر وعمر مثله (ق) عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا طاف الطواف الاول خب ثلاثا ومشى أربعا زاد فى رواية ثم يصلى ركعتين يعنى بعد الطواف بالبيت ثم يطوف بين الصفا والمروة ولفظ ابى داود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا طاف فى الحج او العمرة اول ما يقدم فانه يسعى ثلاثة أشواط ويمشى أربعا ثم يصلى سجدتين والطواف الثانى هو طواف الافاضة وذلك يوم النحر بعد الرمى والحلق (ق) عن عائشة قالت حاضت صفية ليلة النفر فقالت ما أرانى الا حابستكم قال النبى صلى الله عليه وسلم عقرى حلقى أطافت يوم النحر قيل نعم قال فانفرى (قوله عقرى حلقى) معناه عقرها الله اى أصابها بالعقر ويوجع فى حلقها وقيل معناه مشؤمة مؤذية ولم يرد به الدعاء عليها وانما هو شئ يجرى على السنة العرب كقولهم لا أم لك وتربت يمينك وفيه دليل على ان من لم يطف يوم النحر طواف الافاضة لا يجوز له ان ينفر الثالث طواف الوداع لا رخصة لمن اراد مفارقة مكة الى مسافة القصر فى ان يفارقها حتى يطوف سبعا فمن تركه فعليه دم الا المرأة الحائض فانه يجوز لها تركه للحديث المتقدم ولما روى ابن عباس قال أمر الناس ان يكون الطواف آخر عهدهم بالبيت الا انه رخص للمرأة الحائض متفق عليه والرمل سنة تختص بطواف القدوم ولا رمل فى طواف الافاضة والوداع وقوله بالبيت العتيق قال ابن عباس وغيره سمى عتيقا لان الله أعتقه من أيدى الجبابرة ان يصلوا الى تخريبه فلم يظهر عليه جبار قط وقيل لانه اول بيت وضع للناس وقيل لان الله اعتقه من الغرق فانه رفع أيام الطوفان وقيل لانه لم يملك * قوله عز وجل (ذلك) اى الامر ذلك يعنى ما ذكر من أعمال الحج (ومن يعظم حرمات الله) اى ما نهى الله عنه من معاصيه وتعظيمها ترك ملابستها وقيل حرمات الله ما لا يحل انتهاكه وقيل الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه وقيل الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها اقامتها واتمامها وقيل الحرمات هنا البيت الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام والشهر الحرام ومعنى التعظيم العلم بانه يجب القيام بمراعاتها

لانه رفع زمن الطوفان او من ايدى الجبابرة كم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله او من أيدى الملائك فلم يملك قط وهو مطاف اهل الغبراء كما ان العرش مطاف اهل السماء فان الطالب اذا هاجته معية الطرب وجذبته جواذب الطلب جعل يقطع مناكب الارض مراحل ويتخذ مسالك المهالك منازل فاذا عاين البيت لم يزده التسلى به الا اشتياقا ولم يفده التشفى باستلام الحجر الا احتراقا فيرده الاسف لهفان ويرده اللهف حوله فى الدوران وطواف الزيارة آخر فرائض الحج الثلاث واولها الاحرام وهو عقد الالتزام يشبه الاعتصام بعروة الاسلام حتى لا يرتفض بارتكاب ما هو محظور فيه ويبقى عقده مع ما يفسده وينافيه كما ان عقد الاسلام لا يحل بازدحام الآثام وترتفع الف حوبة بتوبة وثانيها

وحفظ الوقوف بعرفات بسمة الابتهال فى صفة الاهتبال وصدق الاعتزال عن دفع الاتكال على مراتب الاعمال وشواهد الاحوال (ذلك) خبر مبتدا محذوف اى الامر ذلك او تقديره ليفعلوا ذلك (ومن يعظم حرمات الله) الحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله عز وجل به هذه الصفة من مناسك الحج وغيرها فيحتمل ان يكون عاما فى جميع تكاليفه ويحتمل ان يكون خاصا بما يتعلق بالحج وقيل حرمات الله البيت الحرام والمشعر الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام

(فهو) اى التعظيم (خيرله عند ربه) ومعنى التعظيم العلم بانها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها (وأحلت لكم الانعام) اى كلها (الا مايتلى عليكم) آية تحريمه وذلك قوله حرمت عليكم الميتة الآية والمعنى ان الله تعالى أحل لكم الانعام كلها الا ما بين فى كتابه فحافظوا على حدوده ولا تحرموا شيأ مما أحل كتحريم البعض البحيرة ونحوها ولا تحلوا مما حرم كاحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغيرهما ولما حث على تعظيم حرماته اتبعه الامر باجتناب الاوثان وقول الزور بقوله (فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور) لان ذلك من أعظم المحرمات واسبقها حظرا ومن الاوثان بيان للرجس لان الرجس مبهم يتناول ٣١٧ غير شئ كانه قيل فاجتنبوا الرجس

وحفظ حرمتها (فهو خيرله عند ربه) اى ثواب تعظيم المحرمات خيرله عند الله فى الآخرة (وأحلت لكم الانعام) اى ان تأكلوها بعد الذبح وهى الابل والبقر والغنم (الا مايتلى عليكم) اى تحريمه وهو قوله فى سورة المائدة حرمت عليكم الميتة والدم الآية (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) اى اتركوا عبادتها فانها سبب الرجس وهو العذاب وقيل سمى الاوثان رجسا لان عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات (واجتنبوا قول الزور) اى الكذب والبهتان وقال ابن عباس هى شهادة الزور وروى عن ايمن بن خريم قال ان النبى صلى الله عليه وسلم قام خطيبا فقال أيها الناس عدلت شهادة الزور الاشراك بالله ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور أخرجه الترمذى وقال قد اختلفوا فى روايته ولا نعرف لايمن سماعا من النبى صلى الله عليه وسلم وأخرجه ابو داود عن خريم بن فاتك بنحوه وقيل هو قول المشركين فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك قوله تعالى (حنفاء لله) اى مخلصين له (غير مشركين به) فدل ذلك على ان المكلف ينوى بما يأتيه من العبادة الاخلاص لله بها لا غيره وقيل كانوا فى الشرك يحجون ويحرمون البنات والامهات والاخوات وكانوا حنفاء فنزلت حنفاء لله غير مشركين به اى حجوا لله مسلمين موحدين ومن أشرك لا يكون حنيفا (ومن يشرك بالله فكانما خر) اى سقط (من السماء) الى الارض (فتخطفه الطير) اى تسلبه وتذهب به (او تهوى به الريح) اى تميل وتذهب به (فى مكان سحيق) اى بعيد ومعنى الآية ان من أشرك بالله بعيد من الحق والايمان كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير او هوت به الريح فلا يصل اليه بحال وقيل شبه حال المشرك بحال الهاوى من السماء لانه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع حيث تسقط الريح فهو هالك لا محالة اما باستلاب الطير لحمه او بسقوطه فى المكان السحيق وقيل معنى الآية من أشرك بالله فقد أهلك نفسه اهلا كاليس وراءه اهلاك بان صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرقت أجزاءه فى حواصلها او عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة وقيل شبه الايمان بالسماء فى علوه والذى ترك الايمان بالساقط من السماء والاهواء التى توزع افكاره بالطير المختطفة والشياطين التى تطرحه فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة * قوله عز وجل (ذلك) يعنى الذى ذكر من اجتناب الرجس وقول الزور (ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) اى تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب قال ابن عباس شعائر الله البدن والهدى وأصلها من الاشعار وهو العلامة التى يعرف بها انها هدى وتعظيمها استسمانها واستحسانها وقيل شعائر الله أعلام دينه وتعظيمها من تقوى القلوب (لكم فيها) اى فى البدن (منافع) قيل هى درها ونسلها وصوفها ووبرها وركوب ظهرها (الى أجل مسمى) اى الى ان يسميها ويوجبها هديا فاذا فعل ذلك لم يكن له شئ من منافعها وهو

الذى هو الاوثان وسمى الاوثان رجسا على طريقة التشبيه يعنى انكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس فعليكم ان تنفروا عنها وجمع بين الشرك وقول الزور اى الكذب والبهتان او شهادة الزور وهو من الزور وهو الانحراف لان الشرك من باب الزور اذ المشرك زاعم ان الوثن يحق له العبادة (حنفاء لله) مسلمين (غير مشركين به) حال كحنفاء (ومن يشرك بالله فكانما خر) سقط (من السماء) الى الارض (فتخطفه الطير) اى تسلبه بسرعة فتخطفه اى تتخطفه مدنى (او تهوى به الريح) اى تسقطه والهوى السقوط (فى مكان سحيق) بعيد يجوز ان يكون هذا تشبيها مركبا ويجوز ان يكون مفرقا فان كان تشبيها مركبا فكانه قال من أشرك بالله فقد أهلك نفسه اهلا كاليس بعده

بان صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق قطعا فى حواصلها او عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة وان كان مفرقا فقد شبه الايمان فى علوه بالسماء والذى أشرك بالله بالساقط من السماء والاهواء المردية بالطير المختطفة والشيطان الذى هو يوقعه فى الضلال بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة (ذلك) اى الامر ذلك (ومن يعظم شعائر الله) تعظيم الشعائر وهى الهدايا لانها من معالم الحج ان يختارها عظام الاجرام حسانا سمانا غالية الاثمان (فانها من تقوى القلوب) اى فان تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات وانما ذكرت القلوب لانها مراكز التقوى (لكم فيها منافع) من الركوب عند الحاجة وشرب البانها عند الضرورة (الى أجل مسمى) الى ان تنحر

(ثم محلها) اى وقت وجوب نحرها منتهية (الى البيت العتيق) والمراد نحرها فى الحرم الذى هو فى حكم البيت اذ الحرم حريم البيت ومنله فى الاتساع قولك بلغت البلد وانما اتصل مسيرك بحدوده وقيل الشعائر المناسك كلها وتعظيمها اتمامها ومحلها الى البيت العتيق بأباه (ولكل أمة) جماعة مؤمنة قبلكم (جعلنا منسكا) حيث كان بكسر السين بمعنى الموضع على وحمزة اى موضع قربان وغيرهما بالفتح على المصدر اى اراقة الدماء وذبح ٣١٨ القرابين (ليذكروا اسم الله) دون غيره (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) اى عند نحرها وذبحها (فالهكم اله واحد) اى اذكروا على الذبح اسم الله وحده فان الهكم اله واحد وفيه دليل على ان ذكر اسم الله شرط الذبح يعنى ان الله تعالى شرع لكل امة ان ينسكوا له اى يذبحوا له على وجه التقرب وجعل العلة فى ذلك ان يذكر اسمه تقدست اسماؤه على النسائك وقوله (فله أسلموا) اى اخلصوا له الذكر خاصة واجعلوه له سالما اى خالصا لا تشوبوه باشراك (وبشر المخبتين) المطمئنين بذكر الله او المتواضعين الخاشعين من الخبت وهو المطمئن من الارض وعن ابن عباس رضى الله عنهما الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا وقيل تفسيره ما بعده اى (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) خافت منه هيبة (والصابرين على ما أصابهم) من المحن والمصائب (والمقيمى الصلوة) فى أوقاتها (ومما رزقناهم ينفقون) يتصدقون (والبدن) جمع بدنة سميت لعظم بدنها وفى الشريعة يتناول الابل والبقر وقرئ برفعها وهو كقوله والقمر قدرناه (جعلناها لكم من شعائر الله) اى من اعلام الشريعة التى شرعها الله واضافتها الى اسمه تعظيم لها ومن شعائر الله ثانى مفعولى جعلنا (لكم فيها خير) النفع فى الدنيا والاجر فى العقبى (فاذكروا اسم الله عليها) عند نحرها (صواف) حال من الهاء اى قائمات قد صففن ايديهن وارجلهن (فاذا وجبت جنوبها) وجوب الجنوب وقوعها على الارض من وجب الحائط وجبة اذا سقط اى اذا سقطت جنوبها على الارض بعد نحرها وسكنت حركتها (فكلوا

قول مجاهد وقتادة والضحاك ورواية عن ابن عباس وقيل معناه لكم فى الهدايا منافع بعد ايجابها وتسميتها هدايا بان تركبوها وتشربوا من البانها عند الحاجة الى أجل مسمى يعنى الى ان تنحروها وهو قول عطاء واختلف العلماء فى ركوب الهدى فقال مالك والشافعى واحمد واسحق يجوز ركوبها والحمل عليها من غير ضرر بها لما روى عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال اركبها فقال يا رسول الله انها بدنة فقال اركبها ويلك فى الثانية او الثالثة أخرجاه فى الصحيحين وكذلك يجوز له الشرب من لبنها بعد ما يفضل عن ري ولدها وقال أصحاب الرأى لا يركبها الا ان يضطر اليه وقيل أراد بالشعائر المناسك ومشاهد مكة لكم فيها منافع اى بالتجارة والاسواق الى أجل مسمى اى الى الخروج من مكة وقيل لكم فيها منافع اى بالاجر والثواب فى قضاء المناسك الى انقضاء أيام الحج (ثم محلها الى البيت العتيق) اى منحرها عند البيت العتيق يريد به جميع أرض الحرم روى عن جابر فى حديث حجة الوداع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نحرت ههنا ومنى كلها منحر فانحروا فى رحالكم ومن قال الشعائر المناسك قال معنى ثم محلها اى محل النساس من احرامهم الى البيت العتيق يطوفون به طواف الزيارة قوله تعالى (ولكل أمة) اى جماعة مؤمنة سلفت قبلكم (جعلنا منسكا) قرئ بكسر السين اى مذبحا وهو وموضع القربان وقرئ منسكا بفتح السين وهو اراقة الدم وذبح القرابين (ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام) اى عند ذبحها ونحرها سماها بهيمة لانها لا تتكلم وقيد بالانعام لان ما سواها لا يجوز ذبحه فى القرابين وان جاز أكله * قوله عز وجل (فالهكم اله واحد) اى سموا على الذبح اسم الله وحده فان الهكم اله واحد (فله أسلموا) اى اخلصوا وانقادوا واطيعوا (وبشر المخبتين) قال ابن عباس المتواضعين وقيل المطمئنين الى الله وقيل الخاشعين الرقيقة قلوبهم وقيل هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لا ينتصرون ثم وصفهم فقال تعالى (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) اى خافت من عقاب الله فيظهر عليها الخشوع والتواضع لله تعالى (والصابرين على ما أصابهم) اى من البلاء والمرض والمصائب ونحو ذلك مما كان من الله تعالى وما كان من غير الله فله ان يصبر عليه وله ان ينتصر لنفسه (والمقيمى الصلوة) اى فى أوقاتها محافظة عليها (ومما رزقناهم ينفقون) اى يتصدقون قوله تعالى (والبدن) جمع بدنة سميت بدنة لعظمها وضخامتها يريد الابل الصحاح الاجسام والبقر ولا تسمى الغنم بدنة لصغرها (جعلناها لكم من شعائر الله) اى من أعلام دينه قيل لانها تشعر وهو ان تطعن بحديدة فى سنامها فيعلم بذلك انها هدى (لكم فيها خير) اى نفع فى الدنيا وثواب فى العقبى (فاذكروا اسم الله عليها) اى عند نحرها (صواف) اى قياما على ثلاث قوائم قد صفت رجليها ويدها اليمنى والاخرى معقولة فينحرها كذلك (ق) عن زياد بن جبير قال رأيت ابن عمر اتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها قال ابعثها قياما مقيدة سنة محمد صلى الله عليه وسلم (فاذا وجبت جنوبها) اى سقطت بعد النحر ووقع جنبها على الارض

(فكلوا منها) ان شئتم (واطعموا القانع) السائل من قنعت اليه اذا خضعت له وسالته قنوعا (والمعتر) الذى يريك نفسه و يتعرض ولا يسأل وقيل القانع الراضى بما عنده وبما يعطى من غير سؤال من قنعت قنعا وقناعة والمعتر المتعرض للسؤال (كذلك سخرناها لكم) اى كما امرنا كم بنحرها سخرناها لكم اوهو كقوله ذلك ومن يعظم ثم استأنف فقال سخرناها لكم اى ذللناها لكم مع قوتها وعظم اجرامها لتتمكنوا من نحرها (لعلكم تشكرون) لكى تشكروا انعام الله عليكم (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) اى لن يتقبل الله اللحوم والدماء ولكن يتقبل التقوى اولن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المراقة بالنحر والمراد اصحاب اللحوم والدماء والمعنى ان يرضى المخلصون والمقربون ربهم الا بمراعاة النية والاخلاص ورعاية شروط التقوى وقيل كان اهل الجاهلية اذا نحروا الابل نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون ارادوا مثل ذلك فنزلت

(كذلك سخرها لكم) اى البدن (لتكبروا الله) لتعظموا الله عند الذبح اولتعظموا الله (على ما هداكم) على ما ارشدكم اليه (وبشر المحسنين) الممتثلين اوامره بالثواب (ان الله يدفع) مكى و بصرى وغيرهما يدافع اى يبالغ فى الدفع عنهم (عن الذين آمنوا) اى يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ونحوه انا لننصر رسلنا والذين آمنوا ثم علل ذلك بقوله (ان الله لا يحب كل خوان) فى أمانة الله (كفور) لنعمة الله اى لانه لا يحب اضدادهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله و يغمطونها (اذن) مدنى و بصرى وعاصم (للذين يقاتلون) بفتح التاء مدنى وشامى وحفص

(فكلوا منها) امر اباحة (واطعموا القانع والمعتر) قيل القانع الجالس فى بيته المتعفف يقنع بما يعطى ولا يسأل والمعتر هو الذى يسأل وعن ابن عباس القانع هو الذى لا يسأل ولا يتعرض وقيل القانع هو الذى يسأل والمعتر هو الذى يريك نفسه و يتعرض ولا يسأل وقيل القانع المسكين والمعتر الذى ليس بمسكين ولا تكون له ذبيحة يجىء الى القوم فيتعرض لهم لاجل لحمهم (كذلك) اى مثل ما وصفنا من نحرها قياما (سخرناها لكم) اى لتتمكنوا من نحرها (لعلكم تشكرون) اى انعام الله عليكم (ان ينال الله لحومها ولا دماؤها) وذلك ان أهل الجاهلية كانوا اذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها يزعمون ان ذلك قربة الى الله تعالى فانزل الله ان ينال الله لحومها ولا دماؤها اى لن ترفع الى الله لحومها ولا دماؤها (ولكن يناله التقوى منكم) اى ولكن ترفع اليه الاعمال الصالحة والاخلاص وهو ما اريد به وجه الله (كذلك سخرها لكم) يعنى البدن (لتكبروا الله على ما هداكم) وارشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه وهو ان يقول الله اكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا (وبشر المحسنين) قال ابن عباس الموحدين قوله تعالى (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) اى يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين و يمنعهم منهم وينصرهم عليهم (ان الله لا يحب كل خوان كفور) اى خوان فى أمانة الله كفور لنعمته قال ابن عباس خانوا الله فجعلوا معه شريكا وكفروا نعمه وقيل من تقرب الى الاصنام بذبيحته وسمى غير الله عليها فهو خوان كفور قوله عزوجل (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) اى أذن الله لهم بالجهاد ليقاتلوا المشركين قال المفسرون كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزالون يجيؤن من بين مضروب ومشجوج و يشكون ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم اصبروا فانى لم أومر بقتال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية وهى اول آية أذن الله فيها بالقتال وقيل نزلت هذه الآية فى قوم باعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة الى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فأذن الله لهم فى قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة بانهم ظلموا اى بسبب ما ظلموا واعتدوا عليهم بالايذاء (وان الله على نصرهم لقدير) فيه وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم فقال تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله) يعنى انهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب الاقرار والتعظيم والتمكين لا موجب

والمعنى اذن لهم فى القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه (بانهم ظلموا) بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مشركو مكة يؤذونهم اذى شديدا وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم اصبروا فانى لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت هذه الآية وهى اول آية اذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية (وان الله على نصرهم) على نصر المؤمنين (لقدير) قادر وهو بشارة للمؤمنين بالنصرة وهو مثل قوله ان الله يدافع عن الذين آمنوا (الذين) فى محل جر بدل من للذين أو نصب باعنى أو رفع باضمارهم (أخرجوا من ديارهم) بمكة (بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله) اى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى ان يكون موجب التمكين لا موجب الاخراج ومثله هل تنقمون منا الا ان آمنا بالله ومحل أن يقولوا جر بدل من حق والمعنى ما أخرجوا من ديارهم الا بسبب قولهم

(ولولا دفع الله) دفاع مدنى ويعقوب (الناس بعضهم ببعض لهدمت) وبالتخفيف حجازى (صوامع وبيع وصلوات ومساجد) اى لولا اظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على اهل الملل المختلفة فى ازمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعا ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات اى كنائس وسميت الكنيسة صلاة لانها يصلى فيها ولا للمسلمين مساجد اولغلب المشركون فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين وعلى اهل الكتاب الذين فى ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين وقدم غير المساجد عليها لتقدمها وجودا أو لقربها من التهديم (يذكر فيها اسم الله كثيرا) فى المساجد او فى جميع ما تقدم (ولينصرن الله من ينصره) اى ينصر دينه وأولياءه (ان الله لقوى) على نصر اوليائه (عزيز) على انتقام أعدائه (الذين) محله نصب بدل من من ينصره او جر تابع للذين اخرجوا (ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) هو أخبار من الله عما ستكون عليه سيرة المهاجرين ٣٢٠ ان مكنهم فى الارض وبسط لهم فى الدنيا وكيف يقومون بامر الدين وفيه دليل صحة أمر الخلفاء الراشدين لان الله عز وجل أعطاهم التمكين ونفاذ الامر مع السيرة العادلة وعن الحسن هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم (ولله عاقبة الامور) اى مرجعها الى حكمه وتقديره وفيه تأكيد لما وعده من اظهار اوليائه واعلاء كلمتهم (وان يكذبوك) هذه تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم من تكذيب اهل مكة اياه اى لست بأوحدى فى التكذيب (فقد كذبت قبلهم) قبل قومك (قوم نوح) نوحا (وعاد) هودا (وثمود) صالحا (وقوم ابراهيم) ابراهيم (وقوم لوط) لوطا (واصحاب مدين) شعيبا (وكذب موسى) كذبه فرعون والقبط ولم يقل وقوم موسى لان موسى ما كذبه قومه بنو اسرائيل وانما كذبه غير قومه وكأنه

الاخراج (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) اى بالجهاد واقامة الحدود (لهدمت صوامع) هى معابد الرهبان المتخذة فى الصحراء (وبيع) هى معابد النصارى فى البلد وقيل الصوامع للصابئين والبيع للنصارى (وصلوات) هى كنائس اليهود ويسمونها بالعبرانية صلوتا (ومساجد) يعنى مساجد المسلمين (يذكر فيها اسم الله كثيرا) يعنى فى المساجد ومعنى الآية ولو دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم فى شريعة كل نبى مكان صلواتهم فهدم فى زمن موسى الكنائس وفى زمن عيسى البيع والصوامع وفى زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد (ولينصرن الله من ينصره) اى ينصر دينه ونبيه (ان الله لقوى) اى على نصر من ينصر دينه (عزيز) اى لا يضام ولا يمنع مما يريده قوله عز وجل (الذين ان مكناهم فى الارض) اى نصرناهم على عدوهم حتى تمكنوا من البلاد (أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) هذا وصف اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم جميع هذه الامة وقيل هم المهاجرون وهو الاصح لان قوله الذين ان مكناهم صفة لمن تقدم ذكرهم وهو قوله الذين اخرجوا من ديارهم وهم المهاجرون (ولله عاقبة الامور) اى آخر أمور الخلق مصيرها اليه وذلك انه يبطل فيها كل ملك سوى ملكه فتصير الامور اليه بلا منازع قوله تعالى (وان يكذبوك) فيه تسلية وتعزية للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى وان كذبك قومك (فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى) فان قلت لم قال وكذب موسى ولم يقل وقوم موسى قلت فيه وجهان أحدهما ان موسى لم يكذبه قومه وهم بنو اسرائيل وانما كذبه غير قومه وهم القبط الثانى كأنه قيل بعد ماذكر تكذيب كل قوم رسولهم قال وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره (فأمليت للكافرين) اى أمهلتهم وأخرت العقوبة عنهم (ثم اخذتهم) اى عاقبتهم (فكيف كان نكير) اى انكارى عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك يخوف به من خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبه * قوله عز وجل (فكأين من قرية أهلكتها) وقرئ أهلكناها على التعظيم (وهى ظالمة) اى وأهلها ظالمون (فهى خاوية) اى ساقطة (على عروشها) اى على سقوفها (وبئر معطلة) اى وكم من بئر معطلة اى متروكة مخلاة عن

اهلها قيل بعد ماذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى ايضا مع وضوح آياته وظهور معجزاته فما ظنك بغيره (فأمليت للكافرين) امهلتهم وأخرت عقوبتهم (ثم اخذتهم) عاقبتهم على كفرهم (فكيف كان نكير) انكارى وتغييرى حيث ابدلتهم بالنعم نقما وبالحياة هلاكا وبالعمارة خرابا نكيرى بالياء فى الوصل والوقف يعقوب (فكأين من قرية اهلكناها) أهلكتها بصرى (وهى ظالمة) حال اى وأهلها مشركون (فهى خاوية) ساقطة من خوى النجم اذا سقط (على عروشها) يتعلق بخاوية والمعنى انها ساقطة على سقوفها اى خرت سقوفها على الارض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ولا محل لفهى خاوية من الاعراب لانها معطوفة على أهلكناها وهذا الفعل ليس له محل وهذا اذا جعلنا كأين منصوب المحل على تقدير كثيرا من القرى اهلكناها (وبئر معطلة) اى متروكة لفقد دلوها ورشائها وفقد تفقدها وهى عامرة فيها الماء ومعها آلات الاستقاء الا انها عطلت اى تركت لا يستقى منها لهلاك اهلها

(وقصر مشيد) مجصص من الشيد الجص او مرفوع البنيان من شاد البناء رفعه والمعنى كم قرية أهلكناها وكم بئر عطلناها عن سقاتها وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه اى اهلكنا البادية والحاضرة جميعا فخلت القصور عن اربابها والآبار عن وراداها والاظهر ان البئر والقصر على العموم (أفلم يسيروا فى الارض) هذا حث على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا (فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها) اى يعقلون ما يجب ان يعقل من التوحيد ونحوه ويسمعون ما يجب سماعه من الوحى (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) الضمير فى فانها ضمير القصة او ضمير مبهم يفسره الابصار اى فانه عميت ابصارهم عن الابصار بل قلوبهم عن الاعتبار ولكل انسان اربع أعين عينان ٣٢١ فى رأسه وعينان فى قلبه فاذا أبصر ما فى القلب وعمى ما فى الرأس لم يضره وان ابصر ما فى الرأس وعمى ما فى القلب لم ينفعه وذكر الصدور لبيان ان محل العلم القلب ولئلا يقال ان القلب يعنى به غير هذا العضو كما يقال القلب اب كل شئ (ويستعجلونك بالعذاب) الآجل استهزاء (ولن يخلف الله وعده) كأنه قال ولم يستعجلونك به كأنهم يجوزون الفوت وانما يجوز ذلك على من يعاد من يجوز عليه الخلف ولن يخلف الله وعده وما وعده ايصيبنهم ولو بعد حين (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) يعدون مكى وكوفى غير عاصم اى كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من ايام عذابه فى طول ألف سنة من سنيكم لان ايام الشدائد طوال (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة) اى وكم من اهل قرية كانوا مثلكم ظالمين فانظر تهم حينا (ثم أخذتها) بالعذاب (والى المصير) اى المرجع الى فلا يفوتنى شئ وانما كانت الاولى اى فكأين معطوفة بالفاء وهذه اى وكأين بالواو لان الاولى وقعت بدلا عن فكيف كان نكير واما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو وهما وان يخلف الله وعده وان يوما عند ربك (قل يا ايها الناس انما أنا لكم نذير مبين) وانما لم يقل بشير ونذير لذكر الفريقين بعده لان الحديث مسوق الى المشركين ويا أيها الناس نداء لهم وهم الذين قيل فيهم أفلم يسيروا ووصفوا بالاستعجال وانما اقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا او تقديره نذير مبين وبشير فبشر أولا فقال (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) لذنوبهم (ورزق كريم) اى حسن ثم انذر فقال

أهلها (وقصر مشيد) اى رفيع طويل عال وقيل مجصص وقيل ان البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن أما القصر فعلى قلة جبل والبئر فى سفحه ولكل واحد منهما قوم كانوا فى نعمة فكفروا فأهلكهم الله وبقى البئر والقصر خالين وقيل ان هذه البئر كانت بحضرموت فى بلدة يقال لها حاضوراء وذلك ان اربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح عليه السلام لما نجوا من العذاب اتوا الى حضرموت ومعهم صالح فلما حضروه مات صالح فسمى المكان حضرموت لذلك ولما مات صالح بنوا حاضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلا منهم فأقاموا دهرا وتناسلوا حتى كثروا وعبدوا الاصنام وكفروا فأرسل الله تعالى اليهم نبيا يقال له حنظلة بن صفوان وكان جبارا فيهم فقتلوه فى السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخرب قصرهم قوله تعالى (أفلم يسيروا فى الارض) يعنى كفار مكة فينظروا الى مصارع المكذبين من الامم الخالية (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) اى يعلمون بها (او آذان يسمعون بها) يعنى ما يذكر لهم من اخبار القرون الماضية فيعتبرون بها (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) المعنى ان عمى القلب هو الضار فى امر الدين لا عمى البصر لان البصر الظاهر بلغة ومنعة وبصر القلوب هو البصر النافع (ويستعجلونك بالعذاب) نزلت فى النضر بن الحرث (وان يخلف الله وعده) اى انه انجز ذلك يوم بدر (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) قال ابن عباس يعنى يوما من الايام الستة التى خلق الله فيها السموات والارض وقيل يوما من ايام الآخرة يدل عليه ما روى عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل اغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة اخرجه ابو داود وبزيادة فيه وأخرج الترمذى نحوه ومعنى الآية انهم يستعجلون بالعذاب وان يوما من ايام عذابهم فى الآخرة كألف سنة وقيل ان يوما من أيام العذاب فى الثقل والاستطالة كألف سنة فكيف يستعجلونه وقيل معناه ان يوما عنده والف سنة فى الامهال سواء لانه قادر متى شاء اخذهم لا يفوته شئ بالتأخير فيستوى فى قدرته وقوع ما يستعجلونه من العذاب وتأخيره وهذا معنى قول ابن عباس (وكأين من قرية أمليت لها) اى امهلتها (وهى ظالمة) اى مع استمرارها على الظلم (ثم أخذتها) اى انزلت بهم العذاب (والى المصير) يعنى مصيرهم الى فى الآخرة ففيه وعيد وتهديد * قوله عز وجل (قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين) امر الله رسوله ان يديم لهم التخويف والانذار وان يقول لهم انما بعثت لكم منذرا (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) لما امر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بان يقول انما أنا نذير مبين اردف ذلك بأن امر بوعد من آمن ووعيد من عصى فقال فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة اى ستر لصغائر ذنوبهم

(والذين سعوا) سعى فى امر فلان اذا أفسده بسعيه (فى آياتنا) اى القرآن (معاجزين) حال مجزين حيث كان مكى وابو عمرو عاجزه سابقه كان كل واحد منهما فى طلب اعجاز الآخر عن اللحاق به فاذا سبقه قيل اعجزه وعجزه والمعنى سعوا فى معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحرا وشعرا واساطير مسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين ان كيدهم للاسلام يتم لهم (أولئك اصحاب الجحيم) اى النار الموقدة (وما ارسلنا من قبلك) من لابتداء الغاية (من رسول) من زائدة لتأكيد النفى (ولا نبى) هذا دليل بين على ثبوت التغاير بين الرسول والنبى بخلاف ما يقول البعض انهما واحد وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الانبياء فقال مائة الف واربعة وعشرون الفا فقيل فكم الرسل منهم فقال ثلثمائة وثلاثة عشر والفرق بينهما ان الرسول من جمع الى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبى من لم ينزل عليه كتاب وانما امر ان يدعو الى شريعة من قبله وقيل الرسول واضع شرع والنبى حافظ شرع غيره (الا اذا تمنى) قرأ تال تمنى كتاب الله اول ليلة * تمنى داود الزبور على رسل (ألقى الشيطان فى أمنيته) تلاوته قالوا انه عليه السلام كان فى نادى قومه يقرأ والنجم فلما بلغ قوله ومناة الثالثة الاخرى جرى على لسانه تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ولم يفطن له حتى ادركته العصمة فتنبه عليه وقيل نبهه جبريل صلى الله عليه السلام فاخبرهم ان ذلك كان من الشيطان وهذا القول غير مرضى لانه لا يخلو اما ان يتكلم النبى عليه السلام بها عمدا وانه لا يجوز لانه كفر لانه بعث طاعنا للاصنام لا مادحا لها واجرى الشيطان ذلك على لسان النبى عليه السلام جبرا بحيث لا يقدر على الامتناع منه

وقيل للكبائر ايضا مع التوبة ورزق كريم اى لا ينقطع أبدا وقيل هو الجنة (والذين سعوا فى آياتنا) اى عملوا فى ابطال آياتنا (معجزين) اى مثبطين الناس عن الايمان وقرئ معاجزين اى معاندين مشاقين وقيل معناه ظانين ومقدرين انهم يعجزوننا ويفوتوننا فلا نقدر عليهم بزعمهم ان لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار (أولئك اصحاب الجحيم) قوله تعالى (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى أمنيته) قال ابن عباس وغيره من المفسرين لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تولى قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به من الله تعالى تمنى فى نفسه ان يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه لحرصه على ايمانهم فكان يوما فى مجلس لقريش فأنزل الله عز وجل سورة والنجم فقراها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى القى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمناه تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته فقرأ السورة كلها وسجد فى آخرها وسجد المسلمون بسجوده وسجد جميع من فى المسجد من المشركين فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد غير الوليد بن المغيرة وابى احيحة سعيد بن العاص فانهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها الى جبهتيهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم ويقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقالوا قد عرفنا ان الله يحيى ويميت ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده فان جعل لها محمد نصيبا فنحن معه فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم اتاه جبريل فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله تعالى فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله تعالى خوفا كبيرا فأنزل الله تعالى هذه الآية يعزيه وكان به رحيما وسمع بذلك من كان بارض الحبشة من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود قريش وقيل قد اسلمت قريش واهل مكة فرجع اكثرهم الى عشائرهم وقالوا هم احب الينا حتى اذا دنوا من مكة بلغهم ان الذى كانوا حدثوا به من اسلام اهل مكة كان باطلا فلم يدخل أحد منهم الا بجوار أو مستخفيا فلما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغير ذلك وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقعا فى فم كل مشرك فازدادوا شرا الى ما كانوا عليه وشدة على من اسلم وقوله وما أرسلنا من قبلك من رسول الرسول هو الذى يأتيه جبريل بالوحى عيانا ولا نبى النبى هو الذى تكون نبوته الهاما أو مناما فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولا الا اذا تمنى اى احب شيأ واشتهاه وحدث به نفسه مما لم يؤمر به القى الشيطان فى أمنيته اى فى مراده وقال ابن عباس اذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه ووجد اليه سبيلا والمعنى ما من نبى الا تمنى ان يؤمن قومه ولم يتمن ذلك نبى الا القى الشيطان عليه ما يرضى قومه فينسخ الله ما يلقى الشيطان وقال اكثر المفسرين معنى تمنى قرأ ولا كتاب الله القى الشيطان فى أمنيته اى فى تلاوته قال حسان فى عثمان حين قتل

تمنى كتاب الله أول ليلة * وآخره لاقى حمام المقادر

فان قلت قد قامت الدلائل على صدقه واجمعت الامة فيما كان طريقه البلاغ انه معصوم فيه من الاخبار عن شئ منه بخلاف ما هو به لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا قال الله تعالى وما ينطق عن الهوى وقال تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد فكيف يجوز الغلط على النبى

وهو ممتنع لان الشيطان لا يقدر على ذلك فى حق غيره لقوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ففى حقه أولى او جرى ذلك على لسانه سهوا وغفلة وهو مردود أيضا لانه لا يجوز مثل هذه الغفلة عليه فى حال تبليغ الوحى ٣٢٣ ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله

صلى الله عليه وسلم فى التلاوة وهو معصوم منه قلت ذكر العلماء عن هذا الاشكال اجوبة أحدها توهين اصل هذه القصة وذلك انه لم يروها احد من اهل الصحة ولا اسندها ثقة بسند صحيح او سليم متصل وانما رواها المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المنفقون من الصحف كل صحيح وسقيم والذى يدل على ضعف هذه القصة اضطراب رواتها وانقطاع سندها واختلاف الفاظها فقائل يقول ان النبى صلى الله عليه وسلم كان فى الصلاة وآخر يقول قرأها وهو فى نادى قومه وآخر يقول قراها وقد أصابته سنة وآخر يقول بل حدث نفسه بها فجرى ذلك على لسانه وآخر يقول ان الشيطان قالها على لسان النبى صلى الله عليه وسلم وان النبى صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال ما هكذا اقرأتك الى غير ذلك من اختلاف الفاظها والذى جاء فى الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير ان شيخا من قريش أخذ كفا من حصى او تراب فرفعه الى جبهته قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافرا اخرجه البخارى ومسلم وصح من حديث ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس رواه البخارى فهذا الذى جاء فى الصحيح لم يذكر فيه ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر تلك الالفاظ ولا قراها والذى ذكره المفسرون عن ابن عباس فى هذه القصة فقد رواه عنه الكلبى وهو ضعيف جدا فهذا توهين هذه القصة الجواب الثانى وهو من حيث المعنى هو ان الحجة قد قامت بالدليل الصحيح واجماع الامة على عصمة النبى صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة وهو تمنيه ان ينزل عليه مدح آلهة غير الله او ان يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه حتى نبهه جبريل عن ذلك فهذا كله ممتنع فى حقه صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين الآية الجواب الثالث فى تسليم وقوع هذه القصة وسبب سجود الكفار ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ يرتل القرآن ترتيلا و يفصل الآى تفصيلا كما صح عنه فى قراءته فيحتمل ان الشيطان ترصد لتلك السكتات فدس فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا لصوت النبى صلى الله عليه وسلم فسمعه من دنا منه من الكفار فظنوها من قول النبى صلى الله عليه وسلم فسجدوا معه لسجوده فاما المسلمون فلم يقدح ذلك عندهم لتحققهم من حال النبى صلى الله عليه وسلم ذم الاوثان وعيبها وانهم كانوا يحفظون السورة كما أنزلها الله عز وجل الجواب الرابع فى تحقيق تفسير الآية وقد تقدم ان التمنى يكون بمعنى حديث النفس وبمعنى التلاوة فعلى الاول يكون معنى قوله الا اذا تمنى اى خطر بباله وتمنى بقلبه بعض الامور ولا يعدانه اذا قوى التمنى اشتغل الخاطر فحصل السهو فى الافعال الظاهرة وعلى الثانى وهو تفسير التمنى بالتلاوة فيكون معنى قوله الا اذا تمنى اى تلا وهو ما يقع للنبى صلى الله عليه وسلم من السهو فى اسقاط آية او آيات او كلمة او نحو ذلك ولكنه لا يقر على هذا السهو بل ينبه عليه و يذكر به للوقت والحين كما صح فى الحديث لقد أذكرنى كذا كذا آية كنت انسيتها من سورة كذا وحاصل هذا ان الغرض من هذه الآية ان الانبياء والرسل وان عصمهم الله عن الخطأ فى العلم فلم يعصمهم من جواز السهو عليهم بل حالهم فى ذلك كحال سائر البشر والله تعالى أعلم * قوله عز وجل (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) اى يبطله ويذهبه (ثم يحكم الله آياته) اى يثبتها (والله عليم حكيم) * قوله عز وجل (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة) اى محنة و بلية والله تعالى يمتحن عباده بما يشاء (للذين فى قلوبهم مرض) اى شك ونفاق (والقاسية قلوبهم) اى الجافية قلوبهم عن قبول الحق وهم المشركون (وان الظالمين لفى شقاق بعيد) اى

ولانه تعالى قال فى صفة المنزل عليه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون فلما بطلت هذه الوجوه لم يبق الا وجه واحد وهو انه عليه السلام سكت عند قوله ومناة الثالثة الاخرى فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلا بقراءة النبى صلى الله عليه وسلم فوقع عند بعضهم انه عليه السلام هو الذى تكلم بها فيكون هذا القاء فى قراءة النبى عليه السلام وكان الشيطان يتكلم فى زمن النبى عليه السلام ويسمع كلامه فقد روى انه نادى يوم أحد الا ان محمدا قد قتل وقال يوم بدر لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) اى يذهب به و يبطله و يخبر انه من الشيطان (ثم يحكم الله آياته) اى يثبتها ويحفظها من لحوق الزيادة من الشيطان (والله عليم) بما أوحى الى نبيه و بقصد الشيطان (حكيم) لا يدعه حتى يكشفه و يزيله ثم ذكر ان ذلك لفتنة الله تعالى به قوما بقوله (ليجعل

ما يلقى الشيطان فتنة) محنة وابتلاء (للذين فى قلوبهم مرض) شك ونفاق (والقاسية قلوبهم) هم المشركون المكذبون فيزدادوا به شكا وظلمة (وان الظالمين) اى المنافقين والمشركين واصله وانهم فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم (لفى شقاق) خلاف (بعيد) عن الحق

(وليعلم الذين أوتوا العلم) بالله وبدينه وبالآيات (أنه) اى القرآن (الحق من ربك فيؤمنوا به) بالقرآن (فتخبت) فتطمئن (له قلوبهم وان الله لهادى الذين آمنوا الى صراط مستقيم) فيتأولون ما يتشابه فى الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبون لما أشكل منه المحمل الذى تقتضيه الاصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة (ولا يزال الذين كفروا فى مرية) شك (منه) من القرآن او من الصراط المستقيم (حتى تأتيهم الساعة بغتة) فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) يعنى يوم بدر فهو عقيم عن ان يكون للكافرين فيه فرج او راحة كالريح العقيم لا تأتى بخير او شديد لا رحمة فيه أو لا مثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة فيه وعن الضحاك انه يوم القيامة وان المراد بالساعة مقدماتها (الملك يومئذ) اى يوم القيامة والتنوين عوض عن الجملة اى يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم (لله) فلا منازع له فيه (يحكم بينهم) اى يقضى ثم بين حكمه فيهم بقوله (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فاولئك لهم عذاب مهين) ثم خص قوما من الفريق الاول بفضيلة فقال (والذين هاجروا فى سبيل الله) خرجوا من أوطانهم مجاهدين (ثم قتلوا) فى الجهاد قتلوا شامى (أو ماتوا) حتف انفهم (ليرزقنهم الله رزقا حسنا) قيل الرزق الحسن الذى لا ينقطع أبدا (وان الله لهو خير الرازقين) لانه المخترع للخلق بلا امثال المتكفل للرزق بلا ملال (ليدخلنهم مدخلا) بفتح الميم مدنى والمراد الجنة (يرضونه) لان فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين (وان الله لعليم) باحوال من قضى نحبه مجاهدا وآمال من مات وهو ينتظر معاهدا (حليم) بامهال من قاتلهم معاندا

روى ان طوائف من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فانزل الله هاتين الآيتين (ذلك) اى الامر ذلك وما بعده مستأنف (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) سمى الابتداء بالجزاء عقوبة لملابسته له من حيث انه سبب وذلك مسبب عنه (ثم بغى عليه لينصرنه الله) اى من جازى بمثل ما فعل به من الظلم ثم ظلم بعد ذلك فحق على الله ان ينصره (ان الله لعفو) يمحو آثار الذنوب (غفور) يستر أنواع العيوب وتقريب الوصفين بسياق الآية ان المعاقب مبعوث من عند الله على العفو وترك العقوبة بقوله فمن عفا وأصلح فاجره على الله وأن تعفوا أقرب للتقوى فحيث لم يؤثر ذلك وانتصر فهو تارك للافضل وهو ضامن لنصره فى الكرة الثانية اذا ترك العفو وانتقم من الباغى وعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين أو دل بذكر العفو والمغفرة على انه قادر على العقوبة اذ لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده كما قيل العفو عند القدرة (ذلك بان الله يولج الليل فى النهار

فى خلاف شديد (وليعلم الذين أوتوا العلم) اى التوحيد والقرآن والتصديق بفتح الله ما يشاء (انه الحق من ربك) اى الذى أحكم الله من آيات القرآن هو الحق من ربك (فيؤمنوا به) اى يعتقدوا انه من الله عزوجل (فتخبت له قلوبهم) اى تسكن اليه (وان الله لهادى الذين آمنوا الى صراط مستقيم) اى الى طريق قويم وهو الاسلام * قوله عزوجل (ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه) اى فى شك من القرآن وقيل من الدين الذى هو صراط مستقيم (حتى تأتيهم الساعة بغتة) اى فجأة وقيل أراد بالساعة الموت (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) اى عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة وقيل هو يوم بدر سمى عقيما لانه لم يكن فى ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم لا تأتى بخير وقيل لانه لا مثل له فى عظم امره لقتال الملائكة فيه (الملك يومئذ) يعنى يوم القيامة (لله) وحده من غير منازع ولا مشارك فيه (يحكم) اى يفصل (بينهم) ثم بين ذلك الحكم فقال تعالى (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فاولئك لهم عذاب مهين) قوله تعالى (والذين هاجروا فى سبيل الله) اى فارقوا اوطانهم وعشائرهم فى طاعة الله وطلب رضاه (ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا) اى لا ينقطع أبدا وهو رزق الجنة لان فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين (وان الله لهو خير الرازقين) فان قلت الرازق فى الحقيقة هو الله عزوجل لا رازق للخلق غيره فكيف قال وان الله لهو خير الرازقين قلت قد يسمى غير الله رازقا على المجاز كقوله رزق السلطان الجند اى اعطاهم ارزاقهم وان الرازق فى الحقيقة هو الله تعالى وقيل لان الله تعالى يعطى من الرزق ما لا يقدر عليه غيره (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) يعنى الجنة يكرمون به ولا ينالهم فيه مكروه (وان الله لعليم) بنياتهم (حليم) بالعفو عنهم * قوله عزوجل (ذلك) اى الامر ذلك الذى قصصنا عليك (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) اى جازى الظالم بمثل ظلمه وقيل يعنى قاتل المشركين كما قاتلوه (ثم بغى عليه) اى ظلم باخراجه من منزله يعنى ما أتاه المشركون من البغى على المسلمين حتى أحوجوهم الى مفارقة اوطانهم نزلت فى قوم من المشركين أتوا قوما من المسلمين فى الشهر الحرام فبغى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون فنصرهم الله عليهم فذلك قوله تعالى (لينصرنه الله ان الله لعفو) اى عن مساوى المؤمنين (غفور) يعنى لذنوبهم (ذلك) اى ذلك النصر (بان الله) القادر على ما يشاء فمن قدرته انه (يولج الليل فى النهار

ويولج النهار فى الليل وان الله سميع بصير) اى ذلك النصر للمظلوم بسبب انه قادر على مايشاء ومن آيات قدرته انه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل اى يزيد من هذا فى ذلك ومن ذلك فى هذا او بسبب انه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه مايجرى فيهما على أيدى عباده من الخير والشر والبغى والانصاف وانه سميع لما يقولون ولا يشغله سمع عن سمع وان اختلفت فى النهار الاصوات بفنون اللغات بصير بما يفعلون ولا يستتر عنه شئ بشئ فى الليالى وان توالت الظلمات (ذلك بان الله هو الحق وان مايدعون) عراقى غير ابى بكر (من دونه هو الباطل وان الله هو العلى الكبير) اى ذلك الوصف بخلقه الليل والنهار واحاطته بما يجرى فيهما وادراكه قولهم وفعلهم بسبب ان الله الحق الثابت الهيته وان كل مايدعى الها دونه باطل الدعوة وانه لاشئ أعلى منه شانا واكبر سلطانا (الم تر ان الله انزل من السماء ماء) مطرا (فتصبح الارض مخضرة) بالنبات بعدما كانت مسودة يابسة وانما صرف الى لفظ المضارع ولم يقل فاصبحت ليفيد بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول أنعم على فلان فاروح واغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع وانما رفع فتصبح ولم ينصب جوابا للاستفهام لانه لو نصب لبطل الغرض

وهذا الان معناه اثبات الاخضرار فينقلب بالنصب الى نفى الاخضرار كما تقول لصاحبك ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكرانى نصبته نفيت شكره وشكوت من تفريطه فيه وان رفعته أثبت شكره (ان الله لطيف) واصل عمله أو فضله الى كل شئ (خبير) بمصالح الخلق ومنافعهم أو اللطيف المختص بدقيق التدبير الخبير المحيط بكل قليل وكثير (له مافى السموات ومافى الارض) ملكا وملكا (وان الله لهو الغنى) المستغنى بكمال قدرته بعد فنائهما فى السموات ومافى الارض (الحميد) المحمود بنعمته

ويولج النهار فى الليل) فى معنى هذا الايلاج قولان أحدهما انه يجعل ظلمة الليل مكان ضياء النهار وذلك بغيبوبة الشمس ويجعل ضياء النهار مكان ظلمة الليل بطلوع الشمس القول الثانى هو مايزيد فى احدهما وينقص من الآخر من الساعات وذلك لايقدر عليه الا الله تعالى (وان الله سميع بصير ذلك بان الله هو الحق) اى ذو الحق فى قوله وفعله ودينه حق وعبادته حق (وأن مايدعون) يعنى المشركين (من دونه هو الباطل) يعنى الاصنام التى ليس عندها ضر ولا نفع (وأن الله هو العلى) اى العالى على كل شئ (الكبير) اى العظيم فى قدرته وسلطانه * قوله عز وجل (ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة) اى بالنبات (ان الله لطيف) اى باستخراج النبات من الارض رزقا للعباد والحيوان (خبير) اى بما فى قلوب العباد اذا تأخر المطر عنهم (له مافى السموات ومافى الارض) اى عبيدا وملكا (وان الله لهو الغنى الحميد) يعنى الغنى عن عباده الحميد فى أفعاله (ألم تر أن الله سخر لكم مافى الارض) اى الدواب التى تركب فى البر (والفلك) اى وسخر لكم السفن (تجرى فى البحر بامره) يعنى سخر لها الماء والرياح ولولا ذلك ماجرت (ويمسك السماء أن تقع) اى لكيلا تسقط (على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم) يعنى انه أنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدنيا والدين وقد بلغ الغاية فى الانعام والاحسان فهو اذا رؤف رحيم بكم (وهو الذى أحياكم) اى أنشأكم ولم تكونوا شيأ (ثم يميتكم) اى عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) اى يوم البعث للثواب والعقاب (ان الانسان لكفور) اى بجحود لنعم الله عز وجل قوله تعالى (لكل أمة جعلنا منسكا) قال ابن عباس شريعة (هم ناسكوه) هم عاملون بها وعنه انه قال عيدا وقيل موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة (فلا ينازعنك فى الامر) اى فى أمر الذبائح نزلت فى بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مالكم تأكلون مما تقتلون بايديكم ولا تأكلون مما قتله الله وقيل معناه لاتنازعهم أنت قوله (وادع الى ربك) اى الى الايمان به والى دينه

قبل ثناء من فى السموات ومن فى الارض (ألم تر أن الله سخر لكم مافى الارض) من البهائم مذللة للركوب فى البر (والفلك تجرى فى البحر باره) اى ومن المراكب جارية فى البحر ونصب الفلك عطفا على ما وتجرى حال لها اى وسخر لكم الفلك فى حال جريها (ويمسك السماء أن تقع على الارض) اى يحفظها من ان تقع (الا باذنه) بامره أو بمشيئته (ان الله بالناس لرؤف) بتسخير مافى الارض (رحيم) بامساك السماء لئلا تقع على الارض عددا لآلائه مقرونة باسمائه ليشكروه على آلائه ويذكروه باسمائه وعن ابى حنيفة رحمه الله ان اسم الله الاعظم فى الآيات الثمانية يستجاب لقارئها البتة (وهو الذى أحياكم) فى ارحام أمهاتكم (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) لايصال جزائكم (ان الانسان لكفور) بجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ودفع عنه من صنوف النقم اولا يعرف نعمة الانشاء المبدئ للوجود ولا الافناء المقرب الى الموعود ولا الاحياء الموصل الى المقصود (لكل امة) أهل دين (جعلنا منسكا) مر بيانه وهو رد لقول من يقول ان الذبح ليس بشريعة الله اذ هو شريعة كل أمة (هم ناسكوه) عاملون به (فلا ينازعنك) فلا يجادلنك والمعنى فلا تلتفت الى قولهم ولا تمكنهم من ان ينازعوك (فى الامر) امر الذبائح او الدين نزلت حين قال المشركون للمسلمين مالكم تأكلون ماقتلتم ولا تأكلون ماقتله الله يعنى الميتة (وادع) الناس (الى ربك) الى عبادة ربك

(انك لعلى هدى مستقيم) طريق قويم ولم يذكر الواو في لكل أمة بخلاف ما تقدم لان تلك وقعت مع ما يناسبها من الاسمى الواردة في أمر النسائك فعطفت على اخواتها وهذه وقعت مع اباعد عن معناها فلم تجد معطفا (وان جادلوك) مراوعتنا كما يفعله السفهاء بعد اجتهادك ان لا يكون بينك وبينهم تنازع وجدال (فقل الله أعلم بما تعملون) اى فلا تجادلهم وادفعهم بهذا القول والمعنى ان الله أعلم باعمالكم وما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به وهذا وعيد ونذار ولكن برفق ولين وتأديب يجاب به كل متمدن (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) هذا خطاب من الله للمؤمنين والكافرين اى يفصل بينكم بالثواب والعقاب وعملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما كان يأتى منهم (ألم تعلم ان الله يعلم ما فى السماء والارض) اى كيف يخفى عليه ما تعملون ومعلوم عند العلماء بالله انه يعلم كل ما يحدث فى السموات والارض (ان ذلك) الموجود فيهما (فى كتاب) فى اللوح المحفوظ (ان ذلك على الله يسير) اى علمه بجميع ذلك عليه

يسير ثم أشار الى جهالة الكفار لعبادتهم غير المستحق لها بقوله (ويعبدون من دون الله مالم ينزل به) ينزل مكى وبصرى (سلطانا) حجة وبرهانا (وما ليس لهم به علم) اى لم يتمسكوا فى عبادتهم لها ببرهان سماوى من جهة الوحى ولا حملهم عليها دليل عقلى (وما للظالمين من نصير) وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعنى القرآن (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) الانكار بالعبوس والكراهة والمنكر مصدر (يكادون يسطون) يبطشون والسطو الوثب والبطش (بالذين يتلون عليهم آياتنا) هم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه (قل افأنبئكم بشر من ذلكم) فكيف من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم او مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تتلى عليكم (النار) خبر مبتدا محذوف كان قائلا قال ما هو فقيل النار اى هو النار (وعدها الله الذين كفروا) استئناف كلام (وبئس المصير) النار ولما كانت دعواهم بان لله تعالى شريكا جارية فى الغرابة والشهوة مجرى الامثال المسيرة قال الله تعالى (يا أيها الناس ضرب) بين (مثل فاستمعوا له) لضرب هذا المثل (ان الذين تدعون) يدعون سهل ويعقوب (من دون الله) آلهة باطلة (لن يخلقوا ذبابا) لن لتأكيد نفى المستقبل وتأكيده هنا للدلالة على ان خلق الذباب منهم مستحيل كانه قال محال أن يخلقوا وتخصيص الذباب لمهانته وضعفه واستقذاره وسمى ذبابا لانه كما ذب لاستقذاره آب لاستكباره (ولو اجتمعوا له) لخلق الذباب ومحله النصب على الحال كأنه قيل مستحيل منهم ان يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم جميعا لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزل فى تجهيل قريش حيث وصفوا بالالهية التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها والاحاطة بالمعلومات عن آخرها وراوا تماثيل يستحيل منها ان تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله ولو اجتمعوا لذلك

(انك لعلى هدى مستقيم) اى على دين واضح قويم (وان جادلوك) اى خاصموك فى أمر الذبح وغيره (فقل الله أعلم بما تعملون) اى من التكذيب (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) اى فتعلمون حينئذ الحق من الباطل وقيل حكم يوم القيامة يتردد بين جنة وثواب لمن قبل وبين نار وعقاب لمن رد وابى * قوله عز وجل (ألم تعلم) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه الامة (ان الله يعلم ما فى السماء والارض ان ذلك فى كتاب) اى فى اللوح المحفوظ (ان ذلك) اى علمه بجميعه (على الله يسير) اى هين وقيل ان كتب الحوادث مع انها من الغيب على الله يسير (ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا) اى حجة ظاهرة من دليل سمعى (وما ليس لهم به علم) اى انهم فعلوا ما فعلوه عن جهل لا عن علم ولا دليل عقلى (وما للظالمين) اى المشركين (من نصير) اى مانع يمنعهم من العذاب (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعنى القرآن وصفه بذلك لان فيه بيان الاحكام والفصل بين الحلال والحرام (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) اى الانكار والكراهة يتبين ذلك فى وجوههم (يكادون يسطون) اى يقعون ويبسطون اليكم أيديهم بالسوء وقيل يبطشون (بالذين يتلون عليهم آياتنا) اى بمحمد واصحابه من شدة الغيظ (قل) اى قل لهم يا محمد (أفأنبئكم بشر من ذلكم) اى بشر لكم وأكره اليكم من هذا القرآن الذى تسمعون (النار) اى هى النار (وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) قوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل) فان قلت الذى جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا قلت لما كان المثل فى الاكثر نكتة عجيبة غريبة جاز ان يسمى كل كلام كان كذلك مثلا وقال فى الكشاف قد سميت الصفة والقصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلا تشبيها لها بعض الامثال المسيرة لكونها مسيرة عندهم مستحسنة مستغربة (فاستمعوا له) اى تدبروه حق تدبره فان الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع والمعنى جعل لى شبيه وشبه بى الاوثان اى جعل المشركون الاصنام شركائى يعبدونها ثم بين حالها وصفتها فقال تعالى (ان الذين تدعون من دون الله) يعنى الاصنام (ان يخلقوا ذبابا) اى واحدا فى صغره وضعفه وقلته لانها لا تقدر على ذلك (ولو اجتمعوا له) اى لخلقته والمعنى بأن هذه الاصنام لو اجتمعت لم يقدروا على خلق ذبابة على ضعفها وصغرها

(وان يسلبهم الذباب شيأ) شيأ ثانى مفعولى يسلبهم (لا يستنقذوه منه) اى هذا الخلق الاقل الاذل لو اختطف منهم شيأ فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا عن ابن عباس رضى الله عنهما انهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤسها بالعسل فاذا سلبه الذباب عجز الاصنام عن أخذه (ضعف الطالب) اى الصنم يطلب ما سلب منه (والمطلوب) الذباب بما سلب وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف فان الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذلك مغلوب (ما قدروا الله حق قدره) ما عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكا له (ان الله لقوى عزيز) اى ان الله قادر وغالب فكيف يتخذ العاجز

فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا له (وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه) قال ابن عباس كانوا يطلون الاصنام بالزعفران فاذا جاء الذباب فاستلبه منه وقيل كانوا يضعون الطعام بين أيدى الاصنام فيقع الذباب عليه ويأكل منه (ضعف الطالب والمطلوب) قال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب الذى على الصنم والمطلوب هو الصنم وقيل الطالب الصنم والمطلوب الذباب اى لو طلب الصنم أن يخلق الذباب لعجز عنه وقيل الطالب عابد الصنم والمطلوب هو الصنم (ما قدروا الله حق قدره) اى ما عظموه حق عظمته وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه (ان الله لقوى عزيز) اى غالب لا يقهر قوله عز وجل (الله يصطفى من الملائكة) اى يختار من الملائكة (رسلا) جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وغيرهم (ومن الناس) اى ويختار الله من الناس رسلا مثل ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الانبياء والرسل صلى الله وسلم عليهم أجمعين نزلت حين قال المشركون أانزل عليه الذكر من بيننا فاخبر الله تعالى ان الاختيار اليه يختار من يشاء من عباده لرسالته (ان الله سميع) اى لاقوالهم (بصير) اى لافعالهم لا تخفى عليه خافية قوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم) قال ابن عباس ما قدموا (وما خلفهم) اى ما خلفوا وقيل يعلم ما عملوا وما هم عاملون وقيل يعلم ما بين أيدى ملائكته ورسله قبل أن يخلقهم ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم (والى الله ترجع الامور) اى فى الآخرة قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) اى صلوا الان الصلاة لا تكون الا بالركوع والسجود (واعبدوا ربكم) اى وحدوه وقيل اخلصوا له العبادة (وافعلوا الخير) قال ابن عباس صلة الارحام ومكارم الاخلاق وقيل فعل الخير يتقسم الى خدمة المعبود الذى هو عبارة عن التعظيم لامر الله تعالى والى الاحسان الذى هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة وحسن القول وغير ذلك من أعمال البر (لعلكم تفلحون) اى لكى تسعدوا وتفوزوا بالجنة

* (فصل فى حكم سجود التلاوة هنا) * لم يختلف العلماء فى السجدة الاولى من هذه السورة واختلفوا فى السجدة الثانية فروى عن عمر وعلى وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبى الدرداء وأبى موسى انهم قالوا فى الحج سجدتان وبه قال ابن المبارك والشافعى وأحمد واسحق يدل عليه ما روى عن عقبة بن عامر قال قلت يا رسول الله أفى الحج سجدتان قال نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما أخرجه الترمذى وأبو داود وعن عمر ابن الخطاب انه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين وقال ان هذه السورة فضلت بسجدتين أخرجه مالك فى الموطا وذهب قوم الى ان فى الحج سجدة واحدة وهى الاولى وليست هذه بسجدة وهو قول الحسن وسعيد ابن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثورى وأبى حنيفة ومالك بدليل انه قرن السجود بالركوع فدل

المغلوب شبيها به او لقوى بنصر أوليائه عزيز ينتقم من اعدائه (الله يصطفى) يختار (من الملائكة رسلا) كجبريل وميكائيل واسرافيل وغيرهم (ومن الناس) رسلا كابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم عليهم السلام هذا رد لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر وبيان ان رسل الله على ضربين ملك وبشر وقيل نزلت حين قالوا أانزل عليه الذكر من بيننا (ان الله سميع) لاقولهم (بصير) بمن يختاره لرسالته او سميع لاقوال الرسل فيما تقبله العقول بصير باحوال الامم فى الرد والقبول (يعلم ما بين أيديهم) ما مضى (وما خلفهم) ما لم يأت أو ما عملوه وما سيعملونه أو أمر الدنيا وأمر الآخرة (والى الله ترجع الامور) اى اليه مرجع الامور كلها او الذى هو بهذه الصفات لا يسئل

عما يفعل وليس لاحد أن يعترض عليه فى حكمه وتدابيره واختيار رسله ترجع شامى وحمزة وعلى (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) فى صلاتكم وكان اول ما اسلموا يصلون بلا ركوع وسجود فأمروا ان تكون صلاتهم بركوع وسجود وفيه دليل على ان الاعمال ليست من الايمان وان هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة (واعبدوا ربكم) واقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله لا الصنم (وافعلوا الخير) قيل لما كان المذكور مزية على غيره من الطاعات دعا المؤمنين اولا الى الصلاة التى هى ذكر خالص لقوله تعالى وأقم الصلاة لذكرى ثم الى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج وغيرهما ثم عم بالحث على سائر الخيرات وقيل اريد به صلة الارحام ومكارم الاخلاق (لعلكم تفلحون) اى كى تفوزوا وافعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم

ومن اجله (حق جهاده) وهو ان لا يخاف فى الله لومة لائم يقال هو حق عالم وجد عالم اى عالم حقا وجدا ومنه حق جهاده وكان القياس حق الجهاد فيه او حق جهادكم فيه لكن الاضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لوجهه ومن اجله صحت اضافته اليه ويجوز ان يتسع فى الظرف كقوله * ويوم شهدناه سليما وعامرا * (هو اجتباكم) اختاركم لدينه ونصرته (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ضيق بل رخص لكم فى جميع ما كلفكم من الطهارة والصلاة والصوم والحج بالتيمم وبالايماء وبالقصر والافطار لعذر السفر والمرض وعدم الزاد والراحلة (ملة أبيكم ابراهيم) اى اتبعوا ملة أبيكم او نصب على الاختصاص اى أعنى بالدين ملة أبيكم وسماه أبا وان لم يكن أبا للامة كلها لانه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أبا لامته لان أمة الرسول فى حكم أولاده قال عليه السلام انما أنا لكم مثل الوالد (هو سماكم المسلمين) اى الله بدليل قراءة أبى الله سماكم (من قبل) فى الكتب المتقدمة (وفى هذا) اى فى القرآن اى فضلكم على سائر الامم وسماكم بهذا الاسم الاكرم (ليكون

ذلك انها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة واختلف العلماء فى عدة سجود التلاوة فذهب الشافعى وأحمد وأكثر أهل العلم الى انها أربع عشرة سجدة لكن الشافعى قال فى الحج سجدتان واسقط سجدة ص وقال أبو حنيفة فى الحج سجدة وأثبت سجدة ص وبه قال أحمد فى احدى الروايتين عنه فعنده ان السجدات خمس عشرة سجدة وذهب قوم الى ان المفصل ليس فيه سجود يروى ذلك عن أبى بن كعب وابن عباس وبه قال مالك فعلى هذا يكون سجود القرآن احدى عشرة سجدة يدل عليه ما روى عن أبى الدرداء ان النبى صلى الله عليه وسلم قال فى القرآن احدى عشرة سجدة أخرجه ابو داود وقال اسناده واه ودليل من قال فى القرآن خمس عشرة سجدة ما روى عن عمرو بن العاص قال أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن خمس عشرة سجدة منها ثلاث فى المفصل وفى سورة الحج سجدتان أخرجه أبو داود وصح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اقرأ واذا السماء انشقت أخرجه مسلم وسجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع وبه قال الشافعى وقال أبو حنيفة هو واجب * قوله عز وجل (وجاهدوا فى الله حق جهاده) اى جاهدوا فى سبيل الله أعداء الله ومعنى حق جهاده هو استفراغ الطاقة فيه قاله ابن عباس وعنه انه قال لا تخافوا فى الله لومة لائم فهو حق الجهاد كما تجاهدون فى سبيل الله ولا تخافون لومة لائم وقيل معناه اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته قيل نسخها قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم وقال أكثر المفسرين حق الجهاد أن يكون بنية صادقة خالصة لله ولتكون كلمة الله هى العليا بدليل قوله صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابى موسى الاشعرى وقيل مجاهدة النفس والهوى هو حق الجهاد وهو الجهاد الاكبر روى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ذكره البغوى بغير سند قيل أراد بالاصغر جهاد الكفار وبالاكبر جهاد النفس (هو اجتباكم) اى اختاركم لدينه والاشتغال بخدمته وعبادته وطاعته فأى رتبة أعلى من هذا وأى سعادة فوق هذا (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) اى ضيق وشدة وهو ان المؤمن لا يبتلى بشئ من الذنوب الا جعل الله له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بانواع الكفارات من الامراض والمصائب وغير ذلك فليس فى دين الاسلام ما لا يجد العبد فيه سبيلا الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفق وقيل معناه رفع الضيق فى أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج اذا التبس عليكم وسع ذلك عليكم حتى تتيقنوا وقيل معناه الرخص عند الضرورات كقصر الصلاة والفطر فى السفر والتيمم عند عدم الماء وأكل الميتة عند الضرورة والصلاة قاعدا والفطر مع العجز بعذر المرض ونحو ذلك من الرخص التى رخص الله لعباده قيل أعطى الله هذه الامة خصلتين لم يعطهما احدا غيرهم جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم فى الدين من حرج وقال ابن عباس الحرج ما كان على بنى اسرائيل من الآصار التى كانت عليهم وضعها الله عن هذه الامة (ملة أبيكم ابراهيم) لانهما داخلة فى ملة محمد صلى الله عليه وسلم فان قلت لم يكن ابراهيم أبا للامة كلها فكيف سماه أبا فى قوله ملة أبيكم ابراهيم قلت ان كان الخطاب للعرب فهو أبو العرب قاطبة وان كان الخطاب لكل المسلمين فهو أبو المسلمين والمعنى ان وجوب احترامه وحفظ حقه يجب كما يجب احترام الاب فهو كقوله وأزواجه امهاتهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم كالوالد وفى قوله (هو سماكم المسلمين من قبل) قولان أحدهما أن الكناية ترجع الى الله تعالى يعنى ان الله سماكم المسلمين فى الكتب القديمة من قبل نزول القرآن القول الثانى ان الكناية راجعة الى ابراهيم يعنى ان ابراهيم سماكم المسلمين فى أيامه من قبل هذا الوقت وهو قوله ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله دعاءه فينا (وفى هذا) اى وفى القرآن سماكم المسلمين

(ليكون الرسول شهيدا عليكم) انه قد بلغكم رسالة ربكم (وتكونوا شهداء على الناس) بتبليغ الرسل رسالات الله اليهم وانما خصكم بهذه الكرامة والاثرة (فاقيموا الصلوة) بواجباتها (وآتوا الزكوة) بشرائطها (واعتصموا بالله) وثقوا بالله وتوكلوا عليه لا بالصلاة والزكاة (هو مولاكم) اى مالككم وناصركم ومتولى أموركم (فنعم المولى) حيث لم يمنعكم رزقكم ٣٢٩ بعصيانكم (ونعم النصير) اى الناصر هو حيث أعانكم على طاعتكم وقد أفلح من هو مولاه وناصره والله الموفق للصواب

(ليكون الرسول شهيدا عليكم) يعنى يوم القيامة ان قد بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) يعنى تشهدون يوم القيامة على الامم ان رسلهم قد بلغتهم (فأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة واعتصموا بالله) اى ثقوا به وتوكلوا عليه وقيل تمسكوا بدين الله وقال ابن عباس سلوا ربكم ان يعصمكم من كل ما يكره وقيل معناه ادعوا ربكم ان يثبتكم على دينه وقيل الاعتصام هو التمسك بالكتاب والسنة (هو مولاكم) اى وليكم وناصركم وحافظكم (فنعم المولى ونعم النصير) اى الناصر لكم والله تعالى أعلم

(تفسير سورة المؤمنين)

وهى مكية وهى مائة وثمان عشرة آية وألف وثمانمائة واربعون كلمة واربعة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان

(سورة المؤمنين)

مكية وهى مائة وثمان عشرة آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل فانزل الله عليه يوما فمكث ساعة ثم سرى عنه فقرأ قد افلح المؤمنون الى عشر آيات من آخرها وقال من اقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال اللهم زدنا ولا تنقصنا واكرمنا ولا تهنا واعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم ارضنا وارض عنا اخرجه الترمذى * قوله عز وجل (قد أفلح المؤمنون) قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا فى الجنة وقيل الفلاح البقاء والنجاة (الذين هم فى صلوتهم خاشعون) قال ابن عباس مخبتون اذلاء خاضعون وقيل خائفون وقيل متواضعون وقيل الخشوع من افعال القلب كالخوف والرهبة وقيل هو من افعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات وغض البصر وقيل لا بد من الجمع بين افعال القلب والجوارح وهو الاولى فالخاشع فى صلاته لا بد وأن يحصل له الخشوع فى جميع الجوارح فاما ما يتعلق بالقلب من الافعال فنهاية الخضوع والتذلل للمعبود ولا يلتفت الخاطر الى شئ سوى ذلك التعظيم وأما ما يتعلق بالجوارح فهو أن يكون ساكنا مطرقا ناظرا الى موضع سجوده وقيل الخشوع هو أن لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله (ق) عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات فى الصلاة فقال هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد الاختلاس هو الاختطاف عن ابى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يزال الله مقبلا على العبد وهو فى صلاته مالم يلتفت فاذا التفت انصرف عنه وفى رواية اعرض عنه اخرجه ابو داود والنسائى وقيل الخشوع هو أن لا يرفع بصره الى السماء (خ) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بال أقوام يرفعون أبصارهم الى السماء فى صلاتهم فاشتد قوله فى ذلك حتى قال لينتهن عن ذلك أو لتخطفن ابصارهم وقال ابو هريرة كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم الى السماء فى الصلاة فلما نزل الذين هم فى صلاتهم خاشعون رمقوا بابصارهم الى مواضع السجود وقيل الخشوع هو أن لا يعبث بشئ من جسده فى الصلاة لما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم أبصر رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ذكره البغوى بغير سند عن ابى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا قام احدكم الى الصلاة فلا يمسح الحصى

(بسم الله الرحمن الرحيم)
(قد أفلح المؤمنون) قد تقيضة لما هى تثبت المتوقع ولما تنفيه وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة وهى الاخبار باثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه والفلاح الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب اى فاز وا بما طلبوا ونجوا مما هربوا والايمان فى اللغة التصديق والمؤمن المصدق لغة وفى الشرع كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن قال عليه السلام خلق الله الجنة فقال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون ثلاثا انا حرام على كل بخيل مراء لانه بالرياء ابطل العبادات البدنية وليس له عبادة مالية (الذين هم فى صلوتهم خاشعون) خائفون بالقلب ساكنون بالجوارح

وقيل الخشوع فى الصلاة جمع الهمة لها والاعراض عما سواها وأن لا يجاوز بصره مصلاه وأن لا يلتفت ولا يعبث ولا يسدل ولا يفرقع اصابعه ولا يقلب الحصى ونحو ذلك وعن ابى الدرداء هو اخلاص المقال واعظام المقام واليقين التام وجمع الاهتمام وأضيفت الصلاة الى المصلين لا الى المصلى له لانتفاع المصلى بها وحده وهى عدته وذخيرته وأما المصلى له فغنى عنها

(والذين هم عن اللغو معرضون) اللغو كل كلام ساقط حقه أن يلغى كالكذب والشتم والهزل يعنى ان لهم من الجد ما شغلهم عن الهزل ولما وصفهم بالخشوع فى الصلاة أتبعه الوصف بالاعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الانفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف (والذين هم للزكوة فاعلون) مؤدون ولفظ فاعلون يدل على المداومة بخلاف مؤدون وقيل الزكاة اسم مشترك يطلق على العين وهو القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب الى الفقير وعلى المعنى وهو فعل المزكى الذى هو التزكية وهو المراد هنا فجعل المزكين فاعلين له لان لفظ الفعل يعم جميع الافعال كالضرب والقتل ونحوهما تقول للضارب والقاتل والمزكى فعل الضرب والقتل والتزكية و يجوز أن يراد بالزكاة العين و يقدر مضاف محذوف وهو الاداء ودخل اللام لتقدم المفعول وضعف اسم الفاعل فى العمل فانك تقول هذا ضارب لزيد ولا تقول ضرب لزيد (والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج يشمل سوأة الرجل والمرأة (الا على أزواجهم) فى موضع الحال اى الا والين على ازواجهم أو قوامين عليهن من قولك كان زيادا على البصرة اى واليا عليها والمعنى انهم لفروجهم حافظون فى جميع الاحوال الا فى حال تزوجهم او تسريهم او تعلق على محذوف يدل عليه غير ملومين كانه قيل يلامون الا على أزواجهم اى يلامون على كل مباشرة الا على ما أطلق لهم فانهم غير ملومين عليه وقال الفراء الا من أزواجهم اى زوجاتهم (أو ما ملكت أيمانهم) اى اماتهم ولم يقل من لان المملوك جرى مجرى غير العقلاء ولهذا يباع كما تباع البهائم (فانهم غير ملومين) اى لا لوم عليهم ان لم يحفظوا فروجهم عن نسائهم واماتهم (فمن ابتغى وراء ذلك) طلب قضاء شهوة من غير هذين (فأولئك هم العادون) الكاملون فى العدوان وفيه دليل تحريم المتعة والاستمتاع بالكف لارادة الشهوة (والذين هم لاماناتهم وعهدهم) لاماناتهم مكى وسهل سمى الشئ المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وانما تؤدى العين لا المعانى والمراد به العموم فى كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله عز و جل ومن جهة الخلق (راعون) حافظون والراعى القائم على الشئ يحفظ واصلاح كراعى الغنم (والذين هم على صلواتهم) صلاتهم كوفى غير أبى بكر (يحافظون) يداومون فى أوقاتها واعادة ذكر الصلاة لانها أهم ولان الخشوع فيها غير المحافظة عليها اولانها وحدت أولا لافراد الخشوع فى جنس الصلاة أية صلاة كانت وجمعت آخرا لافراد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل (أولئك) الجامعون لهذه الاوصاف (هم الوارثون) الاحقاء بان يسموا وراثا دون من عداهم ثم ترجم الوارثين بقوله

فان الرحمة تواجهه اخرجه ابو داود والترمذى والنسائى وقيل الخشوع فى الصلاة هو جمع الهمة والاعراض عما سوى الله والتدبر فيما يجرى على لسانه من القراءة والذكر قوله تعالى (والذين هم عن اللغو معرضون) قال ابن عباس عن الشرك وقيل عن المعاصى وقيل هو كل باطل ولهو وما لا يجمل من القول والفعل وقيل هو معارضة الكفار بالشتم والسب (والذين هم للزكوة فاعلون) اى الزكاة الواجبة مؤدون فعبر عن التأدية بالفعل لانها فعل وقيل الزكاة ههنا هى العمل الصالح والاول أولى (والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام (الا على أزواجهم) على بمعنى من (أو ما ملكت أيمانهم) يعنى الاماء والجوارى والآية فى الرجال خاصة لان المرأة لا يجوز لها ان تستمتع بفرج مملوكها (فانهم غير ملومين) يعنى بعدم حفظ فرجه من امرأته وأمته فانه لا يلام على ذلك وانما الايلام فيما اذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الاتيان فى غير المأتى وفى حال الحيض والنفاس فانه محظور فلا يجوز ومن فعله فانه ملوم (فمن ابتغى وراء ذلك) اى التمس وطلب سوى الازواج والولائد من الجوارى المملوكة (فأولئك هم العادون) اى الظالمون المجاوزون الحد من الحلال الى الحرام وفيه دليل على ان الاستمناء باليد حرام وهو قول أكثر العلماء سئل عطاء عنه فقال مكروه سمعت ان قوما يحشرون وأيديهم حبالى فاظن انهم هؤلاء وقال سعيد بن جبير عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم * قوله عز وجل (والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون) اى حافظون يحفظون ما ائتمنوا عليه والعقود التى عاقدوا الناس عليها يقومون بالوفاء بها والامانات تختلف فمنها ما يكون بين العبد وبين الله تعالى كالصلاة والصوم وغسل الجنابة وسائر العبادات التى أوجبها الله تعالى على العباد فيجب الوفاء بجميعها ومنها ما يكون بين العباد كالودائع والصنائع والاسرار وغير ذلك فيجب الوفاء به أيضا (والذين هم على صلواتهم يحافظون) اى يداومون و يراعون اوقاتها واتمام اركانها و ركوعها وسجودها وسائر شروطها فان قلت كيف كرر ذكر الصلاة أولا وآخرا قلت هما ذكران مختلفان فليس تكرارا وصفهم أولا بالخشوع فى الصلاة وآخرا بالمحافظة عليها * قوله عز وجل (أولئك) يعنى اهل هذه الصفة (هم الوارثون) يعنى يرثون منازل اهل النار من الجنة * عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من احد الا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فمن مات ودخل النار ورث اهل الجنة منزله ٣ وذلك قوله تعالى أولئك هم الوارثون ذكره البغوى بغير سند وقيل معنى الوراثة هو أن يؤل امرهم الى

(الذين يرثون) من الكفار فى الحديث مامنكم من احد الا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فان مات ودخل الجنة ورث اهل النار منزله وان مات ودخل النار ورث اهل الجنة منزله (الفردوس) هو البستان الواسع الجامع لاصناف الثمر وقال قطرب هو اعلى الجنان (هم فيها خالدون) أنث الفردوس بتأويل الجنة (ولقد خلقنا الانسان) اى آدم (من سلالة) من للابتداء والسلالة الخلاصة لانها تسل من بين الكدر وقيل انما سمى التراب الذى خلق آدم منه سلالة لانه سل من كل تربة (من طين) من للبيان كقوله من الاوثان (ثم جعلناه) اى نسله فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه لان آدم عليه السلام لم يصر نطفة وهو كقوله وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وقيل الانسان بنو آدم والسلالة النطفة والعرب تسمى النطفة سلالة اى ولقد خلقنا

الانسان من سلالة يعنى من نطفة مسلولة من طين اى من مخلوق من طين وهو آدم عليه السلام (نطفة) ماء قليلا (فى قرار) مستقر يعنى الرحم (مكين) حصين (ثم خلقنا النطفة) اى صيرناها بدلالة تعديه الى مفعولين والخلق يتعدى الى مفعول واحد (علقة) قطعة دم والمعنى أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) لحما قدر ما يمضغ (فخلقنا المضغة عظاما) فصيرناها عظاما (فكسونا العظام لحما) فانبتنا عليها اللحم فصار لها كاللباس عظما العظام شامى وابو بكر عظما العظام زيد عن يعقوب عظاما العظم عن ابى زيد وضع الواحد موضع الجمع لعدم اللبس اذ الانسان ذو عظام كثيرة (ثم انشأناه)

الى الجنة وينالوها كما يؤول امر الميراث الى الوارث (الذين يرثون الفردوس) هو اعلى الجنة عن عبادة بن الصامت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والارض والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الاربعة ومن فوقها يكون العرش فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس اخرجه الترمذى (هم فيها خالدون) اى لا يخرجون منها ولا يموتون * قوله عز وجل (ولقد خلقنا الانسان) يعنى ولد آدم لان الانسان اسم جنس (من سلالة من طين) قال ابن عباس السلالة صفوة الماء وقيل هى المنى لان النطفة تسل من الظهر من طين يعنى طين آدم لان السلالة تولدت من طين خلق منه آدم وقيل المراد من الانسان هو آدم وقوله من سلالة اى سل من كل تربة (ثم جعلناه نطفة) يعنى الذى هو الانسان جعلناه نطفة (فى قرار مكين) اى حريز وهو الرحم وسمى مكينا لاستقرار النطفة فيه الى وقت الولادة (ثم خلقنا النطفة علقة) اى صيرنا النطفة قطعة دم جامد (فخلقنا العلقة مضغة) اى جعلنا الدم الجامد قطعة لحم صغيرة (فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما) وذلك لان اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة له قيل ان بين كل خلق وخلق اربعين يوما (ثم أنشأناه خلقا آخر) اى بعد ما كان الخلق الاول قال ابن عباس هو نفخ الروح فيه وقيل جعله حيوانا بعد ما كان جمادا وناطقا بعد ما كان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره عجائب صنعه وغرائب فطره وعن ابن عباس قال ان ذلك تصريف احواله بعد الولادة من الاستهلال الى الرضاع الى القعود والقيام الى المشى الى الفطام الى ان يأكل ويشرب الى ان يبلغ الحلم ويتقلب فى البلاد الى ما بعدها (فتبارك الله) اى استحق التعظيم والثناء بانه لم يزل ولا يزال (أحسن الخالقين) اى المصورين والمقدرين فان قلت كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى الله خالق كل شئ وقوله هل من خالق غير الله قلت الخالق له معان منها الايجاد والابداع ولا موجد ولا مبدع الا الله تعالى ومنها التقدير كما قال الشاعر

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ * ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

معناه انت تقدر الامور وتقطعها وغيرك لا يفعل ذلك فعلى هذا يكون معنى الآية الله احسن المقدرين وجواب آخر وهو ان عيسى عليه الصلاة والسلام خلق طيرا وسمى نفسه خالقا بقوله انى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فقال فتبارك الله أحسن الخالقين (ثم انكم بعد ذلك) اى بعد ما ذكر من تمام الخلق (لميتون) اى عند انقضاء آجالكم (ثم انكم يوم القيامة تبعثون) اى للحساب والجزاء * قوله عز وجل

الضمير يعود الى الانسان او الى المذكور (خلقا آخر) اى خلقا مباينا للخلق الاول حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وسميعا وبصيرا وكان بضد هذه الصفات ولهذا قلنا اذا غصب بيضة فافرخت عنده يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لانه خلق آخر سوى البيضة (فتبارك الله) فتعالى أمره فى قدرته وعلمه (أحسن) بدل او خبر مبتدا محذوف وليس بصفة لانه نكرة وان اضيف لان المضاف اليه عوض من من (الخالقين) المقدرين اى أحسن المقدرين تقديرا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه وقيل ان عبد الله بن سعد بن ابى سرح كان يكتب للنبى عليه السلام فنطق بذلك قبل املائه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هكذا نزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى اليه فانا نبى يوحى الى فارتد وتحق بمكة ثم أسلم يوم الفتح وقيل هذه الحكاية غير صحيحة لان ارتداده كان بالمدينة وهذه السورة مكية وقيل القائل عمر او معاذ رضى الله عنهما (ثم انكم بعد ذلك) بعد ما ذكرنا من امركم (لميتون) عند انقضاء آجالكم (ثم انكم يوم القيامة تبعثون)

تحيون للجزاء (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) جمع طريقة وهى السموات لانها طرق الملائكة ومتقلباتهم (وما كنا عن الخلق غافلين) اراد بالخلق السموات كانه قال خلقناها فوقكم وما كنا غافلين عن حفظها او اراد به الناس وانه انما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الارزاق والبركات منها وما كان غافلا عنهم وعما يصلحهم (وانزلنا من السماء ماء) مطرا (بقدر) بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون الى المنفعة او بقدار ما علمنا من حاجاتهم ٣٣٢ (فاسكناه فى الارض) كقوله فسلكه ينابيع فى الارض وقيل جعلناه ثابتا فى الارض فماء الارض كله من السماء ثم استأدى شكرهم بقوله (وانا على ذهاب به لقادرون) اى كما قدرنا على انزاله نقدر على اذهابه فقيدوا هذه النعمة بالشكر (فانشأنا لكم به) بالماء (جنات من نخيل وأعناب لكم فيها) فى الجنات (فواكه كثيرة) سوى النخيل والاعناب (ومنها تأكلون) اى من الجنات اى من ثمارها ويجوز ان هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يغتلها اى انها طعمته وجهته التى منها يحصل رزقه كانه قال وهذه الجنات وجوه ارزاقكم ومعايشكم منها ترزقون وتتعيشون (وشجرة) عطف على جنات وهى شجرة الزيتون (تخرج من طور سيناء) طور سيناء وطور سينين لا يخلو اما ان يضاف الطور الى بقعة اسمها سيناء وسينون واما ان يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وهو جبل فلسطين وسيناء غير منصرف وهو بكل حال مكسور السين كقراءة الحجازى وابى عمرو للتعريف والعجمة او مفتوحها كقراءة غيرهم لان الالف للتأنيث كحمراء (تنبت بالدهن) قال الزجاج الباء للحال اى تنبت ومعها الدهن تنبت مكى وابو عمرو اما لان أنبت بمعنى نبت كقوله حتى اذا أنبت البقل اولان مفعوله محذوف اى تنبت زيتونها وفيه الدهن (وصبغ للآكلين) اى ادام لهم قال مقاتل جعل الله تعالى فى هذه ادامين ودهنا فالادام الزيتون والدهن الزيت وقيل هى اول شجرة نبتت بعد الطوفان وخص هذه الانواع الثلاثة لانها اكرم الشجر وافضلها واجمعها للمنافع

(ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) اى سبع سموات طرائق لان بعضها فوق بعض وقيل لانها طرائق الملائكة فى الصعود والهبوط (وما كنا عن الخلق غافلين) اى بل كنا لهم حافظين من ان تسقط السماء عليهم فتهلكهم وقيل معناه بنينا فوقهم سماء اطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب وقيل ما تركناهم سدى بغير امر ونهى وقيل معناه انما خلقنا السماء فوقهم لتنزل عليهم الارزاق والبركات منها وقيل معناه وما كنا عن الخلق غافلين اى عن اعمالهم وأقوالهم وضمائرهم لا تخفى علينا خافية (وانزلنا من السماء ماء بقدر) اى يعلمه الله من حاجتهم اليه وقيل بقدر ما يكفيهم لمعايشهم فى الزرع والغرس والشرب وانواع المنفعة (فاسكناه فى الارض) يعنى ما يبقى فى الغدران والمستنقعات مما ينتفع به الناس فى الصيف عند انقطاع المطر وقيل أسكناه فى الارض ثم أخرجنا منها ينابيع كالعيون والآبار فكل ماء فى الارض من السماء (وانا على ذهاب به لقادرون) وصح من حديث ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة أخرجه مسلم وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل أنزلها الله عز وجل من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل استودعها الجبال وأجراها فى الارض وجعل فيها منافع للناس فذلك قوله وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه فى الارض فاذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج ارسل الله عز وجل جبريل فرفع من الارض القرآن والعلم كله والحجر الاسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء فذلك قوله تعالى وانا على ذهاب به لقادرون فاذا رفعت هذه الاشياء كلها من الارض فقد أهلها خير الدين والدنيا وروى هذا الحديث البغوى فى تفسيره وقال روى هذا الحديث الامام الحسن بن سفيان بن عثمان بن سعيد بالاجازة عن سعيد بن سابق الاسكندرانى عن مسلمة بن على عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس ثم ذكر ما أنبت بالماء فقال تعالى (فأنشأنا لكم به) اى بالماء (جنات) اى بساتين (من نخيل وأعناب) انما أفردهما بالذكر لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام والادام والفواكه رطبا ويابسا (لكم فيها) اى فى الجنات (فواكه كثيرة ومنها تأكلون) اى شتاء وصيفا (وشجرة) اى وأنشأنا لكم شجرة وهى الزيتون (تخرج من طور سيناء) اى من جبل مبارك وقيل من جبل حسن قيل هو بالنبطية وقيل بالحبشية وقيل بالسريانية ومعناه الجبل الملتف بالاشجار وقيل كل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سيناء وسينين وقيل هو من السناء وهو الارتفاع وهو الجبل الذى منه نودى موسى بين مصر وايلة وقيل هو جبل فلسطين وقيل سيناء اسم حجارة بعينها أضيف الجبل اليها لوجودها عنده وقيل هو اسم المكان الذى فيه هذا الجبل (تنبت بالدهن) اى تنبت وفيها الدهن وقيل تنبت بثمر الدهن وهو الزيت (وصبغ للآكلين) الصبغ الادام الذى يكون مع الخبز ويصبغ به جعل الله تعالى فى هذه الشجرة المباركة أدما وهو الزيتون ودهنا

(وان لكم فى الانعام) جمع نعم وهى الابل والبقر والغنم (لعبرة نسقيكم) وبفتح النون شامى ونافع وأبو بكر وسقى واسقى لغتان (مما فى بطونها) اى نخرج لكم من بطونها لبنا سائغا (ولكم فيها منافع كثيرة) سوى الالبان وهى منافع الاصواف والاوبار والاشعار (ومنها تأكلون) اى لحومها (وعليها) وعلى الانعام فى البر (وعلى الفلك) فى البحر (تحملون) فى أسفاركم وهذا يشير الى ان المراد بالانعام الابل لانها هى المحمول عليها فى العادة فلذا قرنها بالفلك التى هى السفائن لانها سفائن البر قال ذو الرمة * سفينة بر تحت خدى زمامها * يريد ناقته (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله) وحدوه (ما لكم من اله) معبود (غيره) بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ والجملة استئناف تجرى مجرى التعليل للامر بالعبادة (أفلا تتقون) افلا تخافون عقوبة الله الذى هو ربكم وخالقكم اذا عبدتم غيره مما ليس من استحقاق العبادة فى شئ (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) اى اشرافهم لعوامهم (ما هذا الا بشر مثلكم) يأكل ويشرب (يريد أن يتفضل عليكم) اى يطلب الفضل عليكم ويترأس (ولو شاء الله) ارسال رسول (لانزل ملائكة) لارسل ملائكة (ما سمعنا بهذا) اى بارسال بشر رسولا او بما يأمرنا به من التوحيد وسب آلهتنا

والعجب منهم انهم رضوا بالالوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر (فى آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنة) جنون (فتربصوا به حتى حين) فانتظروا واصبروا عليه الى زمان حتى ينجلى أمره فان افاق من جنونه والا قتلتموه (قال رب انصرنى بما كذبون) فلما أيس من ايمانهم دعا الله بالانتقام منهم والمعنى أهلكهم بسبب تكذيبهم اياى اذ فى نصرته اهلاكهم او انصرنى بدل ما كذبون كقولك هذا بذاك اى بدل ذاك والمعنى أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصرة عليهم (فأوحينا اليه) اى أجبنا دعاءه فأوحينا اليه (أن اصنع الفلك باعيننا) اى تصنعه وأنت واثق بحفظ الله لك ورؤيته اياك او بحفظنا وكلاءتنا كأن معك من الله حفاظا يكلؤنك بعيونهم لئلا يتعرض لك ولا يفسد عليك مفسد عملك ومنه قولهم عليه من الله عين كالئة (ووحينا) أمرنا وتعليمنا اياك صنعتها روى انه اوحى اليه ان يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر (فاذا جاء أمرنا) اى عذابنا بأمرنا (وفار التنور) اى فار الماء من تنور الخبز اى أخرج سبب الغرق من موضع الحرق ليكون أبلغ فى الانذار والاعتبار روى انه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وكان تنور آدم فصار الى نوح وكان من حجارة واختلف فى مكانه فقيل فى مسجد الكوفة وقيل بالشام وقيل بالهند (فاسلك فيها) فادخل فى السفينة (من كل زوجين) من كل أمة زوجين وهما أمة الذكر وأمة الانثى كالجمال والنوق والحصن والرماك (اثنين) واحدين مزدوجين كالجمل والناقة والحصان والرمكة روى انه لم يحمل الا ما يلد ويبيض من كل حفص والمفضل اى من كل أمة زوجين اثنين واثنين تأكيد وزيادة بيان (وأهلك) ونساءك واولادك (الا من سبق عليه القول) من الله باهلاكه وهو ابنه واحدى زوجتيه فجىء بعلى مع سبق الضار كما جىء باللام مع سبق النافع فى قوله ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ونحوها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت (منهم

وهو الزيت وخص جبل الطور بالزيتون لانه منه نشأ وقيل ان اول شجرة نبتت بعد الطوفان الزيتون وقيل انها تبقى فى الارض نحو ثلاثة آلاف سنة * قوله عز وجل (وان لكم فى الانعام لعبرة) اى آية تعتبرون بها (نسقيكم مما فى بطونها) اى ألبانها ووجه الاعتبار فيه ان اللبن يخلص الى الضرع من بين فرث ودم باذن الله تعالى ليس فيه منهما شئ فيستحيل الى الطهارة والى طعم يوافق الشهوة والطبع ويصير غذاء وتقدم بسط الكلام بما فيه كفاية فى سورة النحل (ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون) يعنى كما تنتفعون بها وهى حية فكذلك تنتفعون بها بعد الذبح للاكل (وعليها) اى وعلى الابل (وعلى الفلك تحملون) اى على الابل فى البر وعلى السفن فى البحر قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) اى ما لكم معبود سواه (أفلا تتقون) اى أفلا تخافون عقابه اذا عبدتم غيره (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم) اى آدمى مثلكم مشارك لكم فى جميع الامور (يريد أن يتفضل عليكم) اى انه يحب الشرف والرياسة فيصير متبوعا وأنتم له تبع (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) يعنى بابلاغ الوحى (ما سمعنا بهذا) اى الذى يدعونا اليه نوح (فى آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنة) اى جنون (فتربصوا به حتى حين) اى الى الموت فتستريحوا منه (قال رب انصرنى بما كذبون) اى أعنى باهلاكهم بتكذيبهم اياى (فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا) اى بمرأى منا قاله ابن عباس وقيل بعلمنا وحفظنا لئلا يتعرض له أحد ولا يفسد عليه عمله (ووحينا) قيل ان جبريل علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها (فاذا جاء أمرنا) اى عذابنا (وفار التنور) قيل هو التنور الذى يخبز فيه وكان من حجارة وقيل التنور هو وجه الارض والمعنى انك اذا رأيت الماء يفور من التنور (فاسلك فيها) أى فادخل فى السفينة (من كل زوجين اثنين) اى من كل حيوان ذكر وأنثى (وأهلك) اى وسائر من آمن بك (الا من سبق عليه القول) اى وجب عليه العذاب (منهم) يعنى الكفار وقيل أراد باهله أهل بيته خاصة والذى سبق

ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون) ولا تسألني نجاة الذين كفروا فاني اغرقهم (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فاذا تمكنتم عليها راكبين (فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم ولم يقل فقولوا او ان كنتم فاذا استويت أنت ومن معك في معنى اذا استويتم لانه نبيهم وامامهم فكان قوله قولهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبي (وقل) حين ركبت على السفينة او حين خرجت منها (رب أنزلني منزلا) اى انزالا او موضع انزل منزلا ابو بكر اى مكانا (مباركا وأنت خير المنزلين) والبركة في السفينة النجاة فيها وبعد الخروج منها كثرة النسل وتتابع الخيرات (ان في ذلك) فيما فعل بنوح وقومه (لآيات) لعبرا ومواعظ (وان) هي المخففة من المثقلة واللام هي الفارقة بين النافية وبينها والمعنى وان الشان والقصة (كنا لمبتلين) مصيبين قوم نوح بلاء عظيم وعقاب شديد او مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر كقوله تعالى ولقد تركناها آية فهل من مدكر (ثم انشأنا) خلقنا (من بعدهم) من بعد قوم نوح (قرنا آخرين) هم عاد قوم هود ويشهد له قول هود واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في الاعراف وهود والشعراء (فأرسلنا فيهم) الارسال يعدى بالى ولم يعد بفي هنا وفي قوله كذلك أرسلناك في أمة

وما أرسلنا في قرية ولكن الامة والقرية جعلت موضعا للارسال كقول رؤبة

* أرسلت فيها مصعبا ذا لقحام *

(رسولا) هو هود (منهم) من قومهم (أن اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون) أن مفسرة لأرسلنا اى قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله (وقال الملأ من قومه) ذكر مقالة قوم هود في جوابه في الاعراف وهود بغير واو لانه على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه فقيل له قالوا كيت وكيت وههنا مع الواو لانه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول ومعناه انه

عليه القول منهم هو انه كنعان (ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون) * قوله عز وجل (فاذا استويت) اى اعتدلت (أنت ومن معك على الفلك) اى في السفينة (فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) اى الكافرين (وقل رب أنزلني منزلا مباركا) قيل موضع النزول وهو السفينة عند الركود وقيل هو وجه الارض بعد الخروج من السفينة وأراد بالبركة النجاة من الغرق وكثرة النسل بعد الانجاء (وأنت خير المنزلين) معناه انه قد يكون الانزال من غير الله كما يكون من الله فحسن ان يقول وأنت خير المنزلين لانه يحفظ من أنزله ويكلؤه في سائر أحواله ويدفع عنه المكاره بخلاف منزل الضيف فانه لا يقدر على ذلك (ان في ذلك) اى الذي ذكر من أمر نوح والسفينة واهلاك أعداء الله (لآيات) اى دلالات على قدرتنا (وان كنا) اى وما كنا (لمبتلين) اى لمختبرين اياهم بارسال نوح ووعظه وتذكيره لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم) اى من بعد اهلاكهم (قرنا آخرين) يعني عادا (فأرسلنا فيهم رسولا منهم) يعني هودا قاله أكثر المفسرين وقيل القرن ثمود والرسول صالح والاول أصح (ان اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون) اى هذه الطريقة التي أنتم عليها مخافة العذاب (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة) اى بالمصير اليها (وأترفناهم) اى نعمناهم ووسعنا عليهم (في الحيوة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) اى من مشربكم (ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون) اى لمغبونون (أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) اى من قبوركم أحياء (هيهات هيهات) قال ابن عباس اى بعيد بعيد (لما توعدون) استبعد القوم بعثهم بعد الموت اغفالا منهم للتفكر في بدء أمرهم وقدرة الله على ايجادهم وأرادوا بهذا الاستبعاد

انه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل وليس بجواب للنبي صلى الله عليه وسلم متصل بكلامه ولم يكن بالفاء وجيء بالفاء في قصة نوح لانه جواب لقوله واقع عقيبه (الذين كفروا) صفة للملا او لقومه (وكذبوا بلقاء الآخرة) اى بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك (وأترفناهم) ونعمناهم (في الحيوة الدنيا) بكثرة الاموال والاولاد (ما هذا) اى النبي (الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) اى منه فحذف لدلالة ما قبله عليه اى من أين يدعي رسالة الله من بينكم وهو مثلكم (ولئن أطعتم بشرا مثلكم) اى فيما يأمركم به وينهاكم عنه (انكم اذا) واقع في جزاء الشرط وجواب للذين قالوا لهم من قومهم (لخاسرون) بالانقياد لمثلكم ومن حقهم انهم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعز منهم (أيعدكم أنكم اذا متم) بالكسر نافع وحمزة وعلي وحفص وغيرهم بالضم (وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) مبعوثون للسؤال والحساب والثواب والعقاب وثنى أنكم للتأكيد وحسن ذلك للفصل بين الاول والثاني بالظرف ومخرجون خبر عن الاول والتقدير أيعدكم أنكم مخرجون اذا متم وكنتم ترابا وعظاما (هيهات هيهات) وبكسر التاء يزيد وروي عنه بالكسر والتنوين فيهما والكسائي يقف بالهاء وغيره بالتاء وهو اسم للفعل واقع موقع بعد فاعلها مضمر اى بعد التصديق أو الوقوع (لما توعدون) من العذاب أو فاعلها ما توعدون واللام زائدة اى بعد ما توعدون من البعث

(ان هى) هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به الا بما يتلوه من بيانه وأصله ان الحياة (الا حياتنا الدنيا) ثم وضع هى موضع الحياة لان الخبر يدل عليها او بينهما والمعنى لا حياة الا هذه الحياة التى نحن فيها ودنت منا وهذا الان ان النافية دخلت على هى التى فى معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التى لنفى الجنس (نموت ونحيا) اى يموت بعض و يولد بعض ينقرض قرن فيأتى قرن آخر أو فيه تقديم وتأخير اى نحيا ونموت وهو قراءة أبى وابن مسعود رضى الله عنهما (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت (ان هو الا رجل افترى على الله كذبا) أى ما هو الا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له وفيما يعدنا من البعث (وما نحن له بمؤمنين) بمصدقين (قال رب انصرنى بما كذبون) فاجاب الله دعاء الرسول بقوله (قال عما قليل) قليل صفة للزمان كقديم وحديث فى قولك ما رأيته قديما ولا حديثا وفى معناه عن قريب وما زائدة او بمعنى شئ اوزمن وقليل بدل منها وجواب القسم المحذوف (ليصبحن نادمين) اذا عاينوا ما يحل بهم (فاخذتهم الصيحة) اى صيحة جبريل صاح عليهم فدمرهم (بالحق) بالعدل من الله يقال فلان يقضى بالحق اى بالعدل (فجعلناهم غثاء) شبههم فى دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بلى واسود من الورق والعيدان (فبعدا) فهلا كا يقال بعد بعدا وبعدا اى هلك وهو من المصادر المنصوبة بافعال لا يستعمل اظهارها (للقوم الظالمين) بيان لمن دعى عليه بالبعد نحو هيت لك (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم (ما تسبق من أمة) من صلة اى ما تسبق امة (أجلها) المكتوب لها والوقت الذى حد لهلاكها وكتب (وما يستأخرون) لا يتأخرون عنه (ثم ارسلنا رسلنا تترى) فعلى والالف للتأنيث كسكرى لان الرسل جماعة ولذا لا ينون لانه غير منصرف تترى بالتنوين مكى وأبو عمرو

انه لا يكون أبدا (ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) قيل معناه نحيا ونموت لانهم كانوا ينكرون البعث وقيل يموت الآباء ويحيا الابناء وقيل معناه يموت قوم ويحيا قوم (وما نحن بمبعوثين) اى بعد الموت (ان هو) يعنون رسولهم (الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين) اى بمصدقين بالبعث بعد الموت (قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل ليصبحن) اى ليصيرن (نادمين) على كفرهم وتكذيبهم (فاخذتهم الصيحة بالحق) يعنى صيحة العذاب وقيل صاح بهم جبريل فتصدعت قلوبهم وقيل أراد بالصيحة الهلاك (فجعلناهم غثاء) هو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان وشجر والمعنى صيرناهم هلكى فيبسوا يبس الغثاء من نبات الارض (فبعدا) اى الزمنا بعدا من الرحمة (للقوم الظالمين) * قوله عز وجل (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) اى أقواما آخرين (ما تسبق من أمة أجلها) اى وقت هلاكها (وما يستأخرون) اى عن وقت هلاكهم (ثم أرسلنا رسلنا تترى) اى متوادفين يتبع بعضهم بعضا غير متواصلين لان بين كل رسولين زمانا طويلا (كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا) اى بالهلاك فاهلكنا بعضهم فى أثر بعض (وجعلناهم أحاديث) اى عبرا وقصصا يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم (فبعدا لقوم لا يؤمنون) قوله تعالى (ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين) اى بحجة بينة كالعصا واليد وغيرهما (الى فرعون وملئه فاستكبروا) اى تعظموا عن الايمان (وكانوا قوما عالين) اى متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم (فقالوا) يعنى فرعون وقومه (أنؤمن لبشرين مثلنا) يعنون موسى وهرون (وقومهما لنا عابدون) اى مطيعون متذللون (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) اى بالغرق (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (لعلهم يهتدون) اى لكى يهتدى به قومه قوله عز وجل (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) اى دلالة على قدرتنا لانه خلقه من غير ذكر وأنطقه فى المهد فان قلت لم قال آية ولم يقل آيتين قلت معناه جعلنا

ويزيد على ان الالف للالحاق كارطى وهو نصب على الحال فى القراءتين اى متتابعين واحدا بعد واحد وتاؤها فيهما بدل من الواو والاصل وترى من الوتر وهو الفرد فقلبت الواو تاء كتراث (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) الرسول يلابس المرسل والمرسل اليه والاضافة تكون بالملابسة فتصح اضافته اليهما (فاتبعنا) الامم والقرون (بعضهم بعضا) فى الهلاك (وجعلناهم أحاديث) اخبارا يسمع بها ويتعجب منها والاحاديث تكون اسم جمع للحديث ومنه احاديث النبى عليه الصلاة والسلام وتكون جمعا للاحدوثة وهو ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا (فبعدا لقوم لا يؤمنون ثم ارسلنا موسى وأخاه هرون) بدل من أخاه (بآياتنا) التسع (وسلطان مبين) وحجة ظاهرة (الى فرعون وملئه فاستكبروا) امتنعوا عن قبول الايمان ترفعا وتكبرا (وكانوا قوما عالين) متكبرين مترفعين (فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا) البشر يكون واحدا وجمعا ومثل وغير يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث (وقومهما) اى بنو اسرائيل (لنا عابدون) خاضعون مطيعون وكل من دان لملك فهو عابد له عند العرب (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) بالغرق (ولقد آتينا موسى) اى قوم موسى (الكتاب) التوراة (لعلهم يهتدون) يعملون بشرائعها ومواعظها (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) تدل على قدرتنا على ما نشاء لانه خلق من غير نطفة وحد لان الاعجوبة فيهما واحدة أو المراد وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها

(وآويناهما) جعلنا مأواهما اى منزلهما (الى ربوة) شامى وعاصم ربوة غيرهما اى أرض مرتفعة وهى بيت المقدس او دمشق او الرملة او مصر (ذات قرار) مستقر من أرض مستوية منبسطة أو ذات ثمار وماء يعنى انه لاجل الثمار يستقر فيها ساكنوها (ومعين) وماء ظاهر جار على وجه الارض او انه مفعول اى مدرك بالعين بظهوره من عانه اذا أدركه بعينه او فعيل لانه نفاع بظهوره وجريه من المعن وهو المنفعة (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما لانهم أرسلوا متفرقين فى أزمنة مختلفة وانما المعنى الاعلام بأن كل رسول فى زمانه نودى بذلك ووصى به ليعتقد السامع ان امرا نودى له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه او هو خطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام لفضله وقيامه مقام الكل فى زمانه وكان يأكل من الغنائم او لعيسى عليه السلام لاتصال الآية بذكره وكان يأكل من غزل أمه وهو أطيب الطيبات والمراد بالطيبات ما حل والامر للتكليف أو ما يستطاب ويستلذ والامر للترفيه والاباحة ٣٣٦ (واعملوا صالحا) موفقا للشريعة (انى بما تعملون عليم) فأجازيكم على أعمالكم (وان هذه

شأنهما آية لان عيسى ولد من غير ذكر وكذلك مريم ولدته من غير ذكر فاشتركا فى هذه الآية فكانت آية واحدة (وآويناهما الى ربوة) اى مكان مرتفع قيل هى دمشق وقيل هى الرملة وقيل أرض فلسطين وقال ابن عباس هى بيت المقدس قال كعب بيت المقدس أقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا وقيل هى مصر وسبب الايواء انها فرت بابنها اليها وقوله (ذات قرار) اى منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها (ومعين) هو الماء الجارى الذى تراه العيون قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) قيل أراد بالرسل محمدا صلى الله عليه وسلم وحده وقيل أراد به عيسى عليه السلام وقيل اراد جميع الرسل وأراد بالطيبات الحلال (واعملوا صالحا) اى استقيموا على ما يوجبه الشرع (انى بما تعملون عليم) فيه تحذير من مخالفة ما أمرهم به واذا كان الرسل مع علو شأنهم كذلك فلأن يكون تحذيرا لغيرهم اولى لما روى عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث أغبر يمد يديه الى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فانى يستجاب لذلك اخرجه مسلم قوله عز وجل (وان هذه أمتكم) اى ملتكم وشريعتكم التى انتم عليها (أمة واحدة) اى ملة واحدة وهى الاسلام (وانا ربكم فاتقون) اى فاحذرون وقيل معناه أمرتكم بما أمرت به المرسلين قبلكم فأمركم واحد وأنا ربكم فاتقون (فتقطعوا) اى تفرقوا فصار وا فرقا يهودا ونصارى ومجوسا وغير ذلك من الاديان المختلفة (أمرهم) اى دينهم (بينهم زبرا) اى فرقا وقطعا مختلفة وقيل معنى زبرا اى كتبا والمعنى تمسك كل قوم بكتاب فآمنوا به وكفروا بما سواه من الكتب (كل حزب بما لديهم فرحون) اى مسرورون معجبون بما عندهم من الدين (فذرهم) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم (فى غمرتهم) قال ابن عباس فى كفرهم وضلالتهم وقيل فى عماياتهم وغفلتهم (حتى حين) اى الى ان يموتوا (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) اى ما نعطيهم ونجعله لهم مدادا من المال والبنين فى الدنيا (نسارع لهم فى الخيرات) اى نجعل لهم ذلك فى الخيرات ونقدمه ثوابا لاعمالهم لمرضاتنا عنهم (بل لا يشعرون) اى ان ذلك استدراج لهم ثم ذكر المسارعين

كوفى على الاستئناف وأن حجازى وبصرى بمعنى ولأن اى فاتقون لان هذه او معطوف على ما قبله اى بما تعملون عليم وبان هذه او تقديره واعلموا أن هذه (أمتكم) اى ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها (أمة واحدة) ملة واحدة وهى شريعة الاسلام وانتصاب أمة على الحال والمعنى وان الدين دين واحد وهو الاسلام ومثله ان الدين عند الله الاسلام (وأنا ربكم) وحدى (فاتقون) فخافوا عقابى فى مخالفتكم أمرى (فتقطعوا أمرهم بينهم) تقطع بمعنى قطع اى قطعوا أمر دينهم (زبرا) جمع زبور اى كتبا مختلفة يعنى جعلوا دينهم أديانا وقيل تفرقوا فى دينهم فرقا كل فرقة تنتحل كتابا وعن الحسن قطعوا كتاب الله قطعا وحرفوه وقرئ زبرا جمع زبرة اى قطعا (كل حزب) كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم (بما لديهم) من الكتاب والدين أو من الهوى والرأى (فرحون) مسرورون معتقدون انهم على الحق (فذرهم فى غمرتهم) جهالتهم وغفلتهم (حتى حين) اى الى ان يقتلوا أو يموتوا (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) ما بمعنى الذى وخبران (نسارع لهم فى الخيرات) والعائد من خبران الى اسمها محذوف اى نسارع لهم به والمعنى ان هذا الامداد ليس الا استدراجا لهم الى المعاصى وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات ومعاجلة بالثواب جزاء على حسن صنيعهم وهذه الآية حجة على المعتزلة فى مسئلة الاصلح لانهم يقولون ان الله لا يفعل باحد من الخلق الا ما هو أصلح له فى الدين وقد أخبر أن ذلك ليس بخير لهم فى الدين ولا اصلح (بل لا يشعرون) بل استدراك لقوله أيحسبون اى انهم أشباه البهائم لا شعور لهم حتى يتأملوا فى ذلك انه استدراج أو مسارعة فى الخير ثم بين ذكر أوليائه فقال

(ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) اى خائفون (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) اى بكتب الله كلها لا يفرقون بين كتبه كالذين تقطعوا أمرهم بينهم وهم اهل الكتاب (والذين هم بربهم لا يشركون) كمشركى العرب (والذين يؤتون ما آتوا) اى يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات وقرئ يأتون ما أتوا بالقصر اى يفعلون ما فعلوا (وقلوبهم وجلة) خائفة ان لا تقبل منهم لتقصيرهم (انهم الى ربهم راجعون) الجمهور على ان التقدير لانهم وخبر ان الذين (أولئك يسارعون فى الخيرات) يرغبون فى الطاعات فيبادرونها (وهم لها سابقون) اى لاجل الخيرات سابقون الى الجنات اولاجلها سبقوا الناس (ولا نكلف نفسا الا وسعها) اى طاقتها يعنى ان الذى وصف به الصالحون غير خارج عن حد الوسع والطاقة وكذلك كل ما كلفه

عباده وهو رد على من جوز تكليف

فى الخيرات فقال تعالى (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) اى خائفون والمعنى ان المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه قال الحسن البصرى المؤمن جمع احسانا وخشية والمنافق جمع اساءة وامنا (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) اى يصدقون (والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا) اى يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات وقيل معناه يعملون ما عملوا من اعمال البر (وقلوبهم وجلة) اى خائفة ان ذلك لا ينجيهم من عذاب الله وان أعمالهم لا تقبل منهم (انهم الى ربهم راجعون) اى أنهم يوقنون انهم الى الله صائرون قال الحسن عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا ان ترد عليهم * عن عائشة قالت قلت يا رسول الله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال لا يا بنت الصديق ولكن هم الذين يصومون ويتصدقون ويخافون ان لا يقبل منهم اولئك يسارعون فى الخيرات اخرجه الترمذى وقوله (أولئك يسارعون فى الخيرات) اى يبادرون الى الاعمال الصالحة (وهم لها سابقون) اى اليها وقال ابن عباس سبقت لهم من الله السعادة وقيل سبقوا الامم الى الخيرات * قوله عز وجل (ولا نكلف نفسا الا وسعها) اى طاقتها من الاعمال فمن لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع الصوم فليفطر وليقض (ولدينا كتاب) هو اللوح المحفوظ (ينطق بالحق) اى يبين الصدق والمعنى قد أثبتنا عمل كل عامل فى اللوح المحفوظ فهو ينطق به ويبينه وقيل هو كتاب أعمال العباد التى تكتبها الحفظة (وهم لا يظلمون) اى لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ثم ذكر الكفار فقال تعالى (بل قلوبهم فى غمرة) اى غفلة وجهالة (من هذا) اى القرآن (ولهم أعمال) اى للكفار أعمال خبيثة من المعاصى والخطايا محكومة عليهم (من دون ذلك) يعنى من دون اعمال المؤمنين التى ذكرها الله فى قوله ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون (هم) يعنى الكفار (لها) اى لتلك الاعمال الخبيثة (عاملون) اى لا بد لهم من أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم فى الازل من الشقاوة (حتى اذا أخذنا مترفيهم) اى رؤساءهم وأغنياءهم (بالعذاب) قال ابن عباس هو السيف يوم بدر وقيل هو الجوع حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف (اذا هم يجأرون) اى يصيحون ويستغيثون ويجزعون (لا تجأروا اليوم) اى لا تجزعوا ولا تضجوا اليوم (انكم منا لا تنصرون) اى لا تمنعون منا ولا ينفعكم تضرعكم (قد كانت آياتى تتلى عليكم) يعنى القرآن (فكنتم على أعقابكم تنكصون) اى ترجعون القهقرى وتتأخرون عن الايمان (مستكبرين به) قال ابن عباس اى بالبيت الحرام كناية عن غير مذكور اى مستعظمين بالبيت وذلك انهم كانوا يقولون نحن اهل حرم

مالا يطاق (ولدينا كتاب) اى اللوح او صحيفة الاعمال (ينطق بالحق وهم لا يظلمون) لا يقرؤن منه يوم القيامة الا ما هو صدق وعدل لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم احد بزيادة عقاب او نقصان ثواب او بتكليف مالا وسع له به (بل قلوبهم فى غمرة من هذا) بل قلوب الكفرة فى غفلة غامرة لها عما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين (ولهم أعمال من دون ذلك) اى ولهم اعمال خبيثة متجاوزة متخطية لذلك اى لما وصف به المؤمنون (هم لها عاملون) وعليها مقيمون لا يقطعون منها حتى يأخذهم الله بالعذاب (حتى اذا أخذنا مترفيهم) متنعميهم (بالعذاب) عذاب الدنيا وهو القحط سبع سنين حين دعا عليهم النبى عليه

الصلاة والسلام أو قتلهم يوم بدر وحتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام والكلام الجملة الشرطية (اذا هم يجأرون) يصرخون استغاثة والجؤار الصراخ باستغاثة فيقال لهم (لا تجأروا اليوم) فان الجؤار غير نافع لكم (انكم منا لا تنصرون) اى من جهتنا لا يلحقكم نصر ولا معونة (قد كانت آياتى تتلى عليكم) اى القرآن (فكنتم على أعقابكم تنكصون) ترجعون القهقرى والنكوص أن يرجع القهقرى وهو اقبح مشية لانه لا يرى ما وراءه (مستكبرين) متكبرين على المسلمين حال من تنكصون (به) بالبيت او بالحرم لانهم يقولون لا يظهر علينا أحد لانا اهل الحرم والذى سوغ هذا الاضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت او بآياتى لانها فى معنى كتابى ومعنى استكبارهم بالقرآن تكذيبهم به استكبارا ضمن مستكبرين معنى مكذبين فعدى تعديته أو يتعلق الباء بقوله

(سامرا) تسمرون بذكر القرآن و بالطعن فيه وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته شعرا وسحرا والسامر نحو الحاضر في الاطلاق على الجمع وقرئ سمارا أو بقوله (تهجرون) وهو من الهجر الهذيان تهجرون نافع من أهجر في منطقه اذا أفحش (أفلم يدبروا القول) أفلم يتدبروا القرآن ليعلموا انه الحق المبين فيصدقوا به و بمن جاء به (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين) بل أجاءهم مالم يأت آباءهم الاولين فلذلك أنكروه واستبعدوه (أم لم يعرفوا رسولهم) محمدا بالصدق والامانة ووفور العقل وصحة النسب وحسن الاخلاق أى عرفوه بهذه الصفات (فهم له منكرون) بغيا وحسدا (أم يقولون به جنة) جنون وليس كذلك لانهم يعلمون انه أوجههم عقلا وأثقبهم ذهنا (بل جاءهم بالحق) الابلج الصراط المستقيم و بما خالف شهواتهم وأهواءهم وهو التوحيد والاسلام ولم يجدوا له مردا ولا مدفعا فلذلك نسبوه الى الجنون (وأكثرهم للحق كارهون) وفيه دليل على ان أقلهم ما كان كارها للحق بل كان تاركا للايمان به أنفة ٣٣٨ واستنكافا من توبيخ قومه وان يقولوا صبأ وترك دين آبائه كابى طالب (ولو اتبع الحق)

الله و جيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف وقيل مستكبرين به اى بالقرآن فلم يؤمنوا به والقول الاول أظهر (سامرا) يعنى انهم يسمرون بالليل حول البيت وكان عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا ونحو ذلك من القول فيه وفى النبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله (تهجرون) من الاهجار وهو الافحاش في القول وقيل معنى تهجرون تعرضون عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الايمان به و بالقرآن وقيل هو من الهجر وهو القول القبيح اى تهذون وتقولون مالا تعلمون (أفلم يدبروا القول) يعنى أفلم يتدبروا ما جاءهم من القرآن فيعتبروا بما فيه من الدلالات الواضحة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين) يعنى فانكروا يريد انا قد بعثنا من قبلهم رسلا الى قومهم فكذلك بعثنا محمدا صلى الله عليه وسلم (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) قال ابن عباس أليس قد عرفوا محمدا صلى الله عليه وسلم صغيرا وكبيرا وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الاعراض عنه بعد ما عرفوه بالصدق والامانة (أم يقولون به جنة) اى جنون وليس هو كذلك (بل جاءهم بالحق) اى بالصدق والقول الذى لا تخفى صحته وحسنه على عاقل (وأكثرهم للحق كارهون) * قوله عز وجل (ولو اتبع الحق أهواءهم) قيل الحق هو الله تعالى والمعنى ولو اتبع الله مرادهم فيما يفعل وقيل لو سمى لنفسه شريكا وولدا كما يقولون وقيل الحق هو القرآن اى لو نزل القرآن بما يحبون وما يعتقدون (لفسدت السموات والارض ومن فيهن) اى لفسد العالم (بل أتيناهم بذكرهم) قال ابن عباس بما فيه شرفهم وفخرهم وهو القرآن (فهم عن ذكرهم) اى شرفهم (معرضون أم تسئلهم) اى على ما جئتهم به (خرجا) اى أجرا وجعلا (فخراج ربك خير) اى ما يعطيك الله من رزقه وثوابه خير (وهو خير الرازقين) تقدم تفسيره (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) اى الى دين الاسلام (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط) اى عن دين الحق (لناكبون) اى لعادلون عنه وما ئلون (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر) اى قحط وجدوبة (للجوا) اى لتمادوا (فى طغيانهم يعمهون) اى لم ينزعوا عنه (ولقد أخذناهم بالعذاب) وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل الله عليهم سنين كسنى يوسف فأصابهم القحط فجاء

اى الله (أهواءهم) فيما يعتقدون من الآلهة (لفسدت السموات والارض) كما قال لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (ومن فيهن) خص العقلاء بالذكر لان غيرهم تبع (بل أتيناهم بذكرهم) بالكتاب الذى هو ذكرهم اى وعظهم او شرفهم لان الرسول منهم والقرآن بلغتهم أو بالذكر الذى كانوا يتمنونه و يقولون لو أن عندنا ذكرا من الاولين الآية (فهم عن ذكرهم معرضون) بسوء اختيارهم (أم تسئلهم خرجا فخراج ربك خير) حجازى وبصرى وعاصم خرجا فخرج على وحمزة شامى خراجا فخراج وهو ما تخرجه الى الامام من زكاة ارضك والى كل عامل من أجرته وجعله والخرج أخص من الخراج تقول خراج القرية وخرج الكوفة ابو فز يادة اللفظ لزيادة المعنى ولذا حسنت القراءة الاولى يعنى أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من الخالق خير (وهو خير الرازقين) أفضل المعطين (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) وهو دين الاسلام فحقيق أن يستجيبوا لك (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) لعادلون عن هذا الصراط المذكور وهو الصراط المستقيم (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر) لما أخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز جاء ابو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أنشدك الله والرحم ألست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فنزلت الآية والمعنى لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو القحط الذى أصابهم برحمته لهم ووجدوا الخصب (للجوا) اى لتمادوا (فى طغيانهم يعمهون) يترددون يعنى لعادوا الى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولذهب عنهم هذا التملق بين يديه (ولقد أخذناهم بالعذاب

فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) استشهد على ذلك بانا أخذناهم أولا بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجدت بعد ذلك منهم استكانة اى خضوع ولا تضرع وقوله وما يتضرعون عبارة عن دوام حالهم اى وهم على ذلك بعد ولذا لم يقل وما تضرعوا ووزن استكان استفعل من الكون اى انتقل من كون الى كون كما قيل استحال اذا انتقل من حال الى حال (حتى اذا فتحنا) فتحنا يزيد (عليهم بابا ذا عذاب شديد) اى باب الجوع الذى هو أشد من الاسر والقتل (اذا هم فيه مبلسون) متحيرون آيسون من كل خير وجاءتهم وأشدهم شكيمة فى العناد يستعطفك او محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤى فيهم اين مقادة وهم كذلك حتى اذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون (وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة) خصها بالذكر لانها يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية مالا يتعلق بغيرها (قليلا ما تشكرون) اى تشكرون شكرا قليلا وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقا والمعنى انكم لم تعرفوا عظم هذه النعم ووضعتموها غير مواضعها فلم تعملوا ابصاركم ٣٣٩ وأسماعكم فى آيات الله وافعاله ولم تستدلوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولم تشكروا له شيأ (وهو الذى ذرأكم) خلقكم وبثكم بالتناسل (فى الارض واليه تحشرون) تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم (وهو الذى يحيى ويميت) اى يحيى النسم بالانشاء ويميتها بالافناء (وله اختلاف الليل والنهار) اى مجىء أحدهما عقيب الآخر واختلافهما فى الظلمة والنور أو فى الزيادة والنقصان وهو مختص به ولا يقدر على تصريفهما غيره (أفلا تعقلون) فتعرفوا اقدرتنا على البعث او فتستدلوا بالصنع على الصانع فتؤمنوا (بل قالوا) اى اهل مكة (مثل ما قال الاولون) اى الكفار قبلهم ثم بين ما قالوا بقوله (قالوا

ابو سفيان الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أنشدك الله والرحم ألست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال انهم قد أكلوا القد والعظام وشكا اليه الضر فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية (فما استكانوا لربهم) اى ما خضعوا وما ذلوا لربهم (وما يتضرعون) اى لم يتضرعوا الى ربهم بل مضوا على تمردهم (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) قال ابن عباس يعنى القتل يوم بدر وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة (اذا هم فيه مبلسون) اى آيسون من كل خير * قوله عز وجل (وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة) اى لتسمعوا بها وتبصروا وتعقلوا (قليلا ما تشكرون) اى لم تشكروا هذه النعم (وهو الذى ذرأكم فى الارض) اى خلقكم (واليه تحشرون) اى تبعثون (وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار) اى تدبير الليل والنهار فى الزيادة والنقصان وقيل جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان فى السواد والبياض (أفلا تعقلون) اى ما تزجرون من صنعه فتعتبروا (بل قالوا مثل ما قال الاولون) اى كذبوا كما كذب الاولون وقيل معناه أنكروا البعث مثل ما أنكر الاولون مع وضوح الادلة (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) اى لمحشورون قالوا ذلك على طريق الانكار والتعجب (لقد وعدنا نحن) اى هذا الوعد (وآباؤنا هذا من قبل) اى وعد آباءنا قوم ذكروا انهم رسل الله فلم نره حقيقة (ان هذا الا أساطير الاولين) اى أكاذيب الاولين قوله تعالى (قل) اى يا محمد لاهل مكة (لمن الارض ومن فيها) من الخلق (ان كنتم تعلمون) اى خالقها ومالكها (سيقولون لله) اى لا بد لهم من ذلك لانهم يقرون انها مخلوقة لله (قل) اى قل لهم يا محمد اذا اقروا بذلك (أفلا تذكرون) اى فتعلموا ان من قدر على خلق الارض ومن فيها ابتداء يقدر على احيائهم بعد الموت (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون) اى عبادة غيره وقيل معناه أفلا تحذرون عقابه (قل من بيده ملكوت كل شئ) اى ملك كل شئ (وهو يجير) اى يؤمن من يشاء (ولا يجار عليه) اى لا يؤمن من أخافه الله وقيل يمنع هو من يشاء من السوء ولا يمتنع منه من أراده بسوء (ان كنتم تعلمون) اى فاجيبوا (سيقولون لله قل فأنى تسحرون) اى فانى تخدعون وتصرفون عن توحيده

أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) متنا نافع وحمزة وعلى وحفص (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) اى البعث (من قبل) قبل يجىء محمد (ان هذا الا أساطير الاولين) جمع اسطار جمع سطر وهى ما كتبه الاولون مما لا حقيقة له وجمع اسطورة أو فق ثم امر نبيه عليه الصلاة والسلام باقامة الحجة على المشركين بقوله (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون) فانهم (سيقولون لله) لانهم مقرون بانه الخالق فاذا قالوا (قل أفلا تذكرون) فتعلموا ان من فطر الارض ومن فيها كان قادرا على اعادة الخلق وكان حقيقا بان لا يشرك به بعض خلقه فى الربوبية أفلا تذكرون بالتخفيف حمزة وعلى وحفص وبالتشديد غيرهم (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون) أفلا تخافونه فلا تشركوا به او أفلا تتقون فى جحودكم قدرته على البعث مع اعترافكم بقدرته على خلق هذه الاشياء (قل من بيده ملكوت كل شئ) الملكوت الملك والواو والتاء للمبالغة فتنبئ عن عظم الملك (وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون) اجرت فلانا على فلان اذا أغثته منه ومنعته يعنى وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه أحدا (سيقولون لله قل فانى تسحرون) تخدعون عن الحق او عن توحيده وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى الاول لله بالاجماع اذا السؤال لمن وكذا الثانى والثالث عند غير

اهل البصرة على المعنى لانك اذا قلت من رب هذا فمعناه لمن هذا فيجاب للان كقول الشاعر اذا قيل من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجرد قيل لخالد اى لمن المزالف ومن قرأ بحذفه فعلى الظاهر لانك اذا قلت من رب هذا فجوابه فلان (بل أتيناهم بالحق) بأن نسبة الولد اليه محال والشرك باطل (وانهم لكاذبون) فى قولهم اتخذ الله ولدا وعاشهم الشريك ثم أكد تكذيبهم بقوله (ما اتخذ الله من ولد) لانه منزه عن النوع والجنس وولد الرجل من جنسه (وما كان معه من اله) وليس معه شريك فى الالوهية (اذا لذهب كل اله بما خلق) لانفرد كل واحد من الآلهة بالذى خلقه فاستبد به ولتميز لملك كل واحد منهم عن الآخر (ولعلا بعضهم على بعض) ولغلب بعضهم بعضا كما نرون حال ملوك الدنيا مما لكهم متمايزة وهم متغالبون وحين لم تر وا أثر التمايز المالك وللتغالب فاعلموا انه اله واحد بيده ملكوت كل شئ ولا يقال اذا لا تدخل الاعلى كلام هو جزاء وجواب وههنا وقع لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل لان الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة لدلالة وما كان معه من اله عليه وهو جواب لمن حاجه من المشركين (سبحان الله عما يصفون) من الانداد والاولاد ٣٤٠ (عالم) بالجر صفة لله وبالرفع مدنى وكوفى غير حفص خبر مبتدا محذوف (الغيب والشهادة) السر والعلانية (فتعالى عما يشركون) من الاصنام وغيرها (قل رب اما ترينى ما يوعدون) ما والنون مؤكدان اى ان كان لابد من أن ترينى ما تعدهم من العذاب فى الدنيا او فى الآخرة (رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) اى فلا تجعلنى قرينا لهم ولا تعذبنى بعذابهم عن الحسن رضى الله عنه اخبره الله ان له فى أمته نقمة ولم يخبره متى وقتها فامران يدعو هذا الدعاء ويجوز ان يسأل النبى المعصوم صلى الله عليه وسلم ربه ما علم انه يفعله وان يستعيذ به مما علم انه لا يفعله

وطاعته وكيف يخيل لكم الحق باطلا (بل أتيناهم بالحق) اى بالصدق (وانهم لكاذبون) اى فيما يدعون من الشريك والولد (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله) اى من شريك (اذا لذهب كل اله بما خلق) اى لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذى خلقه ولم يرض أن يضاف خلقه وانعامه الى غيره ومنع كل اله الآخر عن الاستيلاء على ما خلقه هو (ولعلا بعضهم على بعض) اى طلب بعضهم مغالبة بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم واذا كان كذلك فاعلموا انه اله واحد بيده ملكوت كل شئ ويقدر على كل شئ ثم نزه نفسه تعالى فقال (سبحان الله عما يصفون) اى من اثبات الولد والشريك (عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) اى تعظم من ان يوصف بما لا يليق به * قوله عز وجل (قل رب) اى يارب (اما ترينى ما يوعدون) اى ما وعدتهم من العذاب (رب) اى يارب (فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) اى لا تهلكنى بهلاكهم (وانا على أن نريك ما نعدهم) اى من العذاب (لقادرون ادفع بالتى هى أحسن) اى بالخلة التى هى أحسن وهى الصفح والاعراض والصبر (السيئة) يعنى اذاهم أمر بالصبر على أذى المشركين والكف عن المقاتلة ثم نسخها الله بآية السيف (نحن أعلم بما يصفون) اى يكذبون ويقولون من الشرك * قوله عز وجل (وقل رب أعوذ بك) اى امتنع واعتصم بك (من همزات الشياطين) قال ابن عباس نزغاتهم وقيل وساوسهم وقيل نفخهم ونفثهم وقيل دفعهم بالاغواء الى المعاصى (وأعوذ بك رب أن يحضرون) اى فى شئ من أمورى وانما ذكر الحضور لان الشيطان اذا حضر يوسوس له عن جبير بن مطعم انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال عمرو لا أدرى اى صلاة هى قال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة أخرجه ابو داود وقد جاء تفسير هذه الالفاظ فى متن الحديث ونزيده ايضاحا (قوله نفثه الشعر) اى لان الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق (قوله ونفخه الكبر) وذلك ان

المتكبر

اظهار للعبودية وتواضع لربه واستغفار عليه الصلاة والسلام اذا قام من مجلسه سبعين مرة لذلك والفاء فى فلا لجواب الشرط ورب اعتراض بينهما للتأكيد (وانا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه فقيل لهم ان الله قادر على انجاز ما وعد ان تأملتم فما وجه هذا الانكار (ادفع بالتى) بالخصلة التى (هى أحسن السيئة) هو ابلغ من ان يقال بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل كانه قال ادفع بالحسنى السيئة والمعنى اصفح عن اساءتهم وعقابتهم بما امكن من الاحسان وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى شهادة ان لا اله الا الله والسيئة الشرك او الفحش بالسلام او المنكر بالموعظة وقيل هى منسوخة بآية السيف وقيل محكمة اذا المدارأة محثوث عليها ما لم تؤد الى ثلم دين (نحن اعلم بما يصفون) من الشرك او بوصفهم لك وسوء ذكرهم فنجازيهم عليه (وقل رب اعوذ بك من همزات الشياطين) من وساوسهم ونخساتهم والهمزة النخس والهمزات جمع الهمزة ومنه مهماز الراكض والمعنى ان الشياطين يحثون الناس على المعاصى كما تهمز الراضة الدواب حثا لها على المشى (واعوذ بك رب ان يحضرون) امر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل الى ربه المكرر لندائه وبالتعوذ من ان يحضروه اصلا اوعند تلاوة القرآن اوعند النزع

(حتى اذا جاء احدهم الموت) حتى يتعلق بيصفون اى لا يزالون يشركون الى وقت مجىء الموت اولا يزالون على سوء الذكر الى هذا الوقت وما بينهما مما ذكر على وجه الاعتراض والتأكيد للاقضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان ان يستزله عن الحلم ويغريه عن الانتصار منهم (قال رب ارجعون) اى ردونى الى الدنيا خاطب الله بلفظ الجمع للتعظيم كخطاب الملوك (لعلى اعمل صالحا فيما تركت) فى الموضع الذى تركت وهو الدنيا لانه ترك الدنيا وصار الى العقبى قال قتادة ما تمنى ان يرجع الى اهل ولا الى عشيرة ولكن ليتدارك ما فرط لعلى ما كنة الياء كوفى وسهل ويعقوب (كلا) ردع عن طلب الرجعة وانكار واستبعاد ٣٤١ (انها كلمة) المراد الكلمة الطائفة

المتكبر ينفخ ويتعاظم ويجمع نفسه فيحتاج الى ان ينفخ وقوله وهمزه الموتة الموتة الجنون لان المجنون يخنقه الشيطان ثم أخبر الله عز وجل ان هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة الى الدنيا عند معاينة الموت فقال تعالى (حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون) قيل المراد به الله وهو على عادة العرب فانهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم وقيل هذا خطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه فعلى هذا يكون معناه انه استغاث بالله أولا ثم رجع الى مسئلة الملائكة الرجوع الى الدنيا وقيل ذكر الرب للقسم فكانه قال عند المعاينة بحق الله ارجعون (لعلى أعمل صالحا فيما تركت) اى ضيعت وقيل تركت اى منعت وقيل خلفت من التركة او المعنى أقول لا اله الا الله وأعمل بطاعته فيدخل فيه الاعمال البدنية والمالية قال قتادة ما تمنى ان يرجع الى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى ان يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله امرأ عمل فيما تمناه الكافر اذ رأى العذاب (كلا) كلمة ردع وزجر اى لا يرجع اليها (انها) يعنى مسئلته الرجعة (كلمة هو قائلها) اى لا بد لها (ومن ورائهم برزخ) اى من أمامهم ومن بين أيديهم حاجز (الى يوم يبعثون) معناه ان بينهم وبين الرجعة حجابا ومانعا عن الرجوع وهو الموت وليس المعنى انهم يرجعون يوم البعث وانما هو اقناط كلى لما علم انه لا رجعة يوم البعث الا الى الآخرة قوله تعالى (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم) قال ابن عباس انها النفخة الاولى نفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض فلا انساب بينهم (يومئذ ولا يتساءلون) ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود انها النفخة الثانية قال يؤخذ بيد العبد والامة يوم القيامة فينصب على رؤس الاولين والآخرين ثم ينادى مناد هذا فلان بن فلان فمن كان له قبله حق فليأت الى حقه فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده او ولده او زوجته او أخيه فيأخذه منه ثم قرأ ابن مسعود فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وفى رواية عن ابن عباس انها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم اى لا يتفاخرون بالانساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون فى الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا من أنت ومن أى قبيلة أنت ولم يرد أن الانساب تنقطع فان قلت قد قال ههنا ولا يتساءلون وقال فى موضع آخر وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قلت قال ابن عباس ان للقيامة أحوالا ومواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الامر عن التساؤل فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون افاقة فيتساءلون * قوله عز وجل (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا) اى غبنوا (أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح) اى تسفع وقيل تحرق (وجوههم النار وهم فيها كالحون) اى عابسون وقد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المشوى على النار من أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم

من الكلام المنتظم بعضها مع بعض وهو قوله رب ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت (هو قائلها) لا محالة لا يخليها لا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة والندم عليه (ومن ورائهم) اى امامهم والضمير للجماعة (برزخ) حائل بينهم وبين الرجوع الى الدنيا (الى يوم يبعثون) لم يرد انهم يرجعون يوم البعث وانما هو اقناط كلى لما علم ان لا رجوع بعد البعث الا الى الآخرة (فاذا نفخ فى الصور) قيل انها النفخة الثانية (فلا انساب بينهم يومئذ) وبالادغام ابو عمرو لاجتماع المثلين وان كانا من كلمتين يعنى يقع التقاطع بينهم حيث يتفرقون مثابين ومعاقبين ولا يكون التواصل بينهم بالانساب اذ يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه وانما يكون بالاعمال (ولا يتساءلون)

سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا لان كلا مشغول عن سؤال صاحبه بحاله ولا تناقض بين هذا وبين قوله وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فللقيامة مواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون فيتساءلون (فمن ثقلت موازينه) جمع موزون وهى الموزونات من الاعمال الصالحة التى لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه) بالسيئات والمراد الكفار (فأولئك الذين خسروا انفسهم) غبنوها (فى جهنم خالدون) بدل من خسروا انفسهم ولا محل للبدل والمبدل منه لان الصلة لا محل لها او خبر بعد خبر لأولئك او خبر مبتدا محذوف (تلفح) اى تحرق (وجوههم النار وهم فيها كالحون) عابسون فيقال لهم

(الم تكن آياتي) اى القرآن (تتلى عليكم) فى الدنيا (فكنتم بها تكذبون) وتزعمون انها ليست من الله تعالى (قالوا ربنا غلبت علينا ملكتنا (شقوتنا) شقاوتنا حمزة وعلى وكلاهما مصدر اى شقينا باعمالنا السيئة التى عملناها وقول اهل التأويل غلب علينا ما كتب علينا من الشقاوة لا يصح لانه انما يكتب ما يفعل العبد وما يعلم انه يختاره ولا يكتب غير الذى علم انه يختاره فلا يكون مغلوبا ومضطرا فى الفعل وهذا انهم انما يقولون ذلك القول اعتذارا لما كان منهم من التفريط فى امره فلا يحمل ان يطلبوا لانفسهم عذرا فيما كان منهم (وكنا قوما ضالين) عن الحق والصواب (ربنا اخرجنا منها) اى من النار (فان عدنا) الى الكفر والتكذيب (فانا ظالمون) لانفسنا (قال اخسؤا فيها) اسكتوا سكوت ذلة وهوان (ولا تكلمون) فى رفع العذاب عنكم فانه لا يرفع ولا يخفف قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم ولا كلام بعد ذلك ٣٤٢ الا الشهيق والزفير ان يحضروني ارجعوني ولا تكلموني بالياء فى الوصل والوقف يعقوب وغيره بلا ياء (انه) ان الامر والشأن (كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا) مفعول ثان و بالضم مدنى وحمزة وعلى وكلاهما مصدر سخر كالسخر الا ان فى ياء النسبة مبالغة قيل هم الصحابة رضى الله عنهم وقيل اهل الصفة خاصة ومعناه اتخذتموهم هزؤا وشغلتم بهم ساخرين (حتى انسوكم) بشغلكم بهم على تلك الصفة (ذكرى) فتركتموه اى كان التشاغل بهم سببا لنسيانكم ذكرى (وكنتم منهم تضحكون) استهزاءكم بهم (انى جزيتهم اليوم بما صبروا) بصبرهم (انهم) اى لانهم (هم الفائزون) ويجوز ان يكون مفعولا ثانيا اى جزيتهم اليوم فوزهم لان جزى يتعدى الى اثنين وجزاهم بما صبروا جنة انهم حمزة وعلى على الاستئناف اى انهم هم الفائزون لا انتم (قال) اى الله او المأمور بسؤالهم من الملائكة قل مكى وحمزة وعلى امر الملك ان يسألهم (كم لبثتم فى الارض) فى الدنيا (عدد سنين) اى كم عدد سنين لبثتم فكم نصب بلبثتم وعدد تمييز (قالوا لبثنا يوما او بعض يوم) استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا بالاضافة الى خلودهم وما هم فيه من عذابها لان الممتحن يستطيل ايام محنته ويستقصر ما مر عليه من ايام الدعة (فاسئل العادين) اى الحساب او الملائكة الذين يعدون اعمار العباد واعمالهم غسل بلا همز مكى وعلى (قال ان لبثتم الا قليلا) اى ما لبثتم الا زمنا قليلا او لبثا قليلا (لو انكم كنتم تعلمون) صدقهم الله تعالى فى تقالهم لسنى لبثهم فى الدنيا ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها قال ان حمزة وعلى (افحسبتم انما خلقناكم عبثا) حال اى عابثين او مفعول له اى للعبث

وهم فيها كالحون قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح غريب قوله تعالى (الم تكن آياتي تتلى عليكم) يعنى قوارع القرآن وزواجره تخوفون بها (فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) اى التى كتبت علينا فلم نهتد (وكنا قوما ضالين) اى عن الهدى (ربنا أخرجنا منها) اى من النار (فان عدنا) اى لما تكره (فانا ظالمون قال اخسؤا فيها) اى ابعدوا فيها كما يقال للكلب اذا طرد اخسأ (ولا تكلمون) اى فى رفع العذاب فانى لا أرفعه عنكم فعند ذلك أيس المساكين من الفرج قال الحسن هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعد ذلك ماهو الا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون وروى عن عبد الله بن عمرو ان أهل جهنم يدعون مالكا خازن جهنم أربعين عاما يا مالك ليقض علينا ربك فلا يجيبهم ثم يقول انكم ماكثون ثم ينادون ربهم ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم اخسؤا فيها ولا تكلمون فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة ان كان الا الزفير والشهيق ذكره البغوى بغير سند واخرجه الترمذى بمعناه عن ابى الدرداء (قوله فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة) اى سكتوا ولم يتكلموا بكلمة وقيل اذا قال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم (انه كان فريق من عبادى) يعنى المؤمنين (يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا) اى تسخرون منهم وتستهزؤن بهم (حتى أنسوكم ذكرى) اى أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم ذكرى (وكنتم منهم تضحكون) نزل فى كفار قريش كانوا يستهزؤن بالفقراء من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بلال وعمار وصهيب وخباب ثم قال الله (انى جزيتهم اليوم بما صبروا) اى على أذاكم واستهزائكم فى الدنيا (أنهم هم الفائزون) اى جزيتهم بصبرهم الفوز بالجنة (قال) يعنى ان الله قال للكفار يوم البعث (كم لبثتم فى الارض) اى فى الدنيا وفى القبور (عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) معناه انهم نسوا مدة لبثهم فى الدنيا لعظم ما هم فيه من العذاب (فاسئل العادين) يعنى الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم ويحصونها عليهم (قال ان لبثتم) اى ما لبثتم فى الدنيا (الا قليلا) سماه قليلا لان المرء وان طال لبثه فى الدنيا فانه يكون قليلا فى جنب ما يلبث فى الآخرة (لو انكم كنتم تعلمون) اى قدر لبثكم فى الدنيا * قوله عز وجل (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا) اى لعبا وباطلا لا لحكمة وقيل العبث معناه للتعبوا

(وانكم الينا لاترجعون) وبفتح التاء وكسر الجيم حمزة وعلي ويعقوب وهو معطوف على انما خلقناكم اوعلى عبثا اى للعبث ولترككم غير مرجوعين بل خلقناكم للتكليف ثم للرجوع من دار التكليف الى دار الجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسيء (فتعالى الله) عن ان يخلق عبثا (الملك الحق) الذى يحق له الملك لان كل شئ منه واليه او الثابت الذى لا يزول ولا يزول ملكه (لا اله الا هو رب العرش الكريم) وصف العرش بالكرم لان الرحمة تنزل منه او لنسبته الى اكرم الاكرمين وقرئ شاذا برفع الكريم صفة للرب تعالى (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان) اى لا حجة (له به) اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك من احسن الى زيد لا احق بالاحسان منه فان الله مثيبه او صفة لازمة جئ بها للتوكيد كقوله يطير بجناحيه لا ان يكون في الالهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان (فانما حسابه) اى جزاؤه وهذا جزاء الشرط (عند ربه) اى فهو يجازيه لا محالة (انه لا يفلح الكافرون) جعل فاتحة السورة قد افلح المؤمنون وخاتمتها انه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ثم علمنا سؤال المغفرة والرحمة بقوله (وقل رب ٣٤٣ اغفر وارحم) ثم قال (وانت خير الراحمين) لان رحمته اذا ادركت احدا اغنته عن رحمة غيره ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته

وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وانما خلقتم للعبادة واقامة اوامر الله عز وجل (وانكم الينا لا ترجعون) اى في دار الآخرة للجزاء روى البغوى بسنده عن الحسن ان رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه في أذنه أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون حتى ختم السورة فبرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ذا رقيت في اذنه فاخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسي بيده لو ان رجلا موقنا قرأها على الجبل لزال ثم نزه الله تعالى نفسه عما يصفه به المشركون فقال عز وجل (فتعالى الله الملك الحق) اى هو التام الملك الجامع لاصناف المملوكات (لا اله الا هو رب العرش الكريم) اى الحسن وقيل الرفيع المرتفع وانما خص العرش بالذكر لانه اعظم المخلوقات (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به) اى لا حجة ولا بينة له به اذ لا يمكن اقامة برهان ولا دليل على الهية غير الله ولا حجة في دعوى الشرك (فانما حسابه) اى جزاؤه (عند ربه) اى هو مجازيه بعمله (انه لا يفلح الكافرون) اى لا يسعد من جحد وكذب (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين)

(سورة النور)

مدنية وهى ستون واربع آيات

(تفسير سورة النور)

وهى مدنية وهى اثنتان وقيل اربع وستون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سورة) خبر مبتدا محذوف اى هذه سورة (أنزلناها) صفة لها وقرأ طلحة سورة على زيد اضربته او على اتل سورة والسورة الجامعة لجمل آيات يفاتحة لها وخاتمة واشتقاقها من سور المدينة (وفرضناها) اى فرضنا احكامها التى فيها واصل الفرض القطع اى جعلناها مقطوعا بها وبالتشديد مكى وأبو عمرو للمبالغة في الايجاب وتوكيده اولان فيها فرائض شتى اولكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم (وأنزلنا فيها آيات بينات) اى دلائل واضحات (لعلكم تذكرون) لكى تتعظوا او بتخفيف الذال حمزة وعلي وخلف وحفص ثم فصل أحكامها فقال (الزانية والزانى) رفعهما على الابتداء والخبر محذوف اى فيما فرض عليكم الزانية والزانى اى جلدهما او الخبر فاجلدوا أو دخلت الفاء لكون الالف واللام بمعنى الذى وتضمينه معنى الشرط وتقديره التى زنت والذى زنى فاجلدوهما كما تقول من زنى فاجلدوه وكقوله والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم وقرأ عيسى بن عمر بالنصب على اضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من سورة أنزلناها لاجل الامر (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) الجلد ضرب الجلد وفيه اشارة الى انه لا يبالغ ليصل الالم الى اللحم والخطاب للائمة لان اقامة الحد من الدين وهى على الكل الا انهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الامام منابهم وهذا حكم حر ليس بمحصن اذ حكم المحصن الرجم وشرائط احصان الرجم الحرية والعقل والبلوغ والاسلام والتزوج بنكاح صحيح والدخول وهذا دليل على ان التغريب غير مشروع لان الفاء انما يدخل على الجزاء وهو اسم للكافى والتغريب المروى منسوخ بالآية كما نسخ الحبس

وهى مدنية وهى اثنتان وقيل اربع وستون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (سورة أنزلناها وفرضناها) اى اوجبنا ما فيها من الاحكام والزمناكم العمل بها وقيل معناه قدرنا ما فيها من الحدود وقيل أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم الى قيام الساعة (وأنزلنا فيها آيات بينات) اى واضحات (لعلكم تذكرون) اى تتعظون قوله تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) الزنا هو من الكبائر وموجب الحد وهو ايلاج فرج في فرج مشتهى طبعا محرم شرعا والشروط المعتبرة في وجوب الحد العقل والبلوغ ويشترط الاحصان في الرجم ويجب على العبد والامة نصف الحد ولا رجم عليهما لانه لا يتنصف وقوله فاجلدوا اى فاضربوا يقال جلده اذا ضرب جلده

والاذى فى قوله فامسكوهن فى البيوت وقوله فآذوهما بهذه الآية (ولا تأخذكم بهما رافة) اى رحمة والفتح لغة وهى قراءة مكى وقيل الرأفة فى دفع المكروه والرحمة فى ايصال المحبوب والمعنى ان الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا فى دين الله ولا يأخذهم اللين فى استيفاء حدوده فيعطلوا الحدود أو يخففوا الضرب (فى دين الله) اى فى طاعة الله أو حكمه (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) من باب التهييج والعباب الغضب لله ولدينه وجواب الشرط مضمر اى فاجلدوا ولا تعطلوا الحد (وليشهد عذابهما) وليحضر موضع حدهما وتسمية عذابا دليل على انه عقوبة (طائفة) فرقة يمكن ان تكون حلقة ليعتبروا وينزجروا وأقلها ثلاثة أو أربعة وهى صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول شئ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أربعة الى اربعين رجلا (من المؤمنين) من المصدقين بالله (الزانى لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان ٣٤٤ او مشرك) اى الخبيث الذى من شأنه الزنا لا يرغب فى نكاح الصوالح من النساء وانما يرغب فى خبيثة من شكله او فى مشركة والخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وانما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة او المشركين فالآية تزهيد فى نكاح البغايا اذا الزنا عديل الشرك فى القبح والايمان قرين العفاف والتحصن وهو نظير قوله الخبيثات للخبيثين وقيل كان نكاح الزانية محرما فى أول الاسلام ثم نسخ بقوله وأنكحوا الايامى منكم وقيل المراد بالنكاح الوطء لان غير الزانى يستقذر الزانية ولا يشتهيها وهو صحيح لكنه يقتضى اذا قولك الزانى لا يزنى الا بزانية والزانية لا يزنى بها الا زان وسئل صلى الله عليه وسلم عمن زنى بامرأة ثم تزوجها فقال اوله سفاح وآخره نكاح ومعنى الجملة الاولى صفة الزانى بكونه غير راغب فى العفائف ولكن فى الفواجر ومعنى الثانية صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للاعفاف ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان وقدمت الزانية على الزانى لان الثانية تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا والمرأة هى المادة التى منها نشأت تلك الجناية لانها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت أصلا فى ذلك بدئ بذكرها وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل اصل فيه لانه الخاطب ومنه يبدئ الطلب وقرئ لا ينكح بالجزم على النهى وفى المرفوع ايضا معنى النهى ولكن ابلغ وآكد ويجوز ان يكون خبرا محضا على معنى ان عادتهما جارية على ذلك وعلى المؤمن ان لا يدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصون عنها (وحرم ذلك على المؤمنين) اى الزنا او نكاح البغايا لقصد التكسب بالزنا ولما فيه من التشبه بالفساق وحضور مواقع التهمة والتسبب لسوء المقالة فيه والغيبة ومجالسة الخطائين لما فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمن زاوجة الزوانى والقحاب

ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم كل واحد منهما اى الزانية والزانى مائة جلدة وقد وردت السنة بجلد مائة وتغريب عام وبه قال الشافعى وقال أبو حنيفة التغريب الى رأى الامام وقال مالك يجلد الرجل مائة جلدة ويغرب وتجلد المرأة ولا تغرب وان كان الزانى محصنا فعليه الرجم (ولا تأخذكم بهما رأفة) اى رحمة ورقة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعى والشعبى وقيل معنى الرأفة أن تخففوا الضرب بل اوجعوهما ضربا وهو قول سعيد بن المسيب والحسن قال الزهرى يجتهد فى حد الزنا والقريه اى القذف ويخفف فى حد الشرب وقيل يجتهد فى حد الزنا ويخفف دون ذلك فى حد القريه ويخفف دون ذلك فى حد الشرب (فى دين الله) اى فى حكم الله روى ان عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله فقال يا بنى ان الله لم يأمرنى بقتلها وقد ضربت فاوجعت (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) معناه ان المؤمن لا تأخذه الرافة اذا جاء أمر الله وقيل هو من باب التهييج والتهاب التغضب لله تعالى ولدينه ومعناه ان كنتم تؤمنون فلا تتركوا اقامة الحدود (وليشهد) اى وليحضر (عذابهما) اى حدهما اذا أقيم عليهما (طائفة) اى نفر (من المؤمنين) قيل أقله رجل واحد فصاعدا وقيل رجلان وقيل ثلاثة وقيل أربعة بعدد شهود الزنا * قوله عز وجل (الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) اختلف العلماء فى معنى الآية وحكمها فقال قوم قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر وفى المدينة نساء بغايا هن أخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المسلمين فى نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فنزلت هذه الآية فحرم على المؤمنين ان يتزوجوا تلك البغايا لانهن كن مشركات وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والزهرى والشعبى ورواية عن ابن عباس وقال عكرمة نزلت فى نساء كن بمكة والمدينة لهن رايات يعرفن بها منهن ام مهزول جارية السائب بن أبى السائب المخزومى وكان فى الجاهلية ينكح الزانية ينفق ما كلة فاراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة فاستأذن رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نكاح أم مهزول واشترطت له أن تنفق عليه فانزل الله عز وجل هذه الآية وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد الغنوى وكان يحمل الاسارى من مكة حتى يأتى

(والذين يرمون المحصنات) و بكسر الصاد على اى يقذفون بالزنا الحرائر والعفائف المسلمات المكلفات والقذف يكون بالزنا و بغيره والمراد هنا قذفهن بالزنا بان يقول يا زانية لذكر المحصنات عقيب الزوانى ولاشتراط أربعة شهداء بقوله (ثم لم يأتوا باربعة شهداء) اى ثم لم يأتوا باربعة شهود يشهدون على الزنا لان القذف بغير الزنا بأن يقول يا فاسق يا آكل الربا يكفى فيه شاهدان وعليه التعزير وشروط احصان القذف الحرية والعقل والبلوغ والاسلام والعفة عن الزنا والمحصن كالمحصنة فى وجوب حد القذف (فاجلدوهم ثمانين جلدة) ان كان القاذف حرا ونصب ثمانين نصب المصادر كما نصب مائة جلدة و جلدة نصب على التمييز (ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا) نكر شهادة فى موضع النفى فتعم كل شهادة ورد الشهادة من الحد عندنا و يتعلق باستيفاء الحد او بعضه على ما عرف وعند الشافعى رحمه الله تعالى يتعلق رد شهادته بنفس القذف فعندنا جزاء الشرط الذى هو الرمى الجلد ورد الشهادة على التأبيد وهو مدة حياتهم (واولئك هم الفاسقون) كلام مستأنف غير داخل فى حيز جزاء الشرط كانه حكاية حال الرامين عند الله تعالى بعد انقضاء الجملة الشرطية

بهم المدينة وكانت بمكة بغى يقال لها عناق وكانت صديقة له فى الجاهلية فلما أتى مكة دعته عناق الى نفسها فقال مرثد ان الله حرم الزنا قالت فانكحنى فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أنكح عناقا فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد شيأ فنزلت الزانى لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك فدعانى فقرأها على وقال لا تنكحها أخرجه الترمذى والنسائى وأبو داود بالفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصا فى حق أولئك دون سائر الناس وقال قوم المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الآية الزانى لا يزنى الا بزانية أو مشركة والزانية لا تزنى الا بزان أو مشرك وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ورواية عن ابن عباس قال يزيد بن هرون ان جامعها وهو مستحل فهو مشرك وان جامعها وهو محرم فهو زان وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية و يقول اذا تزوج الزانى الزانية فهما زانيان وقال سعيد بن المسيب وجماعة ان حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية ثم نسخت بقوله تعالى وانكحوا الايامى منكم فدخلت الزانية فى هذا العموم واحتج من جوز نكاح الزانية بما روى عن جابر ان رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان امراتى لا تمنع يد لامس فقال طلقها قال انى أحبها وهى جميلة قال استمتع بها وفى رواية غيره فامسكها اذا وروى هذا الحديث أبو داود والنسائى عن ابن عباس قال النسائى رفعه أحد الرواة الى ابن عباس ولم يرفعه بعضهم قال وهذا الحديث ليس بثابت وروى ان عمر بن الخطاب ضرب رجلا وامرأة فى زنا وحرض على ان يجمع بينهما فأبى الغلام وقيل فى معنى الآية ان الفاجر الخبيث لا يرغب فى نكاح الصالحة من النساء وانما يرغب فى نكاح فاجرة خبيثة مثله أو مشركة والفاسقة الخبيثة لا ترغب فى نكاح الصلحاء من الرجال وانما ترغب فى نكاح فاسق خبيث مثلها او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين اى صرف الرغبة بالكلية الى نكاح الزوانى وترك الرغبة فى الصالحات العفائف محرم على المؤمنين ولا يلزم من حرمة هذا حرمة التزوج بالزانية قوله تعالى (والذين يرمون) اى يقذفون بالزنا (المحصنات) يعنى المسلمات الحرائر العفائف (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) اى يشهدون على الزنا (فاجلدوهم ثمانين جلدة) بيان حكم الآية ان من قذف محصنا او محصنة بالزنا فقال له يا زانى او يا زانية او زنيت فيجب عليه جلد ثمانين ان كان القاذف حرا وان كان عبدا يجلد اربعين وان كان المقذوف غير محصن فعلى القاذف التعزير وشرائط الاحصان خمسة الاسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا حتى لو زنى فى عمره مرة واحدة ثم تاب وحسنت توبته بعد ذلك ثم قذفه قاذف فلا حد عليه فان أقر المقذوف على نفسه بالزنا او اقام القاذف اربعة يشهدون عليه بالزنا سقط الحد عن القاذف لان الحد انما وجب عليه لاجل الفرية وقد ثبت صدقه وأما الكنايات مثل ان يقول يا فاسق او يا فاجر او يا خبيث او يا مؤاجر او قال امراتى لا تريد لامس فهذا ونحوه لا يكون قذفا الا ان يريد ذلك وأما التعريض مثل ان يقول اما أنا فما زنيت او ليست امراتى زانية فليس بقذف عند الشافعى وابى حنيفة وقال مالك يجب فيه الحد وقال احمد هو قذف فى حال الغضب دون حال الرضا وقوله تعالى (ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا وأولئك هم الفاسقون) فيه دليل على ان القذف من الكبائر لان اسم الفاسق لا يقع الا على صاحب كبيرة (الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) اختلف العلماء فى قبول شهادة القاذف بعد التوبة وفى حكم هذا الاستثناء فذهب قوم الى ان القاذف ترد شهادته بنفس

وقوله (الا الذين تابوا من بعد ذلك) اى القذف (وأصلحوا) أحوالهم استثناء من الفاسقين ويدل عليه (فان الله غفور رحيم) اى يغفر ذنوبهم و يرحمهم وحق الاستثناء ان يكون منصوبا عندنا لانه عن موجب وعند من جعل الاستثناء منقطعا بالجملة الثانية ان يكون مجرورا بدلا من هم فى لهم ولما ذكر حكم قذف الاجنبيات بين حكم قذف الزوجات فقال

القذف واذا تاب وندم على ما قال وحسنت حالته بعد التوبة قبلت شهادته سواء تاب بعد اقامة الحد عليه او قبله لقوله تعالى الا الذين تابوا وقالوا هذا الاستثناء يرجع الى رد الشهادة والى الفسق واذا تاب تقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق يروى ذلك عن عمر وابن عباس وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبى وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهرى وبه قال مالك والشافعى وذهب قوم الى ان شهادة المحدود فى القذف لا تقبل أبدا وان تاب وقالوا الاستثناء يرجع الى قوله واولئك هم الفاسقون وهو قول النخعى وشريح واصحاب الرأى قالوا بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحد قال الشافعى هو قبل ان يحد شر منه حين يحد لان الحدود كفارات فكيف ترد ونها في أحسن حاليه وتقبلونها فى شر حاليه وذهب الشافعى الى ان حد القذف يسقط بالتوبة وقال الاستثناء يرجع الى الكل وعامة العلماء على انه لا يسقط الحد بالتوبة الا ان يعفو عنه المقذوف فيسقط كالقصاص يسقط بالعفو ولا يسقط بالتوبة فان قلت اذا قبلت شهادته بعد التوبة فما معنى قوله أبدا قلت معنى أبدا مادام مصرا على القذف لان أبد كل انسان مدته على ما يليق به كما يقال شهادة الكافر لا تقبل أبدا يراد بذلك مادام على كفره فاذا اسلم قبلت شهادته * قوله عز وجل (والذين يرمون) اى يقذفون (أزواجهم ولم يكن لهم شهداء) اى يشهدون على صحة ما قالوا (الا أنفسهم) اى غير انفسهم (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين) سبب نزول هذه الآية ما روى عن سهل بن سعد الساعدى ان عويمرا العجلانى جاء الى عاصم بن عدى فقال لعاصم ارأيت لو ان رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل سل لى عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسئلة وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رجع عاصم الى اهله جاءه عويمر فقال يا عاصم ماذا قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عاصم لعويمر لم تأتنى بخير قد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسئلة التى سألت عنها فقال عويمر والله لا أنتهى حتى اسأله عنها فجاء عويمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الناس فقال يا رسول الله ارأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه ام كيف يفعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل الله فيك وفى صاحبتك قرآنا فاذهب فأت بها قال سهل فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر كذبت عليها يا رسول الله ان امسكتها فطلقها ثلاثا قبل ان يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مالك قال ابن شهاب فكانت تلك سنة المتلاعنين أخرجاه فى الصحيحين زاد فى رواية ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا ان جاءت به اسحم أدعج العينين عظيم الاليتين خدلج الساقين فلا أحسب عويمرا الا قد صدق عليها وان جاءت به احيمر كانه وحرة فلا أحسب عويمرا الا قد كذب عليها فجاءت به على النعت الذى نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصديق عويمر فكان بعد ينسب الى أمه (قوله اسحم) اى اسود والادعج الشديد سواد العين مع سعتها وقوله خدلج الساقين اى ممتلئ الساقين غليظهما وقوله كانه وحرة الوحرة بفتح الحاء دويبة كالعظاءة تلصق بالارض وأراد بها فى الحديث المبالغة فى قصره (خ) عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبى صلى الله عليه وسلم البينة او حد فى ظهرك فقال يا رسول الله ان رأى احدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول البينة والا حد فى ظهرك فقال هلال بن أمية والذى بعثك بالحق انى لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه والذين يرمون ازواجهم فقرأ حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبى صلى الله عليه وسلم فارسل اليهما فجاآ فقام هلال بن امية فشهد والنبى صلى الله عليه وسلم يقول الله

(والذين يرمون أزواجهم) اى يقذفون زوجاتهم بالزنا (ولم يكن لهم شهداء) اى لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به (الا أنفسهم) يرتفع على البدل من شهداء (فشهادة أحدهم اربع) بالرفع كوفى غير ابى بكر على انه خبر والمبتدا فشهادة احدهم وغيرهم بالنصب لانه فى حكم المصدر بالاضافة الى المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو فشهادة أحدهم وعلى هذا خبره محذوف تقديره فواجب شهادة أحدهم اربع (شهادات بالله انه لمن الصادقين) فيما رماها من الزنا

يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفها وقال انها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا انها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم انظروها فان جاءت به اكحل العينين سابغ الاليتين خدلج الساقين فهو لشريك ابن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن وفي رواية غير البخاري عن ابن عباس قال لما نزلت والذين يرمون المحصنات الآية قال سعد بن عبادة لو أتيت لكاع وقد تفخذها رجل لم يكن لي ان أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله ما كنت لآتي باربعة شهداء حتى يقرغ من حاجته ويذهب وان قلت ما رأيت ان في ظهري لثمانين جلدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم قالوا لا تلمه فانه رجل غيور ما تزوج امرأة قط الا بكرا ولا طلق امرأته واجترأ رجل منا ان يتزوجها فقال سعد يا رسول الله بأبي انت وأمي والله اني لأعرف انها من الله وانها حق ولكن عجبت من ذلك لما اخبر الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم فان الله يأبى الا ذلك فقال صدق الله ورسوله قال فلم يلبثوا الا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن امية من حديقة له فرأى رجلا مع امرأته يزني بها فامسك حتى اصبح فلما اصبح غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع اصحابه فقال يا رسول الله اني جئت الى اهلي عشاء فوجدت مع امرأتي رجلا رأيت بعيني وسمعت باذني فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اتاه به وثقل عليه حتى عرف ذلك في وجهه فقال هلال والله يا رسول الله اني لأرى الكراهة في وجهك مما اتيتك به والله يعلم اني لصادق وما قلت الا حقا واني لارجو أن يجعل الله لي فرجا فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضربه قال واجتمعت الانصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد يجلد هلال وتبطل شهادته فبينما هم كذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يريد ان يأمر بضربه اذ نزل عليه الوحي فامسك اصحابه عن كلامه حين عرفوا ان الوحي قد نزل حتى فرغ فانزل الله والذين يرمون ازواجهم الى آخر الآيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابشر يا هلال فان الله تعالى قد جعل لك فرجا فقال قد كنت ارجو ذلك من الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسلوا اليها فجاءت فلما اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل فكذبت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب فقال يا رسول الله قد صدقت وما قلت الا حقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعنوا بينهما فقيل لهلال اشهد فشهد اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين فقال له عند الخامسة يا هلال اتق الله فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وان عذاب الله اشد من عذاب الناس وان هذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب فقال هلال والله لا يعذبني الله عليها كما لم يحدني عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد (والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين) ثم قال للمرأة اشهدي فشهدت اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فقال لها عند الخامسة ووقفها اتقي الله ان الخامسة موجبة وان عذاب الله أشد من عذاب الناس فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقضى ان الولد لها ولا يدعى لاب ولا يرمى ولدها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وان جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه فجاءت به غلاما كأنه جمل اورق على الشبه المكروه وكان اميرا بمصر لا يدري من ابوه الا ورق هو الابيض وروى ابن عباس ان عويمرا لما لاعن زوجته خولة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نودي الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر قم فقام فقال أشهد بالله ان خولة لزانية واني لمن الصادقين ثم قال في الثانية أشهد بالله اني رأيت شريكا على بطنها واني لمن الصادقين ثم قال في الثالثة اشهد بالله انها الحبلى من غيري واني لمن الصادقين ثم قال في الرابعة اشهد

(والخامسة) لا خلاف في رفع الخامسة هنا في المشهور والتقدير والشهادة الخامسة (ان لعنة الله عليه) فهي مبتدا وخبر (ان كان من الكاذبين) فيما رماها به من الزنا

فيما رماني به من الزنا (والخامسة ان غضب الله عليها ان كان) اى الزوج (من الصادقين) فيما رماني به من الزنا ونصب حفص الخامسة عطفا على اربع شهادات وغيره رفعها بالابتداء وان غضب الله خبره وخفف نافع أن لعنة الله وأن غضب الله بكسر الضاد وهما في حكم المثقلة وان غضب الله سهل ويعقوب وحفص وجعل الغضب في جانبها لان النساء يستعملن اللعن كثيرا كما ورد به الحديث فربما يجترئن على الاقدام لكثرة جري اللعن على ألسنتهن وسقوط وقوعه عن قلوبهن فذكر الغضب في جانبهن ليكون رادعا لهن والاصل ان اللعان عندنا شهادات مؤكدات بالايمان مقرونة باللعن قائمة مقام حد القذف في حقه ومقام حد الزنا في حقها لان الله تعالى سماه شهادة فاذا قذف الزوج زوجته بالزنا وهما من اهل الشهادة صح اللعان بينهما واذا التعنا كما بين في النهر لا تقع الفرقة حتى يفرق القاضي بينهما وعند زفر رحمه الله تعالى تقع بتلاعنهما والفرقة تطليقة بائنة وعند ابي يوسف وزفر والشافعي تحريم مؤبد ونزلت آية اللعان في هلال بن أمية او عويمر حيث قال وجدت على بطن امرأتي خولة شريك بن سحماء

بالله اني ما قربتها منذ اربعة اشهر وانى لمن الصادقين ثم قال في الخامسة لعنة الله على عويمر يعني نفسه ان كان من الكاذبين فيما قال ثم امره بالقعود فقعد ثم قال لخولة قومي فقامت فقالت اشهد بالله ما انا بزانية وان عويمرا لمن الكاذبين ثم قالت في الثانية أشهد بالله انه ما رأى شريكا على بطني وانه لمن الكاذبين ثم قالت في الثالثة اشهد بالله انى حبلى منه وانه لمن الكاذبين ثم قالت في الرابعة أشهد بالله انه ما رآني قط على فاحشة وانه لمن الكاذبين ثم قالت في الخامسة غضب الله على خولة تعني نفسها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقال لولا هذه الايمان لكان لي في امرهما رأي ثم قال تجيئني الولادة فان جاءت به اصيهب اثيبج يضرب الى السواد فهو لشريك بن سحماء وان جاءت به اورق جعدا جماليا خدلج الساقين فهو لغير الذي رميت به قال ابن عباس فجاءت باشبه خلق بشريك بيان حكم الآية ان الرجل اذا قذف امرأته فوجبه موجب قذف الاجنبية في وجوب الحد عليه ان كانت محصنة او التعزير ان كانت غير محصنة غير ان المخرج منهما مختلف فاذا قذف أجنبيا او اجنبية يقام عليه الحد الا ان يأتي بأربعة يشهدون بالزنا او يقر المقذوف بالزنا فيسقط عنه الحد وفي الزوجة اذا وجد أحد هذين لو لاعن سقط عنه الحد فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة لان الرجل اذا رأى مع امرأته رجلا ربما لا يمكنه اقامة البينة ولا يمكنه الصبر على العار فجعل الله اللعان حجة له على صدقه فقال تعالى فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين واذا اقام الزوج بينة على زناها او اعترفت هي بالزنا سقط عنه الحد وللعان الا أن يكون هناك ولد يريد نفيه فله أن يلاعن لنفيه واذا اراد الامام أن يلاعن بينهما بدأ بالرجل فيقيمه ويلقنه كلمات اللعان فيقول قل أشهد بالله انى لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانة من الزنا وان كان قد رماها برجل بعينه سماه في اللعان ويقول كما يلقنه الامام وان كان ولد أو حمل يريد نفيه يقول وان هذا الولد او هذا الحمل من الزنا ما هو مني ويقول في الخامسة على لعنة الله ان كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة واذا اتى بكلمة من كلمات اللعان من غير تلقين الامام لا تحسب فاذا فرغ الرجل من اللعان وقعت الفرقة بينه وبين الزوجة وحرمت عليه على التأبيد وانتفى عنه النسب وسقط عنه الحد ووجب على المرأة حد الزنا فهذه خمسة احكام تتعلق باللعان الزوج بقوله عز وجل (ويدرأ) اى يدفع (عنها العذاب) اى الحد (أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين) حكم الآية ان الزوج اذا لاعن وجب على المرأة حد الزنا فان ارادت اسقاطه عن نفسها فانها تلاعن فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فيما رماني به وتقول في الخامسة على غضب الله ان كان زوجي من الصادقين فيما رماني به ولا يتعلق بلعانها الا هذا الحكم الواحد وهو اسقاط الحد عنها ولو أقام الزوج بينة لم يسقط الحد عنها باللعان وعند أصحاب الرأي لا حد على من قذف زوجته بل موجبه اللعان فان لم يلاعن حبس حتى يلاعن فاذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة من اللعان حبست حتى تلاعن وعند الآخرين اللعان حجة صدقه والقاذف اذا قعد عن اقامة البينة على صدقه لا يحبس بل يحد كقاذف الاجنبي اذا قعد عن اقامة البينة وعند أبي حنيفة موجب اللعان وقوع الفرقة ونفي النسب وهما لا يحصلان الا بلعان الزوجين جميعا وقضاء القاضي وفرقة اللعان فرقة فسخ عند الاكثرين وبه قال الشافعي وتلك الفرقة منابذة حتى لو كذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه لا فيما له فيلزمه الحد ويلحقه الولد لكن لا يرتفع تأبيد التحريم وعند أبي حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق فاذا أكذب نفسه جاز له أن ينكحها واذا اتى ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم وعند أبي حنيفة اذا أتى باكثر كلمات اللعان قام مقام الكل وكل من صح يمينه صح لعانه حرا كان او عبدا مسلما كان او ذميا وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والحسن وبه قال ربيعة ومالك والثوري والشافعي

والشافعي واكثر أهل العلم وقال الزهري والاوزاعي وأصحاب الرأي لا يجري اللعان الا بين مسلمين حرين غير محدودين فان كان أحد الزوجين رقيقا او ذميا او محدودا في قذف فلا لعان بينهما وظاهر القرآن يحكم قال يجري اللعان بينهما لان الله تعالى قال والذين يرمون أزواجهم ولم يفصل بين الحر والعبد والمحدود وغيره ولا يصح اللعان الا عند الحاكم أو نائبه ويغلظ اللعان باربعة أشياء بتعدد الالفاظ وبالمكان والزمان وان يكون بحضرة جماعة من الناس اما تعدد الالفاظ فيجب ولا يجوز الاخلال بشئ منها واما المكان فهو ان يلاعن في أشرف الاماكن فان كان بمكة فبين الركن والمقام وان كان بالمدينة فعند منبر النبي صلى الله عليه وسلم وفي سائر البلاد في الجامع عند المنبر واما الزمان فهو ان يكون بعد العصر واما الجمع فاقله اربعة والتغليظ بالجمع مستحب فلو لاعن الحاكم بينهما وحده جاز وفي التغليظ بالزمان والمكان قولان قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) اى لعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان (وان الله تواب) اى يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة (حكيم) اى فيما فرضه من الحدود * قوله عز وجل (ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم) الآيات سبب نزولها ماروى عن ابن شهاب قال حدثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الافك ما قالوا وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضا قالوا قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فايتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت عائشة اقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما انزل الحجاب فكنت أحمل في هودج وأنزل فيه فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت من شأني أقبلت الى رحلي فلمست صدري فاذا عقد لي من جزع اظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه قالت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت اركب وهم يحسبون أني فيه وكان النساء أذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم انما يأكل العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت به وظننت انهم سيفقدونني فيرجعون الي فبينا انا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فادلج فاصبح عند منزلي فرأى سواد انسان نائم فاتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل ان يضرب الحجاب علي فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين وفي رواية موغرين في نحر الظهيرة قالت فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الافك ولا أشعر بشئ من ذلك وهو يريبني في وجعي انى لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكي انما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذي يريبني منه ولا اشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وام مسطح قبل المناصع وهي متبرزنا وكنا لا نخرج الا ليلا الى ليل وذلك قبل ان نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وامرنا امر العرب الاول

لولا محذوف اى لفضحكم او لعاجلكم بالعقوبة (ان الذين جاؤا بالافك) هو ابلغ ما يكون من الكذب والافتراء واصله الافك وهو القلب لانه قول مأفوك عن وجهه والمراد ما افك به على عائشة رضي الله عنها قالت عائشة فقدت عقدا في غزوة بني المصطلق فتخلفت ولم يعرف خلو الهودج فحفي فلما ارتحلوا اناخ لي صفوان بن المعطل بعيره وساقه حتى اتاهم بعدما نزلوا فهلك في من هلك فاعتلت شهرا وكان عليه الصلاة والسلام يسأل كيف انت ولا ارى منه لطفا كنت اراه حتى عثرت خالة ابي ام مسطح فقالت تعس مسطح فانكرت عليها فاخبرتني بالافك فلما سمعت ازددت مرضا وبت عند ابوي لا يرقأ لي دمع وما اكتحل بنوم وهما يظنان ان الدمع فالق كبدي حتى قال عليه الصلاة والسلام ابشري يا حميراء فقد انزل الله براءتك فقلت بحمد الله لا بحمدك (عصبة) جماعة من العشرة الى الاربعين واعصوصبوا اجتمعوا وهم عبد الله بن ابي راس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح

ابن اثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم (منكم) من جماعة المسلمين وهم طنوا ان الافك وقع من الكفار دون من كان من المؤمنين

فى التنزه و كنا نتأذى بالكنف ان نتخذها عند بيوتنا فانطلقت انا وام مسطح وهى ابنة ابى رهم بن المطلب
ابن عبد مناف وامها بنت صخر بن عامر خالة ابى بكر الصديق وابنها مسطح بن اثاثة بن عباد بن المطلب
حين فرغنا من شأننا تمشى فعثرت ام مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت اتسبين
رجلا قد شهد بدرا فقالت يا هنتاه اولم تسمعى ما قال قلت وما قال فاخبرتنى بقول اهل الافك فازددت مرضا
الى مرضى فلما رجعت الى بيتى فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيكم قلت له
أتأذن لى ان آتى ابوى قالت وانا حينئذ اريد ان أتيقن الخبر من قبلهما فاذن لى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فاتيت ابوى فقلت لامى يا امتاه ماذا يتحدث الناس به فقالت يا بنية هونى على نفسك فوالله لقلما
كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا كثرن عليها قالت فقلت سبحان الله وقد تحدث
الناس بهذا قال فبكيت تلك الليلة حتى اصبحت لا يرقأ لى دمع ولا اكتحل بنوم ثم اصبحت ابكى قالت
ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن ابى طالب واسامة بن زيد حين استلبث الوحى يستشيرهما فى
فراق اهله قالت فاما اسامة فاشار عليه بما يعلم من براءة اهله و بالذى يعلم لهم فى نفسه من الود فقال اسامة
هم اهلك يا رسول الله ولا نعلم والله الا خيرا واما على بن ابى طالب فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك
والنساء سواهما كثير وسل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال اى
بريرة هل رايت من شئ يريبك من عائشة قالت له بريرة لا والذى بعثك بالحق ان رايت منها امرا
اغمصه عليها اكثر من انها جارية حديثة السن تنام عن عجين اهلها فيأتى الداجن فيأكله قالت فقام
رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى ابن سلول فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو على المنبر من يعذرنى من رجل قد بلغنى اذاه فى اهلى وفى رواية فى اهل بيتى فوالله
ما علمت على اهلى الا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا وما كان يدخل على اهلى الا معى قالت
فقام سعد بن معاذ احد بنى عبد الاشهل فقال انا اعذرك منه يا رسول الله ان كان من الاوس ضربنا عنقه
وان كان من اخواننا من الخزرج امرتنا ففعلنا فيه امرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكانت ام
حسان بنت عمه من فخذه وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله
لا تقتله ولا تقدر على ذلك فقام اسيد بن حضير وهو ابن عم سعد يعنى ابن معاذ فقال لسعد بن عبادة
كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل على المنافقين فتثاور الحيان الاوس والخزرج حتى هموا ان
يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى
سكتوا وسكت قالت وبقيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا اكتحل بنوم ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع
ولا اكتحل بنوم فاصبح عندى ابواى وقد بكيت ليلتين و يوما حتى اظن ان البكاء فالق كبدى قالت
فبينما هما جالسان عندى وانا ابكى اذا استأذنت على امراة من الانصار فاذنت لها فجلست تبكى معى فبينا
نحن كذلك اذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس ولم يجلس عندى من يوم قيل لى ما قيل
قبلها وقد مكث شهرا لا يوحى اليه فى شأنى بشئ قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم
قال اما بعد يا عائشة فانه بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت المممت بذنب
فاستغفرى الله وتوبى اليه فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فلما قضى رسول الله صلى الله عليه
وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما احس منه قطرة وقلت لابى اجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال
قال والله ما ادرى ما اقول لرسول الله فقلت لامى اجيبى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال قالت
والله ما ادرى ما اقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت وانا جارية حديثة السن لا اقرأ كثيرا من القرآن
انى والله لقد علمت انكم سمعتم ما تحدث به الناس حتى استقر فى انفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم انى بريئة

والله يعلم اني بريئة لا تصدقوني بذلك ولئن اعترفت لكم بامر والله يعلم اني منه بريئة لتصدقني فوالله ما اجد لي ولكم مثلا الا ابا يوسف اذ قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ثم تحولت فاضطجعت على فراشي وانا والله حينئذ اعلم اني بريئة وان الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت اظن ان ينزل الله في شاني وحيا يتلى ولشأني في نفسي كان احقر من ان يتكلم الله في بامر يتلى ولكن كنت ارجو ان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج احد من اهل البيت حتى انزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم فاخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي انزل عليه قال فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها ان قال لي يا عائشة احمدي الله وفي رواية قال ابشري يا عائشة أما الله فقد برأك فقالت لي أمي قومي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمد الا الله هو الذي انزل براءتي قالت فانزل الله عز وجل ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم العشر الآيات فانزل الله عز وجل هذه الآيات في براءتي قالت فقال ابو بكر وكان ينفق على مسطح بن اثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيأ ابدا بعد الذي قال لعائشة فانزل الله ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة الى قوله غفور رحيم فقال ابو بكر بلى والله اني لأحب ان يغفر الله لي فرجع الى مسطح الذي كان يجري عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن امري فقال يا زينب ما علمت او ما رأيت فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت عليها الا خيرا قالت عائشة وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الافك قال ابن شهاب فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط زاد في رواية قالت عائشة والله ان الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط قالت ثم قتل بعد في سبيل الله شهيدا هذا حديث متفق على صحته اخرجاه في الصحيحين زاد البخاري في رواية عن عروة عن عائشة والذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي ابن سلول وقال عروة اخبرت انه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره ويشيعه ويستوشيه قال عروة لم يسم لي من اهل الافك الا حسان بن ثابت ومسطح بن اثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى قال عروة كانت عائشة تكره ان يسب عندها حسان وتقول انه الذي قال

فان أبي ووالدتي وعرضي ✻ لعرض محمد منكم وقاء

اخرجاه من حديث مسروق قال دخلت على عائشة وعندها حسان ينشدها شعرا ببيت من أبياته فقال

حصان رزان ما تزن بريبة ✻ وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت عائشة لكنك لست كذلك قال مسروق فقلت لها أتأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم قالت وأي عذاب أشد من العمى وقالت انه كان ينافح او يهاجي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ✻ حل غريب ألفاظ هذا الحديث (قوله وكلهم حدثني طائفة) اي قطعة من حديثها (قوله كان أوعى) اي احفظ له قولها آذن اي اعلم بالرحيل قولها فاذا عقد لي من جزع اظفار هو نوع من الخرز وهو الجزع اليماني المعروف قولها لم يهبلن اي يكثر لحمهن من السمن فيثقلن قولها انما يأكل العلقة من الطعام هو بضم العين اي البلغة من الطعام وهو قدر ما يمسك الرمق قولها وليس بها منهم داع ولا مجيب اي ليس بها احد لا من يدعو ولا من يرد جوابا قولها فتممت اي قصدت قولها قد عرس من وراء الجيش فادلج التعريس نزول المسافر في آخر الليل للراحة والادلاج بالتشديد سير

آخر الليل وبالتخفيف سير الليل كله قولها باسترجاعه هو قوله انا لله وانا اليه راجعون قولها فخمرن اى غطيت وجهى بجلبابى اى ازارى قولها موغرين فى نحر الظهيرة الوغرة شدة الحر وكذا نحر القهيرة اى اولها قولها والناس يفيضون اى يخوضون ويتحدثون قولها وهو يريبنى يقال رابنى الشئ يريبنى اى شككت فيه قولها ولا أرى من النبى صلى الله عليه وسلم اللطف اى الرفق بها واللطف فى الافعال الرفق وفى الاقوال لين الكلام قولها حتى نقهت اى أفقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضى فيها الحاجة من غائط وبول وأصله المكان الواسع الخالى والمرط كساء من صوف أو خز قولها تعس مسطح اى عثر وهو من الدعاء على الانسان اى سقط لوجهه قولها يا هنتاه اى يا هذه كانها تنسبها الى البله وقلة المعرفة قولها لا يرقأ لى دمع اى لا ينقطع وقول بريرة ان رأيت بمعنى التى اى ما رأيت منها امرا أغمصه بالصاد المهملة اى اعيبه والداجن الشاة التى تألف البيت وتقيم به (قوله صلى الله عليه وسلم من يعذرنى) اى من يقوم بعذرى ان أنا كافأته على سوء صنيعه ان عاقبت اوعاقبت فلا تلومونى على ذلك قولها وكانت ام حسان بنت عمه من فخذه اى من قبيلته قولها ولكن احتملته الحمية اى حملته الغضب والانفة والتعصب على الجهل للقرابة قولها فتساوروا الحيان اى ثاروا ونهضوا للقتال والمخاصمة قولها فلم يزل يخفضهم اى يهونون عليهم ويسكن (قوله صلى الله عليه وسلم ان كنت ألممت) قيل هو من اللمم وهو صغائر الذنوب وقيل معناه مقارفة الذنب من غير فعل قولها قاص دمعى اى انقطع جريانه قولها ما رام اى ما برح من مكانه والبرحاء الشدة والكرب والجمانة الدرة وجمعها جمان فسرى عنه اى كشف عنه وقول زينب احمى سمعى وبصرى اى أمنعهما من أخبر بما لم اسمع ولم ابصر قولها وهى التى كانت تسامينى من السمو وهو العلو والغلبة فعصمها الله اى منعها من الوقوع فى الشر بالورع وقول الرجل ما كشفت من كنف اى من ستر انثى (قوله ويستوشيه) اى يستخرجه بالبحث عنه والاستقصاء فيه وقول حسان فى عائشة حصان بفتح الحاء يقال امراة حصان اى متعففة رزان اى ثابتة ماتزن اى ترمى ولا تتهم بريبة اى بأمر يريب الناس حيبة وتصبح غرثى اى جائعة والغرث الجوع من لحوم الغوافل جمع غافلة والمعنى انها لا تغتاب احدا ممن هو غافل عن مثل هذا الفعل وقول عائشة فى حسان انه كان ينافح اى يناضل ويخاصم عن الله ورسوله واما التفسير فقوله عز وجل ان الذين جاؤا بالافك اى بالكذب والافك اسوأ الكذب لكونه مصروفا عن الحق وذلك ان عائشة كانت تستحق الثناء والمدح بما كانت عليه من الحصانة والشرف والعقل والعلم والديانة فمن رماها بالسوء فقد قلب الحق بالباطل وجاء بالافك عصبة اى جماعة منكم اى عبد الله بن ابى ابن سلول ومسطح بن اثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش زوجة طلحة بن عبيد الله فان قلت عبد الله بن أبى ابن سلول كان راس المنافقين فكيف قال منكم قلت كان ينسب الى الايمان فى الظاهر وقيل قوله منكم خرج مخرج الاغلب فان حسان بن ثابت ومسطح بن اثاثة وحمنة كانوا من المؤمنين المخلصين (لا تحسبوه شرا لكم) يعنى الافك الخطاب لعائشة وصفوان وقيل لعائشة ولابويها وللنبى صلى الله عليه وسلم ولصفوان (بل هو خير لكم) يعنى ان الله آجركم على ذلك واظهر براءتكم وشهد بكذب العصبة واوجب لهم الذم وهذا غاية الشرف والفضل لكم (لكل امرئ منهم) اى من العصبة الكاذبة (ما اكتسب من الاثم) اى جزاء ما اجترح من الذنب على قدر ما خاض فيه (والذى تولى كبره) اى تحمل معظمه وبدا بالخوض فيه واقام باشاعته وهو عبد الله بن ابى ابن سلول (منهم) من العصبة (له عذاب عظيم) يعنى عذاب النار فى الآخرة روى ان النبى صلى الله عليه وسلم امر بالذين رموا عائشة فحدوا الحد جميعا ثمانين ثمانين قوله عز وجل (لولا اذ سمعتموه) اى الحديث الكذب وهو قول اهل الافك (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم)

(لا تحسبوه) اى الافك (شرا لكم) عند الله (بل هو خير لكم) لان الله اثابكم عليه وانزل فى البراءة منه ثمانى عشرة آية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وابى بكر وعائشة وصفوان ومن ساءه ذلك من المؤمنين (لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم) اى على كل امرئ من العصبة جزاء اثمه على مقدار خوضه فيه وكان بعضهم ضحك وبعضهم تكلم فيه وبعضهم سكت (والذى تولى كبره) اى عظمه عبد الله بن أبى (منهم) اى من العصبة (له عذاب عظيم) اى جهنم يحكى ان صفوان مر بهود جها عليه ودوى ملا من قومه فقال من هذه فقالوا عائشة فقال والله ما نجت منه ولا نجا منها ثم وبخ الخائضين فقال (لولا) هلا (اذ سمعتموه) اى الافك (ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم) بالذين منهم فالمؤمنون كنفس واحدة وهو كقوله ولا تلمزوا انفسكم

(خيرا) عفافا وصلاحا وذلك نحو ما يروى ان عمر رضى الله عنه قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام انا قاطع بكذب المنافقين لان الله عصمك من وقوع الذباب على جلدك لانه يقع على النجاسات فيتلطخ بها فلما عصمك الله من ذلك القدر من القذر فكيف لا يعصمك عن صحبة من تكون متلطخة بمثل هذه الفاحشة وقال عثمان ان الله ما اوقع ظلك على الارض لئلا يضع انسان قدمه على ذلك الظل فلما لم يمكن احدا من وضع القدم على ظلك كيف يمكن احدا من تلويث عرض زوجتك وكذا قال على رضى الله عنه ان جبريل اخبرك ان على نعليك قذرا وامرك باخراج النعل عن رجلك بسبب ما التصق به من القذر فكيف لا يأمرك باخراجها بتقدير ان تكون متلطخة بشئ من الفواحش و روى ان ابا ايوب الانصارى قال لامرأته ألا ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان اكنت تظن بحرم رسول الله سوأ فقال لا قالت ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله فعائشة خير منى وصفوان خير منك وانما عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن الضمير الى الظاهر ولم يقل ظننتم بانفسكم خيرا وقلتم ليبالغ فى التوبيخ بطريق الالتفات وليدل التصريح بلفظ الايمان على ان الاشتراك فيه يقتضى ان لا يصدق مؤمن على اخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن وهذا من الادب الحسن الذى قل القائم به والحافظ له ولبئس تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه باخوانه (وقالوا هذا افك مبين) كذب ظاهر لا يليق بهما (لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء) هلا جاؤا على القذف لو كانوا صادقين بأربعة شهداء (فاذ لم يأتوا بالشهداء) الاربعة ٣٥٣ (فأولئك عند الله) اى فى حكمه وشريعته (هم الكاذبون) اى القاذفون لان الله تعالى جعل التفصلة بين الرمى الصادق والكاذب ثبوت شهادة الشهود الاربعة وانتفاءها والذين رموا عائشة رضى الله عنها لم يكن لهم بينة على قولهم فكانوا كاذبين (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) لولا هذه لامتناع الشئ لوجود غيره بخلاف ما تقدم اى

باخوانهم واهل دينهم (خيرا) والمعنى كان الواجب على المؤمنين اذ سمعوا قول اهل الافك ان يكذبوه ويحسنوا الظن ولا يسرعوا فى التهمة وقول الزور فيمن عرفوا عفته وطهارته وفيه معاتبة للمؤمنين (وقالوا هذا افك مبين) اى كذب بين لا حقيقة له (لولا) اى هلا (جاؤا عليه) اى على ما زعموا (بأربعة شهداء) اى يشهدون بذلك (فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله) اى فى حكم الله (هم الكاذبون) وهذا من باب الزواجر فان قلت كيف يصيرون عند الله كاذبين اذا لم يأتوا بالشهداء ومن كذب فهو عند الله كاذب سواء أتى بالشهداء او لم يأت قلت قيل هذا فى حق الذين رموا عائشة خاصة ومعناه فأولئك هم الكاذبون فى غيبى وعلمى وقيل معناه فأولئك عند الله فى حكم الكاذبين فان الكاذب يجب زجره عن الكذب والقاذف اذا لم يأت بالشهود يجب زجره قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) معناه لولا انى قضيت ان اتفضل عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من جملتها الامهال للتوبة وان أترحم عليكم فى الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم به من حديث الافك والخطاب للقذفة وهذا الفضل هو تأخير العذاب وقبول التوبة ممن تاب (اذ تلقونه بالسنتكم) اى يروبه بعضكم عن بعض وذلك ان الرجل منهم يلقى الرجل فيقول بلغنى كذا وكذا فيتلقونه تلقيا يلقيه بعضهم الى بعض (وتقولون بافواهكم ما ليس لكم به علم) اى من غير ان تعلموا انه حق (وتحسبونه هينا) اى وتظنون انه سهل لا اثم فيه (وهو عند الله عظيم) اى فى الوزر (ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك)

ولولا انى قضيت ان اتفضل عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من جملتها الامهال للتوبة وان أترحم عليكم فى الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الافك يقال افاض فى الحديث وخاض واندفع (اذ) ظرف لمسكم اولافضتم (تلقونه) يأخذه بعضكم من بعض يقال تلقى القول وتلقفه وتلقفه (بالسنتكم) اى ان بعضكم كان يقول لبعض هل بلغك حديث عائشة حتى شاع فيما بينهم وانتشر فلم يبق بيت ولا نادا لا طار فيه (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) انما قيد بالافواه مع ان القول لا يكون الا بالفم لان الشئ المعلوم يكون علمه فى القلب ثم يترجم عنه اللسان وهذا الافك ليس الا قولا يبدو فى افواههم من غير ترجمة عن علم به فى القلب كقوله يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم (وتحسبونه) اى خوضكم فى عائشة رضى الله عنها (هينا) صغيرة (وهو عند الله عظيم) كبيرة جزع بعضهم عند الموت فقيل له فى ذلك فقال اخاف ذنبا لم يكن منى على بال وهو عند الله عظيم (ولولا) وهلا (اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) فصل بين لولا وقلتم بالظرف لان للظروف شأنا وهو تنزلها من الاشياء منزلة انفسها لوقوعها فيها وانها لا تنفك عنها فلذا يتسع فيها ما لا يتسع فى غيرها وفائدة تقديم الظرف انه كان الواجب عليهم ان يتقادوا اول ما سمعوا بالافك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت اهم قدم والمعنى هلا قلتم اذ سمعتم الافك ما يصح لنا ان نتكلم بهذا (سبحانك) للتعجب من عظم الامر ومعنى التعجب فى كلمة التسبيح ان الاصل أن يسبح الله عند رؤية العجب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه اولتنزيه الله من ان تكون حرمة نبيه فاجرة وانما جاز ان تكون امرأة النبى كافرة

كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة لان النبي مبعوث الى الكفار ليدعوهم فيجب ان لا يكون معه ما ينفرهم عنه والكفر غير منفر عندهم وأما الكشخنة فمن اعظم المنفرات (هذا بهتان) زور وبهت من يسمع (عظيم) وذكر فيما تقدم هذا افك مبين ويجوز ان يكونوا أمروا بهما مبالغة في التبري (يعظكم الله ان تعودوا) في ان تعودوا (لمثله) لمثل هذا الحديث من القذف او استماع حديثه (أبدا) مادمتم احياء مكلفين (ان كنتم مؤمنين) فيه تهييج لهم ليتعظوا وتذكير بما يوجب ترك العود وهو الايمان الصادع عن كل قبيح (ويبين الله لكم الآيات) الدلالات الواضحات واحكام الشرائع والآداب الجميلة (والله عليم) بكم وباعمالكم (حكيم) يجزي على وفق اعمالكم او علم صدق نزاهتها وحكم ببراءتها (ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا) اى ما قبح جدا والمعنى يشيعون الفاحشة عن قصد الاشاعة ومحبة لها ٣٥٤ (لهم عذاب أليم في الدنيا) بالحد ولقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم ابن أبي وحسانا ومسطحا الحد (والآخرة) بالنار وعدها ان لم يتوبوا (والله يعلم) بواطن الامور وسرائر الصدور (وانتم لا تعلمون) اى انه قد علم محبة من احب الاشاعة وهو معاقبه عليها (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) لعجل لكم العذاب وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة في المنة عليهم والتوبيخ لهم (وان الله رؤف) حيث اظهر براءة المقذوف واثاب (رحيم) بغفرانه جناية القاذف اذا تاب (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) اى آثاره ووساوسه بالاصغاء الى الافك والقول فيه (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه) فان الشيطان (يأمر بالفحشاء) ما افرط قبحه (والمنكر) ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من احد أبدا) ولولا ان الله تفضل عليكم بالتوبة الممحصة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس اثم الافك (ولكن الله يزكي من يشاء) يطهر التائبين بقبول توبتهم اذا محضوها (والله سميع) لقولهم (عليم) بضمائرهم واخلاصهم (ولا يأتل) ولا يحلف من ائتلى اذا حلف افتعال من الالية اولا يقصر من الالو (أولو الفضل منكم) في الدين (والسعة) في الدنيا (ان يؤتوا) اى لا يؤتوا ان كان من الالية (أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) اى لا يحلفوا على ان لا يحسنوا الى المستحقين للاحسان اولا يقصروا في ان يحسنوا اليهم وان كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها (وليعفوا وليصفحوا) العفو الستر والصفح الاعراض اى وليتجاوزوا عن الجفاء وليعرضوا عن العقوبة (ألا تحبون ان يغفر الله لكم) فليفعلوا بهم ما يرجون ان يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم (والله غفور رحيم) فتأدبوا بادب الله واغفروا

قيل هو للتعجب وقيل هو للتنزيه (هذا بهتان عظيم) اى كذب عظيم يبهت ويحير من عظمه روى ان أم ابي ايوب الانصاري قالت لابي ايوب الا تسمع ما يقول الناس في عائشة فقال سبحانك هذا بهتان عظيم فنزلت الآية على وفق قوله (يعظكم الله) قال ابن عباس يحرم الله عليكم وقيل ينهاكم الله (ان تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات) اى في الامر والنهي (والله عليم) اى بامر عائشة وصفوان (حكيم) اى حكم ببراءتهما * قوله عز وجل (ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة) اى يظهر الزنا ويذيع (في الذين آمنوا) قيل الآية مخصوصة بمن قذف عائشة والمراد بالذين آمنوا عائشة وصفوان وقيل الآية على العموم فكل من احب ان تشيع الفاحشة او تظهر على احد فهو داخل في حكم هذه الآية والمراد بالذين آمنوا جميع المؤمنين (لهم عذاب أليم في الدنيا) يعني الحد والذم على فعله (والآخرة) اى وفي الآخرة لهم النار (والله يعلم) اى كذبهم وبراءة عائشة وما خاضوا فيه من سخط الله (وانتم لا تعلمون) وقيل معناه يعلم ما في قلب من يحب ان تشيع الفاحشة فيجازيه على ذلك وانتم لا تعلمون ذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) اى لولا انعامه عليكم لعاجلكم بالعقوبة قال ابن عباس يريد مسطحا وحسان بن ثابت وجنة (وان الله رؤف رحيم) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) اى آثاره ومسالكه (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمره بالفحشاء والمنكر) اى بالقبائح من الاقوال والافعال وكل ما يكره الله عز وجل والآية عامة في حق كل احد لان كل مكلف ممنوع من ذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من احد أبدا) اى ما طهر ولا صلح والآية عند بعض المفسرين على العموم قالوا الخبر الله تعالى انه لولا فضله ورحمته بالعصمة ما صلح منكم احد وقيل الخطاب للذين خاضوا في الافك ومعناه ما طهر من هذا الذنب ولا صلح امره بعد الذي فعل وهذا قول ابن عباس قال معناه ما قبل توبة احد منكم أبدا (ولكن الله يزكي) اى يطهر (من يشاء) من الذنب بالرحمة والمغفرة (والله سميع) اى لاقوالكم (عليم) اى بما في قلوبكم * قوله عز وجل (ولا يأتل) اى ولا يحلف من الالية وهي القسم (أولو الفضل منكم والسعة) يعني الغنى يعني ابا بكر الصديق (ان يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) يعني مسطحا وكان مسكينا مهاجرا بدريا ابن خالة ابي بكر الصديق حلف ابو بكر ان لا ينفق عليه فانزل الله هذه الآية (وليعفوا وليصفحوا) اى عن خوض مسطح في امر عائشة (ألا تحبون) يخاطب ابا بكر (أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فلما قرأها رسول الله صلى

وارجوا نزلت فى شأن ابى بكر الصديق رضى الله عنه حين حلف ان لا ينفق على مسطح ابن خالته لخوضه فى عائشة رضى الله عنها وكان مسكينا بدريا مهاجرا وانما قرأها النبى صلى الله عليه وسلم على ابى بكر قال بلى احب ان يغفر الله لى ورد الى مسطح نفقته (ان الذين يرمون المحصنات) العفائف (الغافلات) السليمات الصدور النقيات القلوب اللاتى ليس فيهن دهاء ولا مكر لانهن لم يجربن الامور (المؤمنات) بما يجب الايمان به عن ابن عباس رضى الله عنهما هن أزواجه عليه الصلاة والسلام وقيل من جميع المؤمنات اذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقيل أريدت عائشة رضى الله عنها وحدها وانما جمع لان من قذف واحدة من نساء النبى عليه الصلاة والسلام فكأنه قذفهن (لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) جعل القذفة ملعونين ٣٠٥ فى الدارين وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة ان لم يتوبوا والعامل فى (يوم تشهد عليهم) يعذبون وبالياء حمزة وعلى (ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) اى بما أفكوا او بهتوا والعامل فى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) بالنصب صفة للدين وهو الجزاء ومعنى الحق الثابت الذى هم أهله وقرأ مجاهد بالرفع صفة كقراءة أبى يوفيهم الله الحق دينهم وعلى قراءة النصب يجوز أن يكون الحق وصفا لله بان ينتصب على المدح (ويعلمون) عند ذلك (أن الله هو الحق المبين) لارتفاع الشكوك وحصول العلم الضرورى ولم يغلظ الله تعالى فى القرآن فى شئ من المعاصى تغليظه فى افك عائشة رضى الله عنها فاوجز فى ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وماذاك الا مارؤى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض فى أمر عائشة وهذا منه تعظيم ومبالغة فى امر الافك ولقد برأ الله تعالى اربعة بارئ برأ يوسف عليه السلام بشاهد من اهلها وموسى عليه السلام من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه ومريم رضى الله عنها بانطاق ولدها وعائشة رضى الله عنها بهذه الآى العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر بهذه المبالغات فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك وما ذلك الا لاظهار علو منزلة رسوله والتنبيه على انافة محله صلى الله عليه وسلم وعلى آله (الخبيثات) من القول تقال (للخبيثين) من الرجال والنساء (والخبيثون) منهم يتعرضون (للخبيثات) من القول وكذلك (والطيبات

الله عليه وسلم على ابى بكر قال بلى انا احب ان يغفر الله لى ورجع الى مسطح بنفقته التى كان ينفق عليه وقال والله لا انزعها عنه أبدا وفى الآية ادلة على فضل ابى بكر الصديق لان الفضل المذكور فى الآية ذكره تعالى فى معرض المدح وذكره بلفظ الجمع فى قوله أولوا الفضل وقوله الا تحبون ان يغفر الله لكم وهذا يدل على علو شأنه ومرتبته منها انه احتمل الاذى من ذوى القربى ورجع عليه بما كان ينفقه عليه وهذا من اشد الجهاد لانه جهاد النفس ومنها انه تعالى قال فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعف عنهم واصفح وقال فى حق ابى بكر وليعفوا وليصفحوا فدل ان ابا بكر كان ثانى اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع الاخلاق وفى الآية دليل على ان من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه ومنه الحديث الصحيح من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه قوله تعالى (ان الذين يرمون المحصنات) اى العفائف (الغافلات) اى عن الفواحش والغافلة عن الفاحشة هى التى لا يقع فى قلبها فعل الفاحشة وكذلك كانت عائشة رضى الله عنها (المؤمنات) وصفها بالمؤمنات لعلو شأنها (لعنوا) اى عذبوا (فى الدنيا) بالحد (والآخرة) اى وفى الآخرة بالنار (ولهم عذاب عظيم) وهذا فى حق عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق وروى عن خصيف قال قلت لسعيد بن جبير من قذف مؤمنة يلعنه الله فى الدنيا والآخرة قال ذاك لعائشة وازواج النبى صلى الله عليه وسلم خاصة دون سائر المؤمنات ليس فى ذلك توبة ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ والذين يرمون المحصنات الى قوله تابوا فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لاولئك توبة وقيل بل لهم توبة ايضا للآية (يوم تشهد عليهم ألسنتهم) هذا قبل أن يختم على افواههم (وأيديهم وأرجلهم) يروى انه يختم على الافواه فتتكلم الايدى والارجل بما عملت فى الدنيا وهو قوله (بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) اى جزاءهم الواجب وقيل حسابهم العدل (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) اى الموجود الظاهر الذى بقدرته وجود كل شئ وقيل معناه يبين لهم حقيقة ما كان يعدهم فى الدنيا وقال ابن عباس وذلك ان عبد الله بن أبى ابن سلول كان يشك فى الدين فيعلم يوم القيامة ان الله هو الحق المبين * قوله عز وجل (الخبيثات للخبيثين) قال اكثر المفسرين معنى الخبيثات الكلمات والقول للخبيثين من الناس ومثله (والخبيثون) اى من الناس (للخبيثات) من القول (والطيبات) اى من القول ومعنى الآية ان الخبيث من القول لا يليق الا بالخبيث من الناس والطيب من القول لا يليق الا بالطيب من الناس وعائشة لا يليق بها الخبيث من القول لانها طيبة فيضاف اليها طيب القول من الثناء والمدح وما يليق بها وقيل معناه لا يتكلم بالخبيث الا الخبيث من الرجال والنساء وهذا ذم للذين قذفوا عائشة ولا يتكلم بالطيب من

للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤن مما يقولون) اى فيهم وأولئك اشارة الى الطيبين وانهم مبرؤن مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلام وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة رضى الله عنها ومارميت به من قول لا يطابق حالها فى النزاهة والطيب ويجوز ان يكون اشارة الى اهل البيت وانهم مبرؤن مما يقول اهل الافك وان يراد بالخبيثات والطيبات النساء الخبائث يتزوجن الخبائث والخبائن تتزوج الخبائث وكذا أهل الطيب (لهم مغفرة) مستأنف او خبر بعد خبر (ورزق كريم) فى الجنة ودخل ابن عباس رضى الله عنهما على عائشة رضى الله عنها فى مرضها ٣٥٦ وهى خائفة من القدوم على الله تعالى فقال لا تخافى لانك لا تقدمين الا على مغفرة

القول الا الطيب من الرجال والنساء وهذا مدح للذين يرونها بالطاهر والمدح لها وقيل معنى الآية الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء أمثال عبد الله بن أبى المنافق والشاكين فى الدين والطيبات من النساء (للطيبين والطيبون للطيبات) يريد عائشة طيبها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم (أولئك مبرؤن) يعنى عائشة وصفوان ذكرهما الله بلفظ الجمع منزهون (مما يقولون) يعنى أصحاب الافك (لهم مغفرة) اى عفو لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى الجنة روى ان عائشة كانت تفتخر باشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها منها ان جبريل عليه السلام أتى بصورتها فى سرقة حرير وقال هذه زوجتك وروى انه أتى بصورتها فى راحته ومنها ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجرها وفى يومها ودفن فى بيتها وكان ينزل عليه الوحى وهى معه فى اللحاف ونزلت براءتها من السماء وأنها ابنة الصديق وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلقت طيبة و وعدت مغفرة ورزقا كريما وكان مسروق اذا حدث عن عائشة يقول حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا) اى تستأذنوا وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا و يقول تستأنسوا خطأ من الكاتب وفى هذه الرواية نظر لان القرآن ثبت بالتواتر والاستئناس فى اللغة الاستئذان وقيل الاستئناس طلب الانس وهو ان ينظر هل فى البيت انسان فيؤذنه انى داخل وقيل هو من آنست اى ابصرت وقيل هو ان يتكلم بتسبيحة او يتنحنح حتى يعرف أهل البيت (وتسلموا على أهلها) بيان حكم الآية انه لا يدخل بيت الغير الا بعد الاستئذان والسلام واختلفوا فى ايهما يقدم فقيل يقدم الاستئذان فيقول ادخل سلام عليكم كما فى الآية من تقديم الاستئذان قبل السلام وقال الاكثرون يقدم السلام فيقول سلام عليكم أأدخل وتقدير الآية حتى تسلموا على اهلها وتستأذنوا وكذا هو فى مصحف ابن مسعود وروى عن كلدة بن حنبل قال دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبى صلى الله عليه وسلم ارجع فقل السلام عليكم أأدخل أخرجه ابو داود والترمذى وعن ربعى بن حراش قال جاء رجل من بنى عامر فاستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى البيت فقال ألج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخادمه اخرج الى هذا فعلمه الاستئذان فقل له قل السلام عليكم أأدخل فسمع الرجل ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليكم أأدخل فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه ابو داود (ق) عن ابى سعيد وأبى بن كعب عن ابى موسى قال ابو سعيد كنت فى مجلس من مجالس الانصار اذ جاء ابو موسى كأنه مذعور فقال استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت قال ما منعك قلت استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع قال والله لتقيمن عليه بينة أمنكم احد سمعه من النبى صلى

ورزق كريم وتلا الآية فغشى عليها فرحا بما تلا وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها اعطيت تسعا ما اعطيتهن امرأة نزل جبريل بصورتى فى راحته حين أمر عليه الصلاة والسلام ان يتزوجنى تزوجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى وتوفى عليه الصلاة والسلام ورأسه فى حجرى وقبر فى بيتى ولقد حفته الملائكة فى بيتى وينزل عليه الوحى وانا فى لحافه وانا ابنة خليفته وصديقه ونزل عذرى من السماء وخلقت طيبة عند طيب ووعدت مغفرة ورزقا كريما وقال حسان معتذرا فى حقها

حصان رزان ما تزن بريبة
* وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

حليلة خير الناس دينا ومنصبا
* نبى الهدى والمكرمات الفواضل

عقيلة حى من لؤى بن غالب
* كرام المساعى مجدها غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمها
* وطهرها من كل شين و باطل

الله

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) اى بيوتا لستم تملكونها ولا تسكنونها (حتى تستأنسوا) اى تستأذنوا عن ابن عباس رضى الله عنهما وقد قرأ به والاستئناس فى الاصل الاستعلام والاستكشاف استفعال من انس الشئ اذا ابصره ظاهرا مكشوفا اى حتى تستعلموا ايطلق لكم الدخول ام لا وذلك بتسبيحة او بتكبيرة او بتحميدة او بتنحنح (وتسلموا على اهلها) والتسليم ان يقول السلام عليكم ادخل ثلاث مرات فان اذن له والا رجع وقيل ان تلاقيا يقدم التسليم والا فالاستئذان

(ذلكم) اى الاستئذان والتسليم (خير لكم) من تحية الجاهلية والدمور وهو الدخول بغير اذن فكان الرجل من أهل الجاهلية اذا دخل بيت غيره يقول حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد (لعلكم تذكرون) اى قيل لكم هذا لكى تذكروا وتتعظوا وتعملوا ما أمرتم به فى باب الاستئذان (فان لم تجدوا فيها) ٣٥٧ فى البيوت (أحدا) من الآذنين (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) حتى تجدوا من يأذن لكم او فان لم تجدوا فيها أحدا من أهلها ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها الا باذن أهلها لان التصرف فى ملك الغير لا بد من ان يكون برضاه (وان قيل لكم ارجعوا) اى اذا كان فيها قوم فقالوا ارجعوا (فارجعوا) ولا تلحوا فى اطلاق الاذن ولا تلجوا فى تسهيل الحجاب ولا تقفوا على الابواب لان هذا مما يجلب الكراهة فاذا نهى عن ذلك لادائه الى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدى اليها من قرع الباب بعنف والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك وعن ابى عبيد ما قرعت بابا على عالم قط (هو ازكى لكم) اى الرجوع أطيب وأطهر لما فيه من سلامة الصدور والبعد عن الريبة او أنفع وانمى خيرا (والله بما تعملون عليم) وعيد للمخاطبين بانه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا به فوف جزاءه عليه (ليس عليكم جناح ان تدخلوا) فى ان تدخلوا (بيوتا غير مسكونة) استثنى من البيوت التى يجب الاستئذان على داخلها ما ليس بمسكون منها كالخانات والربط وحوانيت التجار (فيها متاع لكم) اى منفعة كالاستكنان من الحر والبرد وايواء الرحال والسلع والشراء والبيع وقيل الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة

الله عليه وسلم قال أبى بن كعب فوالله لا يقوم معك الا اصغر القوم فكنت اصغر القوم فقمت معه فاخبرت عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك قال الحسن الاول اعلام والثانى مؤامرة والثالث استئذان بالرجوع عن عبد الله بن بسر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الايمن او الايسر ويقول السلام عليكم السلام عليكم وذلك ان الدور لم يكن عليها يومئذ ستور أخرجه ابو داود وعن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعى أحدكم فجاء مع الرسول فان ذلك له اذن أخرجه ابو داود وقيل اذا وقع بصره على انسان قدم السلام والاقدم الاستئذان ثم يسلم وقال ابو موسى الاشعرى وحذيفة يستأذن على ذوات المحارم يدل عليه ما روى عن عطاء بن يسار ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أستأذن على أمى قال نعم فقال الرجل انى معها فى البيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليها فقال الرجل انى خادمها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليها اتحب ان تراها عريانة قال لا قال فاستأذن عليها اخرجه مالك فى الموطا مرسلا وقوله تعالى (ذلكم خير لكم) اى فعل الاستئذان خير لكم وأولى بكم من التهجم بغير اذن (لعلكم تذكرون) اى هذه الآداب فتعملوا بها * قوله عز وجل (فان لم تجدوا فيها) اى فى البيوت (أحدا) اى يأذن لكم فى دخولها (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) اى فى الدخول (وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا) يعنى اذا كان فى البيت قوم وكرهوا دخول الداخل عليهم فقالوا ارجع فليرجع ولا يقف على الباب ملازما (هو ازكى لكم) اى الرجوع هو اطهر واصلح لكم فان للناس أحوالا وحاجات يكرهون الدخول عليهم فى تلك الاحوال واذا حضر الى الباب فلم يستأذن وقعد على الباب منتظرا جاز كان ابن عباس يأتى دور الانصار لطلب الحديث فيقعد على الباب ولا يستأذن حتى يخرج اليه الرجل فاذا خرج ورآه قال يا ابن عم رسول الله لو اخبرتنى بمكانك فيقول هكذا أمرنا أن نطلب العلم واذا وقف على الباب فلا ينظر من شقه اذا كان الباب مردودا (ق) عن سهل بن سعد قال اطلع رجل من جحر فى باب النبى صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدرى يرجل وفى رواية يحك به رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو علمت انك تنظر لطعنت به فى عينك انما جعل الاذن من أجل البصر (ق) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من اطلع فى بيت قوم بغير اذنهم فقد حل لهم ان يفقؤا عينه وفى رواية للنسائى قال لو ان امرأ اطلع عليك بغير اذن فحذفته ففقأت عينه ما كان عليك حرج وقال مرة أخرى جناح (والله بما تعملون عليم) اى من الدخول بالاذن ولما نزلت آية الاستئذان قالوا كيف بالبيوت التى بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق ليس فيها ساكن فانزل الله تعالى (ليس عليكم جناح) اى اثم (أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة) اى بغير استئذان (فيها متاع لكم) اى منفعة لكم قيل ان هذه البيوت هى الخانات والمنازل المبنية للسابلة ليأووا اليها ويؤووا أمتعتهم فيها فيجوز دخولها بغير استئذان ولمنفعة النزول بها واتقاء الحر والبرد وايواء الامتعة بها وقيل بيوت التجار وحوانيتهم فى الاسواق يدخلها للبيع والشراء وهو منفعتها فليس فيها استئذان وقيل هى جميع البيوت التى لا ساكن فيها لان الاستئذان انما جعل لئلا يطلع على عورة فان لم يخف ذلك جاز له الدخول بغير استئذان (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون)

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) من للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل (ويحفظوا فروجهم) عن الزنا وما يدخل من هنا لان الزنا لا رخصة فيه بوجه ويجوز النظر الى وجه الاجنبية وكفها وقدميها في رواية والى رأس المحارم والصدر والساقين والعضدين (ذلك) اى غض البصر وحفظ الفرج (ازكى لهم) اى اطهر من دنس الاثم (ان الله خبير بما يصنعون) فيه ترغيب وترهيب يعنى انه خبير باحوالهم وأفعالهم ٣٥٨ وكيف يحيلون أبصارهم يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور فعليهم اذا عرفوا ذلك ان يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون (وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن) أمرن بغض الابصار فلا يحل للمرأة ان تنظر من الاجنبى الى ما تحت سرته الى ركبتيه وان اشتهت غضت بصرها رأسا ولا تنظر الى المرأة الا الى مثل ذلك وغض بصرها من الاجانب اصلا اولى بها وانما قدم غض الابصار على حفظ الفروج لان النظر بريد الزنا ورائد الفجور فبذر الهوى طموح العين (ولا يبدين زينتهن) الزينة ما تزينت به المرأة من حلى او كحل او خضاب والمعنى لا يظهرن مواضع الزينة وهى الحلى ونحوها مباح فالمراد بها مواضعها لاظهارها مواضعها لاظهار اعيانها ومواضعها الراس والاذن والعنق والصدر والعضدان والذراع والساق فهى للاكليل والقرط والقلادة والوشاح والدملج والسوار والخلخال (الا ما ظهر منها) الا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره وهو الوجه والكفان والقدمان الله

* قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) اى عما لا يحل النظر اليه قيل معناه يغضوا أبصارهم وقيل من هنا للتبعيض لانه لا يجب الغض عما يحل اليه النظر وانما أمروا ان يغضوا عما لا يحل النظر اليه (م) عن جرير قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة قال اصرف بصرك عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى يا على لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الثانية اخرجه ابو داود والترمذى (م) عن ابى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الرجل الى عورة الرجل ولا المرأة الى عورة المرأة ولا يفضى الرجل الى الرجل فى ثوب واحد ولا تفضى المرأة الى المرأة فى ثوب واحد وقوله تعالى (ويحفظوا فروجهم) اى عما لا يحل قال ابو العالية كل ما فى القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا الا فى هذا الموضع فانه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه فان قلت كيف ادخل من على غض البصر دون حفظ الفرج قلت فيه دلالة على ان أمر النظر اوسع الا ترى ان المحارم لا بأس بالنظر الى شعورهن وثديهن واعضادهن واقدامهن وكذلك الجوارى المستعرضات فى البيع والاجنبية يجوز النظر الى وجهها وكفيها للحاجة الى ذلك وأما الفروج فضيق وكفاك ان أبيح النظر الا ما استثنى منه وحظر الجماع الا ما استثنى منه فان قلت كيف قدم غض البصر على حفظ الفرج قلت لان النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه أشد ولا يكاد احد يقدر على الاحتراس منه (ذلك ازكى لهم) اى غض البصر وحفظ الفرج (ان الله خبير بما يصنعون) اى انه خبير باحوالهم وافعالهم وكيف يحيلون ابصارهم وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم * قوله عز وجل (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) اى عما لا يحل لهن روى عن ام سلمة قالت كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة بنت الحرث اذ اقبل ابن ام مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه فقلنا يا رسول الله اليس اعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعميا وان انتما ألستما تبصرانه اخرجه الترمذى وابو داود وقوله تعالى (ولا يبدين) اى لا يظهرن (زينتهن) اى لغير محرم واراد بالزينة الخفية مثل الخلخال والخضاب فى الرجل والسوار فى المعصم والقرط فى الاذن والقلائد فى العنق فلا يجوز للمرأة اظهارها ولا يجوز للاجنبى النظر اليها والمراد من الزينة النظر الى مواضعها من البدن (الا ما ظهر منها) اى من الزينة قال سعيد بن جبير والضحاك والاوزاعى الوجه والكفان وقال ابن مسعود هى الثياب وقال ابن عباس هى الكحل والخاتم والخضاب فى الكف فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للرجل الاجنبى النظر اليه للضرورة مثل تحمل الشهادة ونحوه من الضرورات اذا لم يخف فتنة وشهوة فان خاف شيأ من ذلك غض البصر وانما رخص فى هذا القدر للمرأة أن تبديه من بدنها لانه ليس بعورة وتؤمر بكشفه فى الصلاة وسائر بدنها عورة (وليضربن بخمرهن) اى ليلقين بقاناتهن (على جيوبهن) اى موضع الجيب وهو النحر والصدر اى ليسترن بذلك شعورهن واعناقهن واقراطهن وصدورهن (خ) عن عائشة قالت يرحم

فى سترها حرج بين فان المرأة لا تجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشى فى الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن (وليضربن) وليضعن من قولك ضربت بيدى على الحائط اذا وضعتها عليه (بخمرهن) جمع خمار (على جيوبهن) بضم الجيم مدنى وبصرى وعاصم كانت جيوبهن واسعة تبدو منها صدورهن وما حولها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن أن يسدلنها من قدامهن حتى تغطيهن

(ولا يبدين زينتهن) اى مواضع الزينة الباطنة كالصدر والساق والرأس ونحوها (الا لبعولتهن) لازواجهن جمع بعل (او آبائهن) ويدخل فيهم الاجداد (او آباء بعولتهن) فقد صاروا محارم (او أبنائهن) ويدخل فيهم النوافل (او أبناء بعولتهن) فقد صاروا محارم أيضا (او اخوانهن أو بنى اخوانهن او بنى اخواتهن) ويدخل فيهم النوافل وسائر المحارم كالاعمام والاخوال وغيرهم دلالة (او نسائهن) اى الحرائر لان مطلق هذا اللفظ يتناول الحرائر (او ما ملكت ايمانهن) اى اماؤهن ولا يحل لعبدها ان ينظر الى هذه المواضع منها خصيا كان او عنينا او مخلا وقال سعيد بن المسيب لا تغرنكم سورة النور فانها فى الاماء دون الذكور وعن عائشة رضى الله عنها انها اباحت النظر اليها لعبدها (او التابعين غير) بالنصب شامى ويزيد وابو بكر على الاستثناء او الحال وغيرهم بالجر على البدل او على الوصفية (اولى الاربة) الحاجة الى النساء قيل هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم الى النساء لانهم بله لا يعرفون شيأ من امرهن او شيوخ صلحاء أو العنين أو الخصى او المخنث وفى الاثر انه المجبوب والاول الوجه (من الرجال) حال (او الطفل الذين) هو جنس فصلح ان يراد به الجمع (لم يظهروا على عورات النساء) اى لم يطلعوا لعدم الشهوة من ظهر على الشئ اذا اطلع عليه اولم يبلغوا اوان القدرة على الوطء من ظهر على فلان اذا قوى عليه (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) كانت المرأة تضرب الارض برجليها اذا مشت لتسمع قعقعة خلخالها فيعلم انها ذات خلخال فنهين عن ذلك اذ سماع صوت الزينة كاظهارها ومنه سمى صوت الحلى وسواسا

الله نساء المهاجرات الاول لما انزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها المرط كساء من صوف أو خز او كتان وقيل هو الازار وقيل هو الدرع (ولا يبدين زينتهن) يعنى الخفية التى لم يبح لهن كشفها فى الصلاة ولا للاجانب وهى ما عدا الوجه والكفين (الا لبعولتهن) قال ابن عباس لا يضعن الجلباب والخمار الا لازواجهن (أو آبائهن او آباء بعولتهن او أبنائهن او أبناء بعولتهن او اخوانهن أو بنى أخوانهن او بنى أخواتهن) فيجوز لهؤلاء أن ينظروا الى الزينة الباطنة ولا ينظرون الى ما بين السرة والركبة ويجوز للزوج ان ينظر الى جميع بدن زوجته غير انه يكره له النظر الى فرجها (او نسائهن) اى المؤمنات من أهل دينهن اراد به انه يجوز للمرأة أن تنظر الى بدن المرأة الا ما بين السرة والركبة ولا يجوز للمرأة المؤمنة أن تتجرد من ثيابها عند الذمية او الكافرة لان الله تعالى قال أو نسائهن والذمية او الكافرة ليست من نسائنا ولانها أجنبية فى الدين فكانت أبعد من الرجل الاجنبى كتب عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة بن الجراح ان يمنع نساء اهل الكتاب ان يدخلن الحمام مع المسلمات وقيل يجوز كما يجوز ان تتكشف للمرأة المسلمة لانها من جملة النساء (او ما ملكت أيمانهن) قيل هو عبد المرأة فيجوز له الدخول عليها اذا كان عفيفا او ان ينظر الى مولاته الا ما بين السرة والركبة كالمحارم وهو ظاهر القرآن يروى ذلك عن عائشة وأم سلمة وروى أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم أتى الى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعلى فاطمة ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تلقى قال انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وقيل هو كالاجنبى معها وهو قول سعيد بن المسيب قال والمراد من الآية الاماء دون العبيد (او التابعين غير اولى الاربة من الرجال) قرئ غير بنصب الراء وقيل هو بمعنى الاستثناء ومعناه يبدين زينتهن للتابعين الا ذا الاربة منهم فانهن لا يبدين زينتهن لمن كان منهم ذا اربة وقرئ غير بالجر على نعت التابعين والاربة والارب الحاجة والمراد بالتابعين غير اولى الاربة هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لا همة لهم الا ذلك ولا حاجة لهم فى النساء وقال ابن عباس هو الاحمق العنين وقيل هو الذى لا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهين وقيل هو المجبوب والخصى وقيل هو الشيخ الهرم الذى ذهبت شهوته وقيل هو المخنث (م) عن عائشة رضى الله عنها قالت كان يدخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم مخنث وكانوا يعدونه من غير أولى الاربة فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة قال اذا أقبلت أقبلت بأربع واذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبى صلى الله عليه وسلم الا ارى هذا يعرف ما ههنا لا يدخل عليكن فأحجبوه زاد ابو داود فى رواية وأخرجوه الى البيداء يدخل كل جمعة فيستطعم (قوله أقبلت بأربع) اى أن لها فى بطنها أربع عكن فهى تقبل اذا أقبلت بها وأدبرت بالثمان اطراف العكن الاربع من الجانبين وذلك صفة لها بالسمن (او الطفل الذى لم يظهروا على عورات النساء) اى لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع فيطلعوا عليها وقيل لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر وقيل لم يطيقوا أمر النساء وقيل لم يبلغوا حد الشهوة وقيل الطفولية اسم للصبى ما لم يحتلم (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) قيل كانت المرأة اذا مشت ضربت برجلها ليسمع صوت خلخالها او يثبين خلخالها فنهين عن ذلك وقيل ان الرجل تغلب عليه شهوة النساء اذا سمع صوت الخلخال ويصير ذلك داعية له زائدة فى مشاهدتهن وقد علل ذلك بقوله تعالى ليعلم ما يخفين من زينتهن فنبه به على ان الذى لاجله نهى عنه أن يعلم به ما عليهن

من الحلى وغيره (وتوبوا الى الله جميعا) اى من التقصير الواقع فى أمره ونهيه وراجعوا طاعته فيما امركم به ونهاكم عنه من الآداب المذكورة فى هذه السورة قيل ان أوامر الله ونواهيه فى كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد فلا ينفك عن تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين بالتوبة والاستغفار ووعد بالفلاح اذا تابوا واستغفروا فذلك قوله تعالى (أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) (م) عن الاغر المزينة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول توبوا الى ربكم فوالله انى لاتوب الى ربى تبارك وتعالى مائة مرة فى اليوم عن ابن عمر قال ان كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس يقول رب اغفر لى وتب على انك أنت التواب الرحيم مائة مرة أخرجه عبد الرحمن بن حميد الكشى (ق) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله افرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة (م) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه * قوله عز وجل (وأنكحوا الايامى منكم) جمع الايم يطلق على الذكر والانثى وهو من لا زوج له من رجالكم ونسائكم (والصالحين من عبادكم) اى من عبيدكم (وامائكم) بيان حكم الآية الامر المذكور فى الآية امر ندب واستحباب لاجماع السلف عليه فيستحب لمن تاقت نفسه الى النكاح ووجد أهبته ان يتزوج وان لم يجد أهبته يكسر شهوته بالصوم (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء الباءة النكاح ويكنى به عن الجماع ايضا والوجاء بكسر الواو رض الانثيين وهو نوع من الخصاء شبه الصوم فى قطعة شهوة النكاح بالوجاء الذى يقطع النسل * عن معقل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجوا الودود الولود فانى مكاثر بكم الامم يوم القيامة أخرجه ابو داود والنسائى (م) عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة اما من لا تتوق نفسه الى النكاح وهو قادر عليه فالتخلى للعبادة افضل له من النكاح عند الشافعى وعند اصحاب الرأى النكاح أفضل قال الشافعى قد ذكر الله عبدا أكرمه فقال وسيدا وحصورا وهو الذى لا يأتى النساء وذكر القواعد من النساء ولم يندب هن الى النكاح وفى الآية دليل على ان تزويج الايامى الى الاولياء لان الله خاطبهم به كما ان تزويج العبيد والاماء الى السادات وهو قول أكثر اهل العلم من الصحابة فمن بعدهم روى ذلك عن عمر وعلى وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وابى هريرة وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وشريح وابراهيم النخعى وعمر ابن عبد العزيز واليه ذهب الثورى والاوزاعى وعبد الله بن المبارك والشافعى واحمد واسحق وجوز أصحاب الرأى للمرأة تزويج نفسها وقال مالك ان كانت المرأة دنيئة يجوز لها تزويج نفسها وان كانت شريفة فلا والدليل على ان الولى شرط فى النكاح ما روى عن ابى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نكاح الا بولى اخرجه ابو داود والترمذى ولهما عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ايما امرأة نكحت بغير اذن وليها فنكاحها باطل ثلاثا فان أصابها فلها المهر بما استحل من فرجها فان تشاحوا (١) فالسلطان ولى من لا ولى له وقوله تعالى (ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) قيل الغنى هنا القناعة وقيل هو اجتماع الرزقين رزق الزوج والزوجة وقال عمر بن الخطاب عجبت لمن يبتغى الغنى بغير النكاح والله تعالى يقول ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وقال بعضهم ان الله وعد الغنى بالنكاح وبالتفرق فقال تعالى ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وقال وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته (والله واسع) اى انه ذو الافضال والجود (عليم) اى بما يصلح خلقه من الرزق قوله تعالى

ولان بعدها الفا فى التقدير (لعلكم تفلحون) العبد لا يخلو عن سهو وتقصير فى أوامره ونواهيه وان اجتهد فلذا وصى المؤمنين جميعا بالتوبة وبتأميل الفلاح اذا تابوا وقيل أحوج الناس الى التوبة من توهم انه ليس له حاجة الى التوبة وظاهر الآية يدل على ان العصمان لا ينافى الايمان (وأنكحوا الايامى منكم) الايامى جمع ايم وهو من لا زوج له رجلا كان او امرأة بكرا كان او ثيبا وأصله أيائم فقلبت (والصالحين) اى الخيرين او المؤمنين والمعنى زوجوا من تأيم منكم من الاحرار والحرائر ومن كان فيه صلاح (من عبادكم وامائكم) اى من غلمانكم وجواريكم والامر للندب اذ النكاح مندوب اليه (ان يكونوا فقراء) من المال (يغنهم الله من فضله) بالكفاية والقناعة أو باجتماع الرزقين وفى الحديث التمسوا الرزق بالنكاح وعن عمر رضى الله عنه روى مثله (والله واسع) غنى ذو سعة لا يرزؤه اغناء الخلائق (عليم) بسط الرزق لمن يشاء وقيل فى الآية دليل على ان تزويج النساء والايامى الى الاولياء كما ان تزويج العبيد والاماء الى الموالى قلنا الرجل لا يلى على الرجل (وليستعفف

(١) قوله تشاحوا فى بعض النسخ اشتجروا اه

الايم الاباذنه فكذا الايلى على المرأة الاباذنها لان الايم ينتظمهما

(وليستعفف الذين) وليجتهدوا في العفة كأن المستعف طالب من نفسه العفاف (لا يجدون نكاحا) استطاعة تزوج من المهر والنفقة (حتى يغنيهم الله من فضله) حتى يقدرهم على المهر والنفقة قال عليه الصلاة والسلام يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحسن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء فانظر كيف رتب هذه الاوامر فأمر أولا بما يعصم من الفتنة وبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر ثم بالنكاح المحصن للدين المغني عن الحرام ثم بعزة النفس الامارة بالسوء عن الطموح الى الشهوة عند العجز عن النكاح الى أن تقدر عليه (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ٣٦١ أيمانكم) اى المماليك الذين

(وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا) اى ليطلب العفة عن الزنا والحرام الذين لا يجدون ما ينكحون به من الصداق والنفقة (حتى يغنيهم الله من فضله) اى يوسع عليهم من رزقه (والذين يبتغون الكتاب) اى يطلبون المكاتبة (مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم) سبب نزول هذه الآية ان غلاما لحويطب بن عبد العزى سأل مولاه أن يكاتبه فابى عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا فاداها وقتل يوم حنين في الحرب * (بيان حكم الآية وكيفية المكاتبة) * وذلك ان يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا من المال ويسمي مالا معلوما تؤدي ذلك في نجمين او في نجوم معلومة في كل نجم كذا فاذا اديت ذلك فانت حر ويقبل العبد ذلك فاذا أدى العبد ذلك المال عتق ويصير العبد احق بمكاسبه بعد الكتابة واذا عتق باداء المال فما فضل في يده من المال فهو له ويتبعه اولاده الذين حصلوا في الكتابة في العتق واذا عجز عن اداء المال كان لمولاه ان يفسخ كتابته ويرده الى الرق وما في يده من المال فهو لسيده لما روى عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المكاتب عبد ما بقي عليه درهم اخرجه ابو داود وذهب بعض اهل العلم الى ان قوله تعالى فكاتبوهم امر ايجاب يجب على السيد ان يكاتب عبده الذي علم فيه خيرا اذا سأل العبد ذلك على قيمته او على اكثر من قيمته وان سأل على اقل من قيمته لا يجب وهو قول عطاء وعمرو بن دينار لما روى ان سيرين ابا محمد بن سيرين سأل انس بن مالك ان يكاتبه وكان كثير المال فابى فانطلق سيرين الى عمر فشكاه فدعاه عمر فقال له كاتبه فابى فضربه بالدرة وتلا فكاتبوهم (ان علمتم فيهم خيرا) فكاتبه وذهب اكثر اهل العلم الى انه امر ندب واستحباب ولا تجوز الكتابة على اقل من نجمين عند الشافعي لانه عقد جوز ارفاقا بالعبد ومن تمة الارفاق أن يكون ذلك المال عليه الى اجل حتى يؤديه على مهل فيحصل المقصود وجوز ابو حنيفة الكتابة الى نجم واحد وحالة واحدة واختلفوا في معنى قوله ان علمتم فيهم خيرا فقال ابن عمر قوة على الكسب وهو قول مالك والثوري وقيل مالا روى ان عبدا لسلمان الفارسي قال له كاتبني قال ألك مال قال لا قال تريد أن تطعمني اوساخ الناس ولم يكاتبه قيل لو أراد به المال لقال ان علمتم لهم خيرا وقيل صدقا وامانة وقال الشافعي أظهر معاني الخير في العبد الاكتساب مع الامانة فاحب أن لا يمنع من المكاتبة اذا كان هكذا وعن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذي يريد الاداء والناكح الذي يريد العفاف والمجاهد في سبيل الله اخرجه الترمذي والنسائي وقيل معنى الخير أن يكون العبد عاقلا بالغا فاما الصبي والمجنون فلا تصح كتابتهما لان الابتغاء منهما لا يصح وجوز ابو حنيفة كتابة الصبي المراهق وقوله تعالى (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) قيل هو خطاب للموالي فيجب على السيد ان يحط عن مكاتبه من مال الكتابة شيأ

يطلبون الكتابة فالذين مرفوع بالابتداء او منصوب بفعل يفسره (فكاتبوهم) وهو للندب ودخلت الفاء لتضمنه معنى الشرط والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة وهو ان يقول لمملوكه كاتبتك على الف درهم فان أداها عتق ومعناه كتبت لك على نفسي ان تعتق مني اذا وفيت بالمال وكتبت لي على نفسك ان تفي بذلك او كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق ويجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لاطلاق الامر (ان علمتم فيهم خيرا) قدرة على الكسب او امانة وديانة والندبية معلقة بهذا الشرط (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) امر للمسلمين على وجه الوجوب باعانة المكاتبين واعطائهم سهمهم من الزكاة لقوله تعالى وفي

الرقاب وعند الشافعي رحمه الله معناه حطوا من بدل الكتابة ربعا وهذا عندنا على وجه الندب والاول الوجه لان الايتاء هو التمليك فلا يقع على الحط سأل صبيح مولاه حويطبا أن يكاتبه فابى فنزلت واعلم ان العبيد اربعة قن مقتنى للخدمة ومأذون في التجارة ومكاتب وآبق فمثال الاول ولي العزلة الذي حصل العزلة بايثار الخلوة وترك العشرة والثاني ولي العشيرة فهو نجي الحضرة يخالط الناس للخبرة وينظر اليهم بالعبرة ويأمرهم بالعبرة فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم بحكم الله ويأخذ لله ويعطي في الله ويفهم عن الله ويتكلم مع الله فالدنيا سوق تجارته والعقل رأس بضاعته والعدل في الغضب والرضا ميزانه والقصد في الفقر والغنى عنوانه والعلم مفزعه ومنحاه والقرآن كتاب الاذن من مولاه هو كائن في الناس بظواهره

باثن منهم بسرائره فقد هجرهم فيما له عليهم في الله باطنا ثم وصلهم فيما لهم عليه لله ظاهرا وما هو منهم بالعيش فيهم *
ولكن معدن الذهب الرغام يأكل ما يأكلون ويشرب ما يشربون وما يدريهم انه ضيف الله يرى السموات والارض قائمات باره
وكأنه قيل فيه فان تفق الانام وانت منهم * فان المسك بعض دم الغزال فحال ولى العزلة أصفى واحلى وحال ولى العشرة أوفى
واعلى ونزل الاول من الثانى فى حضرة الرحمن منزلة النديم من الوزير عند السلطان اما النبى عليه الصلاة والسلام فهو كريم

الطرفين ومعدن الشذر بن ومجمع الحالين ومنبع الزلالين فباطن أحواله مهتدى ولى العزلة وظاهر أعماله مقتدى ولى العشرة والثالث المجاهد المحاسب العامل المطالب بالضرائب كنجوم المكاتب عليه فى اليوم والليلة خمس وفى المائتين درهما خمسة وفى السنة شهر وفى العمر زورة فكأنه اشترى نفسه من ربه بهذه النجوم المرتبة فيسعى فى فكاك رقبته خوفا من البقاء فى ربقة العبودية وطمعا فى فتح باب الحرية ليسرح فى رياض الجنة فيتمتع بمياهه ويفعل ما يشاؤه ويهواه والرابع الاباق فما اكثرهم فمنهم القاضى الجائر والعالم غير العامل والعامل المرائى والواعظ الذى لا يفعل ما يقول ويكون اكثر اقواله الفضول وعلى كل ما لا ينفعه يصول فضلا عن السارق والزانى والغاصب فعنهم اخبر النبى عليه الصلاة والسلام ان الله لينصر هذا الدين بقوم لا خلاق لهم فى الآخرة (ولا تكرهوا فتياتكم على

وهو قول عثمان وعلى والزبير وجماعة وبه قال الشافعى ثم اختلفوا فى قدر ما يحط فقيل يحط الربع وهو قول على ورواه بعضهم مرفوعا وقال ابن عباس يحط الثلث وقال الآخرون ليس له حد بل عليه ان يحط عنه ما شاء وبه قال الشافعى قال نافع كاتب عبد الله بن عمر غلاما له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع من آخر كتابته خمسة آلاف درهم أخرجه مالك فى الموطا وقال سعيد بن جبير كان ابن عمر اذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيأ من اول نجومه مخافة ان يعجز فيرجع اليه صدقته ويضع عنه من آخر كتابته ما احب وقال بعضهم هو امر استحباب والوجوب اظهر وقيل اراد بقوله وآتوهم من مال الله اى سهمه الذى جعله الله لهم من الصدقات المفروضات وهو قوله وفى الرقاب أراد به المكاتب وهو قول الحسن وزيد بن اسلم وقيل هو حث لجميع الناس على مؤنتهم واختلف العلماء فيما اذا مات المكاتب قبل أداء النجوم فذهب كثير منهم الى انه يموت رقيقا وترتفع الكتابة سواء ترك مالا او لم يترك وهو قول عمر وابن عمرو زيد بن ثابت وبه قال عمر بن عبد العزيز والزهرى وقتادة واليه ذهب الشافعى وأحمد وقال قوم ان ترك وفاء ما بقى عليه من مال الكتابة كان حرا وان فضل له مال كان لاولاده الاحرار وهو قول علقمة وطاوس والنخعى والحسن وبه قال مالك والثورى واصحاب الرأى ولو كاتب عبده كتابة فاسدة يعتق باداء المال لان عتقه معلق بالاداء وقد وجد وتتبعه اولاده واكسابه كما فى الكتابة الصحيحة لان الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها ما لم يعجز المكاتب عن أداء النجوم وقوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم) اى اماءكم (على البغاء) اى الزنا (ان أردن تحصنا) الآية (م) عن جابر قال كان عبد الله بن أبى ابن سلول يقول لجاريته اذهبى فابغينا شيأ قال فانزل الله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا وفى رواية أخرى ان جارية لعبد الله بن أبى يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة كان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء الى قوله غفور رحيم وقال المفسرون نزلت فى عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق كانت له جاريتان يقال لهما مسيكة ومعاذة وكان يكرههما على الزنا لضريبة يأخذها منهما وكذلك كانوا يفعلون فى الجاهلية يؤجرون اماءهم فلما جاء الاسلام قالت معاذة لمسيكة ان هذا الامر الذى نحن فيه لا يخلو من وجهين فان يك خيرا فقد استكثرنا منه وان يك شرا فقد آن لنا ان ندعه فانزل الله هذه الآية وروى ان احدى الجاريتين جاءت ببرد وجاءت الاخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالتا والله لا نفعل قد جاء الاسلام وحرم الزنا فاتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا اليه فانزل الله هذه الآية واختلف العلماء فى معنى قوله ان أردن تحصنا على أقوال احدها ان الكلام ورد على سبب وهو الذى ذكر فى سبب نزول الآية فخرج النهى على صفة السبب وان لم يكن شرطا فيه الثانى انما شرط ارادة التحصن لان الاكراه لا يتصور الا عند ارادة التحصن فاما اذا لم ترد المرأة التحصن فانها تبغى بالطبع طوعا الثالث ان ان بمعنى اذا اى اذا أردن وليس معناه الشرط لانه لا يجوز اكراههن على الزنا ان لم يردن تحصنا كقوله وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين اى اذا كنتم مؤمنين

القول

البغاء) كان لابن أبى ست جوار معاذة ومسيكة وأمية وعمرة وارى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن الضرائب فشكت ثنتان منهن الى رسول الله عليه الصلاة والسلام فنزلت ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والامة والبغاء الزنا للنساء خاصة وهو مصدر لبغت (ان اردن تحصنا) تعففا عن الزنا وانما قيده بهذا الشرط لان الاكراه لا يكون الا مع ارادة التحصن فامر المطيعة للبغاء لا يسمى مكرها ولا امره اكراها ولانها نزلت على سبب فوقع النهى على تلك الصفة وفيه توبيخ للمولى اى اذا رغبن فى التحصن فانتم احق بذلك

(لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا) اى لتبتغوا باكراههن على الزنا أجورهن واولادهن (ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) اى لهن وفى مصحف ابن مسعود كذلك وكان الحسن يقول لهن والله لهن والله ولعل الاكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة وهو الذى يخاف منه التلف فكانت آثمة أولهم اذا تابوا (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) بفتح الياء حجازى و بصرى وابو بكر وحماد والمراد الآيات التى بينت فى هذه السورة وأوضحت فى معانى الاحكام والحدود وجاز أن يكون الاصل مبينا فيها فاتسع فى الظرف اى أجرى مجرى المفعول به كقوله و يوم شهدناه و بكسرها غيرهم اى بينت هى الاحكام والحدود وجعل الفعل لها مجازا او من بين بمعنى تبين ومنه المثل *قد بين الصبح لذى عينين* (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) ومثلا من أمثال من قبلكم اى قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم يعنى قصة عائشة رضى الله عنها (وموعظة) ماوعظ به من الآيات والمثل من نحو قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله لولا اذ سمعتموه ولولا اذ سمعتموه يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبدا (للمتقين) اى هم المنتفعون بها وان كانت موعظة للكل نظير قوله (الله نور السموات والارض) مع قوله مثل نوره و يهدى الله لنوره قولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه و جوده والمعنى ذو نور السموات ونور السموات والارض الحق شبهه بالنور فى ظهوره و بيانه كقوله الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور اى من الباطل الى الحق واضاف النور اليهما للدلالة على سعة اشراقه وفشو اضاءته حتى تضىء له السموات والارض وجاز ان المراد اهل السموات والارض وانهم يستضيئون به (مثل نوره) اى صفة نوره العجيبة الشأن فى الاضاءة (كمشكوة) كصفة مشكاة وهى الكوة فى الجدار غير النافذة (فيها مصباح) اى سراج ضخم ثاقب (المصباح فى زجاجة) فى قنديل من زجاج شامى بكسر الزاى (الزجاجة كأنها كوكب درى) مضىء بضم الدال وتشديد الياء منسوب الى الدر لفرط ضيائه وصفائه وبالكسر والهمزة ابو عمرو وعلى كأنه يدرأ الظلام بضوئه وبالضم والهمزة ابو بكر وحمزة شبه فى زهرته باحد الكواكب الدرارى كالمشترى والزهرة ونحوهما (توقد) بالتخفيف حمزة وعلى وابو بكر الزجاجة ويوقد بالتخفيف شامى ونافع وحفص ويوقد بالتشديد مكى و بصرى اى هذا المصباح (من شجرة) اى ابتداء ثقوبه من زيت شجرة الزيتون يعنى رويت ذبالته بزيتها

القول الرابع ان فى هذه الآية تقديما وتأخيرا تقديره وانكحوا الايامى منكم ان أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء (لتبتغوا) اى لتطلبوا (عرض الحيوة الدنيا) اى من اموال الدنيا يريد كسبهن و بيع اولادهن (ومن يكرههن) يعنى على الزنا (فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) يعنى للمكرهات والوزر على المكره وكان الحسن اذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن والله قوله تعالى (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) اى من الحلال والحرام (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) اى شبها من حالكم بحالهم أيها المكذبون وهذا تخويف لهم ان يلحقهم ما لحق من كان قبلهم من المكذبين (وموعظة للمتقين) اى المؤمنين الذين يتقون الشرك والكبائر* قوله عز وجل (الله نور السموات والارض) قال ابن عباس معناه الله هادى السموات والارض فهم بنوره الى الحق يهتدون و بهدايته من حيرة الضلالة ينجون وقيل معناه الله منوّر السموات والارض نور السماء بالملائكة ونور الارض بالانبياء وقيل معناه مزين السموات والارض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الارض بالانبياء والعلماء والمؤمنين و يقال زين الارض بالنبات والاشجار وقيل معناه ان الانوار كلها منه وقد يذكر هذا اللفظ على طريق المدح كما قال الشاعر

اذا سار عبد الله عن مرو ليلة * فقد سار عنها نورها و جمالها

(مثل نوره) اى مثل نور الله عز وجل فى قلب المؤمن وهو النور الذى يهتدى به وقال ابن عباس مثل نوره الذى اعطى المؤمن وقيل الكناية عائدة الى المؤمن اى مثل نور قلب المؤمن وقيل أراد بالنور القرآن وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هو الطاعة سمى طاعة الله نورا واضاف هذه الانوار الى نفسه تشريفا وتفضيلا (كمشكوة) هى الكوة التى لا منفذ لها قيل هى بلغة الحبشة (فيها مصباح) اى سراج وأصله من الضوء (المصباح فى زجاجة) يعنى القنديل وانما ذكر الزجاجة لان النور وضوء النار فيها ابين من كل شئ وضوءه يزيد فى الزجاج ثم وصف الزجاجة فقال تعالى (الزجاجة كأنها كوكب درى) من درا الكوكب اذا اندفع منقضا فيتضاعف نوره فى تلك الحال وفى ذلك الوقت وقيل هو من درا النجم اذا طلع وارتفع وقيل درى اى شديد الانارة نسب الى الدر فى صفائه وحسنه وان كان الكوكب أضوأ من الدر لكنه يفضل الكوكب بصفائه كما يفضل الدر على سائر اللؤلؤ وقيل الكوكب الدرى احد الكواكب الخمسة السيارة التى هى زحل والمريخ والمشترى والزهرة وعطارد قيل شبهه بالكواكب ولم يشبهه بالشمس والقمر لانهما يلحقهما الكسوف بخلاف الكواكب (توقد) اى اتقد المصباح (من شجرة

مباركة زيتونة) اى من زيت شجرة مباركة كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة لان الزيت يسرج به ويدهن به وهو ادام وهو اصفى الادهان واضوأها وقيل انها أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقيل اراد به زيتون الشام لانها هى الارض المباركة وهى شجرة لا يسقط ورقها عن أسيد بن ثابت اوأبى أسيد الانصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة اخرجه الترمذى وقوله (لاشرقية ولاغربية) اى ليست شرقية وحدها فلا تصيبها الشمس اذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة اذا طلعت بل مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية غربية تأخذ حظها من الامرين فيكون زيتها اضوأ وهذا معنى قول ابن عباس وقيل معناه انها ليست فى مقناة لا تصيبها الشمس ولا فى مضحاة لا يصيبها الظل فهى لا تضرها شمس ولا ظل وقيل معناه انها معتدلة ليست فى شرق يضرها الحر ولا فى غرب يضرها البرد وقيل معناه هى شامية لان الشام وسط الارض لا شرقى ولا غربى وقيل ليست هذه الشجرة فى أشجار الدنيا لانها لو كانت فى الدنيا لكانت شرقية اوغربية وانما هو مثل ضربه الله لنوره (يكاد زيتها يضىء) اى من صفائه (ولو لم تمسسه نار) اى قبل ان تمسه النار (نور على نور) اى نور المصباح على نور الزجاجة

(فصل فى بيان التمثيل المذكور فى الآية) اختلف أهل العلم فى معنى هذا التمثيل فقيل المراد به الهدى ومعناه ان هداية الله تعالى قد بلغت فى الظهور والجلاء الى أقصى الغايات وصار ذلك بمنزلة المشكاة التى فيها زجاجة صافية وفى تلك الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية فى الصفاء والرقة والبياض فاذا كان كذلك كان كاملا فى صفائه وصلح ان يجعل مثلا لهداية الله تعالى وقيل وقع هذا التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الاحبار اخبرنى عن قوله تعالى مثل نوره كمشكاة قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هى شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم به انه نبى كما يكاد ذلك الزيت يضىء ولو لم تمسسه نار وروى عن ابن عمر فى هذه الآية قال المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذى جعله الله فيه لا شرقية ولا غربية لا يهودى ولا نصرانى توقد من شجرة مباركة ابراهيم نور على نور نور قلب ابراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن كعب القرظى المشكاة ابراهيم والزجاجة اسمعيل والمصباح محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين سمى الله محمدا مصباحا كما سماه سراجا منيرا والشجرة المباركة ابراهيم عليه السلام لان أكثر الانبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية يعنى ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما لان اليهود تصلى الى الغرب والنصارى تصلى الى الشرق يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل ان يوحى اليه نور على نور نبى من نسل نبى نور محمد على نور ابراهيم وقيل وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن قال ابى ابن كعب هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة قلبه والمصباح ما جعل الله فيه من الايمان والقرآن توقد من شجرة مباركة هى شجرة الاخلاص لله وحده فمثله مثل شجرة التف بها الشجر فهى خضراء ناعمة نضرة لا تصيبها الشمس اذا طلعت ولا اذا غربت فكذلك المؤمن قد احترس ان يصيبه شئ من الفتن فهو بين اربع خلال ان أعطى شكر وان ابتلى صبر وان حكم عدل وان قال صدق يكاد زيتها يضىء اى يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل ان يتبين له لموافقته اياه نور على نور قال ابى اى فهو يتقلب فى خمسة أنوار قوله نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة وقال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل ان تمسه النار فاذا مسته النار

اقدام عمرو فى سماحة حاتم * فى حلم احنف فى ذكاء اياس قيل له ان الخليفة فوق من مثلته بهم فقال مرتجلا ازداد
لا تنكروا ضربى له من دونه * مثلا شرودا فى الندى والباس فالله قد ضرب الاقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

(يهدى الله لنوره) اى هذا النور الثابت (من يشاء) من عباده اى يوفق لاصابة الحق من يشاء من عباده بالهام من الله او بنظره فى الدليل (و يضرب الله الامثال للناس) تقريبا الى أفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا (والله بكل شئ عليم) فيبين كل شئ يمكن ان يعلم به وقال ابن عباس رضى الله عنهما مثل نوره اى نور الله الذى هدى به المؤمن وقرأ ابن مسعود رحمه الله مثل نوره فى قلب المؤمن كمشكاة وقرأ ابى مثل نور المؤمن (فى بيوت) يتعلق بمشكاة اى كمشكاة فى بعض بيوت الله وهى المساجد كانه قيل مثل نوره كما يرى فى المسجد نور المشكاة التى من صفتها كيت وكيت او بتوقد اى توقد فى بيوت

ازداد ضوأ على ضوئه كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل ان يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور وقال الكلبى نور على نور يعنى ايمان المؤمن وعمله وقيل نور الايمان ونور القرآن وقيل هذا مثل القرآن فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح فكذلك يهتدى بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة المعرفة فى قلبه يكاد زيتها يضىء اى نور المعرفة يشرق فى قلب المؤمن ولو لم تمسسه النار وقيل تكاد حجة القرآن تتضح وان لم يقرأ نور على نور يعنى القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والاعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نورا على نور وقوله تعالى (يهدى الله لنوره من يشاء) قال ابن عباس لدين الاسلام وهو نور البصيرة (و يضرب الله الامثال للناس) اى يبين الله الاشياء للناس تقريبا الى الافهام وتسهيلا لسبيل الادراك (والله بكل شئ عليم) * قوله عز وجل (فى بيوت) اى ذلك المصباح يوقد فى بيوت والمراد بالبيوت جميع المساجد قال ابن عباس المساجد بيوت الله فى الارض تضىء لاهل السماء كما تضىء النجوم لاهل الارض وقيل المراد بالبيوت أربعة مساجد لم يبنها الا نبى الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل فجعلاها قبلة وبيت المقدس بناه داود وسليمان ومسجد المدينة بناء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء أسس على التقوى وبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا (أذن الله ان ترفع) اى تبنى وقيل تعظم فلا يذكر فيها الحتى من القول وتطهر عن الانجاس والاقذار (ويذكر فيها اسمه) قال ابن عباس يتلى فيها كتابه (يسبح له فيها) اى يصلى له فيها (بالغدو والآصال) اى بالغداة والعشى قال أهل التفسير أراد به الصلاة المفروضة فالتى تؤدى بالغداة صلاة الفجر والتى تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لان اسم الاصيل يقع على هذا الوقت كله وقيل أراد به الصبح والعصر عن ابى موسى الاشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من صلى البردين دخل الجنة أراد بالبردين صلاة الصبح وصلاة العصر وقال ابن عباس التسبيح بالغدو صلاة الضحى والآصال صلاة العصر عن ابى امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج من بيته متطهرا الى صلاة مكتوبة كان أجره كاجر الحاج المحرم ومن خرج الى المسجد الى تسبيح الضحى لا يعنيه الا ذلك كان أجره كاجر المعتمر وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب فى عليين أخرجه أبو داود (رجال) قيل خص الرجال بالذكر فى هذه المساجد لان النساء ليس عليهن حضور المساجد لجمعة ولا جماعة (لا تلهيهم) اى لا تشغلهم (تجارة) وقيل خص التجارة بالذكر لانها أعظم ما يشتغل الانسان به عن الصلوات والطاعات وأراد بالتجارة الشراء وان كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعا لانه ذكر البيع بعده وقيل التجارة لاهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يده (ولا بيع) اى ولا يشغلهم بيع (عن ذكر الله) اى حضور المساجد لاقامة الصلوات (واقام الصلوة) يعنى اقامة الصلاة فى وقتها لان من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمى الصلاة روى سالم عن ابن عمر انه كان فى السوق فاقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن

وفيها تكرير فيه توكيد نحو زيد فى الدار جالس فيها او بمحذوف اى سبحوا فى بيوت (أذن الله) اى أمر (ان ترفع) تبنى كقوله بناها رفع سمكها فسواها واذ يرفع ابراهيم القواعد او تعظم من الرفعة وعن الحسن ما أمر الله ان ترفع بالبناء ولكن بالتعظيم (ويذكر فيها اسمه) يتلى فيها كتابه او هو عام فى كل ذكر (يسبح له فيها بالغدو والآصال) اى يصلى له فيها بالغداة صلاة الفجر وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين وانما وحد الغدو لان صلاته واحدة وفى الآصال صلوات والآصال جمع أصل جمع أصيل وهو العشى (رجال) فاعل يسبح يسبح شامى وابو بكر ويسند الى أحد الظروف الثلاثة أعنى له فيها بالغدو ورجال مرفوع بما دل عليه يسبح اى يسبح له (لا تلهيهم) لا تشغلهم (تجارة) فى السفر (ولا بيع) فى الحضر وقيل التجارة الشراء اطلاقا لاسم الجنس على النوع او خص البيع بعد ما عم لانه اوغل فى الالهاء من الشراء لان الربح فى البيعة الرابحة متيقن وفى الشراء مظنون (عن ذكر الله) باللسان والقلب (واقام الصلوة) اى وعن اقامة الصلاة التاء فى اقامة عوض من العين الساقطة للاعلال والاصل اقوام فلما قلبت الواو الفا اجتمع الفان فحذفت احداهما لالتقاء الساكنين فادخلت التاء عوضا عن المحذوف فلما اضيفت أقيمت الاضافة مقام التاء فاسقطت

(وايتاء الزكوة) اى وعن ايتاء الزكاة والمعنى لاتجارة لهم حتى تلهيهم كاولياء العزلة او يبيعون ويشترون ويذكرون الله مع ذلك واذا حضرت الصلاة قاموا اليها غير متثاقلين كاولياء العشرة (يخافون يوما) اى يوم القيامة ويخافون حال من الضمير فى تلهيهم اوصفة اخرى لرجال (تتقلب فيه القلوب) يبلوغها الى الحناجر (والابصار) بالشخوص والزرقة او تتقلب القلوب الى الايمان بعد الكفران والابصار الى العيان بعد انكاره للطغيان كقوله فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله) اى يسبحون ويخافون ٣٦٦ ليجزيهم الله أحسن جزاء أعمالهم اى ليجزيهم ثوابهم مضاعفا ويزيدهم على الثواب الموعود على العمل تفضلا (والله يرزق من يشاء بغير حساب) اى يثيب من يشاء ثوابا لا يدخل فى حساب الخلق هذه صفات المهتدين بنور الله فاما الذين ضلوا عنه فالمذكورون فى قوله (والذين كفروا أعمالهم كسراب) هو ما يرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهر يسرب على وجه الارض كانه ماء يجرى (بقيعة) بقاع او جمع قاع وهو المنبسط المستوى من الارض كجيرة فى جار (يحسبه الظمآن) يظنه العطشان (ماء حتى اذا جاءه) اى جاء الى ما توهم انه ماء (لم يجده شيأ) كما ظنه (ووجد الله) اى جزاء الله كقوله يجد الله غفورا رحيما اى يجد مغفرته ورحمته (عنده) عند الكافر (فوفاه حسابه) اى اعطاه جزاء عمله وافيا كاملا وجد

عمر فيهم نزلت هذه الآية رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة (وايتاء الزكوة) يعنى المفروضة قال ابن عباس اذا حضر وقت أداء الزكاة لا يحبسونها (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار) يعنى ان هؤلاء الرجال وان بالغوا فى ذكر الله والطاعات فانهم مع ذلك وجلون خائفون لعلمهم بانهم ما عبدوا الله حق عبادته قيل ان القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الابصار وقيل تتقلب القلوب عما كانت عليه فى الدنيا من الشك الى اليقين وترفع عن الابصار الاغطية وقيل تتقلب القلوب بين الخوف والرجاء فتخشى الهلاك وتطمع فى النجاة وتتقلب الابصار من هول ذلك اليوم من اى ناحية يؤخذ بهم أمن ذات اليمين أم من ذات الشمال ومن أين يؤتون كتبهم أمن قبل اليمين أم من قبل الشمال وقيل يتقلب القلب فى الجوف فيرتفع الى الحنجرة فلا ينزل ولا يخرج ويتقلب البصر فيشخص من هول الامر وشدته (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) يعنى انهم اشتغلوا بذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا والمراد بالاحسن الحسنات كلها وهى الطاعات فرضها ونفلها وذكر الاحسن تنبيها على انه لا يجازيهم على مساوى أعمالهم بل يغفرها لهم وقيل انه سبحانه وتعالى يجزيهم جزاء أحسن من أعمالهم على الواحد من عشرة الى سبعمائة ضعف (ويزيدهم من فضله) يعنى انه سبحانه وتعالى يجزيهم باحسن أعمالهم ولا يقتصر على ذلك بل يزيدهم من فضله (والله يرزق من يشاء بغير حساب) فيه تنبيه على كمال قدرته وكمال جوده وسعة احسانه وفضله قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) لما ضرب مثلا لحال المؤمن وانه فى الدنيا والآخرة فى نور وانه فائز بالنعيم المقيم اتبعه بضرب مثل لاعمال الكفار وشبهه بالسراب وهو شبه ماء يرى نصف النهار عند شدة الحر فى البرارى يظنه من رآه كذلك فاذا قرب منه لم ير شيأ والقيعة القاع وهو المنبسط من الارض وفيه يكون السراب (يحسبه) اى يتوهمه (الظمآن) اى العطشان (ماء حتى اذا جاءه) اى جاء ما قدر انه ماء وقيل جاء الى موضع السراب (لم يجده شيأ) اى لم يجده على ما قدر وظنه ووجه التشبيه ان الذى يأتى به الكافر من أعمال البر يعتقد ان له ثوابا عند الله وليس كذلك فاذا وافى عرصات القيامة لم يجد الثواب الذى كان يظنه بل وجد العقاب العظيم والعذاب الاليم فعظمت حسرته وتناهى غمه فشبه حاله بحال الظمآن الذى اشتدت حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب فى البر تعلق قلبه به فاذا جاءه لم يجده شيأ فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه فاذا احتاج الى عمله لم يجده أغنى عنه شيأ ولا نفعه (ووجد الله عنده) اى وجد الله بالمرصاد وقيل قدم على الله (فوفاه حسابه) اى جزاء عمله (والله سريع الحساب) معناه انه عالم بجميع المعلومات فلا تشغله محاسبة واحد عن واحد ثم ضرب للكفار مثلا آخر فقال تعالى (او كظلمات) اعلم الله سبحانه وتعالى ان أعمال الكفار ان كانت حسنة فهى كسراب بقيعة وان كانت قبيحة فهى كظلمات وقيل

بعد تقدم الجمع جملا على كل واحد من الكفار (والله سريع الحساب) لانه معناه
لا يحتاج الى عدو عقد ولا يشغله حساب عن حساب او قريب حسابه لان ما هو آت قريب شبه ما يعمله من لا يعتقد الايمان ولا يتبع الحق من الاعمال الصالحة التى يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم يخيب فى العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد مارجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه الى جهنم فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال الله فيهم عاملة ناصبة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا قيل نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية كان يترهب ملتمسا للدين فى الجاهلية فلما جاء الاسلام كفر (او كظلمات

في بحر) اوهنا كاوفى او كصيب (لجى) عميق كثير الماء منسوب الى اللج وهو معظم ماء البحر (يغشاه) يغشى البحر اومن فيه اى يعلوه ويغطيه (موج) هو ما ارتفع من الماء (من فوقه موج) اى من فوق الموج موج آخر (من فوقه سحاب) من فوق الموج الاعلى سحاب (ظلمات) اى هذه ظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة البحر (بعضها فوق بعض) ظلمة الموج على ظلمة البحر وظلمة الموج على الموج وظلمة السحاب على الموج (اذا أخرج يده) اى الواقع فيه (لم يكد يراها) مبالغة فى لم يرها اى لم يقرب ان يراها فضلا عن ان يراها شبه اعمالهم اولا فى فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيأ ولم يكفه خيبة وكمد ان لم يجد شيأ كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله الى النار وشبهها ثانيا فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفى خلوها عن نور الحق

معناه ان مثل اعمالهم فى فسادها وجهالتهم فيها كظلمات (فى بحر لجى) اى عميق كثير الماء ولجة البحر معظمه (يغشاه) اى يعلوه (موج من فوقه موج) اى متراكم (من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض) معناه ان البحر اللجى يكون قعره مظلما جدا بسبب غمورة الماء فاذا ترادفت الامواج ازدادت الظلمة فاذا كان فوق الامواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى (اذا أخرج يده لم يكد يراها) اى لم يقرب ان يراها لشدة الظلمة وقيل معناه لم يرها الا بعد الجهد وقيل لما كانت اليد من أقرب شئ يراه الانسان قال لم يكد يراها ووجه التشبيه ان الله ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل وقيل شبه بالبحر اللجى قلبه وبالموج ما يتغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة وبالسحاب الختم والطبع على قلبه قال ابى بن كعب الكافر يتقلب فى خمس من الظلم كلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره الى الظلمات يوم القيامة فى النار (ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور) قال ابن عباس من لم يجعل الله له دينا وايمانا فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادى له قيل نزلت هذه الآية فى عتبة ابن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين فى الجاهلية ولبس المسوح فلما جاء الاسلام كفر وعاند والاصح ان الآية عامة فى حق جميع الكفار * قوله عز وجل (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير صافات) اى باسطات أجنحتهن فى الهواء قيل خص الطير بالذكر من جملة الحيوان لانها تكون بين السماء والارض فتكون خارجة عن حكم من فى السموات والارض (كل قد علم صلاته وتسبيحه) قيل الصلاة لبنى آدم والتسبيح لسائر الخلق وقيل ان ضرب أجنحة الطير صلاته وتسبيحه وقيل معناه ان كل مصل ومسبح علم الله صلاته وتسبيحه وقيل معناه كل مصل ومسبح منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه (والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والارض) اى ان جميع الموجودات ملكه وفى تصرفه وعنه نشأت ومنه بدأت فهو واجد الوجود وقيل معناه ان خزائن المطر والرزق بيده ولا يملكها احد سواه (والى الله المصير) اى والى الله مرجع العباد بعد الموت قوله تعالى (ألم تر ان الله يزجى) اى يسوق (سحابا) بأمره الى حيث يشاء من أرضه وبلاده (ثم يؤلف بينه) اى يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها الى بعض (ثم يجعله ركاما) اى متراكما بعضه فوق بعض (فترى الودق) اى المطر (يخرج من خلاله) اى من وسطه وهو مخارج القطر (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) قيل معناه وينزل من جبال من السماء وتلك الجبال من برد قال ابن عباس أخبر الله ان فى السماء جبالا من برد وقيل معناه وينزل

بظلمات متراكمة من لج البحر والامواج والسحاب (ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور) من لم يهده الله لم يهتد عن الزجاج فى الحديث خلق الله الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن اصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل (ألم تر) ألم تعلم يا محمد علما يقوم مقام العيان فى الايقان (أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير) عطف على من (صافات) حال من الطير اى يصففن أجنحتهن فى الهواء (كل قد علم صلاته وتسبيحه) الضمير فى علم لكل أو لله وكذا فى صلاته وتسبيحه والصلاة الدعاء ولم يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لا يكاد العقلاء يهتدون

اليها (والله عليم بما يفعلون) لا يعزب عن علمه شئ (ولله ملك السموات والارض) لانه خالقهما ومن ملك شيأ فبملكه اياه (والى الله المصير) مرجع الكل (ألم تر أن الله يزجى) يسوق الى حيث يريد (سحابا) جمع سحابة دليله (ثم يؤلف بينه) وتذكيره للفظ اى يضم بعضه الى بعض (ثم يجعله ركاما) متراكما بعضه فوق بعض (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبال فى جبل (وينزل) وينزل مكى ومدنى وبصرى (من السماء) من لابتداء الغاية لان ابتداء الانزال من السماء (من جبال) من للتبعيض لان ما ينزله الله بعض تلك الجبال التى (فيها) فى السماء (من برد) للبيان او الاولى للابتداء والاخرة للتبعيض ومعناه انه ينزل البرد من السماء من جبال فيها وعلى الاول مفعول ينزل من جبال اى بعض جبال فيها ومعنى من جبال فيها من برد أن يخلق الله فى السماء جبال برد كما خلق فى الارض جبال حجر او يريد الكثرة بذكر الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من ذهب

(فيصيب به) بالبرد (من يشاء) اى يصيب الانسان وزرعه (ويصرفه عمن يشاء) فلا يصيبه او يعذب من يشاء ويصرفه عمن يشاء فلا يعذبه (يكاد سنا برقه) ضوئه (يذهب بالابصار) يخطفها يذهب يزيد على زيادة الباء (يقلب الله الليل والنهار) يصرفهما فى الاختلاف طولا وقصرا والتعاقب (ان فى ذلك) فى ازجاء السحاب وانزال الودق والبرد وتقليب الليل والنهار (لعبرة لاولى الابصار) لذوى العقول وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته حيث ذكر تسبيح من فى السموات والارض وما يطير بينهما ودعاءهم له وتسخير السحاب الى آخر ما ذكر فهى براهين لائحة على ٣٦٨ وجوده دلائل واضحة على صفاته لمن نظر وتدبر ثم بين دليلا آخر فقال تعالى (والله خلق كل

خالق كل حمزة وعلى (دابة) كل حيوان يدب على وجه الارض (من ماء) اى من نوع من الماء مختص بتلك الدابة أو من ماء مخصوص وهو النطفة ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ومنها بهائم ومنها أناسى وهو كقوله يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل وهذا دليل على ان لها خالقا ومدبرا والا لم تختلف لاتفاق الاصل وانما عرف الماء فى قوله وجعلنا من الماء كل شئ حى لان المقصود ثم ان اجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء وانه هو الاصل وان تخللت بينه وبينها وسائط قالوا ان أول ما خلق الله الماء فخلق منه النار والريح والطين فخلق من النار الجن ومن الريح الملائكة ومن الطين آدم ودواب الارض ولما كانت الدابة

من السماء مقدار جبال فى الكثرة من برد فان قلت ما الفرق بين من الاولى والثانية والثالثة قلت من الاولى لابتداء الغاية لان ابتداء الانزال من السماء والثانية للتبعيض لان ما ينزله الله بعض تلك الجبال التى فى السماء والثالثة للتجنيس لان تلك الجبال من جنس البرد (فيصيب به) اى البرد (من يشاء) فيهلكه وأمواله (ويصرفه عمن يشاء) اى فلا يضره (يكاد سنا برقه) اى ضوء برق السحاب (يذهب بالابصار) اى من شدة ضوئه وبريقه (يقلب الله الليل والنهار) اى يصرفهما فى اختلافهما وتعاقبهما فيأتى بالليل ويذهب بالنهار ويأتى بالنهار ويذهب بالليل (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الامر أقلب الليل والنهار معنى هذا الحديث ان العرب كانوا يقولون عند النوازل والشدائد اصابنا الدهر ويذمونه فى اشعارهم فقيل لهم لا تسبوا الدهر فان فاعل ذلك هو الله عزوجل والدهر مصرف تقع فيه التأثيرات كما تقع بكم وقوله تعالى (ان فى ذلك) اى الذى ذكر من هذه الاشياء (لعبرة لاولى الابصار) اى دلالة لاهل العقول والبصائر على قدرة الله وتوحيده بقوله عزوجل (والله خلق كل دابة من ماء) اى من نطفة وأراد به كل حيوان يشاهد فى الدنيا ولا يدخل فيه الملائكة والجن لانا لا نشاهدهم وقيل ان أصل جميع الخلق من الماء وذلك ان الله خلق ماء فجعل بعضه ريحا ونورا فخلق منه الملائكة وجعل بعضه نارا فخلق منه الجن وجعل بعضه طينا فخلق منه آدم (فمنهم من يمشى على بطنه) اى كالحيات والحيتان والديدان ونحو ذلك (ومنهم من يمشى على رجلين) يعنى مثل بنى آدم والطير (ومنهم من يمشى على أربع) يعنى كالبهائم والسباع فان قلت كيف قال خلق كل دابة من ماء مع ان كثيرا من الحيوانات يتولد من غير نطفة قلت ذلك المخلق من غير نطفة لابد أن يتكون من شئ وذلك الشئ أصله من الماء فكان من الماء فان قلت فلم قال فمنهم من يمشى ضمير العقلاء فلم استعمل فى غير العقلاء قلت ذكر الله تعالى ما لا يعقل مع من يعقل فغلب اللائق بمن يعقل لان جعل الشريف أصلا والخسيس تبعا أولى فان قلت لم قدم ما يمشى على بطنه على غيره من المخلوقات قلت قدم الاعجب والاعرف فى القدرة وهو الماشى بغير آلة المشى وهى الارجل والقوائم ثم ذكر ما يمشى على رجلين ثم ما يمشى على أربع فان قلت لم اقتصر على ذكر الاربع وفى الحيوانات ما يمشى على أكثر من أربع كالعناكب والعقارب والزنابير وما له أربع وأربعون رجلا ونحو ذلك قلت هذا القسم كالنادر فكان ملحقا بالاغلب وقيل ان هذه الحيوانات اعتمادها على أربع فى المشى والباقى تبع لها (يخلق الله ما يشاء) اى مما لا يعقل ولا يعلم (ان الله على كل شئ قدير) اى هو القادر على الكل العالم بالكل المطلع على الكل يخلق ما يشاء كما يشاء لا يمنعه مانع ولا دافع (لقد أنزلنا آيات مبينات) يعنى القرآن هو المبين للهدى والاحكام والحلال والحرام (والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) يعنى

تشمل المميز وغير المميز غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه كأن الدواب كلهم مميزون فمن الى
ثم قيل (فمنهم من يمشى على بطنه) كالحية والحوت وسمى الزحف على البطن مشيا استعارة كما يقال فى الامر المستمر قد مشى هذا الامر أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين (ومنهم من يمشى على رجلين) كالانسان والطير (ومنهم من يمشى على أربع) كالبهائم وقدم ما هو أعرف فى القدرة وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل او غيرها ثم الماشى على رجلين ثم الماشى على أربع (يخلق الله ما يشاء) كيف يشاء (ان الله على كل شئ قدير) لا يتعذر عليه شئ (لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء) بلطفه ومشيئته (الى صراط مستقيم) الى دين الاسلام الذى يوصل الى جنته والآيات لالزام حجته لما ذكر انزال الآيات ذكر بعدها افتراق الناس

الى ثلاث فرق فرقة صدقت ظاهرا وكذبت باطنا وهم المنافقون وفرقة صدقت ظاهرا وباطنا وهم المخلصون وفرقة كذبت ظاهرا وباطنا وهم الكافرون على هذا الترتيب وبدأ بالمنافقين فقال (ويقولون آمنا بالله وبالرسول) بالسنتهم (وأطعنا) الله والرسول (ثم يتولى) يعرض عن الانقياد لحكم الله ورسوله (فريق منهم من بعد ذلك) اى من بعد قولهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا (وما أولئك بالمؤمنين) اى المخلصين وهو اشارة الى القائلين آمنا وأطعنا لا الى الفريق المتولى وحده وفيه اعلام من الله بأن جميعهم منتف عنهم الايمان لاعتقادهم ما يعتقده هؤلاء والاعراض وان كان من بعضهم فالرضا بالاعراض من كلهم (واذا دعوا الى الله ورسوله) اى الى رسول الله كقولك أعجبنى زيد وكرمه تريد كرم زيد (ليحكم) الرسول (بينهم اذا فريق منهم معرضون) اى فاجأ من فريق منهم الاعراض نزلت فى بشر المنافق وخصمه اليهودى حين اختصما فى أرض فجعل اليهودى يجره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنافق الى كعب بن الاشرف ويقول ان محمدا يحيف علينا (وان يكن لهم الحق) اى اذا كان الحق لهم على غيرهم (يأتوا اليه) الى الرسول (مذعنين) حال اى مسرعين فى الطاعة طلبا لحقهم لا رضا بحكم رسولهم قال الزجاج الاذعان الاسراع مع الطاعة والمعنى انهم لمعرفتهم انه ليس معك الا الحق المر والعدل البحت يمتنعون عن المحاكمة اليك اذا رأيتهم الحق لئلا تنتزعه من احداقهم ٣٦٩ بقضائك عليهم لخصومهم وان

الى دين الاسلام الذى هو دين الله وطريقه الى رضاه وجنته قوله تعالى (ويقولون) يعنى المنافقين (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) اى يقولونه بالسنتهم من غير اعتقاد (ثم يتولى فريق منهم) اى يعرض عن طاعة الله ورسوله (من بعد ذلك) اى من بعد قولهم آمنا ويدعوا الى غير حكم الله قال الله تعالى (وما أولئك بالمؤمنين) نزلت هذه الآية فى بشر المنافق كان بينه وبين يهودى خصومة فى أرض فقال اليهودى نتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق بل نتحاكم الى كعب بن الاشرف فان محمدا يحيف فأنزل الله هذه الآية (واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم) اى الرسول يحكم بحكم الله بينهم (اذا فريق منهم معرضون) يعنى عن الحكم وقيل عن الاجابة (وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين) اى مطيعين منقادين لحكمه اى اذا كان الحكم لهم على غيرهم اسرعوا الى حكمه لثقتهم انه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم ايضا (أفى قلوبهم مرض) اى كفر ونفاق (أم ارتابوا) اى شكوا وهذا استفهام ذم وتوبيخ والمعنى هم كذلك (أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) اى يظلم (بل أولئك هم الظالمون) اى لانفسهم باعراضهم عن الحق * قوله عز وجل (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله) اى الى كتاب الله (ورسوله ليحكم بينهم) هذا تعليم أدب الشرع على معنى ان المؤمنين كذا ينبغى ان يكونوا وهو (أن يقولوا سمعنا) اى الدعاء (وأطعنا) اى بالاجابة (وأولئك) اى من هذه صفته (هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله) قال ابن عباس فيما ساءه وسره (ويخش الله) اى ما عمل من الذنوب (ويتقه) اى فيما بعد (فأولئك هم الفائزون) اى الناجون قوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) قيل جهد اليمين ان يحلف بالله ولا يزيد على ذلك شيأ (لئن أمرتهم ليخرجن) وذلك ان المنافقين كانوا يقولون لرسول الله صلى

بحاله وانما هم ظالمون يريدون ان يظلموا من له الحق عليهم وذلك شئ لا يستطيعونه فى مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام فمن ثم يأبون المحاكمة اليه (انما كان قول المؤمنين) وعن الحسن قول بالرفع والنصب أقوى لان أولى الاسمين بكونه اسما للكان اوغلهما فى التعريف وان يقولوا اوغل بخلاف قول المؤمنين (اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم) النبى عليه الصلاة والسلام ليحكم اى ليفعل الحكم (بينهم) بحكم الله الذى أنزل عليه (ان يقولوا سمعنا) قوله (وأطعنا) امره (وأولئك هم المفلحون) الفائزون (ومن يطع الله) فى فرائضه (ورسوله) فى سننه (ويخش الله) على ما مضى من ذنوبه (ويتقه) فيما يستقبل (فأولئك هم الفائزون) وعن بعض الملوك انه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية وهى جامعة لاسباب الفوز ويتقه بسكون الهاء ابو عمرو وابو بكر بنية الوقف وبسكون القاف وبكسر الهاء مختلسة حفص وبكسر القاف والهاء غيرهم (وأقسموا بالله جهد ايمانهم) اى حلف المنافقون بالله جهد اليمين لانهم بذلوا فيها مجهودهم وجهد يمينه مستعار من جهد نفسه اذا بلغ أقصى وسعها وذلك اذا بالغ فى اليمين وبلغ غاية شدتها وكادتها وعن ابن عباس رضى الله عنهما من قال بالله فقد جهد يمينه وأصل اقسم جهد اليمين اقسم بجهد اليمين جهدا فحذف الفعل وقدم المصدر فوضع موضعه مضافا الى المفعول كقوله فضرب الرقاب وحكم هذا المنصوب حكم الحال كأنه قال جاهدين أيمانهم (لئن امرتهم ليخرجن) اى لئن أمرنا محمد بالخروج الى الغزو لغزونا او بالخروج من ديارنا لخرجنا

ثبت لهم حق على خصم أسرعوا اليك ولم يرضوا الا بحكومتك لتأخذ لهم ما وجب لهم فى ذمة الخصم (أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله) قسم الامر فى صدودهم عن حكومته اذا كان الحق عليهم بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين او مرتابين فى امر نبوته او خائفين الحيف فى قضائه ثم ابطل خوفهم حيفه بقوله (بل أولئك هم الظالمون) اى لا يخافون ان يحيف عليهم لمعرفتهم

(قل لا تقسموا) لا تحلفوا كاذبين لانه معصية (طاعة معروفة) امثل وأولى بكم من هذه الايمان الكاذبة مبتدا محذوف الخبر او خبر مبتدا محذوف اى الذى يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب كطاعة الخلص من المؤمنين لا ايمان تقسمون بها بافواهكم وقلوبكم على خلافها (ان الله خبير بما تعملون) يعلم ما فى ضمائركم ولا يخفى عليه شئ من سرائركم وانه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) صرف الكلام عن الغيبة الى الخطاب على طريق الالتفات هو ابلغ فى تبكيتهم (فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) يريد فان تتولوا فما ضررتموه وانما ضررتم انفسكم فان الرسول ليس عليه الا ما حمله الله تعالى وكلفه من اداء الرسالة فاذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه واما أنتم فعليكم ما كلفتم من التقى بالقبول والاذعان فان لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه (وان تطيعوه تهتدوا) اى وان أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم فقد احرزتم نصيبكم من الهدى فالضرر فى توليكم والنفع عائد اليكم (وما على الرسول الا البلاغ المبين) وما على الرسول الا ان يبلغ ماله نفع فى قلوبكم ولا عليه ضرر فى توليكم والبلاغ بمعنى التبليغ كالاداء بمعنى التأدية ٣٧٠ والمبين الظاهر لكونه مقرونا بالآيات والمعجزات ثم ذكر المخلصين فقال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات) الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام ولمن معه ومنكم للبيان وقيل المراد به المهاجرون ومن للتبعيض (ليستخلفنهم فى الارض) اى ارض الكفار وقيل أرض المدينة والصحيح انه عام لقوله عليه الصلاة والسلام ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل (كما استخلف) ابو بكر (الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم) وليبدلنهم بالتخفيف مكى وابو بكر (من بعد خوفهم أمنا) وعدهم الله ان ينصر الاسلام على الكفر ويورثهم الارض ويجعلهم فيها خلفاء كما فعل بنى اسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد اهلاك الجبابرة وان يميز الدين المرتضى وهو دين الاسلام ويمكنه تثبيته وتعضيده وان يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذى كانوا عليه وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون فى السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام لا تغبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة فانجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب ومزقوا املاك الاكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا والقسم المتلقى باللام والنون فى ليستخلفنهم محذوف تقديره وعدهم الله واقسم ليستخلفنهم اونزل وعد الله فى تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كانه اقسم الله ليستخلفنهم (يعبدوننى) ان جعلته استئنافا فلا محل له كانه قيل مالهم يستخلفون ويؤمنون فقال يعبدوننى موحدين ويجوز ان يكون حالا بدلا من الحال الاولى وان جعلته حالا عن وعدهم اى وعدهم الله ذلك فى حال عبادتهم فمحله النصب (لا يشركون بى شيأ) حال من فاعل يعبدون اى يعبدوننى موحدين ويجوز ان يكون حالا بدلا من الحال الاولى

الله عليه وسلم اينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا ولئن أقمت اقمنا ولئن أمرتنا بالجهاد جاهدنا وقيل لما نزل بيان كراهتهم لحكم الله ورسوله قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم والله لو أمرتنا ان نخرج من ديارنا واموالنا ونسائنا لخرجنا فكيف لا نرضى بحكمك فقال الله تعالى (قل) لهم (لا تقسموا) اى لا تحلفوا وتم الكلام ثم ابتدأ فقال (طاعة معروفة) اى هذه طاعة القول باللسان دون الاعتقاد بالقلب وهى معروفة اى أمر عرف منكم انكم تكذبون وتقولون ما لا تفعلون وقيل معناه طاعة معروفة بينة خالصة افضل وأمثل من يمين باللسان لا يوافقها الفعل (ان الله خبير بما تعملون) اى من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) يعنى بقلوبكم وصدق نياتكم (فان تولوا) اى اعرضوا عن طاعة الله ورسوله (فانما عليه) اى على الرسول (ما حمل) اى ما كلف وأمر به من تبليغ الرسالة (وعليكم ما حملتم) اى ما كلفتم من الاجابة والطاعة (وان تطيعوه تهتدوا) اى تصيبوا الحق والرشد فى طاعته (وما على الرسول الا البلاغ المبين) اى التبليغ الواضح البين * قوله عز وجل (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض) قيل مكث النبى صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الوحى عشر سنين مع اصحابه وأمروا بالصبر على اذى الكفار فكانوا يصبحون ويمسون خائفين ثم أمروا بالهجرة الى المدينة وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق احدهم سلاحه فقال رجل منهم أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فانزل الله هذه الآية ومعنى ليستخلفنهم والله ليورثنهم ارض الكفار من العرب والعجم فجعلهم ملوكها وساستها وسكانها (كما استخلف الذين من قبلهم) اى كما استخلف داود وسليمان وغيرهما من الانبياء وكما استخلف بنى اسرائيل وأهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم ارضهم وديارهم (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى) اى اختاره (لهم) قال ابن عباس يوسع لهم فى البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم على سائر الاديان (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى) آمنين (لا يشركون بى شيأ) فانجز الله وعده

وعده واظهر دينه ونصر اولياءه وابدلهم بعد الخوف أمنا وبسطا فى الارض (خ) عن عدى بن حاتم قال بينا أنا عند النبى صلى الله عليه وسلم اذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا اليه قطع السبيل فقال ياعدى هل رأيت الحيرة قلت لم ارها ولقد أنبئت عنها قال فان طالت بك حياة فلترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحدا الا الله قلت فيما بينى و بين نفسى فاين دعار طيئ الذين قد سعروا البلاد ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت كسرى بن هرمز قال كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب او فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد احدا يقبله منه ولتلقين الله أحدكم يوم القيامة وليس بينه و بينه ترجمان يترجم له فليقولن ألم ابعث اليك رسولا فيبلغك فيقول بلى يارب فيقول ألم اعطك مالا وافضل عليك فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى الا جهنم و ينظر عن شماله فلا يرى الا جهنم قال عدى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة قال عدى فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف الا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ماقال ابو القاسم صلى الله عليه وسلم يخرج الرجل ملء كفه ذهبا الخ وفى الآية دليل على صحة خلافة ابى بكر الصديق والخلفاء الراشدين بعده لان فى أيامهم كانت الفتوحات العظيمة وفتحت كنوز كسرى وغيره من الملوك وحصل الامن والتمكين وظهور الدين من سفينة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا ثم قال امسك خلافة ابى بكر سنتين وخلافة عمر عشر سنين وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة وعلى ستا قال على قلت لحماد القائل لسعيد أمسك سفينة قال نعم اخرجه ابو داود والترمذى بنحو هذا اللفظ قلت كذا ورد هذا الحديث بهذا التفصيل وفيه اجمال وتفصيله ان خلافة ابى بكر كانت سنتين وثلاثة اشهر وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة كما ذكر فى الحديث وخلافة على أربع سنين وتسعة اشهر ولهذا جاء فى بعض روايات الحديث وعلى كذلك ولم يبين تعيين مدته فعلى هذا التفصيل تكون مدة خلافة الائمة الاربعة تسعة وعشرين سنة وستة اشهر وكملت ثلاثين سنة بخلافة الحسن كانت ستة أشهر ثم نزل عنها والله اعلم قوله تعالى (ومن كفر بعد ذلك) أراد به كفران النعمة ولم يرد الكفر بالله (فأولئك هم الفاسقون) اى العاصون قال اهل التفسير أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان فلما قتلوه غير الله ما بهم وادخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد ان كانوا اخوانا * عن ابن أخى عبد الله بن سلام قال لما أريد قتل عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال عثمان ماجاء بك قال جئت فى نصرك قال اخرج الى الناس فاطردهم عنى فانك خير لى منك داخلا فخرج عبد الله الى الناس فقال أيها الناس ان لله سيفا مغمودا وان الملائكة قد جاورتكم فى بلدكم هذا الذى نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالله الله فى هذا الرجل ان تقتلوه فوالله ان قتلتموه لتطردن جيرانكم الملائكة وليسلن الله سيفه المغمود عنكم فلا يغمد الى يوم القيامة قالوا اقتلوا اليهودى واقتلوا عثمان اخرجه الترمذى زاد فى رواية غير الترمذى فما قتل نبى قط الا قتل به سبعون ألفا ولا خليفة الا قتل به خمسة وثلاثون الفا قوله تعالى (وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) اى افعلوا هذه الاشياء على رجاء الرحمة (لاتحسبن الذين كفروا معجزين) اى فائتين عنا (فى الارض ومأواهم النار ولبئس المصير) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) قال ابن عباس و وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الانصار يقال له مدلج بن عمرو الى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته

هم الكاملون فى فسقهم حيث كفروا تلك النعمة الجسيمة وجسروا على غمطها قالوا أول من كفر هذه النعمة قتلة عثمان رضى الله عنه فاقتتلوا بعدما كانوا اخوانا وزال عنهم الخوف والآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين لان المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم (وأقيموا الصلوة) معطوف على اطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا يضر الفصل وان طال (وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول) فيما يدعوكم اليه وكررت طاعة الرسول تأكيدا لوجوبها (لعلكم ترحمون) اى لكى ترحموا فانها من مستجلبات الرحمة ثم ذكر الكافرين فقال (لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض) اى فائتين الله بان لا يقدر عليهم فيها فالتاء خطاب للنبى عليه الصلاة والسلام وهو الفاعل والمفعول الذين كفروا ومعجزين و بالياء شامى وحمزة والفاعل النبى صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره والمفعول الذين كفروا ومعجزين

(ومأواهم النار) معطوف على لاتحسبن الذين كفروا معجزين كانه قيل الذين كفروا لا يفوتون الله ومأواهم النار
(ولبئس المصير) اى المرجع النار (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) امر بأن يستأذن العبيد والاماء

(والذين لم يبلغوا الحلم منكم) اى الاطفال الذين لم يحتلموا من الاحرار وقرئ بسكون اللام تخفيفا (ثلاث مرات) فى اليوم والليلة وهى (من قبل صلاة الفجر) لانه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة (وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) وهى نصف النهار فى القيظ لانها وقت وضع الثياب للقيلولة (ومن بعد صلاة العشاء) لانه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم (ثلاث ٣٧٢ عورات لكم) اى هى اوقات ثلاث عورات فحذف المبتدا والمضاف وبالنصب كوفى غير حفص بدلا من ثلاث مرات اى اوقات ثلاث عورات وسمى كل واحد من هذه الاحوال عورة لان الانسان يختل تستره فيها والعورة الخلل ومنها الاعور المختل العين دخل غلام من الانصار يقال له مدلج بن عمرو على عمر رضى الله عنه وقت الظهيرة وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضى الله عنه وددت ان الله نهى عن الدخول فى هذه الساعات الا بالاذن فانطلق الى النبى صلى الله عليه وسلم وقد نزلت عليه الآية ثم عذرهم فى ترك الاستئذان وراء هذه المرات بقوله (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) اى لا اثم عليكم ولا على المذكورين فى الدخول بغير استئذان بعدهن ثم بين العلة فى ترك الاستئذان فى هذه الاوقات بقوله (طوافون عليكم) اى هم طوافون بحوائج البيت (بعضكم) مبتدأ خبره (على بعض) تقديره بعضكم طائف على بعض فحذف طائف لدلالة طوافون عليه ويجوز ان تكون فى الجملة بدلا من التى قبلها وان تكون مبينة مؤكدة يعنى ان بكم وبهم حاجة الى المخالطة والمداخلة يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام فلو جزم الامر بالاستئذان فى كل وقت لافضى الى الحرج وهو مدفوع فى الشرع بالنص (كذلك يبين الله لكم الآيات) اى كما بين حكم الاستئذان يبين لكم غيره من الآيات التى احتجتم الى بيانها (والله عليم) بمصالح عباده (حكيم) فى بيان مراده (واذا بلغ الاطفال منكم) اى الاحرار دون المماليك (الحلم) اى الاحتلام اى اذا بلغوا وأرادوا الدخول عليكم (فليستأذنوا) فى جميع الاوقات

عند ذلك فأنزل الله هذه الآية وقيل نزلت فى اسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت كرهته فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فانزل الله تعالى يا ايها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم واللام لام الامر وفيه قولان أحدهما انه على الندب والاستحباب والثانى انه على الوجوب وهو الاولى الذين ملكت أيمانكم يعنى العبيد والاماء (والذين لم يبلغوا الحلم منكم) يعنى الاحرار وليس المراد منهم الذين لم يظهروا على عورات النساء بل المراد الذين عرفوا امر النساء ولكنهم لم يبلغوا الحلم وهو سن التمييز والعقل وغيرهما واتفق العلماء على ان الاحتلام بلوغ واختلفوا فيما اذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال ابو حنيفة لا يكون بالغا حتى يبلغ ثمان عشرة سنة ويستكملها والجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعى وابو يوسف ومحمد واحمد فى الغلام والجارية بخمس عشرة سنة يصير مكلفا وتجرى عليه الاحكام وان لم يحتلم (ثلاث مرات) اى ليستأذنوا فى ثلاثة اوقات (من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) اى وقت المقيل (ومن بعد صلاة العشاء) وانما خص هذه الثلاثة الاوقات لانها ساعات الخلوات ووضع الثياب فربما يبدو من الانسان ما لا يجوز ان يراه أحد من العبيد والصبيان فأمرهم بالاستئذان فى هذه الاوقات وغير العبيد والصبيان يستأذن فى جميع الاوقات (ثلاث عورات لكم) سميت هذه الاوقات عورات لان الانسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته (ليس عليكم ولا عليهم) يعنى العبيد والخدم والصبيان (جناح) اى حرج فى الدخول عليكم بغير استئذان (بعدهن) اى بعد هذه الاوقات الثلاثة (طوافون عليكم) اى العبيد والخدم يتر ددون ويدخلون ويخرجون فى أشغالكم بغير اذن (بعضكم على بعض) اى يطوف بعضكم على بعض (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) اختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقيل انها منسوخة حكى ذلك عن سعيد بن المسيب روى عكرمة ان نفرا من أهل العراق قالوا يا ابن العباس كيف ترى فى هذه الآية التى أمرنا بها ولا يعمل بها أحد قول الله عز وجل يا أيها آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم الآية فقال ابن عباس ان الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجاب فربما دخل الخادم او الولد او يتيم الرجل والرجل على أهله فأمرهم الله تعالى بالاستئذان فى تلك العورات فجاءهم الله بالستور والخير فلم أر أحدا يعمل بذلك بعد أخرجه أبو داود وفى رواية عنه نحوه وزاد فرأيي ان ذلك أغنى عن الاستئذان فى تلك العورات وذهب قوم الى انها غير منسوخة روى سفيان عن موسى بن أبى عائشة قال سألت الشعبى عن هذه الآية ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم أمنسوخة هى قال لا والله قلت ان الناس لا يعملون بها قال الله تعالى المستعان وقال سعيد بن جبير فى هذه الآية ان ناسا يقولون نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس قيل ثلاث آيات ترك الناس العمل بهن هذه الآية وقوله ان أكرمكم عند الله اتقاكم والناس يقولون أعظمكم بيتا واذا حضر القسمة اولو القربى الآية وقوله عز وجل (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) اى الاحتلام يريد الاحرار الذين بلغوا (فليستأذنوا) اى يستأذنوا

(كما استأذن الذين من قبلهم) اى الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال او الذين ذكروا من قبلهم فى قوله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا الآية والمعنى ان الاطفال مأذون لهم فى الدخول بغير اذن الا فى العورات الثلاث فاذا اعتاد الاطفال ذلك ثم بلغوا بالاحتلام او بالسن وجب ان يفطموا عن تلك العادة و يحملوا على ان يستأذنوا فى جميع الاوقات كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم الا باذن والناس عن هذا غافلون وعن ابن عباس رضى الله عنهما ثلاث آيات جحدهن الناس الاذن كله وقوله ان أكرمكم عند الله اتقاكم واذا حضر القسمة وعن سعيد بن جبير يقولون هى ٣٧٣ منسوخة والله ما هى بمنسوخة وقوله

(كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم) فيما يبين من الاحكام (حكيم) بمصالح الانام (والقواعد) جمع قاعد لانها من الصفات المختصة بالنساء كالطالق والحائض اى اللاتى قعدن عن الحيض والولد لكبرهن (من النساء) حال (اللاتى لا يرجون نكاحا) يطمعن فيه وهى فى محل الرفع صفة للمبتدا وهى القواعد والخبر (فليس عليهن جناح) اثم ودخلت الفاء لما فى المبتدا من معنى الشرط بسبب الالف واللام (ان يضعن) فى ان يضعن (ثيابهن) اى الظاهرة كالملحفة والجلباب الذى فوق الخمار (غير) حال (متبرجات بزينة) اى غير مظهرات زينة يريد الزينة الخفية كالشعر والنحر والساق ونحو ذلك اى لا يقصدن بوضعها التبرج ولكن التخفيف وحقيقة

فى جميع الاوقات فى الدخول عليكم (كما استأذن الذين من قبلهم) اى الاحرار الكبار (كذلك يبين الله لكم آياته) اى دلالته وقيل أحكامه (والله عليم) اى بامور خلقه (حكيم) بما دبر وشرع قال سعيد بن المسيب يستأذن الرجل على أمه فانما أنزلت هذه الآية فى ذلك وسئل حذيفة ايستأذن الرجل على والدته قال نعم ان لم تفعل رأيت منها ما تكره قوله (والقواعد من النساء) يعنى اللاتى قعدن عن الحيض والولد من الكبر فلا يلدن ولا يحضن (اللاتى لا يرجون نكاحا) اى لا يردن الازواج لكبرهن وقيل هن العجائز اللواتى اذا رآهن الرجال استقذروهن فاما من كانت فيها بقية جمال وهى محل الشهوة فلا تدخل فى حكم هذه الآية (فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن) اى عند الرجال والمعنى بعض ثيابهن وهو الجلباب والرداء الذى فوق الثياب والقناع الذى فوق الخمار فأما الخمار فلا يجوز وضعه (غير متبرجات بزينة) اى من غير ان يردن بوضع الجلباب والرداء اظهار زينتهن والتبرج هو ان تظهر المرأة من محاسنها ما يجب عليها ان تستره (وان يستعففن) اى فلا يلقين الجلباب ولا الرداء (خير لهن والله سميع عليم) * قوله عز وجل (ليس على الاعمى حرج) اختلف العلماء فى هذه الآية فقال ابن عباس لما أنزل الله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمى والعرج وقالوا الطعام أفضل الاموال وقد نهانا الله عز وجل عن أكل الاموال بالباطل والاعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والاعرج لا يتمكن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفى من الطعام حقه فانزل الله هذه الآية فعلى هذا التأويل يكون على بمعنى فى اى ليس فى الاعمى والمعنى ليس عليكم فى مؤاكلة الاعمى والمريض والاعرج حرج وقيل كان العميان والعرجان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الاصحاء لان الناس يقذرونهم و يكرهون مؤاكلتهم وكان الاعمى يقول ربما آكل أكثر من ذلك و يقول الاعرج والاعمى ربما أجلس مكان اثنين فنزلت هذه الآية وقيل نزلت ترخيصا لهؤلاء فى الاكل من بيوت من سماهم الله فى باقى الآية وذلك ان هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل فى طلب الطعام فاذا لم يكن عنده شئ ذهب بهم الى بيت أبيه او بيت أمه او بعض من سمى الله تعالى فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك و يقولون ذهب بنا الى غير بيته فانزل الله هذه الآية وقيل كان المسلمون اذا غزوا دفعوا مفاتيح بيوتهم الى الزمنى و يقولون لهم قد أحللنا لكم ان تأكلوا مما فى بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك و يقولون لا ندخلها وأصحابها غيب فانزل الله هذه الآية رخصة لهم وقيل نزلت رخصة لهؤلاء فى التخلف عن الجهاد فعلى هذا تم الكلام عند قوله (ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) وقوله تعالى (ولا على أنفسكم) كلام مستأنف قيل لما نزلت ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل قالوا لا يحل لاحد منا ان يأكل عند أحد فانزل الله تعالى ولا على أنفسكم (ان تأكلوا من بيوتكم)

التبرج تكلف اظهار ما يجب اخفاؤه (وان يستعففن) اى ان يطلبن العفة عن وضع الثياب فيستترن وهو مبتدأ خبره (خير لهن والله سميع) لما يعلن (عليم) بما يقصدن (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) قال سعيد بن المسيب كان المسلمون اذا خرجوا الى الغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الاعمى والمريض والاعرج وعند اقاربهم و يأذنونهم ان يأكلوا من بيوتهم وكانوا يتحرجون من ذلك و يقولون نخشى ان لا تكون أنفسهم بذلك طيبة فنزلت الآية رخصة لهم (ولا على أنفسكم) اى حرج (ان تأكلوا من بيوتكم) اى بيوت اولادكم لان ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه ولذا لم يذكر الاولاد فى الآية وقد قال عليه الصلاة والسلام انت ومالك لابيك او بيوت ازواجكم لان الزوجين صارا كنفس واحدة فصار بيت المرأة كبيت الزوج

(او بيوت آبائكم او بيوت أمهاتكم او بيوت اخوانكم او بيوت أخواتكم او بيوت أعمامكم او بيوت عماتكم او بيوت أخوالكم او بيوت خالاتكم) لان الاذن من هؤلاء ثابت دلالة (اوما ملكتم مفاتحه) جمع مفتح وهو ما يفتح به الغلق قال ابن عباس رضى الله عنهما وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته له ان يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته وأريد بملك المفاتح كونها فى يده وحفظه وقيل أريد به بيت عبده لان العبد وما فى يده لمولاه (اوصديقكم) يعنى او بيوت اصدقائكم والصديق يكون واحدا وجمعا وهو من يصدقك فى مودته وتصدقه فى مودتك ٣٧٤ وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء فاذا حضر مولاها فأخبرته اعتقها سرورا بذلك فاما الآن فقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل الا باذن (ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا) مجتمعين (او اشتاتا) متفرقين جمع شت نزلت فى بنى ليث بن عمرو وكانوا يتحرجون ان يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره الى الليل فان لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة او فى قوم من الانصار اذا نزل بهم ضيف لا يأكلون الا مع ضيفهم او تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الاكل وزيادة بعضهم على بعض (فاذا دخلتم بيوتا) من هذه البيوت لتأكلوا (فسلموا على أنفسكم) فابدؤا بالسلام على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة او بيوتا فارغة او مسجدا فقولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين (تحية) نصب يسلموا لانها فى معنى تسليما نحو قعدت جلوسا او (من عند الله) اى ثابتة بامره مشروعة من لدنه اولان التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله (مباركة طيبة) وصفها بالبركة والطيب لانها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) لكى تعقلوا وتفهموا (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع) اى الذى يجمع له الناس نحو الجهاد والتدبير فى الحرب وكل اجتماع فى الله حتى الجمعة والعيدين

اى لا حرج عليكم ان تأكلوا من بيوتكم قيل أراد من أموال عيالكم وبيوت أزواجكم لان بيت المرأة كبيت الزوج وقيل أراد ببيوت أولادكم ونسب بيوت الاولاد الى الآباء لما جاء فى الحديث أنت ومالك لابيك (او بيوت آبائكم او بيوت أمهاتكم او بيوت اخوانكم او بيوت اخواتكم او بيوت أعمامكم او بيوت عماتكم او بيوت اخوالكم او بيوت خالاتكم اوما ملكتم مفاتحه) قال ابن عباس عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته لا باس عليه ان يأكل من ثمرة ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر وقيل يعنى بيوت عبيدكم ومما ليككم وذلك ان السيد يملك منزل عبده والمفاتح الخزائن ويجوز ان يكون المفتاح الذى يفتح به واذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا باس ان يأكل الشئ اليسير وقيل ما ملكتم مفاتحه اى ما خزنتموه عندكم وما ملكتموه (اوصديقكم) الصديق هو الذى صدقك فى المودة قال ابن عباس نزلت فى الحرث بن عمرو خرج غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت ان آكل من طعامك بغير اذنك فانزل الله تعالى هذه الآية والمعنى انه ليس عليكم جناح ان تأكلوا من منازل هؤلاء اذا دخلتموها وان لم يحضر وامن غير ان تستأذنوا وتحملوا (ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا او أشتاتا) نزلت فى بنى ليث بن عمرو وهم حى من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفا يأكل معه فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح الى الرواح وربما كانت معه الابل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يأتى من يشاربه فاذا أمسى ولم يجد أحدا أكل وقال ابن عباس كان الغنى يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه الى طعامه فيقول والله انى لاجنح اى اتحرج ان آكل معك وأنا غنى وانت فقير فنزلت هذه الآية وقيل نزلت فى قوم من الانصار كانوا لا يأكلون اذا نزل بهم ضيف الامع ضيفهم فرخص لهم ان يأكلوا كيف شاؤا جميعا اى مجتمعين او اشتاتا اى متفرقين (فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) اى ليسلم بعضكم على بعض هذا فى دخول الرجل بيت نفسه يسلم على أهله ومن فى بيته قال قتادة اذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق من سلمت عليه واذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته حدثنا أن الملائكة ترد عليه وقال ابن عباس اذا لم يكن فى البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته وعن ابن عباس فى قوله تعالى فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم قال اذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين (تحية من عند الله مباركة طيبة) قال ابن عباس حسنة جميلة وقيل ذكر البركة والطيب ههنا لما فيه من الثواب والاجر (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) اى عن الله أمره ونهيه وآدابه * قوله عز وجل (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه) اى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (على امر جامع) اى يجمعهم من حرب او صلاة حضرت او جمعة او عيد او جماعة

(لم يذهبوا حتى يستأذنوه) اى و يأذن لهم ولما أراد الله عز وجل ان يريهم عظم الجناية فى ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير اذنه اذا كانوا معه على أمر جامع جعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الايمان بالله والايمان برسوله وجعلهما كالتشبيب والبساط لذكره وذلك مع تصدير الجملة بانما وايقاع المؤمنين مبتدا مخبرا عنه بموصول احاطت صلته بذكر الايمانين ثم عقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله (ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) وضمنه شيئا آخر وهو انه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الايمانين وعرض بحال المنافقين وتسللهم لواذا (فاذا استأذنوك) فى الانصراف (لبعض شأنهم) أمرهم (فأذن لمن شئت منهم) فيه رفع شأنه عليه الصلاة والسلام (واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم) وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على ان الافضل ان لا يستأذن قالوا وينبغى ان يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدميهم فى الدين والعلم يظاهرونهم ولا يتفرقون عنهم الا باذن قيل نزلت يوم الخندق كان المنافقون يرجعون الى منازلهم من غير

استئذان (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) اى اذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اجتماعكم عنده لامر فدعاكم فلا تقربوا منه الا باذنه ولا تقسوا دعاءه اياكم على دعاء بعضكم بعضا وارجوعكم عن المجمع بغير اذن الداعى أو لا تجعلوا تسميته وناداه بينكم كما يسمى بعضكم بعضا وينادى باسمه الذى سماه به أبواه فلا تقولوا يا محمد ولكن يا نبى الله يا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض (قد يعلم الله الذين يتسللون) يخرجون قليلا قليلا (منكم لواذا) حال أى ملاوذين اللواذ والملاوذة هو أن يلوذ هذا بذاك

ونشاور فى أمر نزل (لم يذهبوا) اى لم يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له (حتى يستأذنوه) قال المفسرون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل ان يخرج من المسجد لحاجة او عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يراه فيعرف انه انما قام ليستأذن فيأذن لمن شاء منهم قال مجاهد واذن الامام يوم الجمعة أن يشير بيده قال أهل العلم وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الامام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه الا بالاذن واذا استأذن الامام ان شاء أذن له وان شاء لم يأذن وهذا اذا لم يكن حدث سبب يمنعه من المقام فان حدث سبب يمنعه من المقام بان يكونوا فى المسجد فتحيض امرأة منهم او يجنب رجل او يعرض له مرض فلا يحتاج الى الاستئذان (ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم) اى امرهم (فأذن لمن شئت منهم) اى فى الانصراف والمعنى ان شئت فأذن وان شئت فلا تأذن (واستغفر لهم الله) اى ان رأيت لهم عذرا فى الخروج عن الجماعة (ان الله غفور رحيم) قوله عز وجل (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قال ابن عباس رضى الله عنهما يقول احذروا دعاء الرسول اذا أسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره وقيل معناه لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا يا محمد يا عبد الله ولكن فخموه وعظموه وشرفوه وقولوا يا نبى الله يا رسول الله فى لين وتواضع (قد يعلم الله الذين يتسللون) اى يخرجون (منكم لواذا) اى يستتر بعضهم ببعض و يروغ فى خفية فيذهب قيل كانوا فى حفر الخندق فكان المنافقون ينصرفون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مختفين وقال ابن عباس لواذا أى يلوذ بعضهم ببعض وذلك ان المنافقين كان يثقل عليهم المقام فى المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبى صلى الله عليه وسلم فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد فى استتار وقوله قد يعلم فيه التهديد بالمجازاة (فليحذر الذين يخالفون عن امره) اى يعرضون عن أمره و ينصرفون عنه بغير اذنه (أن تصيبهم فتنة) اى لئلا تصيبهم فتنة اى بلاء فى الدنيا (او يصيبهم عذاب أليم) اى و جميع فى الآخرة ثم عظم الله نفسه فقال تعالى (ألا ان لله ما فى السموات والارض) اى ملكا وعبيدا (قد يعلم ما أنتم عليه) اى من الايمان والنفاق (ويوم يرجعون اليه)

وذلك بهذا اى يتسللون عن الجماعة فى الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) اى الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون يقال خالفه الى الامر اذا ذهب اليه دونه ومنه وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه وخالفه عن الامر اذا صد عنه دونه والضمير فى أمره لله سبحانه أو للرسول عليه الصلاة والسلام والمعنى عن طاعته ودينه ومفعول يحذر (أن تصيبهم فتنة) محنة فى الدنيا أو قتل اوزلازل واهوال أو تسليط سلطان جائر أو قسوة القلب عن معرفة الرب او اسباغ النعم استدراجا (أو يصيبهم عذاب أليم) فى الآخرة والآية تدل على ان الامر للايجاب (ألا ان لله ما فى السموات والارض) الا تنبيه على ان لا يخالفوا أمر من له ما فى السموات والارض (قد يعلم ما أنتم عليه) ادخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين و يرجع توكيد العلم الى توكيد الوعيد والمعنى ان جميع ما فى السموات والارض مختص به خلقا وملكا وعلما فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين وان كانوا يجهدون فى ستره (ويوم يرجعون اليه) و بفتح الياء وكسر الجيم يعقوب اى ويعلم يوم يردون الى جزائه وهو يوم القيامة والخطاب والغيبة فى قوله قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه يجوز ان يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات ويجوز ان يكون ما أنتم عليه عاما ويرجعون للمنافقين

(فينبئهم) يوم القيامة (بما عملوا) بما أبطنوا من سوء أعمالهم و يجازيهم حق جزائهم (والله بكل شئ عليم) فلا تخفى عليه خافية وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قرأ سورة النور على المنبر فى الموسم وفسرها على وجه لو سمعت الروم به لاسلمت والله اعلم * (سورة الفرقان) * مكية وهى سبع وسبعون آية * (بسم الله الرحمن الرحيم) * (تبارك) تفاعل من البركة وهى كثرة الخير وزيادته ومعنى تبارك الله تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شئ وتعالى عنه فى صفاته وأفعاله وهى كلمة تعظيم لم تستعمل الا لله وحده والمستعمل منه الماضى فحسب (الذى نزل الفرقان) هو مصدر فرق بين الشيئين اذا فصل بينهما وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل والحلال والحرام اولانه لم ينزل جملة ولكن مفرقا مفصولا بين بعضه و بعض فى الانزال الا ترى الى قوله وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (على عبده) محمد عليه الصلاة والسلام (ليكون) العبد أو الفرقان (للعالمين) للجن والانس وعموم الرسالة من خصائصه عليه الصلاة والسلام (نذيرا) منذرا اى مخوفا او انذارا كالنكير بمعنى الانكار ومنه قوله تعالى فكيف كان عذابى ونذر (الذى) رفع على أنه خبر مبتدا محذوف أو على الابدال من الذى نزل وجوز الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله ليكون لان المبدل منه صلته نزل وليكون تعليل له فكأن المبدل منه لم يتم الا به او نصب على المدح (له ملك السموات والارض) على الخلوص (ولم يتخذ ولدا) كما زعم اليهود والنصارى فى عزير والمسيح عليهما السلام (ولم يكن له شريك فى الملك) كما زعمت الثنوية (وخلق كل شئ) اى أحدث كل شئ وحده لا كما يقوله المجوس والثنوية من النور والظلمة و يزدان واهرمن ولا شبهة فيه لمن يقول ان الله شئ و يقول بخلق القرآن لان ابن الفاعل بجميع صفاته لا يكون مفعولا له على ان لفظ شئ اختص بما يصح ان يخلق بقرينة وخلق وهذا أوضح دليل لنا على المعتزلة فى خلق افعال العباد (فقدره تقديرا) فهيأه لما يصلح له بلا اخلال فيه كما انه خلق الانسان على هذا الشكل الذى تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى الدين والدنيا أو قدره للبقاء الى أمد معلوم (واتخذوا) الضمير للكافرين لانذارهم تحت العالمين أو لدلالة نذيرا عليهم لانهم المنذرون (من دونه آلهة) اى الاصنام (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون) اى انهم آثروا على عبادة من هو متفرد بالالوهية والملك والخلق والتقدير عبادة عجزة لا يقدرون على خلق شئ وهم يخلقون (ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا) ولا يستطيعون لانفسهم دفع ضر عنها ولا جلب نفع اليها (ولا يملكون موتا) اماتة (ولا حياة) اى احياء (ولا نشورا) احياء بعد الموت وجعلها كالعقلاء لزعم عابديها (وقال الذين كفروا ان هذا) ما هذا القرآن (الا افك) كذب (افتراه) اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه (وأعانه عليه قوم آخرون) أى اليهود وعداس و يسار وأبو فكيهة الرومى قاله النضر بن الحرث

يعنى يوم القيامة (فينبئهم بما عملوا) اى من الخير والشر (والله بكل شئ عليم) عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور أخرجه أبو عبد الله بن السبع فى صحيحه والله سبحانه وتعالى أعلم

* (تفسير سورة الفرقان) *

مكية وهى سبع وسبعون آية وثمانمائة واثنتان وتسعون كلمة وثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثون حرفا

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

قوله عز وجل (تبارك) تفاعل من البركة قيل معناه جاء بكل بركة وخير وقيل معناه تعظم (الذى نزل الفرقان) أى القرآن سماه فرقانا لانه فرق به بين الحق والباطل والحلال والحرام وقيل لانه نزل مفرقا فى أوقات كثيرة ولهذا قال نزل بالتشديد لتكثير التفريق (على عبده) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (ليكون للعالمين) اى للانس والجن (نذيرا) قيل هو القرآن وقيل النذير هو محمد صلى الله عليه وسلم (الذى له ملك السموات والارض) اى هو المتصرف فيهما كيف يشاء (ولم يتخذ ولدا) اى هو الفرد فى وحدانيته وفيه رد على النصارى (ولم يكن له شريك فى الملك) اى هو المنفرد بالالهية وفيه رد على الثنوية وعباد الاصنام (وخلق كل شئ) مما تطلق عليه صفة المخلوق (فقدره تقديرا) اى سواه وهيأه لما يصلح له لا اخلال فيه ولا تفاوت وقيل قدر كل شئ تقديرا من الاجل والرزق فجرت المقادير على ما خلق قوله تعالى (واتخذوا) يعنى عبدة الاوثان (من دونه آلهة) يعنى الاصنام (لا يخلقون شيأ وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا) اى دفع ضر ولا جر نفع (ولا يملكون موتا) اى اماتة (ولا حياة) اى احياء (ولا نشورا) اى بعثا بعد الموت (وقال الذين كفروا) يعنى النضر بن الحرث وأصحابه (ان هذا) اى ما هذا القرآن (الا افك) اى كذب (افتراه) اى اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه قوم آخرون) قيل هم اليهود وقيل عبيد بن الخضرا الحبشى الكاهن وقيل جبر و يسار وعداس

(فقد جاؤا ظلما وزورا) هذا اخبار من الله رد للكفرة فيرجع الضمير الى الكفار وجاء يستعمل فى معنى فعل فيعدى تعديتها او حذف الجار واوصل الفعل اى بظلم وزور وظلمهم أن جعلوا العربى يتلقن من العجمى الرومى كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب والزور أن بهتوه بنسبة ماهو برىء منه اليه (وقالوا أساطير الاولين) اى هو أحاديث المتقدمين وماسطروه كرستم وغيره جمع اسطار واسطورة كاحدوثة (اكتتبها) كتبها لنفسه (فهى تملى عليه) اى تلقى عليه من كتابه (بكرة) أول النهار (وأصيلا) آخره فيحفظ ما يملى عليه ثم يتلوه علينا (قل) يا محمد (أنزله) اى القرآن (الذى يعلم السر فى السموات والارض) اى يعلم كل سر خفى فى السموات والارض يعنى ان القرآن لما اشتمل على علم الغيوب التى يستحيل عادة ان يعلمها محمد عليه الصلاة والسلام من غير تعليم دل ذلك على انه من عند علام الغيوب (انه كان غفورا رحيما) فيمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة وان استوجبوها بمكابرتهم (وقالوا مال هذا الرسول) وقعت اللام فى المصحف مفصولة عن الهاء وخط المصحف سنة لا تغير وتسميتهم اياه بالرسول سخرية

منهم كانهم قالوا اى شئ لهذا الزاعم انه رسول (يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق) حال والعامل فيها هذا (لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها) اى ان صح انه رسول الله فما باله يأكل الطعام كما نأكل ويتردد فى الاسواق لطلب المعاش كما نتردد يعنون انه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والتعيش ثم نزلوا عن ذلك الاقتراح الى ان يكون انسانا معه ملك حتى يساندا فى الانذار والتخويف ثم نزلوا الى ان يكون مرفودا بكنز يلقى اليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج الى تحصيل المعاش ثم نزلوا الى أن يكون رجلا له بستان يأكل هو منه

كالياسر أو نأكل نحن كقراءة حمزة وعلى وحسن عطف المضارع وهو يلقى وتكون على أنزل وهو ماض لدخول المضارع وهو فيكون بينهما واو انتصب فيكون على القراءة المشهورة لانه جواب لولا بمعنى هلا وحكمه حكم الاستفهام وأراد بالظالمين فى قوله (وقال الظالمون) اياهم باعيانهم غير انه وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوا وهم كفار قريش (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) سحر فجن او ذا سحر وهو الرئة عنوا انه بشر لا ملك (انظر كيف ضربوا) بينوا (لك الامثال) الاشباه اى قالوا فيك تلك الاقوال واخترعوا لك تلك الصفات والاحوال من المقترى والمملى عليه والمسحور (فضلوا) عن الحق (فلا يستطيعون سبيلا) فلا يجدون طريقا اليه (تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا) اى تكاثر خير الذى ان شاء وهب لك فى الدنيا خيرا مما قالوا وهو أن يجعل لك مثل ما وعدك فى الآخرة من الجنات والقصور وجنات بدل من خيرا ويجعل بالرفع مكى وشامى وأبو بكر لان الشرط اذا وقع ماضيا جاز فى جزائه الجزم والرفع

ابن عبيد كانوا بمكة من أهل الكتاب فزعم المشركون ان محمدا صلى الله عليه وسلم يأخذ منهم قال الله تعالى (فقد جاؤا) يعنى قائلى هذه المقالة (ظلما وزورا) اى بظلم وزور وهو تسميتهم كلام الله تعالى بالافك والافتراء (وقالوا أساطير الاولين اكتتبها) يعنى النضر بن الحرث كان يقول ان هذا القرآن ليس من الله وانما هو مما سطره الاولون مثل حديث رستم واسفنديار ومعنى اكتتبها انتسخها محمد صلى الله عليه وسلم من جبر ويسار وعداس وطلب ان تكتب له لانه كان لا يكتب (فهى تملى عليه) اى تقرأ عليه ليحفظها لانه لا يكتب (بكرة وأصيلا) يعنى غدوة وعشية قال الله تعالى ردا عليهم (قل) يا محمد (أنزله) يعنى القرآن (الذى يعلم السر) اى الغيب (فى السموات والارض انه كان غفورا رحيما) اى لولا ذلك لعاجلهم بعذابه (وقالوا مال هذا الرسول) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (يأكل الطعام) اى كما نأكل نحن (ويمشى فى الاسواق) اى يلتمس المعاش كما نمشى نحن واذا كان كذلك فمن اين له الفضل علينا ولا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة وكانوا يقولون له لست بملك لانك بشر مثلنا والملك لا يأكل ولا يمشى لان الملك لا يتسوق وأنت تتسوق وتبتذل وما قالوه فاسد لان أكله الطعام لكونه آدميا ولم يدع انه ملك ومشيه فى الاسواق لتواضعه وكان ذلك صفته فى التوراة ولم يكن سخابا فى الاسواق وليس شئ من ذلك ينافى النبوة ولانه لم يدع انه ملك من الملوك (لولا أنزل اليه ملك) اى يصدقه ويشهد له (فيكون معه نذيرا) اى داعيا (أو يلقى اليه كنز) اى ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج الى التصرف فى طلب المعاش (أو تكون له جنة) اى بستان (يأكل منها) اى هو فلا أقل من ذلك ان لم يكن له كنز (وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا) اى مخدوعا وقيل مصروفا عن الحق (انظر) يا محمد (كيف ضربوا لك الامثال) اى الاشباه التى لا فائدة لها فقالوا مسحور محتاج (فضلوا) اى عن الحق (فلا يستطيعون سبيلا) الى الهدى ومخرجا عن الضلالة قوله تعالى (تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك) اى من الذى قالوا وأفضل من البستان الذى ذكروا وقال ابن عباس يعنى خيرا من المشى فى الاسواق والتماس المعاش ثم بين ذلك الخير فقال (جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا) اى بيوتا مشيدة

(بل كذبوا بالساعة) عطف على ماحكى عنهم يقول بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة اومتصل بما يليه كانه قال بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون الى هذا الجواب وكيف يصدقون بتجهيل مثل ماوعدك فى الآخرة وهم لا يؤمنون بها (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) وهيأنا للمكذبين بها نارا شديدة فى الاستعار (اذا رأتهم) اى النار أى قابلتهم (من مكان بعيد) اى اذا كانت منهم بمرأى الناظرين فى البعد (سمعوا لها ٣٧٨ تغيظا وزفيرا) اى سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر أو اذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار (واذا ألقوا منها) من النار (مكانا ضيقا) ضيقا مكى فان الكرب مع الضيق كما ان الروح مع السعة ولذا وصفت الجنة بان عرضها السموات والارض وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح (مقرنين) اى وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون فى السلاسل قرنت أيديهم الى اعناقهم فى الاغلال او يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة وفى أرجلهم الاصفاد (دعوا هنالك) حينئذ (ثبورا) هلا كا اى قالوا واثبوراه اى تعال يا ثبور فهذا حينك فيقال لهم (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) اى انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا انما هو ثبور كثير (قل أذلك خير) اى المذكور من صفة النار خير (أم جنة الخلد التى وعد المتقون) اى وعدها فالراجع الى الموصول محذوف وانما قال أذلك خير ولا خير فى النار تو بيخا للكفار (كانت لهم جزاء) ثوابا (ومصيرا) مرجعا وانما قيل كانت لان ماوعد الله كائنه كان لتحققه أو كان ذلك مكتوبا فى اللوح قبل أن خلقهم (لهم فيها ما يشاؤن) اى ما يشاؤنه (خالدين) حال من الضمير فى يشاؤن والضمير فى (كان) لما يشاؤن (على ربك وعدا) اى موعودا (مسؤلا) مطلوبا او حقيقا أن يسئل أو قد سأله المؤمنون والملائكة فى دعواتهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى

عن ابى امامة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت لا يا رب ولكن اشبع يوما واجوع يوما او قال ثلاثا او نحو هذا فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك واذا شبعت حمدتك وشكرتك عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو شئت لسارت معى جبال مكة ذهبا جاءنى ملك ان جبزته لتساوى الكعبة فقال يا محمد ان ربك يقرئك السلام ويقول ان شئت نبيا عبدا وان شئت نبيا ملكا فنظرت الى جبريل فأشار الى أن ضع نفسك فقلت نبيا عبدا قالت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا يأكل متكئا يقول أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ذكر هذين الحديثين البغوى بسنده قوله تعالى (بل كذبوا بالساعة) اى القيامة (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) اى نارا مسعرة (اذا رأتهم من مكان بعيد) قيل من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة عام فان قلت كيف تتصور الرؤية من النار وهو قوله اذا رأتهم قلت يجوز أن يخلق الله لها حياة وعقلا ورؤية وقيل معناه رأتهم زبانيتها (سمعوا لها تغيظا) اى غليانا كالغضبان اذا غلى صدره من الغضب (وزفيرا) اى صوتا فان قلت كيف يسمع التغيظ قلت معناه رأوا وعلموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا كما قال الشاعر

ورأيت زوجك فى الوغى * متقلدا سيفا ورمحا

اى وحاملا رمحا وقيل سمعوا لها صوت التغيظ من التلهب والتوقد وقال عبيد بن عمير تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الا خر لوجهه (واذا ألقوا منها مكانا ضيقا) قال ابن عباس تضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح (مقرنين) اى مصفدين قد قرنت ايديهم الى أعناقهم فى الاغلال وقيل مقرنين مع الشياطين فى السلاسل (دعوا هنالك ثبورا) قال ابن عباس ويلا وقيل هلاكا وفى الحديث ان أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقف على النار فينادى يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم فيقال لهم (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) هكذا ذكره البغوى بغير سند وقيل معناه هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة فادعوا أدعية كثيرة * قوله عز وجل (قل أذلك خير) اى الذى ذكرت من صفة النار وأهلها (أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا) اى ثوابا ومرجعا لهم قال تعالى (لهم فيها ما يشاؤن) اى ان جميع المرادات لا تحصل الا فى الجنة لا فى غيرها فان قلت قد يشتهى الانسان شيأ وهو لا يحصل فى الجنة كان يشتهى الولد ونحوه وليس هو فى الجنة قلت ان الله يزيل ذلك الخاطر عن أهل الجنة بل كل واحد من اهل الجنة مشتغل بما هو فيه من اللذات الشاغلة عن الالتفات الى غيره (خالدين) اى فى نعيم الجنة ومن تمام النعيم أن يكون دائما اذ لو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم وأنشد فى المعنى

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

(كان على ربك وعدا مسؤلا) اى مطلوبا وذلك ان المؤمنين سألوا ربهم فى الدنيا حين قالوا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقالوا ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك يقولون كان اعطاء الله المؤمنين

الآخرة حسنة ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم (ويوم نحشرهم) للبعث عند الجمهور وبالياء مكى ويزيد ويعقوب وحفص (وما يعبدون من دون الله) يريد المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير وعن الكلبى يعنى الاصنام ينطقها الله وقيل عام وما يتناول العقلاء وغيرهم لانه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبوديهم (فيقول) وبالنون شامى (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) والقياس ضلوا عن السبيل الا انهم تركوا الجار كما تركوه فى هداه الطريق والاصل الى الطريق او للطريق وضل مطاوع أضله والمعنى أأنتم أوقعتموهم فى الضلال عن طريق الحق بادخال الشبه أم هم ضلوا عنه بانفسهم وانما لم يقل أأضللتم عبادى هؤلاء أم ضلوا السبيل وزيد أنتم وهم لان السؤال ليس عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وانما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وايلائه حرف الاستفهام ليعلم انه المسؤل عنه وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسؤل عنه أن يجيبوا بما اجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم اياهم فتزيد حسرتهم (قالوا سبحانك) تعجب منهم مما قيل لهم وقصدوا به تنزيهه عن الانداد وأن يكون له نبى او ملك او غيرهما ندا ثم قالوا (ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) اى ما كان يصح لنا ولا يستقيم أن نتولى احدا دونك فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك نتخذ يزيد واتخذ يتعدى الى مفعول واحد نحو اتخذ وليا والى مفعولين ٣٧٩ نحو اتخذ فلانا وليا قال الله تعالى أم اتخذوا آلهة من الارض وقال واتخذ الله ابراهيم خليلا فالقراءة الاولى من المتعدى لواحد وهو من اولياء والاصل أن نتخذ أولياء وزيدت من لتأكيد معنى النفى والقراءة الثانية من المتعدى الى المفعولين فالمفعول الاول ما بنى له الفعل والثانى من أولياء ومن للتبعيض اى لا نتخذ بعض أولياء لان من لا تزاد فى المفعول الثانى بل فى الاول تقول ما اتخذت من أحد وليا ولا تقول ما اتخذت أحدا من ولى (ولكن متعتهم وآباءهم) بالاموال والاولاد وطول العمر والسلامة من العذاب (حتى نسوا الذكر) اى ذكر الله والايمان به والقرآن والشرائع (وكانوا) عند الله (قوما بورا) اى هلكى جمع بائر كعائذ وعوذ ثم يقال للكفار بطريق الخطاب عدولا عن الغيبة (فقد كذبوكم) وهذه المفاجأة بالاحتجاج والالزام حسنة رائعة وخاصة اذا انضم اليها الالتفات وحذف القول ونظيرها يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل الى قوله فقد جاءكم بشير ونذير وقول القائل قالوا خراسان اقصى ما يراد بنا * ثم القفول فقد جئنا خراسانا (بما تقولون) بقولكم فيهم انهم آلهة والباء على هذا كقوله بل كذبوا بالحق والجار والمجرور بدل من الضمير كانه قيل فقد كذبوا بما تقولون وعن قنبل بالياء ومعناه فقد كذبوكم بقولهم سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء والباء على هذا كقولك كتبت بالقلم (فما يستطيعون صرفا ولا نصرا) اى فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب او ينصروكم وبالتاء حفص اى فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم ولا نصر أنفسكم ثم خاطب المكلفين على العموم بقوله (ومن يظلم منكم) اى يشرك لان الظلم وضع الشئ فى غير موضعه ومن جعل المخلوق شريك خالقه فقد ظلم يؤيده قوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم (نذقه عذابا كبيرا) فسر بالخلود فى النار وهو يليق بالمشرك دون الفاسق الا على قول المعتزلة والخوارج (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق) كسرت ان لاجل اللام فى الخبر والجملة بعد الا صفة لموصوف محذوف والمعنى وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين الا آكلين وماشين وانما حذف اكتفاء بالجار والمجرور أى من المرسلين ونحوه وما منا الا له مقام معلوم اى وما منا أحد قيل هو احتجاج على من قال ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق وتسلية للنبى عليه الصلاة والسلام

جنة وعدا وعدهم على طاعتهم اياه فى الدنيا ومسئلتهم اياه ذلك الوعد وقيل الطلبة من الملائكة للمؤمنين وذلك قولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم قوله تعالى (ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله) يعنى من الملائكة والانس والجن مثل عيسى والعزير وقيل يعنى الاصنام ثم يخاطبهم (فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) اى أخطؤا الطريق (قالوا) يعنى المعبودين (سبحانك) نزهوا الله سبحانه وتعالى من أن يكون معه آلهة (ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) يعنى ما كان ينبغى لنا أن نوالى أعدائك بل أنت ولينا من دونهم وقيل معناه ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا ونحن نعبدك ونحن عبيدك (ولكن متعتهم وآباءهم) اى بطول العمر والصحة والنعمة فى الدنيا (حتى نسوا الذكر) معناه تركوا المواعظ والايمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه (وكانوا قوما بورا) معناه هلكى اى غلب عليهم الشقاء والخذلان (فقد كذبوكم) هذا خطاب مع المشركين اى كذبكم المعبودون (بما تقولون) اى انهم آلهة (فما يستطيعون) اى الآلهة (صرفا) اى صرف العذاب عن أنفسهم (ولا نصرا) اى ولا نصر أنفسهم وقيل لا ينصرونكم أيها العابدون بدفع العذاب عنكم (ومن يظلم منكم) اى يشرك (نذقه عذابا كبيرا) * قوله عز وجل (وما أرسلنا قبلك) اى يا محمد (من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق) قال ابن عباس لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق أنزل الله تعالى هذه الآية والمعنى ان هذه عادة مستمرة من

(و جعلنا بعضكم لبعض فتنة) اى محنة وابتلاء وهذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عيروه به من الفقر ومشيه فى الاسواق يعنى انه جعل الاغنياء فتنة للفقراء فيغنى من يشاء ويفقر من يشاء (أتصبرون) على هذه الفتنة فتؤجروا أم لا تصبرون فيزداد غمكم وحكى ان بعض الصالحين تبرم بضنك عيشه فخرج ضجرا فرأى خصيا فى موا كب ومراكب فخطر بباله شئ فاذا بمن يقرأ هذه الآية فقال بلى فصبرار بنا اى وجعلتك فتنة لهم لانك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنان لكانت طاعتهم لك للدنيا اوممزوجة بالدنيا فانما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا (وكان ربك بصيرا) عالما بالصواب فيما يبتلى به أو بمن يصبر و يجزع (وقال الذين لا يرجون) لا يأملون (لقاءنا) بالخير ٣٨٠ لانهم كفرة لا يؤمنون بالبعث أو لا يخافون عقابنا املان الراجى قلق فيما يرجوه كالخائف اولان الرجاء فى لغة تهامة الخوف (لولا) هلا (أنزل علينا الملائكة) رسلا دون البشر أو شهودا على نبوته ودعوى رسالته (أو نرى ربنا) جهرة فيخبرنا برسالته واتباعه (لقد استكبروا فى أنفسهم) اى اضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد فى قلوبهم (وعتوا) وتجاوزوا الحد فى الظلم (عتوا كبيرا) وصف العتو بالكبر فبالغ فى افراطه اى انهم لم يجسروا على هذا القول العظيم الا انهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو واللام فى لقد جواب قسم محذوف (يوم يرون الملائكة) اى يوم الموت او يوم البعث ويوم منصوب بما دل عليه (لا بشرى) اى يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى وقوله (يومئذ) مؤكد ليوم يرون او باضمار اذكر اى اذكر يوم يرون الملائكة ثم أخبر فقال لا بشرى بالجنة يومئذ ولا ينتصب بيرون عليه لان المضاف اليه لا يعمل فى المضاف ولا بيشرى لانها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله ولان المنفى بلا لا يعمل فيما قبل لا (للمجرمين) ظاهر فى موضع ضمير او عام يتناولهم بعمومه وهم الذين اجترموا الذنوب والمراد الكافرون لان مطلق الاسماء يتناول أكمل المسميات (و يقولون) اى الملائكة (حجرا محجورا) حراما محرما عليكم البشرى اى جعل الله ذلك حراما عليكم انما البشرى للمؤمنين والحجر مصدر والكسر والفتح لغتان وقرئ بهما وهو من حجره اذا منعه وهو من المصادر المنصوبة بافعال متروك اظهارها ومحجورا تأكيد معنى الحجر كما قالوا موت مائت (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) هو صفة ولا قدوم هنا ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التى عملوها فى كفرهم من صلة رحم واغاثة ملهوف وقرى ضيف ونحو ذلك بحال من خالف سلطانه وعصاه فقدم الى اشيائه وقصد الى

الله تعالى على رسله فلا وجه لهذا الطعن وما أنا الا رسول وما كنت بدعا من الرسل وهم كانوا بشرا مثلى يأكلون الطعام و يمشون فى الاسواق (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) اى بلية قال ابن عباس اى جعلنا بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم وتتبعوا أنتم الهدى قيل نزلت فى ابتلاء الشريف بالوضيع وذلك ان الشريف اذا أراد أن يسلم رأى الوضيع قد أسلم قبله فانف وقال أسلم بعده فيكون له السابقة والفضل على فيقيم على كفره و يمتنع من الاسلام فذلك افتتان بعضهم ببعض وقيل نزلت فى أبى جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وائل السهمى والنضر بن الحرث وذلك انهم رأوا الاقرع وابن مسعود وعمار بن ياسر و بلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة وذويهم قد أسلموا قبلهم فقالوا لو اسلم فنكون مثل هؤلاء وقيل نزلت فى ابتلاء فقراء المسلمين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون انظروا الى هؤلاء الذين تبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم من موالينا وأراذلنا فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين (أتصبرون) اى على هذه الحالة من الفقر والشدة والاذى وقيل ان الغنى فتنة الفقير يقول مالى لم أكن مثله والصحيح فتنة المريض والشريف فتنة الوضيع (وكان ربك بصيرا) اى بمن صبر وبمن جزع (ق) عن ابى هريرة يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه بالمال والجسم فلينظر الى من هو دونه فى المال والجسم لفظ البخارى ولمسلم انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) اى لا يخافون البعث والرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة (لولا أنزل علينا الملائكة) فتخبرنا ان محمدا صادق (أو نرى ربنا) فيخبرنا بذلك (لقد استكبروا) اى تعظموا (فى أنفسهم) بهذه المقالة (وعتوا عتوا كبيرا) اى طغوا وقيل عتوا فى القول وهو أشد الكفر والفحش وعتوهم طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به قوله تعالى (يوم يرون الملائكة) اى عند الموت وقيل يوم القيامة (لا بشرى يومئذ للمجرمين) وذلك ان الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة و يقولون للكفار لا بشرى لكم وقيل لا بشارة لهم بالجنة كما بشر المؤمن (و يقولون حجرا محجورا) قال ابن عباس تقول الملائكة حراما محرما ان يدخل الجنة الا من قال لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل اذا خرج الكفار من قبورهم تقول لهم الملائكة حراما محرما عليكم ان تكون لكم البشرى وقيل هذا قول الكفار للملائكة وذلك ان العرب كانت اذا نزلت بهم شدة ورأوا ما يكرهون قالوا الحجر محجورا فهم يقولون ذلك اذا عاينوا الملائكة * قوله عز وجل (وقدمنا الى ما عملوا من عمل) يعنى من أعمال البر التى عملوها فى حال الكفر (فجعلناه هباء منثورا) اى باطلا لا ثواب له لانهم لم يعملوه لله عز وجل ومنه الحديث الصحيح كل عمل ليس

تحت يديه فافسدها ومزقها كل ممزق ولم يترك لها أثرا والهباء ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيها بالغبار والمنثور المفرق وهو
استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع ثم بين فضل أهل الجنة على أهل النار فقال (أصحاب الجنة يومئذ خير
مستقرا) تمييز والمستقر المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم يتجالسون ويتحادثون (وأحسن مقيلا) مكانا يأوون اليه للاستراحة
الى أزواجهم ولا نوم في الجنة ولكنه سمي مكان استراحتهم الى الحور مقيلا على طريق ٣٨١ التشبيه وروى انه يفرغ من الحساب

عليه أمرنا فهو رد والهباء هو ما يرى في الكوة كالغبار اذا وقعت الشمس فيها فلا يمس بالايدي ولا يرى في
الظل والمنثور المفرق قال ابن عباس هو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر وقيل هو
ما بسط من حوافر الدواب عند السير من الغبار قوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ) اى يوم القيامة (خير
مستقرا) اى من هؤلاء المشركين المستكبرين (وأحسن مقيلا) اى موضع القائلة وذلك ان أهل الجنة
لا يمر بهم يوم القيامة الا قدر من أول النهار الى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة قال ابن
مسعود لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار والقيلولة
الاستراحة نصف النهار وان لم يكن مع ذلك نوم لان الله تعالى قال وأحسن مقيلا والجنة لا نوم فيها قال
ابن عباس الحساب في ذلك اليوم في أوله ويروى ان يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين
العصر الى غروب الشمس قوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) اى عن الغمام وهو غمام ابيض
مثل الضبابة ولم يكن الا لبني اسرائيل في تيههم (ونزل الملائكة تنزيلا) قال ابن عباس تشق السماء
الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الارض من الانس والجن ثم تشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم
أكثر ممن في السماء الدنيا ومن الجن والانس ثم كذلك حتى تشق السماء السابعة وأهل كل سماء
يزيدون على أهل السماء التي تليها ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش (الملك يومئذ الحق للرحمن) اى
الملك الذي هو الملك حقا ملك الرحمن يوم القيامة قال ابن عباس يريد ان يوم القيامة لا ملك يقضي غيره
(وكان يوما على الكافرين عسيرا) اى شديدا وفيه دليل على انه لا يكون على المؤمنين عسيرا وجاء في
الحديث انه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا قوله
تعالى (ويوم يعض الظالم على يديه) أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط وذلك انه كان لا يقدم من سفر الا صنع
طعاما ودعا اليه اشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم فقدم ذات يوم من سفر فصنع
طعاما ودعا الناس اليه ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد ان لا اله الا الله وانى رسول الله فقال عقبة أشهد ان لا اله الا الله وان
محمدا رسول الله فاكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه وكان عقبة صديقا لابي بن خلف فلما أخبر
ابي بن خلف قال له يا عقبة صبأت قال لا والله ما صبأت ولكن دخل على رجل فأبى ان يأكل طعامي الا
ان أشهد له فاستحييت ان يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم فقال ما انا الذي أرضى عنك أبدا الا ان
تأتيه فتبزق في وجهه ففعل ذلك عقبة فقال عليه الصلاة والسلام لا أراك خارجا من مكة الا علوت رأسك
بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبرا وأما أبي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد وقيل لما
بزق عقبة في وجه النبي صلى الله عليه وسلم عاد بزاقه في وجهه فاحترق خداه فكان أثر ذلك في وجهه
حتى قتل وقيل كان عقبة بن ابي معيط خليل أمية بن خلف فاسلم عقبة فقال له أمية وجهي من وجهك
حرام ان تابعت محمدا فكفر وارتد فانزل الله فيه ويوم يعض الظالم يعني عقبة بن أبي معيط بن أمية بن
عبد شمس بن عبد مناف على يديه اى ندما وأسفا على ما فرط في جنب الله واوبق نفسه بالمعصية والكفر

في نصف ذلك اليوم فيقيل
اهل الجنة في الجنة واهل
النار في النار وفي لفظ
الاحسن تهكم بهم (ويوم)
واذكر يوم (تشقق
السماء) والاصل تتشقق
فحذف التاء كوفي وابو
عمرو وغيرهم أدغمها في
الشين (بالغمام) لما
كان انشقاق السماء
بسبب طلوع الغمام منها
جعل الغمام كانه الذي
تشقق به السماء كما تقول
شققت السنام بالشفرة
فانشق بها (ونزل الملائكة
تنزيلا) وتنزل الملائكة
مكي وتنزيلا على هذا مصدر
من غير لفظ الفعل والمعنى
ان السماء تنفتح بغمام
أبيض يخرج منها وفي
الغمام الملائكة ينزلون
وفي أيديهم صحائف أعمال
العباد (الملك) مبتدأ
(يومئذ) ظرفه (الحق)
نعته ومعناه الثابت لان
كل ملك يزول يومئذ فلا
يبقى الا ملكه (للرحمن)
خبره (وكان) ذلك اليوم
(يوما على الكافرين
عسيرا) شديدا يقال

عسر عليه فهو عسير وعسر ويفهم منه يسره على المؤمنين ففي الحديث يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخف من
صلاة مكتوبة صلوها في الدنيا (ويوم يعض الظالم على يديه) عض اليدين كناية عن الغيظ والحسرة لانه من روادفها فتذكر الرادفة
ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه واللام
في الظالم للعهد واريد به عقبة لما نبين او للجنس فيتناول عقبة وغيره من الكفار

(يقول ياليتني اتخذت) في الدنيا (مع الرسول) محمد عليه الصلاة والسلام (سبيلا) طريقا الى النجاة والجنة وهو الايمان (ياويلتا) وفرئ ياويلتى بالياء وهو الاصل لان الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالى فهذا اوانك وانما قلبت الياء الفا كما في صحاري ومدارى (ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) فلان كناية عن الاعلام فان أريد بالظالم عقبة لما روى انه اتخذ ضيافة فدعا اليها رسول الله عليه الصلاة والسلام فابى ان يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل فقال له ابي بن خلف وهو خليله وجهي من وجهك حرام الا ان ترجم فارتد فالمعنى ياليتني لم اتخذ أبيا خليلا فكنى عن اسمه وان أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم لاجله فجعله كناية عنه وقيل هو كناية عن الشيطان (لقد أضلني عن الذكر) اى عن ذكر الله او القرآن او الايمان (بعد اذ جاءني) من الله (وكان الشيطان) اى خليله سماه شيطانا لانه أضله كما يضله الشيطان او ابليس لانه الذي حمله على مخالة المضل ومخالفة الرسول (للانسان) المطيع له (خذولا) ٣٨٢ هو مبالغة من الخذلان اى من عادة الشيطان ترك من يواليه وهذا حكاية كلام الله او كلام الظالم (وقال الرسول) اى محمد عليه الصلاة والسلام في الدنيا (يارب ان قومي) قريشا (اتخذوا هذا القرآن مهجورا) متروكا اى تركوه ولم يؤمنوا به من الهجران وهو مفعول ثان لاتخذوا وفي هذا تعظيم للشكاية وتخويف لقومه لان الانبياء اذا شكوا اليه قومهم حل بهم العذاب ولم ينظروا ثم أقبل عليه مسليا ووعده النصرة عليهم فقال (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا) اى كذلك كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفاك بي هاديا الى طريق قهرهم والانتصار منهم وناصرا لك عليهم والعدو يجوز ان يكون واحدا وجمعا والباء زائدة اى وكفى بربك هاديا وهو تمييز (وقال الذين كفروا) اى قريش او اليهود (لولا نزل عليه القرآن جملة) حال من القرآن اى مجتمعا (واحدة) يعنى هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة وماله أنزل على التفاريق وهو فضول من القول ومما راءة بما لا طائل تحته لان أمر الاعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة او متفرقا ونزل هنا بمعنى أنزل والا لكان متدافعا بدليل جملة واحدة وهذا اعتراض فاسد لانهم تحدوا بالاتيان بسورة واحدة من أصغر السور فابرز واصفحة عجزهم حتى لاذوا بالمناصبة وفزعوا الى المحاربة وبذلوا المهج وماموا الى الحجج (كذلك) جواب لهم اى كذلك أنزل مفرقا في عشرين سنة او في ثلاث وعشرين وذلك في كذلك اشارة الى مدلول قوله لولا نزل عليه القرآن جملة لان معناه لم انزل عليك القرآن مفرقا فاعلم ان ذلك (لنثبت به) بتفريقه (فؤادك) حتى تعيه وتحفظه لان المتلقن انما يقوى قلبه على حفظ العلم شيأ بعد شئ وجزأ عقيب جزء ولو ألقي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه اولنثبت به فؤادك عن الضجر بتواتر الوصول وتتابع الرسول لان قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب

لطاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه قال عطاء يأكل يديه حتى يبلغ مرفقيه ثم ينبتان ثم يأكلهما هكذا كلما نبتت يده أكلها على ما فعل نحسر اوندامة (يقول ياليتني اتخذت) اى في الدنيا (مع الرسول سبيلا) اى ليتني اتبعت محمدا صلى الله عليه وسلم واتخذت معه طريقا الى الهداية (ياويلتا) دعا على نفسه بالويل (ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) قيل يعني أبي بن خلف (لقد أضلني عن الذكر) اى عن الايمان والقرآن (بعد اذ جاءني) يعني الذكر مع الرسول صلى الله عليه وسلم (وكان الشيطان) وهو كل متمرد عات صد عن سبيل الله من الجن والانس (للانسان خذولا) اى كثير الخذلان يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب به وحكم الآية عام في كل خليلين ومتحابين اجتمعا على معصية الله (ق) عن ابي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك اما ان يحذيك واما ان تبتاع منه واما ان تجد منه ريحا طيبا ونافخ الكير اما ان يحرق ثيابك واما ان تجد منه ريحا خبيثة عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل اخرجه أبو داود والترمذي ولهما عن ابن سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصاحب الا مؤمنا ولا يأكل طعامك الا تقي * قوله عز وجل (وقال الرسول) يعني ويقول الرسول في ذلك اليوم (يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) اى متروكا واعرضوا عنه ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه وقيل جعلوه بمنزلة الهجر وهو السيئ من القول فزعموا انه سحر وشعر والمعنى ان محمدا صلى الله عليه وسلم يشكو قومه الى الله عز وجل يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا فعزاه الله تعالى فقال (وكذلك جعلنا) اى وكما جعلت لك أعداء من مشركي مكة وهم قومك كذلك جعلنا (لكل نبي عدوا من المجرمين) اى المشركين والمعنى لا يكبرن عليك ذلك فان الانبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم فصبروا فاصبر أنت كما صبروا فانى ناصرك وهاديك وهو قوله تعالى (وكفى بربك هاديا ونصيرا) قوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) اى كما انزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود صلوات الله عليهم أجمعين قال الله تعالى (كذلك) فعلنا ذلك (لنثبت به فؤادك) اى أنزلناه

(ورتلناه ترتيلا) معطوف على الفعل الذى تعلق به كذلك كانه قال كذلك فرقناه ورتلناه اى قدرناه آية بعد آية ووقفة بعد وقفة وامرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا اى اقرأه بترسل وتثبت او بيناه تبيينا والترتيل التبيين فى ترسل وتثبت (ولا يأتونك بمثل) بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كانه مثل فى البطلان (الا جئناك بالحق) الا أتيناك بالجواب الحق الذى لا محيد عنه (واحسن تفسيرا) وبما هو احسن معنى ومؤدى من مثلهم اى من سؤالهم وانما حذف من مثلهم لان فى الكلام دليلا عليه كما لو قلت رأيت زيدا وعمرا وان كان عمرو احسن وجها فيه دليل على انك تريد من زيد ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسيره هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا اولا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا نزل عليك القرآن جملة الا أعطيناك من الاحوال ما يحق لك فى حكمتنا ان تعطاه وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعنى ان تنزيله مفرقا وتحديهم بان يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شئ منها ادخل فى الاعجاز من ان ينزل كله جملة (الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم اولئك شر) الذين مبتدأ وأولئك مبتدأ ثان وشر خبر اولئك واولئك مع شر خبر الذين او التقدير هم الذين أو أعنى الذين واولئك مستأنف (مكانا) اى مكانة ومنزلة او مسكنا ومنزلا ٣٨٣ (واضل سبيلا) اى واخطأ طريقا وهو من الاسناد المجازى والمعنى ان حاملكم على هذه السؤالات انكم تضلون سبله وتحتقرون مكانه ومنزلته ولو نظرتم بعين الانصاف وانتم من الممحوين على وجوههم الى جهنم لعلمتم ان مكانكم شر من مكانه ومنزلة سبيلكم اضل من سبيله وفى طريقته قوله قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه الآية وعن النبى صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على ارجلهم وصنف على وجوههم قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم فقال عليه الصلاة والسلام الذى أمشاكم على اقدامكم يمشيهم على وجوههم (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة كما آتيناك القرآن (وجعلنا معه اخاه هرون) بدل او عطف بيان (وزيرا) هو فى اللغة من يرجع اليه من الوزر وهو الملجأ والوزارة لا تنافى النبوة فقد كان يبعث فى الزمن الواحد انبياء ويؤمرون بان يوازر بعضهم بعضا (فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا) الى فرعون وقومه وتقديره فذهبا اليهم وانذرا فكذبوهما (فدمرناهم تدميرا) التدمير الاهلاك بامر عجيب أراد اختصار القصة فذكر اولها وآخرها لانهما المقصود من القصة اعنى الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم (وقوم نوح) اى ودمرنا قوم نوح (لما كذبوا الرسل) يعنى نوحا وادريس وشيثا أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع (اغرقناهم) بالطوفان (وجعلناهم) وجعلنا اغراقهم او قصتهم (للناس آية) عبرة يعتبرون بها (واعتدنا) وهيأنا (للظالمين) لقوم نوح وأصله واعتدنا لهم الا انه اراد تظليمهم فاظهر او هو عام لكل من ظلم ظلم شرك وبثنا ولهم بعمومه (عذابا اليما) اى النار (وعادا) دمرنا عادا (وثمود) حمزة وحفص على تأويل القبيلة وغيرهما وثمودا على تأويل الحى اولانه اسم الاب الاكبر (واصحاب الرس) هم قوم شعيب كانوا يعبدون الاصنام فكذبوا شعيبا فبينما هم حول الرس وهى البئر غير مطوية انهارت بهم فخسف بهم وبديارهم وقيل الرس قرية قتلوا نبيهم فهلكوا وهم اصحاب الاخدود والرس الاخدود

مفرقا لنقوى به قلبك فتعيه وتحفظه فان الكتب المتقدمة نزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤن وأنزلنا القرآن على نبى أمى لا يكتب ولا يقرأ ولان من القرآن الناسخ والمنسوخ ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور تحدث فى اوقات مختلفة ففرقناه ليكون أدعى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأيسر على العامل به (ورتلناه ترتيلا) قال ابن عباس وبيناه بيانا والترتيل التبيين فى ترسل وتثبت وقيل فرقناه تفريقا آية بعد آية (ولا يأتونك) يعنى يا محمد هؤلاء المشركون (بمثل) اى يضربونه لك فى ابطال أمرك (الا جئناك بالحق) اى بما ترد به ما جاؤا به من المثل وتبطله فسمى ما يوردون من الشبه مثلا وسمى ما يدفع به الشبه حقا (وأحسن تفسيرا) اى أحسن بيانا وتفصيلا ثم ذكر ما آل هؤلاء المشركين فقال تعالى (الذين) اى هم الذين (يحشرون) اى يساقون ويجرون (على وجوههم الى جهنم اولئك شر مكانا) اى منزلا ومصيرا (وأضل سبيلا) اى اخطأ طريقا قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا) اى معينا وظهيرا (فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعنى القبط (فدمرناهم) فيه اضمار اى فكذبوهما فدمرناهم (تدميرا) أى اهلكناهم اهلاكا (وقوم نوح لما كذبوا الرسل) اى رسولهم ومن كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل فلذلك ذكره بلفظ الجمع (اغرقناهم وجعلناهم للناس آية) اى عبرة لمن بعدهم (واعتدنا للظالمين) فى الآخرة (عذابا اليما) اى سيرى ما حل بهم من عاجل العذاب فى الدنيا (وعادا وثمود) اى أهلكنا عادا وثمود (وأصحاب الرس) قال وهب بن منبه كان أهل بئر الرس نزولا عليها وكانوا أصحاب مواش يعبدون الاصنام فبعث الله اليهم شعيبا يدعوهم الى الاسلام فتمادوا فى طغيانهم وآذوا شعيبا فبينما هم حول البئر فى منازلهم انهارت البئر

(وقرونا) وأهلكنا أمما (بين ذلك) المذكور (كثيرا) لا يعلمها الا الله ارسل اليهم فكذبوهم فاهلكوا (وكلا ضربنا له الامثال) بينا القصص العجيبة من قصص الاولين (وكلا تبرنا تتبيرا) اى اهلكنا اهلا كا وكلا الاول منصوب بما دل عليه ضربنا له الامثال وهو انذرنا او حذرنا والثانى بتبرنا لانه فارغ له (ولقد اتوا) يعنى اهل مكة (على القرية) سدوم وهى اعظم قرى قوم لوط وكانت خمسا اهلك الله اربعا مع اهلها وبقيت واحدة (التى امطرت مطر السوء) اى امطر الله عليها الحجارة يعنى ان قريشا مروا مرارا كثيرة فى متاجرهم الى الشام على تلك القرية التى اهلكت بالحجارة من السماء ومطر السوء مفعول ثان والاصل امطرت القرية مطرا والمصدر محذوف الزوائد اى امطار السوء (أفلم يكونوا يرونها) اما شاهدوا ذلك بابصارهم عند سفرهم الشام فيتفكروا فيؤمنوا (بل كانوا لا يرجون نشورا) كانوا قوما كفرة بالبعث لا يخافون بعثا فلا يؤمنون أو لا يأملون نشورا كما يأمله المؤمنون لطمعهم فى الوصول الى ثواب أعمالهم (واذا رأوك ان يتخذونك) ان نافية ٣٨٤ (الا هزوا) اتخذه هزؤا فى معنى استهزأ به والاصل اتخذه موضع هزء او مهزوا به (أهذا الذى

وخسف بهم وبديارهم وزباعهم وقيل الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله وقال سعيد بن جبير كان نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله وقيل الرس بأنطاكية قتلوا فيها حبيب النجار وهم الذين ذكرهم الله فى سورة يس وقيل هم أصحاب الأخدود والرس الاخدود (وقرونا بين ذلك كثيرا) اى وأهلكنا قرونا كثيرا بين عاد وثمود وأصحاب الرس (وكلا ضربنا له الامثال) اى فى الآيات فى اقامة الحجة عليهم فلم نهلكهم الا بعد الانذار (وكلا تبرنا تتبيرا) اى أهلكناهم اهلا كا قوله تعالى (ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء) يعنى الحجارة وهى قريات قوم لوط وهى خمس قرى أهلك الله منها أربعا وبقيت واحدة وهى أصغرها وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث (أفلم يكونوا يرونها) يعنى اذا مروا بها فى اسفارهم فيعتبروا ويتعظوا الآن مدائن قوم لوط كانت على طريقهم فى ممرهم الى الشام (بل كانوا لا يرجون نشورا) اى لا يخافون بعثا قوله تعالى (واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا) نزلت فى أبى جهل كان اذا مر مع أصحابه قال مستهزئا (أهذا الذى بعث الله رسولا ان كاد ليضلنا) اى قد قارب ان يضلنا (عن) عبادة (آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) اى على عبادتها والمعنى لولم نصبر عليها الصرفنا عنها (وسوف يعلمون حين يرون العذاب) اى فى الآخرة عيانا (من أضل سبيلا) اى أخطأ طريقا (أرأيت من اتخذ الهه هواه) وذلك ان الرجل من المشركين كان يعبد حجرا فاذا رأى حجرا أحسن منه رماه وأخذ الاحسن منه وعبده وقال ابن عباس أرأيت من ترك عبادة الله خالقه ثم هوى حجرا فعبده ما حاله عندى وقيل الهوى اله يعبد (أفأنت تكون عليه وكيلا) اى حافظا تحفظه من اتباع الهوى وعبادة ما يهوى من دون الله والمعنى لست كذلك وقال الكلبى نسختها آية القتال (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون) اى ما تقول سماع طالب الافهام (او يعقلون) اى ما يعاينون من الحجج والاعلام وهذه المذمة اعظم من التى تقدمت لانهم لشدة عنادهم لا يسمعون القول واذا سمعوه لا يتفكرون فيه فكانهم لا سمع لهم ولا عقل البتة فعند ذلك شبههم بالانعام فقال تعالى (ان هم) اى ما هم (الا كالانعام) اى فى عدم انتفاعهم بالكلام وعدم اقدامهم على التدبر والتفكر ثم قال تعالى (بل هم أضل سبيلا) لان البهائم تهتدى

محكى بعد القول المضمر وهذا استصغار واستهزاء اى قائلين اهذا الذى (بعث الله رسولا) والمحذوف حال والعائد الى الذى محذوف اى بعثه (ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة وهو دليل على فرط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعوتهم وعرض المعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم ان يتركوا دينهم الى دين الاسلام لولا فرط مجاهدتهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم (وسوف يعلمون حين يرون العذاب) هو وعيد ودلالة على انهم لا يفوتونه وان طالت مدة الامهال (من أضل سبيلا) هو كالجواب عن قولهم ان كاد ليضلنا لانه نسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى الضلال اذ لا يضل غيره الا من هو ضال فى نفسه (أرأيت من اتخذ الهه هواه) اى من أطاع هواه فيما يأتى ويذر فهو عابد هواه وجاعله الهه فيقول الله تعالى لرسوله هذا الذى لا يرى معبودا الا هواه كيف تستطيع ان تدعوه الى الهدى يروى ان الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر فاذا مر بحجر أحسن منه ترك الاول وعبد الثانى وعن الحسن هو فى كل متبع هواه (أفأنت تكون عليه وكيلا) اى حفيظا تحفظه من متابعة هواه وعبادة ما يهواه أفأنت تكون عليه موكلا فتصرفه عن الهوى الى الهدى عرفه أن اليه التبليغ فقط (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا) أم منقطعة معناه بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التى تقدمتها حتى حقت بالاضراب عنها اليها وهى كونهم مسلوبى الاسماع والعقول لانهم لا يلقون الى استماع الحق اذنا ولا الى تدبره عقلا ومشبهين بالانعام التى هى مثل فى الغفلة والضلالة فقد ركبهم الشيطان بالاستزلال لتركهم الاستدلال ثم هم أربح ضلالة منها لان الانعام تسبح ربها وتسجد له وتطيع من يعلفها وتعرف من يحسن اليها ممن يسىء اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها

لمراعيها

وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذى هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والعذب الروى وقالوا الملائكة روح وعقل والبهائم نفس وهوى والآدمى مجمع الكل ابتلاء فان غلبته النفس والهوى فضلته الانعام وان غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام وانما ذكر الاكثر لان فيهم من لم يصده عن الاسلام الاحب الرياسة وكفى به داء عضالا ولان فيهم من آمن (الم تر الى ربك) ألم تنظر الى صنع ربك وقدرته (كيف مد الظل) اى بسطه فعم الارض وذلك من حين طلوع الفجر الى وقت طلوع الشمس فى قول الجمهور لانه ظل ممدود لاشمس معه ولا ظلمة وهو كما قال فى ظل الجنة وظل ممدود اذ لا شمس معه ولا ظلمة (ولو شاء لجعله ساكنا) اى دائما لا يزول ولا تذهبه الشمس (ثم جعلنا الشمس عليه) على الظل (دليلا) لانه بالشمس يعرف الظل ولولا الشمس لما عرف الظل فالاشياء تعرف باضدادها (ثم قبضناه) اى أخذنا ذلك الظل الممدود (الينا) الى حيث أردنا (قبضا يسيرا) سهلا غير عسير أو قليلا قليلا اى جزأ فجزأ بالشمس التى تأتى عليه وجاء بثم لتفاضل ما بين الامور فكأن الثانى أعظم من الاول والثالث اعظم من الثانى شبه تباعد

ما بينهما فى الفضل بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت (وهو الذى جعل لكم الليل لباسا) جعل الظلام الساتر كاللباس (والنوم سباتا) راحة لابدانكم وقطعا لاعمالكم والسبت القطع والنائم مسبوت لانه انقطع عمله وحركته وقيل السبات الموت والمسبوت الميت لانه مقطوع الحياة وهو كقوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعضده ذكر النشور فى مقابلته (وجعل النهار نشورا) اذ النشور انبعاث من النوم كنشور الميت اى ينشر فيه الخلق للمعاش وهذه الآية مع دلالتها

ماراعيها ومشاربها وتنقاد لاربابها الذين يتعاهدونها وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحق ولا يطيعون ربهم الذى خلقهم ورزقهم ولان الانعام تسجد وتسبح والكفار لا يفعلون ذلك قوله تعالى (الم تر الى ربك كيف مد الظل) هو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس جعله ممدودا لانه ظل لا شمس معه (ولو شاء لجعله ساكنا) اى دائما ثابتا لا يزول ولا تذهبه الشمس (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) معنى دلالتها عليه انه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة والاشياء تعرف باضدادها (ثم قبضناه) يعنى الظل (الينا قبضا يسيرا) اى بالشمس التى تأتى عليه والمعنى ان الظل يعم جميع الارض قبل طلوع الشمس فاذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزأ فجزأ قبضا خفيفا (وهو الذى جعل لكم الليل لباسا) اى سترا تستترون به والمعنى ان ظلمة الليل تغشى كل شئ كاللباس الذى يشتمل على لابسه (والنوم سباتا) اى راحة لابدانكم وقطعا لاعمالكم (وجعل النهار نشورا) اى يقظة وزمانا تنتشرون فيه لابتغاء رزقكم وطلب الاشتغال (وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) يعنى المطر (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) الطهور هو الطاهر فى نفسه المطهر لغيره فهو اسم لما يتطهر به بدليل ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته اخرجه ابو داود والترمذى والنسائى وأراد به المطر والماء المطهر لانه يطهر الانسان من الحدث والنجاسة فثبت ان التطهير مختص بالماء وذهب اصحاب الرأى الى ان الطهور هو الطاهر حتى جوزوا ازالة النجاسة بالمائعات الطاهرة مثل الخل والريق ونحوها ولو جاز ازالة النجاسة بها لجاز ازالة الحدث بها وذهب بعضهم الى ان الطهور ما تكرر منه التطهير وهو قول مالك حتى جوز الوضوء بالماء اذا توضئ به مرة وان وقع فى الماء شئ غير طعمه او لونه او ريحه هل تزول طهوريته نظر ان كان الواقع شيأ لا يمكن صون الماء عنه كالطين والتراب وأوراق الاشجار فيجوز الطهارة به كما لو تغير بطول المكث فى قراره وكذلك لو وقع فيه ما لا يختلط كالدهن يصب فيه فيترقرق الماء بر أسه تجوز الطهارة به لان تغيره للمجاورة لا للمخالطة وان كان شيأ يمكن صون الماء

على قدرة الخالق فيها الاظهار لنعمته على خلقه لان فى الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية وفى النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر وقال لقمان لابنه كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر (وهو الذى أرسل الرياح) الريح مكى والمراد به الجنس (بشرا) تخفيف بشر جمع بشور (بين يدى رحمته) اى قدام المطر لانه ريح ثم سحاب ثم مطر وهذه استعارة مليحة (وأنزلنا من السماء ماء) مطرا (طهورا) بليغا فى طهارته والطهور صفة كقولك ماء طهور أى طاهر واسم كقولك لما يتطهر به طهور كالوضوء والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار ومصدر بمعنى التطهر كقولك تطهرت طهورا حسنا ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا صلاة الا بطهور أى بطهارة وما حكى عن ثعلب هو ما كان طاهرا فى نفسه مطهرا لغيره وهو مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ان كان هذا زيادة بيان الطهارة فحسن ويعضده قوله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به والا فليس فعول من التفعيل فى شئ وقياسه على ما هو مشتق من الافعال المتعدية كقطوع ومنوع غير سديد لان بناء الفعول للمبالغة فان كان الفعل متعديا فالفعول متعد وان كان لازما فلازم

(لنحيي به) بالمطر (بلدة ميتا) ذكر ميتا على ارادة البلد أو المكان (ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا) اى ونسقى الماء البهائم والناس ومما خلقنا حال من انعاما وأناسي اى انعاما وأناسي مما خلقنا وسقى وأسقى لغتان وقرأ المفضل والبرجمي ونسقيه والاناسي جمع انسي على القياس ككرسي وكراسي وانسان وأصله اناسين كسرحان وسراحين فابدلت النون ياء وأدغمت وقدم احياء الارض على سقي الانعام والاناسي لان حياتها سبب لحياتهما وتخصيص الانعام من الحيوان الشارب لان عامة منافع الاناسي متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقي الانعام كالانعام بسقيهم وتنكير الانعام والاناسي ووصفها بالكثرة لان أكثر الناس منيخرون

بالقرب من الاودية والانهار فهم غنية عن سقي السماء واعقابهم وبقاياهم وهم كثير يعيشون بما ينزل الله من رحمته وتنكير البلدة لانه يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان الماء ولما كان سقي الاناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهورا كراما لهم وبيان ان من حقهم ان يؤثروا الطهارة في بواطنهم وظواهرهم لان الطهورية شرط الاحياء (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا) ليذكروا حجة وعلى ويزيد ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب المنزلة على الرسل وهو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه فيشكروا (فأبى أكثر الناس الا كفورا) فابى اكثرهم الا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها اوصرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والاوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل ووجود ورذاذ وديمة فابوا الا الكفور وان يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله تعالى ورحمته وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما من عام أقل مطرا من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء وقرأ الآية وروى ان الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لانه لا يختلف ولكن يختلف فيه البلاد وينتزع من هنا جواب في تنكير البلدة والانعام والاناسي ومن نسب الامطار الى الانواء وجحد ان تكون هي والانواء من خلق الله تعالى كفر وان رأى ان الله تعالى خالقها وقد نصب الانواء امارات ودلالات عليها لم يكفر (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا)

عنه ومخالطته كالخل والزعفران ونحوهما تزول طهوريته فلا يجوز الوضوء به وان لم يتغير أحد أوصافه نظر ان كان الواقع شيأ طاهرا لا يزيل طهوريته يجوز الوضوء به سواء كان الماء قليلا او كثيرا وان كان الواقع شيأ نجسا نظر فيه فان كان الماء أقل من قلتين نجس الماء وان كان قدر قلتين فاكثر فهو طاهر يجوز الوضوء به والقلتان خمسمائة رطل بالبغدادي يدل عليه ما روى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سئل عن الماء يكون في الفلاة ترده السباع والدواب فقال اذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث اخرجه ابو داود والترمذي وهذا قول الشافعي وأحمد واسحق وجماعة من اهل الحديث ان الماء اذا بلغ هذا الحد لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير أحد أوصافه وذهب جماعة الى ان الماء القليل لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير طعمه اولونه اوريحه وهذا قول الحسن وعطاء والنخعي والزهري واحتجوا بما روى عن أبي سعيد الخدري قال قيل يا رسول الله انه يستقى لك من بئر بضاعة ويلقى فيها لحوم الكلاب وخرق الحيض وعذر الناس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الماء طهور لا ينجسه شئ وفي رواية قال قلت يا رسول الله أيتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر تطرح فيها خرق الحيض ولحوم الكلاب والنتن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الماء طهور لا ينجسه شئ وقوله تعالى (لنحيي به) اى بالمطر (بلدة ميتا) قيل أراد به موضع البلدة (ونسقيه مما خلقنا) اى نسقي من ذلك الماء (أنعاما وأناسي كثيرا) اى بشرا كثيرا والاناسي جمع أنسي وقيل جمع انسان * قوله عز وجل (ولقد صرفناه بينهم) يعني المطر مرة ببلدة ومرة ببلدة أخرى وقال ابن عباس ما عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الارض وقرأ هذه الآية وهذا كما روى مرفوعا ما من ساعة من ليل ولا نهار الا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث شاء وروى عن ابن مسعود يرفعه قال ليس من سنة بأمطر من سنة أخرى ولكن الله عز وجل قسم هذه الارزاق فجعلها في هذه السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم واذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك الى غيرهم واذا عصوا جميعا صرف الله ذلك المطر الى الفيافي والبحار وقيل المراد من تصريف المطر تصريفه وابلا وطشا ورذاذا ونحوها وقيل التصريف راجع الى الريح (ليذكروا) اى ليتذكروا ويتفكروا في قدرة الله تعالى (فأبى أكثر الناس الا كفورا) اى جحودا وكفرهم هو انهم اذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا (ق) عن زيد بن خالد الجهني انه قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال اصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فاما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب قوله تعالى (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) اى رسولا ينذرهم ولكن بعثناك الى القرى كلها

فلا تطع الكافرين) اى لو شئنا لخففنا عنك اعباء نذارة جميع القرى ولبعثنا فى كل قرية نبيا ينذرها ولكن شئنا ان نجمع لك فضائل جميع المرسلين بالرسالة الى كافة العالمين فقصرنا الامر عليك وعظمنا لك به فتكون وحدك كلهم ولذا خوطب بالجمع يا أيها الرسل فقابل ذلك بالشكر والصبر والتشدد ولا تطع الكافرين فيما يدعونك اليه من موافقتهم ومداهنتهم وكما آثرتك على جميع الانبياء فآثر رضاى على جميع الاهواء وأريد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم (وجاهدهم به) اى بالله يعنى بعونه وتوفيقه او بالقرآن اى جادلهم به وقرعهم بالعجز عنه (جهادا كبيرا) عظيما موقعه عند الله لما يحتمل فيه من المشاق ويجوز ان يرجع الضمير فى به الى ما دل عليه ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا من كونه نذيرا كافة القرى لانه لو بعث فى كل قرية نذير لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له وجاهدهم بسبب كونك نذيرا كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة (وهو الذى مرج البحرين) خلاهما متجاورين متلاصقين تقول مرجت الدابة اذا خليتها ترعى وسمى الماءين الكثيرين الواسعين بحرين (هذا) اى أحدهما (عذب فرات) صفة لعذب اى شديد العذوبة حتى يقرب الى الحلاوة (وهذا ملح أجاج) صفة للملح اى شديد الملوحة (وجعل بينهما برزخا) حائلا من قدرته يفصل بينهما ٣٨٧ ويمنعهما التمازج فهما فى الظاهر مختلطان وفى الحقيقة منفصلان (وحجرا محجورا) وسترا ممنوعا عن الاعين كقوله حجابا مستورا (وهو الذى خلق من الماء) اى النطفة (بشرا) انسانا (فجعله نسبا وصهرا) أراد تقسيم البشر قسمين ذوى نسب اى ذكورا ينسب اليهم فيقال فلان ابن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر اى أناثا يصاهر بهن كقوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى (وكان ربك قديرا) حيث خلق من النطفة

كلها وجلنا لك ثقل النذارة لتستوجب بصبرك ما اعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة (فلا تطع الكافرين) فيما يدعونك اليه من موافقتهم ومداهنتهم (وجاهدهم به) اى بالقرآن (جهادا كبيرا) اى شديدا قوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين) اى خلطهما وأفاض احدهما على الآخر وقيل أرسلهما فى مجاريهما (هذا عذب فرات) اى شديد العذوبة يميل الى الحلاوة (وهذا ملح أجاج) اى شديد الملوحة وقيل مر (وجعل بينهما برزخا) اى حاجزا بقدرته فلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب (وحجرا محجورا) اى سترا ممنوعا فلا يبغى أحدهما على الآخر ولا يفسد الملح العذب قوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء) اى من النطفة (بشرا فجعله نسبا وصهرا) اى جعله ذا نسب وصهر وقيل النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه والنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها وقيل النسب من القرابة والصهر الخلطة التى تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح وقد حرم الله بالنسب سبعا وبالسبب سبعا ويجمعها قوله حرمت عليكم أمهاتكم الآية وقد تقدم تفسير ذلك وبيانه فى تفسير سورة النساء (وكان ربك قديرا) على ما اراد حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والانثى (ويعبدون من دون الله) يعنى هؤلاء المشركين (ما لا ينفعهم) اى ان عبدوه (ولا يضرهم) اى ان تركوه (وكان الكافر على ربه ظهيرا) اى معينا أعان الشيطان على ربه بالمعاصى لان عبادتهم الاصنام معاونة للشيطان وقيل معنى ظهيرا هينا ذليلا من قولك ظهرت بفلان اذا جعلته وراء ظهرك ولم تلتفت اليه وقيل اراد بالكافر أبا جهل والاصح انه عام فى كل كافر وقوله تعالى (وما أرسلناك الا مبشرا) اى بالثواب على الايمان والطاعة (ونذيرا) منذرا بالعقاب على الكفر والمعصية (قل) يا محمد (ما أسئلكم عليه) اى على تبليغ الوحى (من أجر) فتقولوا انما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا اليه فلا نتبعه (الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا) معناه

الواحدة بشرا نوعين ذكرا وأنثى وقيل فجعله نسبا اى قرابة وصهرا مصاهرة يعنى الوصلة بالنكاح من باب الانساب لان التواصل يقع بهما وبالمصاهرة لان التوالد يكون بهما (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم) ان عبدوه (ولا يضرهم) ان تركوه (وكان الكافر على ربه) على معصية ربه (ظهيرا) معينا ومظاهرا وفعيل بمعنى مفاعل غير عزيز والظهير والمظاهر كالعون والمعاون والمظاهرة المعاونة والمعنى ان الكافر بعبادة الصنم يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الرحمن (وما أرسلناك الا مبشرا) للمؤمنين (ونذيرا) منذرا للكافرين (قل ما أسئلكم عليه) على التبليغ (من أجر) جعل (الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا) والمراد الافعل من شاء واستثناؤه من الاجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك فى تحصيل مال ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت الا ان تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صوره بصورة الثواب كأنه يقول ان حفظت مالك اعتد حفظك بمنزلة الثواب لى ورضاى به كرضا المثاب بالثواب ولعمرى انه عليه الصلاة والسلام مع أمته بهذا الصدد ومعنى اتخاذهم الى الله سبيلا تقربهم اليه بالايمان والطاعة او بالصدقة والنفقة وقيل المراد لكن من شاء ان يتخذ بالانفاق الى رضاه سبيلا فليفعل وقيل تقديره لا أسألكم على ما ادعوكم اليه أجرا الا اتخاذ المدعو سبيلا الى ربه بطاعته فذلك أجرى لان الله يأجرنى عليه

(وتو كل على الحى الذى لايموت) اتخذ من لايموت وكيلا لايكلك الى من يموت ذليلا يعنى ثق به واسند أمرك اليه فى استكفاء شرورهم ولا تتكل على حى يموت وقرأها بعض الصالحين فقال لايصح لذى عقل ان يثق بعدها بمخلوق والتوكل الاعتماد عليه فى كل أمر (وسبح من ان يكل الى غيره من توكل عليه (بحمده) بتوفيقه الذى يوجب الحمد او قل سبحان الله وبحمده اونزهه عن كل العيوب بالثناء عليه (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) اى كفى الله خبيرا بذنوب عباده يعنى انه خبير باحوالهم كاف فى جزاء أعمالهم (الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام) اى فى مدة مقدارهذه المدة لانه لم يكن حينئذ ليل ونهار روى عن مجاهد اولها يوم الاحد وآخرها يوم الجمعة وانما خلقها فى ستة أيام وهو يقدر على ان يخلقها فى لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت (ثم استوى على العرش الرحمن) اى هو الرحمن فالرحمن خبر مبتدا محذوف او بدل من الضمير فى استوى او الذى خلق مبتدا والرحمن خبره (فاسئل) بلا همزة مكى وعلى (به صلة سل كقولك سأل سائل بعذاب واقع كما تكون عن صلة فى قوله تعالى ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم فسأل به كقولك اهتم به واشتغل به وسأل عنه كقولك بحث عنه وفتش عنه اوصلة (خبيرا) و يكون خبيرا مفعول سل اى فاسأل عنه رجلا عارفا يخبرك برحمته اوفاسأل رجلا خبيرا به وبرحمته اوالرحمن اسم من اسماء الله تعالى مذكور فى الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتب حتى تعرف من ينكره ومن ثم كانوا يقولون ما نعرف الرحمن الا الذى باليمامة يعنون مسيلمة وكان يقال له رحمن اليمامة (واذا قيل لهم) اى اذا قال محمد عليه الصلاة والسلام للمشركين (اسجدوا للرحمن) صلوا لله واخضعوا له (قالوا وما الرحمن) اى لانعرف الرحمن فنسجد له فهذا سؤال عن المسمى به لانهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم والسؤال عن المجهول بما اوعن معناه لانه لم يكن مستعملا فى كلامهم كما استعمل الرحيم والراحم والرحوم (أنسجد لما تأمرنا) للذى تأمرنا بالسجود له اولامرك بالسجود يا محمد من غير علم منا به يأمرنا على وحمزة كأن بعضهم قال لبعض انسجد لما يأمرنا محمد او يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو فقد عاندوا والا ان معناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التى لا غاية بعدها فى الرحمة لان فعلان من ابنية المبالغة تقول رجل عطشان اذا كان فى نهاية العطش (وزادهم) قوله اسجدوا للرحمن (نفورا) تباعدا عن الايمان (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) هى منازل الكواكب السيارة لكل كوكب بيتان يقوى حاله فيهما وللشمس بيت وللقمر بيت فالحمل والعقرب بيتا المريخ والثور والميزان بيتا الزهرة والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد والسرطان بيت القمر والاسد بيت الشمس والقوس والحوت بيتا المشترى والجدى والدلو بيتا زحل وهذه البروج مقسومة على الطبائع الاربع فيصيب كل واحد منها ثلاثة بروج فالحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور والسنبلة والجدى مثلثة أرضية والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية سميت المنازل بالبروج التى هى القصور العالية لانها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البروج من التبرج لظهوره وقال الحسن وقتادة ومجاهد البروج هى النجوم الكبار لظهورها

لكن من شاء ان يتخذ بانفاق ماله سبيلا الى ربه فعلى هذا يكون المعنى لا أسألكم لنفسى اجرا ولكن امنع من انفاق المال الا فى طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل الى جنته * قوله عز وجل (وتو كل على الحى الذى لايموت) معناه انه سبحانه وتعالى لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بان لا يطلب منهم أجرا البتة أمره ان يتوكل عليه فى جميع أموره وانما قال على الحى الذى لايموت لان من تو كل على حى يموت انقطع تو كله عليه بموته وأما الله سبحانه وتعالى فانه حى لايموت فلا ينقطع تو كل من تو كل عليه ولا يضيع البتة (وسبح بحمده) اى صل له شكرا على نعمه وقيل معناه قل سبحان الله والحمد لله (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) يعنى انه تعالى عالم بجميع ذنوب عباده فيجازيهم بها وقيل معناه انه لايحتاج معه الى غيره لانه خبير عالم قادر على مكافأتهم وفيه وعيد شديد كانه قال اذا قدمتم على مخالفة أمره كفا كم علمه فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة * قوله عز وجل (الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسئل به خبيرا) اى فاسأل الخبير بذلك يعنى بما ذكر من خلق السموات والارض والاستواء على العرش وقيل معناه أيها الانسان لاترجع فى طلب العلم بهذا الى غيرى وقيل معناه فاسأل عنه خبيرا وهو الله تعالى وقيل هو جبريل عليه السلام (واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) اى ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب كانوا يسمونه رحمن اليمامة (أنسجد لما تأمرنا) أنت يا محمد (وزادهم) اى قول القائل اسجدوا للرحمن (نفورا) اى عن الايمان والسجود

* (فصل وهذه السجدة من عزائم السجدات) * فيسن للقارئ والمستمع ان يسجد عند سماعها وقراءتها قوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) قيل البروج هى النجوم الكبار سميت بروجا لظهورها وقيل البروج قصور فيها الحرس وقال ابن عباس هى البروج الاثنا عشر التى هى منازل الكواكب السبعة السيارة وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس

(وجعل فيها) فى السماء (سراجا) يعنى الشمس لتوقدها سراجا حمزة وعلى اى نجوما (وقمرا منيرا) مضيئا بالليل (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) فعلة من خلف كالركبة من ركب وهى الحالة التى يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر والمعنى جعلهما ذوى خلفة يخلف أحدهما الآخر عند مضيه او يخلفه فى قضاء ما فاته من الورد (لمن أراد ان يذكر) يتدبر فى تسخيرهما واختلافهما فيعرف مدبرهما يذكر حمزة وخلف اى يذكر الله والمنسى فيقضى (او أراد شكورا) اى يشكر نعمة ربه عليه فيهما (وعباد الرحمن) مبتدا خبره (الذين يمشون) اولئك يجزون والذين يمشون وما بعدهما صفة والاضافة الى الرحمن للتخصيص والتفضيل وصف اولياءه بعد ما وصف اعداءه (على الارض هونا) حال اوصفة للمشى اى هينين اومشيا هينا والهون الرفق واللين اى يمشون بسكينة ووقار وتواضع دون مرح واختيال وتكبر فلا يضربون باقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ولذا كره بعض العلماء الركوب فى الاسواق ولقوله ويمشون فى الاسواق (واذا خاطبهم الجاهلون) اى السفهاء بما يكرهون (قالوا سلاما) سدادا

من القول يسلمون فيه من الاثم والافك او تسلما منكم نتارككم ولا نجاهلكم فالسلام مقام التسلم وقيل نسختها آية القتال ولا حاجة الى ذلك فالاغضاء عن السفهاء مستحسن شرعا ومروءة هذا وصف نهارهم ثم وصف ليلهم بقوله (والذين يبيتون لربهم سجدا) جمع ساجد (وقياما) جمع قائم والبيتوتة خلاف الظلول وهى ان يدركك الليل نمت اولم تنم وقالوا من قرأ شيأ من القرآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء والظاهر انه وصف لهم باحياء الليل او أكثره (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها

والقوس والجدى والدلو والحوت سميت بالبروج التى هى القصور العالية لانها للكواكب كالمنازل لسكانها (وجعل فيها سراجا) يعنى الشمس (وقمرا منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) قال ابن عباس معناه خلفا وعوضا يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله فى أحدهما قضاه فى الآخر قال شقيق جاء رجل الى عمر بن الخطاب قال فاتتنى الصلاة الليلة قال ادرك ما فاتك من ليلتك فى نهارك فان الله تعالى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر وقيل جعل كل واحد منهما مخالفا لصاحبه فجعل هذا أسود وهذا أبيض وقيل يخلف أحدهما صاحبه اذا ذهب هذا جاء هذا فهما يتعاقبان فى الضياء والظلمة والزيادة والنقصان (لمن أراد ان يذكر) ان يتذكر ويتعظ (أو أراد شكورا) يعنى شكر نعمة ربه عليه فيهما * قوله عز وجل (وعباد الرحمن) قيل هذه الاضافة للتخصيص والتفضيل والا فالخلق كلهم عباد الله (الذين يمشون على الارض هونا) يعنى بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين بل علماء حكماء أصحاب وقار وعفة (واذا خاطبهم الجاهلون) يعنى السفهاء بما يكرهونه (قالوا سلاما) اى سدادا من القول يسلمون فيه لا يسفهون وان سفه عليهم حلموا ولم يجهلوا وليس المراد منه السلام المعروف وقيل هذا قبل ان يؤمروا بالقتال ثم نسختها آية القتال ويروى عن الحسن البصرى انه كان اذا قرأ هذه الآية قال هذا وصف نهارهم ثم اذا قرأ (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) قال هذا وصف ليلهم والمعنى يبيتون لربهم فى الليل بالصلاة سجدا على وجوههم وقياما على أقدامهم قال ابن عباس من صلى بعد العشاء الاخيرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدا وقائما (م) عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء فى جماعة كان كقيام نصف الليل ومن صلى الفجر فى جماعة كان كقيام ليله * قوله عز وجل (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما) اى ملحا دائما لازما غير مفارق من عذب من الكفار قال محمد بن كعب القرظى سأل الله الكفار ثمن نعمته فلم يؤدوه فاغرمهم فبقوا فى النار وقال كل غريم مفارق غريمه الا جهنم وقيل الغرام الشر اللازم والهلاك الدائم (انها) يعنى جهنم (ساءت) بئست (مستقرا ومقاما) اى موضع قرار واقامة (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) قيل الاسراف النفقة فى معصية الله وان قلت والاقتار منع حقوق

كان غراما) هلا كا لازما ومنه الغريم لملازمته وصفهم باحياء الليل ساجدين قائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه ايذانا بانهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون متضرعون الى الله فى صرف العذاب عنهم (انها ساءت مستقرا ومقاما) اى ان جهنم وساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها او بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم ان ومستقرا حال او تمييز ويصح ان يكون التعليلان متداخلين ومترادفين وان يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا) لم يجاوزوا الحد فى النفقة اولم يأكلوا للتنعم ولم يلبسوا للتصلف وعن ابن عباس رضى الله عنهما لم ينفقوا فى المعاصى فالاسراف مجاوزة القدر وسمع رجل رجلا يقول لا خير فى الاسراف فقال لا اسراف فى الخير وقال عليه الصلاة والسلام من منع حقا فقد قتر ومن أعطى فى غير حق فقد اسرف (ولم يقتروا) بضم التاء كوفى وبضم الياء وكسر التاء مدنى وشامى وبفتح الياء وكسر التاء مكى وبصرى والقتر والاقتار والتقتير التضييق الذى هو نقيض الاسراف

(وكان) انفاقهم (بين ذلك) اى الاسراف والاقتار (قواما) اى عدلا بينهما فالقوام العدل بين الشيئين والمنصوبان اى بين ذلك قواما خبران وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر عليه الصلاة والسلام ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك الآية وسأل عبد الملك بن مروان عمر بن عبد العزيز عن نفقته حين زوجه ابنته فقال الحسنة بين السيئتين فعرف عبد الملك انه أراد ما فى هذه الآية وقيل أولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثيابهم للجمال والزينة ولكن لسد الجوعة وستر العورة ودفع الحر والقر وقال عمر رضى الله عنه كفى سرفا ان لا يشتهى الرجل شيأ الا أكله (والذين لا يدعون مع الله الها آخر) اى لا يشركون (ولا يقتلون ٣٩٠ النفس التى حرم الله) اى حرمها يعنى حرم قتلها (الا بالحق) بقود او رجم أو ردة او شرك اوسعى فى الارض بالفساد وهو متعلق بالفعل المحذوف او بلا يقتلون (ولا يزنون) ونفى هذه الكبائر عن عباده الصالحين تعريض لما كان عليه اعداؤهم من قريش وغيرهم كأنه قيل والذين طهرهم الله مما أنتم عليه (ومن يفعل ذلك) اى المذكور (يلق اثاما) جزاء الاثم (يضاعف) بدل من يلق لانهما فى معنى واحد اذ مضاعفة العذاب هى لقاء الاثام كقوله

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا * تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

فجزم تلمم لانه بمعنى تأتنا اذ الاتيان هو الالمام يضعف مكى ويزيد ويعقوب يضعف شامى يضاعف أبو بكر على الاستئناف او على الحال ومعنى يضاعف (له العذاب يوم القيامة) اى يعذب على مرور الايام فى الآخرة عذابا على عذاب وقيل اذا ارتكب المشرك معاصى مع الشرك عذب على الشرك والمعاصى جميعا فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه (ويخلد) جزمه جازم يضاعف ورفعه رافعه لانه معطوف عليه (فيه) فى العذاب فيهى مكى وحفص بالاشباع وانما خص حفص الاشباع بهذه الكلمة مبالغة فى الوعيد والعرب تمد للمبالغة مع ان الاصل فى هاء الكناية الاشباع (مهانا) حال اى ذليلا (الا من تاب) عن الشرك وهو استثناء من الجنس فى موضع النصب (وآمن) بمحمد عليه الصلاة والسلام (وعمل عملا صالحا) بعد توبته (فاولئك يبدل الله سيآتهم حسنات) اى يوفقهم للمحاسن بعد القبائح او يمحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات الايمان والطاعة ولم يرد به ان السيئة بعينها حسنة ولكن المراد ما ذكرنا يبدل مخففا البرجمى (وكان الله غفورا) يكفر السيئات (رحيما) يبدلها بالحسنات

الله تعالى وهو قول ابن عباس وقيل الاسراف مجاوزة الحد فى الانفاق حتى يدخل فى حد التبذير والاقتار التقصير عما لا بد منه وهو ان لا يجمع عياله ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد اسرف (وكان بين ذلك قواما) اى قصدا وسطا بين الاسراف والاقتار وحسنة بين السيئتين قيل هذه الآية فى صفة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون الطعام للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ومن الثياب ما يسترون به العورة ويقيهم من الحر والبرد قال عمر بن الخطاب كفى سرفا ان لا يشتهى الرجل شيأ الا اشتراه فاكله (والذين لا يدعون مع الله الها آخر) (ق) عن ابن عباس ان اناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فاكثروا وزنوا فاكثروا فاتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ان الذى تقول وتدعونا اليه لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزل والذين لا يدعون مع الله الها آخر (ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون) ونزل قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله (ق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رجل يا رسول الله اى الذنب أكبر عند الله قال ان تدعو لله ندا وهو خلقك قال ثم اى قال ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك قال ثم اى قال ان تزانى حليلة جارك فانزل الله تعالى تصديقه والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون (ومن يفعل ذلك يلق أثاما) اى ومن يفعل شيأ من ذلك يلق أثاما قال ابن عباس انما يريد جزاء الاثم وقيل عقوبة وقيل الاثام واد فى جهنم ويروى فى الحديث ان الغى والاثام بئران فى جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار (يضاعف له العذاب يوم القيامة) وسبب تضعيف العذاب ان المشرك اذا ارتكب المعاصى مع الشرك يضاعف له العذاب على شركه ومعصيته (ويخلد فيه مهانا) اى ذليلا قوله تعالى (الا من تاب) اى عن ذنبه (وآمن) اى برب (وعمل عملا صالحا) اى فيما بينه وبين ربه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قرأناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنين والذين لا يدعون مع الله الها آخر الآية ثم نزلت الا من تاب فما رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فرح بشئ قط مثل ما فرح بها وفرحه بانا فقهنا لذلك فقها مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وقوله تعالى (فاولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) قال ابن عباس يبدلهم الله بقبائح أعمالهم فى الشرك محاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا وقيل يبدل الله سيآتهم التى عملوها فى الاسلام حسنات يوم القيامة (م) عن ابى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لاعلم

(ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا) اى ومن تاب وحقق التوبة بالعمل الصالح فانه يتوب بذلك الى الله تعالى متابا مرضيا عنده مكفر اللخطايا محصلا للثواب (والذين لا يشهدون الزور) اى الكذب يعنى ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يقربونها تنزها عن مخالطة الشر وأهله اذ مشاهدة الباطل شركة فيه وكذلك النظارة الى ما لم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه فى الآثام لان حضورهم ونظرهم دليل الرضا وسبب وجود الزيادة فيه وفى مواعظ عيسى عليه السلام اياكم ومجالسة الخاطئين أولا يشهدون شهادة الزور على حذف المضاف وعن قتادة المراد مجالس الباطل وعن ابن الحنفية ٣٩١ لا يشهدون اللهو والغناء (واذا مروا باللغو) بالفحش وكل ما ينبغى أن يلغى ويطرح والمعنى واذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به (مروا كراما) معرضين مكرمين أنفسهم عن التلوث به كقوله واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وعن الباقر رضى الله عنه اذا ذكروا الفروج كنوا عنها (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم) اى قرئ عليهم القرآن او وعظوا بالقرآن (لم يخروا عليها صما وعميانا) هذا ليس بنفى الخرور بل هو اثبات له ونفى الصمم والعمى ونحوه لا يلقانى زيد مسلما هو نفى للسلام لا للقاء يعنى انهم اذا ذكروا بها خروا سجدا وبكيا سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية لما أمروا به ونهوا عنه لا كالمنافقين وأشباههم دليله قوله

آخر اهل الجنة دخولا الجنة وآخر اهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغارها فيقال له عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع ان ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه ان تعرض عليه فيقال له ان لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا قال فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه وقيل ان الله تعالى يمحو بالندم جميع السيآت ثم يثبت مكان كل سيئة حسنة (ومن تاب وعمل صالحا) قيل هذا فى التوبة من غير ما سبق ذكره فى الآية الاولى من القتل والزنا ومعناه ومن تاب من الشرك وعمل صالحا يعنى أدى الفرائض ممن لم يقتل ولم يزن (فانه يتوب الى الله) اى يعود اليه بعد الموت (متابا) اى حسنا يفضل على غيره ممن قتل وزنى فالآية الاولى وهى قوله ومن تاب رجوع عن الشرك والثانية رجوع الى الله للجزاء والمكافأة وقيل هذه الآية ايضا فى التوبة عن جميع السيآت ومعناه من أراد التوبة وعزم عليها فليتب الى الله فقوله يتوب الى الله خبر بمعنى الامر اى تب الى الله وقيل معناه فليعلم ان توبته ومصيره الى الله تعالى * قوله تعالى (والذين لا يشهدون الزور) يعنى الشرك وقيل هى شهادة الزور (ق) عن أبى بكرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول الله قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال الا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ويسخم وجهه ويطوف به فى الاسواق وقيل لا يشهدون الزور يعنى أعياد المشركين وقيل الكذب وقيل النوح وقيل لا يساعد أهل الباطل على باطلهم وقيل الزور اللهو واللعب والغناء قال ابن مسعود الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء الزرع وأصل الزور حقيقة تحسين الشئ ووصفه بخلاف صفته فهو تمويه الباطل بما يوهم انه حق (واذا مروا باللغو) هو كل ما يجب أن يلغى ويترك (مروا كراما) يعنى اذا سمعوا من الكفار الشتم والاذى اعرضوا وصفحوا فعلى هذا التفسير تكون الآية منسوخة بآية القتال وقيل اللغو المعاصى كلها والمعنى اذا مروا بمجالس اللهو والباطل مروا كراما أى مسرعين معرضين وهو ان ينزه المرء نفسه ويكرمها عن هذه المجالس السيئة (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) قيل معناه انه ليس فيه نفى الخرور انما هو اثبات له ونفى الصمم والعمى والمعنى اذا ذكروا بها أكبوا على استماعها بآذان واعية واقبلوا على الذكر بها بعيون مبصرة راعية وقيل معناه لم يخروا اى لم يسقطوا ولم يقعوا عليها صما وعميانا كأنهم بآذانهم صمم وبأعينهم عمى بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيه فيثبعونه قوله عز وجل (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) أى ابرارا أتقياء صالحين فيقرون

تعالى ومن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا) من للبيان كأنه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا (وذرياتنا) ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرة أعين وهو من قولهم رأيت منك أسدا اى أنت أسد أو للابتداء على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح وذرياتنا أبو عمرو وكوفى غير حفص لارادة الجنس وغيرهم ذرياتنا (قرة اعين) وانما نكر لاجل تنكير القرة لان المضاف لا سبيل الى تنكيره الا بتنكير المضاف اليه كأنه قال هب لنا منهم سرورا وفرحا وانما قيل أعين على القلة دون عيون لان المراد أعين المتقين وهى قليلة بالاضافة الى عيون غيرهم قال الله تعالى وقليل من عبادى الشكور ويجوز أن يقال فى تنكير أعين انها أعين خاصة وهى أعين المتقين والمعنى انهم سألوا

ربهم أن يرزقهم أزواجا وأعقابا عمالا لله تعالى يسرون بمكانهم وتقر بهم عيونهم وقيل ليس شئ أقر لعين المؤمن من ان يرى زوجته واولاده مطيعين لله تعالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو الولد اذا رآه يكتب الفقه (واجعلنا للمتقين اماما) اى ائمة يقتدون بنا فى الدين فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس او واجعل كل واحد منا اماما قيل فى الآية ما يدل على ان الرياسة فى الدين يجب ان تطلب ويرغب فيها (اولئك يجزون الغرفة) اى الغرفات وهى العلالى فى الجنة فوحد اقتصارا على الواحد الدال على الجنس دليله قوله وهم فى الغرفات آمنون (بما صبروا) اى بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات وعلى اذى الكفار ومجاهدتهم وعلى الفقر وغير ذلك (ويلقون فيها) ويلقون كوفى غير حفص (تحية) دعاء بالتعمير (وسلاما) ودعاء بالسلامة يعنى ان الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم او يحيى بعضهم بعضا ويسلم عليه (خالدين فيها) حال (حسنت) اى الغرفة (مستقرا ومقاما) موضع قرار واقامة وهى فى مقابلة ساءت مستقرا ومقاما (قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) ما متضمنة لمعنى الاستفهام وهى فى محل النصب ومعناه ما يصنع بكم ربى لولا دعاؤه اياكم الى الاسلام او لولا عبادتكم له اى انه خلقكم لعبادته كقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون اى الاعتبار عند ربكم لعبادتكم او ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة وهو كقوله تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم (فقد كذبتم) رسولى يا أهل مكة (فسوف يكون) العذاب (لزاما) اى ذا لزام او ملازما وضع مصدر لازم موضع اسم الفاعل وقال الضحاك ما يعبأ ما يبالى بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه الها آخر

أعيننا بذلك قيل ليس شئ أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل فيطمع أن يحلوا معه فى الجنة فيتم سروره وتقر عينه بذلك وقيل ان العرب تذكر قرة العين عند السرور والفرح وسخنة العين عند الغم والحزن ويقال دمع العين عند السرور والفرح بارد وعند الحزن حار وقيل معنى قرة العين أن يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه به عن النظر الى غيره (واجعلنا للمتقين اماما) اى ائمة يقتدون فى الخير بنا وقيل معناه نقتدى بالمتقين وتقتدى بنا المتقون وقال ابن عباس اجعلنا أئمة هدى وقيل معناه انهم سألوا الله أن يبلغهم فى الطاعات المبلغ الذى يشار اليهم فيه ويقتدى بهم قال بعضهم فيه دليل على ان الرياسة فى الدين مطلوبة مرغوب فيها وقيل هذا من المقلوب معناه واجعل المتقين لنا اماما واجعلنا مقتدين مؤتمين بهم (اولئك يجزون) اى يثابون (الغرفة) الدرجة العالية الرفيعة فى الجنة وقيل يريد غرف الدر والزبرجد واللؤلؤ والياقوت فى الجنة (بما صبروا) اى على طاعة الله تعالى وأوامره وعلى أذى المشركين وقيل بما صبروا عن الشهوات (ويلقون فيها تحية) اى ملكا وقيل بقاء دائما (وسلاما) اى يسلم بعضهم على بعض او يرسل الرب عز وجل اليهم بالسلام وقيل سلاما اى سلامة من الآفات قوله تعالى (خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) اى موضع قرار واقامة قوله تعالى (قل ما يعبأ بكم ربى) اى ما يصنع وما يفعل بكم فوجودكم وعدمكم سواء وقيل معناه اى وزن ومقدار لكم عنده (لولا دعاؤكم) اياه قيل معناه لولا عبادتكم اياه وقيل لولا ايمانكم وقيل لولا دعاؤه اياكم الى الايمان فاذا آمنتم ظهر لكم عنده قدر وقيل معناه ما يعبأ بخلقكم ربى لولا عبادتكم وطاعتكم والمعنى انه خلقكم لطاعته وعبادته وهذا قول ابن عباس وقيل معنى ما يعبأ اى ما يبالى بمغفرتكم ربى لولا دعاؤكم معه آلهة وقيل معناه ما خلقتكم ولى اليكم حاجة الا أن تسألونى فأعطيكم وتستغفرونى فأغفر لكم (فقد كذبتم) أيها الكافرون يخاطب أهل مكة يعنى ان الله دعاكم الى توحيده وعبادته على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذبتم الرسول ولم تجيبوه الى الايمان (فسوف يكون لزاما) هذا تهديد لهم اى يكون تكذيبهم لزاما قال ابن عباس موتا وقيل هلاكا وقيل قتالا والمعنى يكون التكذيب لازما لمن كذب فلا يعطى التوبة حتى يجازى بعمله وقيل معناه عذابا دائما وهلاكا لازما لمن كذب مفنيا يلحق بعضكم بعضا وقيل هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون وهو قول عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب يعنى انهم قتلوا يوم بدر واتصل بهم عذاب الآخرة لازما لهم (ق) عن عبد الله بن مسعود قال خمس قد مضين الدخان واللزام والروم والبطشة والقمر وفى رواية الدخان والقمر والروم واللزام والبطشة والله سبحانه وتعالى أعلم

(تفسير سورة الشعراء)

وهى مكية الا أربع آيات من آخر السورة من قوله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون وهى مائتان وسبع وعشرون آية وألف ومائتان وتسع وسبعون كلمة وخمسة آلاف وخمسمائة وأربعون حرفا روى عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى عليه الصلاة والسلام

(سورة الشعراء) مكية وهى مائتان وعشرون وسبع آيات

(بسم الله الرحمن الرحيم) (طسم) طس ويس وحم عسق كوفى غير الاعشى والبرجمى وحفص ويظهر النون عند الميم يزيد وحمزة وغيرهما يدغمها (تلك آيات الكتاب المبين) الظاهر اعجاز وصحة انه من عند الله والمراد به السورة او القرآن والمعنى آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين (لعلك باخع) قاتل ولعل للاشفاق (نفسك) من الحزن يعنى اشفق على نفسك ان تقتلها حسرة وحزنا على مافاتك من اسلام قومك (ألا يكونوا مؤمنين) لئلا يؤمنوا أولامتناع ايمانهم او خيفة أن لا يؤمنوا (ان نشأ) ايمانهم (تنزل عليهم من السماء آية) دلالة واضحة (فظلت) اى فتظل لان الجزاء يقع فيه لفظ الماضى فى معنى المستقبل تقول ان زرتنى اكرمتك اى أكرمك كذا قاله الزجاج (أعناقهم) رؤساؤهم ومقدموهم اوجماعاتهم ٣٩٣ يقال جاءنا عنق من الناس لفوج

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (طسم) قال ابن عباس طسم عجزت العلماء عن علم تفسيرها وفى رواية أخرى عنه انه قسم وهو من أسماء الله تعالى وقيل اسم من أسماء القرآن وقيل اسم السورة وقيل اقسم بطوله وسنائه وملكه (تلك آيات) اى هذه الآيات (الكتاب المبين) قيل لما كان القرآن فيه دلائل التوحيد والاعجاز الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل الاحكام أجمع ثبت بذلك أن آيات القرآن كافية مبينة لجميع الاحكام (لعلك باخع نفسك) اى قاتل نفسك (ألا يكونوا مؤمنين) اى ان لم يؤمنوا وذلك حين كذبه أهل مكة فشق عليه ذلك وكان يحرص على ايمانهم فانزل الله عز وجل هذه الآية (ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) اى لو شاء الله لانزل عليهم آية يذلون منها فلا يلوى احد منهم عنقه الى معصية الله سبحانه وتعالى وقيل معناه لو شاء الله لاراهم امرا من امره لا يعمل احد منهم بعده معصية فان قلت كيف صح مجىء خاضعين خبرا عن الاعناق قلت أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الاعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله أو لما وصفت بالخضوع الذى هو للعقلاء قيل خاضعين وقيل اعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم اى فظلت كبراؤهم لها خاضعين وقيل اراد بالاعناق الجماعات يقال جاء عنق من الناس اى جماعة قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن) اى وعظ وتذكير (محدث) اى محدث انزاله فهو محدث التنزيل وكلما نزل شئ من القرآن بعد شئ فهو أحدث من الاول (الا كانوا عنه معرضين) اى عن الايمان به (فقد كذبوا فسيأتيهم) اى فسوف يأتيهم (أنباء) اى اخبار وعواقب (ما كانوا به يستهزؤن أولم يروا الى الارض) يعنى المشركين (كم أنبتنا فيها) اى بعد أن لم يكن فيها نبات (من كل زوج كريم) اى جنس ونوع وصنف حسن من النبات مما يأكل الناس والانعام وقال الشعبى الناس نبات الارض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم (ان فى ذلك) اى الذى ذكر (لآية) تدل على انه واحد اى دلالة على كمال قدرتنا وتوحيدنا كما قيل

وفى كل شئ له آية * تدل على انه واحد

(وما كان أكثرهم مؤمنين) اى سبق علمى فيهم ان أكثرهم لا يؤمنون ولا يصدقون (وان ربك لهو العزيز) اى المنتقم من اعدائه (الرحيم) ذو الرحمة لاوليائه قوله تعالى (واذ نادى) اى واذكر يا محمد اذ نادى (ربك موسى) اى حين رأى الشجرة والنار (أن ائت القوم الظالمين) يعنى الذين ظلموا أنفسهم

منهم (لها خاضعين) منقادين وعن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فينا وفى بنى أمية فتكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا اعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوان بعد عزة (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين) اى وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيرا الا جددوا اعراضا عنه وكفرا به (فقد كذبوا) محمدا صلى الله عليه وسلم فيما أتاهم به (فسيأتيهم) فسيعلمون (أنباء) اخبار (ما كانوا به يستهزؤن) وهذا وعيد لهم وانذار بانهم سيعلمون اذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ما الشئ الذى كانوا يستهزؤن به وهو القرآن وسيأتيهم انباؤه واحواله التى كانت خافية عليهم (أولم يروا الى الارض كم أنبتنا) كم نصب

بانبتنا (فيها من كل زوج) صنف من النبات (كريم) محمود كثير المنفعة يأكل منه الناس والانعام كالرجل الكريم الذى نفعه عام وفائدة الجمع بين كلمتى الكثرة والاحاطة ان كلمة كل تدل على الاحاطة بازواج النبات على سبيل التفصيل وكم تدل على ان هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة وبه نبه على كمال قدرته (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) اى ان فى انبات تلك الاصناف لآية على ان منبتها قادر على احياء الموتى وقد علم الله ان اكثرهم مطبوع على قلوبهم غير مرجى ايمانهم (وان ربك لهو العزيز) فى انتقامه من الكفرة (الرحيم) لمن آمن منهم ٣ وآية مع الاخبار بكثرتها لان ذلك مشار به الى مصدر أنبتنا والمراد ان فى كل واحد من تلك الازواج لآية اى آية (واذ) مفعول به اى اذكر اذ (نادى) دعا (ربك موسى أن ائت) أن بمعنى اى (القوم الظالمين) انفسهم بالكفر وبنى اسرائيل بالاستعباد وذبح الاولاد وتعجيل عليهم بالظلم ثم عطف

٣ قوله وآية كذا بالاصل ولعله سقط منه وافرده او نحو ذلك اه

(قوم فرعون) عليهم عطف البيان كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكانهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد (الا يتقون) اى انتهم زاجرا فقد آن لهم أن يتقوا وهى كلمة حث واغراء ويحتمل انه حال من الضمير فى الظالمين اى يظلمون غير متقين الله وعقابه فادخلت همزة الانكار على الحال (قال رب انى أخاف) الخوف غم يلحق الانسان لامر سيقع (ان يكذبون و يضيق صدرى) بتكذيبهم اياى مستأنف اوعطف على اخاف (ولا ينطلق لسانى) بان تغلبنى الحمية على ما أرى من المحال واسمع من الجدال و بنصبهما يعقوب عطفا على يكذبون فالخوف متعلق بهذه الثلاثة على هذا التقدير و بالتكذيب وحده بتقدير الرفع (فأرسل الى هرون) اى أرسل اليه جبريل واجعله نبيا يعيننى على الرسالة وكان هرون بمصر حين بعث موسى نبيا بالشام ولم يكن هذا الالتماس من موسى عليه السلام توقفا فى الامتثال بل التماس عون ٣٩٤ فى تبليغ الرسالة وتمهيد العذر فى التماس المعين على تنفيذ الامر ليس بتوقف فى امتثال الامر وكنى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل (ولهم على ذنب) اى تبعة ذنب بقتل القبطى فحذف المضاف اوسمى تبعة الذنب ذنبا كما سمى جزاء السيئة سيئة (فأخاف أن يقتلون) اى يقتلونى به قصاصا وليس هذا تعللا ايضا بل استدفاع للبلية المتوقعة وفرق من ان يقتل قبل اداء الرسالة ولذا وعده بالكلاءة والدفع بكلمة الردع و جمع له الاستجابتين معا فى قوله (قال كلا فاذهبا) لانه استدفعه بلا هم فوعده الله الدفع بردعه عن الخوف والتمس منه رسالة اخيه فأجابه بقوله اذهبا اى جعلته رسولا معك فاذهبا وعطف فاذهبا على الفعل الذى يدل عليه كلا كأنه قيل ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهرون (بآياتنا) مع آياتنا وهى اليد والعصا وغير ذلك (انا معكم) اى معكما بالعون والنصرة ومع من أرسلتما اليه بالعلم والقدرة (مستمعون) خبر لان ومعكم لغوا وهما خبران اى سامعون والاستماع فى غير هذا الاصغاء للسماع يقال استمع فلان حديثه اى اصغى اليه ولا يجوز حمله ههنا على ذلك فحمل على السماع (فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين) لم يثن الرسول كما ثنى فى قوله انا رسولا ربك لان الرسول يكون بمعنى المرسل و بمعنى الرسالة فجعل ثمة بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته و جعل هنا بمعنى الرسالة فيستوى فى الوصف به الواحد والتثنية والجمع ولانهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعة واحدة كأنهما رسول واحد او أريد ان كل واحد منا (أن أرسل) بمعنى اى أرسل لتضمن الرسول معنى الارسال وفيه معنى القول (معنا بنى اسرائيل) يريد خلهم يذهبوا معنا الى فلسطين وكانت مسكنهما فاتيا بابه فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا انسانا يزعم انه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك منه فأديا اليه الرسالة فعرف فرعون موسى فعند ذلك

بالكفر والمعاصى وظلموا بنى اسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب (قوم فرعون) يعنى القبط (الا يتقون) اى يصرفون عن انفسهم عقوبة الله بطاعته والايمان به (قال) يعنى موسى (رب) اى يا رب (انى أخاف أن يكذبون و يضيق صدرى) اى بتكذيبهم اياى (ولا ينطلق لسانى) اى للعقدة التى كانت على لسانه (فأرسل الى هرون) ليوازرنى و يعيننى على تبليغ الرسالة (ولهم على ذنب) اى دعوى ذنب وهو قتله القبطى (فأخاف أن يقتلون) اى به (قال) الله تعالى (كلا) اى لن يقتلوك (فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون) اى سامعون ما تقولون وما يقال لكم فان قلت كيف ذكرهم بلفظ الجمع فى قوله معكم وهما اثنان قلت اجراهما مجرى الجماعة وهو جائز فى لغة العرب (فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين) فان قلت هلا ثنى الرسول كما فى قوله فأتياه فقولا انا رسولا ربك قلت الرسول قد يكون بمعنى المرسل و بمعنى الرسالة فجعله ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته و جعله هنا بمعنى الرسالة فجاز التسوية فيه اذا وصف به الواحد والتثنية والجمع والمعنى انا ذوا رسالة كما قال كثير

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم * بشئ ولا ارسلتهم برسول

اى برسالة وقيل انهما لاتفاقهما فى الرسالة والشريعة والاخوة فصارا كأنهما رسول واحد وقيل كل واحد منا رسول رب العالمين (أن أرسل معنا بنى اسرائيل) اى خلهم واطلقهم معنا الى ارض فلسطين ولا تستعبدهم وكان فرعون قد استعبدهم اربعمائة سنة وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة الف وثلاثين الفا فانطلق موسى برسالة ربه الى مصر وهرون بها فأخبره بذلك * وفى القصة ان موسى رجع الى مصر وعليه جبة صوف وفى يده عصاه والمكتل معلق فى رأس العصا وفيه زاده فدخل دار نفسه واخبر هرون ان الله قد ارسلنى الى فرعون وارسل اليك تدعو فرعون الى الله تعالى فخرجت أمهما فصاحت وقالت ان فرعون يطلبك ليقتلك فاذا ذهبت اليه قتلك فلم يمتنع لقولها وذهبا الى باب فرعون وذلك بالليل فدقا الباب ففزع البوابون وقالوا من بالباب فقال أنا موسى رسول رب العالمين فذهب البواب الى فرعون وقال ان مجنونا بالباب يزعم انه رسول رب العالمين فترك حتى أصبح ثم دعاهما وقيل انهما انطلقا جميعا الى فرعون فلم يؤذن لهما سنة فى الدخول ثم دخل البواب فقال لفرعون ههنا انسان يزعم انه رسول رب العالمين فقال فرعون ائذن له لعلنا نضحك منه فدخلا على فرعون وأديا رسالة الله تعالى فعرف فرعون موسى

(قال ألم نربك فينا وليدا) وانما حذف فأتيا فرعون فقالا اختصارا والوليد الصبي لقرب عهده من الولادة اى ألم تكن صغيرا فربيناك (ولبثت فينا من عمرك سنين) قيل ثلاثين سنة (وفعلت فعلتك التي فعلت) يعني قتل القبطي فعرض اذ كان ملكا (وأنت من الكافرين) بنعمتي حيث قتلت خبازي او كنت على ديننا الذي تسميه كفرا وهذا افتراء منه عليه لانه معصوم من الكفر وكان يعايشهم بالتقية (قال فعلتها اذا) اى اذ ذاك (وأنا من الضالين) الجاهلين بانها تبلغ القتل والضال عن الشئ هو الذاهب عن معرفته او الناسين من قوله ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى فدفع وصف الكفر عن نفسه و وضع الضالين موضع الكافرين واذا جواب و جزاء معا وهذا الكلام وقع جوابا لفرعون وجزاء له لان قول فرعون وفعلت فعلتك معناه انك ٣٩٥ جازيت نعمتي بما فعلت فقال له موسى نعم فعلتها مجازيا لك تسليما لقوله لان نعمته كانت جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء (ففررت منكم) الى مدين (لما خفتكم) ان تقتلوني وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج الآية (فوهب لي ربي حكما) نبوة وعلما فزال عني الجهل والضلالة (وجعلني من المرسلين) من جملة رسله (وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل) كر على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من اصله وابى ان تسمى نعمة لانها نقمة حيث بين ان حقيقة انعامه عليه تعبيد بني اسرائيل لان تعبيدهم وقصدهم بذبح ابنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته ولو تركهم لرباه ابواه فكأن

موسى لانه نشأ في بيته فـ(قال) له (ألم نربك فينا وليدا) اى صبيا (ولبثت فينا من عمرك سنين) اى ثلاثين سنة (وفعلت فعلتك التي فعلت) يعني قتلت القبطي (وأنت من الكافرين) قال أكثر المفسرين من الجاحدين لنعمتي وحق تربيتي يقول ربيناك فينا فكافأتنا أن قتلت منا نفسا وكفرت نعمتنا وهي رواية عن ابن عباس قال ان فرعون لم يكن يعلم الكفر بالربوبية ولان الكفر غير جائز على الانبياء لا قبل النبوة ولا بعدها وقيل معناه وأنت من الكافرين بفرعون والهيته (قال) يعني موسى (فعلتها اذا وأنا من الضالين) اى من الجاهلين بأن ذلك يؤدي الى قتله لان فعل الوكزة على وجه التأديب لا على وجه القتل وقيل من الضالين عن طريق الصواب وقيل من المخطئين (ففررت منكم) اى الى مدين (لما خفتكم فوهب لي ربي حكما) يعني النبوة وقيل العلم والفهم (وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل) اى اتخذتهم عبيدا قيل عدها موسى نعمة منه عليه حيث رباه ولم يقتله كما قتل ولدان بني اسرائيل ولم يستعبده كما استعبد بني اسرائيل فيكون معنى الآية وتلك نعمة تمنها علي ان عبدت بني اسرائيل وتركتني فلم تستعبدني وقيل هو على طريق الانكار ومعنى الآية أو تلك نعمة على طريق الاستفهام فحذف الالف كما قال عمر بن عبد الله بن ربيعة

لم أنس يوم الرحيل وقفتها * وطرفها من دموعها غرق
وقولها والركاب واقفة * تتركني هكذا وتنطلق

اى أتتركني والمعنى أتمن علي أن ربيتني وتنسى جنايتك على بني اسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة او يريد كيف تمن علي بالتربية وقد استعبدت قومي ومن أهين قومه فقد ذل فتعبد بني اسرائيل قد أحبط حسناتك الى ولو لم تستعبدهم ولم تقتل اولادهم لم ارفع اليك حتى تربيني وتكفلني ولكان لي من اهلي من يربيني ولم يلقوني في اليم (قال فرعون وما رب العالمين) يقول اى شئ رب العالمين الذي تزعم انك رسوله اى يستوصفه الهه الذي ارسله اليه وهو سؤال عن جنس الشئ والله تعالى منزه عن الجنسية والماهية فلهذا عدل موسى عن جوابه واجابه بذكر أفعاله وآثار قدرته التي تعجز الخلائق عن الاتيان بمثلها (قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين) انه خالقهما فاعرفوا انه لا يمكن تعريفه الا بما ذكرته لكم فان ايقنتم بذلك لزمكم ان تقطعوا انه لا جواب لكم عن هذا السؤال الا ما ذكرته من الجواب وقال اهل المعاني اى كما توقنون هذه الاشياء التي تعاينونها فايقنوا ان اله الخلق هو الله تعالى الذي خلقها وأوجدها فلما قال ذلك موسى تحير فرعون في جواب موسى (قال لمن حوله) اى من اشراف قومه قال

فرعون امتن علي موسى بتعبيد قومه واخراجه من حجر أبويه اذا حققت وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيدا و وحد الضمير في تمنها وعبدت و جمع في منكم وخفتكم لان الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله بدليل قوله ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك واما الامتنان فمنه وحده وكذا التعبيد وتلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ماهي الا بتفسيرها ومحل ان عبدت الرفع عطف بيان لتلك اى تعبيدك بني اسرائيل نعمة تمنها علي (قال فرعون وما رب العالمين) اى انك تدعي انك رسول رب العالمين فما صفته لانك اذا أردت السؤال عن صفة زيد تقول ما زيد بمعنى اطويل ام قصير افقيه أم طبيب نص عليه صاحب الكشاف وغيره (قال) موسى مجيبا له على وفق سؤاله (رب السموات والارض وما بينهما) اى وما بين الجنسين (ان كنتم موقنين) اى ان كنتم تعرفون الاشياء بالدليل فكفى خلق هذه الاشياء دليلا او ان كان يرجى منكم الايقان الذي يؤدي اليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب والا لم ينفع والايقان العلم الذي يستفاد بالاستدلال ولذا لا يقال الله موقن (قال) اى فرعون (لمن حوله) من اشراف قومه وهم خمسمائة

رجل عليهم الاسورة وكانت للملوك خاصة (ألا تستمعون) معجبا قومه من جوابه لانهم يزعمون قدمهما وينكرون حدوثهما وان لهما ربا فاحتاج موسى الى ان يستدل بما شاهد واحدوثه وفناءه فاستدل حيث (قال ربكم ورب آبائكم الاولين) اى هو خالقكم وخالق آبائكم فان لم تستدلوا بغيركم فبأنفسكم وانما قال رب آبائكم لان فرعون كان يدعى الربوبية على اهل عصره دون من تقدمهم (قال) اى فرعون (ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) حيث يزعم ان فى الوجود الها غيرى وكان فرعون ينكر الهية غيره (قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) فتستدلون بما أقول فتعرفون ربكم وهذا غاية الارشاد حيث عمم اولا بخلق السموات والارض وما بينهما ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لان اقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده الى وقت وفاته ثم خصص المشرق والمغرب لان طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر على تقدير مستقيم فى فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به واظهوره انتقل الى الاحتجاج به خليل الرحمن عن الاحتجاج بالاحياء والاماتة على نمرود بن كنعان وقيل سأله فرعون عن الماهية جاهلا عن حقيقة سؤاله فلما أجاب موسى بحقيقة الجواب وقع عنده ان موسى حاد عن الجواب حيث سأله عن الماهية وهو يجيب عن ربوبيته وآثار صنعه فقال معجبا لهم من جواب موسى (ألا تستمعون) فعاد موسى الى مثل قوله الاول فجننه فرعون زاعما انه حائد عن الجواب فعاد ثالثا الى مثل كلامه الاول مبينا ان الفرد الحقيقى انما يعرف بالصفات وان السؤال عن الماهية محال واليه الاشارة فى قوله تعالى ان كنتم تعقلون اى ان كان لكم عقل علمتم انه لا تمكن معرفته الا بهذا الطريق فلما تحير فرعون ولم يتهيأ له ان يدفع ظهور آثار صنعه (قال لئن اتخذت الها غيرى) اى غيرى الها (لاجعلنك من المسجونين) اى لاجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجونى وكان من عادته ان يأخذ من يريد سجنه فيطرحه فى هوة ذاهبة فى الارض بعيدة العمق فرد لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل وأشد ولو قيل لاسجننك لم يؤد هذا المعنى وان كان أخصر (قال أولو جئتك) الواو للحال دخلت عليها همزة الاستفهام اى أتفعل بى ذلك ولو جئتك (بشئ مبين) اى جائبا بالمعجزة (قال فأت به) بالذى يبين صدقك (ان كنت من الصادقين) ان لك بينة وجواب الشرط مقدر اى فاحضره (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين) ظاهر الثعبانية لا شئ يشبه الثعبان كما تكون الاشياء المزورة بالشعوذة والسحر روى ان العصا ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون وجعلت تقول يا موسى مرنى بما شئت ويقول فرعون اسألك بالذى أرسلك الا أخذتها فاخذها فعادت عصا (ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) فيه دليل على ان بياضها كان شيأ يجتمع النظارة على النظر اليه لخروجه عن العادة وكان بياضها نورا روى ان فرعون لما أبصر الآية الاولى قال فهل غيرها فاخرج يده فقال لفرعون ما هذه قال فرعون يدك فادخلها فى ابطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الابصار ويسد الافق (قال) اى فرعون (للملاحوله) هو منصوب نصبين نصب فى اللفظ والعامل فيه ما يقدر فى الظرف ونصب فى المحل وهو النصب على الحال من الملا اى كائنين حوله والعامل فيه قال (ان هذا لساحر عليم)

ابن عباس كانوا خمسمائة رجل عليهم الاسورة (ألا تستمعون) وانما قال فرعون ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى يعنى انى انما اطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة وهو يجيبنى بافعاله وآثاره وقيل انهم كانوا يعتقدون ان آلهتهم ملوكهم ثم زادهم موسى فى البيان (قال ربكم ورب آبائكم الاولين) يعنى ان موسى ذكر ما هو أقرب اليهم فقال ربكم يعنى انه خالقكم وخالق آبائكم الاولين (قال) يعنى فرعون (ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) يعنى المقصود من السؤال طلب الماهية وهو يجيب بالآثار الخارجة وهذا لا يفيد البتة فهذا الذى يدعى الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلا عن ان يجيب عنه ويتكلم بكلام لا نقبله ولا نعرف صحته وكان عندهم ان من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل فزاد فى البيان (قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) فعدل الى طريق ثالث اوضح من الثانى ومعنى ان كنتم تعقلون قد عرفتم انه لا جواب عن سؤالك الا ما ذكرت (قال) فرعون حين لزمته الحجة وانقطع عنه الجواب تكبرا عن الحق (لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين) قيل كان سجن فرعون أشد من القتل لانه كان يأخذ الرجل فيطرحه فى مكان يهوى فيه الى الارض وحده فردا لا يسمع ولا يبصر فيه (قال) له موسى حين توعده بالسجن (اولو جئتك بشئ مبين) اى بآية بينة والمعنى اتفعل ذلك ولو جئتك بحجة بينة وانما قال ذلك موسى لان من اخلاق الناس السكون الى الانصاف والاجابة الى الحق بالبيان (قال) يعنى فرعون (فأت به) اى ان الذى تسجنك حينئذ (ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين) قيل انها لما صارت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون فقال بالذى ارسلك الا أخذتها فاخذها موسى فعادت عصا كما كانت فقال وهل غيرها قال نعم وأراه يده ثم ادخلها فى جيبه ثم أخرجها فاذا هى بيضاء من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس وهو قوله (ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) فعند ذلك (قال) فرعون (للملاحوله ان هذا) يعنى موسى (لساحر عليم)

بالسحر ثم أغوى قومه على موسى بقوله (يريدان يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا) منصوب لانه مفعول به من قولك أمرتك الخير (تأمرون) تشيرون فى أمره من حبس اوقتل من المؤامرة وهى المشاورة اومن الامر الذى هو ضد النهى لما تحير فرعون برؤية الآيتين وزل عنه ذكر دعوى الالهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه خوفا طفق يؤامر قومه الذين هم بزعمه عبيده وهو الههم اوجعلهم آمرين ونفسه مأمورا (قالوا أرجه واخاه) اخر امرهما ولا تباغت قتلهما خوفا من الفتنة (وابعث فى المدائن حاشرين) شرطا يحشرون السحرة وعارضوا قول فرعون ان هذا الساحر عليم بقولهم (يأتوك بكل سحار عليم) فجاؤا بكلمة الاحاطة وصيغة المبالغة ليكسروا بعض قلقه (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) اى يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لانه الوقت الذى وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة فى قوله تعالى موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى والميقات ماوقت به اى حدد من زمان اومكان ومنه مواقيت الاحرام (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) اى اجتمعوا وهو استبطاء لهم فى الاجتماع والمراد منه استعجالهم (لعلنا نتبع السحرة) فى دينهم (ان كانوا هم الغالبين) اى غلبوا موسى ولا نتبع موسى فى دينه وليس غرضهم

اتباع السحرة وانما الغرض الكلى ان

وكان زمان السحر فلهذا روج فرعون هذا القول على قومه ثم قال (يريدان يخرجكم من ارضكم بسحره) قال هذا القول على سبيل التنفير لئلا يقبلوا قول موسى (فماذا تأمرون) يعنى مارأيكم فيه وما الذى أعمله فعند ذلك (قالوا أرجه واخاه) اى أخره وأخاه (وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) قيل ان فرعون أراد قتل موسى فقالوا لا تفعل فانك ان قتلته دخلت الناس شبهة فى أمره ولكن أخره واجمع له سحرة ليقاوموه ولا تثبت له عليك حجة قوله تعالى (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) يعنى يوم الزينة قال ابن عباس وافق ذلك يوم السبت فى اول يوم من السنة وهو يوم النيروز (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) اى لتنظروا ما يفعل الفريقان ولمن تكون الغلبة (لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين) لموسى قيل أراد بالسحرة موسى وهرون وقالوا ذلك على طريقة الاستهزاء (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين) طلبوا من فرعون الجزاء وهو بذل المال والجاه فبذل لهم ذلك كله وأكده بقوله (قال نعم وانكم اذا لمن المقربين قال لهم موسى القوا ما أنتم ملقون فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون) اى بعظمة فرعون (انا لنحن الغالبون فالقوا موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون) اى ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم قيل ان عصى موسى صارت حية وابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم ثم أخذها موسى فاذا هى كما كانت اول مرة (فالقى السحرة ساجدين) قيل انهم لما رأوا ما جاوز حد السحر علموا انه ليس بسحر ثم لم يتمالكوا ان خروا ساجدين ثم انهم (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) وانما قالوا رب موسى وهرون لان فرعون كان يدعى الربوبية فاراد واعزله (قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون) فيه وعيد مطلق وتهديد شديد ثم بين ذلك الوعيد فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين قالوا لاضير انا الى ربنا منقلبون) اى لاضرر علينا فيما ينالنا فى الدنيا لانا ننقلب ونصير الى ربنا فى الآخرة مؤمنين مؤملين غفرانه وهو قولهم

لا يتبعوا موسى فساقوا الكلام مساق الكناية لانهم اذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم) وبكسر العين على وهما لغتان (وانكم اذا لمن المقربين) اى قال فرعون نعم لكم أجر عندى وتكونون مع ذلك من المقربين عندى فى المرتبة والجاه فتكونون اول من يدخل على وآخر من يخرج ولما كان قولهم أئن لنا لاجرا فى معنى جزاء الشرط لدلالته عليه وكان قوله انكم

اذا لمن المقربين معطوفا عليه دخلت اذا قارة فى مكانها الذى تقتضيه من الجواب والجزاء (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) من السحر فسوف ترون عاقبته (فالقوا حبالهم) سبعين ألف حبل (وعصيهم) سبعين الف عصا وقيل كانت الحبال اثنين وسبعين ألفا وكذا العصى (وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون) اقسموا بعزته وقوته وهو من أيمان الجاهلية (فالقى موسى عصاه فاذا هى تلقف) تبتلع (ما يأفكون) ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم ويزورونه ويخيلون فى حبالهم وعصيهم انها حيات تسعى (فالقى السحرة ساجدين) عبر عن الخرور بالالقاء بطريق المشاكلة لانه ذكر مع الالقاآت ولانهم لسرعة ما سجدوا صاروا كانهم ألقوا (قالوا آمنا برب العالمين) عن عكرمة رضى الله عنه اصبحوا سحرة وأمسوا شهداء (رب موسى وهرون) عطف بيان لرب العالمين لان فرعون كان يدعى الربوبية فاراد وا ان يعزلوه وقيل ان فرعون لما سمع منهم آمنا برب العالمين قال اياى عنيتم قالوا رب موسى وهرون (قال آمنتم له قبل ان آذن لكم) بذلك (انه لكبيركم الذى علمكم السحر) وقد تواطأتم على امر ومكر (فلسوف تعلمون) وبال ما فعلتم ثم صرح فقال (لأقطعن أيديكم وارجلكم من خلاف) من اجل خلاف ظهر منكم (ولاصلبنكم أجمعين) كانه اراد به ترهيب العامة لئلا يتبعوهم فى الايمان (قالوا لاضير) لا ضرر وخبر لا محذوف اى فى ذلك او علينا (انا الى ربنا منقلبون

انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا) لان كنا (اول المؤمنين) من اهل المشهد او من رعية فرعون ارادوا الاضرار علينا فى ذلك بل اعظم النفع لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا اولا ضير علينا فيما توعدنا به انه لا بد لنا من الانقلاب الى ربنا بسبب من اسباب الموت والقتل اهون اسبابه وارجاها اولا ضير علينا فى قتلك انك ان قتلتنا انقلبنا الى ربنا انقلاب من يطمع فى مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق الى الايمان (واوحينا الى موسى ان أسر) وبوصل الهمزة حجازى (بعبادى) بنى اسرائيل سماهم عباد لايمانهم بنبيه اى سر بهم ليلا وهذا بعد سنين من ايمان السحرة (انكم متبعون) يتبعكم فرعون وقومه عال الامر بالاسراء بابتداء فرعون وجنوده آثارهم يعنى انى بنيت تدبير أمركم وأمرهم على ان تتقدموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم من طريق البحر فاهلكهم وروى انه مات فى تلك الليلة فى كل ٣٩٨ بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه وروى ان الله تعالى

أوحى الى موسى ان اجمع بنى اسرائيل كل اربعة أبيات فى بيت ثم اذبح الجداء واضرب بدمائها على أبوابكم فانى سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتا على بابه دم وسآمرهم بقتل أبكار القبط واخبزوا خبزا فطيرا فانه أسرع لكم ثم اسر بعبادى حتى تنتهى الى البحر فيأتيك أمرى (فارسل فرعون فى المدائن حاشرين) اى جامعين للناس بعنف فلما اجتمعوا قال (ان هؤلاء لشرذمة قليلون) والشرذمة الطائفة القليلة ذكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم قليلا بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذى هو للقلة أو اراد بالقلة الذلة لا قلة العدد اى انهم

(انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا) اى الكفر والسحر (ان) اى لان (كنا أول المؤمنين) اى من اهل زماننا وقيل أول المؤمنين اى من الجماعة الذين حضروا ذلك الجمع قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون) اى يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج قيل أوحى الله الى موسى ان اجمع بنى اسرائيل كل أهل أربعة أبيات فى بيت ثم اذبحوا اولادا الضأن فاضربوا بدمائها على أبوابكم فانى سآمر الملائكة فتقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وآمرهم ان لا يدخلوا بيتا على بابه دم ثم اخبزوا خبزا فطيرا فانه أسرع لكم ثم اسر بعبادى حتى تنتهى الى البحر فيأتيك أمرى ففعل ذلك موسى ثم ان قوم موسى قالوا لقوم فرعون ان لنا فى هذه الليلة عيدا فاستعاروا منهم حليهم ثم خرجوا بتلك الاموال فى الليل الى جهة البحر فلما سمع فرعون ذلك قال هذا عمل موسى وقومه قتلوا أبكارنا من أنفسنا وأخذوا أموالنا (فارسل فرعون فى المدائن حاشرين) يعنى الشرط يحشرون الجيش قيل كانت المدائن ألف مدينة واثنى عشر الف قرية فارسل فرعون فى أثر موسى وقومه ألف ألف وخمسمائة ألف وخرج فرعون فى الكرسى العظيم فى مائتى ألف ملك مسورين مع كل ملك ألف فلذلك قال (ان هؤلاء لشرذمة قليلون) قال أهل التفسير كانت الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف مقاتل لم يعدوا دون العشرين وفوق الستين سنة وقال ابن مسعود كانت ستمائة ألف وسبعين ألفا ولا يحصى عدد أصحاب فرعون (وانهم لنا لغائظون) الغيظ الغضب يعنى انهم أغضبونا بمخالفتهم فينا وقتلهم أبكارنا وذهابهم بأموالنا التى استعاروها وخروجهم من أرضنا بغير اذن منا (وانا لجميع حذرون) اى خائفون من شرهم وقرئ حاذرون اى ذوو قوة وأداة شاكون السلاح وقيل الحاذر الذى يحذرك الآن بالتحقيق من الملبس بحمل السلاح والحذر الذى لا تلقاه الا خائفا (فاخرجناهم من جنات وعيون) قيل كانت البساتين ممتدة فى حافتى النيل فيها عيون وأنهار جارية (وكنوز) يعنى الاموال الظاهرة من الذهب والفضة وسماها كنوزا لانه لم يؤد حق الله منها وكل مال لم يعط ولم يؤد حق الله منه فهو كنز وان كان ظاهرا قيل كان لفرعون ثلثمائة ألف غلام كل غلام على فرس عتيق فى عنق كل فرس طوق من ذهب قال الله تعالى (ومقام كريم) اى مجلس حسن قيل أراد مجالس الامراء والرؤساء التى كانت لهم وقيل انه كان اذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلثمائة كرسى من ذهب يجلس عليها الاشراف من قومه والامراء وعليهم أقبية الديباج مخوصة بالذهب والمعنى انا أخرجناهم من بساتينهم التى فيها العيون وأموالهم ومجالسهم الحسنة

لقلتهم لا يبالى بهم ولا تتوقع غلبتهم وانما استقل قوم موسى وكانوا ستمائة الف (كذلك) وسبعين الفا لكثرة من معه فعن الضحاك كانوا سبعة آلاف الف (وانهم لنا لغائظون) اى انهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا وهى خروجهم من مصرنا وحملهم حليتنا وقتلهم ابكارنا (وانا لجميع حاذرون) شامى وكوفى وغيرهم حذرون فالحذر المتيقظ والحاذر الذى يجدد حذره وقيل المؤدى فى السلاح وانما يفعل ذلك حذرا واحتياطا لنفسه يعنى ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الامور فاذا خرج علينا خارج سارعنا الى حسم فساده وهذه معاذير اعتذر بها الى أهل المدائن لئلا يظن به العجز والفتور (فاخرجناهم من جنات) بساتين (وعيون) وانهار جارية (وكنوز) وأموال ظاهرة من الذهب والفضة وسماها كنوزا لانهم لا ينفقون منها فى طاعة الله تعالى (ومقام) ومنزل (كريم) بهى بهيج وعن ابن عباس رضى الله عنهما المنابر

(كذلك) يحتمل النصب على أخرجناهم مثل ذلك الاخراج الذى وصفنا والرفع على انه خبر مبتدا محذوف اى الامر كذلك (واورثناها
بنى اسرائيل) عن الحسن لما عبروا النهر رجعوا واخذوا ديارهم واموالهم (فاتبعوهم) فلحقوهم فاتبعوهم يزيد (مشرقين) حال اى
داخلين فى وقت شروق الشمس وهو طلوعها اى أدرك قوم فرعون موسى وقومه وقت طلوع الشمس (فلما تراءى الجمعان) اى تقابلا
بحيث يرى كل فريق صاحبه والمراد بنو اسرائيل والقبط (قال أصحاب موسى انا لمدركون) اى قرب ان يلحقنا عدونا وامامنا البحر
(قال) موسى عليه السلام ثقة بوعد الله اياه (كلا) ارتدعوا عن سوء الظن بالله فلن يدركوكم (ان معى) معى حفص (ربى سيهدين) اى
سيهدينى طريق النجاة واضمارهم سيهدينى بالياء يعقوب (فاوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر) اى الق (فانفلق) اى فضرب فانفلق وانشق فصار اثنى عشر فرقا على عدد الاسباط (فكان كل فرق) اى كل ٣٩٩ جزء تفرق منه (كالطود العظيم)

(كذلك) اى كما وصفنا (واورثناها بنى اسرائيل) وذلك ان الله عز وجل رد بنى اسرائيل الى مصر بعد
هلاك فرعون وقومه فاعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الاموال والاما كن الحسنة (فاتبعوهم
مشرقين) اى لحق فرعون وقومه موسى واصحابه وقت شروق الشمس وهو اضاءتها (فلما تراءى الجمعان)
اى تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه (قال أصحاب موسى انا لمدركون) اى سيدركنا فرعون وقومه ولا
طاقة لنا بهم (قال) يعنى موسى لثقته بوعد الله تعالى اياه (كلا) اى لن يدركونا (ان معى ربى سيهدين) اى
يدلنى على طريق النجاة (فاوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) اى فضرب به فانشق (فكان
كل فرق) اى قطعة من الماء (كالطود) اى الجبل (العظيم) قيل لما انتهى موسى ومن معه الى البحر
هاجت الرياح فصار البحر يرمى بموج كالجبال قال يوشع يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون من خلفنا
والبحر امامنا قال موسى ههنا فخاض يوشع الماء لا يرى حافر دابته وقال الذى يكتم ايمانه يا كليم الله
اين أمرت قال ههنا فكبح فرصه فصكه بلجامه حتى طار الزبد من شدقه ثم اقحمه البحر فارتسب فى الماء
وذهب القوم يصنعون مثل ذلك فلم يقدر وا فجعل موسى لا يدرى كيف يصنع فأوحى الله اليه أن اضرب
بعصاك البحر فضربه فانفلق فاذا الرجل واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده (وأزلفنا ثم الآخرين)
اى قربنا فرعون وجنوده الى البحر وقدمناهم الى الهلاك وقيل ان جبريل كان بين بنى اسرائيل وبين
قوم فرعون يقول لبنى اسرائيل ليلحق آخركم أولكم ويقول للقبط رويدا يلحق آخركم أولكم فكان بنو
اسرائيل يقولون ما رأينا أحسن سياقة من هذا الرجل وكان قوم فرعون يقولون ما رأينا أحسن دعة من
هذا الرجل (وأنجينا موسى ومن معه اجمعين ثم أغرقنا الآخرين) يعنى انه تعالى جعل البحر يبسا
حتى خرج موسى وقومه منه وأغرق فرعون وقومه وذلك انهم لما تكاملوا فى البحر انطبق عليهم
فاغرقهم (ان فى ذلك لآية) يعنى ما حدث فى البحر من انفلاقه آية من الآيات العظام الدالة على
قدرته ومعجزة لموسى عليه السلام (وما كان أكثرهم مؤمنين) يعنى أهل مصر قيل لم يؤمن منهم الا
آسية امرأة فرعون وحزقيل مؤمن آل فرعون ومريم ابنة ماموبا التى دلت على قبر يوسف حين أخرجه
موسى من البحر (وان ربك لهو العزيز الرحيم) قوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لابيه وقومه
ما تعبدون) اى أى شئ تعبدون وانما قال ابراهيم ذلك مع علمه بانهم عبدة للاصنام ليريهم أن ما يعبدونه
ليس من استحقاق العبادة فى شئ (قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين) اى نقيم على عبادتها وانما

كالجبل المتطاد فى السماء (وأزلفنا ثم) حيث انفلق البحر (الآخرين) قوم فرعون اى قربناهم من بنى اسرائيل اومن البحر (وأنجينا موسى ومن معه اجمعين) من الغرق (ثم اغرقنا الآخرين) فرعون وقومه وفيه ابطال القول بتأثير الكوكب فى الآجال وغيرها من الحوادث فانهم اجتمعوا فى الهلاك مع اختلاف طوالعهم روى ان جبريل عليه السلام كان بين بنى اسرائيل وبين آل فرعون فكان يقول لبنى اسرائيل ليلحق آخركم باولكم ويستقبل القبط فيقول رويدكم يلحق آخركم باولكم فلما انتهى موسى الى البحر قال يوشع لموسى اين امرت فهذا البحر امامك وغشيك آل فرعون قال موسى ههنا فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا وروى ان موسى عليه الصلاة والسلام قال عند ذلك يا من كان قبل كل شئ والمكون لكل شئ والكائن بعد كل شئ (ان فى ذلك) اى فيما فعلنا بموسى وفرعون
(لآية) لعبرة عجيبة لا توصف (وما كان أكثرهم) اى المغرقين (مؤمنين) قالوا لم يؤمن منهم الا آسية وحزقيل مؤمن آل فرعون ومريم
التى دلت موسى على قبر يوسف (وان ربك لهو العزيز) بالانتقام من اعدائه (الرحيم) بالانعام على اوليائه (واتل عليهم) على مشركى
قريش (نبأ ابراهيم) خبر (اذ قال لابيه وقومه) قوم ابراهيم او قوم الاب (ما تعبدون) اى اى شئ تعبدون وابراهيم عليه السلام يعلم انهم
عبدة الاصنام ولكنه سألهم ليريهم ان ما يعبدونه ليس بمستحق للعبادة (قالوا نعبد اصناما) وجواب ما تعبدون اصناما كيسئلونك ماذا
ينفقون قل العفو ماذا قال ربكم قالوا الحق لانه سؤال عن المعبود لا عن العبادة وانما زادوا نعبد فى الجواب افتخارا ومباهاة بعبادتها اولذا
عطفوا على نعبد (فنظل لها عاكفين) فنقيم على عبادتها طول النهار وانما قالوا فنظل لانهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل او معناه الدوام

(قال) اى ابراهيم (هل يسمعونكم) هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف لدلالة (اذ تدعون) عليه (او ينفعونكم) ا
عبدتموها (او يضرون) اى ان تركتم عبادتها (قالوا بل) اضراب اى لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ولا نعبدها الشئ من ذلك ولكن (وج
آباءنا كذلك يفعلون) فقلدناهم (قال افرأيتم ما كنتم تعبدون انتم وآباؤكم الاقدمون) الاولون (فانهم) اى الاصنام (عدولى) الع
والصديق يجيآن فى معنى الوحدة والجماعة يعنى لو عبدتهم لكانوا اعداء لى فى يوم القيامة كقوله سيكفرون بعبادتهم و يكونون عل
ضدا وقال الفراء هو من المقلوب اى فانى عدوهم وفى قوله عدولى دون لكم زيادة نصح ليكون ادعى لهم الى القبول ولو قال فانهم عدو لك
لم يكن بتلك المثابة (الا رب العالمين) استثناء منقطع لانه لم يدخل تحت الاعداء كأنه قال لكن رب العالمين (الذى خلقنى) بالتكو
فى القرار المكين (فهو يهدين) لمناهج الدنيا ولمصالح الدين والاستقبال فى يهدينى مع سبق العناية بالهداية لانه يحتمل يهدينى للاد
الافضل والاتم الاكمل او الذى ٤٠٠ خلقنى لاسباب خدمته فهو يهدين الى آداب خلته (والذى هو يطعمنى) اضاف الاطعا

قالوا انظل لانهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل (قال هل يسمعونكم) اى يسمعون دعاءكم (اذ تدعون
او ينفعونكم) يعنى بالرزق (أو يضرون) اى ان تركتم عبادتهم واذا كان كذلك فكيف يستحقون
العبادة فلما لزمتهم الحجة القاطعة (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) المعنى انها لا تسمع قولا ولا
تجلب نفعا ولا تدفع ضرا ولكن اقتدينا بآبائنا فى ذلك وفى الآية دليل على ابطال التقليد فى الدين
وذمه ومدح الاخذ بالاستدلال (قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون انتم وآباؤكم الاقدمون) اى الاولون
(فانهم عدولى) اى اعداء لى وانما وحده على ارادة الجنس فان قلت كيف وصف الاصنام بالعداوة
وهى جمادات لا تعقل قلت معناه فانهم عدولى يوم القيامة لو عبدتهم فى الدنيا وقيل ان الكفار لما
عبدوها ونزلوها منزلة الاحياء العقلاء اطلق ابراهيم لفظ العداوة عليها وقيل هو من المقلوب أراد فانى عدو
لهم لان من عاديته فقد عاداك (الا رب العالمين) اى ولكن رب العالمين فانه ربى وولى وقيل انهم كانوا
يعبدون الاصنام مع الله تعالى فقال ابراهيم كل ما تعبدون أعداء لى الا رب العالمين ثم وصف معبوده
الذى يستحق العبادة فقال (الذى خلقنى فهو يهدين) الى طريق النجاة (والذى هو يطعمنى و يسقين)
اى يرزقنى و يغذينى بالطعام والشراب (واذا مرضت) أصابنى مرض أضاف المرض الى نفسه استعمالا
للادب وان كان المرض والشفاء من الله (فهو يشفين) اى يبرئنى و يعافينى من المرض (والذى يميتنى ثم
يحيين) اى يميتنى فى الدنيا ثم يحيينى فى الآخرة (والذى أطمع) اى أرجو (ان يغفر لى خطيئتى يوم
الدين) اى يوم الجزاء والحساب قيل خطيئته كذباته الثلاث وتقدم الكلام عليها (م) عن عائشة رضى
الله عنها قالت قلت يا رسول الله ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم و يطعم المسكين أ كان ذلك
نافعا له قال لا ينفعه انه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين وهذا كله احتجاج من ابراهيم على
قومه انه لا يصلح للالهية الا من يفعل هذه الافعال (رب هب لى حكما) قال ابن عباس معرفة حدود
الله وأحكامه وقيل العلم والفهم (وألحقنى بالصالحين) اى بمن سلف قبلى من الانبياء فى المنزلة والدرجة
العالية (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) اى ثناء حسنا وذكرا جميلا وقبولا عاما فى الامم التى تجىء
بعدى فأعطاه الله ذلك وجعل كل أهل الاديان يتولونه و يثنون عليه (واجعلنى من ورثة جنة النعيم)

الى ولى الانعام لان الركون الى الاسباب عادة الانعام (و يسقين) قال ابن عطاء هو الذى يحيينى بطعامه و يروينى بشرابه (واذا مرضت) وانما لم يقل امرضنى لانه قصد الذكر باسان الشكر فلم يضف اليه ما يقتضى الضر قال ابن عطاء اذا مرضت برؤية الخلق (فهو يشفين) بمشاهدة الحق قال الصادق اذا مرضت برؤية الافعال فهو يشفين بكشف منة الافضال (والذى يميتنى ثم يحيين) ولم يقل اذا مت لانه الخروج من حبس البلاء ودار الفناء الى روض البقاء لوعد اللقاء وأدخل ثم فى الاحياء لتراخيه عن الافناء وادخل الفاء فى الهداية والشفاء لانهما يعقبان

اى

الخلق والمرض لا معا معا (والذى اطمع) طمع العبيد فى الموالى بالافضال لا على الاستحقاق بالسؤال (أن يغفر لى خطيئتى) قيل هو قوله انى سقيم بل فعله كبيرهم هذا ربى للبازغ هى اختى لسارة وما هى الامعاريض جائزة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار واستغفار الانبياء تواضع منهم لربهم وهضم لانفسهم وتعليم للامم فى طلب المغفرة (يوم الدين) يوم الجزاء (رب هب لى حكما) حكمة او حكما بين الناس بالحق او نبوة لان النبى عليه السلام ذو حكمة وذو احكم بين عباد الله (وألحقنى بالصالحين) اى الانبياء ولقد أجابه حيث قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) اى ثناء حسنا وذكرا جميلا فى الامم التى تجىء بعدى فاعطى ذلك فكل أهل دين يتولونه و يثنون عليه ووضع اللسان موضع القول لان القول يكون به (واجعلنى من) يتعلق بمحذوف أى وارثا من (ورثة جنة النعيم) اى من الباقين فيها

(واغفر لابی) اجعله أهل المغفرة باعطاء الاسلام وكان وعده الاسلام يوم فارقه (انه كان من الضالين) الكافرين (ولا تخزنی) الاخزاء من الخزی وهو الهوان أو من الخزاية وهو الحياء وهذا نحو الاستغفار كما بينا (يوم يبعثون) الضمير فيه للعباد لانه معلوم او للضالين وأن يجعل من جملة الاستغفار لابيه اى ولا تخزنی فی يوم يبعث الضالون وأبی فيهم (يوم لا ينفع مال) هو بدل من يوم الاول (ولا بنون) أحدا (الا من اتى الله بقلب سليم) عن الكفر والنفاق فقلب الكافر والمنافق مريض لقوله تعالى فی قلوبهم مرض اى ان المال اذا صرف فی وجوه البر وبنوه صالحون فانه ينتفع به وبهم سليم القلب او جعل المال والبنون فی معنى الغنى كأنه قال يوم لا ينفع غنى الا غنى من أتى الله بقلب سليم لان غنى الرجل فی دينه بسلامة قلبه كما ان غناه فی دنياه بماله وبنيه وقد جعل من مفعولا لينفع اى لا ينفع مال ولا بنون الا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه فی طاعة الله ومع بنيه حيث أرشدهم الى الدين وعلمهم الشرائع ويجوز على هذا الامن أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين وقد صوب الجليل استثناء الخليل اكراماله ثم جعله صفة له فی قوله وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم وما احسن ما رتب عليه السلام من كلامه مع المشركين حيث سألهم اولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ثم اقبل على آلهتهم فابطل امرها بانها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الاقدمين فاخرجه من ان يكون شبهة فضلا عن ان يكون حجة ثم صور المسئلة فی نفسه دونهم حتى تخلص منها الى ذكر الله تعالى فعظم شأنه وعدد نعمته ٤٠١ من حين انشائه الى وقت وفاته

اى ممن تعطيه جنة النعيم لانها السعادة الكبرى (واغفر لابی انه كان من الضالين) قيل دعا لابيه على رجاء ان يسلم فيغفر له فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه (ولا تخزنی) اى ولا تفضحنی (يوم يبعثون) وهو يوم القيامة (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) أى خالص من الشك والشرك فاما الذنوب فلا يسلم منها احد قال سعيد بن المسيب القلب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن لان قلب الكافر والمنافق مريض وقيل القلب السليم هو الخالی من البدعة المطمئن الى السنة (وأزلفت الجنة) اى قربت (للمتقين وبرزت الجحيم) اى اظهرت (للغاوين) اى للكافرين (وقيل لهم) يعنى يوم القيامة (أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم) اى يمنعونكم من عذاب الله (او ينتصرون) لانفسهم (فكبكبوا) قال ابن عباس جمعوا وقيل قذفوا وطرحوا بعضهم على بعض وقيل ألقوا على رؤسهم (فيها) اى فی جهنم (هم والغاوون) يعنى الآلهة والعابدين وقيل الجن والكافرين (وجنود ابليس اجمعون) يعنى اتباعه ومن اطاعه من الانس والجن وقيل ذريته (قالوا وهم فيها يختصمون) يعنى العابدين والمعبودين (تالله ان كنا لفی ضلال مبين اذ نسويكم) اى نعدلكم (برب العالمين) فنعبدكم (وما اضلنا) يعنى دعانا الى الضلال (الا المجرمون) يعنى من دعاهم الى عبادة الاصنام من الجن والانس وقيل الاولون الذين اقتدينا بهم وقيل يعنى ابليس وابن آدم الاول وهو قابيل وهو أول من سن القتل وانواع المعاصی (فما لنا من شافعين) يعنى من يشفع لنا يعنى كما ان للمؤمنين شافعين من الملائكة والانبياء (ولا صديق حميم)

مع ما يرجى فی الآخرة من رحمته ثم اتبع ذلك ان دعا بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الادب ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع اليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة الى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا (وأزلفت الجنة للمتقين) اى قربت عطف جملة اى تزلف من موقف

السعداء فينظرون اليها (وبرزت الجحيم) اى اظهرت حتى يكاد يأخذهم لهبها (للغاوين) للكافرين (وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم او ينتصرون) يوبخون على اشراكهم فيقال لهم أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم او هل ينفعون انفسهم بانتصارهم لانهم وآلهتهم وقود النار (فكبكبوا) أنكسوا وطرح بعضهم على بعض (فيها) فی الجحيم (هم) اى الآلهة (والغاوون) وعدتهم الذين برزت لهم والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير فی اللفظ دليلا على التكرير فی المعنى كانه اذا ألقی فی جهنم ينكب مرة اثر مرة حتى يستقر فی قعرها نعوذ بالله منها (وجنود ابليس أجمعون) شياطينه او متبعوه من عصاة الانس والجن (قالوا وهم فيها يختصمون) يجوز ان ينطق الله الاصنام حتى يصح التقاول والتخاصم ويجوز ان يجرى ذلك بين العصاة والشياطين (تالله ان كنا لفی ضلال مبين اذ نسويكم) نعدلكم أيها الاصنام (برب العالمين) فی العبادة (وما أضلنا الا المجرمون) اى رؤساؤهم الذين أضلوهم او ابليس وجنوده ومن سن الشرك (فما لنا من شافعين) كما للمؤمنين من الانبياء والاولياء والملائكة (ولا صديق حميم) كما نرى لهم اصدقاء اذ لا يتصادق فی الآخرة الا المؤمنون واما اهل النار فبينهم التعادی الا خلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين او فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء واصدقاء لانهم كانوا يعتقدون فی اصنامهم انهم شفعاؤهم عند الله وكان لهم الاصدقاء من شياطين الانس والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام الذی يهمه ما يهمك او من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص وجمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء فی العادة واما الصديق وهو

الصادق فى وداده الذى يهمه ما اهمك فقليل وسئل حكيم عن الصديق فقال اسم لا معنى له وجاز ان يراد بالصديق الجمع (فلو ان لنا كرة) رجعة الى الدنيا (فنكون من المؤمنين) وجواب لو محذوف وهو لفعلنا كيت وكيت اولو فى مثل هذا بمعنى التمنى كأنه قيل فليت لنا كرة لما بين معنى لو وليت من التلاقى (ان فى ذلك) فيما ذكر من الانباء (لآية) اى لعبرة لمن اعتبر (وما كان أكثرهم مؤمنين) فيه ان فريقا منهم آمنوا (وان ربك لهو العزيز) المنتقم ممن كذب ابراهيم بنار الجحيم (الرحيم) المسلم كل ذى قلب سليم الى جنة النعيم (كذبت قوم نوح المرسلين) القوم يذكر ويؤنث قيل ولد نوح فى زمن آدم عليه السلام ونظير قوله المرسلين والمراد نوح عليه السلام قولك فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله الا دابة أو برد او كانوا ينكرون بعث الرسل اصلا فلذا جمع اولان من كذب واحدا منهم فقد كذب الكل لان كل رسول ٤٠٢ يدعو الناس الى الايمان بجميع الرسل وكذا جميع ما فى هذه السورة (اذ قال لهم اخوهم

اى قريب يشفع لنا يقول ذلك الكفار حين يشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون والصديق وهو الصادق فى المودة مع موافقة الدين عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الرجل يقول فى الجنة ما فعل بصديقى فلان وصديقه فى الجحيم فيقول الله عز وجل اخرجوا له صديقه الى الجنة فيقول من بقى فما لنا من شافعين ولا صديق حميم رواه البغوى باسناد الثعلبى وقال الحسن استكثر وآمن الاصدقاء المؤمنين فان لهم شفاعة يوم القيامة (فلو أن لنا كرة) اى رجعة الى الدنيا (فنكون من المؤمنين) اى انهم تمنوا الرجعة حين لا رجعة لهم (ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين) اى مع هذه الدلائل والآيات (وان ربك لهو العزيز الرحيم) اى المنتقم الذى لا يغالب وهو فى وصف عزته رحيم * قوله عز وجل (كذبت قوم نوح المرسلين) اى كذبت جماعة قوم نوح قيل القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة فان قلت كيف قال المرسلين وانما هو رسول واحد وكذلك باقى القصص قلت لان دين الرسل واحد وان الآخر منهم جاء بما جاء به الاول فمن كذب واحدا من الانبياء فقد كذب جميعهم (اذ قال لهم أخوهم نوح) اى اخوهم فى النسب لا فى الدين (ألا تتقون) اى الا تخافون فتتركوا الكفر والمعاصى (انى لكم رسول أمين) اى على الوحى وكان معروفا عندهم بالامانة (فاتقوا الله) اى بطاعته وعبادته (وأطيعون) اى فيما امرتكم به من الايمان والتوحيد (وما اسئلكم عليه من أجر) اى من جعل وجزاء (ان أجرى) اى ثوابى (الا على رب العالمين فاتقوا الله واطيعون) قيل كرره ليؤكده عليهم ويقرره فى نفوسهم وقيل ليس فيه تكرار ومعنى الاول الا تتقون الله فى مخالفتى وانا رسول الله ومعنى الثانى الا تتقون الله فى مخالفتى وانى لست آخذ منكم اجرا (قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون) اى السفلة قال ابن عباس يعنى الحاكة والاساكفة (قال) يعنى نوحا (وما علمى بما كانوا يعملون) اى وما اعلم اعمالهم وصنائعهم وليس على من دناءة مكاسبهم واحوالهم شئ انما كلفت ان ادعوهم الى الله تعالى ومالى الا ظواهرامرهم وقال الزجاج الصناعات لا تضر فى الديانات وقيل معناه انى لم اعلم ان الله يهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم (ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون) اى لو تعلمون ذلك ما عيرتموهم بصنائعهم (وما أنا بطارد المؤمنين) اى عنى وقد آمنوا (ان أنا الا نذير مبين) معناه اخوف من كذبنى فمن آمن فهو القريب منى ومن لم يؤمن فهو البعيد عنى (قالوا لئن لم تنته يا نوح) اى عما تقول

نسبا لا دينا (نوح ألا تتقون) خالق الانام فتتركوا عبادة الاصنام (انى لكم رسول امين) كان مشهورا بالامانة فيهم كمحمد عليه الصلاة والسلام فى قريش (فاتقوا الله وأطيعون) فيما آمركم به وادعوكم اليه من الحق (وما أسئلكم عليه) على هذا الامر (من أجر) جزاء (ان اجرى) بالفتح مدنى وشامى وابو عمرو وحفص (الا على رب العالمين) فلذلك أريده (فاتقوا الله وأطيعون) كرره ليقرره فى نفوسهم مع تعليق كل واحد منهما بعلة فعلة الاول كونه امينا فيما بينهم وعلة الثانى حسم طمعه منهم كانه قال اذا عرفتم رسالتى وامانتى فاتقوا ثم اذا عرفتم احترازى من الاجر فاتقوا الله (قالوا أنؤمن لك واتبعك) الواو للحال وقد مضمرة بعدها دليله قراءة يعقوب واتباعك جمع تابع كشاهد واشهاد او تبع كبطل وابطال (الارذلون) السفلة والرذالة الخسة والدناءة وانما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من اهل الصناعات الدنيئة والصناعة لا تزرى بالديانة فالغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلا وان كان افقر الناس واوضعهم نسبا وما زالت اتباع الانبياء كذلك (قال وما علمى) واى شئ اعلم (بما كانوا يعملون) من الصناعات انما اطلب منهم الايمان وقيل انهم طعنوا مع استرذالهم فى ايمانهم وقالوا ان الذين آمنوا بك ليس فى قلوبهم ما يظهرونه فقال ما على الا اعتبر الظواهر دون التفتيش عن السرائر (ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون) ان الله تعالى يحاسبهم على ما فى قلوبهم (وما أنا بطارد المؤمنين) اى ليس من شأنى ان أتبع شهواتكم بطرد المؤمنين طمعا فى ايمانكم (ان أنا الا نذير مبين) ما على الا أن انذركم انذارا بينا بالبرهان الصحيح الذى يتميز به الحق من الباطل ثم انتم اعلم بشأنكم (قالوا لئن لم تنته يا نوح) عما تقول

التكونن من المرجومين) من المقتولين بالحجارة (قال رب ان قومى كذبون) ليس هذا اخبارا بالتكذيب لعلمه ان عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه اراد انهم كذبونى فى وحيك ورسالتك (فافتح بينى وبينهم فتحا) اى فاحكم بينى وبينهم حكما والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لانه يفتح المستغلق كما سمى فيصلا لانه يفصل بين الخصومات (ونجنى ومن معى) معى حقص (من المؤمنين) من عذاب عملهم (فأنجيناه ومن معه فى الفلك) الفلك السفينة وجمعه فلك فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد (المشحون) المملوء ومنه شحنة البلد اى الذى يملؤه كفاية (ثم أغرقنا بعد) اى بعد انجاء نوح ومن آمن (الباقين) من قومه (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز) المنتقم باهانة من جحد واصر (الرحيم) المنعم باعانة من وحد واقر (كذبت عاد المرسلين) هى قبيلة وفى الاصل اسم رجل هو أبو القبيلة (اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله) فى تكذيب الرسول الامين ٤٠٣ (وأطيعون وما اسئلكم عليه من

(التكونن من المرجومين) اى من المقتولين بالحجارة وهو أسوأ القتل وقيل من المشتومين (قال رب ان قومى كذبون فافتح) اى احكم (بينى وبينهم فتحا) اى حكما (ونجنى ومن معى من المؤمنين فانجيناه ومن معه فى الفلك المشحون) اى الموقر المملوء من الناس والطير والحيوان (ثم أغرقنا بعد الباقين) اى بعد انجاء نوح ومن معه (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قوله تعالى (كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون انى لكم رسول أمين) اى امين على الرسالة فكيف تتهمونى اليوم (فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع) قال ابن عباس اى بكل شرف وفى رواية عنه بكل طريق وقيل هو الفج بين الجبلين وقيل المكان المرتفع (آية) اى علامة وهى العلم (تعبثون) اى بمن مر بالطريق والمعنى انهم كانوا يبنون بالمواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم وقيل انهم بنوا بروج الحمام فانكر عليهم هو باتخاذها ومعنى تعبثون تلعبون بالحمام (وتتخذون مصانع) قال ابن عباس ابنية وقيل قصورا مشيدة وحصونا مانعة وقيل ماء خذ الماء يعنى الحياض (لعلكم تخلدون) اى كأنكم تبقون فيها خالدين لا تموتون (واذا بطشتم) اى واذا اخذتم وسطوتم (بطشتم جبارين) اى قتلا بالسيف وضربا بالسوط والجبار الذى يضرب ويقتل على الغضب وهو مذموم فى وصف البشر (فاتقوا الله وأطيعون) فيه زيادة زجر عن حب الدنيا والشرف والتفاخر (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون) اى اعطاكم من الخير ما تعلمون ثم ذكر ما اعطاهم فقال (أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون) فيه التنبيه على نعمة الله تعالى عليهم (انى أخاف عليكم) قال ابن عباس ان عصيتمونى (عذاب يوم عظيم) فكان جوابهم أن (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) اى انهم اظهروا قلة اكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما اورده من المواعظ والوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد (ان هذا الا خلق الأولين) قرئ بفتح الخاء اى اختلاق الاولين وكذبهم وقرئ خلق بضم الخاء واللام اى عادة الاولين من قبلنا انهم يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب وقولهم (وما نحن بمعذبين) اى انهم اظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من انكارهم المعاد (فكذبوه فاهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قوله تعالى (كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين

اجر ان اجرى الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع) مكان مرتفع (آية) لبرج حمام او بناء يكون لارتفاعه كالعلامة يسخرون بمن مر بهم (تعبثون) تلعبون (وتتخذون مصانع) ماء خذ الماء او قصورا مشيدة او حصونا (لعلكم تخلدون) ترجون الخلود فى الدنيا (واذا بطشتم) اخذتم اخذ العقوبة (بطشتم جبارين) قتلا بالسيف وضربا بالسوط والجبار الذى يقتل ويضرب على الغضب (فاتقوا الله) فى البطش (وأطيعون) فيما ادعوكم اليه (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون) من النعم ثم عدد ها عليهم فقال (أمدكم بانعام وبنين) قرن البنين بالانعام لانهم يعينونهم على حفظها والقيام عليها (وجنات وعيون انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ان عصيتمونى (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) اى لا تقبل كلامك ودعوتك وعظت أم سكت ولم يقل ام لم تعظ لرؤس الآى (ان هذا الا خلق الاولين) ما هذا الذى نحن عليه من الحياة والموت واتخاذ الابنية الا عادة الاولين او ما نحن عليه دين الاولين الاخلق الاولين مكى وبصرى ويزيد وعلى اى ما جئت به اختلاق الاولين وكذب المتنبئين قبلك كقولهم اساطير الاولين او خلقنا كخلق الاولين نموت ونحيا كما حيوا (وما نحن بمعذبين) فى الدنيا ولا بعث ولا حساب (فكذبوه) اى هودا (فاهلكناهم) بريح صرصر عاتية (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم اخوهم صالح ألا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين

أتتركون) انكار لان يتركوا خالدين فى نعيمهم لا يزالون عنه (فيما ههنا) فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم (آمنين) من العذاب والزوال والموت ثم فسره بقوله (فى جنات وعيون) وهذا أيضا اجمال ثم تفصيل (وزروع ونخل) وعطف نخل على جنات مع ان الجنات تتناول النخل اول شئ تفضيلا للنخل على سائر الشجر (طلعها) هو ما يخرج من النخل كنصل السيف (هضيم) لين نضيج كأنه قال ونخل قد أرطب ثمره (وتنحتون) تنقبون (من الجبال بيوتا فارهين) شامى وكوفى حاذقين حال وغيرهم فرهين اشرين والفراهة الكيس والنشاط (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين) الكافرين او التسعة الذين عقروا الناقة جعل الامر مطاعا على المجاز الحكمى والمراد الامور وهو كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول كقولهم أنبت الربيع البقل (الذين يفسدون فى الارض) بالظلم والكفر (ولا يصلحون) بالايمان والعدل والمعنى ان فسادهم مصمت ليس معه شئ من الصلاح كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح (قالوا انما أنت من المسحرين) المسحر الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله وقيل هو من السحر الرئة وانه بشر (ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين) فى دعوى الرسالة (قال هذه ناقة لها شرب) نصيب من الماء فلا تزاحموها فيه (ولكم شرب يوم معلوم) لا تزاحمكم ٤٠٤ هى فيه روى انهم قالوا نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبا فجعل صالح يقول

فقال له جبريل صل ركعتين وأسأل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة ونتجت سقبا مثلها فى العظم وصدرها ستون ذراعا واذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله واذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه الماء وهذا دليل على جواز المهايأة لان قوله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم من المهايأة (ولا تمسوها بسوء) بضرب او عقر او غير ذلك (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لان الوقت اذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد (فعقروها) عقرها قدار ولكنهم راضون به فاضيف اليهم روى ان (قال عاقرها لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة فى خدرها فيقولون أترضين فتقول نعم وكذلك صبيانهم (فأصبحوا نادمين) على عقرها خوفا من نزول العذاب بهم لا ندم توبة او ندموا حين لا ينفع الندم وذلك عند معاينة العذاب او على ترك الولد (فأخذهم العذاب) المقدم ذكره (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط الا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين) اراد بالعالمين الناس اتطؤن الذكور من الناس مع كثرة الاناث او اتطؤن انتم من بين من عداكم من العالمين الذكران اى انتم مختصون بهذه الفاحشة والعالمين على هذا كل ما ينكح من الحيوان (وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) من تبيين لما خلق او تبعيض والمراد بما خلق العضو المباح منهن وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم وفيه دليل تحريم ادبار الزوجات والمهلو كذلك ومن اجازه فقد اخطأ خطأ عظيما (بل انتم قوم عادون) العادى المتعدى فى ظلمه المتجاوز فيه الحد اى بل انتم قوم احق بان توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة (قالوا لئن لم تنته يا لوط) عن انكارك علينا وتقبيح امرنا (لتكونن من المخرجين) من جملة من اخرجناه من بين اظهرنا وطردناه من بلدنا ولعلهم كانوا يخرجون من اخرجوه على اسوا حال

أتتركون فيما ههنا آمنين) اى فى الدنيا من العذاب (فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها) اى ثمرها الذى يطلع منها (هضيم) قال ابن عباس لطيف وعنه يانع نضيج وقيل هو اللين الرخو وقيل منهم من يتفتت اذا مس وقيل الهضيم هو الذى دخل بعضه فى بعض من النضج او النعومة وقيل هو المدرك (وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين) وقرئ فارهين قيل الفاره الحاذق بنحتها والفره قال ابن عباس الاشر والبطر وقيل معناه متجبرين فرحين معجبين بصنعكم (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين) قال ابن عباس اى المشركين وقيل يعنى التسعة الذين عقروا الناقة (الذين يفسدون فى الارض) اى بالمعاصى (ولا يصلحون) اى لا يطيعون الله فيما أمرهم (قالوا انما أنت من المسحرين) اى من المسحورين المخدوعين وقال ابن عباس من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب (ما أنت الا بشر مثلنا) والمعنى انك بشر مثلنا ولست بملك (فأت بآية) يعنى على صحة ما تقول (ان كنت من الصادقين) يعنى انك رسول الله (قال هذه ناقة لها شرب) اى حظ من الماء (ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء) اى بعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين) اى على عقرها لما رأوا العذاب (فأخذهم العذاب ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) * قوله عز وجل (كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين) يعنى نكاح الرجال من بنى آدم (وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) يعنى أتتركون العضو المباح من النساء وتميلون الى أدبار الرجال (بل أنتم قوم عادون) اى معتدون مجاوزون الحلال الى الحرام (قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين) اى من قريتنا

(قال انى لعملكم من القالين) هو ابلغ من ان يقول قال فقولك فلان من العلماء ابلغ من قولك فلان عالم لانك تشهد بانه مساهم لهم فى العلم والقلى البغض يقلى الفؤاد والكبد وفيه دليل على عظم المعصية لان قلاه من حيث الدين (رب نجنى واهلى مما يعملون) من عقوبته لهم (فنجيناه واهله اجمعين) يعنى بناته ومن آمن معه (الا عجوزا) هى امراة لوط وكانت راضية بذلك والراضى بالمعصية فى حكم العاصى والاستثناء الكافرة من الاهل وهم مؤمنون للاشتراك فى هذا الاسم وان لم تشاركهم فى الايمان (فى الغابرين) صفة لها اى فى الباقين فى العذاب فلم تنج منه والغابر فى اللغة الباقى كانه قيل الا عجوزا غابرة اى مقدرا غبورها اذ الغبور لم يكن صفتها وقت تنجيتهم (ثم دمرنا الآخرين) والمراد بتدميرهم الاستئصال بهم (وامطرنا عليهم مطرا) عن قتادة امطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فاهلكهم الله وقيل لم يرض بالاستئصال حتى اتبعه مطرا من حجارة (فساء) فاعله (مطر المنذرين) والمخصوص بالذم وهو مطرهم محذوف ولم يرد بالمنذرين قوما باعيانهم بل المراد جنس الكافرين (ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذب اصحاب الايكة) بالهمزة والجر هى غيضة تنبت ناعم الشجر عن الخليل ليكة حجازى وشامى وكذا فى ص علم لبلد قيل اصحاب الايكة هم اهل مدين التجؤا الى غيضة اذ اخذ عليهم الوهج والاصح انهم غير هم نزلوا غيضة بعينها بالبادية وا كثر شجرهم المقل بدليل انه لم يقل هنا اخوهم شعيب لانه لم يكن من نسبهم بل كان من نسب اهل مدين ففى الحديث ان شعيبا اخا مدين ارسل اليهم والى اصحاب الايكة (المرسلين اذ قال لهم شعيب الا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون ٤٠٥ وما اسئلكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين اوفوا الكيل) اتموه (ولا تكونوا من المخسرين) ولا تنقصوا الناس حقوقهم فالكيل واف وهو مأمور به وطفيف وهو منهى عنه وزائد وهو مسكوت عنه فتركه دليل على انه ان فعله فقد احسن وان لم يفعل فلا شئ عليه (وزنوا بالقسطاس المستقيم) وبكسر القاف كوفى غير ابى بكر وهى الميزان او القبان

(قال انى لعملكم من القالين) اى من التاركين المبغضين (رب نجنى واهلى مما يعملون) اى من العمل الخبيث قال الله تعالى (فنجيناه واهله أجمعين الا عجوزا) اى امرأته (فى الغابرين) اى بقيت فى الهالكين (ثم دمرنا الآخرين) اى أهلكناهم (وأمطرنا عليهم مطرا) يعنى الكبريت والنار (فساء مطر المنذرين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) * قوله عز وجل (كذب أصحاب الايكة المرسلين) اى الغيضة الملتفة من الشجر وقيل هو اسم البلد (اذ قال لهم شعيب) لم يقل لهم أخوهم لانه لم يكن منهم وانما كان من مدين وأرسل اليهم (ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين) انما كانت دعوة هؤلاء الانبياء فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على تقوى الله وطاعته والاخلاص فى العبادة والامتناع من أخذ الاجر على تبليغ الرسالة (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين) اى الناقصين لحقوق الناس فى الكيل والوزن (وزنوا بالقسطاس) اى بالميزان العدل (المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين) يعنى الخليقة والامم المتقدمة (قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا) اى قطعا (من السماء ان كنت من الصادقين قال ربى أعلم بما تعملون) اى من تقصان الكيل والوزن وهو مجازيكم باعمالكم وليس العذاب الى وما

فان كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه فعلان والافهو رباعى (ولا تبخسوا الناس) يقال بخسته حقه اذا نقصته اياه (اشياءهم) دراهمهم ودنانيرهم بقطع اطرافهما (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) ولا تبالغوا فيها فى الافساد نحو قطع الطريق والغارة واهلاك الزروع وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه يقال عثا فى الارض اذا افسد وعثى فى الارض لغة فى عثا (واتقوا الذى خلقكم والجبلة) الجبلة عطف على كم اى اتقوا الذى خلقكم وخلق الجبلة (الاولين) الماضين (قالوا انما انت من المسحرين وما انت الا بشر مثلنا) ادخال الواو هنا ليفيد معنيين كلاهما مناف الرسالة عندهم التسحير والبشرية وتركهما فى قصة ثمود ليفيد معنى واحدا وهو كونه مسحرا ثم قرر بكونه بشرا مثلهم (وان نظنك لمن الكاذبين) ان مخففة من الثقيلة واللام دخلت للفرق بينها وبين النافية وانما تقرنها على فعل الظن وثانى مفعوليه لان اصلهما ان يتفرقا على المبتدا والخبر كقولك ان زيدا منطلق فلما كان بابا كان وظننت من جنس باب المبتدا والخبر فعل ذلك فى البابين فقيل ان كان زيد منطلقا وان ظننته لمنطلقا (فأسقط علينا كسفا) كسفا حفص وهما جمعا كسفة وهى القطعة وكسفه قطعه (من السماء) اى السحاب او الظلة (ان كنت من الصادقين) اى ان كنت صادقا انك نبى فادع الله ان يسقط علينا كسفا من السماء اى قطعا من السماء عقوبة (قال ربى) بفتح الياء حجازى وابو عمرو وبسكونها غيرهم (اعلم بما تعملون) اى ان الله اعلم باعمالكم وبما تستحقون عليها من العذاب فان اراد ان يعاقبكم باسقاط كسف من السماء فعل وان اراد عقابا آخر فاليه الحكم والمشيئة

(فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة) هى سحابة اظلتهم بعدما حبست عنهم الريح وعذبوا بالحر سبعة ايام فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من الحر فامطرت عليهم نارا فاحترقوا (انه كان عذاب يوم عظيم ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) وقد كرر فى هذه السورة فى اول كل قصة وآخرها ما كرر تقرير المعانيها فى الصدور ليكون ابلغ فى الوعظ والزجر ولان كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما فى غيرها فكانت جديرة بان تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وان تختتم بما اختتمت به (وانه) اى القرآن (لتنزيل رب العالمين) منزل منه (نزل به) مخفف والفاعل (الروح الامين) اى جبريل لانه أمين على الوحى الذى فيه الحياة حجازى وأبو عمرو وزيد وحفص وغيرهم بالتشديد ونصب الروح والفاعل هو الله تعالى اى جعل الله الروح نازلا به والباء على القراءتين للتعدية (على قلبك) اى حفظك وفهمك اياه واثبته فى قلبك اثبات ما لا ينسى كقوله سنقرئك فلا تنسى (لتكون من المنذرين بلسان عربى) ٤٠٦ بلغة قريش وجرهم (مبين) فصيح ومصحح عما صحفته العامة والباء اما ان يتعلق بالمنذرين اى لتكون من الذين انذروا بهذا اللسان وهم هود وصالح وشعيب واسمعيل عليهم السلام او بنزل اى نزله بلسان عربى لتنذر به لانه لو نزله بلسان أعجمى لتجافوا عنه أصلا ولقالوا ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الانذار به وفى هذا الوجه ان تنزيله بالعربية التى هى لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لانك تفهمه وتفهمه قومك ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك لانك تسمع اجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها وقد يكون الرجل عارفا بعدة لغات فاذا كلم بلغته التى نشأ عليها لم يكن قلبه ناظرا الا الى معانى الكلام وان كلم بغيرها كان نظره اولا فى ألفاظها ثم فى معانيها وان كان ماهرا بمعرفتها فهذا تقرير انه نزل على قلبه لتنزله بلسان عربى مبين (وانه) وان القرآن (لفى زبر الاولين) يعنى ذكره مثبت فى سائر الكتب السماوية وقيل ان معانيه فيها وفيه دليل على ان القرآن قرآن اذا ترجم بغير العربية فيكون دليلا على جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة (اولم تكن لهم آية) شامى جعلت آية اسم كان وخبره (ان يعلمه) اى القرآن لوجود ذكره فى التوراة وقيل فى يكن ضمير القصة وآية خبر مقدم والمبتدا ان يعلمه والجملة خبر كان وقيل كان تامة والفاعل آية وان يعلمه بدل منها او خبر مبتدا محذوف اى اولم تحصل لهم آية وغيره يكن بالتذكير وآية بالنصب على انها خبره وان يعلمه هو الاسم وتقديره اولم يكن لهم علم علماء بنى اسرائيل آية (علماؤا بنى اسرائيل) كعبد الله بن سلام وغيره قال الله تعالى واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين وخط فى المصحف علموا بواو قبل الالف (ولو نزلناه على بعض الاعجمين) جمع أعجم وهو الذى لا يفصح وكذلك الاعجمى الا ان فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له أعجم وأعجمى شبهوه

على الاالدعوة والتبليغ (فكذبوه فاخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم) وذلك أنهم أصابهم حر شديد فكانوا يدخلون الاسراب فيجدونها أحر من ذلك فيخرجون فاظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) وقد تقدم الكلام على هذه القصص فى سورة الاعراف وهود فاغنى عن الاعادة هنا والله أعلم بمراده * قوله عز وجل (وانه) يعنى القرآن (لتنزيل رب العالمين) يعنى ان فيه من أخبار الامم الماضية ما يدل على انه من رب العالمين (نزل به الروح الامين) يعنى جبريل عليه السلام سماه روحا لانه خلق من الروح وسماه أمينا لانه مؤتمن على وحيه لانبيائه (على قلبك) يعنى على قلبك حتى تعيه وتفهمه ولا تنساه وانما خص القلب لانه هو المخاطب فى الحقيقة وانه موضع التمييز والعقل والاختيار وسائر الاعضاء مسخرة له ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهى القلب أخرجاه فى الصحيحين ومن المعقول ان موضع الفرح والسرور والغم والحزن هو القلب فاذا فرح القلب او حزن يتغير حال سائر الاعضاء فكان القلب كالرئيس لها ومنه ان موضع العقل هو القلب على الصحيح من القولين فاذا ثبت ذلك كان القلب هو الامير المطلق وهو المكلف لان التكليف مشروط بالعقل والفهم وقوله تعالى (لتكون من المنذرين) اى المخوفين (بلسان عربى مبين) قال ابن عباس بلسان قريش ليفهموا ما فيه (وانه) يعنى القرآن وقيل ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ونعته (لفى زبر الاولين) اى كتب الاولين (اولم يكن لهم آية) يعنى اولم يكن لهؤلاء المتكبرين علامة ودلالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (ان يعلمه) يعنى يعلم محمدا صلى الله عليه وسلم (علماؤا بنى اسرائيل) قال ابن عباس بعث أهل مكة الى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا ان هذا زمانه وانا نجد فى التوراة نعته وصفته فكان ذلك آية على صدقه صلى الله عليه وسلم قيل كانوا اربعة عبد الله بن سلام وابن يامين وثعلبة وأسد وأسيد قوله تعالى (ولو نزلناه) يعنى القرآن (على بعض الاعجمين) جمع أعجمى وهو الذى لا يفصح ولا يحسن العربية وان كان عربيا فى النسب ومعنى

الآية

بمن لا يفصح ولا يبين والعجمى الذى من جنس العجم أفصح اولم يفصح وقرأ الحسن الاعجمين وقيل الاعجمين تخفيف الاعجميين كما قالوا الاشعرون اى الاشعريون بحذف ياء النسبة ولولا هذا التقدير لم يجز ان يجمع جمع السلامة لان مؤنثه عجماء (فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) والمعنى انا أنزلنا القرآن على رجل عربى مبين ففهموه وعرفوا فصاحته وانه معجز وانضم الى ذلك اتفاق علماء اهل الكتاب قبله على ان البشارة جائت به وصفته فى كتبهم وقد تضمنت معانيه وقصصه وصح بذلك انها من عند الله وليست باساطير كما زعموا فلم يؤمنوا به وسموه شعرا تارة وسحرا أخرى وقالوا هذا من افتراء محمد عليه الصلاة والسلام ولو نزلناه على بعض الاعاجم الذى لا يحسن العربية فضلا ان يقدر على نظم مثله فقرأه عليهم هكذا لعجز الكفر وابه كما كفروا وانحملوا الجحود هم عذرا ولسموه سحرا ثم قال (كذلك سلكناه) اى ادخلنا التكذيب او الكفر وهو مدلول قوله ما كانوا به مؤمنين (فى قلوب المجرمين) الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر والاصرار عليه يعنى مثل هذا السلك سلكناه فى قلوبهم وقررناه فيها فكيف ما فعل بهم وعلى اى وجه دبرامرهم فلا سبيل الى ان يتغيروا عما لهم عليه من الكفر به والتكذيب له كما قال ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين وهو حجتنا على المعتزلة فى خلق افعال العباد خيرها وشرها وموقع قوله (لا يؤمنون به) بالقرآن من قوله سلكناه فى قلوب المجرمين موقع الموضح والملخص لانه مسوق لثبات كونه مكذبا مجحودا فى قلوبهم فاتبع ما يقرر هذا المعنى من انهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد ويجوز ان يكون حالا اى سلكناه فيها غير مؤمن به (حتى يروا العذاب الاليم) المراد معاينة

الآية لو انزلنا القرآن على رجل ليس بعربى اللسان (فقرأه عليهم) يعنى القرآن (ما كانوا به مؤمنين) اى لقالوا لا نفقه قولك وقيل معناه لما آمنوا به أنفة من اتباع من ليس من العرب (كذلك سلكناه) قال ابن عباس يعنى أدخلنا الشرك والتكذيب (فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به) اى القرآن (حتى يروا العذاب الاليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظرون) اى لنؤمن ونصدق وتمنوا الرجعة ولا رجعة لهم (أفبعذابنا يستعجلون) قيل لما وعدهم النبى صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا الى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب فانزل الله أفبعذابنا يستعجلون (أفرأيت ان متعناهم سنين) اى كفار مكة فى الدنيا ولم نهلكهم (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) يعنى العذاب (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) اى فى تلك السنين الكثيرة والمعنى انهم وان طال تمتعهم بنعيم الدنيا فاذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيأ ويكونوا كانهم لم يكونوا فى نعيم قط (وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون) اى رسل ينذرونهم (ذكرى) أى تذكرة (وما كنا ظالمين) اى فى تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم (وما تنزلت به الشياطين) يعنى ان المشركين كانوا يقولون ان الشياطين يلقون القرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم فرد الله عليهم ذلك (وما ينبغى لهم) ان ينزلوا بالقرآن (وما يستطيعون) اى ذلك ثم انه

علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم ونحو ذلك قال يحيى بن معاذ اشد الناس غفلة من اغتر بحياته والتذبر اداته وسكن الى مألوفاته والله تعالى يقول (افرايت ان متعناهم سنين) قيل هى سنو مدة الدنيا (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) من العذاب (ما اغنى عنهم ما كانوا يمتعون) به فى تلك السنين والمعنى ان استعجالهم بالعذاب انما كان لاعتقادهم انه غير كائن ولا لاحق بهم وانهم ممتعون باعمار طوال فى سلامة وامن فقال الله تعالى افبعذابنا يستعجلون اشرا وبطرا واستهزاء واتكالا على الامل الطويل ثم قال هب ان الامر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فاذا الحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول اعمارهم وطيب معايشهم * وعن ميمون بن مهران انه لقى الحسن فى الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له عظنى فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال ميمون قد وعظت فأبلغت وعن عمر بن عبد العزيز انه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم (وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون) رسل ينذرونهم ولم تدخل الواو على الجملة بعد الا كما فى وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم لان الاصل عدم الواو اذا الجملة صفة لقرية واذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف (ذكرى) منصوبة بمعنى تذكرة لان انذر واذكر متقاربان فكأنه قيل مذكرون تذكرة او حال من الضمير فى منذرون اى ينذرونهم ذوى تذكرة او مفعول له اى ينذرون لاجل التذكرة والموعظة او مرفوعة على انها خبر مبتدا محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة اعتراضية او صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى او تكون ذكرى متعلقة باهلكنا مفعولا له والمعنى وما أهلكنا من اهل قرية ظالمين الا بعد ما ألزمناهم الحجة بارسال المنذرين اليهم ليكون اهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم (وما كنا ظالمين) فنهلك قوما غير ظالمين ولما قال المشركون ان الشياطين تلقى القرآن على محمد أنزل (وما تنزلت به) اى القرآن (الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون)

الموت عند الموت ويكون ذلك ايمان يأس فلا ينفعهم (فيأتيهم بغتة) فجأة (وهم لا يشعرون) باتيانه (فيقولوا) وفيأتيهم معطوفان على يروا (هل نحن منظرون) يسألون النظرة والامهال طرفة عين فلا يجابون اليها (افبعذابنا يستعجلون) توبيخ لهم وانكار عليهم قولهم فأمطر

تعالى ذكر سبب ذلك فقال (انهم عن السمع لمعزولون) اى محجوبون بالرمى بالشهب فلا يصلون الى استراق السمع (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره لانه معصوم من ذلك قال ابن عباس يحذر به غيره يقول أنت أكرم الخلق على ولو اتخذت الها غيرى لعذبتك قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الاقربين) روى محمد بن اسحق بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا على ان الله أمرنى ان أنذر عشيرتى الاقربين فضقت بذلك ذرعا وعرفت انى متى أباديهم بهذا الامر أرى منهم ما أكره فصمت عليها حتى جاءنى جبريل فقال يا محمد ان لا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا طعاما واجعل لنا عليه رجل شاة واملأ لنا عساما من لبن ثم اجمع لى بنى عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرنى به ثم دعوتهم وكانوا يومئذ نحو أربعين رجلا يزيدون رجلا أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وابو لهب فلما اجتمعوا دعانى بالطعام الذى صنعت فجئت به فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم جذبة من اللحم فشقها باسنانه ثم ألقاها فى نواحى الصحفة ثم قال خذوا باسم الله فأكل القوم حتى مالهم بشئ من حاجة وأيم الله ان كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعا وأيم الله ان كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكلمهم بدره أبو لهب فقال سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الغد يا على فان هذا الرجل قد سبقنى الى ما سمعت من القوم فتفرق القوم قبل ان أكلمهم فاعد لنا من الطعام مثل ما صنعت ثم اجمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعانى بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالامس فاكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا بنى عبد المطلب انى قد جئتكم بخيرى الدنيا والآخرة وقد أمرنى الله عز وجل ان أدعوكم اليه فأيكم يوازرنى على أمرى هذا ويكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم فأجم القوم عنها جميعا وأنا أحدثهم سنا فقلت أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه فاخذ برقبتى ثم قال هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لابى طالب قد أمرك أن تسمع لعلى وتطيعه (ق) عن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت وأنذر عشيرتك الاقربين صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون من قريش حتى اجتمعوا فجعل الذى لم يستطع ان يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو فجاء ابو لهب وقريش فقال أرأيتكم لو أخبرتكم ان خيلا بالوادى تريد ان تغير عليكم أكنتم مصدقى قالوا ما جربنا عليك كذبا قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت تبت يدا ابى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب وفى رواية قد تب وفى رواية للبخارى لما نزلت وأنذر عشيرتك الاقربين ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فقالوا من هذا واجتمعوا اليه وذكر نحوه (ق) عن ابى هريرة قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انزل الله تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين قال يا معشر قريش او كلمة نحوها اشتروا انفسكم لا أغنى عنكم من الله شيأ يا بنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيأ يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيأ و يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيأ و يا فاطمة بنت رسول الله سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيأ (م) عن قبيصة بنت مخارق وزهير بن عمرو قالا لما نزلت وانذر عشيرتك الاقربين انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رضمة جبل فعلا اعلاها حجرا ثم نادى يا بنى عبد مناف انى نذير لكم انما مثلى ومثلكم كمثل رجل راى العدو فانطلق يربد اهله فخشى ان يسبقوه فجعل يهتف يا صباحاه ومعنى الآية ان الانسان اذا بدا بنفسه اولا وبالاقرب فالاقرب من اهله ثانيا لم يكن لاحد عليه طعن البتة وكان قوله

وما يسهل لهم ولا يقدرون عليه (انهم عن السمع لمعزولون) لممنوعون بالشهب (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) مورد النهى لغيره على التعريض والتحريك له على زيادة الاخلاص (وأنذر عشيرتك الاقربين) خصهم لنفى التهمة اذ الانسان يساهل قرابته اوليعلموا انه لا يغنى عنهم من الله شيأ وان النجاة فى اتباعه دون قربه ولما نزلت صعد الصفا ونادى الاقرب فالاقرب وقال يا بنى عبد المطلب يا بنى هاشم يا بنى عبد مناف يا عباس عم النبى يا صفية عمة رسول الله انى لا أملك لكم من الله شيأ

(واخفض جناحك) وألن جانبك وتواضع وأصله ان الطائر اذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه واذا أراد ان ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا فى التواضع ولين الجانب (لمن اتبعك من المؤمنين) من عشيرتك وغيرهم (فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون) يعنى أنذر قومك فان اتبعوك واطاعوك فاخفض جناحك لهم وان عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره (وتوكل على العزيز الرحيم) على الذى يقهر اعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم والتوكل تفويض الرجل أمره الى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره وقالوا المتوكل من اذا هم امر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله وقال الجنيد رضى الله عنه التوكل ان تقبل بالكلية على عادونه فان حاجتك اليه فى الدارين فتوكل مدنى وشامى عطف على فقل اوفلا تدع (الذى يراك حين تقوم) متهجدا (وتقلبك) اى ويرى تقلبك (فى الساجدين) فى المصلين اتبع كونه رحيما على رسوله ماهو من أسباب الرحمة وهو ذكر ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه فى تصفح احوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون وليعلم انهم كيف يعبدون الله ويعملون لآخرتهم وقيل معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه فى الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه ٤٠٩ وركوعه وسجوده وقعوده اذا امهم

انفع وكلامه انجع (واخفض) اى الن (جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) فان قلت ما معنى التبعيض فى قوله من المؤمنين قلت معناه لمن اتبعك من المؤمنين المصدقين بقلوبهم وألسنتهم دون المؤمنين بالسنتهم وهم المنافقون (فان عصوك) اى فيما تأمرهم به (فقل انى برىء مما تعملون) اى من الكفر والمخالفة (وتوكل على العزيز الرحيم) التوكل عبارة عن تفويض الرجل امره الى من يملك امره ويقدر على نفعه وضره وهو الله تعالى العزيز الذى يقهر اعداءك بعزته الرحيم الذى ينصرك عليهم برحمته (الذى يراك حين تقوم) الى صلاتك وقيل يراك اينما كنت وقيل يراك حين تقوم لدعائك (وتقلبك فى الساجدين) قال ابن عباس ويرى تقلبك فى صلاتك فى حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك وقيل مع المصلين فى الجماعة يقول يراك اذا صليت وحدك ومع الجماعة وقيل معناه يرى تقلب بصرك فى المصلين فانه كان صلى الله عليه وسلم يبصر من خلفه كما يبصر من قدامه عن ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال هل ترون قبلتى ههنا فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم انى لأراكم من وراء ظهرى وقيل معناه يرى تصرفك وذهابك ومجيئك فى اصحابك المؤمنين وقيل تصرفك فى احوالك كما كانت الانبياء من قبلك وقال ابن عباس أراد وتقلبك فى اصلاب الانبياء من نبى الى نبى حتى خرجت فى هذه الامة (انه هو السميع) اى لقولك ودعائك (العليم) اى بنيتك وعملك قل يا محمد (هل أنبئكم) اى اخبركم (على من تنزل الشياطين) هذا جواب لقولهم ينزل عليه شيطان ثم بين على من تنزل الشياطين فقال تعالى (تنزل على كل أفاك) اى كذاب (أثيم) اى فاجر وهم الكهنة وذلك ان الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يلقون ذلك الى أوليائهم من الانس وهو قوله تعالى (يلقون السمع) اى ما يسمعون من الملائكة فيلقونه الى الكهنة (واكثرهم كاذبون) لانهم يخلطون به كذبا كثيرا

(٥٢ (خازن) ث) أخبركم ايها المشركون (على من تنزل الشياطين) ثم نبأ فقال (تنزل على كل افاك أثيم) مرتكب للآثام وهم الكهنة والمتنبئة كسطيح وطليحة ومسيلمة ومحمد صلى الله عليه وسلم يشتم الافاكين ويذمهم فكيف تنزل الشياطين عليه (يلقون السمع) هم الشياطين كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يستمعون الى الملا الاعلى فيخطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون به الى اوليائهم ويلقون حال اى تنزل ملقين السمع او صفة لكل افاك لانه فى معنى الجمع فيكون فى محل الجزاء او استئناف فلا يكون له محل كانه قيل لم تنزل على الافاكين فقيل يفعلون كيت وكيت (واكثرهم كاذبون) فيما يوحون به اليهم لانهم يسمعونهم مالم يسمعوا وقيل يلقون الى اوليائهم السمع اى المسموع من الملائكة وقيل الافاكون يلقون السمع الى الشياطين ويتلقون وحيهم اليهم او يلقون المسموع من الشياطين الى الناس واكثر الافاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم والافاك الذى يكثر الافك ولا يدل ذلك على انهم لا ينطقون الا بالافك فاراد ان هؤلاء الافاكين قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجن واكثرهم مفتر عليه وعن الحسن وكلهم وانما فرق بين وانه لتنزيل رب العالمين وما تنزلت به الشياطين هل أنبئكم على من تنزل الشياطين وهن اخوات لانه اذا فرق بينهن بآيات ليست منهن ثم رجع اليهن مرة بعد مرة دل ذلك على شدة العناية بهن كما اذا حدثت حديثا وفى صدرك اهتمام بشئ فتعيد

وعن مقاتل انه سأل ابا حنيفة هل تجد الصلاة بالجماعة فى القرآن فقال لا يحضرنى فتلا له هذه الآية (انه هو السميع) لما تقوله (العليم) بما تنويه وتعمله هون عليه معاناة مشاق العبادات حيث اخبر برؤيته له اذ لا مشقة على من يعلم انه يعمل بمرأى مولاه وهو كقوله بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى ونزل جوابا لقول المشركين ان الشياطين تلقى السمع على محمد صلى الله عليه وسلم (هل أنبئكم) اى هل

من قومهم يستمعون اشعارهم (والشعراء) مبتدا خبره (يتبعهم الغاوون) اى لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الاعراض والقدح فى الانساب ومدح من لا يستحق المدح ولا يستحسن ذلك منهم الا الغاوون اى السفهاء او الراوون اوالشياطين او المشركون قال الزجاج اذا مدح اوهجا شاعر بما لا يكون وأحب ذلك قوم وتابعوه فهم الغاوون يتبعهم نافع (ألم تر أنهم فى كل واد) من الكلام (يهيمون) خبران اى فى كل فن من الكذب يتحدثون او فى كل لغو و باطل يخوضون والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له وهو تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأبخلهم على حاتم عن الفرزدق ان سليمان ابن عبد الملك سمع قوله

فبتن بجانبى مصرعات * و بت افض اغلاق الختام

فقال قد وجب عليك الحد فقال قد درأ الله عنى الحد بقوله (وأنهم يقولون مالا يفعلون) حيث وصفهم بالكذب والخلف فى الوعد * ثم استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)

(والشعراء يتبعهم الغاوون) قال اهل التفسير أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون النبى صلى الله عليه وسلم منهم عبد الله بن الزبعرى السهمى وهبيرة بن ابى وهب المخزومى ومسافع بن عبد مناف وابو عمرو بن عبد الله الجمحى وأمية بن ابى الصلت الثقفى تكلموا بالكذب والباطل وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد وقالوا الشعر واجتمع اليهم غواة قومهم يسمعون اشعارهم حين يهجون محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه وكانوا يروون عنهم قولهم فذلك قوله يتبعهم الغاوون فهم الرواة الذين يروون هجاء المسلمين وقيل الغاوون هم الشياطين وقيل هم السفهاء الضالون وفى رواية ان رجلين أحدهما من الانصار تهاجيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع كل واحد غواة من قومه وهم السفهاء فنزلت هذه الآية (ألم تر أنهم فى كل واد) من اودية الكلام (يهيمون) يعنى حائرين وعن طريق الحق حائدين والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له وقال ابن عباس فى كل لغو يخوضون وقيل يمدحون بالباطل و يهجون بالباطل وقيل انهم يمدحون الشئ ثم يذمونه لا يطلبون الحق والصدق فالوادى مثل لفنون الكلام والغوص فى المعانى والقوافى (وأنهم يقولون مالا يفعلون) اى انهم يكذبون فى شعرهم وقيل انهم يمدحون الجود والكرم و يحثون عليه وهم لا يفعلونه و يذمون البخل و يصرون عليه و يهجون الناس بأدنى شئ صدر منهم

(ق) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأن يمتلئ جوف احدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا ثم استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجتنبون شعر الكفار و يهجون و ينافحون عن محمد صلى الله عليه وسلم واصحابه منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة و كعب بن مالك فقال تعالى (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) روى ان كعب بن مالك قال للنبى صلى الله عليه وسلم ان الله انزل فى الشعر ما انزل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل * عن انس بن مالك رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى عمرة القضاء وابن رواحة يمشى بين يديه وهو يقول

خلوا بنى الكفار عن سبيله * اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر يا ابن رواحة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حرم الله تقول الشعر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خل عنه يا عمر فلهى اسرع فيهم من نضح النبل اخرجه الترمذى والنسائى وقال الترمذى وقد روى فى غير هذا الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى عمرة القضاء و كعب بن مالك بين يديه وهذا أصح عند بعض اهل الحديث لان عبد الله بن رواحة قتل يوم موتة و كانت عمرة القضاء بعد ذلك قلت الصحيح هو الاول لان عمرة القضاء كانت سنة سبع و يوم موتة سنة ثمان والله اعلم

(ق) عن البراء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم قريظة لحسان اهج المشركين فان جبريل معك

(خ) عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم و ينافح و يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح او فاخر عن رسول الله (م) عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اهجوا قريشا فانه أشد عليها من رشق النبل فارسل الى ابن رواحة فقال اهجهم فهجاهم فلم يرض فارسل الى كعب بن مالك ثم ارسل الى حسان بن ثابت فلما دخل عليه حسان قال قد آن لكم أن ترسلوا الى هذا الاسد الضارب بذنبه ثم ادلع لسانه فجعل يحركه فقال والذى بعثك بالحق لأفرينهم بلسانى فرى الاديم فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تعجل فان ابا بكر أعلم قريش بأنسابها وان لى فيهم نسبا حتى يلخص لك نسبى فأتاه حسان ثم رجع فقال يا رسول الله قد لخص لى نسبك والذى بعثك بالحق نبيا لاسلنك منهم كما تسل

الشعرة من العجين قالت عائشة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان ان روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله و رسوله قالت وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هجاهم حسان فشفى واشتفى فقال حسان

هجوت محمدا فاجبت عنه * وعند الله فى ذاك الجزاء
هجوت محمدا برا تقيا * رسول الله شيمته الوفاء
فان ابى و والدتى وعرضى * لعرض محمد منكم وقاء
تكلت بنيتى ان لم تروها * تثير النقع من طرفى كداء
يبارين الاعنة مصعدات * على اكتافها الاسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات * تلطمهن بالخمر النساء
فان اعرضتم عنا اعتمرنا * وكان الفتح وانكشف الغطاء
والا فاصبروا لضراب يوم * يعز الله فيه من يشاء
وقال الله قد ارسلت عبدا * يقول الحق ليس به خفاء
وقال الله قد سيرت جندا * هم الانصار عرضتها اللقاء
لنا فى كل يوم من معد * سباب او قتال او هجاء
فمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء
و جبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس له كفاء

(فصل فى مدح الشعر) (خ) عن أبى بن كعب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان من الشعر لحكمة *عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء اعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فجعل يتكلم بكلام فقال ان من البيان سحرا وان من الشعر حكما أخرجه ابوداود (م) عن عمرو بن الشريد عن ابيه قال ردفت وراء النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال هل معك من شعر أمية بن ابى الصلت شئ قلت نعم قال هيه فانشدته بيتا فقال هيه ثم أنشدته بيتا قال هيه حتى انشدته مائة بيت زاد فى رواية لقد كاد يسلم فى شعره عن جابر بن سمرة قال جالست النبى صلى الله عليه وسلم اكثر من مائة مرة فكان اصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون اشياء من امر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وقالت عائشة الشعر كلام فحسنه حسن ومنه قبيح فخذ منه الحسن ودع منه القبيح وقال الشعبى كان ابو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان على أشعر منهما وروى عن ابن عباس انه كان ينشد الشعر ويستنشده فى المسجد فيروى انه دعا عمر بن ابى ربيعة المخزومى فاستنشده القصيدة التى قالها فقال

أمن آل نعمى انت غاد فمبكر * غداة غد أم رائح فمهجر

فانشده القصيدة الى آخرها وهى قريب من تسعين بيتا ثم ان ابن عباس اعاد القصيدة جميعها وكان حفظها بمرة واحدة قوله تعالى (وذكروا الله كثيرا) اى لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله (وانتصروا من بعد ما ظلموا) اى انتصروا من المشركين لانهم بدؤا بالهجاء ثم أو عدوا شعراء المشركين فقال تعالى (وسيعلم الذين ظلموا) اى اشركوا وهجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الطاهر المطهر من الهجاء (أى منقلب ينقلبون) اى أى مرجع يرجعون اليه بعد الموت قال ابن عباس الى جهنم و بئس المصير والله اعلم بمراده واسرار كتابه

(تفسير سورة النمل)

٣ وهى مائتان وثلاثون وست آيات والف وثلثمائة وسبع عشرة كلمة واربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفا

والحكمة والموعظة والزهد والادب ومدح رسول الله والصحابة وصلحاء الامة ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب وقال ابو يزيد الذكر الكثير ليس بالعدد والغفلة لكنه بالحضور (وانتصروا وهجوا (من بعد ما ظلموا) هجوا أى ردوا هجاء من هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وأحق الخلق بالهجاء من كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهجاه وعن كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فوالذى نفسى بيده لهو اشد عليهم من النبل وكان يقول لحسان قل روح القدس معك وختم السورة بما يقطع اكباد المتدبرين وهو قوله (وسيعلم) وما فيه من الوعيد البليغ وقوله (الذين ظلموا) واطلاقه وقوله (أى منقلب ينقلبون) وابهامه وقد تلاها ابو بكر لعمر رضى الله تعالى عنه حين عهد اليه وكان السلف يتواعظون بها قال ابن عطاء سيعلم المعرض عنا ما الذى فاته منا واى منصوب بينقلبون على المصدر لا بيعلم لان اسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها اى ينقلبون اى الانقلاب

(سورة النمل)

مكية وهى ثلاث وتسعون آية ٣ قوله وهى مائتان الخ كذا بالاصول التى بأيدينا وهو مخالف لما فى الكشاف والخطيب والنسفى اه

(بسم الله الرحمن الرحيم) (طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين) اى وآيات كتاب مبين وتلك اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين اللوح وآياته انه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبين للناظرين فيه آياته أو القرآن وآياته انه يبين ما أودع فيه من العلوم والحكم وعلى هذا عطفه على القرآن كعطف احدى الصفتين على الاخرى نحو هذا فاعل السخى والجواد ونكر الكتاب ليكون أفخم له وقيل انما نكر الكتاب هنا وعرفه فى الحجر وعرف القرآن هنا ونكره ثم لان القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ووصفان له لانه يقرأ ويكتب فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف (هدى وبشرى) فى محل النصب على الحال من آيات اى هداية وبشارة فالعامل فيها ما فى تلك من معنى الاشارة او الجر على انه بدل من كتاب او صفة له او الرفع على هى هدى وبشرى او على البدل من آيات او على أن يكون خبرا بعد خبر لتلك اى تلك آيات وهادية من الضلالة ومبشرة بالجنة وقيل هدى لجميع الخلق وبشرى (للمؤمنين) خاصة (الذين يقيمون الصلوة) يديمون على فرائضها وسننها (ويؤتون الزكوة) يؤدون زكاة أموالهم (وهم بالآخرة هم يوقنون) من جملة صلة الموصول ويحتمل ان تتم الصلة عنده وهو استئناف كانه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة ويدل عليه انه عقد جملة اسمية وكرر فيها المبتدأ الذى هو هم صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الايقان الا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح لان خوف العاقبة يحمل

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (طس تلك آيات القرآن) اى هذه آيات القرآن (وكتاب مبين) اى وآيات كتاب مبين (هدى وبشرى للمؤمنين) اى هو هدى من الضلالة وبشرى لهم بالجنة (الذين يقيمون الصلوة) اى الخمس بشرائطها (ويؤتون الزكوة) اى اذا وجبت عليهم طيبة بها أنفسهم (وهم بالآخرة هم يوقنون) يعنى ان هؤلاء الذين يعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم) اى القبيحة حتى رأوها حسنة وقيل ان التزيين هو ان يخلق الله العلم فى القلب بما فيه المنافع واللذات ولا يخلق العلم بما فيه المضار والآفات (فهم يعمهون) اى يترددون فيها متحيرين (أولئك الذين لهم سوء العذاب) اى أشد العذاب وهو القتل والاسر (وهم فى الآخرة هم الاخسرون) اى انهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا الى النار قوله تعالى (وانك لتلقى القرآن) اى تؤتاه وتلقنه وحيا (من لدن حكيم عليم) اى حكيم عليم بما تنزل اليك فان قلت ما الفرق بين الحكمة والعلم قلت الحكمة هى العلم بالامور العلمية فقط والعلم أعم منه لان العلم قد يكون علما وقد يكون نظرا والعلوم النظرية أشرف (اذ قال) اى واذكر يا محمد اذ قال (موسى لاهله) اى فى مسيره باهله من مدين الى مصر (انى آنست) اى أبصرت (نارا سآتيكم منها بخبر) أى امكث مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق وقد كان ضل عن الطريق (او آتيكم بشهاب قبس) الشهاب شعلة النار والقبس النار المقبوسة منها وقيل القبس هو العود الذى فى أحد طرفيه نار (لعلكم تصطلون) لعلكم تستدفئون

على تحمل المشاق (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم) بخلق الشهوة حتى رأوا ذلك حسنا كما قال أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا (فهم يعمهون) يترددون فى ضلالتهم كما يكون حال الضال عن الطريق (أولئك الذين لهم سوء العذاب) القتل والاسر يوم بدر بما كان منهم من سوء الاعمال (وهم فى الآخرة هم الاخسرون) أشد الناس خسرانا لانهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الامم فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله (وانك لتلقى القرآن) لتؤتاه وتلقنه (من لدن حكيم عليم) من عند حكيم واى عليم وهذا معنى تنكيرهما وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد ان يسوق بعدها من الاقاصيص وما فى ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه (اذ) منصوب باذكر كانه قال على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى عليه السلام (قال موسى لاهله) لزوجته ومن معه عند مسيره من مدين الى مصر امكثوا (انى آنست) ابصرت (نارا سآتيكم منها بخبر) عن حال الطريق لانه كان ضله (أو آتيكم بشهاب) بالتنوين كوفى اى شعلة مضيئة (قبس) نار مقبوسة بدل او صفة وغيرهم بشهاب قبس على الاضافة فلا يكون قبسا وغير قبس ولا تدافع بين قوله سآتيكم هنا ولعلى آتيكم فى القصص مع ان أحدهما ترج والآخر تيقن لان الراجى اذا تيقن رجاؤه يقول سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة ومجيئه بسين التسويف عدة لاهله انه يأتيهم به وان أبطأ او كانت المسافة بعيدة وباولانه بنى الرجاء على انه ان لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما اما هداية الطريق واما اقتباس النار ولم يدر انه عثر على النار بحاجتيه الكليتين وهما عز الدنيا والآخرة واختلاف الالفاظ فى هاتين السورتين والقصة واحدة دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى وجواز النكاح بغير لفظ التزوج (لعلكم تصطلون) تستدفئون بالنار من البرد الذى أصابكم والطاء بدل من تاء افتعل لاجل الصاد

(فلما جاءها) اى النار التى ابصرها (نودى) موسى (أن بورك) مخففة من الثقيلة وتقديره نودى بانه بورك والضمير ضمير الشأن وجاز ذلك من غير عوض وان منعه الزمخشرى لان قوله بورك دعاء والدعاء يخالف غيره فى أحكام كثيرة او مفسرة لان فى النداء معنى القول اى قيل له بورك اى قدس او جعل فيه البركة والخير (من فى النار ومن حولها) اى بورك من فى مكان النار وهم الملائكة ومن حول مكانها اى موسى لحدوث امر دينى فيها وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له واظهار المعجزات عليه (وسبحان الله رب العالمين) هو من جملة ما نودى فقد نزه ذاته عما لا يليق به من التشبيه وغيره (ياموسى انه انا الله العزيز الحكيم) ٤١٣ الضمير فى انه للشأن والشان انا الله مبتدا وخبر والعزيز الحكيم صفتان للخبر او يرجع الى ما دل عليه ما قبله اى ان مكلمك انا والله بيان لانا والعزيز الحكيم صفتان للمبين وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يده من المعجزات (وألق عصاك) لتعلم معجزتك فتأنس بها وهو عطف على بورك لان المعنى نودى ان بورك من فى النار وأن ألق عصاك كلاهما تفسير لنودى والمعنى قيل له بورك من فى النار وقيل له ألق عصاك ويدل عليه ما ذكر فى سورة القصص وان الق عصاك بعد قوله ان ياموسى انى انا الله على تكرير حرف التفسير (فلما رآها تهتز) تتحرك حال من الهاء فى رآها (كانها جان) حية صغيرة حال من الضمير فى تهتز (ولى) موسى (مدبرا) ادبر عنها وجعلها تلى ظهره خوفا من وثوب الحية عليه (ولم يعقب) ولم يلتفت ولم يرجع يقال قد عقب فلان اذا رجع يقاتل بعد ان ولى فنودى (ياموسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون) اى لا يخاف عندى المرسلون حال خطابى اياهم او لا يخاف لدى المرسلون من غيرى (الا من ظلم) اى لكن من ظلم من غيرهم لان الانبياء لا يظلمون او لكن من ظلم منهم من زل من المرسلين فجاء غير ما أذنت له مما يجوز على الانبياء كما فرط من آدم ويونس وداود وسليمان عليهم السلام (ثم بدل حسنا) اى اتبع توبة (بعد سوء) زلة (فانى غفور رحيم) اقبل توبته واغفر زلته وارحمه فاحقق امنيته وكانه تعريض بما قال موسى حين قتل القبطى رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له

تستدفئون من البرد وكان فى شدة الشتاء (فلما جاءها نودى ان بورك من فى النار) اى بورك على من فى النار وقيل البركة راجعة الى موسى والملائكة والمعنى من فى طلب النار وهو موسى (ومن حولها) وهم الملائكة الذين حول النار وهذه تحية من الله عز وجل لموسى بالبركة وقيل المراد من النار النور ذكر بلفظ النار لان موسى حسبه نارا ومن فى النار هم الملائكة وذلك ان النور الذى رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتسبيح والتقديس ومن حولها موسى لانه كان بالقرب منها وقيل البركة راجعة الى النار قال ابن عباس معناه بوركت النار والمعنى بورك من فى النار ومن حولها وهم الملائكة وموسى وروى عن ابن عباس فى قوله بورك من فى النار يعنى قدس من فى النار وهو الله تعالى عنى به نفسه على معنى انه نادى موسى وأسمعه من جهتها كما روى انه مكتوب فى التوراة جاء الله من سيناء وأشرف من ساعين واستعلى من جبال فاران ومعنى مجيئه من سيناء بعثة موسى منه ومن ساعين بعثة المسيح ومن جبال فاران بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وفاران اسم مكة وقيل كانت النار بعينها وهى احدى حجب الله عز وجل كما صح فى الحديث حجابه النار لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه ثم نزه الله سبحانه وتعالى نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب فقال تعالى (وسبحان الله رب العالمين) ثم تعرف الى موسى بصفاته فقال الله (ياموسى انه انا الله العزيز الحكيم) قيل معناه ان موسى قال من المنادى قال انه انا الله وهذا تمهيد لما أراد الله ان يظهره على يده من المعجزات والمعنى انا القوى القادر على ما يبعد من الاوهام كقلب العصا حية وهو قوله (وألق عصاك) تقديره فالقاها فصارت حية (فلما رآها تهتز) اى تتحرك (كانها جان) وهى الحية الصغيرة التى يكثر اضطرابها (ولى مدبرا) اى هرب من الخوف (ولم يعقب) اى لم يرجع ولم يلتفت قال الله تعالى (ياموسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون) يريد اذا أمنتهم لا يخافون اما الخوف الذى هو شرط الايمان فلا يفارقهم قال النبى صلى الله عليه وسلم انا أخشاكم لله (الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم) قيل هو ما يصدر من الانبياء من ترك الافضل والصغيرة وقيل يحتمل ان يكون المراد منه التعريض بما وجد من موسى من قتل القبطى وهو من التعريضات اللطيفة وسماه ظلما لقول موسى انى ظلمت نفسى ثم انه خاف من ذلك فتاب قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له قال ابن جريج قال الله تعالى لموسى انما أخفتك لقتلك النفس ومعنى الآية لا يخيف الله الانبياء الا بذنب يصيبه أحدهم فان أصابه اخافه حتى يتوب فعلى هذا التأويل يكون صحيحا وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله الا من ظلم ثم ابتدأ الخبر عن حالة من ظلم من الناس كافة وفى الآية متروك استغنى عن ذكره لدلالة الكلام عليه تقديره ٣ الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم وقيل ليس هذا الاستثناء من المرسلين لانه لا يجوز عليهم الظلم بل هو استثناء من المتروك ومعناه لا يخاف لدى المرسلون انما الخوف عليهم من الظالمين وهذا الاستثناء المنقطع معناه لكن من ظلم من سائر الناس فانه يخاف فان تاب وبدل

(وادخل يدك فى جيبك) جيب قميصك وأخرجها (تخرج بيضاء) نيرة تغلب نور الشمس (من غير سوء) برص وبياض ومن غير حالان (فى تسع آيات) كلام مستأنف وفى يتعلق بمحذوف اى اذهب فى تسع آيات او والق عصاك وأدخل يدك فى جملة تسع آ (الى فرعون وقومه) الى يتعلق بمحذوف اى مرسلا الى فرعون وقومه (انهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن أمر الله كافرين ا جاءتهم آياتنا) اى معجزاتنا (مبصرة) حال اى ظاهرة بينة جعل الابصار لها وهو فى الحقيقة لمتأمليها لملابستهم اياها بالنظر والتفكر او جعلت كأنها تبصر فتهدى لان الاعمى لا يقدر على الاهتداء فضلا ان يهدى غيره ومنه قولهم كلمة عيناء وعوراء لان الكلمة الح ترشد والسيئة تغوى (قالوا هذا سحر مبين) ظاهر لمن تأمله وقد قوبل بين المبصرة والمبين (وجحدوا بها) قيل الجحود لا يكون الا من الجاحد وهذا ليس بصحيح لان الجحود هو الانكار وقد يكون الانكار للشئ للجهل به وقد يكون بعد المعرفة تعنتا كذا ذكر فى التأويلات وذكر فى الديوان يقال جحد حقه وبحقه بمعنى والواو فى (واستيقنتها) للحال وقد بعدها مضمرة والاستيقان أبلغ من الا (أنفسهم) اى جحدوها بالسنتهم ٤١٤ واستيقنوها فى قلوبهم وضمائرهم (ظلما) حال من الضمير فى جحدوا اى ظالم

من ظلم من استيقن انها آيات من عند الله ثم سماها سحرا بينا (وعلوا) ترفعا عن الايمان بما جاء به موسى (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وهو الاغراق هنا والاحراق ثمة (ولقد آتينا) أعطينا (داود وسليمان علما) طائفة من العلم او علما سنيا غزيرا والمراد علم الدين والحكم (وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) والآيات حجة لنا على المعتزلة فى ترك الاصلح وهنا محذوف ليصح عطف الواو عليه ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه الفاء كقولك أعطيته فشكر

حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم اى اغفر له وازيل خوفه وقيل الاهناء بمعنى ولا معناه ولا يخاف لدى المرسلون ولا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء يعنى تاب من ظلمه فانى غفور رحيم ثم ان الله تعالى اراه آية اخرى فقال تعالى (وادخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء) قيل كانت عليه مدرعة صوف لا كم لها والادرع فادخل يده فى جيبها واخرجها فاذا هى تبرق مثل شعاع الشمس او البرق (من غير سوء) اى من غير برص (فى تسع آيات) اى آية مع تسع آيات انت مرسل بهن فعلى هذا تكون الآيات احدى عشرة العصا واليد البيضاء والفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والجدب فى بواديهم والنقصان مزارعهم وقيل فى بمعنى من اى من تسع آيات فتكون اليد البيضاء من التسع (الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين) اى خارجين عن الطاعة (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) اى بينة واضحة يبصرونها (قالوا هذا اى الذى نراه (سحر مبين) اى ظاهر (وجحدوا بها) اى انكروا الآيات ولم يقروا انها من عند الله (واستيقنتها انفسهم) اى علموا انها من عند الله والمعنى انهم جحدوا بها بالسنتهم واستيقنوها بقلوبهم وضمائرهم (ظلما وعلوا) اى شركا وتكبرا عن ان يؤمنوا بما جاء به موسى (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) يعنى الغرق قوله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما) اى علم القضاء والسياسة وعلم الدين تسبيح الطير والجبال وعلم سليمان منطق الطير والدواب (وقالا الحمد لله الذى فضلنا) اى بالنبوة والكتاب والملك وتسخير الجن والانس (على كثير من عباده المؤمنين) أراد بالكثير الذين فضلا عليهم من لم يؤت علما اولم يؤت مثل علمهما وفيه انهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير وقيل انهما لم يقصدا أنفسهما على الكل وذلك يدل على حسن التواضع قوله تعالى (وورث سليمان داود) يعنى نبوته وعلمه وملكه دون سائر اولاده وكان لداود تسعة عشر ابنا وأعطى سليمان ما أعطى داود وزيد له تسخير الريح والجن والشياطين قال مقاتل كان سليمان أعظم ملكا من داود واقضى منه وكان داود أشد تعبدا من سليمان وكان سليمان شاكرا لنعم الله تعالى (وقال) يعنى سليمان (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) سمى صوت

الطير

وتقديره آتيناهما علما فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الذى فضلنا والكثير المفضل عليه من لم يؤت علما او من لم يؤت مثل علمهما وفيه انهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير وفى الآية دليل على شرف العلم وتقدم حملته وأهله وان نعمة العلم من أجل النعم وان من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباده وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثة الانبياء الا لما انهم لهذا الشرف والمنزلة لانهم القوام بما بعثوا من أجله وفيها انه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة ان يحمدوا الله على ما أوتوه وان يعتقد العالم انه فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم وما أحسن قول عمر رضى الله عنه كل الناس أفقه من عمر رضى الله عنه (وورث سليمان داود) ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر قالوا اوتى النبوة مثل أبيه فكانه ورثه والا فالنبوة لا تورث (وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير) تشهيرا لنعمة الله تعالى واعترافا بمكانها ودعاء للناس الى التصديق بذكر المعجزة التى هى علم منطق الطير والمعنى كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض روى انه صاح

الطير منطقا لحصول الفهم منه وروى عن كعب الاحبار قال صاح ورشان عند سليمان فقال أتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال انه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال انها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال انه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال أتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال انه يقول استغفروا ربكم يا مذنبين وصاحت طيطوى فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال فانها تقول كل حي ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول قدموا خيرا تجدوه وهدرت حمامة قال أتدرون ما تقول قالوا لا قال انها تقول سبحان ربي الاعلى ملء سمائه وأرضه وصاح قمري قال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول سبحان ربي الدائم والغراب يدعو على العشار والحدأة تقول كل شئ هالك الا وجهه والقطاة تقول من سكت سلم ولبغاء تقول ويل لمن كانت الدنيا همه والضفدع يقول سبحان ربي القدوس والبازي يقول سبحان ربي وبحمده والضفدعة تقول سبحان المذكور بكل لسان وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول الرحمن على العرش استوى وقال فرقد السبخي مر سليمان على جبل فوق شجرة يحرك رأسه و يميل ذنبه فقال لاصحابه أتدرون ما يقول هذا البلبل قالوا الله ونبيه أعلم قال انه يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وروى ان جماعة من اليهود قالوا لابن عباس انا سائلوك عن سبعة أشياء ان أخبرتنا آمنا وصدقنا قال سلوا تفقها لا تعنتا قالوا أخبرنا ما تقول القنبرة في صفيرها والديك في صعيقه والضفدع في نقيقه والحمار في نهيقه والفرس في صهيله وما ذا يقول الزرزور والدراج قال نعم اما القنبر فانه يقول اللهم العن مبغض محمد وآل محمد والديك يقول اذكروا الله يا غافلين وأما الضفدع فانه يقول سبحان الله المعبود في البحار وأما الحمار فانه يقول اللهم العن العشار وأما الفرس فانه يقول اذا التقى الجمعان سبوح قدوس رب الملائكة والروح وأما الزرزور فانه يقول اللهم انى أسئلك قوت يوم بيوم يا رزاق وأما الدراج فانه يقول الرحمن على العرش استوى فاسلم هؤلاء اليهود وحسن اسلامهم وروى عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم قال اذا صاح القنبر قال يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت واذا صاح العقاب قال البعد من الناس أنس واذا صاح القنبر قال اللهى العن مبغض محمد وآل محمد واذا صاح الخطاف قال الحمد لله رب العالمين ويبدأ العالمين كما يبدأ القارئ وقوله تعالى (وأوتينا من كل شئ) اى مما أوتى الانبياء والملوك قال ابن عباس من أمر الدنيا والآخرة وقيل النبوة والملك وتسخير الرياح والجن والشياطين (ان هذا لهو الفضل المبين) اى الزيادة الظاهرة على ما أعطى غيرنا وروى ان سليمان أعطى مشارق الارض ومغاربها فملك ذلك أربعين سنة فملك جميع الدنيا من الجن والانس والشياطين والطير والدواب والسباع وأعطى مع هذا منطق الطير ومنطق كل شئ وفى زمنه صنعت الصنائع العجيبة (وحشر) اى جمع (لسليمان جنوده من الجن والانس والطير)

الطير منطقا لحصول الفهم منه وروى عن كعب الاحبار قال صاح ورشان عند سليمان فقال أتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال انه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال انها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال انه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال أتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال انه يقول استغفروا ربكم يا مذنبين وصاحت طيطوى فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال فانها تقول كل حي ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول قدموا خيرا تجدوه وهدرت حمامة قال أتدرون ما تقول قالوا لا قال انها تقول سبحان ربي الاعلى ملء سمائه وأرضه وصاح قمري قال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول سبحان ربي الدائم والغراب يدعو على العشار والحدأة تقول كل شئ هالك الا وجهه والقطاة تقول من سكت سلم ولبغاء تقول ويل لمن كانت الدنيا همه والضفدع يقول سبحان ربي القدوس والبازي يقول سبحان ربي وبحمده والضفدعة تقول سبحان المذكور بكل لسان وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول الرحمن على العرش استوى وقال فرقد السبخي مر سليمان على جبل فوق شجرة يحرك رأسه و يميل ذنبه فقال لاصحابه أتدرون ما يقول هذا البلبل قالوا الله ونبيه أعلم قال انه يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وروى ان جماعة من اليهود قالوا لابن عباس انا سائلوك عن سبعة أشياء ان أخبرتنا آمنا وصدقنا قال سلوا تفقها لا تعنتا قالوا أخبرنا ما تقول القنبرة في صفيرها والديك في صعيقه والضفدع في نقيقه والحمار في نهيقه والفرس في صهيله وما ذا يقول الزرزور والدراج قال نعم اما القنبر فانه يقول اللهم العن مبغض محمد وآل محمد والديك يقول اذكروا الله يا غافلين وأما الضفدع فانه يقول سبحان الله المعبود في البحار وأما الحمار فانه يقول اللهم العن العشار وأما الفرس فانه يقول اذا التقى الجمعان سبوح قدوس رب الملائكة والروح وأما الزرزور فانه يقول اللهم انى أسئلك قوت يوم بيوم يا رزاق وأما الدراج فانه يقول الرحمن على العرش استوى فاسلم هؤلاء اليهود وحسن اسلامهم وروى عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم قال اذا صاح القنبر قال يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت واذا صاح العقاب قال البعد من الناس أنس واذا صاح القنبر قال اللهى العن مبغض محمد وآل محمد واذا صاح الخطاف قال الحمد لله رب العالمين ويبدأ العالمين كما يبدأ القارئ وقوله تعالى (وأوتينا من كل شئ) اى مما أوتى الانبياء والملوك قال ابن عباس من أمر الدنيا والآخرة وقيل النبوة والملك وتسخير الرياح والجن والشياطين (ان هذا لهو الفضل المبين) اى الزيادة الظاهرة على ما أعطى غيرنا وروى ان سليمان أعطى مشارق الارض ومغاربها فملك ذلك أربعين سنة فملك جميع الدنيا من الجن والانس والشياطين والطير والدواب والسباع وأعطى مع هذا منطق الطير ومنطق كل شئ وفى زمنه صنعت الصنائع العجيبة (وحشر) اى جمع (لسليمان جنوده من الجن والانس والطير)

(واوتينا من كل شئ) المراد به كثرة ما أوتى كما تقول فلان يعلم كل شئ ومثله واوتيت من كل شئ (ان هذا لهو الفضل المبين) قوله وارد على سبيل الشكر كقوله انا سيد ولد آدم ولا فخر اى أقول هذا القول شكرا ولا أقوله فخرا والنون في علمنا واوتينا نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا فكلم أهل طاعته على الحال التى كان عليها وليس التكبر من لوازم ذلك (وحشر) وجمع (لسليمان جنوده من الجن والانس والطير) روى ان معسكره كان مائة فرسخ في مائة فرسخ خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للانس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وابريسم فرسخا في فرسخ وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب وفضة فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الانبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه حر الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر و يروى انه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله تعالى اليه وهو يسير بين السماء والارض انى قد زدت في ملكك ان لا يتكلم أحد بشئ الا ألقته الريح في سمعك فيحكى انه مر بحراث فقال لقد أوتى آل داود ملكا عظيما فألقته الريح في اذنه فنزل ومشى الى الحراث وقال انى جئت اليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه

ثم قال للبسيطة واحدة يقبلها الله تعالى خيرا مما اوتى آل داود (فهم يوزعون) يحبس اولهم على آخرهم اى يوقف سلاف العسكر يلحقهم التوالى ليكونوا مجتمعين وذلك للكثرة العظيمة والوزع المنع ومنه قول عثمان رضى الله عنه ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن (حتى اذا أتوا على وادى النمل) اى سارا حتى اذا بلغوا وادى النمل وهو واد بالشام كثير النمل وعدى بعلى لان اتيانهم كان من فوق فاتى بحرف الاستعلاء (قالت نملة) عرجاء تسمى طاخية ومنذرة وعن قتادة انه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم فسأله ابو حنيفة رضى الله عنه وهو شاب عن نملة سليمان أكانت ذكرا ام انثى فاغتم فقال ابو حنيفة رضى الله عنه كانت أنثى فقيل له بماذا عرفت فقال بقوله قالت نملة ولو كانت ذكرا لقال قال نملة وذلك ان النملة مثل الحمامة فى وقوعها على الذكر والانثى فميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهى (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) ولم يقل ادخلن لانه لما جعلها قائلة والنمل مقولا لهم كما يكون فى أولى العقل أجرى خطابهن مجرى خطابهم (لا يحطمنكم) لا يكسرنكم والحطم الكسر وهو نهى مستأنف وهو فى الظاهر نهى لسليمان عن الحطم وفى الحقيقة نهى لهن عن البروز والوقوف على طريقة لا أرينك ههنا اى لا تحضر هذا الموضع وقيل هو جواب الامر وهو ضعيف لدفعه نون التأكيد لانه من ضرورات الشعر (سليمان وجنوده) قيل أراد لا يحطمنكم جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ (وهم لا يشعرون) لا يعلمون بمكانكم اى لو شعروا لم يفعلوا قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل فسمع سليمان قولها من ثلاثة اميال

من الاماكن المختلفة فى مسيره له (فهم يوزعون) اى يحبسون حتى يرد اولهم على آخرهم قيل كان على جنوده وزعة من النقباء ترد أولها على آخرها لئلا يتقدموا فى المسير قال محمد بن كعب القرظى كان معسكر سليمان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للانس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير والفرسخ اثنا عشر ألف خطوة فالبريد ثمانية وأربعون ألف خطوة لانه أربعة فراسخ فجملة ذلك خمسة وعشرون بريدا وقيل نسجت الجن له بساطا من ذهب وابر فرسخا فى فرسخ وكان يوضع كرسيه فى وسطه فيقعد وحوله كراسى الذهب والفضة فيقعد الانبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة والناس حوله والجن والشياطين حول الناس والوحوش حولهم وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه شمس وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة يعنى حرة وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فيرفعه ثم يأمر الرخاء فتسير به وأوحى الله اليه وهو يسير بين السماء والارض انى قد زدت فى ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشئ الا جاءت الريح وأخبرتنى به * قوله عز وجل (حتى اذا أتوا على وادى النمل) اى اشرفوا على وادى النمل روى عن كعب الاحبار قال كان سليمان اذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه وقد اتخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد والقدور العظام تسع كل قدر عشرة من الابل فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون ويسير بين السماء والارض واتخذ ميادين للدواب فتجرى بين يديه والريح تهوى به فسار من اصطخر يريد الشام فسلك على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال سليمان هذه دار هجرة نبى يكون فى آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه ولما وصل مكة رأى حول البيت أصناما تعبد فجاوزه سليمان فلما جاوزه بكى البيت فأوحى الله اليه ما يبكيك قال يا رب ابكانى هذا نبى من أنبيائك ومعه قوم من أوليائك يرون على ولم يهبطوا ولم يصلوا عندى والاصنام تعبد حولى من دونك فأوحى الله اليه لا تبك فانى سوف أملؤه وجوها سجدا وأنزل فيك قرآنا جديدا وأبعث منك نبيا فى آخر الزمان أحب أنبيائى الى واجعل قبلة عمارا من خلقى يعبدوننى وافرض عليهم فريضة يزفون اليك زفيف النسر الى وكرها ويحنون اليك حنين الناقة الى ولدها والحمامة الى بيضها وأطهرك من الاوثان والاصنام والشيطان ثم مضى سليمان حتى مر بوادى السدير وادى الطائف فأتى على وادى النمل كذا قال كعب الاحبار وقيل انه بالشام وقيل هو واد يسكنه الجن وذلك النمل مراكبهم وقيل ان ذلك النمل أمثال الذباب وقيل كالبخاتى والمشهور انه النمل الصغير (قالت نملة) قيل كانت عرجاء وكانت ذات جناحين وقيل اسمها طاخية وقيل حرمى (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) ولم يقل ادخلن لانه جعل لهم عقولا كالآدميين فخوطبوا خطاب الآدميين وهذا ليس ببعيد أن يخلق الله فيها عقلا ونطقا فانه قادر على ذلك (لا يحطمنكم) اى لا يكسرنكم (سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) قال أهل التفسير علمت النملة ان سليمان نبى ليس فيه جبروتية ولا ظلم ومعنى الآية انكم لو لم تدخلوا وطؤكم ولم يشعروا بكم فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال وكان لا يتكلم أحد بشئ الا حملته الريح حتى تلقيه الى مسامع سليمان فلما بلغ وادى النمل جنوده حتى دخلوا بيوتهم فان قلت كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وهو فوق البساط على متن الريح قلت كانهم أرادوا النزول عند منقطع الوادى فلذلك قالت نملة لا يحطمنكم سليمان وجنوده لانهم

(فتبسم ضاحكا من قولها) متعجبا من حذرها واهتدائها لمصالحها ونصيحتها للنمل وفرحا لظهور عدله وضاحكا حال مؤكدة لان التبسم يعني ضحك وأكثر ضحك الانبياء التبسم كذا قاله الزجاج (وقال رب اوزعني) ألهمني وحقيقته كفني عن الاشياء الا عن شكر نعمتك (ان اشكر نعمتك التي انعمت علي) من النبوة والملك والعلم (وعلى والدي) لان الانعام على الوالدين انعام على الولد (وان اعمل صالحا ترضاه) في بقية عمري (وادخلني برحمتك) والدخلني الجنة برحمتك لا بصالح عملي اذ لا يدخل الجنة احد الا برحمته كما جاء في الحديث (في عبادك الصالحين) اي في زمرة انبيائك المرسلين ومع عبادك الصالحين روي ان النملة احست بصوت الجنود ولا تعلم انهم في الهواء فامر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخان مساكنهن ثم دعا بالدعوة (وتفقد الطير ٤١٧ فقال مالي) مكي وعلي وعاصم

مادامت الريح تحملهم لا يخاف حطمهم (فتبسم ضاحكا من قولها) قيل اكثر ضحك الانبياء تبسما وقيل معنى ضاحكا متبسما وقيل كان أوله التبسم وآخره الضحك (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته انما كان يتبسم * عن عبد الله بن الحرث بن جزء قال ما رأيت احدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه الترمذي فان قلت ما كان سبب ضحك سليمان قلت شيئان احدهما ما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وذلك قولها وهم لا يشعرون يعني انهم لو شعروا ما يفعلون الثاني سروره بما آتاه الله مما لم يؤت احدا من ادراك سمعه ما قالته النملة وقيل ان الانسان اذا رأى او سمع ما لا عهد له به تعجب وضحك ثم ان سليمان حمد ربه على ما أنعم به عليه (وقال رب اوزعني) اي ألهمني (ان أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) اي ادخلني في جملتهم واثبت اسمي مع اسمائهم واحشرني في زمرتهم قال ابن عباس يريد مع ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين وقيل ادخلني الجنة مع عبادك الصالحين قوله عز وجل (وتفقد الطير) اي طلبها وبحث عنها والمعنى انه طلب ما فقد من الطير (فقال مالي لا أرى الهدهد) وكان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه اخلاله بالنوبة وذلك ان سليمان كان اذا نزل منزلا تظله وجنده الطير من الشمس فاصابته الشمس من موضع الهدهد فنظر فرآه خاليا وروي عن ابن عباس انه كان دليله على الماء وكان يعرف موضع الماء ويرى الماء تحت الارض كما يرى في الزجاجة ويعرف قربه من بعده فينقر الارض فتجيء الشياطين فيحفرونه ويستخرجون الماء منه قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس هذا قال نافع بن الازرق يا وصاف انظر ما تقول ان الصبي منا يضع الفخ ويحثو عليه التراب فيجيء الهدهد وهو لا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه فقال له ابن عباس ويحك اذا جاء القدر حال دون البصر وفي رواية اذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمي البصر فنزل سليمان منزلا واحتاج الى الماء فطلبوه فلم يجدوه فتفقد الهدهد لدله على الماء فقال مالي لا أرى الهدهد على تقدير انه مع جنوده وهو لا يراه ثم انه ادركه الشك فقال (أم كان من الغائبين) اي أكان وقيل بل كان من الغائبين ثم أوعده على غيبته فقال (لأعذبنه عذابا شديدا) قيل هو أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس معطلا يمتنع من النمل ولا من غيره وقيل لأودعنه القفص ولأحبسنه مع ضده وقيل لأفرقن بينه وبين الفه (أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين) اي بحجة بينة على غيبته وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء ان سليمان لما فرغ من

وغيرهم بسكون الياء والتفقد طلب ما غاب عنك (لا أرى الهدهد ام كان من الغائبين) ام بمعنى بل والمعنى انه تعرف الطير فلم يجد فيها الهدهد فقال مالي لا اراه على معنى انه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره او غير ذلك ثم لاح له انه غائب فاضرب عن ذلك واخذ يقول بل هو غائب وذكر ان سليمان عليه السلام لما حج خرج الى اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال فنزل ليصلي فلم يجد الماء وكان الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الارض كما يرى الماء في الزجاجة فتستخرج الشياطين الماء فتفقده لذلك وذكر انه وقعت نفحة من الشمس على راس سليمان فنظر فاذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله

عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب علي به فارتفع فنظر فاذا هو مقبل فقصده فناشده الله فتركه فلما قرب من سليمان ارخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الارض وقال يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله فارتعد سليمان وعفا عنه (لأعذبنه عذابا شديدا) بنتف ريشه والقائه في الشمس او بالتفريق بينه وبين الفه او بالزامه خدمة اقرانه او بالحبس مع اضداده وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الاضداد او بايداعه القفص او بطرحه بين يدي النمل ليأكله وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة كما حل ذبح البهائم والطيور للاكل وغيره من المنافع واذا سخر له الطير لم يتم التسخير الا بالتأديب والسياسة (أو لأذبحنه او ليأتيني) بالنون الثقيلة ليشاكل قوله لأعذبنه وحذف نون العماد للتخفيف ليأتيني بنونين مكي الاولى نون التأكيد والثانية للعماد (بسلطان مبين) بحجة له فيها عذر ظاهر على غيبته والاشكال انه حلف على احد ثلاثة اشياء اثنان منها فعله

ولا مقال فيه والثالث
فعل الهدهد وهو مشكل
لانه من اين درى انه يأتى
بسلطان حتى قال والله
ليأتينى بسلطان وجوابه
ان معنى كلامه ليكونن
احد الامور يعنى ان كان
الاتيان بالسلطان لم يكن
تعذيب ولا ذبح وان لم
يكن كان احدهما وليس
فى هذا ادعاء درايه (فمكث)
الهدهد بعد تفقد سليمان
اياه و بضم الكاف غير
عاصم وسهل و يعقوب
وهما لغتان (غير بعيد)
اى مكثا غير طويل او غير
زمان بعيد كقوله عن
قريب ووصف مكثه
بقصر المدة للدلالة على
اسراعه خوفا من سليمان
فلما رجع سأله عما لقى
فى غيبته (فقال أحطت)
علمت شيأ من جميع جهاته
(بما لم تحط به) ألهم الله
الهدهد فكافح سليمان
بهذا الكلام مع ما أوتى
من فضل النبوة والعلوم
الجمة ابتلاء له فى علمه
وفيه دليل بطلان قول
الرافضة ان الامام لا يخفى
عليه شئ ولا يكون فى زمانه
احد أعلم منه (وجئتك
من سبا) غير منصرف ابو
عمرو جعله اسما للقبيلة
او المدينة وغيره بالتنوين
جعله اسما للحى او الاب
الاكبر

بناء بيت المقدس عزم على الخروج الى ارض الحرم فتجهز للمسير واستصحب جنوده من الجن والانس
والطير والوحش فحملتهم الريح فلما وافى الحرم أقام ماشاء الله أن يقيم وكان فى كل يوم ينحر طول عشرة
خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين الف شاة وقال لمن يحضر من اشراف قومه ازوروا
المكان يخرج منه نبى عربى صفته كذا وكذا يعطى النصرة على جميع من ناواه وتبلغ هيبته مسيرة شهر
القريب والبعيد عنده فى الحق سواء لا تأخذه فى الله لومة لائم قالوا فبأى دين يتدين يا نبى الله قال بدين
الحنيفية فطوبى لمن أدركه وآمن به قالوا كم بيننا وبين خروجه يا نبى الله قال مقدار ألف سنة فليبلغ
الشاهد الغائب فانه سيد الانبياء وخاتم الرسل قال فاقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج من مكة صباحا
وسار نحو اليمن فوافى صنعاء زوالا أى وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى ارضا حسناء تزهو خضرة
فاحب النزول بها ليصلى و يتغدى فلما نزل قال الهدهد اشتغل سليمان بالنزول فارتفع نحو السماء ليطلع
الى الدنيا وعرضها فبينما هو ينظر يمينا وشمالا رأى بستانا لبلقيس فنزل اليه فاذا هو بهدهد آخر وكان
اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن يعفير فقال يعفير ليعفور من أين أقبلت وأين تريد قال
أقبلت من الشام مع صاحبى سليمان بن داود قال ومن سليمان بن داود قال ملك الانس والجن
والشياطين والطير والوحش والرياح فمن أين انت يا يعفير قال أنا من هذه البلاد قال ومن ملكها قال امرأة
يقال لها بلقيس وان لصاحبك ملكا عظيما ولكن ليس ملك بلقيس دونه فانها تملك اليمن وتحت يدها
اربعمائة ملك وكل ملك على كورة مع كل ملك اربعة آلاف مقاتل ولها ثلثمائة وزير يدبرون ملكها
ولها اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل فهل انت منطلق معى حتى تنظر الى ملكها قال
اخاف أن يفقدنى سليمان فى وقت الصلاة اذا احتاج الى الماء قال الهدهد اليمانى ان صاحبك يسير ولا
تأتيه بخبر هذه الملكة قال فانطلق معه ونظر الى بلقيس وملكها وأما سليمان فانه نزل على غير ماء فسأل
عن الماء الانس والجن فلم يعلموا فتفقد الهدهد فلم يره فدعا بعريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد
فقال أصلح الله الملك ما أدرى اين هو وما ارسلته الى مكان فغضب سليمان وقال لأعذبنه الا يأتينى
العقاب وهو أشد الطير فقال له على بالهدهد هذه الساعة فرفع العقاب فى الهواء حتى رأى الدنيا كالقصعة بين
يدى احدكم ثم التفت يمينا وشمالا فرأى الهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب يريده فعلم الهدهد
ان العقاب يقصده بسوء فقال له بحق الله الذى قواك وأقدرك على الامار حمتنى ولم تتعرض لى بسوء فرحمه
العقاب وقال و يحك ثكلتك أمك ان نبى الله قد حلف ان يعذبك أو ان يذبحك ثم طار امتو جهين نحو
سليمان فلما انتهيا الى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا و يلك أين غبت فى يومك هذا فلقد توعدك نبى
الله واخبروه بما قال سليمان فقال الهدهد أوما استثنى نبى الله قالوا بلى ولكنه قال اولياتينى بسلطان مبين
قال نجوت اذا فانطلق به العقاب حتى أتيا سليمان وكان قاعدا على كرسيه فقال العقاب قد أتيتك به يا نبى
الله فلما قرب منه الهدهد رفع رأسه وارخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الارض تواضعا لسليمان فلما دنا
منه اخذ برأسه فمده اليه وقال له أين كنت لأعذبنك عذابا شديدا فقال يا نبى الله اذكر وقوفك بين
يدى الله فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه ثم قال ما الذى أبطأك عنى فقال الهدهد ما اخبرك الله
بقوله تعالى (فمكث غير بعيد) معناه اى غير طويل (فقال أحطت بما لم تحط به) اى علمت ما لم
و بلغت ما لم تبلغ انت ولا جنودك ألهم الله الهدهد هذا الكلام فكافح سليمان تنبيها على ان أدنى خلق
الله قد أحاط علما بما لم يحط به ليكون لطفا له فى ترك الاعجاب والاحاطة بالشئ علما ان يعلمه من جميع
جهاته حتى لا يخفى عليه منه معلوم (وجئتك من سبا) قيل هو اسم للبلد وهى مأرب والاصح انه
رجل وهو سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقد جاء فى الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن

لما قال رجل له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم اربعة (بنبإ) اى بخبر (يقين) فقال سليمان وما ذاك فقال (انى) اى الهدهد (وجدت امرأة تملكهم) هى بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان وكان ابوها ملكا عظيم الشأن قد ولده اربعون ملكا هو آخرهم وكان يملك ارض اليمن كلها وكان يقول الملوك الاطراف ليس احد منكم كفؤا لى وأبى أن يتزوج منهم فخطب الى الجن فزوجوه منهم امرأة يقال لها ريحانة بنت السكن قيل فى سبب وصوله الى الجن حتى خطب منهم انه كان كثير الصيد فربما اصطاد الجن وهم على صورة الظباء فيخلى عنهم فظهر له ملك الجن وشكره على ذلك واتخذه صديقا فخطب ابنته فزوجه اياها وقيل انه خرج متصيدا فرأى حيتين يقتتلان بيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء على البيضاء فقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها الماء فأفاقت واطلقها فلما رجع الى داره وجلس وحده منفردا فاذا معه شاب جميل فخاف منه قال لا تخف أنا الحية البيضاء التى احييتنى والاسود الذى قتلته هو عبد لنا تمرد علينا وقتل عدة منا وعرض عليه المال فقال المال لا حاجة لى به ولكن ان كان لك بنت فزوجنيها فزوجه ابنته فولدت له بلقيس وجاء فى الحديث ان احد أبوى بلقيس كان جنيا فلما مات ابو بلقيس طمعت فى الملك وطلبت قومها أن يبايعوها فاطاعها قوم وابى آخرون وملكوا عليهم رجلا آخر يقال انه ابن أخى الملك وكان خبيثا سيئ السيرة فى أهل مملكته حتى كان يمد يده الى حريم رعيته ويفجر بهن فاراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فارسلت اليه فعرضت نفسها عليه فاجابها الملك وقال ما منعنى أن أبتدئك بالخطبة الا اليأس منك فقالت لا ارغب عنك لانك كفؤ كريم فاجمع رجال اهلى واخطبنى منهم فجمعهم وخطبها فقالوا لا نراها تفعل فقال بلى انها قد رغبت فى فذكروا ذلك لها فقالت نعم فزوجوها منه فلما زفت اليه خرجت فى ملا كثير من خدمها وحشمها فلما دخلت به سقته الخمر حتى سكر ثم قتلته وخرت رأسه وانصرفت الى منزلها من الليل فلما أصبحت ارسلت الى وزرائه واحضرتهم وقرعتهم وقالت أما كان فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته ثم أرتهم اياه قتيلا وقالت اختاروا رجلا تملكونه عليكم فقالوا لا نرضى غيرك فملكوها وعلموا ان ذلك النكاح كان مكرا وخديعة منها (خ) عن ابى بكرة قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال لن يفلح قوم ملكوا عليهم امرأة قوله تعالى (وأوتيت من كل شئ) يعنى ما تحتاج اليه الملوك من المال والعدة (ولها عرش عظيم) اى سرير ضخم عال فان قلت كيف استعظم الهدهد عرشها على ما رأى من عظمة ملك سليمان قلت يحتمل انه استعظم ذلك بالنسبة اليها ويحتمل انه لم يكن لسليمان مع عظم ملكه مثله وكان عرش بلقيس من الذهب مكللا بالدر والياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد وعليه سبعة ابيات على كل بيت باب مغلق قال ابن عباس كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعا فى ثلاثين ذراعا وطوله فى السماء ثلاثون ذراعا وقيل كان طوله ثمانين فى ثمانين وعلوه ثمانين وقيل كان طوله ثمانين وعرضه اربعين وارتفاعه ثلاثون ذراعا * قوله عز وجل اخبارا عن الهدهد (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) وذلك انهم كانوا يعبدون الشمس وهم مجوس (وزين لهم الشيطان أعمالهم) المزين هو الله لانه الفعال لما يريد وانما ذكر الشيطان لانه سبب الاغواء (فصدهم عن السبيل) اى عن طريق الحق الذى هو دين الاسلام (فهم لا يهتدون) اى الى الصواب (ألا يسجدوا) قرئ بالتخفيف ومعناه الا يا ايها الناس

هى بلقيس بنت شراحيل وكان ابوها ملك ارض اليمن ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس والضمير فى (تملكهم) راجع الى سبا على تأويل القوم او أهل المدينة (وأوتيت) حال وقد مقدرة (من كل شئ) من اسباب الدنيا ما يليق بحالها (ولها عرش) سرير (عظيم) كبير قيل كان ثمانين ذراعا فى ثمانين ذراعا وطوله فى الهواء ثمانون ذراعا وكان من ذهب وفضة وكان مرصعا بانواع الجواهر وقوائمه من ياقوت احمر واخضر وزمرد وعليه سبعة ابيات على كل بيت باب مغلق واستصغر حالها الى حال سليمان فاستعظم عرشها لذلك وقد أخفى الله تعالى على سليمان ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب عليهما السلام (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل) اى سبيل

فهم لا يهتدون الى ان يسجدوا و بالتخفيف يزيد وعلى وتقديره الا ياهؤلاء اسجدوا فالا للتنبيه و يكون يا للنداء ومناداه محذوف شدد لم يقف الا على العرش العظيم ومن خفف وقف على فهم لا يهتدون ثم ابتدأ الا يا اسجدوا أو وقف على الا يا ثم ابتدأ اسجدوا وسجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعا بخلاف ما يقوله الزجاج انه لا يجب السجود مع التشديد لان مواضع السجدة اما امر بها او مدح للآ بها او ذم لتاركها واحدى القراءتين امر والاخرى ذم للتارك (الله الذى يخرج الخبء) سمى المخبأ بالمصدر (فى السموات والارض) فى خبء السماء المطر وخبء الارض النبات (ويعلم ما يخفون وما يعلنون) وبالتاء فيهما على وحفص (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) وصف الهدهد عرش الله بالعظيم تعظيما له بالنسبة الى سائر ما خلق من السموات والارض ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالاضافة الى عروش ابناء جنسها من الملوك الى ههنا كلام الهدهد فلما فرغ من كلامه (قال) سليمان للهدهد (سننظر) من النظر الذى هو التأمل (أصدقت) فيما أخبرت (ام كنت من الكاذبين) وهذا أبلغ من أم كذبت لانه اذا كان معروفا بالانخراط فى سلك الكاذبين كان كاذبا لا محالة واذا كان كاذبا اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به ثم كتب سليمان كتابا صورته من عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبا بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى اما بعد فلا تعلوا على واتونى مسلمين وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد (اذهب بكتابى هذا فألقه)

اسجدوا وهو امر من الله مستأنف وقرئ بالتشديد ومعناه وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا (لله الذى يخرج الخبء) يعنى المخفى المخبأ (فى السموات والارض) قيل خبء السموات المطر وخبء الارض النبات (ويعلم ما يخفون وما يعلنون) والمقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وغيرها من دون الله لانه لا يستحق العبادة الا من هو قادر على من فى السموات والارض عالم بجميع المعلومات (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) اى هو المستحق للعبادة والسجود لا غيره

(فصل) وهذه السجدة من عزائم السجود يستحب للقارئ والمستمع ان يسجد عند قراءتها فان قلت قد وصف عرش بلقيس بالعظم وعرش الله بالعظم فما الفرق بينهما قلت وصف عرش بلقيس بالعظم بالنسبة اليها والى أمثالها من ملوك الدنيا وأما عرش الله تعالى فهو بالنسبة الى جميع المخلوقات من السموات والارض فحصل الفرق بينهما فلما فرغ الهدهد من كلامه (قال) سليمان (سننظر أصدقت) اى فيما أخبرت (أم كنت من الكاذبين) ثم ان الهدهد دلهم على الماء فاحتفروا الركايا وروى النابغة والدواب ثم ان سليمان كتب كتابا صورته من عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبا بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى اما بعد ان لا تعلوا على وأتونى مسلمين قيل لم يزد على ما نص الله فى كتابه وكذلك الانبياء كانوا يكتبون جملا لا يطيلون ولا يكثرون فلما كتب سليمان الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد (اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم) انما قال اليهم بلفظ الجمع لانه جعل جوابا القول الهدهد وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال فألقه الى الذين هذا دينهم (ثم تول عنهم) اى تنح عنهم فقف قريبا منهم (فانظر ماذا يرجعون) اى يردون من الجواب وقيل تقدير الآية فألقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم اى انصرف الى فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به الى بلقيس وكانت بارض مأرب من اليمن على ثلاث مراحل من صنعاء فوجدها نائمة مستلقية على قفاها وقد غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها وكذلك كانت تفعل اذا رقدت فأتى الهدهد وألقى الكتاب على نحرها وقيل جعل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على المرأة وحولها القادة والوزراء والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون فرفعت بلقيس رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وقال وهب بن منبه كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع فيها حين تطلع فاذا نظرت اليها سجدت لها فجاء الهدهد وسد الكوة بجناحيه فارتفعت الشمس ولم تعلم فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى بالصحيفة اليها فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لان ملك سليمان كان فى خاتمه وعرفت ان الذى أرسل الكتاب أعظم ملكا منها فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد وجاءت هى حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم الاشراف وقال ابن عباس كان مع بلقيس مائة قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل الملك

يسكون الهاء تخفيفا أبو عمرو وعاصم وحمزة ويختلسها كسر التدل الكسرة على الياء المحذوفة يزيد وقالون ويعقوب فالفهى بالياء غيرهم (اليهم) الى بلقيس وقومها لانه ذكرهم معها فى قوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس وبنى الخطاب فى الكتاب على الجمع لذلك (ثم تول عنهم) تنح عنهم الى مكان قريب بحيث تراهم ولا يرونك ليكون ما يقولونه بمسمع منك (فانظر ماذا يرجعون) الذى يردونه من الجواب فاخذ الهدهد الكتاب بمنقاره ودخل عليها من كوة فطرح الكتاب على نحرها وهى راقدة وتوارى فى الكوة فانتبهت فزعة اوأتاها والجنود حواليها فرفرف ساعة والقى الكتاب فى حجرها وكانت قارئة فلما رأت الخاتم

(قالت) لقومها خاضعة خائفة (يا ايها الملأ انى) وبفتح الياء مدنى (القى الى كتاب كريم) حسن مضمونه ومافيه او مختوم قال عليه الصلاة والسلام كرم الكتاب ختمه وقيل من كتب الى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به او مصدر بسم الله الرحمن الرحيم اولانه من عند ملك كريم (انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) هو تبيين لما القى اليها كانها لما قالت انى ألقى الى كتاب كريم قيل لها ممن هو وما هو فقالت انه من سليمان وانه كيت وكيت وان فى (الا تعلوا) لا تترفعوا (على) ولا تتكبروا كما تفعل الملوك مفسرة كقوله وانطلق الملأ منهم ان امشوا يعنى اى امشوا (وائتونى مسلمين) مؤمنين او منقادين وكتب الانبياء مبنية على الايجاز والاختصار (قالت يا أيها الملأ افتونى فى امرى) اشيروا على فى الامر الذى نزل بى والفتوى الجواب فى الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتاء فى السن والمراد هنا بالفتوى الاشارة عليها بما عندهم من الراى وقصدها بالرجوع الى استشارتهم تطييب انفسهم ليما لؤها ويقوموا معها (ما كنت قاطعة امرا) فاصلة او ممضية حكما (حتى تشهدون) بكسر النون والفتح لحن لان النون

انما تفتح فى موضع الرفع وهذا فى موضع النصب واصله تشهدونني فحذفت النون الاولى للنصب والياء لدلالة الكسرة عليها وبالياء فى الوصل والوقف يعقوب اى تحضرونى او تشيرون على اوتشهدوا انه صواب اى لا ابت الامر الا بحضركم وقيل كان اهل مشورتها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا كل واحد على عشرة آلاف (قالوا) مجيبين لها (نحن اولوا قوة واولوا باس شديد) ارادوا بالقوة قوة الاجساد والآلات وبالباس النجدة والبلاء فى الحرب (والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين) اى موكول

الملك دون الملك الاعظم وقيل كان أهل مشورتها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف فلما جاؤا وأخذوا مجالسهم (قالت) لهم بلقيس (يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم) قيل سمته كريما لانه كان مختوما وروى ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كرامة الكتاب ختمه وقال ابن عباس كريم اى شريف لشرف صاحبه ثم بينت ممن الكتاب فقالت (انه من سليمان) قرأت المكتوب فيه فقالت (وانه بسم الله الرحمن الرحيم) فان قلت لم قدم انه من سليمان على بسم الله قلت ليس هو كذلك بل ابتدأ سليمان ببسم الله الرحمن الرحيم وانما ذكرت بلقيس ان هذا الكتاب من سليمان ثم ذكرت ما فى الكتاب فقالت وانه بسم الله الرحمن الرحيم (ألا تعلوا على) قال ابن عباس لا تتكبروا على والمعنى لا تمتنعوا من الاجابة فان ترك الاجابة من العلو والتكبر (وائتونى مسلمين) اى طائعين مؤمنين وقيل من الاستسلام وهو الانقياد (قالت يا أيها الملأ افتونى فى أمرى) اى أشيروا على فيما عرض لى (ما كنت قاطعة أمرا) اى قاضية وفاصلة (حتى تشهدون) اى تحضرون (قالوا) يعنى الملأ مجيبين لها (نحن أولوا قوة) اى فى الجسم على القتال (وأولوا بأس شديد) اى عند الحرب وقيل المراد بالقوة كثرة العدد والبأس والشجاعة وهذا تعريض منهم بالقتال اى ان أمرتهم بذلك ثم قالوا (والأمر اليك) أيتها الملكة اى فى القتال وتركه (فانظرى ماذا تأمرين) اى تجدينا مطيعين لامرك (قالت) بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال ومايؤل اليه أمره (ان الملوك اذا دخلوا قرية) اى عنوة (أفسدوها) اى خربوها (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) اى أهانوا أشرافها وكبراءها كى يستقيم لهم الامر تحذرهم بذلك مسير سليمان اليهم ودخوله بلادهم ثم تناهى الخبر عنها هنا وصدق الله قولها فقال تعالى (وكذلك يفعلون) اى كما قالت هى يفعلون وقيل هو من قولها وهو للتأكيد لما قالت ثم قالت (وانى مرسلة اليهم بهدية) اى الى سليمان وقومه أصانعه بها على ملكى واختبره بها أملك هو أم نبى فان كان ملكا قبل الهدية ورجع وان كان نبيا لم يقبل الهدية ولم يرضه منا الا ان نتبعه فى دينه وهو قولها (فناظرة بم يرجع المرسلون) وذلك ان بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة قد ساست الامور وجربتها فاهدت

اليك ونحن مطيعون لك فمرينا بامرك نطعك ولا نخالفك كانهم اشاروا عليها بالقتال اوارادوا نحن من ابناء الحرب لا من ابناء الراى والمشورة وانت ذات الراى والتدبير فانظرى ماذا ترين نتبع رايك فلما احست منهم الميل الى المحاربة مالت الى المصالحة ورتبت الجواب فزيفت اولا ما ذكروه وارتهم الخطا فيه حيث (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية) عنوة وقهرا (افسدوها) خربوها (وجعلوا اعزة اهلها اذلة) اذلوا اعزتها واهانوا اشرافها وقتلوا واسروا فذكرت لهم سوء عاقبة الحرب ثم قالت (وكذلك يفعلون) ارادت وهذه عادتهم المستمرة التى لا تتغير لانها كانت فى بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك ورات ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية ومارات من الراى السديد وقيل هو تصديق من الله لقولها واحتج الساعى فى الارض بالفساد بهذه الآية ومن استباح حراما فقد كفر واذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين (وانى مرسلة اليهم بهدية) اى مرسلة رسلا بهدية (فناظرة) فمنتظرة (بم) اى بماذا لان الالف تحذف مع حرف الجر فى الاستفهام (يرجع المرسلون) بقبولها لم يردها لانها عرفت عادة الملوك وحسن مواقع الهدايا عندهم فان كان ملكا قبلها وانصرف وان كان نبيا يردها ولم يرض منا الا ان نتبعه على دينه فبعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب

الجوارى وحليهن راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك في زي
الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت ر

وصفاء ووصائف قال ابن عباس مائة وصيف ومائة وصيفة قال وهب وغيره عمدت بلقيس الى خمسمائة
غلام وخمسمائة جارية فالبست الجوارى لبس الغلمان الاقبية والمناطق والبست الغلمان لبس
الجوارى وجعلت فى أيديهم أساور الذهب وفى أعناقهم اطواق الذهب وفى آذانهم أقرطة وشنوفا
مرصعات بانواع الجواهر وحملت الجوارى على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون على كل
فرس سرج من الذهب مرصع بالجواهر وأغشية الديباج وبعثت اليه لبنات من الذهب ولبنات من الفضة
وتاجا مكللا بالدر والياقوت وأرسلت بالمسك والعنبر والعود اليلنجوج وعمدت الى حق جعلت فيه درة
بقيمة ثمينة غير مثقوبة وخرزة جزع معوجة الثقب ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو
وضمت اليه رجالا من قومها أصحاب عقل ورأى وكتبت مع المنذر كتابا تذكر فيه الهدية وقالت ان كنت
نبيا ميز بين الوصفاء والوصائف واخبرنا بما فى الحق قبل ان تفتحه واثقب الدرة ثقبا مستويا وادخل فى
الخرزة خيطا من غير علاج انس ولا جن وأمرت بلقيس الغلمان فقالت اذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام
تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء وأمرت الجوارى ان يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ثم قالت
للرسول انظر الى الرجل اذا دخلت فان نظر اليك نظرا فيه غضب فاعلم انه ملك فلا يهولنك أمره ومنظره
فانا أعز منه وان رأيت الرجل بشاشا لطيفا فافهم انه نبي فتفهم قوله ورد الجواب فانطلق الرسول بالهدايا
وأقبل الهدهد مسرعا الى سليمان فاخبره الخبر فامر سليمان الجن ان يضربوا لبنا من الذهب والفضة
ففعلوا وأمرهم بعمل ميدان مقدار تسعة فراسخ وان يفرشوا لبن الذهب والفضة وان يخلوا مقدار تلك
اللبنات التى معهم وان يعملوا حائطا شرفه من الذهب والفضة ففعلوا ثم قال اى دواب البر والبحر احسن
فقالوا يا نبي الله ما رأينا أحسن من دواب البحر يقال لها كذا وكذا مختلفة ألوانها لها أجنحة واعراف
ونواص قال على بها الساعة فاتوا بها قال شدوها بين يمين الميدان وشماله ثم قال للجن على باولادكم فاجتمع
منهم خلق كثير فاقامهم على يمين الميدان وشماله ثم قعد سليمان فى مجلسه على سريره ووضع له اربعة
آلاف كرسى على يمين الميدان وعلى شماله وامر الانس والجن والشياطين والوحوش والطير والسباع
فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله فلما دنا القوم الى الميدان ونظروا الى ملك سليمان رأوا اول الامر
الدواب التى لا يرى مثلها تروث فى لبنات الذهب والفضة فلما راوا ذلك تقاصرت انفسهم وخبؤا ما معهم
من الهدايا وقيل ان سليمان فرش الميدان بلبنات الذهب والفضة وترك على طريقهم موضعا على قدر
ما معهم من اللبن فى ذلك الموضع فلما رأى الرسل موضع اللبنات خاليا خافوا ان يتهموا بذلك فوضعوا
ما معهم من اللبن فى ذلك الموضع ولما رأوا الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا فقالت لهم الشياطين جوزوا
لا بأس عليكم فكانوا يمرون على كراديس الانس والجن والوحش والطير حتى وقفوا بين يدى سليمان
فاقبل عليهم بوجه طلق وتلقاهم تلقيا حسنا وسألهم عن حالهم فاخبره رئيس القوم بما جاؤا فيه واعطوه
كتاب الملكة فنظر فيه وقال اين الحق فاتى به فحركه فجاءه جبريل فاخبره بما فيه فقال لهم ان فيه درة ثمينة غير
مثقوبة وخرزة معوجة الثقب قال الرسول صدقت فاثقب الدرة وادخل الخيط فى الجزعة فقال سليمان
من لى بثقبها وسأل الانس والجن فلم يكن عندهم علم ثم سأل الشياطين فقالوا ترسل الى الارضة فلما جاءت
الارضة أخذت شعرة فى فيها ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان ما حاجتك
قالت تصير رزقى فى الشجر فقال لك ذلك ثم قال من لى بهذه الخرزة فقالت دودة بيضاء انا لها يا نبي

وأمرت عليهم المنذر بن
عمرو بدليل قوله تعالى
بم يرجع المرسلون
وكتبت كتابا فيه نسخة
الهدايا وقالت فيه ان
كنت نبيا فميز بين الوصفاء
والوصائف واخبر بما
فى الحق واثقب الدرة
ثقبا واسلك فى الخرزة
خيطا ثم قالت للمنذر ان
نظر اليك نظر غضبان
فهو ملك فلا يهولنك منظره
وان رأيته بشاشا لطيفا
فهو نبي فاقبل الهدهد
واخبر سليمان الخبر كله
فامر سليمان الجن فضربوا
لبنات الذهب والفضة
وفرشوها فى ميدان بين
يديه طوله سبعة فراسخ
وجعلوا حول الميدان
حائطا شرفه من الذهب
والفضة وأمر باحسن
الدواب فى البر والبحر
فربطوها عن يمين الميدان
ويساره على اللبنات وأمر
بأولاد الجن وهم خلق
كثير فأقيموا عن اليمين
واليسار ثم قعد على سريره
والكراسى من جانبيه
واصطفت الشياطين
صفوفا فراسخ والانس
صفوفا فراسخ والوحش
والسباع والطيور والهوام
كذلك فلما دنا القوم ورأوا
الدواب تروث على اللبن رموا بما معهم من الهدايا ولما وقفوا بين يديه نظر اليهم سليمان بوجه طلق فاعطوه كتاب الملكة
فنظر فيه وقال أين الحق فامر الارضة فاخذت شعرة ونفذت فى الدرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها ودعا بالماء فكانت
الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الاخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وقال للمنذر ارجع اليهم

(فلما جاء) رسولها المنذر بن عمرو (سليمان قال اتمدونني بمال) بنونين واثبات الياء في الوصل والوقف مكي وسهل وافقهما مدني وأبو عمرو في الوصل اتمدونني حمزة ويعقوب في الحالين وغيرهم بنونين بلا ياء فيهما والخطاب للرسل (فما آتاني الله) من النبوة والملك والنعمة وبفتح الياء مدني وأبو عمرو ووحفص (خير مما آتاكم) من زخارف الدنيا (بل أنتم بهديتكم تفرحون) الهدية اسم المهدى كما ان العطية اسم المعطى فتضاف الى المهدى والمهدى له تقول هذه هدية فلان تريد هي التي اهداها واهديت اليه والمعنى ان ما عندي خير مما عندكم ذلك ان الله آتاني الدين الذي فيه الحظ الاوفر والغنى الاوسع وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه فكيف يرضى مثلي بان يمد بمال بل أنتم قوم لا تعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا فلذلك تفرحون بما تزادون ويهدى اليكم لان ذلك مبلغ همتكم وحالي خلاف حالكم وما عرض منكم بشيء ولا أفرح به الا بالايمان وترك المجوسية والفرق بين قولك اتمدونني بمال ٤٢٣ وانا أغنى منكم وبين ان تقوله بالقاء

انى اذا قلته بالواو جعلت مخاطبي عالما بزيادتي في الغنى وهو مع ذلك يمدني بمال واذا قلته بالقاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي فانا أخبره الساعة بما لا احتاج معه الى امداده كاني اقول له انكر عليك ما فعلت فاني غني عنه وعليه ورد فما آتاني الله ووجه الاضراب انه لما أنكر عليهم الامداد وعال انكاره اضرب عن ذلك الى بيان السبب الذي حملهم عليه وهو انهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح الا ان يهدى اليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها (ارجع اليهم) خطاب للرسول او الهدهد محملا كتابا آخر اليهم ائت بلقيس وقومها (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها)

الله فاخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان ما حاجتك فقالت يكون رزقي في الفواكه قال لك ذلك ثم ميز بين الغلمان والجواري بان أمرهم ان يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضرب به الاخرى وتغسل وجهها والغلام يأخذ الماء بيديه ويغسل به وجهه وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها والغلام على ظاهره فميز بين الغلمان والجواري ثم رد سليمان الهدية كما أخبر الله تعالى فقال تعالى (فلما جاء سليمان قال اتمدونني بمال فما آتاني الله) اى ما أعطاني من الدين والنبوة والحكمة والملك (خير) اى أفضل (مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) معناه أنتم أهل مفاخرة ومكاثرة بالدنيا تفرحون باهداء بعضكم الى بعض وأما أنا فلا افرح بالدنيا وليست الدنيا من حاجتي لان الله قد أعطاني منها ما لم يعط أحدا ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوة ثم قال للمنذر بن عمرو امير الوفد (ارجع اليهم) اى بالهدية (فلنأتينهم بجنود لا قبل) اى لا طاقة (لهم بها ولنخرجنهم منها) اى من أرض سبا (أذلة وهم صاغرون) اى ان لم يأتوني مسلمين قال وهب وغيره من أهل الكتاب لما رجعت رسل بلقيس اليها اى من عند سليمان وبلغوها ما قال سليمان قالت والله لقد عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة فبعثت الى سليمان اني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما الذي تدعو اليه من دينك ثم أمرت بعرشها فجعلته في آخر سبعة أبيات بعضها داخل بعض ثم اغلقت عليه سبعة أبواب ووكلت به حراسا يحفظونه ثم قالت لمن خلفت على ملكها احتفظ بما قبلك وسرير ملكي لا يخلص اليه أحد ثم أمرت مناديا ينادي في اهل مملكتها تؤذنهم بالرحيل وشخصت الى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن كل قيل تحت يده ألوف كثيرة قال ابن عباس وكان سليمان رجلا مهيبا لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه فخرج يوما فجلس على سريره فسمع رهجا قريبا منه قال ما هذا قالوا بلقيس قد نزلت منا بهذا المكان وكان على مسيرة فرسخ من سليمان فاقبل سليمان على جنوده (قال يا أيها الملأ ايكم يأتيني بعرشها قبل ان يأتوني مسلمين) قال ابن عباس يعني طائعين وقيل مؤمنين قبل غرض سليمان في احضار عرشها اليريها قدرة الله تعالى واظهار معجزة دالة على نبوته وقيل أراد ان ينكره ويغيره قبل مجيئها ليختبر بذلك عقلها وقيل ان سليمان علم انها ان أسلمت يحرم عليه مالها فأراد ان يأخذ سريرها قبل ان يحرم عليه اخذه لانه اعجبه وصفه لما وصفه له الهدهد وقبل أراد أن يعرف قدر ملكها لان السرير على قدر المملكة (قال عفريت من الجن) وهو المارد

الطاقة لهم بها وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة اى لا يقدرون ان يقابلوهم (ولنخرجنهم منها) من سبا (أذلة وهم صاغرون) الذل ان يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك والصغار ان يقعوا في اسر واستعباد فلما رجع الهدهد سولها بالهدايا وقص عليها القصة قالت هو لي وما لنا به طاقة ثم جعلت عرشها في آخر سبعة ابيات وغلقت الابواب ووكلت به حراسا يحفظونه وبعثت الى سليمان اني قادمة اليك لانظر ما الذي تدعو اليه وشخصت اليه في اثني عشر ألف قيل تحت كل قيل ألوف فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان (قال يا أيها الملأ ايكم يأتيني بعرشها قبل ان يأتوني مسلمين) اراد ان يريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به من اجراء العجائب على يده مع اطلاعها على عظيم قدرة الله تعالى وعلى ما يشهد لنبوة سليمان او اراد ان يأخذه قبل ان تسلم لعلمه انها اذا أسلمت لم يحل له اخذ مالها وهذا بعيد عند اهل التحقيق او اراد ان يؤتى به فينكره ويغيره ثم ينظر اتثبته ام تنكره اختبارا لعقلها (قال عفريت من الجن) وهو الخبيث المارد

واسمه ذكوان (انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك) مجلس حكمك وقضائك (واني عليه) على حمله (لقوى امين) آتي به كما هو لا منه شيأ ولا ابدله فقال سليمان عليه السلام اريد اعجل من هذا (قال الذي عنده علم من الكتاب) اى ملك بيده كتاب المقادير ارسله تعالى عند قول العفريت او جبريل عليه السلام والكتاب على هذا اللوح المحفوظ او الخضر او آصف بن برخيا كاتب سليمان وهو الاصح وعليه الجمهور وكان عنده اسم الله الاعظم الذي اذا دعا به اجاب وهو ياحي ياقيوم ياذا الجلال والاكرام او يا الهنا واله كل شيء واحد لا اله الا انت وقيل كان له علم ٤٢٤ بمجاري الغيوب الهاما (انا آتيك به) بالعرش وآتيك في الموضعين يجوز ان يكون

اواسم فاعل ومعنى قوله (قبل ان يرتد اليك طرفك) انك ترسل طرفك الى شيء فقبل ان ترده ابصرت العرش بين يديك ويروى ان آصف قال لسليمان عليه السلام مد عينيك حتى ينتهي طرفك فدعا فنظر نحو اليمن فدعا آصف فغار العرش في مكانه ثم نبع عند مجلس سليمان بقدرة الله تعالى قبل ان يرتد طرفه (فلما رآه) اى العرش (مستقرا عنده) ثابتا لديه غير مضطرب (قال هذا) اى حصول مرادي وهو حضور العرش في مدة ارتداد الطرف (من فضل ربي) علي واحسانه الى بلا استحقاق مني بل هو فضل خال من العوض صاف عن الغرض (ليبلوني أأشكر) ليمتحنني أأشكر انعامه (ام أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه) لانه يحط به عنها عبء الواجب ويصونها عن سمة الكفران ويستجلب به المزيد ويرتبط به النعمة فالشكر فيها

القوى وقال ابن عباس العفريت الداهية قال وهب اسمه كوذى وقيل ذكوان وقيل هو صخر المارد وكان مثل الجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه (انا آتيك به قبل ان يقوم من مقامك) اى مجلس قضائك قال ابن عباس وكان له في الغداة مجلس يقضي فيه الى مدّ النهار وقيل نصفه (واني عليه) اى على حمله (لقوى أمين) اى على ما فيه من الجواهر وغيرها قال سليمان أريد اسرع من ذلك (قال الذي عنده علم من الكتاب) قيل هو جبريل وقيل هو ملك ايد الله به سليمان وقيل هو آصف بن برخيا وكان صديقا يعلم اسم الله الاعظم الذي اذا دعي به أجاب واذا سئل به اعطى وقيل هو سليمان نفسه لانه اعلم بني اسرائيل بالكتاب وكان الله قد آتاه علما وفهما فعلى هذا يكون المخاطب العفريت الذي تكلم فأراد سليمان اظهار معجزة فتحداهم اولا ثم بين للعفريت انه يتأتى له من سرعة الاتيان بالعرش ما لا يتأتى للعفريت قيل كان الدعاء الذي دعا به ياذا الجلال والاكرام وقيل ياحي ياقيوم وروى ذلك عن عائشة وروى عن الزهري قال دعاء الذي عنده علم من الكتاب يا الهنا واله كل شيء الها واحدا لا اله الا انت ائتني بعرشها وقال ابن عباس ان آصف قال لسليمان حين صلى مد عينيك حتى ينتهي طرفك فمد سليمان عينيه ونظر نحو اليمن ودعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير يجرون به تحت الارض حتى نبع من بين يدي سليمان وقيل خر سليمان ساجدا ودعا باسم الله الاعظم فغاب العرش تحت الارض حتى ظهر عند كرسي سليمان فقال ما قال (انا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) قال سليمان هات قال أنت النبي ابن النبي وليس أحد عند الله أوجه منك فان دعوت الله كان عندك قال صدقت ففعل ذلك فجيء بالعرش في الوقت (فلما رآه) يعني رأى سليمان العرش (مستقرا عنده) اى محولا اليه من مأرب الى الشام في قدر ارتداد الطرف (قال هذا من فضل ربي ليبلوني) يعني التمكن من حصول المراد (أأشكر) اى نعمته علي (ام أكفر) فلا اشكرها (ومن شكر فانما يشكر لنفسه) اى يعود نفع شكره اليه وهو ان يستوجب به تمام النعمة ودوامها لان الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة (ومن كفر فان ربي غني) اى عن شكره لا يضره ذلك الكفران (كريم) اى بالافضال عليه لا يقطع نعمه عنه بسبب اعراضه عن الشكر وكفران النعمة (قال نكروا لها عرشها) يعني غيروا سريرها الى حال تنكره اذا رأته قيل هو ان يزاد فيه أو ينقص منه وقيل انما يجعل أسفله اعلاه ويجعل مكان الجوهر الاحمر اخضر ومكان الاخضر احمر (ننظر أتهتدي) الى معرفة عرشها (ام تكون من الذين لا يهتدون) الى معرفته وانما حمل سليمان على ذلك ما قال وهب ومحمد بن كعب وغيرهما ان الشياطين خافت ان يتزوجها سليمان فتفشي اليه اسرار الجن لان امها كانت جنية واذا ولدت ولدا لا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده فأساؤا الثناء عليها ليزهدوه

فيها قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة وفي كلام بعضهم ان كفران النعمة بوار وقلما أقشعت نافرة فرجعت في نصابها فاستوجب شاردها بالشكر واستدم راهنها بكرم الجوار واعلم ان سبوغ ستر الله تعالى متقلص عما قريب اذا انت لم ترج لله وقارا اى لم تشكر نعمته (ومن كفر) بترك الشكر على النعمة (فاني ربي غني) عن الشكر (كريم) بالانعام على من يكفر نعمته قال الواسطي ما كان منه من الشكر فهو لنا وما كان منه من النعمة فهو الينا وله المنة والفضل علينا (قال نكروا لها عرشها) غيروا اى اجعلوا مقدمه مؤخره واعلاه اسفله (ننظر) بالجزم على الجواب (أتهتدي) الى معرفة عرشها او للجواب الصواب اذا سئلت عنه (ام تكون من الذين لا يهتدون

فلما جاءت) بلقيس (قيل أهكذا عرشك) ها للتنبيه والكاف للتشبيه وذا اسم اشارة ولم يقل أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا (قالت كأنه هو) فأجابت احسن جواب فلم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع فى المحتمل الامرين اولما شبهوا عليها بقولهم أهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها كأنه هو مع انها علمت انه عرشها (وأوتينا العلم من قبلها) من كلام بلقيس اى وأوتينا العلم بقدرة الله تعالى و بصحة نبوتك بالآيات المتقدمة من امر الهدهد والرسل من قبل هذه المعجزة اى احضار العرش اومن قبل هذه الحالة (وكنا مسلمين) منقادين لك مطيعين لامرك اومن كلام سليمان وملئه عطفوا على كلامها قولهم وأوتينا العلم بالله و بقدرته و بصحة ما جاء من عنده قبل علمها او أوتينا العلم باسلامها ومجيئها

قبلها وقالوا ان فى عقلها شيأ وان رجلها كحافر الحمار وانها شعراء الساقين فاراد سليمان ان يختبر عقلها بتنكير عرشها و ينظر الى قدميها بنباه الصرح (فلما جاءت قيل) لها (أهكذا عرشك قالت كأنه هو) قيل انها عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها وقيل انها كانت حكيمة لم تقل نعم خوفا من الكذب ولا قالت لا خوفا من التكذيب ايضا فقالت كأنه هو فعرف سليمان كمال عقلها بحيث لم تقر ولم تنكر وقيل اشتبه عليها امر العرش لانها تركته فى بيت عليه سبعة ابواب مغلقة والمفاتيح معها قيل لها فانه عرشك فما اغنى عنك اغلاق الابواب ثم قالت (وأوتينا العلم من قبلها) اى من قبل الآية فى العرش (وكنا مسلمين) اى منقادين منطاعين خاضعين لامر سليمان وقيل قوله تعالى وأوتينا العلم اى بالله و بصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من امر الهدهد والرسل من قبلها اى من قبل الآية فى العرش وكنا مسلمين اومعناه وأوتينا العلم بالله و بقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة وكنا مسلمين ويكون الغرض من هذا شكر نعمة الله عليه أن خصه بمزيد العلم والتقدم فى الاسلام وقيل معناه وأوتينا العلم باسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها طائعة وكنا مسلمين لله قوله تعالى (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) اى منعتها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله وقيل معناه صدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله وحال بينها و بينه (انها كانت من قوم كافرين) أخبر الله انها كانت من قوم يعبدون الشمس فنشأت بينهم ولم تعرف الا عبادة الشمس (قيل لها ادخلى الصرح) وذلك ان سليمان لما اختبر عقلها بتنكير العرش واراد أن ينظر الى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفهما لما اخبرته الجن ان رجليها كحافر حمار وهى شعراء الساقين أمر الشياطين فعملوا لها قصرا من الزجاج الابيض كالماء وقيل الصرح صحن الدار وأجرى تحته الماء وألقى فيه السمك والضفادع وغيرهما من دواب البحر ثم وضع سريره فى صدر المجلس وجلس عليه وقيل انما عمل الصرح ليختبر به فهمها كما فعلت فى الوصفاء والوصائف فلما جلس على السرير دعا بلقيس ولما جاءت قيل لها ادخلى الصرح (فلما رأته حسبته لجة) اى ماء عظيما (وكشفت عن ساقيها) لتخوض الماء الى سليمان فاذا هى أحسن النساء ساقا وقدما الا انها كانت شعراء الساقين فلما نظر سليمان ذلك صرف بصره عنها (قال انه صرح ممرد) اى ملمس (من قوارير) زجاج وليس بماء فحينئذ شمرت ساقيها وعجبت من ذلك وعلمت ان ملك سليمان من الله تعالى واستدلت بذلك على التوحيد والنبوة (قالت رب انى ظلمت نفسى) بعبادة غيرك (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) اى أخلصت له التوحيد والعبادة وقيل انها لما بلغت الصرح وظنته لجة

موحدين خاضعين (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) متصل بكلام سليمان اى وصدها عن العلم بما علمناه اوعن التقدم الى الاسلام عبادة الشمس ونشؤها بين اظهر الكفرة ثم بين نشأتها بين الكفرة بقوله (انها كانت من قوم كافرين) اوكلام مبتدا اى قال الله تعالى وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل اوصدها الله اوسليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وايصال الفعل (قيل لها ادخلى الصرح) اى القصر أو صحن الدار (فلما رأته حسبته لجة) ماء عظيما (وكشفت عن ساقيها) سأقيها بالهمزة مكى روى ان سليمان أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج ابيض وأجرى

قال المحققون لايحتمل أن يحتال سليمان لينظر الى ساقيها وهى اجنبية فلا يصح القول بمثله (ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم) فى النسب (صالحا) بدل (أن اعبدوا الله) بكسر النون فى الوصل عاصم وحمزة وبصرى وبضم النون غيرهم اتباعا للباء والمعنى بان اعبدوا الله ووحدوه (فاذا) للمفاجأة (هم) مبتدا (فريقان) خبر (يختصمون) صفة وهى العامل فى اذا والمعنى فاذا قوم صالح فريقان مؤمن به وكافر به يختصمون فيقول كل فريق الحق معى وهو مبين فى قوله قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون ان صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما ٤٢٦ أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون وقال الفريق الكافر

يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة) بالعذاب الذى توعدون (قبل الحسنة) قبل التوبة (لولا) هلا (تستغفرون الله) تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والايمان قبل نزول العذاب بكم (لعلكم ترحمون) بالاجابة (قالوا اطيرنا بك) تشاءمنا بك لانهم قحطوا عند مبعثه لتكذيبهم فنسبوه الى مجيئه والاصل تطيرنا وقرئ به فادغمت التاء فى الطاء وزيدت الالف لسكون الطاء (وبمن معك) من المؤمنين (قال طائركم عند الله) اى سببكم الذى يجىء منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته اوعملكم مكتوب عند الله فانما نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة ومنه وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه واصله ان المسافر اذا مر بطائر فيزجره فان مر سانحا تيامن واذا مر بارحا تشاءم

قالت فى نفسها ان سليمان يريد أن يغرقنى وكان القتل أهون من هذا فلما تبين لها خلاف ذلك قالت رب انى ظلمت نفسى بذلك الظن واختلفوا فى امر بلقيس بعد اسلامها فقيل انتهى امرها الى قولها أسلمت لله رب العالمين ولا علم لاحد وراء ذلك لانه لم يذكر فى الكتاب ولا فى خبر صحيح وقال بعضهم تزوجها سليمان وكره ما رأى من كثرة شعر ساقيها فسأل الانس عما يذهب ذلك فقالوا الموسى فقالت المرأة انى أخشى أن يقطع ساقى بموسى حديد فكره سليمان الموسى وقال انها تقطع ساقيها فسأل الجن فقالوا لا ندرى فسأل الشياطين فقالوا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام فكانت النورة والحمامات تعمل يومئذ فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها وامر الجن فابتنوا لها بارض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا وهى سلحين وبيسنون وغمدان ثم كان سليمان يزورها فى كل شهر مرة ويقيم عندها ثلاثة ايام بيكر من الشام الى اليمن ومن اليمن الى الشام وولدت له ولدا ذكرا وقيل وهب زعموا ان بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان اختارى رجلا من قومك حتى أزوجك اياه فقالت ومثلى يا نبى الله ينكح الرجال وقد كان لى من قومى الملك والسلطان قال نعم انه لا يكون فى الاسلام الا ذلك ولا ينبغى لك أن تحرمى ما احل الله قالت فان كان ولا بد فزوجنى ذا تبع ملك همدان فزوجها اياه وذهب بها الى اليمن وملكها زوجها ذا تبع على اليمن ودعاز وبعثه ملك الجن وقال له اعمل لذى تبع ما استعملك فيه فلم يزل يعمل له ما أراد الى ان مات سليمان وحال الحول وعلم الجن موت سليمان فانقلب رجل منهم حتى بلغ جوف اليمن وقال باعلى صوته يا معشر الجن ان الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك سليمان وملك ذى تبع وملك بلقيس وبقى الملك لله الواحد القهار قيل ان سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة * قوله عز وجل (ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله) اى وحدوه لا تشركوا به شيأ (فاذا هم فريقان) اى مؤمن وكافر (يختصمون) اى فى الدين كل فريق يقول الحق معنا (قال) يعنى صالحا للفريق المكذب (يا قوم لم تستعجلون بالسيئة) اى بالبلاء والعقوبة (قبل الحسنة) اى العافية والرحمة (لولا) اى هلا (تستغفرون الله) اى بالتوبة اليه من الكفر (لعلكم ترحمون) اى لا تعذبون فى الدنيا (قالوا اطيرنا) اى تشاءمنا (بك وبمن معك) قيل انما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم وقيل لامساك القطر عنهم قالوا انما اصابنا هذا الضر والشدة من شؤمك وشؤم اصحابك (قال طائركم عند الله) اى ما يصيبكم من الخير والشر بامر الله مكتوب عليكم سمى طائرا لانه لا شئ أسرع من نزول القضاء المحتوم وقال ابن عباس الشؤم الذى اتاكم من عند الله بكفركم وقيل طائركم اى عملكم عند الله سمى طائرا لسرعة صعوده الى السماء (بل أنتم قوم تفتنون) قال ابن عباس تختبرون بالخير والشر وقيل معناه تعذبون قوله تعالى (وكان فى المدينة) يعنى مدينة ثمود وهى الحجر (تسعة رهط) يعنى من ابناء اشرافهم (يفسدون فى الارض) اى بالمعاصى (ولا يصلحون) اى لا يطيعون

فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته اومن عمل العبد الذى هو السبب فى الرحمة والنقمة (بل أنتم قوم تفتنون) تختبرون وتعذبون بدينكم (وكان فى المدينة) مدينة ثمود وهى الحجر (تسعة رهط) هو جمع لا واحد له ولذا جاز تمييز التسعة به فكأنه قيل تسعة انفس وهو من الثلاثة الى العشرة وعن ابى داود رأسهم قدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا ابناء اشرافهم (يفسدون فى الارض ولا يصلحون) يعنى ان شأنهم الافساد البحت لا يخلط بشئ من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح وعن الحسن يظلمون الناس وهم

ولا يمنعون الظالمين من الظلم وعن ابن عطاء يتبعون معايب الناس ولا يسترون عوراتهم (قالوا تقاسموا بالله) تحالفوا خبر في محل الحال باضمار قد اى قالوا متقاسمين او امر اى أمر بعضهم بعضا بالقسم (لنبيتنه) لنقتلنه بياتا اى ليلا (واهله) ولده وتبعه (ثم لنقولن لوليه) لولى دمه لنبيتنه بالتاء و بضم التاء الثانية ثم لنقولن بالتاء وضم اللام حمزة وعلى (ماشهدنا) ماحضرنا (مهلك اهله) حفص مهلك ابو بكر وحماد والمفضل من هلك فالاول موضع الهلاك والثانى المصدر مهلك غيرهم من اهلك وهو والاهلاك او مكان الاهلاك اى لم نتعرض لاهله فكيف تعرضنا له او ماحضرنا موضع هلاكه فكيف تولينا (وانا لصادقون) فيما ذكرنا (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) مكرهم ما احضروه من تدبير القتل لصالح واهله ومكر الله اهلاكهم من حيث لا يشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روى انه كان لصالح مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح انه يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن اهله قبل الثالث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا الى اهله فقتلناهم فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فاطبقت الصخرة عليهم فى الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله كلا منهم فى مكانه و نجى صالحا عليه السلام ومن معه (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم) بفتح الالف كوفى وسهل و بكسرها غيرهم على ٤٢٧ الاستئناف ومن فتحه رفعه على انه بدل

وهم غواة قوم صالح الذين اتفقوا على عقر الناقة ورأسهم قدار بن سالف (قالوا تقاسموا بالله) يعنى يقول بعضهم لبعض احلفوا بالله أيها القوم (لنبيتنه) اى لنقتلنه ليلا (واهله) يعنى قومه الذين آمنوا معه (ثم لنقولن لوليه) اى لولى دمه (ماشهدنا) اى ماحضرنا (مهلك أهله) اى ماندرى من قتله ولا هلاك اهله (وانا لصادقون) اى فى قولنا ماشهدنا ذلك (ومكروا مكرا) اى غدروا غدرا حين قصدوا تبييت صالح واهله (ومكرنا مكرا) اى جازيناهم على مكرهم بتعجيل العذاب (وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم) اى اهلكناهم اى التسعة قال ابن عباس ارسل الله الملائكة تلك الليلة الى دار صالح يحرسونه فاتت التسعة دار صالح شاهرين سلاحهم وسيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة وهم يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم واهلك الله جميع القوم بالصيحة (وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) اى بظلمهم وكفرهم (ان فى ذلك لآية) اى لعبرة (لقوم يعلمون) اى قدرتنا (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) يقال ان الناجين كانوا اربعة آلاف قوله تعالى (ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة) اى الفعلة القبيحة (وأنتم تبصرون) اى تعلمون انها فاحشة وهو من بصر القلب وقيل معناه يبصر بعضكم بعضا وكانوا لا يستترون عتوا منهم (أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون) فان قلت اذا فسرت تبصرون بالعلم وقد قال بعده قوم تجهلون فيكون العلم جهلا قلت معناه تفعلون فعل الجاهلين وتعلمون انه فاحشة وقيل تجهلون العاقبة وقيل أراد بالجهل السفاهة التى كانوا عليها (فما كان جواب قومه الا ان قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون) يعنى من ادبار الرجال (فانجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين) اى قضينا عليها بان جعلناها من الباقين فى

من العاقبة او خبر مبتدا محذوف تقديره هى تدميرهم او نصبه على معنى لانا او على انه خبر كان اى فكان عاقبة مكرهم الدمار (وقومهم أجمعين) بالصيحة (فتلك بيوتهم خاوية) ساقطة متهدمة من خوى النجم اذا سقط او خالية من الخواء وهى حال عمل فيها ما دل عليه تلك (بما ظلموا) بظلمهم (ان فى ذلك) فيما فعل بثمود (لآية لقوم يعلمون) قدرتنا فتعتظون (وأنجينا الذين آمنوا) بصالح (وكانوا يتقون) ترك أوامره وكانوا اربعة آلاف نجوا مع صالح من العذاب (ولوطا اذ قال) واذكر لوطا او اذ بدل من لوطا اى واذكر وقت قول لوط (لقومه أتأتون الفاحشة) اى اتيان الذكور (وأنتم تبصرون) تعلمون انها فاحشة لم تسبقوا اليها من بصر القلب او يرى ذلك بعضهم من بعض لانهم كانوا يرتكبون فى ناديهم معالنين بها لا يستتر بعضهم من بعض مجانة وانهما كا فى المعصية او تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم ثم صرح فقال (أئنكم) بهمزتين كوفى وشامى (لتأتون الرجال شهوة) للشهوة (من دون النساء) اى ان الله تعالى انما خلق الانثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر والانثى للانثى فهو مضادة لله فى حكمته (بل أنتم قوم تجهلون) تفعلون فعل الجاهلين بانها فاحشة مع علمكم بذلك او أريد بالجهل السفاهة والمجانة التى كانوا عليها وقد اجتمع الخطاب والغيبة فى قوله بل انتم قوم تجهلون و بل أنتم قوم تفتنون فغلب الخطاب على الغيبة لانه أقوى اذ الاصل ان يكون الكلام بين الحاضرين (فما كان جواب قومه الا ان قالوا أخرجوا آل لوط) اى لوطا ومتبعيه فخبر كان جواب واسمه أن قالوا (من قريتكم انهم أناس يتطهرون) يتنزهون عن القاذورات ينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا انكارهم وقيل هو استهزاء كقوله انك لانت الحليم الرشيد (فانجيناه) فخلصناه من العذاب الواقع بالقوم (وأهله الا امرأته قدرناها) بالتشديد سوى حماد وابى بكر اى قدرنا كونها (من الغابرين) من الباقين فى العذاب

(وأمطرنا عليهم مطرا) حجارة مكتوبا عليها اسم صاحبها (فساء مطر المنذرين) الذين لم يقبلوا الانذار (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) أمر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بتحميده ثم بالسلام على المصطفين من عباده توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته وقدرته على كل شئ وهو تعليم لكل متكلم فى كل أمر ذى بال بان يتبرك بهما ويستظهر بمكانهما او هو خطاب للوط عليه السلام يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم (آلله خير أما يشركون) بالياء بصيغة الغيبة على الالتفات وقرئ بالتاء على الخطاب وهو الظاهر والمعنى ان الله خير لعباده وانفع لهم وأجزل ثوابا وأكرم مآبا وأعظم آثارا وأعلى شأنا من الاصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيأ على شئ الا لداع يدعوه الى ايثاره من زيادة خير ومنفعة فقيل لهم مع العلم بانه لا خير فى الاصنام ولا نفع البتة انكم آثرتموها على الله تعالى وانتم تعلمون انه خير وانفع وانهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثا بنيتم واعلى الخطا المفرط والجهل المورط وليعلموا ان الايثار يجب ان يكون للخير الزائد وكان عليه الصلاة والسلام اذا قرأها قال بل الله خير وابقى وأجل وأكرم ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله فقال (أمن خلق السموات والارض) والفرق بين ام وأم فى أما يشركون وأمن خلق السموات ان تلك متصلة اذ المعنى ايهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة ولما قال آلله خير ام الآلهة قال بل أمن خلق السموات والارض خير تقريرا لهم بان من قدر على خلق العالم خير ممن جماد لا يقدر على شئ (وأنزل لكم من السماء ماء) مطرا (فأنبتنا) صرف الكلام عن الغيبة الى التكلم تأكيدا لمعنى اختصاص الفعل بذاته وايذانا بان انبات الحدائق المختلفة الاصناف والالوان والطعوم والاشكال مع حسنها بماء واحد لا يقدر عليه الا هو وحده (به) بالماء (حدائق) بساتين والحديقة البستان وعليه حائط من الاحداق وهو الاحاطة (ذات بهجة) حسن لان الناظر يبتهج به ثم رشح معنى الاختصاص بقوله (ما كان لكم ان تنبتوا شجرها) ومعنى الكينونة الانبغاء اراد ان تأتى ذلك محال من غيره (أإله مع الله) أغيره يقرن به ويجعل شريكا له (بل هم قوم يعدلون) به غيره او يعدلون عن الحق الذى هو التوحيد و بل هم بعد الخطاب أبلغ فى تخطئة رأيهم (أمن جعل الارض قرارا) وما بعده بدل من امن خلق فكان حكمها حكمه (قرارا) دحاها وسواها للاستقرار عليها (وجعل خلالها) ظرف اى وسطها وهو المفعول الثانى والاول (أنهارا) و بين البحرين مثله (وجعل لها) للارض (رواسى) جبالا تمنعها عن الحركة (وجعل بين البحرين) العذب والملح (حاجزا) مانعا ان يختلطا (أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون) التوحيد فلا يؤمنون (أمن يجيب المضطر اذا دعاه) الاضطرار العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) اى الحجارة (فساء) اى فبئس (مطر المنذرين) * قوله عز وجل (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم امر ان يحمد الله على هلاك كفار الامم الخالية وقيل يحمده على جميع نعمه وسلام على عباده الذين اصطفى يعنى الانبياء والمرسلين وقال ابن عباس هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين (آلله خير أما يشركون) فيه تبكيت للمشركين والزام الحجة عليهم بعد هلاك الكفار والمعنى آلله خير لمن عبده أم الاصنام لمن عبدها فان الله خير لمن عبده وآمن به لاغنائه عنه من الهلاك والاصنام لم تغن شيأ عن عابديها عند نزول العذاب ولهذا السبب ذكر أنواعا تدل على وحدانيته وكمال قدرته فالنوع الاول قوله تعالى (أمن خلق السموات والارض) ذكر أعظم الاشياء المشاهدة الدالة على عظيم قدرته والمعنى آلاصنام خير ام الذى خلق السموات والارض ثم ذكر نعمه فقال (وأنزل لكم من السماء ماء) يعنى المطر (فأنبتنا به حدائق) اى بساتين جمع حديقة وهو البستان المحيط عليه فان لم يكن عليه حائط فليس بحديقة (ذات بهجة) اى ذات منظر حسن والبهجة الحسن يبتهج به من يراه (ما كان لكم ان تنبتوا شجرها) يعنى ما ينبغى لكم لانكم لا تقدرون على ذلك لان الانسان قد يقول انا المنبت للشجرة بان أغرسها وأسقيها الماء فازال الله هذه الشبهة بقوله ما كان لكم ان تنبتوا شجرها لان انبات الحدائق المختلفة الاصناف والطعوم والروائح المختلفة والزروع تسقى بماء واحد لا يقدر عليه الا الله تعالى ولا يتأتى لاحد وان تأتى ذلك لغيره محال (أإله مع الله) يعنى هل معه معبود أعانه على صنعه (بل) يعنى ليس معه اله ولا شريك (هم قوم) يعنى كفار مكة (يعدلون) يشركون وقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر الى الباطل النوع الثانى قوله عز وجل (أمن جعل الارض قرارا) اى دحاها وسواها للاستقرار عليها وقيل لانها باهلها (وجعل خلالها أنهارا) اى وسطها بأنهار تطرد بالمياه (وجعل لها رواسى) اى جبالا أوتادا (وجعل بين البحرين) يعنى العذب والملح (حاجزا) اى مانعا لا يختلط أحدهما بالآخر (أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون) اى توحيد ربهم وقدرته وسلطانه النوع الثالث قوله تعالى (أمن يجيب المضطر) اى المكروب المجهود وقيل المضرور بالحاجة المحوجة من مرض او نازلة من نوازل الدهر يعنى اذا نزلت باحد بادر الى الالتجاء والتضرع الى الله تعالى وقيل هو المذنب اذا استغفر (اذا دعاه) يعنى فيكشف

افتعال من الضرورة وهى الحالة المحوجة الى الالجاء يقال اضطره الى كذا والفاعل والمفعول مضطر والمضطر الذى أحوجه مرض او فقر او نازلة من نوازل الدهر الى الالجاء والتضرع الى الله او المذنب اذا استغفر او المظلوم اذا دعا او من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد وهو منه على خطر (ويكشف السوء) الضر او الجور (ويجعلكم خلفاء الارض) اى فيها وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن او اراد بالخلافة الملك والتسلط (أاله مع الله قليلا ما تذكرون) وبالياء ابو عمرو وبالتخفيف حمزة وعلى وحفص وما مزيدة اى تذكرون تذكرا قليلا (أمن يهديكم) يرشدكم بالنجوم (فى ظلمات البر والبحر) ليلا وبعلامات فى الارض نهارا (ومن يرسل الرياح) الريح مكى وحمزة وعلى (بشرا) من البشارة وقد مر فى الاعراف (بين يدى رحمته) قدام المطر (أاله مع الله تعالى الله عما يشركون من يبدأ الخلق) ينشئ الخلق (ثم يعيده) وانما قيل لهم ثم يعيده وهم منكرون للاعادة لانه ازيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والاقرار فلم يبق لهم عذر فى الانكار (ومن يرزقكم من السماء) اى المطر (والارض) اى ومن الارض النبات (أاله مع الله قل هاتوا برهانكم) حجتكم على اشراككم (ان كنتم صادقين) فى دعواكم ان مع الله الها آخر (قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله) من فاعل يعلم والغيب هو ما لم يقم عليه دليل ولا اطلع عليه مخلوق مفعول والله بدل من من والمعنى لا يعلم احد الغيب الا الله نعم ان الله تعالى يتعالى عن ان يكون ممن فى السموات والارض ولكنه جاء

على لغة بنى تميم حيث يجرون الاستثناء المنقطع مجرى المتصل ويجيزون النصب والبدل فى المنقطع كما فى المتصل ويقولون ما فى الدار أحد الا حمار وقالت عائشة رضى الله عنها من زعم انه يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وقيل نزلت فى المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

ضره (ويكشف السوء) اى الضر لانه لا يقدر على تغيير حال من فقر الى غنى ومن مرض الى صحة ومن ضيق الى سعة الا القادر الذى لا يعجز والقاهر الذى لا يغلب ولا ينازع (ويجعلكم خلفاء الارض) اى سكانها وذلك انه ورثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن وقيل يجعل اولادكم خلفاء لكم وقيل جعلكم خلفاء الجن فى الارض (أاله مع الله قليلا ما تذكرون) اى تتعظون النوع الرابع قوله عز وجل (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر) اى يهديكم بالنجوم والعلامات اذا جن عليكم الليل مسافرين فى البر والبحر (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) اى قدام المطر (أاله مع الله تعالى الله عما يشركون) النوع الخامس قوله تعالى (أمن يبدأ الخلق) اى نطفا فى الارحام (ثم يعيده) بعد الموت (ومن يرزقكم من السماء والارض) اى من السماء بالمطر ومن الارض بالنبات (أاله مع الله قل هاتوا برهانكم) اى حجتكم على قولكم ان مع الله الها آخر (ان كنتم صادقين) قوله تعالى (قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله) نزلت فى المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة والمعنى ان الله هو الذى يعلم الغيب وحده ويعلم متى تقوم الساعة (وما يشعرون أيان يبعثون) يعنى ان من فى السموات وهم الملائكة ومن فى الارض وهو بنو آدم لا يعلمون متى يبعثون والله تعالى تفرد بعلم ذلك (بل ادارك علمهم) اى بلغ وتحق علمهم (فى الآخرة) هو ما جهلوه فى الدنيا وسقط عنهم علمه وقيل بل علموا فى الآخرة حين عاينوها ما شكوا فيه وعموا عنه فى الدنيا وهو قوله تعالى (بل هم فى شك منها) اى هم اليوم فى شك من الساعة (بل هم منها عمون) جمع عم وهو أعمى القلب وقيل معنى الآية ان الله أخبر عنهم انهم اذا بعثوا

عن وقت الساعة (وما يشعرون) وما يعلمون (أيان) متى (يبعثون) ينشرون (بل ادرك) مكى وبصرى ويزيد والمفضل اى انتهى وتكامل من ادركت الفاكهة تكاملت نضجا بل ادرك عن الاعشى فتعل بل ادراك غيرهم استحكم وأصله تدارك فادغمت التاء فى الدال وزيد الف الوصل ليمكن التكلم بها (علمهم فى الآخرة) اى فى شأن الآخرة ومعناها والمعنى ان أسباب استحكام العلم وتكامله بان القيامة كائنة قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون وذلك قوله (بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) والاضرابات الثلاث تنزيل لاحوالهم وتكرير لجهلهم وصفهم أولا بانهم لا يشعرون وقت البعث ثم بانهم لا يعلمون ان القيامة كائنة ثم بانهم يخبطون فى شك ومرية فلا يزيلونه والازالة مستطاعة ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى وقد جعل الآخرة مبتدأ عماهم ومنشأه فلذا عداه بمن دون عن لان الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى منعهم عن التدبر والتفكر ووجه ملاءمة مضمون هذه الآية وهو وصف المشركين بانكارهم البعث مع استحكام اسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب وان العباد لا علم لهم بشئ منه انه لما ذكر ان العباد لا يعلمون الغيب وكان هذا بيانا لعجزهم ووصفا لقصور علمهم وصل به ان عندهم عجزا أبلغ منه وهو انهم يقولون للكائن الذى لا بد من كونه وهو وقت جزاء أعمالهم لا يكون مع ان عندهم اسباب معرفة كونه واستحكام العلم به وجاز ان يكون وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكما بهم كما تقول لاجهل الناس ما أعلمك على سبيل الهزء وذلك حيث شكوا وعموا عن

اثباته الذى الطريق الى علمه مسلوك فضلا ان يعرفوا وقت كونه الذى لا طريق الى معرفته ويجوز ان يكون أدرك بمعنى انتهى من قولك ادركت الثمرة لان تلك غايتها التى عندها تعدم وقد فسرها الحسن باضمحلال علمهم فى الآخرة وتدارك من تدارك بنو اذا تتابعوا فى الهلاك (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) من قبورنا احياء وتكرير حرف الاستفهام فى اذا قراءة عاصم وحمزة وخلف انكار بعد انكار وجحود عقيب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه والعامل فى اذا ما دل عليه مخرجون وهو نخرج لان اسم الفاعل والمفعول بعد همزة الاستفهام أو ان اولام الابتداء لا يعمل فيما قبله فكيف اذا اجتمعن والضمير فى ولآبائهم لان كونهم ترابا قد تناولهم وآباءهم لكنه غلبت الحكاية على الغائب وآباؤنا عطف على الضمير فى كنا لان المفعول مجرى التوكيد (لقد وعدنا هذا) اى البعث (نحن وآباؤنا من قبل) من قبل محمد صلى الله عليه وسلم قدم هنا هذا على نحن وآباؤنا المؤمنون نحن وآباؤنا على هذا ليدل على ان المقصود بالذكر هو البعث هنا وثمة المبعوثون (ان هذا الا أساطير الاولين) ما لها أحاديثهم وأكاذيبهم (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) اى آخر امر الكافرين وفى ذكر الاجرام لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم كقوله تعالى فدمدم عليهم ربهم بذنبهم وقوله مما خطيآتهم اغرقوا (ولا تحزن عليهم) لاجل انهم لم يتبعوك ولم يسلموا (ولا تكن فى ضيق) ٤٣٠ فى حرج صدر (مما يمكرون) من مكرهم وكيدهم لك فان الله يعصمك من الناس يقال

الشئ ضيقا بالفتح وهو قراءة غير ابن كثير وبالكسر وهو قراءته (ويقولون متى هذا الوعد) اى وعد العذاب (ان كنتم صادقين) ان العذاب نازل بالمكذب (قل عسى ان يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم عسى ان يكون ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء فى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة اوضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وازف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وعسى ولعل وسوف فى وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الامر وجده فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده (وان ربك لذو فضل) اى افضال (على الناس) بترك المعاجلة بالعذاب (ولكن أكثرهم لا يشكرون) اى اكثرهم لا يعرفون هذه النعمة فيه ولا يشكرونه فيستعجلون العذاب بجهلهم (وان ربك ليعلم ما تكن) تخفى (صدورهم وما يعلنون) يظهرون من القول فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم ولكن له وقتا مقدرا وانه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكايدهم وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه وقرئ تكن يقال كننته اذا سترته وأخفيته (وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين) سمى الشئ الذى يغيب ويخفى غائبة وخافية والتاء فيهما كالتاء فى العاقبة والعافية ونظائرهما الرمية والذبيحة والنطيحة فى انها أسماء غير صفات ويجوز ان يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالرواية كأنه قال وما من شئ شديد الغيبوبة الا وقد علمه الله وأثبته به وأثبته فى اللوح المحفوظ والمبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة (ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل) اى يبين لهم (أكثر الذى هم فيه يختلفون) فانهم اختلفوا فى المسيح فتحزبوا فيه احزابا ووقع بينهم التنا كر فى أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضا وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو انصفوا وأخذوا به وأسلموا يريد اليهود والنصارى (وانه) وان القرآن (لهدى ورحمة للمؤمنين) لمن أنصف منهم وآمن اى من بنى اسرائيل اومنهم ومن غيرهم (ان ربك يقضى بينهم) بين من آمن بالقرآن ومن كفر به

يوم القيامة يستوى علمهم فى الآخرة وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب وان كانت علومهم مختلفة فى الدنيا قوله تعالى (وقال الذين كفروا) اى مشركو مكة (أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) اى من قبور أحياء (لقد وعدنا هذا) اى هذا البعث (نحن وآباؤنا من قبل) اى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ولم نر ذلك شيئا (ان هذا) اى ما هذا (الا أساطير الاولين) اى أحاديثهم وأكاذيبهم التى كتبوها (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم) اى بتكذيبهم اياك واعراضهم عنك (ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) نزلت فى المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل عسى ان يكون ردف) اى دنا وقرب (لكم) وقيل معناه ردفكم (بعض الذى تستعجلون) من العذاب فحل بهم ذلك يوم بدر * قوله عزوجل (وان ربك لذو فضل على الناس) يعنى على أهل مكة حيث لم يعجل لهم بالعذاب (ولكن أكثرهم لا يشكرون) اى ذلك (وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم) اى تخفى (وما يعلنون) اى من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما من غائبة) اى جملة غائبة من مكتوم سر وخفى امر وشئ غائب (فى السماء والارض الا فى كتاب مبين) يعنى فى اللوح المحفوظ (ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل) اى يبين لهم (أكثر الذى هم فيه يختلفون) من امر الدين وذلك ان أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا احزابا يطعن بعضهم على بعض فبين القرآن بيان ما اختلفوا فيه (وانه) يعنى القرآن (لهدى ورحمة للمؤمنين ان ربك يقضى بينهم) اى

يفصل

يفصل بينهم و يحكم بين المختلفين فى الدين يوم القيامة (بحكمه) اى الحق (وهو العزيز) الممتنع الذى لا يرد قضاؤه (العليم) بمن يقضى له و بمن يقضى عليه او العزيز فى انتقامه من المبطلين العليم بالفضل بينهم و بين المحقين (فتوكل على الله) امره بالتوكل على الله وقلة المبالاة باعداء الدين (انك على الحق المبين) وعلل التوكل بانه على الحق الابلج وهو الدين الواضح الذى لا يتعلق به شك وفيه بيان ان صاحب الحق الحقيق بالوثوق بالله و بنصرته (انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما انت بهادى العمى عن ضلالتهم) لما كانوا لا يعون ما يسمعون ولا به ينتفعون شبهوا بالموتى وهم احياء صحاح الحواس و بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون و بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد ان ينزع ذلك عنهم و يجعلهم هداة بصراء الا الله تعالى ثم اكد حال الصم بقوله اذا ولوا مدبرين لانه اذا تباعد عن الداعى بان تولى عنه مدبرا كان أبعد عن ادراك صوته ولا يسمع الصم مكى وكذا فى الروم وما انت تهدى العمى وكذا فى الروم حمزة (ان تسمع الا من يؤمن

(بحكمه) بعدله لانه لا يقضى الا بالعدل فسمى المحكوم به حكما او بحكمته ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة (وهو العزيز) الذى لا يرد قضاؤه (العليم) بمن يقضى له و بمن يقضى عليه او العزيز فى انتقامه من المبطلين العليم بالفضل بينهم و بين المحقين (فتوكل على الله) امره بالتوكل على الله وقلة المبالاة باعداء الدين (انك على الحق المبين) وعلل التوكل بانه على الحق الابلج وهو الدين الواضح الذى لا يتعلق به شك وفيه بيان ان صاحب الحق الحقيق بالوثوق بالله و بنصرته (انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما انت بهادى العمى عن ضلالتهم) لما كانوا لا يعون ما يسمعون ولا به ينتفعون شبهوا بالموتى وهم احياء صحاح الحواس و بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون و بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد ان ينزع ذلك عنهم و يجعلهم هداة بصراء الا الله تعالى ثم اكد حال الصم بقوله اذا ولوا مدبرين لانه اذا تباعد عن الداعى بان تولى عنه مدبرا كان أبعد عن ادراك صوته ولا يسمع الصم مكى وكذا فى الروم وما انت تهدى العمى وكذا فى الروم حمزة (ان تسمع الا من يؤمن

(بحكمه) اى الحق (وهو العزيز) الممتنع الذى (العليم) اى بأحوالهم فلا يخفى عليه شئ منها (فتوكل على الله) اى فثق به (انك على الحق المبين) اى البين (انك لا تسمع الموتى) يعنى موتى القلوب وهم الكفار (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) اى معرضين فان قلت ما معنى مدبرين والاصم لا يسمع صوتا سواء أقبل او أدبر قلت هو تأكيد ومبالغة وقيل ان الاصم اذا كان حاضرا قد يسمع برفع الصوت او يفهم بالاشارة فاذا ولى لم يسمع ولم يفهم ومعنى الآية انه لفرط اعراضهم عما يدعون اليه كالميت الذى لا سبيل الى سماعه وكالاصم الذى لا يسمع ولا يفهم (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) معناه ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الايمان (ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا) الا من يصدق بالقرآن انه من الله (فهم مسلمون) اى مخلصون قوله تعالى (واذا وقع القول عليهم) يعنى اذا وجب عليهم العذاب وقيل اذا غضب الله عليهم وقيل اذا وجبت الحجة عليهم وذلك انهم لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وقيل اذا لم يرج صلاحهم وذلك فى آخر الزمان قبل قيام الساعة (أخرجنا لهم دابة من الارض) (م) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالاعمال قبل ست طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على أثرها قريبا عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن وتخطم أنف الكافر بالخاتم حتى ان اهل الحى ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر أخرجه الترمذى وقال حديث حسن وروى البغوى باسناده عن الثعلبى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجا بأقصى اليمن فيفشو ذكرها بالبادية لا يدخل ذكرها القرية يعنى مكة ثم تمكث زمانا طويلا ثم تخرج خرجة اخرى قريبا من مكة فيفشو ذكرها بالبادية و يدخل ذكرها القرية يعنى مكة ثم بينما الناس يوما فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله يعنى المسجد الحرام لم يرعهم الا وهى فى ناحية المسجد تدنو وتدنو كذا قال عمرو ما بين الركن الاسود الى باب بنى مخزوم عن يمين الخارج فى وسط من ذلك فأرفض الناس عنها وثبتت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فرت بهم فجلت وجوههم حتى تركتها كانها الكواكب الدرية ثم ولت فى الارض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب حتى ان الرجل ليقوم فيعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلى فيقبل عليها بوجهه فتسمه فى وجهه فيتجاور الناس فى ديارهم ويصطحبون فى اسفارهم و يشتركون فى الاموال يعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر وباسناد الثعلبى عن حذيفة بن اليمان ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة قلت يا رسول الله من أين تخرج قال من أعظم المساجد حرمة على الله فبينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون اذ تضطرب الارض و ينشق الصفا مما يلى المسعى وتخرج الدابة من الصفا اول ما يخرج منها رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها الطالب ولن يفوتها هارب تسم الناس مؤمنا وكافرا فاما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب درى وتكتب بين عينيه مؤمن وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة

(بآياتنا) اى ما يجدى اسماعك الا على الذين علم الله انهم يؤمنون بآياته اى يصدقون بها (فهم مسلمون) مخلصون من قوله بلى من اسلم وجهه لله يعنى جعله سالما لله خالصا له (واذا وقع القول عليهم) سمى معنى القول ومؤداه بالقول وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ووقوعه حصوله والمراد مشارفة الساعة وظهور اشراطها وحين لا تنفع التوبة (أخرجنا لهم دابة من الارض

تكلمهم) هى الجساسة فى الحديث طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب ولها اربع قوائم وزغب وجناحان وقيل لها رأس ثور وعين خنزير واذن فيل وقرن ايل وعنق نعامة وصدر اسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وبعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية فتقول (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) اى لا يوقنون بخروجها من الآيات وتقول ألا لعنة الله على الظالمين او تكلمهم ببطلان الاديان كلها سوى دين الاسلام او بأن مؤمن وهذا كافر وفتح ان كوفى وسهل على حذف الجار اى تكلمهم بان وغيرهم كسر والان الكلام بمعنى القول او باضمار القول تقول الدابة ذلك ويكون المعنى ٤٣٢ بآيات ربنا او حكاية لقول الله تعالى عند ذلك ثم ذكر قيام الساعة فقال (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) من للتبعيض اى واذكر يوم نجمع من كل أمة من الامم زمرة (ممن يكذب) من للتبيين (بآياتنا) المنزلة على انبيائنا (فهم يوزعون) يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقوا الى موضع الحساب وهذه عبارة عن كثرة العدد وكذا الفوج عبارة عن الجماعة الكثيرة (حتى اذا جاؤا) حضروا موقف الحساب والسؤال (قال) لهم تعالى تهديدا (أكذبتم بآياتى) المنزلة على رسلى (ولم تحيطوا بها علما) الواو للحال كأنه قال أكذبتم بآياتى بادئ الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى الى احاطة العلم بكنهها وانها حقيقة بالتصديق او بالتكذيب (أم ماذا كنتم تعملون) حيث لم تتفكروا فيها فانكم لم تخلقوا عبثا (ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) اى يغشاهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله هذا يوم لا ينطقون (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) حال جعل الابصار للنهار وهو لاهله والتقابل مراعى من حيث المعنى لان معنى مبصرا البصر وفيه طرق التقلب فى المكاسب (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يصدقون فيعتبرون وفيه دليل على صحة البعث لان معناه ألم يعلموا انا جعلنا الليل والنهار قواما لمعاشهم فى الدنيا ليعلموا ان ذلك لم يجعل عبثا بل محنة وابتلاء ولا بد عند ذلك من ثواب وعقاب فاذا لم يكونا فى هذه الدار فلا بد من دار أخرى للثواب والعقاب (ويوم) واذكر يوم (ينفخ فى الصور) وهو قرن او جمع صورة والنافخ اسرافيل عليه السلام (ففزع من فى السموات ومن فى الارض) اختير فزع على يفزع للاشعار بتحقق الفزع وثبوته وانه كائن لا محالة والمراد فزعهم عند النفخة الاولى حين يصعق

سوداء وتكتب بين عينيه كافر وروى عن ابن عباس انه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال ان الم
لتسمع قرع عصاى هذه وعن ابن عمر قال تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسيرون الى منى وعن ابى هر
عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بئس الشعب شعب اجياد مرتين او ثلاثا قيل ولم ذاك يا رسول الله
تخرج منه الدابة تصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين وروى عن ابن الزبير انه وصف الد
فقال رأسها رأس ثور وعيناها عين خنزير وأذنها اذن فيل وقرنها قرن ايل وصدرها صدر اسد ولونها لون
وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعا وعن عبد
ابن عمر وقال تخرج الدابة من شعب أجياد فتمس رأسها السحاب ورجلاها فى الارض وروى عن على
ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية وقال وهب وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير فتجيء
رآها ان أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون (تكلمهم) اى بكلام فصيح قيل تقول هذا مرة
وهذا كافر وقيل تقول ما أخبر الله تعالى (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) تخبر الناس عن أهل
مكة انهم لم يؤمنوا بالقرآن والبعث وقرئ تكلمهم بتخفيف اللام من الكلم وهو الجرح وقال
الجوزى سئل ابن عباس عن هذه الآية تكلمهم وتكلمهم فقال كل ذلك تفعل تكلم المؤ
وتكلم الكافر قوله تعالى (ويوم نحشر من كل امة فوجا) اى نحشر من كل قرن جماعة (
يكذب بآياتنا فهم يوزعون) اى يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقوا الى النار (ح
اذا جاؤا) يعنى يوم القيامة (قال) الله تعالى لهم (أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما) اى
تعرفوها حق معرفتها (أم ماذا كنتم تعملون) اى حين لم تفكروا فيها وقيل معنى الآية أكذ
بآياتى غير عالمين بها ولم تتفكروا فى صحتها بل كنتم بها جاهلين (ووقع القول) اى وجب العذ
(عليهم بما ظلموا) اى بما اشركوا (فهم لا ينطقون) اى بحجة وقيل ان أفواههم مختومة (ألم يروا أنا جع
اى انا خلقنا (الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) اى مضيأ يبصر فيه وفى الآية دليل على البعث بعد الم
لان القادر على تقلب الضياء ظلمة والظلمة ضياء قادر على الاعادة بعد الموت (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنو
اى يصدقون فيعتبرون قوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور) هو قرن ينفخ فيه اسرافيل قال الحس
الصور هو القرن ومعنى كلامه ان الارواح تجمع فى القرن ثم ينفخ فيه فتذهب فى الاجساد فتجيء
الاجساد (ففزع) اى فصعق (من فى السموات ومن فى الارض) اى ماتوا والمعنى انه يلقى عليهم الفز
الى ان يموتوا وقيل ينفخ اسرافيل فى الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام ل

الا من شاء الله) الا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت عليهم السلام وقيل الشهداء وقيل
صور وخزنة النار وحملة العرش وعن جابر رضى الله عنه منهم موسى عليه السلام لانه صعق مرة ومثله ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات
ومن فى الارض الا من شاء الله (وكل أتوه) حمزة وحفص وخلف آتوه غيرهم وأصله آتيوه (داخرين) حال اى صاغرين ومعنى الاتيان
حضورهم الموقف ورجوعهم الى امره تعالى وانقيادهم له (وترى الجبال تحسبها) ٤٣٣ بفتح السين شامى وحمزة ويزيد وعاصم

(الا من شاء الله) روى ابو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى الا من شاء
الله قال هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش وقال ابن عباس هم الشهداء لانهم احياء عند
ربهم لا يصل اليهم الفزع وقيل يعنى جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل فلا يبقى بعد النفخة الا
هؤلاء الاربعة ويروى ان الله تعالى يقول لملك الموت خذ نفس اسرافيل فيأخذ نفسه ثم يقول من بقى
فيقول ملك الموت فيقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام وجهك الباقى الدائم بقى
جبريل وميكائيل وملك الموت فيقول خذ نفس ميكائيل فيأخذ نفس ميكائيل فيقع كالطود العظيم
فيقول من بقى من خلقى فيقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت بقى جبريل وملك الموت فيقول مت
يا ملك الموت فيموت فيقول يا جبريل من بقى فيقول تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام بقى وجهك
الدائم الباقى وجبريل الميت الفانى فيقول الله يا جبريل لابد من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه
ويروى ان فضل خلقه على ميكائيل كفضل الطود العظيم على ظرب عن الظراب ويروى انه يبقى مع
هؤلاء الاربعة حملة العرش فيقبض روح جبريل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم أرواح حملة العرش ثم روح
ملك الموت فاذا لم يبق أحد الا الله تبارك وتعالى طوى السماء كطى السجل للكتاب ثم يقول الله أنا الجبار
أين الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيقول الله تعالى لله الواحد القهار (ق) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى
فاكون اول من رفع رأسه فاذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا ادرى أكان ممن استثنى الله
عز وجل أم رفع رأسه قبلى ومن قال انا خير من يونس بن متى فقد كذب وقيل الذين استثنى الله هم رضوان
والحور ومالك والزبانية وقوله تعالى (وكل) اى وكل الذين احيوا بعد الموت (أتوه) اى جاؤه (داخرين)
اى صاغرين قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة) اى قائمة واقفة (وهى تمر مر السحاب) اى تسير
سير السحاب حتى تقع على الارض فتسوى بها وذلك ان كل شئ عظيم وكل جسم كبير وكل جمع كثير يقصر
عنه البصر لكثرته وعظمه وبعد ما بين اطرافه فهو فى حساب الناظر واقف وهو سائر كذلك سير الجبال
يوم القيامة لا يرى لعظمها كما ان سير السحاب لا يرى لعظمه (صنع الله الذى اتقن كل شئ) يعنى انه
تعالى لما قدم هذه الاشياء كلها التى لا يقدر عليها غيره جعل ذلك الصنع من الاشياء التى اتقنها واحكمها
وانبها على وجه الحكمة والصواب (انه خبير بما يفعلون) قوله تعالى (من جاء بالحسنة) اى بكلمة
الاخلاص وهى شهادة ان لا اله الا الله وقيل الاخلاص فى العمل وقيل الحسنة كل طاعة عملها لله
عز وجل (فله خير منها) قال ابن عباس فبها يصل الى الخير بمعنى انه له من تلك الحسنة خير يوم القيامة
وهو الثواب والامن من العذاب اما من يكون له شئ خير من الايمان فلا لانه لا شئ خير من لا اله الا الله
وقيل هو جزاء الاعمال والطاعات الثواب والجنة وجزاء الايمان والاخلاص رضوان الله والنظر اليه
لقوله ورضوان من الله وقيل معنى خير منها الاضعاف اعطاه الله بالواحدة عشرا أضعافها لان الحسنة
تستحق العبد والتضعيف تفضيل الرب تبارك وتعالى (وهم من فزع يومئذ آمنون) فان قلت كيف

وبكسرها غيرهم حال من المخاطب (جامدة) واقفة ممسكة عن الحركة من جمد فى مكانه اذا لم يبرح (وهى تمر) حال من الضمير المنصوب فى تحسبها (مر السحاب) اى مثل مر السحاب والمعنى انك اذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة فى مكان واحد لعظمها وهى تسير سيرا سريعا كالسحاب اذا ضربته الريح وهكذا الاجرام العظام المتكاثرة العدد اذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها كما قال النابغة فى صفة جيش بأرعن مثل الطود تحسب انهم * وقوف لحاج والركاب تهملج (صنع الله) مصدر عمل فيه ما دل عليه تمر لان مرورها كمر السحاب من صنع الله فكانه قيل صنع الله ذلك صنعا وذكر اسم الله لانه لم يذكر قبل (الذى أتقن كل شئ) اى أحكم خلقه (انه خبير بما يفعلون) مكى وبصرى غير سهل وابو بكر غير يحيى وغيرهم

(٥٥ خازن) ث

بالتاء اى انه عالم بما يفعل العباد فيكافئهم على حسب ذلك بقوله (من جاء بالحسنة) اى بقول لا اله الا الله عند الجمهور (فله خير منها) اى فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعلى هذا لا يكون خير بمعنى افضل ويكون منها فى موضع رفع صفة لخير أى بسببها (وهم من فزع) كوفى اى من فزع شديد مفرط الشدة وهو خوف النار أو من فزع ما وان قل وبغير تنوين غيرهم (يومئذ) كوفى ومدنى وبكسر الميم غيرهم والمراد يوم القيامة (آمنون) أمن يعدى بالجار وبنفسه كقوله أفامنوا مكر الله

(ومن جاء بالسيئة) بالشرك (فكبت) ألقيت (وجوههم في النار) يقال كببت الرجل ألقيته على وجهه اى ألقوا على رؤسهم في النار وعن الجملة بالوجه كما يعبر بالرأس والرقبة عنها اى ألقوا في النار ويقال لهم تبكيتا عند الكب (هل تجزون الا ما كنتم تعملون) في الدنيا من الشرك والمعاصي (انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة) مكة (الذي حرمها) جعلها حرما آمنا يأمن فيها اللاجئ اليها ولا يختلى خلاها ولا يعضد شوكها ولا ينفر صيدها (وله كل شئ) مع هذه البلدة فهو مالك الدنيا والآخرة (وأمرت أن أكون من المسلمين) المنقادين (وأن أتلو القرآن) من التلاوة ٤٣٤ او من التلو كقوله واتبع ما يوحى اليك من ربك امر رسوله بان يقول أمرت ان اخص الله وحده بالعبادة ولا اتخذ له شريكا كما فعلت قريش وان اكون من الحنفاء الثابتين على ملة الاسلام وان أتلو القرآن لاعرف الحلال والحرام وما يقتضيه الاسلام وخص مكة من بين سائر البلاد باضافة اسمه اليها لانها احب بلاده اليه واعظمها عنده واشار اليها بقوله هذه اشارة تعظيم لها وتقريب دالا على انها موطن نبيه ومهبط وحيه ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها وجعل دخول كل شئ تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتها (فمن اهتدى) باتباعه اياى فيما انا بصدده من توحيد الله ونفي الشركاء عنه والدخول في الملة الحنيفية واتباع ما أنزل على من الوحي (فانما يهتدي لنفسه) فنفعة اهتدائه راجعة اليه لا الى (ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين) اى ومن ضل ولم يتبعني فلا علي وما انا الا رسول منذر وما على الرسول الا البلاغ المبين (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) ثم امره ان يحمد الله على ما خوله من نعمة النبوة التي لا توازيها نعمة وان يهدد اعداءه بما سيريهم الله من آياته في الآخرة فيستيقنون بها وقيل هو انشقاق القمر والدخان وما حل بهم من نقمات الله في الدنيا (وما ربك بغافل عما تعملون) بالتاء مدني وشامي وحفص ويعقوب خطاب لاهل مكة وبالياء غيرهم اى كل عمل يعملونه فان الله عالم به غير غافل عنه فالغفلة والسهو لا يجوزان عليه

*(سورة القصص) * مكية ثمانون وثمان آيات *(بسم الله الرحمن الرحيم)* (طسم تلك آيات الكتاب المبين) يقال بان الشئ وابان بمعنى واحد ويقال ابنته فابان لازم ومتعد اى مبين خيره وبركته او مبين للحلال والحرام والوعد والوعيد والاخلاص والتوحيد

نفي الفزع هنا وقد قال قبله ففزع من في السموات ومن في الارض قلت ان الفزع الاول هو ما لا يخلو منه أحد عند الاحساس بشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وان كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر اليه فاما الفزع الثاني فهو الخوف من العذاب فهم آمنون منه واما ما يلحق الانسان من الرعب عند مشاهدة الاهوال فلا ينفك منه أحد (ومن جاء بالسيئة) يعني بالشرك (فكبت وجوههم في النار) عبر بالوجوه عن جميع البدن كأنه قال كبوا وطرحوا جميعهم في النار (هل تجزون الا ما كنتم تعملون) اى تقول لهم خزنة جهنم هل تجزون الا ما كنتم تعملون في الدنيا من الشرك وقوله تعالى (انما أمرت) يعني أمرت من الله تعالى لرسوله قل انما أمرت (أن أعبد رب هذه البلدة) يعني أمرت ان اخص بعبادتي وتوحيدي الذي هو رب هذه البلدة يعني مكة وانما خصها من بين سائر البلاد بالذكر لانها مضافة اليه واحب البلاد وأكرمها عليه واشار اليها اشارة تعظيم لانها موطن نبيه ومهبط وحيه (الذي حرمها) اى جعلها الله حرما آمنا لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها ولا يدخلها الا محرم وانما ذكر انه هو الذي حرمها لان العرب كانوا معترفين بفضيلة مكة وان تحريمها من الله لا من الاصنام (وله كل شئ) اى خلقا وملكا (وأمرت أن أكون من المسلمين) لله المطيعين له (وأن أتلو القرآن) اى أمرت ان اتلو القرآن ولقد قام صلى الله عليه وسلم بكل ما أمر به اتم قيام على ما آمر به (فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه) اى ثمرة اهتدائه يرجع اليه (ومن ضل) اى عن الايمان واخطأ طريق الهدى (فقل انما انا من المنذرين) اى من المخوفين وما على الا البلاغ نسختها آية القتال (وقل الحمد لله) اى على جميع نعمه وقيل على ما وفقني من القيام باداء الرسالة والانذار (سيريكم آياته) الباهرة ودلائله القاهرة قيل هو يوم بدر وهو ما أراه من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وقيل آياته في السموات والارض وفي انفسكم (فتعرفونها) اى فتعرفون الآيات والدلالات (وما ربك بغافل عما تعملون) فيه وعيد بالجزاء على اعمالهم والله سبحانه وتعالى أعلم

(تفسير سورة القصص)

وهي مكية الا قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب الى قوله لا نبتغي الجاهلين وفيها آيه نزلت بين مكة والمدينة وهي قوله ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وهي ثمان وثمانون آية واربعمائة واحدى واربعون كلمة وخمسة آلاف وثمانمائة حرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

*قوله عز وجل (طسم تلك) اشارة الى آيات السورة (آيات الكتاب المبين) قيل هو اللوح المحفوظ وقيل

نتلوا عليك) نقرأ عليك اى يقرؤه جبريل بامرنا ومفعول نتلوا (من نبأ موسى وفرعون) اى نتلو عليك بعض خبرهما (بالحق) حال اى محققين (لقوم يؤمنون) ان سبق فى علمنا انه مؤمن لان التلاوة انما تنفع هؤلاء دون غيرهم (ان فرعون) جملة مستأنفة كالتفسير للجمل كان قائلا قال وكيف كان نبؤهما فقال ان فرعون (علا) طغى وجاوز الحد فى الظلم واستكبر وافتخر بنفسه ونسى العبودية (فى الارض) اى ارض مملكته يعنى مصر (وجعل اهلها شيعا) فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك احد منهم ان يلوى عنقه او فرقا مختلفة يكرم طائفة ويهين اخرى فاكرم القبطى واهان الاسرائيلى (يستضعف طائفة منهم) هم بنو اسرائيل (يذبح ابناءهم ويستحيى نساءهم) اى يترك البنات احياء للخدمة وسبب ذبح الابناء ان كاهنا قال له يولد مولود فى بنى اسرائيل يذهب ملكك على يده وفيه دليل على حمق فرعون فانه ان صدق الكاهن لم ينفعه القتل وان كذب فما معنى القتل ويستضعف حال ٤٣٥ من الضمير فى وجعل او صفة لشيعا او كلام مستأنف ويذبح بدل من يستضعف (انه كان من المفسدين) اى ان القتل ظلما انما هو فعل المفسدين اذ لا طائل تحته صدق الكاهن او كذب (ونريد أن نمن) نتفضل وهو دليل لنا فى مسئلة الاصلح وهذه الجملة معطوفة على ان فرعون علا فى الارض لانها نظيرة تلك فى وقوعها تفسير النبا موسى وفرعون واقتصاصا له او حال من يستضعف اى يستضعفهم فرعون ونحن نريد ان نمن عليهم وارادة الله تعالى كائنة فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم (على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة) قادة يقتدى بهم فى الخير او قادة الى الخير اوولاة وملوكا (ونجعلهم الوارثين) اى يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم (ونمكن) مكن له اذا جعل له مكانا يقعد عليه او يرقد ومعنى التمكين (لهم فى الارض) اى ارض مصر والشام ان يجعلها بحيث لا تنبو بهم ولا يسلطهم وينفذ امرهم (ونرى فرعون وهامان وجنودهما) بضم النون ونصب فرعون وما بعده وبالياء ورفع فرعون وما بعده على وجزة اى يرون منهم ما حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم ويرى نصب عطف على المنصوب قبله كقراءة النون اورفع على الاستئناف (منهم) من بنى اسرائيل ويتعلق بنرى دون يحذرون لان الصلة لا تتقدم على الموصول (ما كانوا يحذرون) الحذر التوقى من الضرر (واوحينا الى أم موسى) بالالهام او بالرؤيا او باخبار ملك كما كان لمريم وليس هذا وحى رسالة ولا تكون هى رسولا (ان أرضعيه) ان بمعنى اى او مصدرية (فاذا خفت عليه) من القتل بان يسمع الجيران صوته فينموا عليه (فالقيه فى اليم) البحر قيل هو نيل مصر (ولا تخافى) من الغرق والضياع (ولا تحزنى) بفراقه (انا رادوه اليك) بوجه لطيف لتربيته (وجاعلوه من المرسلين) وفى هذه الآية امران ونهيان وخبران وبشارتان والفرق بين الخوف والحزن ان

وقيل هو الكتاب الذى انزله على نبيه صلى الله عليه وسلم ووصفه بانه مبين لانه بين فيه الحلال والحرام والحدود والاحكام (نتلوا عليك من نبا) اى خبر (موسى وفرعون بالحق) اى بالصدق (لقوم يؤمنون) اى يصدقون بالقرآن (ان فرعون علا) اى تجبر وتكبر (فى الارض) اى ارض مصر (وجعل أهلها شيعا) اى فرقا فى أنواع الخدمة والتسخير (يستضعف طائفة منهم) يعنى بنى اسرائيل (يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم) سمى هذا استضعافا لانهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن انفسهم (انه كان من المفسدين) اى بالقتل والتجبر فى الارض (ونريد أن نمن) اى ننعم (على الذين استضعفوا فى الارض) يعنى بنى اسرائيل (ونجعلهم أئمة) اى قادة فى الخير يقتدى بهم وقيل ولاة ملوكا (ونجعلهم الوارثين) يعنى ملك فرعون وقومه بان نجعلهم فى مساكنهم (ونمكن لهم فى الارض) اى نوطن لهم ارض مصر والشام ونجعلها لهم سكنا (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) اى يخافون وذلك انهم اخبروا ان هلاكهم على يد رجل من بنى اسرائيل وكانوا على حذر منه فاراهم الله ما كانوا يحذرون قوله تعالى (واوحينا الى أم موسى) هو وحى الهام وذلك بان قذف فى قلبها واسمها يوحانذ من نسل لاوى بن يعقوب (أن أرضعيه) قيل ارضعته ثمانية اشهر وقيل اربعة وقيل ثلاثة وكانت ترضعه وهو لا يبكى ولا يتحرك فى حجرها (فاذا خفت عليه) اى الذبح (فالقيه فى اليم) اى فى البحر وأراد به نيل مصر (ولا تخافى) اى عليه من الغرق وقيل الضيعة (ولا تحزنى) اى على فراقه (انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) قال ابن عباس ان بنى اسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم الى أن أنجاهم الله على يد نبيه موسى عليه الصلاة والسلام

(ذكر القصة فى ذلك)

قال ابن عباس ان أم موسى لما تقاربت ولادتها كانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بحبالى بنى اسرائيل مصافية لام موسى فلما ضربها الطلق أرسلت اليها وقالت لها قد نزل بى ما نزل فليتنفعنى حبك اياى اليوم فعالجت قبالها فلما أن وقع موسى الارض هالها نور عينى موسى فارتعش كل مفصل فيها ودخل حب موسى قلبها ثم قالت لها يا هذه ما جئت اليك حين دعوتنى الا مرادى قتل ولدك ولكن

وجدت لابنك حباما وجدت حب شئ مثل حبه فاحفظي ابنك فاني أراه عدونا فلما خرجت القابلة
عندها أبصرها بعض العيون فجاؤا الى بابها ليدخلوا الى أم موسى فقالت أخته يا أماه هذا الحرس بالباب
فلفته بخرقة وألقته في التنور وهو مسجور وطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع قال فدخلوا فاذا التنور مسجور
ورأوا أم موسى ولم يتغير لها لون ولم يظهر لها بن فقالوا ما أدخل القابلة قالت هي مصافية لي فدخلت
على زائرة فخرجوا من عندها فرجع اليها عقلها فقالت لاخته فاين الصبي فقالت لا أدري فسمعت بكاء
الصبي في التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما فاحتملته قال ثم ان أم موسى لما رأت
الحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله في قلبها ان تتخذ تابوتا له ثم تقذف التابوت في
النيل فانطلقت الى رجل نجار من قوم فرعون فاشترت منه تابوتا صغيرا فقال النجار ما تصنعين بهذا
التابوت فقالت ابن لي أخبؤه في التابوت وكرهت الكذب قال ولم تقل أخشى عليه كيد فرعون فلما
اشترت التابوت وحملته وانطلقت به انطلق النجار الى الذباحين ليخبرهم بامر أم موسى فلما هم بالكلام
امسك الله لسانه فلم يطق الكلام وجعل يشير بيديه فلم تدر الامناء ما يقول فلما أعياهم أمره قال كيدوه
اضربوه فضربوه وأخرجوه فلما انتهى النجار الى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم فانطلق أيضا به
الامناء فاتاهم ليخبرهم فاخذ لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيأ فضربوه وأخرجوه وبقي حيران
فجعل لله عليه ان رد عليه لسانه وبصره ان لا يدل عليه وان يكون معه فيحفظه حيثما كان فعرف له
صدقه فرد عليه لسانه وبصره فخر لله ساجدا فقال يا رب دلني على هذا العبد الصالح فدله عليه فآمن به
وصدقه وقال وهب لما حملت ام موسى بموسى كتمت أمرها عن جميع الناس فلم يطلع على حملها أحد من
خلق الله تعالى وذلك شئ ستره الله تعالى لما أراد ان يمن به على بني اسرائيل فلما كانت السنة التي يولد
فيها بعث فرعون القوابل وتقدم الامين ففتش النساء تفتيشا لم يفتش قبل ذلك مثله وحملت بموسى ولم
يتغير لونها ولم ينب بطنها فكانت القوابل لا تتعرض لها فلما كانت الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب
عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد الا أخته مريم واوحى الله اليها ان أرضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم
فكتمته ثلاثة أشهر فلما خافت عليه عملت تابوتا مطبقا ثم ألقته في اليم وهو البحر ليلا قال ابن عباس
وغيره كان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم
ثلاث حاجات ترفعها اليه وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها الاطباء والسحرة فنظروا في
امرها فقالوا أيها الملك لا تبرأ الا من قبل البحر يوجد فيه شبه الانسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها
فتبرأ من ذلك وذلك في يوم كذا في ساعة كذا حين تشرق الشمس فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون الى
مجلس كان له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى
جلست على شاطئ البحر مع جواريها تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن اذ أقبل النيل بالتابوت تضربه
الامواج فقال فرعون ان هذا الشئ في البحر قد تعلق بالشجر ائتوني به فابتدروه بالسفن من كل ناحية حتى
وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فدنت آسية فرأت
جوف التابوت نورا لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فاذا هي بصبي صغير في التابوت واذا نور بين عينيه
وقد جعل الله رزقه في ابهامه يمص منه لبنا فالقى الله محبته في قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه
وأقبلت بنت فرعون فلما أخرجوا الصبي من التابوت عمدت الى ما يسيل من أشداقه من ريقه فلطخت به
برصها فبرأت فقبلته وضمته الى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون أيها الملك انا نظن ان ذلك المولود الذي
تحذر منه من بني اسرائيل هو هذا رمى به في البحر فزعا منك فهم فرعون بقتله فقالت آسية قرة عين لي ولك
لا تقتلوه عسى ان ينفعنا اي فنصيب منه خيرا او نتخذه ولدا وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون

الخوف غم يلحق الانسان لمتوقع والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والاخطار به فنهيت عنهما وبشرت برده اليها وجعله من المرسلين وروى انه ذبح في طلب موسى تسعون الف وليد وروى انها حين ضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بني اسرائيل مصافية لها فعالجتها فلما وقع الى الارض هالها نور بين عينيه ودخل حبه قلبها فقالت ما جئتك الا لاقتل مولودك واخبر فرعون ولكن وجدت لابنك حبا ما وجدت مثله فاحفظيه فلما خرجت القابلة جاءت عيون فرعون فلفته في خرقة ووضعته في تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيأ فخرجوا وهي لا تدري مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله النار بردا وسلاما فلما أيس فرعون في طلب الولدان اوحى اليها بالقائه في اليم فالقته في اليم بعد ان ارضعته ثلاثة اشهر

(فالتقطه آل فرعون) اخذه قال الزجاج كان فرعون من اهل فارس من اصطخر (ليكون لهم عدوا) اى ليصير الامر الى ذلك لانهم اخذوه لهذا كقولهم للموت ما تلده الوالدة وهى لم تلد لان يموت ولدها ولكن المصير الى ذلك كذا قاله الزجاج وعن هذا قال المفسرون ان هذه لام العاقبة والصيرورة وقال صاحب الكشاف هى لام كى التى معناها التعليل كقولك جئتك لتكرمنى ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز لان ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له شبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لاجله وهو الاكرام الذى هو نتيجة المجىء (وحزنا) وحزنا على وحمزة وهما لغتان كالعدم والعدم (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) خاطين تخفيف خاطئين ابو جعفر اى كانوا مذنبين فعاقبهم الله بان رمى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على ايديهم وكانوا خاطئين فى كل شئ فليس خطؤهم فى تربية عدوهم ببدع منهم (وقالت امرأت فرعون قرة عين لى ولك) روى انهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فاعياهم فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نورا فعالجته ففتحته فاذا

بصبى نوره بين عينيه فاحبوه وكانت لفرعون بنت برصاء فنظرت الى وجهه فبرات فقالت الغواة من قومه هو الذى نحذر منه فاذن لنا فى قتله فهم بذلك فقالت آسية قرة عين لى ولك فقال فرعون لك لا لى وفى الحديث لو قال كما قالت لهداه الله تعالى كما هداها وهذا على سبيل الفرض اى لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها وكان أسلم كما اسلمت وقرة خبر مبتدا محذوف اى هو قرة لى ولك صفتان لقرة (لا تقتلوه) خاطبته خطاب الملوك او خاطبت الغواة (عسى ان ينفعنا) نوهبه لما وقال فرعون أما أنا فلا حاجة لى فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قال يومئذ قرة عين لى كما هو لك لهداه الله كما هداها الله فقيل لآسية سميه قالت سميته موسى لانا وجدناه فى الماء والشجر لان مو هو الماء وسا هو الشجر فذلك قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون) الالتقاط وجود الشئ من غير طلب (ليكون لهم عدوا وحزنا) اى عاقبة أمرهم الى ذلك لانهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) اى آثمين وقيل هو من الخطا ومعناه انهم لم يشعروا انه الذى يذهب بملكهم (وقالت امرأت فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا وهم لا يشعرون) قال وهب لما نظر اليه فرعون قال عبرانى من الاعداء فغاظه ذلك وقال كيف أخطأ هذا الغلام الذبح وكانت آسية امرأة فرعون من خيار النساء ومن بنات الانبياء وكانت اما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم فقالت لفرعون وهى قاعدة الى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وانت أمرت ان تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندى وقيل انها قالت انه اتانا من أرض أخرى وليس هو من بنى اسرائيل فاستحياه فرعون وألقى الله محبته عليه قال ابن عباس لو ان عدو الله قال فى موسى كما قالت آسية عسى ان ينفعنا لنفعه الله ولكنه ابى للشقاء الذى كتبه الله عليه قوله تعالى (واصبح فؤاد أم موسى فارغا) اى خاليا من كل شئ الا من ذكر موسى وهمه وقيل معناه ناسيا للوحى الذى اوحى الله عز وجل اليها حين أمرها ان تلقيه فى اليم ولا تخاف ولا تحزن والعهد الذى عهد اليها ان يرده اليها ويجعله من المرسلين فجاءها الشيطان وقال كرهت ان يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله وألقيته فى البحر وأغرقته ولما أتاها الخبر بان فرعون أصابه فى النيل قالت انه قد وقع فى يد عدوه الذى فررت منه فانساها عظم البلاء ما كان من عهد الله اليها (ان كادت لتبدى به) اى لتصرح بانه ابنها من شدة وجلها قال ابن عباس كادت تقول وا ابناه وقيل لما رأت التابوت ترفعه موجة وتحطه أخرى خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شدة شفقتها عليه وقيل كادت تظهر انه ابنها حين سمعت الناس يقولون موسى ابن فرعون فشق عليها ذلك وكادت تقول هو ابنى وقيل كادت تبدى بالوحى الذى اوحى الله اليها ان يرده عليها (لولا ان ربطنا على قلبها) اى بالعصمة

فان فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وذلك لما عاينت من النور وبرء البرصاء (او نتخذه ولدا) او نتبناه فانه اهل لان يكون ولدا للملوك (وهم لا يشعرون) حال وذو حالها آل فرعون وتقدير الكلام فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون انهم على خطا عظيم فى التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه وقوله ان فرعون الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم وما احسن نظم هذا الكلام عند اصحاب المعانى والبيان (واصبح) وصار (فؤاد أم موسى فارغا) صفرا من العقل لما دهمها من فرط الجزع لما سمعت بوقوعه فى يد فرعون (ان كادت لتبدى به) لتظهر به والضمير لموسى والمراد بامره وقصته وانه ولدها قيل لما رأت الامواج تلعب بالتابوت كادت تصيح وتقول وا ابناه وقيل لما سمعت ان فرعون اخذ التابوت لم تشك انه يقتله فكادت تقول وا ابناه شفقة عليه وان مخففة من الثقيلة اى انها كادت (لولا ان ربطنا على قلبها) لولا ربطنا على قلبها والربط على القلب تقويته بالهام الصبر

(لتكون من المؤمنين) من المصدقين بوعدنا وهو انا رادوه اليك وجواب لولا محذوف اى لأبدته او فارغا من الهم حين سمعت ان فرعون
تبناه ان كادت لتبدى بانه ولدها لانها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت لولا انا طامنا قلبها وسكنا قلقه الذى حدث به من شدة الفرح
لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبنى فرعون قال يوسف بن الحسين امرت ام موسى بشيئين ونهيت عن شيئين وبشرت ببشارتين
فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها فربط على قلبها (وقالت لاخته) مريم (قصيه) اتبعى اثره لتعلمى خبره (فبصرت به) اى ابصرته
(عن جنب) عن بعد حال من الضمير فى به او من الضمير فى بصرت (وهم لا يشعرون) انها اخته (وحرمنا عليه المراضع) تحريم منه
لا تحريم شرع اى منعناه ان يرضع ثديا غير ثدى امه وكان لا يقبل ثدى مرضع حتى اهمهم ذلك والمراضع جمع مرضع وهى المراة التى ترضع
او جمع مرضع وهو موضع الرضاع وهو الثدى او الرضاع (من قبل) من قبل قصها اثره او من قبل ان نرده على امه (فقالت) اخته وقد
دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثديا (هل ادلكم) ارشدكم (على اهل بيت يكفلونه) اى موسى (لكم وهم له ناصحون)

والصبر والتثبيت (لتكون من المؤمنين) اى من المصدقين بوعد الله اياها (وقالت لاخته) اى لمريم اخت
موسى (قصيه) اى اتبعى أثره حتى تعطى خبره (فبصرت به عن جنب) اى عن بعد قيل كانت تمشى جانبا
وتنظره اختلاسا ترى انها لا تنظره (وهم لا يشعرون) انها اخته وانها ترقبه (وحرمنا عليه المراضع) المراد
به المنع قيل مكث موسى ثمان ليال لا يقبل ثديا قال ابن عباس ان امرأة فرعون كان همها من الدنيا
ان تجد من ترضعه كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها وهم فى طلب من يرضعه لهم (من قبل) اى قبل مجىء
ام موسى وذلك لما رأته اخت موسى التى ارسلتها أمه فى طلب ذلك (فقالت) يعنى اخت موسى (هل
أدلكم على اهل بيت يكفلونه لكم) اى يضمونه ويرضعونه وهى امرأة قتل ولدها فاحب ما تدعى اليه
ان تجد صغيرا ترضعه (وهم له ناصحون) اى لا يمنعونه ما ينفعه من تربيته وغذائه والنصح اخلاص
العمل من شوائب الفساد قيل لما قالت وهم له ناصحون قالوا انك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على
اهله قالت ما اعرفه ولكن قلت وهم للملك ناصحون وقيل انها قالت انما قلت ذلك رغبة فى سرور الملك
واتصالنا به وقيل قالوا من هم قالت امى قالوا أولامك ولد قالت نعم هرون وكان هرون ولد فى السنة
التى لا يقتل فيها قالوا صدقت فأتينا بها فانطلقت اليها واخبرتها بحال ابنها وجاءت بها اليهم فلما وجد
الصبى ريح امه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه ريا قيل كانوا يعطونها كل يوم دينارا فذلك
قوله تعالى (فرددناه الى امه كى تقر عينها) اى برد موسى اليها (ولا تحزن) اى ولئلا تحزن (ولتعلم ان
وعد الله حق) اى برده اليها (ولكن اكثرهم لا يعلمون) ان الله وعدها ان يرده اليها (ولما بلغ اشده)
قيل الاشد ما بين ثمانية عشر الى ثلاثين سنة وقيل الاشد ثلاث وثلاثون سنة (واستوى)
اى بلغ اربعين سنة قاله ابن عباس وقيل انتهى شبابه وتكامل (آتيناه حكما وعلما) اى عقلا
وفهما فى الدين فعلم وحكم موسى قبل ان يبعث نبيا (وكذلك نجزى المحسنين) قوله تعالى (ودخل
المدينة) يعنى موسى والمدينة قيل هى منف من أعمال مصر وقيل هى قرية يقال لها حابين على راس
فرسخين من مصر وقيل هى مدينة عين شمس (على حين غفلة من أهلها) قيل هى نصف النهار واشتغال

النصح اخلاص العمل من شائبة الفساد روى انها لما قالت وهم له ناصحون قال هامان انها لتعرفه وتعرف اهله فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام فقالت انما اردت وهم للملك ناصحون فانطلقت الى امها بامرهم فجاءت بها والصبى على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكى يطلب الرضاع فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال لها فرعون ومن انت منه فقد ابى كل ثدى الا ثديك فقالت انى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا اوتى بصبى الا قبلنى فدفعه اليها واجرى عليها وذهبت به الى بيتها وانجز الله وعده فى الرد

فعندها ثبت واستقر فى علمها انه سيكون نبيا وذلك قوله (فرددناه الى امه كى تقر عينها) بالمقام معه (ولا تحزن) الناس
بفراقه (ولتعلم ان وعد الله حق) اى وليثبت علمها مشاهدة كما علمت خبرا وقوله ولا تحزن معطوف على تقر وانما حل لها ما تأخذه من
الدينار كل يوم كما قال السدى لانه مال حربى لا انه اجرة على ارضاع ولدها (ولكن اكثرهم لا يعلمون) هو داخل تحت علمها اى لتعلم ان
وعد الله حق ولكن اكثر الناس لا يعلمون انه حق فيرتابون ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت (ولما
بلغ اشده) بلغ موسى نهاية القوة وتمام العقل وهو جمع شدة كنعمة وانعم عند سيبويه (واستوى) واعتدل وتم استحكامه وهو اربعون
سنة ويروى انه لم يبعث نبى الا على راس اربعين سنة (آتيناه حكما) نبوة (وعلما) فقها او علما بمصالح الدارين (وكذلك نجزى
المحسنين) اى كما فعلنا بموسى وامه نفعل بالمؤمنين قال الزجاج جعل الله تعالى ايتاء العلم والحكمة مجازاة على الاحسان لانهما يؤديان
الى الجنة التى هى جزاء المحسنين والعالم الحكيم من يعمل بعلمه لانه تعالى قال ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون فجعلهم جهالا
اذ لم يعملوا بالعلم (ودخل المدينة) اى مصر (على حين غفلة من أهلها) حال من الفاعل اى مختفيا وهو ما بين العشاءين او وقت القائلة

يعنى انتصاف النهار وقيل لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل المدينة الا على تغفل (فوجد فيها
رجلين يقتتلان هذا من شيعته) ممن شايعه على دينه من بنى اسرائيل قيل هو السامرى وشيعة الرجل اتباعه وانصاره (وهذا من عدوه)
من يخالفه من القبط وهو فاتون وقيل فيهما هذا وهذا وان كانا غائبين على جهة الحكاية اى اذا نظر اليهما الناظر

الناس بالقيلولة وقيل دخلها ما بين المغرب والعشاء وقيل سبب دخوله المدينة فى ذلك الوقت أن موسى
كان يسمى ابن فرعون وكان يركب فى مراكب فرعون ويلبس لباسه فركب فرعون يوما وكان موسى
غائبا فلما جاء قيل له ان فرعون قد ركب فركب موسى فى أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها وليس
فى أطرافها أحد وقيل كان لموسى شيعة من بنى اسرائيل يسمعون منه ويقتدون به فلما عرف ما هو عليه
من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم فى دينه حتى أنكروا ذلك منه وخافوه وخافهم فكان
لا يدخل قرية الا خائفا مستخفيا على حين غفلة من أهلها وقيل لما ضرب موسى فرعون بالعصا فى صغره
فأراد فرعون قتله قالت امرأته هو صغير فتركه وأمر باخراجه من مدينته فاخرج منها فلم يدخل عليهم حتى
كبر وبلغ اشده فدخل على حين غفلة من أهلها يعنى عن ذكر موسى ونسيانهم خبره لبعد عهدهم به
وعن على انه كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم (فوجد فيها رجلين يقتتلان) اى يتخاصمان
ويتنازعان (هذا من شيعته) اى من بنى اسرائيل (وهذا من عدوه) اى من القبط وقيل هذا مؤمن
وهذا كافر وقيل الذى كان من الشيعة هو السامرى والذى من عدوه هو طباخ فرعون واسمه فاتون
وكان القبطى يريد ان يأخذ الاسرائيلى يحمله الحطب وقال ابن عباس لما بلغ موسى أشده لم يكن احد
من آل فرعون يخلص الى أحد من بنى اسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع وكان بنو اسرائيل قد
عزوا بمكان موسى لانهم كانوا يعلمون انه منهم فوجد موسى رجلين يقتتلان أحدهما من بنى اسرائيل
والآخر من القبط (فاستغاثه الذى من شيعته) يعنى الاسرائيلى (على الذى من عدوه) يعنى الفرعونى
والاستغاثة طلب الغوث والمعنى انه سأله أن يخلصه منه وان ينصره عليه فغضب موسى واشتد غضبه
لانه أخذه وهو يعلم منزلة موسى من بنى اسرائيل وحفظه لهم ولا يعلم الناس الا أنه من قبل الرضاعة فقال
موسى للفرعونى خل سبيله فقال انما أخذته ليحمل الحطب الى مطبخ أبيك فنازعه فقال الفرعونى لقد
هممت ان احمله عليك وكان موسى قد أوتى بسطة فى الخلق وشدة فى القوة (فوكزه موسى) اى ضربه
بجمع كفه وقيل الوكز الضرب فى الصدر وقيل الوكز الدفع باطراف الاصابع (فقضى عليه) اى قتله
وفرغ من امره فندم موسى عليه ولم يكن قصده القتل ودفنه فى الرمل (قال هذا من عمل الشيطان انه
عدو مضل مبين) اى بين الضلالة وقيل فى قوله هذا اشارة الى عمل المقتول لا الى عمل نفسه والمعنى ان عمل
هذا المقتول من عمل الشيطان والمراد منه بيان كونه مخالفا لله سبحانه وتعالى مستحقا للقتل وقيل هذا
اشارة الى المقتول يعنى انه من جند الشيطان وحزبه (قال رب انى ظلمت نفسى) اى بقتل القبطى من
غير امر وقيل هو على سبيل الاتضاع لله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وان لم يكن هناك
ذنب وقوله (فاغفر لى) اى ترك هذا المندوب وقيل يحتمل ان يكون المراد رب انى ظلمت نفسى حيث
قتلت هذا فان فرعون اذا عرف ذلك قتلنى به فقال فاغفر لى اى فاستره على ولا توصل خبره الى فرعون
(فغفر له) اى فستره عن الوصول الى فرعون (انه هو الغفور الرحيم قال رب بما) اى بالمغفرة والستر
الذى (انعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) معناه فأنا لا أكون معاونا لاحد من المجرمين قال ابن
عباس للكافرين وفيه دليل على ان الاسرائيلى الذى أعانه موسى كان كافرا قال ابن عباس لم يستثن
فابتلى فى اليوم الثانى اى لم يقل فلم أكن ان شاء الله ظهيرا للمجرمين (فاصبح فى المدينة) اى التى قتل

قال هذا من شيعته وهذا
من عدوه (فاستغاثه)
فاستنصره (الذى من
شيعته على الذى من
عدوه فوكزه موسى)
ضربه بجمع كفه او
باطراف أصابعه (فقضى
عليه) فقتله (قال هذا)
اشارة الى القتل الحاصل
بغير قصد (من عمل
الشيطان) وانما جعل
قتل الكافر من عمل
الشيطان وسماه ظلما
لنفسه واستغفر منه
لانه كان مستأمنا فيهم
ولا يحل قتل الكافر
الحربى المستأمن اولانه
قتله قبل ان يؤذن
له فى القتل وعن ابن
جريج ليس لنبى ان يقتل
ما لم يؤمر (انه عدو مضل
مبين) ظاهر العداوة
(قال رب) يارب (انى
ظلمت نفسى) بفعل
صار قتلا (فاغفر لى)
زلتى (فغفر له) زلته
(انه هو الغفور) بازالة
الزال (الرحيم) بازالة
الخجل (قال رب بما
أنعمت على فلن أكون
ظهيرا) معينا (للمجرمين)
للكافرين وبما أنعمت

على قسم جوابه محذوف تقديره أقسم بانعامك على بالمغفرة لأتوبن فلن أكون ظهيرا للمجرمين او استعطاف كأنه قال رب اعصمنى
بحق ما أنعمت على من المغفرة فلن أكون ان عصمتنى ظهيرا للمجرمين وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون وانتظامه فى جملته
وتكثير سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد (فاصبح فى المدينة

خائفا) على نفسه من قتله القبطى ان يؤخذ به (يترقب) حال اى يتوقع المكروه وهو الاستفادة منه او الاخبار او ما يقال فيه وقال ابن عطاء خائفا على نفسه يترقب نصرة ربه وفيه دليل على انه لا بأس بالخوف من دون الله بخلاف ما يقوله بعض الناس انه لا يسوغ الخوف من دون الله (فاذا الذى) اذا للمفاجأة وما بعدها مبتدأ (استنصره) اى موسى (بالامس يستصرخه) يستغيثه والمعنى ان الاسرائيلى الذى خلصه موسى استغاث به ثانيا من قبطى آخر (قال له موسى) اى للاسرائيلى (انك لغوى مبين) اى ضال عن الرشد ظاهر الغى فقد قاتلت بالامس رجلا فقتلته بسببك والرشد فى التدبير ان لا يفعل فعلا يفضى الى البلاء على نفسه وعلى من يريد نصرته (فلما ان أراد) موسى (ان يبطش) بالذى (هو عدو لهما) بالقبطى الذى (هو عدو لهما) لموسى والاسرائيلى لانه ليس على دينهما لان القبط كانوا أعداء بنى اسرائيل (قال) الاسرائيلى لموسى عليه السلام وقد توهم أنه اراد اخذه لأخذ القبطى اذ قال له انك لغوى مبين (يا موسى أتريد ان تقتلنى كما قتلت نفسا) يعنى القبطى (بالامس ان تريد) ما تريد (الا ان تكون جبارا) اى قتالا بالغضب (فى الارض) ارض مصر (وما تريد ان تكون من المصلحين) فى كظم الغيظ وكان قتل القبطى بالامس قد شاع ولكن خفى قاتله فلما أفشى على موسى عليه السلام علم القبطى ان قاتله موسى فاخبر فرعون فهموا بقتله (وجاء رجل من أقصى المدينة) هو مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون (يسعى) صفة لرجل او حال من رجل لانه وصف بقوله من اقصى المدينة (قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) اى يأمر بعضهم بعضا بقتلك او يتشاورون بسببك يعرف والائتمار التشاور يقال الرجلان يتآمران ويأتمران لان كل واحد منهما يأمر صاحبه بشئ او يشير عليه بأمر (فاخرج) من المدينة (انى لك من الناصحين) لك بيان وليس بصلة الناصحين لان الصلة لا تتقدم على الموصول كانه قال انى من الناصحين ثم أراد ان يبين فقال لك كما يقال سقيا لك ومرحبا لك (فخرج) موسى (منها) من المدينة (خائفا يترقب) التعرض له فى الطريق او ان يلحقه من يقتله (قال رب نجنى من القوم الظالمين) اى قوم فرعون (ولما توجه تلقاء مدين) نحوها والتوجه الاقبال على الشئ ومدين قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن ابراهيم ولم تكن فى سلطان فرعون وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية ايام قال ابن عباس رضى الله عنهما خرج ولم يكن له علم بالطريق الا حسن الظن بربه (قال عسى ربى ان يهدينى سواء السبيل) اى وسطه ومعظم نهجه فجاءه ملك فانطلق به الى مدين

فيها القبطى (خائفا يترقب) اى ينتظر سوأ والترقب انتظار المكروه وقيل ينتظر متى يؤخذ به (فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه) اى يستغيث به من بعد قال ابن عباس أتى فرعون فقيل له ان بنى اسرائيل قتلوا منا رجلا فخذ لنا بحقنا فقال اطلبوا قاتله ومن يشهد عليه فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة اذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الاسرائيلى يقاتل فرعونيا فاستغاثه على الفرعونى وكان موسى قد ندم على ما كان منه بالامس من قتل القبطى (قال له موسى) للاسرائيلى (انك لغوى مبين) اى ظاهر الغواية قاتلت رجلا بالامس فقتلته بسببك وتقاتل اليوم آخر وتستغيثنى عليه (فلما ان أراد ان يبطش بالذى هو عدو لهما) وذلك ان موسى اخذته الغيرة والرقة للاسرائيلى فديده ليبطش بالقبطى فظن الاسرائيلى انه يريد ان يبطش به لما رأى من غضب موسى وسمع قوله انك لغوى مبين (قال يا موسى اتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس) معناه انه لم يكن علم احد من قوم فرعون ان موسى هو الذى قتل القبطى حتى أفشى عليه الاسرائيلى ذلك فسمعه القبطى فأتى فرعون فاخبره بذلك (ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض) اى بالقتل ظلما وقيل الجبار هو الذى يقتل ويضرب ولا ينظر فى العواقب وقيل هو الذى يتعاظم ولا يتواضع لامر الله تعالى (وما تريد أن تكون من المصلحين) ولما فشا ان موسى قتل القبطى امر فرعون بقتله فخرجوا فى طلبه وسمع بذلك رجل من شيعة موسى يقال انه مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وقيل شمعون وقيل سمعان وهو قوله تعالى (وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى) اى يسرع فى مشيه وأخذ طريقا قريبا حتى سبق الى موسى وأخبره وأنذره بما سمع (قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك) اى يتشاورون فيك (ليقتلوك) وقيل يأمر بعضهم بعضا بقتلك (فاخرج) اى من المدينة (انى لك من الناصحين) اى فى الامر بالخروج (فخرج منها) يعنى موسى (خائفا) على نفسه من آل فرعون (يترقب) اى ينتظر الطلب هل يلحقه فيأخذه ثم لجأ الى الله تعالى لعلمه انه لا ملجأ الا اليه (قال رب نجنى من القوم الظالمين) اى الكافرين قوله تعالى (ولما توجه تلقاء مدين) اى قصد نحوها ما ضيا اليها قيل لانه وقع فى نفسه ان بينهم وبينه قرابة لان اهل مدين من ولد ابراهيم وموسى من ولد ابراهيم ومدين هو مدين بن ابراهيم سميت البلد باسمه وبين مدين ومصر مسيرة ثمانية ايام فلما خرج موسى خائفا بلا ظهر ولا زاد ولا احد ولم يكن له طعام الا ورق الشجر ونبات الارض حتى رأى خضرته فى بطنه وما وصل الى مدين حتى وقع خف قدميه قال ابن عباس وهو أول ابتلاء من الله لموسى (قال) يعنى موسى (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) اى قصد الطريق الى مدين وذلك لانه لم يكن

(ولما ورد) وصل (ماء مدين) ماءهم الذى يسقون منه وكان بئرا (وجد عليه) على جانب البئر (أمة) جماعة كثيرة (من الناس) من أناس مختلفين (يسقون) مواشيهم (ووجد من دونهم) فى مكان اسفل من مكانهم (امرأتين تذودان) تطردان غنمهما عن الماء لان على الماء من هو اقوى منهما فلا تتمكنان من السقى اولئلا تختلط اغنامهما باغنامهم والذود الطرد والدفع (قال ما خطبكما) ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما اى ما مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطبا (قالتا لا نسقى) غنمنا (حتى يصدر الرعاء) مواشيهم يصدر شامى ويزيد وابو عمرو اى يرجع والرعاء جمع راع كقائم وقيام (وابونا شيخ) لا يمكنه سقى الاغنام (كبير) فى حاله أو فى السن لا يقدر على سقى الغنم ابدا تاليه عذرهما فى توليهما السقى بانفسهما (فسقى لهما) فسقى غنمهما لاجلهما رغبة فى المعروف واغاثة للملهوف روى انه نحى النوم عن راس البئر وسألهم دلوا فاعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكانت لا ينزعها

يعرف الطريق اليها قيل لما دعا موسى جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به الى مدين قوله عز وجل (ولما وردماء مدين) هو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم (وجد عليه) اى على الماء (أمة) اى جماعة (من الناس يسقون) اى مواشيهم (ووجد من دونهم) اى سوى الجماعة وقيل بعيدا من الجماعة (امرأتين تذودان) اى تحبسان وتمنعان اغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتخلو لهما البئر وقيل تكفان الغنم عن أن تختلط باغنام الناس وقيل تمنعان اغنامهما عن ان تندو وتذهب والقول الاول اولى لما بعده وهو قوله (قال) يعنى موسى للمرأتين (ما خطبكما) اى ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس (قالتا لا نسقى) اى اغنامنا (حتى يصدر الرعاء) اى حتى يرجع الرعاء عن الماء والمعنى انا امرأتان لا نستطيع ان نزاحم الرجال فاذا صدروا سقينا نحن مواشينا من فضل ما بقى منهم فى الحوض (وأبونا شيخ كبير) اى لا يقدر أن يسقى مواشيه فلذلك احتجنا نحن الى سقى الغنم قيل ابوهما هو شعيب عليه الصلاة والسلام وقيل هو بيرون ابن اخى شعيب وكان شعيب قد مات بعد ما كف بصره وقيل هو رجل ممن آمن بشعيب فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ورحمهما فاقتلع صخرة من على راس بئر اخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها الا جماعة من الناس وقيل زاحم القوم ونحاهم كلهم عن البئر وسقى لهما الغنم وقيل لما فرغ الرعاء من السقى غطوا راس البئر بحجر لا يرفعه الا عشرة نفر فجاء موسى فرفع الحجر وحده ونزع دلوا واحدا ودعا فيه بالبركة وسقى الغنم فرويت فذلك قوله تعالى (فسقى لهما ثم تولى الى الظل) اى عدل الى اصل شجرة فجلس فى ظلها من شدة الحر وهو جائع (فقال رب انى لما انزلت الى من خير فقير) معناه انه طلب الطعام لجوعه واحتياجه اليه قال ابن عباس ان موسى سأل الله فلقة خبز يقيم بها صلبه وعن ابن عباس قال لقد قال موسى رب انى لما انزلت الى من خير فقير وهو أكرم خلقه عليه ولقد افتقر الى شق تمرة وقيل ما سأل الا الخبز فلما رجعتا الى ابيهما سريعا قبل الناس واغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما فقالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا اغنامنا فقال لاحداهما اذهبى فادعيه الى فقال الله تعالى (فجاءته احداهما تمشى على استحياء) قيل هى الكبرى واسمها صفورا وقيل صفراء وقيل بل هى الصغرى واسمها ليا وقيل صفيراء وقال عمر بن الخطاب ليست بسالفة من النساء خراجة ولاجة ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء وقيل استحيت منه لانها دعته

الا اربعون فاستقى بها وصبها فى الحوض ودعا بالبركة وترك المفعول فى يسقون وتذودان ولا نسقى وفسقى لان الغرض هو الفعل لا المفعول ألا ترى انه انما رحمهما لانهما كانتا على الذياد وهم على السقى ولم يرحمهما لان مذودهما غنم ومسقيهم ابل مثلا وكذا فى لا نسقى وفسقى فالمقصود هو السقى لا المسقى ووجه مطابقة جوابهما سؤاله انه سألهما عن سبب الذود فقالتا السبب فى ذلك انا امرأتان مستورتان ضعيفتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ونستحى من الاختلاط بهم فلا بد لنا من تأخير السقى الى ان يفرغوا وانما رضى شعيب

عليه السلام لابنتيه بسقى الماشية لان هذا الامر فى نفسه ليس بمحظور والدين لا يأباه وأما المروءة فعادات الناس فى ذلك متباينة واحوال العرب فيه خلاف احوال العجم ومذهب اهل البدو فيه غير مذهب اهل الحضر خصوصا اذا كانت الحالة حالة ضرورة (ثم تولى الى الظل) اى ظل سمرة وفيه دليل جواز الاستراحة فى الدنيا بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة ولما طال البلاء عليه أنس بالشكوى اذ لا نقص فى الشكوى الى المولى (فقال رب انى لما) لاى شئ (انزلت الى من خير) قليل او كثير غث او سمين (فقير) محتاج وعدى فقير باللام لانه ضمن معنى سائل وطالب قيل كان لم يذق طعاما سبعة ايام وقد لصق بظهره بطنه ويحتمل ان يريد انى فقير من الدنيا لاجل ما انزلت الى من خير الدارين وهو النجاة من الظالمين لانه كان عند فرعون فى ملك وثروة قال ذلك رضا بالبدل السنى وفرحا به وشكرا له وقال ابن عطاء نظر من العبودية الى الربوبية وتكلم بلسان الافتقار لما ورد على سره من الانوار (فجاءته احداهما تمشى على استحياء

قالت ان ابى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) على استحيائها فى موضع الحال اى مستحية وهذا دليل كمال ايمانها وشرف عنصرها كانت تدنوه الى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا فاتته مستحية قد استترت بكم درعها وما فى ماسقيت مصدرية اى جزاء سقيك روى انهما رجعتا الى ابيهما قبل الناس واغنامهما حفل قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحداهما اذهبى فادعيه لى فجاءت موسى عليه السلام فالزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها امشى خلفى وانعتى لى الطريق (فلما جاءه وقص عليه القصص) قصته وأحواله مع فرعون والقصص مصدر كالعلل سمى به المقصوص (قال) له (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) اذ لا سلطان لفرعون بارضنا وفيه دليل جواز العمل بخبر الواحد ولو عبدا وأنثى والمشى مع الاجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع وأما اخذ الاجرة والمعروف فقيل انه لا باس به عند الحاجة كما كان لموسى عليه السلام على انه روى انها لما قالت ليجزيك كره ذلك وانما أجابها لانه يخيب قصدها الان للقاصد حرمة ولما وضع شعيب الطعام بين يديه امتنع فقال شعيب ألست جائعا قال بلى ولكن أخاف ان يكون عوضا مما سقيت لهما وانا اهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ولا نأخذ على المعروف ثمنا فقال شعيب عليه السلام هذه عادتى مع كل من ينزل بنا فأكل (قالت احداهما يا أبت استأجره) اتخذه اجيرا لرعى الغنم روى ان أكبرهما كانت تسمى صفراء والصغرى صفيراء وصفراء هى التى ذهبت به وطلبت الى ابيها ان يستأجره وهى التى تزوجها (ان خير من استأجرت القوى الامين) فقال وما علمك بقوته وامانته فذكرت نزع الدلو وامرها بالمشى خلفه وورود الفعل بلفظ الماضى للدلالة على ان امانته وقوته أمران متحققان وقولها ان خير من استأجرت القوى الامين كلام جامع لانه اذا اجتمعت هاتان الخصلتان الكفاية والامانة فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك وقيل القوى فى دينه الامين فى جوارحه وقد استغنت بهذا الكلام الجارى مجرى المثل عن ان تقول استأجره لقوته وامانته وعن ابن مسعود رضى الله عنه افرس الناس ثلاث بنت شعيب وصاحب يوسف فى قوله عسى ان ينفعنا او نتبناه وابو بكر فى عمر (قال انى اريد أن أنكحك) ازوجك (احدى ابنتى هاتين) قوله هاتين يدل على انه كان له غيرهما وهذه مواعدة منه ولم يكن ذلك عقد نكاح اذ لو كان عقد القال قد انكحتك (على ان تأجرنى) تكون اجيرا لى من اجرته اذا كنت له اجيرا (ثمانى حجج) ظرف والحجة السنة وجمعها حجج والتزوج على رعى الغنم يدل بالاجماع لانه من باب القيام بامر الزوجية فلا مناقضة بخلاف التزوج على الخدمة (فان اتممت عشرا) اى عمل عشر حجج (فمن عندك فذلك تفضل منك ليس بواجب عليك او اتمامه من عندك ولا احتمه عليك ولكنك ان فعلته فهو منك تفضل وتبرع (وما أريد أن اشق عليك) بالزام اتم الاجلين وحقيقة قولهم شققت عليك وشق عليه الامر اذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين تقوى تارة أطيقه وطورا لا اطيقه (ستجدنى ان شاء الله من الصالحين) فى حسن المعاملة والوفاء بالعهد ويجوز ان يراد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة والمراد باشتراطه مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه ومعونته لانه ان شاء فعل وان

لا تكافئه وقيل لانها رسول ابيها (قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) قيل لما سمع موسى ذلك كره ان يذهب معها ولكن كان جائعا فلم يجد بدا من الذهاب فمشت المرأة ومشى موسى خلفها فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها فكره موسى أن يرى ذلك منها فقال لها امشى خلفى ودلينى على الطريق اذا أخطأت ففعلت ذلك فلما دخل موسى على شعيب اذا هو بالعشاء مهيأ فقال اجلس يا فتى فتعشى فقال موسى أعوذ بالله قال شعيب ولم ذاك ألست بجائع قال بلى ولكن اخاف أن يكون عوضا لما سقيت لهما وانا اهل بيت لا نطلب على عمل من اعمال الآخرة عوضا من الدنيا فقال له شعيب لا والله يا فتى ولكنها عادتى وعادة آبائى نقرى الضيف ونطعم الطعام فجلس وأكل فذلك قوله عز وجل (فلما جاءه) اى موسى (وقص عليه القصص) اى اخبره بامره اجمع من خبر ولادته وقتله القبطى وخروجه من فرعون وقتله (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) يعنى من فرعون وقومه وانما قال ذلك لانه لم يكن لفرعون سلطان على مدين (قالت احداهما يا أبت استأجره) اى اتخذه اجيرا يرعى اغنامنا (ان خير من استأجرت القوى الامين) يعنى ان خير من استعملت من قوى على العمل وأدى الامانة فقال لها ابوها وما علمك بقوته وأمانته قالت أما قوته فانه رفع الحجر من على رأس البئر ولا يرفعه الا عشرة وقيل اربعون رجلا وأما امانته فانه قال لى امشى خلفى حتى لا تصف الريح بدنك (قال) شعيب عند ذلك (انى أريد أن أنكحك) اى ازوجك (احدى ابنتى هاتين) قيل زوجه الكبرى وقال الاكثرون انه زوجه الصغرى منهما واسمها صفورا وهى التى ذهبت فى طلب موسى (على ان تأجرنى ثمانى حجج) اى تكون لى اجيرا ثمان سنين (فان أتممت عشرا فمن عندك) اى فان اتممت العشر سنين فذلك تفضل منك وبر ليس بواجب عليك (وما أريد أن اشق عليك) اى الزمك تمام العشر الا ان تتبرع (ستجدنى ان شاء الله من الصالحين) اى فى حسن الصحبة والوفاء بما قلت وقيل يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب

لم يفعل ذلك (قال) موسى (ذلك) مبتدأ وهو اشارة الى ما عاهده عليه شعيب والخبر (بيني و بينك) يعني ذلك الذي قلته وعاهدتني
وشارطتني عليه قائم بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا أنا فيما شرطت على ولا انت فيما شرطت على نفسك ثم قال (أيما الاجلين
قضيت) اى اى أجل قضيت من الاجلين يعني العشرة او الثمانية واى نصب بقضيت وما زائدة ومؤكدة لابهام اى وهي شرطية
وجوابها (فلا عدوان علي) اى لا يعتدى علي في طلب الزيادة عليه قال المبرد قد علم انه لا عدوان عليه في ايهما ولكن جمعهما ليجعل
الاقل كالاتم في الوفاء وكما ان طلب الزيادة على الاتم عدوان فكذا طلب الزيادة على الاقل (والله على ما نقول وكيل) هو من وكل
عنده عصى الانبياء عليهم السلام ٤٤٣ الامر وعدى بعلى لانه استعمل في موضع الشاهد والرقيب روى ان شعيبا كانت

فقال لموسى بالليل ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى فاخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم ينزل الانبياء عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت الى شعيب فسها وكان مكفوفا فقض بها فقال خذ غيرها فما وقع في يده الا هي سبع مرات فعلم ان له شأنا ولما أصبح قال له شعيب اذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فان الكلأ وان كان بها أكثر الان فيها ثنينا اخشاه عليك وعلى الغنم فاخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كنها فمشى على اثرها فاذا عشب وريف لم ير مثله فنام فاذا التنين قد اقبل فخار بته العصا حتى قتلته وعادت الى جنب موسى دامية فلما ابصرها دامية والتنين

وانما قال ان شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته (قال) يعني موسى (ذلك بيني و بينك) اى ما شرطت
على فلك وما شرطت من تزوج احداهما لي والامر بيننا على ذلك (أيما الاجلين قضيت) اى اى
الاجلين اتممت وفرغت منه الثمانية او العشرة (فلا عدوان علي) اى لا ظلم علي بان أطالب باكثر منه
(والله على ما نقول وكيل) قال ابن عباس شهيد بيني و بينك (خ) عن سعيد بن جبير قال سألني يهودي
من اهل الحيرة أي الاجلين قضى موسى قلت لا ادري حتى أقدم على خير العرب فأسأله فقدمت فسألت
ابن عباس فقال قضى اكثرهما واطيبهما ان رسول الله اذا قال فعل وروى عن ابي ذر مرفوعا اذا سئلت
اى الاجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما واذا سئلت أي المراتين تزوج فقل الصغرى منهما وهي
التي جاءت فقالت يا أبت استأجره فتزوج صغراهما وقضى اوفاهما وقال وهب أنكحه الكبرى وروى
عبد بن حميد وابن اوس مرفوعا بكى شعيب النبي صلى الله عليه وسلم حتى عمي فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد
الله عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره فقال الله له ما هذا البكاء أشوقا الى الجنة ام خوفا من النار
فقال لا يا رب ولكن شوقا الى لقائك فاوحى الله اليه ان يكن ذلك فهنيئا لك لقائي يا شعيب لذلك
قد جعلت كليمي موسى ولما تعاقدا هذا العقد بينهما امر شعيب ابنته ان تعطي موسى عصاه يدفع بها
السباع عن غنمه قيل كانت من آس الجنة حملها آدم معه فتوارثها الانبياء وكان لا يأخذها غير نبي الا
صارت له فصارت من آدم الى نوح ثم الى ابراهيم حتى وصلت الى شعيب فاعطاها موسى ثم ان موسى لما
قضى الاجل سلم شعيب اليه ابنته فقال لها موسى اطلبي من ابيك ان يجعل لنا بعض الغنم فطلبت من أبيها
ذلك فقال لكما كل ما ولدت هذا العام على غير شيتها وقيل ان شعيبا أراد ان يجازي موسى على حسن رعيه
اكراما له وصلة لابنته فقال له اني قد وهبت لك من ولد أغنامي كل ابلق و بلقاء في هذه السنة فاوحى
الله تعالى الى موسى في النوم أن اضرب بعصاك الماء ثم اسق الاغنام منه ففعل ذلك فما أخطأت
واحدة الا وضعت حملها ما بين أبلق و بلقاء فعلم شعيب ان هذا رزق ساقه الله الى موسى وامرأته فوفى له
شرطه وأعطاه الاغنام * قوله عز وجل (فلما قضى موسى الاجل) اى أتمه وفرغ منه (وسار بأهله)
قيل مكث موسى بعد الاجل عند شعيب عشر سنين أخرى ثم استأذنه في العود الى مصر فاذن له فسار باهله
يريد بلاد قومه قاصدا الى مصر (آنس) اى أبصر (من جانب الطور نارا) وذلك انه كان في البرية في ليلة
مظلمة شديدة البرد واخذ امرأته الطلق (قال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر) اى عن
الطريق لانه كان قد أخطأ الطريق (او جذوة من النار) اى قطعة وشعلة من النار وقيل الجذوة العود
الذي اشتعل بعضه (لعلكم تصطلون) اى تستدفئون (فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الايمن) يعني

فتحولا ارتاح لذلك ولما رجع الى شعيب مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فاخبره موسى ففرح وعلم ان لموسى
فيها شأنا وقال له اني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل ادرع ودرعاء فاوحى اليه في المنام ان اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم
مشى فوضعت كلهن أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه (فلما قضى موسى الاجل) قال عليه السلام قضى اوفاهما وتزوج صغراهما وهذا
بخلاف الرواية التي مرت (وسار باهله) بامرأته نحو مصر قال ابن عطاء لما تم اجل المحنة ودنا ايام الزلفة وظهرت انوار النبوة سار باهله
يشوكوا معه في لطائف صنع ربه (آنس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر) عن الطريق لانه
ضل الطريق (او جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الايمن) بالنسبة الى موسى

(فى البقعة المباركة) بتكليم الله تعالى فيها (من الشجرة) العناب او العوسج (أن ياموسى) ان مفسرة او مخففة من الثقيلة (انى أنا الله رب العالمين) قال جعفر ابصر نارا دلته على الانوار لانه رأى النور فى هيئة النار فلما دنا منها شملته أنوار القدس واحاطت به جلابيب الانس فخوطب بالطف خطاب واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلما شريفا أعطى ماسأل وامن مما خاف والجذوة باللغات الثلاث وقرئ بهن فعاصم بفتح الجيم وحمزة وخلف بضمها وغيرهم بكسرها العود الغليظ كانت فى رأسه نارا ولم تكن ومن الاولى والثانية لابتداء الغاية اى اتاه النداء من شاطئ الوادى من قبل الشجرة ومن الشجرة بدل من شاطئ الوادى بدل الاشتمال لان الشجرة كانت نابتة فى الشاطئ اى الجانب (وان ألق عصاك) ونودى ان ألق عصاك فالقاها فقلبها الله ثعبانا (فلما رآها تهتز) تتحرك (كانها جان) حية سريعة سعيها وهى ثعبان فى جثتها (ولى مدبرا ولم يعقب) يرجع فقيل له (ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين) اى أمنت من ان ينالك مكروه من الحية (اسلك) ادخل (يدك فى جيبك) جيب قميصك (تخرج بيضاء) لها شعاع كشعاع الشمس (من غير سوء) برص (واضمم اليك جناحك من الرهب) بحازى بفتحتين وبصرى الرهب حفص الرهب غيرهم ومعنى الكل الخوف والمعنى واضمم يدك الى صدرك يذهب ما بك من فرق اى لاجل الحية عن ابن عباس رضى الله عنهما كل خائف اذا وضع يده على صدره زال خوفه وقيل معنى ضم الجناح ان الله تعالى لما قلب العصا حية فزع موسى واتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشئ فقيل له ان اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الاعداء فاذا لقيتها فكما تنقلب حية فادخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الامران اجتناب ما هو غضاضة عليك واظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح اليد لان يدى الانسان بمنزلة جناحى الطائر (وانى

من جانب الوادى الذى عن يمين موسى (فى البقعة المباركة) جعلها الله مباركة لان الله تعالى كلم موسى هناك وبعثه نبيا وقيل يريد البقعة المقدسة (من الشجرة) اى من ناحية الشجرة قال ابن مسعود كانت سمرة خضراء ترف وقيل كانت عوسجة وقيل كانت من العليق وعن ابن عباس انها العناب (ان ياموسى انى أنا الله رب العالمين) قيل ان موسى لما رأى النار فى الشجرة الخضراء علم انه لا يقدر على الجمع بين النار وخضرة الشجرة الا الله تعالى فعلم بذلك ان المتكلم هو الله تعالى وقيل ان الله تعالى خلق فى نفس موسى علما ضروريا بان المتكلم هو الله تعالى وان ذلك الكلام كلام الله تعالى وقيل انه قيل لموسى كيف عرفت انه نداء الله قال انى سمعته بجميع اجزائى فلما وجد حس السمع من جميع الاجزاء علم بذلك انه لا يقدر عليه أحد الا الله تعالى (وأن ألق عصاك) اى فالقاها (فلما رآها تهتز) اى تتحرك (كانها جان) هى الحية الصغيرة والمعنى انها فى سرعة حركتها كالحية السريعة الحركة (ولى مدبرا) اى هاربا منها (ولم يعقب) اى ولم يرجع قال وهب انها لم تدع شجرة ولا صخرة الا بلعتها حتى ان موسى سمع صريف أسنانها وقعقعة الشجر والصخر فى جوفها فحينئذ ولى مدبرا ولم يعقب فنودى عند ذلك (ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين) * قوله عز وجل (اسلك يدك) أى ادخل يدك (فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) اى برص والمعنى انه ادخل يده فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس (واضمم اليك جناحك من الرهب) اى من الخوف والمعنى اذا هالك أمر يدك وما تراه من شعاعها فادخلها فى جيبك تعد الى حالتها الاولى وقال ابن عباس أمر الله موسى ان يضم يده الى صدره فيذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية وما من خائف بعد موسى الا اذا وضع يده على صدره زال خوفه وقيل المراد من ضم الجناح السكون اى سكن روعك واخفض عليك جناحك لان من شأن الخائف ان يضطرب قلبه ويرتعد بدنه وقيل الرهب الكم بلغة حمير ومعناه اضمم اليك يدك وأخرجها من كمك لانه تناول العصا ويده فى كمه (فذانك) يعنى العصا واليد البيضاء (برهانان) اى آيتان (من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين) اى خارجين عن الحق (قال رب انى قتلت منهم نفسا) يعنى القبطى (فاخاف ان يقتلون) اى به

برص (واضمم اليك جناحك من الرهب) بحازى بفتحتين وبصرى الرهب حفص الرهب غيرهم ومعنى الكل الخوف والمعنى واضمم يدك الى صدرك يذهب ما بك من فرق اى لاجل الحية عن ابن عباس رضى الله عنهما كل خائف اذا وضع يده على صدره زال خوفه وقيل معنى ضم الجناح ان الله تعالى لما قلب العصا حية فزع موسى واتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشئ فقيل له ان اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الاعداء فاذا لقيتها فكما تنقلب حية فادخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الامران اجتناب ما هو غضاضة عليك واظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح اليد لان يدى الانسان بمنزلة جناحى الطائر (وانى

وبالباء يعقوب (واخى هرون هو افصح منى لسانا فارسله معى) حفص (ردأ) حال اى عونا يقال ردانه اعنته وبلا همز مدنى (يصدقنى) عاصم وحمزة صفة اى ردا مصدقا لى وغيرهما بالجزم جواب لارسله ومعنى تصديقه موسى اعانته اياه بزيادة البيان فى مظان الجدال ان احتاج اليه ليثبت دعواه لان يقول له صدقت الا ترى الى قوله هو افصح منى لسانا فارسله وفضل الفصاحة انما يحتاج اليه لتقرير البرهان لا لقوله صدقت فسحبان وباقل فيه يستويان (انى أخاف ان يكذبون) يكذبونى فى الحالين يعقوب (قال سنشد عضدك باخيك) سنقويك به اذا اليد تشتد بشدة العضد لانه قوام اليد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الامور (ونجعل لكما سلطانا) غلبة وتسلطا وهيبة فى قلوب الاعداء (فلا يصلون اليكما بآياتنا) الباء تتعلق بيصلون اى لا يصلون اليكما بسبب آياتنا وتم الكلام او نجعل لكما سلطانا اى تسلطكما بآياتنا او بمحذوف اى اذهبا بآياتنا او هو بيان للغالبون لاصلة او قسم جوابه لا يصلون مقدما عليه (انتما ومن اتبعكما الغالبون فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) واضحات (قالوا ما هذا الا سحر مفترى) اى سحر تعمله انت ثم تفتريه على الله او سحر موصوف بالافتراء كسائر انواع السحر وليس بمعجزة من عند الله (وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين) ٤٤٥ حال منصوبة عن هذا اى كائنا

(واخى هرون هو افصح منى لسانا) اى بيانا وانما قال ذلك للعقدة التى كانت فى لسانه من وضع الجمرة فى فيه (فارسله معى ردأ) اى عونا (يصدقنى) يعنى فرعون وقيل تصديق هرون هو ان يلخص الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل الكفار فهذا هو التصديق المفيد (انى أخاف ان يكذبون) يعنى فرعون وقومه (قال سنشد عضدك باخيك) اى سنقويك به وكان هرون بمصر (ونجعل لكما سلطانا) اى حجة وبرهانا (فلا يصلون اليكما) اى بقتل ولا سوء (بآياتنا) قيل معناه نعطيكما من المعجزات فلا يصلون اليكما (انتما ومن اتبعكما الغالبون) اى لكما ولاتباعكما الغلبة على فرعون وقومه (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) اى واضحات (قالوا ما هذا الا سحر مفترى) اى مختلق (وما سمعنا بهذا) اى بالذى تدعونا اليه (فى آبائنا الاولين وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) اى انه يعلم المحق من المبطل (ومن تكون له عاقبة الدار) اى العقبى المحمودة فى الدار الآخرة (انه لا يفلح الظالمون) اى الكافرون (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى) فيه انكار لما جاء به موسى من توحيد الله وعبادته (فأوقد لى يا هامان على الطين) اى اطبخ لى الآجر قيل انه اول من اتخذ آجرا وبنى به (فاجعل لى صرحا) اى قصرا عاليا وقيل منارة قال أهل السير لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال والفعلة حتى اجتمع عنده خمسون ألف بناء سوى الاتباع والاجراء وطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير وأمر بالبناء فبنوه ورفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق وأراد الله ان يفتنهم فيه فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه وأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت اليه وهى ملطخة دما فقال قد قتلت اله موسى وكان فرعون يصعده راكبا على البراذين فبعث الله جبريل عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منه على عسكره فقتلت منهم ألف ألف رجل ووقعت قطعة منه فى البحر وقطعة فى المغرب فلم يبق أحد عمل شيأ فيه الا هلك فذلك قوله (لعلى أطلع الى اله موسى) اى انظر اليه واقف على حاله (وانى لأظنه) يعنى موسى (من الكاذبين) اى فى زعمه

فى زمانهم يعنى ما حدثنا بكونه فيهم (وقال موسى ربى اعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون) اى ربى أعلم منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم حيث جعله نبيا وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى يعنى نفسه ولو كان كما تزعمون ساحرا مفتريا لما أهله لذلك لانه غنى حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبئ الساحرين ولا يفلح عنده الظالمون وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة لقوله تعالى اولئك لهم عقبى الدار جنات عدن والمراد بالدار الدنيا

وعقبناها ان يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى والغفران قال موسى بغير واو ومكى وهو حسن لان الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عند تسميتهم مثل تلك الآيات العظام سحرا مفترى ووجه الاخرى انهم قالوا ذلك وقال موسى هذا ليوازن الناظر بين القول والمقول ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر ربى أعلم جازى وأبو عمرو ومن يكون حمزة وعلى (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى) قصد بنفى علمه باله غيره نفى وجوده اى ما لكم من اله غيرى او هو على ظاهره وان الها غيره غير معلوم عنده (فأوقد لى يا هامان على الطين) اى اطبخ لى الآجر واتخذه وانما لم يقل مكان الطين هذا لانه اول من عمل الآجر فهو يعلم الصنعة بهذه العبارة ولانه افصح واشبه بكلام الجبابرة اذ أمر هامان وهو وزيره بالايقاد على الطين منادى باسمه بيانى وسط الكلام لمزيد التعظم والتجبر (فاجعل لى صرحا) قصرا عاليا (لعلى اطلع) اى اصعد والاطلاع الصعود (الى اله موسى) حسب انه تعالى فى مكان كما كان هو فى مكان (وانى لأظنه) اى موسى (من الكاذبين) فى دعواه ان له الها وانه ارسله الينا رسولا وقد تناقض المخذول فانه قال ما علمت لكم من اله غيرى ثم اظهر حاجته الى هامان واثبت لموسى الها واخبر انه غير متيقن بكذبه وكانه تحصن من عصا موسى

عليه السلام فلبس وقال لعلى اطلع الى اله موسى روى ان هامان جمع خمسين الف بناء وبنى صرحا لم يبلغه بناء احد من الخلق فضربه الصرح جبريل عليه السلام بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت الف الف رجل وقطعة فى البحر وقطعة فى المغرب ولم يبق احد من عماله الا هلك (واستكبر هو وجنوده) تعظم (فى الارض) ارض مصر (بغير الحق) اى بالباطل فالاستكبار بالحق لله تعالى وهو المتكبر على الحقيقة اى المتبالغ فى كبرياء الشان كما حكى رسولنا عن ربه الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما القيته فى النار وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق (وظنوا انهم الينا لا يرجعون) يرجعون نافع وحمزة وعلى وخلف ويعقوب (فاخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) من الكلام المفخم الذى دل به على عظمة شأنه شبههم استقلالا لعددهم وان كانوا الجم الغفير بحصيات اخذهن آخذ بكفه فطرحهن فى البحر (فانظر) يا محمد (كيف كان عاقبة الظالمين) وحذر قومك فانك منصور عليهم (وجعلناهم ائمة) قادة (يدعون الى النار) اى عمل اهل النار قال ابن عطاء نزع عن اسرارهم التوفيق وانوار التحقيق فهم فى ظلمات نفوسهم لا يدلون على سبيل الرشاد ٤٤٦ وفيه دلالة خلق افعال العباد (ويوم القيامة لا ينصرون) من العذاب (واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) الزمناهم طردا وابعادا عن الرحمة وقيل هو ما يلحقهم من لعن الناس اياهم بعدهم (ويوم القيامة هم من المقبوحين) المطرودين المبعدين او المهلكين المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون ويوم ظرف للمقبوحين (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (من بعد ما اهلكنا القرون الاولى) قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام (بصائر للناس) حال من الكتاب والبصيرة نور القلب الذى يبصر به الرشد والسعادة كما ان البصر نور العين الذى يبصر به الاجساد يريد آتيناه التوراة انوارا للقلوب لانها كانت عميا لا تستبصر ولا تعرف حقا من باطل (وهدى) وارشادا لانهم كانوا يخبطون فى ضلال (ورحمة) لمن اتبعها لانهم اذا عملوا بها وصلوا الى نيل الرحمة (لعلهم يتذكرون) يتعظون (وما كنت) يا محمد (بجانب) الجبل (الغربى) وهو المكان الواقع فى شق الغرب وهو الذى وقع فيه ميقات موسى (اذ قضينا الى موسى الامر) اى كلمناه وقربناه نجيا (وما كنت من الشاهدين) من جملة الشاهدين للوحى اليه حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى فى ميقاته (ولكنا انشأنا) بعد موسى (قرونا فتطاول عليهم العمر) اى طالت أعمارهم وفترت النبوة وكادت الاخبار تخفى واندرست العلوم ووقع التحريف فى كثير منها فارسلناك مجددا لتلك الاخبار مبينا ما وقع فيه التحريف واعطيناك العلم بقصص الانبياء وقصة موسى كانه قال وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ولكنا اوحيناه اليك فذكر سبب الوحى الذى هو اطالة الفترة ودل به على المسبب اختصارا فاذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراك بعده (وما كنت ثاويا) مقيما (فى اهل مدين) وهم شعيب والمؤمنون به (تتلوا عليهم آياتنا) تقرؤها عليهم تعلما منهم يريد الآيات التى فيها قصة شعيب وقومه وتتلوا فى موضع نصب خبر ثان لو حال من الضمير فى ثاويا (ولكنا كنا مرسلين) ولكنا ارسلناك واخترناك بها وعلمنا كها

(وما كنت بجانب الطور اذ نادينا) موسى ان خذ الكتاب بقوة (ولكن) أعلمناك وارسلناك (رحمة) للرحمة (من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك) فى زمان الفترة بينك و بين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة (لعلهم يتذكرون ولولا ان تصيبهم مصيبة) عقوبة (بما قدمت أيديهم) من الكفر والظلم ولما كانت أكثر الاعمال تزاول بالايدى نسبت الاعمال الى الايدى وان كانت من أعمال القلوب تغليبا للاكثر على الاقل (فيقولوا) عند العذاب (ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) لولا الاولى امتناعية وجوابها محذوف والثانية تحضيضية والفاء الاولى للعطف والثانية جواب

لولا لكونها فى حكم الامر اذ الامر باعث على الفعل والباعث والمحضض من واد واحد والفاء تدخل فى جواب الامر والمعنى ولولا أنهم قائلون اذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى هلا ارسلت الينا رسولا محتجين علينا بذلك لما ارسلنا اليهم يعنى ان ارسال الرسول اليهم انما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها كقوله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فان قلت كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هى السبب فى الارسال لا القول لدخول لولا الامتناعية عليها دونه قلت القول هو المقصود بان يكون سببا للارسال ولكن العقوبة لما كانت سببا للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كانها سبب الارسال فادخلت عليها لولا وجىء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية ويؤول معناه

الاخبار لتتلوها عليهم ولولا ذلك لما علمتها أنت ولم تخبرهم بها (وما كنت بجانب الطور) اى بناحية الجبل الذى كلم الله موسى عليه (اذ نادينا) يعنى موسى خذ الكتاب بقوة وقال وهب قال موسى يا رب أرنى محمدا وأمته قال انك ان تصل الى ذلك ولكن ان شئت ناديت أمته واسمعتك صوتهم قال بلى يا رب، قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم وقال ابن عباس قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوه من اصلاب الآباء والارحام اى أرحام الامهات لبيك اللهم لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك قال الله تعالى يا أمة محمد ان رحمتى سبقت غضبى وعفوى سبق عقابى قد أعطيتكم قبل ان تسألونى وقد اجبتكم قبل ان تدعونى وقد غفرت لكم قبل ان تستغفرونى ومن جاءنى يوم القيامة بشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا عبدى ورسولى دخل الجنة وان كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر (ولكن رحمة من ربك) اى رحمناك رحمة بارسالك والوحى اليك واطلاعك على الاخبار الغائبة عنك (لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك) يعنى اهل مكة (لعلهم يتذكرون) اعلم ان الله تعالى لما بين قصة موسى عليه الصلاة والسلام لرسوله صلى الله عليه وسلم فجمع بين هذه الاحوال الثلاثة العظيمة التى اتفقت لموسى فالمراد بقوله اذ قضينا الى موسى الامر هو انزال التوراة عليه حتى تكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله وما كنت ثاويا فى أهل مدين اول أمر موسى والمراد بقوله اذ نادينا ليلة المناجاة فهذه أعظم احوال موسى ولما بينها لرسوله ولم يكن فى هذه الاحوال حاضرا بين الله انه بعثه وعرفه هذه الاحوال الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزته كانه قال فى اخبارك عن هذه الاشياء من غير حضور ولا مشاهدة دلالة ظاهرة على نبوتك قوله تعالى (ولولا أن تصيبهم مصيبة) اى عقوبة ونقمة (بما قدمت أيديهم) يعنى من الكفر والمعاصى (فيقولوا ربنا لولا) اى هلا (أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) ومعنى الآية لولا انهم يحتجون بترك الارسال اليهم لعاجلناهم بالعقوبة على كفرهم وقيل معناه لما بعثناك اليهم رسولا ولكتابعثناك اليهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (فلما جاءهم الحق من عندنا) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (قالوا) يعنى كفار مكة (لولا) اى هلا (اوتى) محمد (مثل ما أوتى موسى) يعنى من الآيات كالعصى واليد البيضاء وقيل اوتى كتابا جملة واحدة كما أوتى موسى التوراة قال الله تعالى (اولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) قيل ان اليهود أرسلوا الى قريش ان يسألوا محمدا صلى الله عليه وسلم مثل ما أوتى موسى فقال الله تعالى أولم يكفروا بما اوتى موسى من قبل يعنى اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال (قالوا ساحران تظاهرا) يعنى التوراة والقرآن يقوى كل واحد منهما الآخر وقيل ساحران يعنى محمدا وموسى وقيل ان مشركى مكة بعثوا الى رؤس اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فاخبروهم ان نعته فى كتابهم التوراة فرجعوا فاخبروهم بقول اليهود فقالوا ساحران تظاهرا (وقالوا انا بكل كافرون) يعنى بالتوراة والقرآن وقيل

فى قولك ولولا قولهم هذا اذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا (فلما جاءهم الحق من عندنا) اى القرآن او الرسول المصدق بالكتاب المعجز (قالوا) اى كفار مكة (لولا أوتى) هلا اعطى (مثل ما أوتى موسى) من الكتاب المنزل جملة واحدة (اولم يكفروا) يعنى أبناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم وهم الكفرة فى زمن موسى عليه السلام (بما اوتى موسى من قبل) من قبل القرآن (قالوا) فى موسى وهرون (ساحران تظاهرا) تعاونا سحران كوفى اى ذوا سحر أو جعلوهما سحرين مبالغة فى وصفهما بالسحر (وقالوا انا بكل) واحد منهما (كافرون) وقيل ان أهل مكة كما كفروا بمحمد عليه السلام و بالقرآن فقد كفروا بموسى والتوراة وقالوا فى موسى ومحمد

ساحران تظاهرا أو في التوراة والقرآن سحران تظاهرا وذلك حين بعثوا الرهط الى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد فاخبروهم
في كتابهم فرجع الرهط الى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا عند ذلك ساحران تظاهرا (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما
مما أنزل على موسى ومما أنزل على (أتبعه) جواب فأتوا (ان كنتم صادقين) في انهما سحران (فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون
اهواءهم) فان لم يستجيبوا دعاءك ٤٤٨ الى الاتيان بالكتاب الاهدى فاعلم انهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة الا اتباع الهوى (و

اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) اى لا احد أضل ممن اتبع في الدين هواه وبغير هدى حال اى مخذولا يخلى بينه وبين هواه (ان الله لا يهدى القوم الظالمين ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) التوصيل تكثير الوصل وتكريره يعنى أن القرآن أتاهم متتابعا متواصلا وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ومواعظ ليتذكروا فيعملوا (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) من قبل القرآن وخبر الذين (هم به) بالقرآن (يؤمنون) نزلت في مؤمني اهل الكتاب (واذا يتلى) القرآن (عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله) من قبل نزول القرآن (مسلمين) كائنين على دين الاسلام مؤمنين بمحمد عليه السلام وقوله انه تعليل للايمان به لان كونه حقا من الله حقيق بان يؤمن به وقوله انا بيان لقوله آمنا

بمحمد وموسى (قل) يا محمد (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) يعنى من التوراة والقرآن (أتبعه)
يعنى الكتاب الذى تأتون به من عند الله وهذا تنبيه على عجزهم عن الاتيان بمثله (ان كنتم صادقين
فان لم يستجيبوا لك) اى فان لم يأتوا بما طلبت (فاعلم انما يتبعون أهواءهم) يعنى ان مار كبوه من
الكفر لا حجة لهم فيه وانما آثروا اتباعهم ما هم عليه من الهوى (ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى
الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين) قوله عز وجل (ولقد وصلنا لهم القول) قال ابن عباس بينا ونبين
أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضا وقيل بينا الكفار مكة بما في القرآن من أخبار الامم الخالية كى
عذبوا بتكذيبهم وقيل وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا (لعلهم
يتذكرون) اى يتعظون (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) اى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ونزول
من قبل القرآن (هم به يؤمنون) نزلت في مؤمني اهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل هم
أهل الانجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وهم أربعون رجلا قدموا مع
جعفر بن أبي طالب فلما رأوا ما بالمسلمين من الحاجة والخصاصة قالوا يا رسول الله ان لنا أموالا فان أذنت
لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا بها المسلمين فاذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فنزل
هذه الآيات الى قوله ومما رزقناهم ينفقون وقال ابن عباس نزلت في ثمانين من اهل الكتاب اربعين
من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام ثم وصفهم الله تعالى فقال (واذا يتلى عليهم
يعنى القرآن (قالوا آمنا به انه الحق من ربنا) وذلك ان ذكر النبي صلى الله عليه وسلم كان مكتوبا عندهم
في التوراة والانجيل (انا كنا من قبله مسلمين) اى من قبل القرآن مخلصين لله التوحيد ومؤمنين بمحمد
صلى الله عليه وسلم أنه نبي حق (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) يعنى بايمانهم بالكتاب الاول والكتاب
الآخر (بما صبروا) اى على دينهم وعلى أذى المشركين (ق) عن أبي موسى الاشعرى رضى الله عنه
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لهم أجران رجل من اهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد
صلى الله عليه وسلم والعبد المملوك اذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة يطؤها فادبها
فاحسن تأديبها وعلمها فاحسن تعليمها ثم أعتقها ثم تزوجها فله أجران (ويدرؤن بالحسنة السيئة) قال
ابن عباس يدفعون بشهادة أن لا اله الا الله الشرك وقيل يدفعون ما سمعوا من أذى المشركين وشتمهم
بالصفح والعفو (ومما رزقناهم ينفقون) اى في الطاعة (واذا سمعوا اللغو) اى القول القبيح (أعرضوا
عنه) وذلك ان المشركين كانوا يسبون مؤمني أهل مكة ويقولون تبا لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم
ولا يردون عليهم (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) اى لنا ديننا ولكم دينكم (سلام عليكم) ليس
المراد منه سلام التحية ولكن سلام المتاركة والمعنى سلمتم منا لا نعارضكم بالشتم (لا نبتغي الجاهلين)
يعنى لا نحب دينكم الذى أنتم عليه وقيل لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه وهذا قبل ان يؤمر
المسلمون بالقتال ثم نسخ ذلك بالقتال قوله تعالى (انك لا تهدى من أحببت) اى هدايته وقيل أحببت

لانه يحتمل أن يكون ايمانا قريب العهد وبعيده فأخبر وابان ايمانهم به متقادم (اولئك يؤتون اقرابته
اجرهم مرتين بما صبروا) بصبرهم على الايمان بالتوراة والايمان بالقرآن او بصبرهم على الايمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله
بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب (ويدرؤن بالحسنة السيئة) يدفعون بالطاعة المعصية أو بالحلم الاذى (ومما رزقناهم
ينفقون) يزكون (واذا سمعوا اللغو) الباطل او الشتم من المشركين (اعرضوا عنه وقالوا) للاعنين (لنا أعمالنا ولكم اعمالكم سلام
عليكم) أمان منا لكم بان نقابل لغوكم بمثله (لا نبتغي الجاهلين) لا نريد مخالطتهم وصحبتهم (انك لا تهدى من أحببت) لا تقدر ان تلهم

في الاسلام كل من احببت ان يدخل فيه من قومك وغيرهم (ولكن الله يهدي من يشاء) يخلق فعل الاهتداء فيمن يشاء (وهو اعلم بالمهتدين) بمن يختار الهداية ويقبلها ويتعظ بالدلائل والآيات قال الزجاج أجمع المفسرون على انها نزلت في ابي طالب وذلك انه قال عند موته يا معشر بني هاشم صدقوا محمدا تفلحوا فقال عليه السلام يا عم تأمرهم بالنصيحة لانفسهم وتدعها لنفسك قال فما تريد يا ابن أخي قال أريد منك ان تقول لا اله الا الله اشهد لك بها عند الله قال يا ابن أخي انا قد علمت انك صادق ولكني اكره ان يقال جزع عند الموت وان كانت الصيغة عامة والآية حجة على المعتزلة لانهم يقولون الهدى هو البيان وقد هدى الناس اجمع ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم فدل ان وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء واعطاء التوفيق والقدرة (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ولم نمكن لهم حرما آمنا) قالت قريش نحن نعلم انك على الحق ولكنا نخاف ان اتبعناك وخالفنا العرب بذلك ان يتخطفونا من أرضنا فألقمهم الله الحجر بانه مكن لهم في الحرم الذي أمنه بحرمة البيت

وأمن قطانه بحرمته والثمرات تجبى اليه من كل أوب وهم كفرة فأنى يستقيم ان يعرضهم للتخطف ويسلبهم الامن اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة الاسلام واسناد الامن الى أهل الحرم حقيقة والى الحرم مجاز (يجبى اليه) وبالتاء مدني ويعقوب وسهل اى تجلب وتجمع (ثمرات كل شئ) معنى الكلية الكثرة كقوله وأوتيت من كل شئ (رزقا من لدنا) هو مصدر لان معنى يجبى اليه يرزق او مفعول له او حال من الثمرات ان كان بمعنى مرزوق لتخصصها بالاضافة كما تنصب عن النكرة المتخصصة بالصفة (ولكن أكثرهم لا يعلمون) متعلق بمن لدنا اى قليل منهم يقرون بان ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولو علموا انه من عند الله لعلموا ان الخوف والامن من عنده ولما خافوا التخطف اذا آمنوا به (وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها) هذا تخويف لاهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم بانعام الله عليهم فلم يشكروا النعمة وقابلوها بالبطر فاهلكوا وكم نصب باهلكنا ومعيشتها بحذف الجار وايصال الفعل اى في معيشتها والبطر سوء احتمال الغنى وهو ان لا يحفظ حق الله فيه (فتلك مساكنهم) منازلهم باقية الآثار يشاهدونها في الاسفار كبلاد ثمود وقوم شعيب وغيرهم (لم تسكن) حال والعامل فيها الاشارة (من بعدهم الا قليلا) من السكنى اى لم يسكنها الا المسافر ومار الطريق يوما او ساعة (وكنا نحن الوارثين) لتلك المساكن من ساكنيها اى لا يملك التصرف فيها غيرنا (وما كان ربك مهلك القرى) في كل وقت (حتى يبعث في أمها) وبكسر الهمزة حمزة وعلي اى في القرية التي هي أمها اى اصلها ومعظمها (رسولا) لالزام الحجة وقطع المعذرة وما كان في حكم الله وسابق قضائه ان يهلك القرى في الارض حتى يبعث في أم القرى يعني مكة لان الارض دحيت من تحتها رسولا يعني محمدا عليه السلام

(٥٧ (خازن) ث)

قرابته (ولكن الله يهدي من يشاء) وذلك ان الله تعالى يقذف في القلب نور الهداية فينشرح الصدر للايمان (وهو أعلم بالمهتدين) اى بمن قدر له الهدى (م) عن أبي هريرة قال انك لا تهدي من أحببت نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث راود عمه أبا طالب على الاسلام وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لابي طالب عند الموت يا عم قل لا اله الا الله اشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن تعيرني قريش يقولون انما حمله على ذلك الجزع لاقررت بها عينك ثم أنشد

ولقد علمت بان دين محمد * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة او حذار مسبة * لوجدتني سمحا بذاك مبينا

ولكن على ملة الاشياخ عبد المطلب وعبد مناف ثم مات فانزل الله هذه الآية (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) يعني مكة نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وذلك انه قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا لنعلم ان الذي تقول حق ولكن ان اتبعناك على دينك خفنا ان تخرجنا العرب من أرض مكة قال الله تعالى (أولم نمكن لهم حرما آمنا) وذلك ان العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم ومن المعروف انه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة (يجبى اليه) اى يجلب ويجمع اليه ويحمل الى الحرم من الشام ومصر والعراق واليمن (ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون) يعني ان أكثر أهل مكة لا يعلمون ذلك * قوله عز وجل (وكم اهلكنا من قرية) اى من أهل قرية (بطرت معيشتها) اى أشرت وطغت وقيل عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الاصنام (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا) قال ابن عباس لم يسكنها الا المسافرون سكونا قليلا وقيل لم يعمر منها الا أقلها واكثرها خراب (وكنا نحن الوارثين) يعني لم يخلفهم فيها احد بعدها لهم وصار أمرها الى الله تعالى لانه الباقي بعد فناء الخلق (وما كان ربك مهلك القرى) يعني الكافرة اهلها (حتى يبعث في أمها رسولا) اى في اكبرها واعظمها رسولا ينذرهم وخص الام ببعثة الرسول لانه يبعث

(يتلوا عليهم آياتنا) اى القرآن (وما كنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون) اى وما اهلكناهم للانتقام الا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم وهو اصرارهم على كفرهم وعنادهم ومكابرتهم بعد الاعذار اليهم (وما أوتيتم من شئ فمتاع الحيوة الدنيا وزينتها) واى شئ اصبتم من اسباب الدنيا فما هو الا تمتع وزينة أياما قلائل وهى مدة الحياة الفانية (وما عند الله) وهو ثوابه (خير) فى نفسه من ذلك (وأبقى) لانه دائم (أفلا تعقلون) ان الباقى خير من الفانى وخير ابو عمرو بين الياء والتاء والباقون بالتاء لاغير وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعالى خلق الدنيا وجعل اهلها ثلاثة أصناف المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزين والمنافق يتزين والكافر يتمتع ثم قرر هذه الآية بقوله (أفمن وعدناه وعدا حسنا) اى الجنة فلا شئ احسن منها لانها دائمة ولذا سميت الجنة بالحسنى (فهو لاقيه) اى رائيه ومدركه ومصيبه (كمن متعناه متاع الحيوة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) من الذين احضروا النار ونحوه فكذبوه فانهم لمحضرون نزلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابى جهل لعنه الله او فى على وحمزة وابى جهل او فى المؤمن والكافر ومعنى الفاء الاولى انها لما ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا ٤٥٠ وما عند الله عقبه بقوله أفمن وعدناه اى أبعد هذا التفاوت الجلى يسوى بين ابناء الدنيا وأبناء الآخرة والفاء الثانية للتسبيب لان لقاء الموعود مسبب عن الوعد وثم لتراخى حال الاحضار عن حال التمتع ثم هو على كما قيل عضد فى عضد شبه المنفصل بالمتصل (ويوم يناديهم) ينادى الله الكفار نداء توبيخ وهو عطف على يوم القيامة او منصوب باذكر (فيقول أين شركائى) بناء على زعمهم (الذين كنتم تزعمون) ومفعولا تزعمون محذوفان تقديره كنتم تزعمونهم شركائى ويجوز حذف المفعولين فى باب ظننت ولا يجوز الاقتصار على احدهما (قال الذين حق عليهم القول) اى الشياطين او أئمة الكفر ومعنى حق عليهم القول وجب عليهم مقتضاه وثبت وهو قوله لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (ربنا هؤلاء) مبتدا (الذين أغوينا) اى دعوناهم الى الشرك وسوّلنا لهم الغى صفة والراجع الى الموصول محذوف والخبر (أغويناهم) والكاف فى (كما غوينا) صفة مصدر محذوف تقديره اغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا يعنون انا لم نغوهم الا باختيارهم فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لان اغواءنا لهم لم يكن الا وسوسة وتسويلا فلا فرق اذا بين غينا وغيهم وان كان تسويلنا داعيا لهم الى الكفر فقد كان فى مقابلته دعاء الله لهم الى الايمان بما وضع فيه من ادلة العقل وما بعث اليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب وهو كقوله وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق الى قوله ولوموا انفسكم (تبرأنا اليك) منهم ومما اختاروه من الكفر (ما كانوا ايانا يعبدون) بل يعبدون اهواءهم ويطيعون شهواتهم واخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الاولى (وقيل) للشركين (ادعوا شركاءكم) اى الاصنام لتخلصكم من العذاب (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) فلم يجيبوهم (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) وجواب لو محذوف اى لما رأوا العذاب

الى الاشراف وهم سكان المدن وقيل حتى يبعث فى أم القرى وهى مكة رسولا يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم لانه خاتم الانبياء (يتلوا عليهم آياتنا) يعنى انه يؤدى اليهم ويبلغهم وقيل يخبرهم ان العذاب نازل بهم ان لم يؤمنوا (وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون) اى مشركون * قوله عز وجل (وما أوتيتم من شئ فمتاع الحيوة الدنيا وزينتها) اى تتمتعون بها ايام حياتكم ثم هى الى فناء وانقضاء (وما عند الله خير وأبقى) لان منافع الآخرة خالصة عن الشوائب وهى دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا كالذرة بالقياس الى البحر العظيم (أفلا تعقلون) اى ان الباقى خير من الفانى وقيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل ولهذا قال الشافعى من اوصى بثلث ماله لاعقل الناس صرف ذلك الثلث الى المشتغلين بطاعة الله تعالى لان اعقل الناس من اعطى القليل وأخذ الكثير وما هم الا المشتغلون بطاعة الله تعالى (أفمن وعدناه وعدا حسنا) يعنى الجنة (فهو لاقيه) اى مصيبه وصائر اليه (كمن متعناه متاع الحيوة الدنيا) اى وتزول عنه عن قريب (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) اى فى النار قيل هذا فى المؤمن والكافر وقيل نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم وابى جهل وقيل فى على وحمزة وابى جهل وقيل فى عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة * قوله عز وجل (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) اى فى الدنيا انهم شركائى (قال الذين حق عليهم القول) اى وجب عليهم العذاب وهم رؤس الضلالة (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) اى دعوناهم الى الغى وهم الاتباع (أغويناهم كما غوينا) اى اضللناهم كما ضللنا (تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون) معناه تبرأ بعضهم من بعض وصاروا اعداء (وقيل) يعنى للكفار (ادعوا شركاءكم) اى الاصنام لتخلصكم من العذاب (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) اى لم يجيبوهم (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) معناه لو انهم

(ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) الذين أرسلوا اليكم حكى أولا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم ما يقوله الشياطين أو ائمة الكفر عند تو بيخهم لانهم اذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم ثم ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم آلهتهم وعجزهم عن نصرتهم ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بارسال الرسل وازاحة العلل (فعميت عليهم الانباء يومئذ) خفيت عليهم الحجج او الاخبار وقيل خفى عليهم الجواب فلم يدروا بماذا يجيبون اذ لم يكن عندهم جواب (فهم لا يتساءلون) لا يسأل بعضهم بعضا عن العذر والحجة رجاء أن يكون عنده عذر وحجة لانهم يتساوون فى العجز عن الجواب (فاما من تاب) من الشرك (وآمن) بربه وبما جاء من عنده (وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) اى فعسى أن يفلح عند الله وعسى من الكرام تحقيق وفيه بشارة للمسلمين على الاسلام وترغيب للكافرين على الايمان ونزل جوابا لقول الوليد بن المغيرة لو لا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنى نفسه أو أبا مسعود (وربك يخلق ما يشاء) وفيه دلالة خلق الافعال ويوقف على (ويختار) اى وربك يخلق ما يشاء وربك يختار ما يشاء (ما كان لهم الخيرة) اى ليس لهم أن يختاروا على الله شيأ ما وله الخيرة عليهم ولم يدخل العاطف فى ما كان لهم الخيرة لانه بيان لقوله ويختار اذ المعنى ان الخيرة لله وهو أعلم بوجوه الحكمة فى أفعاله فليس لاحد من خلقه أن يختار عليه

كانوا يهتدون فى الدنيا ما رأوا العذاب فى الآخرة (ويوم يناديهم) اى يسأل الكفار (فيقول ماذا أجبتم المرسلين) اى ما كان جوابكم لمن أرسل اليكم من النبيين (فعميت عليهم) اى خفيت واشتبهت عليهم (الانباء) يعنى الاخبار والاعذار والحجج (يومئذ) فلم يكن لهم عذر ولا حجة (فهم لا يتساءلون) اى لا يجيبون ولا يحتجون وقيل يسكتون فلا يسأل بعضهم بعضا (فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) اى من السعداء الناجين وعسى من الله واجب وقوله تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) نزلت هذه الآية جوابا للمشركين حين قالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنى الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى اخبر الله تعالى انه لا يبعث الرسل باختيارهم لانه المالك المطلق وله ان يخص من يشاء بما يشاء لا اعتراض عليه البتة (ما كان لهم الخيرة) اى ليس لهم الاختيار اوليس لهم ان يختاروا على الله وقيل معناه ويختار الله ما كان هو الاصلح والخير لهم فيه ثم نزه الله تعالى نفسه فقال (سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن) اى تخفى (صدورهم وما يعلنون) اى يظهرون (وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الاولى والآخرة) اى يحمده اولياؤه فى الدنيا ويحمدونه فى الآخرة فى الجنة (وله الحكم) اى فصل القضاء بين الخلق وقال ابن عباس يحكم لاهل طاعته بالمغفرة ولاهل المعصية بالشقاوة (واليه ترجعون) * قوله عز وجل (قل) اى قل يا محمد لاهل مكة (أرأيتم) اى اخبرونى (ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) اى دائما (الى يوم القيامة) لا نهار فيه (من اله غير الله يأتيكم بضياء) اى بنهار تطلبون فيه المعيشة (أفلا تسمعون) اى سماع فهم وقبول (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة) اى لا ليل فيه (من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) اى ما أنتم عليه من الخطا قيل ان من نعمة الله تعالى على الخلق ان جعل الليل والنهار يتعاقبان لان المرء فى

فيه الخيرة فقد أبعد بل ما للنفى اختيار الخلق تقرير لاختيار الحق ومن قال معناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح فهو ماثل الى الاعتزال والخيرة من التخير يستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم محمد خيرة الله من خلقه (سبحان الله وتعالى عما يشركون) اى الله برىء من اشراكهم وهو منزه عن أن يكون لاحد عليه اختيار (وربك يعلم ما تكن)

تضمر (صدورهم) من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسده (وما يعلنون) من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير عليه غيره فى النبوة (وهو الله) وهو المستأثر بالالهية المختص بها (لا اله الا هو) تقرير لذلك كقولك القبلة الكعبة لا قبلة الا هى (له الحمد فى الاولى) الدنيا (والآخرة) هو قولهم الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده وقيل الحمد لله رب العالمين والتحميد تمة على وجه اللذة لا الكلفة (وله الحكم) القضاء بين عباده (واليه ترجعون) بالبعث والنشور وبفتح التاء وكسر الجيم يعقوب (قل أرأيتم) أريتم محذوف الهمزة على (ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) هو مفعول ثان لجعل اى دائما من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم فى الاشهر الحرم ثلاثة سرد واحد فرد والميم مزيدة ووزنه فعمل (الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون) والمعنى أخبرونى من يقدر على هذا (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) ولم يقل بنهار تتصرفون فيه كما قال بليل تسكنون فيه بل ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لان المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثم قرن بالضياء أفلا تسمعون لان السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل أفلا تبصرون لان غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه

(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) اى لتسكنوا بالليل ولتبتغوا من فضل الله فى النهار فيكون من باب اللف والنشر (ولعلكم تشكرون) الله على نعمه وقال الزجاج يجوز أن يكون معناه لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من فضل الله فيهما ولكن المعنى جعل لكم الزمان ليلا ونهارا لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله فيه (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) كرر التوبيخ لاتخاذ الشركاء ليؤذن أن لاشئ أجلب لغضب الله من الاشراك به كما لاشئ أدخل فى مرضاته من توحيده (ونزعنا) وأخرجنا (من كل أمة شهيدا) يعنى نبيهم لان الانبياء للامم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه (فقلنا) للامم (هاتوا برهانكم) فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسل (فعلموا) حينئذ ٤٥٢ (أن الحق لله) التوحيد (وضل عنهم) وغاب عنهم غيبة الشئ الضائع (ما كانوا يفترون) من ألوهية غير الله والشفاعة لهم (ان قارون) لاينصرف للعجمة والتعريف ولو كان فاعولا من قرنت الشئ لانصرف (كان من قوم موسى) كان اسرائيليا ابن عم لموسى فهو قارون بن يصهر ابن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى بن عمران ابن قاهث وكان يسمى المنور لحسن صورته وكان أقرأ بنى اسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى (فبغى عليهم) من البغى وهو الظلم قيل ملكه فرعون على بنى اسرائيل فظلمهم اومن البغى الكبر تكبر عليهم بكثرة ماله وولده اوزاد عليهم فى الثياب شبرا (وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه) ما بمعنى الذى فى موضع نصب بآتيناه وان واسمها وخبرها صلة الذى ولهذا كسرت ان والمفاتح جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به او مفتح بالفتح وهو الخزانة والاصوب انها المفاليد (لتنوء بالعصبة) لتثقل العصبة فالباء للتعدية يقال ناء به الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة الجماعة الكثيرة وكانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلا لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على أصبع وكانت من جلود (أولى القوة) الشدة (اذ قال له قومه) اى المؤمنون وقيل القائل موسى عليه السلام ومحل اذ نصب بتنوء (لا تفرح) لا تبطر بكثرة المال كقوله ولا تفرحوا بما آتاكم ولا يفرح بالدنيا الا من رضى بها واطمأن واما من قلبه الى الآخرة ويعلم انه يتركها عن قريب فلا يفرح بها (ان الله لا يحب الفرحين) البطرين بالمال (وابتغ فيما آتاك الله) من الغنى والثروة (الدار الآخرة) بان تتصدق على الفقراء وتصل الرحم وتصرف الى أبواب الخير

حال الدنيا وفى حال التكليف مدفوع الى التعب ليحصل ما يحتاج اليه ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ولاجله يحصل الاجتماع فتمكن المعاملات ومعلوم ان ذلك لا يتم الا بالراحة والسكون بالليل فلا بد منهما فاما فى الجنة فلا تعب ولا نصب فلا حاجة بهم الى الليل ولذلك يدوم لهم الضياء ابدا فبين الله تعالى انه القادر على ذلك ليس غيره فقال (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار) اى يتعاقبان بالظلمة والضياء (لتسكنوا فيه) اى فى الليل (ولتبتغوا من فضله) اى بالنهار (ولعلكم تشكرون) اى نعم الله فيهما (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) كرر ذلك النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ (ونزعنا) اى اخرجنا وقيل ميزنا (من كل أمة شهيدا) يعنى رسولهم يشهد عليهم بانه بلغهم رسالة ربهم ونصح لهم (فقلنا) اى للامم المكذبة لرسلهم (هاتوا برهانكم) اى حجتكم بان معى شريكا (فعلموا أن الحق لله) اى التوحيد لله (وضل عنهم ما كانوا يفترون) اى يختلقون فى الدنيا من الكذب على الله بقوله عز وجل (ان قارون كان من قوم موسى) قيل كان ابن عم موسى لانه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث وقيل كان عم موسى ولم يكن فى بنى اسرائيل اقرأ منه للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى (فبغى عليهم) قيل كان عاملا لفرعون على بنى اسرائيل فظلمهم وبغى عليهم وقيل بغى عليهم بكثرة ماله وقيل زاد فى طول ثيابه شبرا (ق) عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ثيابه خيلاء اخرجاه فى الصحيحين وقيل بغى عليهم بالكبر والعلو (وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه) جمع مفتح وهو الذى يفتح به الباب وقيل مفاتحه يعنى خزائنه (لتنوء بالعصبة أولى القوة) معناه لتثقلهم ويميل بهم اذا حملوها لثقلها قيل العصبة ما بين العشرة الى الخمسة عشر وقال ابن عباس ما بين الثلاثة الى العشرة وقيل الى الاربعين وقيل الى السبعين قال ابن عباس كان يحمل مفاتيحه اربعون رجلا اقوى ما يكون من الرجال وقيل كان قارون أينما ذهب تحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلما كثرت وثقلت عليه جعلها من خشب فثقلت فجعلها من جلود البقر كل مفتاح على قدر الاصبع وكانت تحمل معه اذا ركب على اربعين بغلا (اذ قال له قومه لا تفرح) اى لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح (ان الله لا يحب الفرحين) اى الاشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما اعطاهم قيل انه لا يفرح بالدنيا الا من رضى بها واطمأن اليها فاما من يعلم انه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح ولقد أحسن من قال

اشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) اى اطلب فيما اعطاك الله من الاموال الجنة وهو أن تقوم بشكر

(ولا تنس نصيبك من الدنيا) وهو ان تأخذ ما يكفيك ويصلحك وقيل معناه واطلب بدنياك آخرتك فان ذلك حظ المؤمن منها (واحسن) الى عباد الله (كما أحسن الله اليك) او احسن بشكرك وطاعتك لخالق الانام كما أحسن اليك بالانعام (ولا تبغ الفساد في الارض) بالظلم والبغي (ان الله لا يحب المفسدين قال انما اوتيته) اى المال (على علم عندى) اى على استحقاق لما في من العلم الذى فضلت به الناس وهو علم التوراة او علم الكيمياء وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا او العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة وعندى صفة لعلم قال سهل ما نظر احد الى نفسه فافلح والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل رؤية منة الله تعالى عليه في جميع الافعال والاقوال والشقى من زين في عينه أفعاله وأقواله واحواله ولا فتح له سبيل رؤية منة الله فافتخر بها وادعاها لنفسه فشؤمه يهلكه يوما كما خسف بقارون لما ادعى لنفسه فضلا (اولم يعلم) قارون ٤٥٣ (ان الله قد أهلك من قبله من القرون

الله فيما انعم عليك وتنفقه في رضا الله (ولا تنس نصيبك من الدنيا) اى لا تترك ان تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لان حقيقة نصيب الانسان من الدنيا أن يعمل فيها للآخرة بالصدقة وصلة الرحم وقيل لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة عن عمرو بن ميمون الاودى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك هذا حديث مرسل وعمرو بن ميمون لم يلق النبي صلى الله عليه وسلم (وأحسن كما أحسن الله اليك) اى أحسن بطاعة الله كما احسن اليك بنعمته وقيل أحسن الى الناس (ولا تبغ) اى ولا تطلب (الفساد في الارض) وكل من عصى الله فقد طلب الفساد في الارض (ان الله لا يحب المفسدين قال) يعنى قارون (انما أوتيته على علم عندى) اى على فضل وخير علمه الله عندى فرآني أهلا لذلك ففضلني بهذا المال عليكم كما فضلني بغيره وقيل هو علم الكيمياء وكان موسى يعلمه فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوفنا ثلثه وعلم قارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه فكان يصنع من الرصاص فضة ومن النحاس ذهبا وكان ذلك سبب كثرة أمواله وقيل كان علمه حسن التصرف في التجارات والزراعات وأنواع المكاسب قال الله عز وجل (اولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) اى للاموال (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) قيل معناه ان الله تعالى اذا أراد عقاب المجرمين فلا حاجة به الى سؤالهم لانه عالم بحالهم وقيل لا يسئلون سؤال استعلام وانما يسئلون سؤال توبيخ وتقريع وقيل لا تسأل الملائكة عنهم لانهم يعرفونهم بسيماهم * قوله عز وجل (فخرج على قومه في زينته) قيل خرج هو وقومه وهم سبعون ألفا عليهم الثياب الحمر والصفر والمعصفرات وقيل خرج على براذين عليها سروج الارجوان وقيل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب وعليه الارجوان ومعه اربعة آلاف فارس وعليهم وعلى دوابهم الارجوان ومعه ثلثمائة جارية بيضاء عليهن الحلى والثياب الحمر وهن على البغال الشهب (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم) اى من المال (وقال الذين أوتوا العلم) اى بما وعد الله في الآخرة وقال ابن عباس يعنى الاحبار

من هو أشد منه قوة) هو اثبات لعلمه بان الله قد أهلك من القرون قبله من هو اقوى منه وأغنى لانه قد قرأه في التوراة كانه قيل اولم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته او نفى لعلمه بذلك لانه لما قال اوتيته على علم عندى قيل اعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين (وأكثر جمعا) للمال أو أكثر جماعة وعددا (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) لعلمه تعالى بهم بل يدخلون النار بغير حساب او يعترفون بها بغير سؤال او يعرفون بسيماهم

فلا يسئلون اولا يسئلون لتعلم من جهتهم بل يسئلون سؤال توبيخ اولا يسئل عن ذنوب الماضين المجرمون من هذه الامة (فخرج على قومه في زينته) في الحمرة والصفرة وقيل خرج يوم السبت على بغلة شهباء عليها الارجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الاحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والديباج وفي زينته حال من فاعل خرج اى متزينا (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا) قيل كانوا مسلمين وانما تمنوا على سبيل الرغبة في اليسار كعادة البشر وقيل كانوا كفارا (يا ليت لنا مثل ما اوتى قارون) قالوه غبطة والغابط هو الذى يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير ان تزول عنه وهذه الآية والحاسد هو الذى يتمنى ان تكون نعمة صاحبه له دونه وهو كقوله تعالى ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل تضر الغبطة قال لا الا كما يضر العضاه الخبط (انه لذو حظ عظيم) الحظ الجد وهو البخت والدولة (وقال الذين اوتوا العلم) بالثواب والعقاب وفناء الدنيا وبقاء العقبى لغابطى قارون

من بنى اسرائيل للذين تمنوا مثل ما اوتى قارون (ويلكم ثواب الله) اى ما عند الله من الثواب والخير لمن آمن) اى صدق بتوحيد الله (وعمل صالحا) اى ذلك خير مما أوتى قارون فى الدنيا (ولا يلقاها الصابرون) اى لا يؤتى الاعمال الصالحة الا الصابرون وقيل لا يؤتى هذه الكلمة وهى قوله ويلكم الله خير الا الصابرون اى على طاعة الله وعن زينة الدنيا قوله تعالى (فخسفنا به وبداره الارض)

(ذكر قصة قارون)

قال أهل العلم بالاخبار والسير كان قارون أعلم بنى اسرائيل بعد موسى وهرون واقرأهم للتوراة و وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان اول طغيانه وعصيانه ان الله تعالى اوحى الى موسى قومه ان يعلقوا فى أرديتهم خيوطا أربعة فى كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكرونى به اذا الى السماء ويعلمون انى منزل منها كلامى فقال موسى يارب أفلا تأمرهم ان يجعلوا أرديتهم كلها خضرا بنى اسرائيل تستصغر هذه الخيوط فقال له ربه ياموسى ان الصغير من أمرى ليس بصغير فاذا لم يطيعوا فى الامر الصغير لم يطيعونى فى الامر الكبير فدعاهم موسى فقال ان الله يأمركم ان تعلقوا فى ارديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لكى تذكروا ربكم اذا رأيتموها ففعل بنو اسرائيل ما أمرهم به موسى واستكبر فلم يطعه وقال انما فعل هذا الارباب بعبيدهم لكى يتميزوا عن غيرهم فكان هذا بدء عصيانه وبغيه قطع موسى ببنى اسرائيل البحر جعلت الحبورة لهرون وهى رآسة المذبح فكان بنو اسرائيل يأتون بقربانهم الى هرون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون من ذلك فى نفسه الى موسى فقال له ياموسى لك الرسالة ولهرون الحبورة ولست فى شئ من ذلك وانا أقرأ التوراة لا على هذا فقال اما انا ما جعلتها لهرون بل الله جعلها له فقال له قارون والله لا أصدقك حتى ترينى بيانه فجمع موسى رؤساء بنى اسرائيل فقال هاتوا عصيكم فحزمها والقاها فى قبته التى يتعبد فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى اصبحوا فاصبحت عصا هرون قد اهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى ياقارون ترى هذا فقال له قارون والله ما هذا باعجب مما تصنع من السحر واعتزل قارون موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه كل وقت ولا يزيد الا عتوا وتجبرا ومعاداة لموسى حتى بنى دارا وجعل لها بابا من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب وكان الملأ من بنى اسرائيل يغدون اليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه قال ابن عباس فلما نزلت الزكاة على موسى قارون فصالحه على كل ألف دينار عنها دينار وعلى كل ألف درهم عنها درهم وكل ألف شاة عنها وكذلك سائر الاشياء ثم رجع الى بيته فحسبه فوجده شيأ كثيرا فلم تسمح نفسه بذلك فجمع بنى اسرائيل وقال لهم ان موسى قد أمركم بكل شئ فاطعتموه وهو يريد ان يأخذ أموالكم فقالوا أنت كبيرنا فمرنا بما شئت قال آمركم ان تجيئوا فلانة البغى وتجعلوا عليكم لها جعلا على ان تقذف موسى بنفسها فاذا فعلت ذلك خرج عليه بنو اسرائيل فرفضوه فدعوها فجعل لها قارون ألف دينار وألف درهم وقيل طستا من ذهب وقيل قال لها قارون انزلك واخلطك بنسائى على ان تقذفى موسى بنفسك غدا اذا حضر بنو اسرائيل فلما كان من الغد جمع قارون بنى اسرائيل ثم أتى موسى فقال ان بنى اسرائيل ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم فخرج اليهم موسى وهم فى مرج من الارض فقام فيهم فقال يابنى اسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى

(ويلكم) أصل ويلك الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرضى وفى التبيان فى اعراب القرآن هو فعل محذوف اى الزمكم الله ويلكم (ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها) اى لا يلقن هذه الكلمة وهى ثواب خير (الا الصابرون) على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير (فخسفنا به وبداره الارض) كان قارون يؤذى موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل الف دينار على دينار وعن كل الف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه فجمع بنى اسرائيل وقال ان موسى يريد ان يأخذ أموالكم فقالوا انت كبيرنا فمر بما شئت قال نبرطل فلانة البغى حتى ترميه بنفسها فترفضه بنو اسرائيل فجعل لها الف دينارا وطستا من ذهب او حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يابنى اسرائيل من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وان أحصن رجمناه فقال قارون وان كنت انت قال وان كنت انا قال فان بنى اسرائيل يزعمون انك فجرت بفلانة فاحضرت فناشدها بالذى فلق البحر وانزل التوراة ان تصدق فقالت جعل لى قارون جعلا على ان اقذفك بنفسى فخر موسى ساجدا يبكى وقال يارب ان كنت رسولك فاغضب لى فاوحى الله اليه ان مر الارض بما شئت فانها مطيعة لك فقال يابنى اسرائيل ان الله بعثنى الى قارون كما بعثنى الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال يا ارض

جلدناه

فيهم فاخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فاخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فاخذتهم الى الاعناق وقارون وأصحابه يتضرعون الى
موسى ويناشدونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت اليهم لشدة غضبه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فقال الله تعالى استغاث بك مرارا فلم
تغثه فوعزتي لو استرحمني مرة لرحمته فقال بعض بني اسرائيل انما أهلكه ليرث ماله فدعا الله حتى خسف بداره وكنوزه (فما كان له من
فئة) جماعة (ينصرونه من دون الله) يمنعونه من عذاب الله (وما كان من المنتصرين) من المنتقمين من موسى او من الممتنعين من
عذاب الله يقال نصره من عدوه فانتصر اى منعه منه فامتنع (وأصبح) وصار (الذين تمنوا مكانه) ٤٥٥ منزلته من الدنيا (بالامس)

ظرف لتمنوا ولم يرد به اليوم الذى قبل يوم ملك ولكن الوقت القريب استعارة (يقولون وى كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) وى منفصلة عن كأن عند البصريين قال سيبويه وى كلمة تنبيه على الخطأ وتندم يستعملها النادم باظهار ندامته يعنى ان القوم قد تنبهوا على خطئهم فى تمنيهم وقولهم يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون وتندموا (لولا أن من الله علينا) بصرف ما كنا تمناه بالامس (لخسف بنا) وبفتحتين حفص ويعقوب وسهل وفيه ضمير الله تعالى (وى كأنه لا يفلح الكافرون) اى تندموا ثم قالوا كانه لا يفلح الكافرون (تلك الدار الآخرة) تلك تعظيم لها وتفخيم لشأنها يعنى تلك التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها وقوله (نجعلها) خبر تلك والدار

جلدناه ثمانين ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة جلدة ومن زنى وله امرأة رجمناه الى ان يموت فقال
قارون وان كنت أنت قال وان كنت انا قال فان بني اسرائيل يزعمون انك فجرت بفلانة البغي قال
ادعوها فلما جاءت قال لها موسى بالذى فلق البحر لبني اسرائيل وانزل التوراة الا صدقت فتداركها الله
بالتوفيق فقالت في نفسها أحدث توبة أفضل من ان أوذى رسول الله فقالت لا والله ولكن قارون جعل
لي جعلا على ان اقذف لك بنفسي فخر موسى ساجدا يبكي ويقول اللهم ان كنت رسولك فاغضب لي فاوحى
الله اليه اني أمرت الارض ان تطيعك فمرها بما شئت فقال موسى يا بني اسرائيل ان الله بعثني الى قارون كما
بعثني الى فرعون فمن كان معه فليثبت مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا فلم يبق مع قارون الا رجلان
ثم قال موسى يا أرض خذيهم فاخذتهم باقدامهم وقيل كان على سريره وفرشه فاخذته الارض حتى
غيبت سريره ثم قال يا أرض خذيهم فاخذتهم الى الركب ثم قال يا أرض خذيهم فاخذتهم الى الاوساط
ثم قال يا أرض خذيهم فاخذتهم الى الاعناق وأصحابه في ذلك يتضرعون الى موسى ويناشدونه قارون الله
والرحم حتى قيل انه ناشده أربعين مرة وقيل سبعين مرة وموسى في ذلك لا يلتفت اليه لشدة غضبه ثم قال
يا أرض خذيهم فاطبقت عليهم الارض فاوحى الله الى موسى ما أغلظ قلبك يستغيث بك قارون سبعين
مرة فلم تغثه اما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة لاغثته وفي بعض الآثار لما أجعل الارض بعدك طوعا
لاحد قال قتادة خسف به الارض فهو يتجلجل في الارض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قرارها الى يوم
القيامة وأصبح بنو اسرائيل يقولون فيما بينهم انما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه واملاكه
فدعا الله موسى حتى خسف بداره وكنوزه واملاكه الارض فذلك قوله تعالى (فما كان له من فئة)
اى جماعة (ينصرونه من دون الله) اى يمنعونه من الله (وما كان من المنتصرين) من الممتنعين
مما نزل به من الخسف (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس) اى صار أولئك الذين تمنوا مارزقه الله
من الاموال والزينة يندمون على ذلك التمني (يقولون ويكأن الله) الم تعلم وقيل الم تر وقيل هي كلمة
تقرير معناها اما ترى صنع الله واحسانه وقيل ويك بمعنى ويلك اعلم ان الله وروى ان وى مفصولة
من كان والمعنى ان القوم ندموا فقالوا متندمين على ما سلف منهم وى وكأن معناها أظن واقدر ان الله
(يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) قال ابن عباس اى يوسع لمن يشاء ويضيق على من يشاء (لولا
أن من الله علينا) اى بالايمان (لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) * قوله عز وجل (تلك الدار
الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض) اى استكبارا عن الايمان وقيل علوا واستطالة على
الناس وتهاونا بهم وقيل يطلبون الشرف والعز عند ذى سلطان وعن علي أنها نزلت في أهل التواضع
من الولاة وأهل المقدرة (ولا فسادا) قيل الذين يدعون الى غير عبادة الله تعالى وقيل أخذ اموال
الناس بغير حق وقيل العمل بالمعاصي (والعاقبة للمتقين) اى العاقبة المحمودة لمن اتقى عقاب الله باداء

منها (للذين لا يريدون علوا في الارض) بغيا ابن جبير وظلما الضحاك او كبرا (ولا فسادا) عملا بالمعاصي او قتل النفس او دعاء الى
عبادة غير الله ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلوب اليهما كما قال ولا تركنوا الى الذين ظلموا فعلق
الوعيد بالركون وعن علي رضي الله عنه ان الرجل ليعجبه ان يكون شراك نعله اجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها وعن الفضيل
انه قرأها ثم قال ذهبت الاماني ههنا وعن عمر بن عبد العزيز انه كان يرددها حتى قبض وقال بعضهم حقيقته التنفير عن متابعة فرعون
وقارون متشبثا بقوله ان فرعون علا في الارض ولا تبغ الفساد في الارض (والعاقبة) المحمودة (للمتقين)

من جاء بالحسنة فله خير منها) مر فى النمل (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات) معناه فلا يجزون فوضع الذين عملوا السيئات موضع الضمير لان فى اسناد عمل السيئة اليهم مكررا فضل تهجين بحالهم وزيادة تبغيض للسيئة الى قلوب السامعين (الا ما كانوا يعملون) الا مثل ما كانوا يعملون ومن فضله العظيم ان لا يجزى السيئة الا بمثلها ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة (ان الذى فرض عليك القرآن) اوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه (لرادك) بعد الموت (الى معاد) اى معاد والى معاد ليس لغيرك من الخلق فلذا نكره او المراد به مكة والمراد ٤٥٦ رده اليها يوم الفتح لانها كانت فى ذلك اليوم معاده شان ومرجعا له اعتدادا لغلبة رسوله وقهره لاهلها ولظهور عز الاسلام وأهله وذل الشرك وخزيه والسورة مكية ولكن هذه الآية نزلت بالجحفة لا بمكة ولا بالمدينة حين اشتاق الى مولده ومولد آبائه وامه وعد رسوله الرد الى معاده قال (قل) للمشركين (ربى أعلم من جاء بالهدى) يعنى نفسه وماله من الثواب فى معاده (ومن هو فى ضلال مبين) يعنى المشركين وما يستحقونه من العذاب فى معادهم من فى محل نصب بفعل مضمر اى يعلم (وما كنت ترجو أن يلقى) يوحى (اليك الكتاب) القرآن (الا رحمة من ربك) هو محمول على المعنى اى وما القى اليك الكتاب الا رحمة من ربك أو الا بمعنى لكن للاستدراك اى ولكن لرحمة من ربك ألقى اليك الكتاب (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) معينا لهم على دينهم (ولا يصدنك عن آيات الله) هو على الجمع اى لا يمنعنك هؤلاء عن العمل بآيات الله اى القرآن (بعد اذ أنزلت اليك) الآيات اى بعد وقت انزاله واذ يضاف اليه أسماء الزمان كقولك حينئذ ويومئذ (وادع الى ربك) الى توحيده وعبادته (ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر) قال ابن عباس رضى الله عنهما الخطاب فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أهل دينه ولان العصمة لا تمنع النهى والوقف على آخر لازم لانه لو وصل لصار (لا اله الا هو) صفة لالها آخر وفيه من الفساد ما فيه (كل شئ هالك الا وجهه) أى الا اياه فالوجه يعبر به عن الذات وقال مجاهد يعنى علم العلماء اذا أريد به وجه الله (له الحكم) القضاء فى خلقه (واليه ترجعون) ترجعون بفتح التاء وكسر الجيم يعقوب والله أعلم

(تفسير سورة العنكبوت)

مكية وهى تسع وستون آية

وهى مكية وآياتها تسع وستون آية وكلماتها تسعمائة وثمانون كلمة وحروفها أربعة آلاف ومائة وخمسة وستون حرفا

بسم

اوامره واجتناب نواهيه وقيل عاقبة المتقين الجنة (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون) تقدم تفسيره قوله تعالى (ان الذى فرض عليك القرآن) اى أنزل عليك القرآن وقيل معناه اوجب عليك العمل بالقرآن (لرادك الى معاد) قال ابن عباس الى مكة أخرجه البخارى عنه قال القتيبى معاد الرجل بلده لانه ينصرف فيعود الى بلده ونزل النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج من الغار مهاجرا الى المدينة سار على غير الطريق مخافة الطلب فلما رجع الى الطريق ونزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق الى مكة فاشتاق اليها فأتاه جبريل عليه السلام وقال له أتشتاق الى بلدك قال نعم قال فان الله تعالى يقول ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وهذه الآية نزلت بالجحفة ليست بمكية ولا مدنية وقال ابن عباس أيضا لرادك الى الموت وقيل الى القيامة وقيل الجنة (قل ربى أعلم من جاء بالهدى) هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم انك لفى ضلال مبين فقال الله تعالى قل لهم ربى أعلم من جاء بالهدى يعنى نفسه (ومن هو فى ضلال مبين) يعنى المشركين ومعناه هو اعلم بالفريقين قوله عز وجل (وما كنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب) اى يوحى اليك القرآن (الا رحمة من ربك) فأعطاك القرآن (فلا تكونن ظهيرا) اى معينا (للكافرين) على دينهم وذلك حين دعوه الى دين آبائه فذكره نعمه عليه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه (ولا يصدنك عن آيات الله) يعنى القرآن (بعد اذ أنزلت اليك وادع الى ربك) الى معرفته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) قال ابن عباس الخطاب فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به أهل دينه اى ولا تظاهر الكفار ولا توافقهم (ولا تدع مع الله الها آخر) هذا واجب على الكل الا انه خاطبه به مخصوصا لاجل التعظيم فان قلت النبى صلى الله عليه وسلم كان معصوما من أن يدعو مع الله الها آخر فما فائدة هذا النهى قلت الخطاب معه والمراد به غيره وقيل معناه لا تتخذ غيره وكيلا على أمورك كلها ولا تعتمد على غيره (لا اله الا هو كل شئ هالك) اى فان (الا وجهه) اى الا هو والوجه يعبر به عن الذات وقيل معناه الا ما أريد به وجهه لان عمل كل شئ أريد به غير الله فهو هالك (له الحكم) اى فصل القضاء بين الخلق (واليه ترجعون) اى تردون فى الآخرة فيجزيكم باعمالكم والله أعلم بمراده

(بسم الله الرحمن الرحيم)* (الم احسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) الحسبان قوة احد النقيضين على الآخر كالظن بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما والعلم فهو القطع على أحدهما ولا يصح تعليقهما بمعانى المفردات ولكن بمضامين الجمل تقول حسبت زيدا وظننت الفرس لم يكن شيأ حتى تقول حسبت زيدا عالما وظننت الفرس جوادا الان قولك زيد عالم والفرس جواد كلام دال على مضمون فاذا أردت الاخبار عن ذلك المضمون ثابتا عندك على وجه الظن لا اليقين ادخلت على شطرى الجملة فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك والكلام الدال على المضمون الذى يقتضيه الحسبان هنا ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون وذلك ان تقديره أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا فالترك اول مفعولى حسب ولقولهم آمنا والخبر وأما غير مفتونين فتتمة الترك لانه من الترك الذى هو بمعنى التصيير كقول عنترة * فتركته جزر السباع ينشنه * الا ترى انك قبل ان تجئ بالحسبان تقدر ان تقول تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام وهو استفهام توبيخ والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الاوطان ومجاهدة الاعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب

في الانفس والاموال ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وروى انها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جزعوا من أذى المشركين اوفى عمار بن ياسر وكان يعذب في الله (ولقد فتنا) اختبرنا وهو موصول بأحسب او بلا يفتنون (الذين من قبلهم) بانواع الفتن فمنهم من يوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ومنهم من يمشط بامشاط الحديد ما يصرفه ذلك عن دينه (فليعلمن الله) بالامتحان (الذين صدقوا) في الايمان (وليعلمن الكاذبين) فيه

(بسم الله الرحمن الرحيم)*

قوله عزوجل (الم أحسب الناس) اى اظن الناس (ان يتركوا) اى بغير اختبار وابتلاء (أن) اى بان (يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) اى لا يبتلون فى أموالهم وأنفسهم كلا لنختبرنهم لنبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب قيل نزلت هذه الآية فى أناس كانوا بمكة قد أقروا بالاسلام فكتب اليهم اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم انه لا يقبل منكم الاقرار بالاسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين الى المدينة فاتبعهم المشركون ففتنوا فمنهم من قتل ومنهم من نجا فانزل الله هاتين الآيتين وقال ابن عباس اراد بالناس الذين آمنوا بمكة سلمة بن هشام وعياش بن ابى ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وغيرهم وقيل فى عمار كان يعذب فى الله تعالى وقيل فى مهجع بن عبد الله مولى عمر وكان اول من قتل من المسلمين يوم بدر فقال النبى صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو اول من يدعى له باب الجنة من هذه الامة فجزع أبواه وامرأته فانزل الله هذه الآية ثم عزاهم فقال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم) يعنى الانبياء فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل وابتلى بنو اسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب (فليعلمن الله الذين صدقوا) اى فى قولهم (وليعلمن الكاذبين) والله تعالى عالم بهم قبل الاختبار ومعنى الآية فليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه وقيل ان آثار فعل الحق صفة يظهر فيها كل ما يقع وما هو واقع قوله تعالى (ام حسب الذين يعملون السيئات) يعنى الشرك (ان يسبقونا) اى يعجزونا فلا نقدر على الانتقام منهم (ساء ما يحكمون من كان يرجوا لقاء الله) قال ابن عباس من كان يخشى البعث والحساب وقيل من كان يطمع فى ثواب الله (فان اجل الله لآت) اى ما وعد الله من الثواب والعقاب وقيل يوم القيامة لكائن والمعنى ان من يخشى الله ويؤمله فليستعد له فيما يعمل لذلك اليوم (وهو السميع العليم) اى يعلم ما يعمل العباد من الطاعة والمعصية فيثيبهم او يعاقبهم

ومعنى علمه تعالى وهو عالم بذلك فيما لم يزل ان يعلمه موجودا عند وجوده كما علمه قبل وجوده انه يوجد والمعنى وليتميزن الصادق منهم من الكاذب قال ابن عطاء يتبين صدق العبد من كذبه فى أوقات الرخاء والبلاء فمن شكر فى أيام الرخاء وصبر فى أيام البلاء فهو من الصادقين ومن بطر فى أيام الرخاء وجزع فى أيام البلاء فهو من الكاذبين (ام حسب الذين يعملون السيئات) من الشرك والمعاصى (أن يسبقونا) اى يفوتونا يعنى ان الجزاء يلحقهم لا محالة واشتمال صلة أن على مسند ومسند اليه سد مسد مفعولين فى قوله ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ويجوز ان يضمن حسب معنى قدروا أم منقطعة ومعنى الاضراب فيها ان هذا الحسبان أبطل من الحسبان الاول لان ذلك يقدر انه لا يمتحن لايمانه وهذا يظن انه لا يجازى بمساويه وقالوا الاول فى المؤمنين وهذا فى الكافرين (ساء ما يحكمون) اى بئس شيأ حكمهم حكمهم او نصب على معنى ساء الحكم حكما يحكمون والمخصوص بالذم محذوف اى بئس حكما يحكمونه حكمهم (من كان يرجوا لقاء الله) اى يأمل ثوابه او يخاف حسابه فالرجاء يحتملهما (فان اجل الله) المضروب للثواب والعقاب (لآت) لا محالة فليبادر للعمل الصالح الذى يصدق رجاءه ويحقق امله (وهو السميع) لما يقوله عباده (العليم) بما يفعلونه فلا يفوته شئ ما وقال الزجاج من للشرط ويرتفع بالابتداء وجواب الشرط فان اجل الله لآت كقولك ان كان زيد فى الدار فقد صدق الوعد

(ومن جاهد) نفسه بالصبر على طاعة الله او الشيطان بدفع وساوسه او الكفار (فانما يجاهد لنفسه) لان منفعة ذلك ترجع اليها (ان الله لغنى عن العالمين) وعن طاعتهم ومجاهدتهم وانما امرونهى رحمة لعباده (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) الشرك والمعاصى بالايمان والتوبة (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) اى احسن جزاء أعمالهم فى الاسلام (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) وصى حكمه حكم امرنا فى معناه وتصرفه يقال وصيت زيدا بان يفعل خيرا كما تقول أمرته بان يفعل ومنه قوله ووصى بها ابراهيم بنيه اى وصاهم بكلمة التوحيد وامرهم بها وقولك وصيت زيدا بعمرو ومعناه وصيته بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك وكذلك معنى ووصينا الانسان بوالديه حسنا ٤٥٨ ووصيناه بايتاء والديه حسنا وبايلاء والديه حسنا اى فعلا ذا حسن او ماهو فى ذاته حسن

او يعفو قوله تعالى (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه) اى له ثوابه وهذا بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق الكريم اذا وعد وفى والجهاد هو الصبر على الاعداء والشدة وقد يكون فى الحرب وقد يكون على مخالفة النفس (ان الله لغنى عن العالمين) اى عن أعمالهم وعبادتهم وفيه بشارة وتخويف أما البشارة فلانه اذا كان غنيا عن الاشياء فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عبيده لا شئ عليه لاستغنائه عنه وهذا يوجب الرجاء وأما التخويف فلان الله اذا كان غنيا عن العالمين فلو أهلكهم بعذابه فلا شئ عليه لاستغنائه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) اى لنبطلنها حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل والتكفير اذهاب السيئة بالحسنة (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) اى باحسن اعمالهم وهو الطاعة دون المعاصى يعطيهم اكثر مما عملوا * قوله عز وجل (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) معناه برا بهما وعطفا عليهما والمعنى ووصينا الانسان بوالديه أن يفعل بهما ما يحسن نزلت هذه الآية والتى فى سورة لقمان والاحقاف فى سعد بن ابى وقاص وقال ابن اسحق سعد بن مالك الزهرى وأمه حمنة بنت ابى سفيان بن امية ابن عبد شمس لما اسلم وكان من السابقين الاولين وكان بارا بامه قالت له أمه ما هذا الذى احدثت ولا آكل ولا اشرب حتى ترجع الى ما كنت عليه او أموت فتعير بذلك أبد الدهر ويقال يا فاتل ما آكل ولا اشرب حتى ترجع الى ما كنت عليه او أموت فتعير بذلك أبد الدهر ويقال يا فاتل ثم انها مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فاصبحت وقد جهدت ثم مكثت كذلك يوما وليلة فجاءها فقال يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى فكلى ان شئت وان شئت فلا تأكلى فلما أيست منها كلت وشربت فانزل الله هذه الآية وأمره بالبر لوالديه والاحسان اليهما وان لا يطيعهما فى الشرك فذلك قوله تعالى (وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) وفى الحديث لا طاعة لمخلوق فى معصية الله ثم أوعد بالمصير اليه فقال تعالى (الى مرجعكم فأنبئكم) اى فاخبركم (بما كنتم تعملون) اى بصالح اعمالكم وسيئاتها اى فاجازيكم عليها (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) اى فى زمرة الصالحين وهم الانبياء والاولياء وقيل فى مدخل الصالحين وهو الجنة قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى) يعنى اصابه بلاء (فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) اى جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله فى الآخرة والمعنى انه جزع من أذى الناس ولم يصبر عليه فاطاع الناس كما يطيع الله من يخاف من عذابه وهو المنافق اذا أوذى فى الله رجع عن الدين وكفر (ولئن جاء نصر من ربك) اى ودولة للمؤمنين (ليقولن) اى هؤلاء المنافقون للمؤمنين (انا كنا معكم) اى على عدوكم وكنا مسلمين

حسنه كقوله وقولوا للناس حسنا ويجوز أن يجعل حسنا من باب قولك زيدا ضمارا ضرب اذا رأيته متهيأ للضرب فتنصبه باضمار أولهما او افعل بهما الان التوصية بهما دالة عليه وما بعده مطابق له كانه قال قلنا أولهما معروفا ولا تطعهما فى الشرك اذا جاهداك عليه وعلى هذا التفسير ان وقف على بوالديه وابتدئ حسنا حسن الوقف وعلى التفسير الاول لا بد من اضمار القول معناه وقلنا (وان جاهداك) أيها الانسان (لتشرك بى ما ليس لك به علم) اى لا علم لك بالهيته والمراد بنفى العلم نفى المعلوم كانه قال لتشرك بى شيأ لا يصح أن يكون الها (فلا تطعهما) فى ذلك فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (الى مرجعكم) مرجع من آمن منكم ومن أشرك (فأنبئكم بما كنتم تعملون) فاجازيكم حق جزائكم

اكرهنا

وفى ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك وحث على الثبات والاستقامة فى الدين روى ان سعد بن ابى وقاص لما نذرت أمه ان لا تأكل ولا تشرب حتى يرتد فشكا الى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية والتى فى لقمان والتى فى الاحقاف (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) هو مبتدا والخبر (لندخلنهم فى الصالحين) فى جملتهم والصلاح من ابلغ صفات المؤمنين وهو منتهى درجات النبيين عليهم السلام قال سليمان عليه السلام وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين وقال يوسف عليه السلام توفنى مسلما والحقنى بالصالحين او فى مدخل الصالحين وهو الجنة ونزلت فى المنافقين (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله) اى اذامسه اذى من الناس (جعل فتنة الناس كعذاب الله) اى جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله تعالى (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم) اى

نعم الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا انا كنا معكم اى متابعين لكم فى دينكم ثابتين عليه بثباتكم فاعطونا نصيبنا من الغنم (أوليس
ه باعلم بما فى صدور العالمين) اى هو أعلم بما فى صدور العالمين من العالمين بما فى صدورهم ومن ذلك ما فى صدور هؤلاء من النفاق وما
ى صدور المؤمنين من الاخلاص ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين بقوله (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) اى حالهما ظاهرة
عند من يملك الجزاء عليهما (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) امروهم باتباع سبيلهم وهى طريقتهم التى
كانوا عليها فى دينهم وأمروا انفسهم بحمل خطاياهم فعطف الامر على الامر وأرادوا ليجتمع هذان الامران فى الحصول أن تتبعوا سبيلنا وان
تحمل خطاياكم والمعنى تعليق الحمل بالاتباع اى ان تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم وهذا قول

صناديد قريش كانوا يقولون لمن
ذكرهنا حتى قلنا ما قلنا فا كذبهم الله تعالى فقال (أوليس الله باعلم بما فى صدور العالمين) اى من الايمان
والنفاق (وليعلمن الله الذين آمنوا) اى صدقوا فثبتوا على الايمان والاسلام عند البلاء (وليعلمن
المنافقين) اى بترك الاسلام عند البلاء قيل نزلت هذه الآية فى أناس كانوا يؤمنون بالسنتهم فاذا
اصابهم بلاء من الناس او مصيبة فى انفسهم افتتنوا وقال ابن عباس نزلت فى الذين اخرجهم المشركون
معهم الى بدر وهم الذين نزلت فيهم الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى انفسهم وقيل هذه الآيات العشر
من أول السورة الى ههنا مدنية و باقى السورة مكى (وقال الذين كفروا) يعنى من اهل مكة قيل قاله
ابو سفيان (للذين آمنوا) اى من قريش (اتبعوا سبيلنا) يعنى ديننا وملة آبائنا ونحن الكفلاء بكل
تبعة من الله تصيبكم فذلك قوله (ولنحمل خطاياكم) اى اوزاركم والمعنى ان اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم
فا كذبهم الله عز وجل بقوله (وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ انهم لكاذبون) فى قولهم نحمل
خطاياكم (وليحملن أثقالهم) اى اوزار أعمالهم التى عملوها بانفسهم (وأثقالا مع أثقالهم) اى اوزارا من
ضلوا وصدوا عن سبيل الله مع اوزار أنفسهم فان قلت قد قال أولا وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ
وقال ههنا وليحملن أثقالهم واثقالا مع اثقالهم فكيف الجمع بينهما قلت معناه انهم لا يرفعون عنهم
خطيئة بل كل واحد يحمل خطيئة نفسه ورؤساء الضلال يحملون اوزارهم ويحملون اوزارا بسبب
ضلال غيرهم فهو كقوله صلى الله عليه وسلم من سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من
عمل بها الى يوم القيامة من غير أن ينقص من اوزارهم شئ رواه مسلم (وليسئلن يوم القيامة
عما كانوا يفترون) اى سؤال توبيخ وتقريع لانه تعالى عالم باعمالهم وافترائهم قوله تعالى (ولقد أرسلنا
نوحا الى قومه فلبث) اى اقام (فيهم) يدعوهم الى عبادة الله وتوحيده (ألف سنة الا خمسين عاما) فان قلت
ما فائدة هذا الاستثناء وهلا قال تسعمائة وخمسين سنة قلت فيه فائدتان احداهما ان الاستثناء يدل على
تحقيق وتركه قد يظن به التقريب فهو كقول القائل عاش فلان مائة سنة فقد يتوهم السائل انه يقول
مائة سنة تقريبا لا تحقيقا فان قال مائة سنة الا شهرا أو الا سنة زال ذلك التوهم وفهم منه التحقيق الفائدة
الثانية هى لبيان ان نوحا صبر على أذى قومه صبرا كثيرا واعلى مراتب العدد ألف سنة وكان المراد التكثير
فذلك الى بعقد الالف لانه اعظم وافخم وهذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم حيث أعلم ان الانبياء قد
ابتلوا قبله وان نوحا لبث فى قومه الف سنة الا خمسين عاما يدعوهم فصبر فى الدعاء ولم يؤمن من قومه الا
القليل فانت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة من آمن بك قال ابن عباس بعث نوح لاربعين سنة و بقى
فى قومه يدعوهم ألف سنة الا خمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس فكان عمره الفا

آمن منهم لانبعث نحن
ولا أنتم فان كان ذلك
فانا نتحمل عنكم الاثم
(وماهم بحاملين من
خطاياهم من شئ انهم
لكاذبون) لانهم
قالوا ذلك وقلوبهم
على خلافه كالكاذبين
الذين يعدون الشئ وفى
قلوبهم نية الخلف
(وليحملن أثقالهم) اى
اثقال انفسهم يعنى
أوزارهم بسبب كفرهم
(واثقالا مع أثقالهم) اى
اثقالا أخر عن الخطايا
التى ضمنوا للمؤمنين حملها
وهى اثقال الذين كانوا
سببا فى ضلالهم وهو كما
قال ليحملوا أو زارهم
كاملة يوم القيامة ومن
أوزار الذين يضلونهم
بغير علم (وليسئلن
يوم القيامة عما كانوا
يفترون) يختلقون من
الاكاذيب والاباطيل

(ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) كان عمره الفا وخمسين سنة بعث على رأس اربعين ولبث فى
قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين وعن وهب انه عاش ألفا واربعمائة سنة فقال له ملك الموت يا أطول الانبياء عمرا
كيف وجدت الدنيا قال كدار لها بابان دخلت وخرجت ولم يقل تسعمائة وخمسين سنة لانه لو قيل كذلك لجاز ان يتوهم اطلاق هذا
العدد على أكثره وهذا التوهم زائل هنا فكأنه قيل تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد الا ان ذلك أخصر واعذب لفظا وأملأ
للفائدة ولان القصة سيقت لما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة تسلية لنبينا عليه السلام فكان ذكر الالف
أفخم واوصل الى الغرض وجئ بالمميز أولا بالسنة ثم بالعام لان تكرار لفظ واحد فى كلام واحد حقيق بالاجتناب فى البلاغة

(فأخذهم الطوفان) هو ما اطاف واحاط بكثرة وغلبة من سيل اوظلام ليل اونحوهما (وهم ظالمون) انفسهم بالكفر (فأنجيناه) اى نوحا (واصحاب السفينة) وكانوا ثمانية وسبعين نفسا نصفهم ذكور ونصفهم اناث منهم اولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم (وجعلناها) اى السفينة او الحادثة او القصة (آية) عبرة وعظة (للعالمين) يتعظون بها (وابراهيم) نصب باضمار اذكر بدل عنه (اذ قال) بدل اشتمال لان الاحيان تشتمل على ما فيها او معطوف على نوح اى وأرسلنا ابراهيم او ظرف لارسلنا يعنى ارسلناه حين بلغ من السن او العلم مبلغا صلح فيه لان يعظ قومه و يأمرهم بالعبادة والتقوى وقرا ابراهيم النخعى وابو حنيفة رضى الله عنهما وابراهيم بالرفع على معنى ومن المرسلين ابراهيم (لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم) من الكفر (ان كنتم تعلمون) ان كان لكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم (انما تعبدون من دون الله أوثانا) اصناما (وتخلقون) وتكذبون او تصنعون وقرأ ابو حنيفة والسلمى رضى الله عنهما وتخلقون من خلق بمعنى التكثير في خلق (افكا) وقرئ أفكا وهو مصدر نحو كذب ولعب والافك مخفف منه كالكذب واللعب من أصلهما واختلاقهم الافك تسميتهم الاوثان آلهة وشركاء لله (ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) لا يستطيعون ان يرزقوكم شيأ من الرزق (فابتغوا عند الله الرزق) كله فانه هو الرازق وحده لا يرزق غيره (واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على انعمه و بفتح التاء وكسر الجيم يعقوب ٤٦٠ (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين) اى وان تكذبوا فلا تضرونى بتكذيبكم فان الرسل قبلى قد كذبتهم أممهم وماضروهم وانما ضروا انفسهم حيث حل بهم العذاب بسبب تكذيبهم واما الرسول فقد تم امره حيث بلغ البلاغ المبين الذى زال معه الشك وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته او وان كنت مكذبا فيما بينكم فلى فى سائر الانبياء اسوة حيث كذبوا على الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب وهذه الآية والآيات التى بعدها الى قوله فما كان جواب قومه محتملة ان تكون من جملة قول ابراهيم عليه السلام لقومه والمراد بالامم قبله قوم شيث وادريس ونوح وغيرهم وأن تكون آيات وقعت معترضة فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشأن قريش بين أول قصة ابراهيم وآخرها فان قلت فالمجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه فلا تقول مكة و زيد قائم خير بلا داع قلت نعم و بيانه ان ايراد قصة ابراهيم عليه السلام ليس الا لارادة التنفيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تكون مسلاة له بان اباه ابراهيم عليه السلام كان مبتلى نحوما ابتلى به من شرك قومه وعبادتهم الاوثان فاعترض بقوله وان تكذبوا على معنى انكم يا معشر قريش ان تكذبوا محمدا فقد كذب ابراهيم قومه وكل أمة نبيها لان قوله فقد كذب أمم من قبلكم لا بد من تناوله لامة ابراهيم وهو كما ترى اعتراض متصل ثم سائر الآيات بعدها من توابع الكلام المحكى ناطقة بالتوحيد ودلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله تعالى وسلطانه ووضوح حجته و برهانه (أولم يروا) و بالتاء كوفى غير حفص (كيف يبدئ الله الخلق) اى قد رأوا ذلك وعلموه وقوله (ثم يعيده) ليس بمعطوف على يبدأ أوليست الرؤية واقعة عليه وانما هو اخبار على حياله بالاعادة بعد الموت كما وقع النظر فى قوله كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة على البدء دون الانشاء بل هو معطوف على جملة قوله أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق (ان ذلك) اى الاعادة (على الله يسير) سهل (قل) يا محمد وان كان من كلام ابراهيم فتقديره وأوحينا اليه أن قل (سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق) على كثرتهم واختلاف أحوالهم لتعرفوا عجائب فطرة الله بالمشاهدة و بدأ وأبدأ بمعنى (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة)

وخمسين عاما وقيل فى عمره غير ذلك قوله تعالى (فأخذهم الطوفان) اى فاغرقهم (وهم ظالمون) قال ابن عباس مشركون (فأنجيناه واصحاب السفينة) يعنى من الغرق (وجعلناها) يعنى السفينة (آية) اى عبرة (للعالمين) قيل انها بقيت على الجودى مدة مديدة وقيل جعلناها عقوبتهم بالغرق عبرة قوله تعالى (وابراهيم) اى وأرسلنا ابراهيم (اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) اى اطيعوا الله وخافوه (ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) اى ما هو خير لكم مما هو شر لكم ولكنكم لا تعلمون (انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا) اى تقولون كذبا وقيل تصنعون اصناما بايديكم وتسمونها آلهة (ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) اى لا يقدرون أن يرزقوكم (فابتغوا) اى فاطلبوا (عند الله الرزق) فانه القادر على ذلك (واعبدوه) اى وحدوه (واشكروا له) لانه المنعم عليكم بالرزق (اليه ترجعون) اى فى الآخرة (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) اى مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فاهلكهم الله (وما على الرسول الا البلاغ المبين) قوله تعالى (أولم يروا) قيل هذه الآيات الى قوله فما كان جواب قومه يحتمل أن تكون من تمام قول ابراهيم لقومه وقيل انها وقعت معترضة فى قصة ابراهيم وهى فى تذكير اهل مكة وتحذيرهم ومعنى أولم يروا أولم يعلموا (كيف يبدئ الله الخلق) اى يخلقهم نطفة ثم علقة ثم مضغة (ثم يعيده) اى فى الآخرة عند البعث (ان ذلك على الله يسير) اى الخلق الاول والخلق الثانى (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق) اى انظروا الى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم (ثم الله ينشئ النشأة

الآخرة) اى البعث وبالمد حيث كان مكى وأبو عمرو وهذا دليل على انهما نشأتان وأن كل واحدة منهما انشاء اى ابتداء واختراع واخراج من العدم الى الوجود غير ان الآخرة انشاء بعد انشاء مثله والاولى ليست كذلك والقياس أن يقال كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة لان الكلام معهم وقع فى الاعادة فلما قررهم فى الابداء بانه من الله احتج عليهم بان الاعادة انشاء مثل الابداء فاذا لم يعجزه الابداء وجب ان لا يعجزه الاعادة فكأنه قال ثم ذلك الذى أنشأ النشأة الاولى هو الذى ينشئ النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه واوقعه مبتدأ (ان الله على كل شئ قدير) قادر (يعذب من يشاء) بالخذلان (ويرحم من يشاء) بالهداية او بالحرص والقناعة او بسوء الخلق وحسنه او بالاعراض عن الله وبالاقبال عليه او بمتابعة البدع وبملازمة السنة (واليه تقلبون) ترددون وترجعون (وما أنتم بمعجزين) ربكم اى لا تفوتونه ان هربتم من حكمه وقضائه (فى الارض) الفسيحة (ولا فى السماء) التى هى أفسح منها وابسط لو كنتم فيها (ومالكم من دون الله من ولى) يتولى أموركم (ولا نصير) ولا ناصر يمنعكم من عذابى (والذين كفروا بآيات الله) بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته (ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى) جنتى (وأولئك لهم عذاب أليم فما كان جواب قومه) قوم ابراهيم حين دعاهم الى الايمان (الا أن قالوا اقتلوه او حرقوه) قال بعضهم لبعض او قاله واحد منهم

وكان الباقون راضين فكانوا جميعا

الآخرة) اى ثم ان الله الذى خلقهم ينشئهم نشأة ثانية بعد الموت والمعنى فكما لم يتعذر عليه احداثهم مبدئا كذلك لا يتعذر عليه انشاؤهم معيدا بعد الموت ثانيا (ان الله على كل شئ قدير) اى من البداءة والاعادة (يعذب من يشاء) عدلا منه (ويرحم من يشاء) تفضلا (واليه تقلبون) اى ترددون (وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء) قيل معناه ولا من فى السماء بمعجز والمعنى انه لا يعجزه أهل الارض ولا أهل السماء فى السماء وقيل معنى قوله ولا فى السماء اى لو كنتم فيها (ومالكم من دون الله من ولى) اى يمنعكم منى (ولا نصير) اى ينصركم من عذابى (والذين كفروا بآيات الله) يعنى بالقرآن (ولقائه) اى البعث (أولئك يئسوا من رحمتى) يعنى الجنة (وأولئك لهم عذاب أليم) فهذا آخر الآيات فى تذكير أهل مكة ثم عاد الى قصة ابراهيم عليه السلام فقال تعالى (فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه او حرقوه) قال ذلك بعضهم لبعض وقيل قال الرؤساء للاتباع اقتلوه او حرقوه (فانجاه الله من النار) اى بان جعلها عليه بردا وسلاما قبل ان ذلك اليوم لم ينتفع أحد بنار (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يصدقون (وقال) يعنى ابراهيم لقومه (انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحيوة الدنيا) اى ثم تنقطع ولا تنفع فى الآخرة وقيل معناه انكم تتوادون على عبادتها وتتواصلون عليها فى الدنيا (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) تتبرأ الاوثان من عابديها وتتبرأ القادة من الاتباع ويلعن الاتباع القادة (ومأواكم النار) يعنى العابدين والمعبودين جميعا (ومالكم من ناصرين) اى مانعين من عذابه (فآمن له لوط) اى صدقه برسالته لما رأى معجزاته وهو أول من صدق ابراهيم وأما فى أصل التوحيد فانه كان مؤمنا لان الانبياء لا يتصور فيهم الكفر (وقال) يعنى ابراهيم (انى مهاجر الى ربى) الى حيث أمرنى ربى فهاجر من كوثى وهى من سواد الكوفة الى حران ثم هاجر الى الشام ومعه لوط وامرأته سارة وهو أول من هاجر الى الله تعالى

فى حكم القائلين فاتفقوا على تحريقه (فانجاه الله من النار) حين قذفوه فيها (ان فى ذلك) فيما فعلوا به وفعلنا (لآيات لقوم يؤمنون) روى انه لم ينتفع فى ذلك اليوم بالنار يعنى يوم ألقى ابراهيم فى النار وذلك لذهاب حرها (وقال) ابراهيم لقومه (انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحيوة الدنيا) حمزة وحفص مودة بينكم مدنى وشامى وحماد ويحيى وخلف مودة بينكم مكى وبصرى وعلى مودة بينكم

الشموني والبرجمي النصب على وجهين على التعليل اى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وان يكون مفعولا ثانيا كقوله اتخذ الهه هواه وما كافة اى اتخذتم الاوثان سبب المودة بينكم على تقدير حذف المضاف او اتخذتموها مودة بينكم اى مودودة بينكم كقوله ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله وفى الرفع وجهان ان يكون خبر الان وما موصولة وأن يكون خبر مبتدا محذوف اى هى مودة بينكم والمعنى ان الاوثان مودة بينكم اى مودودة او سبب مودة ومن أضاف المودة جعل بينكم اسما لا ظرفا كقوله شهادة بينكم ومن نون مودة ونصب بينكم فعل الظرف (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) تتبرأ الاصنام من عابديها (ويلعن بعضكم بعضا) اى يوم القيامة يقوم بينكم التلاعن فيلعن الاتباع القادة (ومأواكم النار) اى مأوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع (ومالكم من ناصرين) ثم (فآمن له) لابراهيم عليه السلام (لوط) هو ابن أخى ابراهيم وهو اول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه (وقال) ابراهيم (انى مهاجر) من كوثى وهى من سواد الكوفة الى حران ثم منها الى فلسطين وهى من بريه الشام ومن ثم قالوا لكل نبى هجرة ولابراهيم هجرتان وكان معه فى هجرته لوط وسارة وقد تزوجها ابراهيم (الى ربى) الى حيث أمرنى ربى بالهجرة اليه

(انه هو العزيز) الذى يمنعنى من اعدائى (الحكيم) الذى لا يأمرنى الا بما هو خير (ووهبنا له اسحق) ولدا (ويعقوب) ولد ولده اسمعيل لشهرته (وجعلنا فى ذريته النبوة) اى فى ذرية ابراهيم فانه شجرة الانبياء (والكتاب) والمراد به الجنس يعنى التوراة والزبور والفرقان (وآتيناه) اى ابراهيم (أجره) الثناء الحسن والصلاة عليه الى آخر الدهر ومحبة أهل الملل له او هو بقاء ضيافته وليس ذلك لغيره (فى الدنيا) فيه دليل على انه تعالى قد يعطى الاجر فى الدنيا (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) اى من اهل الجنة الحسن (ولوطا) اى واذكر لوطا (اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة) الفعلة البالغة فى القبح وهى اللواطة (ما سبقكم بها من احد من العالمين) جملة مستأنفة مقررة لفاحشة تلك الفعلة كأن قائلا قال لم كانت فاحشة فقيل لان أحدا قبلهم لم يقدم عليها قالوا ليس على ذكر قبل قوم لوط (أئنكم

لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) بالقتل وأخذ المال كما هو عمل قطاع الطريق وقيل اعتراضهم السابلة بالفاحشة (وتأتون فى ناديكم) مجلسكم ولا يقال للمجلس ناد الا مادام فيه اهله (المنكر) اى المضارطة والمخامعة والسباب والفحش فى المزاح والحذف بالحصى ومضغ العلك والفرقعة والسواك بين الناس (فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) فيما تعدنا من نزول العذاب انكم أئنكم شامى وحفص وهو الموجود فى الامام وكل واحد بهمزتين كوفى غير حفص آينكم بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة ابو عمر واينكم بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة مكى ونافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد (قال رب انصرنى

بانزال العذاب (على القوم المفسدين) كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصى والفواحش (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) بالبشارة لابراهيم بالولد والنافلة يعنى اسحق ويعقوب (قالوا انا مهلكو اهل هذه القرية) اضافة مهلكو تعريف لانها بمعنى الاستقبال والقرية سدوم التى قيل فيها الجور من قاضى سدوم وهذه القرية تشعر بانها قريبة من موضع ابراهيم عليه السلام قالوا انها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع ابراهيم عليه السلام (ان أهلها كانوا ظالمين) اى الظلم قد استمر منهم فى الايام السالفة وهم عليه مصرون وظلمهم كفرهم وانواع معاصيهم (قال) ابراهيم (ان فيها لوطا) اى اتهلكونهم وفيهم من هو برىء من الظلم وهو لوط (قالوا) اى الملائكة (نحن أعلم) منك (بمن فيها لننجينه) لنخلصنه يعقوب وكوفى غير عاصم (وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) الباقين فى العذاب ثم اخبر عن مسير الملائكة الى لوط بعد مفارقتهم ابراهيم بقوله

وترك بلده وسار الى حيث أمره الله بالمهاجرة اليه قيل هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة (انه هو العزيز) اى الذى لا يغلب والذى يمنعنى من اعدائى (الحكيم) الذى لا يأمرنى الا بما يصلحنى قوله تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) يقال ان الله تعالى لم يبعث نبيا بعد ابراهيم الا من نسله (وآتيناه أجره فى الدنيا) هو الثناء الحسن فكل أهل الاديان يتولونه ويحبونه ويحبون الصلاة والذرية الطيبة والنبوة من نسله هذا له فى الدنيا (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) اى فى زمرة الصالحين قال ابن عباس مثل آدم ونوح * قوله عز وجل (ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة) اى القبيحة (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) اى لم يفعلها أحد قبلكم ثم فسر الفاحشة فقال (أئنكم لتأتون الرجال) يعنى انكم تقضون الشهوة من الرجال (وتقطعون السبيل) وذلك انهم كانوا يأتون الغاحنة من مر بهم من المسافرين فترك الناس المرور بهم لاجل ذلك وقيل معناه تقطعون سبيل النسل بايثار الرجال على النساء (وتأتون فى ناديكم المنكر) اى مجالسكم والنادى مجلس القوم ومتحدثهم عن ام هانئ بنت طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله وتأتون فى ناديكم المنكر قال كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب الحذف هو رمى الحصى بين الاصابع انهم كانوا يجلسون فى مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فاذا مر بهم عابر سبيل حذفوه باصابعه قال انا اولى به وقيل انه كان يأخذ ما معه ويضربه ويغرمه ثلاثة دراهم وقيل انهم كانوا يجامع بعضهم بعضا فى مجالسهم وقيل انهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم وعن عبد الله بن سلام كان يبزق بعضهم على بعض وقيل كان أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الاصابع بالحناء وحل الازار والحذف والرمى بالجلاهق واللوطية (فما كان جواب قومه) اى لما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح (الا أن قالوا) يعنى استهزاء (ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) اى ان العذاب نازل بنا فعندنا (قال رب انصرنى على القوم المفسدين) اى بتحقيق قولى ان العذاب نازل بهم قوله عز وجل (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) يعنى من الله باسحق ويعقوب (قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية) يعنى قوم لوط والقرية سدوم (ان أهلها كانوا ظالمين قال) يعنى ابراهيم اشفاقا على لوط وليعلم حاله (ان فيها لوطا) اى قالت الملائكة (نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) اى من الباقين

أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم) ساءه مجيئهم وأن صلة أكدت وجود الفعلين مرتبا احدهما على الآخر كأنهما وجدا في جزء من الزمان كأنه قيل كما احس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه ان يقتلوهم بالفجور سيء بهم مدني وعلي (وضاق بهم ذرعا) وضاق بشأنهم وبتدبير امرهم ذرعه اى طاقته وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن فقد الطاقة وارحب الذراع اذا كان مطيقا والاصل فيه ان الرجل اذا طالت ذراعه نال مالا يناله القصير الذراع فضرب ذلك مثلا في العجز وهو نصب على التمييز (وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك) وبالتخفيف مكي وكوفي غير حفص (وأهلك) الكاف في محل نصب أهلك بفعل محذوف اى وننجي اهلك (الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون) منزلون شامي (على أهل هذه القرية) عذابا (من السماء بما كانوا يفسقون) بفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله ٤٦٣ (ولقد تركنا منها) من القرية (آية بينة) هي آثار منازلهم الخربة وقيل الماء الاسود على وجه الارض (لقوم يعقلون) يتعلق بتركنا او ببينة (والى مدين) وارسلنا الى مدين (أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) وافعلوا ما ترجون به الثواب في العاقبة او خافوه (ولا تعثوا في الارض مفسدين) قاصدين الفساد (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة او صيحة جبريل عليه السلام لان القلوب رجفت بها (فأصبحوا في دارهم) في بلدهم وارضهم (جاثمين) باركين على الركب ميتين (وعادا) منصوب باضمار اهلكنا لان قوله فأخذتهم الرجفة يدل عليه لانه في معنى الاهلاك (وثمود)

العذاب (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم) اى ظنهم من الانس فخاف عليهم ومعناه انه جاءه ما ساءه (وضاق بهم ذرعا) اى عجز عن تدبير أمرهم فحزن لذلك (وقالوا لا تخف) اى من قومك (ولا تحزن) علينا (انا منجوك وأهلك) اى انا مهلكوهم ومنجوك وأهلك (الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا) اى عذابا (من السماء) قيل هو الخسف والحصب بالحجارة (بما كانوا يفسقون) (ولقد تركنا منها) اى من قريات لوط (آية بينة) اى عبرة ظاهرة (لقوم يعقلون) يعني افلا يتدبرون الآيات تدبر ذوى العقول قال ابن عباس الآية البينة آثار منازلهم الخربة وقيل هي الحجارة التي هلكوا بها ابقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الامة وقيل هي ظهور الماء الاسود على وجه الارض (وقوله تعالى (والى مدين) اى وارسلنا الى مدين ومدين اسم رجل وقيل اسم المدينة فعلى القول الاول يكون المعنى وأرسلنا الى ذرية مدين وأولاده وعلى القول الثاني وأرسلنا الى أهل مدين (أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) اى افعلوا افعل من يرجو اليوم الآخر وقيل معناه خافوا اليوم الآخر وخافوه (ولا تعثوا في الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة) اى الزلزلة وذلك ان جبريل صاح فرجفت الارض رجفة (فأصبحوا في دارهم جاثمين) اى باركين على الركب ميتين (وعادا وثمود) اى واهلكنا عادا وثمود (وقد تبين لكم) يا أهل مكة (من مساكنهم) اى من منازلهم بالحجر واليمن (وزين لهم الشيطان أعمالهم) اى عبادتهم لغير الله (فصدهم عن السبيل) اى عن سبيل الحق (وكانوا مستبصرين) اى عقلاء ذوى بصائر وقيل كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون انهم على هدى وهم على باطل وضلالة والمعنى انهم كانوا عند انفسهم مستبصرين (وقارون وفرعون وهامان) اى واهلكنا هؤلاء (ولقد جاءهم موسى بالبينات) اى بالدلالات الواضحات (فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين) اى فائتين من عذابنا (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) وهم قوم رموا بالحصباء وهي الحصى الصغار (ومنهم من أخذته الصيحة) يعني ثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) يعني قارون وأصحابه (ومنهم من أغرقنا) يعني قوم نوح وفرعون وقومه (وما كان الله ليظلمهم) اى بالهلاك (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) اى بالاشراك قوله تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) يعني الاصنام يرجون نصرها ونفعها (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) لنفسها تأوى

جعفر وحفص وسهل ويعقوب (وقد تبين لكم) ذلك يعني ما وصفه من اهلاكهم (من مساكنهم) من جهة مساكنهم اذا نظرتم اليها عند مروركم بها وكان اهل مكة يمرون عليها في اسفارهم فيبصرونها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) من الكفر والمعاصي (فصدهم عن السبيل) سبيل الذي امروا بسلوكه هو الايمان بالله ورسوله (وكانوا مستبصرين) عقلاء متمكنين من النظر وتمييز الحق من الباطل ولكنهم لم يعقلوا (وقارون وفرعون وهامان) اى واهلكناهم (ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين) فائتين قدرتنا فلم يفوتوه (فكلا أخذنا بذنبه) فيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) هي ريح عاصف فيها حصباء وهي لقوم لوط (ومنهم من أخذته الصيحة) هي لمدين وثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) يعني قارون (ومنهم من أغرقنا) يعني قوم نوح وفرعون (وما كان الله ليظلمهم) ليعاقبهم بغير ذنب (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفر والطغيان (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) اى آلهة يعني مثل من اشرك بالله الاوثان في الضعف وسوء الاختيار (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا)

اى كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت فان ذلك بيت لا يدفع عنها الحر والبرد ولا يقى ما تقى البيوت فكذلك الاوثان لا
فى الدنيا والآخرة جعل حاتم اتخذت حالا (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت) لا بيت اوهن من بيتها عن على رضى الله عنه
بيوتكم من نسج العنكبوت فان تركه يورث الفقر (لو كانوا يعلمون) ان هذا مثلهم وان امر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن وقيل معنى
مثل المشرك الذى يعبد الوثن بالقياس الى المؤمن الذى يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتا بالاضافة الى رجل يبنى بيتا بآجر وجص او
من صخر وكما ان أوهن البيوت اذا استقريتها بيتا بيت العنكبوت كذلك اضعف الاديان اذا استقريتها دينا دين عبادة الاو
لو كانوا يعلمون وقال الزجاج فى جماعة تقدير الآية مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء لو كانوا يعلمون كمثل العنكبوت (
يعلم ما يدعون) بالياء بصرى وعاصم وبالتاء غيرهما غير الاعشى والبرجمى وما بمعنى الذى وهو مفعول يعلم ومفعول يدعون مض
يدعونه يعنى يعبدونه (من دونه ٤٦٤ من شئ) من فى من شئ للتبيين (وهو العزيز) الغالب الذى لا شريك له (الحك

فى ترك المعاجلة بالعقوبة وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جمادا لا علم له ولا قدرة وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شئ الحكيم الذى لا يفعل كل شئ الا بحكمة وتدبير (وتلك الامثال) الامثال نعت والخبر (نضربها) نبينها (للناس) كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون ان رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال (وما يعقلها الا العالمون) به وباسمائه وصفاته اى لا يعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها الاهم لان الامثال والتشبيهات انما هى الطرق الى المعانى المستورة حتى تبرزها وتصورها للافهام كما صور هذا

الشرح

التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه تلا هذه الآية فقال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه ودلت الآية على فضل العلم على العقل (خلق الله السموات والارض بالحق) اى محقا يعنى لم يخلقهما باطلا بل لحكمة وهى ان تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته الا ترى الى قوله (ان فى ذلك لآية للمؤمنين) وخصهم بالذكر لانتفاعهم بها (اتل ما أوحى اليك من الكتاب) تقربا الى الله تعالى بقراءة كلامه والتقف على ما أمر الله به ونهى عنه (وأقم الصلوة) اى دم على اقامة الصلاة (ان الصلوة تنهى عن الفحشاء) الفعلة القبيحة كالزنا مثلا (والمنكر) هو ما ينكره الشرع والعقل قيل من كان مراعيا للصلاة جره ذلك الى ان ينتهى عن السيئات يوما ما فقد روى انه قيل يوما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا يصلى بالليل ويسرق بالليل فقال ان صلاته لترده وروى ان فتى من الانصار كان يصلى معه الصلوات ولا يدع شيأ من الفواحش الا ركبه فوصف له فقال ان صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب وقال ابن عوف ان الصلاة تنهى اذا كنت فيها فانت فى معروف وطاعة وقد حجزتك

الفحشاء والمنكر وعن الحسن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه (ولذكر الله أكبر) اى والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وانما قال ولذكر الله ليستقل بالتعليل كأنه قال والصلاة أكبر لانها ذكر الله وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولذكر الله اياكم برحمته أكبر من ذكركم اياه بطاعته وقال ابن عطاء ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له لان ذكره بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والاماني ولان ذكره لا يفنى وذكركم لا يبقى وقال سلمان ذكر الله أكبر من كل ٤٦٥ شئ وأفضل فقد قال عليه السلام

الشرع قال ابن مسعود وابن عباس في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم تزده صلاته من الله الا بعدا وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وقيل من داوم على الصلاة جره ذلك الى ترك المعاصي والسيئات كما روى عن أنس قال كان فتى من الانصار يصلي الصلوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يدع من الفواحش شيأ الا ركبه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان صلاته ستنهاه يوما فلم يلبث أن تاب وحسنت حاله وقيل معنى الآية انه مادام في صلاته فانها تنهاه عن الفحشاء والمنكر ومنه قوله ان في الصلاة لشغلا وقيل أراد بالصلاة القرآن وفيه ضعف لتقدم ذكر القرآن وعلى هذا يكون معناه ان القرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر كما روى عن جابر قال قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا يقرأ القرآن الليل كله فاذا أصبح سرق قال ستنهاه قراءته وفي رواية انه قيل يا رسول الله ان فلانا يصلي بالنهار ويسرق بالليل فقال ان صلاته لترده وعلى كل حال فان المراعي للصلاة لابد وان يكون أبعد عن الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها (ولذكر الله أكبر) اى انه أفضل الطاعات عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من اعطاء الذهب والورق وخير لكم من ان تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى يا رسول الله قال ذكر الله أخرجه الترمذي وله عن أبي سعيد الخدري قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل اى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة قال الذاكرون الله كثيرا قالوا يا رسول الله والغازي في سبيل الله فقال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب في سبيل الله دما لكان الذاكرون الله كثيرا أفضل منه درجة (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات يروى المفردون بتشديد الراء وتخفيفها والتشديد أتم يقال فرد الرجل بتشديد الراء اذا تفقه واعتزل الناس وحده مراعيا للامر والنهي وقيل هم المتخلقون عن الناس بذكر الله لا يخلطون به غيره (خ) عن أبي هريرة وأبي سعيد انهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يقعد قوم يذكرون الله الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده وروى ان اعرابيا قال يا رسول الله اى الاعمال أفضل قال ان تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله وقال ابن عباس معنى ولذكر الله أكبر ذكر الله اياكم أفضل من ذكركم اياه ويروى ذلك مرفوعا عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن عطاء ولذكر الله أكبر اى لمن يبقى معه معصية (والله يعلم ما تصنعون) اى لا يخفى عليه شئ من أمركم * قوله عز وجل (ولا تجادلوا أهل الكتاب) اى ولا تخاصموهم (الا بالتي هي أحسن) اى القرآن والدعاء الى الله بآياته والتنبيه على حجته وايراد بهم من قبل الجزية منهم (الا الذين ظلموا منهم) اى أبوا أن يعطوا الجزية ونصبوا الحرب فقاتلوهم بالسيف حتى يسلموا او يعطوا الجزية ومعنى الآية الا الذين ظلموكم لان جميعهم ظالم بالكفر وقيل هم أهل الحرب ومن لا عهد له وقيل الآية منسوخة بآية السيف (وقولوا) اى للذين قبلوا

ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير من اعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا وما ذاك يا رسول الله قال ذكر الله وسئل اى الاعمال أفضل قال ان تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله وذكر الله أكبر من ان تحويه أفهامكم وعقولكم وذكر الله أكبر من ان تلقى معه معصية وذكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من غيره (والله يعلم ما تصنعون) من الخير والطاعة فيثيبكم احسن الثواب (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن) بالخصلة التي هي احسن للثواب وهي مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم كما قال ادفع بالتي هي أحسن (الا الذين ظلموا منهم) فافرطوا في الاعتداء والعناد ولم

يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلظة وقيل الا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم او الا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة او معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمة المؤدين الجزية الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية فجادلتهم بالسيف والآية تدل على جواز المناظرة مع الكفرة في الدين وعلى جواز تعلم علم الكلام الذي به تحقق المجادلة وقولوا

آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) من جنس المجادلة بالاحسن وقال عليه السلام ما حدثكم اهل
الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان كان باطلا لم تصدقوهم وان كان حقا لم تكذبوهم (وكذلك)
ذلك الانزال (انزلنا اليك الكتاب) اى انزلناه مصدقا لسائر الكتب السماوية او كما أنزلنا الكتب الى من قبلك أنزلنا اليك الكتاب
(فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) هم عبد الله بن سلام ومن معه (ومن هؤلاء) اى من أهل مكة (من يؤمن به) او اراد بالذين اتوا
الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين كانوا فى عهد رسول الله عليه السلام (وما
يجحد بآياتنا) مع ظهورها وزوال الشبهة عنها (الا الكافرون) الا المتوغلون فى الكفر المصممون عليه ككعب بن الاشرف
وأضرابه (وما كنت تتلوا من قبله) من قبل القرآن (من كتاب ولا تخطه بيمينك) خص اليمين لان الكتابة غالبا تكون باليمين اى ما كنت
قرأت كتابا من الكتب ولا كنت ٤٦٦ كاتبا (اذا) اى لو كان شئ من ذلك اى من التلاوة ومن الخط (لارتاب المبطلون) من اهل

الكتاب وقالوا الذى نجد نعته فى كتبنا أمى لا يكتب ولا يقرأ وليس به او لارتاب مشركو مكة وقالوا لعله تعلمه او كتبه بيده وسماهم مبطلين لانكارهم نبوته وعن مجاهد والشعبى ما مات النبى صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ (بل هو) اى القرآن (آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) اى فى صدور العلماء به وحفاظه وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الاعجاز وكونه محفوظا فى الصدور بخلاف سائر الكتب فانها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ الا من المصاحف (وما يجحد بآياتنا) الواضحة (الا الظالمون) اى المتوغلون فى الظلم (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) آية بغير ألف مكى وكوفى غير حفص أرادوا هلا انزل عليه آيات مثل الناقة والعصا ومائدة عيسى عليهم السلام ونحو ذلك (قل انما الآيات عند الله) ينزل أيها شاء لست أملك شيأ منها (وانما أنا نذير مبين) كافت الانذار وابانته مما أعطيت من الآيات وليس لى أن اقول أنزل على آية كذا دون آية كذا مع علمى ان المراد من الآيات ثبوت الدلالة والآيات كلها فى حكم آية واحدة فى ذلك (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) اى أولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات ان كانوا طالبين للحق غير متعنتين هذا القرآن الذى تدوم تلاوته عليهم فى كل مكان وزمان ويزال معهم آية ثابتة لا تزول كل آية بعد كونها او تكون فى مكان دون مكان (ان فى ذلك) اى فى مثل هذه الآية الموجودة فى كل مكان و زمان الى آخر الدهر (لرحمة) لنعمة عظيمة (وذكرى) وتذكرة (لقوم يؤمنون) دون المتعنتين (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) اى شاهدا بصدق ما أدعيه من الرسالة وانزال القرآن على وبتكذيبكم

الجزية اذا حدثوكم بشئ مما فى كتبهم (آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له
مسلمون) (خ) عن ابى هريرة قال كان اهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية
لاهل الاسلام فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما
أنزل الينا الآية * قوله عز وجل (وكذلك) اى كما انزلنا اليهم الكتاب (أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم
الكتاب يؤمنون به) يعنى مؤمنى اهل الكتاب كعبد الله بن سلام واصحابه (ومن هؤلاء) يعنى اهل مكة
(من يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون) وذلك ان اليهود عرفوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
نبى والقرآن حق فجحدوا وانجحودا نما يكون بعد المعرفة (وما كنت تتلوا) يا محمد (من قبله من كتاب)
معناه من كتب اى من قبل ما انزلنا اليك الكتاب (ولا تخطه بيمينك) اى ولا تكتبه والمعنى لم تكن
ولم تكتب قبل الوحى (اذا لارتاب المبطلون) معناه لو كنت تكتب او تقرأ قبل الوحى اليك لارتاب
المشركون من اهل مكة وقالوا انه يقرؤه من كتب الاولين او ينسخه منها وقيل المبطلون هم اليهود
ومعناه انهم اذا شكوا فيه واتهموك وقالوا ان الذى نجد نعته فى التوراة لا يقرأ ولا يكتب وليس هذا
ذلك النعت (بل هو آيات بينات) يعنى القرآن (فى صدور الذين أوتوا العلم) يعنى المؤمنين الذين حملوا
القرآن وقال ابن عباس يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ذو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من اهل
الكتاب لانهم يجدون نعته وصفته فى كتبهم (وما يجحد بآياتنا الا الظالمون) يعنى اليهود (وقالوا) يعنى
كفار مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) اى كما أنزل على الانبياء من قبل وقيل اراد بالآيات معجزات
الانبياء مثل ناقة صالح ومائدة عيسى ونحو ذلك (قل انما الآيات عند الله) اى هو القادر على انزال ما
شاء أنزلها (وانما أنا نذير مبين) اى انما كلفت الانذار وليس انزال الآيات بيدى (أولم يكفهم أنا
أنزلنا) هذا جواب لقولهم لولا انزل عليه آية من ربه قال أولم يكفهم أنا انزلنا (عليك الكتاب يتلى عليهم)
معناه ان القرآن معجزة أتم من معجزة من تقدم من الانبياء لان معجزة القرآن تدوم على ممر الدهور
والزمان ثابتة لا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها (ان فى ذلك) يعنى القرآن (لرحمة وذكرى لقوم
يؤمنون) اى تذكيرا وعظة لمن آمن به وعمل صالحا (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) قال ابن عباس

معناه

يعلم ما فى السموات والارض) فهو مطلع على امرى وأمركم وعالم بحقى وباطلكم (والذين آمنوا بالباطل) منكم وهو ما يعبدون من دون الله وكفروا بالله) وآياته (أولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم حيث آثروا الكفر بالايمان الان الكلام ورد مورد الانصاف كقوله وانا أو اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين وروى ان كعب بن الاشرف وأصحابه قالوا يا محمد من يشهد لك بانك رسول الله فنزلت (ويستعجلونك بالعذاب) بقولهم أمطر علينا حجارة من السماء الآية (ولولا اجل مسمى) وهو القيامة او يوم بدر أو وقت فنائهم (لجاءهم العذاب) آجالهم والمعنى ولولا اجل قد سماه الله وبينه فى اللوح لعذبهم والحكمة تقتضى تأخيره الى ذلك الاجل المسمى (لجاءهم العذاب) عاجلا (وليأتينهم) العذاب عاجلا اوليأتينهم العذاب فى الاجل المسمى (بغتة) فجأة (وهم لا يشعرون) بوقت مجيئه (يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين) اى ستحيط بهم (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم) لقوله تعالى من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ولا وقف على بالكافرين لان يوم ظرف احاطة النار بهم (ويقول) بالياء كوفى ونافع

معناه يشهد لى انى رسوله والقرآن كتابه ويشهد عليكم بالتكذيب وشهادة الله اثبات المعجزة له بانزال الكتاب عليه (يعلم ما فى السموات والارض) اى هو المطلع على أمرى وامركم ويعلم حقى وباطلكم لا تخفى عليه خافية (والذين آمنوا بالباطل) قال ابن عباس بغير الله وقيل بعبادة الشيطان وقيل بما سوى الله لان ما سوى الله باطل (وكفروا بالله) فان قلت من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد قلت نعم فائدته انه ذكر الثانى لبيان قبح الاول فهو كقول القائل أتقول الباطل وتترك الحق لبيان ان الباطل قبيح (أولئك هم الخاسرون) اى المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان * قوله عز وجل (ويستعجلونك بالعذاب) نزلت فى النضر بن الحرث حيث قال فامطر علينا حجارة من السماء (ولولا اجل مسمى) قال ابن عباس ما وعدتك انى لا أعذب قومك ولا استأصلهم وأؤخر عذابهم الى يوم القيامة وقيل مدة اعمارهم لانهم اذا ماتوا صاروا الى العذاب وقيل يوم بدر (لجاءهم العذاب وليأتينهم) يعنى العذاب وقيل الاجل (بغتة وهم لا يشعرون) باتيانه (يستعجلونك بالعذاب) اعادة تأكيدا (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) اى جامعة لهم لا يبقى منهم احد الا دخلها (يوم يغشاهم العذاب) اى يصيبهم (من فوقهم ومن تحت أرجلهم ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) اى جزاء ما كنتم تعملون قوله تعالى (يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون) قيل نزلت فى ضعفاء مسلمى اهل مكة يقول الله تعالى ان كنتم فى ضيق بمكة من اظهار الايمان فاخرجوا منها الى ارض المدينة فانها واسعة آمنة وقيل نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة وقالوا نخشى ان هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة فانزل الله تعالى هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج وقيل المعنى فهاجروا فيها اى فجاهدوا فيها وقال سعيد ابن جبير اذا عملوا فى الارض بالمعاصى فاهربوا منها فان ارضى واسعة وقيل اذا أمرتم بالمعاصى فاهربوا فان ارضى واسعة وكذلك يجب على كل من كان فى بلد يعمل فيه بالمعاصى ولا يمكنه تغيير ذلك ان يهاجر الى بلد تتهيأ له فيها العبادة وقيل معنى ان أرضى واسعة اى رزقى لكم واسع فاخرجوا (كل نفس ذائقة الموت) اى كل احد ميت خوفهم بالموت لتهون الهجرة عليهم فلا يقيموا بدار الشرك خوفا من الموت (ثم الينا ترجعون) فنجزيكم باعمالكم قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا) اى

وقوله (ذوقوا ما كنتم تعملون) اى جزاء أعمالكم (يا عبادى) و بسكون الياء بصرى و كوفى غير عاصم (الذين آمنوا ان ارضى واسعة) و بفتح الياء شامى يعنى ان المؤمن اذا لم يتسهل له العبادة فى بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه فليهاجر عنه الى بلد يقدر انه فيه اسلم قلبا واصح دينا واكثر عبادة والبقاع تتفاوت فى ذلك تفاوتا كثيرا وقالوا لم نجد اعون على قهر النفس واجمع للقلب واحث على القناعة واطرد للشيطان وابعد من الفتن وأربط للامر الدينى من مكة حرسها الله تعالى وعن سهل اذا ظهرت المعاصى والبدع

فى أرض فاخرجوا منها الى ارض المطيعين وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان شبرا من الارض استوجب الجنة (فاياى فاعبدون) و بالياء يعقوب وتقديره فاياى فاعبدوا فاعبدونى و جىء بالفاء فى فاعبدون لانه جواب شرط محذوف لان المعنى ان ارضى واسعة فان لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فاخلصوها فى غيرها ثم حذف الشرط وعوض عن حذفه تقديم المفعول مع افادة تقديمه معنى الاختصاص والاخلاص ثم شجع المهاجر بقوله (كل نفس ذائقة الموت) اى واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق لانها اذا تيقنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها (ثم الينا ترجعون) بعد الموت للثواب والعقاب يرجعون يحيى ترجعون يعقوب (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا) لننزلنهم من الجنة علالى لنثوينهم كوفى غير عاصم من الثواء وهو النزول للاقامة وثوى غير متعد فاذا تعدى بزيادة الهمزة لم يجاوز مفعولا واحدا والوجه فى تعديته الى ضمير المؤمنين والى الغرف اما اجراؤه مجرى لننزلنهم اولنثوينهم اوحذف الجار وايصال الفعل او تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم

(تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) ويوقف على العاملين على ان (الذين صبروا) خبر مبتدا محذوف اى هم الذين صبروا على مفارقة الاوطان وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصى والوصل اجود ليكون الذين نعتا للعاملين (وعلى ربهم يتوكلون) ولم يتوكلوا فى جميع ذلك الا على الله ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من اسلم من مكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فنزلت (وكأين من دابة) اى وكم من دابة وكأين بالمد والهمز مكى والدابة كل نفس دبت على وجه الارض عقلت ام لم تعقل (لا تحمل رزقها) ٤٦٨ لا تطيق ان تحمله لضعفها عن حمله (الله يرزقها واياكم) اى لا يرزق تلك الدواب الضعاف الا الله ولا يرزقكم ايضا ايها الاقوياء الا هو وان كنتم مطيقين لحمل ارزاقكم وكسبها لانه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التى لا تحمل ورزقها لا تدخره انما تصبح فيرزقها الله وقيل لا يدخر شئ من الحيوان قوتا الا ابن آدم والفارة والنملة (وهو السميع) لقولكم نخشى الفقر والعيلة (العليم) بما فى ضمائركم (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر) اى ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلق السموات والارض على كبرهما وسعتهما ومن الذى سخر الشمس والقمر (ليقولن الله فأنى يؤفكون) فكيف يصرفون عن توحيد الله مع اقرارهم بهذا كله (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) اى لمن يشاء فوضع الضمير موضع من يشاء لان من يشاء مبهم غير معين فكان الضمير مبهما مثله قدر الرزق وقتره بمعنى اذا ضيقه (ان الله بكل شئ عليم) يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم فى الحديث ان من عبادى من لا يصلح ايمانه الا الغنى ولو أفقرته لافسده ذلك وان من عبادى من لا يصلح ايمانه الا الفقر ولو اغنيته لافسده ذلك (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيا به الارض بعد موتها ليقولن الله) اى هم مقرون بذلك (قل الحمد لله) على انزاله الماء لاحياء الارض او على انه ممن اقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك فى توحيد الله ونفى الشركاء عنه ولم يكن اقرارا عاطلا كاقرار المشركين (بل أكثرهم لا يعقلون) لا يتدبرون بما فيهم من العقول فيما نريهم من الآيات ونقيم عليهم من الدلالات اولا يعقلون ما تريد بقولك الحمد لله

علا لى جمع غرفة وهى العلية (تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) اى لله بطاعته (الذين صبروا) على الشدائد ولم يتركوا دينهم لشدة محنتهم وقيل صبروا على الهجرة ومفارقة الاوطان وعلى اذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصى (وعلى ربهم يتوكلون) اى يعتمدون على الله فى جميع أمورهم * قوله عز وجل (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون هاجروا الى المدينة فقالوا كيف نخرج الى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال فمن يطعمنا بها ويسقينا فانزل الله وكأين من دابة لا تحمل رزقها اى لا ترفع رزقها معها لضعفها ولا تدخر شيأ لغد مثل البهائم والطير (الله يرزقها واياكم) حيث كنتم (وهو السميع) اى لاقوالكم (العليم) بما فى قلوبكم عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا اخرجه الترمذى وقال حديث حسن ومعناه انها تذهب اول النهار جياعا ضامرة البطون وتروح آخر النهار الى اوكارها شباعا ممتلئة البطون ولا تدخر شيأ قال سفيان بن عيينة ليس شئ من خلق الله يخبأ الا الانسان والفارة والنملة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أيها الناس ليس من شئ يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار الا وقد أمرتكم به وليس شئ يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة الا وقد نهيتكم عنه الا وان الروح الامين نفث فى روعى الروع بضم الراء وبالعين المهملة هو القلب والعقل وبفتح الراء هو الخوف قال الله تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع اى الخوف انه ليس من نفس تموت حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق ان تطلبوه بمعاصى الله عز وجل فانه لا يدرك ما عند الله الا بطاعته * قوله عز وجل (ولئن سألتهم) يعنى كفار مكة (من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر) ذكر أمرين أحدهما اشارة الى اتحاد الذات والثانى اشارة الى اتحاد الصفات وهى الحركة فى الشمس والقمر (ليقولن الله فأنى يؤفكون) قيل معناه انهم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع اقرارهم انه خلق السموات والارض (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما ذكر الخالق ذكر الرزق لان كمال الخلق ببقائه وبقاء الخلق بالرزق والله تعالى هو المتفضل بالرزق على الخلق فله الفضل والاحسان والطول والامتنان (ويقدر له) اى يضيق عليه اذا شاء (ان الله بكل شئ عليم) اى يعلم مقادير الحاجات ومقادير الارزاق (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله) ذكر سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله تعالى (قل الحمد لله) اى على ان الفاعل لهذه الاشياء هو الله تعالى وقيل قل الحمد لله على اقرارهم ولزوم الحجة عليهم بانه خالق لهم (بل أكثرهم لا يعقلون) اى انهم ينكرون التوحيد مع اقرارهم بانه خالق هذه الاشياء

(وماهذه الحيوة الدنيا الالهو ولعب) اى وماهى لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها الا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون وفيه ازدراء بالدنيا وتصغير لامرها وكيف لا يصغرها وهى لاتزن عنده جناح بعوضة واللهو ما يتلذذ به الانسان فيلهيه ساعة ثم ينقضى (وان الدار الآخرة لهى الحيوان) اى الحياة اى ليس فيها الا حياة مستمرة دائمة لاموت فيها فكانها فى ذاتها حياة والحيوان مصدر حيى وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واوا ولم يقل لهى الحياة لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب والحياة حركة والموت سكون فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة فى معنى الحياة ويوقف على الحيوان لان التقدير (لو كانوا يعلمون) حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفانى على الحيوان الباقى ولو وصل لصار وصف الحيوان معلقا بشرط علمهم ذلك وليس كذلك (فاذا ركبوا فى الفلك) هو متصل بمحذوف دل عليه ماوصفهم به وشرح من أمرهم معناه هم على ماوصفوا به من الشرك والعناد فاذا ركبوا فى الفلك (دعوا الله مخلصين له الدين) كائنين فى صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لايذكرون الا الله ٤٦٩ ولا يدعون معه الها آخر (فلما نجاهم الى البر) وآمنوا (اذاهم يشركون) عادوا الى حال الشرك (ليكفروا بما آتيناهم) من النعمة قيل هى لام كى وكذا فى (وليتمتعوا) فيمن قرأها بالكسر اى لكى يكفروا وكى يتمتعوا والمعنى يعودون الى شركهم ليكونوا بالعود الى شركهم كافرين بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها والتلذذ لاغير على خلاف عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة فانهم يشكرون نعمة الله اذا أنجاهم ويجعلون نعمة النجاة ذريعة الى ازدياد الطاعة لا الى التلذذ والتمتع وعلى هذا لاوقف على يشركون ومن جعله لام الامر متشبثا بقراءة ابن كثير وحمزة وعلى وليتمتعوا بسكون اللام على وجه التهديد كقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وتحقيقه فى أصول الفقه يقف عليه (فسوف يعلمون) سوء تدبيرهم عند تدميرهم (اولم يروا) اى اهل مكة (انا جعلنا) بلدهم (حرما) ممنوعا مصونا (آمنا) يأمن داخله (ويتخطف الناس من حولهم) يستلبون قتلا وسبيا (افبالباطل يؤمنون) اى بالشيطان والاصنام (وبنعمة الله يكفرون) اى بمحمد عليه السلام والاسلام (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بان جعل له شريكا (اوكذب بالحق) بنبوة محمد عليه السلام والكتاب (لما جاءه) اى يتلعثموا فى تكذيبه حين سمعوه (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) هذا تقرير لثوائهم فى جهنم لان همزة الانكار اذا ادخلت على النفى صار ايجابا يعنى الا يثوون فيها وقد افتروا مثل هذا التكذيب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب اولم يصح عندهم ان فى جهنم مثوى للكافرين حين اجترؤا مثل هذه الجراءة وذكر المثوى فى مقابلة لنبوئنهم يؤيد قراءة الثانى (والذين جاهدوا) اطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ماتجب مجاهدته من النفس والشيطان واعداء الدين (فينا) فى حقنا ومن اجلنا ولوجهنا خالصا (لنهدينهم سبلنا) سبلنا ابو عمرو اى لنزيدنهم هداية الى سبل الخير وتوفيقا وعن الدارانى والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم الى مالم يعلموا

قوله تعالى (وماهذه الحيوة الدنيا الالهو ولعب) اللهو هو الاستمتاع بلذات الدنيا وقيل هو الاشتغال بما لايعنيه ومالايهمه واللعب هو العبث وفى هذا تصغير للدنيا وازدراء بها ومعنى الآية ان سرعة زوال الدنيا عن أهلها وتقلبهم فيها وموتهم عنها كما يلعب الصبيان ساعة ثم ينصرفون (وان الدار الآخرة لهى الحيوان) اى الحياة الدائمة الخالدة التى لاموت فيها (لو كانوا يعلمون) فناء الدنيا وبقاء الآخرة لما آثروا الفانى على الباقى * قوله عز وجل (فاذا ركبوا فى الفلك) معناه هم على ماوصفوا به من الشرك والعناد فاذا ركبوا فى الفلك وخافوا الغرق (دعوا الله مخلصين له الدين) اى تركوا الاصنام ولجؤا الى الله تعالى بالدعاء (فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون) اى عادوا الى ما كانوا عليه من الشرك والعناد وقيل كان أهل الجاهلية اذا ركبوا البحر حملوا الاصنام فاذا اشتد الريح ألقوها فى البحر وقالوا يارب يارب (ليكفروا بما آتيناهم) اى ليجحدوا نعمة الله فى اجابته اياهم ومعناه التهديد والوعيد (وليتمتعوا) معناه لافائدة لهم فى الاشراك الا التمتع بما يستمتعون به فى العاجلة ولانصيب لهم فى الآخرة (فسوف يعلمون) يعنى عاقبة أمرهم ففيه تهديد ووعيد * قوله عز وجل (أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) يعنى العرب يسبى بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون (أفبالباطل) يعنى الشيطان والاصنام (يؤمنون وبنعمة الله يكفرون) اى بمحمد صلى الله عليه وسلم والاسلام يكفرون (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) اى فزعم ان له شريكا فانه منزه عن الشركاء (اوكذب بالحق) اى بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين) معناه أما لهذا الكافر المكذب مأوى فى جهنم * قوله عز وجل (والذين جاهدوا فينا) معناه جاهدوا المشركين لنصر ديننا (لنهدينهم سبلنا) لنثيبنهم على ماقاتلوا عليه وقيل لنزيدنهم هدى وقيل لنوفقنهم لاصابة الطرق المستقيمة وهى التى توصل الى رضا الله تعالى قال سفيان بن عيينة اذا اختلف الناس فانظروا ماعليه اهل الثغور فان الله تعالى يقول والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقيل المجاهدة الصبر على الطاعات ومخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به وقال سهل بن عبد الله والذين جاهدوا فينا باقامة السنة

فقد قيل من عمل بما علم وفق لما لا يعلم وقيل ان الذى نرى من جهلنا بما لا نعلم انما هو لتقصيرنا فيما

وعن فضيل والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به وعن سهل والذين جاهدوا فى اقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة وعن ابن عطاء جاهدوا فى رضانا لنهدينهم الى الوصول الى محل الرضوان وعن ابن عباس جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا وعن الجنيد جاهدوا فى التوبة لنهدينهم سبل الاخلاص او جاهدوا فى خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا والانس بنا او جاهدوا فى طلبنا تحريا لرضانا لنهدينهم سبل الوصول الينا (وان الله لمع المحسنين) بالنصرة والمعونة فى الدنيا وبالثواب والمغفرة فى العقبى

(سورة الروم)

مكية وهى ستون او تسع وخمسون آية والاختلاف فى بضع سنين

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الم غلبت الروم) اى غلبت فارس الروم (فى أدنى الارض) اى فى أقرب ارض العرب لان الارض المعهودة عند العرب ارضهم والمعنى غلبوا فى أدنى ارض العرب منهم وهى اطراف الشام او ارادارضهم على اناية اللام مناب المضاف اليه اى فى ادنى ارضهم الى عدوهم

لنهدينهم سبل الجنة وقال ابن عباس والذين جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا (وان الله لمع المحسنين) اى بالنصرة والمعونة فى دنياهم والمغفرة فى عقباهم فى الآخرة وثوابهم الجنة والله أعلم

(تفسير سورة الروم)

مكية وهى ستون آية وثمانمائة وتسع عشرة كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة واربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

*قوله عز وجل (الم غلبت الروم فى أدنى الارض) سبب نزول هذه الآية على ماذكره المفسرون انه كان بين فارس والروم قتال وكان المشركون يودون ان تغلب فارس الروم لان فارسا كانوا مجوسا مثلهم والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب فبعث كسرى جيشا الى الروم واستعمل عليهم رجلا يقال له شهرمان وبعث قيصر رجالا وجيشا وأمر عليهم رجلا يدعى بخين فالتقيا باذرعات وبصرى وهى أدنى الشام الى أرض العرب والعجم فغلبت فارس الروم فبلغ ذلك المسلمين بمكة فشق عليهم وفرح كفار مكة وقالوا للمسلمين انكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وفارس أميون وقد ظهر اخواننا من أهل فارس على اخوانكم من الروم فانكم ان قاتلتمونا لنظهرن عليكم فانزل الله هذه الآيات فخرج ابو بكر الصديق الى كفار مكة فقال فرحتم بظهور اخوانكم فلا تفرحوا فوالله ليظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقام اليه ابى بن خلف الجمحى فقال كذبت فقال أنت اكذب ياعدو الله فقال اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه والمناحبة بالحاء المهملة القمار والمراهنة اى اراهنك على عشر قلائص منى وعشر قلائص منك فاذا ظهرت فارس على الروم غرمت واذا ظهرت الروم على فارس غرمت ففعلوا وجعلوا الاجل ثلاث سنين فجاء ابو بكر الى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك قبل تحريم القمار فقال النبى صلى الله عليه وسلم ماهكذا ذكرت انما البضع مابين الثلاثة الى التسع فزايده فى الخطر ومادده فى الاجل فخرج ابو بكر فلقى أبيا فقال لعلك ندمت فقال لا فتعال ازايدك فى الخطر وأمادك فى الاجل فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص الى تسع سنين فقال قد فعلت فلما خشى ابى بن خلف ان يخرج ابو بكر من مكة أتاه ولزمه وقال انى أخاف ان تخرج من مكة فاقم لى ضامنا كفيلا فكفله ابنه عبد الله بن ابى بكر فلما أراد أبى بن خلف ان يخرج الى أحد أتاه عبد الله بن ابى بكر فلزمه وقال والله لا أدعك حتى تعطينى كفيلا فاعطاه كفيلا ثم خرج الى أحد قال ثم رجع أبى بن خلف الى مكة ومات بها من جراحته التى جرحه النبى صلى الله عليه وسلم حين بارزه وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك على رأس سبع سنين من مناحبتهم وقيل كان يوم بدر وربطت الروم خيولهم بالمدائن وبنوا بالعراق مدينة وسموها رومية فقمر ابو بكر أبيا وأخذ مال الخطر من ورثته وجاء به للنبى صلى الله عليه وسلم وذلك قبل ان يحرم القمار فقال النبى صلى الله عليه وسلم تصدق به وكان سبب غلبة الروم فارسا على ماقال عكرمة وغيره ان شهرمان لما غلب الروم لم يزل يطؤهم ويخرب مدائنهم حتى بلغ الخليج فبينا أخوه فرحان جالس ذات يوم يشرب قال لاصحابه لقد رأيت كأنى جالس على سرير كسرى فبلغت كلمته كسرى فكتب الى شهرمان اذا أتاك كتابى فابعث الى برأس أخيك فرحان فكتب اليه ايها الملك انك لم تجد مثل فرحان ان له لنكاية وصولة فى العدو فلا تفعل فكتب اليه ان فى رجال فارس خلفا عنه فبعجل الى برأسه فراجعه فغضب كسرى ولم يجبه وبعث بريدا الى أهل فارس انى قد عزلت عنكم شهرمان واستعملت عليكم فرحان ثم بعث مع البريد صحيفة صغيرة وأمره فيها بقتل شهرمان وقال اذا ولى فرحان الملك وانقاد له أخوه فاعطه الصحيفة فلما وصل البريد الى شهرمان عرض عليه كتاب كسرى فلما قرأه

وهم) اى الروم (من بعد غلبهم) اى غلبة فارس اياهم وقرئ بسكون اللام فالغلب والغلب مصدران وقد أضيف المصدر الى المفعول
سيغلبون) فارس ولا وقف عليه لتعلق (فى بضع سنين) به وهو ما بين الثلاث الى العشرة قيل احتربت فارس والروم بين أذرعات
وبصرى فغلبت فارس الروم والملك بفارس يومئذ كسرى ابرويز فبلغ الخبر مكة فشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لان
فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل كتاب وفرح المشركون وشمتوا وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر
اخواننا على اخوانكم ولنظهرن نحن عليكم فنزلت فقال لهم ابو بكر والله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبى بن خلف
كذبت فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعلا الاجل ثلاث سنين فاخبر أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه
السلام زد فى الخطر وأبعد فى الاجل فجعلاها مائة قلوص الى تسع سنين ومات أبى من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهرت الروم
على فارس يوم الحديبية او يوم بدر فاخذ ابو بكر الخطر من ذرية أبى فقال عليه السلام تصدق ٤٧١ به وهذه آية بينة على صحة نبوته

قال سمعا وطاعة ونزل عن سرير الملك وأجلس عليه أخاه فرحان فدفع البريد الصحيفة الى فرحان فلما
قراها استدعى بأخيه شهرمان وقدمه ليضرب عنقه فقال له لا تعجل حتى اكتب وصيتى قال نعم فدعا
بسفط ففتحه وأعطاه ثلاث صحائف منه وقال كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت تريد قتلى بكتاب
واحد فرد فرحان الملك الى أخيه شهرمان فكتب الى قيصر ملك الروم اما بعد فان لى اليك حاجة لا تحملها
البريد ولا تبلغها الصحف فالقنى فى خمسين رومياً حتى ألقاك فى خمسين فارسيا فاقبل قيصر فى خمسمائة ألف
رومى وجعل يضع العيون بين يديه فى الطرق مخافة ان يريد ان يمكر به حتى أتاه عيونه فاخبروا انه ليس معه
الا خمسون فارسيا فلما التقيا ضربت لهما قبة فيها ديباج فدخلاها ومع كل واحد سكين ودعيا بترجمان
يترجم بينهما فقال شهرمان ان الذى خرب بلادك انا واخى بكيدنا وشجاعتنا وان كسرى حسدنا وأراد
ان يقتل أخى فابيت عليه ثم أمرانى بقتلى فابى عليه وقد خلعناه جميعا ونحن نقاتله معك فقال قد أصبتما
وأشار احدهما الى صاحبه ان السر بين اثنين فاذا جاوزهما فشا فقتلا الترجمان معا بسكينيهما فاديلت
الروم على فارس عند ذلك وغلبوهم وقتلوهم ومات كسرى وجاء الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوم الحديبية ففرح ومن كان معه من المسلمين بذلك فذلك قوله عز وجل الم غلبت الروم فى ادنى الارض
يعنى قرب أرض الشام الى فارس وقيل هى اذرعات وقيل الاردن وقيل الجزيرة (وهم من بعد غلبهم)
اى فارس لهم (سيغلبون) اى الروم لفارس (فى بضع سنين) البضع ما بين الثلاثة الى السبع وقيل الى التسع
وقيل ما دون العشرة (لله الامر من قبل ومن بعد) اى من قبل دولة الروم على فارس ومن بعدها فمن غلب
فبامر الله تعالى وقضائه وقدره (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) اى للروم على فارس وقيل
فرح النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وفرحوا بظهور اهل الكتاب
على اهل الشرك (ينصر من يشاء) اى بيده النصر ينصر من يشاء (وهو العزيز) الغالب (الرحيم)
اى بالمؤمنين قوله تعالى (وعد الله) اى وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس (لا يخلف الله وعده
ولكن أكثر الناس لا يعلمون) اى ان الله لا يخلف وعده ثم قال تعالى (يعلمون ظاهرا من الحيوة
الدنيا) يعنى امر معاشهم كيف يكسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وقال الحسن

وان القرآن من عند الله
لانها انباء عن علم الغيب
وكان ذلك قبل تحريم
القمار عن قتادة ومن
مذهب أبى حنيفة ومحمد
ان العقود الفاسدة كعقد
الربا وغيره جائزة فى دار
الحرب بين المسلمين
والكفار وقد احتجا على
صحة ذلك بهذه القصة
(لله الامر من قبل ومن
بعد) اى من قبل كل شئ
ومن بعد كل شئ او حين
غلبوا وحين يغلبون كانه
قيل من قبل كونهم
غالبين وهو وقت كونهم
مغلوبين ومن بعد كونهم
مغلوبين وهو وقت
كونهم غالبين يعنى ان
كونهم مغلوبين اولا
وغالبين آخرا ليس الا بامر
الله وقضائه وتلك الايام

نداولها بين الناس (ويومئذ) ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعد الله من غلبتهم (يفرح المؤمنون بنصر الله) وتغليبه من له كتاب
على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وقيل نصر الله هو اظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم
والباء يتصل بيفرح فيوقف على الله لا على المؤمنين (ينصر من يشاء وهو العزيز) الغالب على اعدائه (الرحيم) العاطف على أوليائه
(وعد الله) مصدر مؤكد لان قوله وهم من بعد غلبهم سيغلبون وعد من الله للمؤمنين فقوله وعد الله بمنزلة وعد الله المؤمنين وعدا (لا يخلف
الله وعده) بنصر الروم على فارس (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك (يعلمون) بدل من لا يعلمون وفيه بيان انه لا فرق بين عدم العلم
الذى هو الجهل وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا وقوله (ظاهرا من الحيوة الدنيا) يفيد ان للدنيا ظاهرا وباطنا
فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها وباطنها أنها مجاز الى الآخرة يتزود منها اليها بالطاعة وبالاعمال الصالحة وتنكير الظاهر
يفيد انهم لا يعلمون الا ظاهرا واحدا من جملة ظواهرها

(وهم عن الآخرة هم غافلون) هم الثانية مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبرهم الاولى وفيه بيان انهم معدن الغفلة عن الآ
ومقرها (اولم يتفكروا فى انفسهم) يحتمل ان يكون ظرفا كأنه قيل اولم يثبتوا التفكر فى أنفسهم اى فى قلوبهم الفارغة من
والتفكر لا يكون الا فى القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقوله اعتقده فى قلبك وأن يكون صلة للتفكر نحو تفك
الامر وأجال فيه فكره ومعناه على هذا اولم يتفكروا فى أنفسهم التى هى اقرب اليهم من غيرها من المخلوقات وهم اعلم باحو
منهم باحوال ماعداها فيتدبروا ما اودعها الله ظاهرا وباطنا من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الاهمال وانه لابد لها
الانتهاء الى وقت تجازى فيه على الاحسان احسانا وعلى الاساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك ان سائر الخلائق كذلك امرها جار
الحكمة فى التدبير وانه لابد لها من الانتهاء الى ذلك الوقت (ماخلق الله السموات والارض وما بينهما) متعلق بالقول المحذ
معناه أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول وقيل معناه فيعلموا الان فى الكلام دليلا عليه (الا بالحق وأجل مسمى) اى ماخلقهما
وعبثا بغير حكمة بالغة ولا لتبقى خالدة وانما خلقهما مقرونة بالحق محبوبة بالحكمة وبتقدير اجل مسمى لابد لهما من ان تن
اليه وهو قيام الساعة ووقت ٤٧٢ الحساب والثواب والعقاب الا ترى الى قوله افحسبتم انما خلقناكم عبثا و

الينا لا ترجعون كيف سمى تركهم غير راجعين اليه عبثا (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم) بالبعث والجزاء (لكافرون) لجاحدون وقال الزجاج اى لكافرون بلقاء ربهم (اولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) هو تقرير لسيرهم فى البلاد ونظرهم الى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الامم العاتية ثم وصف حالهم فقال (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض) وحرثوها (وعمروها) اى المدمرون (وكانوا) (أكثر) صفة مصدر محذوف وما مصدرية فى (مما عمروها) اى من عمارة اهل مكة (وجاءتهم رسلهم بالبينات) وتقف عليه لان الحذف اى فلم يؤمنوا فاهلكوا (فما كان الله ليظلمهم) فما كان تدميره اياهم ظلما لهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما اوجب تدميرهم (ثم كان عاقبة) بالنصب شامى وكوفى (الذين أساؤا السوأى) تأنيث الاسوا وهو الافعل الحسنى تأنيث الاحسن ومحلها رفع على انها اسم كان عند من نصب عاقبة على الخبر ونصب عند من رفعها والمعنى انهم عوقبوا فى الد بالدمار ثم كانت عاقبتهم السوأى الا انه وضع المظهر وهو الذين أساؤا موضع المضمر اى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات فى الآخرة النار التى أعدت للكافرين (أن كذبوا) لان كذبوا أو بان وهو يدل على ان معنى اساؤا كفروا (بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) بيان كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها (الله يبدأ الخلق) ينشئهم (ثم يعيده) يحييهم بعد الموت (ثم اليه ترجعون) وبالياء ابو عمرو وسهل (ويوم تقوم الساعة يبلس) ييأس ويتحير يقال ناظرته فابلس اذا لم ينبس ويئس من ان يحج (المجرمون) المشركون (ولم يكن لهم من شركائهم) من الذين عبدوهم من دون الله وكتب (شفعؤا) فى المصحف بواو قبل الالف كتب علماؤنا بنى اسرائيل وكذلك كتبت السوأى بالالف قبل الياء اثباتا للهمزة على صورة الحرف الذى منه حركتها

ان أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه لا يخطئ وهو لا يحسن يصلى وقيل لا يعلمون
بحقيقتها انما يعلمون ظاهرها وهو ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهو مضارها ومتاعبها وقيل يعل
وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) اى ساهون عنها لا يتفكرون
ولا يعلمون بها * قوله عز وجل (اولم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والارض وما بينهما
بالحق) يعنى لاقامة الحق (وأجل مسمى) اى لوقت معلوم اذا انتهت اليه فنيت وهو يوم القيامة (و
كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون اولم يسيروا فى الارض) اى يسافروا فيها (فينظروا كيف ك
عاقبة الذين من قبلهم) اى ينظروا الى مصارع الامم قبلهم فيعتبروا (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا
الارض) اى حرثوها وقلبوها للزراعة (وعمروها) يعنى الامم الخالية (أكثر مما عمروها) يعنى اهل
مكة (وجاءتهم رسلهم بالبينات) اى فلم يؤمنوا فاهلكهم الله (فما كان الله ليظلمهم) اى ينقصهم
حقوقهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) اى ببخس حقوقهم (ثم كان عاقبة الذين اساؤا) اى اساءوا
العمل فاستحقوا (السوأى) يعنى الخلة التى تسوءهم وهى النار وقيل السوأى اسم لجهنم ومعنى الآ
ان عاقبة الذين عملوا السوء النار (ان كذبوا) اى لانهم كذبوا وقيل معنى الآية ثم كان عاقبة المسي
ان حملتهم تلك السيئات على ان كذبوا (بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) قوله تعالى (الله يبدأ الخلق ثم
يعيده) اى خلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد الموت احياء (ثم اليه ترجعون) اى فيجزيهم باعمالهم (ويو
تقوم الساعة يبلس المجرمون) قيل معناه أنهم ييأسون من كل خير وقيل ينقطع كلامهم وحجته
وقيل يفتضحون (ولم يكن لهم من شركائهم) يعنى اصنامهم التى عبدوها (شفعؤا) اى يشفعون

(وكانوا بشركائهم كافرين) اى يكفرون بآلهتهم ويجحدونها اوكانوا فى الدنيا كافرين بسببهم (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) الضمير فى يتفرقون للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه حيث قال (فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة) اى بستان وهى الجنة والتنكير لابهام امرها وتفخيمه (يحبرون) يسرون يقال حبره اذا سره ٤٧٣ سرورا تهال له وجهه وظهر فيه أثره ثم اختلف فيه لاحتمال وجوه المسار فقيل يكرمون وقيل يحلون وقيل هو السماع فى الجنة (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) اى البعث (فأولئك فى العذاب محضرون) مقيمون لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم كقوله وما هم بخارجين منها لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل الى الوعد وينجى من الوعيد فقال (فسبحان الله) والمراد بالتسبيح ظاهره الذى هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير فى هذه الاوقات لما يتجدد فيها من نعمة الله الظاهرة أو الصلاة فقيل لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن فقال نعم وتلا هذه الآية وهو نصب على المصدر والمعنى تنزهوه عما لا يليق به أو صلوا لله (حين تمسون) صلاة المغرب والعشاء (وحين تصبحون) صلاة الفجر (وله الحمد فى السموات والارض) اعتراض ومعناه ان على المميزين

(وكانوا بشركائهم كافرين) اى جاحدين متبرئين يتبرؤن منها وتتبرأ منهم (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) اى يتميز اهل الجنة من أهل النار وقيل يتفرقون بعد الحساب اهل الجنة الى الجنة واهل النار الى النار فلا يجتمعون ابدا فهو قوله تعالى (فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة) اى فى جنة وقيل الروضة البستان الذى هو فى غاية النضارة (يحبرون) قال ابن عباس يكرمون وقيل ينعمون ويسرون والحبرة السرور وقيل فى معنى يحبرون هو السماع فى الجنة قال الاوزاعى ليس احد من خلق الله احسن صوتا من اسرافيل فاذا أخذ فى السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم وقال اذا أخذ فى السماع فلا يبقى فى الجنة شجرة الا وردته وسأل ابا هريرة رجل هل لاهل الجنة من سماع فقال نعم شجرة اصلها من ذهب وأغصانها من فضة وثمارها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت يبعث الله ريحا فيجاوب بعضها بعضا فما يسمع أحد احسن منه (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) اى البعث يوم القيامة (فأولئك فى العذاب محضرون) قوله تعالى (فسبحان الله) يعنى سبحوا لله ومعناه صلوا لله (حين تمسون) اى تدخلون فى المساء وهى صلاة المغرب والعشاء (وحين تصبحون) اى تدخلون فى الصباح وهى صلاة الصبح (وله الحمد فى السموات والارض) قال ابن عباس يحمده اهل السموات والارض ويصلون له (وعشيا) اى وصلوا لله عشيا يعنى صلاة العصر (وحين تظهرون) اى تدخلون فى الظهيرة وهى صلاة الظهر قال نافع بن الازرق لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن قال نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال جمعت الصلوات الخمس ومواقيتها واعلم انه انما خص هذه الاوقات بالتسبيح لان افضل الاعمال أدومها والانسان لا يقدر أن يصرف جميع اوقاته الى التسبيح لانه محتاج الى ما يعيشه من مأكول ومشروب وغير ذلك فخفف الله عنه العبادة فى غالب الاوقات وامره فى أول النهار ووسطه وآخره وفى أول الليل وآخره فاذا صلى العبد ركعتى الفجر فكأنما سبح قدر ساعتين وكذلك باقى الركعات وهى سبع عشرة ركعة مع ركعتى الفجر فاذا صلى الانسان الصلوات الخمس فى اوقاتها فكأنما سبح الله سبع عشرة ساعة من الليل والنهار بقى عليه سبع ساعات فى جميع الليل والنهار وهى مقدار النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيكون قد صرف جميع اوقاته فى التسبيح والعبادة

(فصل فى فضل التسبيح) * عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال سبحان الله وبحمده (٣) فى كل يوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت احد يوم القيامة بافضل مما جاء به الا احد قال مثل ما قال أو زاد عليه اخرجهما الترمذى وقال فيهما حسن صحيح (ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وهذا الحديث اخرجه فى صحيح البخارى (م) عن جويرية بنت الحرث زوج النبى صلى الله عليه وسلم رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم خرج ذات غداة من عندها وهى فى مسجدها فرجع بعد ما تعالى النهار فقال ما زلت فى مجلسك هذا منذ خرجت بعد قالت نعم قال لقد قلت بعدك اربع كلمات ثلاث مرار لو وزنت بكلماتك لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته (م) عن سعد بن ابى وقاص قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه

(٦٠ (خازن) ث) كلهم من اهل السموات والارض أن يحمدوه وفى السموات حال من الحمد (وعشيا) صلاة العصر وهو معطوف على حين تمسون وقوله عشيا متصل بقوله حين تمسون (وحين تظهرون) صلاة الظهر أظهر أى دخل فى وقت الظهيرة

قوله فى كل يوم ساقط من نسخة الطبع من الترمذى وفى بعض النسخ التى بايدينا من الخازن بدون كل

والقول الاكثر ان الصلوات الخمس فرضت بمكة (يخرج الحى من الميت) الطائر من البيضة أو الانسان من النطفة او المؤمن من الكافر
(و يخرج الميت من الحى) اى البيضة من الطائر أو النطفة من الانسان او الكافر من المؤمن والميت بالتخفيف فيهما مكى وشامى
عمرو وابو بكر وحماد و بالتشديد غيرهم (و يحيي الارض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (وكذلك تخرجون) تخرجون حين
وخلف اى ومثل ذلك الاخراج تخرجون من قبوركم والكاف فى محل النصب بتخرجون والمعنى ان الابداء والاعادة يتساويان فى
من هو قادر على اخراج الميت من الحى وعكسه روى ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ فسبحان الله
تمسون الى الثلاث وآخر سورة والصافات دبر كل صلاة كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء وقطر الامطار وورق الاشجار و
الارض فاذا مات أجرى له بكل حرف عشر حسنات فى قبره قال عليه السلام من قرأ حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون
قوله وكذلك تخرجون أدرك مافاته ٤٧٤ فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته (ومن آياته) ومن علا

ربو بيته وقدرته (أن خلقكم) اى أباكم (من تراب ثم اذا أنتم بشر) اى آدم وذريته (تنتشرون) تتصرفون فيما فيه معاشكم واذا للفاجأة وتقديره ثم فاجأتم وقت كونكم بشرا منتشرين فى الارض (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها) اى حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال أو من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الالف والسكون وما بين الجنسين المختلفين من التنافر يقال سكن اليه اذا مال اليه (وجعل بينكم مودة ورحمة) اى جعل بينكم التواد والتراحم بسبب الزواج وعن الحسن المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد وقيل المودة (ان للشابة والرحمة للعجوز وقيل المودة والرحمة من الله والفرك من الشيطان اى بغض المرأة زوجها و بغض الزوج المرأة (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فيعلمون ان قوام الدنيا بوجود التناسل (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم) اى اللغات اولا النطق وأشكاله (وألوانكم) كالسواد والبياض وغيرهما ولاختلاف ذلك وقع التعارف والا فلو تشاكلت واتفقت لوقع التباس والالتباس ولتعطلت المصالح وفى ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وهم على الكثرة التى لا يعلمها الا الله متفاوتون (ان فى ذلك لآيات للعالمين) جمع عالم و بكسر اللام حفص جمع عالم و يشهد للكسر قوله تعالى وما يعقلها الا العالمون (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) هذا من باب اللف وترتيبه اى ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار الا انه فصل بين القرينين الاولين بالقرينين الآخرين أو المراد منامكم فى الزمانين وابتغاؤكم فيهما والجمهور على الاول لتكرره فى القرآن وأسد المعانى ما دل عليه

وسلم فقال أيعجز أحدكم ان يكتسب كل يوم الف حسنة فسأله سائل من جلسائه قال كيف يكتسب
حسنة قال يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له الف حسنة و يحط عنه الف خطيئة وفى رواية غيره
عنه او يعين ألفا قوله تعالى (يخرج الحى من الميت و يخرج الميت من الحى) اى يخرج النطفة
الحيوان و يخرج الحيوان من النطفة وقيل يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة و
يخرج المؤمن من الكافر و يخرج الكافر من المؤمن (و يحيي الارض بعد موتها) اى بالمطر او
النبات منها (وكذلك تخرجون) اى مثل اخراج النبات من الارض تخرجون من القبور للبعث والجزاء
(ومن آياته أن خلقكم من تراب) اى خلق اصلكم وهو آدم من تراب (ثم اذا أنتم بشر تنتشرون)
تنبسطون فى الارض (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) اى جنسكم من بنى آدم وقيل من
حواء من ضلع آدم (لتسكنوا اليها) اى لتميلوا اللازواج وتألفوهن (وجعل بينكم مودة ورحمة) اى
بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادان و يتراحمان من غير سابقة معرفة ولا قرابة ولا سبب يوجب
التعاطف وما شئ أحب الى احدهما من الآخر من غير تراحم بينهما الا الزوجان (ان فى ذلك لآيات
يتفكرون) اى فى عظمة الله وقدرته (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم)
اختلاف اللغات العربية والعجمية وغيرهما وقيل اراد أجناس النطق واشكاله خالف بينها حتى لا
تسمع منطقين متفقين حتى لو تكلم جماعة من وراء حائط يعرف كل منهم بنطقه ونغمته لا يشبه صوت
صوت الآخر (وألوانكم) اى اسود وأبيض وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الالوان واشكال
رجل واحد ومن اصل واحد وهو آدم عليه السلام والحكمة فى اختلاف الاشكال والاصوات التعارف
اى ليعرف كل واحد بشكله وحليته وصورته فلو اتفقت الاصوات والصور وتشاكلت وكانت
واحدا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وليعرف صاحب الخلق من غيره والعدو
الصديق والقريب من البعيد فسبحان من خلق الخلق على ما اراد وكيف اراد وفى ذلك دليل على
القدرة وكمال العظمة (ان فى ذلك لآيات للعالمين) اى لعموم العلم فيهم (ومن آياته منامكم بالليل
وابتغاؤكم من فضله) اى منامكم بالليل للراحة وابتغاؤكم من فضله وهو طلب اسباب المعيشة

(ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) اى يسمعون سماع تدبر بآذان واعية (ومن آياته يريكم البرق) فى يريكم وجهان اضمار أن كما فى حرف ابن مسعود رضى الله عنه وانزال الفعل منزلة المصدر وبهما فسر المثل تسمع بالمعيدى خير من أن تراه اى ان تسمع او سماعك قوله (خوفا) من الصاعقة او من الاخلاف (وطمعا) فى الغيث أو خوفا للمسافر وطمعا للحاضر وهما منصوبان على المفعول له على تقدير حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه أى ارادة خوف وارادة طمع أو على الحال اى خائفين وطامعين (وينزل من السماء) وبالتخفيف مكى وبصرى (ماء) مطرا (فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) يتفكرون بعقولهم (ومن آياته أن تقوم) تثبت بلا عمد (السماء والارض بامره) اى باقامته وتدبيره وحكمته (ثم اذا دعاكم) للبعث (دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون) من قبوركم هذا كقوله يريكم فى ايقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كانه قال ومن آياته قيام السموات والارض واستمساكها بغير عمد ثم خروج الموتى من القبور اذا دعاهم دعوة واحدة يا أهل القبور اخرجوا والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف وانما عطف هذا على قيام السموات والارض بثم بيانا لعظم ما يكون من ذلك الامر واقتداره على مثله وهو أن يقول يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الاولين والآخرين الا قامت تنظر كما قال ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون واذا الاولى للشرط والثانية للمفاجأة وهى تنوب مناب الفاء فى جواب الشرط ومن الارض متعلق بالفعل لا بالمصدر وقولك دعوته من مكان كذا يجوز أن يكون مكانك ويجوز أن يكون مكان صاحبك

(ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) اى سماع تدبر واعتبار (ومن آياته يريكم البرق خوفا) اى للمسافر ليستعد للمطر (وطمعا) اى للمقيم ليستعد المحتاج اليه من اجل الزرع وتسوية طرق المصانع (وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) اى قدرة الله وانه القادر عليه (ومن آياته أن تقوم السماء والارض بامره) قال ابن عباس وابن مسعود قامتا على غير عمد وقيل يدوم قيامهما بامره (ثم اذا دعاكم دعوة من الارض) قال ابن عباس من القبور (اذا أنتم تخرجون) اى منها وقيل معنى الآية ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون من الارض (وله من فى السموات والارض كل له قانتون) اى مطيعون قال ابن عباس كل له مطيعون فى الحياة والبقاء والموت والبعث وان عصوا فى العبادة (وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده) اى يخلقهم أولا ثم يعيدهم بعد الموت للبعث (وهو أهون عليه) اى هو هين عليه وما من شئ عليه بعزيز وقيل معناه وهو أيسر عليه فان الذى يقع فى عقول الناس ان الاعادة تكون اهون من الانشاء وقيل هو أهون على الخلق وذلك لانهم يقومون بصيحة واحدة فيكون اهون عليهم من ان يكونوا نطفا ثم علقا ثم مضغا الى ان يصيروا رجالا ونساء وهو رواية عن ابن عباس (وله المثل الاعلى) اى الصفة العليا قال ابن عباس ليس كمثله شئ وقيل هو الذى لا اله الا هو (فى السموات والارض وهو) اى فى ملكه (العزيز الحكيم) اى فى خلقه * قوله عز وجل (ضرب لكم مثلا) اى بين لكم شبها بحالكم ذلك المثل (من أنفسكم) ثم بين المثل فقال تعالى (هل لكم مما ملكت أيمانكم) اى عبيدكم وامائكم (من شركاء فيما رزقناكم) اى من المال (فأنتم فيه سواء) اى هل

(وله من فى السموات والارض كل له قانتون) منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه أو مقرون بالعبودية (وهو الذى يبدؤ الخلق) اى ينشئهم (ثم يعيده) للبعث (وهو) اى البعث (أهون) أيسر (عليه) عندكم لان الاعادة عندكم أسهل من الانشاء فلم انكرتم الاعادة وأخرت الصلة فى قوله وهو أهون عليه وقدمت فى قوله هو على هين لقصد الاختصاص هناك وأما هنا فلا معنى للاختصاص وقال ابو عبيدة والزجاج وغيرهما الاهون بمعنى الهين فيوصف به الله عز وجل وكان ذلك على الله يسيرا كما قالوا الله أكبر اى كبير والاعادة فى نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس الى الانشاء او هو أهون على الخلق من الانشاء لان قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفا ثم علقا ثم مضغا الى تكميل خلقهم (وله المثل الاعلى فى السموات والارض) اى الوصف الاعلى الذى ليس لغيره وقد عرف به ووصف فى السموات والارض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وهو انه القادر الذى لا يعجز عن شئ من انشاء واعادة وغيرهما من المقدورات ويدل عليه قوله (وهو العزيز) اى القاهر لكل مقدور (الحكيم) الذى يجرى كل فعل على قضايا حكمته وعلمه وعن ابن عباس رضى الله عنهما المثل الاعلى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وعن مجاهد هو قول لا اله الا الله ومعناه وله الوصف الارفع الذى هو الوصف بالوحدانية ويعضده قوله (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) فهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن جعل له شريكا من خلقه ومن للابتداء كانه قال أخذ مثلا وانتزعه من أقرب شئ منكم وهى أنفسكم (هل لكم) معاشر الاحرار (مما ملكت أيمانكم) عبيدكم ومن للتبعيض (من شركاء) من مزيدة لتأكيد الاستفهام الجارى مجرى النفى ومعناه هل ترضون لانفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد ان يشارككم بعضهم (فيما رزقناكم) من الاموال وغيرها (فأنتم) معاشر الاحرار والعبيد (فيه) فى ذلك الرزق (سواء) من غير تفصلة بين حر وعبد يحكم مماليككم فى أموالكم كحكمكم

(تخافونهم) حال من ضمير الفاعل فى سواء اى متساوون خائفا بعضكم بعضا مشاركته فى المال والمعنى تخافون معاشر السادة عبيدكم فيما فلا تمضون فيها حكما دون اذنهم خوفا من لائمة تلحقكم من جهتهم (كخيفتكم أنفسكم) يعنى كما يخاف بعض الاحرار بعضا فيما هو مشترك بينهم فاذا لم ترضوا بذلك لانفسكم فكيف ترضون لرب الارباب ومالك الاحرار والعبيد ان تجعلوا بعض عبيده له شركاء (كذلك) موضع الكاف نصب ٤٧٦ اى مثل هذا التفصيل (نفصل الآيات) نبينها الان التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحه

(لقوم يعقلون) يتدبرون فى ضرب الامثال فلما لم ينزجروا أضرب عنهم فقال (بل اتبع الذين ظلموا انفسهم بما أشركوا كما قال الله تعالى ان الشرك لظلم عظيم (اهواءهم بغير علم) اى اتبعوا اهواءهم جاهلين (فمن يهدى من أضل الله) اى اضله الله تعالى (ومالهم من ناصرين) من العذاب (فأقم وجهك للدين) فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا وهو تمثيل لاقباله على الدين واستقامته عليه واهتمامه باسبابه فان من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه وسدد اليه نظره وقوم له وجهه (حنيفا) حال من المأمور او من الدين (فطرت الله) اى الزموا فطرة الله والفطرة الخلقة الاترى الى قوله لا تبديل لخلق الله فالمعنى انه خلقهم قابلين للتوحيد والاسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبا للعقل مساوقا للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر ومن غوى منهم فبما غواه

يشاركوكم عبيدكم فى اموالكم التى اعطيناكم (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) اى تخافون ان يشاركوكم فى اموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحر من شريكه الحر فى المال يكون بينهما أن ينفرد فيه بامره دون شريكه ويخاف الرجل شريكه فى الميراث وهو يجب ان ينفرد به وقال ابن عباس تخافونهم ان يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا فاذا لم تخافوا هذا من مماليككم ولا ترضوه لانفسكم فكيف ترضون ان تكون آلهتكم التى تعبدونها شركائى وهم عبيدى (كذلك نفصل الآيات) اى الدلالات والبراهين والامثال (لقوم يعقلون) اى ينظرون فى هذه الدلائل والامثال بعقولهم (بل اتبع الذين ظلموا) يعنى اشركوا بالله (أهواءهم) اى فى الشرك (بغير علم) جهلا بما يجب عليهم (فمن يهدى من أضل الله) اى عن طريق الهدى (ومالهم من ناصرين) اى مانعين يمنعونهم من عذاب الله قوله تعالى (فأقم وجهك للدين) يعنى اخلص دينك لله وقيل سدد عملك والوجه ما يتوجه الى الله تعالى به الانسان ودينه وعمله مما يتوجه اليه ليسدده قوله تعالى (حنيفا) اى مائلا اليه مستقيما عليه (فطرت الله) اى دين الله والمعنى الزموا فطرة الله (التى فطر الناس عليها) قال ابن عباس خلق الله الناس عليها والمراد بالفطرة الدين وهو الاسلام (فى) عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن مولود الا يولد على الفطرة ثم قال اقرؤا فطرت الله التى فطر الناس عليها الا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم زاد البخارى فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول ابو هريرة اقرؤا فطرت الله الآية ولهما فى رواية قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيرا قال الله اعلم بما كانوا عاملين (قوله مامن مولود يولد الا على الفطرة) يعنى على العهد الذى اخذ الله عليهم بقوله ألست بربكم قالوا بلى فكل مولود فى العالم على ذلك الاقرار وهى الحنيفية التى وضعت الخلقة عليها وان عبد غير الله قال الله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ولكن لا اعتبار بالايمان الفطرى فى احكام الدنيا وانما يعتبر الايمان الشرعى المأمور به المكتسب بالارادة والفعل الا ترى الى قوله فابواه يهودانه او ينصرانه فهو مع وجود الايمان الفطرى فانه محكوم له بحكم ابويه الكافرين وهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر يقول الله عز وجل انى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وحكى عن عبد الله بن المبارك انه قال فى معنى الحديث ان كل مولود يولد على فطرته اى خلقته التى خلقه الله عليها فى علم الله تعالى من السعادة والشقاوة فكل منهم صائر فى العاقبة الى ما فطر عليه وعامل فى الدنيا بالعمل المشاكل لها فمن امارات الشقاوة للطفل ان يولد بين يهوديين او نصرانيين فيحكم لانه على اعتقاد دينهما وقيل معناه ان كل مولود فى مبدا الخلقة على الفطرة اى على الجبلة السليمة والطبع المتهيئ لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومها الان هذا الدين موجود حسنه فى العقول السليمة وانما يعدل عنه من عدل الى غيره لانه من آفات التقليد ونحوه فمن سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره ثم تمثل لاولاد اليهود والنصارى واتباعهم لآبائهم والميل الى أديانهم فيزلون بذلك عن الفطرة السليمة والحجة المستقيمة بقوله

كما

شياطين الجن والانس ومنه قوله عليه السلام كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم ان يشركوا بى غيرى وقوله عليه السلام كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه وقال الزجاج معناه ان الله تعالى فطر الخلق على الايمان به على ما جاء فى الحديث ان الله عز وجل أخرج من صلب آدم كالذر وأشهدهم على أنفسهم بانه خالقهم فقال واذ أخذ ربك الى قوله قالوا بلى وكل مولود هو من تلك الذرية التى شهدت بان الله تعالى خالقها فمعنى فطرة الله دين الله (التى فطر الناس عليها) اى خلق

(لا تبديل لخلق الله) اى ما ينبغى ان تبدل تلك الفطرة او تغير وقال الزجاج معناه لا تبديل لدين الله ويدل عليه ما بعده وهو قوله (ذلك
ين القيم) اى المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) حقيقة ذلك (منيبين اليه) راجعين اليه وهو حال من الضمير فى الزموا وقوله
وه واقيموا ولا تكونوا معطوف على هذا المضمر ومن قوله فاقم وجهك لان الامر له عليه السلام امر لامته فكانه قال فاقيموا وجوهكم
نيبين اليه او التقدير كونوا منيبين دليله قوله ولا تكونوا (واتقوه واقيموا الصلوة) اى ادوها فى اوقاتها (ولا تكونوا من المشركين) ممن
شرك به غيره فى العبادة (من الذين) بدل من من المشركين باعادة الجار (فرقوا دينهم) جعلوه اديانا مختلفة لاختلاف اهوائهم فارقوا
ه وعلى وهى قراءة على رضى الله عنه اى تركوا دين الاسلام (وكانوا شيعا) فرقا كل واحدة تشايع امامها الذى اضلها (كل حزب)
نهم (بما لديهم فرحون) فرح بمذهبه مسرور يحسب باطله حقا (واذا مس الناس ضر) شدة من هزال او مرض او قحط او غير ذلك
عوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة) اى خلاصا من الشدة (اذا فريق منهم بربهم ٤٧٧ يشركون) فى العبادة (ليكفروا)

هذه لام كى وقيل لام الامر للوعيد (بما آتيناهم) من النعم (فتمتعوا) بكفرهم قليلا امر وعيد (فسوف تعلمون) وبال تمتعكم (أم أنزلنا عليهم سلطانا) حجة (فهو يتكلم) وتكلمه مجاز كما تقول كتابه ناطق بكذا وهذا مما نطق به القرآن ومعناه الشهادة كانه قال فهو يشهد بشركهم وبصحته (بما كانوا به يشركون) ما مصدرية اى بكونهم بالله يشركون او موصولة ويرجع الضمير اليها اى فهو يتكلم بالامر الذى بسببه يشركون او معنى الآية ام انزلنا عليهم ذا سلطان اى ملكا معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذى بسببه يشركون (واذا أذقنا

تنتج البهيمة بهيمة جمعاء اى كما تلد البهيمة بهيمة مستوية لم يذهب من بدنها شئ وقوله هل تحسون فيها
ن جدعاء يعنى هل تشعرون او تعلمون فيها من جدعاء وهى المقطوعة الاذن او الانف * قوله عز وجل
لا تبديل لخلق الله) اى لا تبدلوا دين الله وقيل معنى الآية الزموا فطرة الله ولا تبدلوا التوحيد بالشرك
وقيل معنى لا تبديل لخلق الله هو ما جبل عليه الانسان من السعادة والشقاوة فلا يصير السعيد شقيا ولا
شقى سعيدا وقيل الآية فى تحريم اخصاء البهائم (ذلك الدين القيم) اى المستقيم (ولكن أكثر الناس
لا يعلمون) * قوله عز وجل (منيبين اليه) اى فاقم وجهك أنت وأمتك منيبين اليه لان خطاب النبى صلى
الله عليه وسلم يدخل فيه الامة والمعنى راجعين الى الله تعالى بالتوبة ومقبلين اليه بالطاعة (واتقوه) اى
واتقوا ذلك خافوه (وأقيموا الصلوة) اى داوموا على ادائها فى اوقاتها (ولا تكونوا من المشركين من الذين
فرقوا دينهم وكانوا شيعا) اى صاروا فرقا مختلفة وهم اليهود والنصارى وقيل هم أهل البدع من هذه
الامة (كل حزب بما لديهم فرحون) اى راضون بما عندهم قوله تعالى (واذا مس الناس ضر) اى قحط
وشدة (دعوا ربهم منيبين اليه) اى مقبلين اليه بالدعاء (ثم اذا أذاقهم منه رحمة) اى خصبا ونعمة (اذا
فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم) اى ليجحدوا نعمة الله عليهم (فتمتعوا) فيه تهديد ووعيد
مخاطب به الكفار (فسوف تعلمون) اى حالكم فى هذه الآخرة (أم أنزلنا عليهم سلطانا) قال ابن عباس
حجة وعذرا وقيل كتابا (فهو يتكلم) اى ينطق (بما كانوا به يشركون) اى بشركهم ويأمرهم به (واذا
أذقنا الناس رحمة) اى الخصب وكثرة المطر (فرحوا بها) اى فرحوا وبطروا (وان تصبهم سيئة) اى جدب
وقلة مطر وقيل خوف وبلاء (بما قدمت أيديهم) من السيآت (اذا هم يقنطون) اى ييأسون من رحمة
الله وهذا خلاف وصف المؤمن فانه يشكر ربه عند النعمة ويرجوه عند الشدة (اولم يروا ان الله يبسط
الرزق لمن يشاء ويقدر ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) تقدم تفسيره * قوله عز وجل (فآت ذا القربى
حقه) اى من البر والصلة (والمسكين) اى حقه وهو التصدق عليه (وابن السبيل) اى المسافر وقيل هو
الضيف (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) اى يطلبون ثواب الله بما كانوا يعملون (واولئك هم المفلحون)
* قوله عز وجل (وما آتيتم) اى اعطيتم (من ربا ليربو فى أموال الناس) اى فى اجتلاب أموال الناس

ر رحمة) اى نعمة من مطر او سعة او صحة (فرحوا بها) بطروا بسببها (وان تصبهم سيئة) اى بلاء من جدب او ضيق او مرض (بما
مت أيديهم) بسبب شؤم معاصيهم (اذا هم يقنطون) من الرحمة واذا المفاجاة جواب الشرط نابت عن الفاء لتأخيرها فى التعقيب (اولم
روا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) انكر عليهم بانهم قد علموا بانه القابض الباسط فما لهم يقنطون
من رحمته ومالهم لا يرجعون اليه تائبين عن المعاصى التى عوقبوا بالشدة من أجلها حتى يعيد اليهم رحمته وما ذكر ان السيئة أصابتهم بما
مت أيديهم اتبعه ذكر ما يجب ان يفعل وما يجب ان يترك فقال (فآت ذا القربى) اعط قريبك (حقه) من البر والصلة (والمسكين
وابن السبيل) نصيبهما من الصدقة المسماة لهما وفيه دليل وجوب النفقة للمحارم كما هو مذهبنا (ذلك) اى ايتاء حقوقهم (خير للذين
يريدون وجه الله) اى ذاته اى يقصدون بمعروفهم اياه خالصا (واولئك هم المفلحون وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس) يريد
تعطيتم أكلة الربا من ربا ليربو فى أموالهم

(فلا يربوا عند الله) فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه وقيل هو من الربا الحلال اى وما تعطونه من الهدية لتأخذوا اكثر منها
عند الله لانكم لم تريدوا بذلك وجه الله (وما آتيتم من زكوة) صدقة (تريدون وجه الله) تبتغون به وجهه خالصا لا تطلبون به
ولا رياء ولا سمعة (فاولئك هم المضعفون) ذوو الاضعاف من الحسنات ونظير المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار أثبت
بالامد مكى اى وما غشيتموه من اعطاء رباء لتربوا مدنى اى لتزيدوا فى أموالهم وقوله فاولئك هم المضعفون التفات حسن لانه يفيد
كانه قيل من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين والمعنى المضعفون به لانه لابد له من ضمير يرجع الى ما الموصولة وقال الزجاج
فاولئك هم المضعفون اى فاهلها هم المضعفون اى هم الذين يضاعف لهم الثواب يعطون بالحسنة عشر امثالها ثم أشار الى عجز
فقال (الله الذى خلقكم) مبتدا ٤٧٨ وخبر (ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) اى هو المختص بالخلق والرزق والاماتة والاحياء

واجتذابها قيل فى معنى الآية هو الرجل يعطى غيره العطية ليثيبه أكثر منها فهو جائز حلال
لا يثاب عليها فى القيامة وهذا قوله (فلا يربوا عند الله) وكان هذا حراما على النبى خاصة لقوله تعالى
تستكثر اى لا تعط وتطلب أكثر مما اعطيت وقيل هو الرجل يعطى صديقه او قريبه ليكثر ماله
به وجه الله وقيل هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله لا لتبتغى
لا لوجه الله تعالى فلا يربو عند الله لانه لم يرد بعمله وجه الله (وما آتيتم من زكوة) اى اعطيتم من
(تريدون وجه الله) اى بتلك الصدقة (فاولئك هم المضعفون) اى يضاعف لهم الثواب فيعطون
عشر امثالها فالمضعف ذو الاضعاف من الحسنات قوله تعالى (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم
يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون) تقدم تفسيره فى
(ظهر الفساد فى البر والبحر) اى بسبب الشرك والمعاصى ظهر قحط المطر وقلة النبات فى البرارى
والمفاوز والقفار والبحر قيل المدائن والقرى التى هى على المياه الجارية والعرب تسمى المصر بحرا
اجدب البر وانقطعت مادة البحر وقيل البر ظهر الارض الامصار وغيرها والبحر هو المعروف وقيل
تؤثر فى البر تؤثر فى البحر بخلوا جواف الاصداف من اللؤلؤ وذلك لان الصدف اذا جاء المطر تفتح
وجه الماء وتفتح افواهها فما وقع فيه المطر صار لؤلؤا (بما كسبت أيدى الناس) اى بسبب
ذنوبهم وقال ابن عباس الفساد فى البر قتل أحد بنى آدم أخاه وفى البحر غصب الملك الجائر السفينة
كانت الارض خضرة مونقة لا يأتى ابن آدم شجرة الا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذبا وكان
البقر الغنم فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت الارض وشاكت الاشجار وصار ماء البحر ملحا وماتت
الحيوان بعضها بعضا وقيل ان الارض امتلأت ظلما وضلالة قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم
بعث رجع راجعون من الناس وقيل أراد بالناس كفار مكة (ليذيقهم بعض الذى عملوا) اى
الذى عملوا من الذنوب (لعلهم يرجعون) اى عن الكفر وأعمالهم الخبيثة (قل سيروا فى الارض فانظروا
كيف كان عاقبة الذين من قبل) اى لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية (كان أكثرهم مشركين)
فاهلكوا بكفرهم * قوله عز وجل (فاقم وجهك للدين القيم) اى لدين الاسلام (من قبل أن يأتى يوم
لا مرد له من الله) يعنى يوم القيامة لا يقدر أحد على رده من الخلق (يومئذ يصدعون) اى يتفرقون
الفريقين فقال تعالى (من كفر فعليه كفره) اى وبال كفره (ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون)

(من شركائكم) اى اصنامكم
التى زعمتم انهم شركاء الله
(من يفعل من ذلكم)
اى من الخلق والرزق
والاماتة والاحياء (من
شئ) اى شيأ من تلك
الافعال فلم يجيبوا عجزا
فقال استبعادا (سبحانه
وتعالى عما يشركون)
ومن الاولى والثانية
والثالثة كل واحدة منهن
مستقلة بتأكيد لتجهيل عبدتهم
(ظهر الفساد فى البر
والبحر) نحو القحط
وقلة الامطار والريح
فى الزراعات والربح فى
التجارات ووقوع الموتان
فى الناس والدواب وكثرة
الحرق والغرق ومحق
البركات من كل شئ (بما
كسبت أيدى الناس)
بسبب معاصيهم وشركهم
كقوله وما أصابكم من
مصيبة فبما كسبت أيديكم (ليذيقهم بعض الذى عملوا) اى ليذيقهم وبال
بعض أعمالهم فى الدنيا قبل ان يعاقبهم بجميعها فى الآخرة وبالنون عن قنبل (لعلهم يرجعون) عما هم عليه من المعاصى
تسبيب المعاصى لغضب الله ونكاله بقوله (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم
حيث أمرهم بان يسيروا فينظروا كيف اهلك الله الامم واذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم (فأقم وجهك للدين القيم) البليغ
الذى لا يتأتى فيه عوج (من قبل ان يأتى يوم لا مرد له) هو مصدر بمعنى الرد (من الله) يتعلق بيأتى والمعنى من قبل ان يأتى من
لا يرده أحد كقوله تعالى فلا يستطيعون ردها او بمرد على معنى لا يرده هو بعد ان يجىء به ولا يرده من جهته (يومئذ يصدعون
يتصدعون اى يتفرقون ثم اشار الى غناه عنهم فقال (من كفر فعليه كفره) اى وبال كفره (ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون

ون لانفسهم مايسوية لنفسه الذى يمهد لنفسه فراشه ويوطئه لئلا يصيبه فى مضجعه ما ينغص عليه مرقده من نتو وغيره والمعنى أنه
م الجنة بسبب أعمالهم فاضيف اليهم وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على ان ضرر الكفر لا يعود الا على الكافر ومنفعة
ان والعمل الصالح ترجع الى المؤمن لاتجاوزه (ليجزى) متعلق بيمهدون تعليل له وتكرير (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وترك
الى الصريح لتقرير انه لا يقع عنده الا المؤمن (من فضله) اى عطائه وقوله (انه لا يحب الكافرين) تقرير بعد تقرير على
والعكس (ومن آياته) اى ومن آيات قدرته (أن يرسل الرياح) هى الجنوب والشمال والصبا وهى رياح الرحمة وأما الدبور
العذاب ومنه قوله عليه السلام اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقد عدد الفوائد فى ارسالها فقال (مبشرات) اى ارسلها للبشارة
ت (وليذيقكم من رحمته) ولاذاقة الرحمة وهى نزول المطر وحصول الخصب الذى يتبعه والروح الذى مع هبوب الريح وزكاء
ض وغير ذلك وليذيقكم معطوف على مبشرات على المعنى كانه قيل ليبشركم وليذيقكم (ولتجرى الفلك) فى البحر عند هبوبها (بأمره)
تدبيره او بتكوينه كقوله انما أمره اذا أراد شيأ الآية (ولتبتغوا من فضله) بريد تجارة البحر (ولعلكم تشكرون) ولتشكروا نعمة
فيها (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات) اى فأتى بهم ٤٧٩ قوم وكفر بهم قوم ويدل على هذا

ون المضاجع ويسوونها فى القبور (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) قال ابن عباس
هم الله ثوابا أكثر من أعمالهم (انه لا يحب الكافرين) فيه تهديد ووعيد لهم قوله تعالى (ومن آياته
رسل الرياح مبشرات) اى تبشر بالمطر (وليذيقكم من رحمته) اى بالمطر وهو الخصب (ولتجرى
ك) اى بهذه الرياح (بأمره ولتبتغوا من فضله) معناه لتطلبوا رزقه بالتجارة فى البحر (ولعلكم
شكرون) اى هذه النعم قوله تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات) اى
لالات الواضحات على صدقهم (فانتقمنا من الذين أجرموا) يعنى انا عذبنا الذين كذبوهم (وكان
ا علينا نصر المؤمنين) اى مع انجائهم من العذاب ففيه تبشير للنبى صلى الله عليه وسلم بالظفر فى
اقبة والنصر على الاعداء عن أبى الدرداء قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ما من مسلم يرد عن
رض أخيه الا كان حقا على الله ان يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا هذه الآية وكان حقا علينا
م المؤمنين اخرجه الترمذى ولفظه من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة وقال
ديث حسن * قوله عز وجل (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا) اى تنشره (فيبسطه فى السماء
ف يشاء) يعنى مسيرة يوم او يومين او أكثر على ما يشاء (ويجعله كسفا) اى قطعا متفرقة (فترى
ق) اى المطر (يخرج من خلاله) اى من وسطه (فاذا أصاب به) اى بالودق (من يشاء من عباده
هم يستبشرون) اى يفرحون بالمطر (وان كانوا) اى وقد كانوا (من قبل ان ينزل عليهم من قبله
ين) اى آيسين (فانظر الى آثار رحمت الله) اى المطر والمعنى انظر الى حسن تأثيره فى الارض
وقوله تعالى (كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى) يعنى ان الذى أحيا الارض بعد
تها قادر على احياء الموتى (وهو على كل شئ قدير ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا) اى الزرع بعد

الاضمار قوله (فانتقمنا من الذين أجرموا) اى كفروا بالاهلاك فى الدنيا (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) اى وكان نصر المؤمنين حقا علينا بانجائهم مع الرسل وقد يوقف على حقا ومعناه وكان الانتقام منهم حقا ثم تبتدئ علينا نصر المؤمنين والاول اصح (الله الذى يرسل الرياح) الريح مكى (فتثير سحابا فيبسطه) اى السحاب (فى السماء) اى فى سمت السماء وشقها كقوله وفرعها فى السماء (كيف

ء) من ناحية الشمال او الجنوب او الدبور او الصبا (ويجعله كسفا) قطعا جمع كسفة اى يجعله منبسطا يأخذ وجه السماء مرة
يجعله قطعا متفرقة غير منبسطة مرة كسفا يزيد وابن ذكوان (فترى الودق) المطر (يخرج) فى التارتين جميعا (من خلاله) وسطه
ذا أصاب به) بالودق (من يشاء من عباده) يريد اصابة بلادهم وأراضيهم (اذا هم يستبشرون) يفرحون (وان كانوا من قبل أن ينزل
يهم) المطر (من قبله) كرر للتأكيد كقوله فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ومعنى التوكيد فيها الدلالة على ان عهدهم
مطر قد تطاول فاستحكم باسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك (لمبلسين) آيسين (فانظر الى آثار) شامى وكوفى غير أبى بكر
غيرهم أثر (رحمت الله) اى المطر (كيف يحيى الارض) بالنبات وأنواع الثمار (بعد موتها ان ذلك) اى الله (لمحيى الموتى) يعنى ان
ك القادر الذى يحيى الارض بعد موتها هو الذى يحيى الناس بعد موتهم فهذا استدلال باحياء الموات على احياء الاموات (وهو على كل
ئ قدير) اى وهو على كل شئ من المقدورات قادر وهذا من جملة المقدورات بدليل الانشاء (ولئن أرسلنا ريحا) اى الدبور (فرأوه) اى
رحمة الله لان رحمة الله هى الغيث وأثرها النبات ومن قرأ بالجمع رجع الضمير الى معناه لان معنى آثار الرحمة النبات واسم النبات يقع
على القليل والكثير لانه مصدر سمى به ما ينبت (مصفرا) بعد اخضراره وقال مصفرا الان تلك صفرة حادثة وقيل فراوا السحاب مصفرا

لان السحاب الاصفر لا يمطر واللام في لئن موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط وسدت مسد جوابي القسم والشرط (لظلوا) ومعنا
(من بعده يكفرون) اى من بعد اصفراره أو من بعد الاستبشار ذمهم الله تعالى بانه اذا حبس عنهم المطر قنطوا من رحمته و
أذقناهم على صدورهم مبلسين فاذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا فاذا أرسل ريحا فضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا
الله فهم في جميع هذه الاحوال على الصفة المذمومة وكان عليهم ان يتوكلوا على الله وفضله فقنطوا وأن يشكروا نعمته ويحمدو
ففرحوا وأن يصبروا على بلائه فكفروا (فانك لا تسمع الموتى) اى موتى القلوب اوهؤلاء في حكم الموتى فلا تطمع ان يقبلوا منك
تسمع الصم الدعاء) ولا يسمع الصم مكى (اذا ولوا مدبرين) فان قلت الاصم لا يسمع مقبلا اومدبرا فما فائدة هذا التخصيص قلت
كان مقبلا يفهم بالرمز والاشارة فاذا ولى لا يسمع ولا يفهم بالاشارة (وما أنت بهادى العمى) اى عمى القلوب وما أنت تهدى العمى
(عن ضلالتهم) اى لا يمكنك ان تهدى الاعمى الى طريق قد ضل عنه باشارة منك له اليه (ان تسمع) ما تسمع (الا من يؤمن با
مسلمون) منقادون لاوامر الله ٤٨٠ تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف) من النطف كقوله من ماء مهين (ثم جعل من بعد

قوة) يعنى حال الشباب
و بلوغ الاشد (ثم جعل
من بعد قوة ضعفا وشيبة)
يعنى حال الشيخوخة والهرم
(يخلق ما يشاء) من
ضعف وقوة وشباب
وشيبة (وهو العليم)
باحوالهم (القدير) على
تغييرهم وهذا الترديد في
الاحوال أبين دليل على
الصانع العليم القدير فتح
الضاد في الكل عاصم
وحمزة وضم غيرهما وهو
اختيار حفص وهما لغتان
والضم أقوى في القراءة
لما روى عن ابن عمر قال
قرأتها على رسول الله
صلى الله عليه وسلم من
ضعف فاقرأني من ضعف

الخضرة (لظلوا من بعده) اى من بعد اصفرار الزرع (يكفرون) اى يجحدون ما سلف من النعمة و
انهم يفرحون عند الخصب ولو أرسلت عذابا على زرعهم لجحدوا سالف نعمتى (فانك لا تسمع الموتى
تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن با
فهم مسلمون) تقدم تفسيره قوله تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف) اى بدأكم وانشأ
ضعف وقيل من ماء ذى ضعف وقيل هو اشارة الى احوال الانسان كان جنينا ثم طفلا مولودا وم
فهذه احوال غاية الضعف (ثم جعل من بعد ضعف قوة) اى من بعد ضعف الصغر شبابا وهو
القوة (ثم جعل من بعد قوة ضعفا) اى هرما (وشيبة) وهو تمام النقصان (يخلق ما يشاء) اى من الض
والقوة والشباب والشيبة وليس ذلك من أفعال الطبيعة بل بمشيئة الله وقدرته (وهو العليم) بتدبير
(القدير) على ما يشاء قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) اى يحلف المشركون (ما
اى فى الدنيا (غير ساعة) معناه انهم استقلوا أجل الدنيا لما عاينوا الآخرة وقيل معناه ما لبثوا فى قبو
غير ساعة (كذلك كانوا يؤفكون) اى يصرفون عن الحق فى الدنيا وذلك أنهم كذبوا فى قولهم ما
غير ساعة كما كذبوا فى الدنيا أن لا يبعثوا والمعنى ان الله أراد أن يفضحهم فحلفوا على شئ تبين لاهل الم
انهم كاذبون فيه وكان ذلك بقضاء الله وقدره ثم ذكر انكار المؤمنين عليهم كذبهم فقال تعالى (و
الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث) اى فيما كتب الله لكم فى سابق
من اللبث فى القبور وقيل معنى الآية وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله والايمان يعنى الذين يعلم
كتاب الله قالوا للمنكرين قد لبثتم الى يوم البعث اى فى قبوركم (فهذا يوم البعث) اى الذى كنتم تنكر
فى الدنيا (ولكنكم كنتم لا تعلمون) اى وقوعه فى الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن بدليل قوله تعا
(فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) اى لا تطلب منهم العتبى والرجوع فى الا

(ويوم تقوم الساعة) اى القيامة سميت بذلك لانها تقوم فى آخر ساعة من ساعات وقيل
الدنيا ولانها تقع بغتة كما تقول فى ساعة لمن تستعجله وجرت علما لها كالنجم للثريا (يقسم المجرمون) يحلف الكافرون ولا وقف
لان (ما لبثوا) فى القبور او فى الدنيا (غير ساعة) جواب القسم استقلوا مدة لبثهم فى القبور أو فى الدنيا لهول يوم القيامة وطول مقامهم
شدائدها أو ينسون أو يكذبون (كذلك كانوا يؤفكون) اى مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق الى الكذب فى الد
ويقولون ما هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين (وقال الذين أوتوا العلم والايمان) هم الانبياء والملائكة والمؤمنون (لقد لبثتم
كتاب الله) فى علم الله المثبت فى اللوح أو فى حكم الله وقضائه (الى يوم البعث) ردوا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ثم وص
ذلك بتقريعهم على انكار البعث بقولهم (فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم) فى الدنيا (لا تعلمون) انه حق لتفريطكم فى طلب الح
واتباعه والفاء لجواب شرط يدل عليه الكلام تقديره ان كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذى أنكرتموه (فيومئذ لا ينفع) ا
كوفى (الذين ظلموا) كفروا (معذرتهم) عذرهم (ولا هم يستعتبون) اى لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة من قولك استعتبنى فلان فأعتبته
اى استرضانى فأرضيته

(ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون) اى ولقد وصفنا لهم كل صفة كانها مثل فى غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم ولكنهم لقسوة قلوبهم اذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا جئتنا بزور وباطل (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) اى مثل ذلك الطبع وهو الختم يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتى يسموا المحققين مبطلين وهم أعرق خلق الله فى تلك الصفة (فاصبر) على أذاهم أو عداوتهم (ان وعد الله) بنصرتك على أعدائك واظهار دين الاسلام على كل دين (حق) لابد من انجازه والوفاء به (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) اى لا يحملنك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفة والعجلة فى الدعاء عليهم بالعذاب أو لا يحملنك على الخفة والقلق جزعا مما يقولون ويفعلون فانهم ضلال شاكون لا يستبدع منهم ذلك ولا يستخفنك بسكون النون عن يعقوب والله الموفق للصواب

(سورة لقمان) مكية وهى ثلاث أو أربع وثلاثون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)* (الم تلك آيات الكتاب الحكيم) ذى الحكمة او وصف بصفة الله عز وجل على الاسناد المجازى

قيل لا تطلب منهم التوبة التى تزيل الجريمة لانها لا تقبل منهم قوله تعالى (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) فيه اشارة الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون) يعنى ما أنتم الا على باطل وذلك على سبيل العناد فان قلت ما معنى توحيد الخطاب فى قوله ولئن جئتهم والجمع فى قوله ان أنتم الا مبطلون قلت فيه لطيفة وهى ان الله تعالى قال ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل ويمكن ان يقال معناه انكم كلكم أيها الرسل مبطلون (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) اى توحيد الله (فاصبر ان وعد الله حق) فى نصرك واظهارك على عدوك (ولا يستخفنك) اى لا يحملنك على الجهل وقيل لا يستخفن رأيك (الذين لا يوقنون) اى بالبعث والحساب والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده

(تفسير سورة لقمان)

مكية وهى أربع وثلاثون آية وخمسمائة وثمان واربعون كلمة وألفان ومائة وعشرة أحرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين) اى الذين يعملون الحسنات ثم ذكرهم فقال (الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) قوله تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) الآية قيل نزلت فى النضر بن الحرث بن كلدة وكان ينجر فيأتى الحيرة ويشترى أخبار العجم ويحدث بها قريشا ويقول ان محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار واخبار الاكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن فانزل الله هذه الآية وقيل هو شراء القينات والمغنيين ومعنى الآية ومن الناس من يشترى ذات لهو أو ذا لهو الحديث وروى البغوى باسناد الثعلبى عن ابى امامة رضى الله عنه قال

(هدى ورحمة) حالان من الآيات والعامل معنى الاشارة فى تلك حمزة بالرفع على ان تلك مبتدأ وآيات الكتاب خبره وهدى خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف اى هو أو هى هدى ورحمة (للمحسنين) للذين يعملون الحسنات المذكورة فى قوله (الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون) ونظيره قول أوس

الا لمعى الذى يظن بك الظـ
ـن كأن قد رأى وقد سمعا

أو للذين يعملون جميع ما يحسن ثم خص منهم

القائمين بهذه الثلاثة لفضلها (أولئك على هدى) مبتدا وخبر (من ربهم) صفة لهدى (وأولئك هم المفلحون) عطف عليه (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) نزلت فى النضر بن الحرث وكان يشترى اخبار الاكاسرة من فارس ويقول ان محمدا يقص طرفا من قصة عاد وثمود فانا أحدثكم باحاديث الاكاسرة فيميلون الى حديثه ويتركون استماع القرآن واللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعنى ولهو الحديث نحو السمر بالاساطير التى لا أصل لها والغناء وكان ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم يحلفان انه الغناء وقيل الغناء مفسدة للقلب منقدة للمال مسخطة للرب وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما من رجل يرفع صوته بالغناء الا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بارجلهما حتى يكون هو الذى يسكت والاشتراء من الشراء كما روى عن النضر أو من قوله اشتروا الكفر بالايمان اى استبدلوه منه واختاروه عليه ويختارون حديث الباطل على حديث الحق واضافة اللهو الى الحديث للتبيين بمعنى من لان اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبين الحديث والمراد بالحديث المنكر كما جاء فى الحديث الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش او للتبعيض

كانه قيل ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذى هو اللهو منه (ليضل) اى ليصد الناس عن الدخول فى الاسلام واستماع القرآن ليضل مكى وأبو عمرو أى ليثبت على ضلاله الذى كان عليه و يزيد فيه (عن سبيل الله) عن دين الاسلام والقرآن (بغير علم) اى جهلا منه بما عليه من الوزر به (و يتخذها) اى سبيل بالنصب كوفى غير أبى بكر عطفا على ليضل ومن رفع عطفه على يشترى (هزؤا) بسكون الزاى والهمزة حمزة و بضم الزاى بلا همز حفص وغيرهم بضم الزاى والهمزة (أولئك لهم عذاب مهين) اى يهينهم لا بهامه يقع على الواحد والجمع

اى النضر وأمثاله (واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا) أعرض عن تدبرها متكبرا نفسه عن الاصغاء الى القرآن (كأن لم يسمعها) يشبه حاله فى ذلك حال من لم يسمعها وهو حال من مستكبرا والاصل كانه والضمير ضمير الشأن (كأن فى أذنيه وقرا) ثقلا وهو حال من لم يسمعها أذنيه نافع (فبشره بعذاب أليم ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم) ولا وقف عليه لان (خالدين فيها) حال من الضمير فى لهم (وعد الله حقا) مصدران مؤكدان الاول مؤكد لنفسه والثانى مؤكد لغيره اذ لهم جنات النعيم فى معنى وعدهم الله جنات النعيم فاكد معنى الوعد وحقا يدل على معنى الثبات فاكد به معنى الوعد ومؤكدهما لهم جنات النعيم (وهو العزيز) الذى لا يغلبه شئ فيهين أعداءه بالعذاب المهين (الحكيم) بما يفعل فيثيب أولياءه بالنعيم المقيم (خلق السموات بغير عمد) جمع عماد (ترونها) الضمير للسموات وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام وفى مثل ذلك نزلت هذه الآية ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ومامن رجل يرفع صوته بالغناء الا بعث الله له شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بارجلهما حتى يكون هو الذى يسكت أخرجه الترمذى وهذا لفظه عن ابى امامة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قال لا تبيعوا القينات المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام وفى مثل هذا نزلت ومن الناس من يشترى لهو الحديث الآية * وعن ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الكلب وكسب المزمار وقال مكحول من اشترى جارية ضرابة ليمسكها الغنائها وضربها مقيم عليها حتى يموت لم أصل عليه ان الله تعالى يقول ومن الناس من يشترى لهو الحديث الآية وعن ابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه ومعنى يشترى يستبدل و يختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن وقال ابو الصهباء سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال هو الغناء والله الذى لا اله الا هو يرددها ثلاث مرات وقال ابراهيم النخعى الغناء ينبت النفاق فى القلب وقيل هو كل لهو ولعب وقيل هو الشرك (ليضل عن سبيل الله) اى عن دين الاسلام وهو القرآن (بغير علم) اى يفعله عن جهل وحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على الحق (و يتخذها هزوا) اى يتخذ آيات الله مزحا (أولئك) يعنى الذين هذه صفتهم (لهم عذاب مهين) تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا) اى لا يعبأ بها ولا يرفع لها رأسا (كأن لم يسمعها) اى يشبه حاله فى حال من لم يسمعها وهو سامع (كأن فى أذنيه وقرا) اى ثقلا ولا وقر فيهما (فبشره بعذاب أليم ان آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا) يعنى وعدهم الله ذلك وعدا حقا لا يخلف الميعاد (وهو العزيز الحكيم) قوله تعالى (خلق السموات بغير عمد) قيل ان السماء خلقت مبنية كالقبة مستوية وهو قول المفسرين وهى فى الفضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء فى بعض الجهات على بعض ليس ذلك الا بقدرة قادر مختار واليه الاشارة بقوله بغير عمد (ترونها) اى ليس لها شئ من الزوال من موضعها وهى ثابتة لا تزول وليس ذلك الا بقدرة الله تعالى وفى قوله ترونها وجهان احدهما راجع الى السموات اى ليست هى بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد الوجه الثانى انه راجع الى العمد ومعناه بغير عمد مرئية (وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم) اى لئلا تتحرك بكم (وبث فيها) اى فى الارض (من كل دابة) اى يسكنون فيها (وأنزلنا من السماء ماء) يعنى المطر وهو من انعام الله على عباده (فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) اى من كل صنف حسن (هذا) يعنى الذى ذكرت مما تعاينون (خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) اى آلهتكم التى تعبدونها (بل الظالمون فى ضلال مبين)

قوله بغير عمد كما تقول لصاحبك أتانا بلا سيف ولا رمح ترانى ولا محل لها من الاعراب لانها مستأنفة أو فى محل الجر صفة لعمد اى بغير عمد مرئية يعنى انه عمدها بعمد لا ترى وهى امسا كها بقدرته (وألقى فى الارض رواسى) جبالا ثوابت (أن تميد بكم) لئلا تضطرب بكم (وبث ونشر (فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج) صنف (كريم) حسن (هذا) اشارة الى ما ذكر من خلق (خلق الله) اى مخلوقه (فأروني ماذا خلق الذين من دونه) يعنى آلهتهم بكتهم بان هذه الاشياء العظيمة مما خلقه الله فأروني ماخلقت حتى استوجبوا عندكم العبادة (بل الظالمون فى ضلال مبين) أضرب عن تبكيتهم الى التسجيل عليهم بالتورط فى ضلال ليس بعده

ولقد آتينا لقمان الحكمة) وهو لقمان بن باعورا ابن أخت ايوب او ابن خالته وقيل كان من اولاد آزر وعاش ألف سنة وادرك داود (عليه السلام واخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال ألا اكتفي اذا كفيت وقيل خياطا او قيل نجارا او قيل راعيا وقيل كان قاضيا في بني اسرائيل وقال عكرمة والشعبي كان نبيا والجمهور على انه كان حكيما ولم يكن نبيا وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وهي الاصابة في القول والعمل وقيل تتلمذ لالف نبي وتتلمذ له ألف نبي وان في (أن اشكر لله) مفسرة والمعنى أي اشكر لله لان ايتاء الحكمة في معنى القول وقد نبه الله تعالى على ان الحكمة الاصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له حيث فسر ايتاء الحكمة بالحث على الشكر وقيل لا يكون الرجل حكيما حتى يكون حكيما في قوله وفعله ومعاشرته وصحبته وقال السري السقطي الشكر ان لا تعصي الله بنعمه وقال الجنيد ان لا ترى معه شريكا في نعمه وقيل هو الاقرار بالعجز عن الشكر والحاصل ان شكر القلب المعرفة وشكر اللسان الحمد وشكر الاركان الطاعة ورؤية العجز في الكل دليل قبول الكل (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) لان منفعته تعود اليه فهو يريد المزيد (ومن كفر) النعمة (فان الله غني) غير محتاج الى الشكر (حميد) حقيق بان يحمده وان لم يحمده أحد (واذ) اي واذكر اذ (قال لقمان لابنه) أنعم او اشكم (وهو يعظه يا بني) بالاسكان مكي يا بني حفص

وجل (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قيل هو لقمان بن باعورا بن ناحور بن تارخ وهو آزر وقيل ابن أخت ايوب وقيل كان ابن خالته وقيل انه عاش الف سنة حتى ادرك داود وقيل انه كان قاضيا في بني اسرائيل واتفق العلماء على انه كان حكيما ولم يكن نبيا الا عكرمة فانه قال كان نبيا وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وروى انه كان نائما نصف الليل فنودي يا لقمان هل لك أن تكون خليفة في الارض فتحكم بين الناس فاجاب الصوت فقال ان خيرني ربي قبلت العافية ولم اقبل البلاء وان عزم علي فسمعا وطاعة واني اعلم ان الله ان فعل بي ذلك أعانني وعصمني فقالت الملائكة بصوت يراهم يا لقمان قال ان الحاكم باشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان ان عدل فبالحري ان ينجو وان اخطأ الطريق أخطأ طريق الجنة ومن يكن في الدنيا ذليلا لا خير من أن يكون شريفا ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولم يصب الآخرة فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فاعطي الحكمة في منامه وهو يتكلم بها ثم نودي داود بعده فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان فهوي في الخطيئة غير مرة كل ذلك يغفر الله عنه وكان لقمان بوازر داود لحكمته وقيل كان لقمان عبدا حبشيا نجارا وقيل كان خياطا وقيل كان راعي غنم فروى انه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال ألست فلانا الراعي قال بلى قال فبم بلغت ما بلغت قال بصدق الحديث وأداء الامانة وترك ما لا يعنيني وقيل كان عبدا أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين وقيل خير السودان بلال بن رباح ومهجع مولى عمر ولقمان والنجاشي رابعهم * أوتي الحكمة والعقل والفهم وقيل العلم والعمل به ولا يسمى الرجل حكيما حتى يجمعهما وقيل الحكمة المعرفة والاصابة في الامور وقيل الحكمة شئ يجعله الله في القلب ينوره كما ينور البصر فيدرك المبصر قوله (أن اشكر لله) وذلك لان المراد من العلم العمل به والشكر عليه (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) اي عليه يعود نفع ذلك وكذلك كفرانه (ومن كفر) عليه يعود وبال كفره (فان الله غني) اي غير محتاج الى شكر الشاكرين (حميد) اي هو حقيق بان يحمد وان لم يحمده أحد قوله تعالى (واذ قال لقمان لابنه) قيل اسمه أنعم وقيل أشكم (وهو يعظه) وذلك لان أعلى مراتب الانسان أن يكون كاملا في نفسه مكملا لغيره فقوله ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله اشارة الى الكمال وقوله واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه اشارة الى التكميل لغيره وبدأ بالاقرب اليه وهو ابنه وبدأ في وعظه بالاهم وهو المنع من الشرك وهو قوله (يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) لان التسوية بين من يستحق العبادة وبين من لا يستحقها ظلم عظيم لانه وضع العبادة في غير موضعها * قوله عز وجل (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن) قال ابن عباس شدة بعد شدة وقيل ان المرأة اذا حملت توالى عليها ضعف والتعب والمشقة وذلك لان الحمل ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف والرضاعة ضعف (وفصاله في عامين) اي فطامه في سنتين (أن اشكر لي ولوالديك الي المصير) لما جعل الله بفضله

شكره في كل القرآن (لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) لانه تسوية بين من لا نعمة الا وهي منه ومن لا نعمة له أصلا (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن) اي حملته تهن وهنا على وهن اي تضعف ضعفا فوق ضعف اي يتزايد ضعفها ويتضاعف لان الحمل كلما ازداد أو عظم ازدادت ثقلا وضعفا (وفصاله في عامين) اي فطامه عن الرضاع لتمام عامين (أن اشكر لي ولوالديك) هو تفسير لقولنا اي وصيناه بشكرنا وبشكر والديه وقوله حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين اعتراض بين المفسر والمفسر لانه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الام وتعانيه من المشاق في حمله وفصاله هذه المدة الطويلة تذكيرا لحقها العظيم مفردا وعن ابن عيينة من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكرهما (الي المصير) اي مصيرك الي وحسابك علي

(وان جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم) اراد بنفي العلم به نفيه اى لا تشرك بي ماليس بشئ يريد الاصنام (فلا تطعهما
في الشرك (وصاحبهما في الدنيا معروفا) صفة مصدر محذوف اى صحابا معروفا حسنا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة (وا
سبيل من أناب الي) اى سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه وان كنت مأمورا بحسن مصاحبتهما في الدنيا وقال ابن
صاحب من ترى عليه أنوار خدمتي (ثم الي مرجعكم) اى مرجعك ومرجعهما (فانبئكم بما كنتم تعملون) فاجازيك على ا
وأجازيهما على كفرهما وقد اعترض بهاتين الآيتين على سبيل الاستطراد تأكيدا لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك
اناوصيناه بوالديه وأمرناه ان ٤٨٤ لا يطيعهما في الشرك وان جهدا كل الجهد لقبحه (يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل)

مدني والضمير للقصة
وأنث المثقال لاضافته
الى الحبة كما قال
* كما شرقت صدر القناة
من الدم *
وكان تامة والباقون
بالنصب والضمير للهيئة
من الاساءة والاحسان اى
ان كانت مثلا في الصغر
كحبة خردل (فتكن في
صخرة او في السموات او في
الارض) اى فكانت مع
صغرها في أخفى موضع
وأحرزه كجوف الصخرة
او حيث كانت في العالم
العلوي او السفلي والاكثر
على انها التي عليها الارض
وهي السجين يكتب فيها
أعمال الفجار وليست من
الارض (يأت بها الله)
يوم القيامة فيحاسب بها
عاملها (ان الله لطيف)
يتوصل علمه الى كل خفي
(خبير) عالم بكنهه او لطيف
باستخراجها خبير بمستقرها
(يا بني أقم الصلوة وأمر
بالمعروف وانه عن المنكر

للوالدين صورة التربية الظاهرة وهو الموجد والمربي في الحقيقة جعل الشكر بينهما فقال اشكر
ولوالديك ثم فرق فقال الى المصير يعني ان نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي عليك في الدنيا والآخرة و
لما أمر بشكره وشكر الوالدين قال الجزاء على وقت المصير الى قال سفيان بن عيينة في هذه الآية من
الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا للوالدين في ادبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين (
جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما) قال النخعي يعني ان طاعتهما واجبة فان
ذلك الى الاشراك بي فلا تطعهما في ذلك لانه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق (وصاحبهما في
معروفا) اى بالمعروف وهو البر والصلة والعشرة الجميلة (واتبع سبيل من أناب الي) اى
دين من أقبل الى طاعتي وهو النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه وقيل من أناب الي يعني ابا بكر
الصديق قال ابن عباس وذلك انه حين اسلم اتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن ابي وقاص و
الرحمن بن عوف وقالوا له قد صدقت هذا الرجل وآمنت به قال نعم انه صادق فآمنوا به ثم جلهم الى
صلى الله عليه وسلم حتى أسلموا فهؤلاء لهم سابقة الاسلام أسلموا بارشاد ابي بكر (ثم الي مرجعكم فانبئكم
كنتم تعملون يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل) وذلك ان ابن لقمان قال لابيه يا أبت ان
الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله قال يا بني انها اى الخطيئة ان تك مثقال حبة من خردل اى
الصغر (فتكن) اى مع صغرها (في صخرة) قال ابن عباس صخرة تحت الارضين السبع وهي التي
فيها أعمال الفجار وخضرة السماء منها وقيل خلق الله الارض على حوت وهو النون والحوت في
والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك وقيل على ظهر ثور وهو على صخرة وهي التي ذكر
ليست في الارض ولا في السماء فلذلك قال (او في السموات او في الارض) والصخرة على متن الريح و
على القدرة (يأت بها الله) معناه الله عالم بها قادر على استخراجها وهو قوله (ان الله لطيف) اى باستخرا
(خبير) اى بمكانها ومعنى الآية له الاحاطة بالاشياء صغيرها وكبيرها قيل ان هذه الكلمة آخر كلمة
لقمان فانشقت مرارته من هيبتها وعظمتها فماتت (يا بني أقم الصلوة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر و
على ما أصابك) من الاذى (ان ذلك من عزم الامور) يعني اقامة الصلاة والامر بالمعروف والنهي
المنكر والصبر على الاذى من الامور الواجبة التي أمر الله بها (ولا تصاعر) وقرئ تصعر (خدك للنا
قال ابن عباس لا تتكبر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك اذا كلموك وقيل هو الرجل يكون بين
وبينه محبة فيلقاك فتعرض عنه وقيل هو الذي اذا سلم عليه لوى عنقه تكبرا وقيل معناه لا تحتقر الفقير
فليكن الفقير والغني عندك سواء (ولا تمش في الارض مرحا) اى خيلاء (ان الله لا يحب كل مختال) في

واصبر على ما أصابك) في ذات الله تعالى اذا امرت بالمعروف ونهيت عن المنكر او على ما اصابك من المحن فانها (فخور)
تورث المنح (ان ذلك) الذي وصيتك به (من عزم الامور) اى مما عزمه الله من الامور اى قطعه قطع ايجاب والزام اى امر به امرا
وهو من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من معزومات الامور اى من مقطوعاتها ومفروضاتها وهذا دليل على ان هذه الطاعات
مأمورا بها في سائر الامم (ولا تصعر خدك للناس) اى ولا تعرض عنهم تكبرا تصاعر ابو عمرو ونافع وحمزة وعلي وهو بمعنى تصعر وال
داء يصيب البعير يلوي منه عنقه والمعنى أقبل على الناس بوجهك تواضعا ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المتكبرون (
تمش في الارض مرحا) اى تمرح مرحا او وقع المصدر موقع الحال اى مرحا او لا تمش لاجل المرح والاشر (ان الله لا يحب كل مختال)

ور) من يعدد مناقبه تطاولا (واقصد) القصد التوسط بين الغلو والتقصير (فى مشيك) اى اعدل فيه حتى يكون مشيا بين مشيين
ب دبيب المتماوتين ولا تثب وثوب الشطار قال عليه السلام سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن واما قول عائشة فى عمر رضى الله عنه كان
شى أسرع فانما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت وعن ابن مسعود رضى الله عنه كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب
صارى ولكن مشيا بين ذلك وقيل معناه وانظر موضع قدميك متواضعا (واغضض من صوتك) وانقص منه اى اخفض صوتك
انكر الاصوات) اى اوحشها (لصوت الحمير) لان اوله زفير وآخره شهيق كصوت أهل النار وعن الثورى صياح كل شئ تسبيح
الحمار فانه يصيح لرؤية الشيطان ولذلك سماه الله منكرا وفى تشبيه الرافعين اصواتهم بالحمير وتمثيل اصواتهم بالنهاق تنبيه على ان
الصوت فى غاية الكراهة يؤيده ماروى انه عليه السلام كان يحبه ان يكون الرجل خفيض الصوت ويكره ان يكون مجهور الصوت
واحد صوت الحمير ولم يجمع لانه لم يرد ان يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا ٤٨٥ الجنس حتى يجمع بل المراد ان كل

ور) اى على الناس (واقصد فى مشيك) اى ليكن فى مشيتك قصد بين الاسراع والتانى اما الاسراع
من الخيلاء واما التانى فهو ان يرى فى نفسه الضعف تزهدا وكلا الطرفين مذموم بل ليكن مشيك بين
كينة والوقار (واغضض) اى اخفض وقيل انقص (من صوتك ان أنكر) اى أقبح (الاصوات
صوت الحمير) لان اوله زفير وآخره شهيق وهما صوت أهل النار وعن الثورى فى هذه الآية قال صياح كل
تسبيح الا الحمار وقيل معنى الآية هو العطسة القبيحة المنكرة قال وهب تكلم لقمان بانى عشر الف
من الحكمة أدخلها الناس فى كلامهم وقضاياهم ومن حكمته قيل انه كان عبدا حبشيا فدفع
له مولاه شاة وقال له اذبحها وائتنى بأطيب مضغتين منها فاتاه باللسان والقلب ثم دفع اليه اخرى
وقال له اذبحها وائتنى باخبث مضغتين منها فاتاه باللسان والقلب فسأله مولاه فقال ليس شئ أطيب
منهما اذا طابا ولا أخبث منهما اذا خبثا وقال لقمان ليس مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس وقيل
لقمان اى الناس شر قال الذى لا يبالى ان يراه الناس مسيأ * قوله عز وجل (الم تروا ان الله سخر لكم ما فى
السموات وما فى الارض وأسبغ) اى أتم وأكمل (عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) قال ابن عباس النعمة
الظاهرة الاسلام والقرآن والباطنة ماستر عليكم من الذنوب ولم يعجل عليكم بالنقمة وقيل الظاهرة تسوية
الاعضاء وحسن الصورة والباطنة الاعتقاد بالقلب وقيل الظاهرة الرزق والباطنة حسن الخلق وقيل
الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة وقيل الظاهرة ظهور الاسلام والنصر على الاعداء والباطنة
الامداد بالملائكة وقيل الظاهرة اتباع الرسول والباطنة محبته (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم)
نزلت فى النضر بن الحرث وأبى بن خلف وامية بن خلف واشباههم كانوا يجادلون النبى صلى الله عليه
وسلم فى الله وفى صفاته بغير علم (ولا هدى ولا كتاب منير واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع
ما وجدنا عليه آباءنا) قال الله تعالى (اولو كان الشيطان يدعوهم) معناه أفيتبعونهم وان كان الشيطان
يدعوهم (الى عذاب السعير) * قوله عز وجل (ومن يسلم وجهه الى الله) اى يخلص لله دينه ويفوض
امره (وهو محسن) اى فى عمله (فقد استمسك بالعروة الوثقى) اى اعتصم بالعهد الاوثق الذى لا يخاف

جنس من الحيوان له صوت وانكر أصوات هذه الاجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده (الم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات) يعنى الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك (وما فى الارض) يعنى البحار والانهار والمعادن والدواب وغير ذلك (وأسبغ) وأتم (عليكم نعمه) مدنى وابو عمرو وسهل وحفص نعمته غيرهم والنعمة كل نفع قصد به الاحسان (ظاهرة) بالمشاهدة (وباطنة) ما لا يعلم الا بدليل ثم قيل الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه

ويروى فى دعاء موسى عليه السلام الهى دلنى على اخفى نعمتك على عبادك فقال أخفى نعمتى عليهم النفس وقيل تخفيف الشرائع
تضعيف الذرائع والخلق والخلق ونيل العطايا وصرف البلايا وقبول الخلق ورضا الرب وقال ابن عباس الظاهرة ما سوى من خلقك
باطنة ما ستر من عيوبك (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) نزلت فى النضر بن الحرث وقد مر فى الحج
واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير) معناه أيتبعونهم ولو
كان الشيطان يدعوهم اى فى حال دعاء الشيطان اياهم الى العذاب (ومن يسلم وجهه الى الله) عدى هنا بالى وفى بلى من أسلم وجهه لله
ولم فمعناه مع اللام انه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله اى خالصا له ومعناه مع الى انه سلم اليه نفسه كما يسلم المتاع الى الرجل اذا
اليه والمراد التوكل عليه والتفويض اليه (وهو محسن) فيما يعمل (فقد استمسك) تمسك وتعلق (بالعروة) هى ما يعلق به الشئ
الوثقى) تأنيث الاوثق مثل حال التوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بان استمسك باوثق عروة من حبل متين
من انقطاعه

(والى الله عاقبة الامور) اى هى صائرة اليه فيجازى عليها (ومن كفر) ولم يسلم وجهه لله (فلا يحزنك كفره) من حزن يحزنك نافع
أحزن اى لا يهمنك كفر من كفر (الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) فنعاقبهم على اعمالهم (ان الله عليم بذات الصدور) ان الله
ما فى صدور عباده فيفعل بهم على حسبه (نمتعهم) زمانا (قليلا) بدنياهم (ثم نضطرهم) نلجئهم (الى عذاب غليظ) شديد
الزامهم التعذيب وارهاقهم اياه باضطرار المضطر الى الشئ والغلظ مستعار من الاجرام الغليظة والمراد الشدة والثقل على المعذ
(ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله) الزام لهم على اقرارهم بان الذى خلق السموات والارض هو
وحده وانه يجب ان يكون له الحمد والشكر وان لا يعبد معه غيره ثم قال (بل أكثرهم لا يعلمون) أن ذلك يلزمهم واذا نبهوا عليه لم ينتبه
(لله ما فى السموات والارض ان الله هو الغنى) عن حمد الحامدين (الحميد) المستحق للحمد وان لم يحمدوه قال المشركون ان هذا اى الو
كلام سينفد فاعلم الله ان كلامه لا ينفد بقوله (ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله
والبحر بالنصب ابو عمرو و يعقوب عطفا على اسم أن وهو ما والرفع على محل أن ومعمولها اى ولو ثبت كون الاشجار

أقلاما وثبت البحر ممدودا بسبعة أبحر او على الابتداء والواو للحال على معنى ولو أن الاشجار أقلام فى حال كون البحر ممدودا وقرئ يمده وكان مقتضى الكلام أن يقال ولو أن الشجر اقلام والبحر مداد لكن أغنى عن ذكر المداد قوله يمده لانه من قولك مد الدواة وأمدها جعل البحر الاعظم بمنزلة الدواة وجعل الابحر السبعة مملوءة مدادا فهى تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع والمعنى ولو أن أشجار الارض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الاقلام وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته ونفدت الاقلام والمداد كقوله قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى فان قلت زعمت ان قوله والبحر يمده حال فى أحد وجهى الرفع وليس فيه ضمير راجع الى ذى الحال قلت هو كقولك جئت والجيش مصطف وما اشبه ذلك من الاحوال التى حكمها حكم الظروف وانما ذكر شجرة على التوحيد لانه أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة الا وقد بريت أقلاما واوثر الكلمات وهى جمع قلة على الكلم وهى جمع كثرة لان معناه ان كلماته لا تفى بكتبتها البحار فكيف بكلمه (ان الله عزيز) لا يعجزه شئ (حكيم) لا يخرج عن علمه وحكمته شئ فلا تنفد كلماته وحكمه (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) الا كخلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة فحذف للعلم به اى سواء فى قدرته القليل والكثير فلا يشغله شأن عن شأن (ان الله سميع) لقول المشركين انه لا بعث (بصير) باعمالهم فيجازيهم (الم تر ان الله يولج الليل فى النهار) يدخل ظلمة الليل فى ضوء النهار اذا أقبل الليل (ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر) لمنافع العباد (كل) اى كل واحد من الشمس والقمر (يجرى) فى فلكه ويقطعه (الى أجل مسمى) الى يوم القيامة او الى وقت معلوم الشمس الى آخر السنة والقمر الى آخر الشهر (وان الله بما تعملون خبير) وبالياء عياش دل أيضا بتعاقب الليل والنهار

عهده ولا يخاف انقطاعه و يرتقى بسببه الى أعلى المراتب والغايات (والى الله عاقبة الامور) اى مصير
جميع الاشياء اليه (ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور)
اى لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم قوله تعالى (نمتعهم قليلا) اى نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا الى انقضاء
آجالهم (ثم نضطرهم) اى نلجئهم ونردهم (الى عذاب غليظ) الى النار فى الآخرة (ولئن سألتهم من خلق
السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون لله ما فى السموات والارض ان الله هو
الغنى الحميد) تقدم تفسيره قوله تعالى (ولو ان ما فى الارض من شجرة أقلام) قال المفسرون لما نزلت بمكة
و يسئلونك عن الروح الآية وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا يا محمد
بلغنا انك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا أتعنينا ام قومك فقال عليه الصلاة والسلام كلا قد عنيت
قالوا الست تتلو فيما جاءك انا اوتينا التوراة فيها علم كل شئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى فى علم
الله قليل وقد أتاكم الله بما ان عملتم به انتفعتم به قالوا كيف تزعم هذا وانت تقول ومن يؤت الحكمة فقد
أوتى خيرا كثيرا فكيف يجتمع علم قليل مع خير كثير فانزل الله هذه الآية فعلى هذا تكون هذه الآية
مدنية وقيل ان اليهود أمروا وفد قريش ان يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم و يقولوا له ذلك وهو بمكة
وقيل ان المشركين قالوا ان القرآن وما يأتى به محمد يوشك ان ينفد فينقطع فانزل الله تعالى ولو ان ما فى
الارض من شجرة اقلام اى فبريت اقلاما وقيل بعدد كل شجرة قلم (والبحر يمده) اى يزيده و ينصب
اليه (من بعده سبعة أبحر) اى مدادا والخلائق يكتبون به كلام الله (ما نفدت كلمات الله) لانها لا نهاية
لها (ان الله عزيز حكيم) قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) اى الا كخلق نفس واحدة
و بعثها لا يتعذر عليه شئ (ان الله سميع) اى لاقوالكم (بصير) باعمالكم (الم تر ان الله يولج الليل فى النهار
و يولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى الى أجل مسمى وان الله بما تعملون خبير)

زيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين في فلكيهما على تقدير وحساب وباحاطته بجميع أعمال الخلق على عظم قدرته وكمال حكمته
ذلك بان الله هو الحق وان ما يدعون) بالياء عراقي غير ابي بكر (من دونه الباطل وان الله هو العلي الكبير) اي ذلك الوصف الذي
صف به من عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الاحياء القادرون العالمون فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله انما هو
سبب انه هو الحق الثابت الالهية وان من دونه باطل الالهية وانه هو العلي الشان الكبير السلطان (الم تر ان الفلك) وقرئ الفلك وكل
فعل يجوز فيه فعل كما يجوز في كل فعل فعل (تجري في البحر بنعمت الله) باحسانه ورحمته او بالريح لان الريح من نعم الله (ليريكم من
آياته) عجائب قدرته في البحر اذا ركبتموها (ان في ذلك لآيات لكل صبار) على بلائه (شكور) لنعمائه وهما صفتا

ذلك بان الله هو الحق) اي ذلك الذي هو قادر على هذه الاشياء التي ذكرت هو الحق المستحق للعبادة (وان
ما يدعون من دونه الباطل) اي لا يستحق العبادة (وان الله هو العلي) اي في صفاته له الصفات العليا
والاسماء الحسنى (الكبير) في ذاته لانه أكبر من كل كبير قوله تعالى (ألم تر أن الفلك) اي السفن والمراكب
تجري في البحر بنعمت الله) اي ذلك من نعمة الله عليكم (ليريكم من آياته) اي من عجائب صنائعه (ان
في ذلك لآيات لكل صبار) اي على ما أمر الله (شكور) لانعامه (واذا غشيهم موج كالظلل) اي
كالجبال وقيل كالسحاب شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها (دعوا الله مخلصين له الدين) معناه ان
الانسان اذا وقع في شدة ابتهل الى الله بالدعاء وترك كل من عداه ونسي جميع ما سواه فاذا نجاه من تلك
الشدة فمنهم من يبقى على تلك الحالة وهو المقتصد وهو قوله تعالى (فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد)
اي عدل موف في البر بما عاهد عليه الله في البحر من التوحيد والثبوت على الايمان وقيل نزلت في عكرمة
بن ابي جهل وذلك انه هرب عام الفتح الى البحر فجاءهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن انجانا الله من هذا
لارجعن الى محمد صلى الله عليه وسلم ولاضعن يده في يدي فسكت الريح ورجع عكرمة الى مكة وأسلم
وحسن اسلامه ومنهم من لم يوف بما عاهد وهو المراد بقوله (وما يجحد بآياتنا الا كل ختار) اي غدار
كفور) اي جحود لا نعمنا عليه قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم) اي خافوا ربكم (واخشوا
يوما) اي خافوا (يوما لا يجزي) اي لا يقضي ولا يغني (والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ) قيل
معنى الآية ان الله ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد فنبه بالاعلى على الادنى
وبالادنى على الاعلى فالوالد يجزي عن ولده لكمال شفقته عليه والولد يجزي عن والده لما له من حق
التربية وغيرها فاذا كان يوم القيامة فكل انسان يقول نفسي نفسي ولا يهتم بقريب ولا بعيد كما قال ابن
عباس كل امرئ تهمه نفسه (ان وعد الله حق) قيل انه تحقيق اليوم معناه اخشوا يوما هذا شأنه وهو
كائن لوعد الله به ووعده حق وقيل الآية تحقيق بعدم الجزاء يعني لا يجزي والد عن ولده في ذلك اليوم
والقول الاول أحسن وأظهر (فلا تغرنكم الحيوة الدنيا) اي لا نها فانية (ولا يغرنكم بالله الغرور)
يعني الشيطان قال سعيد بن جبير يعمل بالمعاصي ويتمنى المغفرة قوله تعالى (ان الله عنده علم الساعة)
الآية نزلت في الحرث بن عمرو بن حارثة بن حصة من أهل البادية أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله
عن الساعة ووقتها وقال ان أرضنا أجدبت فقل لي متى ينزل الغيث وتركت امرأتي حبلى فمتى تلد ولقد
علمت أين ولدت فبأي أرض أموت فانزل الله هذه الآية (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال مفاتيح الغيب خمس ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري

المؤمن فالايمان نصفان
نصفه شكر ونصفه صبر
فكانه قال ان في ذلك
لآيات لكل مؤمن (واذا
غشيهم) اي الكفار
(موج كالظلل) الموج
يرتفع فيعود مثل الظلل
والظلة كل ما اظلك من
جبل او سحاب او غيرهما
(دعوا الله مخلصين له
الدين فلما نجاهم الى البر
فمنهم مقتصد) اي باق على
الايمان والاخلاص
الذي كانه منه ولم يعد
الى الكفر او مقتصد في
الاخلاص الذي كان عليه
في البحر يعني ان ذلك
الاخلاص الحادث عند
الخوف لا يبقى لاحد قط
والمقتصد قليل نادر (وما
يجحد بآياتنا) اي
بحقيقتها (الا كل ختار)
غدار والختر اقبح الغدر
(كفور) لربه (يا أيها
الناس اتقوا ربكم واخشوا

ولا يجزي والد عن ولده) لا يقضي عنه شيأ والمعنى لا يجزي فيه فحذف (ولا مولود هو جاز عن والده شيأ) وارد على طريق من التوكيد
يرد عليه ما هو معطوف عليه لان الجملة الاسمية آكد من الجملة الفعلية وقد انضم الى ذلك قوله هو وقوله مولود والسبب في ذلك
ان الخطاب للمؤمنين وعليتهم قبض آبائهم على الكفر فاريد حسم اطماعهم ان ينفعوا آباءهم بالشفاعة في الآخرة ومعنى التأكيد
في لفظ المولود ان الواحد منهم لو شفع للاب الادنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلا ان يشفع لاجداده اذ الولد يقع على الولد وولد الولد
بخلاف المولود فانه لمن ولد منك كذا في الكشاف (ان وعد الله) بالبعث والحساب والجزاء (حق فلا تغرنكم الحيوة الدنيا) بزينتها فان
نعيمها دانية ولذتها فانية (ولا يغرنكم بالله الغرور) الشيطان او الدنيا او الامل (ان الله عنده علم الساعة) اي وقت قيامها

(وينزل) بالتشديد شامى ومدنى وعاصم وهو عطف على ما يقتضيه الظرف من الفعل تقديره ان الله يثبت عنده علم الساعة و (الغيث) فى ابانه من غير تقديم ولا تأخير (ويعلم ما فى الارحام) اذكرام أنثى وتام أم ناقص (وما تدرى نفس) برة او فاجرة (ماذا تكسب غدا) من خير او شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شرا او عازمة على شر فعملت خيرا (وما تدرى نفس بأى ارض تموت) اى تموت وربما اقامت بأرض وضربت اوتادها وقالت لا ابرحها فترمى بها مرامى القدر حتى تموت فى مكان لم يخطر ببالها روى ان الموت مر على سليمان فجعل ينظر الى رجل من جلسائه فقال الرجل من هذا قال له ملك الموت قال كانه يريدنى وسأل سليمان عليه السلام ان يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظرى اليه تعجبا منه لانى امرت أن اقبض روحه بالهند وهو عندك وجعل العلم لله والدراية للعبيد لما فى الدراية من معنى الختل والحيلة والمعنى انها لا تعرف وان أعملت حيلها فيما يختص بها ولا شئ أخص بالانسان من كسبه وعاقبته فاذا لم يكن له طريق الى معرفتهما كان معرفة ما عداهما ا

وأما المنجم الذى يخبر بوقت الغيث والموت فانه يقول بالقياس والنظر فى الطالع وما يدرك بالدليل لا يكون غيبا على انه مجرد الظن والظن غير العلم وعن النبى صلى الله عليه وسلم مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب ورأى المنصور فى منامه صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره فاشار باصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنوات وبخمسة أشهر وبخمسة أيام فقال ابو حنيفة رضى الله عنه هو اشارة الى هذه الآية فان هذه العلوم الخمسة لا يعلمها الا الله (ان الله عليم) بالغيوب (خبير) بما كان وبما يكون وعن الزهرى رضى الله تعالى عنه أكثروا قراءة سورة لقمان فان فيها أعاجيب وما والله اعلم

نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير ومعنى الآية ان الله عنده علم الساعة فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة فى أى سنة او اى شهر او اى يوم ليلا أو نهارا (وينزل الغيث) فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلا او نهارا الا الله (ويعلم ما فى الارحام) اذ كرام أنثى أحمر أسود تام الخلقة أم ناقص (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) من خير او شر (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) اى ليس أحد من الناس يعلم أين مضجعه من الارض فى بر او بحر فى سهل أو جبل (ان الله عليم) اى بهذه الاشياء وبغيرها (خبير) اى بيواطن الاشياء كلها ليس علمه محيطا بالظاهر فقط بل هو محيط بالظاهر والباطن قال ابن عباس هذه الخمسة لا يعلمها ملك مقرب ولا نبى مصطفى فمن ادعى انه يعلم شيأ من هذه فانه كفر بالقرآن لانه خالفه والله تعالى أعلم بمراده واسرار كتابه

(تفسير سورة السجدة)

وهى مكية قال عطاء الا ثلاث آيات من قوله أفمن كان مؤمنا وهى تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية وثلثمائة وثمانون كلمة وألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفا والله تعالى أعلم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه) اى لا شك فيه انه (من رب العالمين ام يقولون) بل يقولون يعنى المشركين (افتراه) يعنى اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه (بل هو الحق) اى القرآن (من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) يعنى العرب كانوا أمة أمية لم يأتهم نبى قبل محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس رضى الله عنهما ذلك فى الفترة التى كانت بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم فان قلت اذا لم يأتهم رسول لم تقم عليهم حجة قلت أما قيام الحجة بالشرائع التى لا يتوصل علمها الا من جهة الرسل فلا وأما قيام الحجة بمعرفة الله وتوحيده فنعم لان معهم أدلة العقل الموصلة الى ذلك فى كل زمان (لعلهم يهتدون) يعنى تنذرهم راجيا اهتداءهم (الله الذى خلق السموات والارض

مكية وهى ثلاثون آية مدنى وكوفى وتسع وعشرون آية بصرى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) على انها اسم السورة مبتدأ وخبره (تنزيل الكتاب) وان جعلتها تعديد اللحروف ارتفع تنزيل بانه خبر مبتدا محذوف او هو مبتدأ (لا ريب فيه) او يرتفع بالابتداء وخبره (من رب العالمين) ولا ريب فيه اعتراض لا محل له والضمير فى فيه راجع الى مضمون الجملة كما قيل لا ريب فى ذلك اى فى كونه منزلا من رب العالمين لانه معجز للبشر ومثله أبعد شئ من الريب ثم اضرب عن ذلك الى قوله (ام يقولون افتراه) اى اختلقه محمد لان ام هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة معناه بل أيقولون افتراه انكارا لقولهم وتعجيبا منهم لظهور امره فى عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه (بل هو الحق) ثم اضرب عن الانكار الى اثبات انه الحق (من ربك) ولم يفتره محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوا تعنتا وجهلا (لتنذر قوما) اى العرب (ما أتاهم من نذير من قبلك) ما النفى والجملة صفة لقوما (لعلهم يهتدون) على الترجى من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان لعله يتذكر على الترجى من موسى وهرون (الله الذى خلق السموات والارض

وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش) استولى عليه باحداثه (مالكم من دونه) من دون الله (من ولي ولا شفيع) اى اذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لانفسكم وليا اى ناصرا ينصركم ولا شفيعا يشفع لكم (افلا تتذكرون) تتعظون بمواعظ الله (يدبر الامر) اى امر الدنيا (من السماء الى الارض) الى ان تقوم الساعة (ثم يعرج اليه) ذلك الامر كله اى يصير اليه ليحكم فيه (في يوم كان مقداره الف سنة) وهو يوم القيامة (مما تعدون) من ايام الدنيا ولا تمسك للمشبهة بقوله اليه في اثبات الجهة لان معناه الى حيث يرضاه اوامره كما لا تثبت

وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع افلا تتذكرون) تقدم تفسيره قوله تعالى (يدبر الامر) اى يحكم الامر وينزل القضاء والقدر وقيل ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام (من السماء الى الارض ثم يعرج) اى يصعد (اليه) جبريل بالامر (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) يعني مسافة ما بين السماء والارض خمسمائة سنة فيكون مقدار نزوله الى الارض وصعوده الى السماء في مقدار ألف سنة لو ساره احد من بني آدم وجبريل ينزل ويصعد في مقدار يوم من ايام الدنيا وأقل من ذلك وكذلك الملائكة كلهم اجمعون وقيل معنى الآية انه يدبر الامر من السماء الى الارض مدة ايام الدنيا ثم يعرج اليه اى يرجع الامر والتدبير اليه بعد فناء الدنيا وانقطاع أمر الآمر وحكم الحاكم في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة فان قلت قد قال في موضع آخر تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فكيف الجمع بينهما قلت أراد بقوله خمسين ألف سنة مدة المسافة بين الارض وسدرة المنتهى التي هي مقام جبريل عليه السلام يقول يسير جبريل والملائكة الذين معه من اهل مقامه مسيرة خمسين الف سنة في يوم واحد من ايام الدنيا وقيل كلها في القيامة فيكون على بعضهم مثل ألف سنة وعلى بعضهم خمسين الف سنة وهذا في حال الكفار وأما على المؤمنين فدون ذلك كما جاء في الحديث انه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا قال ابراهيم التيمي لا يكون على المؤمنين الا كما يكون ما بين الظهر والعصر وقيل يحتمل ان يكون هذا اخبارا عن شدته وهوله ومشقته وقال ابن ابي مليكة دخلت أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان على ابن عباس فسأله ابن فيروز عن هذه الآية وعن مقدار خمسين الف سنة فقال ابن عباس رضي الله عنهما ايام سماها الله تعالى الا ادري ما هي وأكره ان اقول في كتاب الله ما لا اعلم (ذلك عالم الغيب والشهادة) يعني الذي صنع ما ذكر من خلق السموات والارض هو عالم الغيب والشهادة اى ما غاب عن خلقه لا تخفى عليه خافية والشهادة هي ما حضر وظهر (العزيز) اى الممتنع المنتقم من اعدائه (الرحيم) باوليائه واهل طاعته قوله تعالى (الذي أحسن كل شيء خلقه) قال ابن عباس اتقنه واحكمه وقيل علم كيف يخلق كل شيء وقيل خلق كل حيوان على صورة لم يخلق البعض على صورة البعض فكل حيوان كامل في صورته حسن في شكله كل عضو من اعضائه مقدر على ما يصلح به معاشه وقيل معناه ألهم خلقه ما يحتاجون اليه وعلمهم اياه وقيل معناه أحسن الى كل خلقه (و بدأ خلق الانسان من طين) يعني آدم (ثم جعل نسله) يعني ذريته (من سلالة) اى من نطفة تنسل من الانسان (من ماء مهين) اى ضعيف (ثم سواه) اى سوى خلقه (ونفخ فيه من روحه) اضاف اليه الروح اضافة تشريف كبيت الله وناقة الله ثم ذكر ما يترتب على نفخ الروح في الجسد فقال (وجعل لكم) اى خلق بعد أن كنتم نطفا مواتا (السمع والابصار والافئدة) قيل قدم السمع لان الانسان يسمع أولا كلاما فينظر الى قائله ليعرفه ثم يتفكر بقلبه في ذلك الكلام ليفهم معناه وحد السمع لان الانسان يسمع الكلام من أي جهة كان (قليلا ما تشكرون) يعني انكم لا تشكرون رب هذه النعمة فتوحدوه الا قليلا قوله تعالى (وقالوا) يعني منكري البعث (أئذا ضللنا) هلكنا (في الارض)

لهم بقوله اني ذاهب الى ربي اني مهاجر الى ربي ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله (ذلك عالم الغيب والشهادة) اى الموصوف بما مر عالم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه (العزيز) الغالب أمره (الرحيم) البالغ لطفه وتيسيره وقيل لا وقف عليه لان (الذي) صفته (أحسن كل شيء) اى حسنه لان كل شيء مرتب على ما اقتضته الحكمة (خلقه) كوفي ونافع وسهل على الوصف اى كل شيء خلقه فقد أحسن خلقه غيرهم على البدل اى احسن خلق كل شيء (و بدأ خلق الانسان) آدم (من طين ثم جعل نسله) ذريته (من سلالة) من نطفة (من ماء) اى مني وهو بدل من سلالة (مهين) ضعيف حقير (ثم سواه) قومه كقوله في احسن تقويم (ونفخ) أدخل (فيه من روحه) الاضافة للاختصاص كانه قال ونفخ فيه من

الشيء الذي اختص هو به و بعلمه (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) سموا وابصروا وتعقلوا (قليلا ما تشكرون) اى تشكرون قليلا (وقالوا) القائل أبي بن خلف ولرضاهم بقوله أسند اليهم (أئذا ضللنا في الارض) اى صرنا ترابا وذهبنا مختلطين بتراب الارض لا نتميز منه كما يضل الماء في اللبن او غبنا في الارض بالدفن فيها وقرأ على بن ابي طالب بكسر اللام يقال ضل يضل وضل يضل وانتصب الظرف في أئذا ضللنا بما يدل عليه

(أئنا لفي خلق جديد) وهو نبعث (بل هم بلقاء ربهم كافرون) جاحدون لما ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه الى ما هو أبلغ وهو
كافرون بجميع ما يكون في العاقبة لا بالبعث وحده (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون) اى يتوفاكم
الموت الذي وكل بقبض ارواحكم ثم ترجعون الى ربكم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله والتوفي استيفاء
وهي الروح اى يقبض ارواحكم أجمعين من قولك توفيت حقي من فلان اذا أخذته وافيا كملا من غير نقصان وعن مجاهد
لملك الموت الارض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وقيل ملك الموت يدعو الارواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبض
تعالى هو الآمر لذلك كله وهو الخالق لافعال المخلوقات وهذا وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله توفته رسلنا وقوله الله يتوفى
حين موتها (ولو ترى) الخطاب ٤٩٠ لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل احد ولو امتناعية والجواب محذوف اى لرأيت أمرا

(اذ المجرمون) هم الذين
قالوا أئذا ضللنا في الارض
ولو واذ للمضي وانما جاز
ذلك لان المترقب من الله
بمنزلة الموجود ولا يقدر
لترى ما يتناولونه كانه قيل
ولو تكون منك الرؤية
واذ ظرف له (ناكسوا
رؤسهم) من الذل والحياء
والندم (عند ربهم) عند
حساب ربهم ويوقف عليه
لحق الحذف اذ التقدير
يقولون (ربنا أبصرنا)
صدق وعدك ووعيدك
(وسمعنا) منك تصديق
رسلك او كنا عميا وصما
فابصرنا وسمعنا (فارجعنا)
الى الدنيا (نعمل صالحا)
اى الايمان والطاعة
(انا موقنون) بالبعث
والحساب الآن (ولو
شئنا لآتينا كل نفس
هداها) في الدنيا اى

والمعنى صرنا ترابا (أئنا لفي خلق جديد) استفهام انكاري قال الله تعالى (بل هم بلقاء
كافرون) اى بالبعث بعد الموت (قل يتوفاكم) اى يقبض ارواحكم حتى لا يبقى احد ممن كتب عليه
(ملك الموت) وهو عزرائيل عليه السلام (الذي وكل بكم) اى انه لا يغفل عنكم واذا جاء اجل
لا يؤخر ساعة ولا يشغل له الا ذلك روى ان ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحة اليد يأخذ منها
ما احب من غير مشقة فهو يقبض ارواح الخلائق من مشارق الارض ومغاربها وله اعوان من الملائكة
ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وقال ابن عباس ان خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب
مجاهد جعلت له الارض مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وقيل ان ملك الموت على معراج
السماء والارض فتنزع اعوانه روح الانسان فاذا بلغ ثغرة نحره قبضه ملك الموت * عن معاذ بن
قال ان لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب وهي تتصفح وجوه الناس فما من اهل بيت الا
الموت يتصفحهم في كل يوم مرتين فاذا رأى انسانا قد انقضى اجله ضرب رأسه بتلك الحربة وقال له
تنزل بك سكرات الموت وقوله (ثم الى ربكم ترجعون) اى تصيرون الى ربكم احياء فيجزيكم باعمالكم
عز وجل (ولو ترى اذ المجرمون) اى المشركون (ناكسوا رؤسهم عند ربهم) اى يطأطئونها حياء
ربهم وندما على ما فعلوا عند ربهم يقولون (ربنا أبصرنا) اى ما كنا به مكذبين (وسمعنا) يعني
تصديق ما أتتنا به رسلك وقيل أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فيها (فارجعنا) اى فاردنا الى الدنيا
صالحا انا موقنون) اى في الحال آمنا ولكن لا ينفع ذلك الايمان (ولو شئنا لآتينا كل نفس هد
اى رشدها وتوفيقها للايمان (ولكن حق القول مني) اى وجب القول مني (لأملأن جهنم من
والناس أجمعين) اى من كفار الجن والانس (فذوقوا) اى فاذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة ذوقو
نسيتم لقاء يومكم) اى تركتم الايمان في الدنيا (هذا انا نسيناكم) اى تركناكم بالكلية غير ملتفت
يفعل بالناسي قطعا لرجائكم (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) اى من الكفر والتكذيب
تعالى (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها) اى وعظوا بها (خروا سجدا) اى سقطوا على وجو
ساجدين (وسبحوا بحمد ربهم) اى صلوا بامر ربهم وقيل قالوا سبحان الله وبحمده (و
لا يستكبرون) اى عن الايمان به والسجود له (ق) عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه

يقرا

لو شئنا أعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا ولكن لم
نعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم اختيار الكفر وايثاره وهو حجة على المعتزلة فان عندهم شاء الله أن يعطي كل نفس ما به اهتد
اعطاها ولكنها لم تهتد وهم أولوا الآية بمشيئة الجبر وهو تأويل فاسد لما عرف في تبصر الادلة (ولكن حق القول مني لأملأن ج
الجنة والناس أجمعين) ولكن وجب القول مني بما علمت انه يكون منهم ما يستوجبون به جهنم وهو ما علم منهم انهم يختارو
والتكذيب وفي تخصيص الانس والجن اشارة الى انه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم (فذوقوا) العذاب (بما نسي
بما تركتم من عمل لقاء (يومكم هذا) وهو الايمان به (انا نسيناكم) تركناكم في العذاب كالمنسي (وذوقوا عذاب الخلد) اى العذاب الدائم
لا انقطاع له (بما كنتم تعملون) من الكفر والمعاصي (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها) اى وعظوا بها (خروا سجدا) سجدوا لله
وخشوعا وشكرا على ما رزقهم من الاسلام (وسبحوا بحمد ربهم) ونزهوا الله عما لا يليق به واثنوا عليه حامدين له (وهم لا يستكبر

السورة التى فيها السجدة فيسجد و يسجدون حتى مايجد أحدنا مكانا لوضع جبهته فى غير وقت الصلاة
(م) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان
كى و يقول يا ويلتا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فابيت فلى النار وهذه من عزائم
سجود القرآن فتسن للقارئ وللمستمع قوله تعالى (تتجافى جنوبهم) اى ترتفع وتنبو (عن المضاجع)
ع مضجع وهو الموضع الذى يضطجع عليه يعنى الفرش وهم المتهجدون بالليل الذين يقيمون الصلاة
ل انس نزلت فينا معاشر الانصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع الى رحالنا حتى نصلى العشاء مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعن أنس فى قوله تتجافى جنوبهم عن المضاجع نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى
عتمة اخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب صحيح وفى رواية ابى داود عنه قال كانوا يتنفلون
ين المغرب والعشاء اى يصلون وهو قول ابى حازم ومحمد بن المنكدر وقيل هى صلاة الاوّابين وروى
عن ابن عباس قال ان الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهى صلاة الاوابين وقال عطاء
هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الاخيرة والفجر فى جماعة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم من صلى
العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله اخرجه
سلم من حديث عثمان بن عفان (ق) عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال لو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا وأشهر الاقاويل ان المراد منه صلاة الليل وهو قول
الحسن ومجاهد ومالك والاوزاعى وجماعة

(فصل فى فضل قيام الليل والحث عليه) * عن معاذ بن جبل قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم فى سفرة فاصبحت يوما قريبا منه وهو يسير فقلت يا رسول الله اخبرنى بعمل يدخلنى الجنة و يباعدنى
من النار قال سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله تعالى عليه تعبد الله ولا تشرك به شيأ وتقيم
الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال ألا أدلك على ابواب الخير الصوم جنة والصدقة
تطفئ الخطيئة وصلاة الرجل فى جوف الليل ثم قرأ تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى بلغ جزاء بما كانوا
يعملون ثم قال ألا أخبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه قلت بلى يا رسول الله قال رأس الامر الاسلام
وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله قلت بلى يا رسول الله قال فاخذ
بلسانه وقال اكفف عليك هذا فقلت بلى يا رسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم فقال ثكلتك أمك
ومعاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم او قال على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم اخرجه الترمذى
وعن ابى امامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم
وقربة الى ربكم وتكفير للسيئات ومنهاة عن الاثام ومطردة الداء عن الجسد أخرجه الترمذى * عن
ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن أوطانه ولحافه من بين
حبيبه وأهله الى صلاته فيقول الله عز وجل لملائكته انظروا الى عبدى ثار عن فراشه ووطائه من بين
حبيبه وأهله الى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ورجل غزا فى سبيل الله وانهزم مع اصحابه
فعلم ما عليه فى الانهزام وماله فى الرجوع فرجع حتى أهريق دمه فيقول الله تعالى لملائكته انظروا الى
عبدى رجع رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى حتى أهريق دمه اخرجه الترمذى بمعناه (م) عن ابى
هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم
وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل (ق) عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم
الليل حتى تورمت قدماه فقلت لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا
أكون عبدا شكورا * عن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة غرفا يرى باطنها من

عن الايمان به والسجود
له (تتجافى) ترتفع وتتنحى
(جنوبهم عن المضاجع)
عن الفرش ومضاجع
النوم قال سهل وهب
لقوم هبة وهو أن أذن لهم
فى مناجاته وجعلهم من
أهل وسيلته ثم مدحهم
عليه فقال تتجافى
جنوبهم عن المضاجع

(يدعون) داعين (ربهم) عابدين له (خوفا وطمعا) مفعول له اى لاجل خوفهم من سخطه وطمعهم فى رحمته وهم المتهجدون وعن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعن ابن عطاء أبت جنوبهم ان تسكن على بساط الغفلة وطلبت بساط القربة يعنى صلاة الليل وعن انس كان أناس من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يصلون من صلاة المغرب الى صلاة العشاء الاخيرة فنزلت فيهم وقيل هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها (ومما رزقناهم ينفقون) فى طاعة الله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم) ما بمعنى الذى أخفى على حكاية النفس حمزة ويعقوب (من قرة أعين) اى لا يعلم احد ما أعد لهؤلاء من الكرامة (جزاء) مصدر اى جوزوا جزاء (بما كانوا يعملون) عن الحسن رضى الله عنه أخفى القوم اعمالا فى الدنيا فاخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

وفيه دليل على ان المراد الصلاة فى جوف الليل ليكون الجزاء وفاقا ثم بين ان من كان فى نور الطاعة والايمان لا يستوى مع من هو فى ظلمة الكفر والعصيان بقوله (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) اى كافرا وهما محمولان على لفظ من وقوله (لا يستوون) على المعنى بدليل قوله (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) هى نوع من الجنان تأوى اليها أرواح الشهداء وقيل هى عن يمين العرش (نزلا بما كانوا يعملون) عطاء باعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عاما (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار) اى ملجؤهم ومنزلهم (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم) اى تقول لهم خزنة النار (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) وهذا دليل على ان المراد بالفاسق الكافر اذ التكذيب يقابل الايمان (ولنذيقنهم من العذاب الادنى) اى عذاب الدنيا من الاسر والمحنوبه من السنة سبع سنين (دون العذاب الاكبر) اى عذاب الآخرة اى نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا الى الآخرة وعن الدارانى العذاب الادنى الخذلان والعذاب الاكبر الخلود فى النيران وقيل العذاب الادنى عذاب القبر (لعلهم) لعل المعذبين بالعذاب الادنى (يرجعون) يتوبون عن الكفر (ومن أظلم ممن ذكر) وعظ (بآيات ربه) اى بالقرآن (ثم أعرض عنها) اى فتولى عنها ولم يتدبر فيها وثم للاستبعاد اى ان الاعراض عن مثل هذه الآيات فى وضوحها وانارتها وارشادها الى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل كما تقول

ظاهرها وظاهرها من باطنها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام أخرجه الترمذى (خ) عن الهيثم بن ابى سنان انه سمع أبا هريرة رضى الله عنه فى قصة يذكر النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان أخا لكم لا يقول الرفث يعنى بذلك ابن رواحة قال

وفينا رسول الله يتلو كتابه * اذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا * به موقنات ما اذا قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه * اذا استثقلت بالكافرين المضاجع

أخرجه البخارى وليس للهيثم بن سنان عن ابى هريرة فى الصحيحين غير هذا الحديث وقوله تعالى (يدعون ربهم خوفا وطمعا) قال ابن عباس خوفا من النار وطمعا فى الجنة (ومما رزقناهم ينفقون) قيل أراد به الصدقة المفروضة وقيل بل هو عام فى الواجب والتطوع * قوله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) اى مما تقر به أعينهم فلا يلتفتون الى غيره قال ابن عباس هذا مما لا تفسير له وقيل أخفوا اعمالهم فاخفى الله ثوابهم (جزاء بما كانوا يعملون) اى من الطاعات فى دار الدنيا (ق) عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة اعين قوله تعالى (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) نزلت فى على بن ابى طالب والوليد بن عقبة بن ابى معيط كان بينهما تنازع وكلام فى شئ فقال الوليد لعلى أسكت فانك صبى وأنا شيخ والله انى أبسط منك لسانا وأحد منك سنانا وأشجع منك جنانا وأملأ منك حشوا فى الكتيبة فقال له على اسكت فانك فاسق فانزل الله هذه الآية وقوله لا يستوون أراد جنس المؤمنين وجنس الفاسقين ولم يرد مؤمنا واحدا ولا فاسقا واحدا (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) اى التى يأوى اليها المؤمنون (نزلا) هو ما يهيأ للضيف عند نزوله (بما كانوا يعملون) يعنى من الطاعات فى دار الدنيا (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر) اى سوى العذاب الاكبر قال ابن عباس العذاب الادنى مصائب الدنيا واسقامها وعنه انه الحدود وقيل هو الجوع بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب سبع سنين وقال ابن مسعود هو القتل بالسيف يوم بدر والاكبر هو عذاب جهنم (لعلهم يرجعون) اى الى الايمان يعنى من بقى منهم بعد القحط وبعد بدر (ومن أظلم) اى لا أحد أظلم (ممن ذكر بآيات ربه) اى بدلائل وحدانيته وانعامه عليه (ثم أعرض عنها) اى ترك الايمان بها (انا

احبك وجدت منك تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاد الترك الانتهاز (انا من المجرمين منتقمون) ولم يقل منه لانه اذا جعله اعظم
ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم فقد دل على اصابة الاظلم النصيب الاوفر من الانتقام ولو قال بالضمير لم يفد هذه الفائدة
ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (فلا تكن في مرية) شك (من لقائه) من لقاء موسى الكتاب او من لقائك

انا من المجرمين) يعني المشركين (منتقمون) معناه انهم لما لم يرجعوا بالعذاب الادنى فانا منهم منتقمون
عذاب الاكبر قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة (فلا تكن في مرية) اي في شك (من
قائه) اي من لقاء موسى ليلة المعراج قاله ابن عباس (ق) عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم
ليلة أسري بي موسى رجلا آدم طوالا جعدا كانه من رجال شنوءة ورأيت عيسى رجلا مربوعا
ربوع الخلق الى الحمرة والى البياض سبط الشعر ورأيت مالكا خازن النار والدجال في آيات اراهن الله
فلا تكن في مرية من لقائه (م) عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت على موسى ليلة
معراج ليلة أسري بي عند الكثيب الاحمر وهو قائم يصلي في قبره فان قلت قد صح في حديث المعراج انه
في السماء السادسة عند مراجعته في الصلوات فكيف الجمع بين هذين الحديثين قلت يحتمل ان
يكون رؤيته في قبره عند الكثيب الاحمر كان قبل صعوده الى السماء وذلك في طريقه الى بيت المقدس
ثم صعد الى السماء السادسة وجده هناك قد سبقه لما يريد الله عز وجل وهو على كل شئ قدير فان
قلت كيف تصح منه الصلاة في قبره وهو ميت وقد سقط عنه التكليف وهو في دار الآخرة وليست دار
عمل وكذلك رأى النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الانبياء وهم يحجون فما الجواب عن هذا قلت
جيب عنه باجوبة أحدها ان الانبياء كالشهداء بل هم أفضل منهم والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون
ويعدان يحجوا أو يصلوا كما صح في الحديث وان يتقربوا الى الله بما استطاعوا وان كانوا قد ماتوا
فهم بمنزلة الاحياء في هذه الدار التي هي دار العمل الى أن تفنى ثم يرحلون الى دار الجزاء التي هي الجنة
الجواب الثاني انه صلى الله عليه وسلم رأى حالهم الذي كانوا عليه في حياتهم ومثلوا له كيف كانوا وكيف
كن جهم وصلاتهم الجواب الثالث ان التكليف وان ارتفع عنهم في الآخرة لكن الذكر والشكر
عاء لا يرتفع قال الله تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وقال صلى الله عليه وسلم
همون التسبيح كما تلهمون النفس فالعبد يعبد ربه في الجنة أكثر مما كان يعبده في الدنيا وكيف
يكون ذلك وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال الله في حقهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون
فيه ما في الباب ان العبادة ليست عليهم بتكليف بل هي على مقتضى الطبع والله أعلم وقيل في قوله فلا
تكن في مرية من لقائه اي من تلقي موسى كتاب الله بالرضا والقبول (وجعلناه) يعني الكتاب (هدى
بني اسرائيل وجعلنا منهم) اي من بني اسرائيل (أئمة) اي قادة للخير يقتدى بهم وهم الانبياء الذين كانوا
في بني اسرائيل وقيل هم أتباع الانبياء (يهدون بامرنا) اي يدعون الناس الى طاعتنا (لما صبروا) اي على
دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر (وكانوا بآياتنا يوقنون) اي انها من الله تعالى (ان ربك هو يفصل)
يقضي ويحكم (بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) قيل هم الانبياء وأممهم وقيل هم المؤمنون
المشركون قوله تعالى (أولم يهد لهم) اي يبين لهم (كم أهلكنا) اي كثرة من اهلكنا (من قبلهم من
القرون) اي الامم الخالية (يمشون في مساكنهم) يعني اهل مكة يسيرون في بلادهم ومنازلهم اذا سافروا (ان
في ذلك لآيات أفلا يسمعون) اي آيات الله ومواعظه فيتعظون بها قوله عز وجل (أولم يروا أنا نسوق
الماء الى الارض الجرز) اي الارض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها قال ابن عباس هي ارض باليمن

موسى ليلة المعراج او يوم القيامة او من لقاء موسى ربه في الآخرة كذا عن النبي صلى الله عليه وسلم (وجعلناه هدى لبني اسرائيل) وجعلنا الكتاب المنزل على موسى لقومه هدى (وجعلنا منهم أئمة) بهمزتين كوفي وشامي (يهدون) بذلك الناس ويدعونهم الى ما في التوراة من دين الله وشرائعه (بامرنا) اياهم بذلك (لما صبروا) حين صبروا على الحق بطاعة الله او عن المعاصي لما صبروا حمزة وعلى اي لصبرهم عن الدنيا وفيه دليل على ان الصبر ثمرته امامة الناس (وكانوا بآياتنا) التوراة (يوقنون) يعلمون علما لا يخالجه شك (ان ربك هو يفصل) يقضي (بينهم يوم القيامة) بين الانبياء وأممهم او بين المؤمنين والمشركين (فيما كانوا فيه يختلفون) فيظهر المحق من المبطل (أولم) الواو للعطف على

محذوف عليه منوي من جنس المعطوف اي اولم يدع (يهد) يبين والفاعل الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب نهد (لهم) لاهل مكة
(كم) لا يجوز ان يكون كم فاعل يهد لان كم للاستفهام فلا يعمل فيه ما قبله ومحله نصب بقوله (اهلكنا من قبلهم من القرون) كعاد
وثمود وقوم لوط (يمشون في مساكنهم) اي اهل مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم (ان في ذلك لآيات أفلا يسمعون) المواعظ
فيتعظوا (أولم يروا أنا نسوق الماء) نجري المطر والانهار (الى الارض الجرز) اي الارض التي جرز نباتها اي قطع اما لعدم الماء او لانه

رعى ولا يقال للنبت كالسباخ جرز بدليل قوله (فنخرج به) بالماء (زرعا تأكل منه) من الزرع (أنعامهم) من عصفه (وأنفسهم) من حبه (أفلا يبصرون) باعينهم فيستدلوا به على قدرته على احياء الموتى (ويقولون متى هذا الفتح) النصر او الفصل بالحكم قوله ربنا افتح بيننا وكان المسلمون يقولون ان الله سيفتح لنا على المشركين او يفتح بيننا وبينهم فاذا سمع المشركون ذلك قالوا متى هذا اى فى اى وقت يكون (ان كنتم صادقين) فى انه كائن (قل يوم الفتح) اى يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم او نصرهم عليهم او يوم بدر او يوم فتح مكة (لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولاهم ينظرون) وهذا الكلام لم ينطبق جوابا على سؤالهم ولكن لما كان غرضهم فى السؤال من وقت الفتح استعجالا منهم على وجه التكذيب والاستهزاء أجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم فى سؤالهم فقيل لهم لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا فكانى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم فلا ينفعكم الايمان او استنظرتم فى العذاب فلم تنظروا ومن فسره بيوم الفتح او بيوم بدر فهو يريد المقتولين منهم فانهم لا ينفعهم ايمانهم فى حال

كما لم ينفع فرعون ايمانه عند الغرق (فاعرض عنهم وانتظر) النصرة وهلاكهم (انهم منتظرون) الغلبة عليكم وهلاككم وكان عليه السلام لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذى بيده الملك وقال من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال سورة الم تنزيل هى المانعة تمنع من عذاب القبر والله اعلم

وقيل هى ابين (فنخرج به) اى بذلك الماء (زرعا تأكل منه أنعامهم) اى العشب والتبن (وأنفسهم) اى من الحبوب والاقوات (أفلا يبصرون) اى فيعتبروا وقوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين) قيل اراد بيوم الفتح يوم القيامة الذى فيه الحكم والقضاء بين العباد وذلك ان اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا للكفار ان لنا يوما ننعم فيه ونستريح ويحكم فيه بيننا وبينكم فقال الكفار استهزاء هذا الفتح اى القضاء والحكم وقيل هو فتح مكة وقيل يوم بدر وذلك ان اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون للكفار ان الله ناصرنا ومظهرنا عليكم فيقولون متى هذا الفتح (قل يوم الفتح) يعنى يوم القيامة (لا ينفع الذين كفروا ايمانهم) اى لا يقبل منهم الايمان ومن حمل يوم الفتح على فتح مكة او القتل يوم بدر قال معناه لا ينفع الذين كفروا ايمانهم اذا جاءهم العذاب وقتلوا (ولاهم ينظرون) اى يمهلون ليتوبوا ويعتذروا (فاعرض عنهم) قال ابن عباس نسختها آية السيف (وانتظر) اى موعدى لك بالنصر عليهم (انهم منتظرون) اى بك حوادث الزمان وقيل معناه انتظر عذابنا اياهم فهم منتظرون ذلك (فى) ابى هريرة رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الفجر يوم الجمعة الم تنزيل السجدة وهل أتى على الانسان عن جابر ان النبى صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذى بيده الملك أخرجه الترمذى وقال طاوس تفضلان عن كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة أخرجه الترمذى والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة الاحزاب)

وهى مدنية وثلاث وسبعون آية والف ومائتان وثمانون كلمة وخمسة آلاف وسبعمائة وتسعون حرفا

مدنية وهى ثلاث وسبعون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

* قوله عز وجل (يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) نزلت فى أبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وابى الاعور عمرو بن سفيان السلمى وذلك انهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال ابى بن كعب رضى الله عنه لزركم تعدون سورة الاحزاب قال ثلاثا وسبعين قال فوالذى يحلف به ابى ان كانت لتعدل سورة البقرة او أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم أرادابى ان ذلك من جملة ما نسخ من القرآن وأما ما يحكى أن تلك الزيادة كانت فى صحيفة فى بيت عائشة رضى الله عنها فاكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض (يا أيها النبى) وبالهمز نافع اى يا أيها المخبر عنا المأمون على أسرارنا المبلغ خطابنا الى أحبابنا وانما لم يقل يا محمد كما قال يا موسى تشريفا له وتنويها بفضله وتصريحه باسمه فى قوله محمد رسول الله ونحوه لتعليم الناس بانه رسول الله (اتق الله) اثبت على تقوى الله ودم عليه وازدد منه فهو باب لا يدرك مداه (ولا تطع الكافرين والمنافقين) ولا تساعدهم على شئ واحترس منهم فانهم أعداء الله والمؤمنين وروى ان اباسفيان وعكرمة بن ابى جهل وابا الاعور السلمى قدموا المدينة بعد قتال احد فنزلوا على عبد الله بن ابى واعطوا النبى الامان على ان يكلموه فقالوا ارفض ذكر آلهتنا وقل انها تنفع وتشفع ووازرهم المنافقون على ذلك فهم المسلمون بقتلهم فنزلت اتق الله فى نقض العهد ولا تطع الكافرين من اهل مكة والمنافقين من اهل المدينة فيما طلبوا

الله كان عليما) بخبث أعمالهم (حكيما) فى تأخير الامر بقتالهم (واتبع مايوحى اليك من ربك) فى الثبات على التقوى وترك
طاعة الكافرين والمنافقين (ان الله) الذى يوحى اليك (كان بما تعملون خبيرا) اى لم يزل عالما باعمالهم واعمالكم وقيل انما جمع
لان المراد بقوله اتبع هو وأصحابه وبالياء ابو عمرو اى بما يعمل الكافرون والمنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم
(وتوكل على الله) اسند امرك اليه وكله الى تدبيره (وكفى بالله وكيلا) حافظا موكولا اليه كل امر وقال الزجاج لفظه وان كان لفظ الخبر فالمعنى اكتف بالله وكيلا
(ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وماجعل أزواجكم اللائى تظهرون منهن امهاتكم وماجعل ادعياءكم ابناءكم) اى ماجمع الله قلبين فى جوف ولازوجية وأمومة فى امرأة ولابنوة ودعوة فى رجل والمعنى انه تعالى كما لم يجعل لانسان قلبين لانه لايخلو اما ان يفعل بالآخر فعلا من افعال القلوب فاحدهما فضلة غير محتاج اليه واما ان يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك فذلك يؤدى الى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها عالما ظانا موقنا شاكا فى حالة واحدة لم يحكم أيضا ان تكون المرأة الواحدة اما لرجل زوجا له لان الام مخدومة

نبى بن سلول رأس المنافقين بعد قتال أحد وقد أعطاهم النبى صلى الله عليه وسلم الامان على ان يكلموه
لم معهم عبد الله بن سعد بن ابى سرح وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن
الخطاب ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل ان لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك فشق ذلك
على النبى صلى الله عليه وسلم فقال عمر يارسول الله ائذن لى فى قتلهم فقال انى أعطيتهم الامان فقال عمر
اخرجوا فى لعنة الله وغضبه فأمر النبى صلى الله عليه وسلم عمر ان يخرجهم من المدينة فأنزل الله تعالى
(يا أيها النبى اتق الله اى دم على التقوى وقيل معناه اتق الله ولا تنقض العهد الذى بينك وبينهم وقيل
الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته ولا تطع الكافرين يعنى من اهل مكة يعنى ابا سفيان
وعكرمة وأبا الاعور والمنافقين يعنى من أهل المدينة عبد الله بن أبى وعبد الله بن سعد وطعمة (ان الله
كان عليما) اى بخلقه قبل ان يخلقهم (حكيما) اى فيما دبره لهم (واتبع مايوحى اليك من ربك) اى من
ترك العهد وترك طاعة الكافرين والمنافقين (ان الله كان بما تعملون خبيرا وتوكل على الله) اى ثق
بالله وكل أمرك اليه (وكفى بالله وكيلا) اى حافظا لك وقيل كفيلا برزقك قوله تعالى (ماجعل الله لرجل
من قلبين فى جوفه) نزلت فى أبى معمر جميل بن معمر الفهرى وكان رجلا لبيبا حافظا لما يسمع فقال
قريش ماحفظ أبو معمر هذه الأشياء الا وله قلبان وكان يقول ان لى قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل
من عقل محمد فلما هزم الله المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم فلقيه أبو سفيان واحدى نعليه فى يده
والاخرى فى رجله فقال له يا أبا معمر ماحال الناس فقال انهزموا فقال له فما بال احدى نعليك فى يدك
والاخرى فى رجلك فقال أبو معمر ماشعرت الا انهما فى رجلى فعلموا يومئذ انه لو كان له قلبان لما نسى
نعله فى يده وعن ابى ظبيان قال قلنا لابن عباس أرأيت قول الله ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه
ماعنى بذلك قال قام نبى الله صلى الله عليه وسلم يوما يصلى فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه
ألا ترون ان له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم فانزل الله ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه أخرجه الترمذى
وقال حديث حسن (قوله خطر خطرة) يريد الوسوسة التى تحصل للانسان فى صلاته وقيل فى معنى الآية
انه لما قال الله تعالى يا أيها النبى اتق الله فكان ذلك أمرا بالتقوى فكأنه قال ومن حقها ان لا يكون فى
قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتقى الله باحدهما وبالآخر غيره وقيل هذا مثل ضربه
الله تعالى للمظاهر من امرأته وللمتبنى ولد غيره فكما لا يكون لرجل قلبان لانه لا يخلو اما ان يفعل باحدهما
ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فالآخر فضلة غير محتاج اليه واما أن يفعل بهذا ما لا يفعل بذاك فذلك
يؤدى الى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها عالما جاهلا موقنا شاكا فى حالة واحدة وهما حالتان متنافيتان
وكذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى يكون له أمان ولا يكون ولد واحد ابن رجلين قوله تعالى (وماجعل
أزواجكم اللائى تظاهرون منهن امهاتكم) وصورة الظهار ان يقول الرجل لامرأته انت على كظهر امى
يقول الله وماجعل نساءكم التى تقولون لهن هذا فى التحريم كامهاتكم ولكنه منكم منكر وزور وفيه كفارة
وسيأتى الكلام عليه ان شاء الله فى سورة المجادلة قوله تعالى (وماجعل ادعياءكم) يعنى الذين تتبنونهم
(أبناءكم) وفيه نسخ التبنى وذلك ان الرجل كان فى الجاهلية يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود يدعوه

والمرأة خادمة وبينهما منافاة وان يكون الرجل الواحد ولدا لرجل وابنا له لان البنوة اصالة فى النسب والدعوة الصاق عارض
بالتسمية لا غير ولا يجتمع فى الشئ الواحد ان يكون أصيلا غير اصيل وهذا مثل ضربه الله تعالى فى زيد بن حارثة وهو رجل من كلب
سبى صغيرا فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له فطلبه أبوه وعمه فخير فاختار رسول
الله صلى الله عليه وسلم فاعتقه وتبناه وكانوا يقولون زيد ابن محمد فلما تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب وكانت تحت زيد

قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه فانزل الله هذه الآية وقيل كان المنافقون يقولون لمحمد قلبان قلب معكم وقلب مع اصحابه وقيل كان ابو معمر احفظ العرب فقيل له ذو القلبين فأكذب الله قولهم وضربه مثلا فى الظهار والتبنى والتذكير فى رجل وادخال الاستغراقية على قلبين وذكر الجواب للتأكيد اللائى بياء بعد الهمزة حيث كان كوفى وشامى اللاء نافع ويعقوب وسهل وهى التى تظاهرون عاصم من ظاهر اذا قال لامرأته أنت على كظهر أمى تظاهرون على وحمزة وخلف تظاهرون شامى من اظاهر بمعنى ظاهر غيرهم تظهرون من أظهر بمعنى ظهر وعدى بمن لتضمنه معنى البعد لانه كان طلاقا فى الجاهلية ونظيره آلى من امرأته لما ضمن معنى التباعد عدى بمن والافآلى فى أصله الذى هو معنى حلف واقسم ليس هذا بحكمه والدعى فعيل بمعنى مفعول وهو الذى يدعى وجمع على افعلاء شاذا لان بابه ما كان منه بمعنى فاعل كتقى وأتقياء وشقى وأشقياء ولا يكون ذلك فى نحو رمى وسمى للتشبيه المتمكن (ذلكم قولكم بافواهكم) اى ان قولكم للزوجة هى ام وللدعى هو ابن قول تقولونه بالسنتكم لا حقيقة له اذ الابن يكون بالولادة والام (والله يقول الحق) اى ما هو حق ظاهره وباطنه (وهو يهدى السبيل) اى سبيل الحق ثم قال ما هو الحق وهدى الى ما هو الحق وهو قوله (ادعوهم لآبائهم ٤٩٦ هو أقسط) اعدل (عند الله) وبين ان دعاءهم بآبائهم هو أدخل الامرين فى القسط والبر

وقيل كان الرجل فى الجاهلية اذا أعجبه ولد رجل ضمه الى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه وكان ينسب اليه فيقال فلان ابن فلان ثم انظر الى فصاحة هذا الكلام حيث وصل الجملة الطلبية ثم فصل الخبرية عنها ووصل بينها ثم فصل الاسمية عنها ووصل بينها ثم فصل بالطلبية (فان لم تعلموا آباءهم) فان لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم اليهم (فاخوانكم فى الدين ومواليكم) اى فهم اخوانكم فى الدين وأولياؤكم فى الدين فقولوا هذا أخى وهذا مولاى ويا أخى ويا مولاى يريد الاخوة فى الدين والولاية فيه (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) اى لا اثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهى (ولكن ما تعمدت قلوبكم) ولكن الاثم عليكم فيما تعمدتموه بعد النهى اولا اثم عليكم اذا قلتم لولد غيركم يا بنى على سبيل الخطا وسبق اللسان ولكن اذا قلتموه متعمدين وما فى موضع الجر عطف على ما الاولى ويجوز ان يراد العفو عن الخطا دون العمد على سبيل العموم ثم تناول لعمومه خطأ التبنى وعمده واذا وجد التبنى فان كان المتبنى مجهول النسب وأصغر سنا منه ثبت نسبه منه وعتق ان كان عبدا له وان كان أكبر سنا منه لم يثبت النسب وعتق عند أبى حنيفة رضى الله عنه وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبنى وعتق ان كان عبدا (وكان الله غفورا رحيما) لا يؤاخذكم بالخطا ويقبل التوبة من المتعمد (النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم) اى أحق بهم فى كل شئ من امور الدين والدنيا وحكمه أنفذ عليهم من حكمها فعليهم ان يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه او هو اولى بهم اى أرأف بهم وأعطف عليهم وانفع لهم كقوله بالمؤمنين رؤف رحيم وفى قراءة ابن مسعود النبى أولى بالمؤمنين من انفسهم وهو أب لهم وقال مجاهد كل نبى أبو أمته ولذلك صار المؤمنون اخوة لان النبى صلى الله عليه وسلم ابوهم فى الدين

اليه الناس ويرث ميراثه وكان النبى صلى الله عليه وسلم اعتق زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى وتبناه قبل الوحى وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فانزل الله هذه الآية ونسخ بها التبنى (ذلكم قولكم بافواهكم) اى لا حقيقة له يعنى قولهم زيد بن محمد وادعاء النسب لا حقيقة له (والله يقول الحق) اى قوله الحق (وهو يهدى السبيل) اى يرشد الى سبيل الحق (ادعوهم لآبائهم) اى الذين ولدوهم فقولوا زيد بن حارثة (هو أقسط عند الله) اى اعدل عند الله (ق) عن ابن عمر قال ان زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله الآية (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين) اى فهم اخوانكم (ومواليكم) اى كانوا محررين وليسوا ابنيكم اى فسموهم باسماء اخوانكم فى الدين وقيل معنى مواليكم اولياؤكم فى الدين (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) اى قبل النهى فنسبتموه الى غير ابيه (ولكن ما تعمدت قلوبكم) اى من دعائهم الى غير آبائهم بعد النهى وقيل فيما أخطأتم به ان تدعوه الى غير أبيه وهو يظن انه كذلك (وكان الله غفورا رحيما) (ق) عن سعد بن أبى وقاص وأبى بكرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من ادعى الى غير أبيه وهو يعلم انه غير ابيه فالجنة عليه حرام قوله عز وجل (النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم) اى من بعضهم ببعض فى نفوذ حكمه عليهم ووجوب طاعته وقال ابن عباس اذا دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم ودعتهم أنفسهم الى شئ كانت طاعة النبى صلى الله عليه وسلم اولى بهم من طاعة أنفسهم وهذا صحيح لان انفسهم تدعوهم الى ما فيه هلاكهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى ما فيه نجاتهم وقيل هو اولى بهم فى الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه وقيل

(وأزواجه امهاتهم) فى تحريم نكاحهن ووجوب تعظيمهن وهن فيما وراء ذلك كالارث ونحوه كالاجنبيات ولهذا لم يتعد التحريم الى
بناتهن (وأولوا الارحام) وذووا القرابات (بعضهم اولى ببعض) فى التوارث وكان المسلمون فى صدر الاسلام يتوارثون بالولاية فى الدين
والهجرة لا بالقرابة ثم نسخ ذلك وجعل التوارث بحق القرابة (فى كتاب الله) فى حكمه وقضائه او فى اللوح المحفوظ او فيما فرض الله
(من المؤمنين والمهاجرين) يجوز ان يكون بيانا لاولى الارحام اى الاقربا من هؤلاء بعضهم ٤٩٧ اولى بأن يرث بعضا من الاجانب
وان يكون لابتداء الغاية اى اولو الارحام بحق القرابة اولى بالميراث من المؤمنين اى الانصار بحق الولاية فى الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة (الا ان تفعلوا الى اوليائكم معروفا) الاستثناء من خلاف الجنس اى لكن فعلكم الى اوليائكم معروفا جائز وهو ان توصوا لمن احببتم من هؤلاء بشئ فيكون ذلك بالوصية لا بالميراث وعدى تفعلوا بالى لانه فى معنى تسدوا والمراد بالاولياء المؤمنون والمهاجرون للولاية فى الدين (كان ذلك فى الكتاب مسطورا) اى التوارث بالارحام كان مسطورا فى اللوح (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) واذكر حين أخذنا من النبيين ميثاقهم بتبليغ الرسالة والدعاء الى الدين القيم (ومنك) خصوصا وقدم رسول الله على نوح ومن بعده لان هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء لانهم اولو العزم وأصحاب

كان النبى صلى الله عليه وسلم يخرج الى الجهاد فيقول قوم نذهب فنستأذن من آبائنا وامهاتنا فنزلت
الآية (ق) عن ابى هريرة قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من مؤمن الا وأنا أولى الناس
به فى الدنيا والآخرة اقرؤا ان شئتم النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم فايما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته
من كانوا ومن ترك دينا او ضياعا فليأتنى فانا مولاه عصبة الميت من يرثه سوى من له فرض مقدر وقوله
وضياعا اى عيالا وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعا او ان كسرت الضاد كان جمع ضائع وقوله تعالى
(وأزواجه أمهاتهم) يعنى امهات المؤمنين فى تعظيم الحرمة وتحريم نكاحهن على التأبيد لا فى النظر
اليهن والخلوة بهن فانه حرام فى حقهن كما فى حق الاجانب ولا يقال لبناتهن هن أخوات المؤمنين ولا
لاخوانهن واخواتهن هن اخوال المؤمنين وخالاتهم قال الشافعى تزوج الزبير اسماء بنت ابى بكر وهى
اخت عائشة ام المؤمنين ولم يقل هى خالة المؤمنين وقيل ان ازواج النبى صلى الله عليه وسلم كن امهات
المؤمنين والمؤمنات الرجال والنساء وقيل كن امهات الرجال دون النساء بدليل ما روى عن مسروق
ان امرأة قالت لعائشة يا امه فقالت لست لك بام انما انا ام رجالكم فبان بذلك ان معنى الامومة انما هو
تحريم نكاحهن (وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض) يعنى فى الميراث قيل كان المسلمون يتوارثون
بالهجرة وقيل آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس فكان يؤاخى بين الرجلين فاذا مات
احدهما ورثه الآخر دون عصبته حتى نزلت وأولو الارحام بعضهم اولى ببعض وقيل فى معنى الآية
لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر (فى كتاب الله) اى فى حكم الله (من المؤمنين)
الذين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم (والمهاجرين) يعنى ان ذوى القرابات اولى بعضهم ببعض
فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة وصارت الموارثة بينهم بالقرابة (الا ان تفعلوا الى
اوليائكم معروفا) يعنى الوصية للذين يتولونه من المعاقدين وذلك ان الله تعالى لما نسخ التوارث
بالحلف والاخاء والهجرة اباح ان يوصى لمن يتولاه بما احب من ثلث ماله وقيل اراد بالمعروف النصر
وحفظ الحرمة بحق الايمان والهجرة وقيل معناه الا ان توصوا الى قرابتكم بشئ وان كانوا من غير اهل
الايمان والهجرة (كان ذلك) اى الذى ذكر من ان اولى الارحام بعضهم اولى ببعض (فى الكتاب) اى فى
اللوح المحفوظ وقيل فى التوراة (مسطورا) اى مكتوبا مثبتا قوله تعالى (واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم)
اى على الوفاء بما حملوا وان يصدق بعضهم بعضا ويبشر بعضهم ببعض وقيل على ان يعبدوا الله ويدعوا
الناس الى عبادته وينصحوا لقومهم (ومنك) يعنى يا محمد (ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم)
خص هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين لانهم اصحاب الكتب والشرائع وأولو العزم من الرسل وقدم
النبى صلى الله عليه وسلم فى الذكر تشريفا له وتفضيلا ولما روى البغوى باسناد الثعلبى عن ابى هريرة
ان النبى صلى الله عليه وسلم قال كنت اول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث قال قتادة وذلك قول الله
(واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح فبدأ به صلى الله عليه وسلم (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) اى
عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا من تبليغ الرسالة (ليسئل الصادقين عن صدقهم) يعنى أخذ ميثاقهم لكى

الشرائع فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء قدم عليهم ولو لا ذلك لقدم
من قدمه زمانه (ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وثيقا واعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف اليه
وانما فعلنا ذلك (ليسئل) الله (الصادقين) اى الانبياء (عن صدقهم) عما قالوه لقومهم او ليسأل المصدقين للانبياء عن تصديقهم لان
من قال للصادق صدقت كان صادقا فى قوله او ليسأل الانبياء ما الذى اجابتهم أممهم وهو كقوله يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم

(وأعد للكافرين) بالرسل (عذابا أليما) وهو عطف على اخذنا لان المعنى ان الله أكد على الانبياء الدعوة الى دينه لاجل اثابة المؤمن وأعد للكافرين عذابا أليما او على ما دل عليه ليسأل الصادقين كأنه قال فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) اى ما أنعم الله به عليكم يوم الاحزاب وهو يوم الخندق وكان بعد حرب أحد بسنة (اذ جاءتكم جنود) اى الاحزاب وهم قريش وغطفان وقريظة والنضير (فارسلنا عليهم ريحا) اى الصبا قال عليه السلام نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور

(وجنودا لم تروها) وهم الملائكة وكانوا ألفا بعث الله عليهم صبا باردة فى ليلة شاتية فاخصرتهم وأسفت التراب فى وجوههم وامر الملائكة فقلعت الاوتاد وقطعت الاطناب وأطفأت النيران واكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وقذف فى قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم فانهزموا من غير قتال وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باقبالهم ضرب الخندق على المدينة باشارة سلمان ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وامر بالذرارى والنسوان فرفعوا فى الآطام واشتد الخوف وكانت قريش قد أقبلت فى عشرة آلاف من الاحابيش وبنى كنانة واهل تهامة وقائدهم ابو سفيان وخرج غطفان فى ألف ومن تابعهم من اهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل فى هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير ومضى على وبما القريقين قريب من شهر لا حرب بينهم الا الترامى بالنبل والحجارة حتى أنزل الله النصر (وكان الله بما تعملون) اى بعملكم أيها المؤمنون من التحصن بالخندق والثبات على معاونة النبى صلى الله عليه وسلم (بصيرا) وبالياء ابو عمرو اى بما يعمل الكفار من البغى والمكر

يسأل الصادقين يعنى النبيين عن تبليغهم الرسالة والحكمة فى سؤالهم مع علمه سبحانه وتعالى انهم صادقون تبكيت من أرسلوا اليهم وقيل ليسأل الصادقين عن صدقهم عن علمهم لله عز وجل وقيل ليسأل الصادقين باقوالهم عن صدقهم فى قلوبهم (واعد للكافرين عذابا أليما) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) وذلك حين حوصر المسلمون مع النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى الخندق (اذ جاءتكم جنود) يعنى الاحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير (فارسلنا عليهم ريحا) يعنى الصبا قال عكرمة قالت الجنوب للشمال ليلة الاحزاب انطلقى ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الشمال ان الحرة لا تسرى بالليل فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا (ق) من ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وقيل الصبا ريح فيها روح وماهبت على محزون الا ذهب حزنه قوله تعالى (وجنودا لم تروها) يعنى الملائكة ولم تقاتل الملائكة يومئذ فبعث الله عز وجل تلك الليلة ريحا باردة فقلعت الاوتاد وقطعت اطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وكثر تكبير الملائكة فى جوانب عسكرهم حتى كان سيد كل حى يقول يا بنى فلان النجاء النجاء هلموا الى فاذا اجتمعوا عنده قال النجاء النجاء فانهزموا من غير قتال لما بعث الله عليهم من الرعب (وكان الله بما يعملون بصيرا)

(ذكر غزوة الخندق وهى الاحزاب)

قال البخارى قال موسى بن عقبة كانت فى شوال سنة أربع من الهجرة وروى محمد بن اسحق عن مشايخه قال دخل حديث بعضهم فى بعض ان نفرا من اليهود منهم سلام بن ابى الحقيق وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن ابى الحقيق وهو ابن قيس وابو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الاحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا انا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر اليهود انكم اهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه قالوا دينكم خير من دينه وأنتم اولى بالحق منه فهم الذين قال الله تعالى فيهم ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت الى قوله وكفى بجهنم سعيرا قال فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا على ذلك ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤا ٣ غطفان وقيسا وغيلان فاجتمعوا على ذلك وأخبروهم انهم سيكونون معهم عليه وان قريشا قد تابعوهم على ذلك فاجابوهم وخرجت قريش وقائدهم ابو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فى بنى فزارة والحرث بن عوف بن ابى حارثة المرى فى بنى مرة ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

٣ قوله غطفان الخ كذا بالاصل وفى المواهب خرج أولئك اليهود حتى جاؤا غطفان من قيس عيلان وقد شارحها بعين مهملة قال الجوهرى وليس فى العرب عيلان غيره اه

فى اطفاء نور الله

وبما اجتمعوا له من الامر ضرب الخندق على المدينة وكان الذى أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق سلمان الفارسى وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ حر فقال يارسول الله انا كنا بفارس اذا حوصرنا ضربنا خندقا علينا فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى أحكموه وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خط الخندق عام الاحزاب ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعا فاختلف المهاجرون والانصار فى سلمان الفارسى وكان رجلا قويا فقال المهاجرون سلمان منا وقال الانصار سلمان منا فقال النبى صلى الله عليه وسلم سلمان منا اهل البيت قال عمرو بن عوف كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزنى وستة من الانصار فى اربعين ذراعا فحفرنا حتى اذا كنا تحت أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة حتى كسرت حديدنا وشقت علينا فقلنا يا سلمان ارق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واخبره بخبر هذه الصخرة فاما أن يعدل عنها فان المعدل قريب واما أن يأمرنا فيها امره فانا لانحب أن نجاوز خطه قال فرقى سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ضارب عليه قبة تركية فقال يارسول الله خرجت لنا صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يجيبنا منها شئ قليل ولا كثير فرنا فيها بامرك فانا لانحب ان نجاوز خطك فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمان الى الخندق واستند على شق الخندق واخذ عليه السلام المعول من سلمان وضرب بها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها يعنى المدينة حتى كأنه مصباح فى جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون معه ثم ضرب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثانية فبرق منها برق حتى أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون معه ثم ضرب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكسرها وبرق منها برق اضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون معه وأخذ بيد سلمان ورقى فقال بابى انت وأمى يارسول الله لقد رايت شيأ ما رايت مثله قط فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى القوم وقال أرأيتم ما يقول سلمان قالوا نعم يارسول الله قال ضربت ضربتى الاولى فبرق البرق الذى رأيتم فاضاء لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها انياب الكلاب وأخبرنى جبريل ان أمتى ظاهرة عليها ثم ضربت ضربتى الثانية فبرق البرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور قيصر من ارض الروم كأنها انياب الكلاب فاخبرنى جبريل ان أمتى ظاهرة عليها ثم ضربت الثالثة فبرق الذى رأيتم اضاء لى منها قصور صنعاء كأنها انياب الكلاب فاخبرنى جبريل ان أمتى ظاهرة عليها فابشروا فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحصر فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم انه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وانها تفتح لكم وأنتم انما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا قال فنزل القرآن واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا وأنزل الله قل اللهم مالك الملك الآية

(ق) عن أنس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق فاذا المهاجرون والانصار يحفرون فى غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال

اللهم ان العيش عيش الآخره ✲ فاغفر للانصار والمهاجره

فقالوا مجيبين له

نحن الذين بايعوا محمدا ✲ على الجهاد ما حيينا أبدا

عن البراء بن عازب قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ينقل معنا التراب وهو يقول

والله لولا الله ما اهتدينا ✲ ولا تصدقنا ولا صلينا

فانزلن سكينة علينا ✲ وثبت الاقدام ان لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا * اذا ارادوا فتنة أبينا

و يرفع بها صوته وفى رواية قد وارى التراب بياض ابطيه رجعنا الى حديث ابن اسحق قال فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الاسيال من رومة الجرف والغابة فى عشرة آلاف من احابيشهم ومن تابعهم من بنى كنانة واهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تابعهم من اهل نجد حتى نزلوا بذنب نعمى الى جانب أحد وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى جعلوا ظهورهم الى سلع فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه و بين القوم وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا الى الآطام وخرج عدو الله حيى بن اخطب من بنى النضير حتى أتى كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاهده على ذلك فلما سمع صوت ابن اخطب أغلق دونه حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حيى يا كعب افتح لنا فقال ويحك يا حيى انك امرؤ مشؤم انى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى و بينه ولم أر منه الا وفاء وصدقا فقال ويحك افتح أكلمك قال ما أنا بفاعل قال والله ان اغلقت دونى الا خوفا أن آكل معك فأحفظ الرجل ففتح له فقال ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وبجهام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الاسيال من رومة و بغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نعمى الى جانب أحد قد عاهدونى وعاقدونى أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه فقال له كعب جئتنى والله بذل الدهر و بجهام قد يهرق ماؤه و يرعد و يبرق ليس فيه شئ فدعنى ومحمدا وما أنا عليه فانى لم أر من محمد الا صدقا ووفاء فلم يزل حيى بن اخطب بكعب يفتله فى الذروة والغارب حتى سمح له على ان أعطاه من الله عهدا وميثاقا لئن رجعت قريش ولم يصيبوا محمدا أن ادخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما اصابك فنقض كعب بن أسد العهد و برئ مما كان عليه فيما بينه و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى المسلمين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ أحد بنى عبد الاشهل وهو يومئذ سيد الاوس وسعد بن عبادة احد بنى ساعدة وهو يومئذ سيد بنى الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة اخو الحرث بن الخزرج وخوات بن جبير اخو بنى عمرو بن عوف فقال انطلقوا حتى تنظروا ما بلغنا عن هؤلاء القوم أحق أم لا فان كان حقا فالحنوا لنا لحنا اعرفه ولا تفتوا أعضاد الناس وان كانوا على الوفاء فيما بيننا و بينهم فاجهروا به للناس فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على اخبث ما بلغهم عنهم ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لا عقد بيننا و بينه ولا عهد فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه وكان رجلا عنده حدة فقال له سعد بن معاذ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا و بينهم أربى من المشاتمة ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا وقالوا عضل والقارة احذر عضل القارة باصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحاب الرجيع خبيب بن عدى واصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر ابشروا يا معشر المسلمين وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف كان محمد يعدنا ان نأكل كنوز كسرى وقيصر واحدنا لا يقدر أن يذهب الى الغائط ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا وقال أوس بن قيظى احد بنى حارثة يا رسول الله ان بيوتنا لعورة من العدو وذلك على ملا من رجال قومه فائذن لنا فلنرجع الى دارنا فانها خارجة من المدينة فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المشركون عليها بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر ولم يكن بين القوم حرب الا الرمى بالنبل والحصى فلما اشتد البلاء على الناس بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عيينة بن حصن والى الحرث بن عوف وهما قائدا غطفان فاعطاهما ثلث

عمارة المدينة على ان يرجعا بمن معهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخرج بينهما الصلح
حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة
فاستشارهما فيه فقالا يا رسول الله أشيء أمرك الله به لابد لنا من العمل به أم أمر تحبه فنصنعه أم شيء تصنعه
لنا قال بل شيء أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك الا اني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم
من كل جانب فاردت ان اكسر عنكم شوكتهم فقال له سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم
على شرك بالله وعبادة الاصنام لا نعبد الله ولا نعرفه ولا يطمعون ان يأكلوا منا تمرة واحدة الا قرى او بيعا
فحين أكرمنا الله بالاسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ما لنا بهذا من حاجة والله ما نعطيهم الا السيف حتى
يحكم الله بيننا وبينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت وذاك فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من
الكتابة ثم قال ليجهدوا علينا فاقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وعدوهم محاصروهم ولم يكن
بينهم قتال الا ان فوارس من قريش عمرو بن عبدود أخو بني عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة
ابن أبي وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله بن ضرار بن الخطاب ومرداس اخو بني محارب بن فهر قد
لبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم فمروا على بني كنانة فقالوا تهيؤا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من
الفرسان ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا عليه فلما رأوه قالوا والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها
ثم تيمموا مكانا من الخندق ضيقا وضربوا خيولهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع
وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها وأقبلت الفرسان
تعنق نحوهم وكان عمرو بن عبدود قاتل يوم بدر حتى اثبتته الجراحة فلم يشهد أحدا فلما كان يوم
الخندق خرج معلما ليرى مكانه فلما وقف هو وخيله قال علي يا عمرو انك كنت تعاهد الله لا يدعوك
رجل من قريش الى خلتين الا أخذت منه احداهما قال اجل قال له علي فاني أدعوك الى الله ورسوله
والى الاسلام قال لا حاجة لي بذلك قال اني أدعوك الى النزال قال ولم يا ابن أخي فوالله ما أحب اني أقتلك
فقال علي لكني والله أحب أن أقتلك فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره او ضرب وجهه ثم أقبل
على علي فتناولا وتجاولا فقتله علي وخرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع
عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار أصابه سهم فمات بمكة ونوفل بن عبد
الله بن المغيرة المخزومي وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يا معشر العرب قتلة أحسن من
هذه فنزل اليه علي فقتله فغلب المسلمون على جسده فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبيعهم جسده
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حاجة لنا في جسده وثمنه فشأنكم به فخلى بينهم وبينه قالت عائشة
ام المؤمنين كنا يوم الخندق في حصن بني حارثة وكان من احرز حصون المدينة وكانت أم سعد بن معاذ
معنا في الحصن وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فمر سعد بن معاذ وعليه درع مقلصة قد خرجت منها
ذراعه كلها وفي يده حربة وهو يقول * لابأس بالموت اذا حان الاجل * فقالت له الحق يا بني فقد
والله اخترت قالت عائشة فقلت يا أم سعد والله لوددت ان درع سعد كانت أسبغ مما هي وخفت عليه
حيث أصاب السهم منه قالت فرمى سعد يومئذ بسهم فقطع منه الاكحل رماه خباب بن قيس بن العرقة
احد بني عامر بن لؤي فلما أصابه قال خذها وانا ابن العرقة قال سعد عرق الله وجهك في النار ثم قال
سعد اللهم ان كنت ابقيت من حرب قريش شيأ فابقني لها فانه لا قوم أحب لي ان اجاهدهم من قوم
آذوا رسولك وكذبوه واخرجوه وان كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تمتني حتى
ترعيني من بني قريظة وكانوا حلفاءه وموالية في الجاهلية قال محمد بن اسحق فيما بلغه ان صفية بنت
عبد المطلب كانت في فارع حصن حسان بن ثابت قالت وكان حسان معنا مع النساء والصبيان قالت

صفية فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى نحر عدوهم لا يستطيعون ان ينصرفوا الينا عنهم اذا
قالت فقلت يا حسان ان هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن واني والله ما آمنه ان يدل على عورة
وراءنا من اليهود وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل اليه فاقتله فقال يغفر الله
يا بنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا قالت فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيأ احتجز
اخذت عمودا ثم نزلت من الحصن اليه فضربته بالعمود حتى قتلته فلما فرغت منه رجعت الى الحصن
فقلت يا حسان انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه الا انه رجل قال مالى بسلبه حاجة يا بنت
المطلب قالوا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة
عدوهم واتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم ثم ان نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول
صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى قد أسلمت وان قومى لم يعلموا باسلامى فأمرنى بما شئت
رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فان الحرب
فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان نديما لهم فى الجاهلية فقال لهم يا بنى قريظة قد
ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم ان قريش وغطفان
جاؤا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه وان قريشا وغطفان ليسوا كهيئتكم البلد بلادكم به أموالكم
وأولادكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه الى غيره وان قريشا وغطفان أموالهم وأبناؤهم
ونساؤهم بغيره ان رأوا نهزة وغنيمة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين
الرجل والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم
يكونون بايديكم ثقة لكم على ان يقاتلوا معكم محمدا حتى تناجزوه قالوا لقد أشرت برأى ونصح ثم خرج
أتى قريشا فقال لابى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودى اياكم وفراقى محمدا
بلغنى امر رأيت حقا على أن أبلغكم نصحا لكم فاكتموا على قالوا نفعل قال تعلمون ان معشر يهود ندموا
على ما صنعوا بينهم وبين محمد وقد أرسلوا اليه أن قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك عنا ان نأخذ من
قريش وغطفان رجالا من اشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم
اليهم أن نعم فان بعثت اليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا
حتى اتى غطفان فقال يا معشر غطفان أنتم اهلى وعشيرتى وأحب الناس الى ولا أراكم تتهموننى
صدقت قال فاكتموا على قالوا نفعل فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم مثل حذرهم فلما كانت
السبت من شوال سنة خمس وكان مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ارسل ابو سفيان ورؤساء
غطفان الى بنى قريظة عكرمة بن ابى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم انا لسنا بدار مقام قد هلك
الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه فارسلوا اليهم ان اليوم السبت وهو
يوم لا نعمل فيه شيأ وقد كان احدث فيه بعضنا حدثا فاصابهم ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك بالذى
معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكون بايدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا فانا نخشى ان ضرستكم الحرب
واشتد عليكم القتال ان تسيروا الى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد فلما رجعت
اليهم الرسل بالذى قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان تعلمن والله ان الذى حدثكم به نعيم بن
مسعود لحق فارسلوا الى بنى قريظة انا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فان كنتم تريدون القتال
فاخرجوا فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت اليهم الرسل بهذا ان الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود
ما يريد القوم الا أن يقاتلوا فان وجدوا فرصة انتهزوها وان كان غير ذلك شمروا الى بلادهم وخلوا

الرجل فى بلدكم فارسلوا الى قريش وغطفان انا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا فابوا عليهم
الله عز وجل بينهم وبعث عليهم الريح فى ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح
فلما انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من امرهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه
لينظر ما فعل القوم ليلا وروى محمد بن اسحق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى وروى
عن ابراهيم التيمى عن ابيه قالا قال فتى من اهل الكوفة لحذيفة بن اليمان يا ابا عبد الله رايتم رسول الله
الله عليه وسلم وصحبتموه قال نعم يا ابن أخى قال كيف كنتم تصنعون قال والله لقد كنا نجهد قال الفتى
لو ادركناه ما تركناه يمشى على الارض ولحملناه على اعناقنا ولخدمناه وفعلنا معه ما فعلنا فقال حذيفة
ابن اخى والله لقد رأيتنى ليلة الاحزاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يذهب الى هؤلاء القوم
لينا بخبرهم ادخله الله الجنة فما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هونا من الليل ثم
التفت الينا فقال مثله فسكت القوم وما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هونا من الليل ثم
التفت الينا فقال هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم على ان يكون رفيقى فى الجنة فما قام رجل
شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد فلما لم يقم احد دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا حذيفة
يكن لى بد من القيام حين دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لبيك يا رسول الله وقمت حتى اتيته
حذ بيدى ومسح رأسى ووجهى ثم قال ائت هؤلاء القوم حتى تأتينى بخبرهم ولا تحدثن شيأ حتى
ترجع الى ثم قال اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته
حذت سهمى وشددت على اسلابى ثم انطلقت امشى نحوهم كانما امشى فى حمام فذهبت فدخلت فى
القوم وقد ارسل الله عليهم ريحا وجنودا وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء قال
ابو سفيان قاعد يصطلى فاخذت سهما فوضعته فى كبد قوسى فاردت ان ارميه ولو رميته لاصبته فذكرت
قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحدثن حدثا حتى ترجع فرددت سهمى فى كنانتى فلما رأى ابو
سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء قام فقال يا معشر قريش ليأخذ كل
منكم بيد جليسه فلينظر من هو فاخذت بيد جليسى فقلت من انت فقال سبحان الله اما تعرفنى انا فلان
ثم قال فلان رجل من هوازن فقال ابو سفيان يا معشر قريش انكم والله ما اصبحتم بدار مقام لقد هلك
الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فانى
مرتحل ثم قام الى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث فما اطلق عقاله الا وهو قائم
سمعت غطفان بما فعلت قريش فاستمروا راجعين الى بلادهم قال فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم كانى امشى فى حمام فاتيته وهو قائم يصلى فلما سلم اخبرته فضحك حتى بدت انيابه فى سواد الليل فلما
اخبرته وفرغت قررت وذهب عنى الدفاء فادفانى النبى صلى الله عليه وسلم فانامنى عند رجليه والقى على
طرف ثوبه والصق صدرى ببطن قدميه فلم ازل نائما حتى اصبحت فلما اصبحت قال قم يا نومان فذلك
قوله عز وجل (اذ جاؤكم من فوقكم) اى من فوق الوادى من قبل المشرق وهم اسد وغطفان وعليهم مالك
بن عوف النصرى وعيينة بن حصن الفزارى فى الف من غطفان ومعهم طليحة بن خويلد الاسدى فى بنى
اسد وحيى بن أخطب فى يهود قريظة (ومن اسفل منكم) يعنى من بطن الوادى من قبل المغرب وهم
قريش وكنانة عليهم أبو سفيان بن حرب من قريش ومن تبعه وأبو الاعور عمرو بن سفيان السلمى من قبل
الخندق وكان الذى جر غزوة الخندق فيما قيل اجلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير من ديارهم
(وزاغت الابصار) اى مالت وشخصت من الرعب وقيل مالت عن كل شئ فلم تنظر الى عدوها (وبلغت
القلوب الحناجر) اى زالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق من الفزع والحنجرة جوف الحلقوم وهذا

(اذ جاؤكم) بدل من اذ جاءتكم (من فوقكم) اى من اعلى الوادى من قبل المشرق بنو غطفان (ومن اسفل منكم) من اسفل الوادى من قبل المغرب قريش (واذ زاغت الابصار) مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة او عدلت عن كل شئ فلم تلتفت الا الى عدوها لشدة الروع (وبلغت القلوب الحناجر) الحنجرة رأس الغلصمة وهى منتهى الحلقوم والحلقوم مدخل الطعام والشراب قالوا اذا انتفخت الرئة من شدة الفزع او الغضب ربت وارتفع القلب بارتفاعها الى رأس الحنجرة وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب وان لم تبلغ الحناجر حقيقة روى ان المسلمين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل من شئ نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر قال نعم قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا

(وتظنون بالله الظنونا) خطاب للذين آمنوا ومنهم الثبت القلوب والاقدام والضعاف القلوب الذين هم على حرف والمنافقون الاولون بالله انه يبتليهم فيخافوا الزال وضعف الاحتمال وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم قرأ ابو عمرو وحمزة الظنون بغير الف في الوصل والوقف وهو القياس وبالالف فيهما مدنى وشامى وأبو بكر اجراء للوصل مجرى الوقف وبالالف فى الوقف مكى وعلى ومثله الرسولا والسبيلا زادوها فى الفاصلة كما زادها فى القافية من قال * أقلى اللوم عاذل والعتابا * وهن كلهن فى الامام بالالف (هنالك ابتلى المؤمنون) امتحنوا بالصبر على الايمان (وزلزلوا زلزالا شديدا) وحركوا بالخوف تحريكا بليغا (واذ يقول المنافقون) معتب الاول (والذين فى قلوبهم مرض) قيل هو وصف المنافقين بالواو كقوله الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم * وقيل هم قوم لا بصيرة لهم فى الدين كان المنافقون يستميلونهم بادخال الشبه عليهم (ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) روى ان معتب بن قشير حين رأى الاحزاب قال يعدنا محمد ٥٠٤ فتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر ان يتبرز فرقا ما هذا الا وعد غرور (واذ قالت طائفة

من المنافقين وهم عبد الله ابن أبى واصحابه (يا أهل يثرب) هم اهل المدينة (لا مقام لكم) وبضم الميم حفص اى لا قرار لكم ههنا ولا مكان تقومون فيه او تقيمون (فارجعوا) عن الايمان الى الكفر او من عسكر رسول الله الى المدينة (ويستأذن فريق منهم النبي) اى بنو حارثة (يقولون ان بيوتنا عورة) اى ذات عورة (وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا) العورة الخلل والعورة ذات العورة وهى قراءة ابن عباس يقال عور المكان عورا اذا بدا منه خلل يخاف منه العدو والسارق ويجوز ان يكون عورة تخفيف عورة اعتذروا

على التمثيل عبر به عن شدة الخوف وقيل معناه انهم جبنوا وسبيل الجبان اذا اشتد خوفه ان تنتفخ واذا انتفخت رئته رفعت القلب الى الحنجرة فلهذا يقال للجبان انتفخ سحره (وتظنون بالله الظنونا) اختلفت الظنون بالله فظن المنافقون استئصال محمد وأصحابه وظن المؤمنون النصر والظفر لهم (هنالك ابتلى المؤمنون) اى عند ذلك اختبر المؤمنون بالحصر والقتال ليتبين المخلصون من المنافقين (وزلزلوا زلزالا شديدا) اى حركوا حركة شديدة (واذ يقول المنافقون) يعنى معتب بن قشير وقيل عبد الله بن أبى وأصحابه (والذين فى قلوبهم مرض) اى شك وضعف اعتقاد (ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) قول اهل النفاق يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع ان يجاوز رحله هذا هو الغرور (واذ قالت طائفة منهم) اى من المنافقين وهم اوس بن قيظى وأصحابه (يا أهل يثرب) يا أهل المدينة وقيل يثرب اسم الارض ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ناحية منها سميت يثرب برجل من العمالق كان قد نزلها فى قديم الزمان وفى بعض الاخبار ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى ان تسمى المدينة يثرب وقال هى طيبة كأنه كره هذه اللفظة لما فيها من التثريب وهو التقريع والتوبيخ (لا مقام لكم) اى لا مكان لكم تنزلون وتقيمون فيه (فارجعوا) اى الى منازلكم وقيل عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقيل عن القتال (ويستأذن فريق منهم النبى) يعنى بنى حارثة وبنى سلمة (يقولون ان بيوتنا عورة) اى خالية ضائعة وهى مما يلى العدو ويخشى عليها السراق فكذبهم الله تعالى فقال (وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا) اى انهم لا يخافون ذلك انما يريدون الفرار من القتال (ولو دخلت عليهم من اقطارها) يعنى لو دخل هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم وهم الاحزاب من نواحى المدينة وجوانبها (ثم سئلوا الفتنة) اى الشرك (لآتوها) اى لجاؤها وفعلوها ورجعوا عن الاسلام (وما تلبثوا بها) اى ما احتبسوا عن الفتنة (الا يسيرا) اى لاسرعوا الاجابة الى الشرك طيبة به نفوسهم ومعناه وما أقاموا بالمدينة بعد اعطاء الكفر الا قليلا حتى يهلكوا قوله عز وجل (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل) اى من قبل غزوة الخندق (لا يولون الادبار) اى لا ينهزمون قيل هم بنو حارثة هموا

أن بيوتهم عرضة للعدو والسارق لانها غير محصنة فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا اليه فاكذبهم الله بانهم لا يخافون ذلك وانما يريدون الفرار من القتال (ولو دخلت عليهم) المدينة او بيوتهم من قولك دخلت على فلان داره (من أقطارها) من جوانبها اى ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التى يقرون خوفا منها مدينتهم او بيوتهم من نواحيها كلها واتتهم من أهاليهم واولادهم ناهبين سابين (ثم سئلوا) عند ذلك الفزع (الفتنة) اى الردة والرجعة الى الكفر ومقاتلة المسلمين (لآتوها) لاعطوها بالمد مجازى اى لجاؤها وفعلوها (وما تلبثوا بها) باجابتها (الا يسيرا) ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف او مدة يسيرة بالمدينة بعد ارتدادهم الا يسيرا فان الله يهلكهم والمعنى انهم يتعللون باعوار بيوتهم ليفروا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وعن مصافة الاحزاب الذين ملؤهم هولا ورعبا وهؤلاء الاحزاب كلهم لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر وقيل لهم كونوا على المسلمين لسارعوا اليه وما تعللوا بشئ وما ذلك الا لقتهم الاسلام وحبهم الكفر (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل) اى بنو حارثة من قبل الخندق او من قبل نظرهم الى الاحزاب (لا يولون الادبار) منهزمين

وكان عهد الله مسؤلا) مطلوبا مقتضى حتى يوفى به (قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت او القتل واذا لا تمتعون الا قليلا) اى ان
ن حضر اجلكم لم ينفعكم الفرار وان لم يحضر وفررتم لم تمتعوا فى الدنيا الا قليلا وهو مدة اعماركم وذلك قليل وعن بعض المروانية انه
بحائط مائل فأسرع فتليت له هذه الآية فقال ذلك القليل نطلب (قل من ذا الذى يعصمكم من الله) اى مما أراد الله انزاله بكم (ان
و بكم سوا) فى أنفسكم من قتل او غيره (او أراد بكم رحمة) اى اطالة عمر فى عافية وسلامة او من يمنع الله من ان يرحكم ان أراد بكم رحمة لما
ى العصمة من معنى المنع (ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) ناصرا (قد يعلم الله ... المعوقين منكم) اى من يعوق

حد أن يفشلوا مع بنى سلمة فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ان لا يعودوا لمثلها وقيل هم أناس غابوا عن وقعة
ر فلما رأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة قالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن فساق الله
يهم ذلك (وكان عهد الله مسؤلا) اى عنده فى الآخرة (قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت
والقتل) يعنى الذى كتب عليكم لان من حضر أجله مات او قتل لا بد من ذلك (واذا لا تمتعون) اى بعد
فرار (الا قليلا) اى مدة آجالكم وهى قليل (قل من ذا الذى يعصمكم) اى يمنعكم (من الله ان أراد
بكم سوا) اى هزيمة (او أراد بكم رحمة) اى نصرا (ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) اى ناصرا
يمنعهم (قد يعلم الله المعوقين منكم) اى المثبطين الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (والقائلين
لاخوانهم هلم الينا) اى ارجعوا الينا ودعوا محمدا صلى الله عليه وسلم فلا تشهدوا معه الحرب فانا نخاف
عليكم الهلاك قيل هم أناس من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون لهم ما محمد
وأصحابه الا أكلة رأس ولو كانوا الجمالا تنهمهم اى ابتلعهم أبو سفيان وأصحابه دعوا الرجل فانه هالك وقيل
نزلت فى المنافقين وذلك ان اليهود ارسلت اليهم ما الذى يحملكم على قتل انفسكم ببدا بى سفيان ومن معه
فانهم ان قدروا عليكم فى هذه المرة لم يستبقوا منكم احدا وانا نشفق عليكم فانتم اخواننا وجيراننا هلموا الينا
وقيل عبد الله بن أبى ابن سلول واصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بابى سفيان ومن معه وقالوا
لئن قدر اليوم عليكم لم يستبق منكم احدا أما ترجعون عن محمد ما عنده خير ما هو الا ان يقتلنا ههنا انطلقوا
بنا الى اخواننا يعنى اليهود فلم يزدد المؤمنون بقول المنافقين الا ايمانا واحتسابا وقوله تعالى (ولا يأتون
البأس) يعنى الحرب (الا قليلا) اى رياء وسمعة من غير احتساب ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيرا (أشحة
عليكم) اى بخلاء بالنفقة فى سبيل الله والنصرة وصفهم الله بالبخل والجبن (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون
اليك تدور أعينهم) اى فى رؤسهم من الخوف والجبن (كالذى يغشى عليه من الموت) اى كدوران عين
الذى قرب من الموت وغشيه اسبابه فانه يذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف (فاذا ذهب الخوف) اى
زال (سلقوكم) اى آذوكم ورموكم فى حالة الامن (بألسنة حداد) اى ذربة تفعل كفعل الحديد قال ابن
عباس معناه عضوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة وقيل بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة يقولون
اعطونا فانا شهدنا معكم القتال فلستم باحق بالغنيمة منا فهم عند الغنيمة اشحج قوم وعند الحرب اجبن قوم
(أشحة على الخير) اى يشاحون المؤمنين عند الغنيمة فعلى هذا المعنى يكون المراد بالخير المال (أولئك لم
يؤمنوا) اى لم يؤمنوا حقيقة الايمان وان اظهروا الايمان لفظا (فاحبط الله أعمالهم) اى التى كانوا
يأتون بها مع المسلمين قيل هى الجهاد وغيره (وكان ذلك على الله يسيرا) اى احباط اعمالهم مع ان كل
شئ على الله يسير قوله تعالى (يحسبون) يعنى هؤلاء المنافقين (الاحزاب) يعنى قريشا وغطفان واليهود

عن نصرة رسول الله صلى
الله عليه وسلم اى يمنع وهم
المنافقون (والقائلين
لاخوانهم) فى الظاهر
من المسلمين (هلم الينا)
اى قربوا أنفسكم الينا
ودعوا محمدا وهى لغة
اهل الحجاز فانهم يسوون
فيه بين الواحد والجماعة
واما تميم فيقولون هلم
يا رجل وهلموا يا رجال
وهو صوت سمى به فعل
متعد نحو احضر وقرب
(ولا يأتون البأس) اى
الحرب (الا قليلا) الا اتيانا
قليلا اى يحضرون ساعة
رياء ويقفون قليلا
مقدار ما يرى شهودهم
ثم ينصرفون (أشحة)
جمع شحيح وهو البخيل
نصب على الحال من
الضمير فى يأتون اى يأتون
الحرب بخلاء (عليكم)
بالظفر والغنيمة (فاذا جاء
الخوف) من قبل العدو
أو منه عليه السلام
(رأيتهم ينظرون اليك)

فى تلك الحالة (تدور أعينهم) يمينا وشمالا (كالذى يغشى عليه من الموت) كما ينظر المغشى
عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخوفا ولو اذا بك (فاذا ذهب الخوف) وأمنوا وجزئت الغنائم (سلقوكم بالسنة
حداد) خاطبوكم مخاطبة شديدة وآذوكم بالكلام خطيب مسلق فصيح ورجل مسلاق مبالغ فى الكلام اى يقولون وفروا قسمتنا فانا
قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم (أشحة على الخير) اى خاطبوكم أشحة على المال والغنيمة وأشحة حال من فاعل سلقوكم
(أولئك لم يؤمنوا) فى الحقيقة بل بالالسنة (فاحبط الله أعمالهم) ابطل باضمارهم الكفر ما أظهروه من الاعمال (وكان ذلك)
احباط اعمالهم (على الله يسيرا) هينا (يحسبون الاحزاب

لم يذهبوا) اى لجبنهم يظنون ان الاحزاب لم ينهزموا ولم ينصرفوا مع انهم قد انصرفوا (وان يأت الاحزاب) كرة ثانية (يودوا لو انهم بادون فى الاعراب) البادون جمع البادى اى يتمنى المنافقون لجبنهم انهم خارجون من المدينة الى البادية حاصلون بين الاعراب لبعدهم على أنفسهم و يعتزلوا عما فيه الخوف من القتال (يسئلون) كل قادم منهم من جانب المدينة (عن أنبائكم) عن اخباركم وعما جرى على (ولو كانوا فيكم) ولم يرجعوا الى المدينة وكان قتال (ما قاتلوا الا قليلا) رياء وسمعة (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) بالضم حيث كان عاصم اى قدوة وهو المؤتسى به اى المقتدى به كما تقول فى البيضة عشرون مناحديدا اى هى فى نفسها هذا المبلغ من الحديد اى خصلة من حقها ان يؤتسى بها حيث قاتل بنفسه (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) اى يخاف الله و يخاف اليوم الآخر أو يرجو ثواب الله ونعيم اليوم الآخر ٥٠٦ قالوا لمن بدل من لكم وفيه ضعف لانه لا يجوز البدل من ضمير المخاطب وقيل لمن يتعلق بحسنة اى أسوة حسنة كائنة لمن كان (وذكر الله كثيرا) اى فى الخوف والرجاء والشدة والرخاء (ولما رأى المؤمنون الاحزاب) وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه و يستنصروه بقوله أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم الى قوله قريب فلما جاء الاحزاب واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد (قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله و رسوله) وعلموا ان الغلبة والنصرة قد وجبت لهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ان الاحزاب سائرون اليكم فى آخر تسع ليال او عشر فلما رأوهم قد أقبلوا لليعاد قالوا ذلك

(لم يذهبوا) اى لم ينصرفوا عن قتالهم جبنا وفرقا وقد انصرفوا عنهم (وان يأت الاحزاب) اى يرجعوا اليهم للقتال بعد الذهاب (يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب) اى يتمنون لو انهم كانوا فى بادية مع الاعراب لشدة الجبن والخوف (يسئلون عن أنبائكم) اى عن اخباركم وما آل اليه امركم (ولو كانوا فيكم) يعنى هؤلاء المنافقين (ما قاتلوا الا قليلا) يعنى يقاتلون قليلا يقيمون به عذرهم فيقولون قد قاتلنا معكم وقيل هو الرمى بالحجارة وقيل رياء من غير احتساب * قوله عز وجل (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) اى قدوة صالحة اى اقتدوا به اقتداء حسنا وهو ان تنصروا دين الله وتوازروا رسوله ولا تتخلفوا عنه وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو اذ قد كسرت رباعيته وجرح وجهه وقتل عمه وأوذى بضروب الاذى فصبر وواسى مع ذلك بنفسه فافعلوا أنتم كذلك ايضا واستنوا بسنته (لمن كان يرجو الله) يعنى ان الاسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان يرجو الله قال ابن عباس يرجو ثواب الله (واليوم الآخر) يعنى و يخشى اليوم البعث الذى فيه الجزاء (وذكر الله كثيرا) اى فى جميع المواطن على السراء والضراء ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الاحزاب فقال تعالى (ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله) اى قالوا تسليما لامر الله وتصديقا بوعده (وصدق الله ورسوله) اى فيما وعدا وهو فى مقابلة قول المنافقين ما وعدنا الله و رسوله الا غرورا وقولهم وصدق الله ورسوله ليس اشارة الى ما وقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله ورسوله قبل الوقوع وانما هو اشارة الى البشارة فى جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقيل انهم وعدوا ان تلحقهم شدة و بلاء فلما رأوا الاحزاب وما أصابهم من الشدة قالوا هذا ما وعدنا الله و رسوله وصدق الله ورسوله (وما زادهم الا ايمانا) اى تصديقا بالله (وتسليما) اى لامره فوله تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) اى قاموا بما عاهدوا الله عليه ووفوا به (فمنهم من قضى نحبه) اى فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتى استشهد وقيل قضى نحبه يعنى أجله فثبت على الوفاء يعنى حمزة واصحابه وقيل قضى نحبه اى بذل جهده فى الوفاء بالعهد وقيل قضى نحبه استشهد يوم بدر وأحد (ومنهم من ينتظر) يعنى من بقى بعد هؤلاء المؤمنين ينتظر ون احد الامرين اما الشهادة او النصر على الاعداء (وما بدلوا) يعنى عهدهم (تبديلا) (ق) عن انس قال غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله غبت عن اول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما

وهذا اشارة الى الخطب والبلاء (وما زادهم) ما رأوا من اجتماع الاحزاب عليهم و مجيئهم (الا ايمانا) بالله و بمواعيده (وتسليما) لقضائه وقدره (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) اى فيما عاهدوه عليه فحذف الجار كما فى المثل صدقنى سن بكره اى صدقنى فى سن بكره بطرح الجار وايصال الفعل نذر رجال من الصحابة انهم اذا قاتلوا حاربوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة وسعيد بن زيد وحمزة ومصعب وغيرهم (فمنهم من قضى نحبه) اى مات شهيدا كحمزة ومصعب وقضاء النحب صار عبارة عن الموت لان كل حى من المحدثات لا بد له ان يموت فكأنه نذر لازم رقبته فاذا مات فقد قضى نحبه اى نذره (ومنهم من ينتظر) الموت اى على الشهادة كعثمان وطلحة (وما بدلوا) العهد (تبديلا) ولا غيروا لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة وفيه تعريض لمن بدلوا من اهل النفاق ومرض القلوب كما مر فى قوله تعالى ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار

(ليجزى الله الصادقين بصدقهم) بوفائهم بالعهد (ويعذب المنافقين ان شاء) اذا لم يتوبوا (او يتوب عليهم) ان تابوا (ان الله كان غفورا) بقبول التوبة (رحيما) بعفو الحوبة جعل المنافقون كانهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لان كلا الفريقين مسوق الى عاقبته من الثواب والعقاب فكانهما استويا فى طلبها والسعى فى تحصيلها (ورد الله الذين كفروا) الاحزاب (بغيظهم) حال اى مغيظين كقوله تنبت بالدهن (لم ينالوا خيرا) ظفرا اى لم يظفروا بالمسلمين وسماه خيرا بزعمهم وهو حال اى غير ظافرين (وكفى الله المؤمنين القتال) بالريح والملائكة (وكان الله قويا ٥٠٧ عزيزا) قادرا غالبا (وأنزل الذين ظاهروهم) عاونوا الاحزاب (من أهل الكتاب) من بنى قريظة (من صياصيهم) من حصونهم الصيصية ما تحصن به روى ان جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التى انهزم فيها الاحزاب ورجع المسلمون الى المدينة ووضعوا سلاحهم على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج فقال ما هذا يا جبريل قال من متابعة قريش فقال يا رسول الله ان الله يأمرك بالمسير الى بنى قريظة وأنا عامد اليهم فان الله داقهم دق البيض على الصفا وانهم لكم طعمة فاذن فى الناس ان من كان سامعا مطيعا فلا يصلى العصر الا فى بنى قريظة فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزلون على حكمى فابوا فقال على حكم

ما صنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال اللهم انى اعتذر اليك مما صنع هؤلاء يعنى اصحابه وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر انى اجد ريحها من دون أحد قال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع قال انس فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف او طعنة برمح او رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه احد الا أخته ببنانه قال أنس كنا نرى او نظن ان هذه الآية نزلت فيه وفى اشباهه من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه الى آخر الآية (ق) عن خباب بن الارت قال هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله فوقع اجرنا على الله فمنا من مات ولم يأكل من اجره شيأ منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد وترك نمرة وكنا اذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه واذا غطينا بها رجليه بدت رأسه فامرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نغطى رأسه ونجعل على رجليه من الاذخر ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها النمرة كساء ملون من صوف وقوله ومنا من أينعت اى ادركت ونضجت له ثمرته وهذه استعارة لما فتح الله لهم من الدنيا وقوله يهدبها اى يجتنيها ويقطفها * عن ابى موسى بن طلحة قال دخلت على معاوية فقال الا أبشرك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول طلحة ممن قضى نحبه اخرجه الترمذى وقال هذا حديث غريب (خ) عن قيس بن ابى حازم قال رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد * قوله عز وجل (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) اى جزاء صدقهم وصدقهم هو الوفاء بالعهد (ويعذب المنافقين ان شاء او يتوب عليهم) اى فيهديهم الى الايمان ويشرح له صدورهم (ان الله كان غفورا رحيما ورد الله الذين كفروا) اى من قريش وغطفان (بغيظهم) اى لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا (لم ينالوا خيرا) اى ظفرا (وكفى الله المؤمنين القتال) اى بالملائكة والريح (وكان الله قويا) اى فى ملكه (عزيزا) اى فى انتقامه قوله تعالى (وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب) اى عاونوا الاحزاب من قريش وغطفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين وهم بنو قريظة (من صياصيهم) اى من حصونهم ومعاقلهم واحدها صيصية (وقذف فى قلوبهم الرعب) اى الخوف (فريقا تقتلون) يعنى الرجال يقال كانوا سبعمائة (وتأسرون فريقا) يعنى النساء والذرارى يقال كانوا سبعمائة قيل وخمسين (وأورثكم ارضهم وديارهم وأموالهم وارضا لم تطؤها) يعنى بعد قيل هى خيبر ويقال انها مكة وقيل فارس والروم وقيل هى كل أرض تفتح على المسلمين الى يوم القيامة (وكان الله على كل شئ قديرا)

* (ذكر غزوة بنى قريظة) *

قيل كانت فى آخر ذى القعدة سنة خمس وعلى قول البخارى المتقدم فى غزوة الخندق عن موسى بن عقبة

سعد بن معاذ فرضوا به فقال سعد حكمت فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم فكبر النبى صلى الله عليه وسلم وقال لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ثم استنزلهم وخندق فى سوق المدينة خندقا وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ستمائة الى تسعمائة وقيل كانوا سبعمائة مقاتل وسبعمائة أسير (وقذف فى قلوبهم الرعب) الخوف وبضم العين شامى وعلى ونصب (فريقا) بقوله (تقتلون) وهم الرجال (وتأسرون فريقا) وهم النساء والذرارى (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم) اى المواشى والنقود والامتعة روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الانصار وقال لهم انكم فى منازلكم (وأرضا لم تطؤها) بقصد القتال وهى مكة او فارس والروم او خيبر أو كل أرض تفتح الى يوم القيامة (وكان الله على كل شئ قديرا) قادرا

انها كانت فى سنة اربع قال العلماء بالسير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اصبح من الليلة
انصرف الاحزاب راجعين الى بلادهم انصرف صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عن الخندق الى المد
ووضعوا السلاح فلما كان الظهر اتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم متعمما
من استبرق على بغلة بيضاء عليها رحالة وعليها قطيفة من ديباج ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند
بنت جحش وهى تغسل رأسه وقد غسلت شقه فقال جبريل يا رسول الله قد وضعت السلاح قال نع
جبريل عفا الله عنك ما وضعت الملائكة السلاح منذ ارابعين ليلة وما رجعت الآن الا من طلب
وروى انه كان الغبار على وجه جبريل وفرسه فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن
ووجه فرسه فقال ان الله تعالى يأمرك بالمسير الى بنى قريظة وأنا عامد الى بنى قريظة فانهز اليهم
قطعت اوتارهم وفتحت ابوابهم وتركتهم فى زلزال وبلبال فامر النبى صلى الله عليه وسلم مناديا فاذن
كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن ابى
برايته اليهم وابتدرها الناس وسار على حتى اذا دنا من الحصون سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله صل
عليه وسلم فرجع حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق فقال يا رسول الله لا عليك ان لا تدن
هؤلاء الاخابث قال أظنك سمعت لى منهم اذى قال نعم يا رسول الله قال لو قد رأونى لم يقولوا من ذلك
فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال يا اخوان القردة قد أخزاكم الله وانزل بكم نق
قالوا يا ابا القاسم ما كنت جهولا ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم على اصحابه بالصورين قبل ان يص
بنى قريظة فقال هل مر بكم احد فقالوا يا رسول الله مر بنا دحية بن خليفة على بغلة بيضاء عليها رحالة و
قطيفة ديباج فقال صلى الله عليه وسلم ذاك جبريل عليه السلام بعث الى بنى قريظة يزلزل بهم حصو
ويقذف الرعب فى قلوبهم فلما اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة نزل على بئر من آبارهم
ناحية أموالهم وتلاحق به الناس فاتاه رجال بعد صلاة العشاء الاخيرة ولم يصلوا العصر لقول النبى صل
عليه وسلم لا يصلين احد العصر الا فى بنى قريظة فصلوا العصر بها بعد العشاء الاخيرة فعاتبهم الله
ولا عنفهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العلماء حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعش
ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب وكان حيى بن اخطب دخل على بنى قر
حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ووفى لكعب بن أسد بما كان عاهده فلما ايقنوا ان رس
الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد يا معشر اليهود انكم قد نز
من الامر ما ترون وانى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم قالوا وما هن قال نتابع هذا الر
ونصدقه فوالله لقد تبين لكم انه نبى مرسل وانه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دياركم وامو
وابنائكم ونسائكم فقالوا لا نفارق حكم التوراة ابدا ولا نستبدل به غيره قال فاذ أبيتم هذه فهلم فلنقتل ابنا
ونساءنا ثم نخرج الى محمد واصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولا نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله
وبين محمد فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيأ نخشى عليه وان نظهر فلعمرى لنتخذن النساء والابناء
نقتل هؤلاء المساكين فما فى العيش بعدهم خير قال فان ابيتم هذه الليلة ليلة السبت وانه عسى ان يكو
محمد واصحابه قد أمنوا فانزلوا فلعلنا ان نصيب من محمد واصحابه غرة قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم
احدث فيه من قبلنا الا من قد علمت فاصابهم من المسخ ما لم يخف عليك قال ما بات رجل منكم منذ ول
أمه حازما ليلة من الدهر ثم انهم بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابعث لنا أبا لبابة بن عب
أخا بنى عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الاوس نستشيره فى أمرنا فارسله رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فل
رأوه قام اليه الرجال والنساء والصبيان يبكون فى وجهه فرق لهم فقالوا يا أبا لبابة أترى ان ننزل على

قال نعم وأشار بيده الى حلقه انه الذبح قال ابو لبابة فوالله مازالت قدماى حتى عرفت انى قد خنت
ورسوله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت النبى صلى الله عليه وسلم حتى ربط فى المسجد الى عمود
عهده وقال والله لا أبرح مكانى حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله لا يطأ أرض بنى قريظة أبدا
ولا انى الله فى بلد قد خنت الله ورسوله فيه أبدا فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وأبطأ عليه
قال اما لو قد جاءنى لاستغفرت له فاما اذ فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ثم ان الله
انزل توبة أبى لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت أم سلمة قالت ام سلمة فسمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يضحك فقلت مم ضحكت يارسول الله أضحك الله سنك قال تيب على أبى لبابة فقلت
أفلا أبشره بذلك يارسول الله قال بلى ان شئت قال فقامت على باب حجرتها وذلك قبل ان يضرب عليهن
الحجاب فقالت يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك قال فثار الناس اليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون
رسول الله هو الذى يطلقنى بيده فلما مر عليه خارجا الى الصبح أطلقه قال ثم ان ثعلبة بن سعيد واسيد بن
سعد واسد بن عبيد وهم نفر من بنى هذيل ليسوا من قريظة ولا النضير نسبهم من فوق ذلك هم بنو عم
القوم أسلموا تلك الليلة التى نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج فى تلك
الليلة عمرو بن السعدى القرظى فربط رس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهم محمد بن مسلمة الانصارى
حتى الليلة فلما رآه قال من هذا قال عمرو بن السعدى وكان عمرو قد أبى ان يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم
برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا اغدر بمحمد صلى الله عليه وسلم أبدا فقال محمد بن مسلمة اللهم
لا تحرمنى من عثرات الكرام فخلى سبيله فخرج على وجهه حتى بات فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى المدينة تلك الليلة ثم ذهب فلا يدرى أين ذهب من ارض الله فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم شانه
فقال ذاك رجل نجاه الله بوفائه وبعض الناس يزعم انه كان أوثق برمة فيمن اوثق من بنى قريظة حين
نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصبحت رمته ملقاة ولا يدرى اين ذهب فقال فيه رسول الله
صلى الله عليه وسلم تلك المقالة فلما اصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثب الاوس
وقالوا يارسول الله انهم موالينا دون الخزرج وقد فعلت فى موالى الخزرج بالامس ما قد علمت وقد كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بنى قريظة حاصر بنى قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه
فسأله اياهم عبد الله بن أبى ابن سلول فوهبهم له فلما كلمه الاوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا
ترضون يامعشر الاوس ان يحكم فيهم رجل منكم قالوا بلى قال فذلك الى سعد بن معاذ وكان سعد جعله
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجده فى خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة وكانت تداوى الجرحى
وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال
لقومه حين اصابه السهم بالخندق اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى اعوده من قريب فلما حكمه رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة اتاه قومه فحملوه على حمار قد وطؤا له وسادة من ادم وكان رجلا جسيما
ثم انبلوا معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون يا اباعمرو احسن فى موالیك فان رسول الله
صلى الله عليه وسلم انما ولاك ذلك لتحسن فيهم فلما اكثروا عليه قال قد آن لسعد ان لا تأخذه فى الله لومة
لائم فرجع بعض من كان معه من قومه الى دار بنى الاشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل ان يصل
اليهم سعد بن معاذ عن كلمته التى سمع منه فلما انتهى سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قوموا الى
سيدكم فانزلوه فقاموا اليه فقالوا يا اباعمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك موالیك فتحكم فيهم
فقال سعد عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ان الحكم فيهم ما حكمت قالوا نعم قال وعلى من ههنا فى الناحية
التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجلالا له فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم نعم قال سعد فانى أحكم فيهم ان تقتل الرجال وتقسم الاموال وتسبى الذرارى
والنساء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة ارقعة ثم استنز
فخدسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار بنت الحرث من نساء بنى النجار ثم خرج رسول الله صلى الله
عليه وسلم الى سوق المدينة التى هى سوقها اليوم فخندق بها خنادق ثم بعث اليهم فضربت اعناقهم فى
تلك الخنادق يخرج بهم ارسالا وفيهم عدو الله ورسوله حيى بن اخطب وكعب بن اسد رأس القوم وهم
ستمائة او سبعمائة والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانمائة الى التسعمائة وقد قالوا لكعب بن اسد
وهم يذهب بهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسالا يا كعب ماترى مايصنع بنا قال افى كل موطن
لا تعقلون الا ترون الداعى لا ينزع وان من يذهب به منكم لا يرجع هو والله القتل فلم يزل ذلك الدأب
حتى فرغ منهم النبى صلى الله عليه وسلم وأتى بحيى بن اخطب عدو الله وعليه حلة تفاحية قد شققها على
من كل ناحية كموضع الانملة انملة انملة لئلا يسلبها مجموعة يداه الى عنقه بحبل فلما نظر الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال والله مالمت نفسى فى عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال
ايها الناس انه لا بأس بامر الله كتاب وقدر وملحمة كتبت على بنى اسرائيل ثم جلس فضرب عنقه وروى
عن عائشة قالت لم يقتل من نساء بنى قريظة الا امرأة واحدة قالت والله انها لعندى تتحدث معى وتضحك
ظهرا وبطنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالهم بالسيف اذ هتف هاتف باسمها اين فلانة قالت
انا والله قلت ويلك مالك قالت اقتل قلت ولم قالت حدثت حدثا احدثته قالت فانطلق بها فضرب عنقها وكانت
عائشة تقول ما انسى عجبا منها طيب نفس وكثرة ضحك وقد عرفت انها تقتل قال الواقدى وكان لهذه
المرأة بنانة امرأة الحكم القرظى وكانت قتلت خلاد بن سويد قال وكان على والزبير يضربان اعناق
بنى قريظة ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس هناك وروى محمد بن اسحق عن الزهرى ان الزبير بن
باطا القرظى ويكنى اباعبد الرحمن كان قد من على ثابت بن قيس بن شماس فى الجاهلية يوم بعاث اخذ
جز ناصيته ثم خلى سبيله فجاءه يوم قريظة وهو شيخ كبير فقال يا اباعبد الرحمن هل تعرفنى قال وهل
يجهل مثلى مثلك قال انى أريد ان اجزيك بيدك عندى قال ان الكريم يجزى الكريم قال ثم اتى ثابت
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قد كان للزبير عندى يد وله على منة وقد احببت ان
اجزيه بها فهب لى دمه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو لك فاتاه فقال له ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قد وهب لى دمك قال شيخ كبير لا اهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة فاتى ثابت رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال يا رسول الله اهله واولاده فقال هم لك فاتاه فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطانى
امرأتك وولدك فهم لك فقال اهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فاتى ثابت رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال ماله يا رسول الله قال هو لك فاتاه فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اعطانى
مالك فهو لك فقال اى ثابت مافعل الذى كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيه عذارى الحى كعب بن اسد
قال قتل قال فما فعل مقدمتنا اذا شددنا وحامينا اذا كررنا عزال بن شموال قال قتل قال فما فعل الجلساء
يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة قال قتلوا قال فانى أسألك بيدى عندك يا ثابت الا ما الحقتنى
بالقوم فوالله مافى العيش بعدهؤلاء من خير فما انا بصابر حتى ألقى الاحبة فقدمه ثابت فضربت عنقه
فلما بلغ ابابكر الصديق قوله حتى يلقى الاحبة قال يلقاهم والله فى نار جهنم خالدا مخلدا أبدا قال وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امر بقتل من انبت منهم ثم قسم اموال بنى قريظة ونساءهم على المسلمين
واغنم فى ذلك اليوم سهمين للخيل وسهما للرجال فكان للفارس ثلاثة اسهم سهمان للفرس وللفارس
سهم وللراجل ممن ليس له فرس سهم وكانت الخيل ستة وثلاثين فرسا وكان اول يوم وقع فيه السهمان

يا ايها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا وزينتها) اى السعة فى الدنيا وكثرة الاموال (فتعالين) اصل تعال

ان يقوله من فى المكان المرتفع لمن فى المكان المستوطى ثم كثر حتى استوى فى استعماله الامكنة ومعنى تعالين اقبلن بارادتكن واختياركن لاحد الامرين ولم يرد نهوضهن اليه بانفسهن كقوله قام يهددنى (أمتعكن) اعطكن متعة الطلاق وتستحب المتعة لكل مطلقة الا المفوضة قبل الوطء (وأسرحكن) وأطلقكن (سراحا جميلا) لاضرار فيه أردن شيأ من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغايرن فغم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فبدأ بعائشة رضى الله عنها وكانت أحبهن اليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤى الفرح فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اختار جميعهن اختيارها وروى انه قال لعائشة انى ذاكر لك أمرا ولا عليك ان لا تعجلى فيه حتى تستامرى ابويك ثم قرأ عليها القرآن فقالت أفى هذا استأمر أبوى فانى اريد الله ورسوله والدار الآخرة وحكم التخيير فى الطلاق انه اذا قال لها اختارى فقالت اخترت

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الانصارى اخا بنى الاشهل بسبايا من سبايا بنى قريظة
لى نجد فابتاع له بهم خيلا وسلاحا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة
نت عمرو بن خنافة احدى نساء بنى عمرو بن قريظة فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفى
نها وهى فى ملكه وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على ان يتزوجها ويضرب عليها
لحجاب فقالت يا رسول الله بل تتركنى فى ملكك فهو اخف على وعليك فتركها وقد كانت حين سباها
كرهت الاسلام وابت الا اليهودية فعزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجد فى نفسه بذلك من امرها
بينما هو بين اصحابه اذ سمع وقع نعلين خلفه فقال ان هذا الثعلبة بن شعبة يبشرنى باسلام ريحانة فجاءه فقال
يا رسول الله قد اسلمت ريحانة فسره ذلك فلما قضى شان بنى قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ وذلك انه
دعا بعد ان حكم فى بنى قريظة ما حكم فقال اللهم انك قد علمت انه لم يكن قوم احب الى ان اجاهدهم من
قوم كذبوا رسولك اللهم ان كنت ابقيت من حرب قريش على رسولك شيأ فابقنى له وان كنت قد
قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضنى اليك فانفجر كلمه فرجعه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى خيمته التى
ضربت عليه فى المسجد قالت عائشة فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر فوالذى نفس
محمد بيده انى لاعرف بكاء عمر من بكاء ابى بكر وانى لفى حجرتى قالت وكانوا كما قال الله تعالى فيهم رحماء
بينهم (خ) عن سلمان بن صرد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين اجلى الاحزاب
الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير اليهم (ق) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
يقول لا اله الا الله وحده لا شريك له اعز جنده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده فلا شئ بعده قوله تعالى
يا ايها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن) اى متعة
الطلاق (وأسرحكن سراحا جميلا) اى من غير ضرر (وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان
الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) سبب نزول هذه الآية ان نساء النبى صلى الله عليه وسلم سألنه
من عرض الدنيا شيأ وطلبن منه زيادة فى النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فهجرهن رسول الله
صلى الله عليه وسلم وآلى أن لا يقربهن شهرا ولم يخرج الى أصحابه فقالوا ما شأنه وكانوا يقولون طلق رسول
الله صلى الله عليه وسلم نساءه فقال عمر لاعلمن لكم شأنه قال فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقلت يا رسول الله أطلقتهن قال لا قلت يا رسول الله انى دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله
صلى الله عليه وسلم نساءه أفأنزل فأخبرهم انك لم تطلقهن قال نعم ان شئت فقمت على باب المسجد وناديت
بأعلى صوتى لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ونزلت هذه الآية ولو ردوه الى الرسول والى أولى
الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم فكنت أنا استنبطت هذا الامر وأنزل الله آية التخيير وكان تحت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تسع نسوة خمس من قريش وهن عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت
عمر وأم حبيبة بنت أبى سفيان وأم سلمة بنت أبى أمية وسودة بنت زمعة وأربع غير قرشيات وهن
زينب بنت جحش الاسدية وميمونة بنت الحرث الهلالية وصفية بنت حيى بن أخطب الخيبرية وجويرية
بنت الحرث المصطلقية فلما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة وكانت أحبهن
اليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤى الفرح فى وجه رسول الله صلى
الله عليه وسلم وتابعنها على ذلك فلما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك وقصره عليهن فقال تعالى
لا تحل لك النساء من بعد (م) عن جابر بن عبد الله قال دخل ابو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه
وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لاحد منهم فاذن لابى بكر فدخل ثم اقبل عمر فاستأذن فاذن له

فمعنى ان تقع تطليقة بائنة واذا اختارت زوجها لم يقع شئ ومن على رضى الله عنه اذا اختارت زوجها فواحدة رجعية وان اختارت نفسها
فواحدة بائنة (وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن) من للبيان لا للتبعيض (أجرا عظيما

فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وحوله نساؤه واجما ساكتا فقال لاقولن شيأ أضحك به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله لقد رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم فقال هن حولي كما ترى يسألنني النفقة فقام ابو بكر الى عائشة تو عنقها وقام عمر الى حفصة فوجأ عنقها كلاهما يقول تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس عن قلن والله لانسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ أبدا ليس عنده ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين حتى نزلت هذه الآية يا أيها النبي قل لازواجك ان كنتن حتى بلغ للمحسنات منكن أجرا عظيما فبدأ بعائشة فقال ياعائشة اني أريد ان أعرض عليك امرا أحب ان لاتعجلي فيه حتى تستشيري أبويك قالت وماهو يارسول الله فتلا عليها الآية قالت أفيك يارسول الله استشير ابوي بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة واسألك ان لاتخبر امرأة من نسائك بالذي قلت قال لاتسألني امرأة منهن الا اخبرتها ان الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلما مبشرا (قوله واجما) اى مهتما والواجم الذي اسكته الهم وغلبته الكآبة وقيل الوجوم الحزن (قوله فوجأت عنقها) اى دققته وقوله لم يبعثني معنتا العنت المشقة والصعوبة (م) عن الزهري ان النبي صلى الله عليه وسلم أقسم ان لايدخل على ازواجه شهرا فقال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة قالت لما مضت تسع وعشرون ليلة اعدهن دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ بي فقلت يارسول الله أقسمت ان لاتدخل علينا شهرا وانك دخلت من تسع وعشرين اعدهن قال ان الشهر تسع وعشرون

(فصل في حكم الآية) اختلف العلماء في هذا الخيار هل كان ذلك تفويض الطلاق اليهن حتى يقع بنفس الاختيار ام لا فذهب الحسن وقتادة واكثر اهل العلم الى انه لم يكن تفويض الطلاق ولكن خيرهن على انهن اذا اخترن الدنيا فارقهن لقوله تعالى فتعالين امتعكن واسرحكن بدليل انه لم يكن جوابهن على الفور وانه قال لعائشة لاتعجلي حتى تستشيري ابويك وفي تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور وذهب قوم الى انه كان تفويض الطلاق ولو اخترن انفسهن كان طلاقا * التفريع على حكم الآية اختلف اهل العلم في حكم التخيير فقال عمر وابن مسعود وابن عباس اذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها لايقع شئ وان اختارت نفسها يقع طلقة واحدة وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن ابي ليلى وسفيان والشافعي واصحاب الرأي الا ان عند اصحاب الرأي يقع طلقة بائنة اذا اختارت نفسها وعند الآخرين رجعية وقال زيد بن ثابت اذا اختارت الزوج يقع طلقة واحدة واذا اختارت نفسها فثلاث وهو قول الحسن وبه قال مالك وروي عن علي انها اذا اختارت زوجها يقع طلقة واحدة واذا اختارت نفسها فطلقة بائنة واكثر العلماء على انها اذا اختارت زوجها لايقع شئ (ق) عن مسروق قال ما أبالي خيرت امرأتي واحدة او مائة او ألفا بعد أن تختارني ولقد سألت عائشة رضي الله عنها فقالت خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان طلاقا وفي رواية فاخترناه فلم يعد ذلك شيأ قوله تعالى (يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة) اى بمعصية ظاهرة قيل هو كقوله لئن أشركت ليحبطن عملك لان منهن من اتت بفاحشة فان الله تعالى صان ازواج الانبياء عن الفاحشة وقال ابن عباس المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق (يضاعف لها العذاب ضعفين) اى مثلين وسبب تضعيف العقوبة لهن لشرفهن كتضعيف عقوبة الحرة على الامة وذلك لان نسبة النبي صلى الله عليه وسلم الى غيره من الرجال كنسبة السادات الى العبيد لكونه اولى بالمؤمنين من انفسهم فكذلك أزواجه بالنسبة الى غيرهن كنسبة الحرة الى الامة (وكان ذلك على الله يسيرا) اى عذابها (ومن يقنت منكن لله ورسوله) اى تطع الله ورسوله (وتعمل صالحا نؤتها اجرها مرتين) اى مثلي أجر غيرها قيل الحسنة بعشرين حسنة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن وفيه اشارة الى

يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة) سيئة بليغة في القبح (مبينة) ظاهر فحشها من بين بمعنى تبين وبفتح الياء مكي وأبو بكر قيل هي عصيانهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن وقيل الزنا والله عاصم رسوله من ذلك (يضاعف لها العذاب) يضعف لها العذاب مكي وشامي نضعف ابو عمرو ويزيد ويعقوب (ضعفين) ضعفي عذاب غيرهن من النساء لان ماقبح من سائر النساء كان اقبح منهن فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل وليس لاحد من النساء مثل فضل نساء النبي صلى الله عليه وسلم ولذا كان الذم للعاصي العالم اشد من العاصي الجاهل لان المعصية من العالم أقبح ولذا فضل حد الاحرار على العبيد ولا يرجم الكافر (وكان ذلك) اى تضعيف العذاب عليهن (على الله يسيرا) هينا (ومن يقنت منكن لله ورسوله) القنوت الطاعة (وتعمل صالحا نؤتها) وبالياء فيهما حمزة وعلي (أجرها مرتين) مثلي ثواب غيرها

(وأعتدنا لها رزقا كريما) جليل القدر وهو الجنة (يانساء النبي لستن كأحد من النساء) اى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء اذا نصبت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساوى كن فى الفضل وأحد فى الاصل بمعنى وحد وهو الواحد ثم وضع فى النفى العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه (ان اتقيتن) ان اردتن التقوى او ان كنتن متقيات (فلا تخضعن بالقول) اى اذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب فلا تجئن بقول لكن خاضعا اى لينا خنثا مثل كلام المريبات (فيطمع) بالنصب على جواب النهى (الذى فى قلبه مرض) ريبة وفجور (وقلن قولا معروفا) حسنا مع كونه خشنا ٥١٣ (وقرن) مدنى وعاصم غير هبيرة

من أشرف نساء العالمين (وأعتدنا لها رزقا كريما) يعنى الجنة قوله تعالى (يانساء النبي لستن كأحد من النساء) قال ابن عباس يريد ليس قدركن عندى مثل قدر غيركن من النساء الصالحات انتن أكرم على وثوابكن أعظم لدى (ان اتقيتن) يعنى الله فاطعتنه فان الاكرم عند الله هو الاتقى (فلا تخضعن بالقول) اى لاتلن بالقول للرجال ولاترققن الكلام (فيطمع الذى فى قلبه مرض) اى فجور وشهوة وقيل نفاق والمعنى لاتقان قولا يجد المنافق والفاجر به سبيلا الى الطمع فيكن والمرأة مندوبة الى الغلظة فى المقال اذا خاطبت الاجانب لقطع الاطماع فيهن (وقلن قولا معروفا) اى يوجبه الدين والاسلام عند الحاجة اليه ببيان من غير خضوع وقيل القول المعروف ذكر الله تعالى * قوله عز وجل (وقرن فى بيوتكن) اى الزمن بيوتكن وقيل هو أمر من الوقار أى كن اهل وقار وسكون (ولا تبرجن تبرج) قيل هو التكسر والتغنج والتبختر وقيل هو اظهار الزينة وابراز المحاسن للرجال (الجاهلية الاولى) قيل الجاهلية الاولى هو ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وقيل هو زمن داود وسليمان عليهما السلام كانت المرأة تلبس قميصا من الدر غير مخيط الجانبين فيرى خلقها منه وقيل كان فى زمن نمرود الجبار كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشى به وسط الطريق ليس عليها شئ غيره تعرض نفسها على الرجال وقال ابن عباس الجاهلية الاولى ما بين نوح وادريس وكانت الف سنة وقيل ان بطنين من ولد آدم عليه الصلاة والسلام كان احدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكانت رجال الجبال صباحا وفى النساء دمامة وكان نساء السهل صباحا وفى الرجال دمامة وان ابليس أتى رجلا من اهل السهل وأجره نفسه وكان يخدمه واتخذ شبأ مثل الذى يزمر به الرعاة فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فاتوهم يستمعون اليه واتخذوا عيدا يجتمعون اليه فى السنة فتتبرج النساء للرجال وتتزين الرجال لهن وان رجلا من اهل الجبل هجم عليهم فى عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهن فاخبر اصحابه فاخبرهم بذلك فتحولوا اليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة فيهن فذلك قوله تعالى ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وقيل الجاهلية الاولى ما قبل الاسلام والجاهلية الاخرى قوم يفعلون مثل فعلهم فى آخر الزمان وقيل قد تذكر الاولى وان لم تكن لها أخرى (وأقمن الصلوة) اى الواجبة (وآتين الزكوة) اى المفروضة (وأطعن الله ورسوله) اى فيما امر وفيما نهى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) اى الاثم الذى نهى الله النساء عنه وقال ابن عباس يعنى عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضا وقيل الرجس الشك وقيل السوء (أهل البيت ويطهركم تطهيرا) هم نساء النبى صلى الله عليه وسلم لانهن فى بيته وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس وتلا قوله تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وهو قول عكرمة ومقاتل وذهب ابو سعيد الخدرى وجماعة من التابعين منهم مجاهد

وأصله اقررن فحذفت الراء تخفيفا وألقيت فتحتها على ما قبلها او من قار يقار اذا اجتمع والباقون قرن من وقر يقر وقارا او من قر يقر حذفت الاولى من رأى اقررن فرارا من التكرار ونقلت كسرتها الى القاف (فى بيوتكن) بضم الباء بصرى ومدنى وحفص (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى) اى القديمة والتبرج التبختر فى المشى او اظهار الزينة والتقدير ولا تبرجن تبرجا مثل تبرج النساء فى الجاهلية الاولى وهى الزمان الذى ولد فيه ابراهيم أو ما بين آدم ونوح عليهما السلام او زمن داود وسليمان والجاهلية الاخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام أو الجاهلية الاولى جاهلية الكفر قبل الاسلام والجاهلية الاخرى جاهلية الفسوق والفجور فى

الاسلام (وأقمن الصلوة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله) خص الصلاة والزكاة بالامر ثم بجميع الطاعات تفضيلا لهما لان من واظب عليهما جرتاه الى ما وراءهما (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) نصب على النداء أو على المدح وفيه دليل على ان نساءه من أهل بيته وقال عنكم لانه أريد الرجال والنساء من آله بدلالة (ويطهركم تطهيرا) من الخمسة الآثام ثم بين انه انما نهاهن وأمرهن ووعظهن لئلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم وليتصونوا عنها تقوى واستعارا للذنوب الرجس وللتقوى الطهر لان عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالارجاس وأما المحسنات فعرض منها نقى كالثوب الطاهر وفيه تنفير لاولى الالباب عن المناهى وترغيب لهم فى الاوامر

(واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله) القرآن (والحكمة) اى السنة أو بيان معانى القرآن (ان الله كان لطيفا) عالما بغوامض الاشياء (خبيرا) عالما بحقائقها اى هو عالم بافعالكن وأقوالكن فاحذرن مخالفة أمره ونهيه ومعصية رسوله ولما نزل نساء النبى صلى الله عليه وسلم مانزل قال نساء المسلمين فما نزل فينا شئ فنزلت (ان المسلمين والمسلمات) المسلم الداخل فى السلم بعد الحرب المنقاد الذى لا يعاند أو المفوض أمره الى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه الى الله (والمؤمنين) المصدقين بالله ورسوله وبما يجب أن يصدق به (والمؤمنات والقانتين) القائمين بالطاعة (والقانتات والصادقين) فى النيات والاقوال والاعمال (والصادقات والصابرين والصابرات) على الطاعات وعن السيئات (والخاشعين) المتواضعين لله بالقلوب والجوارح أو الخائفين (والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات) فرضا ونفلا (والصائمين والصائمات) فرضا ونفلا وقيل من تصدق فى كل أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين (والحافظين فروجهم) عما لا يحل (والحافظات والذاكرين الله كثيرا) بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر والمعنى والحافظات فروجهن (والذاكرات) الله فحذف لدلالة ما تقدم عليه والفرق بين عطف الاناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين لان الاولى قوله ثيبات وأبكارا فى انهما جنسان مختلفان واشتركا فى حكم واحد فلم يكن بد من توسط العاطف بينهما وأما الثانى فمن عطف

وقتادة وغيرهم الى انهم على وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم يدل عليه ماروى عن عائشة المؤمنين قالت خرج النبى صلى الله عليه وسلم ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاس فاطمة فادخلها فيه ثم جاء على فادخله فيه ثم جاء الحسن فادخله فيه ثم جاء الحسين فادخله فيه ثم قال يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا اخرجه مسلم المرط الكساء والمرجل بالحاء المنقوش عليه صور الرجال وبالجيم المنقوش عليه صور المراجل عن أم سلمة قالت ان هذه الآية نزلت فى بيتها انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا قالت وأنا جالسة عند الباب فقلت يارسول الله ألست من اهل البيت فقال انك الى خير أنت من ازواج النبى صلى الله عليه وسلم قالت وفى البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى وفاطمة وحسن وحسين فجللهم بكساء وقال اللهم هؤلاء اهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا اخرجه الترمذى وقال حديث صحيح غريب عن أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر ببابه فاطمة ستة أشهر اذا خرج الى صلاة الفجر يقول الصلاة ياأهل البيت انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وقال زيد بن أرقم اهل البيت من حرم الصدقة بعده آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس قوله تعالى (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله) يعنى القرآن (والحكمة) قيل هى السنة وقيل هى أحكام القرآن ومواعظه (ان الله كان لطيفا) اى بأولياء وأهل طاعته (خبيرا) اى بجميع خلقه * قوله عز وجل (ان المسلمين والمسلمات) الآية وذلك ان ازواج النبى صلى الله عليه وسلم قلن يارسول الله ذكر الله الرجال فى القرآن ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به انا نخاف أن لا تقبل منا طاعة فانزل الله هذه الآية عن أم عمارة الانصارية قالت أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت مالى أرى كل شئ الى الرجال وما أرى النساء يذكرن بشئ فنزلت ان المسلمين والمسلمات اخرجه الترمذى وقال حديث غريب وقيل ان أم سلمة بنت ابى أمية وأنيسة بنت كعب الانصارية قالتا للنبى صلى الله عليه وسلم مابال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء فى شئ من كتابه ونخشى أن لا يكون فيهن خير فنزلت هذه الآية وروى ان اسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن ابى طالب فدخلت على نساء النبى صلى الله عليه وسلم فقالت هل نزل فينا شئ من القرآن قلن لا فاتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ان النساء لفى خيبة وخسار قال ومم ذلك قالت لانهم يذكرن بخير كما ذكر الرجال فانزل الله ان المسلمين والمسلمات فذكرهن عشر مراتب مع الرجال فجمعهم بها معهم الاولى الاسلام وهو الانقياد لامر الله تعالى وهو قوله ان المسلمين والمسلمات الثانية الايمان وهو ان يراد به أمر الله تعالى وهو تصحيح الاعتقاد وموافقة الظاهر للباطن وهو قوله (والمؤمنين والمؤمنات) الثالثة الطاعة وهو قوله (والقانتين والقانتات) الرابعة الصدق فى الاقوال والافعال وهو قوله (والصادقين والصادقات) الخامسة الصبر على ما أمر الله وفيما ساء وسر وهو قوله (والصابرين والصابرات) السادسة الخشوع فى الصلاة وهو أن لا يلتفت وقيل هو التواضع وهو قوله (والخاشعين والخاشعات) السابعة الصدقة مما رزق الله وهو قوله (والمتصدقين والمتصدقات) الثامنة المحافظة على الصوم وهو قوله (والصائمين والصائمات) التاسعة العفة وهو قوله (والحافظين فروجهم) يعنى عما لا يحل (والحافظات) العاشرة كثرة الذكر وهو قوله (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) وقيل لا يكون العبد منهم حتى

على الصفة بحرف الجمع ومعناه ان الجامعين والجامعات لهذه الطاعات (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) على طاعاتهم * خطب رسول
الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة على مولاه زيد بن حارثة فابت وأبى اخوها عبد الله فنزلت (وما كان لمؤمن
ولا مؤمنة) اى وما صح لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة (اذا قضى الله ورسوله) اى رسول الله ٥١٥ (أمرا) من الامور (أن تكون لهم

الله قائما وقاعدا ومضطجعا وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سبق المفردون قالوا يا رسول الله
وما المفردون قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات وقال عطاء بن ابى رباح من فوض أمره الى الله فهو داخل
فى قوله ان المسلمين والمسلمات ومن أقر بان الله ربه ومحمدا رسوله ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل فى
قوله والمؤمنين والمؤمنات ومن أطاع الله فى الفرض والرسول فى السنة فهو داخل فى قوله والقانتين
والقانتات ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل فى قوله والصادقين والصادقات ومن صبر على الطاعة
وعن المعصية وعلى الرزية فهو داخل فى قوله والصابرين والصابرات ومن صلى فلم يعرف من عن يمينه
وعن شماله فهو داخل فى قوله والخاشعين والخاشعات ومن تصدق فى كل أسبوع بدرهم فهو داخل فى
قوله والمتصدقين والمتصدقات ومن صام فى كل شهر ايام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس
عشر فهو داخل فى قوله والصائمين والصائمات ومن حفظ فرجه عما لا يحل فهو داخل فى قوله والحافظين
فروجهم والحافظات ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل فى قوله والذاكرين الله كثيرا
والذاكرات (أعد الله لهم مغفرة) اى بمحو ذنوبهم (وأجرا عظيما) يعنى الجنة قوله تعالى (وما كان لمؤمن
ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم) نزلت هذه الآية فى زينب بنت جحش
الاسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأمهما أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك
ان النبي صلى الله عليه وسلم خطب زينب لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى
زيدا فى الجاهلية بعكاظ وأعتقه وتبناه فلما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب رضيت وظنت
انه يخطبها لنفسه فلما علمت انه يخطبها لزيد بن حارثة أبت وقالت أنا ابنة عمتك يا رسول الله فلا أرضاه
لنفسي وكانت بيضاء جميلة وفيها حدة وكذلك كره أخوها ذلك فانزل الله تعالى وما كان لمؤمن يعنى
عبد الله بن جحش ولا مؤمنة يعنى أخته زينب اذا قضى الله ورسوله امرا يعنى نكاح زيد لزينب أن
تكون لهم الخيرة من أمرهم اى الاختيار على ما قضى والمعنى أن يريد غير ما أراد الله او يمتنع مما أمر الله
ورسوله به (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) اى اخطأ خطأ ظاهرا فلما سمعت بذلك زينب
وأخوها رضيا وسلما وجعلت امرها بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكحها زيدا ودخل بها وساق
رسول الله صلى الله عليه وسلم اليها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا ودرعا وملحفة وخمسين مدا من طعام
وثلاثين صاعا من تمر * قوله عز وجل (واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك)
الآية نزلت فى زينب وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجها من زيد مكثت عنده حينا ثم
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اتى زيدا ذات يوم لحاجة فابصر زينب فى درع وخمار وكانت بيضاء
جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش وقعت فى نفسه واعجبه حسنها فقال سبحان الله مقلب القلوب
وانصرف فلما جاء زيد ذكرت له ذلك فظن زيد ألقى فى نفسه كراهيتها فى الوقت وأتى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال انى أريد أن أفارق صاحبتى فقال له مالك ارابك منها شئ قال لا والله يا رسول الله
ما رايت منها الا خيرا ولكنها تتعظم على بشرفها وتؤذينى بلسانها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أمسك
عليك زوجك واتق الله فى أمرها ثم ان زيدا طلقها فذلك قوله عز وجل واذ تقول للذى أنعم الله عليه

الخيرة من أمرهم) ان يختاروا من أمرهم ما شاؤا بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه واختيارهم تبعا لاختياره فقالا رضينا يا رسول الله فانكحها اياه وساق عنه اليها مهرها وانما جمع الضمير فى لهم وان كان من حقه أن يوحد لان المذكورين وقعا تحت النفى فعما كل مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير الى المعنى لا الى اللفظ ويكون بالياء كوفى والخيرة ما يتخير ودل ذلك على ان الامر للوجوب (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) فان كان العصيان عصيان ردوامتناع عن القبول فهو ضلال كفر وان كان عصيان فعل مع قبول الامر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطا وفسق (واذ تقول للذى انعم الله عليه) بالاسلام الذى هو اجل النعمة (وانعمت عليه) بالاعتاق والتبنى فهو متقلب فى نعمة الله ونعمة رسوله وهو زيد بن حارثة (امسك عليك

(زوجك) زينب بنت جحش وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ابصرها بعد ما انكحها اياه فوقعت فى نفسه فقال سبحان الله مقلب
القلوب وذلك ان نفسه كانت تجفوعنها قبل ذلك لانه يدها وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن والقى الله فى نفسه كراهة
صحبتها والرغبة عنها لرسول الله فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى اريد ان افارق صاحبتى فقال مالك ارابك منها شئ قال لا والله
ما رايت منها الا خيرا ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذينى فقال له امسك عليك زوجك

اى بالاسلام وأنعمت عليه اى بالاعتاق وهو زيد بن حارثة مولاه أمسك عليك زوجك يعنى زينب بنت جحش (واتق الله) اى فيها ولا تفارقها (وتخفى فى نفسك) اى تسر وتضمر فى نفسك (ما الله مبديه) اى مظهره قيل كان فى قلبه لو فارقها تزوجها قال ابن عباس جبها وقيل ودانه طلقها (وتخشى الناس) قال ابن عباس تستحييهم وقيل تخاف لائمهم ان يقولوا أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها (والله أحق ان تخشاه) قال عمر وابن مسعود وعائشة ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هى اشد عليه من هذه الآية وعن عائشة قالت لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى لكتم هذه الآية واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه اخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب

(فصل) فان قلت ماذكروه فى تفسير هذه الآية وسبب نزولها من وقوع محبتها فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم عند مارآها وارادته طلاق زيد لها فيه اعظم الحرج ومالا يليق بمنصبه صلى الله عليه وسلم من مدعينه لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا قلت هذا اقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبى صلى الله عليه وسلم وبفضله وكيف يقال رآها فاعجبته وهى بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كان النساء يحتجبن منه صلى الله عليه وسلم وهو زوج الزيد فلا شك فى تنزيه النبى صلى الله عليه وسلم عن أن يأمر زيدا بامساكها وهو يحب تطليقه اياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين وأصح ما فى هذا الباب ما روى عن سفيان بن عيينة عن على بن زيد بن جدعان قال سألنى زين العابدين على بن الحسين قال ما يقول الحسن فى قوله تعالى وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه قلت يقول لما جاء زيد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى أريد أن أطلق زينب أعجبه ذلك وقال أمسك عليك زوجك واتق الله فقال على بن الحسين ليس كذلك فان الله عز وجل قد أعلمه انها ستكون من أزواجه وأن زيدا سيطلقها فلما جاء زيد قال انى أريد أن اطلقها قال له أمسك عليك زوجك فعاتبه الله تعالى وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك انها ستكون من أزواجك وهذا هو الاولى والاليق بحال الانبياء وهو مطابق للتلاوة لان الله تعالى أعلم انه يبدى ويظهر ما اخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى زوجناكها فلو كان الذى أضمره رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها او ارادة طلاقها لكان يظهر ذلك لانه لا يجوز ان يخبر انه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره فدل على انه انما عوتب على اخفاء ما اعلمه الله انها ستكون زوجته وانما أخفى ذلك استحياء ان يخبر زيدا ان التى تحته وفى نكاحه ستكون زوجتى وهذا قول حسن مرضى وكم من شئ يتحفظ منه الانسان ويستحيى من اطلاع الناس عليه وهو فى نفسه مباح متسع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله وربما كان الدخول فى ذلك المباح سلما الى حصول واجبات يعظم أثرها فى الدين وهو انما جعل الله طلاق زيد وتزويج النبى صلى الله عليه وسلم اياها لازالة حرمة التبنى وابطال سنته كما قال الله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم وقال لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم فان قلت فما الفائدة فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم زيدا بامساكها قلت هو ان الله تعالى اعلم نبيه انها زوجته فنهاه النبى صلى الله عليه وسلم عن طلاقها واخفى فى نفسه ما اعلمه الله به فلما طلقها زيد خشى قول الناس يتزوج امرأة ابنه فاراد الله تعالى بزواجها المباح مثل ذلك لامته وقيل كان فى امره بامساكها تعاتبا للشهوة وردا للنفس عن هواها وهذا اذا جوزنا القول المتقدم الذى ذكره المفسرون وهو انه اخفى محبتها او نكاحها لو طلقها زيد ومثل ذلك لا يقدح فى حال الانبياء مع ان العبد غير ملوم على ما يقع فى قلبه من مثل هذه الاشياء وانه رآها فجاة فاستحسنها ومثل هذا لا نكرة فيه لما طبع عليه البشر من استحسان الحسن ونظرة الفجاة معفو عنها لم يقصد مأثما لان الود وميل النفس من طبع البشر والله أعلم وقوله امسك عليك زوجك واتق

(واتق الله) فلا تطلقها وهو نهى تنزيه اذ الاولى ان لا يطلق او واتق الله فلا تذمها بالنسبة الى الكبر واذى الزوج (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) اى تخفى فى نفسك نكاحها ان طلقها زيد وهو الذى ابداه الله تعالى وقيل الذى اخفى فى نفسه تعلق قلبه بها ومودة مفارقة زيد اياها والواو فى وتخفى فى نفسك (وتخشى الناس) اى قالة الناس انه نكح امرأة ابنه (والله احق ان تخشاه) واو الحال اى تقول لزيد امسك عليك زوجك مخفيا فى نفسك ارادة ان لا يمسكها وتخفى خاشيا قالة الناس وتخشى الناس حقيقة فى ذلك بان تخشى الله وعن عائشة رضى الله عنها لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ مما اوحى اليه لكتم هذه الآية

(فلما قضى زيد منها وطرا) الوطر الحاجة فاذا بلغ البالغ حاجته من شئ له فيه همة قيل قضى منه وطره والمعنى فلما لم يبق لزيد فيها حاجة وتقاصرت عنها همته وطلقها وانقضت عدتها (زوجناكها) روى انها لما اعتدت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد ما أجد أحدا اوثق فى نفسى منك اخطب على زينب قال زيد فانطلقت وقلت يا زينب أبشرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك ففرحت وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بها وما أولم على امرأة من نسائه ما اولم عليها ٥١٧ ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا) قيل قضاء الوطر ادراك الحاجة وبلوغ المراد منه (وكان أمر الله) الذى يريدان يكونه (مفعولا) مكونا لا محالة وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له) أحل له وأمره وهو نكاح زينب امرأة زيد او قدر له من عدد النساء (سنة الله) اسم موضوع موضع المصدر كقولهم ترابا وجندلا مؤكد لقوله ما كان على النبى من حرج كانه قيل سن الله ذلك سنة فى الانبياء الماضين وهو ان لا يحرج عليهم فى الاقدام على ما اباح لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره وقد كانت تحتهم المهائر والسرارى وكانت لداود مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان ثلثمائة حرة وسبعمائة

الله امر بالمعروف وهو حسن لا اثم فيه وقوله والله احق ان تخشاه لم يرد به انه لم يكن يخشى الله فيما سبق فانه عليه الصلاة والسلام قد قال انا اخشاكم لله واتقاكم له ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر ان الله أحق بالخشية فى عموم الاحوال فى جميع الاشياء * قوله عز وجل (فلما قضى زيد منها وطرا) اى حاجته منها ولم يبق له فيها ارب وتقاصرت همته عنها وطابت عنها نفسه وطلقها وانقضت عدتها وذكر قضاء الوطر ليعلم ان زوجة المتبنى تحل بعد الدخول بها (زوجناكها) قال انس كانت زينب تفخر على ازواج النبى صلى الله عليه وسلم تقول زوجكن آباؤكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات وقال الشعبى كانت زينب تقول للنبى صلى الله عليه وسلم انى لأدل عليك بثلاث ما من امرأة من نسائك تدل بهن جدى وجدك واحد وانى انكحنيك الله فى السماء وان السفير جبريل عليه السلام (م) عن انس قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد اذهب فاذكرها على قال فانطلق زيد حتى اتاها وهى تخمر عجينها قال فلما رايتها عظمت فى صدرى حتى ما استطيع ان انظر اليها لان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى فقلت يا زينب ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك قالت ما انا بصانعة شيأ حتى أؤامر ربى فقامت الى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير اذن قال فلقد رايتنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبقى اناس يتحدثون فى البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت اهلك قال فما ادرى انا اخبرته ان القوم قد خرجوا ام غيرى قال فانطلق حتى دخل البيت وذهبت لادخل معه فالقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب (ق) عن انس قال ما اولم النبى صلى الله عليه وسلم على شئ من نسائه ما اولم على زينب اولم بشاة وفى رواية اكثر وافضل ما اولم على زينب قال ثابت بم اولم قال اطعمهم خبزا ولحما حتى تركوه * قوله عز وجل (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) اى اثم (فى ازواج ادعيائهم) جمع الدعى وهو المتبنى (اذا قضوا منهن وطرا) يقول زوجناكها زينب وهى امرأة زيد الذى كنت تبنيته ليعلم ان زوجة المتبنى حلال للمتبنى وان كان قد دخل بها المتبنى بخلاف امرأة ابن الصلب فانها لا تحل للاب (وكان امر الله مفعولا) اى قضاء الله ماضيا وحكمه نافذا وقد قضى فى زينب ان يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له) اى فيما احل الله له من النكاح وغيره (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) معناه سن الله سنة فى الانبياء وهو ان لا حرج عليهم فى الاقدام على ما اباح لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره فانه كان لهم الحرائر والسرارى فقد كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ثلثمائة امرأة وستمائة سرية فكذلك سن لمحمد صلى الله عليه وسلم فى التوسعة عليه كما سن لهم ووسع عليهم (وكان امر الله قدرا مقدورا) اى قضاء مقضيا ان لا حرج على احد فيما احل له ثم اثنى الله تعالى على الانبياء بقوله (الذين يبلغون رسالات الله) اى فرائض الله وسننه واوامره ونواهيه الى من ارسلوا اليهم (ويخشونه) اى يخافونه (ولا يخشون احدا الا الله) اى لا يخافون قالة

سرية (فى الذين خلوا من قبل) فى الانبياء الذين مضوا من قبل (وكان أمر الله قدرا مقدورا) قضاء مقضيا وحكما مبتوتا ولا وقف عليه ان جعلت (الذين يبلغون رسالات الله) بدلا من الذين الاول وقف ان جعلته فى محل الرفع او النصب على المدح اى هم الذين يبلغون او اعنى الذين يبلغون (ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله) وصف الانبياء بانهم لا يخشون الا الله تعريض بعد التصريح فى قوله وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه

(وكفى بالله حسيبا) كافيا للمخاوف ومحاسبا على الصغيرة والكبيرة فكان جديرا بان تخشى منه (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) لم يكن أبا رجل منكم حقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الاب وولده من حرمة الصهر والنكاح والمراد من رجالكم البالغون والحسن والحسين لم يكونا بالغين حينئذ والطاهر والطيب والقاسم وابراهيم توفوا صبيانا (ولكن) كان (رسول الله) وكل رسول ابوامته فيما يرجع الى وجوب ٥١٨ التوقير والتعظيم له عليهم ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا في سائر الاحكام التي بين الآباء والابناء وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة فكان حكمه كحكمهم والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير (وخاتم النبيين) بفتح التاء عاصم بمعنى الطابع اى آخرهم يعني لا ينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم كانه بعض امته وغيره بكسر التاء بمعنى الطابع وفاعل الختم وتقويه قراءة ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين (وكان الله بكل شئ عليما يا ايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) اثنوا عليه بضروب الثناء واكثروا ذلك (وسبحوه بكرة) اول النهار (واصيلا) آخر النهار وخصا بالذكر لان ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما وعن قتادة قولوا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والفعلان اى اذكروا الله وسبحوه موجهان الى البكرة والاصيل كقولك صم وصل

الكلمات

الناس ولائمتهم فيما احل لهم وفرض عليهم (وكفى بالله حسيبا) اى حافظا لاعمال خلقه ومحاسبا * قوله عز وجل (ما كان محمد أبا احد من رجالكم) وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب قال الناس ان محمدا تزوج امرأة ابنه فانزل الله ما كان محمد ابا احد من رجالكم يعني زيدا حارثة والمعنى انه لم يكن اب رجل منكم على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الاب وولده من حرمة الصهر والنكاح فان قلت قد كان له ابناء القاسم والطيب والطاهر وابراهيم وقال للحسن انى هذا سيد قلت قد اخرجوا من حكم النفي بقوله من رجالكم وهؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال وقيل اراد بالرجال الذين لم يلدهم (ولكن رسول الله) اى ان كل رسول هو ابو امته فيما يرجع الى وجوب التوقير والتعظيم له ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه (وخاتم النبيين) ختم الله به النبيين فلا نبوة بعده اى ولا معه قال ابن عباس يريد لم أختم به النبيين فجعلت له ابنا يكون بعده نبيا وعنه قال ان الله لما حكم ان لا نبي بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصير رجلا (وكان الله بكل شئ عليما) اى دخل في علمه انه لا نبي بعده فان قلت قد صح ان عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان بعده وهو نبي قلت ان عيسى عليه السلام ممن نبئ قبله وحين ينزل في آخر الزمان ينزل عاملا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ومصليا الى قبلته كانه بعض أمته (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فاحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون ويتعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين وعن جابر نحوه وفيه جئت فختمت الانبياء (ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله الكفر بي وانا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي وقد سماه الله رؤفا رحيما (م) عن أبي موسى قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يسمي لنا نفسه أسماء فقال أنا محمد وأنا أحمد وانا المقفى وانا الماحي ونبي التوبة ونبي الرحمة المقفى هو المولى الذاهب يعني آخر الانبياء المتبع لهم فاذا قفى فلا نبي بعده قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) قال ابن عباس لم يفرض الله عز وجل على عباده فريضة الا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فانه لم يجعل له حدا ينتهى اليه ولم يعذر احدا في تركه الا مغلوبا على عقله وأمرهم به في الاحوال كلها فقال تعالى فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم وقال تعالى واذكروا الله ذكرا كثيرا يعني بالليل والنهار في البر والبحر وفي الصحة والسقم وفي السر والعلانية وقيل الذكر الكثير ان لا ينساه ابدا (وسبحوه) معناه اذا ذكرتموه ينبغي لكم ان يكون ذكركم اياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء (بكرة وأصيلا) فيه اشارة الى المداومة لان ذكر الطرفين يفهم منه الوسط ايضا وقيل معناه صلوا له بكرة صلاة الصبح وأصيلا يعني صلاة العصر وقيل صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقيل معنى سبحوه قولوا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله زاد في نسخة العلي العظيم فعبر بالتسبيح عن اخواته والمراد بقوله كثيرا هذه

يوم الجمعة والتسبيح من جملة الذكر وانما اختص من بين انواعه باختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة بانابة افضله على سائر الاذكار لان معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات وجاز ان يراد بالذكر كثاره تكثير الطاعات والعبادات فانها من جملة الذكر ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وهي صلاة الفجر وأصيلا وهي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء أو صلاة الفجر والعشاءين

هو الذى يصلى عليكم وملائكته) لما كان من شأن المصلى ان ينعطف فى ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حنوا عليه وترؤفا
عائد المريض فى انعطافه عليه والمرأة فى حنوها على ولدها ثم كثر حتى استعمل فى الرحمة والترؤف ومنه قولهم صلى الله عليك اى ترحم
يك وترأف والمراد بصلاة الملائكة قولهم اللهم صل على المؤمنين جعلوا لكونهم مستجابى الدعوة كانهم فاعلون الرحمة والرأفة والمعنى
هو الذى يترحم عليكم ويترأف حين يدعوكم الى الخير ويأمركم بما كثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة (ليخرجكم من الظلمات الى
نور) من ظلمات المعصية الى نور الطاعة (وكان بالمؤمنين رحيما) هو دليل على ان المراد بالصلاة الرحمة وروى انه لما نزل ان الله
وملائكته يصلون على النبى قال أبو بكر ما خصك الله يا رسول الله بشرف الا وقد أشركنا فيه فنزلت (تحيتهم) من اضافة المصدر الى
المفعول اى تحية الله لهم (يوم يلقونه) يرونه (سلام) يقول الله تبارك وتعالى السلام عليكم (وأعدلهم أجرا كريما) يعنى الجنة (يا ايها
النبى انا أرسلناك شاهدا) على من بعثت اليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم أى مقبولا ٥١٩ قولك عند الله لهم وعليهم كما يقبل

الكلمات يقولها الطاهر والجنب والحائض والمحدث (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) الصلاة
من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار للمؤمنين وقيل الصلاة من الله على العبد هى اشاعة الذكر الجميل
له فى عباده والثناء عليه قال أنس لما نزلت ان الله وملائكته يصلون على النبى قال أبو بكر ما خصك
الله يا رسول الله بشرف الا وقد أشركنا فيه فأنزل الله هذه الآية (ليخرجكم من الظلمات الى النور)
يعنى انه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم اخرجكم من ظلمة الكفر الى نور الايمان (وكان بالمؤمنين
رحيما) فيه بشارة لجميع المؤمنين واشارة الى ان قوله يصلى عليكم غير مختص بالسامعين وقت الوحى
بل هو عام لجميع المسلمين (تحيتهم) يعنى تحية المؤمنين (يوم يلقونه) اى يرون الله يوم القيامة
(سلام) اى يسلم الرب تعالى عليهم ويسلمهم من جميع الآفات وروى عن البراء بن عازب قال تحيتهم
يوم يلقونه سلام يعنى يلقون ملك الموت لا يقبض روح مؤمن الا يسلم عليه عن ابن مسعود قال اذا جاء
ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وقيل تسلم عليهم الملائكة حين يخرجون من
قبورهم تبشرهم (وأعدلهم أجرا كريما) يعنى الجنة قوله عزوجل (يا ايها النبى انا أرسلناك شاهدا)
اى للرسل بالتبليغ وقيل شاهدا على الخلق كلهم يوم القيامة (ومبشرا) اى لمن آمن بالجنة (ونذيرا) اى
لمن كذب بالنار (وداعيا الى الله) اى الى توحيده وطاعته (باذنه) اى بامره (وسراجا منيرا) سماه
سراجا منيرا لانه جلا به ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير وقيل معناه
امد الله بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الابصار ووصفه بالانارة لان من السرج ما لا يضىء
فان قلت لم سماه سراجا ولم يسمه شمسا والشمس اشد اضاءة من السراج وانور قلت نور الشمس لا يمكن
ان يؤخذ منه شىء بخلاف نور السراج فانه يؤخذ منه انوار كثيرة (وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا
كبيرا) اى ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب وقيل الفضل هو الثواب وقيل هو تفضيل هذه الامة
على سائر الامم (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع اذاهم) قال ابن عباس اصبر على اذاهم وقيل
الانجاز هم عليه وهذا منسوخ بآية القتال (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) اى حافظا قوله

قول الشاهد العدل فى الحكم وهو حال مقدرة كما تقول مررت برجل معه صقر صائدا به اى مقدرا به الصيد غدا (ومبشرا) للمؤمنين بالجنة (ونذيرا) للكافرين بالنار (وداعيا الى الله باذنه) بامره أو بتيسيره والكل منصوب على الحال (وسراجا منيرا) جلا به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به والجمهور على انه القرآن فيكون التقدير وذا سراج منير أو وتاليا سراجا منيرا ووصف بالانارة لان من السرج ما لا يضىء اذا قل سليطه ودقت فتيلته او شاهدا

وحدانيتنا ومبشرا برحمتنا ونذيرا بنقمتنا وداعيا الى عبادتنا وسراجا وحجة ظاهرة لحضرتنا (وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا
كبيرا) ثوابا عظيما (ولا تطع الكافرين والمنافقين) المراد به التهييج او الدوام والثبات على ما كان عليه (ودع اذاهم) هو يعنى الايذاء
يحتمل ان يكون مضافا الى الفاعل اى اجعل ايذاءهم اياك فى جانب ولا تبال بهم ولا تخف من ايذائهم او الى المفعول اى دع
ايذاءك اياهم مكافاة لهم (وتوكل على الله) فانه يكفيكهم (وكفى بالله وكيلا) وكفى به مفوضا اليه وقيل ان الله تعالى وصفه بخمسة
اوصاف وقابل كلا منها بخطاب مناسب له قابل الشاهد بقوله وبشر المؤمنين لانه يكون شاهدا على أمته وهم يكونون شهداء على
سائر الامم وهو الفضل الكبير والمبشر بالاعراض عن الكافرين والمنافقين لانه اذا أعرض عنهم اقبل جميع اقباله على المؤمنين
وهو مناسب للبشارة والنذير يدع أذاهم لانه اذا ترك أذاهم فى الحاضر والاذى لابد له من عقاب عاجل او آجل كانوا منذرين به فى
المستقبل والداعى الى الله بتيسيره بقوله وتوكل على الله فان من توكل على الله يسر عليه كل عسير والسراج المنير بالاكتفاء به وكيلا
لان من أنار الله برهانا على جميع خلقه كان جديرا بان يكتفى به عن جميع خلقه

(يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات) اى تزوجتم والنكاح هو الوطء فى الاصل وتسمية العقد نكاحا لما يستتبعه من حيث انه
اليه كتسمية الخمر اثما لانها سببه وكقول الراجز * واسمة الآبال فى سحابه * سمى الماء باسمة الآبال لانه سبب سمن الآبال وان
اسنمتها ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله تعالى الا فى معنى العقد لانه فى معنى الوطء من باب التصريح به ومن آداب القرآن الكناية
بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشى والاتيان وفى تخصيص المؤمنات مع ان الكتابيات تساوى المؤمنات فى هذا الحكم اشارة
ان الاولى بالمؤمن ان ينكح مؤمنة (ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن) والخلوة الصحيحة كالمس (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها)
فيه دليل على ان العدة تجب على ٥٢٠ النساء للرجال ومعنى تعتدونها تستوفون عددها تفتعلون من العد (فمتعوهن) و

تجب للمرئى طلقها قبل الدخول بها ولم يسم لها مهر دون غيرها (وسرحوهن سراحا جميلا) اى لا تمسكوهن ضرارا وأخرجوهن من منازلكم اذ لا عدة لكم عليهن (يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) مهورهن اذ المهر أجر على البضع ولهذا قال الكرخى ان النكاح بلفظ الاجارة جائز وقلنا التأبيد من شرط النكاح والتأقيت من شرط الاجارة وبينهما منافاة وايتاؤها اعطاؤها عاجلا اوفرضها وتسميتها فى العقد (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) وهى صفية وجويرية فاعتقهما وتزوجهما (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن

تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) اى تجامعوهن
فى الآية دليل على ان الطلاق قبل النكاح غير واقع لان الله تعالى رتب الطلاق على النكاح
حتى لو قال لامرأة اجنبية اذا نكحتك فانت طالق او قال كل امرأة انكحها فهى طالق فنكح لا يقع
الطلاق وهذا قول على وابن عباس وجابر ومعاذ وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح
وسعيد بن جبير والقاسم وطاوس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبى
وقتادة واكثر اهل العلم وبه قال الشافعى وروى عن ابن مسعود انه يقع الطلاق وهو قول ابراهيم
النخعى واصحاب الرأى وقال ربيعة ومالك والاوزاعى ان عين امرأة وقع وان عمم فلا يقع وروى
عكرمة عن ابن عباس انه قال كذبوا على ابن مسعود وان كان قالها فزلة من عالم فى الرجل يقول
تزوجت فلانة فهى طالق والله يقول اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ولم يقل اذا طلقتموهن
نكحتموهن روى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا طلاق
فيما لا تملك ولا عتق فيما لا تملك ولا بيع فيما لا تملك اخرجه ابو داود والترمذى بمعناه (خ) عن ابن
عباس قال جعل الله الطلاق بعد النكاح اخرجه البخارى فى ترجمة باب بغير اسناد وعن جابر قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لا طلاق قبل النكاح (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها) اى تحصونها بالاقراء
والاشهر أجمع العلماء انه اذا كان الطلاق قبل المسيس والخلوة فلا عدة وذهب احمد الى ان الخلوة توجب
العدة والصداق (فمتعوهن) اى اعطوهن ما يستمتعن به قال ابن عباس هذا اذا لم يكن سمى لها صداقا
فلها المتعة وان كان قد فرض لها صداقا فلها نصف الصداق ولا متعة لها وقال قتادة هذه الآية
منسوخة بقوله فنصف ما فرضتم وقيل هذا امر ندب فالمتعة مستحبة لها مع نصف المهر وقيل
تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية (وسرحوهن سراحا جميلا) اى خلوا سبيلهن بالمعروف من
اضرارهن * قوله عز وجل (يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) اى مهورهن
(وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) اى من السبى فتملكها مثل صفية وجويرية وقد كانت مارية
مما ملكت يمينه فولدت له ابراهيم (وبنات عمك وبنات عماتك) يعنى نساء قريش (وبنات خالك وبنات
خالاتك) يعنى نساء بنى زهرة (اللاتى هاجرن معك) الى المدينة فمن لم تهاجر منهن لم يحز له نكاحها عن
هانئ بنت ابى طالب قالت خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت اليه فعذرنى ثم انزل الله انا احللنا
لك ازواجك الآية قالت فلم اكن احل له لانى لم اهاجر كنت من الطلقاء اخرجه الترمذى وقال حديث
حسن ثم نسخ شرط الهجرة فى التحليل (وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان اراد النبى أن يستنكحها

معك) ومع ليس للقرآن بل لوجودها فحسب كقوله واسلمت مع سليمان وعن أم هانئ بنت ابى طالب خالصة
خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت فعذرنى فانزل الله هذه الآية فلم أحل له لانى لم أهاجر معه (وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها
للنبى) واحللنا لك من وقع لها ان تهب لك نفسها ولا تطلب مهرا من النساء المؤمنات ان اتفق ذلك ولذا نكرها قال ابن عباس هو ذاك
حكم فى المستقبل ولم يكن عنده أحد منهن بالهبة وقيل الواهبة نفسها ميمونة بنت الحرث او زينب بنت خزيمة او أم شريك بنت جابر
خولة بنت حكيم وقرأ الحسن ان بالفتح على التعليل بتقدير حذف اللام وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه بغير ان (ان اراد النبى أن يستنكحها
استنكاحها طلب نكاحها والرغبة فيه وقيل نكح واستنكح بمعنى والشرط الثانى تقييد للشرط الاول شرط فى الاحلال هبتها نفسها

لهبة ارادة استنكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم كانه قال أحللناها لك ان وهبت لك نفسها وأنت تريد ان تستنكحها لان ارادته
قبول الهبة وما به تتم وفيه دليل جواز النكاح بلفظ الهبة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته سواء فى الاحكام الا فيما خصه الدليل
خالصة) بلا مهر حال من الضمير فى وهبت او مصدر مؤكد اى خلص لك احلال ما أحللنا لك خالصة بمعنى خلوصا او الفاعلة فى المصادر غير
جائز كالعافية والكاذبة (لك من دون المؤمنين) بل يجب المهر لغيرك وان لم يسمه او نفاه عدل عن الخطاب الى الغيبة فى

خالصة لك من دون المؤمنين) اى احللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق فاما غير
مؤمنة فلا تحل له اذا وهبت نفسها منه وهل تحل له الكتابية بالمهر فذهب جماعة الى انها لا تحل له
وله وامرأة مؤمنة فدل ذلك على انه لا يحل له نكاح غير المسلمة وكان من خصائصه صلى الله عليه وسلم ان
النكاح ينعقد فى حقه بمعنى الهبة من غير ولى ولا شهود ولا مهر لقوله خالصة لك من دون المؤمنين والزيادة
على اربع ووجوب تخيير النساء واختلفوا فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة فى حق الامة فذهب اكثرهم
الى انه لا ينعقد الا بلفظ الانكاح او التزويج وهو قول سعيد بن المسيب والزهرى ومجاهد وعطاء وبه قال
ابو حنيفة ومالك والشافعى وقال ابراهيم النخعى واهل الكوفة ينعقد بلفظ التمليك والهبة ومن قال بالقول
الاول اختلفوا فى نكاح النبى صلى الله عليه وسلم فذهب قوم الى انه كان ينعقد فى حقه صلى الله عليه وسلم
بلفظ الهبة لقوله تعالى خالصة لك من دون المؤمنين وذهب آخرون الى انه لا ينعقد الا بلفظ الانكاح او
التزويج كما فى حق سائر الامة لقوله تعالى ان اراد النبى أن يستنكحها وكان اختصاصه فى ترك المهر لا فى
صفة النكاح واختلفوا فى التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم وهل كانت عنده امرأة منهن فقال
ابن عباس ومجاهد لم يكن عند النبى صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها منه ولم يكن عنده امرأة الا بعقد
نكاح او بملك يمين وقوله ان وهبت نفسها على سبيل الفرض والتقدير وقال آخرون بل كانت عنده
موهوبة واختلفوا فيها فقال الشعبى هى زينب بنت خزيمة الانصارية الهلالية أم المساكين وقال
ابن شهاب هى ميمونة بنت الحرث وقال على بن الحسين والضحاك ومقاتل هى أم شريك بنت جابر من بنى
اسد وقال عروة بن الزبير هى خولة بنت حكيم من بنى سليم وقوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم) اى
اوجبنا على المؤمنين (فى أزواجهم) اى من الاحكام وهو أن لا يتزوجوا اكثر من أربع ولا بزوجوا الا
بولى وشهود ومهر (وما ملكت أيمانهم) اى ما اوجبنا من الاحكام فى ملك اليمين (لكيلا يكون عليك
حرج) وهذا يرجع الى أول الآية معناه أحللنا لك ازواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لكى لا يكون
عليك ضيق (وكان الله غفورا) اى للواقع فى الحرج (رحيما) اى بالتوسعة على عباده قوله تعالى
(ترجى) اى تؤخر (من تشاء منهن وتؤوى اليك) اى تضم اليك (من تشاء) قيل هذا للقسم بينهن وذلك
ان التسوية بينهن فى القسم كانت واجبة عليه صلى الله عليه وسلم فلما نزلت هذه الآية سقط عنه
وجوب وصار الاختيار اليه فيهن وقيل نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبى
صلى الله عليه وسلم وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن شهرا حتى نزلت آية التخيير فامره الله تعالى أن
يخيرهن فمن اختارت الدنيا فارقها ويمسك من اختارت الله ورسوله على انهن أمهات المؤمنين لا ينكحن
ابدا وعلى انه يؤوى اليه من يشاء منهن ويرجى من يشاء فيرضين به قسم لهن أولم يقسم او قسم لبعضهن
دون بعض او فضل بعضهن فى النفقة والكسوة فيكون الامر فى ذلك اليه يفعل كيف يشاء وكان ذلك من
خصائصه فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط واختلفوا فى انه هل أخرج أحدا منهن عن القسم فقال

قوله ان أراد النبى ثم رجع الى الخطاب ليؤذن ان الاختصاص تكرمة له لاجل النبوة وتكريره اى تكرير النبى تفخيم له (قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم) اى ما أوجبنا من المهور على أمتك فى زوجاتهم او ما أوجبنا عليهم فى ازواجهم من الحقوق (وما ملكت أيمانهم) بالشراء وغيره من وجوه الملك وقوله (لكيلا يكون عليك حرج) ضيق متصل بخالصة لك من دون المؤمنين وقوله قد علمنا ما فرضنا عليهم فى ازواجهم وما ملكت ايمانهم جملة اعتراضية (وكان الله غفورا رحيما) بالتوسعة على عباده (ترجى) بلا همز مدنى وحمزة وعلى وخلف وحفص وبهمز غيرهم تؤخر (من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء) تضم بمعنى تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء او

تطلق من تشاء وتمسك من تشاء ولا تقسم لايتهن شئت او تترك تزوج من شئت
من نساء أمتك وتتزوج من شئت وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لانه اما ان يطلق واما ان يمسك فاذا امسك ضاجع او ترك
قسم او لم يقسم واذا طلق وعزل فاما ان يخلى المعزولة لا يبتغيها او يبتغيها وروى انه أرجى منهن جويرية وسودة وصفية وميمونة وأم
حبيبة وكان يقسم لهن ما شاء كما شاء وكانت ممن آوى اليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ارجى خمسا وآوى اربعا وروى انه
سوى مع ما أطلق له وخير فيه الا سودة فانها وهبت ليلتها لعائشة وقالت لا تطلقنى حتى أحشر فى زمرة نسائك

(ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) اى ومن دعوت الى فراشك وطلبت صحبتها ممن عزلت من نفسك بالارجاء فلا ضيق
فى ذلك اى ليس اذا عزلتها لم يجز لك ردها الى نفسك ومن رفع بالابتداء وخبره فلا جناح (ذلك) التفويض الى مشيئتك (ا
تقر أعينهن ولا يحزن و يرضين ٥٢٢ بما آتيتهن كلهن) اى اقرب الى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعا لانهن ا

بعضهم لم يخرج احدا بل كان صلى الله عليه وسلم مع ما جعل الله له من ذلك يسوى بينهن فى القسم الا
فانها رضيت بترك حقها من القسم و جعلت يومها لعائشة وقيل أخرج بعضهن روى عن ابى رزين
لما نزل التخيير اشفقن ان يطلقن فقلن يا نبى الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على
فارجى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن وآوى اليه بعضهن فكان ممن آوى اليه عائشة وحفصة
سلمة وزينب وكان يقسم بينهن سواء وأرجى منهن خمسا أم حبيبة وميمونة وسودة وجويرية وصف
فكان يقسم لمن ما يشاء وقال ابن عباس تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقال الحسن تترك ن
من شئت وتنكح من شئت من النساء قال وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا خطب امرأة لم يكن
خطبتها حتى يتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتى يهبن ا
فتؤويها اليك وتترك من تشاء فلا تقبلها (ق) عن عروة قال كانت خولة بنت حكيم من اللاتى
انفسهن للنبى صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة أما تستحيى المراة ان تهب نفسها للرجل فلما نزلت
من تشاء منهن قلت يا رسول الله ما أرى ربك الا يسارع فى هواك (ومن ابتغيت ممن عزلت) اى
ان تؤوى اليك امرأة ممن عزلتهن عن القسمة (فلا جناح عليك) اى لا اثم عليك فاباح الله له ترك
لهن حتى انه ليؤخر من يشاء منهن فى نوبتها ويطأ من يشاء منهن فى غير نوبتها ويرد الى فراشه من عزل
تفضيلا له على سائر الرجال (ذلك أدنى ان تقر أعينهن ولا يحزن) اى ذلك التخيير الذى خيرتك فى صح
اقرب الى رضاهن وأطيب لانفسهن وأقل لحزنهن اذا علمن ان ذلك من الله تعالى (و يرضين
آتيتهن) اى أعطيتهن (كلهن) من تقريب وارجاء وعزل وايواء (والله يعلم ما فى قلوبكم) اى من
النساء والميل الى بعضهن (وكان الله عليما) اى بما فى ضمائركم (حليما) اى عنكم قوله تعالى (لا
لك النساء من بعد) اى من بعد هؤلاء التسع اللاتى اخترنك وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما خ
فاخترن الله ورسوله شكر الله لهن ذلك وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال
قاله ابن عباس واختلفوا هل أبيح له النساء بعد ذلك فروى عن عائشة انها قالت ما مات رسول الله
الله عليه وسلم حتى أحل له النساء اخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وللنسائى عنها حتى احل
ان يتزوج من النساء ما شاء وقال أنس مات رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحريم وقيل لا
كعب لو مات نساء النبى صلى الله عليه وسلم اكان يحل له ان يتزوج قال وما يمنعه من ذلك قيل له قو
تعالى لا يحل لك النساء من بعد قال انما احل له ضربا من النساء فقال تعالى يا أيها النبى انا احلل
ازواجك الآية ثم قال لا تحل لك النساء من بعد وقيل معنى الآية لا تحل لك اليهوديات ولا النصرا
بعد المسلمات (ولا أن تبدل بهن من أزواج) اى بالمسلمات غيرهن من الكتابيات لانه لا تكون
المؤمنين يهودية ولا نصرانية الا ما ملكت يمينك اى من الكتابيات فتتسرى بهن وقيل فى قوله ولا
تبدل بهن من أزواج كانت العرب فى الجاهلية يتبادلون بازواجهم يقول الرجل للرجل انزل لى
امرأتك وانزل لك عن امرأتى فانزل الله تعالى ولا أن تبدل بهن من أزواج اى تبادل بازواجك غيرك
تعطيه زوجتك وتأخذ زوجته فحرم ذلك الا ما ملكت يمينك اى لا باس ان تبادل بجاريتك ما
فاما الحرائر فلا (ولو أعجبك حسنهن) يعنى ليس لك ان تطلق أحدا من نسائك وتنكح بدلها أخرى

ان هذا التفويض من عند الله اطمأنت نفوسهن وذهب التغاير وحصل الرضا وقرت العيون كلهن بالرفع تأكيدا لنون يرضين وقرئ و يرضين كلهن بما آتيتهن على التقديم وقرئ شاذا كلهن بالنصب تأكيدا لهن فى آتيتهن (والله يعلم ما فى قلوبكم) فيه وعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله من ذلك وفوض الى مشيئة رسوله (وكان الله عليما) بذات الصدور (حليما) لا يعاجل بالعقوبة فهو حقيق بان يتقى و يحذر (لا تحل لك النساء) بالتاء ابو عمرو و يعقوب وغيرهما بالتذكير لان تأنيث الجمع غير حقيقى واذا جاز بغير فصل فمع الفصل اجوز (من بعد) من بعد التسع لان التسع نصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الازواج كما ان الاربع نصاب امته (ولا أن تبدل بهن من أزواج) بالطلاق والمعنى ولا ان تستبدل بهؤلاء التسع ازواجا أخر بكلهن او بعضهن كرامة لهن وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهن وهن التسع التى مات عنهن عائشة حفصة ام حبيبة سودة ام سلمة صفية ميمونة زينب بنت جحش جويرية ومن فى من ازواج لتأكيد النفى وفائدته استغراق جنس الازواج بالنفى (ولو أعجبك حسنهن) فى موضع الحال من الفاعل وهو الضمير فى تبدل اى تبدل لا من المفعول الذى هو من ازواج لتوغله فى التنكير

اعجبك

تقدیره مفروضا اعجابك بهن وقیل هی اسماء بنت عمیس امرأة جعفر بن ابی طالب فانها ممن اعجبه حسنهن وعن عائشة وام سلمة مامات رسول الله صلی الله علیه وسلم حتی احل له ان یتزوج من النساء ماشاء یعنی ان الآیة نسخت ٥٢٣ ونسخها اما بالسنة او بقوله انا احللنا

لك ازواجك وترتیب النزول لیس علی ترتیب المصحف (الا ما ملكت یمینك) استثنی ممن حرم علیه الاماء ومحل ما رفع بدل من النساء (وكان الله علی كل شیء رقیبا) حافظا وهو تحذیر عن مجاوزة حدوده (یا أیها الذین آمنوا لا تدخلوا بیوت النبی الا ان یؤذن لكم الی طعام غیر ناظرین اناه) ان یؤذن فی موضع الحال ای لا تدخلوا الا مأذونا لكم او فی معنی الظرف تقدیره الا وقت ان یؤذن لكم وغیر ناظرین حال من لا تدخلوا وقع الاستثناء علی الحال والوقت معا كانه قیل لا تدخلوا بیوت النبی الا وقت الاذن ولا تدخلوها الا غیر ناظرین ای غیر منتظرین وهؤلاء قوم كانوا یتحینون طعام رسول الله صلی الله علیه وسلم فیدخلون ویقعدون منتظرین لادراكه ومعناه لا تدخلوا یا أیها المتحینون للطعام الا ان یؤذن لكم الی طعام غیر ناظرین اناه وانی الطعام ادراكه یقال انی الطعام انی كقولك قلاه قلی وقیل اناه وقته ای غیر ناظرین وقت الطعام

جحش جالها قال ابن عباس یعنی أسماء بنت عمیس الخثعمیة امرأة جعفر بن أبی طالب لما استشهد جعفر أراد رسول الله صلی الله علیه وسلم ان یخطبها فنهی عن ذلك (الا ما ملكت یمینك) قال ابن عباس ثم بعد هؤلاء معاریة (وكان الله علی كل شیء رقیبا) ای حافظا وفی الآیة دلیل علی جواز النظر الی من یرید نكاحها من النساء ویدل علیه ما روی عن جابر قال قال رسول الله صلی الله علیه وسلم اذا خطب احدكم المرأة فان استطاع ان ینظر الی ما یدعوه الی نكاحها فلیفعل أخرجه ابو داود (م) عن ابی هریرة ان رجلا أراد ان یتزوج امرأة من الانصار فقال له النبی صلی الله علیه وسلم انظر الیها فان فی اعین الانصار شیئا قال الحمیدی یعنی هو الصغر عن المغیرة بن شعبة قال خطبت امرأة فقال لی النبی صلی الله علیه وسلم هل نظرت الیها قلت لا قال فانظر الیها فانه أحری ان یؤدم بینكما أخرجه الترمذی وقال حدیث حسن (قوله عز وجل (یا أیها الذین آمنوا لا تدخلوا بیوت النبی الا ان یؤذن لكم) الآیة قال أكثر المفسرین نزلت هذه الآیة فی شأن ولیمة زینب بنت جحش حین بنی بها رسول الله صلی الله علیه وسلم (ق) عن انس بن مالك انه كان ابن عشر سنین مقدم النبی صلی الله علیه وسلم المدینة قال فكانت ام هانئ تواظبنی علی خدمة رسول الله صلی الله علیه وسلم فخدمته عشر سنین وتوفی رسول الله صلی الله علیه وسلم وأنا ابن عشرین سنة وكنت اعلم الناس بشأن الحجاب حین أنزل وكان أول ما نزل فی مبتنی رسول الله صلی الله علیه وسلم بزینب بنت جحش حین اصبح النبی صلی الله علیه وسلم بها عروسا فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقی رهط عند النبی صلی الله علیه وسلم فاطالوا المكث فقام النبی صلی الله علیه وسلم فخرج وخرجت معه لكی یخرجوا فمشی النبی صلی الله علیه وسلم ومشیت معه حتی جاء عتبة حجرة عائشة ثم ظن انهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه حتی اذا دخل علی زینب فاذا هم جلوس لم یقوموا فرجع النبی صلی الله علیه وسلم ورجعت حتی اذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن انهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فاذا هم قد خرجوا فضرب النبی صلی الله علیه وسلم بینی وبینه بالستر وأنزل الحجاب زاد فی روایة قال فدخل یعنی النبی صلی الله علیه وسلم البیت وارخی الستر وانی لفی الحجرة وهو یقول یا أیها الذین آمنوا لا تدخلوا بیوت النبی الا ان یؤذن لكم الی قوله والله لا یستحیی من الحق (ق) عن عائشة ان أزواج النبی صلی الله علیه وسلم كن یخرجن باللیل اذا تبرزن الی المناصع وهو صعید افیح وكان عمر رضی الله عنه یقول للنبی صلی الله علیه وسلم احجب نساءك فلم یكن رسول الله صلی الله علیه وسلم یفعل فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبی صلی الله علیه وسلم لیلة من اللیالی عشاء وكانت امرأة طویلة فناداها عمر الا قد عرفناك یا سودة حرصا علی ان ینزل الحجاب فانزل الله الحجاب المناصع المواضع الخالیة لقضاء الحاجة من البول او الغائط والصعید وجه الارض والافیح الواسع (ق) عن أنس وابن عمر ان عمر قال وافقت ربی فی ثلاث قلت یا رسول الله لو اتخذت من مقام ابراهیم مصلی فنزل واتخذوا من مقام ابراهیم مصلی وقلت یا رسول الله یدخل علی نساءك البر والفاجر فلو أمرتهن ان یحتجبن فنزلت آیة الحجاب واجتمع نساء النبی صلی الله علیه وسلم فی الغیرة فقلت عسی ربه ان طلقكن ان یبدله أزواجا خیرا منكن فنزلت كذلك وقال ابن عباس انها نزلت فی ناس من المسلمین كانوا یتحینون طعام رسول الله صلی الله علیه وسلم یدخلون علیه قبل الطعام قبل أن یدرك ثم یأكلون ولا یخرجون وكان رسول الله صلی الله علیه وسلم یتأذی بهم فنزلت الآیة یا أیها الذین آمنوا لا تدخلوا بیوت النبی الا أن یؤذن لكم یعنی الا ان تدعوا (الی طعام) فیؤذن لكم فتأكلون (غیر ناظرین اناه) یعنی منتظرین نضجه ووقت ادراكه

وساعة أكله وروی ان النبی صلی الله علیه وسلم اولم علی زینب بتمر وسویق وشاة وامر انسا ان یدعو بالناس فترادفوا افواجا یأكل فوج ویخرج ثم یدخل فوج الی ان قال یا رسول الله دعوت حتی ما أجد أحدا ادعوه فقال ارفعوا طعامكم وتفرق الناس وبقی ثلاثة نفر

يتحدثون فأطالوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا فطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجرات وسلم عليهن ودعا لهن ورجع فاذا الثلاثة جلوس يتحدثون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحياء فتولى فلما رأوه متوليا خرجوا فرجع ونزلت (اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا) فتفرقوا (ولا مستأنسين لحديث) هو مجرور معطوف على ناظرين او منصوب اى ولا تدخلوا مستأنسين نهوا عن ان يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لاجل حديث يحدثه به (ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم واخراجكم (والله لا يستحيى من الحق) يعنى ان اخراجكم حق ما ينبغى ان يستحيا منه ولما كان الحياء مما يمنع الحيى من بعض الافعال قال لا يستحيى من الحق اى لا يمنع منه ولا يتركه ترك الحيى منكم هذا ادب ادب الله به الثقلاء وعن عائشة رضى الله عنها حسبك فى الثقلاء ان الله تعالى لم يحتملهم وقال فاذا طعمتم ٥٢٤ فانتشروا (واذا سألتموهن) الضمير لنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لدلالة بيوت

(ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم) اى اكلتم الطعام (فانتشروا) اى فاخرجوا من منزله وتفرقوا (ولا مستأنسين لحديث) اى لا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعض وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك (ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم) اى فيستحيى من اخراجكم (والله لا يستحيى من الحق) اى لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياء ولما كان الحياء مما يمنع الحيى من بعض الافعال قال لا يستحيى من الحق بمعنى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيى منكم وهذا أدب أدب الله به الثقلاء وفيه بحسبك من الثقلاء ان الله لم يحتملهم (واذا سألتموهن متاعا) اى واذا سألتم نساء النبى صلى الله عليه وسلم حاجة (فاسئلوهن من وراء حجاب) اى من وراء ستر فبعد آية الحجاب لم يكن لاحد ان ينظر الى امرأة من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم متنقبة كانت او غير متنقبة (ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن) اى من الريبة (وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله) اى ليس لكم اذاه فى شئ من الاشياء (ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده أبدا) نزلت فى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فلانة نكحن عائشة قيل هو طلحة بن عبيد الله فاخبر الله ان ذلك محرم وقال (ان ذلكم كان عند الله عظيما) اى ذنبا عظيما وهذا من اعلام تعظيم الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وايجاب حرمته حيا وميتا واعلامه بذلك مما طيب نفسه وسر قلبه واستفرغ شكره فان من الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت قبله لئلا تنكح بعده (ان تبدوا شيأ) اى من أمر نكاحهن على ألسنتكم (او تخفوه) اى فى صدوركم (فان الله كان بكل شئ عليما) اى يعلم سركم وعلانيتكم نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل قال رجل من الصحابة ما بالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا فنزلت هذه الآية ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب لرسول الله ونحن أيضا يا رسول الله نكلمهن من وراء حجاب فأنزل الله عز وجل (لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا ابناء اخوانهن ولا ابناء أخواتهن) اى لا اثم عليهن فى ترك الحجاب عن هؤلاء الاصناف من الاقارب (ولا نسائهن) قيل أراد به النساء المسلمات حتى لا يجوز للكتابيات الدخول على ازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هو عام فى المسلمات والكتابيات وانما قال ولا نسائهن لانهن من أجناسهن (ولا ما ملكت أيمانهن) اختلفوا فى ان عبد المرأة هل يكون محرما لها ام لا فقال قوم بل يكون محرما لقوله تعالى ولا ما ملكت أيمانهن وقال قوم العبد كالاجانب والمراد من الآية الاماء دون العبيد (واتقين الله) اى

لان فيها نساءه (متاعا) عارية او حاجة (فاسئلوهن) المتاع (من وراء حجاب ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن) من خواطر الشيطان وعوارض الفتن وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال وكان عمر رضى الله عنه يحب ضرب الحجاب عليهن ويودان ينزل فيه وقال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو امرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وذكر ان بعضهم قال أنهى ان نكلم بنات عمنا الا من وراء حجاب لئن مات محمد لا تزوجن فلانة فنزل (وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده أبدا) اى وما صح لكم ايذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نكاح ازواجه من بعد موته

(ان ذلكم كان عند الله عظيما) اى ذنبا عظيما (ان تبدوا شيأ) من ايذاء النبى صلى الله عليه وسلم او من نكاحهن (او تخفوه) فى انفسكم من ذلكم (فان الله كان بكل شئ عليما) فيعاقبكم به ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب يا رسول الله اونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب فنزل (لا جناح عليهن فى آبائهن ولا ابنائهن ولا اخوانهن ولا ابناء اخوانهن ولا ابناء أخواتهن ولا نسائهن) اى نساء المؤمنات (ولا ما ملكت أيمانهن) اى لا اثم عليهن فى ان لا يحتجبن من هؤلاء ولم يذكر العم والخال لانه يجرى بان مجرى الوالدين وقد جاءت تسمية العم ابا قال الله تعالى واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق واسمعيل عم يعقوب وعبدهن عند الجمهور كالاجانب ثم نقل الكلام من الغيبة الى الخطاب وفى هذا النقل فضل تشديد كانه قيل (واتقين الله) فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحى من الاستتار واحتطن فيه

براكن

(ان الله كان على كل شئ شهيدا) عالما قال ابن عطاء الشهيد الذى يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح (ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) اى قولوا اللهم صل على محمد او صلى الله على محمد (وسلموا تسليما) اى قولوا اللهم سلم على محمد او انقادوا لامره وحكمه انقيادا او سئل عليه السلام عن هذه الآية فقال ان الله وكل بى ملكين فلا اذكر عند عبد مسلم فيصلى على الا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ولا اذكر عند عبد مسلم فلا يصلى على الا قال ذانك الملكان لا غفر الله لك وقال الله وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ثم هى واجبة مرة عند الطحاوى وكلما ذكر اسمه عند الكرخى وهو الاحتياط وعليه الجمهور وان صلى على غيره على سبيل التبع كقوله صلى الله على النبى وآله فلا كلام فيه واما اذا افرد غيره من أهل البيت بالصلاة فكروه وهو من شعائر الروافض (ان الذين يؤذون الله ورسوله) اى يؤذون رسول الله وذكر اسم الله للتشريف او عبر بايذاء الله ورسوله عن فعل ما لا يرضى به الله ورسوله كالكفر وانكار النبوة مجازا وانما جعل مجازا فيهما وحقيقة الايذاء يتصور فى رسول الله لئلا يجتمع المجاز والحقيقة فى

يرا كن أحد غير هؤلاء (ان الله كان على كل شئ) اى من اعمال العباد (شهيدا) * قوله عز وجل (ان الله وملائكته يصلون على النبى) قال ابن عباس أراد ان الله يرحم النبى والملائكة يدعون له وعنه يصلون يتبركون وقيل الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار فصلاة الله ثناؤه عليه عند ملائكته وصلاة الملائكة الدعاء (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) اى ادعوا له بالرحمة (وسلموا تسليما) اى حيوه بتحية الاسلام

(فصل فى صفة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وفضلها) * اتفق العلماء على وجوب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم اختلفوا فقيل تجب فى العمر مرة وهو الاكثر وقيل تجب فى كل صلاة فى التشهد الاخير وهو مذهب الشافعى واحدى الروايتين عن احمد وقيل تجب كلما ذكر ٣ واختاره الطحاوى من الحنفية والحليمى من الشافعية والواجب اللهم صل على محمد ومازاد سنة (ق) عن عبد الرحمن بن ابى ليلى قال لقينى كعب بن عجرة فقال الا اهدى لك هدية ان النبى صلى الله عليه وسلم خرج علينا فقلنا يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد (ق) عن ابى حميد الساعدى قال قالوا يا رسول الله كيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى ازواجه وذريته كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وعلى ازواجه وذريته كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد (م) عن ابى مسعود البدرى قال اتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد امرنا الله ان نصلى عليك يا رسول الله فكيف نصلى عليك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا انه لم يسأله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم (م) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على واحدة صلى الله عليه بها عشرا عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات اخرجه الترمذى وله عن ابى طلحة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشر فى وجهه فقلت انا لنرى البشر فى وجهك قال اتانى الملك فقال يا محمد ان ربك يقول اما يرضيك انه لا يصلى عليك احد الا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك احد الا سلمت عليه عشرا وله عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله ملائكة سياحين فى الارض يبلغونى عن امتى السلام عن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان اولى الناس بى يوم القيامة اكثرهم على صلاة اخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وله عن على بن ابى طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم البخيل الذى ذكرت عنده فلم يصل على اخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب صحيح عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره ان يكتال بالمكيال الاوفى اذا صلى علينا اهل البيت فليقل اللهم صل على محمد النبى الامى وازواجه امهات المؤمنين وذريته واهل بيته كما صليت على ابراهيم انك حميد مجيد اخرجه ابو داود * قوله عز وجل (ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة واعد لهم عذابا مهينا) قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا عزير ابن الله ويد الله مغلولة وقالوا ان الله فقير ونحن اغنياء وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله وثالث ثلاثة وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله

لفظ واحد (لعنهم الله فى الدنيا والآخرة) طردهم الله عن رحمته فى الدارين (واعد لهم عذابا مهينا) فى الآخرة

٣ قوله واختاره الطحاوى الخ هذا مخالف لكلام النسفى بالهامش فليحرر اه

(والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) اطلق ايذاء الله ورسوله وقيد ايذاء المؤمنين والمؤمنات لان ذلك يكون غير ابدا واما هذا فانه حق كالحد والتعزير ومنه باطل قيل نزلت فى ناس من المنافقين يؤذون عليا رضى الله عنه ويسمعونه وقيل كانوا يتبعون النساء وهن كارهات وعن الفضيل لا يحل لك أن تؤذى كلبا او خنزيرا بغير حق فكيف ايذاء المؤمنين والمؤمنات (فقد احتملوا) تحملوا (بهتانا) كذبا ٥٢٦ عظيما (واثما مبينا) ظاهرا (يا أيها النبى قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين

والاصنام شركاؤه (خ) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق باهون على من اعادته وأما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد (ق) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال الله عز وجل يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى أقلب الليل والنهار معنى هذا الحديث انه كان من عادة العرب فى الجاهلية أن يذموا الدهر ويسبوه عند النوازل لاعتقادهم ان الذى يصيبهم من افعال الدهر فقال الله تعالى أنا الدهر اى أنا الذى أحل بهم النوازل وأنا فاعل لذلك الذى تنسبونه الى الدهر فى زعمكم وقيل معناه لا يؤذون الله يلحدون فى أسمائه وصفاته وقيل هم أصحاب التصاوير (ق) عن أبى هريرة قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة او ليخلقوا حبة او شعيرة وقيل يؤذون الله اى يؤذون أولياء الله كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب وقال تعالى من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ومعنى الايذاء هو مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب معاصيه ذكر ذلك على ما يتعارفه الناس بينهم لان الله تعالى منزه عن ان يلحقه أذى من أحد وأما ايذاء الرسول فقال ابن عباس هو انه شج وجهه وكسرت رباعيته وقيل كان ساحرا شاعرا معلما مجنونا (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) اى من غير ان عملوا ما يوجب اذاهم وقيل يقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم (فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) قيل انها نزلت فى على بن ابى طالب كانوا يؤذونه ويسمعونه وقيل نزلت فى شأن عائشة وقيل نزلت فى الزناة الذين كانوا يمشون فى طرق المدينة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن فيتبعون المرأة فان سكتت تبعها وان زجرتهم انتهوا عنها ولم يكونوا يطلبون الا الاماء ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الامة لان زى الكل كان واحدا فتخرج الحرة والامة فى درع وخمار فشكوا ذلك الى أزواجهن فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات الآية ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالاماء فقال تعالى (يا أيها النبى قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين) اى يرخين ويغطين (عليهن من جلابيبهن) جمع جلباب وهو الملاءة التى تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار وقيل هو المقنعة وقيل هو ما يستتر به من كساء وغيره قال ابن عباس أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤسهن ووجوههن بالجلابيب الا عينا واحدة ليعلم انهن حرائر وهو قوله تعالى (ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين) اى لا يتعرض لهن بريبة (وكان الله غفورا رحيما) اى لما سلف منهن قال أنس مرت بعمر بن الخطاب جارية متنقبة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع أتتشبهين بالحرائر القى القناع لكاع كلمة تقال لمن يستحقر به مثل العبد والامة والخسيس والقليل العقل مثل قولك يا خسيس قوله تعالى (لئن لم ينته المنافقون) اى عن نفاقهم (والذين فى قلوبهم مرض) اى فجور وهم الزناة (والمرجفون فى المدينة) اى بالكذب وذلك ان ناسا منهم كانوا اذا خرجت سرايا

من جلابيبهن) الجلباب ما يستر الكل مثل الملحفة عن المبرد ومعنى يدنين عليهن من جلابيبهن يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن يقال اذا زال الثوب عن وجه المرأة ادن ثوبك على وجهك ومن للتبعيض اى ترخى بعض جلبابها وفضله على وجهها يتقنع حتى تتميز من الامة او المراد ان يتجلببن ببعض ما لهن من الجلابيب وأن لا تكون المرأة مبتذلة فى درع وخمار كالامة ولها جلبابان فصاعدا فى بيتها وذلك ان النساء فى اول الاسلام على هيئتهن فى الجاهلية مبتذلات تبرز المرأة فى درع وخمار لا فصل بين الحرة والامة وكان الفتيان يتعرضون اذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن فى النخيل والغيطان للاماء وربما تعرضوا للحرة لحسبان الامة فأمرن ان يخالفن بزيهن عن زى الاماء بلبس الملاحف وستر الرؤس والوجوه فلا يطمع فيهن طامع وذلك قوله (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) اى اولى وأجدر بان يعرفن فلا يتعرض لهن (وكان الله غفورا) لما سلف منهن من التفريط (رحيما) بتعليمهن آداب المكارم (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض) فجور وهم الزناة من قوله فيطمع الذى فى قلبه مرض (والمرجفون فى المدينة) هم أناس كانوا يرجفون باخبار السوء عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين يقال أرجف بكذا اذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت من الرجفة وهى الزلزلة

لنغرينك بهم) لنأمرنك بقتالهم اولنسلطنك عليهم (ثم لا يجاورونك فيها) فى المدينة وهو عطف على لنغرينك لانه يجوز ان يجاب به
القسم لصحة قولك لئن لم ينتهوا لا يجاورونك ولما كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أصيبوا به عطف بثم لبعد حاله عن حال المعطوف
عليه (الا قليلا) زمانا قليلا والمعنى لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم والفسقة عن فجورهم والمرجفون عما يؤلفون من
اخبار السوء لنأمرنك بان تفعل الافعال التى تسوءهم ثم بان تضطرهم الى طلب الجلاء عن المدينة والى ان لا يساكنوك فيها الا زمانا قليلا
ثم يرتحلون فسمى ذلك اغراء وهو التحريش على سبيل المجاز (ملعونين) نصب على الشتم او الحال اى لا يجاورونك الا ملعونين
فالاستثناء دخل على الظرف والحال معا كما مر ولا ينتصب عن اخذوا لان ما بعد حروف الشرط لا يعمل فيما قبلها (اينما ثقفوا) وجدوا
(اخذوا وقتلوا تقتيلا) والتشديد يدل على التكثير (سنة الله) فى موضع مصدر مؤكد اى سن الله فى الذين ينافقون الانبياء ان يقتلوا
اينما وجدوا (فى الذين خلوا) مضوا (من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) اى لا يبدل الله سنته بل يجريها مجرى واحدا فى الامم (يسئلك
الناس عن الساعة) كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء واليهود يسألونه
امتحانا لان الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وفى كل كتاب فامر رسوله بان يجيبهم بانه علم ٥٢٧ قد استأثر الله به ثم بين لرسوله انها

رسول الله صلى الله عليه وسلم يوقعون فى الناس انهم قد قتلوا وهزموا ويقولون قد أتاكم العدو ونحو هذا
من الاراجيف وقيل كانوا يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا وتفشو الاخبار (لنغرينك بهم)
اى لنحرشنك بهم ولنسلطنك عليهم (ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا) اى لا يساكنونك فى المدينة الا قليلا
اى حتى يخرجوا منها وقيل لنسلطنك عليهم حتى تقتلهم ونخلى منهم المدينة (ملعونين) اى مطرودين
(اينما ثقفوا) اى وجدوا وأدركوا (أخذوا وقتلوا تقتيلا) اى الحكم فيهم هذا على الامر به (سنة
الله) ان كسنة الله (فى الذين خلوا من قبل) اى فى المنافقين والذين فعلوا مثل ما فعل هؤلاء أن يقتلوا
حيثما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) قوله عز وجل (يسئلك الناس عن الساعة) قيل ان المشركين
كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء وكان اليهود
يسألونه عن الساعة امتحانا لان الله تعالى عمى عليهم علم وقتها فى التوراة فامر الله تعالى نبيه صلى الله
عليه وسلم ان يجيبهم بقوله (قل انما علمها عند الله) يعنى ان الله تعالى قد استأثر به ولم يطلع عليه نبيا
ولا ملكا (وما يدريك) اى اى شئ يعلمك أمر الساعة ومتى يكون قيامها (لعل الساعة تكون قريبا) اى
انها قريبة الوقوع وفيه تهديد للمستعجلين واسكات للممتحنين (ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا
خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا يوم تقلب وجوههم فى النار) اى تتقلب ظهر البطن حين
يسحبون عليها (يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) اى فى الدنيا (وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا
وكبراءنا) يعنى رؤس الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم (فأضلونا السبيل) يعنى عن سبيل الهدى
(ربنا آتهم) يعنون السادة والكبراء (ضعفين من العذاب) يعنى ضعفى عذاب غيرهم (والعنهم لعنا كبيرا)
اى لعنا متتابعا قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) اى فطهره

قريبة الوقوع تهديدا للمستعجلين واسكاتا للممتحنين بقوله (قل انما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) شيأ قريبا اولان الساعة فى معنى الزمان (ان الله لعن الكافرين واعد لهم سعيرا) نارا شديدة الاتقاد (خالدين فيها أبدا) هذا يرد مذهب الجهمية لانهم يزعمون ان الجنة والنار تفنيان ولا وقف على سعيرا لان قوله خالدين فيها حال عن الضمير فى لهم (لا يجدون وليا ولا نصيرا) ناصرا يمنعهم اذكر (يوم تقلب وجوههم فى النار)

تصرف فى الجهات كما ترى البضعة تدور فى القدر اذا غلت وخصصت الوجوه لان الوجه أكرم موضع على الانسان من جسده او يكون
الوجه عبارة عن الجملة (يقولون) حال (يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا) فنتخلص من هذا العذاب فتمنوا حين لا ينفعهم التمنى (وقالوا
ربنا انا اطعنا سادتنا) جمع سيد ساداتنا شامى وسهل ويعقوب جمع الجمع والمراد رؤساء الكفرة الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم
(وكبراءنا) ذوى الاسنان منا او علماءنا (فأضلونا السبيلا) يقال ضل السبيل واضله اياه وزيادة الالف لاطلاق الصوت جعلت
فواصل الآى كقوافى الشعر وفائدتها الوقف والدلالة على ان الكلام قد انقطع وان ما بعده مستأنف (ربنا آتهم ضعفين من العذاب)
للضلال والاضلال (والعنهم لعنا كبيرا) بالباء عاصم ليدل على اشد اللعن واعظمه وغيره بالتاء تكثير الاعداد اللعائن ونزل فى شأن زيد
وزينب وما سمع فيه من قالة بعض الناس (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) ما مصدرية أو موصولة
وأيهما كان فالمراد البراءة عن مضمون القول ومؤداه وهو الامر المعيب واذى موسى عليه السلام هو حديث المومسة التى أرادها قارون
على قذفه بنفسها او اتهامهم اياه بقتل هرون فأحياه الله تعالى فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام كما برأ نبينا عليه السلام بقوله
ما كان محمد ابا احد من رجالكم

(وكان عند الله وجيها) ذا جاه ومنزلة مستجاب الدعوة وقرا ابن مسعود والاعمش وكان عبد الله وجيها (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) صدقا وثوابا واوقاصدا الى الحق والسداد القصد الى الحق والقول بالعدل والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول والبعث على ان يسددوا اقولهم فى كل باب لان حفظ اللسان وسداد القول رأس كل خير ولا تقف على سديد الان جواب الامر قوله (يصلح لكم أعمالكم) يقبل طاعاتكم او يوفقكم لصالح العمل (ويغفر لكم ذنوبكم) اى يهب

والمعنى راقبوا الله فى حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم فانكم ان فعلتم ذلك أعطاكم ماهو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم والاثابة عليها ومن مغفرة سيآتكم وتكفيرها وهذه الآية مقررة للتى قبلها بنيت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه على الامر باتقاء الله فى حفظ اللسان ليترادف عليهم النهى والامر مع اتباع النهى مايتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام واتباع الامر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الاذى والداعى الى تركه ولما علق بالطاعة الفوز العظيم بقوله (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) أتبعه قوله (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال) وهو يريد بالامانة الطاعة لله و بحمل الامانة الخيانة يقال فلان حامل للامانة ومحتمل لها اى لا يؤديها الى صاحبها حتى تزول عن ذمته اذ الامانة كانها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها ولهذا يقال ركبته الديون ولى عليه حق فاذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حامل لها يعنى ان هذه الاجرام العظام من السموات والارض والجبال قد انقادت لامر الله انقياد مثلها وهو ما يتأتى من الجمادات واطاعت له الطاعة التى تليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته وارادته ايجادا وتكوينا وتسوية على هيآت مختلفة واشكال متنوعة كما قال ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض

السموات

الله مما قالوه فيه (وكان عند الله وجيها) اى كريما ذا جاه وقدر قال ابن عباس كان حظيا عند الله لا يسأل الله شيأ الا أعطاه وقيل كان مستجاب الدعوة وقيل كان محببا مقبولا واختلفوا فيما أوذى به موسى فروى أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم الى سوءة بعض وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى ان يغتسل معنا الا انه آدر فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه قال فجمح موسى باثره يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى نظرت بنو اسرائيل الى سوءة موسى فقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نظر اليه قال فأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربا قال أبو هريرة والله ان بالحجر ندبا ستة او سبعة من ضرب موسى الحجر أخرجه البخارى ومسلم وللبخارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى شئ من جسده استحياء منه فآذاه من آذاه من بنى اسرائيل فقالوا ما يستتر هذا الستر الا من عيب بجلده اما برص واما أدرة واما آفة وان الله اراد ان يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ اقبل الى ثيابه ليأخذها وان الحجر عدا بثوبه فاخذ موسى العصا وطلب الحجر وجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى الى ملا من بنى اسرائيل ورأوه عريانا احسن ما خلق الله و برأه مما يقولون وقام الحجر فاخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله ان بالحجر لندبا من اثر الضرب ثلاثا او اربعا او خمسا فذلك قوله تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها الادرة عظم الخصية لنفخة فيها وقوله فجمح اى اسرع وقوله ثوبى حجر اى دع ثوبى يا حجر (قوله وطفق) اى جعل يضرب الحجر وقوله ندبا هو بفتح النون والدال وهو الاصح وأصله اثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد فشبه به الضرب بالحجر والمحدثون يقولون ندبا بسكون الدال وقيل فى معنى الآية ان اذاهم اياه انه لما مات هرون فى التيه ادعوا على موسى انه قتله فامر الله تعالى الملائكة حتى مروا به على بنى اسرائيل فعرفوا انه لم يقتله فبرأه الله مما قالوا وقيل ان قارون استأجر بغيا لتقذف موسى بنفسها على رأس الملا فعصمها الله وبرأ موسى من ذلك واهلك قارون (ق) عن عبد الله بن مسعود قال لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا فى القسمة فاعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل واعطى عيينة بن حصن مثل ذلك واعطى ناسا من اشراف العرب وآثرهم فى القسمة فقال رجل والله ان هذه قسمة ما عدل فيها وما اريد بها وجه الله فقلت والله لاخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاتيته فاخبرته بما قال فتغير وجهه حتى كان كالصرف ثم قال فمن يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله ثم قال يرحم الله موسى قد أوذى باكثر من هذا فصبر الصرف بكسر الصاد صبغ احمر يصبغ به الاديم قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) قال ابن عباس صوابا وقيل عدلا وقيل صدقا وقيل هو قول لا اله الا الله (يصلح لكم اعمالكم) قال ابن عباس يتقبل حسناتكم (و يغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) اى ظفر بالخير العظيم * قوله عز وجل (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال) الآية قال ابن عباس اراد بالامانة الطاعة والفرائض التى فرضها الله على عباده عرضها على

طوعا او كرها فاتتا أتينا طائعين واخبران الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب يسجدون لله وان من الحجارة لما يهبط من خشية الله

السموات والارض والجبال على انهم اذا أدوها اثابهم وان ضيعوها عذبهم وقال ابن مسعود الامانة اداء الصلوات وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل فى المكيال والميزان وأشد من هذا كله الودائع وقيل جميع ما أمر وابه ونهوا عنه وقيل هى الصوم وغسل الجنابة وما يخفى من الشرائع وقال عبد الله بن عمرو بن العاص اول ما خلق الله من الانسان الفرج وقال هذه الامانة استودعكها فالفرج امانة والاذن امانة والعين امانة واليد أمانة والرجل امانة ولا ايمان لمن لا امانة له وفى رواية عن ابن عباس هى امانات الناس والوفاء بالعهود حق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنا ولا معاهدا فى شئ لا فى قليل ولا كثير فعرض الله تعالى هذه الامانة على اعيان السموات والارض والجبال وهذا قول جماعة من التابعين واكثر السلف فقال لهن أتحملن هذه الامانة بما فيها قلن وما فيها قال ان احسنتن جوزيتن وان عصيتن عوقبتن قلن لا يارب نحن مسخرات لامرك لا نريد ثوابا ولا عقابا وقلن ذلك خوفا وخشية وتعظيما لدين الله تعالى أن لا يقوموا بها الا معصية ولا مخالفة لامره وكان العرض على سبيل تخيير الالزام ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة لامره ساجدة له قال بعض اهل العلم ركب الله تعالى فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الامانة حتى عقلن الخطاب وأجبن بما اجبن وقيل المراد من العرض على السموات والارض هو العرض على أهلها من الملائكة دون اعيانها والقول الاول اصح وهو قول العلماء (فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) اى خفن من الامانة ان لا يؤدينها فيلحقهن العقاب (وحملها الانسان) يعنى آدم قال الله عز وجل لآدم انى عرضت الامانة على السموات والارض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها قال يارب وما فيها قال ان احسنت جوزيت وان اسأت عوقبت فتحملها آدم فقال بين أذنى وعاتقى قال الله اما اذا تحملت فسأعينك واجعل لبصرك حجابا فاذا خشيت ان لا تنظر الى ما لا يحل فارخ عليه حجابه ولا جعل للسانك لحيين وغلاقا فاذا خشيت فأغلقه واجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه على ما حرمت عليك قال مجاهد فما كان بين ان حملها وبين ان أخرج من الجنة الا مقدار ما بين الظهر والعصر وقيل ان ما كلف الانسان حمله بلغ من عظمه وثقل محمله انه عرض على أعظم ما خلق الله تعالى من الاجرام وأقواه واشده ان يحتمله ويستقل به فابى حمله وأشفق منه وحمله الانسان على ضعفه وضعف قوته (انه كان ظلوما جهولا) قال ابن عباس انه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه وما تحمل من الامانة وقيل ظلوما حين عصى ربه جهولا اى لا يدرى ما العقاب فى ترك الامانة وقيل ظلوما جهولا حيث حمل الامانة ثم لم يف بها وضمنها ولم يف بضمانها وقيل فى تفسير الآية أقوال أخر وهو ان الله تعالى أئتمن السموات والارض والجبال على كل شئ وائتمن آدم وأولاده على شئ فالامانة فى حق الاجرام العظام هى الخضوع والطاعة لما خلقن له وقوله فابين ان يحملنها اى أدين الامانة ولم يخن فيها واما الامانة فى حق بنى آدم فهى ما ذكر من الطاعة والقيام بالفرائض وقوله وحملها الانسان اى خان فيها وعلى هذا القول حكى عن الحسن انه قال الانسان هو الكافر والمنافق حملا الامانة وخانا فيها والقول الاول هو قول السلف وهو الاولى

(فصل)* فى الامانة (ق) عن حذيفة بن اليمان قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر حدثنا ان الامانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ثم حدثنا عن رفع الامانة فقال ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شئ ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الامانة حتى يقال ان فى بنى فلان رجلا امينا حتى يقال للرجل ما اجلده ما أظرفه

القرآن الا على أساليبهم من ذلك قولهم لو قيل للشحم أين تذهب لقال اسوى العوج واللام فى

(ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) للتعليل لان التعذيب هنا نظير التأديب فى قولك ضربته للتأديب فلا يقع على جهولا (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) وقرأ الاعمش ويتوب الله بالرفع ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ويتوب الله ومعنى المشهورة ليعذب الله حامل الامانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها لانه اذا تاب على الوافى كان نوعا من عذاب الخائن أو للعاقبة اى حملها الانسان فآل الامر الى تعذيب الاشقياء وقبول توبة السعداء (وكان الله غفورا) للتائبين (رحيما) بعباده المؤمنين والله الموافق للصواب

(سورة سبأ)

مكية وهى أربع وخمسون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد) ان اجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود وان اجرى على الاستغراق فله الكل المحامد الاستحقاق (لله) بلام التمليك لانه خالق ناطق الحمد أصلا فكان بملكه مالك الحمد للتحميد أهلا (الذى له مافى السموات ومافى الارض) خلقا وملكا وقهرا فكان حقيقا بان يحمد سرا وجهرا (وله الحمد فى الآخرة) كما هو له فى الدنيا اذ النعم فى الدارين من المولى غير ان الحمد هنا واجب لان الدنيا دار تكليف وثم لا لعدم التكليف وانما يحمد اهل الجنة سرورا بالنعيم وتلذذا بما نالوا من الاجر العظيم بقولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن (وهو الحكيم) بتدبير ما فى السماء والارض (الخبير) بضمير من يحمده ليوم الجزاء

ما اعقله ومافى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان ولقد أتى على زمان وما أبالى ايكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه على دينه ولئن كان نصرانيا او يهوديا ليردنه على ساعيه واما اليوم فما كنت لابايع منكم فلانا وفلانا (قوله نزلت الامانة فى جذر قلوب الرجال) جذر الشئ اصله والوكت الاثر اليسير كالنقطة الشئ من غير لونه والجل غلظ الجلد من أثر العمل وقيل انما هو النقطات فى الجلد وقد فسره الحديث والمنتبر المنتفخ وليس فيه شئ (خ) عن ابى هريرة قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاء اعرابى فقال متى الساعة فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول الله قال اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة قال كيف اضاعتها يا رسول الله قال اذا وسد الامر الى غير أهله فانتظر الساعة وعنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك أخرجه داود والترمذى وقال حديث حسن غريب قوله تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) اى بما خانوا الامانة ونقضوا العهد (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) اى بما حفظوا ويرحمهم بما أدوا من الامانة وقيل عرضنا الامانة ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما ويظهر ايمان المؤمن فيتوب عليه اى يعود عليه بالرحمة والمغفرة ان حصل منه تقصير فى بعض الطاعات (وكان الله غفورا رحيما) والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة سبأ)

وهى مكية وأربع وخمسون آية وثمانمائة وثلاثة وثلاثون كلمة ٣ والف وخمسمائة واثنا عشر حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

*قوله عز وجل (الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الارض) معناه ان كل نعمة من الله فهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجلها ولما قال الحمد لله وصف ملكه فقال الذى له مافى السموات ومافى الارض اى ملكا وخلقا (وله الحمد فى الآخرة) اى كما هو له فى الدنيا لان النعم فى الدارين كلها منه فكما انه المحمود على نعم الدنيا فهو المحمود على نعم الآخرة وقيل الحمد فى الآخرة هو حمد اهل الجنة كما ورد يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس (وهو الحكيم) اى الذى احكم أمور الدارين (الخبير) اى بكل ما كان ومايكون (يعلم مايلج فى الارض) اى من المطر والكنوز والاموات (ومايخرج منها) اى من النبات والشجر والعيون والمعادن والاموات اذا بعثوا (وماينزل من السماء) اى من المطر والثلج والبرد وأنواع البركات والملائكة (ومايعرج فيها) اى فى السماء من الملائكة واعمال العباد (وهو الرحيم الغفور) اى للمفرطين فى أداء ما وجب عليهم من شكر نعمه قوله تعالى (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) معناه انهم انكروا

والعرض (يعلم) مستأنف (مايلج) مايدخل (فى الارض) من الاموات والدفائن (ومايخرج منها) من النبات وجواهر المعادن (وماينزل من السماء) من الامطار وانواع البركات (ومايعرج فيها) يصعد اليها من الملائكة والدعوات (وهو الرحيم) بانزال مايحتاجون اليه (الغفور) لما يجترؤن عليه (وقال الذين كفروا) اى منكرو البعث (لا تأتينا الساعة) نفى للبعث وانكار لمجىء الساعة ٣ قوله ثلاث وثلاثون كذا بعض نسخ الخازن وفى بعضها بدون ثلاث وفى الخطيب ثلاث وثمانون وعلم الصواب من ذلك عند العليم الخبير اه

قل بلى) اوجب ما بعد النفى ببلى على معنى ان ليس الامر الا اتيانها (وربى لتأتينكم) ثم أعيد ايجابه مؤكدا بما هو الغاية فى التوكيد والتشديد وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل ثم امد التوكيد القسمى بما اتبع المقسم به من الوصف بقوله (عالم الغيب) لان عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وبشدة ثباته واستقامته لانه بمنزلة الاستشهاد على الامر وكلما كان المستشهد به ارفع منزلة كانت شهادة اقوى وآكد والمستشهد عليه اثبت وارسخ ولما كان قيام الساعة من مشاهير الغيوب وادخلها فى الخفية كان الوصف بما يرجع الى علم الغيب أولى وأحق عالم الغيب مدنى وشامى اى هو عالم الغيب علام الغيب حمزة وعلى على المبالغة (لا يعزب عنه) وبكسر الزاى على يقال عزب يعزب ويعزب اذا غاب وبعد (مثقال ذرة) مقدارا صغر نملة (فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك) من مثقال ذرة (ولا أكبر) من مثقال ذرة (الا فى كتاب مبين) الا فى اللوح المحفوظ ولا اصغر ولا أكبر بالرفع عطف على مثقال ذرة ويكون الا بمعنى لكن اورفعا بالابتداء والخبر فى كتاب واللام فى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة) لما قصر وافيه من مدارج الايمان (ورزق كريم) لما صبروا عليه من مناهج الاحسان متعلق بلتأتينكم تعليلا له (والذين سعوا فى آياتنا) جاهدوا فى رد القرآن (معاجزين) مسابقين ظانين انهم يفوتوننا معجزين مكى وأبو عمرو اى مثبطين الناس عن اتباعها وتأملها اوناسبين الله الى العجز (اولئك لهم عذاب من رجز أليم) برفع أليم مكى وحفص ويعقوب صفة لعذاب اى عذاب أليم من ٥٣١ سيئ العذاب قال قتادة الرجز سوء العذاب وغيرهم بالجر صفة لرجز (ويرى) فى موضع الرفع بالاستئناف اى ويعلم (الذين أوتوا العلم) يعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يطأ عقابهم من امته اوعلماء أهل الكتاب الذين أسلموا كعبد الله بن سلام واصحابه والمفعول الاول ليرى (الذى أنزل اليك من ربك) يعنى القرآن (هو الحق) اى الصدق وهو فصل والحق مفعول ثان اوفى موضع النصب

أنكروا البعث وقيل استبطؤا ماوعدوه من قيام الساعة على سبيل اللهو والسخرية (قل بلى وربى لتأتينكم) يعنى الساعة (عالم الغيب) اى لا يفوت علمه شئ من الخفيات واذا كان كذلك اندرج فى علمه وقت قيام الساعة وانها آتية (لا يعزب عنه) اى لا يغيب عنه (مثقال ذرة) اى وزن ذرة (فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك) اى من الذرة (ولا أكبر الا فى كتاب مبين) اى فى اللوح المحفوظ (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة) اى لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى الجنة (والذين سعوا فى آياتنا) اى فى ابطال ادلتنا (معجزين) اى يحسبون انهم يفوتوننا (اولئك لهم عذاب من رجز اليم) قيل الرجز سوء العذاب (ويرى الذين اوتوا العلم) يعنى مؤمنى أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل هم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (الذى أنزل اليك من ربك) يعنى القرآن (هو الحق) يعنى انه من عند الله (ويهدى) يعنى القرآن (الى صراط العزيز الحميد) اى الى دين الاسلام (وقال الذين كفروا) يعنى المنكرين للبعث المتعجبين منه (هل ندلكم) اى قال بعضهم لبعض هل ندلكم (على رجل ينبئكم) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم معناه يحدثكم باعجوبة من الاعاجيب وهى انكم (اذا مزقتم كل ممزق) اى قطعتم كل تقطيع وفرقتم كل تفريق وصرتم ترابا (انكم لفى خلق جديد) اى يقول انكم تبعثون وتنشؤن خلقا جديدا بعد ان تكونوا رفاتا وترابا (أفترى على الله كذبا) اى اهو مفتر على الله كذبا فيما ينسب اليه من ذلك (أم به جنة) اى جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه قال الله تعالى رد اعليهم ليس بمحمد صلى الله عليه وسلم من الافتراء والجنون شئ وهو مبرأ منهما (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة) يعنى منكرى البعث (فى العذاب والضلال البعيد)

معطوف على ليجزى وليعلم اولو العلم عند مجىء الساعة انه الحق علما لا يزاد عليه فى الايقان (ويهدى) الله او الذى أنزل اليك (الى صراط العزيز الحميد) وهو دين الله (وقال الذين كفروا) وقال قريش بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وانما نكروه مع انه كان مشهورا علما فى قريش وكان انباؤه بالبعث شائعا عندهم تجاهلا به وبأمره وباب التجاهل فى البلاغة والى سحرها (ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد) اى يحدثكم باعجوبة من الاعاجيب انكم تبعثون وتنشؤن خلقا جديدا بعد ان تكونوا رفاتا وترابا ويمزق أجسادكم البلاء كل ممزق اى يفرقكم كل تفريق فالممزق مصدر بمعنى التمزيق والعامل فى اذا ما دل عليه انكم لفى خلق جديد اى تبعثون والجديد فعيل بمعنى فاعل عند البصريين تقول جد فهو جديد كقل فهو قليل ولا يجوز انكم بالفتح للام فى خبره (أفترى على الله كذبا) اهو مفتر على الله كذبا فيما ينسب اليه من ذلك والهمزة للاستفهام وهمزة الوصل حذفت استغناء عنها (أم به جنة) جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) ثم قال سبحانه وتعالى ليس محمد من الافتراء والجنون فى شئ وهو مبرأ منهما بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون فى عذاب النار وفيما يؤديهم اليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك وذلك أجن الجنون جعل وقوعهم فى العذاب رسيلا لوقوعهم فى الضلال كانهما كائنان فى وقت واحد لان الضلال لما كان العذاب من لوازمه جعلا كانهما مقترنان ووصف الضلال بالبعيد من الاسناد المجازى لان البعيد صفة الضال اذا بعد عن الجادة

(أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم) و بالادغام على التقارب بين القاء والباء وضعفه لزيادة صوت القاء على الباء (الارض او نسقط) الثلاثة بالياء كوفى غير عاصم لقوله أفترى على الله كذبا (عليهم كسفا) كسفا (من السماء) اى اعموا فلم ينظروا الى السماء والارض وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا امامهم وخلفهم محيطتان بهم لا يقدرون ينفذون من اقطارهما وان يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله ولم يخافوا ان يخسف الله بهم او يسقط عليهم كسفا لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول وبما جاء به كما فعل بقارون واصحاب الايكة (ان فى ذلك) النظر الى السماء والارض والفكر فيهما وما تدلان من قدرة الله تعالى (لآية) لدلالة (لكل عبد منيب) راجع الى ربه مطيع له اذا المنيب لا يخلو من النظر فى آيات الله على انه قادر على شئ من البعث ومن عقاب من يكفر به ٥٣٢ (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال) بدل من فضلا او من آتينا بتقدير قولنا يا او قلنا يا جبال (أوبى معه) من التأويب رجعى معه التسبيح ومعنى تسبيح الجبال ان الله يخلق فيها تسبيحا فيسمع منها كما يسمع من المسبح معجزة لداود عليه السلام (والطير) عطف على محل الجبال والطير عطف على لفظ الجبال وفى هذا النظم من الفخامة ما لا يخفى حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين اذا امرهم بالطاعة اطاعوا واذا دعاهم أجابوا شعارا بانه مامن حيوان وجماد الا وهو منقاد لمشيئة الله تعالى ولو قال آتينا داود منا فضلا تأويب الجبال معه والطير لم يكن فيه هذه الفخامة (وألنا له الحديد) وجعلناه له لينا كالطين المعجون يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة وقيل لان الحديد فى يده لما اوتى من شدة القوة (أن اعمل) ان بمعنى اى او امرناه ان اعمل (سابغات) دروعا واسعة تامة من السبوغ وهو اول من اتخذها وكان يبيع الدرع باربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء وقيل كان يخرج متنكرا فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم ما تقولون فى داود فيثنون عليه فقيض الله له ملكا فى صورة آدمى فسأله على عادته فقال نعم الرجل لولا خصلة فيه وهو انه يطعم عياله من بيت المال فسأل عند ذلك ربه ان يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال فعلمه صنعة الدروع (وقدر فى السرد) لا تجعل المسامير دقاقا فتقلق ولا غلاظا فتقصم الحلق والسرد نسج الدروع (واعملوا) الضمير لداود وأهله (صالحا) خالصا يصلح للقبول (انى بما تعملون بصير) فاجازيكم عليه (ولسليمان الريح) اى وسخرنا لسليمان الريح (غدوها شهر ورواحها شهر) معناه ان مسير غدوة الريح

اى عن الحق فى الدنيا (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض) اى فى انهم حيث كانوا فى أرضى وتحت سمائى فان أرضى وسمائى محيطة بهم لا يخرجون من أقطارها قادر عليهم (ان نشأ نخسف بهم الارض) اى كما خسفنا بقارون (أو نسقط عليهم كسفا من السماء) اى كما فعلنا باصحاب الايكة (ان فى ذلك) اى فيما ترون من السماء والارض (لآية) اى تدلنا قدرتنا على البعث بعد الموت (لكل عبد منيب) اى تائب راجع الى الله تعالى بقلبه * قوله عز وجل (ولقد آتينا داود منا فضلا) يعنى النبوة والكتاب وقيل الملك وقيل هو جميع ما أوتى من حسن الصوت وغير ذلك مما خص به (يا جبال أوبى معه) اى وقلنا يا جبال سبحى معه اذا سبح وقيل رجعى معه اذا رجع ونوحى معه اذا ناح (والطير) اى وأمرنا الطير ان تسبح معه فكان داود اذا نادى بالتسبيح أو بالنياحة أجابته الجبال بصداها وعكفت الطير عليه من فوقه وقيل كان داود اذا الحقه ملال او فتور اسمعه الله تعالى نغمات الجبال فينشط له (وألنا له الحديد) يعنى كان الحديد فى يده كالشمع او كالعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة قيل سبب ذلك ان داود عليه السلام لما ملك بنى اسرائيل كان من عادته ان يخرج الى الناس متنكرا فاذا رأى انسانا لا يعرفه تقدم اليه وسأله عن داود فيقول له ما تقول فى داود والبركة اى رجل هو فيثنون عليه ويقولون خيرا فقيض الله له ملكا فى صورة آدمى فلما رآه داود تقدم اليه على عادته فسأله فقال الملك نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود عليه الصلاة والسلام ذلك وقال ما هى يا عبد الله قال انه يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله تعالى ان يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال فيقوت منه ويطعم عياله فألان الله له الحديد وعلمه صنعة الدروع وانه اول من اتخذها وكانت قبل ذلك صفائح وقيل انه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف فيأكل منها ويطعم عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين وقد صح فى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان داود عليه السلام لا يأكل الا من عمل يده (أن اعمل سابغات) اى دروعا كوامل واسعات طوالا تضحى فى الارض قيل كان يعمل كل يوم درعا (وقدر فى السرد) اى ضيق فى نسج الدرع وقيل قدر المسامير فى حلق الدرع ولا تجعل المسامير دقاقا فتفلت ولا تثبت ولا غلاظا فتكسر الحلق وقيل قدر فى السرد اجعله على القصد وقدر الحاجة (واعملوا صالحا) يريد داود وآله (انى بما تعملون بصير) قوله تعالى (ولسليمان الريح) اى وسخرنا لسليمان الريح (غدوها شهر ورواحها شهر)

مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك وكان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر فارس وبينهما مسيرة شهر ويروح

الريح المسخرة له مسيرة شهر ومسير واحدها مسيرة شهر فكانت تسير به في كل يوم واحد مسيرة شهرين قيل كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر ثم يروح من اصطخر فيبيت ببكابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع وقيل انه كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند (وأسلنا له عين القطر) اى اذبنا له عين النحاس قال أهل التفسير أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام بلياليهن كجرى الماء وكان بارض اليمن وقيل اذاب الله لسليمان النحاس كما ألان لداود الحديد (ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه) اى بامر ربه قال ابن عباس سخر الله الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به (ومن يزغ) اى يعدل (منهم) من الجن (عن أمرنا) اى الذى أمرناه به من طاعة سليمان (نذقه من عذاب السعير) قيل هذا فى الآخرة وقيل فى الدنيا وذلك ان الله تعالى وكل بهم ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ منهم عن طاعة سليمان ضربه بذلك السوط ضربة أحرقته (يعملون له ما يشاء من محاريب) اى مساجد وقيل هى الابنية المرتفعة والقصور والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال وكان مما عملوا له بيت المقدس وذلك ان داود عليه الصلاة والسلام ابتدأه ورفعه قامة رجل فاوحى الله اليه لم أقض ذلك على يدك ولكن ابن لك اسمه سليمان أقضى اتمامه على يديه فلما توفى داود عليه السلام واستخلف سليمان عليه الصلاة والسلام احب اتمام بيت المقدس فجمع الجن والشياطين وسخر عليهم الاعمال وخص كل طائفة بعمل فارسل الجن والشياطين فى تحصيل الرخام والبلور من معادنهما وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح وجعلها اثنى عشر ربضا وانزل على كل ربض منها سبطا من الاسباط فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ فى بناء المسجد فوجه الشياطين فرقا منهم من يستخرج الذهب والفضة من معادنهما ومنهم من يستخرج الجواهر واليواقيت والدر الصافى من اماكنها ومنهم من يأتيه بالمسك والعنبر والطيب من اماكنها فاتى من ذلك بشئ كثير لا يحصيه الا الله تعالى ثم أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الاحجار وتصييرها ألواحا واصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللآلئ فبنى المسجد بالرخام الابيض والاصفر والاخضر وعمده باساطين البلور الصافى وسقفه بانواع الجواهر الثمينة وفصص سقوفه وحيطانه باللآلئ واليواقيت وسائر الجواهر وبسط أرضه بالواح الفيروزج فلم يكن على وجه تلك الارض يومئذ بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد فكان يضئ فى الظلمة كالقمر ليلة البدر فلما فرغ منه جمع اليه احبار بنى اسرائيل وأعلمهم انه بناه لله تعالى وان كل شئ فيه خالص له واتخذ ذلك اليوم عيدا روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل حكما يوافق حكمه فاوتيه وسأل الله تعالى ملكا لا ينبغى لاحد من بعده فاوتيه وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه الا الصلاة فيه الا أخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه أخرجه النسائى ولغير النسائى سأل ربه ثلاثا فاعطاه اثنتين وانا أرجو ان يكون أعطاه الثالثة وذكر نحوه (قوله لا ينهزه) اى لا ينهضه الا الصلاة قالوا فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه الصلاة والسلام حتى غزاه بختنصر فخرب المدينة وهدم المسجد وأخذ ما فيه من الذهب والفضة وسائر انواع الجواهر وحمله الى دار ملكه بالعراق وبنى الشياطين لسليمان بالين قصورا وحصونا عجيبة من الصخر وقوله عز وجل (وتماثيل) اى ويعملون له تماثيل اى صورا من نحاس ورخام وزجاج قيل كانوا يصورون السباع والطيور وغيرها وقيل كانوا يصورون صور الملائكة والانبياء والصالحين فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة قيل يحتمل ان اتخاذ الصور كان مباحا فى شريعتهم وهذا مما يجوز ان يختلف فيه الشرائع لانه ليس من الامور القبيحة فى العقل كالقتل والظلم والكذب ونحوها مما يقبح فى كل الشرائع قيل عملوا له اسدين تحت كرسيه ونسرين فوقه فاذا أظله النسران باجنحتهما وكان التصوير مباحا حينئذ

(وجفان) جمع جفنة (كالجواب) جمع جابية وهى الحياض الكبار قيل كان يقعد على الجفنة الف رجل كالجوابى فى الوقف مكى ويعقوب وسهل وافق ابو عمر وفى الوصل الباقون بغير ياء كتفاء بالكسرة (وقدور راسيات) ثابتات على الاثافى عنها لعظمها وقيل انها باقية باليمن وقلنا لهم (اعملوا آل داود شكرا) اى ارجوا اهل البلاد واسألوا ربكم العافية عن الفضيل مفعول له اوحال اى شاكرين او اشكروا شكرا لان اعملوا فيه معنى اشكروا من حيث ان العمل للمنعم شكر له او مفعول به يعنى ا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم ٥٣٤ فاعملوا انتم شكرا وسئل الجنيد عن الشكر فقال بذل المجهود بين يدى المعبود (وقل عبادى) بسكون الياء حمزة وغيره بفتحها (الشكور) المتوفر على اداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقادا واعترافا وكدحا وعن ابن عباس رضى الله عنهما من يشكر على احواله كلها وقيل من يشكر على الشكر وقيل من يرى عجزه عن الشكر وحكى عن داود عليه السلام انه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتى ساعة من الساعات الا وانسان من آل داود قائم يصلى (فلما قضينا عليه الموت) اى على سليمان (مادلهم) اى الجن وآل داود (على موته الا دابة الارض) اى الارضة وهى دويبة يقال لها سرفة والارض فعلها فاضيفت اليه يقال أرضت الخشبة ارضا اذا أكلتها الارضة (تأكل منسأته) والعصا تسمى منسأة لانه ينسأ بها اى يطرد ومنساته بغير همز مدنى وابو عمرو (فلما خر) سقط سليمان (تبينت الجن) علمت الجن كلهم علما بينا بعد التباس الامر على عامتهم وضعفتهم (ان لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا) بعد موت سليمان (فى العذاب المهين) وروى ان داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات قبل ان يتمه فوصى به الى سليمان فبناه الشياطين باتمامه فلما بقى من عمره سنة سأل ربه ان يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب وكان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقى فى ملكه اربعين سنة وابتدأ ببناء بيت المقدس لاربع مضين من ملكه وروى انه اراد ان يصعد كرسيه فلما دنا ضرب الاسدان ساقه فكسراها فلم يجسر احد بعده ان يدنو منه

أرادان يصعد بسط له الاسدان ذراعيهما واذا جلس أظلته النسران باجنحتهما وقيل عملوا له الطواويس والعقبان والنسور على درجات سريره وفوق كرسيه لكى يهابه من أراد الدنو منه (وجفان) اى كالحياض (كالجواب) اى كالحياض التى يجبى فيها الماء اى يجتمع قيل كان يقعد على الجفنة الواحدة الف رجل يأكلون منها (وقدور راسيات) اى ثابتات على اثافيها لاتحرك ولا تنزل عن اماكنها لعظمها يصعد اليها بالسلالم وكانت باليمن (اعملوا آل داود شكرا) اى وقلنا يا آل داود اعملوا بطاعة الله شكرا على نعمه قيل المراد من آل داود نفسه وقيل داود وسليمان وأهل بيته قال ثابت البنانى داود نبى الله عليه الصلاة والسلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتى ساعة من ليل او نهار الا وانسان من آل داود قائم يصلى (وقليل من عبادى الشكور) اى قليل العامل بطاعتى شكرا لنعمتى قوله تعالى (فلما قضينا عليه الموت) اى على سليمان قال العلماء كان سليمان يتجرد للعبادة فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه فدخل البيت التى مات فيها وكان سبب ذلك انه كان لا يصبح يوما الا وقد نبتت فى محرابه بيت المقدس شجرة فيسألها ما اسمك فتقول كذا وكذا فيقول لاى شئ خلقت فتقول لكذا وكذا فيأمر بها فتقطع فان كانت تنبت للدواء أمر بها فغرست وان كانت لدواء كتب ذلك حتى نبتت الخروبة فقال لها ما أنت قالت أنا الخروبة ولاى شئ نبت قالت لخراب مسجدك قال سليمان ما كان الله ليخربه وأنا حى أنت التى على وجه هلاكى وخراب بيت المقدس ثم نزعها وغرسها فى حائط له ثم قال اللهم عم على الجن موتى حتى تعلم الانس ان الجن لا يعلمون الغيب وكانت الجن تخبر الانس انهم يعلمون من الغيب شيأ ويعلمون ما فى غد فدخل المحراب وقام يصلى على عادته متكئا على عصاه فمات قائما وكان للمحراب كوى من بين يديه ومن خلفه فكان الجن يعملون تلك الاعمال الشاقة التى كانوا يعملون فى حياة سليمان وينظرون اليه ويحسبون انه حى ولا ينكرون احتباسه عن الخروج الى الناس لطول صلاته وانقطاعه قبل ذلك فمكثوا يأتون بعد موته حولا كاملا حتى أكلت الارضة عصا سليمان فخر ميتا فعلموا بموته قال ابن عباس فشكرت الجن الارضة فهم يأتونها بالماء والطين فى جوف الخشب فذلك قوله تعالى (ما دلهم على موته الا دابة الارض) يعنى الارضة (تأكل منسأته) قال البخارى يعنى عصاه (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) معناه علمت الجن وأيقنت أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى التعب والشقاء مسخرين لسليمان وهو ميت ويظنونه حيا أراد الله تعالى بذلك ان يعلم الجن انهم لا يعلمون الغيب لانهم كانوا يظنون ذلك بجهلهم وقيل فى معنى الآية انه ظهر أمرهم وانكشف للانس انهم لا يعلمون الغيب لانهم كانوا قد شبهوا على الانس ذلك ذكر اهل التاريخ

لقد كان لسبأ) بالصرف بتأويل الحى وبعدمه أبو عمرو بتأويل القبيلة (فى مسكنهم) حمزة وحفص مسكنهم على وخلف وهو موضع بلادهم وأرضهم التى كانوا مقيمين فيها باليمن اومسكن كل واحد منهم غيرهم مساكنهم (آية) اسم كان (جنتان) بدل من آية وخبر مبتدا محذوف تقديره الآية جنتان ومعنى كونهما آية ان اهلهما لما اعرضوا عن شكر الله سلبهم الله النعمة

سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقى فى الملك مدة أربعين سنة وشرع فى بناء بيت المقدس لاربع سنين مضين من ملكه وتوفى وهو ابن ثلاث وخمسين * قوله عزوجل (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية) عن فروة ابن مسيك المرادى قال لما أنزل فى سبأ ما أنزل قال رجل يارسول الله وما سبأ أرض اوامرأة قال ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة فاما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة وأما الذين تيامنوا فالازد والاشعريون وحمير وكندة ومذحج وانمار فقال رجل يارسول الله وما انمار قال الذين منهم خثعم وبجيلة أخرجه الترمذى مع زيادة وقال حديث حسن غريب وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان فى مسكنهم اى بمأرب من أرض اليمن آية اى دلالة على وحدانيتنا وقدرتنا ثم فسر الآية فقال تعالى (جنتان) اى بستانان (عن يمين وشمال) اى عن يمين الوادى وشماله وقيل عن يمين من أتاهما وشماله وقيل كان لهم واد قد أحاطت به الجنتان (كلوا) اى قيل لهم كلوا (من رزق ربكم) اى من ثمار الجنتين قيل كانت المرأة تحمل مكتلها على رأسها فتمر بالجنتين فيمتلئ المكتل من أنواع الفواكه من غير ان تمس بيدها شيأ (واشكروا له) اى على ما رزقكم من النعمة واعملوا بطاعته (بلدة طيبة) اى أرض مأرب وهى سبأ بلدة طيبة فسيحة ليست بسبخة وقيل لم يكن يرى فى بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا حية ولا عقرب وكان الرجل يمر ببلدتهم وفى ثيابه القمل فيموت القمل من طيب الهواء (ورب غفور) قال وهب اى وربكم ان شكرتم على ما رزقكم رب غفور ان شكره قوله عزوجل (فأعرضوا) قال وهب أرسل الله اليهم ثلاثة عشر نبيا فدعوهم الى الله تعالى وذكروهم نعمه عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة فقولوا لربكم يحبس هذه النعمة عنا ان استطاع فذلك اعراضهم (فأرسلنا عليهم سيل العرم) العرم الذى لا يطاق قيل كان ماء أحمر أرسله الله تعالى عليهم من حيث شاء وقيل العرم السكر الذى يحبس الماء وقيل العرم الوادى قال ابن عباس ووهب وغيرهما كان لهم سد بنته بلقيس وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم فأمرت بواديهم فسد بالصخر والقار بين الجبلين وجعلت لهم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض وبنت دونه بركة ضخمة وجعلت فيها اثنى عشر مخرجا على عدة أنهارهم يفتحونها اذا احتاجوا الى الماء واذا استغنوا عنه سدوها فاذا جاءهم المطر اجتمع اليهم ماء اودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الاعلى ففتح فجرى ماؤه الى البركة فكانوا يسقون من الباب الاعلى ثم من الثانى ثم من الثالث الاسفل فلا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة فكانت تقسمه بينهم على ذلك فبقوا بعدها مدة فلما طغوا وكفروا سلط الله عليهم جرذا يسمى الخلد فنقب السد من أسفله فغرق الماء جنانهم وأخرب اراضهم وقال وهب رؤافيما يزعمون ويجدون فى علمهم ان الذى يخرب سدهم فارة فلم يتركوا فرجة بين حجرين الا ربطوا عندها هرة فلما جاء زمان ما أراد الله تعالى بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فارة حمراء كبيرة الى هرة من تلك الهر فراودتها حتى استأخرت عنها الهرة فدخلت فى الفرجة التى كانت عندها فتغلغلت فى السد وحفرت حتى أوهنت المسيل وهم لا يعلمون بذلك فلما جاء السيل وجد خللا فدخل منه حتى اقتلع السد وفاض الماء حتى علا أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل فغرقوا

لتعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا الى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم او جعلهما آية اى علامة دالة على قدرة الله واحسانه ووجوب شكره (عن يمين وشمال) اراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين فى تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بساتين البلاد العامرة اواراد بستانى كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) حكاية لما قال لهم انبياء الله المبعوثون اليهم اولما قال لهم لسان الحال اوهم احقاء بان يقال لهم ذلك ولما امرهم بذلك اتبعه قوله (بلدة طيبة ورب غفور) اى هذه البلدة التى فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذى رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره قال ابن عباس كانت سبا على ثلاث فراسخ من صنعاء وكانت اخصب البلاد

فخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيدها وتسير بين تلك الشجر فيمتلئ المكتل مما يتساقط فيه من الثمر وطيبها ليس فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ومن يمر بها من الغرباء يموت قمله لطيب هوائها (فأعرضوا) عن دعوة انبيائهم فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة (فأرسلنا عليهم سيل العرم) اى المطر الشديد او العرم اسم الوادى او هو الجرذ الذى نقب عليهم السكر قالوا لما سلط الله عليهم الجرذ فنقبه من اسفله فغرقهم

(و بدلناهم بجنتيهم) المذكورتين (جنتين) وتسمية البلد جنتين للمشاكلة وازدواج الكلام كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها (ذواتي أكل خمط) الاكل الثمر يثقل ويخفف وهو قراءة نافع ومكي والخمط شجر الاراك وقيل كل شجر ذي شوك (وأثل وشيء من سدر قليل) الأثل شجر يشبه الطرفاء اعظم منه واجود عودا ووجه من نون الاكل وهو غير ابي عمرو ان اصله ذواتي أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه اووصف الاكل بالخمط كأنه قيل ذواتي اكل بشع ووجه ابي عمرو ان اكل الخمط في معنى البر يروهو ثمر الاراك اذا كان غضا فكأنه قيل ذواتي بر يروالاثل والسدر معطوفان على اكل لا على خمط لان الاثل لا اكل له وعن الحسن قال السدر لانها اكرم ما يجتنى لانه يكون في الجنان (ذلك جزيناهم بما كفروا) اى جزيناهم ذلك بكفرهم فهو مفعول ثان مقدم (وهل يجازي الا الكفور) كما غيرابي بكر وهل نجازي الا الكفور ٥٣٦ غيرهم يعني وهل نجازي مثل هذا الجزاء الا من كفر النعمة ولم يشكرها او كفر بها اوهل يعاقب لان الجزاء وان كان عاما يستعمل في معنى المعاقبة وفي معنى الاثابة لكن المراد الخاص وهو العقاب وعن الضحاك كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما السلام (وجعلنا بينهم) بين سبا (وبين القرى التي باركنا فيها) بالتوسعة على اهلها في النعم والمياه وهي قرى الشام (قرى ظاهرة) متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لاعين الناظرين اوظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم وهي اربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبا الى الشام (وقدرنا فيها السير) اى جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم يقيل المسافر في قرية ويروح في أخرى الى ان يبلغ الشام (سيروا فيها) وقلنا لهم سيروا ولا تقولوا ثمة ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم اسبابه فكأنهم أمروا بذلك (ليالي وأياما آمنين) اى سيروا فيها ان شئتم بالليل وان شئتم بالنهار فان الامن فيها لا يختلف باختلاف الاوقات اى سيروا فيها آمنين لا تخافون عدوا ولا جوعا ولا عطشا وان تطاولت مدة سفركم وامتدت اياما وليالي (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) قالوا يا ليتها كانت بعيدة فنسير على نجائبنا ونربح في التجارات ونفاخر في الدواب والاسباب بطروا النعمة وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب بعد مكي وابو عمرو (وظلموا) بما قالوا (أنفسهم فجعلناهم أحاديث) يتحدث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم (ومزقناهم كل ممزق) وفرقناهم تفريقا اتخذه الناس مثلا مضروبا يقولون ذهبوا أيدي سبا وتفرقوا أيادي سبا فلحق غسان بالشام وانمار بيثرب وجذام تهامة والازد بعمان (ان في ذلك لآيات لكل صبار) عن المعاصي (شكور) للنعم اولكل مؤمن لان الايمان نصفان نصف شكر ونصف صبر

ومزقوا كل ممزق حتى صار وامثلا عند العرب يقولون ذهبوا ايدي سبا وتفرقوا أيادي سبا فلما قوله تعالى فارسلنا عليهم سيل العرم (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خمط) قيل هو شجر الاراك وثمره البرير وقيل كل نبت اخذ طعما من المرارة حتى لا يمكن أكله فهو خمط وقيل هو ثمر شجر يقال فسوة الضبع على صورة الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به (وأثل) قيل هو الطرفاء وقيل شجر يشبه الطرفاء الا انه أعظم منه (وشيء من سدر قليل) هو شجر معروف ينتفع بورقه في الغسل وثمره النبق ولم يكن السدر الذي بدلوه مما ينتفع به بل كان سدرا برياليا يصلح لشيء قيل كان شجر القوم من خير الشجر فصيره الله شر الشجر باعمالهم وهو قوله تعالى (ذلك جزيناهم بما كفروا) اى ذلك الذي فعلنا بهم جزاء كفرهم (وهل يجازي الا الكفور) اى هل يكافأ بعمله الا الكفور لله في نعمه قيل المؤمن يجزى ولا يجازي يجزى بحسناته ولا يكافأ بسيئاته (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها) اى بالماء والشجر وهي قرى الشام (قرى ظاهرة) اى متواصلة تظهر الثانية من الاولى لقربها منها قيل كان متجرهم من اليمن الى الشام فكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى وكانوا لا يحتاجون الى حمل زاد من سبا الى الشام وفيها كانت قراهم اربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبا الى الشام (وقدرنا فيها السير) اى قدرنا سيرهم بين هذه القرى فكان سيرهم في الغدو والرواح على قدر نصف يوم فاذا سار وا نصف يوم وصلوا الى قرية ذات مياه واشجار فكان ما بين اليمن والشام كذلك (سيروا) اى وقلنا لهم سيروا (فيها ليالي وأياما) اى في أي وقت شئتم (آمنين) اى لا تخافون عدوا ولا جوعا ولا عطشا فبطروا النعمة وسئموا الراحة وتمنوا ولم يصبروا على العافية فقالوا لو كانت جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن تشتهيها وطلبوا الكد والتعب الاسفار (فقالوا ربنا بعد بين أسفارنا) وقرئ باعد بين أسفارنا اى اجعل بيننا وبين الشام مفاوز وفلوات لنركب فيها الرواحل ونتزود الازواد فلما تمنوا ذلك عجل الله لهم الاجابة (وظلموا أنفسهم) اى بالبطر والطغيان (فجعلناهم أحاديث) اى عبرة لمن بعدهم يتحدثون بامرهم وشأنهم (ومزقناهم كل ممزق) اى فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق قيل لما غرقت قراهم تفرقوا في البلاد فاما غسان فلحقوا بالشام ومر الازد الى عمان وخزاعة الى تهامة ومر الاوس والخزرج الى يثرب وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الاوس والخزرج ولحق آل خزيمة بالعراق (ان في ذلك لآيات) اى لعبر ودلالات (لكل صبار) اى عن المعاصي (شكور) اى الله على نعمه قيل المؤمن صابر على البلاء شاكر

(ولقد صدق عليهم ابليس ظنه) بالتشديد كوفى اى حقق عليهم ظنه او وجده صادقا و بالتخفيف غيرهم اى صدق فى ظنه (فاتبعوه) الضمير فى عليهم واتبعوه لاهل سبا ولبنى آدم وقال المؤمنين بقوله (الا فريقا من المؤمنين) لقلتهم بالاضافة الى الكفار ولا تجد أكثرهم شاكرين (وما كان له عليهم) لابليس على الذين صار ظنه فيهم صدقا (من سلطان) من تسليط واستيلاء بالوسوسة (الا لنعلم) وجودا اما علمناه معدوما والتغير على المعلوم لا على العلم (من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك و ربك على كل شئ حفيظ) محافظ عليه وفعيل ومفاعل متآخيان (قل) لمشركى قومك (ادعوا الذين زعمتم من دون الله) اى زعمتموهم آلهة من دون الله فالمفعول الاول الضمير الراجع الى الموصول وحذف كما حذف فى قوله أهذا الذى بعث الله استخفافا الطول ٥٣٧ الموصول بصلته والمفعول الثانى آلهة وحذف لانه موصوف صفته من دون الله والموصوف يجوز حذفه واقامة الصفة مقامه اذا كان مفهوما فاذا مفعولا زعم محذوفان بسببين مختلفين والمعنى ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله من الاصنام والملائكة وسميتموهم باسمه والتجؤا اليهم فيما يعروكم كما تلتجؤن اليه وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته ثم أجاب عنهم بقوله (لا يملكون مثقال ذرة) من خير أو شر أو نفع او ضر (فى السموات ولا فى الارض ومالهم فيهما من شرك) ومالهم فى هذين الجنسين من شركة فى الخلق ولا فى الملك (ومالله) تعالى (منهم) من آلهتهم (من ظهير) من عون يعينه على تدبير خلقه يريد انهم على هذه

شاكر للنعماء وقيل المؤمن اذا أعطى شكر واذا ابتلى صبر * قوله عز وجل (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه) قيل على أهل سبأ وقيل على الناس كلهم (فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين) قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى المؤمنين كلهم لانهم لم يتبعوه فى أصل الدين وقيل هو خاص بالمؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه قال ابن قتيبة ان ابليس لما سأل النظرة فانظره الله تعالى قال لأغوينهم ولأضلنهم ولم يكن مستيقنا وقت هذه المقالة أن ما قاله فيهم يتم وانما قاله ظنا فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم وقال الحسن انه لم يسل عليهم سيفا ولا ضربهم بسوط انما وعدهم ومناهم فاغتروا (وما كان له عليهم من سلطان) اى ما كان تسليطنا اياه عليهم (الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) اى لنرى ونميز المؤمن من الكافر وأراد علم الوقوع والظهور اذ كان معلوما عنده لانه عالم الغيب (و ربك على كل شئ حفيظ) اى رقيب وقيل حفيظ بمعنى حافظ قوله تعالى (قل) أى قل يا محمد للكفار مكة (ادعوا الذين زعمتم) اى انهم آلهة (من دون الله) والمعنى ادعوهم ليكشفوا عنكم الضر الذى نزل بكم فى سنى الجوع ثم وصف عجز الآلهة فقال تعالى (لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض) يعنى من خير وشر ونفع وضر (ومالهم) اى للآلهة (فيهما) اى فى السموات والارض (من شرك) اى من شركة (ومالله) اى لله (منهم) اى من الآلهة (من ظهير) عون (ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) اى أذن الله له فى الشفاعة قاله تكذيبا للكفار حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقيل يجوز أن يكون المعنى الا لمن أذن الله فى أن يشفع له (حتى اذا فزع عن قلوبهم) معناه كشف الفزع وأخرج عن قلوبهم قيل هم الملائكة وسبب ذلك من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله تعالى (خ) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر فى السماء ضربت الملائكة باجنحتها افاذا فزع عن قلوبهم (قالوا ماذا قال ربكم قالوا) الذى قال (الحق وهو العلى الكبير) وللترمذى اذا قضى الله فى السماء أمر اضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله كانه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير قال الترمذى حديث حسن صحيح (قوله خضعانا) جمع خاضع وهو المنقاد المطمئن والصفوان الحجر الاملس عن ابن مسعود رضى الله عنه قال اذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفاة فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فاذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك فيقول الحق فيقولون الحق أخرجه ابو داود الصلصلة صوت الاجراس الصلبة بعضها على بعض وقيل انما يفزعون حذرا من قيام الساعة قيل كانت الفترة

الصفة من العجز فكيف يصح أن يدعوا كما يدعى و يرجوا كما يرجى (ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) اى أذن له الله يعنى الامن وقع الاذن للشفيع لاجله وهى اللام الثانية فى قولك أذن لزيد لعمرو اى لاجله وهذا تكذيب لقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله أذن له كوفى غير عاصم الا الاعمش (حتى اذا فزع عن قلوبهم) اى كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة فى أطلاق الاذن وفزع شامى اى الله تعالى والتفزيع ازالة الفزع وحتى غاية لما فهم من أن ثم انتظار اللاذن وتوقفا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أولا يؤذن لهم كانه قيل ينتظرون ويتوقعون مليا فزعين حتى اذا فزع عن قلوبهم (قالوا) سأل بعضهم بعضا (ماذا قال ربكم قالوا) قال (الحق) اى القول الحق وهو الاذن بالشفاعة لمن ارتضى (وهو العلى الكبير) ذو العلو والكبر يا ابليس للملك ولانبى أن يتكلم ذلك اليوم الا باذنه وأن يشفع الا لمن ارتضى

(قل من يرزقكم من السموات والارض قل الله) أمره بان يقررهم بقوله من يرزقكم ثم أمره بان يتولى الاجابة والاقرار عنهم بقوله يرزقكم الله وذلك للاشعار بانهم مقرون به بقلوبهم الا انهم ربما أبوا أن يتكلموا به لانهم ان نفوها بان الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم فلم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق وأمره أن يقول لهم بعد الالزام والالجام الذى ان لم يزد على اقرارهم بالسنتهم لم ينقاصر عنه (وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ومعناه وان أحد الفريقين من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الامرين من الهدى والضلال وهذا من الكلام ٥٣٨ المنصف الذى كل من سمعه من موال اومناف قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك

وفى درجه بعد تقدم ماقدم من التقرير دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو فى الضلال المبين ولكن التعريض أوصل بالمجادل الى الغرض ونحوه قولك للكاذب ان أحدنا لكاذب وخولف بين حرفى الجر الداخلين على الهدى والضلال لان صاحب الهدى كانه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال كانه ينغمس فى ظلام لا يرى أين يتوجه (قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون) هذا أدخل فى الانصاف من الاول حيث أسند الاجرام الى المخاطبين وهو مزجور عنه محظور والعمل الى المخاطبين وهو مأمور به مشكور (قل يجمع بيننا ربنا) يوم القيامة (ثم يفتح) يحكم (بيننا بالحق) بلا جور ولا ميل (وهو الفتاح) الحاكم (العليم) بالحكم (قل أروني الذين ألحقتم) اى ألحقتموهم (به) بالله (شركاء) فى العبادة معه ومعنى قوله أروني وكان يراهم ان يريهم الخطأ العظيم فى الحاق الشركاء بالله وأن يطلعهم على حالة الاشراك به (كلا) ردع وتنبيه اى ارتدعوا عن هذا القول وتنبهوا عن ضلالكم (بل هو الله العزيز) الغالب فلا يشاركه أحد وهو ضمير الشأن (الحكيم) فى تدبيره (وما أرسلناك الا كافة للناس) الا رسالة عامة لهم محيطة بهم لانها اذا شملتهم فقد كفتهم ان يخرج منها أحد منهم وقال الزجاج معنى الكافة فى اللغة الاحاطة والمعنى أرسلناك جامعا للناس فى الانذار والابلاغ فجعله حالا من الكاف والتاء على هذا للمبالغة كتاء الراوية والعلامة

بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة سنة أو ستمائة سنة لم تسمع الملائكة فيها صوت وحى فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم كلم جبريل بالرسالة الى محمد صلى الله عليه وسلم فلما سمعت الملائكة ظنوا انها الساعة لان محمدا صلى الله عليه وسلم عند أهل السموات من أشراط الساعة فصعقوا مما سمعوا خوفا من قيام الساعة فلما انحدر جبريل جعل يمر باهل كل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤسهم ويقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم قالوا قال الحق يعنى الوحى وهو العلى الكبير وقيل الموصوفون بذلك هم المشركون وقيل اذا كشف الفزع عن قلوبهم عند نزول الموت قالت الملائكة لهم ماذا قال ربكم فى الدنيا لاقامة الحجة عليهم قالوا الحق فاقروا به حين لم ينفعهم الاقرار وهو العلى الكبير أى ذو العلو والكبرياء * قوله عز وجل (قل من يرزقكم من السموات والارض) يعنى المطر والنبات (قل الله) يعنى ان لم يقولوا ان رازقنا هو الله فقل أنت ان رازقكم هو الله (وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) معناه ما نحن وأنتم على أمر واحد بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال وهذا ليس على طريق الشك بل على جهة الالزام والانصاف فى الحجاج كما يقول القائل أحدنا كاذب وهو يعلم انه صادق وصاحبه كاذب فالنبى صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه على الهدى ومن خالفه فى ضلال فكذبهم من غير أن يصرح بالتكذيب ومنه بيت حسان

أتهجوه ولست له بكفء * فشركما لخيركما الفداء

وقيل أو بمعنى الواو ومعنى الآية انا لعلى هدى وانكم لفى ضلال مبين (قل لا تسئلون عما أجرمنا) اى لا تؤاخذون به (ولا نسئل عما تعملون) اى من الكفر والتكذيب وقيل أراد بالاجرام الصغائر والزلات التى لا يخلو منها مؤمن وبالعمل الكفر والمعاصى العظام (قل يجمع بيننا ربنا) يعنى يوم القيامة (ثم يفتح) اى يقضى ويحكم (بيننا بالحق) اى بالعدل (وهو الفتاح) اى القاضى (العليم) اى بما يقضى (قل أروني) اعلموني (الذين ألحقتم به) اى بالله (شركاء) اى الاصنام التى أشركوها معه فى العبادة هل يخلقون أو يرزقون وأراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم فى الحاق الشركاء بالله (كلا) كلمة ردع لهم عن مذهبهم والمعنى ارتدعوا فانهم لا يخلقون ولا يرزقون (بل هو الله العزيز) اى الغالب على أمره (الحكيم) اى فى تدبير خلقه فانى يكون له شريك فى ملكه * قوله عز وجل (وما أرسلناك الا كافة للناس) اى للناس كلهم عامة أحرهم وأسودهم عربيهم وعجميهم وقيل ارسالة عامة لهم لانها اذا شملتهم فقد كفتهم ان يخرج منها أحد (ق) عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا فايما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة * فى الحديث بيان الفضائل التى خص الله بها نبينا محمدا صلى الله عليه

(بشيرا) بالفضل لمن أقر (ونذيرا) بالعدل لمن أصر (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فيحملهم جهلهم على مخالفتك (ويقولون متى هذا الوعد) اى القيامة المشار اليها فى قوله قل يجمع بيننا ربنا (ان كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم) الميعاد ظرف الوعد من مكان اوزمان وهو هنا الزمان ويدل عليه قراءة من قرأ ميعاد يوم فابدل منه اليوم وأما الاضافة فاضافة تبيين كما تقول بعير سانية (لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) اى لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال ولا التقدم اليه بالاستعجال ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم انهم سألوا عن ذلك وهم منكرون له تعنتا لا استرشادا فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقا للسؤال على الانكار والتعنت وانهم مرصدون ليوم يفاجئهم ولا يستطيعون تأخرا عنه ولا تقدما عليه (وقال الذين كفروا) اى ابو جهل وذووه (لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) اى ما نزل قبل القرآن من كتب الله او القيامة والجنة والنار حتى انهم جحدوا أن يكون القرآن من الله وان يكون لما دل عليه من الاعادة للجزاء حقيقة (ولو ترى اذ الظالمون موقوفون) محبوسون (عند ربهم يرجع) يرد (بعضهم الى بعض القول) فى الجدال أخبر عن عاقبة امرهم وما آلهم فى الآخرة فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل مخاطب ولو ترى فى الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب فحذف الجواب (يقول الذين استضعفوا) اى الاتباع ٥٣٩ (للذين استكبروا) اى للرؤس والمقدمين (لولا أنتم لكنا مؤمنين) لولا دعاؤكم اياانا الى الكفر لكنا مؤمنين بالله ورسوله (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى) أولى الاسم اى نحن حرف الانكار لان المراد انكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الايمان واثبات انهم هم الذين صدوا بانفسهم عنه وانهم أتوا من قبل اختيارهم (بعد اذ جاءكم) انما وقعت اذ مضافا اليها وان كانت اذ واذا من الظروف اللازمة للظرفية لانه قد اتسع فى الزمان ما لم يتسع فى غيره فاضيف اليها الزمان (بل كنتم مجرمين) كافرين لاختياركم وايثاركم الضلال على الهدى لا بقولنا وتسويلنا (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) لم يأت بالعاطف فى قال الذين استكبروا واوتى به فى وقال الذين استضعفوا لان الذين استضعفوا امر أولا كلامهم فجىء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف ثم جىء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الاول (بل مكر الليل والنهار) بل مكركم بنا بالليل والنهار فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول به واضافة المكر اليه اوجعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الاسناد المجازى اى الليل والنهار مكرا بطول السلامة فيهما حتى ظننا انكم على الحق (اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أشباها والمعنى ان المستكبرين لما أنكروا بقولهم أنحن صددناكم ان يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين واثبتوا بقولهم بل كنتم مجرمين ان ذلك بكسبهم واختيارهم كروا عليهم المستضعفون بقولهم بل مكر الليل والنهار فابطلوا اضرابهم باضرابهم كانهم قالوا ما كان الاجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا دائبا الليل والنهار وحملكم اياانا على الشرك واتخاذ الانداد (وأسروا الندامة) اضمروا أو أظهروا وهو من الاضداد وهم الظالمون فى قوله اذ الظالمون موقوفون يندم المستكبرون على ضلالهم واضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين (لما رأوا العذاب) الجحيم (وجعلنا الاغلال فى

عليه وسلم دون سائر الانبياء وان هذه الخمسة لم تكن لاحد ممن كان قبله من الانبياء وفيه اختصاصه بالرسالة العامة لكافة الخلق الانس والجن وكان النبى قبله يبعث الى قومه او الى أهل بلده فعمت رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم جميع الخلق وهذه درجة خص بها دون سائر الانبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وقيل فى معنى كافة اى كافا تكفهم عما هم عليه من الكفر فتكون الهاء للمبالغة (بشيرا) اى لمن آمن بالجنة (ونذيرا) اى لمن كفر بالنار (ولكن أكثر الناس لا يعلمون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) يعنى يوم القيامة (قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) معناه لا تتقدمون على يوم القيامة وقيل عن يوم الموت ولا تتأخرون عنه بان يزاد فى آجالهم او ينقص منها (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) يعنى التوراة والانجيل (ولو ترى) اى يا محمد (اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول) معناه ولو ترى فى الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ويتراجعونها بينهم (يقول الذين استضعفوا) وهم الاتباع (للذين استكبروا) وهم القادة والاشراف (لولا أنتم لكنا مؤمنين) يعنى أنتم منعتمونا عن الايمان بالله ورسوله (قال الذين استكبروا) اى أجاب المتبوعون فى الكفر (للذين استضعفوا أنحن صددناكم) اى منعناكم (عن الهدى) اى عن الايمان (بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين) اى بترك الايمان (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار) اى مكركم بنا فى الليل والنهار وقيل مكر الليل والنهار هو طول السلامة فى الدنيا وطول الامل فيها (اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له أندادا) اى هو قول القادة للاتباع ان ديننا الحق وان محمدا كذاب ساحر وهذا تنبيه للكفار ان تصير طاعة بعضهم لبعض فى الدنيا سبب عداوتهم فى الآخرة (وأسروا الندامة) اى اظهروها وقيل اخفوها وهو من الاضداد (لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال فى

أعناق الذين كفروا) اى فى أعناقهم فجاء بالصريح للدلالة على ما استحقوا به الاغلال (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) فى الدنيا (وما أرسلنا فى قرية من نذير) نبى (الا قال مترفوها) متنعموها ورؤساؤها (انا بما أرسلتم به كافرون) هذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به وانه لم يرسل قط الى أهل قرية من نذير الا قالوا له مثل ما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة وافتخروا بكثرة الاموال والاولاد كما قال (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) أرادوا انهم أكرم على الله من ان يعذبهم نظرا الى أحوالهم فى الدنيا وظنوا انهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله ولولا ان المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فابطل الله ظنهم بان الرزق فضل من الله يقسمه كيف يشاء فربما وسع على العاصى وضيق على المطيع وربما عكس وربما وسع عليهما أو ضيق عليهما فلا يتقاس عليهما أمر الثواب بقوله ٥٤٠ (قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) قدر الرزق تضييقه قال الله تعالى ومن قدر عليه رزقه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) اى وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتى وذلك ان الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث والزلفى والزلفة كالقربى والقربة ومحلها النصب على المصدر اى تقربكم قربة كقوله أنبتكم من الارض نباتا (الا من آمن وعمل صالحا) الاستثناء من كم فى تقربكم يعنى ان الاموال لا تقرب أحدا الا المؤمن الصالح الذى ينفقها فى سبيل الله والاولاد لا تقرب أحدا الا من علمهم الخير وفقههم فى الدين ورشحهم للصلاح والطاعة وعن ابن عباس الا بمعنى لكن ومن شرط جوابه (فاولئك لهم جزاء الضعف) وهو من اضافة المصدر الى المفعول أصله فاولئك لهم ان يجازوا الضعف غيره ثم جزاء الضعف ومعنى جزاء الضعف ان تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرا وقرأ يعقوب بجزاء الضعف على فاولئك لهم الضعف جزاء (بما عملوا) باعمالهم (وهم فى الغرفات) اى غرف منازل الجنة الغرفة جزة (آمنون) من كل هائل وشاغل (والذين يسعون فى آياتنا) فى ابطالها (معجزين أولئك فى العذاب محضرون قل ان ربى يبسط الرزق) يوسع (لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم) ما شرطية فى موضع النصب (من شئ) بيانه (فهو يخلفه) يعوضه لا معوض سواه اما عاجلا بالمال أو آجلا بالثواب جواب الشرط (وهو خير الرازقين) المطعمين لان كل مارزق غيره من سلطان او سيد او غيرهما فهو من رزق الله أجراه على أيدى هؤلاء وهو خالق الرزق وخالق الاسباب التى بها ينتفع المرزوق بالرزق ومن بعضهم الحمد لله الذى أوجدنى وجعلنى ممن يشتهى فكم من مشته لا يجد وواجد لا يشتهى

أعناق الذين كفروا) اى فى النار الاتباع والمتبوعين جميعا (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) اى من الكفر والمعاصى فى الدنيا * قوله عز وجل (وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها) اى رؤساؤها وأغنياؤها (انا بما أرسلتم به كافرون وقالوا) يعنى المترفين والاغنياء للفقراء الذين آمنوا (نحن أكثر أموالا وأولادا) يعنى لو لم يكن الله راضيا بما نحن عليه من الدين والعمل الصالح لم يخولنا أموالا وأولادا (وما نحن بمعذبين) اى ان الله قد أحسن الينا فى الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا فى الآخرة (قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى انه تعالى يبسط الرزق ابتلاء وامتحانا ولا يدل البسط على رضا الله تعالى ولا التضييق على سخطه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) اى انها كذلك (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) اى بالتى تقربكم عندنا تقريبا (الا) اى لكن (من آمن وعمل صالحا) قال ابن عباس يريد ايمانه وعلمه يقربه منى (فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) اى يضعف الله لهم حسناتهم فيجزى بالحسنة الواحدة عشرا الى سبعمائة (وهم فى الغرفات آمنون والذين يسعون فى آياتنا) اى يعملون فى ابطال حجتنا (معجزين) اى معاندين يحسبون انهم يعجزوننا ويفوتوننا (أولئك فى العذاب محضرون) * قوله عز وجل (قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه) اى يعطى خلفه اذا كان فى غير اسراف ولا تقتير فهو يخلفه ويعوضه لا معوض سواه اما عاجلا بالمال أو بالقناعة التى هى كنز لا ينفد واما بالثواب فى الآخرة الذى كل خلف دونه وقيل ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم من خير فهو يخلفه على المنفق قال مجاهد من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد فان الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما فى يده ثم يبقى طول عمره فى فقر ولا يتأول وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه فان هذا فى الآخرة ومعنى الآية ما كان من خلف فهو منه (ق) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى انفق ينفق عليك ولمسلم يا ابن آدم أنفق أنفق عليك (ق) عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا (م) عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله (وهو خير الرازقين) اى خير من يعطى ويرزق لان كل ما رزق

(ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون) وبالياء فيهما حفص ويعقوب هذا خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على المثل السائر * اياك اعنى واسمعى ياجاره * ونحوه قوله أأنت قلت للناس اتخذونى الآية (قالوا) اى الملائكة (سبحانك) تنزيها لك ان يعبد معك غيرك (أنت ولينا) الموالاة خلاف المعاداة وهى مفاعلة من الولى وهو القرب والولى يقع على الموالى والموالى جميعا والمعنى انت الذى نواليه (من دونهم) اذ لا موالاة بيننا وبينهم فبينوا باثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لان من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك (بل كانوا يعبدون الجن) اى الشياطين حيث اطاعوهم فى عبادة غير الله او كانوا يدخلون فى اجواف الاصنام اذا عبدت فيعبدون بعبادتها او صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا هذه صور الملائكة فاعبدوها (أكثرهم) اكثر الانس او الكفار (بهم) بالجن (مؤمنون فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) لان الامر فى ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه احد منفعة ولا مضرة لاحد لان الدار دار ثواب وعقاب والمثيب والمعاقب هو الله فكانت حالها خلاف حال الدنيا التى هى دار تكليف والناس فيها مخلى بينهم يتضارون ويتنافعون والمراد انه لا ضار ولا نافع يومئذ ٥٤١ الا هو ثم ذكر عاقبة الظالمين بقوله

غيره من سلطان يرزق جنده او سيد يرزق مملوكه اور جل يرزق عياله فهو من رزق الله اجراه الله على أيدى هؤلاء وهو الرازق الحقيقى الذى لا رازق سواه قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعا) يعنى هؤلاء الكفار (ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون) اى فى الدنيا وهذا استفهام تقريع وتقرير للكفار فتتبرأ الملائكة منهم من ذلك وهو قوله تعالى (قالوا سبحانك) اى تنزيها لك (أنت ولينا من دونهم) اى نحن نتولاك ولا نتولاهم فبينوا باثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم (بل كانوا يعبدون الجن) يعنى الشياطين فان قلت قد عبدوا الملائكة فكيف وجه قوله بل كانوا يعبدون الجن قلت أراد ان الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة فاطاعوهم فى ذلك فكانت طاعتهم للشياطين عبادة لهم وقيل صور والهم صورا وقالوا لهم هذه صور الملائكة فاعبدوها فعبدوها وقيل كانوا يدخلون فى أجواف الاصنام فيعبدون بعبادتها (أكثرهم بهم مؤمنون) اى مصدقون للشياطين قال الله تعالى (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا) اى شفاعة (ولا ضرا) اى بالعذاب يريد انهم عاجزون لا نفع عندهم ولا ضر (ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى يعنون القرآن (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين وما آتيناهم) يعنى هؤلاء المشركين (من كتب يدرسونها) اى يقرؤنها (وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير) اى لم يأت العرب قبلك نبى ولا أنزل اليهم كتاب (وكذب الذين من قبلهم) اى من الامم السالفة رسلنا (وما بلغوا) يعنى هؤلاء المشركين (معشار) اى عشر (ما آتيناهم) اى اعطينا الامم الخالية من القوة والنعمة وطول الاعمار (فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) اى انكارى عليهم يحذر بذلك كفار هذه الامة عذاب الامم الماضية * قوله عز وجل (قل انما أعظكم) اى آمركم وأوصيكم (بواحدة) اى بخصلة واحدة ثم بين تلك الخصلة فقال تعالى (ان تقوموا

(ونقول للذين ظلموا) بوضع العبادة فى غير موضعها معطوف على لا يملك (ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) فى الدنيا (واذا تتلى عليهم آياتنا) اى اذا قرئ عليهم القرآن (بينات) واضحات (قالوا) اى المشركون (ما هذا) اى محمد (الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا) اى القرآن (الا افك مفترى وقال الذين كفروا) اى وقالوا والعدول عنه دليل على انكار عظيم وغضب شديد (للحق) للقرآن او لامر النبوة كله (لما جاءهم) وعجزوا عن الاتيان بمثله (ان هذا) اى الحق (الا سحر مبين) بتوه على انه سحر ثم بتوه على انه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحرا (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) اى ما أعطينا مشركى مكة كتبا يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك (وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير) ولا أرسلنا اليهم نذيرا ينذرهم بالعقاب ان لم يشركوا ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله (وكذب الذين من قبلهم) اى وكذب الذين تقدموهم من الامم الماضية والقرون الخالية الرسل كما كذبوا (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) اى وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتى الاولون من طول الاعمار وقوة الاجرام وكثرة الاموال والاولاد (فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) للمكذبين الاولين فليحذروا من مثله وبالياء فى الوصل والوقف يعقوب اى فحين كذبوا رسلهم جاءهم انكارى بالتدمير والاستئصال ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم مستظهرون فما بال هؤلاء وانما قال فكذبوا وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم لانه لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكذيب واقدموا عليه جعل تكذيب الرسل مسببا عنه وهو كقول القائل اقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم (قل انما أعظكم بواحدة) بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله (أن تقوموا) على انه عطف بيان لها وقيل هو بدل وعلى هذين الوجهين هو فى محل الجر وقيل هو فى محل الرفع على تقدير وهى أن تقوموا او النصب على

تقدير أعني وأراد بقيامهم القيام عن مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقهم عن مجتمعهم عنده أو قيام القصد الى الشئ دون النهوض والانتصاب والمعنى انما أعظكم بواحدة ان فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهى أن تقوموا (لله) اى لوجه الله خالصا لا لحمية ولا عصبية بل لطلب الحق (مثنى) اثنين اثنين (وفرادى) فردا فردا (ثم تتفكروا) فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به أما الاثنان فيتفكر ان ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر الصدق والانصاف حتى يؤديهما النظر الصحيح الى الحق وكذلك الفرد يتفكر بنفسه بعدل ونصفة ويعرض فكره على عقله ومعنى تفرقهم مثنى وفرادى ان الاجتماع مما يشوش الخواطر ويعمى البصائر ويمنع من الرويه ويقل الانصاف فيه ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع الا نصرة المذهب وتتفكر معطوف على تقوموا (ما بصاحبكم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (من جنة) جنون والمعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة (ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) قدام عذاب شديد وهو عذاب الآخرة وهو كقوله عليه السلام بعثت بين يدى الساعة ثم بين ان لا يطلب أجرا على الانذار بقوله ٥٤٢ (قل ما سألتكم من أجر) على انذارى وتبليغى الرسالة (فهو لكم) جزاء الشرط تقديره اى شئ سألتكم من أجر كقوله ما يفتح الله للناس من رحمة ومعناه نفى مسئلة الاجر رأسا ونحو مالى فى هذا فهو لك اى ليس لى فيه شئ (ان أجرى) مدنى وشامى وابو بكر وحفص ويسكون الياء غيرهم (الا على الله وهو على كل شئ شهيد) فيعلم انى لا أطلب الاجر على نصيحتكم ودعائكم اليه الا منه (قل ان ربى يقذف بالحق) بالوحى والقذف توجيه السهم ونحوه بدفع واعتماد ويستعار لمعنى الالقاء ومنه وقذف فى قلوبهم الرعب ان اقذفيه فى التابوت ومعنى يقذف بالحق يلقيه وينزله الى انبيائه او يرمى به الباطل فيدمغه ويزهقه (علام الغيوب) مرفوع على البدل من الضمير فى يقذف او على انه خبر مبتدا محذوف (قل جاء الحق) الاسلام والقرآن (وما يبدئ الباطل وما يعيد) اى زال الباطل وهلك لان الابداء والاعادة من صفات الحى فعدمهما عبارة عن الهلاك والمعنى جاء الحق وزهق الباطل كقوله جاء الحق وزهق الباطل وعن ابن مسعود رضى الله عنه دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة وحول الكعبة أصنام فجعل يطعنها بعود معه ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد وقيل الباطل الاصنام وقيل ابليس لانه صاحب الباطل اولانه هالك كما قيل له الشيطان من شاط اذا هلك اى لا يخلق الشيطان ولا الصنم احدا ولا يعيده فالمنشئ والباعث هو الله ولما قالوا قد ضللت بتركك دين آبائك قال الله تعالى (قل ان ضللت) عن الحق (فانما أضل على نفسى) ان ضلالتى فى وعلى (وان اهتديت فبما يوحى الى ربى) اى فبتسديده بالوحى الى وكان قياس التقابل ان يقال وان اهتديت فانما اهتدى لها كقوله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولكن هما متقابلان معنى لان النفس كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها الا

لله) اى لاجل الله (مثنى) اى اثنين اثنين (وفرادى) اى واحدا واحدا (ثم تتفكروا) اى تجتمعوا جميعا فتنظروا وتحاوروا وتتفكروا فى حال محمد صلى الله عليه وسلم فتعلموا ان (ما بصاحبكم من جنة) ومعنى الآية انما أعظكم بواحدة ان فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهى ان تقوموا لله وليس المراد به القيام على القدمين ولكن هو الانتصاب فى الامر والنهوض فيه بالهمة فتقوموا لوجه الله خالصا ثم تتفكروا فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به أما الاثنان فيتفكر ان ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه لينظر فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتباع الهوى وأما الفرد فيفكر فى نفسه أيضا بعدل ونصفة هل رأينا فى هذا الرجل جنونا قط او جربنا عليه كذبا وقد علمتم ان محمدا صلى الله عليه وسلم ما به من جنة بل قد علمتم انه من أرجح قريش عقلا وأوزنهم حلما واحدهم ذهنا وأرصنهم رأيا واصدقهم قولا وأزكاهم نفسا وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به واذا علمتم ذلك كفاكم ان تطالبوه بآية واذا جاءها بين انه نبى نذير مبين صادق فيما جاء به وقيل تم الكلام عند قوله ثم تتفكروا اى فى السموات والارض فتعلموا ان خالقها واحد لا شريك له ثم ابتدأ فقال ما بصاحبكم من جنة (ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد قل ما سألتكم) اى على تبليغ الرسالة (من أجر) اى جعل (فهو لكم) اى لم أسألكم شيأ (ان أجرى) اى ثوابى (الا على الله وهو على كل شئ شهيد قل ان ربى يقذف بالحق) اى يأتى بالوحى من السماء فيقذفه الى الانبياء (علام الغيوب) اى خفيات الامور (قل جاء الحق) اى القرآن والاسلام (وما يبدئ الباطل وما يعيد) اى ذهب الباطل وزهق فلم تبق منه بقية تبدئ شيأ أو تعيده وقيل الباطل هو ابليس والمعنى لا يخلق ابليس احدا ابتداء ولا يعيده اذا مات وقيل الباطل الاصنام (قل ان ضللت فانما أضل على نفسى) وذلك ان كفار مكة كانوا يقولون له انك قد ضللت حين تركت دين آبائك فقال الله تعالى قل ان ضللت فيما تزعمون أنتم فانما أضل على نفسى اى انتم ضلالتى على نفسى (وان اهتديت فبما يوحى الى ربى

لامارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهدايته ربها وتوفيقه وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسوله ان يسنده الى نفسه لان الرسول اذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره اولى به (انه سميع) لما اقوله لكم (قريب) منى ومنكم يجازيني ويجازيكم (ولو ترى) جوابه محذوف اى لرأيت أمرا عظيما وحالا هائلة (اذ فزعوا) عند البعث او عند الموت او يوم بدر (فلا فوت) فلا مهرب او فلا يفوتون الله ولا يسبقونه (وأخذوا) عطف على فزعوا اى فزعوا واخذوا فلا فوت لهم او على لا فوت على معنى اذ فزعوا فلم يفوتوا واخذوا (من مكان قريب) من الموقف الى النار اذا بعثوا او من ظهر الارض الى بطنها اذا ماتوا او من صحراء بدر الى القليب (وقالوا) حين عاينوا العذاب آمنا به) بمحمد عليه السلام ومر وذكره فى قوله ما بصاحبكم من جنة او بالله (وانى لهم التناوش من مكان بعيد) التناوش التناول اى كيف يتناولون التوبة وقد بعدت عنهم يريد ان التوبة كانت تقبل منهم فى الدنيا وقد ذهبت الدنيا وبعدت من الآخرة وقيل هذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو ان ينفعهم ايمانهم فى ذلك الوقت كما نفع المؤمنين ايمانهم فى الدنيا مثلت حالهم بحال من يريد ان يتناول الشئ من غلوة كما يتناول الآخر من قيس ذراع التناوش بالهمز ابو عمرو وكوفى غير حفص همزة الواو لان كل واو مضمومة ضمتها لازمة ان شئت أبدلتها همزة وان شئت لم تبدل نحو قولك أدور وتقاوم وان شئت

٥٤٣

قلت ادؤر وتقاؤم وعن ثعلب التناؤش بالهمز التناول من بعد وبغير همز التناول من قرب (وقد كفروا به من قبل) من قبل العذاب او فى الدنيا (ويقذفون بالغيب) معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعنى وكانوا يتكلمون بالغيب او بالشئ الغائب يقولون لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار (من مكان بعيد) من الصدق او عن الحق والصواب او هو قولهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والامر الخفى لانهم لم يشاهدوا منه سحرا ولا شعرا ولا كذبا وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لان ابعد شئ مما جاء به السحر والشعر وأبعد شئ من عادته التى عرفت بينهم وجربت الكذب (ويقذفون بالغيب عن ابى عمرو على البناء للمفعول اى تأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم اياه وان شئت فعلقه بقوله وقالوا آمنا به على انه مثلهم فى طلبهم تحصيل ما عطلوه من الايمان فى الدنيا بقولهم آمنا فى الآخرة وذلك مطلب مستبعد ممن يقذف شيأ من مكان بعيد لا مجال للظن فى لحوقه حيث يريد ان يقع فيه لكونه غائبا عنه بعيدا ويجوز ان يكون الضمير فى آمنا به للعذاب الشديد فى قوله بين يدى عذاب شديد وكانوا يقولون ومانحن بمعذبين ان كان الامر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قاسين أمر الآخرة على امر الدنيا فهذا كان قذفهم بالغيب وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لان دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف (وحيل) وحجز (بينهم وبين ما يشتهون) من نفع الايمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة او من الرد الى الدنيا كما حكى عنهم بقوله ارجعنا نعمل صالحا والافعال التى هى فزعوا واخذوا وحيل كلها للمضى والمراد بها الاستقبال لتحقق وقوعه (كما فعل باشياعهم من قبل) باشباههم من الكفرة (انهم كانوا فى شك) من امر الرسل والبعث (مريب) موقع فى الريبة من أراب اذا أوقعه فى الريبة هذا رد على من زعم أن الله لا يعذب على الشك والله اعلم

اى من القرآن والحكمة (انه سميع قريب) قوله عز وجل (ولو ترى) اى يا محمد (اذ فزعوا) اى عند البعث اى حين يخرجون من قبورهم وقيل عند الموت (فلا فوت) اى لا يفوتوننا ولا نجاة لهم (وأخذوا من مكان قريب) قيل من تحت أقدامهم وقيل أخذوا من بطن الارض الى ظهرها وحيثما كانوا فانهم من الله قريب لا يفوتونه ولا يعجزونه وقيل من مكان قريب يعنى عذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وقيل هو خسف بالبيداء ومعنى الآية ولو ترى اذ فزعوا لرأيت أمرا تعتبر به (وقالوا آمنا به) اى حين عاينوا العذاب قيل هو عند اليأس وقيل هو عند البعث (وأنى لهم التناوش) اى التناول والمعنى كيف لهم تناول ما بعد عنهم وهو الايمان والتوبة وقد كان قريبا منهم فى الدنيا فضيعوه وقال ابن عباس يسألون الرد الى الدنيا فيقال وأنى لهم الرد الى الدنيا (من مكان بعيد) اى من الآخرة الى الدنيا (وقد كفروا به من قبل) اى بالقرآن وقيل بمحمد صلى الله عليه وسلم من قبل ان يعاينوا العذاب وأهوال القيامة (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) قيل هو الظن لان علمه غاب عنهم والمكان البعيد بعدهم عن علم ما يقولون والمعنى يرمون محمدا صلى الله عليه وسلم بما لا يعلمون من حيث لا يعلمون وهو قولهم انه شاعر ساحر كاهن لا علم لهم بذلك وقيل يرجمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) يعنى الايمان والتوبة والرجوع الى الدنيا ونعيمها وزهرتها (كما فعل باشياعهم) اى بنظرائهم ومن كان على مثل حالهم من الكفار (من قبل) اى لم تقبل منهم التوبة والايمان فى وقت اليأس (انهم كانوا فى شك) اى من البعث ونزول العذاب بهم (مريب) اى موقع الريبة والتهمة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(سورة الملائكة) مكية وهي خمس وأربعون آية *(بسم الله الرحمن الرحيم)* (الحمد لله) جد ذاته تعليما وتعظيما (فاطر السموات) مبتدئها ومبتدعها قال ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت ادرى معنى الفاطر حتى اختصم الى اعرابيان فى بئر فقال احدهما انا فطرتها اى ابتدأتها (والارض جاعل الملائكة رسلا) الى عباده (اولى) ذوى اسم جمع لذو وهو بدل من رسلا او نعت له (اجنحة) جمع جناح (مثنى وثلاث ورباع) صفات لاجنحة وانما لم تنصرف لتكرر العدل فيها وذلك انها عدلت عن ألفاظ الاعداد عن صيغ الى صيغ اخر كما عدل عمر عن عامر وعن تكرير الى غير تكرير وقيل للعدل والوصف والتعويل عليه والمعنى ان الملائكة طائفة أجنحتهم اثنان اثنان اى لكل واحد منهم جناحان وطائفة أجنحتهم ثلاثة ثلاثة ولعل الثالث يكون فى وسط القطر بين الجناحين يمدهما بقوة وطائفة أجنحتهم اربعة اربعة (يزيد فى الخلق) اى يزيد فى خلق الاجنحة وغيره (ما يشاء) وقيل هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن والخط الحسن والملاحة فى العينين والآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام فى الاعضاء وقوة فى البطش وحصافة فى العقل وجزالة فى الرأى وذلاقة فى اللسان ومحبة فى قلوب المؤمنين وما اشبه ذلك (ان الله على كل شئ قدير) قادر (ما يفتح الله للناس من رحمة) نكرت الرحمة للاشاعة والابهام كانه قال من أية رحمة رزق او مطر او صحة او غير ذلك (فلا ممسك لها) فلا احد يقدر على امساكها وحبسها واستعير الفتح للاطلاق والارسال الا ترى الى قوله (وما يمسك) يمنع ويحبس (فلا مرسل له) مطلق له (من بعده) من بعد امساكه وأنث الضمير الراجع الى الله الاسم المتضمن معنى الشرط على معنى الرحمة ثم ذكره حملا على اللفظ المرجع اليه اذ لا تأنيث فيه لان الاول فسر بالرحمة فحسن اتباع الضمير التفسير ولم يفسر الثانى فترك على اصل التذكير وعن معاذ مرفوعا لا تزال يد الله مبسوطة على هذه الامة ما لم يرفق خيارهم بشرارهم ويعظم برهم فاجرهم وتعن قراؤهم امراءهم على معصية الله فاذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم (وهو العزيز) الغالب القادر على الارسال والامساك (الحكيم) الذى يرسل ويمسك ما تقتضى الحكمة ارساله وامساكه (يا ايها الناس اذكروا) باللسان والقلب (نعمت الله عليكم) وهى التى تقدمت من بسط الارض كالمهاد ورفع السماء بلا عماد وارسال الرسل لبيان السبيل دعوة اليه وزلفة لديه والزيادة فى الخلق وفتح ابواب الرزق ثم نبه على رأس النعم وهو اتحاد المنعم بقوله (هل من خالق غير الله) برفع غير على الوصف لان خالق مبتدا خبره محذوف اى لكم وبالجر على وجزة على الوصف لفظا (يرزقكم) يجوز أن يكون مستأنفا ويجوز أن يكون صفة لخالق (من السماء) بالمطر (والارض) بانواع النبات (لا اله الا هو) جملة مفصولة لا محل لها (فأنى تؤفكون) فبأى وجه تصرفون عن التوحيد الى الشرك

(تفسير سورة فاطر)

وتسمى سورة الملائكة وهى مكية وخمس وأربعون آية وتسعمائة وسبعون كلمة وثلاثة آلاف ومائة وثلاثون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الحمد لله فاطر السموات والارض) اى خالقها ومبتدعها على غير مثال سبق (جاعل الملائكة رسلا) اى الى الانبياء (أولى أجنحة) اى ذوى اجنحة (مثنى وثلاث ورباع) اى بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة اجنحة وبعضهم له أربعة (يزيد فى الخلق ما يشاء) اى يزيد فى خلق الاجنحة ما يشاء قال عبد الله بن مسعود فى قوله لقد رأى من آيات ربه الكبرى قال رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح وقيل فى قوله يزيد فى الخلق ما يشاء هو حسن الصوت وقيل حسن الخلق وتمامه وقيل هو الملاحة فى العينين وقيل هو العقل والتمييز (ان الله على كل شئ قدير) اى مما يريد أن يخلقه قوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة) قيل المطر وقيل من خير ورزق (فلا ممسك لها) اى لا يستطيع احد حبسها (وما يمسك فلا مرسل له من بعده) اى لا يقدر أحد على فتح ما أمسك (وهو العزيز) اى فيما أمسك (الحكيم) اى فيما أرسل (م) عن المغيرة بن شعبة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دبر كل صلاة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد والجد الغنى والبخت اى لا ينفع المبخوت والغنى حظه وغناه لانهما منك انما ينفعه الاخلاص والعمل بطاعتك قوله عز وجل (يا ايها الناس اذكروا نعمت الله عليكم) قيل الخطاب لاهل مكة ونعمة الله عليهم اسكانهم الحرم ومنع الغارات عنهم (هل من خالق غير الله) اى لا خالق الا الله وهو استفهام تقرير وتوبيخ (يرزقكم من السماء) يعنى المطر (والارض) اى النبات (لا اله الا هو فأنى تؤفكون) اى من اين يقع لكم الافك والتكذيب بتوحيد الله وانكار البعث وانتم مقرون بان

(وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها وسلى رسوله بان له فى الانبياء قبله اسوة ولهذا نكر رسل اى رسل ذوو عدد كثير وأولو آيات ونذر وأهل اعمار طوال وأصحاب صبر وعزم لانه أسلى له وتقدير الكلام وان يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك لان الجزاء يتعقب الشرط ولو أجرى على الظاهر يكون سابقا عليه ووضع فقد كذبت رسل من قبلك موضع فتأس استغناء بالسبب عن المسبب اى بالتكذيب عن التأسى (والى الله ترجع الامور) كلام يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الامور الى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه ترجع بفتح التاء شامى وحمزة وعلى ويعقوب وخلف وسهل (يا أيها الناس ان وعد الله) بالبعث والجزاء (حق) كائن (فلا تغرنكم الحيوة الدنيا) فلا تخدعنكم الدنيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله (ولا يغرنكم بالله الغرور) اى الشيطان فانه يمنيكم الاماني الكاذبة ويقول ان الله غنى عن عبادتك وعن تكذيبك (ان الشيطان لكم عدو) ظاهر العداوة فعل بابيكم ما فعل وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بأحواله (فاتخذوه عدوا) فى عقائدكم وافعالكم ولا يوجدن منكم الا ما يدل على معاداته فى سركم وجهركم ثم لخص سر أمره وخطأ من أتبعه بان غرضه الذى يؤمه فى دعوة شيعته هو ان يوردهم مورد الهلاك بقوله ٥٤٥ (انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ثم كشف الغطاء فبنى الامر كله على الايمان وتركه فقال (الذين كفروا لهم عذاب شديد) اى فمن أجابه حين دعاه فله عذاب شديد لانه صار من حزبه اى اتباعه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ولم يجيبوه ولم يصيروا من حزبه بل عادوه (لهم مغفرة وأجر كبير) لكبر جهادهم ولما ذكر الفريقين قال لنبيه عليه السلام (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) بتزيين الشيطان كمن

الله خالقكم ورازقكم (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم (والى الله ترجع الامور) اى فيجزى المكذب من الكفار بتكذيبه قوله تعالى (يا أيها الناس ان وعد الله حق) يعنى وعد القيامة (فلا تغرنكم الحيوة الدنيا) اى لا تخدعنكم بلذاتها وما فيها عن عمل الآخرة وطلب ما عند الله (ولا يغرنكم بالله الغرور) اى لا يقل لكم اعملوا ما شئتم فان الله يغفر كل ذنب وخطيئة ثم بين الغرور من هو فقال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) اى عادوه بطاعة الله ولا تطيعوه فيما يأمركم به من الكفر والمعاصى (انما يدعو حزبه) اى اشياعه واولياءه (ليكونوا من أصحاب السعير) ثم بين حال موافقيه ومخالفيه فقال تعالى (الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) * قوله عز وجل (أفمن زين له سوء عمله) قال ابن عباس نزلت فى ابى جهل ومشركى مكة وقيل نزلت فى اصحاب الاهواء والبدع ومنهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وليس اصحاب الكبائر من الذنوب منهم لانهم لا يستحلونها ويعتقدون تحريمها مع ارتكابهم اياها ومعنى زين له شبه له وموه عليه قبيح عمله (فرآه حسنا) وفى الآية حذف مجازه أفمن زين له سوء عمله فرأى الباطل حقا كمن هداه الله فرأى الحق حقا والباطل باطلا (فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) ٣ وقيل مجاز الآية أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء والحسرة شدة الحزن على ما فات والمعنى لا تغتم بكفرهم وهلاكهم ان لم يؤمنوا (ان الله عليم بما يصنعون) فيه وعيد بالعقاب على سوء صنيعهم (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا) اى تزعجه من مكانه وقيل تجمعه وتجيء به (فسقناه) اى فنسوقه (الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها

لم يزين له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا فقال (فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وذكر الزجاج ان المعنى أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليه حسرة فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه او أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله فحذف لدلالة فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء عليه فلا تذهب نفسك يزيد اى لا تهلكها حسرات مفعول له يعنى فلا تهلك نفسك للحسرات وعليهم صلة تذهب كما تقول هلك عليه حبا ومات عليه حزنا ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لان المصدر لا تتقدم عليه صلته (ان الله عليم بما يصنعون) وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم (والله الذى أرسل الرياح) الريح مكى وحمزة وعلى (فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت) بالتشديد مدنى وحمزة وعلى وحفص وبالتخفيف غيرهم (فأحيينا به) بالمطر لتقدم ذكره ضمنا (الارض بعد موتها) يبسها وانما قيل فتثير لتحكى الحال التى تقع فيها اثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة الدالة على القدرة الربانية وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب وكذلك سوق السحاب الى البلد الميت واحياء الارض بالمطر بعد موتها لما كان من الدليل على القدرة الباهرة قيل فسقناه وأحيينا معدولا بهما عن لفظ الغيبة الى ما هو أدخل

٣ قوله وقيل مجاز الآية الى آخره يعلم مما ذكره الامام النسفى عن الزجاج انه غير ظاهر فتأمل اه

فى الاختصاص وأدل عليه

(كذلك النشور) الكاف فى محل الرفع اى مثل احياء الموات نشور الاموات قيل يحيى الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كما
الرجال تنبت منه اجساد الخلق (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) اى العزة كلها مختصة بالله عزة الدنيا وعزة الآخرة و
الكافرون يتعززون بالاصنام كما قال واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا والذين آمنوا بالسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كا
يتعززون بالمشركين كما قال الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا فبين أن لا
الا بالله والمعنى فليطلبها عند الله فوضع قوله لله العزة جميعا موضعه استغناء عنه به لدلالته عليه لان الشئ لا يطلب الا عند صاحبه وما
ونظيره قولك من أراد النصيحة فهى عند الابرار تريد فليطلبها عندهم الا انك أقمت ما يدل عليه مقامه وفى الحديث ان ربكم يقول
يوم أنا العزيز فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز ثم عرف ان ما يطلب به العزة هو الايمان والعمل الصالح بقوله (
يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ومعنى قوله اليه الى محل القبول والرضا وكل ما اتصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود او الى حيث لا ينفذ فيه الا حكمه والكلم الطيب كلمات التوحيد اى لا اله الا الله وكان القياس الطيبة ولكن كل جمع ليس بينه وبين واحده الا التاء يذكر ويؤنث والعمل الصالح العبادة الخالصة يعنى والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب فالرافع الكلم والمرفوع العمل لانه لا يقبل عمل الا من موحد وقيل الرافع الله والمرفوع العمل اى العمل الصالح يرفعه الله وفيه اشارة الى ان العمل يتوقف على الرفع والكلم الطيب يصعد بنفسه وقيل العمل الصالح يرفع العامل ويشرفه اى من أراد العزة فليعمل عملا صالحا فانه هو الذى يرفع العبد (والذين يمكرون السيئات) هى صفة لمصدر محذوف اى المكرات السيئات لان مكر فعل غير متعد لا يقال مكر فلان عمله والمراد مكر قريش به عليه السلام حين اجتمعوا فى دار الندوة كما قال الله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك الآية (لهم عذاب شديد) فى الآخرة (ومكر أولئك) مبتدا (هو) فصل (يبور) خبر اى ومكر أولئك الذين مكروا هو خاصة يبور اى يفسد ويبطل دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم واثبتهم فى قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم جميعا وحقق فيهم قوله تعالى ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وقوله ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله (والله خلقكم) اى أباكم (من تراب ثم) أنشأكم (من نطفة ثم جعلكم أزواجا) اصنافا او ذكرانا واناثا

كذلك النشور) اى مثل احياء الموات نشور الاموات روى ابن الجوزى فى تفسيره عن ابى رزين العقيلى قال قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه فقال هل مررت بواد أهلك محلا ثم مررت به يهتز خضرا قلت نعم قال كذلك يحيى الله الموتى وتلك آيته فى خلقه قوله تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) قيل معناه من كان يريد أن يعلم لمن العزة فلله العزة جميعا وقيل معناه من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله وهو دعاء الى طاعة من له العزة اى فليطلب العزة من عند الله بطاعته وذلك ان الكفار عبدوا الاصنام وطلبوا بها التعزز فبين الله أن لا عزة الا لله ولرسوله ولاوليائه المؤمنين (اليه) اى الى الله (يصعد الكلم الطيب) قيل هو قول لا اله الا الله وقيل هو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر روى البغوى باسناده عن ابن مسعود قال اذا حدثتكم حديثا أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عز وجل ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وتبارك الله الا أخذهن ملك تحت جناحه ثم يصعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة الا استغفروا لقائلهن حتى يجىء بها وجه رب العالمين ومصداقه من كتاب الله قوله اليه يصعد الكلم الطيب هذا حديث موقوف على ابن مسعود وفى اسناده الحجاج بن نصير ضعيف وقيل الكلم الطيب ذكر الله تعالى وقيل معنى اليه يصعد أى يقبل الله الكلم الطيب (والعمل الصالح يرفعه) قال ابن عباس اى يرفع العمل الصالح الكلم الطيب وقيل الكلم الطيب ذكر الله والعمل الصالح أداء الفرائض فمن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وليس الايمان بالتمنى وليس بالتحلى ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الاعمال فمن قال حسنا وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ومن قال حسنا وعمل صالحا يرفعه العمل ذلك بأن الله يقول اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وجاء فى الحديث لا يقبل الله قولا الا بعمل ولا قولا ولا عملا الا بنية وقيل الهاء فى يرفعه راجعة الى العمل الصالح أى الكلم الطيب يرفع العمل الصالح فلا يقبل عملا الا أن يكون صادرا عن توحيد وقيل معناه العمل الصالح يرفعه الله وقيل العمل الصالح هو الخالص وذلك ان الاخلاص سبب قبول الخيرات من الاقوال والافعال (والذين يمكرون السيئات) اى يعملون السيئات اى الشرك وقيل يعنى الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة وقيل هم اصحاب الرياء (لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) اى يبطل ويهلك فى الآخرة * قوله عز وجل (والله خلقكم من تراب) يعنى آدم (ثم من نطفة) يعنى ذريته (ثم جعلكم أزواجا) يعنى أصنافا ذكرانا

(وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه) هو في موضع الحال اى الا معلومة له (وما يعمر من معمر) اى وما يعمر من أحد وانما سماه معمرا لما هو صائر اليه (ولا ينقص من عمره الا في كتاب) يعني اللوح او صحيفة الانسان ولا ينقص زيد فان قلت الانسان اما معمر اى طويل العمر او منقوص العمر اى قصيره فاما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال فكيف صح قوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره قلت هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بافهام السامعين واتكالا على تسديدهم بعقولهم وانه لا يلتبس عليهم احالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس يقولون لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه الا بحق او تأويل الآية انه يكتب في الصحيفة عمره كذا كذا سنة ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي على آخره فذلك نقصان عمره وعن قتادة المعمر من يبلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة (ان ذلك) اى احصاءه او زيادة العمر ونقصانه (على الله يسير) سهل (وما يستوى البحران هذا) اى احدهما (عذب فرات) شديد العذوبة وقيل هو الذي يكسر العطش (سائغ شرابه) مرىء سهل الانحدار لعذوبته وبه يرتفع شرابه (وهذا ملح أجاج) شديد الملوحة وقيل هو الذي يحرق بملوحته (ومن كل) ومن كل واحد ٥٤٧ منهما (تأكلون لحما طريا) وهو السمك (وتستخرجون حلية تلبسونها) وهي اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه) في كل (مواخر) شواق للماء بجريها يقال مخرت السفينة الماء اى شقته وهي جمع ماخرة (لتبتغوا من فضله) من فضل الله ولم يجر له ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه (ولعلكم تشكرون) الله على ما آتاكم من فضله ضرب البحرين العذب والملح مثلين للمؤمن والكافر ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمه وعطائه

وانا ثا وقيل زوج بعضكم بعضا (وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه وما يعمر من معمر) اى لا يطول عمر أحد (ولا ينقص من عمره) اى عمر آخر وقيل ينصرف الى الاول قال سعيد بن جبير مكتوب في أم الكتاب عمر فلان كذا وكذا سنة ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى ينقطع عمره وقيل معناه لا يطول عمر انسان ولا يقصر الا في كتاب قال كعب الاحبار حين حضرت عمر الوفاة والله لود عامر ربه أن يؤخر أجله لآخر فقيل له ان الله تعالى يقول فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون قال هذا اذا حضر الاجل فاما قبل ذلك فيجوز أن يزاد ذلك وقرأ هذه الآية (الا في كتاب) يعني اللوح المحفوظ (ان ذلك على الله يسير) اى كتابة الآجال والاعمال على الله هين قوله تعالى (وما يستوى البحران) يعني العذب والمالح ثم وصفهما فقال (هذا عذب فرات) اى طيب يكسر العطش (سائغ شرابه) اى سهل في الحلق هنيء مرىء (وهذا ملح أجاج) اى شديد الملوحة يحرق الحلق بملوحته وقيل هو المر (ومن كل) يعني من البحرين (تأكلون لحما طريا) يعني السمك (وتستخرجون) اى من الملح دون العذب (حلية تلبسونها) يعني اللؤلؤ والمرجان وقيل نسب اللؤلؤ اليهما لانه يكون في البحر المالح عيون عذبة فتمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ منهما (وترى الفلك فيه مواخر) اى جوارى مقبلة ومدبرة بريح واحدة (لتبتغوا من فضله) اى بالتجارة (ولعلكم تشكرون) اى تشكرون الله على نعمه (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه) يعني الاصنام (ما يملكون من قطمير) هو لفافة النواة وهي القشرة الرقيقة التي تكون على النواة (ان تدعوهم) يعني الاصنام (لا يسمعوا دعاءكم) يعني انهم جماد (ولو سمعوا) اى على سبيل الفرض والتمثيل (ما استجابوا لكم) اى ما أجابوكم وقيل ما نفعوكم (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) اى يتبرؤن منكم ومن عبادتكم اياها (ولا ينبئك مثل خبير) يعني نفسه اى لا ينبئك أحد مثلي لاني عالم بالاشياء قوله تعالى

ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ثم يفضل البحر الاجاج على الكافر بانه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع فهو في طريقة قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او أشد قسوة ثم قال وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) يدخل من ساعات أحدهما في الآخر حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة والناقص تسعا (وسخر الشمس والقمر) اى ذلل اضواءهما وصوره لاستواء سيره (كل يجرى لاجل مسمى) اى يوم القيامة ينقطع جريهما (ذلكم) مبتدا (الله ربكم له الملك) أخبار مترادفة او الله ربكم خبر ان وله الملك جملة مبتداة واقعة في قران قوله (والذين تدعون من دونه) يعني الاصنام التي تعبدونها من دون الله يدعون قتيبة (ما يملكون من قطمير) هي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة (ان تدعوهم) اى الاصنام (لا يسمعوا دعاءكم) لانهم جماد (ولو سمعوا) على سبيل الفرض (ما استجابوا لكم) لانهم لا يدعون ما تدعون لهم من الالهية ويتبرؤن منها (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) باشراككم لهم وعبادتكم اياهم ويقولون ما كنتم اياانا تعبدون (ولا ينبئك مثل خبير) ولا ينبئك أيها المفتون باسباب الغرور كما ينبئك الله الخبير بخبايا الامور وتحقيقه ولا يخبرك بالامر مخبر هو مثل

خبير عالم به يريد ان الخبير بالامر وحده هو الذى يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به والمعنى ان هذا الذى أخبرتكم به من حال الاوثان
الحق لانى خبير بما أخبرت به (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله) قال ذو النون الخلق محتاجون اليه فى كل نفس وخطرة ولحظة وكبر
لا ووجودهم به وبقاؤهم به (والله هو الغنى) عن الاشياء أجمع (الحميد) المحمود بكل لسان ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض
الاستغناء ولهذا وصف نفسه بالغنى الذى هو مطعم الاغنياء وذكر الحميد ليدل به على انه الغنى النافع بغناه خلقه والجواد المنعم عليهم
ليس كل غنى نافعا بغناه الا اذا كان الغنى جوادا منعما واذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم قال سهل لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى
ولهم بالفقر فمن ادعى الغنى حجب عن الله ومن أظهر فقره أوصله فقره اليه فينبغى للعبد ان يكون مفتقرا بالسر اليه ومنقطعا عن الغير اليه
حتى تكون عبوديته محضة فالعبودية هى الذل والخضوع وعلامته ان لا يسأل من أحد وقال الواسطى من استغنى بالله لا يفتقر ومن
تعزز بالله لا يذل وقال الحسين على مقدار افتقار العبد الى الله يكون غنيا بالله وكلما ازداد افتقارا ازداد غنى وقال يحيى الفقر خير للعبد
من الغنى لان المذلة فى الفقر والكبر فى الغنى والرجوع الى الله بالتواضع والذلة خير من الرجوع اليه بتكثير الاعمال وقيل صفة
الاولياء ثلاثة الثقة بالله فى كل شئ والفقر اليه فى كل شئ والرجوع اليه من كل شئ وقال الشبلى الفقر يجر البلاء وبلاؤه كله عز (ان يشأ
يذهبكم) كلكم الى العدم فان غناه ٥٤٨ بذاته لا بكم فى القدم (ويأت بخلق جديد) وهو بدون حمدكم حميد (وما ذلك) الانشاء
والافناء (على الله بعزيز) بممتنع وعن ابن عباس يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيأ (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ولا تحمل نفس آثمة اثم نفس أخرى والوزر والوقر اخوان ووزر الشئ اذا حمله والوازرة صفة للنفس والمعنى ان كل نفس يوم القيامة لا تحمل الا وزرها الذى اقترفته لا تؤاخذ نفس بذنب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولى بالولى والجار بالجار وانما قيل وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى لان المعنى ان النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة الا حاملة وزرها لا وزر غيرها وقوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وارد فى الضالين المضلين فانهم يحملون اثقال اضلال الناس مع اثقال ضلالهم وذلك كله اوزارهم ما فيها شئ من وزر غيرهم الا ترى كيف كذبهم الله تعالى فى قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم بقوله وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ (وان تدع مثقلة) اى نفس مثقلة بالذنوب أحدا (الى حملها) ثقلها اى ذنوبها ليتحمل عنها بعض ذلك (لا يحمل منه شئ ولو كان) اى المدعو وهو مفهوم من قوله وان تدع (ذا قربى) ذا قرابة قريبة كاب أو ولد أو أخ والفرق بين معنى قوله ولا تزر وازرة وزر اخرى ومعنى وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شئ ان الاول دال على عدل الله فى حكمه وان لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها والثانى فى بيان انه لا غياث يومئذ لمن استغاث حتى ان نفسا قد اثقلتها الاوزار لو دعت الى ان يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث وان كان المدعو بعض قرابتها (انما تنذر الذين يخشون ربهم) اى انما ينتفع بانذارك هؤلاء (بالغيب) حال من الفاعل او المفعول اى يخشون ربهم غائبين عن عذابه او يخشون عذابه غائبا عنهم وقيل بالغيب فى السر حيث لا اطلاع للغير عليه (وأقاموا الصلوة) فى مواقيتها (ومن تزكى) تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصى (فانما يتزكى لنفسه) وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم واقامتهم الصلاة لانهما من جملة التزكى (والى الله المصير) المرجع وهو وعد للمتزكى بالثواب (وما يستوى الاعمى والبصير) مثل للكافر والمؤمن أو للجاهل والعالم (ولا الظلمات) مثل للكفر (ولا النور) للايمان (ولا الظل ولا الحرور)

(يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله) اى الى فضله واحسانه والفقير المحتاج الى من سواه والخلق كلهم محتاجون الى الله فهم الفقراء (والله هو الغنى) عن خلقه لا يحتاج اليهم (الحميد) اى المحمود فى احسانه اليهم المستحق بانعامه عليهم ان يحمدونه (ان يشأ يذهبكم) اى لاتخاذكم أندادا وكفركم بآياته (ويأت بخلق جديد) اى يخلق بعدكم من يعبده ولا يشرك به شيأ (وما ذلك على الله بعزيز) اى بممتنع (ولا تزر وازرة وزر أخرى) اى ان كل نفس يوم القيامة لا تحمل الا وزرها الذى اقترفته لا تؤاخذ بذنب غيرها فان قلت كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم قلت هذه الآية فى الضالين وتلك فى المضلين انهم يحملون أثقال من أضلوه من الناس مع اثقال أنفسهم وذلك كله من كسبهم (وان تدع مثقلة الى حملها) معناه وان تدع نفس مثقلة بذنوبها الى حمل ذنوبها غيرها (لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى) اى ولو كان المدعو ذا قرابة كالاب والام والابن والاخ قال ابن عباس يعلق الاب والام بالابن فيقول يا بنى احمل عنى بعض ذنوبى فيقول لا أستطيع حسبى ما على (انما تنذر الذين يخشون ربهم) اى يخافون ربهم (بالغيب) اى لم يروه والمعنى وانما ينفع انذارك الذين يخشون ربهم بالغيب (وأقاموا الصلوة ومن تزكى) اى أصلح وعمل خيرا (فانما يتزكى لنفسه) اى لها ثوابه (والى الله المصير وما يستوى الاعمى والبصير) اى الجاهل والعالم وقيل الاعمى عن الهدى وهو المشرك والبصير بالهدى وهو المؤمن (ولا الظلمات ولا النور) يعنى الكفر والايمان (ولا الظل ولا الحرور) يعنى الجنة والنار وقال

ابن

ق والباطل اوالجنة والنار والحرور الريح الحارة كالسموم الاان السموم تكون بالنهار والحرور بالليل والنهار عن الفراء (وما يستوى الاحياء ولا الاموات) مثل للذين دخلوا فى الاسلام والذين لم يدخلوا فيه وزيادة لا لتأكيد معنى النفى والفرق بين هذه الاموات ان بعضها ضمت شفعا الى شفع و بعضها وترا الى وتر (ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور) يعنى انه قد علم من يدخل فى الاسلام ممن لا يدخل فيه فيهدى من يشاء هدايته وأما أنت فحقك عليك أمرهم فلذلك تحرص على اسلام قوم مخذولين شبه الكفار بالموتى حيث لا ينتفعون بسموعهم (ان أنت الا نذير) اى ما عليك الا ان تبلغ وتنذر فان كان المنذر ممن يسمع الانذار نفع وان كان من المصرين فلا عليك (انا أرسلناك بالحق) حال من أحد الضميرين يعنى محقا أو محقين أو صفة للمصدر اى ارسالا ملتبسا بالحق (بشيرا) بالوعد (ونذيرا) بالوعيد (وان من أمة) ومامن أمة قبل أمتك والامة الجماعة الكثيرة وجد عليه أمة من الناس و يقال لاهل كل عصر أمة والمراد هنا أهل العصر وقد كانت آثار النذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام فلم تخل تلك الامم من نذير وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث محمد عليه السلام (الا خلا) مضى (فيها نذير) يخوفهم وخامة الطغيان وسوء عاقبة الكفران وا كتفى بالنذير عن البشير فى آخر الآية بعد ماذكرهما لان النذارة مشفوعة بالبشارة ٥٤٩ فدل ذكر النذارة على ذكر البشارة

ابن عباس الحرور الريح الحارة بالليل والسموم بالنهار (وما يستوى الاحياء ولا الاموات) يعنى المؤمنين والكفار وقيل العلماء والجهال (ان الله يسمع من يشاء) يعنى حتى يتعظ ويجيب (وما أنت بمسمع من فى القبور) يعنى الكفار شبههم بالاموات فى القبور لانهم لا يجيبون اذا دعوا (ان أنت الا نذير) اى ما أنت الا منذر تخوفهم بالنار (انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) اى بشيرا بالثواب لمن آمن ونذيرا بالعقاب لمن كفر (وان من أمة) اى من جماعة كثيرة فيما مضى (الا خلا) اى سلف (فيها نذير) اى نبى منذر فان قلت كم من أمة فى الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يخل فيها نذير قلت اذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير الا ان تندرس وحين اندرست آثار رسالة عيسى عليه السلام بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وآثار نذارته باقية الى يوم القيامة لانه لا نبى بعده (وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات) اى بالمعجزات الدالة على نبوتهم (وبالزبر) اى الصحف (وبالكتاب المنير) اى الواضح قيل أراد بالكتاب التوراة والانجيل والزبور وقيل ذكر الكتاب بعد الزبر تأكيدا (ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) يعنى المطر (فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) يعنى اجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب والرطب ونحوها وقيل يعنى ألوانها فى الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك مما لا يحصر ولا يعد (ومن الجبال جدد بيض وحمر) يعنى الخطط والطرق فى الجبال (مختلف ألوانها) يعنى منها ما هو أبيض ومنها ما هو احمر ومنها ما هو أصفر (وغرابيب سود) اى شديدة السواد كما يقال اسود غربيب تشبيها بلون الغراب (ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه) اى خلق مختلف ألوانه (كذلك) اى كاختلاف الثمرات والجبال وتم الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) قال ابن عباس يريد انما يخافنى من خلقى من علم جبروتى وعزتى وسلطانى وقيل

(وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم) رسلهم (جاءتهم رسلهم) حال وقد مضمرة (بالبينات) بالمعجزات (وبالزبر) وبالصحف (وبالكتاب المنير) اى التوراة والانجيل والزبور ولما كانت هذه الاشياء فى جنسهم أسند المجىء بها اليهم اسنادا مطلقا وان كان بعضها فى جميعهم وهى البينات و بعضها فى بعضهم وهى الزبر والكتاب وفيه مسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم (ثم أخذت) عاقبت (الذين كفروا) بانواع العقوبة (فكيف كان نكير) انكارى عليهم وتعذيبى لهم (ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به) بالماء (ثمرات مختلفا ألوانها) أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيآتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها (ومن الجبال جدد) طرق مختلفة اللون جمع جدة كمدة ومدد (بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) جمع غربيب وهو تأكيد للاسود يقال اسود غربيب وهو الذى ابعد فى السواد وأغرب فيه ومنه الغراب وكان من حق التأكيد ان يتبع المؤكد كقولك أصفر فاقع الا انه أضمر المؤكد قبله والذى بعده تفسير للمضمر وانما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريق الاظهار والاضمار جميعا ولا بد من تقدير حذف المضاف فى قوله ومن الجبال جدد اى ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود حتى يؤول الى قولك ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال ثمرات مختلفا الوانها (ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه) يعنى ومنهم بعض مختلف الوانه (كذلك) اى كاختلاف الثمرات والجبال ولما قال ألم تر ان الله انزل من السماء ماء وعدد آيات الله واعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الاجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته اتبع ذلك (انما يخشى الله من عباده العلماء) اى العلماء به الذين علموه بصفاته فعظموه ومن ازداد علما به ازداد منه خوفا ومن كان علمه به اقل كان آمن وفى الحديث اعلمكم بالله أشدكم له خشية وتقديم اسم

الله تعالى وتأخير العلماء يوزن ان معناه ان الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم ولو عكس لكان المعنى انهم لا يخشون الله كقوله ولا يخشون أحدا الا الله وبينهما تغاير ففي الاول بيان ان الخاشين هم العلماء وفي الثاني بيان ان المخشي منه هو الله تعالى وأبو حنيفة وابن عبد العزيز وابن سيرين رضي الله عنهم انما يخشى الله من عباده العلماء والخشية في هذه القراءة استعارة والمعنى انما يعظم الله من عباده العلماء (ان الله عزيز غفور) تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم واثابة أهل الطاعة والعفو عن المعاقب المثيب حقه ان يخشى (ان الذين يتلون كتاب الله) يداومون على تلاوة القرآن (وأقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) اى مسرين النفل ومعلنين الفرض يعني لا يقتنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به (يرجون) خبران (تجارة) هي طلب الثواب بالطاعة (لن تبور) لن تكسد يعني تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله (ليوفيهم) متعلق بلن تبور اى ليوفيهم بنفاقها (أجورهم) ثواب أعمالهم ... (ويزيدهم من فضله) بتفسيح القبور او بتشفيعهم فيمن أحسن اليهم او بتضعيف حسناتهم او بتحقيق وعد لقائه او يرجون في موضع الحال اى راجين واللام في ليوفيهم تتعلق بيتلون ومابعده اى فعلوا جميع ذلك من التلاوة واقامة الصلاة والانفاق لهذا الغرض وخبران (انه غفور) لفرطاتهم (شكور) اى غفور لهم شكور لاعمالهم ان يعطي الجزيل على العمل القليل (والذي اوحينا اليك من الكتاب) اى القرآن ومن للتبيين (هو الحق مصدقا) حال مؤكدة لان الحق لا ينفك من هذا التصديق (لما بين يديه) لما تقدمه من الكتب (ان الله بعباده لخبير بصير) فعلمك وابصر احوالك ورآك اهلا لان يوحى اليك مثل هذا الكتاب

زيد

المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب (ثم اورثنا الكتاب) اى اوحينا اليك القرآن ثم اورثناه من بعدك اى حكمنا بتوريثه (الذين اصطفينا من عبادنا) وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم الى يوم القيامة لان الله اصطفاهم على سائر الامم وجعلهم امة وسطا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء الى افضل رسله ثم رتبهم على مراتب فقال (فمنهم ظالم لنفسه) وهو المقصر في امر الله (ومنهم مقتصد) هو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا (ومنهم سابق بالخيرات) وهذا التأويل يوافق التنزيل فانه تعالى قال والسابقون الاولون من المهاجرين الآية وقال بعده وآخرون اعترفوا بذنوبهم الآية وقال بعده وآخرون مرجون لامر الله الآية والحديث فقد روي عن عمر رضي الله عنه انه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له وعنه عليه السلام السابق يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يظن انه لا ينجو ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة رواه ابو الدرداء والاثر فعن ابن عباس رضي الله عنهما السابق المخلص

* قوله عز وجل (ان الذين يتلون كتاب الله) اى يداومون على قراءته ويعملون ما فيه ويعملون به (وأقاموا الصلوة) اى ويقيمون الصلاة في أوقاتها (وأنفقوا مما رزقناهم) اى في سبيل الله (سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور) اى لن تفسد ولن تهلك والمراد من التجارة ما وعد الله من الثواب (ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله) قال ابن عباس سوى الثواب يعني مما لم ترعين ولم تسمع اذن (انه غفور شكور) قال ابن عباس يغفر العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم (والذي أوحينا اليك من الكتاب) يعني القرآن (هو الحق مصدقا لما بين يديه) اى من الكتب (ان الله بعباده لخبير بصير) قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب) اى أوحينا اليك الكتاب وهو القرآن ثم أورثناه يعني حكمنا بتوريثه وقيل أورثناه بمعنى نورثه (الذين اصطفينا من عبادنا) قال ابن عباس يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم لان الله اصطفاهم على سائر الامم واختصهم بكرامته بان جعلهم اتباع سيد الرسل وخصهم بحمل أفضل الكتب ثم قسمهم ورتبهم فقال تعالى (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) روى عن اسامة بن

والمقتصد المرائى والظالم الكافر بالنعمة غير الجاحد لها لانه حكم للثلاثة بدخول الجنة وقول السلف فقد قال الربيع بن أنس الظالم صاحب الكبائر والمقتصد صاحب الصغائر والسابق المجتنب لهما وقال الحسن البصرى الظالم من رجحت سيئاته والسابق من رجحت حسناته والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته وسئل ابو يوسف رحمه الله عن هذه الآية فقال كلهم مؤمنون

يد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم من هذه الامة ذكره البغوى بغير سند وعن ابى سعيد الخدرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال فى هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله قال هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم فى الجنة اخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وعن عمر بن الخطاب انه قرأ هذه الآية على المنبر ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له قال ابو قلابة أحد رواته فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه أخرجه البغوى بسنده وروى بسنده عن ثابت ان رجلا دخل المسجد فقال اللهم ارحم غربتى وآنس وحشتى وسق الى جليسا صالحا فقال أبو الدرداء ان كنت صادقا لانا أسعد بك منك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات قال أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب واما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالم لنفسه فيحبس فى المقام حتى يدخله الهم ثم يدخل الجنة ثم قرأ هذه الآية الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور وقال عقبة بن صهبان سألت عائشة عن قول الله عز وجل ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية فقالت يا بنى كلهم فى الجنة اما السابق فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم فجعلت نفسها معنا وقال ابن عباس السابق المؤمن المخلص والمقتصد المرائى والظالم الكافر نعمة الله غير الجاحد لها لانه حكم للثلاثة بدخول الجنة فقال جنات عدن يدخلونها وقيل الظالم هم أصحاب المشأمة والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق هم السابقون المقربون من الناس كلهم وقيل السابق من رجحت حسناته على سيئاته والمقتصد من استوت سيئاته وحسناته والظالم من رجحت سيئاته على حسناته وقيل الظالم من كان ظاهره خيرا من باطنه والمقتصد الذى استوى ظاهره وباطنه والسابق الذى باطنه خير من ظاهره وقيل الظالم التالى للقرآن ولم يعمل به والمقتصد التالى له العالم به والسابق القارئ له العالم به العامل بما فيه وقيل الظالم اصحاب الكبائر والمقتصد أصحاب الصغائر والسابق الذى لم يرتكب صغيرة ولا كبيرة وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم فان قلت لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق قلت قال جعفر الصادق بدأ بالظالمين اخبارا بانه لا يتقرب اليه الا بكرمه وان الظلم لا يؤثر فى الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين لانهم بين الخوف والرجاء ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم فى الجنة وقيل رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس لان احوال العباد ثلاثة معصية وغفلة ثم توبة ثم قربة فاذا عصى الرجل دخل فى حيز الظالمين فاذا تاب دخل فى جملة المقتصدين فاذا صحت توبته وكثرت عباداته ومجاهداته دخل فى عداد السابقين وقيل قدم الظالم لكثرة الظلم وغلبته ثم المقتصد قليل بالاضافة الى الظالمين والسابق أقل من القليل فلهذا أخرهم ومعنى سابق بالخيرات اى بالاعمال الصالحة الى الجنة اوالى رحمة الله (باذن الله) اى بأمر الله وارادته (ذلك هو الفضل الكبير) يعنى ايراثهم الكتاب واصطفاءهم ثم أخبر بثوابهم فقال تعالى (جنات عدن يدخلونها) يعنى الاصناف

واما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله والذين كفروا لهم نار جهنم وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده فانه قال فمنهم ومنهم ومنهم والكل راجع الى قوله الذين اصطفينا من عبادنا وهم اهل الايمان وعليه الجمهور وانما قدم الظالم للايذان بكثرتهم وان المقتصدين قليل بالاضافة اليهم والسابقون اقل من القليل وقال ابن عطاء انما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله وقيل انما قدمه ليعرفه ان ذنبه لا يبعده من ربه وقيل ان اول الاحوال معصية ثم توبة ثم استقامة وقال سهل السابق العالم والمقتصد المتعلم والظالم الجاهل وقال أيضا السابق الذى اشتغل بمعاده والمقتصد الذى اشتغل بمعاشه ومعاده والظالم الذى اشتغل بمعاشه عن معاده وقيل الظالم الذى يعبده على الغفلة والعادة والمقتصد الذى يعبده على الرغبة والرهبة والسابق الذى يعبده على الهيبة والاستحقاق وقيل الظالم من اخذ الدنيا حلالا كانت او حراما والمقتصد من يجتهد ان لا يأخذها الا من حلال والسابق من اعرض عنها جملة وقيل الظالم طالب الدنيا والمقتصد طالب العقبى والسابق طالب المولى (باذن الله) بأمره او بعلمه او بتوفيقه (ذلك) اى ايراث الكتاب (هو الفضل الكبير جنات عدن) خبر ثان لذلك او خبر مبتدا محذوف او مبتدأ والخبر (يدخلونها) اى الفرق الثلاثة يدخلونها ابو عمرو

(يحلون فيها من اساور) جمع اسورة جمع سوار (من ذهب ولؤلؤ) اى من ذهب مرصع باللؤلؤ ولؤلؤا بالنصب والهمزة وحفص عطفا على محل من أساور اى يحلون اساور ولؤلؤا (ولباسهم فيها حرير) لما فيه من اللذة والزينة (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) خوف النار أو خوف الموت او هموم الدنيا (ان ربنا لغفور) يغفر الجنايات وان كثرت (شكور) يقبل الطاعات وان قلت (الذى احلنا دار المقامة) اى الاقامة لا نبرح منها ولا نظعن فيها يقال أقمت اقامة ومقاما ومقامة (من فضله) من عطائه وافضاله لا باستحقاق (لا يمسنا فيها نصب) تعب ومشقة (ولا يمسنا فيها لغوب) اعياء من التعب وفترة وقرأ ابو عبد الرحمن السلمى لغوب بفتح اللام وهو ما يلغب منه اى لا نتكلف عملا يلغبنا ٥٥٢ (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا) جواب النفى ونصبه باضمار اى لا يقضى عليهم بموت ثان فيستريحوا (ولا يخفف عنهم من عذابها) من عذاب نار جهنم (كذلك) مثل ذلك الجزاء (نجزى كل كفور) يجزى كل كفور ابو عمرو (وهم يصطرخون فيها) يستغيثون فهو يفتعلون من الصراخ وهو الصياح يجهد ومشقة واستعمل فى الاستغاثة لجهر صوت المستغيث (ربنا) يقولون ربنا (أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) اى اخرجنا من النار وردنا الى الدنيا ثوم من بدل الكفر ونطع بعد المعصية فيجابون بعد قدر عمر الدنيا (اولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) يجوز ان يكون مانكرة موصوفة اى تعميرا يتذكر فيه من تذكر وهو متناول لكل عمر يتمكن منه المكلف من اصلاح شأنه وان قصر الا ان التوبيخ فى المتطاول أعظم ثم قيل هو ثمان عشرة سنة وقيل اربعون وقيل ستون سنة والطاعة

الثلاثة (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) تقدم تفسيره (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) قال ابن عباس حزن النار وقيل حزن الموت وقيل حزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات وأنهم لا يدرون ما يصنع بهم وقيل حزن زوال النعم وتقلب القلوب وخوف العاقبة وقيل حزن اهوال يوم القيامة وهموم الحصر والمعيشة فى الدنيا وقيل ذهب عن أهل الجنة كل حزن كان لهم فى الدنيا أو معاد روى البغوى بسنده عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس على أهل لا اله الا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم وكأنى باهل لا اله الا الله ينفضون التراب عن رؤسهم يقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن (ان ربنا لغفور شكور) يعنى غفر العظيم من الذنوب وشكر القليل من الاعمال (الذى احلنا) اى أنزلنا (دار المقامة) اى الاقامة (من فضله) اى لا باعمالنا (لا يمسنا فيها نصب) اى لا يصيبنا فيها عناء ولا مشقة (ولا يمسنا فيها لغوب) اى اعياء من التعب قوله تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا) اى فيستريحوا مما هم فيه (ولا يخفف عنهم من عذابها) اى من عذاب النار (كذلك نجزى كل كفور وهم يصطرخون) اى يستغيثون ويصيحون (فيها) يقولون (ربنا أخرجنا) اى من النار (نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) اى فى الدنيا من الشرك والسيئات فيقول الله تعالى توبيخا لهم (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) قيل هو البلوغ وقيل ثمان عشرة سنة وقيل أربعون سنة وقال ابن عباس ستون سنة ويروى ذلك عن على وهو العمر الذى أعذر الله تعالى لابن آدم (خ) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اعذر الله الى كل امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة وعنه باسناد الثعلبى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اعمار امتى ما بين الستين الى السبعين (وجاءكم النذير) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن قاله ابن عباس وقيل هو الشيب والمعنى اولم نعمركم حتى شبتم ويقال الشيب نذير الموت وفى الاثر ما من شعرة تبيض الا قالت لاختها استعدى فقد قرب الموت (فذوقوا) اى يقال لهم ذوقوا العذاب (فما للظالمين من نصير) اى مالهم من مانع يمنعهم من عذابه (ان الله عالم غيب السموات والارض انه عليم بذات الصدور) يعنى انه اذا علم ذلك وهو أخفى ما يكون فقد علم غيب كل شئ فى العالم قوله تعالى (هو الذى جعلكم خلائف فى الارض) اى يخلف بعضكم بعضا وقيل جعلكم امة خلفت من قبلها من الامم ورأت ما ينبغى ان يعتبر به وقيل جعلكم خلفاء فى أرضه وملكم منافعها ومقاليد التصرف فيها لتشكروه بالتوحيد والطاعة (وجاءكم النذير) الرسول عليه السلام او المشيب وهو عطف على معنى اولم نعمركم لان لفظه لفظ استخبار ومعناه اخبار كانه قيل قد عمرناكم وجاءكم النذير (فذوقوا) العذاب (فما للظالمين من نصير) ناصر يعينهم (ان الله عالم غيب السموات والارض) ما غاب فيهما عن العباد (انه عليم بذات الصدور) كالتعليل لانه اذا علم ما فى الصدور وهو أخفى ما يكون فقد علم كل غيب فى العالم وذات الصدور مضمراتها وهى تأنيث ذو فى نحو قول ابى بكر رضى الله عنه ذو بطن خارجة جارية اى ما فى بطنها من الحبل لان الحبل يصحب البطن وكذا المضمرات تصحب الصدور وذو موضوع لمعنى الصحبة (هو الذى جعلكم خلائف فى الارض) يقال للمستخلف خليفة ويجمع على خلائف والمعنى انه جعلكم خلفاء فى أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة

(فمن كفر) منكم وغمط مثل هذه النعمة السنية (فعليه كفره) فوبال كفره راجع عليه وهو مقت الله وخسار الآخرة كما قال (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا) وهو أشد البغض (ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) هلاكا وخسرانا (قل أرأيتم شركاءكم) آلهتكم التي أشركتموهم في العبادة (الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الارض) اروني بدل من أرأيتم لان معنى أرأيتم اخبروني كانه قيل اخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الشركة أروني اى جزء من اجزاء الارض استبدوا بخلقه دون الله (أم لهم شرك في السموات) أم لهم مع الله شركة في خلق السموات (أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه) اى معهم كتاب من عند الله ينطق بانهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب بينات على وابن عامر ونافع وابو بكر (بل ان يعد) ما يعد (الظالمون بعضهم) بدل من الظالمون وهم الرؤساء (بعضا) اى الاتباع (الا غرورا) هو قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) يمنعهما من ان تزولا لان الامساك منع (ولئن زالتا) على سبيل الفرض (ان أمسكهما) ما أمسكهما (من أحد من بعده) من بعد امساكه من الاولى مزيدة لتأكيد النفي والثانية للابتداء (انه كان حليما غفورا) غير معاجل ٥٥٣ بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا

والطاعة (فمن كفر) اى جحد هذه النعمة وغمطها (فعليه كفره) اى وبال كفره (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا) اى غضبا وقيل المقت أشد البغض (ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) اى في الآخرة (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) يعني الاصنام جعلتموها شركاء بزعمكم (أروني ماذا خلقوا من الارض) يعني أي جزء استبدوا بخلقه من الارض (أم لهم شرك في السموات) اى خلق في السموات والارض (أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه) اى على حجة وبرهان من ذلك (بل ان يعد الظالمون بعضهم) يعني الرؤساء (بعضا الا غرورا) يعني قولهم هؤلاء الاصنام شفعاؤنا عند الله * قوله عز وجل (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) اى لكي لا تزولا فيمنعهما من الزوال والوقوع وكانتا جديرتين بان تزولا وتهدا هذا العظم كلمة الشرك (ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده) اى ليس يمسكهما احد سواه (انه كان حليما غفورا) اى غير معاجل بالعقوبة حيث أمسكهما وكانتا قد همتا بعقوبة الكفار لولا حلمه وغفرانه (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) يعني كفار مكة وذلك لما بلغهم ان اهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم وأقسموا بالله لو جاءنا نذير لنكونن أهدى دينا منهم وذلك قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث محمد كذبوه فانزل الله هذه الآية وأقسموا بالله جهد أيمانهم (لئن جاءهم نذير) اى رسول (ليكونن أهدى من احدى الامم) يعني اليهود والنصارى (فلما جاءهم نذير) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (ما زادهم) مجيئه (الا نفورا) اى تباعدا عن الهدى (استكبارا في الارض) يعني عتوا وتكبرا عن الايمان به (ومكر السيئ) يعني عمل القبيح وهو اجتماعهم على الشرك وقيل هو مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا يحيق المكر السيئ الا باهله) اى لا يحل ولا يحيط الا باهله فقتلوا يوم بدر قال ابن عباس عاقبة الشرك لا تحل الا بمن أشرك (فهل ينظرون) اى ينتظرون (الا سنت الاولين) يعني أن ينزل العذاب بهم كما نزل بمن مضى من الكفار (فلن تجد لسنت الله تبديلا) اى تغييرا (ولن تجد لسنت الله تحويلا) اى تحويل العذاب عنهم الى غيرهم

جديرتين بان تهدا هذا لعظم كلمة الشرك كما قال تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض الآية (وأقسموا بالله جهد ايمانهم) نصب على المصدر اى اقساما بليغا او على الحال اى جاهدين في أيمانهم (لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم) بلغ قريشا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ان اهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من احدى الامم اى من الامة التي يقال فيها هي

احدى الامم تفضيلا لها على غيرها في الهدى والاستقامة كما يقال للداهية العظيمة هي احدى الدواهي (فلما جاءهم نذير) فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما زادهم الا نفورا) اى ما زادهم مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم الا تباعدا عن الحق وهو اسناد مجازي (استكبارا في الارض) مفعول له وكذا (ومكر السيئ) والمعنى وما زادهم الا نفورا للاستكبار ومكر السيئ او حال يعني مستكبرين وماكرين برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصل قوله ومكر السيئ وان مكروا السيئ اى المكر السيئ ثم ومكروا السيئ ثم ومكر السيئ والدليل عليه قوله (ولا يحيق) يحيط وينزل (المكر السيئ الا باهله) ولقد حاق بهم يوم بدر وفي المثل من حفر لاخيه جبا وقع فيه مكبا (فهل ينظرون الا سنت الاولين) وهو انزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الامم قبلهم والمعنى فهل ينظرون بعد تكذيبك الا ان ينزل بهم العذاب مثل الذي نزل بمن قبلهم من مكذبي الرسل جعل استقبالهم لذلك انتظارا له منهم (فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا) بين ان سنته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل سنة لا يبدلها في ذاتها ولا يحولها عن أوقاتها وان ذلك مفعول لا محالة

(أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) معناه انهم يعتبرون بمن مضى وبآثارهم وعلامات هلاكهم (وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه) اى ليفوت عنه (من شئ فى السموات ولا فى الارض انه كان عليما قديرا ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) اى من الجرائم (ما ترك على ظهرها) اى ظهر الارض (من دابة) اى من نسمة تدب عليها يريد بنى آدم وغيرهم كما اهلك من كان فى زمن نوح بالطوفان الا من كان فى السفينة (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) يعنى يوم القيامة (فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد أهل طاعته واهل معصيته وقيل بصيرا بمن يستحق العقوبة وبمن يستحق الكرامة والله سبحانه وتعالى اعلم بمراده وأسراد كتابه

(أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه فى مسايرهم الى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم (وكانوا أشد منهم) من اهل مكة (قوة) اقتدارا فلم يتمكنوا من الفرار (وما كان الله ليعجزه) ليسبقه ويفوته (من شئ) اى شئ (فى السموات ولا فى الارض انه كان عليما) بهم (قديرا) قادرا عليهم (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) بما اقترفوا من المعاصى (ما ترك على ظهرها) على ظهر الارض لانه جرى ذكر الارض فى قوله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الارض (من دابة) من نسمة تدب عليها (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) الى يوم القيامة (فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) اى لم تخف عليه حقيقة أمرهم وحكمة حكمهم والله الموفق للصواب

(تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع أوله سورة يس عليه الصلاة والسلام)

(فهرست الجزء الثالث من تفسير القرآن الشريف للإمام علي بن محمد المعروف بالخازن)

صحيفة

٢ تفسير سورة يوسف عليه الصلاة والسلام
٨ ذكر قصة ذهاب اخوة يوسف بيوسف عليه الصلاة والسلام
٥٢ تفسير سورة الرعد
٦١ فصل وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة (اى قوله تعالى ولله يسجد من فى السموات والارض الآية)
٧٥ تفسير سورة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام
٩٦ تفسير سورة الحجر
١٠٠ فصل اختلف العلماء هل كانت الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ام لا على قولين
١١٥ تفسير سورة النحل
١١٧ فصل احتج بهذه الآية من يرى تحريم لحوم الخيل (اى آية والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة)
١٢٩ فصل وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن
١٤٩ فصل فى حكم الآية (اى قوله تعالى من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان)
١٥٧ فصل اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة ام لا على قولين (اى قوله تعالى ادع الى سبيل ربك الآية)
١٥٧ تفسير سورة الاسراء
١٥٩ فصل فى ذكر حديث المعراج وما يتعلق به من الاحكام وما قال العلماء فيه
١٦٢ فصل قال البغوى قال بعض اهل الحديث ما وجدنا للبخارى ومسلم فى كتابيهما شيأ لا يحتمل مخرجا الا حديث شريك بن ابى نمر عن انس
١٦٣ فصل فى شرح بعض الفاظ حديث المعراج وما يتعلق به
١٦٥ فصل فى ذكر الآيات التى ظهرت بعد المعراج الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وسياق احاديث تتعلق بالاسراء
١٦٧ ذكر القصة فى هذه الآيات (اى الآيات التى اولها وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب)
١٧٦ فصل فى ذكر الاحاديث التى وردت فى بر الوالدين
١٩١ فصل فى الاحاديث الواردة فى قيام الليل
٢٠٢ تفسير سورة الكهف
٢٠٤ ذكر قصة أصحاب الكهف وسبب خروجهم اليه
٢٣٥ تفسير سورة مريم عليها السلام
٢٥٥ تفسير سورة طه
٢٧٤ الكلام على معنى الحديث وشرحه (اى حديث احتج آدم وموسى الخ)

77.3

FD a 11 / 3

صحيفة

٢٧٤ فصل فى بيان عصمة الانبياء وما قيل فى ذلك

٢٧٨ تفسير سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام

٢٩٠ ذكر القصة فى ذلك (اى قوله تعالى قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم الآية)

٢٩٤ ذكر قصة أيوب عليه السلام

٣٠٧ تفسير سورة الحج

٣٢٧ فصل فى حكم سجود التلاوة هنا (اى فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا الآية)

٣٢٩ تفسير سورة المؤمنين

٣٤٣ تفسير سورة النور

٣٦٤ فصل فى بيان التمثيل المذكور فى قوله تعالى الله نور السموات والارض الآية

٣٧٦ تفسير سورة الفرقان

٣٨٨ فصل وهذه السجدة من عزائم السجدات

٣٩٢ تفسير سورة الشعراء

٤١١ فصل فى مدح الشعر

٤١١ تفسير سورة النمل

٤٣٤ تفسير سورة القصص

٤٣٥ ذكر القصة فى ذلك (اى قوله تعالى وأوحينا الى ام موسى الخ)

٤٥٤ ذكر قصة قارون

٤٥٦ تفسير سورة العنكبوت

٤٧٠ تفسير سورة الروم

٤٨١ تفسير سورة لقمان

٤٨٨ تفسير سورة السجدة

٤٩١ فصل فى فضل قيام الليل والحث عليه

٤٩٤ تفسير سورة الاحزاب

٤٩٨ ذكر غزوة الخندق وهى الاحزاب

٥٠٧ ذكر غزوة بنى قريظة

٥١٢ فصل فى حكم الآية (اى قوله تعالى يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا الآية)

٥١٦ فصل فان قلت ماذكروه فى تفسير هذه الآية (اى قوله تعالى واذ تقول للذى أنعم الله عليه الخ)

٥٢٥ فصل فى صفة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وفضلها

٥٢٩ فصل فى الامانة

٥٣٠ تفسير سورة سبأ

٥٤٤ تفسير سورة فاطر وتسمى سورة الملائكة

3947-13-4 HRM83
(39)

(تمت)

DATE DUE

DEMCO 38-297



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY